المدخل

مباحث أخلاقية مهمة :

المبحث الأول : تعريف الأخلاق وتقسيمها.

المبحث الثاني : منزلة الأخلاق في الإسلام وخصائصها.

المبحث الثالث : الأخلاق وأنواعها في القرآن الكريم.

المبحث الرابع : مصادر الأخلاق على ضوء القرآن الكريم.

المبحث الخامس : النصوص المنوهة بخلق النبي ﷺ.

المبحث الأول

تعريف الأخلاق وتقسيمها إلى فطرية ومكتسبة

أ ـ تعريف الأخلاق :

التعريف اللغوي : الأخلاق جمع خُلُق ، بضم الخاء المعجمة ، وبضم اللام وبسكونها . والخُلُق يطلق في اللغة على معان هي: الدين ، والطبع ، والسجِّية(١) . والمروءة مأخوذة من الخلق وهو التقدير . قال ابن فارس(٢) : "الخاء واللام والقاف: أصلان ، يدل أحدهما على تقدير الشيء والآخر على ملاسته، أما الأول فيقال فيه: خلقت الأديم للسقاء إذا قدرته ... ومن ذلك: الخُلُق وهي السجية ؛ لأن صاحبها قد قُدِّر عليه، وفلان خليق بكذا، وأخلق به، وما أخلقه! أي هو ممن يُقَدَّر فيه ذلك، والخلاق: النصيب؛ لأنه قد قُدِّر لكل أحد نصيبه. أما الأصل الثاني فيقال فيه:صخرة خلقاء أي:ملساء...ومن هذا الباب:أخلق الشيء وخلَق وخلِق إذا بلي.."(٣) .

أو هو مأخوذ من الخَلْق بمعنى الإبداع من غير أصل ولا احتذاء .

قال الراغب(٤) في "المفردات": "والخَلْق يقال في معنى المخلوق، والخَلْق والخُلُق في الأصل واحد، كالشَّرب ، والشُّرب ، والصَّرم، والصُّرم، لكن خص الخلق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص الخُلُق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة"(٥) .

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٨٦/١٠ ، والقاموس المحيط للفيروز أبادي ٢٢٩/٣ كلاهما في مادة (خلق) .

(٢) هو أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني من أئمة اللغة والأدب له معجم مقاييس اللغة ، ومجمل اللغة وغيرهما، توفي سنة ٣٩٥هـ، انظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ص ١٥٣ ، والأعلام للزركلي ١٩٣/١

(٣) معجم مقاييس اللغة ٢١٣/٢ ـ ٢١٤ .

(٤) هو الحسين بن محمد بن المفضل أبوالقاسم الأصفهاني، كان أديبا من الحكماء العلماء الأئمة في ذلك له مؤلفات كثيرة، منها "المفردات" في غريب القرآن، والذريعة إلى مكارم الشريعة، وغيرهما توفي سنة ٥٠٢هـ. انظر الأعلام للزركلي ٢٥٥/٢ .

(٥) المفردات في غريب القرآن ص ١٥٨ .

أصل اشتقاقه :

فهو مأخوذ إما من الخَلْق بمعنى التقدير، لأن الخُلُق في الأصل غريزة مقدرة في كل إنسان على ما سيأتي بيانه(١) ، وهذا ما يفهم من الأصل **الأول** الذي ذكره **ابن فارس**، ويستفاد أيضا من كلام ابن الأثير(٢) في "النهاية" حيث قال:

"وحقيقته - أي الخُلُق - أنه لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها، بمنزلة الخَلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة، قال: والثواب والعقاب مما يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة .."(٣) .

أما الأصل الثاني الذي ذكره ابن فارس وهو الملاسة بمعنى اللين والنعومة، فيتفق مع أحد نوعي الخلق، وهو الخلق الحسن من حيث إن الخلق الحسن قائم على اللين وعدم الخشونة(٤). على أنه يمكن أن يكون من الخلاقة بمعنى الملاسة، فكأنه اسم لما مرن عليه الإنسان فأصبح عادة له فيكون شاملا للخلق بنوعيه: الحسن والقبيح(٥) والله أعلم .

التعريف الاصطلاحي :

أما تعريف الأخلاق في الاصطلاح، فهو يختلف باختلاف مشارب المعرفين ونزعاتهم،(٦)

---

(١) ص ٨

(٢) هو مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزري المحدث اللغوي الأصولي، صاحب "النهاية في غريب الحديث" و"جامع الأصول" وغيرهما توفي سنة ٦٠٦هـ، وهو غير أخويه: المؤرخ صاحب "الكامل"، والكاتب صاحب"المثل السائر". انظر بغية الوعاة ص ٣٨٥ ، والأعلام ٢٧٢/٤ .

(٣) النهاية لابن الأثير ٧٠/٢ .

(٤) انظر المصباح المنير للفيومي ٢٤٥/٢ .

(٥) انظر اتحاف السادة المتقن شرح إحياء علوم الدين للإمام الزبيدي ٣٢٨/٧ .

(٦) انظر النظام الأخلاقي في الإسلام للدكتور محمد عقله ص ١٣-١٩ حيث ذكر جملة كبيرة من تعاريف الأخلاق لكثير من المعرفين الإسلاميين والاجتماعيين والفلاسفة، وقد اخترت أهم التعاريف وأكثرها اتصالا بموضوعنا .

وأول تلك التعاريف، هو ذلك المشهور الذي رسمه ابن مسكويه(١) في كتابه "تهذيب الأخلاق" ونقله عنه غالب من أتى بعده .

فقال ابن مسكويه: "الخلق: حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا رويَّة"(٢) وهو بهذا التعريف يعكس نظرية الفلسفة اليونانية التي كان متشبعا بها،وهي غالبة على كتبه وأقواله(٣)، وذلك أنه لم ينظر إلى بواعث العمل التي ينبني عليها القول بأن العمل أخلاقي أو غيره، حيث جعل كل عمل للنفس وحال لها داخلا تحت مسمى "الخلق" بغض النظر عن كونه إراديا أو غير إرادي، مع أن الإرادة ركن أساسي في كون العمل خلقيا أو غيره، ومعلوم (أن للنفس قوىً مختلفة ووظائف متنوعة لا تندرج تحت قانون الأخلاق ألبتة. فهناك ملكات الإدراك والتفكير، والحكم، والتخيل، والتذكر . كما أن لها وجدانات وانفعالات وغرائز ونزعات، وهذه كلها لا تندرج تحت القانون الأخلاقي كما هو معلوم)(٤) وكلها يشملها التعريف الذي ذكره ابن مسكويه .

وقد أكد ابن مسكويه على دخول مثل هذه الأمور في مسمى الخلق بالتقسيم الذي ذكره لحال النفس حيث قال: "وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعيا من أصل المزاج كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو الغضب، ويهيج من أقل سبب، وكالإنسان الذي يجبن من أيسر شيء كالذي يفزع من صوت يطرق سمعه، أو يرتاع من خبر يسمعه، وكالذي يضحك ضحكا مفرطا من أدنى شيء يعجبه، وكالذي يغتم من أيسر شيء يناله. ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدريب وربما كان مبدؤه الروية والفكر ثم

---

(١) هو أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه ت ٤١٢هـ، وهو من فلاسفة المسلمين الذين تأثروا بفلسفة اليونان كأرسطاطاليس ونحوه، انظر الأعلام ٢١١/١ .

(٢) تهذيب الأخلاق ص ٢٥ .

(٣) انظر الاتجاه الأخلاقي في الإسلام لمقداد يالجن ص ٤٣، والأخلاق في الإسلام للدكتور يعقوب المليجي ص ١٠، والأخلاق عند الغزالي لزكي مبارك ص ٨٠ .

(٤) دراسات إسلامية في العلاقة الاجتماعية والدولية للدكتور محمد عبدالله دراز ص ٧٨-٨٨ بتصرف .

يستمر عليه أولا أولا حتى يصير ملكة وخلقا"(١) .

وقد تبعه على هذا التعريف كثير ممن أتى بعده ومنهم الإمام الغزالي(٢) حيث عرف الخلق بتعريف قريب من ذلك مع شيء من التفصيل فقال: "الخُلُق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر ورويَّة، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا، سميت الهيئة تلك: خلقا حسنا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة التي هي المصدر: خلقا سيئا"(٣) .

شرح التعريف :

وقد شرح الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ هذا التعريف وبين محترزاته فقال: "وإنما قلنا إنها ـ أي الأخلاق ـ هيئة راسخة؛ لأن من يصدر عنه بذل المال عن الندور لحاجة عارضة لا يقال: خلقه السخاء، ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ" قال:

"وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية؛ لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال: خلقه السخاء والحلم. ثم قال:

"وليس الخلق عبارة عن الفعل، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء .

وليس هو عبارة عن القوة؛ لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء، بل إلى الضدين واحد،وكل إنسان خلق بالفطرة قادر على الإعطاء والإمساك، وذلك لايوجب خلق البخل ولا خلق السخاء .

---

(١) تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ص ٢٥-٢٦ .

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الملقب بـ"حجة الإسلام" فيلسوف إسلامي متصوف، له كتب جامعة كثيرة بلغت نحو مائتي مؤلف، من أشهرها "إحياء علوم الدين" توفي سنة٥٠٥هـ، انظر طبقات الشافعية للسبكي ٤/١٠١-١٤٥ ط الحسينية، والأعلام ٧/٢٢ .

(٣) إحياء علوم الدين ٣/٤٦ .

وليس عبارة عن المعرفة؛ فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعا على وجه واحد، بل هو عبارة عن المعنى الرابع، وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل" قال: "فالخلق إذا عبارة عن هيئة وصورتها الباطنة"(١) .

فنرى أن الغزالي - رحمه الله - لم يخرج عن فحوى تعريف ابن مسكويه، وإن تغير أسلوبه وأوضح مقصوده، فقد تابعه على أن الخلق هو هيئة النفس وحالها في الجملة .

والحقيقة أن الخلق إذا كان مكتسبا، ليس صفة للنفس في جملتها، وإنما في جانب معين من جوانبها، وهو جانب القصد والإرادة، أما ما يصدر عن النفس مما هو غير مقصود ولا مراد، فلا توصف النفس عند صدوره عنها بأنها ذات خلق أو غيره، فتعريف الإمام الغزالي - رحمه الله - مع جمعه لضروب الأخلاق وأصنافها، جعل ميزان الأخلاق: العقل والشرع، بخلاف تعريف الفلاسفة إلا أنه غير مانع، حيث يدخل فيه ما ليس منه .

لذلك حاول الشيخ محمد عبدالله دراز(٢) أن يتفادى هذا الإيراد، فعرَّف الأخلاق بأنها: "قوة راسخة في النفس تنزع بها إلى اختيار ما هو خير وصلاح إن كان الخلق حميدا، أو إلى اختيار ما هو شر وجور إن كان الخلق ذميما"(٣) .

وبهذا التعريف تتميز الحقيقة الخُلُقية عن غيرها من الصفات النفسية التي لا تمُتُّ إلى الخلق بصلة "ألا ترى أن جودة الذاكرة أو ضعفها وسلامة الذوق أو سقمه، وبراعة الخيال أو تبذُّله ... لا مدخل لها في موازين الأخلاق، ولا يسري منها الحكم على صاحبها بأنه بر أو فاجر، تقي أو آثم ؟ .

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٤٦ .

(٢) الأزهري المصري كان من أعضاء هيئة كبار العلماء بالأزهر، له مؤلفات عدة منها "النبأ العظيم" و"دستور أخلاق القرآن و"المدخل إلى القرآن الكريم" ... وغيرها توفي في مدينة لاهور بباكستان سنة ١٣٧٧هـ، انظر الأعلام للزركلي ٦/٢٤٦ .

(٣) دراسات إسلامية د.محمد عبدالله درازص ٨٨ ، وانظر الأخلاق الإسلامية للشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني ١/١٠-١٦ ، وبالأخص ص ١٣-١٤ .

ثم ألا ترى أن من الأعمال الإرادية نفسها طائفة يستوي فعلها وتركها فتدخل بذلك في نطاق المباحات بحيث لا يترتب على فعلها مدح ولا ذم، ولا يقال لصاحبها إنه أحسن أو أساء، فهي خارجة أيضا عن موضوع البحث .

وكذلك الأعمال الإرادية التي يترتب عليها مدح أو ذم بمعناهما الأدبي والفني كإجادة البيان وإتقان التصوير أو إسائتهما فهنالك يكون للمدح والإحسان والإساءة أحكام تشابه في صورتها الأحكام الأخلاقية، ولكنها في المعنى ليست منها؛ لأن الذي لا يحسن التعبير أو التصوير لا يقال له إنه آثم أو شرير أو سيء الخلق(١) .

وكل هذه الأمور لا تخرج بالحد الذي وضعه ابن مسكويه أو الغزالي للأخلاق؛ لأنها صادرة عن النفس، ولا يسلم لهم بل لعلهم لا يقولون باندراجها في المعيار الأخلاقي، كما يفهم من شرح الغزالي للتعريف الذي ذكره .

وهي خارجة عن اندراجها في مسمى "الخلق" بهذا التعريف الذي ذكره الشيخ محمد عبدا لله دراز، غير أنه يرد على تعريف الشيخ دراز مع كونه مانعا لما قد يدخل في مسمى الخلق كما علمت، يرد عليه أنه غير جامع؛ لأنه لم يجعل المعيار الأخلاقي شرعيا بل ولا عقليا، كما أن فيه دورا حيث جعل توقف معرفة الخلق على معرفة كون الخلق حميدا أو ذميما، مع أن الخلق لم يتميز بعد .

التعريف المختار :

والتعريف الجامع المانع للأخلاق ـ فيما أرى ـ هو أن يجمع من تعريفي الإمام الغزالي والشيخ دراز ـ رحمهما ا لله ـ تعريفا يسلم إن شاء ا لله تعالى من الإيراد عليه، وذلك بأن يقال في تعريفه بأنه: "قوة في النفس راسخة تنزع بها في يسر وسهولة إلى اختيار ما هو خير وصلاح أو شر وجور، وذلك بمعيار الشرع الإلهي والفطرة السليمة»

فإن كان ذلك الفعل الصادر عن القوة الراسخة في النفس موافقا للشرع الإلهي والفطرة السليمة كان خلقا حسنا، وإن لم يكن كذلك كان خلقا سيئا .

---

(١) دراسات إسلامية ص ٨٨ .

فهذا التعريف يسلم من الإيراد عليه؛ لجمعه لأفراد المعرف، ومنع غيره من الدخول فيه فهو أسلم التعاريف في نظري والله أعلم .

ب ـ الأخلاق فطرية ومكتسبة :

ليس يخلو المرء عن أن يكون مفطورا على جِبِلَّة فطره الله تعالى عليها، حميدة كانت أو ذميمة، والناس في تلك الجِبِلاَّت متفاوتون في الحظوظ من تلك الأخلاق،قلة وكثرة.

وقد دل على فطرية الناس على الأخلاق ـ حسنها أو قبيحها ـ الكتاب والسنة .

أما الكتاب فقد دل على ذلك في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى في حديثه عن الإنسان: ﴿ إنَّا هديناه السبيلَ إمَّا شاكراً وإما كفُوراً ﴾ [الإنسان:٣] والشكر هو عنوان الأخلاق الحسنة لما فيه من الاعتراف بالنعم لمسديها وهو الحق سبحانه وتعالى، والثناء عليه بما هو أهله .

كما أن الكفران عنوان الأخلاق الذميمة، لما فيه من جحود لنعمه،وعدم الاعتراف بالحق لصاحب الحق وهو الله عز وجل .

ومنها قوله تعالى: ﴿ ونفسٍ وما سوَّاها * فألهمَها فُجُورها وتَقواها * قد أفلحَ من زكَّاها * وقد خابَ من دسَّاها ﴾ [الشمس:٧ـ١٠] فأخبر الله تعالى أنه ألهم كل نفس الفجور والتقوى، ومعنى ألهمها: عرَّفها ذلك، أو بيَّنه لها(١) والمعنى على كل: أنه سبحانه جعل أنفس البشر على نوعين: قابلة للخير، أو للشر، فالأولى هي التي يصدر عنها مكارم الأخلاق المعنون عليها بالتقوى التي هي جماع المكارم، والثانية هي التي يصدر عنها مساوئها والمعنون عليه بالفجور الذي هو عنوان كل رذيلة .

فدلت الآيتان على أن الإنسان مفطور على معرفة الخير أوالشر، وعلى تمييزه بينهما، وقد أمر بتزكية نفسه والالتزام بكل خلق حسن، ونُهي عن إفساد النفس بتجنب الأخلاق الفاسدة، ولذلك جعل الله تعالى الفلاح منوطا بمجاهدة النفس في التزكية، والخسران بإهمالها عن ذلك كما قال سبحانه: ﴿ قد أَفلحَ مَن زكَّاها * وقد خابَ مَن

---

(١) انظر تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٤٨١/٨ .

دسَّاها ﴾ ومعنى دساها: "حال بينها وبين فعل الخير"(١) .

وقد دعم هذه الدلالة القرآنية منطوق السنة النبوية، وذلك في أحاديث كثيرة منها ما يلي:

١ ـ ما رواه أبو هريرة(٢)رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: "الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فَقِهوا"(٣). فقوله: "الناس معادن" دليل على فروق الهبات الفطرية الخُلقية، وفيه يثبت الرسول صلى الله عليه وسلم أن خيار الناس في التكوين الفطري هم أكرمهم خُلُقا"(٤) . "والمراد بالخيار والشرف وغير ذلك: من كان متصفا بمحاسن الأخلاق كالكرم والعفة والحلم وغيرها، متوقيا لمساويها كالبخل والفجور والظلم وغير ذلك" (٥) .

٢ ـ ما أخرجه أبو داود وغيره في قصة أشجِّ عبدِالقيس(٦) حيث قال له النبي صلى الله عليه وسلم:"إن فيك خَلَّتين يحبهما الله:الحلم والأناة(٧) قال: يا رسول الله أنا أتخلق

---

(١) التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور ٣٧١/٣٠ .

(٢) هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي، على أصح الأقوال في اسمه واسم أبيه، أكثر المكثرين من رواية الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أسلم سنة سبع وتوفي سنة سبع وقيل: ثمان وقيل: تسع وخمسين، ومناقبه جمة.انظر الاستيعاب لابن عبدالبر مع الاصابة ٢٠٢/٤ ، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ٣١٥/٥، وتهذيب الأسماء واللغات للإمام النووي ٢٧٠/٢ .

(٣) أخرجه البخاري في المناقب،باب مناقب قريش ٢١٧/٤،ومسلم في الإمارة باب الناس تبع لقريش برقم ١٨١٨

(٤) الأخلاق الإسلامية للشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني ١٧٩/١ .

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر ٨/١٤ .

(٦) هو المنذر بن عائذ بن المنذر بن الحارث العصري، لقبه النبي صلى الله عليه وسلم "الأشج" فاشتهر به، وينسب إلى عبدالقيس، قبيلته، وهم من البحرين المعروفة الآن بالأحساء، نزل البصرة ومات بها. انظر طبقات ابن سعد ٥٥٧/٥ ، والاستيعاب بهامش الإصابة ٤٦١/٣ ، والإصابة ٤٦٠/٣ ونحوها .

(٧) رويا مرفوعين ومنصوبين،والحلم بكسر الحاء المراد به هنا: عدم استعجاله وتراخيه حتى ينظر في مصالحه، والأناة على وزن القناة: هي التثبت والوقار.أهـ عون المعبود ١٣٦/١٤ .

بهما، أم الله جبلني عليهما؟ قال: بل الله جبلك عليهما، قال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله"(١) .

فالحديث نص صريح على أن الله تعالى فطره على خلقين كريمين هما الحلم والأناة، وأن الأخلاق منها ما هو فطري ومنها ما هو كسبي، وأنهما محبوبان لله تعالى، ويلزم من محبته سبحانه لهذين الخُلُقين الكريمين وأمثالهما محبة من يتخلق بهما على وجههما الشرعي؛ لأن الله تعالى ما أحبهما إلا ليتحلى بها عباده، كما دلت على ذلك دلائل أخرى سيأتي ذكر بعضها(٢)، وإنما اقتصر هنا عليهما فقط لكونهما السبب في ذكر الحديث .

٣ - ما رواه أبو موسى الأشعري(٣) رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض،منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك،والسهل والحزن،والخبيث والطيب"(٤) .

وهذا الحديث نص صريح في الدلالة على فطر الناس عل السهولة أو الحزونة(٥)، والطيابة أو ضدها، وتلك هي الأخلاق حميدها وذميمها، وأنهم في ذلك مختلفون

---

(١) أبو داود في الأدب، باب في خلة الرجل برقم ٥٢٢٥، وأحمد في المسند ٢٠٦/٤، وإسناده حسن، وأصله في مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ... برقم ١٨من غير سؤال الأشج، وإجابة النبي له .

(٢) في مبحث منزلة الأخلاق في الإسلام ص١٤ .

(٣) واسمه عبدالله بن قيس بن حضار بن حرب .. قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة قبل هجرته عنها، فأسلم ثم هاجر إلى الحبشة، ثم هاجر إلى المدينة بعد فتح خيبر، فأسهم له النبي صلى الله عليه وسلم منها، ولم يسهم لأحد غاب عن خيبر غير أبي موسى وأصحابه، واستعمله النبي صلى الله عليه وسلم على زبيد وعدن وساحل اليمن، وولاه عمر البصرة والكوفة، وكان له موقف مشهود يوم صفين، توفي سنة ٥٠هـ، انظر طبقات ابن سعد ٣٤٤/٢، وتهذيب الأسماء ٦٨٢/٢ .

(٤) أخرجه أبو داود في السنة باب في القدر برقم ٤٦٩٣، والترمذي في التفسير باب ومن سورة البقرة برقم ٢٩٥٥، وأحمد في المسند ٤٠٠/٤-٤٠٦، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح .

(٥) الحزونة: هي الخشونة، وأصلها من الأرض الصعبة .

كاختلافهم في الألوان الخِلقية من سواد وبياض .. والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة .

إمكان تغير الخلق :

وقد استُدل بتلك الأدلة وغيرها على عدم إمكان تغير الخلق، طالما أنه طبع إلهي، لأن الطباع لا تتغير، ولكن هذا القول باطل، إذ لو كان الأمر كذلك لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات التي وردت في الكتاب والسنة، وهي من الكثرة بمكان، وسيأتي بيان ذلك .

وقد أجاد الإمام الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ في إبطال هذا القول حيث قال: "وكيف ينكر هذا ـ أي تغير الخلق ـ في حق الآدمي ، وتغير خلق البهيمة ممكن، إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد، وكل ذلك تغير للأخلاق ..."(١) .

وفعل كذلك الراغب الأصفهاني ـ رحمه الله تعالى ـ حيث قال :

"إن الله تعالى خلق الأشياء على ضربين: أحدهما : بالفعل ولم يجعل للعبد فيه عملا كالسماء والأرض والهيئة والشكل. والثاني : خلقه خلقة ما، وجعل فيه قوة ورشح الإنسان لإكماله وتغيير حاله، وإن لم يرشحه لتغيير ذاته، كالنواة التي فيها قوة النخل، وسهل للإنسان سبيلا إلى أن يزرعه بعون الله تعالى نخلة، أو أن يفسده إفسادا؛ قال : والخلق من الإنسان يجري هذا المجرى في أنه لا سبيل لإنسان إلى تغيير القوة التي هي السجية،وجعل له سبيلا إلى إسلاسها، ولهذا قال تعالى : ﴿ قد أفلحَ من زكّاها * وقد خابَ من دسّاها ﴾ [الشمس٩،١٠]

ولو لم يكن كذلك لبطلت فائدة المواعظ والوصايا والوعد والوعيد والأمر والنهي، ولما جوز العقل أن يقال للعبد : لم فعلت ؟ ولم تركت ؟ وكيف يكون هذا في الإنسان ممتنعا وقد وجدناه في بعض البهائم ممكنا؟!فالوحش قد ينقل بالعادة إلى التأنس، والفرس من الجماح إلى السلاسة، قال : لكن الناس في غرائزهم مختلفون، فبعضهم جبلوا جبلة سريعة القبول، وبعضهم جبلوا جبلة بطيئة القبول، وبعضهم في الوسط، وكل لا ينفك من أثر قبول وإن قل" .

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٤٨ .

ثم قال - رحمه الله -: "وأرى أن من منع من تغيير الخلق فإنه اعتبر القوة نفسها، وهذا صحيح، فإن النوى محال أن ينبت الإنسان منه تفاحا .

ومن أجاز تغييره، فإنه اعتبر إمكان ما في القوة إلى الوجود، وإفساده بإهماله كالنوى فإنه يمكن أن يتفقد فيجعل نخلا، وأن يترك مهملا حتى يتعفن ويفسد وهذا صحيح أيضا، فإن اختلافهما بحسب اختلاف نظريهما"(١) .

ويقول الغزالي - رحمه الله تعالى - :

"فإذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلا، ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه، وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا إلى الله تعالى"(٢) .

طريقة اكتساب الأخلاق :

إذا تبين أن التسامي بالأخلاق إلى الأحسن أمر ممكن، وأن ذلك هو ما أمر به الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم"فحق الإنسان في كل فضيلة أن يكتسبها خُلقا، ويجعل نفسه ذات هيئة مستعدة لذلك، سواء أمكنه أن يبرز ذلك فعلا أو لم يمكنه، وذلك بأن يكون على هيئة الأسخياء والشجعان والحكماء والعدول ...، وإن لم يكن ذا مال يبذله، ولا عرض له مقام تظهر فيه نجدته، ولا معاملة بينه وبين غيره تبرز فيها عدالته"(٣) .

ومعنى ذلك : أن يجاهد نفسه ويروِّضها على مكارم الأخلاق وُسعه، سواء كان متهيئا لأن يظهر أثر تلك المجاهدة حالا بأن كانت أسبابها متوفرة لديه، أو لم يكن متهيئا لعدم توفر أسبابها فليجاهد نفسه وستظهر مآلا .

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ١١٥-١١٦ .

(٢) إحياء علوم الدين ٤٨/٣ .

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ١٢٥ .

"فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجود، وهو بذل المال، فلا يزال يطلب نفسه ويواظب عليه تكلُّفا مجاهدا نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعا له،ويتيسر عليه فيصير به جوادا، وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكِبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقا له وطبعا، فيتيسر عليه، وجميع الأخلاق المحمودة شرعا تحصل بهذا الطريق"(١) .

هذه وسيلة الرياضة والمجاهدة، وهي وسيلة نافعة وصالحة لكل البشرية، مؤمنها وكافرها . غير أن المؤمن يمتاز بالإضافة إلى وسيلة الرياضة والمجاهدة، بوسيلة الامتثال لأوامر الشرع ونواهيه وآدابه ، التي جاءت في الكتاب والسنة ، وجميعها دائرة على الفضائل والرذائل،فأمر بالفضائل وندب الناس إلى التحلي بها ، ونهى عن الرذائل وحذر من ارتكابها ،

١ ـ والمؤمن معني بالنظر في نصوص دينه ووعيها وتطبيقها .

٢ ـ وإذا فعل ذلك بأن نظر ووعى ، علم أنه ملزم بالتطبيق والتنفيذ ، وأن لا مفر له من ذلك لأن ذلك دين ، والله يراقبه على الالتزام به ، كما قال سبحانه : ﴿ إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ [النساء:١] ، وسيثيبه على الامتثال ويعاقبه على الترك والاهمال، فلا يجد مندوحة له عن الالتزام بذلك، فتتربى فيه الفضائل، وتنأى عنه الرذائل، بفعل نصوص الشرع الإيجابية أو الندبية، التي قرأها وعقلها، أو سمعها ووعاها .

٣ ـ ثم يجد المؤمن أن الله تعالى قد رغبه على ذلك وأغراه، بالأجر العظيم والثواب الجسيم على فعل الفضائل واجتناب الرذائل على حد سواء، كما حذره من اقتراف الرذائل، أو ترك التحلي بالفضائل على حد سواء أيضا، مما يجعله يقبل على مكارم الأخلاق رغَبا ورهَبا، وبذلك يكون قد تخلق بأخلاق الإسلام العالية، وعد من أهلها النائلين أجرها وفضلها الذي يبلغ أجر الصائم القائم كما سيأتي بيانه قريبا إن شاء الله تعالى .

---

(١) الإحياء ٣/٥٠ .

المبحث الثاني

منزلة الأخلاق في الإسلام وخصائصها

للأخلاق في الإسلام منزلة عظيمة ، تعلم من مبلغ العناية التي عنيت بها في الكتاب والسنة وقد دلت تلك العناية الكبرى على أنها صنو الإيمان في الاهتمام .

وبيان ذلك فيما يأتي :

أ ـ دلالة القرآن الكريم :

لقد كان مدار اهتمام القرآن الكريم منذ بداية تنزله على المصطفى صلى الله عليه وسلم منصبا على أمرين :

الأول : تقرير الإيمان بالله تعالى وحده، وغرس العقيدة الإسلامية الصافية، واجتثاث مظاهرالوثنية السائدة من الأنفس والمجتمعات .

الثاني : غرس الفضائل الخلقية لتزكية القلوب، وتطهير النفوس، واستئصال رذائلها من الأفراد والمجتمعات .

أما التشريعات العملية فلم تكن في موضع العناية بالتوسع فيها في هذه المرحلة المبكرة، بل اكتُفِي منها بتشريع بعض العبادات المهمة كالصلاة، وتُرك بعضها الآخر، وكذلك تفصيلات الشريعة وفروعها الكثيرة إلى ما بعد تأسيس دولة الإسلام في المدينة، فتوالى تشريعها تباعا جريا على مبدأ التدرج في التشريع، ومناسبة مراحله وأطواره .

أما الأمر الأول، وهو الإيمان بالله تعالى وتوحيده، والإيمان بقدره وقضائه والبعث والجزاء والرسل والكتب المنزلة عامة والقرآن خاصة والملائكة والجنة والنار .. فقد كان محور التنزل القرآني والدعوة النبوية، إذ لم يفتأ تجدد تنزل القرآن عن هذا الأمر في كل أطوار النبوة: السرية والجهرية؛ المكية والمدنية .

فالسور المكية على الخصوص والبالغ عددهاخمسا وثمانين سورة تقريبا، كلها مفعمة بالحديث عن العقيدة الإسلامية في تقرير التوحيد لله بالألوهية والربوبية والأسماء والصفات، والبعث والجزاء، والجنة والنار، والثواب والعقاب.. وهي القضايا التي تأبّى قبولها على كفار مكة أيما إباء .

وكذا السور المدنية فإنها لم تغفل هذا الجانب في الجملة لكونه تَقرر وتـأَصل في مكـة، وإن ركزت عنايتها على التشريع التفصيلي في العبـادات والمعـاملات، بـل تنـاولت أيضـا تقرير هذه العقيدة، وأضافت إلى ذلك الرد على أهل الكتاب الذين غيروا عقيدة التوحيـد الإسلامية التي بُعث بها أنبياؤهم عليهم صلاة الله وسلامه، إلى إشـراك مـع الله غـيره في تعدد الآلهة أو اعتقاد بنوة له، أو احتياجه إلى أحد من خلقه .

وكل ذلك معلوم بداهة في سور القرآن الكريم وآياته: مكيه ومدنيه .. ولسـنا بصـدد الحديث عن هذا الجـانب في هـذه الرسـالة؛ لأن الرسـالة معنيـة ببيـان الأخـلاق القرآنيـة المتمثلة في الجناب النبوي .

أماالأمر الثاني وهو غرس الفضائل الخلقية، فقد كان يلي أمر العقيدة في الاهتمـام مـن تنزل الوحي السماوي على النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، حيث كان الحديث عنه في محكم الآيات ووحي النبوة من بداية نور الإيمان، بتنزل القرآن على ذي الخلق العظيم صلى الله عليه وسلم،وذلك بالأوامر والنواهي المتكررة الحاثـة علـى التخلـي عـن رذائـل الأخلاق والتحلي بمكارمها .

وبالحث على ذلك بالإشادة بمكارم الأخلاق، وذم مساوئها، في آياته المتكررة وسوره المتتالية المكية والمدنية بحيث بلغت مجموع الآيات التي تحدثت عن الأخلاق صراحة أو إشارة، أمرا أو نهيا، ما يقرب من ربع العدد الإجمالي لأيات القرآن الكريم وذلك أربع آيات وخمسمائة وألف آية(١) ، ابتداء من أول تنزل القرآن في صدر سورة العلق التي أمرت بالقراءة ونوهت بالعلم وأشادت بالكرم الإلهي، والقراءةُ والعلم من أسس تنمية

---

(١) انظر أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية للدكتور عبدالحميد الصيد الزنتاني ص ٦٨٥. وقد جمع كثيرا من هذه الآيات د.محمد عبدالله دراز في آخر كتابه دستور الأخلاق في فصل الأخلاق العملية، وسبقه إلى ذلك الإمام الغزالي في كتابه "جواهر القرآن" الذي جمع فيه ما يربو على ألف وخمسمائة آية من الآيات المتعلقة بالمعرفة، والآيات المتعلقة بالسلوك، والكتاب مطبوع ومعروف .

الأخلاق وإذكائها في النفس البشرية كما سيأتي بيانه في حينه إن شاء الله تعالى(١). وأما الكرم فهو عنوان على الفضل والجود والسخاء الذي لا يبارى، وهذه معان خلقية واضحة .

واختتاما بآخر الآيات تنزلا وهي قوله تعالى : ﴿ واتَّقوا يوما تُرجعونَ فيه إلى اللهِ ﴾ [البقرة:٢٨١] حيث أمرت بالتقوى التي هي الأصل الأول لأخلاق الإسلام الفردية والاجتماعية، السلوكية منها والتعاملية، إذ منها ينبع كل خلق نبيل، وبها يكف عن كل خلق رذيل .

فابتداءُ تنزل القرآن واختتامه بالحديث عن الأخلاق؛ تصريحا أو إشارة، ثم توالى تنزل الآيات في الحديث عنها على ذلك النحو، يدل دلالة واضحة على اهتمام الشريعة الإسلامية بالأخلاق، وأنها أصل من أصولها .

فهذا برهان مستنبط من سر تنزل القرآن ومجموع آياته، يكفي للتدليل-لو كان وحده - على عناية الشريعة الإسلامية بالأخلاق، لكن كيف وقد عد علماء الإسلام الأخلاقَ أحد الأصول التي جاءت بها الشريعة ! فقد قال الإمام الشاطبي(٢) - رحمه الله تعالى - : "تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام:

أحدها : أن تكون ضرورية .

الثاني : أن تكون حاجِيَّة .

الثالث : أن تكون تحسينية"، وتكلم عن معنى الضرورية والحاجية ثم قال :

"وأما التحسينيات فمعناها الأخذ بما يليق من محاسن العادات، وتجنب الأحوال المدنسات التي تأنفها العقول الراجحات، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق"(٣) .

---

(١) انظر ص١٠٨من هذه الرسالة .

(٢) هو الإمام ابراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بـ"الشاطبي" أصولي حافظ من أهل غرناطة بالأندلس، كان من أئمة المالكية، له مؤلفات عدة منها "الموافقات" و"الاعتصام" في أصول الفقه، ت ٧٩٠هـ، انظر الأعلام للزركلي ١/٧٥ .

(٣) الموافقات٢/٨-١٢ .

ثم ذكر أنها جارية في العبادات والعادات والمعاملات .

فإذا كانت الأخلاق أحد الأصول التي جاءت بها الشريعة فلا نستغرب تلك العناية الكبيرة بالأخلاق في القرآن الكريم، غير أن ما ذكر لا يمنع من البحث عن أسرار أخرى لذلك .

سر عناية القرآن الكريم بالأخلاق :

لقدكانت بعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في وقت كانت مكارم الأخلاق التي ندبت إليها جميع الشرائع قد ولَّت وآذنت بانصرام في كل أرجاء البلاد العربية منها وغير العربية .

أما البلاد العربية فقد كانت بعيدة العهد برسالة إلهية، حيث إن من بعث إلى العرب من الأنبياء كهود وصالح وشعيب وإسماعيل(١)عليهم الصلاة والسلام كان قد تباعد بهم الزمان، وبادت أممهم، و لم يبق في البلاد العربية من ديانات الأنبياء إلا ما كان من الديانة الحنيفية ملة إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام،وإسماعيل هو جد العرب المستعربة، ومع ذلك فقد تباعد العهد بدينهما فغيرت الوثنية بالحنيفية، وعبدت الأصنام مع الله تعالى وأشرك بالله غيره، وخرجوا من الإسلام الذي وصَّى به إبراهيم بنيه .

وإلى جانب ذلك فسدت أخلاقهم، "فأولعوا بالخمر والقمار وبلغت بهم القساوة والحمية الجاهلية والعصبية المقيتة إلى وأد البنات، وشن الغارات على القبائل الآمنة المجاورات، وقطع الطريق على القوافل المارات ذاهبات وآيبات، وسقطت منزلةالمرأة في المجتمعات فكانت تورث كما يورث المتاع أو سائر الحيوانات، ومن المأكولات ما هو خاص بالذكور محرم على البنات، وكان يسوغ للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء من غير تحديد،ومنهم من كان يقتل أولاده خشية الإنفاق،وخوف الفقر والإملاق..،إلى غير ذلك من منكرات الأخلاق"(٢)كما بين الكتاب العزيز كثيرا من ذلك في آيات شهيرات.

وأما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فقد غيروا كتب الله المنزلة إليهم فحرفوها وزادوا فيها ونقصوا،وأحلوا ما حرم الله، واتبعوا أهواءهم في أصول الدين وفي تشريع

---

(١) انظر خاتم النبيين لأبي زهرة ١/٤٣-٥٣ .

(٢)انظر السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ص ٣٩، والسيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة للدكتور محمد أبي شهبة - رحمه الله - ١/٩٤ .

العبادات والمعاملات كما أخبر الله عنهم ذلك بقوله: ﴿ أفتَطمعون أن يُؤمنوا لكم وقد كان فريقٌ منهم يَسمعونَ كلام اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفونَه من بعد ما عَقلُوه وهم يَعلمون ﴾ [البقرة:٧٥] وقال: ﴿ من الَّذين هادوا يحرِّفونَ الكلِم عن مَواضِعه ﴾[النساء:٤٦] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنهم حرفوا الكتب المنزلة عليهم من التوراة والإنجيل التي استحفظوا عليها، وتخلوا عن مكارم الأخلاق التي اتفقت عليها الشرائع، وبعثت بها الرسل كما قال الله سبحانه: ﴿ لقد جاءت رُسلُ رَبِّنا بالحقِّ ﴾ [الأعراف:٤٣](١) لذلك كان على هذه الشريعة الخاتمة أن تعيد الأمة إلى الفطرة السليمة والنهج القويم الذي أراده الله تعالى من عباده في سلوكهم معه ومع خلقه، فكان ذلك الاهتمام الكبير بالجانب الأخلاقي في القرآن الكريم .

ب ـ دلالة السنة النبوية :

أما السنة فقد كان من أجل الغايات في بعثة سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم هي إتمام مكارم الأخلاق كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نفسه فيما رواه عنه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ وغيره قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق"(٢) وفي رواية: "مكارم الأخلاق"(٣)، وفي رواية: "إن الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأفعال"(٤)، وفي أخرى : "بعثت لأتمِّم حسن الأخلاق"(٥) .

---

(١) انظر السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ص ٢٣-٢٦ ، ١٧٤-١٧٦ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣٨١/٢، ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٨/٩، والخرائطي في مكارم الأخلاق برقم ١ ، وإسناده حسن، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق برقم١٤، والبخاري في الأدب المفرد برقم ٢٧٤ ، والحاكم في المستدرك ٦١٣/٢ وقال: صحيح على شرط مسلم وسكت عنه الذهبي .

(٣) وهذا لفظ البزار كما حكاه عنه الهيثمي في المجمع .

(٤) أخرجها الطبراني في الأوسط من حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ كما عزاه إليه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٩١/٨، قال: وفيه عمر بن إبراهيم القرشي وهو ضعيف، قلت: لكن الحديث صحيح من غير طريقه، فضعفه يجبر بالشواهد الكثيرة الآتي بيان مواضعها قريبا.

(٥) وهذه رواية مالك في الموطأ ٢١١/٢باب ما جاء في حسن الخلق،رواها بلاغا،لكن قال السيوطي في تنوير الحوالك بذيل الموطأ: وصله قاسم بن أصبغ، والحاكم من طريق عبدالعزيز الدراوردي عن ابن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة،ثم نقل عن ابن عبد البر قوله:هو حديث مدني صحيح،قال =

فترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قصر هدف بعثته في هذا الحديث على إتمام مكارم الأخلاق التي كانت الأنبياء قبله قد بعثت بها، وبقيت منها بقية تحتاج إلى مزيد بيان، بل ما بينته منها كانت الأمم قد ضلت عن كثير منها لا سيما الأمة العربية، فبعث صلى الله عليه وسلم ليتمم محاسن الأخلاق ببيان ما ضلوا عنه، وبما خص به في شريعته مما لم يكن قبله من مكارم الأخلاق .

وقد جاء القرآن الكريم يؤكد هذا الأصل الأخلاقي في غيرما آية، فقد قال ـ جل شأنه ـ: ﴿ كما أَرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلُو عليكم آياتِنا ويُزكِّيكم ويُعلِّمُكم الكتابَ والحِكمةَ ويُعلِّمُكم ما لم تكونُوا تَعلمون ﴾ [البقرة:١٥١]، وقال سبحانه: ﴿ لقد منَّ اللهُ على المؤمنينَ إذ بعث فيهم رَسولاً من أنفسِهم يتلُو عليهم آياتِه ويزكِّيهم ويعلِّمهم الكتابَ والحكمةَ وإن كانُوا من قبلُ لَفي ضَلالٍ مُبين ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وقال ـ عز وجل ـ: ﴿ هو الذي بعث في الأُمِّيِّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِه ويزكِّيهم ويعلِّمُهم الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا من قبلُ لفي ضلالٍ مبين ﴾ [الجمعة:٢] .

فيخبر الله تعالى في هذه الآيات أنه بعث نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ليزكي عباده "أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية"(١) التي كانوا قد تلبسوا بها بعد فترة من الرسل، وذلك ما كان قد دعا به أبو الأنبياء إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، حيث دعا الله تعالى أن يبعث في الأمة رسولاً من بعده يجدد دعوته ويُحيي تزكيته، كما قص الله تعالى ذلك عنه بقوله: ﴿ رَبَّنا وابعثْ فيهم رَسولاً منهم

= ويدخل فيه الصلاح والخير كله والدين والفضل والمروءة والإحسان والعدل ...أهـ.

والحديث أخرجه بالإضافة إلى من ذكر: ابنُ سعد في الطبقات ١٢٨/١، وابن أبي شيبة في المصنف ٥٠٠/١١، والبخاري في التأريخ الكبير ١٨٨/٧، والبيهقي في السنن الكبرى ١٩٢/١٠، والبغوي في شرح السنة ٢٠٢/١٣ وذكره القاضي عياض في الشفاء ٢٠٧/١، والسخاوي في المقاصد الحسنة ص ١٠٥ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٤٥، ٧٥/١، ونقل عن ابن عبدالبر قوله: هو حديث صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره. أهـ .

(١) تفسير القرآن العظيم للحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير ت ٧٧٤هـ، ١٩٦/١ .

يتلو عليهم آياتِك وُيعلِّمهم الكتابَ والحِكمةَ ويزكِّيهم إنَّك أنت العزيزُ الحكيم ﴾ [البقرة:١٢٩] .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يخبر عن نفسه في استجابة الله تعالى لدعوة أبيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ، فقد سأله أبو أمامة(١) ـ رضي الله عنه ـ عن أول أمره، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: "دعوة إبراهيم وبُشرى عيسى ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام"(٢) .

فإذا كان من أعظم الغايات في بعثته صلى الله عليه وسلم، هو إتمام مكارم الأخلاق وتزكية الأمة، فمعنى ذلك أن شريعته الغراء التي بعث بها ذات أسس أخلاقية عليها تقوم وبها تنفذ في كل جوانبها؛ الإيمانية، والتعبدية، والتعاملية، فلا يزكو إيمان ولا عبادة ولا عمل ما لم يكن مصبوغا بالصبغة الأخلاقية الفاضلة، إذ "ليس من خلق كريم ولا فعل جميل إلا وقد وصله الله بالدين"(٣) .

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في جملة من الأحاديث التي ربط فيها بين الجوانب الإيمانية أو التعبدية أو التعاملية، وبين السلوك الأخلاقي، كما سيأتي ذكرها في مباحث الرسالة عند مناسبات ذكرها إن شاء الله تعالى .

ولهذا حض النبي صلى الله عليه وسلم أمته على الالتزام بالأخلاق الفاضلة ورغبهم فيها، وحذرهم من التخلق بالأخلاق السيئة،وذلك بأفعاله وأقواله التي نذكر منها طرفا صالحا إن شاء الله تعالى .

---

(١) صدي بن عجلان الباهلي رضي الله عنه، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم مائتين وخمسين حديثا، سكن مصر ثم حمص وبها توفي سنة ٨١هـ، وهو آخر من توفي من الصحابة بالشام. انظر أسد الغابة ١٣٨/٥، وتهذيب الأسماء واللغات ١٧٦/٢ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢٦٢/٥، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٢٥/٨ إلى الطبراني أيضا قال: وإسناده حسن وله شواهد تقويه، وذكر جملة منها في الباب التالي وهو باب قدم نبوته صلى الله عليه وسلم ص ٢٢٦

(٣) كما قال ذلك ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ص ٤٤ .

حض النبي صلى الله عليه وسلم أمته على التحلي بمكارم الأخلاق

فمن ذلك :

١ ـ ما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص(١) رضي الله عنهما قال: "لم يكن رسول الله فاحشاً ولا متفحشاً وإنه كان يقول: "إن خياركم أحاسنكم أخلاقاً"(٢) .

والحديث يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان داعية صدق إلى أنبل الأخلاق بحاله، قبل أن يكون داعية إليها بمقاله؛ لأن الأمة معنية باقتفاء نهج نبيها في السلوك الفعلي، كما هي معنية بامتثال أقواله لقول الله تعالى: ﴿ لقد كان لكم في رسولِ اللهِ أُسوةٌ حسنة ﴾ [الأحزاب:٢١] .

وأما أقواله صلى الله عليه وسلم فكثيرة أمراً، وترغيباً وحضاً، وتنويهاً .. ، في أحاديث كثيرة يطول حصرها، ولكن نذكر منها نبذة صالحة فمن ذلك :

٢ ـ قوله صلى الله عليه وسلم: "اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن"(٣) .

وأما ترغيبه فبأحاديث كثيرة، تدل على عظيم منزلته، وكبير جزائه وذلك كقوله صلى الله عليه وسلم:

٣ ـ "ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله يبغض

---

(١) ابن وائل السهمي، أحد الزهاد العباد المكثرين من الرواية، وأحد العبادلة الفقهاء، أسلم قبل أبيه، ومناقبه كثيرة، توفي سنة ٦٣هـ، على خلاف في ذلك وفي موضع وفاته. انظر طبقات ابن سعد ٢٦١/٤، والاستيعاب بهامش الإصابة ٣٤٦/٢ ، والإصابة ٣٥٢/٢ ، وتهذيب الأسماء ٢٨١/٢ .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحشاً ١٦/٨، ومسلم في الفضائل باب كثرة حيائه صلى الله عليه وسلم برقم ٢٣٢١ .

والفاحش:هو ذو الفحش في كلامه وفعاله، والمتفحش: الذي يتكلف ذلك ويتعمده.النهاية لابن الأثير ٤١٥/٣

(٣) أخرجه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس من حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ برقم ١٩٨٧، وقال عنه: حسن صحيح .

الفاحش البذيء"(١) .

والبذيء: هو المتكلم بالفحش ورديء الكلام .

٤ ـ وقوله عليه الصلاة والسلام : "إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم القائم"(٢)

وفي هذين الحديثين من الدلالة على فضل حسن الخلق ما يحمل على التحلي به بكل رغبة، لما يناله صاحبه من هذا الأجر العظيم، إذ هو أعظم الأعمال ثقلاً في الميزان، ومن ثقلت موازينه نال الفضل العظيم، كما قال الله تعالى: ﴿ فأمَّا من ثُقلت مَوازينُه فهو في عِيشةٍ راضية ﴾ [القارعة:٦-٧] .

كما أنه يلحق المرء بمن أتعب نفسه في سهر الليالي بالقيام والأيام بالصيام، وهو لم ينل شيئاً من ذلك العناء، ومع ذلك نال كل ذلك الفضل بحسن خلقه، فهي غنيمة عظيمة بلا شك، وذلك دليل على مبلغ منزلة الخلق الحسن عند الله تعالى، إذ لولا مكانته العظيمة لما رتب عليه ذلك الأجر كله .

٥ ـ وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن عظيم منزلته عند الله تعالى فقال لمن سأله عن أحب عباد الله إلى الله قال: "أحسنهم خُلُقاً"(٣) .

ولما كانوا أحب عباد الله إلى الله كانوا أحبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال عليه الصلاة والسلام:

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب حسن الخلق من حديث أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ برقم ٤٧٩٩، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق برقم ٢٠٠٢، وقال عنه: حسن صحيح .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب حسن الخلق من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ برقم ٤٧٩٨، وابن حبان في صحيحه ١/٣٥٠، وإسناده حسن، وله شواهد من حديث عبدالله بن عمرو، وأبي هريرة، وأنس بن مالك ـ رضي الله عنهم ـ أخرجها الخرائطي في مكارم الأخلاق برقم ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٣ وصححه الألباني في تعليقه على المشكاة برقم ٥٠٨٢ .

(٣) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/٢٧ إلى الطبراني من حديث أسامة بن شريك، وكذلك المنذري في الترغيب ٣/٤٠٨ عزاه إليه وإلى ابن حبان في صحيحه، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح .

٦ - "إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً.."(١) .

فأحسن الناس أخلاقاً،أحبهم إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم، وفي هذا من الحث على التحلي بحسن الخلق ما يحمل عليه يكل رغبة لما يترتب عليه من محبة الله تعالى ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم التي هي سبب لنيل الأجر العظيم، والبعد عن نار الجحيم .

وإنما كان حسن الخلق سببا لمحبة الله تعالى، ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم لصاحبه؛ لأن المتحلي به كامل الإيمان كما دل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

٧- "أكمل المؤمنين إيمانا، أحسنهم أخلاقا، وخياركم خياركم لنسائهم خلقا"(٢) .

٨ - وقوله عليه الصلاة والسلام : "إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء، وإن أحسن الناس إسلاما أحسنهم خلقا"(٣) .

---

(١) وتمامه: "وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون، والمتشدقون، والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون ؟ قال المتكبرون" .

والثرثارون: هم الذين يكثرون الكلام تكلفاً، وخروجاًعن حد الواجب، والمتشدقون: هو الذين يتكلمون بملء أفواههم تفاصحا وتعاظما، والمتفيهقون: هم الذين يتنطعون في كلامهم ويتوسعون فيه .

والحديث أخرجه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق برقم ٢٠١٨ من حديث جابر - رضي الله عنه - ، وأحمد في المسند ١٨٩/٢، وعزاه الهيثمي في المجمع ٢٤/٨ إلى أحمد والطبراني قال: ورجال أحمد رجال الصحيح، وقال عنه الترمذي: حسن غريب، وذكر له الهيثمي شواهد من حديث عبدالله بن مسعود وعبدالله بن عمرو - رضي الله عنهما -، وضعف أسانيدهما .

قلت: ويشهد له حديث عبدالله بن عمرو المار ص ٢١، المتفق على صحته .

(٢) أخرجه أبو داود في السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه من حديث أبي هريرة برقم ٤٦٨٢ والترمذي في الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجهابرقم ١١٦٢، واللفظ له، وقال الترمذي عنه: حسن صحيح

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٩٩/٥ من مسند جابر بن سمرة - رضي الله عنهما -، وعزاه المنذري في الترغيب ٤٠٩/٣ إلى الطبراني قال: وإسناد أحمد جيد ورواته ثقات، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٨/٨ إلى أبي يعلى قال: ورجاله ثقات .

وكمال الإيمان والإسلام عليه مناط الثواب ورفع الدرجات ومحو السيئات كما قال تعالى: ﴿ إنَّ الذين آمنوا وعمِلوا الصَّالحاتِ كانت لهم جنَّاتُ الفردوس نُزُلاً * خالدين فيها لا يَبغونَ عنها حِولا ﴾[الكهف:١٠٧-١٠٨]، وقال سبحانه: ﴿ والَّذين آمنوا وعمِلوا الصَّالحات لنكفِّرنَّ عنهم سَيِّئَاتِهم ولَنجزينَّهم أحسنَ الذي كانوا يَعمَلون ﴾[العنكبوت:٧] .

فكامل الإيمان هو الحسن الأخلاق، الذي يستطيع بحسن أخلاقه أن يعامل الله تعالى وأن يعامل عباده، بل ويعامل نفسه على وفق شرع الله تعالى، ومراده من عباده .

ولهذا كان حسن الخلق جامعا لكل معاني البر، الذي هو اسم جامع لكل معاني الخير الاعتقادية والتعبدية والتعاملية، قال الله تعالى: ﴿ ليس البرَّ أن تُولُّوا وجوهَكم قِبَلَ المشرقِ والمغربِ ولكنَّ البرَّ من آمنَ بالله واليومِ الآخر والملائكةِ والكتابِ والنَّبيِّين ..﴾ [البقرة:١٧٧] كما سيأتي بيانه قريبا .

وقد جمع كل تلك المعاني حسن الخلق، كما أجاب بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سأله عن البر والإثم فقال :

٩ ـ "البِرُّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس"(١) . فقابل البر بالإثم، وأخبر أن البر حسن الخلق، وهذا يدل على أن حسن الخلق هو الدين كله، وهو حقائق الإيمان وشرائع الإسلام، ولهذا قابله بالإثم"(٢) .

وإنما كان جامعا لكل تلك المعاني "لأن حُسن الخلق يراد به التخلق بأخلاق الشريعة، والتأدب بآداب الله تعالى التي أدب بها عباده في كتابه، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، فالدين كله خُلُق"(٣) .

١٠ ـ ولذلك كان أكثر ما يدخل الجنة حسن الخلق، كما أجاب بذلك النبي صلى الله عليه وسلم من سأله عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: "تقوى الله وحسن

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب تفسير البر والإثم من حديث النواس بن سمعان ـ رضي الله عنه ـ برقم ٢٥٥٣، والترمذي في الزهد، باب ما جاء في البر والإثم برقم ٢٣٨٩ .

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ٣٠٦/٢ .

(٣) انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص ٢٣٩ .

الخلق"، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال: "الفم والفرج"(١) .

ففي هذه الأحاديث العظيمة حض عظيم على التحلي بمحاسن الأخلاق، لما فيها من بيان لفضله وعظيم أجره، ومنزلته عند الله، لا يتوانى المؤمن الحق عند سماعها ودرايتها عن المبادرة إلى التحلي بمحاسن الأخلاق حرصا على نيل فضلها، وهي غيض من فيض مما حث به النبي صلى الله عليه وسلم أمته على لزوم مكارم الأخلاق التي بعث بتمامها والبعد عن مساوئها .

"ولو جمعنا أقوال صاحب الرسالة في التحلّي بالأخلاق الزاكية لخرجنا بسِفْر لا يعرف مثله لعظيم من أئمة الإصلاح"(٢) ، ولكن بحسبنا ما قدمنا من نماذج على ذلك، وقد علمت من خلالها ما للأخلاق الزاكية من مكانة في الإسلام حيث جعل النبي صلى الله عليه وسلم معيار الخيرية هو حسن الخلق(٣)، ولذلك كان أثقل شيء في الميزان عندما توزن الأعمال يوم القيامة،فتثقل الأخلاق الحسنة كفة الحسنات على كفة السيئات، فيفوز صاحبها بالجنة، ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة يدخلها بسبب حسن خلقه وتقوى الله تعالى التي هي أساس حسن الأخلاق، وفي الجنة يدرك صاحب الخلق الحسن درجة قائم الليل مصليا، الظامىء بالهواجر صائما، ويدرك ذلك بأمر عظيم لكنه يسير على من يسره الله له، فإن حسن خلقه يجعله يؤدي الحقوق الواجبة عليه لله ولخلقه بنفس مطمئنة وصدر رحب، ورغبة فيما عند الله تعالى، وبذلك يحظى بمحبة الله تعالى ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم والقرب منه في المجلس، وأي فضل أكبر وأعظم من ذلك ؟ وما كان له أن ينال ذلك الفضل الكبير إلا بحسن الخلق الذي جمع معاني الخير كله كما علمت من قريب .

وبهذا تعلم سر عناية الإسلام بالأخلاق، من أن عنايته بها ناشئة من عظيم منزلتها فيه؛ لأنها أصل من أصوله المهمة .

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق برقم ٢٠٤ من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - وقال عنه: صحيح غريب .

(٢) خلق المسلم للشيخ محمد الغزالي ص ١٣ .

(٣) أي بعد الإيمان بالله وملائكته ...الخ .

بل إن الدين كله خلق كما فسره حَبْرُ الأمة عبدا لله بن عباس(١) ـ رضي ا لله عنهما ـ وذلك عند تفسيره لقوله تعالى في مدح نبيه صلى ا لله عليه وسلم ﴿ وإنَّك لَعلَى خُلُقٍ عظيم ﴾ فقال: "أي على دين عظيم"(٢) فسمَّى الدِّين كله خلقا .

وذلك كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية(٣): "لأن الدين هو الطاعة والعبادة والخُلُق، فهو الطاعة الدائمة اللازمة التي قد صارت عادة وخلقا، بخلاف الطاعة مرة واحدة قال: ولهذا فسر الدين بالعادة والخُلُق، ويفسر الخُلُق بالدين أيضا، كما في قوله تعالى: ﴿ وإنَّك لعلَى خُلُق عظيم ﴾ ثم ذكر ما تقدم ذكره عن ابن عباس، قال: وذكره عنه سفيان بن عيينة(٤) وأخذه الإمام أحمد(٥) عن سفيان بن عيينة وبذلك فسَّراه"(٦) .

---

(١) هو عبدا لله بن عباس بن عبدالمطلب ابن عم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات، ودعا له النبي صلى ا لله عليه وسلم بالفقه في الدين وعلم التأويل، فاستجاب ا لله له،فبلغ من ذلك مبلغا، حتى كان يسمى حبر القرآن لسعة علمه، وهو أحد السبعة المكثرين من رواية الحديث وأحد العبادلة الفقهاء، مات بالطائف سنة ٦٨هـ،انظر الاستيعاب ٣٥٠/٢، والإصابة ٣٣٠/٢ وغيرهما .

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٨/٢٩ عنه وعن مجاهد، وعزاه الحافظ ابن كثير في تفسيره ٤٠٢/٤ أيضا إلى أبي مالك والسدي والربيع بن أنس والضحاك وابن زيد، ونقل الشوكاني في فتح القدير ٢٦٧/٥ عن الواحدي حكاية هذا القول عن الأكثرين .

(٣) هو الإمام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع شيخ الإسلام علم الزهاد، نادرة العصر تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام الحراني، ولد سنة ٧٦١، كان من بحور العلم في الحديث والفقه والتفسير والعقائد وغير ذلك، وكان من الزهاد والأذكياء المعدودين، له مؤلفات عدة، توفي سنة ٧٢٨هـ. ترجمته في تذكرة الحفاظ للذهبي ١٤٩٦/٤، وطبقات الحفاظ للسيوطي ص ٥٢٠ برقم ٩١٤٢، وشذرات الذهب ٨٠/٦ .

(٤) ابن أبي عمران ميمون الهلالي، أحد أئمة الإسلام، الثقة الحافظ الفقيه الإمام الحجة، قال عنه الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز ولد سنة ١٠٧ ومات سنة ١٩٨هـ. ترجمته في التذكرة للذهبي ٢٦٢/١، والطبقات للسيوطي ص ١١٩ برقم ٢٣٨، وحلية الأولياء ٢٧٠/٧، والرسالة المستطرفة ص ٤١ وغيرها .

(٥) هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني أبو عبدا لله الإمام الشهير صاحب المسند والزهد والورع وغير ذلك،كان من كبار الحفاظ الأئمة ومن أحبار هذه الأمة، قال عنه الذهبي:شيخ الإسلام وسيد المسلمين في عصره الحافظ الحجة .. ولد سنة ١٦٤ وتوفي سنة ٢٤١هـ وله ٧٧ سنة. ترجمته في التذكرة ٣٤١/٢، والطبقات ص ١٨٩، والحلية ١٦١/٩ وغيرها، وأفرد ترجمته بالتأليف كثير منهم ابن الجوزي في كتاب مطبوع اسمه مناقب الإمام أحمد .

(٦) قاعدة في المحبة ص ٣٢ .

خصائص الأخلاق في الإسلام

للأخلاق في الإسلام خصائص مهمة تميزها عن الأخلاق عند الفلاسفة ومن سار في ركابهم من الماديين، في الشرق والغرب خاصة العصور المتأخرة، الذين لا يؤمنون بالإسلام ولا يدينون دين الحق الذي ارتضاه لهم الحق سبحانه وتعالى، مما جعل أخلاقهم لا تعتمد على أساس مقبول،ولا تؤدي عملها في التزكية،أو غرضها في إسعاد النفس البشرية والحياة الاجتماعية .

وعند معرفة خصائص الأخلاق في الإسلام، ندرك البون الشاسع بين أخلاق الفلاسفة وأخلاق الإسلام، وتعلم كنه صلاح الأخلاق الإسلامية للبشرية، وفشل أخلاق الفلاسفة والماديين في أداء واجبها للبشرية .

وخصائص الأخلاق الإسلامية كثيرة نجملها في الخصائص التالية :

- الخصوصية الأولى : (ارتباطها بالإيمان) :

الأخلاق الإسلامية تصدر عن العقيدة وترتبط بها ارتباطا وثيقا لأن الصلة بين العقيدة الصحيحة والأخلاق الفاضلة عميقة جدا، إذ هي صلة البناء بأساسه،وصلة بين أمرين لهما غاية واحدة؛ لأن الأخلاق مستمدة من العقيدة، والعقيدة والأخلاق يهدفان إلى سعادة المرء في دينه ودنياه، وأولاه وأخراه .

ووجه الارتباط بين العقيدة والأخلاق، أن العقيدة الإسلامية الصافية تدفع إلى الابتعاد عن رذائل الأخلاق، وتحث على التحلي بمكارمها لما يشعر المرء بعقيدة الإسلام الصحيحة من ترتب الأثر على ذلك في الحياة الدنيا وفي الآخرة، في الثواب والعقاب، وما يرضي الرب سبحانه وتعالى، وما يسخطه، فيحرص على مكارم الأخلاق لحرصه على

مرضاة ربه سبحانه، وكريم ثوابه ويبتعد عن رذائلها خوفا من غضب ربه وأليم عقابه .

ويجد المؤمن في كتاب الله تعالى ما يدفعه إلى الشعور بالتلازم بين الإيمان والأخلاق، حيث يقرأ في كتاب الله تعالى ذلك التلازم في كل فضيلة مطلوبة، أو رذيلة منهي عنها؛ لأن الله تعالى عندما يدعو عباده إلى خير أو ينفرهم من شر يجعل ذلك من مقتضى الإيمان المستقر في قلوبهم، فكثيرا ما يقول سبحانه: ﴿ يا أيُّها الذين آمَنوا ﴾ ثم يأمر بخلق حسن أو ينهى عن خلق سيء، كأن يقول: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا اتَّقُوا اللهَ وكونوا مع الصَّادقين ﴾[التوبة:١١٩] أو يقول: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا يَسخر قومٌ من قومٍ عسى أن يكونُوا خيراً منهم ولا نساءٌ من نساءٍ من نساء عسى أن يَكنَّ خيراً منهُنَّ ..﴾ [الحجرات:١١]، فتراه يخاطبهم بوصف الإيمان لينبههم إلى أن ما كلفهم به من أمر بخلق حسن،أو نهي عن ضده مثلا،هو من مقتضيات الإيمان الذي اتصفوا به، فعليهم أن يحققوا إيمانهم ويرسخوه بمقتضيات الإيمان من مكارم الأخلاق، والابتعاد عن مساوئها .

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يربط بين الإيمان وبين ما يدعو إليه من كريم الأخلاق أو ينهى عنه من سيئه كأن يقول: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت"(١) .

أو يقول: "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: من يا رسول الله ؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائِقَه"(٢) أي: غوائله وشروره .

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة سيأتي ذكرها في مواطن دلالاتها إن شاء الله تعالى .

فترى أن النبي صلى الله عليه وسلم يجعل العلاقة بين الإيمان والأخلاق متلازمة، بحيث تدل ظواهر هذه الأحاديث على ثبوت الإيمان عند التحلي بالخلق الكريم، أو نفيه عند التخلي عنه، مما يجعل المؤمن ملزما إلزاما حتميا بالأخلاق الفاضلة، ومبتعدا عن

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ١٣/٨ ، ومسلم في الإيمان، باب الحث على إكرام الجار بررقم ٤٧، من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه ١٢/٨ من حديث أبي شريح - رضي الله عنه -

الأخلاق السيئة بمقتضى إيمانه فإذا ما فعل ذلك كان دليلا على عمق إيمانه ورسوخه، في قلبه وشهد له بين الناس بكمال الإيمان كما سيتبين في الخصوصية التالية :

ـ الخصوصية الثانية : (أنها أخلاق إلزامية) :

ليست الأخلاق في الإسلام أمورا اختيارية يمكن التحلي بها أو التخلي عنها، بل هي في نظر الإسلام أصل من أصوله، يطلبها كطلبه لأصول الإسلام الأخرى من عقيدة صحيحة وشرائع كاملة، بل إن الإسلام غذّى أصوله الأخرى بالأخلاق، وصبغها جميعا بالصبغة الأخلاقية، فالعقائد والعبادات والمعاملات التي كلف الله تعالى بها عباده، لا يكون العبد مؤدّيا لها على الوجه الذي أراده الله تعالى ما لم تكن الأخلاق الفاضلة غامرة لها .

كما يدل على ذلك اقتران تلك الأصول والشرائع بالحث على التحلي بالأخلاق الفاضلة، وقد علمت مدى العلاقة بين الإيمان والأخلاق، واستدللت من ذلك على أن طلب الشارع للأخلاق كطلبه للإيمان، ولذلك كان تنزل القرآن بالإيمان والأخلاق معا منذ فجر الرسالة الخاتمة كما علمت غير بعيد.

أما شرائع الإسلام من صلاة وزكاة وصيام وحج ونحوها، فإنها كلها منوطة بالأخلاق ومقترنة بها، فالصلاة مثلا عندما أمر الله تعالى بها، أبان عن الحكمة من إقامتها فقال: ﴿ وأقِمِ الصَّلاة إنَّ الصلاةَ تَنهى عن الفحشاءِ والمنكر ﴾[العنكبوت:٤٥] .

والزكاة عندما أمر بأخذها أبان عن سر تشريعها فقال: ﴿ خُذ من أموالِهم صدقةً تُطهِّرهم وتزكِّيهم بها ﴾[التوبة:١٠٣] .

والصيام جعلت علة تشريعه زكاء الخلق فقال سبحانه: ﴿ كُتِب عليكم الصيامُ كما كُتِب على الذين مِن قبلِكم لعلَّكم تَتَّقون ﴾[البقرة:١٨٣] .

والحج قرن تشريعه بنواهٍ أخلاقية تؤدي إلى زكاء الخلق فقال سبحانه: ﴿ الحجُّ أشهرٌ معلوماتٌ فمن فَرض فِيهنَّ الحج فلا رَفثَ ولا فُسوقَ ولا جِدالَ في الحجِّ وما تَفعلوا من خير يعلمُه الله وتزوَّدوا فإنَّ خير الزَّادِ التَّقوى واتَّقونِ يا أولِي الألباب ﴾[البقرة:١٩٧] .

وهكذا بقية فروع الإسلام وتشريعاته الجليلة الدقيقة، كلها لها غايات أخلاقية عظيمة، فإذا تجردت عن جوانبها الأخلاقية كانت فاقدة لأجلِّ مطلوب فيها .

لذلك كان طلب الشارع للأخلاق العالية ليس من نافلة القول، إنما هو طلب إلزامي لا مجال للحياد عنه سواء كان في السلوك الذاتي أو العبادات أو المعاملات(١) .

"فلا فرق في نظر الإسلام بين قوله سبحانه: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبِروا وصَابروا ورابِطوا واتَّقوا الله لعلَّكم تُفلِحون ﴾[آل عمران:٢٠٠]، وقوله: ﴿ وأوفوا بالعهدِ إنَّ العهدَ كان مَسئُولا ﴾[الإسراء:٣٤]، وبين قوله: ﴿ وأقيموا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاة ﴾[البقرة:٤٣]، أو قوله: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا إذا تَداينتُم بدينٍ إلى أجلٍ مُسمًّى فاكتُبوه ...﴾ [البقرة:٢٨٢](٢)» لأن كل ذلك مطلوب طلبا حثيثا يأثم تاركه ويثاب فاعله، وقد تضافر على كل خلق كريم خطابات كثيرة من الكتاب والسنة تفيد الثواب أو العقاب، والمدح أو الذم كما ستمر عليك في كل أبحاث الرسالة إن شاء الله تعالى .

ـ الخصوصية الثالثة : (أنها شاملة لكل آفاق الحياة) :

ويراد بشمول الأخلاق، اتساعها لتشمل كل آفاق الحياة الدنيوية والأخروية، وتعم جميع مظاهر الحياة البشرية، بل والحيوانية أيضا فلا يخرج شيء من دائرة الأخلاق الإسلامية .

"إن دائرة الأخلاق الإسلامية واسعة جدا، فهي تشمل أفعال الإنسان الخاصة بنفسه أو المتعلقة بغيره فردا أو جماعة أو دولة، فلا يخرج شيء عن دائرة الأخلاق مما لا نجد له نظيرا في مذهب بشري أو قانون وضعي، أو فكر فلسفي.

فالأخلاق في الإسلام لم تغادر شعبة من شعب الحياة؛ بيئة الفرد، وبيئة البيت، وبيئة المدرسة، ومجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع والترفيه والقانون والآداب والجيش وميادين الشرطة والمعسكرات وساحات الحرب والسلم والمؤتمرات والأسواق ... إلا وللأخلاق فيها أثر بالغ"(٣) وسيمر بك ما يغنيك عن ذكر النماذج والأمثلة من مجالات

---

(١) انظر خلق المسلم للشيخ محمد الغزالي ص ٧-١٣ .

(٢) النظام الأخلاقي في الإسلام للدكتور محمد عقله ص ٦٢ .

(٣) النظام الأخلاقي في الإسلام ص ٤٨، وانظر أصول الدعوة للدكتور عبدالكريم زيدان ص ٩٠ .

الحياة المتفرقة، المحاطة بسياج الأخلاق الإسلامية السامية المنيعة .

وبهذا تمكن الإسلام من نزع زمام الحياةمن أيدي الشهوات والمصالح الفردية أو الآنية، ووضعه بين يدي الأخلاق الكريمة، التي حفظت للحياة روحها ومعنويتها، وللمجتمعات مقوماتها، وللفرد صلاحياته للخلافة في هذه الأرض .

ـ الخصوصية الرابعة : (أنها ثابتة لا يعتريها التغير والاضطراب) :

الثبات معناه في اللغة: الدوام والاستقرار، يقال: "ثبت الشيء يثبت ثبوتا، دام واستقر فهو ثابت"(١) .

والمراد به هنا أن الأخلاق الإسلامية من إيمانية أو سلوكية أو تعبدية أو اجتماعية .. أو غير ذلك مما سيأتي تفصيله "كلها أخلاق يتعذر العيش بدونها، ولا يستغني عنها مجتمع كريم مهما تطورت الحياة وتقدم العلم وارتقت الحضارة"(٢)، بل إنها مع ذلك هي أحوج ما يكون إلى الأخلاق الإسلامية لإسعاد البشرية مع تعقيدات المدنية الحديثة، وسلوكها الذي يغلب عليه الانحراف الأخلاقي بلُه العقائدي .

إن الأخلاق في الإسلام لا تتغير ولا تتطور تبعا للظروف الاجتماعية والأحوال الاقتصادية؛ لأنها تنطلق من قيم أساسية لا تتغير في أصولها؛ لأنها مرتبطة بالنفس الإنسانية التي تنطلق من معتقدها في الإيمان با لله تعالى، وأهمية التقوى والعمل الصالح، فهي ترجع إلى القيم العليا التي قدمها الإسلام والتي منها ثبات القيم الأخلاقية التي لا تقبل التزلزل والاضطراب؛ لأنها جزء من الدين الذي جاءت به هذه الشريعة، بل كانت غاية من غايات بعثة نبيها المصطفى صلى ا لله عليه وسلم .

"وهذا بخلاف الأخلاق الوضعية، فإنها على العكس من ذلك، حيث تسيرها مصالح

---

(١) المصباح المنير ٨٨/١ .

(٢) النظام الأخلاقي في الإسلام ص ٥٣ .

واضعيها، فقد نادت الفلسفة الأخلاقية في الغرب إلى أن الأخلاق ليست فطرية ثابتة بل إنها مرتبطة بالمجتمعات والعصور من ناحية التطور والتغير وعدم الثبات"(١) .

"وليس غريبا أن تتصف الأخلاق الوضعية بالتغير والاضطراب؛ لأنها تمثل نفسية واضعها وهو إنسان لا يستطيع مهما يبلغ من الذكاء وبعد النظر وعمق الفكر وحب الخير أن يضع للبشر دستورا أخلاقيا ثابتا لا تبدله الأحوال"(٢) .

ـ الخصوصية الخامسة : (ارتباطها بالجزاء الإلهي) :

من أهم خصائص القواعد الأخلاقية في الإسلام ارتباطها بالجزاء الإلهي ثوابا وعقابا في الدنيا والآخرة .

ويمثل عامل الجزاء ركنا مكملا للأخلاق في الإسلام؛ لأن الباعث على التمسك بقواعد الأخلاق يكون لدى المسلم هو الحرص على إرضاء الله تعالى ورغبته في الفوز بحسن ثوابه

وهذا الباعث له الأثر العظيم في تقوية إيمانه ومعاونته على الصبر والتحمل لما يتطلبه السلوك الأخلاقي من مجاهدة للنفس وأخذها بما يخالف هواها أو رغباتها العاجلة .

ويتمثل الجزاء حقيقة ماثلة أمام المسلم لتبدو القواعد الأخلاقية لديه أمرا عادلا متكاملا، فيطبقها بأريحيَّة كاملة،وقناعة تامة بما هو راغب فيه من الثواب أو يرهبه من العقاب .

وقد عنيت النصوص القرآنية والنبوية بهذا العنصر ـ أعني عنصر الجزاء الأخلاقي ـ عناية كاملة، فلا تكاد تقرأ نصا في الأخلاق من الكتاب أوالسنة إلا وهو يحمل ترغيبا في الأخلاق الفاضلة لتكتسب، أو ترهيبا من الأخلاق الرذيلة لتجتنب، وذلك ما يحمل المؤمن على المبادرة على التخلق بالأخلاق الفاضلة بمقتضى إيمانه بالله وبوعده ووعيده، ويرى أن إقدامه على خلاف ما أمر به أونهى عنه أمر يوجب عليه العصيان، و المقت من الله فيحمله على المبادرة بالتوبة إلى الله تعالى إن هو اقترف خلاف ما أمر به أونهى عنه، فيعود بذلك إلى السلوك الحميد، والسير المرضِي، فيستقيم خلقه ويعتدل نهجه،

---

(١) المرجع السابق ص ٥٧ .

(٢) من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم للدكتور أحمد محمد الحوفي ص ٥٩ .

وهذا أمر لا يوجد في الأخلاق الوضعية التي قد تفرض جزاء قانونيا على مرتكب رذيلة خلقية؛ لأنها سرعان ما تفشل عندما يشعر الشخص أنه قد أمن تطبيق القانون عليه بتخفّيه عن الرقابة، أو بحلوله في سلطة تحميه ...،فقد فشلت آلاف القوانين والقرارت واللوائح الموضوعة لمقاومة الانحلال الخُلُقي، والانحراف العقدي في كثير من المجتمعات الكفرية الجاهلية .

ناهيك عن أن تلك الجزاءات غير ثابتة ولا دائمة، فما أكثر ما تتبدل وتتغير بتغير الحكومات، أو بتغير الظروف والأعراف .

كما أنها إن سُنت فإنها لا تتناول من النواحي الخلقية إلا مسائل متناثرة لا تصل إلى الإحاطة الشاملة بكل مناحي الحياة الإنسانية، فهي لا تعنى إلا بما يراه الناس ضروريا، ولا تهتم إلا بما يشكون منه، أما ما يرونه موافقا لأهوائهم فقلّما تتدخل الحكومات للحد منه، أو العقاب عليه .

وأيضا فإن الجزاءات الوضعية هي جزاء عقاب، ليست جزاء ثواب، فهي لا تعدو عن كونها زواجر لمنع وقوع الجريمة الخلقية، أما أن تحث على فعل الخير أو ترغب فيه فلا .

بينما الجزاء الأخلاقي في الإسلام جزاء عقاب وجزاء ثواب معا، اسمع إلى قول الله تعالى حيث يقول: ﴿ و للهِ ما في السماواتِ وما في الأرضِ ليَجزيَ الّذين أساءُوا بما عمِلوا ويَجزيَ الذين أَحسنُوا بالحُسنى ﴾(١) [النجم:٣١] .

ـ الخصوصية السادسة : (القيمة الذاتية للأخلاق الإسلامية) :

ومعنى هذه الخصوصية أن الأخلاق الإسلامية لها مكانة عظيمة في نفسها بغض النظر عما تجر إليه من خير عميم في حياة الفرد والجماعة، فهي في نظر الإسلام غايات تقصد لذاتها، وليست وسيلة لتحقيق غايات نفعية كما هو الحال في الأخلاق الوضعية، بل إن الالتزام بمقتضى الأخلاق مطلوب في الوسائل والغايات .

---

(١) انظر الأخلاق في الإسلام للدكتور يعقوب المليجي ص ١٤٩-١٥٢ .

"فالأخلاق في الإسلام لا ترتبط بقواعد المنفعة بحيث تدور معها وجودا وعدما، وإنما هي أهداف ينبغي السعي إلى تحقيقها بغض النظر عما يؤدي إليه اختلاف وجهات النظر بشأنها"(١) ، ولذلك لا يجوز الوصول إلى الغاية الشريفة بالوسيلة الخسيسة كما يقولون: "الغاية تبرر الوسيلة"، ألا ترى أن الله تعالى أوجب على المؤمنين نصرة إخوانهم المظلومين قياما بحق الأخوة في الدين، ولكن إذا كانت نصرتهم تستلزم نقض العهد مع الكفار الظالمين، لم يجز النصرة لهم كما قال سبحانه: ﴿ وإن استَنصرُوكم في الدِّين فعليكم النَّصرُ إلا على قومٍ بينَكم وبَينهم ميثاقٌ والله بما تعمَلون بصير ﴾[الأنفال:٧٢]، فنهاهم الله عن النصرة لإخوانهم في هذه الحال؛ لأن وسيلتها الخيانة ونقض العهد، وهما ليسا من أخلاق الإسلام(٢)، فلم يجزها لهم وإن كان في ذلك نصر لإخوانهم، حفاظا على أخلاق الإسلام أن تخترم .

فهذه هي أهم خصائص الأخلاق الإسلامية التي تميزها عن سائر النظريات الأخلاقية الوضعية، وتجعلها جديرة بإسعاد البشرية في الحياة الدنيوية والأخروية .

وجديرة بأن تكون غاية لبعثة النبي صلى الله عليه وسلم كما قال: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"(٣)، وبأن تنال تلك العناية الكبيرة في القرآن الكريم والسنة المطهرة .

---

(١) الأخلاق في الإسلام ص ١٤٩ .

(٢) انظر أصول الدعو للدكتور عبدالكريم زيدان ص ٩١ .

(٣) حديث صحيح تقدم تخريجه ص ١٨ .

المبحث الثالث

مادة الأخلاق، ومايقاربها، وأنواعها في القرآن

من خصائص اللغة العربية الاتساع في الألفاظ بحيث يكون للمعنى الواحد ألفاظ كثيرة تصل أحيانا إلى عشرين لفظا أو أكثر، وهي المعروفة في علم اللغة بـ"المترادفات"، أي أنها مختلفة المبنى، لكنها مؤتلفة المعنى، وغالبا ما يكون ذلك في المعاني المهمة ذات الشأن الكبير كلفظ الخلق مثلا، فإن العرب تعبر عنه بألفاظ كثيرة كالغريزة، والطَّبيعة، والسَّجيَّة، والجِبِلَّة، والسَّليقة، والخَليقة، والدُّربة ...

وقد أفرد علماء اللغة لهذا الفن من فنون اللغة كتبا خاصة على شكل معاجم تجمع ألفاظ كل معنى في باب مستقل، كما فعل جمال الدين بن مالك(١) ــ رحمه الله ــ في كتابه "الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة"، وسبقه إلى ذلك كثير من علماء اللغة، ولكن هذا ما بأيدينا الآن من كتب هذا الفن .

وقد أورد ـ رحمه الله تعالى ــ الألفاظ الدالة على معنى الخلق تحت عنوان: "باب الطبع"(٢)، وأتى من ذلك بالألفاظ التالية: "غَريزتي، وخَليقتي، وضَريبتي، وفَخيزتي، وسليقتي، وخِيَمي، وشِيَمي، ونحِيْتَتي، وشمائِلي، وسجيَّتي، وجِبِلَّتي، وخِلقتي، ودُرْبتي، وبِنْيَتي، وعادتي، وشِنْشِنَتي، وَدِيْدَني، وإجرِيَّاي"(٣) .

فهذه ثمانية عشر لفظا كلها تدل على معنى الخلق، فأيُّ لفظ استعمل دل على أن من أسند إليه الكلام صار ذلك المسند إليه خلقا له وطبعا(٤) وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمّى.

---

(١) هو محمد بن عبدالله بن عبدالله بن مالك الجياني الأندلسي الشافعي الملقب بـ"جمال الدين" ت سنة ٦٧٢هـ، كان إماما في اللغة والنحو وعلوم اللغة كلها، وله مؤلفات نافعة كثيرة، كالكافية الشافية، والألفية، ولامية الأفعال، وغيرها. انظر بغية الوعاة ص ٥٣، والأعلام ٦/٢٣٣ .

(٢) ص ٤١ .

(٣) وانظر أيضا الألفاظ المترادفة المتقاربة في المعنى للرماني ص ٥٦ ط الأولى١٤٠٧، تحقيق د.فتح الله المصري .

(٤) انظر الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب ص ١١٣ .

وقد ورد استعمال بعض هـذه الألفـاظ في نصـوص الكتـاب والسـنة للدلالـة علـى ذلـك المعنى.

أما الكتاب فقد استعمل لفظ الخلق في موضعين منه :

الأول: في سورة الشعراء حيث قال سبحانه على لسان "عاد" قوم "هود" ـ عليه السلام ـ في معرض ردهم المنكر على نبيهم حين دعاهم إلى الله، ورغبهم بثوابه، وخوفهم من عقابه: ﴿ قالوا سواءٌ علينا أوعظتَ أم لم تكن مِن الواعظين * إنْ هذَا إلَّا خُلُق الأوَّلين * وما نَحنُ بِمُعذَّبين ﴾[١٣٦-١٣٨] .

والثاني: في صدر سورة القلم، حين ذب الله عن نبيه المصطفى سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه، وأقسم على عصمته من الجنون، وعلى كمال خلقه حيث قال سبحانه : ﴿ ن والقلمِ وما يَسطرون * ما أنتَ بِنعمةِ ربِّك بمجنونٍ * وإنَّ لك لأجرًا غيرَ ممنون * وإنَّك لَعلى خُلُق عظيم ﴾[١-٤] .

أما الألفاظ الأخرى المقاربة للفظ الخلق في المعنى فاستعمل منها : "الدأب" و"السنة" و"الفطرة" وهي من الألفاظ التي لم يذكرها ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ، ولكنها تدل على معنى الخلق، فالدأب: معناه العادة والشأن المستمرة دائما على حاله(١)، وهو بمعنى الخلق الذي يصبح عادة في الإنسان لا يتغير، وقد ورد أربع مرات في القرآن الكريم، منها قوله تعالى : ﴿ كدأبِ آلِ فرعونَ والَّذين مِن قبلِهم كذَّبوا بآياتِنا فأخذَهم اللهُ بذُنوبِهم واللهُ شديدُ العقاب ﴾[آل عمران:١١]، وقوله تعالى: ﴿ مثلَ دأبِ قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ والَّذين من بعدِهم ﴾[غافر:٣١] .

وورد بلفظ "دأبا" أي متتابعا(٢)، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قال تَزرعونَ سبعَ سنين دأبا ﴾[يوسف:٤٧]، وبلفظ "دائِبينِ" أي: جاريين في فلكهما(٣) دائما لا يفترقان، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وسخَّر لكم الشَّمسَ والقمرَ دائِبين ﴾[ابراهيم:٣٣] .

---

(١) الصحاح للجوهري ١/١٢٣، والمفردات للراغب ص ١٧٤ .

(٢) تفسير الجلالين ١/٢٧٠ .

(٣) تفسير الجلالين ١/٢٩١ .

وأما السنة فمعناها: السيرة والطبيعة، حميدة كانت أو ذميمة(١)، فهي بمعنى الخلق؛ لأنه يصير طبعا للإنسان، وهو مظهر سيرته كما قد علمت، وقد ورد استعمالها في القرآن الكريم سبع عشرة مرة(٢)، منها قوله تعالى: ﴿ وإنْ يَعودُوا فقد مضت سُنَّةُ الأولين ﴾[الأنفال:٤٥] .

وقوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ الله في الذين خَلَوا من قبلُ ولن تجدَ لِسُنَّةِ الله تَبديلا ﴾ [الأحزاب:٦٢]، وأما الفطرة فهي بمعنى الخلقة(٣)، وهذا من الألفاظ المرادفة للفظ الخلق كما علمت .

وقد ورد هذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿ فطرةَ اللهِ الَّتي فطرَ الناس عليها لا تَبديلَ لخلقِ الله ﴾ [الروم:٣٠]، والفطرة التي فطر عليها الناس هي دينه الحنيف كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه"(٤) .

وكما فطرهم على دينه الحنيف، فقد فطرهم على الخير أو الشر، والسعادة أو الشقاوة، والطيابة أو الخباثة كما علم فيما تقدم بحثه من أن الأخلاق فطرية ومكتسبة .

هذا ما وقفت عليه مما جاء في القرآن الكريم في الدلالة على معنى الخلق بلفظها أو مقاربها .

وأما السنة النبوية، فقد ورد فيها استعمال لفظ "الخلق" أو "الأخلاق" في أحاديث كثيرة في مقامات مختلفة، وسيأتي ذكرها في مناسبات ذكرها من مواضع الرسالة إن شاء الله تعالى .

وكذا ما يدل على ذلك المعنى الخُلقي من الألفاظ السابقة أو غيرها ستذكر إن وجدت عند مناسبات ذكرها حيث يكون الاستشهاد بها متعينا إن شاء الله تعالى .

---

(١) القاموس المحيط ٢٣٧/٤، والمصباح المنير ٣١٢/١ .

(٢) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٣٦٧ .

(٣) مجمل اللغة لابن فارس ٧٢٢/٣، والصحاح للجوهري ٧٨١/٢ .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سرة الروم ١٤٣/٦، ومسلم في القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة برقم ٢٦٥٨ من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - .

أنواع الأخلاق في القرآن الكريم

قد علمنا من خلال تعريف الأخلاق أنها دائرة بين الحسن والقبح، فإما أن تكون أخلاقا حسنة، أو أخلاقا قبيحة؛ لأن الخلق اسم لما هو كامن في النفس من قوة راسخة تنزع بها إلى اختيار ما هو خير وصلاح، أو إلى اختيار ما هو شر وجور، فإن نزعتها إلى اختيار الخير والصلاح سميت "أخلاقا حسنة أو كريمة"، أو إلى الشر والجور سميت "أخلاقا قبيحة أو ذميمة"

فالخلق إذاً جنس(١) يدخل تحته نوعان: (٢) هما : الخلق الحسن، والخلق القبيح، وتحت كل نوع من هذين أفراد كثيرة .

وقد تحدث القرآن الكريم عن أفراد النوعين حديثا مستفيضا إجمالا تارة، وتفصيلا أخرى، فأمر بالأخلاق الحسنة وحض عليها، ونوه بها وبأهلها ووعدهم عظيم الثواب، ونهى عن الأخلاق السيئة وحذر منها، وذمها وأهلها وأوعدهم عظيم العقاب، كل ذلك بأدلة المطابقة(٣) أو التضمن(٤) أو الالتزام(٥) .

ويهدف القرآن الكريم من حديثه المستفيض عن الأخلاق إلى غرض أصلي هو تقويم الأخلاق بحيث تصبح أخلاق المسلمين كلهم نوعا واحدا، وهو نوع الأخلاق الحميدة، جريا على منهجه الأساسي وهو الهداية للتي هي أقوم، كما قال سبحانه: ﴿ إنَّ هذَا القرآنَ يهدي لِلَّتي هي أقوم ﴾[الإسراء:٩] .

---

(١) الجنس هو كلي مقول على كثيرين مختلفين بالحقيقة في جواب ما هو من حيث هو كذلك .

(٢) النوع هو كلي مقول على كثيرين متفقين بالحقائق في جواب ما هو.أهـ. التعريفات للجرجاني ص ٧٩ ، ٢٤٧ .

(٣) دلالة المطابقة هي دلالة اللفظ على تمام ما وضع له .

(٤) دلالة التضمن هي دلالة اللفظ على جزء ما وضع له إن كان له جزء.

(٥) دلالة الالتزام هي دلالة اللفظ على ما يلازمه في الذهن، وذلك كدلالة الإنسان على تمام الحيوان الناطق بدلالة المطابقة، وعلى الحيوانية أو الناطقية بالتضمن، وعلى قابل العلم بالالتزام، انظر التعريفات للجرجاني ص ١٠٤، والتوقيف على مهمات التعاريف لمحمد عبدالرؤوف المناوي ص ٣٤٠ .

فإن حديثه عن سيء الأخلاق: نهيا وتحذيرا وذما وعقابا، إجمالا وتفصيلا، هو أمر للمسلمين بالتخلي عن مساوىء الأخلاق ولزوم محاسنها، إجمالا وتفصيلا كذلك؛ لأن النهي عن الشيء هو أمر بضده، كما أن الأمر بالشيء نهي عن ضده كما يعرف من دلالة الالتزام أو مفهوم المخالفة(١)، فما من خلق ذميم نهى عنه القرآن الكريم، أو ذمه إلا وذلك النهي أمر بمقابله من الحسن ومدح له، كما أنه ما من خلق حسن أمر به أو مدحه إلا وهو نهي عن مقابله من خلق سيء وذم له، لذلك لم نعرج في هذا الكتاب عن الحديث عن مساوىء الأخلاق قصدا، وإن كنا قد نتحدث عنها عرضا أحيانا لتدعيم الحديث عن الخلق الكريم، وتعضيد دلائله، وذلك اكتفاء بدلالة الالتزام، فالحديث مثلا عن خلق الرضا والتوكل والرجاء والخوف والإخلاص والاستقامة والشكر وغيرها مما تحدث عنه القرآن الكريم هو حديث بالالتزام عن مقابل هذه الأخلاق من سخط وعجز ويأس وأمن ورياء أو شرك وانحراف وكفر ..، إذ تُعلم الأخلاق الحميدة فتُلتزم، وذلك ترك للأخلاق الذميمة، ولذلك قالوا : "وبضدها تتميز الأشياء" .

---

(١) مفهوم المخالفة هو ما يفهم من الدليل بطريق الالتزام، ويقال: هو أن يثبت الحكم في المسكوت على خلاف ما يثبت في المنطوق. التعريفات ص ٢٢٤ .

المبحث الرابع

مصدر الأخلاق في ضوء القرآن الكريم

المصدر في اللغة: ما يصدر عنه الشيء، يقال: أصدر الأمر؛ إذا أنفذه وأذاعه(١)، وهو في عرف أهل النحو: "الاسم الذي اشتق منه الفعل وصدر عنه"(٢) .

أما في الاصطلاح :فهو "من يملك حق الأمر بالتقيد بخلق معين" أو يقال: "هو من تستمد منه التوجيهات الخُلقية"(٣)، ويعبر عن هذا المعنى أيضاب"الإلزام الخلقي" .

ولقد فهم من البحث السابق من خلال الإشارة إلى العناية الكبرى بالأخلاق في القرآن الكريم والسنة المطهرة مصدر الأخلاق الإسلامية .

وإذا علمنا منزلة الأخلاق في نظر الإسلام من خلال تلك العناية، علمنا أيضا أن الأخلاق الإسلامية "ربَّانية المصدر" نبوية التطبيق والتبيين والتكميل، بمعنى أنها آخذة مأخذ الأحكام الشرعية في تأصيل تشريعها وتأسيس أحكامها من الكتاب والسنة، وما أقرَّاه من عمل السلف الصالح، وعُرف الأمة المسلمة الذي لا يناقض أصلا، بل يندرج تحت أصل من أصولها(٤)، وسأتناول نماذج من تشريع الأخلاق في الكتاب والسنة للأهمية .

الكتاب :

الكتاب في اللغة: مصدر كتب يكتب كتابة، مشتق من الكَتْب؛ وهو ضمُّ أديم إلى أديم بالخياطة،واستعير لضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط فسمي كتابالجمعه الحروف،

---

(١) انظر المعجم الوسيط لمجع اللغة العربية ١٠٩/١ .

(٢) التعريفات للشريف علي بن محمد الجرجاني ص ٢١٦ .

(٣) منهج القرآن الكريم في عرض الأخلاق الأسرية لعلي بن عبدا لله الشهري ص ١٠، طبع على الآلة الكاتبة .

(٤) وذكر الدكتور محمد عبدا لله دراز من مصادر الأخلاق الإجماع والقياس إضافة إلى الكتاب والسنة بناء على أن الأخلاق جارية مجرى الأحكام التشريعية، غير أني لم أجد الأمثلة المحسوسة على تشريع الأخلاق من الإجماع أو القياس، فلذلك لم أذكرها، وتأسيا بأكثر الكتب المصنفة في الأخلاق الإسلامية، فإنها لم تذكرهما من مصادر الأخلاق .

وسمي القرآن الكريم كتابا؛ "لأنه يجمع أنواعاً من القصص والآيات والأحكام والأخبار على أوجه مخصوصة"(١) .

قال الراغب بعد ذكره لبعض ما ذكرتُ: ".. وفي التعارف ضم الحروف بعضها إلى بعض باللفظ، والأصل في الكتابة النظم بالخط، لكن يستعار كل واحد منهما للآخر، ولهذا سمي كلام الله وإن لم يكتب كتابا كقوله: ﴿ الٓمٓ * ذلك الكتابُ ﴾[البقرة:١،٢]، قال: والكتاب في الأصل: مصدر، ثم سمي المكتوب فيه كتابا، والكتاب في الأصل اسم للصحيفة مع المكتوب فيه"(٢)، وقيل: "سمي القرآن كتابا إشارة إلى وجوب كتابته لحفظه"(٣) .

والقرآن الكريم هو المصدر الأول للأخلاق: تشريعا لأحكامه، وتفصيلا لأنواعه، وتوجيها لأهله حثا لهم وترغيبا، وتحذيرا لهم وترهيبا، في آيات محكمات كثيرات بحيث لا تكاد تخلو سورة من سوره الكريمة من آية أو آيات تتحدث عن الأخلاق تشريعا وتوجيها وترغيبا وترهيبا بلغ مجموعها نحواً من ربع القرآن الكريم كما تقدم ذكره غير بعيد .

ولقد قال الله تعالى في شأن القرآن الكريم : ﴿ إنَّ هذا القرآنَ يَهدي لِلَّتي هي أقوم ﴾[الإسراء:٩]، وهداية القرآن للتي هي أقوم أي: أعدل وأصوب شاملة للمصالح التي عليها مدار الشرائع وهي درأ المفاسد وجلب المصالح، والتزام مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، المعروفة بالضروريات والحاجيات والتحسينيات كما تقدم ذكره عن الشاطبي ـ رحمه الله تعالى ـ .

فقد جاء القرآن الكريم بالهداية في ذلك إلى أقوم طريق وأعدلها. قال في "أضواء البيان"(٤) :

"والحض على مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات كثير جداً في كتاب الله تعالى وسنة

---

(١) المفردات للراغب ص ٤٢٣، والبرهان في علوم القرآن للزركشي ٢٧٦/١ .

(٢) المفردات للراغب ٤٢٣ .

(٣) التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ٢٢١/١ .

(٤) في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، قال ذلك في ٤١١/٣ .

نبيه صلى الله عليه وسلم، ولذلك لما سئلت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن خلقه صلى الله عليه وسلم قالت: "كان خلقه القرآن"(١)؛ لأن القرآن يشتمل على جميع مكارم الأخلاق؛ لأن الله تعالى يقول في نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ وإنَّك لعلى خُلُق عظيم ﴾[القلم:٤] .

فدل مجموع الآية وحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ على أن المتصف بما في القرآن من مكارم الأخلاق يكون على خلق عظيم، وذلك لعظم ما في القرآن من مكارم الأخلاق" .

وسأذكر هنا بعض الآيات الكريمة التي جمعت أصنافا من مكارم الأخلاق لتكون نماذج على ما سواها .

نماذج من تشريع القرآن الكريم للأخلاق :

١ ـ فمن ذلك: في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ ليس البرَّ أن تُولُّوا وجوهَكم قِبَلَ المشرقِ والمغربِ ولكنَّ البرَّ من آمنَ بالله واليومِ الآخِرِ والملائكةِ والكتابِ والنَّبيينَ وآتى المالَ على حُبِّه ذوِي القُربى واليتامى والمساكينَ وابنَ السَّبيل والسَّائلين وفي الرِّقاب وأقامَ الصلاةَ وآتى الزَّكاة والموُفُون بعهدِهم إذا عاهدوا والصَّابرينَ في البأساءِ والضَّراءِ وحينَ البأسِ أولئِك الَّذين صدَقوا وأولئِك هُم المتَّقون ﴾[البقرة:١٧٧]، فقد جمعت هذه الآية ست عشرة عروة من عرى الإسلام والإيمان، وقواعده وشعبه العظام، وهي داخلة كلها في مسمى البر وهو "حسن الخلق" ؛ لأنها كلها من مكارم الأخلاق التي ندبت إليها الشريعة المطهرة، وسيرد ذكرها واحدة واحدة في مناسبات ذكرها إن شاء الله تعالى .

ولذلك كان البر جامعا لمكارم الأخلاق كما علمت من تعريف النبي صلى الله عليه وسلم للبر فيما مضى ذكره قريباً(٢) .

٢ ـ وقال سبحانه:﴿قولٌ معروفٌ ومَغفِرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يَتبعُها أذىً والله غَنِيٌّ حليم ۝

---

(١) أخرجه مسلم وسيأتي ذكره وتخريجه قريباً ص٦٠.

(٢) انظر ص٢٤.

يا أيُّها الذين آمنوا لا تُبطِلوا صَدقاتِكم بالمَنِّ والأذى كالَّذي يُنفق ماله رِئـاءَ النَّاس ولا يُؤمنِ باللهِ واليومِ الآخر...﴾[البقرة:٢٦٣-٢٦٤]، وفي هـاتين الآيتـين تعليـم لأخـلاق البـذل والعطاء من أن الكلمة الطيبة خير من الصدقة التي يتبعها المن؛ لأن المنَّ ثقيـل علـى قلـوب الرجال، وقاصم لظهور الآخذين، ولعِظـم الإساءة التي تلحق آخذ الصدقة نهى الله تعـالى المعطين نهي تحريم عـن ذلـك، وبـين لهـم أن المـن يجعـل الصدقـة تذهـب أدراج الريـاح، ويؤوب صاحبها بالوزر بدل الأجر .

٣ ـ ويقـول سـبحانه في سـورة آل عمـران: ﴿.. الذيـن يُنفقـونَ في السَّـراءِ والضَّـراء والكاظمينَ الغيظَ والعافينَ عن النَّاس والله يُحـبُّ المحسـنين * والذيـن إذا فعلـوا فاحشـةً أو ظلموا أنفسَهم ذكروا اللهَ فاستغفروا لِذنوبهم ومَن يَغفرُ الذُّنوبَ إلا الله ولم يُصِرُّوا علـى ما فعلوا وهم يَعلمون ﴾[١٣٤-١٣٥]، وفي هـذه الآيـات إشـادة وتنويـه عظيـم بـأهل هـذه الأخلاق؛ ككظم الغيظ، والعفو عن الناس، والإحسان، والتوبة عن الذنب .

٤ ـ وفي سورة النساء يقول سبحانه: ﴿ إن اللهَ يأمُركم أن تُؤدُّوا الأمانـاتِ إلى أهلهـا وإذا حكمتُم بينَ النَّاس أن تحكُمـوا بـالعدل إنَّ الله نِعمَّـا يعظِكـم بـه إنَّ الله كـان سميعـاً بصيراً ﴾[٥٨]، وهذه الآية توجب أداء الأمانات إلى أهلها، والحكـم بـين النـاس بـالعدل، وقد أكد على إقامة العدل بالآية التالية :

٥ ـ يقول ـ جل شأنه ـ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوَّامين بالقِسط شـهداءَ لله ولـو على أنفسِكم أو الوالِدين والأقربين إن يكنْ غنِياً أو فقيراً فالله أولى بِهما فلا تَتَّبعوا الهوى أن تعدِلوا وإن تلْوُوا(١) أو تُعرِضوا فإنَّ الله كان بما تَعملون خبيراً ﴾[النساء:١٣٥] .

٦ ـ ويقول أيضا: ﴿ لا يُحبُّ اللهَ الجهرَ بالسُّوء من القولِ إلا من ظُلم وكان اللهُ سميعًا عليما * إن تُبـدوا خيراً أو تُخـفـوه أو تَعـفوا عن سُـــــوءٍ فإن الله كان عفوّاً قديراً ﴾[النساء:١٤٨-١٤٩] . وهذه الآية تنفر من مساوىء الأخلاق، وتفيد أنها مبغوضة عند الله تعالى، وتحبذ مكارمها .

---

(١) أي: تحرفوا الشهادة. تفسير الجلالين ١/١١٩ .

٧ - وفي سورة الأنعام يقول سبحانه وتعالى: ﴿ قل تعالوا أتلُ ما حرَّم ربُّكم عليكم ألَّا تُشركوا به شَيئاً وبالوالدينِ إحساناً ولا تقتُلوا أولادَكم من إملاق نحنُ نرزُقكم وإيَّاهم ولا تَقربوا الفواحشَ ما ظهر منها وما بطنَ ولا تقتُلوا النَّفس الَّتي حرَّم الله إلَّا بالحق ذلكم وصَّاكم به لعلَّكم تعقلون...﴾[١٥١-١٥٣] .

وهذه وصايا جامعة لمكارم الأخلاق مع الله تعالى ومع عباده .

٨ - وفي سورة النحل يقول - جل ذكره -: ﴿ إن اللهَ يأمُر بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذِي القُربى ويَنهى عن الفحشاءِ والمنكر والبغيِ يعِظُكم لعلَّكم تذكَّرون * وأوفُوا بعهد الله إذا عاهدتُّم ولا تنقُضوا الأيمانَ بعد توكيدِها وقد جعلتُم اللهَ عليكم كَفيلاً إنَّ اللهَ يعلمُ ما تَفعلون ﴾[٩٠-٩١] .

وهذه الآيات جمعت أصناف مكارم الأخلاق، يأمر الله تعالى بها عباده مما هو في مقام الله تعالى أو مقام المخلوقين، فليس من خلق حسن يتعارفه الناس إلا وأمرت به، وليس من خلق سيء إلا ونهت عنه؛ لأن العدل هو الوسط من كل شيء، والدين الإسلامي كله مبني عليه، ولذلك كان ديناً وسطا، وأمته أمة وسط، والإحسان التفضل، والإسلام يدعو إلى الفضل، كما يدعو إلى إقامة العدل، وهو شامل للفضل في العبادات والمعاملات...، ثم نهت بعد ذلك عن كل منكر وبغي وظلم وخيانة ...وهي جماع مساوىء الأخلاق .

٩ - وفي سورة الإسراء يقول الله تعالى : ﴿ وقضى(١) ربُّك أَلَّا تعبدوا إلَّا إياه وبالوالدين إحسانا إمَّا يبلُغَنَّ عندك الكِبَرَ أحدُهما أو كِلاهما فلا تقلْ لَهما أُفٍّ ولا تَنهرهما وقلْ لهما قولاً كريماً.. ﴾[الخمس عشرة آية ٢٣-٣٧] .

وهذه الآيات جمعت أيضا صنوفا عِدة من مكارم الأخلاق الإيمانية والتعبدية والتعاملية سيأتي ذكر كثير منها مما هو من محاسن الأخلاق في مباحثها الخاصة إن شاء الله تعالى.

١٠ ـ وفي سورة "المؤمنون" يقول سبحانه: ﴿ قد أفلحَ المؤمنون * الَّذين هم في

---

(١)أي: أمر .

صلاتِهم خاشعون * والَّذين هم عن اللَّغو مُعرضون * والَّذين هم لِلزَّكاة فاعلون * والذين هم لِفُروجهم حافظون... ﴾[إلى تمام التسع الآيات في صدر السورة] .

وفي هذا التنويه العظيم إقرار لهذه المكارم الأخلاقية وتحبيذ لها .

١١ - وفي سورة النور تشريع لكثير من الأخلاق الأسرية إجمالاً وتفصيلا بحيث تعتبر هذه السورة من أجمع السور للأخلاق الأسرية، ومن آياتها في ذلك قوله تعالى: ﴿ ولا يأتَلِ أولُو الفَضل منكم والسَّعةِ أن يُؤتوا أولِي القُربى والمساكينَ والمهاجرينَ في سبيلِ الله ولْيَعفُوا ولْيصفحوا ألا تُحِبُّونَ أن يغفرَ اللهُ لكم واللهُ غفور رحيم ﴾[٢٢] .

ومنها قوله سبحانه: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تَدخلوا بُيوتا غير بيوتكم حتَّى تستأنِسوا وتُسلِّموا على أهلها ...﴾[الآيات من٢٧-٣٣] .

١٢ - وفي سورة الفرقان تبيان لكثير من أخلاق عباد الرحمن، حيث قال الله تعالى: ﴿ وعبادُ الرَّحمن الذين يَمشون على الأرضِ هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً..﴾ [إلى تمام اثنتي عشرة آية ٦٣-٧٤] .

وفي هذه الآيات من التنويه ما في آيات "المؤمنون" وهي تحمل على التحلي بها لما فيها من الإقرار لها والتحبيذ عليها .

١٣ - وفي سورة "لقمان" وصايا أخلاقية عظيمة قصها الله تعالى على لسان لقمان -رحمه الله تعالى- تعد من جوامع آيات الأخلاق، وذلك كقوله سبحانه: ﴿ يا بُنيَّ أقِم الصلاةَ وأمر بالمعروفِ وانْهَ عن المنكر واصبر على ما أصابَك إنَّ ذلك من عزمِ الأمور * ولا تُصعِّر خدَّك(١) للنَّاسِ ولا تمشِ في الأرض مَرَحاً(٢) إنَّ الله لا يُحبُّ كلَّ مُختالٍ فخور * واقْصِد في مشيِك واغضُض من صَوتك إنَّ أنكر الأصواتِ لَصوتُ الحمير ﴾[١٧-١٩] .

---

(١) أي لا تمل وجهك عنهم تكبراً .

(٢) أي خيلاء.أهـ تفسير الجلالين ١٤١/٢ .

١٤ - وفي سورة الحجرات نداءات متكررة للمؤمنين للتخلي عن رذائل الأخلاق، والتحلي بمكارمها في التعامل الاجتماعي، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا يسخرْ قومٌ من قوم عسَى أن يكونُوا خيراً منهم ...﴾[١١]، وقوله: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظَّن إنَّ بعض الظَّن إثمٌ ولا تجسَّسُوا ولا يَغتب بعضُكم بعضًا أيُحبُّ أحدُكم أن يأكلَ لحمَ أخيه مَيتاً فكرهتُموه واتَّقوا اللهَ إن الله توَّابٌ رحيم ﴾[١٣]

١٥ - وفي سورة المعارج بيان لكثير من أخلاق المؤمنين ابتداء من قوله تعالى: ﴿..إلا المُصَلِّين * الذين هم على صلاتِهم دائِمون * والَّذين في أموالِهم حقٌّ معلوم * للسائل والمحروم ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ والَّذين هم على صلاتِهم يُحافظون ﴾[٢٢-٣٤] .

وفيها من التنويه بالمتحلين بمكارم الأخلاق ما تقدم ذكره في"المؤمنون" و"الفرقان" .

فهذه نماذج جامعة لما اشتمل عليه القرآن الكريم من تشريعات للأخلاق، سيأتي بيانها وتفصيلها في مباحث الرسالة المتفرقة إن شاء الله تعالى .

وهذا فضلا عن آيات القصص والأمثال التي اشتمل عليها القرآن الكريم، وهي من أجل الأساليب الحاضة على مكارم الأخلاق والمنفرة عن مساوئها، لما في ذلك من داع لقبولها في النفس البشرية لكونها كانت عن تجربة، أو امتناع بالصورة المعلومة لها بالنسبة للأمثال.

وقد كان الله تعالى يقص على نبيه أخبار الرسل ثم يقول له: ﴿ فبهُداهم اقتدِه ﴾[سورة الأنعام:٩٠]، ويقول له: ﴿ فاصبر كما صبر أولُو العزمِ من الرُّسل ﴾[سورة الأحقاف:٣٥] ويقول أيضاً: ﴿ وكلاً نقصُّ عليك من أنباءِ الرُّسل ما نُثبِّتُ به فؤادَك وجاءك في هذهِ الحقُّ وموعظةٌ وذِكرى للمؤمنين ﴾[سورة هود:١٢٠]، وليس الخطاب خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم في مثل هذه الأمور، بل هو شامل لأمته .

السنَّة :

السنة في اللغة: الطريقة والسيرة، حميدة كانت أو ذميمة، وجمعها: سُنن(١) .

---

(١) المصباح المنير ٣١٣/١، وانظر لسان العرب مادة (سنن) .

قال في "المفردات": "السنن: جمع سنة، وسنة الوجه طريقته، وسنةالنبي صلى الله عليه وسلم: طريقته التي كان يتحراها"(١) .

وهي في اصطلاح علماء الحديث: "كل ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير"(٢) .

والسنة هي المصدر الثاني للتشريع، متى ثبتت عن المعصوم صلى الله عليه وسلم؛ لأنها من الوحي الذي أوحى به الله تعالى على عبده ونبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وما يَنطقُ عن الهوى * إنْ هُو إلَّا وحيٌ يُوحَى ﴾ [سورة النجم:٣-٤]، لذلك أوجب الله على المؤمنين اتباعها، وحذرهم من مخالفتها، وذلك بدلالات آيات كثيرة منها قوله سبحانه: ﴿ قل أطِيعوا اللهَ والرَّسول ﴾[سورة آل عمران:٣٢]، فأمر سبحانه بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم كما أمر بطاعته، وقوله سبحانه: ﴿ من يُطعِ الرَّسول فقد أطاعَ الله ﴾[النساء:٨٠]، فجعل طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم طاعة لله تعالى .

وقال - جل شأنه -: ﴿ وما آتاكُم الرسولُ فخُذوه وما نهاكم عنه فانْتَهُوا ﴾[الحشر:٧]، وهذا إلزام لا مفر منه في اتباع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والانتهاء عما نهى عنه، وقد حذر من مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم غاية التحذير فقال سبحانه: ﴿ فلْيحذَر الَّذين يخالفون عن أمره أن تُصيبهم فتنةٌ أو يُصيبَهم عذابٌ أليم ﴾ [النور:٦٣] .

وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم شامل لصريح الأمر الذي نطق به، ولهديه في الأقوال والأفعال سوى ذلك؛ لأنها كلها مصدر للتأسي كما قال سبحانه: ﴿ لقد كان لكم في رسولِ اللهِ أُسوةٌ حسنةٌ لمن كان يَرجُو اللهَ واليومَ الآخِر ﴾[الأحزاب:٢١] .

---

(١) المفردات ص ٢٤٥ .

(٢) السنة ومكانتها في التشريع للدكتور مصطفى السباعي ص ٤٧، والسنة قبل التدوين للدكتور محمد عجاج الخطيب ص ١٦، والسنة النبوية وبيان مدلولها الشرعي لأبي غدة ص ٧-٩ .

وقد كان تبليغ النبي صلى الله عليه وسلم للأخلاق بالقول والفعل والتقرير كما هو الشأن في أنواع ما يسمى "سنة" .

١ ـ أما القول فقد تقدمت أمثلة له في المبحث الثاني، وستأتي أمثلة كثيرة لكل خلق كريم في كل مباحث الرسالة .

٢ ـ وأما الفعل، فإضافة إلى ما سيأتي ذكره منها في كل مباحث الرسالة، يتعين ذكرُ ما يدل عليه هنا، وأبرز ما يدل عليه وعلى كل خلق عظيم قولياً كان أو فعلياً، حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ الذي هو أصل هذه الرسالة، ومحور ارتكازها؛ لأنها كلها تطبيق لمدلوله بالواقع العملي والقولي من حياته صلى الله عليه وسلم .

وهو ما أخرجه مسلم وغيره من طريق سعد بن هشام بن عامر(١) أنه سأل عائشة(٢) ـ رضي الله عنها ـ عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: "يا أم المؤمنين أنبئيني عن خُلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: ألست تقرأ القرآن ؟ قال: قلت: بلى، قالت: فإن خلق نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن، قال: فهممت أن أقوم ولا أسأل أحداً عن شيء حتى أموت .."(٣) .

---

(١) الأنصاري المدني ابن عم أنس بن مالك رضي الله عنه، روى عن عائشة وابن عباس وغيرهم، وهو ثقة من الثالثة مات بأرض الهند. انظر التهذيب ٤٨٣/٣، والتقريب برقم ٢٢٥٨ .

(٢) بنت أبي بكر الصديق أم المؤمنين رضي الله عنها كانت أفقه النساء مطلقا، وأفضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم إلا خديجة على خلاف في ذلك، تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وهي بنت سبع، وبنى عليها وهي بنت تسع، وتوفي عنها وعمرها (١٨)سنة، وماتت سنة ٥٧هـ. انظر: طبقات ابن سعد ٣٩/٨، وتهذيب الأسماء ٣٥٠/٢، والإصابة ٣٥٩/٤ وغيرها .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض برقم ٧٤٦ بسياق طويل، وأخرجه أبو داود في الصلاة، باب في صلاة الليل برقم ١٣٤٢، والنسائي في قيام الليل ١٩٩/٣، والدارمي في الصلاة، باب صفة صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ٣٤٥/١، وأحمد في المسند ٥٤/٦، كلهم بنحو رواية مسلم،وفي ٩١/٦،١١١،١٦٣،مختصراً،وأخرجه ابن ماجه في الأحكام،باب الحكم فيمن =

فإن هذا الحديث يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان متمثلاً لأخلاق القرآن في سلوكه كله، تمثلاً عمليا بحيث كان صلى الله عليه وسلم صورة مشاهدة لأخلاق القرآن في أفعاله وأقواله، وسيأتي إيضاح هذا مُسهباً في مبحث مستقل إن شاء الله تعالى(١)، وستأتي الدلائل المتكاثرة في كل المباحث الآتيةعلى تحلي رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق من لدن نشأته إلى أن لحق بالرفيق الأعلى، كأعظم مايكون التحلي بها وأجمله بشهادة القرآن الكريم له بذلك حيث قال: ﴿ وإنّك لعلى خُلُقٍ عظيم ﴾[القلم:٤] .

وتحليه صلى الله علي وسلم بتلك المكارم الأخلاقية القرآنية هو تشريع للأمة بها بموجب التأسي والاقتداء.

٣ ـ وأما تشريعه صلى الله عليه وسلم للأخلاق الإسلامية بالتقرير، فذلك بتقريره صلى الله عليه وسلم ما كان عليه العرب من بقايا مكارم الأخلاق التي توارثوها من بقايا دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهي كذلك أخلاق فطرية، وقد شرعها الله تعالى للأمم على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام، كالشجاعة والكرم والمروءة والنجدة والوفاء بالعهد وحماية الجار وإجارة المستجير والقناعة، ونحو ذلك من المكارم الخلقية التي جاء عليه السلام بتأكيدها، كما قالت عائشة رضي الله عنها : "لقد جاء الإسلام وفي العرب بضع وستون خصلة كلها زادها الإسلام شدة، منها قرى الضيف، وحسن

= كسر شيئا برقم ٢٣٣٣، والحاكم في المستدرك ٢/٤٩٩،٦١٣، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي والبيهقي في دلائل النبوة ١/٣٠٨، وابن حبان في باب حسن الخلق برقم ٤٦٧ من الإحسان، وأبو الشيخ في أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه برقم ٢٢، وابن جرير الطبري في تفسيره ٢٩/١٣، وأبو نعيم في دلائل النبوة ص ١٣٩، وسيأتي ذكر رواياته الأخرى في المبحث التالي من هذا المدخل .

(١) انظر ص ٦٦

الجوار، والوفاء بالعهد"(١) .

فقد مر صلى الله عليه وسلم على رجل وهو يعظ أخاه في الحياء ـ أي: ينهاه عنه ويقبح له فعله ويزجره عن كثرته (٢) ـ فقال له عليه الصلاة والسلام: "دعه فإن الحياء من الإيمان"(٣) .

فالنبي صلى الله عليه وسلم أقر الرجل الحيي على حيائه، ونهى الرجل الذي عارضه فيه، عن معارضته إياه عنه؛ لأن الحياء خير كله، ولا يأتي إلا بخير كما سيأتي بيانه في بابه إن شاء الله تعالى (٤) .

وهكذا كان يقر كل خلق كريم توارثه الناس عن أسلافهم، وتعارفوا عليه في مجتمعاتهم، مما ركز في الفطرة الإنسانية ويقره الشرع .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ص ٤١، وقال قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ: ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله تعالى به، وليس من خلق سيء كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه. أهـ تفسير القرآن العظيم ٥٨٢/٢ .

(٢) شرح مسلم للنووي ٦/٣ .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان، باب الحياء من الإيمان ١٤/١، ومسلم في الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان برقم ٣٦ .

(٤) انظر ص ٤٦٥

المبحث الخامس

النصوص المنوهة بخلق النبي صلى الله عليه وسلم

لم تكن الرسالات الإلهية إلا محض اصطفاء إلهي يخص بها الله تعالى من يؤهله لتحمل أعبائها، والنهوض بواجباتها، بما يجعله في المصطفى للرسالة من كمالات خِلقية وخُلقية، حتى إذا ما تهيأ لذلك، وحان وقت بعثه بالرسالة أوحى بها إليه وكلفه بواجب البلاغ المبين، وهذا ما أفاده الله تعالى بقوله: ﴿ اللهُ يصطفي من الملائكةِ رُسلاً ومن النَّاس إنَّ الله سميعٌ بصير ﴾[الحج:٧٥] .

قال الراغب: "والاصطفاء: معناه تناول صفوة الشيء ... واصطفاء الله بعض عباده قد يكون بإيجاده تعالى إياه صافياً عن الشوب الموجود في غيره، وقد يكون باختياره وبحكمه وإن لم يتعر(١) ذلك من الأول" (٢) .

وما أفاده الراغب من معنى الاصطفاء هو ما شهد به التاريخ من واقع الرسل عليهم الصلاة والسلام، حيث أفاد أنهم كانوا صفوة البشر، وأنهم مخلَّصون مما عليه غيرهم من رذائل الأخلاق ورعونات الجاهليات .

ولذلك لم يكن لأحد أن يطمح أو يتشهى أن يدرك النبوة أو يكتسبها بجهده، لأن اصطفاء الله تعالى مغيب عنه، ولا تدرك قوانين الاصطفاء الإلهي بمقاييس البشر، ولقد أنكر الله تعالى على من أراد إخضاع الاصطفاء الإلهي للمعايير التي يتعامل بها البشر من عظمة في الجاه أو المال .. ونحوهما حين قالوا ما قصه الله بقوله سبحانه: ﴿ وقالُوا لولا نُزِّل هذا القرآنُ على رجلٍ مِن القريتين عظيم * أهُم يَقسمون رحمة ربِّك ...﴾ [الزخرف:٣١،٣٢] .

والمراد بـ"رحمة ربك" هنا النبوة فهي قسمة إلهية محضة لا مدخل لأحد فيها من الخلق، ولذلك أنكر الله تعالى عليهم اقتراحهم أشد الإنكار .

---

(١) أي: يخلو .

(٢) المفردات ص ٢٨٣ .

وقوله سبحانه: ﴿ وإذا جاءتهم آيةٌ قالوا لن نُؤمن حتَّى نُؤتَى مثل ما أُوتـيَ رُسـلُ اللـه اللهُأعلم حيث يجعلُ رِسالته سيصيبُ الَّذين أجرموا صَغارٌ عنـدَ اللـهِ وعـذابٌ شـديد بمـا كانوا يمكرون ﴾[الأنعام:١٢٤]، "والمعنى: أن للرسالة موضعا مخصوصا لا يصلح وضعها إلا فيه، فمن كان مخصوصا موصوفا بتلك الصفات التي لأجلها يصلـح وضـع الرسـالة فيـه، كان رسولا وإلا فلا، والعالم بتلك الصفات ليس إلا الله تعالى"(١) .

ولما أراد الله تعالى أن يكون محمد صلى الله عليـه وسـلم خـاتم أنبيائـه ورسـله، هيـأه لذلك واصطفاه على العالمين بهذه الرسالة، ورشحه لحملها بجعله في ذروة الكمال الخَلقي والخُلقي كما دلت على ذلك نصوص كثيرة من الكتاب والسنة .

الدليل على تكليف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنبوة والرسالة .

والأدلة على تكليف رسول الله صلى الله عليـه وسـلم بالرسـالة مـن الكتـاب والسنـة أكثر من أن تحصر هنا، حيث إن في القرآن الكريم نحو مائتي آيـة تـدل علـى ذلـك، وفي السنة تفصيل ذلك بما يجاوز الحد والعد .

أولاً : الأدلة القرآنية :

ومن آيات القرآن الكريم في هذا المعنى قول الله تعالى : ﴿إنَّـا أرسـلناك بـالحقِّ بشـيراً ونذيراً ولا تُسأَلُ عن أصحابِ الجحيم ﴾[البقـرة:١١٩]، والخطـاب للنبـي صلـى اللـه عليـه وسلم .

وقوله سبحانه: ﴿ وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلت من قبلِهِ الرُّسل ﴾[آل عمران:١٤٤] .

وقوله جل شأنه: ﴿.. وأرسلناكَ للنَّاس رسولاً وكفى باللهِ شهيداً ﴾[النساء:٧٩] .

وقوله عز شأنه: ﴿ يا أيها الرسولُ بلِّغ ما أُنزل إليك من ربِّك وإن لم تفعل فما بلَّغتَ رسالتَهَ والله يعصِمُكَ من الناس ﴾[المائدة:٦٧] .

وقولـه سـبحانه: ﴿ قـل يـا أيُّهـا النـاسُ إنِّـي رسـولُ اللـه إليكـم جميعـا الَّـذي لـه ملـك

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي المسمى بـ"مفاتيح الغيب" ١٣/١٧٦ .

السماوات والأرض لا إلٰه إلا هو يُحيي ويميت فآمِنُوا با لله ورسولِه النَّبيِّ الأميِّ الذي يُؤمن با للهِ وكلماتِه واتَّبعوه لعَّلكم تَهتدون ﴾[الأعراف:١٥٨] . وقوله عز وجل: ﴿ ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالِكم ولكن رسولَ ا لله وخاتَم النبيين ﴾[الأحزاب:٤٠] .

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ يا أيها النَّبيُّ إنا أرسلناك شاهداً ومُبشِّراً ونذيراً وداعياً إلى ا لله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾[سورة الأحزاب:٤٥،٤٦] .

وقوله عز وجل: ﴿ محمدٌ رسولُ ا لله والَّذين معه أشداءُ على الكُفَّار رحماءُ بينهم ...﴾[سورة الفتح:٢٩] .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الواضحة الدلالة على اصطفاء ا لله تعالى لسيدنا محمد ابن عبدا لله صلى ا لله عليه وسلم بالرسالة الخاتمة المفضلة على سائر الرسالات السابقة .

ثانياً : الأدلة الحديثية :

أما الأدلة على ذلك من السنة المطهرة فهي أيضاً من الكثرة على نحو ما سبق من دلائل القرآن، ومن ذلك :

١ ـ قوله صلى ا لله عليه وسلم: "إن ا لله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم"(١) .

٢ ـ وقال عليه الصلاة والسلام: "إن ا لله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فريقين فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً"(٢) .

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل، باب فضل نسب النبي صلى ا لله عليه وسلم برقم ٢٢٧٦، والترمذي في المناقب، باب ما جاء في فضل النبي صلى ا لله عليه وسلم برقم ٣٦٠٥ـ٣٦٠٦، وأحمد في المسند ١٠٧/٤، من حديث واثلة بن الأسقع رضي ا لله عنه .

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب، باب فضل النبي صلى ا لله عليه وسلم برقم ٣٦٠٧، وأحمد في المسند ٢١٠/١، وحسنه الترمذي من حديث العباس بن عبدالمطلب رضي ا لله عنه .

٣- وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه(١) قال: "إن الله عز وجل نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد صلى الله عليه وسلم خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالاته، ثم نظر في قلوب العباد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه صلى الله عليه وسلم يقاتلون عن دينه، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند الله سيء" (٢) .

والمراد بالمسلمين: المستمسكين بدين الله، فإنهم يكونون معياراً صادقاً للحكم على ما يجدّ من الأشياء، ولا يعتبرون ما جاء مخالفاً لنصوص الشرع الإلهي .

إلى غير ذلك من الأدلة الناطقة باصطفاء الله تعالى لسيدنا محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم ليكون خاتم أنبيائه ورسله ، ويبعثه بأفضل الشرائع لأفضل الأمم .

وحيث إن الله تعالى قد اختاره للقيام بأعباء هذه الرسالة المفضلة، فإنه بلا ريب قد رشحه لذلك بخلقه على صفة الكمال البشري حساً ومعنى، خلقا وخُلقا، وقد تضافرت آي القرآن الكريم وأحاديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم على بيان ذلك إجمالا وتفصيلا كما سيأتي إيضاحه في كل مباحث الرسالة، غير إن المقام هنا يقتضي تقديم ذكر مجملات **لتلك** النصوص من الكتاب والسنة الدالة على مبلغ الكمال الخلقي للنبي صلى الله عليه وسلم لتعطي صورة مجملة على كل جزئيات الأخلاق، وتكون تلك الجزئيات بمثابة الإيضاح والبيان لما قدم هنا، فيعظم ترسيخ أخلاق النبوة الخاتمة في أنفس القارئين من المؤمنين والدعاة المخلصين .

---

(١) هو عبدالله بن مسعود بن غافل أحد السابقين إلى الإسلام وأكابر علماء الصحابة كان صاحب سواك رسول الله صلى الله عليه وسلم ونعله، مناقبه جمة أمَّره عمر رضي الله عنه على الكوفة، توفي سنة ٢٢ بالمدينة. انظر الإصابة ٣٦٨/٢ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣٧٩/١، وفي فضائل الصحابة ٣٦٧/١، والحاكم في المستدرك ٧٨/٣، وصحح إسناده ووافقه الذهبي وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٨٣/١، إلى أحمد والبزار والطبراني في الكبير، قال: ورجاله موثقون .

الآيات القرآنية المنوهة بخلق النبي صلى الله عليه وسلم .

وأول ما يتبادر إلى الذهن ويسهل الاستدلال به من تلك الدلائل القرآنية المجملة هو قول الله تعالى في سورة القلم: ﴿ ن والقلمِ وما يَسطرون * ما أنتَ بنعمةِ ربِّك بمجنون * وإنَّ لك لأجراً غيرَ ممنون * وإنَّك لَعلَى خُلُق عظيم ﴾[١-٤] .

(والخلق العظيم هو الخلق الأكرم في نوع الأخلاق وهو البالغ أشد الكمال المحمود في طبع الإنسان فهو أرفع من مطلق الخلق الحسن) (١) .

وهذه الآية الكريمة شهادة عظيمة للنبي صلى الله عليه وسلم بأعظم وصف "يعجز كل قلم، ويعجز كل تصور عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود، وهي شهادة من الله في ميزان الله لعبد الله يقول له فيها: ﴿ وإنَّك لعلى خُلُق عظيم ﴾ ومدلول الخلق العظيم هو ما هو عند الله !! مما لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين .

ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمد صلى الله عليه وسلم تبرز من نواح شتى:

١ - تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال، يسجلها ضمير الكون وتثبت في كيانه وتترد في الملأ الأعلى إلى ما شاء الله .

٢ - وتبرز من جانب آخر من جانب إطاقة محمد صلى الله عليه وسلم لتلقيها وهو يعلم من ربه قائل هذه الكلمة، من هو ؟ ما عظمته ؟ ما دلالة كلماته ؟ ما مداها ؟ ما صداها ؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة التي يدرك هو منها ما لا يدركه أحد من العالمين .

إن إطاقة محمد صلى الله عليه وسلم لتلقي هذه الكلمة من هذا المصدر وهو ثابت لا ينسحق تحت ضغطها الهائل - ولو أنها ثناء - ولا تتأرجح شخصيته تحت وقعها وتضطرب .. تلقِّيه لها في طمأنينة وفي تماسك وتوازن، هو ذاته دليل على عظمة

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢٩/٦٤ بتصرف .

شخصيته فوق كل دليل» (١) .

وقد كانت هذه الشهادة الكبرى لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أوائل بعثته بالرسالة حيث كانت هذه الآيات من أوائل ما نزل من القرآن، قيل إنها نزلت بعد العلق(٢)، وهذا يدل على أن عظمة أخلاقه صلى الله عليه وسلم كانت بالفطرة التي فطره الله عليها، ثم زادت عظمتها بالوحي الإلهي والتأديب الرباني .

ولقد دل على ذلك اشتهاره صلى الله عليه وسلم في أوساط قومه بزكاء الأخلاق وعظمتها منذ الحداثة حتى لقب بـ"الأمين" وشهدوا له بذلك في غير موطن، ولم يستطع أحد منهم ـ بعد أن عادوه لرسالته ـ أن يمس جنابه العظيم بجرح أو ثلم، ولو عثروا على شيء من ذلك ولو قليلا لكفاهم مؤنة كبيرة في صد الناس عن الإيمان به صلى الله عليه وسلم، ولما اضطرهم الحال إلى أن يبحثوا عن وسائل أخرى مفتراة لصد الناس عن الإيمان، أو يرمونه بما يعلمونه من براءته منه وبعده عنه كالسحر والكهانة والشعر والجنون ... وغير ذلك مما لم يضلوا به إلا أنفسهم وما يشعرون .

وقد شهد الله تعالى لحبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم بعظمة الخلق، ولم يشهد بمثل ذلك لأحد من الأنبياء؛ لأنه تعالى قال له: ﴿ أولئِكَ الَّذين هدَى اللهُ فبِهُداهم اقتده ﴾[سورة الأنعام:٩٠]، "فأمر عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بكل واحد من الأنبياء المتقدمين فيما اختص به من الخلق الكريم، فكان كل واحد منهم مختصا بنوع واحد، فلما أمر محمد عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بالكل، فكأنه أمر بمجموع ما كان متفرقا فيهم .

---

(١) في ظلال القرآن للسيد قطب رحمه الله تعالى ٣٦٥٦/٦، وله كلام نفيس طويل على هذه الآية فينبغي أن ينظر، وانظر الأربعين في أصول الدين للفخر الرازي ص ٣١٢ .

(٢) كذا جاء عن جابر بن زيد، والأصح ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري في بدء الوحي ٦/١، ومسلم في الإيمان برقم ١٦٠، أن أول ما نزل سورة اقرأ باسم ربك، ثم فتر الوحي، ثم نزلت سورة المدثر. انظر: التحرير والتنوير ٥٨/٢٩ .

ولما كان ذلك درجة عالية لم يتيسر لأحد من الأنبياء قبله، لا جرم وصف الله خلقه بأنه عظيم"(١) .

ولم يكن وصف الله تعالى لنبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم بعظمة الخلق مجرد إخبار عن واقع حال هذا النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم وإن كانت أخباره صدقا وعدلا .

بل ساق هذه الشهادة وذلك الوصف العظيم في جواب الأقسام التي أقسم بها سبحانه على براءة محمد صلى الله عليه وسلم مما اتهموه به من الجنون، "إشارة إلى أن الأخلاق الحسنة مما لا تجامع الجنون، وأنه كلما كان الإنسان أحسن أخلاقاً، كان أبعد عن الجنون" (٢) .

وأكد ذلك بمؤكدات كثيرة هي :

١ - وقوعه في جواب القسم .

٢ - "إن" المؤكدة .

٣ - إبراز كاف الخطاب تشريفا له وتنويها بشأنه .

٤ - "اللام المؤكدة التي هي في موضع القسم عوضاً عن المزحلقة" (٣) .

ثم عبر بـ"على" الدالة على الاستعلاء والتمكن، لبيان قوة تمكن الأخلاق العظيمة فيه صلى الله عليه وسلم، واستعلائه على أي خلق عظيم يمكن أن يتحلى به أحد من الخلق، وكل ذلك لتتأصل هذه الشهادة العظيمة في ذهن السامع، وتدفعه إلى البحث عن المظاهر الأخلاقية العظيمة في رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أجمل الله تعالى ذكرها في هذه الآية الكريمة .

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٨٠/٣٠ .

(٢) روح المعاني للسيد محمود الألوسي ٣٠/٢٩ .

(٣) الجدول في إعراب القرآن د. محمود الصافي ٢٤/٢٩ .

وقد تكرر مثل هذا الأسلوب الاستعلائي في كلامه سبحانه وتعالى عن أخلاق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقامات مختلفة كما في قوله تعالى : ﴿ إنَّك لَعلى هُدىً مستقيم﴾[الحج:٦٧]، وقوله سبحانه : ﴿ إنَّك على الحقِّ المبين ﴾[النمل:٧٩]، وقوله جل شأنه : ﴿ إنَّك على صراط مُستقيم ﴾[الزخرف:٤٣]، إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان على ذروة الذرى من كمال الأخلاق وعظمتها في كل مجالات الأخلاق الإيمانية والتعبدية والفردية والاجتماعية ..

سر وصف أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم بالعظمة دون الكرم .

ولم أر من تعرض للبحث عن سر العدول عن لفظ (الكريم) الذي هو شائع في وقوعه وصفا للأخلاق، الى وصف أخلاقه صلى الله عليه وسلم بالعظمة، غير أبي عبدالله الحَليمي (١) في كتابه القيّم "المنهاج في شعب الإيمان" فقد بحث عن ذلك السر وبينه في قوله: "الأغلب أن الخلق يوصف بالكريم دون العظيم، لكن الوصف بالكريم يراد به الثناء على صاحبه بالسماحة والديانة، ولم يكن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصورا على هذا بل كان رحيماً بالمؤمنين، رفيقاً بأولياء الله أجمعين، غليظاً على الكافرين، شديدا على المخالفين، لا يغضب لنفسه ولكن يغضب لربه أشد الغضب حتى ينتقم له، وكان مهيبا في صدور الأعداء، منصورا بالرعب، ينهزم العدو منه مسيرة شهر فرَقا منه، فلم يكن من حقه أن يقتصر في وصف خلقه على الكريم، بل كان الوصف بالعظيم أولى به ليدخل فيه الإنعام والانتقام معاً، والغلظ والشدة جميعاً، ويعلم أنه لم يكن ينصرف راجي خير منه بيأس، ولا يسلم له عدو من بأس" (٢) .

وهذا كلام نفيس جدا؛ لأن الشدة على الكافرين، والغلظة عليهم، هي من أكمل

---

(١) هو الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري الجرجاني ، كان رئيس أهل الحديث فيما وراء النهر ، توفي سنة ٤٠٣ هـ. ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٣١/١٧ - ٢٣٣ ، والأعلام ٢٣٥/٢ .

(٢) المنهاج في شعب الإيمان ٧٣/٢ .

الأخلاق وأعظمها؛ لأن مكارم الأخلاق تقتضي وضع الحق في نصابه والسير على منهج الله وشرعه، ومن كفر بالله تعالى كان من حق الله على عباده أن يعيدوه إلى الرشد والصواب، رحمة به أولاً، وإعادته إلى الفطرة التي خلق عليها ثانياً، وذلك هو ما تقتضيه الحكمة العقلية والفطرة الإنسانية، ولذلك مدحت العرب من يستعمل الأخلاق في مواطنها من رحمة ورهبة، وقسوة ورأفة .. فقالوا :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم

وقالوا أيضاً :

ووضع النَّدَى في موضع السيف بالعُلى مضر كوضع السيف في موضع النَّدَى

توازن أخلاقه صلى الله عليه وسلم :

وقد كان من عظمة أخلاقه صلى الله عليه وسلم التكافؤ في الأخلاق بحيث كان في كل مظهر من مظاهر الأخلاق، تبدو أخلاقه متكافئة، بحيث لا يطغى جانب من أخلاقه على جانب آخر، ولا مظهر على مظهر، فكان "صبره صلى الله عليه وسلم مثل شجاعته، وشجاعته مثل كرمه، وكرمه مثل حلمه، وحلمه مثل رحمته، ورحمته مثل مروءته .. وهكذا لا نجد له صلى الله عليه وسلم خلقاً في موضعه من الحياة يزيد أو ينقص على خلق آخر في موضعه منها ـ كمالا وتماما وعظمة ـ وهذا التكافؤ الخلقي في شخصية محمد صللى الله عليه وسلم يوشك أن يكون معجزة الحياة في الإنسان؛ لأن التاريخ لم يذكر من النماذج العليا للبشريةمن كان هذا التكافؤ الخلقي خليقته العامة سوى الرسل عليهم الصلاة والسلام، وعلى رأسهم أولو العزم، ويجمع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هذا التوازن بأبهى صوره، بحيث إذا ذكر غيره من النماذج العليا ذكره عنواناً لتبرير جزئي في بعض الأخلاق والفضائل، فهذا مثل مضروب في الصبر، وذاك في الحلم، وثالث في الكرم، ورابع في الشجاعة... وهكذا تتفرق النهايات في الأخلاق والفضائل في نماذج متعددة، ولكنها تجتمع متكافئة في شخصية محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا هو سر الإعجاز الإنساني في حياته صلى الله عليه وسلم (١) .

---

(١) محمد رسول الله للشيخ محمد الصادق عرجون ٢١١/١ .

أخلاقه صلى الله عليه وسلم من أعلام النبوة :

ولذلك كانت أخلاقه صلى الله عليه وسلم علماً من أعلام النبوة، ودليلاً من أدلتها؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ من الأخلاق ذروة الكمال بحيث لم يكن في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وما داني طرفيه ، من قاربه في فضله ولا داناه في كماله خلقا وخلقا، وقولاً وفعلاً، وبذلك وصفه الله تعالى في كتابه بقوله : ﴿ وإنَّك لعلى خُلق عظيم ﴾ .

وبلوغه صلى الله عليه وسلم من الأخلاق ذروة الكمال مُعوِزٌ فصار كالمعجز كما قال الماوردي (١) ـ رحمه الله تعالى ـ : "ولأن من كمال الفضل اجتناب الكذب، وليس من كذب في ادعاء النبوة بكامل الفضل، فصار كمال الفضل موجبا للصدق، والصدق موجبا لقبول القول فجاز أن يكون من دلائل الرسل" (٢) أهـ .

وقد عد الفخر الرازي (٣) ـ رحمه الله تعالى ـ من معجزاته (٤) صلى الله عليه وسلم الحسية كمال أخلاقه عليه الصلاة والسلام ، قال :

"وكان عليه الصلاة والسلام في كل واحدة من هذه الأخلاق الكريمة في الغاية القصوى من الكمال، وكان متمكنا فيها، مستجمعا لها بأسرها، ولا يتفق ذلك لأحد من

---

(١) هو الإمام علي بن محمد بن حبيب، أبو الحسن الماوردي، أقضى قضاةعصره، له تصانيف كثيرة منها الحاوي و"أدب الدنيا والدين" و"الأحكام السلطانية" و"أعلام النبوة" ... توفي سنة ٤٥٠ هـ، سير أعلام النبلاء ٦٤/١٨ ، والأعلام ٣٢٧/٤ .

(٢) أعلام النبوة ص ٢٨١ .

(٣) هو الإمام المفسر محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل، له مؤلفات كثيرة منها التفسير الكبير المسمى "مفاتيح الغيب" و"الأربعون في أصول الدين" وغيرهاكثير، توفي سنة ٦٠٦ هـ، سير أعلام النبلاء ٥٠٠/٢١ ، والأعلام ٣١٣/٦ .

(٤) المعجزة: هي الأمر الخارق للعادة الداعية إلى الخير والسعادة المقرونة بدعوى النبوة، يقصد بها إظهار صدق من ادعى أنه رسول الله. أهـ التوقيف على مهمات التعاريف لعبد الرؤوف المناوي ص ٦٦٥ .

الخلق غير أهل العصمة من الله تعالى، فكان اجتماع ذلك في صفاته من أعظم المعجزات" (١) .

هذا وأراني قد توسعت في الكلام على هذه الآية لعظمتها، وجلال دلالتها، وشمول معناها، وهناك آيات أخرى كثيرة منوهة بخلقه صلى الله عليه وسلم .

٢ - ومن تلك الآيات : قوله تعالى: ﴿ فبما رحمةٍ من اللهِ لنتَ لهم ولو كُنتَ فظاً غليظَ القلبِ لانفضُّوا من حولِك فاعفُ عنهم واستَغفِر لهم وشاوِرهم في الأمر فإذا عزمتَ فتوكَّل على الله إنَّ اللهَ يُحبُّ المتوكلين ﴾[سورة آل عمران:١٥٩] .

فإن في هذه الآية إشادة عظيمة بخلق النبي صلى الله عليه وسلم حتى قال الحسن البصري (٢) - رحمه الله تعالى - : "هذا خلق محمد صلى الله عليه وسلم نعته الله عز وجل"(٣)، وذلك أن اللين والرحمة اللتين وصفه الله تعالى بهما هما عمودا الأخلاق الحسنة التي مجدها الإسلام، وجعلها أحد أصوله العظام .

وقد أثبتهما الله تعالى لنبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم، ونفى عنه ما يقابلهما من الأخلاق السيئة وهما الغلظة والفظاظة، وذلك لتأكيد كمال أخلاقه صلى الله عليه وسلم وعظمتها .

وإذا كانت الآية الأولى ﴿ وإنَّك لَعلى خُلُق عظيم ﴾ قد نزلت في أول الوحي حيث التكذيب والأذى والاستضعاف، فإن الآية الثانية نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم في منعة من المسلمين وقوة من المجاهدين، ومع ذلك لم تتغير أخلاقه صلى الله عليه وسلم بعد هذه السنين الطويلة التي مرت بين الآيتين، ورغم اختلاف الأحوال الداعية إلى

---

(١) الأربعين في أصول الدين ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٢) هو الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، ثقة فقيه فاضل يعد رأس أهل الطبقة الثالثة وهي الطبقة الوسطى من التابعين، أدرك جماعة من الصحابة، وتوفي سنة ١١٠ هـ، طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٣٥ رقم ٦٤، وحلية الأولياء لأبي نعيم ١٣١/٢، وغيرهما .

(٣) أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم لأبي الشيخ الأصبهاني ت ٣٦٩ ص ١٩ رقم ١٠ .

اختلاف الطبائع والأخلاق في العادة، غير أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزدد على مر الأيام وتحقيق النصر إلا رسوخاً في الأخلاق ، وكمالا في العظمة، كيف لا ؟ وشهادة الله تعالى له بعظمة الخُلُق، شهادة مستمرة لا يطرأ عليها التغير بتغير أحواله في مستقبل دعوته وأيام حياته .

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿ لقد جاءَكم رسولٌ من أنفُسِكم عزيزٌ عليه ما عنِتُّم حريصٌ عليكم بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيم ﴾[سورة التوبة:١٢٨] .

فإن هذه الآية تبين ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من الأخلاق العظيمة تجاه أمة دعوته "من كونه يعز عليه مشقتهم في سوء العاقبة من الوقوع في العذاب، ويحرص على هداهم ويرأف بهم ويرحمهم" (١) .

وهذه الآية من أواخر ما نزل، حيث نزلت بعد غزوة العسرة في السنة التاسعة، ففيها دلالة أخرى على ثبات عظمة أخلاقه صلى الله عليه وسلم، ولذلك كان امتنان الله على العرب خاصة والبشرية عامة عظيما، بقدر عظم هذا النبي صلى الله عليه وسلم وعظمة أخلاقه، التي كان منها اتصافه بصفتين من أعظم الأخلاق وهما: الرأفة والرحمة، قال في "التحرير والتنوير" (٢): "وذكر هذا في صفة الرسول عليه السلام يفيد أن هذا خلق له فيكون أثر ظهوره: الرفق بالأمة، والحذر مما يلقي بهم إلى العذاب في الدنيا والآخرة، ومن آثار ذلك : شفاعته للناس كلهم في الموقف لتعجيل الحساب، قال: ثم إن ذلك يومىء إلى أن شرعه جاء مناسباً لخلقه، فانتفى عنه الحرج والعسر، قال تعالى: ﴿ يريدُ اللهُ بكم اليُسر ولا يُريد بكم العُسر ﴾[سورة البقرة:١٨٥]، وقال: ﴿ وما جعلَ عليكم في الدِّين من حرج ﴾[سورة الحج:٧٨] أهـ .

والآيات المنوهة بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم غير هذه كثيرة سيأتي ذكرها في مناسبات ذكرها من المباحث المتفرقة إن شاء الله تعالى .

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ١١٧/٥ .

(٢) للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ٧٢/١٠ .

الأحاديث المنوهة بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم

أما الأحاديث المنوهة بأخلاقه صلى الله عليه وسلم فهي من الكثرة بالمحل الذي استدعى علماء الأمة في عصورها الأولى إلى جمعها في مصنفات خاصة كما فعل الحافظ أبومحمد عبدالله بن محمد بن جعفر الأصبهاني المعروف بأبي الشيخ،المتوفي سنة ٣٦٩ هـ، في كتابه الموسوم: "أخلاق النبي صلى الله عليه وآدابه" .

أو مصنفات عامة هي كتب السير والشمائل والتي تضم ـ ولا سيما كتب الشمائل ـ أبوابا خاصة تعني ببيان أخلاقه صلى الله عليه وسلم، ونحوها كتب السنة عامة؛ جوامعها وسننها ومسانيدها .. فإنها أيضا تعنى ببيان الأخلاق، وأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم هي محورها سواء كانت فعلية أو قولية ؛ سلوكية أو توجيهية .

والذي يجدر ذكره هنا من تلك الدلائل الكثيرة المنوهة بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، هو إخبار أصحابه صلى الله عليه وسلم الذين عاشروه وسبروا أخلاقه فعبروا عنها بألسنتهم، بعدما ملأت قلوبهم وأفعالهم .

وهي أخبار كثيرة، ولكن نقتصر من ذلك على الحديثين الصحيحين المشهورين عن أمَّي المؤمنين خديجة وعائشة ـ رضي الله عنهما ـ، اللتين كانتا أدرى الناس به ظاهرا وباطنا، وذلك تجنبا لكثرة التكرار، وستأتي بقية الأحاديث المنوهة بعظمة أخلاقه صلى الله عليه وسلم في مناسبات ذكرها من مباحث الرسالة .

أولاً : حديث خديجة بنت خويلد(١) أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ في قصة بدء الوحي، وهو حديث مشهور، وجاء فيه قولها ـ رضي الله عنها ـ وهي تطمئن النبي

---

(١) ابن أسد بن عبدالعزى، تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن خمس وعشرين سنة، وهي أول نسائه، ولم يتزوج عليها في حياتها قط، وولدت له جميع أولاده وبناته عدا إبراهيم ـ رضي الله عنه ـ وكانت وزيرة صدق للنبي صلى الله عليه وسلم تفرج همومه وتنفس كربه، وتوفيت قبل الهجرة بثلاث سنين بعد وفاة أبي طالب بثلاثة أيام، وحزن النبي صلى الله عليه وسلم لذلك حزنا شديدا، وسمي عام الحزن، انظر ترجمتها في الإصابة مع الاستيعاب ٢٧٩/٤، وتهذيب الأسماء ٣٤١/٢ .

صلى الله عليه وسلم مما أفزعه من هول الملك في بداية التنزل عليه: ".. كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتُقري الضيف، وتعين على نوائب الحق .." (١) .

شرح الحديث :

فخديجة ـ رضي الله عنها ـ أقسمت على أن الله تعالى لن يخزيه، وأكدت ذلك بلفظ التأبيد، واستدلت على ذلك بنور فطرتها السليمة على ما أقسمت عليه، بأمر استقرائي وهو ما تعرفه عنه من اتصافه بمكارم الأخلاق، التي تعصم صاحبها أن يمسه سوء يكرهه، كما جرت سنة الله في ذلك، وأن له شأنا عظيما، وشأوا بعيدا، غير ما خطر بباله وما خشاه على نفسه، وهو أن الله تعالى ما رشحه بتلك المكارم الأخلاقية إلا لأمر عظيم يحمله عنه لخلقه، وهو الرسالة الخاتمة التي طال ترقبها وانتظارها، لا أن ينيله بعدها بسوء في نفسه أو جسده (٢) .

ونقل الإمام النووي (٣) ـ رحمه الله تعالى ـ عن العلماء معنى قول خديجة ـ رضي الله عنها ـ فقال:

"قال العلماء: معنى كلام خديجة ـ رضي الله عنها ـ إنك لا يصيبك مكروه لما جعل

---

(١) أخرجه البخاري في بدأ الوحي ١/٥، ومسلم في الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم برقم ١٦٠ .

(٢) انظر: محمد رسول الله لمحمد الصادق عرجون ١/٣٠٦،٣٣٣، ففيه كلام نفيس وبحث رصين .

(٣) هو الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري بن حزام النووي، نسبة إلى (نوى) من أعمال حوران في أرض الشام، الملقب بمحيي الدين النووي ـ رحمه الله تعالى ـ كان أوحد زمانه علما وعملا وأمرا بمعروف ونهيا عن منكر، ألف مؤلفات عظيمة نافعة منها "شرحه على مسلم" و"المجموع شرح المهذب" ولم يتمه وغيرهما كثير، توفي سنة ٦٧٦ هـ عن خمسة وأربعين عاما، أفرده بالترجمة تلميذه ابن العطار، والسخاوي، والسيوطي، وترجمت له ترجمة واسعة في كتابي: الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه ط .

الله سبحانه وتعالى فيك من مكارم الأخلاق وجميل الصفات ومحاسن الشمائل، وذكرت ضروبا من ذلك. قال: وفي هذا أن مكارم الأخلاق وخصال الخير سبب للسلامة من مصارع السوء والمكاره" (١) .

وقد وصفت النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الكلمات بعظيم مكارم الأخلاق وشرائف الصفات الاجتماعية التي كانت معهودة آنذاك، حيث وصفته بأصول مكارم الأخلاق في هذا الجانب التي ينضوي تحتها سائر مفرداتها وأنواعها .

"لأن الإحسان يكون إما إلى الأقارب، أو إلى الأجانب، وإما بالبدن أو بالمال، وإما على من يستقل بأمره أو لا يستقل، وذلك كله مجموع فيما وصفته به" (٢) .

ثانياً : حديث عائشة - رضي الله عنها - الذي أجابت به سائلها عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي قالت فيه: "إن خلق نبي الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن .." (٣) .

وفي رواية عنها قالت: "كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ثم قالت: أتقرأون سورة«المؤمنون»؟ قال: قلنا نعم، قالت: اقرأ، قال: فقرأت: ﴿ قد أفلحَ المؤمنون * الّذين هم في صلاتِهم خاشعون * والّذين هم عن اللّغو مُعرضون * والّذين هم لِلزّكاةِ فاعلون * والّذين هم لِفُروجهم حافظون ﴾[١-٥]، فقالت: هكذا كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) .

---

(١) شرحه على البخاري ص ٥٤، ونحوه في شرح مسلم ٢٠٢/٢ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - ٥٦/١ .

(٣) أخرجه مسلم وغيره وتقدم تخريجه ص ٤٨

(٤) أخرجه بهذا اللفظ أبو الشيخ في الأخلاق ص ٢٧، والبيهقي في دلائل النبوة ٣٠٩/١، والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي ٣٣٦/١٢، والحاكم في المستدرك ٣٩٢/٢، وقال عنه: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي في التلخيص، كلهم من طريق يزيد بن بابنوس، وهو مقبول كما قال=

وفي رواية عنها ـ رضي الله عنها ـ قالت: "كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويسخط لسخطه" (١) .

شرح الحديث :

فهذه الروايات تدل بجلاء على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من عظمة وكمال في الأخلاق .

فقد أفادت عائشة ـ رضي الله عنها ـ السائل أنه صلى الله عليه وسلم كان يتمثل القرآن في أقواله وأفعاله وأوامره ونواهيه (وأن كلامه كان مطابقا للقرآن تفصيلا وتبيينا وعلومه علوم القرأن، وإرادته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن، ورغبته فيما رغب فيه القرآن، وزهده فيما زهد فيه، وكراهته لما كرهه، ومحبته لما أحبه وسعيه في تنفيذ أوامره .

فترجمت أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول صلى الله عليه وسلم، عن هذا كله بقولها: كان خلقه القرآن، وقد حَسُن تعبيرها، وجمع من المعاني ما لا يجمعه كثير الكلام .

وفهم السائل عنها هذا المعنى فاكتفى به واشتفى) (٢) ، فهمَّ أن يقوم ولا يسألها عن شيء كما جاء في الحديث، وتأهب لأن يرجع إلى القرآن فيبحث عن مكنونات جواهره

= الحافظ في التقريب برقم ٧٦٩٤، غير أن مرتبته لا تحط من رتبة الحديث عن الصحة أو الحسن نظرا لمتابعاته المارة والآتية، ولذلك صححه الحاكم ووافقه الذهبي .

(١) هذه رواية أبي الدرداء ـ رضي الله عنه أخرجها البيهقي في الدلائل ٣٠٩/١، وعزاها الشوكاني في فتح القدير ٢٧٠/٥ إلى ابن المنذر، وابن مردويه، وذكرها ابن كثير في شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم ٧٤/١، عن يعقوب بن سفيان بسنده إلى أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ .

(٢) المواهب اللدنية لأحمد بن محمد بن أبي بكر الخطيب القسطلاني المتوفي سنة ٩٢٣هـ، ٦٦/٢ بتصرف يسير .

الأخلاقية، ويستدل بها على أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان أوفى من يطبق آياته .

ولا ريب أنه إن فعل ذلك فإنه سيجد بغيته كاملة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد كان متمسكا بآداب القرآن وأوامره ونواهيه ومحاسنه، وجميع ما قصه الله تعالى في كتابه من مكارم الأخلاق عن نبي أو ولي، أو حث عليه أو ندب إليه، كان صلى الله عليه وسلم متخلقا به، وكل ما نهى عنه ونزه عباده عنه، كان عليه الصلاة والسلام لا يحوم حوله؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان يبين القرآن بأقواله وأفعاله وأحواله، وتلك هي مهمته التي كلفه الله تعالى بها بمثل قوله: ﴿ وأنزلنَا إليكَ الذِّكر لِتُبيِّن للناس ما نُزِّلَ إليهم ﴾[النحل:٤٤]، وذلك هو التكليف الذي كلفه الله تعالى به بمثل قوله: ﴿ أولئِك الذين هدى الله فبِهُداهم اقتده ﴾[الأنعام:٩٠] .

غير أن السائل سيعجز عن الإحاطة بكل أخلاقه صلى الله عليه وسلم من خلال ذلك؛ لأنه يعلم "أن معاني القرآن لا تتناهى، فكذلك أوصافه الجميلة الدالة على خلقه العظيم لا تتناهى، إذ في كل حالة من أحواله صلى الله عليه وسلم يتجدد له من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وما يفيضه الله تعالى من معارفه وعلومه ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فإذاً التعرض لحصر جزئيات أخلاقه الحميدة تعرض لما ليس من مقدور الإنسان ولا من ممكنات عاداته" (١) .

وقد أدركت السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ هذا المعنى في السائل، فأرادت أن تقرب له إدراك ما لا بد من إدراكه من تلك الجزئيات الأخلاقية، فأوقفته على مثال واحد وهو ما تضمنته مقدمة سورة "المؤمنون" ليذهب فيستضيء بذلك المثال، لاستنباط أخلاقه صلى الله عليه وسلم من القرآن على ذلك الغرار .

أو دلته على منهج يتبعه في الوقوف على جزئيات أخلاقه صلى الله عليه وسلم من

---

(١) المواهب اللدنية ١/٢٨٨ .

خلال القرآن، كما في رواية أبي الدرداء - رضي الله عنه - ، فدلته على المواطن التي فيها رضاً لله تعالى من صنوف الطاعات والقربات،فيعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كان متخلقا بها، ويرضيه انتهاجها من نفسه ومن أمته، وعلى المواطن التي فيها إغضاب لله تعالى من صنوف الإشراك والمعاصي، فيعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في غاية البعد عنها، وأنه يغضب لاقترافها والعمل بها من أحد من البشر، وإذا غضب لله فلا يقوم لغضبه أحد كما لا يخفى .

ولئن كان مثل سعد بن هشام - رحمه الله تعالى - ، أو أبي الدرداء - رضي الله عنه - قد احتاجا إلى أن توقفهم السيدة عائشة - رضي الله عنها - على طريقة استنباط أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن وهما في عصر الفهم الثاقب، والعلم النافع لصفاء الأفكار، وقرب العهد بالنبوة حينذاك، فإن أبناء الأمة اليوم ، بل ومنذ قرون متقدمة، في أمس الحاجة إلى معرفة أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم التي نوه بها القرآن الكريم، وشهد بعظمتها، من خلال نظره وتشريعه وتوجيهه، وهو ما تبنّته هذه الرسالة التي أرجو أن تسد الفراغ في هذه القضية الأساسية التي يحتاجها المسلمون في كل زمان .

والتي آن الأوان للبدء في مباحثها، فأقول وبالله التوفيق:

البَابُ الأَوَّلُ

أخـلاق القـرآن الإيمانيَّـة والتطبيقات النَّبويَّة لها

وفيه فصلان :

- الفَصْلُ الأَوَّلُ : الأخلاقُ الاعتقَاديَّة .
- الفَصْلُ الثَّانِي : الأخلاقُ السُلوكِيَّة .

تمهيد :

للأخلاق الإسلامية علاقة وثيقة بالإيمان تصل إلى درجة ثبوت الإيمان عند التحلي بها أو فقده عند التخلي عنها أو عن بعضها، وذلك لأن الذي يحمل على التخلي عن رذائل الأخلاق والتحلي بفضائلها، إنما هو الإيمان بشارعها وهو الله تعالى، والمبين لها وهو رسوله صلى الله عليه وسلم، والإيمان بما يترتب عليها من ثواب عند الامتثال ، وعقاب عند الترك، و الإيمان بوجوب طهارة النفس عن دنس المعاصي ، وسوء المعاملة لله تعالى ولعباده .

ولهذا كانت العناية بالأخلاق تالية ومترتبة على العناية بالإيمان بالله واليوم الآخر ، وبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم في تنزل القرآن وأصول الإسلام ، كما تقدم ذكره وبيانه في المباحث السابقة (١).

فلقد كانت أوامر القرآن الكريم ونواهيه في الأخلاق غالبا ما تذكر المؤمنين بتلك العلاقة بين الأخلاق والإيمان، حيث تبدأ أولا بذكر أمور الإيمان بالله .. ثم تأمر بخلق فاضل ، أو تنهى عن خلق سيء ، كما في قوله تعالى : ﴿ قل تَعالوا أتلُ ما حرَّم رُبكم عليكم ألَّا تُشركوا به شيئاً وبالوالدينِ إحساناً ولا تَقتُلوا أولادَكم من إملاقٍ نحن نرزُقكم وإيَّاهم ولا تقربُوا الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بَطن ولا تقتُلوا النَّفسَ الَّتي حرَّم اللهُ إلا بالحق ذلكم وصَّاكم بِه لعلَّكم تعقلون﴾[سورة الأنعام:١٥١-١٥٣] ، فترى أنها أول ما بدأت بتقرير الإيمان بالله وحده، وذلك بإيجاب توحيده ، ونفي الشرك عنه، ثم رتبت الأمر بالوصايا الخلقية الجليلة للدلالة على أن من مقتضيات الإيمان بالله تعالى ترك تلك المحرمات، التي هي بؤر الفساد الخلقي، وامتثال تلك المأمورات التي تمثل الكمال الأخلاقي، من إيفاء الكيل، والقول بالعدل، والوفاء بالعهد، واتباع صراط الله المستقيم، وهو شرع الإسلام الذي بعث به محمد عليه الصلاة والسلام .

---

(١) انظر ص١٤.

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ يأمرُ بالعدل والإحسان وإيتاءِ ذِي القُربى ويَنهى عن الفحشاءِ والمنكر والبغي يَعظُكم لعلَّكم تذكرون * وأوفُوا بعهدِ الله إذا عاهدتُم ولا تنقُضوا الأيمانَ بعد توكيدها وقد جعلتُم اللهَ عليكم كفِيلا إنَّ الله يعلمُ ما تَفعلون ﴾ [سورة النحل:٩٠،٩١] .

فترى أن الله تعالى يقرر لعباده أولاً ألوهيته، فإذا أقروا بذلك فعليهم أن يمتثلوا أوامره التي حضهم فيها على مكارم الأخلاق؛ من العدل مطلقا، والإحسان عامة، وإيتاء الأقربين، وإيفاء العهود والإيمان .

ونهاهم فيها عن الفحشاء كله، والمنكر عامته، والبغي على ولاة الأمر، وذلك بمقتضى إيمانهم بالله تعالى .

وكذا قوله تعالى : ﴿ وقضى ربُّك أن لا تَعبدوا إلَّا إياهُ وبالوالدينِ إحسانا ...﴾ [سورة الإسراء:الآيات من٢٣ إلى ٣٨] .

فأول ما أعلمه به هو إثبات ربوبيته سبحانه، واستحقاقه للعبودية وحده، ثم بعد ذلك فصل لهم جملة من مكارم الأخلاق ليتخلقوا بها، وجملة من مساوئها ليتخلوا عنها.

وهكذا نجد القرآن عند حديثه عن الأخلاق أمرا ونهيا، غالبا ما يبدأ بتقرير الإيمان ، ثم بعد ذلك يبين للناس حكم الله تعالى: من مكارم خلقية، أو مفاسد فردية أو اجتماعية، ورحم الله ابن مسعود فكأنه كان يقرر هذه القاعدة حين قال: "إذا سمعت الله تعالى يقول : يا أيها الذين آمنوا، فارعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه"(١) .

---

(١) أخرجه عبدالله بن المبارك في الزهد ص ١٢ رقم ٣٦، والإمام أحمد في الزهد ص٢٣١ رقم ٨٦٤، وأبو نعيم في الحلية ١/١٣٠ .

فهو هنا يقرن بين الإيمان، وما يرتب الله تعالى عليه من خير يطلب، أو شر يجتنب .

ومكارم الأخلاق ومساوئها يدوران في فلك الخير والشر الذين عبر بهما ـ رضي الله عنه ـ ، إذ مكارم الأخلاق خير محض، ومساوئها شر محض .

ويوضح كل ما ذكرته قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: "أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا"(١) إذ يصرح هذا الحديث على أن كامل الخلق هو كامل الإيمان، وسيء الخلق ناقصه، فدل على أن علاقة الأخلاق بالإيمان علاقة تلازم،حيث إنها علاقة أصل بأصل لا يكمل أحدهما حتى يكمل الآخر.

لهذا كله كان منهجي في هذه الرسالة أن أبدأ بـ (الأخلاق الإيمانية) ؛ لأنها أصول الأخلاق، المتممة لأصل الدين وهو (الإيمان)، والابتداء بالأصل هو الأصل، إذ الفرع إنما ينبني عليه .

ومعلوم أن الأخلاق الإيمانية كثيرة، لذلك نقتصر على ما عني القرآن بذكره منها كشأني في الرسالة كلها، كالرضا والتوكل، والرجاء والخشية والخوف، والاخلاص والاستقامة، والشكر والمحبة ...

ولما كانت هذه الأخلاق منها ما تأخذ حكم الوجوب لضرورتها في تحصيل الإيمان، إذ لا يفقدها إلا عاطل عن الإيمان الصحيح، وذلك كالتسليم بقضاء الله تعالى وقدره، والتوكل على الله، وتعلق الرجاء به، والخشية له، والخوف منه ،**ومنهاماهودون ذلك**،

لما كان الأمر كذلك قسمت الأخلاق الإيمانية إلى فصلين تبعا لضرورتها، وأهميتها للإيمان، ودرجة لزومها ووجوبها له، أو قربها من ذلك؛ فجعلت الفصل الأول في الأخلاق الاعتقادية، والثاني في الأخلاق السلوكية، وذلك ليسهل بحثها، وتعظم فائدتها، وهذا أوان الشروع في**المقصود**فأقول وبالله التوفيق :

---

(١) حديث صحيح تقدم ذكره وتخريجه ص٢٣

الفَصْلُ الأَوَّلُ

الأَخـــــلاقُ الاعـــتقَـاديـَّـةُ

وفيه مباحث :

١ ـ الرضا .

٢ ـ التوكل .

٣ ـ الخوف والخشية .

٤ ـ الرجاء .

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

(الرِّضا)

الرضا في اللغة ضد السخط: يقال: رضي يرضى رضاً فهو مرضي، ومرضو، : إذا لم يسخط (١) .

وفي الاصطلاح : هو طيب النفس بما يصيبه ويفوته مع عدم التغير .

ويقال : هو سرور القلب بمُرِّ القضاء (٢) .

وهذا التعريف يحدد معنى الرضا في جانب العبد، ولكن القرآن الكريم قد تحدث عن نوعين من الرضا هما: رضا العبد، ورضا الرب ـ جل شأنه ـ ، غير أن مجال البحث إنما هو رضا العبد، أما رضا الرب ـ جل شأنه ـ فأذكره هنا من باب الكمال والإتمام ، مقدما إياه على غيره لشرف مقامه عن غيره.

النوع الأول : رضا الرب جل في علاه على عباده.

وهو صفة ثابتة لله عز وجل لا نعلم كنهها ونعلم أثرها، وهو أكبر من كل مايتصوره العقل البشري كما قال سبحانه: ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾[سورة التوبة ٧٢] . وينال ذلك الرضى الذين (يأتمرون بأمره وينتهون عن نهيه)(٣) .

وهؤلاء قد بينهم القرآن الكريم بصفاتهم وهم:

١ـ من أكرمهم الله تعالى بصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم فأخذوا الدين بشوق واقبال وقوة نفس وصدق عزم وقد نص الله سبحانه وتعالى على رضاه عنهم في غير منها قوله سبحانه: ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه ..﴾[سورة التوبة ١٠٠].

وقوله جل شأنه: ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ [سورة الفتح:١٨] .

---

(١) القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي ٣٣٤/٤، والمفردات للراغب الأصفهاني١٩٧.

(٢) التوقيف على مهمات التعريف لعبد الرؤوف المناوي ص ٣٦٥،٣٦٦ .

(٣) المفردات ص ١٩٧ .

وقد كان هؤلاء الصحابة أحرص الناس على رضوان الله تعالى، فكانوا يجتهدون في اكتسابه بفعل المأمورات، وترك المنهيات، والاستقامة على الطاعات، كما قال سبحانه: ﴿ محمدٌ رسولُ اللهِ والَّذين معه أشداءُ على الكُفَّار رحماءُ بينهم تَراهم رُكَّعًا سُجَّدًا يَبتغون فضلًا من اللهِ ورِضواناً سِيماهم في وُجوهِهم من أَثرِ السجود..﴾[سورةالفتح:٢٩] .

٢ ـ التابعون للصحابة بإحسان وهم الذين كانوا مقتفين لآثار الصحابة في الهداية والسداد، كما دلت على ذلك آية التوبة الآنفة الذكر .

٣ ـ من سار على نهج الصحابة والتابعين في الإيمان والعمل الصالح، كما قال سبحانه: ﴿ إنَّ الذين آمنوا وعمِلُوا الصَّالحات أولئِك همُ خيرُ البريَّة * جزاؤُهم عندَ رَّبهم جناتُ عدنٍ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها أبداً رضيَ اللهُ عنهم ورضُوا عنه ذلك لمن خشي ربه ﴾[سورة البينة:٧،٨] .

٤ ـ أهل التضحية والجهاد في سبيله سبحانه من الصحابة ومن بعدهم، كما قال جل شأنه : ﴿ الَّذين آمنوا وهَاجروا وجاهَدوا في سبيلِ الله بأموالِهم وأنفسِهم أعظمُ درجةً عند الله وأولئِك هم الفائِزون * يبشِّرهم ربُّهم برحمةٍ منه ورضوانٍ وجنَّاتٍ لهم فيها نعيم مقيم ﴾[التوبة:٢٠،٢١] .

والآية الكريمة عامة الدلالة، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

٥ ـ أهل المودة للمؤمنين دون الكافرين ولو كانوا أقرب الأقربين، كما قال تعالى : ﴿ لا تجدُ قوماً يُؤمنون باللهِ واليومِ الآخر يوادُّونَ من حادَّ الله ورسولَه ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانهم أو عشيرتَهم أولئِك كتبَ في قُلوبهم الإيمانَ وأيَّدهم بروحٍ منه ويدخلُهم جنَّاتٍ تجَري من تحتِها الأنهارُ خالدين فيها رضيَ اللهُ عنهم ورضُوا عنه أولئِك حزبُ اللهِ ألا إنَّ حِزبَ الله هم المفلحون ﴾[سورة المجادلة:٢٢] .

٦ ـ أهل الصدق مع الله ومع النفس ومع الناس كما قال سبحانه : ﴿ قال اللهُ هذا يومُ يَنفعُ الصَّادقين صدقُهم لهم جنَّاتٌ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضُوا عنه ذلك الفوزُ العظيم ﴾[سورة المائدة:١١٩] .

٧ ـ أهل التقوى لله عز وجل كما قال سبحانه : ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي من تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها وأزواجٌ مطهَّرة ورِضوانٌ من اللهِ والله بصيرٌ بالعباد﴾[سورة آل عمران:١٥] .

فهذه بعض صفات المرضي عنهم التي دل عليها الكتاب العزيز، فمن كان فيه صفة من هذه الصفات فقد حصل على سبب من أسباب رضوان الله تعالى، وعليه أن يسعى الى المزيد ويثبت عليه حتى يلقى الله تعالى وهو على ذلك، فيجد وعد الله محققا في جنات النعيم، وتلك هي الغايات التي يتمناها المؤمنون في تلك الجنات كما سيأتي بيانه قريبا إن شاء الله تعالى.

وليست هذه الصفات حاصرة لأسباب رضوان الله تعالى، بل هذه أسباب معلومة ومحققة له إن شاء الله، ولكن هناك أسباب كثيرة تحقق رضوان الله تعالى غير محصورة بالتحديد، وإنما يطلع عليها هو سبحانه من أحوال القلوب وتعلقها به تعالى ولو في أشياء يسيرة، لكنها تكون عند الله تعالى عظيمة محبوبة كما دل على ذلك حديث أنس بن مالك (١) ـ رضي الله عنه ـ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها"(٢) .

وفي حديث آخر عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه

---

(١) ابن النضر بن حرام الأنصاري الخزرجي النجاري، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، كناه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا حمزة، خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة حياته في المدينة وذلك عشر سنين، ونال بركة دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم، فكان من أكثر الصحابة أولاداً ومالاً، ومن آخرهم وفاة، حيث توفي سنة ٩٣ هـ بالبصرة، وهو آخر من مات بها من الصحابة رضي الله عنهم، انظر: طبقات ابن سعد ١٧/٧، والاستيعاب مع الاصابة ٧١/١، وتهذيب الأسماء واللغات ١٢٧/١ .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب برقم ٢٧٧٤، والترمذي في الأطعمة، باب ما جاء في الحمد إذا فرغ من الطعام برقم ١٨١٧ .

الله بها في الجنة، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم" (١) .

فدل هذان الحديثان على أن الله تعالى أخفى رضاه في طاعته، كما أخفى غضبه في معصيته لحكمة جليلة، ولعلها تكون الحض على سبيل الاستقامة، حتى لا تستقل طاعته، ولا يستهان بمعصيته، وحتى يسعى كل مسلم إلى غاية الإخلاص، وصدق النية، وحسن السريرة، والإقبال الدائم على ربه ومولاه .

منزلة المرضي عنهم :

ومن أجل الأمور وأجملها هنا بيان منزلة أولئك الذين بادلهم الله تعالى رضوانه، فرضي عنهم، كما رضوا عنه سبحانه، وهو ما تحدث عنه القرآن الكريم في آيات عدة، حيث بين ما أعد الله تعالى لهم من صنوف إنعاماته في جناته التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما جاء في الحديث(٢)، وذلك كقوله جل شأنه : ﴿أعدَّ لهم جناتٍ تجري تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً ذلك الفوزُ العظيم﴾[سورة التوبة:١٠٠] .

وقد تكرر مثل هذا الوعد في غالب الآيات التي تحدثت عن رضوان الله تعالى عليهم(٣)،وسمى القرآن ذلك النعيم والرضوان الذي ينالونه بالفوز العظيم،كما قال سبحانه:﴿ رضِي اللهُ عنهم ورضُوا عنه ذلك الفوزُ العظيم ﴾[سورة المائدة:١١٩]،وذلك هو

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب حفظ اللسان ١٢٥/٨، ومسلم في الزهد، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار برقم ٢٩٨٨ .

(٢) عن أبي هريرة عند البخاري في بدء الخلق،باب صفة الجنة ١٤٢/٤، بلفظ:"أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فلا تعلم نفس ما أُخفِي لهم من قرة أعيُن ﴾[السجدة:١٧]، ومسلم في الجنة، في فاتحته برقم ٢٨٢٤ .

(٣) كما في آية المجادلة:٢٢، وآية البينة:٧-٨ .

الفوز الذي لا يحيط به نطاق الوصف، ولا يوقف على مطلب يدانيه أصلا، بل أعظم من ذلك كله أنه سبحانه بعد أن عدد ألوان نعيمه عليهم، جعل رضوانه عليهم أكبر من ذلك النعيم كله، كما قال سبحانه: ﴿ وَعَدَ اللهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها ومساكنَ طيبةً في جناتِ عدنٍ، ورضوانٌ من الله أكبر ذلك هو الفوزُ العظيم ﴾[سورة التوبة:٧٢] ، أي أنه أكبر من كل نعيم يناله أولياؤه في الجنة؛ لأن في ذلك السعادة الروحية، وهي أكمل وأشرف من السعادة الجسمانية، إذ في ذلك ابتهاج كامل، حيث يكون الحق تبارك وتعالى راضياً عن عباده فلا يسخط عليهم أبداً، وذلك هو سر السعادة الروحانية(١) .

وقد جاء في الحديث ما يدل على هذا المعنى :

فعن أبي سعيد الخدري(٢) رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك...، فيقول: هل رضيتم ؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يارب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ! فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول:أُحِلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً"(٣) .

النوع الثاني : رضا العبد :

ورضا العبد بالنسبة للرب سبحانه وتعالى ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : الرضا بالله تعالى ربا، ويتضمن الرضا بمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا، ويراد بهذا القسم: أن لا يتخذ غير الله رباً يسكن إلى تدبيره وينزل به حوائجه .

---

(١) انظر التفسير الكبير للفخر الرازي ١٣٣/١٧ - ١٣٤ .

(٢) هو سعد بن مالك بن سنان الخزرجي الأنصاري، كان من أفاضل الصحابة و فقهائهم، وهو أحد السبعة المكثرين من الرواية توفي سنة ٦٤هـ، انظر تهذيب الأسماء واللغات ٢٧٣/٢، والإصابة ٣٥/٢ .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها برقم ٢٨٨٩ .

المبحث الرابع

(الرجاء)

الرجاء في اللغة: الأمل، فهو ضد اليأس، يقال: رجوت الأمر، وأرجوه، وارتجيته، وأرتجيه، وترجّيته: إذا أملته (١) .

وهو في العرف: "ظن يقتضي حصول ما فيه مسرة" (٢) .

أو هو: "تعلق القلب بحصول محبوب مستقبلا" (٣) .

منزلة الرجاء من الأخلاق الإيمانية :

والرجاء من الأخلاق الإيمانية العظيمة التي جعلها الله تعالى زادا للنفس، وروْحا للقلب، وضياء للساكنين في ظلمة الدنيا؛ لأنه: "لولا روح الرجاء لعطّلت عبودية القلب والجوارح، وهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة"(٤) .

لذلك كانت عناية القرآن الكريم به كبيرة، حثا عليه وثناء على أهله، وذما لمن لم يتصف به من الخلق في نحو من عشرين آية من الذكر الحكيم من مادة الرجاء، أما ما يدل عليه من غيرها فكثير سيأتي طرف منها إن شاء الله .

حث القرآن الكريم على التخلق بخلق الرجاء :

أما حثه على التخلق به فكما في قوله تعالى: ﴿ قل يا عباديَ الّذين أسرفوا على أنفسِهم لا تَقنَطوا من رحمة الله إنَّ الله يغفرُ الذنوبُ جميعاً إنّه هو الغفورُ الرحيم ﴾[سورة الزمر:٥٣] .

---

(١) مجمل اللغة لابن فارس ٤٢٣/٢، والمصباح المنير للفيومي ٢٣٧/١ .

(٢) المفردات للراغب ص ١٩٠ .

(٣) التعريفات للجرجاني ص ١٠٩، والتوقيف على مهمات التعاريف ص ٣٥٦ .

(٤) مدارج السالكين لابن القيم ٤٢/٢ .

فإن هذه الآية «أرجى آية في كتاب الله سبحانه، لاشتمالها على أعظم بشارة، فإنه أولا أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم ومزيد تبشيرهم، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي، والاستكثار من الذنوب، ثم عقب ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب، فالنهي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب أولى كما يدل عليه فحوى الخطاب، ثم جاء بما لا يبقى بعده شك، ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن فقال: ﴿ إنَّ الله يغفرُ الذُّنوبَ ﴾ فالألف واللام قد صيرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس الذي يستلزم استغراق أفراده، فهو في قوة إن الله يغفر كل ذنب كائنا ما كان، إلا ما أخرجه النص القرآني، وهو الشرك ﴿ إنَّ الله لا يغفرُ أن يُشرَك به ويغفِرُ ما دون ذلك لمن يَشاء ﴾[سورة النساء:٤٨] ثم لم يكتف بما أخبر عباده به من مغفرة كل ذنب، بل أكد ذلك بقوله: "جميعا" .

فيا لها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظنهم بربهم، الصادقين في رجائه، الخالعين لثياب القنوط، الرافضين لسوء الظن بمن لا يتعاظمه ذنب، ولا يبخل بمغفرته ورحمته على عباده، المتوجهين إليه في طلب العفو، الملتجئين به في مغفرة ذنوبهم، وما أحسن ما علل به سبحانه هذا الكلام قائلاً: ﴿ إنَّه هو الغفورُ الرحيم ﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة عظيمها واسعها»(١) .

ولهذا قال كثير من السلف: إن هذه الآية هي أرجى آية في كتاب الله تعالى .

فقد جاء عن علي رضي الله عنه، أنه سأل أصحابه عن أي آية في القرآن أوسع ؟ فجعلوا يذكرون آياً من القرآن: ﴿ومن يَعملْ سُوءًا أو يَظلِم نفسَه ثم يستغفرِ الله يجدِ اللهَ غفوراً رحيماً ﴾[سورة النساء:١١٠] أو نحوها، فقال علي رضي الله عنه: "ما في القرآن آية أوسع من: ﴿ قل يا عباديَ الذين أسرفوا على أنفسِهم لا تَقْنَطوا من رحمةِ الله إنَّ

---

(١) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني ٤/٤٧٠ .

الله يغفرُ الذنوبَ جميعا ﴾ (١) .

وجاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: إن أكبر آية في القرآن فرحا آية في سورة الغرف - يعني الزمر - ﴿ قل يا عبادِيَ الذين أَسرفوا ...﴾(٢) .

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وإنَّ ربك لذو مغفرةٍ للنَّاس على ظُلمِهم وإنَّ ربك لشديدُ العقاب ﴾[سورة الرعد:٦]، فإنها تدل أيضا على عظيم عفو الله وسعة رحمته بعباده إن تابوا عن ظلمهم ، فهي تحمل بشارة عظيمة، ورجاء كبيرا للمذنبين؛ لأن الله تعالى إذا كان يعلم الظالمين حالة ظلمهم، ثم مع ذلك يبشرهم بالمغفرة إن هم تابوا عن ذلك، فإنه بلا ريب يحملهم على حسن الظن بالله والصدق في رجائه .

ولذلك جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها أرجى آية في كتاب الله تعالى(٣) .

والآيات الدالة على عظم عفو الله غير ما ذكر كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ فإن كذَّبوكَ فقل رُّبكم ذو رحمةٍ واسعة ولا يُردُّ بأسُه عن القوم المجرمين ﴾[سورة الأنعام:١٤٧] .

وقوله سبحانه: ﴿ نبِّئْ عبادي أَنِّي أنا الغفورُ الرحيم ﴾[سورة الحجر:٤٩] إلى غير ذلك من آيات الرجاء والحاضة عليه، وهي من الكثرة ما تستدعي أن يقف النظر عندها، فيستدل منها على عظيم منزلة خلق الرجاء عند الله تعالى .

التنويه بأهل هذا الخلق في القرآن الكريم :

ولقد دل على عظيم منزلته أيضا تنويه الله جل وعلا بالمتحلين به في آيات كثيرة من الذكر الحكيم كما في قوله سبحانه: ﴿ إنَّ الذين آمنوا والَّذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئِك يَرجون رحمةَ الله والله غفور رحيم ﴾[سورة البقرة:٢١٨] .

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ١٦/٢٤، وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله رقم ٦٩ .

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٥/٢٤ ، وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله برقم ٧٠ .

وانظر: تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن" ٢٦٩/١٥ ، والبحر المحيط لأبي حيان ٤٣٤/٧ .

(٣) حكى ذلك القرطبي في تفسيره ٢٨٥/٩ .

فقد جعل الله تعالى هذا الخلق من أخلاق أهل الإيمان، وصفة من صفاتهم التي يستوجبون بها رحمته وغفرانه .

وقال في آية أخرى: ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا ﴾[سورة الإسراء:٥٧] .

والمعنى: هؤلاء الذين تدعونهم من دوني كالمسيح وعزير هم عبادي يتقربون إلي بطاعاتي ويرجون رحمتي، ويخافون عذابي، فلماذا تدعونهم من دوني ؟

فأثنى الله تعالى عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم من الحب والخوف والرجاء .

وقال في آية أخرى: ﴿ أمن هو قانتٌ آناءَ الليلِ ساجداً وقائماً يحذرُ الآخرة ويرجو رحمة ربه، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾[سورة الزمر:٩] .

فهذا تنويه عظيم بهذا الصنف من عباد الله تعالى، وهو صنف المؤمنين الذين وصفهم بالقنوت، وهو القيام بوظائف الطاعة من الصلاة ونحوها، والخوف من عذابه والطمع في رحمته، وقد جاء هذا الثناء بأسلوب الاستفهام التقريري إظهارا لفضلهم أولا، ثم تنديدا بالصنف الضار الذي جعل لله تعالى أندادا ليضل عن سبيله والذي قال الله تعالى له: ﴿ قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحابِ النار ﴾[سورة الزمر:٨] .

والمعنى: أمن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أندادا ؟ لا يستوون عند الله تعالى.

كما قال في آية أخرى: ﴿ ليسُوا سواءً من أهل الكتابِ أمّةٌ قائمةٌ يتلونَ آياتِ الله آناءَ الليل وهم يسجدون ﴾(١) [سورة آل عمران: ١١٣] .

ونلاحظ في هذه الآية: ﴿ أمن هو قانتٌ .. ﴾ أمرين:

الأول: أن الله عز وجل قرن الرجاء بالعمل الصالح حيث قال: ﴿ قانتٌ آناءَ الليل ساجدا وقائما .. ﴾ بمعنى أنه لا يفتر من الطاعة، وهذا ما سيأتي بيانه بعد .

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٤٧ .

الثاني: أن الرجاء اقترن بالخوف لإفادة أن الرجاء والخوف قرينان، لا ينبغي أن ينفك أحدهما من الآخر، لأنه (اذا استحكم الرجاء حدث عنده من التخشع والتذلل نحو ما يحدث عند الخوف اذا استحكم، لأن الخوف و الرجاء متناسبان، فالخائف في حال خوفه يرجو خلاف ما يخافه، ويدعو الله عز وجل به، فلا خائف إلا وهو راج، ولا راج إلا وهو خائف،ولأجل تناسب الأمرين قرن الله تعالى بينهما في غيرماآية من كتابه كقوله سبحانه: ﴿ .. وادعوه خوفًا وطَمعا إنَّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين ﴾[سورة الأعراف:٥٦]، وقال: ﴿يرجون رحمتَه ويخافونَ عذابه ﴾[سورة الإسراء:٥٧]،وقال: ﴿ يدعوننَا رغبًا ورَهَبا وكانوا لنا خاشعين ﴾[سورة الأنبياء:٩٠]، والرغبة رجاء،والرهبة خوف، ولهذا قالوا: الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت)(١).

فعلى المؤمن أن يكون في حال وسط بين الرجاء والخوف بحيث لو وزن خوفه برجائه لاعتدلا.

لا أن يبالغ في الرجاء فيوصله إلى ترك العمل فيكون غرورا وخداعا للنفس.

ولا أن يبالغ في الخوف فيوصله إلى القنوط واليأس من رحمة الله تعالى وذلك أمر كبير حذر الله تعالى منه أشد تحذير، وذم من تحلى به أبلغ ذم .

ذم من لم يتخلق بالرجاء واتصف بنقيضه وهو اليأس :

فإذا لم يكن العبد راجيا الله تعالى في غفران الذنوب والثواب الحسن، فهو لا يخلو من أن يكون على حالين :

الأول : مؤمنا بالله وبوعده ووعيده وجنته وناره، ولكن استعظامه لذنوبه أنساه عظم رحمة الله تعالى .

---

(١) انظر: المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ٥١٧/١، وشعب الإيمان للبيهقي ٣/٢ .

الثاني:أن يكون مكذباً بذلك فلا يؤمن با لله ولا باليوم الآخر وما فيها من جنة أو نار، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، فقد ذم ا لله تعالى الأول والثاني:

أما الأول فإنه قد خالف نهي ا لله تعالى له عن اليأس من رحمته سبحانه وهو قوله جل ثناؤه: ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة ا لله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾[الزمر ٥٣] فارتكب بذلك محظور المخالفة للمولى جل وعلا، وذلك دليل نقص الإيمان وضعفه .

وأما الثاني، فقد حكم ا لله تعالى عليه بالكفر في آيات كثيرة من كتابه الكريم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ إنه لا ييأس من روح ا لله إلا القوم الكافرون ﴾[سورة يوسف:٨٧] .

وقال: ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾[سورة يونس:٧،٨] .

وقال سبحانه: ﴿ ولو يعجل ا لله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون ﴾[سورة يونس:١١] .

فترى أن ا لله تعالى قد جعل اليأس من رحمته، وعدم رجاء مغفرته ، شيمة من شيم الكافرين، فإنهم هم الذين لا يعرفون عظمة ا لله تعالى ولا يرجون لله وقارا .

وإذا كان اليأس والقنوط وعدم رجاء عفو ا لله وغفرانه ولقائه هو صفة للكافرين وشيمتهم فمعنى ذلك أن من اتصف به فقد ضارعهم في بعض صفاتهم، ويكون قد رشح نفسه لمشاركتهم في بعض عقابهم، لا جرم فقد عُدَّ اليأس من رحمة ا لله من كبائر الذنوب التي لا يكفرها إلا التوبة النصوح، بينما عُدَّ الرجاء من شعب الإيمان(١)، فينبغي للمؤمن أن لا يشابه الكافرين في حال من أحوالهم، أو سلوك من سلوكهم، بل عليه أن يبتعد عن كل وصف يتصفون به؛ حتى لا يتعرض للذم الذي سيق فيهم، ولا للجزاء الذي رتب لهم، ومن أجلِّ ذلك إحسان الظن با لله، والطمع في عفوه وغفرانه،والرجاء في كرمه وإحسانه امتثالا للنداء العام الذي وجهه الخالق جل في علاه لخليقته، والذي

---

(١) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيثمي ٨٩/١،٩٠ ، وشعب الإيمان للحليمي ٥١٧/١ وشعب الإيمان للبيهقي ٣/٢ ، وفتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر ١٦٣/٢٨ .

قال فيه: ﴿ قل يا عباديَ الَّذين أسرفُوا على أنفسِهم لا تَقنطُوا من رحمةِ الله إنَّ الله يغفرُ الذُّنوبَ جميعاً إنهَّ هو الغفور الرحيم * وأنيبُوا إلى رَّبكم وأسلموا لـه من قبل أن يأتيَكم العذابُ ثم لا تُنصرون ﴾سورة الزمر:٥٣،٥٤] .

اشتراط العمل مع حسن الرجاء :

ولكن لا يكون الرجاء خلقاً محموداً إلا إذا اقترن بعمل يصدق الأمل، وهو هنا العمل الصالح وذلك "أن العبد إذا بث بذر الإيمان وسقاه بماء الطاعات، وطهر القلب عن شوب الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة، كان انتظاره رجاء حقيقياً محموداً في نفسه بامتثاله على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت، وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات، أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق، وانهمك في طلب لذات الدنيا، ثم طلب المغفرة، فانتظاره حمق وغرور"(١) .

لذلك قرن الله تعالى الرجاء المثمر المستحق لتحقيق المرجو بالعمل الصالح في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ إنَّ الذين آمنُوا والَّذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجونَ رحمةَ اللهِ والله غفور رحيم ﴾[سورة البقرة:٢١٨] .

والمعنى: "أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله تعالى، وليس المراد تخصيص وجود الرجاء؛ لأن غيرهم قد يرجو أيضاً، ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء" (٢) ، كما هو مبين في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿ فمن كان يرجُو لقاءَ رَّبه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة رَّبه أحداً ﴾[سورة الكهف:١١٠] .

فشرط لصدق الرجاء وتحقيق المرجو:العمل الصالح، وعلى رأسه: عدم الإشراك بالله تعالى .

---

(١) إحياء علوم الدين ١٢٤/٤ .

(٢) انظر المرجع السابق .

وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿ إن الَّذين يتلون كتابَ الله وأقاموا الصَّلاةَ وأنفقوا ممَّا رزقناهم سراً وعلانيةً يرجُون تجارةً لن تبور ﴾[سورة فاطر:٢٩] .

فبين سبحانه أن أهل رجائه هم أولئك العاملون بأركان الشريعة وفروعها .

فهذه الآيات تدل على أن الرجاء المعتبر شرعاً شرطه العمل، وأنه بدونه غرور لا قيمة له، وهذا محل وفاق بين أهل العلم، فقد قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل" (١) .

وإجماعهم على ذلك يستند إلى الأدلة الصريحة من الكتاب العزيز التي تقدم ذكرها، ومن السنة الآتي بيانها، إلا أن يتفضل الله تعالى بالعفو والمغفرة الشاملة، وهي كذلك لا تكون إلا للمؤمن الذي أتى بأصل الإيمان، وهو في ذاته "عمل" عظيم، فالرجاء لا يكون إلا مع عمل وإن قلَّ، والله تعالى هو المأمول أن يعاملنا بفضله وكرمه .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٦ .

تمثل خلق الرجاء في النبي صلى الله عليه وسلم :

وبلا ريب فقد كان صلى الله عليه وسلم سيد الراجين لله تعالى، وسيد الصادقين في رجائهم،حيث برهن على التخلق بهذا الخلق بما يستلزمه من صدق العمل والبعد عن اليأس والقنوط .

كيف لا وهو صلى الله عليه وسلم أعرف الناس بالله تعالى وأخشاهم له، وهو الذي شهد له الله بعظمة الخلق، والرجاء في الله تعالى من الأخلاق العظيمة التي عمتها تلك الشهادة .

بيد أن الله تعالى قد شهد له بهذا الخلق بخصوصه كما في قوله سبحانه: ﴿ وإمَّا تُعرِضَنَّ عنهم ابتغاءَ رحمةٍ من ربِّك تَرجوها فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾[سورة الإسراء:٢٨] .

فأخبر سبحانه أن نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم كان يرجو رحمة ربه ، وسواء كانت الرحمة المرجوة هنا كناية عن الرزق والتوسعة، أو هي الرحمة بعمومها(١) ، فإن الكل من الله تعالى، وقد علق النبي صلى الله عليه وسلم رجاءه بالله فيما لا يقدر عليه غيره، سواء كان رزقاً أم رحمة شاملة، وذلك هو تعلق العبد بجناب الرب سبحانه، وهو طمع العبودية بهبات الربوبية، وأمل المخلوق في كرم الخالق .

وهو الرجاء الذي مدح الله شأنه ونوه بأهله، وقد أثبته لنبيه المجتبى صلى الله عليه وسلم بالتعيين، ولم يكن ذلك لأحد غيره من البشرية، بل كان إثبات ذلك لمن كان كذلك على سبيل الإجمال والتعميم، ولا غرو في أن يخص الله تعالى نبيه بمثل هذا الخطاب ـ وكم له من خصائص عظيمة وعجيبة ـ فإن الله تعالى قد جعل رجاءه وكلَّ سلوكه وهديه أسوة وقدوة لأمته في تخلقهم بالأخلاق الفاضلة-ومنها خلق الرجاء- في كل شئونهم الدينية والدنيوية كما أفاد ذلك قوله جل شأنه : ﴿ لقد كان لكم في رسولِ الله أُسوةٌ حسنة لمن كان يَرجو اللهَ واليومَ الآخر وذكرَ الله كثيراً ﴾[سورة الأحزاب:٢١] .

فإذا كان من يرجو الله واليوم الآخر عليه أن يتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يصح رجاؤه، ويصدق فيه، فيرجو كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر: تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٦/٣٠ .

يرجو، ويتخلق كما كان يتخلق، ويعبد كما كان يعبد ... فإن ذلك يعني أنه صلى الله عليه وسلم كان على الذروة العليا والكمال المطلق من التخلق بهذا الخلق العظيم، ومن كل خلق عظيم وعمل نبيل، وذلك هو ما شهد به الواقع العملي من حياته صلى الله عليه وسلم في سلوكه في أمور دينه ودنياه. وهذه طائفة من تلك الدلائل على ذلك :

من أقواله صلى الله عليه وسلم في الرجاء :

أما أقواله صلى الله عليه وسلم في الرجاء، فمنها ما كان يسندها إلى الله عز وجل فيرويها بلسانه عن ربه جل وعلا:

١ - كقوله عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه: "قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأخيرمنهم، وإن تقرب مني شبرا، تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا، تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي، أتيته هرولة"(١) .

فهذا الحديث يفتح للمؤمن باب الرجاء في الله، وذلك بأن يحسن ظنه فيه، فسيجد الله عند حسن ظنه:أجرا وثوابا حسنا،

٢ - ولذلك ندب النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى إحسان الظن بالله تعالى، فقال عليه الصلاة والسلام: "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى" (٢) .

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، باب ويحذركم الله نفسه ١٤٨/٩، ومسلم في الذكر والدعاء في أوله برقم ٢٦٧٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

قال ابن الأثير في "جامع الأصول" ٤٧٧/٤ وفي النهاية ٣٢/٤ في معنى قرب الله عز وجل: "المراد بقرب العبد من الله: القرب بالذكر والعمل الصالح، لا قرب الذات والمكان، فإن ذلك من صفات الأجسام والله يتعالى عن ذلك ويتقدس، والمراد بقرب الله من العبد: قرب نعمه وألطافه به، وبره وإحسانه إليه، وفيض مواهبه عليه وترادف مننه عنده" ا.هـ .

وانظر: شرح مسلم للإمام النووي ٢/١٧ ...، وفتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر ١٦٣/٢٨-١٦٦ .

(٢) أخرجه مسلم في صفة الجنة، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت برقم ٢٨٧٧، وأبو داود في =

فهذا حث منه صلى الله عليه وسلم لأمته بأن تحسن ظنها بربها، لاسيما عند القدوم عليه، كي تجد الله تعالى على النحو الذي ظنته من العفو والمغفرة والرحمة، وذلك هو الرجاء في الله تعالى،

٣ - كما بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في حديث قدسي آخر، قال فيه رواية عن ربه جل وعلا : " ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، ولو لقيتني بقُراب(١) الأرض خطايا لقيتك بقُرابها مغفرة، ولو عملت من الخطايا حتى تبلغ عنان(٢) السماء ما لم تشرك بي شيئاً ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي"(٣) .

وهذه الأحاديث القدسية التي يخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه جل وعلا في دعوته عباده إلى أن يحسنوا الظن به فيرجون رحمته ومغفرته: قد كان عليه الصلاة والسلام يتمثل واقعها أكمل تمثيل، كما نطقت بذلك شواهد كثيرة :

من الأحاديث النبوية الدالة على رجاء النبي صلى الله عليه وسلم :

١ - فمنها رجاؤه في الله تعالى أن يكون صاحب الوسيلة في الجنة وهي المنزلة التي لا ينبغي أن تكون لأحد سواه، كما دل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام :

= الجنائز، باب ما يستحب من الظن بالله تعالى عند الموت برقم ٣١١٣، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

(١) أي: ما يقارب ملأها .

(٢) العَنان بالفتح: السحاب، وقيل: ما عن لك منها؛ أي: اعترض وبدا لك إذا رفعت رأسك. النهاية ٣١٣/٣

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٦٧/٥، والدارمي ٣٢٢/٢، وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله برقم ٣٢ من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وفي إسناده شهر بن حوشب وهو صدوق كثير الإرسال والأوهام كما في التقريب برقم ٢٨٣٠، لكن للحديث شاهد عند الترمذي في الدعوات، باب فضل التوبة والاستغفار برقم ٣٥٤ من حديث أنس رضي الله عنه، وحسنه الترمذي في بعض النسخ كما نقل ذلك الحافظ ابن رجب في "جامع العلوم والحكم" ص ٣٦٧، وقال ابن رجب عنه: وإسناده لا بأس به. ا.هـ . =

"إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي فإنه من صلَّى علي صلاة، صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله عز وجل لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لاتنبغي إلا لعبد من عباد الله تعالى، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة" (١) .

٢ - ومنها: رجاؤه في أمته أن تكون أكثر الأمم كما قال عليه الصلاة والسلام: "ما من الأنبياء إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة" (٢) .

يعني "لأن معجزته العظمى وهي القرآن العظيم مستمرة إلى يوم القيامة، وهي تشاهد بالبصيرة، فيكون من تبعها أكثر، بخلاف معجزات الأنبياء السابقين، فإنها كانت معجزات حسية تدرك بالبصر، ثم تنقطع" (٣) .

٣ - ومنها: رجاؤه صلى الله عليه وسلم لأمته أن تكون نصف أهل الجنة، كما قال صلى الله عليه وسلم يخاطب أصحابه: "أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة ؟ قالوا:نعم، قال: أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة ؟ قالوا: نعم، قال: والذي نفس محمد بيده إني

= أما النسخة التي بين أيدينا فإنه قال فيها: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعلته عنده كثيِّر بن فائد، فإنه مقبول كما قال الحافظ في التقريب رقم ٥٦٢٠ .

وله شاهد آخر من حديث أبي الدرداء عند الطبراني في الكبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٤٢١٧ .

فالحديث إذاً ينجبر بشواهده، فيرتقي إلى مرتبة الحسن لغيره إن شاء الله تعالى .

(١) أخرجه مسلم في الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ...برقم ٣٨٤ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وأبو داود في الصلاة، باب ما يقول إذا سمع المؤذن برقم ٥٢٣، والترمذي في المناقب برقم ٣٦١٤ .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٢٢٤/٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر فتح الباري للحافظ ابن حجر ٨،٧/١٩ .

لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة،وما أنتم وأهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر" (١) .

وا لله تعالى هو المأمول أن يحقق له رجاءه في كل ما يتمناه ويؤمله من جناب مولاه سبحانه، كما وعده بذلك بقوله: ﴿ ولسوف يُعطيك ربُّك فترضى ﴾[سورة الضحى:٥] .

٤ ـ ومع ذلك فقد كان عليه الصلاة والسلام يبتهل إلى ا لله في تحقيق مرجوه فيه ويقول: "اللهم رحمتك أرجو، لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، أصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت" (٢) .

حثه أمته على التخلق بخلق الرجاء :

ومن المعلوم أن ما يحمل على صدق الرجاء في ا لله تعالى هو معرفة سعة رحمة ا لله، والنبي صلى ا لله عليه وسلم قد كان في ذروة الكمال من هذه المعرفة، كما يدل على ذلك تبيينه لأمته إياها في أحاديث كثيرة، منها قوله صلى ا لله عليه وسلم :

١ ـ "لَلّهُ أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دويَّة(٣) مهلكة، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلة، وعليها زاده وطعامه وشرابه، فا للهُ أشدُّ فرحاً بتوبة العبد

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب كيف الحشر ١٣٧/٨، ومسلم في الإيمان، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة برقم ٢٢١ من حديث ابن مسعود رضي ا لله عنه .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب ما يقول إذا أصبح برقم ٥٠٩٠، وأحمد في المسند ٤٢/٥. من حديث عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبيه رضي ا لله عنه، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٤٠/١٠ إلى الطبراني، قال: وإسناده حسن.

(٣) أي مفازة مهلكة.

المؤمن من هذا براحلته وزاده" (١) .

٢ ـ وكقوله صلى الله عليه وسلم: "لما خلق الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إنَّ رحمتي تغلب غضبي" (٢) .

٣ ـ وقوله عليه الصلاة والسلام: "جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءا واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه" (٣) .

٤ ـ وقوله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم" (٤) .

٥ ـ وقوله فيما روى عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبي، فإذا امرأة من السبي تبتغي، إذا وجدت صبيا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، قال: فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟" قال: قلنا: لا والله، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لله أرحم بعباده من هذه بولدها" (٥) .

٦ ـ وقوله عليهالصلاة والسلام: "لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات، باب التوبة ٨٤/٨، ومسلم في التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها برقم ٢٧٤٤، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، واللفظ لمسلم .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب (ويحذركم الله نفسه ...)١٤٧/٩، ومسلم في التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى برقم ٢٧٥١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب باب جعل الله الرحمة مائة جزءا ٩/٨، ومسلم في التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى برقم ٢٧٥٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، واللفظ لمسلم .

(٤) أخرجه مسلم في التوبة، باب سقوط الذنب بالاستغفار برقم ٢٧٤٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

(٥) أخرجه البخاري في الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ٩/٨، ومسلم في التوبة برقم ٢٧٥٤ .

أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد" (١) .

وهكذا كان صلى الله عليه وسلم يبين مدى سعة رحمة الله تعالى للمؤمنين ليحملهم بذلك على صدق الرجاء في الله تعالى، وكامل الطمع في مغفرته ورضوانه .

اشتراط العمل مع صدق الرجاء :

ولكن لا يكون الاعتماد على سعة رحمة الله تعالى إلا مع بذل الجهد في أداء المستطاع من العمل، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك ويبينه لأمته ويقول لهم :

١ - "لن ينجي أحدا منكم عملُه، قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني برحمة، سددوا(٢) وقاربوا(٣) واغدوا وروحوا وشيء من الدُّلجَة(٤)، والقصدَ القصدَ(٥) تبلغوا(٦) " .

فهو صلى الله عليه وسلم يبين لهم أنه لا اتكال على الأعمال، ولكن على رحمة الله تعالى مع تقديم الاستطاعة من العمل، لا على العمل وحده "لأن العمل بمجرده ولو تناهى لا يوجب دخول الجنة، ولا أن يكون عوضا لها، لأنه لو وقع على الوجه الذي يحبه الله تعالى لا يقاوم نعمة الله، بل جميع العمل لا يوازي نعمة واحدة، فتبقى سائر نعمه مقتضية

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة، باب سعة رحمة الله تعالى برقم ٢٧٥٥، والترمذي في الدعوات، باب عظم العقوبة وعظم الرجاء برقم ٣٥٣٦، وأحمد في المسند ٢/٣٣٤،٣٩٧،٤٨٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أي: اقصدوا السداد أي: الصواب .

(٣) أي: لا تفرطوا فتجهدوا أنفسكم في العبادة لئلا يفضي بكم ذلك إلى الملل فتتركوا العمل فتفرِّطوا .

(٤) الغدو: السير من أول النهار، والرواح: السير من أول النصف الثاني من النهار، والدلجة: بضم الدال وفتح اللام وسكونها: سير الليل .

(٥) بالنصب على الإغراء أي: الزموا الطريق الوسط المعتدل .

(٦) أخرجه البخاري في الرقاق، باب القصد والمداومة في العمل ٨/١٢٢، ومسلم، في صفة القيامة، باب "لن يدخل أحد الجنة بعمله" برقم ٢٨١٦ .

لشكرها، وهو لم يوفها حق شكرها، فلو عذبه في هذه الحالة لعذبه وهو غير ظالم، وإذا رحمه في هذه الحالة، كانت رحمته خيراً من عمله" (١) .

فلم يبق إذا إلا صدق الرجاء في رحمة الله تعالى، مع الاستطاعة من العمل وسيكون عند ظن عبده به كما أخبر بذلك وهو لا يخلف الميعاد .

فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو صاحب العمل الكثير الزاكي لا يتكل على عمله، بل على رحمة الله فغيره ممن قلَّ عمله، وهو مع ذلك لا يسلم من النقص، أولى بأن لا يتكل على عمله، وأن يعتمد على صدق الرجاء في الله تعالى، وإحسان الظن به، مع المثابرة على المستطاع من العمل، كما أمر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "سددوا وقاربوا ..." .

ولا شك أن من العمل ومن العبادة صدق الرجاء في الله تعالى وحسن الظن به كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم بقوله:

٢ ـ "حسن الظن من حسن العبادة" (٢) .

وبهذا علمت ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من صدق الرجاء في الله وتحقيق شروطه حتى كان على خلق عظيم كما وصفه الله تعالى بذلك .

---

(١) فتح الباري للحافظ ابن حجر ٨٢/٢٤، وفيه كلام طويل ونفيس حول هذا الحديث فينبغي أن ينظر .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في حسن الظن بالله تعالى برقم ٤٩٩٣، وأحمد في المسند، وعزاه المزي في "تحفة الأشراف" ١٠٩/١٠، إلى الترمذي في الدعوات ، ولم أجده فيه .

وأخرجه ابن حبان ١٤/٢ من الإحسان، وابن أبي الدنيا في حسن الظن برقم ٦ ، كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه الحاكم أيضا من حديثه ٢٤١/٤، وقال: على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي، قلت : وإسناد أبي داود ضعيف كما في فيض القدير ٣٨٥/٣ .

الفَصــل الثَّاني

الأخـــــلاق السلوكية الإيمانيــة

وفيه خمسة مباحث

١ ـ الإخلاص .

٢ ـ الاستقامة .

٣ ـ الشـــكـر .

٤ ـ المحبـــة .

٥ ـ التوبة والإنابة .

المبحث الأوَّل

(الإخلاص)

الإخلاص في اللغة يعني: تنقية الشيء وتهذيبه (١) .

يقال: خلَص الشيء بالفتح، يخلُص خلوصا أي: صار خالصا، أي: نقيا من الشوائب المكدِّرة صفوَه، فكل ما يتصور أن يَشُوب غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص منه سمي خالصا، ويسمى الفعل المخلَص: إخلاصا ، وهو في الطاعة: ترك الرياء (٢) .

ويراد به في الاصطلاح: "التَّبري عن كل ما دون الله تعالى" (٣) .

ويقال هو : "تخليص القلب من شَوب يكدِّر صفوه" (٤) .

شرح التعريف :

والمعنى: أن يفرد الحق سبحانه وتعالى في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد العبد بطاعته التقرب إليه سبحانه وتعالى، دون شيء آخر من تَصَنُّعٍ لمخلوق، أو اكتساب محمدة عند الناس، أو معنى من المعاني، ويضاده: الإشراك، فمن ليس مخلِصا فهو مشرك، إلا أن الشرك درجات، فالإخلاص في التوحيد يضاده التشريك في الإلهية، والشرك منه خفي، ومنه جلي، وكذا الإخلاص (٥) .

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢٠٨/٢ .

(٢) الصحاح للجوهري ١٠٣٧/٣، والقاموس المحيط ٣٠١/٢، والتعريفات للجرجاني ص ١٣ .

(٣) المفردات للراغب الأصفهاني ص ١٥٥ .

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٤٣، وانظر مزيدا من تعاريفه في "مدارج السالكين" ٩١/٢ .

(٥) انظر الإحياء للغزالي ٣٢٤/٤، ومدارج السالكين لابن القيم ٩٢/٢ .

منزلة الإخلاص من الأخلاق الإيمانية :

يعد الإخلاص جوهر الأخلاق الإيمانية ونقطة دائرتها؛ لأنه هو المميز لما يترتب على الأخلاق الحسنة من المدح والثواب وعظم المنزلة في الآخرة، فما كان منها مرادا به وجه الله تعالى أثمرت الثمرة النافعة، وما تجرد منها عنه أو شابها شيء غير الله تعالى، كانت فاقدة الأثر الحميد .

لذلك كان لا بدع أن يتصدر هذا الخلق كل الأخلاق السلوكية الإيمانية، والفردية والاجتماعية لما يقصد به من تهذيب النفس وتزكيتها وتجردها عن الشوائب المكدرة لصفاء الأخلاق الإسلامية .

عناية القرآن الكريم بالحديث عن الإخلاص :

ولهذه المكانة التي يتبوؤها هذا الخلق العظيم، كانت عناية القرآن الكريم به كبيرة: أمرا وترغيبا وثناء على أهله، وتنويها وتبيانا لعظيم جزائهم عند الله تعالى، في آيات كثيرة نذكر منها طائفة فيما يلي :

أوامر القرآن الكريم بلزوم الإخلاص:

أما الأوامر القرآنية بلزوم الإخلاص ففي آيات منها قوله تعالى : ﴿ قل أمرَ ربِّي بالقسط وأقيمُوا وجوهَكم عند كلِّ مسجد وادعوه مخلِصينَ له الدِّين كما بدأكم تَعودُون ﴾[سورة الأعراف:٢٩] .

وهذا أمر إلهي أراده الله تعالى من جميع عباده في جميع الشرائع، ومعنى الآية كما في تفسير ابن كثير: "أي أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها،وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله، وما جاءوا به من الشرائع، وبالأخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين: أن يكون صوابا موافقا للشريعة، وأن يكون خالصا من الشرك" (١) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/٢٠٨ .

ويدل على ما قاله الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ قول الله تعالى: ﴿ فمن كان يرجو لقاءَ ربِّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يُشركْ بعبادةِ ربِّه أحدا ﴾[سورة الكهف:١١٠] .

فإن هذه الآية تشترط للعمل الصالح وهو الذي يراد به وجه الله تعالى مما جاء في شرعه، أن لا يشوبه شيء من الإشراك، والإشراك اسم عام يشمل الشرك الأكبر، وهو الكفر بالله تعالى، والأصغروهو الرياء، فدلت الآية على أن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصا لوجهه سبحانه، كما قال في الحديث القدسي: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه غيري تركته وشركَه" (١) .

ولقد نص على ذلك فيما يُحدث العبد من توبة،بأن تكون خالصة لوجهه ،كما قال في شأن التائبين من النفاق: ﴿ إنَّ المنافقينَ في الدَّركِ الأسفلِ من النَّارِ ولن تجدَ لهم نصيراً * إلا الَّذين تابوا وأصلحوا واعتَصمُوا بالله وأَخلصوا دينَهم لله فأُولئك مع المؤمنين وسَوفَ يؤتِ الله المؤمنينَ أجراً عظيماً ﴾[سورة النساء:١٤٥،١٤٦] . فاشترط المولى جل ذكره لصحة توبة المنافق إضافة إلى إصلاح العمل والاعتصام بالله: الإخلاص في أمور الإسلام والإيمان، ومعنى ذلك أنه إذا فقد الإخلاص لم تصح توبته، ولم يكن صادقاً فيها، فهذه الآيات كلها تدل على أهمية الإخلاص في العبادات، ولهذا توالت الآيات الآمرة بلزوم الإخلاص لله تعالى في العبادات كلها زيادة في توكيد طلبه ولزوم إيجابه، وذلك كقوله تعالى: ﴿ فادعوا الله مُخلِصينَ له الدِّينَ ولو كرِه الكافرون ﴾[سورة غافر:١٤]، وقوله جل شأنه: ﴿ هو الحيُّ لا إلهَ إلاَّ هو فادعوه مُخلِصين له الدِّين ﴾[سورة غافر:٦٥]، إلى غير ذلك من الآيات الآمرة المؤمنين بلزوم الإخلاص في عباداتهم: دعاء أو صلاة أو زكاة أو صياما أو حجا أو غيره .

ولم يكن المؤمنون من هذه الأمة هم الذين خوطبوا بمثل هذه الخطابات، وألزموا بهذا الخلق العظيم،بل كل الأمم السابقة قد أمرت بمثل تلك الأوامر، وأريد منهم ما أريد من

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد ، باب من أشرك في عمله غير الله تعالى ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه برقم ٢٩٨٥ .

المسلمين، كما قال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿ وما أُمِروا إلاَّ ليعبدوا الله مخلِصين له الدينَ حنفاءَ ويُقيموا الصَّلاة ويُؤتوا الزَّكاة وذلك دِينُ القيمة ﴾[سورة البينة:٥]؛ وذلك لأن الدين عند الله في جميع الشرائع ولدى جميع الرسل هو الإسلام كما قال سبحانه: ﴿ إنَّ الدِّينَ عندَ اللهِ الإسلامُ ﴾[سورة آل عمران:١٩]، وقال: ﴿ ومن يَبتغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فلن يُقبلَ منه وهو في الآخرةِ من الخاسِرين ﴾[سورة آل عمران:٨٥] .

وقد قال سبحانه: ﴿ ألاَ للهِ الدِّينُ الخالصُ ﴾[سورة الزمر:٣]، والدين المراد به هنا هو الدين المعهودوهو الإسلام، وقد قصر ما يصح أن يدان الله به على الخالص منه (١) ، وهو المنزه عن شوائب الشرك قليله وكثيره، جليله وحقيره، فأفادت الآية أن الإخلاص شرط في دين الإسلام، وهو دين الأنبياء أجمعين، وطلب خلق الإخلاص في جميع الشرائع دليل على عظم منزلة هذا الخلق العظيم .

تنويه الله تعالى بأهل هذا الخلق :

ولما كان هذا الخلق العظيم بهذه المثابة، كان من تحلى به جديرا بأن ينوه الله تعالى به ويثني عليه في كتابه الخالد، وقد فعل المولى جل ذكره ذلك حيث نوه بأهل الإخلاص من عباده أيما تنويه، وكان أولى من ينال ذلك التنويه العظيم، أعظم الناس إخلاصا لله تعالى وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولذلك أشاد الله تعالى بإخلاصهم، وأعظم في الثناء عليهم كما قال جل ذكره عن موسى عليه السلام: ﴿ واذكُر في الكتابِ موسى إنَّه كان مخلَصاً وكان رسولاً نبياً ﴾[سورة مريم:٥١] ، قرىء في السبع بفتح اللام وكسرها من (مخلَصاً) (٢) .

---

(١) واستفيد القصر في هذه الآية من تقدم الخبر على المبتدأ، وهو هنا قصر حقيقي .

(٢) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والمفضَّل عن عاصم بكسر اللام، اسم فاعل من أخلص، وهو محل الشاهد، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم بفتح اللام مبنيا للمفعول، بمعنى: أن الله أخلصه. انظر زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٥/٢٣٩ والإقناع في القراءات السبع ٢/٦٩٧

وقال عن يوسف عليه السلام: ﴿ كذلك لِنصرفَ عنه السُّوءَ والفحشاءَ إنَّه من عبادِنا المخلِصين ﴾[سورة يوسف:٢٤] . قرىء في السبع بفتح اللام وكسرها (١) .

وقال عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ قل أتحاجُّوننا في اللهِ وهو ربُّنا وربُّكم ولنا أعمالُنا ولكم أعمالُكم ونحنُ له مخلِصون ﴾[سورة البقرة:١٣٩] .

فتأمل مبلغ الثناء الذي تحمله الآيات على هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وذلك لإخلاصهم لله تعالى، حيث اختار الله تعالى هذا الخلق للثناء عليهم به دون بقية الأخلاق الفاضلة الكريمة التي كانوا يتحلون بها،وهي كثيرة ككثرة الأخلاق الفاضلة نفسها، وهذا يدل على أن هذا الخلق كان أبرز سماتهم وأخص خصائصهم، وقد دل على ذلك الواقع العملي من رسالاتهم، حيث بذلوا كل ما في وسعهم من طاقة لتبليغ رسالات الله والدعوة إلى الإيمان به ، وترك الإشراك به ، دون أن يكون لهم أي قصد شخصي أو نفع مادي، حسي أو معنوي يحملهم على بذل ذلك الجهد العظيم في الدعوة والبلاغ، كما كانوا يقولون لأقوامهم عند دعواتهم إياهم: ﴿ وما أسألُكم عليه من أجرٍ إن أجريَ إلَّا على ربِّ العالمين ﴾[سورة الشعراء:١٠٩]، فقد وردت هذه الآية على لسان أكثر الرسل بنصها أو قريب منها .

وهي تدل على كمال تجردهم عن الأغراض الشخصية، وكمال إخلاصهم في الدعوة إلى الله تعالى .

ما أعده الله تعالى للمخلصين من الأجر والمثوبة :

ولما كان المخلصون، قد تجردوا من كل شائبة تكدر صفو إخلاصهم،فصفت عباداتهم عن الأغيار، ونياتهم عن التشريك والأخطار، فحققوا مبدأ العبودية الحقة،

---

(١) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر بكسر اللام أي: إنه من عبادنا الذين أخلصوا دينهم، وهي القراءة التي هي محل الشاهد، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بفتح اللام، أي: من الذين خلصهم الله من الفواحش. انظر زاد المسير ٤/٢١٠ والإقناع في القراءات السبع ٢/٦٧١.

حيث صاروا لا يسمعون ولا يبصرون ولا يتكلمون ولا يفعلون ولا يذرون إلا با لله و لله، فكانوا بذلك أهلا لأن ينالوا كل مكرمة عاجلة أو آجلة، وذلك ما منحهم ا لله تعالى إياه كما تحدثت بذلك آيات كتابه المبين.

وأول تلك المكرمات وأعظم تلك الهبات الفاضلات هي عصمتهم من الشيطان الرجيم الذي آلى على نفسه أن يغوي بني آدم، حتى يشركهم معه في سخط ا لله وغضبه ولعنته وناره، فإن إبليس عليه اللعنة عندما يجيء إلى هذا الصنف من الناس لا يجد إليهم سبيلا لأن ا لله تعالى قد عصمهم منه، فيَبقُون في حفظ ا لله ورعايته عابدين خاشعين قانتين كما تحدثت عن ذلك آيات كثيرة من الكتاب العزيز، منها قوله جل ذكره في رده على توعد الشيطان حيث قال: ﴿ قال ربِّ بما أغويتني لأُزيّنَنَّ لهم في الأرض ولأُغوينَّهم أجمعين * إلا عبادك منهمُ المخلَصين ﴾ فقال ا لله تعالى له: ﴿ قال هذا صراطٌ عليَّ مستقيم * إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطانٌ إلَّا مَن اتَّبعك من الغاوين ﴾ [سورة الحِجر:٣٩-٤٢]، وقال سبحانه على لسانه أيضا: ﴿ فبعزَّتِك لأُغوِيَنَّهم أجمعين * إلا عبادَك منهم المخلَصين ﴾[سورة ص:٨٢-٨٣]، وقال جل شأنه: ﴿ إنَّ عبادي ليس لكَ عليهِم سلطانٌ ﴾[سورة الإسراء:٦٥]. إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على هذا المعنى، والمخلصين تقرأ بفتح اللام وكسرها.

قال ابن عطية(١): "المخلَصين بفتح اللام، أي الذين أخلصتهم أنت لعبادتك وتقواك، وقرأ الجمهور: بكسر اللام، أي الذين أخلصوا الإيمان بك وبرسولك .." (٢) .

---

(١) هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الملك بن عطية الغرناطي، كان إماما كبيرا قدوة المفسرين، وكان فقيها عارفا بالأحكام والحديث والتفسير، بارعاً في الأدب، بصيرا بلسان العرب، وكان يتوقد ذكاء، له التفسير المشهور المسمى "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" ولد سنة ٤٨٠هـ، وتوفي سنة ٥٤١هـ، انظر: طبقات المفسرين للسيوطي ص ٥٠ .

(٢) المحرر الوجيز ٣١٤/٨ ، وذكر بعد ذلك اختلاف القراء في (عليٌّ) فقال: "قرأ الضحاك، وحميد، والنخعي، وأبو رجاء، وابن سيرين، وقتادة، وقيس بن عبادة، ومجاهد،وغيرهم: (عليٌّ مستقيم) قال:من =

فترى أن الله قد أضاف عبوديتهم له لما كانوا له مخلصين، وأي شرف يناله المرء أكثر من أن ينال شرف العبودية لله. كما قالوا :

ومما زادني شرفاً وتيهاً (١) وكدت بأخمَصي(٢) أطأ الثريا

دخولي تحت قولك ياعبادي وأن صيَّرت أحمد لي نبيا

ولذلك كانت هذه العبودية سببا لأن ينالوا تلك العصمة الربانية من الشيطان الرجيم، وما كان لهم من سبيل أن ينالوها إلا بهذا الخلق العظيم ألا وهو الإخلاص.

أما ثاني تلك المكرمات فهي النجاء من عذاب الله تعالى، وإسبال جزيل النعم عليه في الدنيا والآخرة، كما دل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ إنَّكم لذائِقُوا العذابِ الأليم * وما تُجزون إلا ما كنتم تَعمَلون * إلَّا عبادَ الله المخلَصين(٣) * أولئكَ لهم رِزقٌ معلومٌ * فواكهُ وهم مكرَمون * في جنَّاتِ النعيم * على سُررٍ مُتَقابِلين * يُطافُ عليهم بكأسٍ من معِين * بيضاءَ لذةٍ للشَّاربين * لا فيها غَولٌ ولا هم عنها يُنزَفُون * وعندهم قاصراتُ الطَّرفِ عين * كأنَّهن بَيْضٌ مكنون ﴾[سورة الصافات: ٣٨-٤٩] .

فترى أي نعيم يناله أحد من عباد الله تعالى أكبر من هذا، ولقد سرد الله تعالى تعدادا لبعض أصنافهم تهييجا لأنفس السامعين والقارئين، وتبيانا لمنزلة أولئك المخلصين،

= العلو والرفعة، قال: والإشارة بهذا على هذه القراءة إلى الإخلاص لما استثنى إبليس من أخلص، قال الله له: هذا الإخلاص طريق رفيع لا تناله أنت بإغوائك أهله" ا.هـ .

(١) أي: فخراً .

(٢) الأخمص: ما دخل من باطن القدم فلم يصب الأرض، والمراد به هنا : القدم كله، مختار الصحاح ص ١٩٠ .

(٣) قال الشوكاني في "فتح القدير" ٣٩٢/٤ : "قرأ أهل المدينة ـ نافع وأبو جعفر ـ والكوفة ـ عاصم وحمزة والكسائي ـ المخلَصين بفتح اللام، أي: الذين أخلصهم الله بطاعته وتوحيده، وقرأ الباقون ـ أبن كثير المكي، وأبو عمرو البصري، وابن عامر الشامي ـ بكسرها، أي: الذين أخلصوا الله العبادة والتوحيد".

وما أعظم أثره في الأنفس لا سيما بعد أن ذكر قبله عذاب الكافرين.

وليس النجاء من عذاب الله للمخلصين قاصرا على إنجائهم من عذاب الآخرة بل عذاب الدنيا ينجون منه كذلك، كما دل عليه قول الله تعالى: ﴿ ولقد ضلَّ قبلَهم أكثرُ الأوَّلين * ولقد أرسلنا فيهم منذِرين * فانظر كيف كان عاقبة المنذَرِين * إلا عبادَ الله المخلَصين ﴾[سورة الصافات:٧١-٧٤]، أي كانت عاقبتهم الهلاك والعذاب إلا المخلصين منهم، فإن إخلاصهم لله في التوحيد والعبادة أنجاهم من عذابه الأليم .

ولهذا كانت البشرية عندما ترى أنه قد أحيط بها عذاب الله تلجأ إلى الإخلاص إلى الله تعالى علَّها أن تدرك رحمة الله بالمخلصين، فتخلصهم مما حل بهم من العذاب، كما قص الله تعالى ذلك على ألسنة أقوام ممن أدركتهم سنة الله تعالى في إهلاك الكافرين الجاحدين، وذلك بقوله تعالى: ﴿ هو الذي يُسيِّركم في البَرِّ والبَحرِ حتى إذا كُنتُم في الفلك وجَرينَ بهم بريحٍ طيِّبة وفرحِوا بها جاءتها رِيحٌ عاصفٌ وجاءهم الموجُ من كلِّ مكانٍ وظنُّوا أنهم أُحيطَ بهم دعوُا اللهَ مخلِصينَ له الدِّين لئن أنجيتنا من هذِه لنكوننَّ من الشَّاكرين * فلما أنجاهم إذا هم يَبغونَ في الأرضِ بغيرِ الحق ﴾[سورة يونس:٢٢،٢٣] .

وقوله سبحانه: ﴿ وإذا غشيَهم موجٌ كالظُّلَل دعوُا الله مخلِصين له الدين فلمَّا نجَّاهم إلى البرِّ فمنهم مقتِصدٌ وما يجحدُ بآياتِنا إلا كلُّ ختَّار(١) كفُور ﴾[سورة لقمان:٣٢] .

فترى أن سنة الله تعالى لم تتخلف عمن تحلى بهذا الخلق العظيم، فهؤلاء الذين كان مصيرهم في خطر فلم يجدوا بداً من صدق الالتجاء إلى الله ، وإخلاص العبودية له، لم تتخلف عنهم سنة الله تعالى في إنجاء المخلصين من العذاب، بل أدركتهم فخلصتهم مما كان قد أحيط بهم ﴿ سنَّةَ اللهِ التي قد خلتَ من قبلُ ولن تجد لسنَّةِ الله تبديلاً ﴾ [سورة الفتح:٢٣] .

غير أن أولئك الناجين سرعان ما انقلبوا لمَّا أمنوا الخطر فعادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والطغيان، وستحيق بهم سنة الله في الآخرة من العذاب كما قال سبحانه:

---

(١) أي: غدار .

﴿ يا أيُّها النَّاسُ إنما بغيُكم على أنفسِكم متاعَ الحياةِ الدُّنيا ثُمَّ إلينا مرجِعُكم فنُنَبِّئُكُم بما كنتم تعملون ﴾[سورة يونس:٢٣] .

وفي الحديث ما يشهد لما دلت عليه هذه الآية من إنجاء الله تعالى من أخلص له في العبودية وصدق الالتجاء .

فعن سعد بن أبي وقاص(١) رضي الله عنه قال: "لما كان يوم الفتح فرَّ عكرمة بن أبي جهل فركب البحر فأصابتهم عاصف، فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً، فقال عكرمة: لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص ما ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك عهدا إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمدا، أضع يدي في يده، فلأجدنه عفوا كريما، قال: فنجاه فأسلم" (٢) .

فهكذا يكون إنجاء الله تعالى لمن أخلص له، وهكذا تكون مثوبته في الدنيا فضلا عن مثوبته في الآخرة، كما دلت عليه الآية السابقة .

---

(١) اسم أبيه مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب الزهري، كان سعد من السابقين إلى الإسلام حيث كان سابع سبعة، وكان أول من رمى بسهم في سبيل الله، ومناقبه كثيرة، توفي سنة ٥٤هـ، انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر بهامش الإصابة في معرفة الصحابة للحافظ ابن حجر ١٨/٢-٢٧، والإصابة ٣٣/٢ .

(٢) أخرجه النسائي في تحريم الدم ، باب الحكم في المرتد ١٠٥/٧، وأخرجه أبو داود في الجهاد، باب قتل الأسير ولا يعرض عليه الإسلام بالسند نفسه برقم ٢٦٨٦، ولكن ليس فيه عنده محل الشاهد هنا، قال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٢٢/٣ : "وفي إسناده إسماعيل بن عبد الرحمن السدي ، وقد احتج به مسلم، وتكلم فيه غير واحد، وفي إسناده أيضا أسباط بن نصر ، وقد احتج به مسلم في صحيحه، وتكلم فيه غير واحد اهـ .

تمثل خلق الإخلاص في النبي صلى الله عليه وسلم

وحيث إن الإخلاص بتلك المنزلة من الأخلاق الإيمانية، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد كان في ذروة الكمال منه؛ لأنه هو ذو الخلق العظيم كما شهد له الله تعالى بذلك .

حديث القرآن الكريم عن إخلاص رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ولقد كان المولى جل وعلا مع ذلك ـ وكما هي سنته في تعهد حبيبه ونبيه في التوجيه والتأديب ـ كان لا يزال يحث نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم على انتهاج هذا الخلق العظيم، والثبات عليه في كل أحواله، وذلك بمثل قوله تعالى: ﴿ إنَّا أنزلنَا إليكَ الكتابَ بالحقِّ فاعبدِ اللهَ مخلِصاً له الدِّين * ألا لله الدِّينُ الخالصُ ...﴾[سورة الزمر:٢،٣] .

ولا شك بأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم قد كان يأخذ مثل هذا التوجيه الإلهي مأخذ الجد والعزيمة، فتتمثل فيه معانيه بأوفى صورها وأكمل تطبيقاتها، حتى كانت تفيض على قلبه الشريف من أنوار ذلك التوجيه ما يعجز القلم وتحصر اللسان عن وصفه، فكان يقول ما قصه الله تعالى على لسانه: ﴿ قل إنِّي أُمِرتُ أن أعبدَ اللهَ مخلِصاً له الدين * وأُمِرتُ لأن أكونَ أولَ المسلمين * قل إنِّي أخافُ إن عصيتُ ربِّي عذابَ يوم عظيم * قل اللهَ أعبدُ مخلِصاً له دِيني ﴾[سورة الزمر:١١-١٤] .

فترى كيف لبَّى النبي صلى الله عليه وسلم توجيه ربه في الاستمرار والثبات على هذا الخلق العظيم، حتى كان يردد ذلك الأمر على لسانه ويقول: ﴿ إنِّي أُمرتُ أنْ أعبدَ الله مخلصاً له الدين ﴾ تلذذا بهذا التوجيه الكريم، والأمر القويم، مع أنه صلى الله عليه وسلم كان في القمة من الإخلاص كما شهد له بذلك القرآن الكريم حيث قص قوله صلى الله عليه وسلم وهو يخاطب أهل الكتاب: ﴿ قل أتحاجُّونَنَا في اللهِ وهو ربُّنا وربُّكم ولنا أعمالُنا ولكم أعمالُكم ونحن له مخلِصون ﴾[سورة البقرة:١٣٩] .

فهو صلى الله عليه وسلم يخبر عن نفسه بأنه مخلص لله تعالى في دينه وعبادته، وهو الصادق الأمين، وقد أقره القرآن الكريم على ذلك، فحكى مقالته على سبيل الإقرار والاعتماد والإشادة، مما يدل على أن هذا الخلق العظيم قد كان مستحكما فيه صلى الله

عليه وسلم في كل أحواله كما هو شأنه في كل خلق عظيم .

١ - ففي دعوته إلى الله تعالى، كان يتفانى في الإخلاص لها لا يتوانى عنها ليلا أو نهارا، ولا يدخر جهدا يمكن أن يبذله،ليس له في ذلك غرض نفسي، ولا يعبأ براحة جسمية كما سيأتي بيانه في مبحث البلاغ من باب أخلاق النبوة إن شاء الله تعالى،(١) ونُعجِّل من ذلك هنا ما يدل على إخلاصه في القرآن الكريم، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ أولئك الذين هدَى اللهُ فبهداهم اقتَدِهْ قل لا أسألُكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾[سورة الأنعام:٩٠] .

وقوله سبحانه على لسانه صلى الله عليه وسلم: ﴿ قل لا أسألُكم عليه أجراً إلا المودةَ في القُربَى ﴾[سورة الشورى:٢٣] .

وقول الله تعالى في الذب عنه والاستدلال على إخلاصه: ﴿ أم تسألهُم أجراً فهم من مَغرم مُثقلون ﴾[سورة الطور:٤٠] .

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه ما كان له من غرض في دعوته إلى الله تعالى إلا كمال الإخلاص لله وتبليغ ما أمر به على النحو الذي يرضي الله، لا يريد من ذلك جزاء ولا شكوراً .

٢ - وعبادته لله تعالى، كانت قائمة على كمال الإخلاص فيها لله المستحق للعبادة وحده، فقد كانت حياته كلها عبادة، ينتقل فيها من نوع إلى نوع، ومن حال إلى حال، كما شهد له الله تعالى بذلك في قوله جل ذكره: ﴿ قل إنَّ صلاتي ونُسكي ومَحيايَ ومماتي لله ربِّ العالمين * لا شريكَ له وبذلك أُمرتُ وأنا أولُ المسلمين ﴾ [سورة الأنعام:١٦٢،١٦٣] .

فهذا القرآن الكريم يلقن النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلن للملأ هذه الحقيقة الكلية فيه، لمَّا علِمَها الله تعالى منه، ليقتدي به الناس فيخلصوا كإخلاصه، لأنه هو الأسوة الحسنة للبشرية كما قال الله تعالى: ﴿ لقد كان لكم في رسولِ اللهِ أسوةٌ حسنة لمن كان يرجو اللهَ واليومَ الآخِر وذكر الله كثيراً ﴾[سورة الأحزاب:٢١] .

---

(١) أنظر ص ١٠٦٤ - ١٠٦٧

وقد كان صلى الله عليه وسلم يطبق هذا التوجيه القرآني، فكان يقول عند قيامه إلى الصلاة: "وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا مسلما وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين" (١) .

أقواله صلى الله عليه وسلم في الإخلاص :

ولما كان صلى الله عليه وسلم من هذا الخلق في ذروة الكمال كما شهد له بذلك القرآن الكريم، وكما عبر عنه بلسانه الشريف، حيث أفاد أن جميع أحواله في الحياة وبعد الممات هي خالصة لله تعالى، فقد كان يدل على ذلك أيضا بأقواله التي تعبر عن هذا الخلق والتي كانت تلقى لأصحابه ولأمته كلها في بيان أهمية هذا الخلق ومكانته في الدين، وفي الحث عليه، والتحذير من التخلي عنه .

بيانه صلى الله عليه وسلم لأهمية خلق الإخلاص :

أما بيانه صلى الله عليه وسلم لأهمية هذا الخلق العظيم، فهو ما يعبر عنه قوله عليه الصلاة والسلام:

١ - "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه" (٢) .

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه برقم ٧٧١، وأبو داود في الصلاة، باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء برقم ٧٦٠، والترمذي في الدعوات، باب الدعاء في أول الصلاة برقم ٣٤١٧، ٣٤١٨، ٣٤١٩ ، والنسائي في الافتتاح ١٣٠/٢ ، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري في أول صحيحه، وفي مواضع أخرى متفرقة منه، ومسلم في الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم : "إنما الأعمال بالنيات" برقم ١٩٠٧ ، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

فقد أناط صلى الله عليه وسلم بالإخلاص كل عمل يمكن أن يؤديه المرء عبادة لله تعالى، فلا يقبل منها عمل إلا ما كان خالصا لوجهه سبحانه، لأن تقدير الحديث (إنما قبول الأعمال بخلوص النيات) (١) .

فإذا كانت الأعمال لا تقبل إلا إذا خلصت النية، فمعنى ذلك أن الإخلاص ركن أساسي في العبادة، وأن العبادة التي يفقد منها الإخلاص ترد على صاحبها، كما دل عليه الحديث السابق "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه غيري تركته وشركه"(٢). حيث دل على أن من أشرك في عمله غير الله تعالى لم يقبله منه؛ لأنه ليس خالصا لوجهه، ومن هذا الحديث تعلم مبلغ أهمية هذا الخلق، كما تعلم مبلغ مكانته في النبي صلى الله عليه وسلم لأن أعماله كلها كانت على وفقه، كيف لا وهو الدال على الله تعالى بحاله وقاله.

ولقد عد هذا الحديث من الأحاديث الأربعة التي عليها مدار الإسلام، المجموعة في قول بعضهم :

عمدةُ الدين عندنا كلمات ... أربع قالهن خير البرية

اتق الشبهات وازهد ودع ... ما ليس يعنيك واعملن بنية(٣)

ولذلك حث النبي صلى الله عليه وسلم على إخلاص النيات في الأعمال لتكون مقبولة، وذلك بمثل قوله:

٢ ـ "إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم

---

(١) انظر فتح الباري ١/٣٥ .

(٢) تقدم تخريجه ص ١٤٥.

(٣) هذان البيتان لطاهر بن مفوز، وجاء عن الشافعي، وعبد الرحمن بن مهدي، وأحمد بن حنبل، وعلي بن المديني، وأبي داود، والترمذي، والدار قطني، وحمزة الكناني أن هذا الحديث ثلث الإسلام، ومنهم من قال: ربعه، ووجه البيهقي كونه ثلث الإسلام بأن كسب العبد بقلبه ولسانه وجوارحه، والنية أحد أقسامها الثلاثة وأرجحها؛ لأنها قد تكون عبادة مستقلة وغيرها يحتاج إليها" فتح الباري ١/٣١ .

وأعمالكم"(١) .

فقد أرشد أمته إلى إخلاص نياتهم في الأعمال لأنها محط نظر الله تعالى، فهو يعلم ما أريد به وجهه مما لم يرد به، أو أشرك به غيره، فلذلك ندبهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى إخلاص نياتهم حتى تقبل أعمالهم، لأن الله لا يقبل إلا ما كان خالصا لوجهه .

٣ - وبمثل قوله صلى الله عليه وسلم منوها بأهل الإخلاص ".. ثلاث لا يُغِلُّ (٢) عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن الدعوة تحيط من ورائهم" (٣) .

٤ - وقوله عليه الصلاة والسلام: " قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان، وجعل قلبه سليما، ولسانه صادقا، ونفسه مطمئنة، وخليقته مستقيمة، وجعل أذنه مستمعة، وعينه ناظرة" (٤) .

إلى غير ذلك من الأحاديث التي كان يبين فيها النبي صلى الله عليه وسلم مكانة هذا الخلق ومكانة أصحابه عند الله تعالى، وهي تدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان يترجم عن ذلك الخلق بسلوكه في أفعاله وأقواله؛ لأنه أول من يطبق ما يندب إليه .

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب تحريم الظن والتحسس والتنافس برقم ٢٥٦٣ ، وأبو داود في الأدب، باب الغيبة، باب الظن برقم ٤٨٨٢، ٤٩١٧ ، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في شفقة المسلم برقم ١٩٢٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) من الإغلال وهو: الخيانة في كل شيء. النهاية ٣/٣٨١ والصحاح ١٧٨٤/٥ .

(٣) أخرجه الترمذي في العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع برقم ٢٦٥٨، والحاكم في المستدرك ٨٧/١، وقال: على شرط الشيخين، وأقره الذهبي، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح، وعزاه المنذري في الترغيب ٥٤/١ إلى البزار بإسناد حسن، قال: وقد روي هذا الحديث أيضا عن ابن مسعود، ومعاذ بن جبل، والنعمان بن بشير، وجبير بن مطعم، وأبي الدرداء، وأبي قرصافة جندرة بن خيشنة، وغيرهم من الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وبعض أسانيدهم صحيح

(٤) أخرجه أحمد في المسند ١٤٧/٥، وقال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٣٥/١٠ : إسناده حسن .

ترهيبه صلى الله عليه وسلم من الرياء :

وقد دل على ذلك السلوك أيضا تحذيره الشديد وترهيبه الأكيد من التخلق بضد هذا الخلق، كالرياء والسمعة، الذين يذهب معهما الأجر، ويوجبان لصاحبهما الوزر، وذلك كما في قوله صلى الله عليه وسلم :

١ - "من سمَّع سمَّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به" (١) .

٢ - وقوله صلى الله عليه وسلم: "إن أول الناس يُقضَى يوم القيامة عليه، رجل استشهد، فأتي به فعرفَّه نعمة الله فعرفها، قال: فما عملت فيها ؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به، فعرفه نعمة الله فعرفها، قال: فما عملت فيها ؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارىء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار .

ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها ؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب الرياء والسمعة ١٣٠/٨، ومسلم في الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله برقم ٢٩٨٧ من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه .

ومعنى الحديث كما قال ابن الأثير في جامع الأصول ١٣/١١ يقال: "سمع فلان بفلان إذا فضحه فأظهر عيبا كان يستره، ومن فعل ذلك بالناس فإن الله يفعل به مثله، بأن يهتكه ويكشف عيوبه للناس في الدنيا والآخرة، قال: ويجوز أن يراد بالتسميع الرياء، وهو أن يفعل الإنسان فعلا صالحا في السر ثم يظهره ليسمعه الناس ويحمد عليه، فيفسد صالح عمله بالرياء الواقع بإظهاره، فإن الله يسمع به، ويظهر إلى الناس غرضه من طلب الرياء، وأن عمله لم يكن خالصا" قال: "ويجوز أن يريد بمن سمَّع الناس، بأن ينسب إلى نفسه عملا صالحا لم يفعله، وادَّعى خيرا لم يصنعه، فإن الله يفضحه ويظهر كذبه، فيسمع الناس بغرضه الفاسد" ا.هـ .

لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار" (١) .

فكل هذه الأحاديث وغيرها كثير تدل على عظمة مكانة خلق الإخلاص، وعظمة تحلي النبي صلى الله عليه وسلم به، حيث كان يفيض بأخباره عنه ، ليحث أمته على التحلي به، والتخلي عما يناقضه من رياء وسمعة، لكمال رحمته بهم، وعظيم محبته الخير لهم؛ لأنه إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق، فيتحلى بها في نفسه ليكون أسوة لأمته، ويدعوهم إلى التحلي بها، فيرغبهم فيها، ويحذرهم من تركها، وهو في ذلك ﴿ما يَنطقُ عن الهوى إن هُو إلاَّ وحيٌ يوحَى ﴾ كما قال الله تعالى عنه .

---

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار برقم ١٩٠٥، من حديث أبي هريرة، وأخرجه أيضا الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الرياء والسمعة برقم ٢٣٨٢، والنسائي ٦/٢٣،٢٤ .

المبحث الثاني

(الاستقامة)

الاستقامة في اللغة: الاعتدال، يقال: استقام له الأمر: إذا اعتدل(١) .

قال الراغب: "الاستقامة، تقال في الطريق الذي يكون على خط مستو"(٢)، يعني بحيث تنطبق أجزاؤه المفروضة بعضها على بعض، والسين والتاء فيه للمبالغة في التّقوُّم .

وفي الاصطلاح: هي "الوفاء بكل العهود ولزوم الصراط المستقيم برعاية حد الوسط في كل أمر من مطعم ومشرب وملبس، وكل أمر ديني ودنيوي"(٣) .

وهي بهذا المعنى تشبيه لها بالطريق المستقيم الذي لا عوج فيه ولا أمتى، لأن هذا التعريف يعني لزوم الإنسان للمنهج المستقيم في كل أحواله وأطوار حياته، وهو أجمع التعاريف الكثيرة التي أطلقت على هذا الخلق، والتي تعددت منذ عصر الصحابة، وذلك عندما تعرض كل منهم لتعريفها عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إنَّ الذين قالوا ربُّنا اللهُ ثم استقاموا ...﴾[سورة فصلت:٣٠] ففسرها بما فهم وبقدر ما لديه من العلم، وما يتلاءم مع اتجاهه ومشربه .

تعريف بعض الصحابة رضي الله عنهم للاستقامة :

فقال أبو بكر رضي الله عنه : "هم الذين لم يشركوا بالله شيئاً" .

وهذا التعريف مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم عندما قرأ هذه الآية فقال: "قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم، فمن مات عليها فهو ممن استقام" (٤) .

---

(١) الصحاح للجوهري مادة قوم ٢٠١٧/٥، والقاموس المحيط ٦٨/٤ .

(٢) المفردات في غريب القرآن ص ٤١٨ .

(٣) التعريفات للجرجاني ص ١٩، والتوقيف للمناوي ص ٥٩ .

(٤) أخرجه الترمذي في تفسير سورة حم السجدة برقم ٣٢٥٠ من حديث أنس رضي الله عنه، وقال عنه:حسن غريب،وعزاه الشوكاني في فتح القدير٥١٦/٤ إلى النسائي والبزار وأبي يعلى وابن جرير =

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "استقاموا لله بطاعته ولم يروغوا رَوغَان الثعالب" يريد أنهم التزموا بها دائما، وليس وقتا دون وقت .

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: "استقاموا: أخلصوا العمل لله" .

وقال علي رضي الله عنه وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: "استقاموا: أدوا الفرائض"(١) .

"وكل هذه الأقوال ترجع إلى معنى الاستقامة في الإيمان وآثاره"(٢) والخلاف بينها لفظي .

أهمية هذا الخلق في الأخلاق الإيمانية :

وعناية هؤلاء الأربعة الخلفاء أقطاب الإسلام وأعلام الصحابة ومشايخهم بتفسير الاستقامة، تشير إلى أهميتها في الدين، ولا غرو فهي تشمل جميع جوانبه العقدية والتعبدية والأخلاقية، فكل مجال من مجالاته يلزم له الاستقامة عليه حتى يلقى الله تعالى، وإلا كان ﴿ كالتي نَقضت غزلها من بعد قوةٍ أَنكاثاً(٣)﴾ [سورة النحل:٩٢]، وذلك لأن الله تعالى يريد من عباده الاستمرار على الطاعة حتى الممات كما قال النبي صلى الله عليه

= ١١٤/٢٤، وابن أبي حاتم وابن عدي في الكامل ١٢٨٨/٣، وابن مردويه، وعزاه قبله ابن كثير في تفسيره ٩٨/٤ إليهم أيضا .

(١) ذكر هذه الأقوال مسندة ابن جرير في تفسيره ١١٤/٢٤-١١٧، وسردها ابن الجوزي في زاد المسير ٢٥٤/٧، وابن كثير في تفسيره ٩٨/٤، والشوكاني ٥١٦/٤ .

وهناك أقوال أخرى كثيرة في معنى الاستقامة منقولة عن السلف تدور في فلك هذه الأقوال الأربعة المذكورة هنا، انظر البحر المحيط لأبي حيان ٤٩٦/٧ .

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٨٣/٢٤ .

(٣) منصوب على الحال، جمع نكث، وهو ما ينكث أي: يحل إحكامه، تفسير الجلالين ٣١١/١ .

وسلم: "أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قلّ" (١) .

وبقدر ما تكون الاستقامة يكون كمال الإيمان لأن الإيمان يزداد ويكمل بالطاعات، ويقل وينقص بالمعاصي والسيئات، فمن كان على الاستقامة ثابتا كان أكمل إيمانا وأعظم أخلاقا، ومن كان دون ذلك، فدون ذلك، ومن كان فاقدا لها كلية كان فاقدا للإيمان كلية أيضا .

ولهذا ذكرها الله تعالى بعد ذكر الإيمان فقال: ﴿ إنَّ الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا ..﴾ للتدليل على تلازم الإيمان بالاستقامة عليه، وهو ما دل عليه تفسير أبي بكر رضي الله عنه لها، ولذلك يقول في الكشاف مبينا سر تراخيها عن الإيمان: "ثُمَّ: لتراخي الاستقامة عن الإقرار في المرتبة، وفضلها عليه لأن الاستقامة لها الشأن كله، قال ونحو قوله تعالى: ﴿ إنَّما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسولِه ثم لم يرتَابوا ﴾[سورة الحجرات:١٥]، والمعنى: ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته"(٢) .

عناية القرآن الكريم بهذا الخلق :

ولأجل هذا كله كانت عناية القرآن الكريم بهذا الخلق العظيم كبيرة، حيث أمر المؤمنين بلزومه ونوه بأهله، وأبان عن فضلهم وعظيم أجرهم في غيرما آية من القرآن الكريم، وذلك دليل على عظم شأنه .

الأمر بلزوم الاستقامة :

أما الأوامر القرآنية بلزوم الاستقامة، فقد وجهها الله تعالى إلى خواص عباده كما وجهها إلى عامتهم .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل ١٢٢/٨، ومسلم في الصلاة، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل برقم ٧٨٢ ، واللفظ له من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لمحمود بن عمر بن محمد بن عمر الملقب بجار الله الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ، ٣٩١/٣ .

وخواص عباده هم أنبياؤه المقربون لديه، الذين هم على قدم الاستقامة بمقتضى اصطفاء الله تعالى لهم ليكونوا رسله إلى خلقه، وهذا الاصطفاء يعصمهم عن أن يكونوا عاصين لله تعالى أو مخالفين أوامره كما سيأتي بحثه وبيانه إن شاء الله تعالى. ومع ذلك فإن الأوامر القرآنية لم تفتأ تتنزل عليهم بالثبات على الاستقامة والدوام عليها، فموسى وهارون عليهما السلام يقول لهما الله عز وجل: ﴿ قد أُجيبت دعوتُكما فاستقيما ولا تتبعانِّ سبيلَ الذين لا يعلمون ﴾[سورة يونس:٨٩] .

وسيد الأنبياء والمرسلين وخاتمهم يقول له الله تعالى: ﴿ فاستقم كما أُمرتَ ومن تاب معك ولا تَطغوا إنه بما تعملون بصير﴾[سورة هود:١١٢]، ويقول له أيضا: ﴿ فلذلك فادعُ واستقم كما أُمِرتَ ولا تتبَّع أهواءهم ..﴾[سورة الشورى:١٥] .

وهذه الأوامر القرآنية لأنبياء الله تعالى على الثبات على هذا الخلق العظيم غير قاصرة عليهم، بل تشملهم وتشمل المؤمنين بالأولى لأنهم هم الذين يحتاجون إلى الإلزام بهذا الخلق ، لما هم عليه من التفريط، فإذا كان الأنبياء وهم على قدم الاستقامة -كما شهد لهم الله تعالى بذلك وسيأتي بيانه- يؤمرون بلزوم هذا الخلق، فغيرهم أولى بأن يلزموا به، وكانوا أجدر بأن يدخلوا في تلك الخطابات دخولا أوليا، ومع ذلك فقد وجه إليهم خطاب يخصهم ليكون ذلك أبعد للجدل وأنفى للحجة، وذلك هو ما كلف به نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يوجهه إليهم حيث قال: ﴿ قل إنَّما أنا بشر مثلكم يُوحى إليَّ أنما إلهكم إلـٰه واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ﴾ [سورة فصلت:٦] .

فلا يبقى بعد هذا الخطاب مقال لقائل يريد أن يفلت من الالتزام بهذا الخلق العظيم لصعوبة الثبات عليه، ولقد أمر الله تعالى جميع عباده أن يسألوه التثبيت عليها في اليوم والليلة سبع عشرة مرة على الأقل، وذلك عند قراءتهم فاتحة الكتاب في كل ركعة من ركعات الصلاة المتضمنة لطلب الهداية عليها ﴿ اهدنا الصِّراط المستقيم * صراطَ الذين أنعمت عليهم ﴾ ، وذلك الصرط هو الطريق القويم والنهج السليم على الإيمان والطاعة، والأخلاق الفاضلة، وهو ما تعنيه كلمة "الاستقامة" .

التنويه بهذا الخلق وأهله في القرآن الكريم :

ولقد كان من عناية القرآن الكريم بهذا الخلق العظيم أن نوه وأشاد به وبأهله في عدة آيات كقوله تعالى : ﴿ إنَّ الذين قالوا رُبنا الله ثم استقاموا تَتَنزلُ عليهم الملائكةُ أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشِروا بالجنَّةِ التي كنتم تُوعدون * نحن أولياؤُكم في الحياةِ الدنيا وفي الآخِرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسُكم ولكم فيها ما تَدَّعون * نُزُلاً من غفور رحيم ﴾[سورة فصلت:٣٠-٣٢] .

فهذا تنويه عظيم بالمستقيمين على الإيمان والطاعة، لا يدرك كنهه، ولا ينال مثله غير أهله، بدلالة ما رتب الله تعالى على الالتزام بهذا الخلق من المكرمات العظيمة التي بيَّنتها هذه الآية الكريمة وغيرها كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إنَّ الذين قالوا رُبنا الله ثم استقاموا فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون * أولئِك أصحابُ الجنة خالدين فيها جزاءً بما كانوا يعملون ﴾[سورة الأحقاف:١٣،١٤] .

فإن هذه الآيات إضافة إلى ما تحمله من جميل الثناء وبالغ الإشادة بالمستقيمين، فإ نها تحمل أيضاً البشارات العظيمة بالمثوبات الكريمة الكبيرة التي ينالها المستقيمون على الإيمان والأخلاق والطاعات، وإليك بيان ذلك :

بيان ما أعده الله تعالى لأهل الاستقامة من المثوبة :

فأول تلك البشارات التي تتنزل بها الملائكة الكرام على أهل هذا الخلق العظيم، هي تأمينهم مما قد يداخل رَوْعهم من هول ما هم قادمون عليه من أهوال يوم القيامة العظيمة، فتتنزل عليهم ملائكة الرحمة بالتأمين والتطمين قائلة لهم : لا تخافوا مما أنتم قادمون عليه فإن الله سيكلؤكم برحمته وعنايته، ولا تحزنوا على ما خلفتم من أهل وولد، فإن الله سيخلفكم فيهم بالرعاية والعناية، فتحل في قلوبهم عندئذ السكينة، وتنشرح صدورهم بالثقة الكاملة بوعد الله تعالى الذي جاءهم على ألسنة ملائكته، وقد تكرر هذا الوعد في آيتي فصلت والأحقاف زيادة في تأكيده للنفوس .

وثاني تلك المكرمات بعد تأمين الروع : التبشير بالجنة التي كانوا يوعدون بها من

قبل، فيعملون لاكتسابها، وذلك تعجيل لهم بمسرة الفوز برضا الله تعالى، وتحقيق وعده لهم" ، وقد بينت الملائكة لهم ما في الجنة من عظيم الثواب إتماماً لكمال لذة البشارة فتقول لهم : ﴿لكم فيها ما تَشتهي أنفسُكم﴾ أي: من فنون الملاذ مما يقع تحت الحس ﴿ولكم فيها ما تَدَّعون﴾ أي: ولكم فيها من كل ما يخطر ببالكم وتتمنوه في نفوسكم، وأن ذلك كله ﴿نُزُلاً من غفور رحيم﴾ [فصلت:٣١،٣٢] أي: ضيافة من الله تعالى (١) .

فبحسب المتخلقين بهذا الخلق فخراً وفضلا على غيرهم عظيم هذا الثواب في الآخرة .

أما في الدنيا فإن الله تعالى قد وعدهم بصلاح الحال واستقامة الأحوال كما قال سبحانه: ﴿ وألَّو استقاموا على الطَّريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً ﴾[سورة الجن:١٦]، فإن هذه الآية وعد إلهي بصلاح أحوال المستقيمين في الدنيا، إذ الماء الذي وعدوا به هو سبب لسعة الرزق؛ إذ هو أصل المعاش، فهو من ذكر السبب وإرادة المسبب(٢)، وقد بين الله تعالى هذا الوعد في آية أخرى قال فيها: ﴿ من عمِل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنُحيِيَنَّه حياةً طيبة ولنجزينَّهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يَعملون ﴾[سورة النحل:٩٧] .

فإن العمل الصالح بعد الإيمان بالله تعالى هو ما تعنيه الاستقامة، إذ يقتضي العمل الصالح اتباع المأمورات واجتناب المنهيات، والثبات على ذلك .

وقد وعد الله تعالى أهل ذلك بالحياة الطيبة في الدنيا والأجر العظيم بالآخرة، والحياة الطيبة تكون إما باليسار، أو القناعة والرضا بالقسمة الإلهية، وتوقع الأجر العظيم في الآخرة(٣) .

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٨٥/٢٤ ، وروح المعاني للألوسي ١٢١/٢٤/٨-١٢٢ .

(٢) انظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ص ٧٦٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٦٥ .

تمثل خلق الاستقامة في النبي صلى الله عليه وسلم

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في ذروة الكمال من الاستقامة على الإيمان والأخلاق والطاعات .. وكل ما تعنيه كلمة الاستقامة من معنى وشمول، وذلك بمقتضى نبوته وخُلته لربه .

وهو ما تدل عليه شهادة الله تعالى له بعظمة الخلق، إذ لولا أنه كان كذلك لما نال تلك الشهادة العظيمة التي لم تكن لأحد غيره، والاستقامة جوهر تلك الأخلاق، إذلا يكون ذا خلق عظيم إلا إذا كانت أخلاقه ثابتة لا تتغير، متكافئة لا يطغى جانب منها على جانب، وهو الحال الذي كان عليه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما علمت مما تقدم تقريره في المدخل(١)، وهذه هي الاستقامة في الأخلاق، وذلك فضلا عن شهادة الله تعالى له بالثبات على هذا الخلق والكمال فيه، كما سيأتي بيانه قريبا .

ومع كونه عليه الصلاة والسلام كان على ذلك الحال بفطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها، فقد كانت عناية القرآن الكريم به صلى الله عليه وسلم في تثبيته على كمال الأخلاق وسموها، لاتزال تتعهده فتحضه على الثبات عليها كما مر في بعض الأخلاق الاعتقادية والسلوكية الإيمانية .

وفي هذا الخلق كانت العناية القرآنية في حث المصطفى صلى الله عليه وسلم على الثبات عليه كبيرة، نظرا لعظم مكانة هذا الخلق في الأخلاق السلوكية الإيمانية وعظم تحمله .

لذلك نرى القرآن الكريم يخاطبه بقوله: ﴿ فاستقم كما أُمرت ومن تابَ معك ولا تطغوا إنَّه بما تعملون بصير ﴾[سورة هود:١١٢] .

وبقوله: ﴿ فلذلك فادعُ واستقم كما أُمِرتَ ولا تَتَّبع أهواءَهم ﴾[سورة الشورى:١٥] .

وهي أوامر بالدوام على الاستقامة والثبات عليها كما في قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمَنوا آمِنوا ...﴾[سورة النساء:١٣٦] .

قال ابن عطية: "أُمِر النبي صلى الله عليه وسلم بالاستقامة وهو عليها، إنما هو أمر بالدوام والثبات، قال: وهذا كما تأمر إنساناً بالمشي والأكل ونحوه،وهو متلبس به،

---

(١) انظر ص٥٩

قال: والخطاب بهذه الآية للنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الذين تابوا من الكفر ولسائر أمته بالمعنى .."(١) .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يتأثر تأثرا بالغا بمثل تلك التوجيهات، فيشمر عن ساعد الجد للعمل بمقتضاه بكل ما أوتي من قوة وطاقة، وفي هذا التوجيه بذلَ النبي صلى الله عليه وسلم قُصارى جهده وكمال طاقته في الاستمرار على هذا الخلق بكل كمال في الأخلاق والطاعات وشدة التعلق برب البريات، والتفكر في أحوال أمته في الدنيا والآخرة، حتى أثر ذلك في جسمه الشريف وكان رأي العين لأصحابه، حتى قال ابن عباس رضي الله عنهما: "ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية كانت أشد ولا أشق عليه من هذه الآية" (٢) .

ويدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم لما استغربوا سرعة بدار الشيب فيه وقالوا: "يا رسول الله قد شبت ؟ فقال صلى الله عليه وسلم:شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت"(٣) .

وفي رواية قال: "شيبتني هود وأخواتها" (٤).

يعني بذلك لما فيها من الأمر بالاستقامة في الآية السابقة الذكر، وذلك خوفا أن لا

---

(١) المحرر الوجيز ٤١٢/٧ وابن عطية تقدم التعريف به ص١٤٧ .

(٢) نقله الإمام النووي في شرح مسلم ٩/٢ .

(٣) أخرجه الترمذي في تفسر سورة الواقعة برقم ٣٢٩٧، وفي الشمائل برقم ٤٠، والحاكم في المستدرك ٤٧٦/٢ من حديث ابن عباس، وقال الترمذي عنه: حسن غريب، وقال الحاكم صحيح على شرط البخاري وأقره الذهبي، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٤٠/٧ إلى الطبراني في الأوسط، قال: ورجاله رجال الصحيح .

(٤) عزاه الهيثمي في المجمع ٤٠/٧ إلى الطبراني من حديث عقبة بن عامر، قال: ورجاله رجال الصحيح، وعزاه إليه السيوطي في الجامع الصغير ٤٠/٢، ورمز له بالصحة، ولم يتعقبه المناوي في فيض القدير ١٦٨/٤ .

يكون قام بواجبها كما ينبغي أن يكون القيام؛ "لأن الاستقامة من أصعب المقامات إذ هي كمقام الشكر الذي هو صرف العبد في كل ذرة ونفس جميعَ ما أنعم الله تعالى به عليه من حواسه الظاهرة والباطنة إلى ما خلق لأجله من عبادة ربه بما يليق بكل جارحة من جوارحه على الوجه الأكمل"(١) .

فهي تعني :الخروج عن المعهودات، ومفارقة الرسوم والعادات والقيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق(٢) .

لذلك قالوا: "إنها درجة بها كمال الأمور وتمامها، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها، ومن لم يكن مستقيما في حالته ضاع سعيه وخاب جهده" .

قالوا: "إنما شيَّبه ذلك مع عصمته وتحققه أن الحق لا يمكر به؛ لأن المقرَّب ولو بالغ في الاستقامة، يمنعه الأدب مع الله أن يشهد في نفسه أنه وفَّى بالأمر بحيث لم يبق بعده درجة يمكن صعودها، بل المقرب أولى بشدة الخوف ممن سواه؛ لأن من خصائص حضرات القرب شدة الخوف لكمال التجلي بالهيبة، وكلما زاد القرب زاد الخوف، قالوا: ومن ادعى مقام التقرب مع الإدلال على الله، فما عنده خَبر من القرب"(٣) .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يُشعِر أصحابه بذلك الحال الذي كان عليه من الاستقامة، وخشيته أن لا يكون قد أدى واجب العبودية كما يجب، فيقول لهم: "لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا"(٤)، وكان على الحال الذي تقدم ذكره من الخوف والخشية، كل ذلك بسبب ما كان عليه من الاستقامة الكاملة لله في الإيمان والأخلاق وجميع الطاعات، ثم هو مع ذلك ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ والذين يُؤتُون ما ءاتَوا وقلوبُهم وجِلَة أنَّهم إلى ربِّهم راجعون ﴾[سورة المؤمنون:٦٠] .

---

(١) فيض القدير للمناوي ١٦٩/٤ .

(٢) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم ٩/٢ نقلا عن أبي القاسم القشيري .

(٣) فيض القدير ١٦٩/٤ .

(٤) متفق عليه وتقدم تخريجه في مبحث الخوف والخشية ص ١٢٠

ومازال على ذلك حتى شهد له الله تعالى أنه على قدم الاستقامة الكاملة، وذلك في آيات كثيرة، منها قوله جل شأنه: ﴿ وادع إلى رَبِّك إنَّك لعلى هُدًى مستقيم ﴾ [سورة الحج:٦٧] .

وقال تقدست أسماؤه: ﴿ يس * والقرآنِ الحكيم * إنَّك لَمن المرسلين * على صراطٍ مستقيم ﴾[سورة يس:١-٤] .

والهدي المستقيم أو الصراط المستقيم هو ما تعنيه الاستقامة بكل أبعادها، فهذه شهادة من الله عز وجل لنبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم أنه على كمال الاستقامة في نفسه إيمانا وعبادة وأخلاقا .. إذ أخبر الله تعالى عنه بذلك إخبارا مؤكدا بتأكيدات كثيرة في الآيتين(١)، وذلك دليل على مبلغ استقامته صلى الله عليه وسلم .

تبيينه صلى الله عليه وسلم لأمته طريق الاستقامة :

وقد كان من استقامته صلى الله عليه وسلم قيامه بواجب التبليغ لشرع الله، وتعليم الأمة دين الإسلام قليله وكثيره، جليله وحقيره، على النحو الذي أراده الله تعالى وأمره به .

وكان من تعليمه الأمة وإبلاغها شرع الله تعالى وآدابه وأخلاقه ، أن علمها هذا الخلق العظيم على النحو الذي رأى أنها ستقوم به معه، كما يشهد لذلك أحاديث كثيرة نذكر منها الآتي :

١ ـ فقد جاء إليه رجل وقال: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا بعدك، فقال له صلى الله عليه وسلم: "قل آمنت بالله ثم استقم"(٢) .

---

(١) المؤكدات في الآية الأولى هي: إن ولام الابتداء والجملة الاسمية، وفي الآية الثانية هذه المؤكدات، وصدرت بمؤكد رابع بليغ وهو القسم، على أن النبي صلى الله عليه وسلم من المرسلين وأنه على صراط مستقيم .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام برقم ٣٨، من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه .

فأرشده النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الكلمة إلى ما يريده من أمر دينه ودنياه وذلك بلزوم الاستقامة بعد الإيمان بالله، فإنه إن لزم ذلك استقام له أمر الدين والدنيا .

٢ - غير أن لزوم الاستقامة على الوجه الأكمل مما قد يتعذر على كثير من الناس ، لأنها من أصعب المقامات كما قيل، غير أنه لا حيلة من لزومها بقدر الطاقة والإمكان، وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى ذلك فقال: "استقيموا ولن تحصوا"(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: "سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم عمله الجنة، وأن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل"(٢) .

فأرشدهم عليه الصلاة والسلام إلى فعل ما يقدرون عليه بحسب الطاقة، ثم لا حرج عليهم بعد ذلك فهو يقول: استقيموا ولن تحصوا أي: استقيموا في كل شيء حتى لا تميلوا، ولن تطيقوا الاستقامة(٣)، يعني على وجهها، وهذا منتزع من قول الله تعالى:

---

(١) تمامه: "واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن" أخرجه مالك في الموطأ كتاب الوضوء ٤٣/١، بلاغا، وابن ماجه في الطهارة برقم ٢٧٧ من حديث ثوبان رضي الله عنه، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه ٨٨/١ : "رجاله ثقات أثبات إلا أنه منقطع بين سالم ابن أبي الجعد وثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه لم يسمع منه بلاخلاف، قال: لكن له طريق أخرى متصلة، أخرجها أبو داود الطيالسي في مسنده ص ١٣٤ ، وأبو يعلى الموصلي ، والدارمي في مسنده ص ١٦٨، وابن حبان في صحيحه من طريق حسان بن عطية أن أبا كبشة حدثه أنه سمع ثوبان، وأخرجه الحاكم من طريق سالم عن ثوبان، وقال، هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، قال: ولست أعرف له علة يعلل بمثلها هذا الحديث إلا وهم من أبي بلال الأشعري، وهم فيه على أبي معاذ ا.هـ، المستدرك ١٣٠/١، وسكت عنه الذهبي، وأخرجه أيضا من حديث جابر، وصححه الألباني في إرواء الغليل برقم ٤١٢ ، ١٣٥/٢، وتكلم على طرقه وشواهده كثيرا، وفي إتمام المنة في التعليق على فقه السنة ص ٢٣٤ .

(٢) متفق عليه وتقدم تخريجه ص ١٦٠ .

(٣) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٣٩٨/١ .

﴿ فاتقوا الله ما استطعتم واسمَعوا وأطيعوا وأنفِقوا خيراً لأنفُسِكم ﴾[سورة التغابن:١٦]، وقوله: ﴿ لا يكلِّفُ الله نفساً إلا وُسعها ﴾[سورة البقرة:٢٨٦]، وهذا إرفاق منه صلى الله عليه وسلم بأمته، أما هو فقد كان يأخذ بعزائم الأمور فكانت استقامته على الكمال والغاية، وبذلَ من الجهد في تحقيقها ما لم يقدر عليه أحد غيره، حتى بلغ به الحال ما علمته من الشيب والتعب، وذلك بحسب مقامه عند الله تعالى وبالغ رغبته في تحقيق أسمي أنواع العبودية والتحلّي بكمال الأخلاق وجليلها .

المبحث الثالث

الشكر

الشكر في اللغة: "تصور النعمة وإظهارها، قيل: هو مقلوب عن الكشر أي الكشف، يقال: دابة شكور أي: مظهرة بسمنها إسداء صاحبها إليها، وقيل: أصله من عين شكري أي: ممتلئة، فالشكر على هذا: هو الامتلاء من ذكر المنعِم عليه"(١) .

ويقال في تعريفه اللغوي أيضاً: "الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف"(٢) .

وفي العرف: "هو صرف العبد كل ما أنعم به عليه إلى ما خلق لأجله"(٣)، يعني من نعمه الظاهرة والباطنة في النفس والمال، فيصرف ذلك كله إلى عبادة ربه بما يليق بكل جارحة على الوجه الأكمل، وإذا ما فعل ذلك كان قد أظهر نعم الله عليه، وأدى واجب شكرها .

وفي معنى الشكرِ: الحمدُ(٤)، بل هو أعم منه، فإن الشكر لا يكون إلا في مقابل نعمة، أما الحمد فيكون في مقابل نعمة أو غيرها حيث يقال شكراً للصنيعة أو ابتداء للثناء على المحمود، فكل شكر حمد، وليس كل حمد شكراً(٥) .

---

(١) المفردات للراغب ص ٢٦٥، والفرق في اللغة لأبي هلال العسكري ص ٤٠ .

(٢) الصحاح للجوهري ٧٠٢/٢، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢٠٧/٣، ومجمل اللغة له أيضا ٥١٠/١، والقاموس المحيط للفيروز أبادي ٦٣/٢ .

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٤٣٥ .

(٤) الحمد في اللغة: الثناء بالجميل على جهة التعظيم، وفي العرف: فعل يشعر بتعظيم المنعم بسبب كونه منعما على الحامد أو غيره، التعريفات للجرجاني ص ٩٣ .

(٥) انظر المفردات للراغب ص ١٣١، والفروق في اللغة لأبي هلال العسكري ص ٤٠/٣٩، وتاج العروس شرح القاموس للزبيدي ٣٣٩/٢ .

مكانة هذا الخلق في الأخلاق الإيمانية :

يعتبر الشكر من أجلِّ الأخلاق السلوكية الإيمانية التي على المؤمن أن يتحلى بها في كل أحوالهِ لما فيه من الاعتراف بالنعم لمسديها .

وقددل على عظم مكانته: انضواء جُل الأخلاق الإيمانية تحته من محبة ورضا وتوكل ... لأن الشكر لا يتم إلا بعد التحلي بها، ولا يكون إلا عند استشعارها(١) .

كما دل على ذلك أيضا وصف الله نفسه بهذا الخلق في غير ما آية، منها قوله جل شأنه: ﴿ إن الله شاكرٌ عليم ﴾[سورة البقرة:١٥٨]، وقوله: ﴿ إن الله غفورٌ شكور ﴾ [سورةالشورى:٢٣]،وقوله: ﴿والله شكورٌ حليم﴾[سورةالتغابن:١٧]،إلى غيرذلك من الآيات.

عناية القرآن الكريم بهذا الخلق:

ولقد كانت عناية القرآن الكريم بهذا الخلق عظيمة كعظم مكانته في الأخلاق، فقد ورد ذكره في نحو من سبعين آية، أمرا به،وحثا عليه، وثناء على أهله، ووعدا لهم بحسن جزائه، ونهيا عن ضده .. مما يدل على أن أمر هذا الخلق عظيم الشأن، وكيف لا يكون كذلك وهو نصف الإيمان كما جاء في الأثر(٢) .

أوامر القرآن الكريم به :

أما أوامر القرآن الكريم بالتحلي به فكثيرة منها الأوامر في الآيات التالية :

أ ـ قوله تعالى: ﴿ فاذكُروني أذكركُم واشكروا لي ولا تكْفُرون ﴾[سورة البقرة:١٥٢]، وفي هذا الأمر قرن الله تعالى الشكر بالذكر، ومعلوم أن الذكر له المنزلة العليا كما قال تعالى: ﴿ ولَذكرُ الله أكبر ﴾[سورة العنكبوت:٤٥]، وقد قرن بالشكر للدلالة على تقاربهما في المنزلة عنده سبحانه وتعالى .

---

(١) انظر مدارج السالكين ٢/٢٤٩ .

(٢) وعزاه الغزالي في الإحياء ٤/٧١ إلى ابن مسعود رضي الله عنه، وابن أبي الدنيا في الشكر ص ٣٤، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٤٤٤٠، إلى المغيرة بن عامر رحمه الله تعالى .

كما قابله بالكفر للإشعار بأن من لم يقم بواجب الشكر، فهو في حيِّز نقيضه وهو الكفر، أي كفر النعمة، فمن لم يشكر نعم الله تعالى فهو كافر لها كما تفيده دلالة التلازم المشعرة به هذه الآية وغيرها .

ب ـ قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا كُلوا من طيِّباتِ ما رزقناكم واشكُروا لِلّه إنْ كنتُم إيَّاه تعبدون ﴾[سورة البقرة:١٧٢] .

وفي هذه الآية يبين الله تعالى أن العبودية له سبحانه تستلزم شكره، فمن كان لله عابدا يجب عليه أن يكون لآلائه شاكرا، وإلا فإنه غير صادق في عبوديته كما تفيده أداة الشرط "إن" ، ونحو هذه الآية :

جـ ـ قوله تعالى: ﴿ فكُلوا ممَّا رزقكم اللهُ حلالاً طيباً واشكُروا نعمةَ اللهِ إن كنتُم إيَّاه تعبدون ﴾[سورة النحل:١١٤] .

والمعنى في الآيتين: إن كانت عبادتكم خالصة له سبحانه حقا، فعليكم أن تشكروا نعمه، فإن العبادة تستلزم الشكر، بل هو من ضروب العبادة وأنواعها . والمراد بالعبادة هنا: (هو الاعتقاد الجازم بألوهيته سبحانه، والخضوع له والاعتراف بنعمه)(١).

وقد قرنت العبادة بالشكر أيضا في آية أخرى هي :

د ـ قوله تعالى: ﴿ فابتغوا عندَ اللهِ الرِّزق واعبدُوه واشكروا له إليه تُرجعون ﴾ [سورة العنكبوت:١٧] . مما يدل على تلازم العبودية بالشكر تلازماً وثيقاً .

هـ ـ قوله تعالى: ﴿ كلُوا من رزقِ ربِّكم واشكروا له بلْدةٌ طيِّبةٌ وربٌّ غفور ﴾ [سورة سبأ:١٥] . وهذه الآية كالآية السابقة تذكِّر العباد برزق الله تعالى المتوافر عليهم، وتأمرهم بوجوب شكره عليه .

و ـ قوله تعالى: ﴿ ووصَّينا الإنسانَ بوالِدَيه حملتْهُ أمُّه وهْناً على وَهْن وفِصالُه في عامين، أنِ اشكر لي ولِوالِديكَ إليَّ المصير ﴾[سورة لقمان:١٤] .

وفي هذه الآية يأمر المولى عز وجل ابن آدم بأداء واجب الشكر له سبحانه، ثم

---

(١) انظر: تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١١٨/٢ .

للوالدين، من أول أيام تكليفه على نعمه العظيمة عليه؛ حيث أوصله إلى هذه المرحلة بعد مروره بمراحل الضعف الكثيرة، ومن هذا تعلم أن شكر المولى عز وجل يجب أن يكون خُلقا عاما في المرء، وأنه لا سبيل إلى التهاون فيه لهذه الأوامر الكثيرة التي لو اكتفي بواحد منها لكان كافيا في الإلزام، فكيف به مع تكرار تلك الأوامر التي جيء بها لزيادة التأكيد والتقوية في الدلالة، والتذكير من النسيان والغفلة .

الحث على الثبات على هذا الخلق العظيم :

ومع تلك الأوامر المتعددة، فإن الله تعالى لم يزل يحث العباد على القيام بواجب هذا الخلق بأساليب الحض المختلفة، يستثير بذلك همم المتقاعسين عن أداء هذا الواجب الخلقي العظيم، إلى القيام به على الوجه الأتم، والتحلي به على الدوام، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ لعلّكم تشكرون ﴾ فقد وردت هذه الكلمة أربع عشرة مرة في القرآن الكريم، وهي في الغالب ترد مسبوقة بذكر نعم الله وإفضاله الكثيرة على عباده، وكلمة "لعل" هنا ليست للترجي والتوقع، كما هو شأنها في كلام الآدميين؛ لأن الترجي لا يقع من الله تعالى؛ إذ هو عالم الغيب والشهادة، ولكنها لبيان عِلّية خَلق تلك النعم العظيمة، وبيان أن الله تعالى لم يخلقها لهم إلا ليقوموا بواجب شكرها على النحو الأتم، وفي ذلك من التحضيض على القيام بذلك الواجب ما فيه ! حيث تفيد تلك الآيات أنهم إن لم يقوموا بأداء واجب شكرها فإنهم كافرون وجاحدون لها، وذلك يعرضها للزوال كما بين ذلك في آية أخرى قال فيها: ﴿ وإذ تأذّن ربُّكم لئِن شكرتُم لأزيدنّكم ولئِن كفرتُم إنّ عذابي لشديد ﴾[سورة إبراهيم:٧]، ولذلك نجد أن تلك الآيات المختومةبذلك التعليل يبدأ بتعداد تلك النعم والتنويه بها ليحثهم على المحافظة عليها، فيقول مثلا: ﴿ ما يُريدُ اللهُ ليجعلَ عليكم من حرجٍ ولكن يُريدُ لِيُطهّركم وليُتمّ نعمتَه عليكم لعلّكم تشكرون ﴾[سورة المائدة:٦] .

ويقول أيضا: ﴿ واذكُروا إذْ أنتُم قليلٌ مستَضعفُون في الأرض تخافونَ أن يَتخطّفَكم

الناس فآواكُم وأيَّدكم بنصرِه ورزَقكم من الطَّيباتِ لعلَّكم تشكُرون﴾[سورة الأنفال:٢٦] . ويقول كذلك: ﴿ وهو الذي سخَّر البحرَ لتأكلُوا منه لَحْماً طرياً وَتستَخرجوا منه حِلْية تَلبَسونها وترى الفُلكَ مواخرَ فيه ولتبتَغوا من فضلِه ولعلَّكم تشكرون ﴾ [سورة النحل:١٤] .

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على جزيل نعمائه سبحانه وتعالى، والحاثة العباد على شكرها، وقد جاء الحض على الشكر بأدوات التحضيض الأخرى، كـ"ألا" و"لولا" ... وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وآيةٌ لهم الأرضُ الميتةُ أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جنَّاتٍ من نخيل وأعناب وفجَّرنا فيها من العيون * لِيأكُلوا من ثمرِه وما عملَتْه أَيديهم أفلا يشكُرون ﴾[سورة يس:٣٣-٣٥] .

وقوله تعالى في نعمة الماء: ﴿ أفرأيتُم الماءَ الَّذي تشربون * ءأنتم أنزلتُموه من المُزْنِ أم نحن المنزِلون * لو نشاءُ جعلناه أُجاجاً فلولا تَشكُرون ﴾[سورة الواقعة:٦٨-٧٠] .

وقوله تعالى في نعمة الدروع الواقية في الحروب: ﴿ وعلَّمناه صَنعة لَبُوسٍ لكم لتُحصِنكم من بأسِكم فهل أنتم شاكرون ﴾[سورة الأنبياء:٨٠]، والمعنى اشكروني على ذلك كله .

إلى غير ذلك من الآيات الحاثة على شكر المنعم جل في علاه، فضلاً عن الآمرة به صراحة، وكل ذلك دال على عظيم منزلته، ومنزلة أهله المتحلين به .

الثناء على الشاكرين :

وقد دل على هذه المكانة العظيمة، ذلك الثناء البالغ الذي حمله القرآن الكريم في آياته الكريمة على المتحلين بهذا الخلق العظيم من أنبيائه ورسله، كنوح وإبراهيم عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وكذا في حق بعض عباده الصالحين، فقال عن نوح: ﴿ ذرِّيَّة من حملنا مع نُوح إنَّه كان عبداً شكوراً ﴾[سورة الإسراء: ٣]، وشكور: صيغة مبالغة أي: كثير الشكر، وقال أيضاً: ﴿ إنَّ إبراهيم كان أمَّةً قانتا لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين*شاكراً لأنعُمِه اجتَباه وهَداه إلى صراطٍ مستقيم ﴾[سورة النحل:١٢٠-١٢١]

وهذا الثناء على هذين النبيين العظيمين بخصوصهما يشمل إخوانهما من أولي العزم وبقية الرسل كذلك عليهم الصلاة والسلام جميعا؛ لأنهم كانوا جميعا من أهل هذا المقام، حيث إنهم بغير ريب يعرفون نعم الله تعالى وكثرتها، وما يجب عليهم نحوها، فيؤدونه على الوجه الأكمل؛ لأنهم أكمل البشر عبودية لله تعالى، وقد بعثوا جميعا بمكارم الأخلاق، وبعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليتمم تلك المكارم، كما جاء في الحديث(١) .

أما بقية المؤمنين فهم متفاوتون في أداء واجب النعم المسداة إليهم من القيام بشكرها حق الشكر، وذلك بقدر معرفتهم لتلك النعم، وتمحضهم في صفة العبودية، فمن أدى ذلك الواجب على النحو الذي يحب ربنا ويرضاه كان ممن دخل في عموم الثناء على أهل هذا الخلق العظيم بمثل قوله سبحانه: ﴿ إنَّ في ذلك لآياتٍ لِكُلِّ صبَّار شكور ﴾ [سورة ابراهيم:٥، وسورة لقمان:٣١، وسورة سبأ:١٩، وسورة الشورى:٣٣]، وقوله جل شأنه: ﴿ وقليلٌ من عبادِيَ الشَّكور ﴾[سورة سبأ:١٣] .

وفي مثل هذه الآيات تنويه عظيم بهم، حيث أفادت أن أهل الشكر هم المنتفعون بآيات الله التنزيلية والكونية،فيتعظون بها ويستدلون بها على عظمة الخالق، وتجعلهم يعبدونه حق عبادته، وفي الآية الثانية أضاف عبوديتهم له للتدليل على مبلغ مكانتهم عنده، إذ لا ينال هذه الإضافة الشريفة إلى المولى جل شأنه إلا خواص العباد وأكرمهم لديه.

وقد أبان عن هذهالمكانة العظيمة أيضا ثناءُ الله تعالى على الشاكرين الوارد في قوله سبحانه: ﴿ أولئِك الذين نَتَقبَّلُ عنهم أحسنَ ما عملوا ونتَجاوزُ عن سيئاتِهم في أصحاب الجنة، وعدَ الصِّدقِ الذي كانوا يُوعدون ﴾[سورة الأحقاف:١٦]. فإن في هذه

---

(١) تقدم ذكره وتخريجه ص١٨ .

الآية من التنويه بعظم المكانة وحسن المثوبة في الآخرة ما لا يدرك كنهه، وهي إخبار عن أولئك الذين يقولون: ﴿ ربِّ أوزعني أن أشكرَ نعمتَك الَّتي أنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ وأن أعملَ صالحا ترضاه وأصلِح لي في ذُرِّيَّتي إنِّي تبتُ إليك وإنِّي من المسلمين ﴾ [سورة الأحقاف:١٥] .

جزاء الشاكرين في الدنيا والآخرة :

ولما كان للمتحلين بالشكر تلك المكانة الرفيعة المتميزة عند الله تعالى، أجزل لهم عظيم المثوبة في الدنيا من توالي نعمه عليهم، وحفظها من الزوال، وفي الآخرة من إحلال رضوانه وحسن جزائه .

أما في الدنيا فقد تحدثت آيات كثيرة عن جزاء الله للشاكرين فيها، فعن توالي نعمه تعالى على الشاكرين يقول الله تعالى: ﴿ وإذ تأذَّن(١) ربُّكم لئن شكرتُم لأزيدنَّكم ولئِن كفرتُم إنَّ عذابي لشديد ﴾[سورة إبراهيم:٧]، وهذا وعد مؤكد من الله تعالى أعلم به عباده بزيادة النعم عندما يؤدون شكرها، وأشعر الجاحدين لها بالعذاب من إزالة النعم في الدنيا والعقاب الشديد في الأخرة، وهو جار مجرى السنن الكونية التي لا تتخلف عند وجود مقتضياتها، كما يشهد لذلك إنجاؤه سبحانه لآل لوط عليه السلام من العذاب الذي صبَّه الله على قومه، جزاء لشكره كما قال سبحانه: ﴿ إلاَّ آل لُوط نجَّينَاهم بسحَر * نعمةً من عندِنا كذلك نَجزي مَن شَكر ﴾[سورة القمر:٣٤،٣٥]، وكما قال سبحانه: ﴿ ما يفعلُ الله بعذابِكم إن شكرتم وآمنتُم وكان الله شاكراً عليماً ﴾[سورة النساء:١٤٧] .

ولذلك كانت دعوة الله تعالى بعظيم المثوبة للشاكرين منجَّزة غير معلقة بمشيئته كما هو الشأن في كثير من وعود الله تعالى لعباده بثواب الدنيا أو الآخرة كما في قوله جل شأنه: ﴿ والله يرزقُ من يشاءُ بغيرِ حساب ﴾[سورة البقرة:٢١٢]، وقوله: ﴿ فيكشِفُ ما

---

(١) أي: أعلَمَ .

تَدعون إليه إن شاءَ ﴾[سورة الأنعام:٤١]، وقوله: ﴿ فسوفَ يُغنيكم الله مِن فضلِه إن شاء ﴾[سورة التوبة:٢٨]، إلى غير ذلك من الاستثناءات والتعليقات بمشيئته سبحانه .

أما أهل هذا الخلق فإن الله تعالى وعدهم وعودا منجزة غير معلقة بمشيئته كما يدل عليه قول الله جل ذكره: ﴿ وسيَجزِي اللهُ الشَّاكرين ﴾[سورة آل عمران:١٤٤] ، وقال أيضا: ﴿ وسنَجزي الشَّاكرين ﴾[سورة آل عمران:١٤٥] .

وهذا الجزاء الذي وعد الله تعالى به شامل للجزاء في الدنيا في زيادة النعم ودفع النقم.

وللجزاء في الآخرة من حسن المثوبة وعظيم الأجر، كما يفيد ذلك (تصدير هذه الوعود بالسين وإبهام الجزاء، ففي ذلك من التأكيد والدلالة على فخامة شأن الجزاء ما فيه، وكونه بحيث يضيق عنه نطاق البيان) (١) .

ويشير إلى ذلك أيضا قول الله تعالى في شأن أولئك القائمين بأداء واجب الشكر بالجنان والأركان: ﴿ إنَّ الذين يتلون كتابَ الله وأقاموا الصَّلاة وأنفقُوا ممَّا رزقناهم سراً وعلانيةً يَرجون تجارةً لن تبور * ليوفِّيهم أجورَهم ويزيدَهم من فِضله إنَّه غفور شكور ﴾[سورة فاطر:٢٩،٣٠] .

فهذه الآية تدل على أن الله تعالى يعطي الشاكرين أجرا غير منقوص، ويزيدهم من فضله سبحانه ما يليق بكرمه جل وعلا، ولا غرو في أن ينالوا ذلك الفضل فإن شكرهم لله تعالى يرشحهم لذلك لأنه يرضى الله تعالى كما قال تعالى: ﴿ وإن تشكُروا يرضَهُ لكم ﴾[سورة الزمر:٧]، ورضاه سبحانه عن الشكر عنوان لرضاه عن الشاكر كما لا يخفى: ﴿ ورِضوانٌ من الله أكبرُ ﴾[سورة التوبة:٧٢] .

وإذا كان ثواب الشكر ذلك الفضل العظيم والأجر الكبير في الدنيا والآخرة؛ فإن من الحماقة أن يقصِّر الإنسان عن نيله وإدراكه طالما وهو يقدر أن يكتسبه بلسانه وجنانه وأركانه، ولذا قيل:

ولم أرَ في عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التَّمام .

(١) روح المعاني ٧٩/٤/٢ بتصرف يسير .

ولقد نعى القرآن الكريم على أولئك المقصرين في نيله، حيث بين لهم أنهم إنما فرطوا في نفع أنفسهم بتقاعسهم عن اكتساب ذلك الأجر في الدنيا والآخرة، كما يستفاد ذلك من قول الله تعالى: ﴿ ومن شكرَ فإنَّما يشكرُ لِنفسه ومن كَفَر فإنَّ ربِّي غنيٌّ كريم ﴾[سورة النمل:٤٠]، وقوله تعالى: ﴿ ولقد آتينا لقمانَ الحكمةَ أنِ اشكر لِلّه ومن يَشكرْ فإنَّما يشكرُ لنفسه ومن كفرَ فإنَّ الله غنيٌّ حميد ﴾[سورة لقمان:١٢] .

إذ تفيد هاتان الآيتان أن ثواب الشكر إنما يعود على الشاكر نفسه ولا يعود إلى الله تعالى بنفع كما لا يلحقه من عدمه ضر، لأنه سبحانه غني عن شكر الشاكرين أجمعين. وقد أفادت الآيتان هذا المعنى بأسلوب القصر الحقيقي لزيادة التأكيد على ذلك المدلول، وليرسخ في نفسه فهمه، وإذا كان المرء لا يألو جهدا في نفع نفسه فلينفعها فيما وعد المولى به فإن الله لا يخلف الميعاد، وإلا كان مفرطا عن نفع نفسه أيما تفريط وذلك غاية العجز.

وعيدمن لم يتخلق بهذا الخلق :

ومع كون فائدة هذا الخلق إنما هي عائدة على المتخلق به فقط، إلا أنه لا سبيل لأحد أن يترك التحلي به اختيارا لنفسه ذلك، لأنه وإن كان يعد تقصيرا في حق النفس فإنه أيضا تقصير في حق الرب تقدست أسماؤه، فإن نعمه على العباد لا تحصى كما قال سبحانه: ﴿وإن تعدُّوا نعمةَ الله لا تُحصوها ﴾[سورة إبراهيم:٣٤]، وحق هذه النعم أن يؤدى شكرها، بصرف كل نعمة فيمايرضي الله تعالى من محابه في الطاعات، أو في المباحات على الأقل، وإلا كان كافرا بتلك النعم وذلك يوجب له العقاب الأليم كما قال سبحانه: ﴿ وإذ تأذَّن ربُّكم لئِن شكرتُم لأزيدَنَّكم ولئِن كفرتُم إنَّ عذابي لشديد ﴾[سورة إبراهيم:٧] .

وذلك لأن كفران نعمه سبحانه وتعالى يدل على عدم رضا الكافر لها عن المولى جل وعلا،وعلى سوء طويّته نحوه سبحانه، وقد جعل الشكر دليل رضاه عنه وعن نعمه، ولذلك كان يحب المدح من عباده وإن لم يكن له محتاجا،كما جاء في الحديث:

"لا أحَد أغيرُ من الله ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا شيءَ أحبُّ إليه المدح من الله ولذلك مدح نفسه" (١) .

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأنعام ٧٢/٦، وفي تفسير سورة الأعراف ٧٤/٦، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ومسلم في اللعان برقم ١٤٩٩من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، واللفظ للبخاري .

تمثُّل خلُق الشُّكْر في النبي صلى الله عليه وسلم

لقد سبقت الإشارة إلى حال أنبياء الله تعالى من هذا الخلق العظيم، من أنهم فيه على الكمال والتمام بدلالة ثناء القرآن الكريم على بعضهم به، وأن ذلك الثناء يعمهم جميعا لما كانوا عليه من المعرفة لِآلآء الله والقيام بحق عبودية الله تعالى قياما ليس بعده قيام .

ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم ممن يشمله ذلك الثناء العظيم شمولا أوليا، لأنه كان على نهجهم في كل كمال خلقي وسلوك رباني كما أمره الله تعالى بذلك بقوله: ﴿ ..أولئك الَّذين هدَى الله فبِهداهم اقْتدِه ﴾[سورة الأنعام:٩٠] .

ومع ما يعنيه هذا الاقتداء من المتابعة في كل كمال، وما يعنيه حال النبي صلى الله عليه وسلم من كمال الامتثال، وما كان عليه من تمام الكمال في معالي الأخلاق ومحاسن الأفعال سجية منه وطبعا، مع ذلك كله تجد القرآن الكريم يحمل إليه توجيها للثبات على هذا الخلق العظيم فيقول له: ﴿ بل اللهَ فاعبدْ وكُن من الشَّاكرين ﴾[سورة الزمر:٦٦]، فكم يكون ثبات النبي صلى الله عليه وسلم على هذا الخلق مع هذا التوجيه الخاص إضافة إلى كل ما تقدم ؟ .

لئن ذهبت النفس في تخيُّله كل مذهب فلن تستطع أن تتصوره أكمل تصور ما لم تقف على بيان الصحابة رضي الله عنهم لما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من الكمال في هذا الخلق،وذلك مثل ما جاء من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت:

١- "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى قام حتى تفطَّر رجلاه، فقالت : يارسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ياعائشة: أفلا أكون عبدا شكورا" (١) .

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد، ترجمة باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم الليل ٦٣/٢، ومسلم في صفة القيامة، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة برقم ٢٨٢٠ واللفظ لمسلم .

٢- وفي رواية عنها قالت: "إن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقالت عائشة رضي الله عنها: لم تصنع هذا يارسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا" قالت : فلما كثر لحمه صلى جالسا فإذا أراد أن يركع قام فقرأ ثم ركع"(١) .

٣- ومثل ما جاء عن المغيرة بن شعبة(٢) رضي الله عنه قال: "قام النبي صلى الله عليه وسلم حتى ورمت قدماه، فقالوا: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: "أفلا أكون عبدا شكورا"(٣) .

فانظر يارعاك الله إلى مبلغ شكر النبي صلى الله عليه وسلم ربه جل وعلا على جزيل نعمائه عليه بغفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر، تجد نفسك تعجز عن القيام بنحوه، إذ قام متهجدا في الليل حتى تفطرت وتشققت قدماه من طول القيام، بحيث شق ذلك على أصحابه الكرام، وشفقوا عليه صلى الله عليه وسلم وحاوروه في أن يخفف عن نفسه، ظنا منهم أن طول العناء في القيام إنما يكون طلبا لمغفرة الذنوب وأن من تحققت له المغفرة غير محتاج إلى ذلك العناء. فبين لهم النبي صلى الله عليه وسلم "أن هناك طريقا آخر للعبادة وهو الشكر على المغفرة وإيصال النعمة لمن لا يستحق عليه فيها شيئا، فيتعين كثرة الشكر على ذلك"(٤)،وقال لهم: أفلا أكون عبدا شكورا ؟!

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الفتح،باب قوله تعالى:﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ ١٦٩/٦،ومسلم في صفة القيامة، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة برقم ٢٨٢٠، واللفظ لمسلم.

(٢) ابن مسعود بن معتب الثقفي صحابي مشهور، أسلم قبل الحديبية، وشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم مشاهد كثيرة، وولي البصرة، وكان من دهاة العرب المشهورين، مات سنة ٥٠ هـ، رضي الله عنه. انظر: الإصابة ٤٥٢/٣ .

(٣) أخرجه البخاري في التهجد، باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم الليل ٦٣/٢، ومسلم في صفة القيامة برقم ٢٨١٩ .

(٤) فتح الباري ١٨/٦ نقلا عن القرطبي .

أو أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا ؟! والمعنى: "أن المغفرة سبب لكون التهجد شكرا فكيف أتركه؟" (١) ، ولم يرد أن يكون شاكرا فقط، وإنما أراد أن يكون شكورا، أي كثير الشكر لله جل وعلا.

فعرفوا أن نعمة الله تعالى تستوجب مزيد الشكر عليها، لا أن تقابل بالفتور والخلود إلى الراحة، وبهذا نعلم مدى شعوره صلى الله عليه وسلم بعظم نعمة الله تعالى عليه وما ينبغي عليه من الاجتهاد في أداء شكرها.

وهذا ضرب من ضروب شكر الله تعالى على نعمائه، ولم يقتصر شكره صلى الله عليه وسلم على هذا الضرب بل كان يشكر الله تعالى بكل حواسه وجوارحه شكرا يليق بجلائل نعمائه في كل حال من أحواله في مقابل كل نعمة تلابسه.

٤- "فكان إذا جاءه أمر سرور أو بشر به خر ساجدا شاكرا لله تعالى"(٢) .

وإذا أكل أو شرب حمد الله وشكره كما أخبر عن نفسه حينما عرض عليه ربه ليجعل له بطحاء مكة ذهبا فقال :

٥- "لا يا رب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك"(٣) .

وكان من شكره لله تعالى على طعامه أن يقول :

---

(١) فتح الباري ١٨/٦ .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب في سجود الشكر برقم ٢٧٧٤ ، والترمذي في السير، باب ما جاء في سجدة الشكر برقم ١٥٧٨ ، وابن ماجة في الإقامة ٤٤٦/١، من حديث أبي بكرة، وقال الترمذي عنه: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، يعني لحال بكار بن عبد العزيز، فإنه صدوق بهم كما في التقريب برقم ٧٣٥ ولكن للحديث شواهد تقويه. انظر الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه ص ٦٦٧ - ٦٦٨، وحسنه الألباني في تعليقه على المشكاة ٤٧٣/١ برقم ١٤٩٤ وذكره النووي في القسم المحتج به من خلاصة الأحكام من أمهات السنن وقواعد الإسلام ١١٠/ب .

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه برقم ٢٣٤٧ ، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وحسنه وفي إسناده علي بن يزيد الألهاني، وقال عنه الترمذي: يضعف في الحديث، وفي التقريب برقم ٤٨١٧: ضعيف من السادسة .

٦- "الحمد لله كثيرا طيبا مباركا فيه غير مَكفيٍّ ولا مودَّع(١) ولا مستغنى عنه ربنا"(٢).

٧- ويقول: "الحمد لله الذي أطعم وسقى وسوَّغه وجعل له مَخرجا"(٣) .

شكره صلى الله عليه وسلم على النعم المسداة لإخوانه من الأنبياء :

ولقد كان من كمال شكره عليه الصلاة والسلام أن يشكر الله تعالى حتى على النعم التي أولاها الله إخوانه الأنبياء، فكان يرى أن ذلك من نعمه عليه، وذلك لما بين النبيين من لُحمة العلاقة بينهم، التي عبر عنها بقوله: ".. الأنبياء إخوة أبناء عَلَّات أمهاتهم شتى ودينهم واحد"(٤) .

لذلك كان يشكر الله تعالى على هذه النعمة شكرا بليغا كما دل عليه أمره صلى الله عليه وسلم بصيام يوم عاشوراء،اليوم الذي نجَّى الله تعالى فيه موسى وأهلك فرعون وقومه .

١ - فقد"قدم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم

---

(١) أي: غير متروك الطلب إليه والرغبة فيما عنده، جامع الأصول ٣٠٨/٤، والنهاية ١٦٨/٥، كلاهما لابن الأثير .

(٢) أخرجه البخاري في الأطعمة، باب ما يقول إذا فرغ من طعامه ١٠٦/٧، وأبو داود في الأطعمة، باب ما يقول الرجل إذا طعم برقم ٣٨٤٩، من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه .

(٣) أخرجه أبو داود في الأطعمة، باب ما يقول الرجل إذا طعم برقم ٣٨٥١،، وابن حبان في صحيحه ٣٢٦/٧ الإحسان من حديث أبي أيوب رضي الله عنه، وإسناده صحيح .

(٤) متفق عليه ، تقدم تخريجه ص ٩٣ .

صالح نجى الله فيه موسى وبني إسرائيل من عدوهم، فصامه، فقال صلى الله عليه وسلم: "أنا أحق بموسى منكم" فصامه وأمر بصيامه"(١) .

٢-وفي رواية قالوا: "هذا يوم عظيم، وهو يوم نجّى الله فيه موسى، وأغرق آل فرعون، فصام موسى شكرا لله، فقال: "أنا أولى بموسى منهم فصامه وأمر بصيامه"(٢) .

٣- وكان عليه الصلاة والسلام يقرأ سورة "ص" فإذا أتى على قوله تعالى: ﴿ وظنَّ داودُ أنَّما فتنّاه فاستغفر ربَّه وخرَّ راكعا وأناب ﴾[سورة ص:٢٤] خر ساجدا لله تعالى ويقول : "سجدها داود توبة ونسجدها شكرا" (٣) .

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكر الله تعالى على نعمائه في كل أحيانه وعلى كل أحواله بأقواله وأفعاله، على نعمه عليه، وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين.

وذلك دليل على مكانة هذا الخلق العظيم في نفسه بحيث أصبح الشكر لله تعالى مطلبا له، يبغى وراءه حتى يجد مناسبة لفعله بادر إليه مسرعا .

ابتهاله صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى في أن يوفقه لشكره :

ومع ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من كمال الشكر لله تعالى، فإنه مع ذلك كان يرى نفسه أنه لم يؤد كامل الشكر لله تعالى، وذلك بحسب مقامه العظيم عند الله جل

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم، باب صيام عاشوراء ٥٧/٣، ومسلم في الصيام، باب صوم يوم عاشوراء برقم ١١١٣٠ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ وهل أتاك حديث موسى ..﴾ ١٨٦/٤، من حديث ابن عباس أيضاً .

(٣) أخرجه النسائي في الافتتاح ١٥٩/٢، والدار قطني في سننه ٤٠٩/١، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وعزاه الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٩/٢ إلى ابن السكن، قال: وقد صححه، وتبعه الألباني في تعليق المشكاة رقم ١٠٣٨، ٣٢٦/١، فصححه .

وعلا، فكان لذلك يبتهل إلى الله تعالى ويدعوه أن يوفقه لشكره على الدوام، وكان من دعائه وابتهاله في ذلك قوله :

"رب أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي(١)، واهدني ويسر الهدى لي، وانصرني على من بغى علي، رب اجعلني لك شكارا، لك ذكارا، لك رهابا، لك مطواعا، لك مخبتا، إليك أواها منيبا، رب تقبل توبتي واغسل حوبتي(٢)، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، وسدد لساني، واهد قلبي، واسلل سخيمة(٣) صدري"(٤) .

إلى غير ذلك من شكره لله تعالى وحمده إياه على نعمائه، مما عنيت بذكره كتب الحديث عامة، وكتب الأذكار خاصة .

حثه أمته على التخلق بهذا الخلق :

وكما كان عليه الصلاة والسلام يقوم بواجب الشكر بنفسه على ذلك النحو فقد كان يحث أمته على التحلي به ويبين لهم فضله، ليكونوا مؤدين لهذا الخلق على وجهه كما قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه وهو قول لسائر أمته :

١- "يامعاذ والله إني لأحبك، أوصيك يا معاذ، لا تدعن في دبر كل صلاة تقول:

---

(١) مكر الله: إيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه، وقيل: هو استدراج العبد بالطاعات، فيتوهم أنها مقبولة، وهي مردودة . النهاية ٣٤٩/٤ .

(٢) أي : إثمي .

(٣) السخيمة : الحقد في النفس .

(٤) أخرجه أبو داود في الوتر، باب في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم برقم ٣٥٥١، والترمذي في الدعوات برقم ٣٥٥١، وابن ماجة في الدعوات، باب دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم برقم ٣٨٣٠، وأحمد في المسند ٢٢٧/١ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال عنه الترمذي : حسن صحيح، واللفظ للثلاثة الآخرين، ولفظ أبي داود قريب منه .

اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك"(١) .

٢- وقال أيضا: "ليتخذ أحدكم قلبا شاكرا، ولسانا ذاكرا، وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على أمر الآخرة"(٢) .

ولما كان كثير من الناس قد لا يدرك مكانة هذا الخلق وعظيم فضله وأجره عند الله تعالى، بين النبي صلى الله عليه وسلم لأمته هذه المكانة ليحثهم بذلك على الحرص في التحلي به، وذلك في أحاديث كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم:

٣ - "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها"(٣) .

ومنزلة رضوان الله تعالى على العبد قد علم مبلغ كنهها، وكمال فضلها في مبحثه، حيث علم هناك أن رضا الله على العبد هي غاية ما يتمناه المرء من ربه في الدنيا والآخرة، وأنها أكبر نعمة ينعم بها الله تعالى على عباده في الآخرة(٤) .

٤- ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: "الطاعم الشاكر كالصائم الصابر"(٥) .

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب الاستغفار ١٥٢٢، والنسائي في السهو، باب نوع آخر من الدعاء ٥٣/٣، وأحمد في المسند ٢٤٥/٥، ٢٤٧، من حديث معاذ وإسناده صحيح .

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة التوبة برقم ٣٠٩٤، وابن ماجه في النكاح، باب أفضل النساء برقم ١٨٥٦، وأحمد في المسند ٢٧٨/٥، ٣٦٦، واللفظ لهما من حديث ثوبان رضي الله عنه، وحسنه الترمذي، مع ما ذكر من الانقطاع، حيث سأل محمد بن إسماعيل عن سالم بن أبي الجعد عن ثوبان، فقال: لم يسمع منه، ولعل ذلك نظرا لشواهده التي أشار إليها الحافظ ابن حجر في الأحاديث العاليات رقم ١٥، واعتمد عليها الألباني فصحح الحديث في سلسلته الصحيحة رقم ٢١٧٦، ٢٠٨/٥ .

(٣) رواه مسلم ، وتقدم تخريجه ص ٧٦.

(٤) انظر ص ٧٠.

(٥) أخرجه الترمذي في صفة القيامة، باب رقم ٤٣ برقم ٢٤٨٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وابن ماجه في الصيام،برقم ١٧٦٥، وأحمد في المسند ٢٨٣/٢، وابن حبان ٢٦٧/١ من الإحسان، والحاكم =

والطاعم الشاكر هو: الحسن الحالِ في المطعم، إذا طعم شكر الله تعالى على إنعامه عليه .

وفي هذا من البيان ما لا مزيد عليه، حيث إن منزلة الصائم الصابر على الجوع والعطش في الهواجر معلومة، فقد قال الله تعالى: ﴿ إنَّما يوفَّى الصَّابرون أجرَهم بغير حساب ﴾[سورة الزمر:١٠] ، وقد جعل الله تعالى "للطاعم إذا شكر ربه على ما أنعم به عليه ثواب الصائم الصابر"(١) .

فإذا كان الشاكر لله تعالى ينال هذه المرتبة، فحريٌّ بكل أحد أن لا يفرط في هذا الخلق العظيم، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك في أوج الكمال كما علمت مما تقدم ذكره من الأحاديث الدالة على شكره لله تعالى عند كل طعام يأكله.

علامات لمن يتحلى بهذا الخلق العظيم :

ولما كان هذا الخلق تتنازعه الدعاوى، لكونه قد لا يطلع عليه أحد إذ كان قلبيا، أو قد يجادل المرء فيه ويدعي أنه من أهله، أو غير ذلك مما يُلبِّس به على الناس .

لما كان الحال ما ذكر، بين النبي صلى الله عليه وسلم للأمة علامات يميزون بها الشاكر من غيره، ومن تلك العلامات :

أ ـ شكر الناس على إحسانهم إلى المرء، فإن من كان ذا خلق رفيع يكافئ على ذلك بالشكر والثناء الحسن، فإن لم يفعل ذلك مع ما يقتضيه حال المحسنين من التشوف إلى الثناء والشكر، فهو لله أجحد، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة بقوله :

= في المستدرك ١٣٦/٤، ووالبخاري في الأطعمة ١٠٦/٧ ترجمة، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وذكره الألباني في سلسلته الصحيحة برقم ٦٥٥ ، وقال عنه الترمذي : حسن غريب .

(١) فتح الباري ٢٨٧/٢٠ .

١ ـ "لا يشكر الله من لا يشكر الناس" (١) .

وندبهم إلى فعل ذلك حتى يحققوا لأنفسهم هذا الخلق فينالوا أجره، فقال عليه الصلاة والسلام :

٢ ـ "من أعطي عطاء فليجز به إن وجد، وإن لم يجد فليثن به، فإن من أثنى به فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبي زور"(٢) .

وفي رواية :

٣ ـ من أُبلِيَ بلاءً فذكره فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره"(٣) .

ب ـ شكر القليل من النعم؛ لأن الذي يشكر القليل يشكر الكثير من باب أولى، ومن لم يشكر القليل، كان ذلك دليلا على أنه لا يشكر الكثير؛ لأنه لا يملك هذا الخلق من أساسه .

جـ ـ التحدث بنعمة الله تعالى التي يوليها العبد؛ لأن ذلك دليل سروره، ورضاه عن ربه جل وعلا، وعن قسمته له من قليل أو كثير، فمن لم يتحدث بذلك مع ما يرى عليه من النعم كان ذلك جحوداً منه لها، وقد دل على هذين الأمرين قوله صلى الله عليه وسلم :

٤ ـ "من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير،ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله عز وجل

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في شكر المعروف برقم ٤٨١١، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك برقم ١٩٥٤، وأحمد في المسند ٢/٢٥٨،٢٥٩،٣٠٣،٣٨٨.. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح، وجاء من حديث أبي سعيد وغيره .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب شكر المعروف برقم ٤٨١٣، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في المتشبع بما لم يعطه برقم ٢٠٣٤، وابن حبان برقم ٢٠٧٣، من حديث جابر بن عبد الله، واللفظ للأولين، وقال عنه الترمذي: حسن غريب .

(٣) أخرجها أبو داود في الأدب، باب شكر المعروف برقم ٤٨١٤، وإسناده صحيح فهو متابع للرواية الأولى وجابر لها، وانظر السلسلة الصحيحة للألباني ٢/١٨١-١٨٣ برقمي ٦١٧،٦١٨ .

والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة والفرقة عذاب.."(١)

وبهذا يستطيع المرء أن يعرف المتحلي بهذا الخلق من غيره، إذ كل إنسان لا بد أن تجري عليه مثل هذه العلامات باستمرار، فإذا كان الإنسان شاكراً لمعروف غيره على القليل والكثير، ويتحدث بنعمة الله تعالى ويظهرها، فهو من أهل هذا الخلق، ومن لم تبد عليه شيء من هذه العلامة يكون في دعواه على تحليه به إن ادعاه نظر لا يخفى، والله أعلم .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/٢٧٨،٣٧٥، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/٢٢٠-٢٢١ إليه وإلى البزار والطبراني، قال: ورجالهم ثقات .

المبحثُ الرَّابعُ

(المحبَّة)

يقال في اللغة: أحببتُ الشيء فهو مُحَبٌّ، واستحببته إذا استحسنتَه، وتحببتُ إليه: توددت(١)، مأخوذة من حبة القلب وهي سويداؤه، سميت المحبة بذلك لوصولها إلى حبة القلب(٢) .

وفي الاصطلاح: هي "إرادة ما تراه أو تظنه خيرا" أو تقول: هي "ميل النفس إلى الشيء الملائم"(٣) .

فهذا أجمع ما قيل في تعريف المحبة من حيث هي، وقيل فيها أقوال لا تزيدها إلا غموضا، ولذلك قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: "لا تحد المحبة بحد أوضح منها ـ يعني لفظ "المحبة" ـ فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء، فحدها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من "المحبة"،قال: وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وثمراتها وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة، وتنوعت بهم العبارات"(٤) .

منزلة خلق المحبة في الأخلاق الإيمانية :

يعد خلق المحبة من أجل الأخلاق الإيمانية؛ لأنها أصل كل فعل ومبدؤه، فلا يكون الفعل إلا عن محبة وإرادة، وكذا الترك لا يكون إلا عنها، ولهذا كان رأس الإيمان الحُبُّ في الله والبغض في الله، وكان من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد

---

(١) الصحاح للجوهري ١٠٦/١، والمصباح المنير للفيومي ١٢٧/١ .

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم ص ١٨ .

(٣) المفردات للراغب ص ١٠٥، والذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٣٦٣ .

(٤) مدارج السالكين ٩/٣، وقد ذكر لها ابن القيم في روضة المحبين ص ١٩ـ٢٠ ومدارج السالكين ١١/٣ـ١٦ حدودا كثيرة .

استكمل الإيمان)(١) كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

عناية القرآن الكريم بهذا الخلق :

ولأجل تلك المكانة نجد أن العناية بها في القرآن فائقة، حيث لم يزل القرآن الكريم يتحدث عنها في آياته الكريمة بلفظها المشهور،وبألفاظها المرادفة الأخرى كالهوى والشغف والخلة والمودة بحيث نافت مرات ذكرها بلفظها على المائة، منها نحو النصف في المعنى الذي نريده من المحبة باعتبارها خلقا إيمانيا عظيما، وهذه العناية تدل على عظيم خطر هذا الخلق وكبير شأنه في الأخلاق، وقد كان ذكره لها على سبيل الحض عليها والتنويه بأهلها، وعلامات المحبة من عدمها، وماينبغي أن يحب مما يكره، ومحبة الله تعالى لبعض عباده .

الحض على التحلي بخلق المحبة لله تعالى :

ولما كانت المحبة هي أصل كل فعل ومبدؤه كان: (جماع القرآن هو الأمر بمحبة الله تعالى ولوازمها والنهي عن محبة غيره سبحانه ولوازمها، وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين وذكر قصص أهل النوعين)(٢) .

وذلك بمثل قوله تعالى: ﴿ قل إن كانَ آباؤُكم وأبناؤُكم وإخوانُكم وأزواجُكم وعشيرتُكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشونَ كَسادَها ومساكنُ تَرضونها أحبَّ إليكم من اللهِ ورسولِه وجهادٍ في سبيله فتربَّصوا حتى يأتيَ اللهُ بأمره واللهُ لا يَهدي القوم الفاسقين ﴾[سورة التوبة:٢٤] .

فإن هذه الآية تحمل وعيدا شديدا على تقديم محبة أي شيء من أمور الدنيا على محبة

---

(١) انظر: المحبة لابن تيمية ص ٧-٩، وروضة المحبين لابن القيم ص ٥٧-٥٩ .

(٢) انظر: المحبة لابن تيمية ص ١١ .

الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وأنه يجب إيثارهما في المحبة على من سواهما كائنا ما كان .

وهذه المحبة تقتضي إيثار طاعتهما واتباع أمرهما، على إيثار مَن ذكر الله من الأقارب والأموال وغيرها مما قد تريد النفس تقديمها على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، كما قال الله تعالى: ﴿ قل إنْ كنتُم تُحبّون اللهَ فاتبعوني يحبِبْكم اللهُ ويغفرْ لكم ذنوبَكم﴾[سورة آل عمران:٣١] .

وإن لم تكن مع المحبة متابعة فهي دعوى مجردة كما قالوا:

تعصي الإلهَ وأنت تزعم حبه ... هذا لعمروى في القياس بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع (١)

وهذه المحبة يقتضيها الإيمان، فمن كان مؤمنا أوجب عليه إيمانه أن يتحلى بها كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ ومن الناسِ من يتّخذ من دونِ الله أنداداً يحبونهم كحبِّ الله والذين آمنوا أشدُّ حبّاً لله ﴾[سورة البقرة:١٦٥]، وكذا قوله سبحانه: ﴿ ياأيُّها الّذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينِه فسوفَ يأتي اللهُ بقومٍ يحبُّهم ويحبونَه أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين يجاهدون في سبيل اللهولا يخافون لومةَ لائم ذلك فضلُ الله يؤتيه من يَشاء والله واسع عليم ﴾[سورة المائدة:٥٤] .

فلآية الأولى فيها بيان لحال المؤمنين وصفتهم، من أنهم أشد حبا لله من محبة أهل الأنداد لأندادهم، وأولئك قد عرفوا بالتفاني في محبتها حتى أنهم كانوا يدافعون عنها دفاع المستميت ويعادون من أجلها الأقارب والأباعد، كما هو معلوم من موقفهم من دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن شأن المؤمنين أن يكونوا أشد حبا لله تعالى من أولئك لأندادهم كما وصفهم الله تعالى بذلك.

---

(١) عزى الألوسي في روح المعاني ١٢٩/٣/١ هذين البيتين للورّاق، ولعله محمود بن حسن المتوفى سنة ٢٢٥هـ، الذي كان شاعرا، وكان أكثر شعره في المواعظ والحكم، كما قال الزركلي في الأعلام ١٦٧/٧، ونُسبا إلى أبي العتاهية ولم أجدهما في ديوانه .

والآية الثانية آذنت من يرغب عن دين الإسلام بدين آخر سواه أنه غير مأسوف عليه وأن الله تعالى يستبدل به قوما مؤمنين، شأنهم المحبة لله تعالى ومحبة الله تعالى إياهم وهم أولى بهذه المنحة منه وأحق.

التنويه بأهل هذا الخلق :

وكلا الآيتين مع ما فيهما من الإخبار عن حال المؤمنين وشأنهم، فإنهما تتضمنان أيضا تنويها عظيما بالمؤمنين الذين هم من هذا الخلق بمكان، كما وصفتهم الآيتان بذلك على سبيل المدح والامتنان حتى نالوا بذلك محبة الله تعالى جزاء لمحبتهم إياه سبحانه.

ومحبة الله تعالى إذا وجبت للمؤمن فضلا وكرما أنالته منتهى الأمال، وبلغته أقصى المراتب العالية في الدنيا والآخرة؛ لأنها تعني إنعام الله تعالى عليهم بالغفران كما يدل عليه قوله تعالى لمن ادعى هذه المحبة وليس من أهلها: ﴿ وقالتِ اليهودُ والنَّصارى نحنُ أبناءُ اللهِ وأحباؤُه قل فلِمَ يعذِّبكم بذنوبِكم ﴾[سورة المائدة:١٨]، والمعنى: لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباءه فلِم أعدَّ لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافترائكم ؟ فإن المحبوب لا يعذب بل يغفر له ويكرم كما قالوا :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

ثم رد الله تعالى ذلك الادعاء العريض بقوله: ﴿ بل أنتم بشرٌ ممَّن خلقَ يغفرُ لِمَن يشاء ويُعذِّبُ من يشاءُ ﴾ يعني: بل أنتم كسائر الناس الذين لم يكونوا في هذه المرتبة، فمنهم من يغفر له، ومنهم من يعذب .

وقد أُنال الله تعالى هذه المكرمة العظيمة والمنحة الإلهيّة الجسيمة بعض عباده الذين تحلوا بمكارم الأخلاق كالإحسان والتوبة والطهارة والتقوى والصبر والتوكل والقسط والمتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم، كما تحدثت عن ذلك آيات عدة من كتاب الله تعالى، كقوله سبحانه: ﴿ إن اللهَ يحبُّ المحسنين ﴾[سورة البقرة:١٩٥]، ﴿إن اللهَ يحبُّ التَّوابينَ ويحبُّ المتطهِّرين﴾[سورة البقرة:٢٢٢]، ﴿ إن الله يحبُّ المتقين ﴾[سورة آل عمران:٧٦]،

﴿ وا للهُ يحبُّ الصَّابرين ﴾ [سورة آل عمران:١٤٦]، ﴿ إن ا للهَ يُحبُّ المتوكِّلين ﴾ [سورة آل عمران:١٥٩]، ﴿ إن ا للهَ يُحبُّ المقسِطين ﴾ [سورة المائدة:٤٢]،﴿ قل إن كنتُم تحبّونَ ا لله فاتبعوني يحبِبْكم ا للهُ ويغفرْ لكم ذنوبَكم ﴾[سورة آل عمران:٣١]، إلى غير ذلك من الآيات، كما حرّمها الكثير ممن تخلى عن هذه المكارم الأخلاقية، وتحلى بنقائضها من الرذائل الأخلاقية كالاعتداء والفساد والكفر والظلم والتكبر والخيانة والإثم والإسراف... وغير ذلك كما نص على ذلك القرآن الكريم في غير ما آية كقوله تعالى: ﴿ إن ا لله لا يُحبُّ المعتدَين ﴾[سورة البقرة:١٩٠]،﴿ وا لله لا يُحبُّ الفساد ﴾[سورة البقرة:٢٠٥]، ﴿ وا للهُ لا يُحبُّ كلَّ كفَّارٍ أثيم ﴾[سورة البقرة:٢٧٦]، ﴿ وا لله لا يُحبُّ الظَّالمين ﴾[سورة آل عمران:٥٧]، ﴿ إن ا لله لا يُحبُّ من كان مختالاً فخوراً ﴾[سورة النساء:٣٦]، ﴿ إن ا لله لا يُحبُّ من كان خوَّاناً أثيماً ﴾[سورة النساء:١٠٧]، ﴿ إنه لا يحبُّ المسرِفين ﴾[سورة الأنعام:١٤١] . إلى غير ذلك .

ونفي محبته سبحانه وتعالى عنهم تعني عدم رضاه عنهم لتحليهم بما يوجب لهم ذلك من مساوىء الأخلاق، وذلك إشعار لهم بالعذاب والنكال، أعاذنا ا لله من ذلك وجعلنا من أهل محبته ورضوانه .

علامات المحبة لله تعالى ومحبة ا لله تعالى للعبد :

ولما كان هذا الخلق في أصله أمراً قلبيا، وكانت الدعاوى قد تتنازعه حيث لا سلطان لأحد غير ا لله على القلب، فيكشف أمره، فتبقى الدعوى محتملة للصدق والكذب، كان لا بد من علامات وأدلة تبرهن على صحة المدعي، فيشهد له بذلك أو يكذب، وقد فصل القرآن الكريم علامات المحبة لله تعالى، فجعل من ذلك: اتباع نبيه صلى ا لله عليه وسلم، والذلة للمؤمنين، والعزة على الكافرين، والجهاد في سبيله، وعدم الخوف من لوم لائم، ومعاداة أعدائه ...

أما الاتباع لنبيه صلى ا لله عليه وسلم فقد دل عليه قوله تعالى: ﴿ قل إن كنتُم تُحبّون ا لله فاتبعوني يحبِبْكم ا لله ﴾[سورة آل عمران:٣١]، فإن هذه الآية تسمى آية المحبة .

"قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله فأنزل آية المحبة ﴿ قل إن كنتم ...﴾(١) ولذلك قال الحافظ ابن كثير: "هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد" (٢) .

وأما العلامات الأخرى: فقد دل عليها قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الَّذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينِه فسوفَ يأتي اللهُ بقومٍ يُحبّهم ويحبونَه أذلَّةٍ على المؤمنينَ أعزةٍ على الكافرين يُجاهدونَ في سبيلِ اللهِ ولا يخافونَ لَومةَ لائم ذلك فضلُ اللهِ يُؤتيهِ مَن يشاءُ واللهُ واسعٌ عليم ﴾[سورة المائدة:٥٤] .

فإن هذه الآية تذكر لأهل هذا الخلق الذي بادلهم الله تعالى به، فأحبهم كما يحبونه:

أربع علامات :

الأولى : الذلة على المؤمنين، وهي كناية عن الرقة والرحمة والشفقة عليهم .

الثانية : العزة على الكافرين، وهي الشدة والغلبة على أعدائهم وأعداء الله تعالى من الكفرة .

الثالثة : الجهاد في سبيله بالنفس واليد والمال واللسان والقلم .

الرابعة : أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم، بمعنى أنهم لا يبالون بأي لوم يوجه إليهم من أي جهة كانت .

فهذه دلائل المحبة لله تعالى، فمن ظهرت فيه هذه الدلائل كان صادقا في دعواه، وكان ذلك دليلا على محبة الله تعالى له، وهذا هو محل الفضل والفوز في الحقيقة، إذ

---

(١) مدارج السالكين ٢٢/٣ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣٥٨/١، والحديث أخرجه البخاري في البيوع، باب النجش.. ٩١/٣، ترجمة وتعليقا بصيغة الجزم، ومسلم في الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور برقم ١٧١٨ من حديث عائشة رضي الله عنها .

ليس الشأن في أن يحبوا الله تعالى، بل في أن يحبهم ، ولا يتم لهم ذلك إلا إذا تحققوا بما يقتضي محبة الله تعالى كما دل عليه الشرط والجزاء في قوله تعالى: ﴿ قل إن كنتُم تُحبُّون الله فاتَّبعوني يُحببْكم الله ﴾[سورة آل عمران:٣١] .

محبة المؤمنين بعضهم بعضاً :

وكما تحدث القرآن الكريم عن خلق المحبة في مقام الله تبارك وتعالى، فقد تحدث عنها في مقام المؤمنين أيضاً، وقد كان حديثه عنها في هذا المقام بأسلوب الإخبار لإفادة أنه خلق يقتضيه الإيمان من أتباعه بمجرد إيمانهم، وذلك لما بينهم من رابطة قوية هي أقوى من كل رابطة عرقية أو نسبية، وهي رابطة الإيمان التي جعلتهم أخوة متحابين .

وقد عبر القرآن الكريم عن هذا الخلق في هذا المقام في آيات كثيرة تدل عليه وإن لم يكن بمدلول اللفظ، فبلازمه .

ومن ذلك قوله تعالى في وصف المتحابين من المؤمنين: ﴿ فسوفَ يأتِي اللهُ بقومٍ يُحبُّهم ويحبونَه أذلةٍ على المؤمنين أعزَّةٍ على الكافرين ﴾[سورة المائدة:٥٤]، وذلة المؤمنين بعضهم لبعض، ليست ذلة قهر وخضوع، إنما هي ذلة محبة وإخاء كما قال تعالى في آية أخرى في وصفهم: ﴿ أشداءُ على الكفَّارِ رُحماءُ بينهم ..﴾[سورة الفتح:٢٩]، والتراحم فيما بينهم لا يدفعه إلا كمال المحبة لما علمت أن المحبة أصل كل فعل ومبدؤه، ولذلك لمَّا تنتفي الأخوة الإيمانية، لا تجد هذه المحبة عند المؤمنين، ولو كانت بين أقرب الأقارب من آباء وأبناء وإخوان ونحوهم كما قال تعالى: ﴿ لا تجد قوماً يؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ يُوادُّون من حادَّ اللهَ ورسولَهُ ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانَهم أو عشيرتَهم أولئِك كتبَ في قُلوبِهم الإيمانَ وأيَّدهم بروحٍ منه ...﴾[سورة المجادلة:٢٢]، والمعنى: لا يكون هذا الحال من الموادة لأعداء الله بين المؤمنين، فمن كان مؤمنا لا تجد منه مودة إلا للمؤمنين، أما غيرهم ممن يحاد الله ويعاديه فلا يكون بينه وبينه مودة، ولو كان من أقرب الأقربين إليه؛ لأن علاقة الإيمان أقوى عنده من علاقة النسب، كما قال تعالى: ﴿ إنَّما المؤمنون إخوةٌ ﴾ [سورة الحجرات:١٠]، وهذا حصر لصفات المؤمنين؛

لأنهم "ينتسبون لأصل واحد وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية"(١)، وهذه الأخوة الموجبة لتلك الحياة الأبدية توجب التحاب والتراحم فيما بينهم، ولقد كان من شعورهم بهذا الإخاء الذي هو من آثار تلك المحبة المستوحاة من الإخاء الإيماني ذلك التعاطف والتراحم الذي كان بين المؤمنين من الأنصار والمهاجرين، والذي تحدث عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿ والَّذين تبَوَّءُوا الدَّارَ والإيمانَ من قبلِهم يُحبُّون من هاجر إليهم ولا يَجِدونَ في صدورِهم حاجةً مما أُوتوا ويُؤثِرُوْن على أنفسِهم ولو كان بهم خصاصةٌ ومن يوقَ شُحَّ نفسه فأولئِك هم المفلِحون * والَّذين جاءوا من بعدِهم يقولون ربَّنا اغفر لنا ولإخوانِنَا الَّذين سبقونَا بالإيمان ولا تجعل في قُلوبنا غِلاً لِلَّذين آمنوا ربَّنا إنَّك رؤوف رحيم ﴾[سورة الحشر:٩،١٠] .

ومن تأمل في هاتين الآيتين يعلم مدى المحبة التي تكون بين المؤمنين والتي تحققت في الرعيل الأول من المسلمين.

فهل يعود المؤمنون اليوم إلى أخلاق إيمانهم، ويقتدون بصالح أسلافهم ؟ ذلك ما نرجوه من الله تعالى وهو المأمول أن يحقق ما نرجوه ويرجوه كل مؤمن صادق الإيمان .

---

(١) تفسير البيضاوي المسمى "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" ص ٦٨٤ .

تمثُّلُ خُلُقِ المحبَّةِ
في النَّبيِّ صَلَّى الله عليه وَسلَّمَ

وإذا كان خلق المحبة لله تعالى والمؤمنين بتلك المكانة العظيمة والمنزلة الكريمة، فإن أولى الناس تحقيقاً لها، وأجلهم تحليا بها هو سيدنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، لما كان عليه من عظمة الأخلاق والكمال في كل مقام سني يقرب إلى الله تعالى .

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الخلق في ذروة الكمال، جعل الله تعالى اتباعه صلى الله عليه وسلم دليل صدق على محبة الله تعالى، فمن كان يريد التحلي بهذا الخلق، فعليه أن يترسم خطا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والاقتداء به في سلوكه وأحواله، من أقواله وأفعاله، كما قال سبحانه آمرا له صلى الله عليه وسلم أن يبلغ أمته: ﴿ قل إن كنتُم تُحبّونَ اللهَ فاتَّبعوني يُحبِبْكم اللهُ وَيغفرْ لكم ذُنوبَكم واللهُ غفورٌ رحيم ﴾[سورة آل عمران:٣١] .

وكَونُ اتباع النبي صلى الله عليه وسلم هو دليلُ صدق المحبة ومعيارها، فإنه يدل على أن كل ما يصدر عنه عليه الصلاة والسلام من الأقوال والأفعال يعبر عن محبة الله تعالى ويدل عليها، وذلك هو ما كان يعبر به النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه حيث كان يقول:

١ - "ولو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن أخوة الإسلام ومودته .."(١) .

٢ - وفي حديث آخر يقول: "أبرأ إلى كل خليل من خُلَّته، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت ابن أبي قحافة خليلا، وإن صاحبكم خليل الله"(٢) .

---

(١) متفق عليه وتقدم تخريجه ص ١٢٢ .

(٢) حديث صحيح تقدم تخريجه ص ١٢٢ .

٣ - وفي حديث آخر قال: "إني أبرأ إلى الله تعالى أن يكون لي منكم خليل، وإن الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا، ولو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا .."(١) .

فترى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعبر عن محبته لربه بـ"الخلة"، وهو الوصف الذي يفيد توحيد المحبة للمحبوب وهي رتبة لا تقبل المشاركة؛ لأنها تعني أن المحبة قد تخللت القلب فصارت خِلاله، أي في باطنه،وكذا تخللت جميع أجزاء الروح كما قالوا:

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلا(٢)

قال ابن الأثير: "وإنما قال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك؛ لأن خلته كانت مقصورة على حب الله تعالى فليس فيها لغيره متسع، ولا شِركة من محاب الدنيا والآخرة، قال: وهذه حال شريفة لا ينالها أحد بكسب واجتهاد، فإن الطباع غالبة، وإنما يخص الله بها من يشاء من عباده مثل سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه"(٣) .

ولهذا قالوا: إن مرتبة الخُلَّة فوق مرتبة المحبة، وقد اجتمعا في النبي صلى الله عليه وسلم(٤) .

٤- وكان يدل على مبلغ هذه المحبة فيه صلى الله عليه وسلم كل ما مر من علامات المحبة من الطاعة لله تعالى بما لا مزيد عليها، والتواضع والرأفة والرحمة للمؤمنين، والعزة على الكافرين، والجهاد في سبيل الله لا يخاف في الله لومة لائم كأكمل ما تكون هذه الخلال وأوفاها،كما سيأتي بيانها جميعا في مباحثها الخاصة بها، ومضى ما يدل على

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه برقم ٢٣٢٨ من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه .

(٢) انظر روضة المحبين لابن القيم ص ٤٧-٤٩ .

(٣) النهاية ٧٢/٢ .

(٤) انظر سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للإمام محمد بن يوسف الصالحي المتوفي سنة ٩٤٢هـ، ٥٦٢/١، والعبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٣٥، وانظر أيضا الشفاء للقاضي عياض ٤١٢/١ .

ذلك من الطاعة في مبحث (الشكر)، وهي الحال التي تترجم عن المحبة، والمقتضية لمكافئتها بمحبة الله جل جلاله، كما دل عليه قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه :

".. وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه"(١) .

٥ـ ومع ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من كمال المحبة لله تعالى والخلة له، فإنه مع ذلك كان يدعو الله ويقول :

« اللهم ارزقني حبك، وحب ما ينفعني حبه عندك، اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، وما زويت عني ما أحب فاجعله فراغا لي فيما تحب"(٢) .

وهذا يدل على عظيم شغفه بمحبة الله تعالى، وررغبته في الاستمرار على تلك المحبة الكاملة،والازدياد منها إلى أن يلقى ربه تبارك وتعالى، وذلك لما يرى من أُنسه بمحبة الله تعالى، ولما يعلمه عن ربه من الجلال وكثير الإنعام الموجبات للمحبة طبعا .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب التواضع ١٣١/٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

والمراد من هذا الكلام كما قال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم ص ٣٤٤: "أن من اجتهد بالتقرب إلى الله تعالى بالفرائض ثم بالنوافل قرب إليه، ورقاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان فيصير يعبد الله على الحضور والمراقبة كأنه يراه فيمتلىء قلبه بمعرفة الله تعالى ومحبته وعظمته وخوفه ومهابته وإجلاله والأنس به والشوق إليه حتى يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهدا بعين البصيرة .. قال: فمتى امتلأ القلب بعظمة الله تعالى محا ذلك من القلب كل ما سواه، ولم يبق للعبد شيء من نفسه وهواه ولا إرادة إلا لما يريده منه مولاه، فحينئذ لا ينطق العبد إلا بذكره، ولا يتحرك إلا بأمره، فإن نطق نطق بالله، وإن سمع سمع به، وإن نظر نظر به، وإن بطش بطش به، قال: فهذا هو المراد بقوله: "كنت سمعه الذي يسمع به ..الخ ا.هـ بتصرف .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات،باب رقم ٧٤ من حديث عبد الله بن يزيد الخطمي رضي الله عنه برقم =

محبة المؤمنين في الله تعالى :

وكما كان صلى الله عليه وسلم عظيم المحبة لله تعالى، فقد كان عظيم المحبة للمؤمنين في الله تعالى على ذلك النحو من الكمال، كما تدل على ذلك أقواله الشريفة في الحث على التحاب في الله والمرغبة فيه، والمبينة لفضله، وهي الأقوال التي تدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان متخلقا بمدلولها في نفسه، وترجمت عنها أقواله لأمته، إذ لولا أنه صلى الله عليه وسلم كان كذلك لما عبَّر عن ذلك لسانه الشريف، حيث إنه لا يدل على فضل إلا كان أول الناس تحليا به ومبادرة إليه .

حثه على التحاب في الله:

أما حثه صلى الله عليه وسلم المؤمنين على التحاب في الله تعالى فهو أكيد، بلغ أن ناط به الإيمان والإسلام، وفي ذلك دليل على تلازم الإسلام والإيمان بالمحبة، وقد ورد ذلك في أحاديث منها :

١ ـ قوله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده، لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا(١) حتى تحابُّوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم"(٢) .

فترى أن النَّبي صلى الله عليه وسلم يخبر أن الإيمان الذي هو سبب لدخول الجنة،

= ٣٤٩١، والطبراني في الدعاء ١٤٥٥/٣ برقم ١٤٠٣، وإسناده حسن، وقال عنه الترمذي: حسن غريب.

(١) قال الإمام النووي في شرح مسلم ٣٦/٢: "هكذا هو في جميع الأصول والروايات (ولا تؤمنوا) بحذف النون من آخره وهي لغة صحيحة" ا.هـ .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه برقم ٥٤ ، وأبو داود في الأدب، باب إفشاء السلام برقم ٥١٩٣ ، والترمذي في الاستئذان، باب ما جاء في إفشاء السلام برقم ٢٦٨٩ .

لا يتحقق إلا بالتحاب بين المؤمنين، وذلك دليل على تلازم المحبة والإيمان، فمن ادعى الإيمان فعليه أن يحقق إيمانه بمحبة إخوانه المؤمنين؛ لأنه لا يكمل إيمانه ولا يصلح حاله إلا بذلك، إذ كيف يحقق محبته لإخوانه كما يحب لنفسه وهو لا يحبهم، وقد نفى النبي صلى الله عليه وسلم إيمان من لم يفعل ذلك حيث قال :

٢ - "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"(١) .

وقد دلهم النبي صلى الله عليه وسلم على ما يحصل به التحاب فقال: "ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم" وذلك لأن إفشاء السلام بين المسلمين على من عرف المرء ومن لم يعرف منهم "أول أسباب التآلف ومفتاح استجلاب المودة، وتمكن ألفة المسلمين بعضهم لبعض"(٢) .

كما بين عليه الصلاة والسلام الصورة التي يجب أن يكون عليها المسلمون، والتي يحبها منهم ولهم فقال :

٣ - "مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"(٣) .

فهكذا يصور النبي صلى الله عليه وسلم وحدة المسلمين وتلاحمهم المبنية على المحبة والرحمة لبعضهم بعضا، وفي هذا حث أكيد للمسلمين أن يحققوا الصورة التي رسمها النبي صلى الله عليه وسلم لواقعهم وحالهم حتى يتحقق فيهم وصف الإيمان والإسلام .

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ١١/١، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، ومسلم في الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه برقم ٤٥ .

(٢) شرح مسلم لنووي ٦٣/٢ .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب رحمة الناس والبهائم ١٢/٨، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، ومسلم في البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم برقم ٢٥٨٦ ، واللفظ له .

الترغيب في المحبة في الله تعالى :

وقد كان صلى الله عليه وسلم يرغب في التحاب في الله تعالى فيبين ما لذلك من الفضل العظيم عند الله تعالى، وذلك بمثل قوله صلى الله عليه وسلم:

١ - "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله" وذكر منهم: "ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه"(١) .

٢ - وقوله عليه الصلاة والسلام: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار"(٢) .

٣ - وقوله عليه الصلاة والسلام: "إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي ؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي"(٣) .

٤ - كما بين لهم أن المحبة في الله تعالى توصل المرء إلى أعلى المنازل، وتجعله في مرتبة محبه إن كان من أهل المراتب العالية، وذلك بقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن الساعة، فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "وما أعددت لها ؟" قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "أنت مع من أحببت" .

قال راوي الحديث؛ أنس بن مالك رضي الله عنه: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "أنت مع من أحببت" قال: فأنا أحب النبي صلى الله عليه

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة، باب الصدقة باليمين ١٣٨/٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ومسلم في الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة برقم ١٠٣١ .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب حلاوة الإيمان ١٢/١، من حديث أنس رضي الله عنه، ومسلم في الإيمان، باب بيان خصال الإيمان برقم ٤٣ .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب فضل الحب في الله تعالى برقم ٢٥٦٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وسلم وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لم أعمل عملهم"(١) .

٥ ـ وكان من كمال حرصه صلى الله عليه وسلم على التحاب في الله تعالى أن أمر من يُكِنُّ في فؤاده محبة لأخيه المؤمن أن يخبره بذلك حتى يبادله المحبة في الله تعالى، فقال عليه الصلاة والسلام: "إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه"(٢) .

٦ ـ كما كان عليه الصلاة والسلام يفعل ذلك بنفسه، وذلك كقوله لمعاذ بن جبل(٣) رضي الله عنه بعد أن أخذ بيده: "يا معاذ والله إني لأحبك، أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك"(٤) .

ولم ينفرد معاذ بهذه المحبة بل الأمة كلها كان لها ذلك الحظ من محبته صلى الله عليه وسلم، وقد تجلت محبته صلى الله عليه وسلم لأمته كلها في حرصه الكامل على نفعها وتيسير دينها ودلالتها على الخير كما وصفه الله تعالى بذلك حيث قال: ﴿ لَقد جاءَكم رسولٌ من أنفسِكم عزيزٌ عليه ما عنتُّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم ﴾[سورة التوبة:١٢٨].

وسيأتي إيضاح ذلك في مبحث (خلق الرحمة) من الباب الثالث إن شاء الله تعالى(٥) .

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب ما جاء في قول الرجل : "ويلك" ٤٨/٨، وفي باب علامة الحب في الله ٤٩/٨، وأبواب أخر، ومسلم في البر والصلة، باب المرء مع من أحب برقم ٢٩٥٣ .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب إخبار الرجل الرجل بمحبته إليه برقم ٥١٢٤، من حديث المقدام بن معديكرب، وأحمد في المسند ١٣٠/٤، وابن حبان ٣٨٩/١ الإحسان، والحاكم في المستدرك ١٧١/٤، وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في الصحيحة برقم ٤١٨، ٧٠٤/١ .

(٣) ابن عمرو بن عائذ الخزرجي الأنصاري، أسلم وهو ابن ثماني عشرة سنة، وشهد العقبة الثانية وبدرا وأحدا، والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالفقه، وبعثه إلى اليمن واليا، وتوفي صلى الله عليه وسلم وهو فيها، ومات معاذ بالشام في طاعون عمواس سنة ١٨هـ. انظر: طبقات ابن سعد ٣٤٧/٢، وتهذيب الأسماء واللغات ٩٨/٢ .

(٤) حديث صحيح تقدم تخريجه ص ٨٨٥.

(٥) انظر ص ٦٠٣

المبْحَثُ الخَامِسُ

(التَّوبة والإِنابة)

التوبة في اللغة: الرجوع، يقال: تاب من ذنبه أي: رجع عنه، يتوب إلى الله توبا وتوبة ومتابا فهو تائب إذا رجع عن المعصية(١) .

وفي الاصطلاح: هي ترك الذنب على أجل الوجوه، ويقال أيضا هي: "ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة"(٢) .

وهذا التعريف جامع لما تتوقف التوبة عليه من الأركان كما سيأتي بيانه .

"والإنابة قريبة من التوبة لغة وشرعا"(٣)، قال الراغب: "الإنابة إلى الله الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل"(٤) .

منزلة هذا الخلق في الأخلاق الإيمانية :

والتوبة والإنابة من أجلِّ أخلاق القرآن الإيمانية ، لما يعنيانه من الرجوع إلى الحق والاعتراف بالذنب وانكسار القلب أمام حضرة الرب جل جلاله، وفي ذلك من الدلالة على زكاء النفس ما فيه .

ولهذا كانت "أول المقامات الإيمانية، ومبدأ طريق السالكين ومفتاح باب الواصلين

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣٥٧/١، والصحاح للجوهري ٩١/١، والقاموس المحيط ٤٠/١، مادة (توب) .

(٢) مفردات القرآن للراغب ص ٧٦ .

(٣) التعريفات للجرجاني ص ٧٠ .

(٤) مفردات القرآن ص ٥٠٨ مادة (ثوب)، وفي القاموس المحيط ١٣٥/١: ناب إلى الله تائبا، وفي مختار الصحاح ص ٦٨٤: أناب إلى الله تعالى : أقبل وتاب .

إلى رب العالمين"(١) وهي أيضا "أوسط تلك المقامات وآخرها، إذ التوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية كما أن حاجته إليها في البداية كذلك"(٢).

عناية القرآن الكريم بالتوبة :

ولأجل المكانة العظيمة التي يتبوأها هذا الخلق العظيم كانت عناية القرآن الكريم به عظيمة من حيث الأمر به، والحض عليه، والثناء على أهله، وبيان ما أعد الله تعالى لهم من الأجر والثواب، ومن حيث التحذير من تركها أو التمادي والتسويف فيها، وبيان ما أعده الله تعالى لهم من العقاب، كل ذلك بما يطول ذكره، فقد بلغت مرات ذكره بلفظ التوبة والإنابة نحوا من مائة مرة، ناهيك عما يدل عليه من الألفاظ الأخرى المقابلة كالانتهاء والرجوع والفيء والأوب ونحو ذلك(٣)، وهذا يدل دلالة واضحة على عظيم منزلة هذا الخلق عند الله تعالى، وماله من ثمرة عظيمة لصالح المرء في عاجل أمره وآجله كما لا يخفى .

الأمر بالتحلي به :

أما الأمر بالتحلي بالتوبة ففي آيات من كتاب من الله تعالى، منها قوله سبحانه: ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيُّها المؤمنون لعلَّكم تُفلِحون ﴾[سورة النور:٣١] .

قال ابن القيم: "وهذه الآية في سورة مدنية خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة "لعلَّ" المشعرة بالترجي إيذانا بأنكم إذا تبتم كنتم على

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١٠/٢٨/١٥٨ .

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ١/١٨٧ .

(٣) انظر: الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة لابن مالك ص ٤٩ .

رجاء الفلاح فلا يرجو الفلاح إلا التائبون جعلنا الله تعالى منهم"(١) .

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنُوا تُوبوا إلى اللهِ توبةً نصُوحًا عسى ربُّكم أن يكفِّرَ عنكم سيئاتِكم ويدخلَكم جنَّاتٍ تجري مِن تحتها الأنهارُ يومَ لا يُخزِي اللهُ النَّبيَّ والذين آمنوا معه ..﴾[سورة التحريم:٨] .

وقوله جل شأنه: ﴿ وأنيبوا إلى ربِّكم وأسلموا له من قبلِ أن يأتيَكم العذابُ ثم لا تُنصرون ﴾[سورة الزمر:٥٤] ، إلى غير ذلك من الآيات الآمرة جميع العباد بالتوبة والإنابة إلى الله تعالى عن قريب .

وتدل هذه الأوامر على وجوب التوبة عليهم بمقتضى الأمر المفيد للوجوب، وذلك ما لا خلاف فيه عند أهل العلم، بل حكى الإمام النووي الإجماع عليه قال: "لتظاهر دلائل الكتاب والسنة على ذلك"(٢) .

الإغراء بامتثال هذه الأوامر :

وانظر إلى رأفة الله عز وجل بعباده كيف تلطف إليهم فيما أوجبه عليهم من التوبة، حيث إنه سبحانه لم يجعل الأمر صِرفا ككثير من الأوامر الشرعية الأخرى، بل ما يكاد يفرغ من الأوامر حتى يذيله بما يُغْري على قبوله والإسراع في الاستجابة له، وذلك بقوله ﴿ لعلَّكم تفلحون ﴾، ﴿ عسى ربُّكم أن يكفرَ عنكم سيئاتِكم ويدخلَكم جنَّاتٍ تجري من تحتِها الأنهار ﴾ .

فإن الله تعالى يعد عباده بأدوات الترجي "لعل"، وعسى" بالفلاح الذي يعني الفوز في الدنيا والآخرة،والمغفرة التي هي غاية ما يطلبه العبد من الرب جل وعلا، وليست الأدوات هذه هنا كما هو حالها في أصل وضعها الذي لا يقتضي تحقق حصول المرجو، وإنما توقع حصوله فقط .

---

(١) مدارج السالكين ١٧٨/١ .

(٢) انظر رياض الصالحين ص٤٢، وإحياء علوم الدين للغزالي ٤/٤ .

بل هو في هذا المقام "يقتضي حصول المرجو لوجوب سلامة مخبره عن الخلف"(١) .

قالوا: (وإنما جيء بصيغة الأطماع للجري على عادة الأساليب العربية في وعود الملوك، فإنهم إذا أرادوا فعلا قالوا: عسى أن نفعل كذا، و لله المثل الأعلى، وأيضا للإشعار بأن ذلك تفضل منه سبحانه، وأن التوبة غير موجبة له ليكون العبد بين الخوف والرجاء الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم وإن بالغ في إقامة وظائف العبادة)(٢) .

و لم يقتصر الأطماع ذلك على قبول التوبة والوعد بالمغفرة وثواب الآخرة .. بل لمَّا كانت النفس موكلة بحب العاجل فقد أغراهم على التوبة بصلاح الدنيا أيضا كما قال سبحانه: ﴿ وأنِ استغفروا ربَّكم ثم تُوبوا إليه يمتِّعْكم متاعاً حسناً إلى أجلٍ مسمى ويُؤتِ كلَّ ذي فضلٍ فضلَه ﴾[سورة هود:٣]، وهذا وعد من الله تعالى بصلاح أحوال التائبين في الدنيا بالأمن والعيش الرغيد، وقد فصل سبحانه بعض ذلك المتاع الحسن في آيات أخرى كقوله تعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿ ويا قومِ استغفروا ربَّكم ثم تُوبوا إليه يُرسلِ السماءَ عليكم مِدراراً ويزدْكم قوَّةً إلى قوَّتِكم ولا تَتَولَّوا مُجرمِين ﴾ [سورة هود:٥٢]، وذلك لإغراء عباده على التوبة لما تعنيه التوبة من تحقق العبودية.

ولقد كان الإغراء كبيرا ومهما حينما أخبر الله تعالى عن محبته للتائبين حيث قال سبحانه: ﴿ إنَّ اللهَ يُحبُّ التَّوابِين ويحبُّ المتطهِّرين ﴾[سورة البقرة:٢٢٢]، إذ لا تكاد تقرع أسماع العصاة حتى يعلموا أن الله تعالى لم يعدهم بقبول توبتهم وإثابتهم على ذلك فحسب، بل إنهم ينتقلون من سخطه إلى محبته المقتضية للرحمة والمغفرة والثواب الحسن، لا سيما إذاعلموا مدلول المبالغة التي تفيد حصول تلك المحبة مهما تكررت المعصية، إذاأحدثتلها توبة،إذ التَّوابون هم كثيرو التوبة والرجوع إلى الله تعالى، فكلما أحدثوا ذنبا أحدثوا له توبة ولو كان في اليوم مائة مرة، وقد صور النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر: دليل الفالحين شرح رياض الصالحين لابن علان المكي ٨١/١ .

(٢) انظر روح المعاني ١٦٠/٢٧/١١ .

مبلغ محبة الله تعالى لتوبة عبده بقوله صلى الله عليه وسلم: "لَلّهُ أفرح بتوبة عبده ..."الحديث(١) .

التحضيض على التوبة :

وفي ذلك من التحضيض على الإقبال على الله تعالى بالتوبة والإنابة ما لا يتردد عند سماعه عاقل مؤمن ، ومع ما في ذلك الترغيب من الحض على التوبة، إلا أن التحضيض والحث عليها لم يقتصر على ذلك، بل كان بأساليب التحضيض الأخرى كقوله تعالى: ﴿ أفلا يتُوبونَ إلى الله ويَستغفرونه والله غفورٌ رحيم ﴾[سورة المائدة:٧٤]، فإن في هذه الآية دعوة لمن أعظموا على الله الفرية وجاؤوا بشيء إدّ ﴿ تكادُ السَّمٰواتُ يتفطَّرن منه وتَنشقُّ الأرضُ وتخرُّ الجبالُ هدّاً * أنْ دعَوا للرَّحمن وَلدا * وما يَنبَغي لِلرَّحمن أن يَتَّخذَ ولداً ﴾[سورة مريم:٩٠-٩٢] حيث (قالوا : إن الله ثالث ثلاثة) ومع ذلك فإن الله تعالى دعاهم إلى الرجوع عن ذلك الإفك العظيم، ووعدهم بمغفرته إن هم انتهزوا ذلك وبادروا إلى التوبة، فكيف بمن لم يصل ذنبه إلى ذلك المستوى من الجرم ؟ إنه أجدر بتوبة الله تعالى عليه .

وكقوله سبحانه: ﴿ يُريدُ اللهُ لِيبيِّنَ لكم ويهديَكم سننَ الَّذين من قبلِكم ويتوبَ عليكم والله عليمٌ حكيم * والله يريدُ أن يتوبَ عليكم ويريدُ الَّذين يتَّبعون الشهواتِ أن تميلوا ميلاً عظيماً * يريدُ اللهُ أن يُخفِّفَ عنكم وخُلقَ الإنسانُ ضعيفاً ﴾[سورة النساء:٢٦-٢٨] .

وتأمل سر تكرار إرادة الله تعالى التوبة على عباده، تجده أنه للتوكيد ولتقوية الخبر الأول(٢)، ليتقرر في نفس الإنسان مدى إرادة الله تعالى التوبة على عباده، رأفة بهم ورحمة،لينيلهم ثواب التائبين، ومحبة رب العالمين، بخلاف أولئك الذين يريدون من بني

---

(١) متفق عليه تقدم ذكره وتخريجه ص١٢٧.

(٢) انظر تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز) ٢٢/٤ .

الإنسان أن ينحرفوا عن أصل فطرتهم في توحيد خالقهم وصيانة مجتمعاتهم والحفاظ على كياناتهم، وهم الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ ويريدُ الَّذين يَتَّبعون الشهواتِ أن تميلوا ميلاً عظيماً ﴾ .

كما كان الحض على التوبة أيضا بوعود الله تعالى المتكررة بمغفرته سبحانه للتائبين ، وذلك كمثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إلَّا الذين تابوا وأَصلَحوا وبَيَّنوا فأولئِكَ أتوبُ عليهم وأنا التَّوابُ الرَّحيم ﴾[سورة البقرة:١٦٠] .

وقوله جل شأنه: ﴿ فمن تَابَ من بعدِ ظُلمه وأصلحَ فإنَّ الله يتوبُ عليه ﴾[سورة المائدة:٣٩] .

وقوله تقدست أسماؤه: ﴿ كتبَ رُّبكم على نفسِه الرَّحمة أنَّه من عمل منكم سوءاً بجهالةٍ ثم تابَ مِن بعده وأصلحَفأنَّه غفور رحيم ﴾[سورة الأنعام: ٥٤] .

وقوله عز وجل: ﴿ والَّذين عملوا السيئاتِ ثم تابوا مِنْ بعدِها وآمنَوُا إنَّ ربك من بعدِها لغفورٌ رحيم ﴾[سورة الأعراف:١٥٣] .

إلى غير ذلك من الآيات المتكررة في كتابه الكريم الواعدة بتوبة الله تعالى ومغفرته للتائبين التي قلما تخلو عنها آيات التوبة الكثيرة في القرآن الكريم .

وكل هذه الوعود الصادقة تجعل المرء يقبل على التوبة برغبة كبيرة، وتحمله على التخلي عن المعصية بصدق،وذلك طمعاً في مغفرة الله ورحمته ومحو سيئاته .

على أن كرم الله تعالى وفضله لم يقف عند حد قبول التوبة وغفران السيئات حتى وَعد بإبدال السيئات حسنات،وذلك بقوله سبحانه: ﴿ إلَّا من تابَ وآمَن وعملَ عملاً صالحاً فأولئِك يُبدِّلُ الله سيئاتِهم حسناتٍ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[سورة الفرقان:٧٠] .

وقد أوضحت السنة المشرفة معنى هذه الآية، وذلك بقوله صلى الله عليه وسلم: "إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجاً منها: رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال: إعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فتعرض عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا: كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا: كذا وكذا،

فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة، فيقول: رب قد عملت أشياء لا أراها ههنا"(١) .

فانظر إلى عظمة الكرم الإلهي هذا حيث لم يكتف الباري سبحانه بغفران الذنوب حتى بدل السيئات حسنات، إنه كرم من جواد رحيم لا يحرمه إلا محروم .

قالوا: وإنما تبدل السيئات حسنات "لأن العبد التائب كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار"(٢) .

التنويه بالتائبين والثناء عليهم :

ولا غرو في أن ينال التائبون كل ذلك الإكرام، فإن الله تعالى قد أثنى عليهم ونوه بهم بما يدل على تأهلهم لكل ما أكرموا به، وما أثيبوا به، إذ لا يثني الله تعالى ولا ينوه إلا بمن عظمت منزلته وتأهل لإكرامه وإنعامه .

وكان ذلك التنويه بمثل قوله سبحانه: ﴿ .. إلَّا الذين تابوا وأصلَحوا واعتَصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً ﴾[سورة النساء:١٤٦] . فترى أن الله تعالى جعل التائبين من النفاق مع المؤمنين في الرتبة والمنزلة، وقد علم ما للمؤمنين من عظيم الأجر والمثوبة والمكانة الرفيعة من آيات أخرى كثيرة ومن هذه الآية نفسها التي أفادت ذلك وقالت: ﴿ وسوف يُؤتِ اللهُ المؤمنينَ أجراً عظيماً ﴾ أي لا يقدر قدره ولا يدرك كنهه.

وبمثل قوله سبحانه: ﴿ والذين اجتَنبُوا الطَّاغوتَ أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البُشرى فبشِّر عباد ﴾[سورة الزمر:١٧]. فتأمل ما في هذه الآية من بليغ التنويه بالمنيبين إلى الله تعالى حيث ذكروا على سبيل المدح ووعدوا بالبشارة الحسنة جزاء لهم على حسن

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها برقم ١٩٠، والترمذي في صفة جهنم، باب رقم ١٠ برقم ٢٥٩٦ من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٢٧/٣ .

صنيعهم في الدنيا من الإنابة إلى الله تعالى والتوبة اليه.

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وأُزلفتِ الجنَّة للمتقين غيرَ بعيد * هذا ما تُوعدونَ لكل أوَّابٍ حفيظ * من خشيَ الرَّحمنَ بالغيب وجاء بقلبٍ منيب * أُدخلوها بسلامٍ ذلك يومُ الخُلود * لهم ما يشاؤنَ فيها ولَدينا مَزيد ﴾[سورة ق:٣١-٣٥] .

إذ في هذه الآية من التنويه والثناء على الأوَّابين إلى الله،وهم كثيرو الأوب وهو الرجوع إلى الله بالطاعة، ما لا يدرك مداه، فقد وصفهم بالحفاظ على حدود الله والخشية له والإنابة إليه، ثم جازاهم على ذلك أن أحلَّهم دار كرامته يدخلونها بسلام من كل سوء، وأعد لهم فيها ما يشاؤن من النعيم، وأكبر من ذلك مما لم تبلغه أمانيهم، كل ذلك لتحليهم بخلق التوبة إلى الله والإنابة له، فما أعظم هذا الثناء وما أعظم أجره!

جعلنا الله ومشايخنا ووالدينا وأحبابنا من أهله .

إلى غير ذلك من الآيات المنوهة بأهل التوبة والإنابة من عباد الله تعالى، الدالة بالالتزام على مكانتهم عندهسبحانه ولذلك أحلَّهم دار المقامة من فضله لايمسهم فيها نصب ولا يمسهم فيها لغوب .

توبة الله على العبد :

ومعلوم أن العبد وهو ضعيف لا يملك لنفسه حولا ولا قوة، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، لا يقدر أن يحقق لنفسه تلك المكانة ولا ذلك الأجر العظيم ما لم يصحبه توفيق الله تبارك وتعالى وعونه عز شأنه، ولذا فإن مبدأ توبة العبد تكون من الله سبحانه وذلك بتوفيقه للتوبة، ورجوعه سبحانه مع سابق علمه وإرادته عن عقابه،كما قال سبحانه: ﴿ ثم تابَ عليهم ليتُوبُوا إنَّ الله هو التَّوابُ الرحيم ﴾[سورة التوبة:١١٨] .

"فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سببا مقتضيا لتوبتهم، فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله عليهم، والحكم ينتفي لانتفاء العلة"(١) .

---

(١) مدارج السالكين ٣١٣/١ .

وذلك لأن "توبة العبد إلى الله تعالى محفوفة بتوبة من الله تعالى قبلها وتوبة منه بعدها، فتوبته بين توبتين من ربه؛سابقة ولاحقة، فإنه تاب عليه أولا إذنا وتوفيقا وإلهاما، فتاب العبد، فتاب الله عليه ثانيا قبولا وإثابة"(١) كما دل على ذلك آيات كثيررة من محكم كتاب الله تعالى، منها الآية السابقة، ومنها قوله سبحانه: ﴿ لقد تَاب اللهُ علَى النَّبيِّ والمهاجرينَ والأنصارِ الَّذين اتَّبعوه في ساعةِ العُسْرةِ ...﴾[سورة التوبة:١١٧].

ومنها قوله عز شأنه:﴿ فتلقَّىآدمُ من ربِّه كلماتٍ فتابَ عليه إنَّه هو التَّوابُ الرحيم ﴾ [سورة البقرة:٣٧] .

وقوله تقدست أسماؤه: ﴿ ويتوبُ اللهُ على المؤمنينَ والمؤمناتِ وكانَ اللهُ غفوراً رحيما﴾[سورة الأحزاب:٧٣] .

فالباري سبحانه يبادر عبده بالتوبة التي تعنى من جنابه المقدس "الرجوع عن العقوبة إلى المغفرة"(٢). فينشأ عن ذلك إذنه وتوفيقه وإلهامه لعبده للتوبة، رأفة ورحمة منه بعباده كي ينالوا كريم ثوابه وجميل إحسانه، فإذا ما بادر العبد إلى ذلك تحقق وعد الله لهم بالقبول والمغفرة، المخبر عنه بمثل قوله سبحانه: ﴿ إلاَّ الذين تابوا وأصلَحوا وَبيَّنُوا فأولئك أتوبُ عليهم وأنا التَّواب الرَّحيم ﴾[سورة البقرة:١٦٠]، وقوله جل شأنه: ﴿ فمن تاب من بعدِ ظُلمه وأصلحَ فإنَّ الله يتوبُ عليه إن اللهَ غفورٌ رحيم ﴾[سورة المائدة:٣٩]، وقوله: ﴿ إلاَّ من تاب وآمنَ وعمِلَ صالحا فأولئِك يَدخلونَ الجنَّة ولا يُظلَمون شيئا ﴾ [سورة مريم:٦٠]. إلى غير ذلك من الآيات .

اقتران توبة الله على العباد بمشيئته سبحانه :

غير أن توبة الله على عباده ليست مكفولة لكل أحد، بل هي مرتبطة بمشيئته سبحانه، فيتوب على من يشاء، ويمنعها من يشاء،بمقتضى ملكه وعدله،كما قال سبحانه:

---

(١) مدارج السالكين ٣١٢/١ .

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص ٥ .

﴿ ويتوبُ الله على من يشاء ﴾[سورة التوبة:١٥]، وقال: ﴿ ثم يتوبُ الله من بعدِ ذلك على من يَشاء ﴾[سورة التوبة:٢٧]. ولهذا كان الخذلان في العباد كثيرا،والتائبون منهم قليلا إذ مشيئة الله ليست عامة، ولما كانت التوبة غير مكفولة لكل من أرادها كان على العباد أن لا يركنوا إلى أنفسهم في تحقيقها،ولا يدَّعوها من غير أن يطلبوها ممن هي بيده، ألا وهو التواب الرحيم، فإن نبي الله تعالى إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام لم يتكلا على أنفسهما في تحقيقها،بل طلباها من الله تعالى كما حكى الله تعالى عنهما قولهما: ﴿ ربَّنا واجعلنا مُسلِمينِ لك ومن ذرِّيَّتِنا أمةً مسلمة لك وأرِنا مناسكنا وتُب علينا إنَّك أنت التَّوابُ الرحيم ﴾[سورة البقرة:١٢٨]، وهما ممن يُقطع بتوبتهما فإنهما نبيان رسولان، ومع ذلك فهما يطلبان من الله تعالى أن يتوب عليهما، فغيرهما ممن ليس كذلك أحرى بأن يطلبها من الله تعالى، والله عز وجل لا يخيب أحدا دعاه بصدق وإخلاص، إذ هو يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، و﴿ يقبلُ التَّوبةَ عن عِبادِه ويعفُو عن السَّيئات ﴾[الشورى ٢٥] كما أخبر عن نفسه وهو الصادق في وعده(١) .

شروط قبول التوبة :

لكن قبول الله تعالى توبة عبده طلبا أو فعلا مشروط بشروط بينها الباري سبحانه في محكم كتابه وهي:

أولا: أن لا تكون حين أن تبلغ الروح الحلقوم كما قال الله تعالى: ﴿ إنَّما التَّوبةُ على الله لِلَّذين يعملون السوءَ بجهالةٍ ثم يتوبون من قريب فأولئكَ يتوبُ الله عليهم وكان الله عليما حكيما * وليست التَّوبةُ للذين يعملون السيئاتِ حتَّى إذا حضرَ أحدَهم الموتُ قال إنِّي تبتُ الآن ...﴾[سورة النساء:١٧،١٨] .

وذلك لأن التوبة حينئذ توبة اضطرار ، لا توبة اختيار، وتوبة الاضطرار لا تنفع،(إذ القصد من التوبة هو: ترتب آثارها عليه من صلاح الحال في الدنيا بالاستقامة الشرعية

---

(١) انظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ٥/٩٠ .

فإذا وقع اليأس من الحياة ذهبت فائدة التوبة(١). ففرعون لما أيقن بالهلاك وعاين بأس الله تعالى حين أدركه الغرق: ﴿ قال آمنتُ أنَّه لا إلهَ إلا الَّذي آمنَت به بنوا إسرائيلَ وأنا من المسلمين ﴾ فقال له الله تعالى: ﴿ ءالآنَ وقد عصيتَ قبلُ وكنتَ من المفسدين ﴾ [سورة يونس:٩٠،٩١]، والاستفهام إنكاري ومعناه: أتؤمن الآن حين يئست من نفسك فلا ينفعك الإيمان الآن، كما قال تعالى: ﴿ فلم يكُ ينفعُهُم إيمانُهم لمَّا رأوا بأسنا سنَّةَ الله التي قد خلَت في عباده وخَسِر هُنالك الكافرون ﴾[سورة غافر:٨٥] .

ثانيا: أن لا تكون مع الإصرار على الكفر إلى حين الموت لقوله تعالى في تمام الآية السابقة: ﴿ ولا الَّذين يموتون وهم كفَّار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليما ﴾[سورة النساء:١٨] والمعنى:ليس قبول التوبة لهؤلاء ولا لهؤلاء(٢)، ولقوله سبحانه: ﴿ إنَّ الذين كفروا وماتوا وهم كفَّار فلن يقبلَ من أحدِهم ملءُ الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذابٌ أليم وما لهم من ناصرين ﴾[سورة آل عمران:٩١] .

ثالثا: أن لا تكون بعد طلوع الشمس من مغربها فإنَّ باب التوبة يغلق حينئذ لقوله تعالى: ﴿ هل يَنظرونَ إلا أن تأتيَهم الملائكةُ أو يأتيَ ربُّك أو يأتيَ بعضُ آياتِ ربِّك،يوم يأتي بعضُ آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانُها لم تكن آمنت من قبلُ أو كسبت في إيمانِها خيراً قل انتَظِروا إنَّا مُنتظرون ﴾[سورة الأنعام:١٥٨]، وآيات الله هذه تكون قبل يوم القيامة كما جاء في حديث البخاري رحمه الله في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليو وسلم: "لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها،فإذا رآها الناس آمن مَن عليها، فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل"(٣) .

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٨١/٤ .

(٢) روح المعاني ٢٤٠/٤/٢ .

(٣) البخاري في تفسير سورة الأنعام ٧٣/٦ .

التوبة النصوح :

كما أن التوبة لا تكون مقبولة إلا إذا كانت صادقة مستوفية لأركانها على النحو الذي أراده الله تعالى من عباده والذي دل عليه قوله سبحانه: ﴿ ياأيُّها الذين آمنوا تُوبوا إلى الله توبةً نصوحا عسى ربُّكم أن يكفرَ عنكم سيئاتِكم ويدخلَكم جناتٍ تجري مِن تحتِها الأنهار ...﴾[سورة التحريم:٨]، والتوبة النصوح هي:(البالغة في النصح، الصادقة التي لا يعود صاحبها إلى الذنب ولا يريد العود إليه(١)) وهي التي تجمع أركان التوبة وهي: الإقلاع عن المعصية، والعزم على أن لا يعود إليها، والندم على ما فات منها، وإذا كانت متعلقة بحقوق الناس فيُزاد ركنٌ رابع وهو: أن يعيد إليهم حقوقهم أو يستبرئهم منها، فإذا جمعت التوبة هذه الأركان الأربعة كانت صادقة وكانت توبة نصوحا، فقد نقل الحافظ ابن كثير عن العلماء رحمهم الله تعالى قولهم: "التوبة النصوح هي : أن يقلع عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزم على أن لا يفعل في المستقبل، ثم إن كان الحق لآدمي رده إليه"(٢) .

فهذه هي التوبة التي يترتب عليها الأثر من الثواب العاجل و الآجل، وصلاح الحال والمآل، وهي التي أرادها الله عز وجل من عباده كما دلت على ذلك آية التحريم، والتي هي مقيدة لآيات التوبة المطلقة، بدليل أن التوبة إذا لم تتوفر فيها هذه الأركان لا تكون صحيحة مقبولة ولا تأتي ثمارها، وإنما هي توبة الكذابين كما يسمونها، وهم الذين يخادعون أنفسهم وهم لا يشعرون، وهي توبة تحتاج إلى توبة كما قالوا: استغفارنا يحتاج إلى استغفار .

فكل معصية لله تعالى متعلقة بحقه أو حق عباده نص عليها في كتابه أو جاءت على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم يجب على العبد أن يتخلى عنها، ويتوب منها محققاً أركان التوبة هذه، وإلا كانت توبته ردا عليه .

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص٧٤٦، وتفسير الجلالين ٢/٣٦٦ وأيضا روح المعاني ١٠/٢٩/١٥٧ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/٣٩٢ .

تمثُّل خلق التَّوبة في النَّبيِّ صلَّى الله علَيه وسلَّم

وإذا كانت التوبة والإنابة يعنيان في مدلولهما اللغوي:الرجوعَ كما علمت مما تقدم، فإن ذلك الرجوع يكون من المعصية إلى الطاعة فيمن تتأتى منه المعصية ووقعت منه، وهم عامة الناس الذين لم تمنعهم العصمة من الوقوع فيها .

أما من حفظهم الله تعالى بالعصمة وهم الأنبياء فإن التوبة والإنابة في مقامهم تعني: الرجوع عن حالة في مقام العبودية إلى حالة أرفع منها على ما سيأتي بحثه وتقريره في مبحث العصمة من الباب الخامس إن شاء الله تعالى(١) .

وتوبة رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا القبيل، وقد كان يترقى فيها في أوج الكمالات مدة حياته، حتى أتاه اليقين، والتحق بالرفيق الأعلى مع الملائكة المقربين والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، كما يدل على ذلك حديث الأغرّ(٢) المزني رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

١ - "إنه لَيُغان(٣) على قلبي حتى أُستغفر الله في اليوم مائة مرة"(٤) .

قال ابن الأثير: "أراد ما يغشاه من السهو الذي لا يخلو منه البشر، لأن قلبه أبدا كان مشغولاً بالله تعالى، فإن عرض له وقتاً ما عارض بشَرِيٍّ يشغله عن أمور الأمة والملة ومصالحها، عَدَّ ذلك ذنبا وتقصيرا فيفزع إلى الاستغفار"(٥) .

---

(١) ص ٩٨

(٢) ابن عبد الله، ويقال: ابن يسار المزني ويقال: الجهني، ومنهم من فرق بينهما، صحابي من المهاجرين لم أجد من ذكر تاريخ وفاته. انظر الإصابة ٥٦/١، والاستيعاب بهامشها ٩٥/١، وتقريب التهذيب ص ١١٤ رقم ٥٤٢ .

(٣) قال في شرح مسلم: الغين والغيم بمعنى، والمراد هنا ما يتغش القلب ا.هـ ٢٣/١٧ .

(٤) أخرجه مسلم في الذكر، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه برقم ٢٧٠٢، وأبو داود في الصلاة، باب الاستغفار برقم ١٥١٥، والبغوي في الأنوار برقم ١١٤٥ .

(٥) النهاية في غريب الحديث ٤٠٣/٣،ونحوه في جامع الأصول ٣٨٦/٤-٣٨٧ .

وقال الإمام النووي: "وقيل سببه اشتغاله بالنظر في مصالح أمته وأمورهم ومحاربة العدو ومداراته وتأليف المؤلفة ونحو ذلك، فيشتغل بذلك عن عظيم مقامه، فيراه ذنباً بالنسبة إلى عظيم منزلته، ولإن كانت هذه الأمور من أعظم الطاعات وأفضل الأعمال، فهي نزول عن عالي درجته ورفيع مقامه من حضوره مع الله تعالى ومشاهدته ومراقبته وفراغه مما سواه فيستغفر لذلك .."(١) .

فترى كيف كان صلى الله عليه وسلم يعد ذلك ذنبا يقتضي منه التوبة والاستغفار وهو من الطاعات والقربات، وهذا ما يفسره الأثر المشهور: "حسنات الأبرار سيئات المقربين"(٢) .

وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم التوبة من هذا الأمر في عدة روايات عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم :

٢ - ففي رواية أخرى عنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه وسلم: "يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم مائة مرة"(٣) .

٣ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة"(٤) .

٤ - وعن ابن عمر(٥) رضي الله عنهما قال: "إنا كنا لنعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد مائة مرة: "رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب

---

(١) شرح مسلم ٢٤/١٧ .

(٢) أي: كلما ترقى في درجة عد ما قبلها سيئة، وهذا قول أبي سعيد الخراز كما رواه ابن عساكر في ترجمته، . انظر شرح المواهب اللدنية للزرقاني ٢٦١/٦ .

(٣) أخرجه مسلم في الذكر، باب استحباب الاستغفار برقم ٢٧١٢ .

(٤) أخرجه البخاري في الدعوات، باب استغفار النبي صلى الله عليه وسلم ٨٣/٨ .

(٥) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي، ولد في الاسلام، وكان أحد المكثرين من الصحابة رواية، وأحد العبادلة المشهورين، وكان من أشد الناس اتباعا للأثر، مات سنة ثلاث وسبعين. انظر الاصابة ٣٤٧/٢، والاستيعاب بهامشها ٣٤١/٢ .

الرحيم"(١) .

ووردت أحاديث كثيرةبهذا العدد: سبعين، ومائة، عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أكثرها صحاح أو حسان(٢) .

٥ - وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله، وأتوب إليه، قالت: فقلت: يا رسول الله أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده وأستغفر الله وأتوب إليه؟ فقال: خبَّرني ربي أني سأرى علامة من أمتي فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده وأستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتها ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فتح مكة، ﴿ ورأيت الناس ...﴾(٣) .

٦ - وكان دعاؤه إذا قَفلَ من غزو أو حج أو عمرة على كل شَرف(٤) من الأرض: "...آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون"(٥) .

٧ - وكان من دعائه أدبار الصلوات قوله: "رب تقبَّل توبتي، واغسل حَوبتي، وأجب دعوتي ..."(٦) .

---

(١) أخرجه أبو داود في الوتر، باب في الاستغفار برقم ١٥١٦، والترمذي في الدعوات، باب ما يقول إذا قام من مجلسه برقم ٣٤٣٤، وقال عنه: حسن صحيح غريب .

(٢) انظر: الدعاء للطبراني ٢/١٦١٢-١٦٢٣، باب عدد استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل يوم، من قال مائة مرة ..، وباب من قال سبعين مرة .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود برقم ٤٨٤ .

(٤) أي: ما علا وارتفع من الأرض .

(٥) أخرجه البخاري في العمرة، باب ما يقول إذا رجع من الحج أو العمرة أو الغزو ٣/٨، ومسلم في الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره برقم ١٣٤٢ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٦) حديث صحيح سبق ذكره وتخريجه في مبحث الشكر ص ١٨٥.

فهكذا كان صلى الله عليه وسلم يتوب إلى الله تعالى ويتضرع إليه في أن يتقبل توبته، وهذا يبين لنا حقيقة ما جاء من تسميته بـ"نبي التوبة" الوارد في قوله صلى الله عليه وسلم: "أنا محمد وأحمد والمقفّي(١) والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة"(٢) حيث كان صلى الله عليه وسلم على هذه الحال من التوبة، وهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ لقد تاب الله على النبيِّ والمهاجرين والأنصارِ الذين اتبعوه في ساعة العُسْرة ...﴾ [سورة التوبة:١١٧] .

وآذنه الله تعالى بغفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر حيث قال سبحانه: ﴿ إنَّا فتحنَا لك فتحاً مبيناً * لِيغفرَ لك الله ما تقدَّم من ذنبِك وما تأخر ويُتمَّ نعمتَه عليك ويهديَك صراطاً مستقيماً ﴾[سورة الفتح: ٢٧١] .

ومع ذلك فهو يتوب إلى الله تعالى بمثل تلك التوبة عدداً وتضرعاً .

حثه صلى الله عليه وسلم على التوبة :

وكما كان صلى الله عليه وسلم يبادر بالتوبة بنفسه على ذلك النحو، فقد كان يريد من أمته أن تكون كذلك لما يريده لهم من التزكية وكمال الأخلاق وعلو المنزلة عند الله تعالى، كما هي مهمته من بعثته إليهم التي دل عليها قول الله تعالى: ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتِنا ويُزكِّيكم ويعلِّمكم الكتابَ والحكمةَ ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾[سورة البقرة: ١٥١] .

لذلك فقد كان عليه الصلاة يحث أمته على التوبة إلى الله تعالى، وذلك بترغيبهم فيها بما لا يتسع المقام لبسطه وذكره، فنكتفي بذكر نماذج من ذلك :

---

(١) أي: الذي ليس بعده نبي كالعاقب، وقيل: المتبع آثار من قبله من الأنبياء (وكلا المعنيين صحيح)، انظر سبل الهدى والرشاد ٦٤٣/١ .

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل، باب في أسمائه صلى الله عليه وسلم برقم ٢٣٥٥ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

١ - "لله أفرحُ بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دويّة مهلِكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، فطلبها حتى إذا اشتد عله الحر والعطش أو ماشاء الله، قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه، فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده"(١) .

فتأمل ما يدل عليه هذا الحديث من الترغيب في التوبة، إذ يحمل على الإقدام عليها برغبة ورجاء عظيمين اتكالا على قبول الله تعالى للتائب وفرحه به .

ونحو هذا قوله صلى الله عليه وسلم :

٢ - "إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها"(٢) .

فإن هذا الحديث يدل على أن الله تعالى يتشوّف إلى توبة عبده، وهو في انتظارها منه ليلا ونهارا، وذلك لأجل أن يتوب عليه بالقبول والمغفرة والإثابة والمحبة .

كما أبان صلى الله عليه وسلم عن حقيقة اقتضتها الإرادة الإلهية لتتحقق في الخارج صفتا "العفوّ الغفور" لله عز وجل، وهذان الوصفان لا يظهر أثرهما إلا بعصيان العباد وتوبتهم، ومغفرة الله تعالى لهم، أبان عن ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم :

٣ - "والذي نفسي بيده لو لم تُذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يُذنبون فيَستغفرون الله فيغفرَ لهم"(٣) .

---

(١) متفق عليه تقدم ذكره وتخريجه ص ١٣٨ واللفظ هنا للبخاري

(٢) أخرجه مسلم في التوبة، باب قبول التوبة من الذنب وإن تكررت الذنوب والتوبة برقم ٢٧٥٩ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم في التوبة، باب سقوط الذنب بالاستغفار برقم ٢٧٤٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

٤ ـ وبقوله صلى الله عليه وسلم: "لو لا أنكم تذنبون لخلق الله خلقا يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم"(١)، وذلك ليبين للناس مدى محبة الله تعالى للتحلي بخلق التوبة إلى الله تعالى والاستغفار وطلب الاعتذار، وذلك ترغيب لهم في المبادرة إلى الله تعالى بالتوبة وصدق الرجاء فيه سبحانه وتعالى .

كما بين عليه الصلاة والسلام أن التوبة إلى الله تعالى تجعل المرء نقيا من الذنوب، وتعيد سالف عهده النقي من المعاصي، حيث تغسل توبته تلك صفحته السيئة كما يُغسل الثوب الأبيض من الدرن، وذلك بقوله صلى الله عليه وسلم :

٥ ـ التائب من الذنب كمن لا ذنب له"(٢) .

فشبه النبي صلى الله عليه وسلم التائب بالطاهر النقي من الذنوب، وذلك لأن التوبة قد محت سيئاته وذنوبه .

٦ ـ وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بالفعل في صور واقعية أوضح مدى محو التوبة للسيئات، فقال في قصة ماعز الأسلمي وتوبته من الزنا، وبعد إقامة الحد عليه، قال صلى الله عليه وسلم:"لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم"(٣) .

٧ ـ وقال في المرأة الغامدية التي تابت من الزنا، وأقام عليها الحد:"والذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مُكْس لغفر له"(٤)

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة، باب قبول التوبة من الذنب..، برقم ٢٧٤٨، والترمذي في الدعوات، باب فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله تعالى لعباده برقم ٣٥٣٩ من حديث أبي أيوب رضي الله عنه.

(٢) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٠٣/٨ إلى الطبراني من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ورجاله رجال الصحيح إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه، يعني فهو مرسل .

(٣) أخرجه مسلم في الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا برقم ١٦٩٥ من حديث بريدة رضي الله عنه .

(٤) أخرجه مسلم فيما سبق من الكتاب والباب والرقم من حديثه أيضا، والمكس: هو الجباية التي يأخذها أعوان الحكام الظالمين .

٨ ـ وقال في المرأة الجهنية التي تابت كذلك وأقام عليها الحد: "لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت ـ والخطاب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى"(١) .

٩ ـ وقص لأمته قصة الرجل الذي كان فيمن قبلنا، وكان قد قتل تسعة وتسعين نفسا، ثم تمم المائة بمن أفتاه بعدم قبول توبته لعظيم جريمته، ثم تاب توبة صادقة، فمات فغفر الله تعالى له بصدق توبته، وهي قصة طويلة مشهورة، متفق على صحتها(٢) .

إلى غير ذلك من الأحاديث التي نطق بها صلى الله عليه وسلم ليرغب أمته في الإقبال على الله تعالى بالتوبة النصوح، ومثل هذه الأحاديث تحمل العبد بلا ريب على التحلي بخلق التوبة والمبادرة بها على إثر كل ذنب يقع فيه ومعصية يلابسها، طمعا في عفو الله تعالى عنه ومغفرته له، التي قد علمها من مثل هذه الأحاديث .

١٠ ـ وقد كان مع ذلك يحثهم على المبادرة بها قبل فوات الأوان من الغرغرة أو طلوع الشمس من مغربها،حيث لا تنفع التوبة حينئذ؛ لأنها تكون حينئذ عن مشاهدة ومعاينة وهي إنما تنفع عندما تكون عن غيب، فكان صلى الله عليه وسلم يبين لأمته هذه الحقيقة حتى يبادروا بها قبل فوات الأوان فيقول:

"إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغرغر"(٣) .

---

(١) أخرجه مسلم فيما سبق من الكتاب والباب برقم ١٦٩٦ من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه .

(٢) أخرجها البخاري في الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ١١٢/٤ ، ومسلم في التوبة، باب قبول توبة القاتل برقم ٢٧٦٦ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب فضل التوبة والاستغفار برقم ٣٥٣٧ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، والحاكم في المستدرك ٢٥٧/٤، وابن ماجة برقم ٤٢٥٣، وقال عنه الترمذي: حسن غريب، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وانظر تخريجه في هامش جامع الأصول ٥١٣/٢ لعبد القادر الأرنؤوط .

١١ - ويقول أيضا: "من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه"(١) .
وكل هذه الأحاديث تدل على ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الشعور بالتوبة بحيث كان يفيض حديثنا عن هذا الخلق العظيم في كل جزئية من جزئيات دلالته .

وقد كان صلى الله عليه وسلم متحليا بكل ما كان يدعو أمته إليه بالضرورة؛ لأنه كان أسرع الناس مبادرة إلى ما يدعو إليه من خير كما تقدم ذكره وتقريره .

---

(٥) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار برقم ٢٧٠٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

البَابُ الثَّانِي

أخلاق القرآن التعبدية والتطبيقات النبوية لها

وفيه تمهيد وفصلان :

- التمهيد: في تعريف العبادة وبيان علاقتها بالأخلاق
- الفصلُ الأوَّل: في الفرائض .
- الفصلُ الثَّاني: في النَّوافل .

تمهيـــــد:

العبادة في اللغة: الانقياد والخضوع والطاعة(١)، والتذلل، يقال: طريق معبَّد: إذا كان مذللاً قد وطئته الأقدام .

وهي في لسان الشرع: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة(٢) .

ويقال في تعريفها أيضا: "هي الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض"(٣) .

ومن خلال هذين التعريفين ندرك شمول العبادة واتساع دائرتها لتشمل أفعال الإنسان وأقواله ونياته .

علاقة العبادة بالأخلاق :

كما ندرك ارتباطها الوثيق بالأخلاق التي هي أصل من أصول الشريعة الإسلامية كما قد علمنا، وذلك لما تعنيه من التذلل والخضوع لله تعالى، الذين يمثلان جوهر العبودية والأخلاق الزكية من العبد لمولاه، ولهذا كانت هذه العبادة عاملا مهما من عوامل تزكية الأخلاق، كما يدل على ذلك تعليل كثير من جزئياتها كالصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها بأمور أخلاقية تكون إحدى ثمار تلك العبادات .

وذلك لأن الله تعالى خلق الإنسان من قبضة الطين ثم نفخ فيه الروح، فاجتمعت فيه قوى وغرائز متعددة، منها ما هو روحي يدفعه إلى السمو والارتقاء، ومنها ما هو مادي يدفعه إلى الأرض والتراب والطين كالشهوة والغضب والطمع ونحوها .

وجاء الإسلام يزكي عوامل الخير في الإنسان، وينقيه من عوامل الشر، واتخذ لذلك

---

(١) القاموس المحيط ١/١١٣ .

(٢) العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٤، وانظر فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ص ٢٠٥-٢١٠ .

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ص ٤٩٨ .

وسائل متعددة اعتقادية وتعبدية، وقد علمنا ما تفعله الأخلاق الاعتقادية من تزكية في الأخلاق .

أما الأمور التعبدية فإنها تقهر الغرائز المادية الشهوانية والشيطانية، وتعزز الغرائز الروحية الملائكية في النفس البشرية فيصبح المرء ذا أخلاق عالية(١) .

وأهم تلك العبادات الصلاة والزكاة والصيام والحج فإنها ذات أثر عظيم في تزكية الأخلاق البشرية، فهي لتكررها وروحانيتها تجعل الإنسان مرتبطا على الدوام بفاطر تلك الأخلاق وواهبها، فتحول بينه وبين ما يبعده عن سَنن تلك الفطرة، وتلزمه الثبات عليها إن كان ممن حظي بنصيب من وهب إلهي منها، أما من لم يكن له حظ وهبي منها، فإن تلك المعتقدات وهذه العبادات تكسبه القدر الكافي من مكارم الأخلاق، وتجنبه مساوئها، وتلك المعتقدات هي تلك الأخلاق الإيمانية التي مضى الحديث عنها، والتي دعا الله عباده إليها أمرا وترغيبا وترهيبا كما علم مما تقدم ذكره .

وهذه العبادات إضافة إلى أنها مطلوبة لذاتها لمقتضى سر إيجاد العباد، فهي مطلوبة أيضا لأجل تقويم الأخلاق وتزكيتها، كما دلت على ذلك النصوص الشرعية التي تحدثت عنها، أمرا أوندبا أو ترغيبا من الكتاب والسنة، كما سيأتي ذلك في المباحث التعبدية الآتية :

---

(١) انظر التفسير الكبير للفخر الرازي ١٦٧/٥ .

الفَصْلُ الأَوَّلُ

(الفرائض)

وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : الصلاة .

المبحث الثاني : الزكاة .

المبحث الثالث : الصيام .

المبحث الرابع : الحج .

المبحث الأول : (الصلاة)

وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : تعريفها وبيان علاقتها بالأخلاق .

المطلب الثاني : الطهارة لها .

المطلب الثالث : إقامتها .

المطلب الرابع : الخشوع فيها .

المطلب الخامس : المحافظة عليها .

المطلب الأول

تعريف الصلاة وبيان علاقتها بالأخلاق

تعريف الصلاة:

الصلاة في اللغة: الدعاء(١)، وفي الشرع: هي أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم(٢) .

علاقة الصلاة بالأخلاق :

إن من أهم ما يزكي النفس ويهذب الأخلاق: الصلاة التي هي صلة بين العبد وربه، إذ تجعل العبد متصلا بقلبه وجوارحه با لله تعالى لا يكاد ينقضي وقت من أوقاتها حتى يأتي وقت آخر، فيعيده إلى تعلقه الروحي بربه ذي الجلال والكبرياء .

وطالما أن العبد بهذه المثابة من دوام التعلق با لله تعال، فإنه يصير سامي الأخلاق وعالي الهمة يبتعد عن الدنايا، وينأى عن الموبقات إجلالا لله وخوفا منه سبحانه، وبذلك يكون ذا خلق كريم ومكانة رفيعة، وهو ما يدل عليه قوله جل شأنه: ﴿ وأقم الصَّلاةَ إنَّ الصلاةَ تنهى عن الفحشاءِ والمنكر ﴾[سورة العنكبوت:٤٥]، حيث أفادت هذه الآية "أن الصلاة تنهى صاحبها وممتثلها عن الفحشاء والمنكر، وذلك لما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة والصلاة، وتشمل كل بدن المصلي فإذا دخل المصلي في محرابه وخشع وأخبت لربه وادَّكر أنه واقف بين يديه، وأنه مطلع عليه ويراه، صلحت لذلك نفسه وتذللت،وخامرها ارتقاب ا لله تعالى، وظهرت على جوارحه هيبتها، و لم يكد يفتر من ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حاله"(٣) .

وهكذا تكون صلاة المؤمن، فإنه إن فعلها على هذا الوجه أدت هذه الثمرة بلا ريب، وذلك ما هو ملموس ومعلوم .

---

(١) المصباح المنير للفيومي ٣٧١/١ .

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ص ٤٦١ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٤٨/١٣ .

فشعيب عليه الصلاة والسلام لما كان ينهى قومه عن منكرات الأخلاق التي كانوا عليها، أدرك قومه أن ماجاءهم به من ذلك، إنما هو بسبب صلاته التي كان يكثر منها فقالوا له: ﴿ يا شعيب أصلواتُك تأمرُك أن نترُكَ ما يعبد آباؤُنا أو أن نفعلَ في أموالنا ما نشاء ﴾[سورة هود:٨٧]، فأسندوا الأمر إلى الصلاة، لما للصلاة من تأثير على صاحبها في فعل المكارم واجتناب المساوىء، ولذلك يقول الله تعالى فيمن لم يقيموا الصلاة فلم يكن معهم بعد ذلك ما يزعهم عن الفحشاء:﴿ فخلَف من بعدهم خلْفٌ أضاعوا الصلاةَ واتَّبعوا الشهواتِ فسوف يلْقون غياً ﴾[سورة مريم:٥٩] .

وكذلك قال عن المجرمين الذين أدركوا في القيامة حقيقة ما كانوا عليه من الضلال في الدنيا حيث قال لهم أصحاب الجنة: ﴿ ما سلككُم في سقر ﴾ فأجابوا بقولهم: ﴿ لم نكُ من المُصلِّين * ولم نكُ نطعِمُ المسكين * وكنَّا نخوضُ مع الخائضين * وكنَّا نكذِّب بيوم الدِّين ﴾[سورة المدثر:٤٢-٤٦] .

فترى أن أول تحسرهم كان على ترك الصلاة، إذ لم يكونوا من أهلها، لم يتهيأ لهم التحلي بمكارم الأخلاق من كرم الإطعام، والبعد عن الخوض في الباطل، والاعتراف بالحق ... وفي مقابل هؤلاء الذين كانوا محافظين على الصلاة فإنهم تحلَّوا بمكارم الأخلاق من الكرم والاعتراف بالحق والعفة الكاملة والخوف من الله وإقامة العدل ...

إلى غير ذلك ، كما قال سبحانه: ﴿ إلاَّ المصلين الَّذين هم على صلاتِهم دائمون * والَّذين في أموالِهم حقٌ معلومٌ * للسائلِ والمحروم * والَّذين يُصدِّقون بيومِ الدِّين * والَّذين هم من عذابِ ربِّهم مشفِقون * إنَّ عذابَ ربِّهم غيرُ مأمون * والَّذين هم لِفروجهم حافِظون * إلَّا على أزواجِهم أو ما ملكت أيمانُهم فإنَّهم غيرُ مَلُومين * فمن ابْتَغى وراءَ ذلك فأولئك هم العادُون * والَّذين هم لأماناتِهم وعهدهم راعون * والذين هُم بشهاداتِهم قائمون * والَّذين هم على صلاتِهم يُحافظون * أولئك في جنَّاتٍ مكرَمون ﴾[سورة المعارج: ٢٢-٣٥] .

فإذا تأملت سر افتتاح هذه المكارم الأخلاقية بالصلاة، وختمها بها، لعلمت أن

الصلاة هي سر تلك الأخلاق الكريمة بدلالة فقدانها عند افتقاد الصلاة كما علمت من الموازنة السابقة، كما يشير إليها افتتاح هذا المقطع من الآيات، فإنه افتتح بذكر حكم عام على بني الإنسان هو ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً * إذا مسه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخير منوعاً * إلا المصلين ...﴾ فاستثنى من جنس الإنسان الذي حكم عليه بتلك الرذائل الخلقية: المصلين الذين دلتهم صلاتهم إلى الأخلاق الحميدة المذكورة بعدها . وكما دل عليه أيضا قوله تعالى: ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ [سورة المؤمنون١-١٠] .

فترى أن جميع هذه الآيات المنوهة بالمؤمنين وبأخلاقهم الفاضلة، تستفتح حديثها عنهم بذكر موقفهم من الصلاة، ثم تستطرد في ذكر مكارم أخلاقهم الأخرى، مما يدل على أن الصلاة هي معيار الأخلاق ومفتاحها، وأن من أقامها وحافظ عليها صار ذا خلق كريم، وذلك هو ما تشهد له الأحاديث والآثار الآتية :

١ ـ جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: إن فلانا يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق، فقال له: "ينهاه ما تقول"(١) يعني من الصلاة .

٢ ـ وفي رواية أن رجلا قال له: إن فلانا يصلي، فإذا أصبح سرق، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "سينهاه ما تقول"(٢) .

٣ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً"(٣) .

---

(١) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/٢٦١ إلى أحمد والبزار من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: ورجاله رجال الصحيح .

(٢) عزاه الهيثمي كذلك ٢/٢٦١ إلى البزار من حديث جابر رضي الله عنه قال: ورجاله ثقات .

(٣) عزاه الهيثمي أيضا ٢/٢٦١ إلى الطبراني في الكبير قال: وفيه ليث بن أبي سليم وهو ثقة لكنه مدلس، وذكر له شاهدا من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وعزاه للطبراني في الكبير قال: ورجاله رجال الصحيح .

٤ ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "لا صلاة لمن لم يطع الصلاة، وطاعة الصلاة أن تنهاه عن الفحشاء والمنكر"(١) .

فهذه الأحاديث والآثار واضحة الدلالة على ما تعمله الصلاة من تزكية الأخلاق، ولكن لا تكون الصلاة عاملة ذلك العمل، ومؤدية لتلك الثمرة إلا إذا أديت على النحو المطلوب شرعاً؛ من الطهارة لها، وإقامتها بأركانها وآدابها، والخشوع فيها، والمحافظة عليها، وعندها تكون كما أخبر الله تعالى ﴿ تنهى عن الفحشاءِ والمنكر ﴾[العنكبوت ٤٥]

ولهذا أولى القرآن الكريم هذه الأمور عنايته بها عند حديثه عن الصلاة، حيث لم يكتف بطلب أدائها، وإنما طلب إقامتها على وجهها الصحيح من الطهارة لها، والخشوع فيها والمحافظة عليها .

وحيث إن الصلاة التي تكسب صاحبها معالي الأخلاق تتوقف على هذه الأمور، وأن القرآن الكريم قد أولاها عنايته الخاصة لتكون صلاة ذات معنى وثمرة، فإني سأتناول بحثها من زاوية حديث القرآن عنها في المجال الأخلاقي من خلال هذه **المطالب** : الطهارة، الإقامة، الخشوع، المحافظة . وبالله التوفيق .

---

(١) عزاه في المجمع أيضا ٢/٢٦١ إلى الطبراني في الكبير قال: ورجاله رجال الصحيح .

وذكر ابن كثير في تفسيره هذين الأثرين وغيرهما، وذكر الاختلاف في رفعهما ووقفهما، ثم قال: والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة والأعمش وغيرهم ا.هـ. تفسير القرآن العظيم ٣/٤١٥ ، وذكره نحوه الشوكاني في فتح القدير ٤/٢٠٦ .

المطلَبُ الثَّاني

(الطَّهارة)

الطهارة في اللغة تعني : النظافة من الأقذار حسية كانت أو معنوية(١) .

قال ابن فارس: "الطاء والهاء والراء، أصل واحد يدل على نقاء وزوال دنس..، والتطهر: التنزه عن الذم وكل قبيح"(٢) .

أما في اصطلاح الفقهاء فهي تعني : رفع المنع المترتب على الحدث أو النجس، ويقال أيضا: هي رفع حدث أو إزالة نجس أو ما في معناهما.(٣) .

قال الراغب: "وهي ضربان: طهارة جسم، وطهارة نفس، قال: وحمل عليهما عامة الآيات"(٤).أي: فتارة تتحدث عن طهارة الجسم كقوله تعالى: ﴿ وإن كنتم جُنُباً فاطَّهَّروا ﴾[سورة المائدة:٦]، وقوله تعالى: ﴿ ولا تقربُوهُنَّ حتى يَطهُرن فإذا تطهَّرن فأتُوهنَّ من حيثُ أمركم الله ﴾[سورة البقرة:٢٢٢] .

وتارة عن طهارة النفس كقوله تعالى: ﴿ إنَّما يريدُ الله ليُذهِبَ عنكم الرِّجسَ أهلَ البيتِ ويطهِّركم تطهيراً ﴾[سورة الأحزاب:٣٣]، وقوله جل شأنه: ﴿ خذ مِن أموالِهم صدقةً تطهِّرهم وتزكِّيهم بها ﴾[سورة التوبة:١٠٣]، وقوله أيضا: ﴿ أولئِكَ الَّذين لم يردِ الله أن يطهِّرَ قلوبَهم ﴾[سورة المائدة:٤١] . إلى غير ذلك من الآيات التي تتحدث عن الضربين، ولكن حديثها عن الضرب الثاني أكثر؛ وذلك لعناية الإسلام الكبيرة بتطهير النفس البشرية من رعونتها المنافية للأخلاق الإسلامية، فقد تحدث عن هذا الضرب نحو من عشرين آية، بينما تحدث عن الضرب الأول نحو عشر آيات(٥)، وذلك من مادة (طهر)، أما ما يدل عليها من غير هذه المادة فكثير .

---

(١) انظر: تاج العروس للزبيدي٢/٣٩٢، والتعريفات للجرجاني ص ١٤٢ .

(٢) معجم مقاييس اللغة ٣/٤٢٨ .

(٣) المجموع ١/٧٩، وحاشية إعانة الطالبين ١/٢٧ .

(٤) المفردات ص ٣٠٧ مادة (طهر) .

(٥) انظر المعجم المفهرس ص ٤٢٨ .

ولست في صدد الحديث عن طهارة النفس فللحديث عن ذلك مجال آخر في هذه الرسالة(١)، وإنما الحديث هنا عن حديث القرآن عن الطهارة التي تشترط لصحة الصلاة، وهي الطهارة الحسية؛ لأن هذا هو الذي يعنينا في مجال أخلاقيات الصلاة، لذلك سنقتصر على هذا الجانب دون سواه فأقول وبا لله التوفيق :

قد علمنا أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولكن ما هي الصلاة التي تفعل ذلك ؟

والجواب: هو أن علينا أن نعود إلى الكتاب والسنة لنعرف الصلاة التي يكون لها هذا الأثر، وعند الرجوع إلى القرآن الكريم للتعرف على ذلك نجد أنه قد أتى ببعض أمور الصلاة ، وترك بيان الباقي لمبيِّنه وهو النبي صلى ا لله عليه وسلم .

وكان مما بينه شرطها الأول وهو : الطهارة .

حيث ركَّز القرآن الكريم في أمر الصلاة على هذا الشرط فبينه غاية البيان فقال تعالى مبينا ذلك : ﴿ يأيُّها الَّذين آمنوا إذا قُمتُم إلى الصَّلاة فاغسِلوا وجوهَكم وأيدَيكم إلى المرافقِ وامسحو برؤسِكم وأرجلَكم إلى الكعبين وإن كنتم جُنُباً فاطَّهروا وإن كنتُم مرضَى أو على سفرٍ أو جاء أحدٌ منكم من الغائطِ أو لامستم النِّساءَ فلم تجدوا ماءً فتيمَّمُوا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه، ما يُريد ا للهُ ليجعلَ عليكم من حرجٍ ولكن يُريدُ ليطهِّرَكم وليتمَّ نعمتَه عليكم لعلكم تشكرون ﴾[سورة المآئدة:٦] .

فهذه الآية الكريمة، قد بينت الطهارة للصلاة بيانا شافيا،حيث فصَّلت أركان الوضوء وأعضاءه ، وما يجب فعله من غسل أو مسح ، وما يلزم فعله إذا كان الحدث كبيرا، وما ينوب عن الماء عند فقده أوتعذر استعماله، وذلك هو التيمم، كما بينت أعضاء التيمم وكيفيته، كل ذلك في هذه الآية الواحدة الجامعة الكريمة .

وما ذلك إلا لأهمية الطهارة وتوقف الصلاة عليها؛ إذ هي مفتاح الصلاة كما قال النبي صلى ا لله عليه وسلم: "مفتاح الصلاة الطَّهور، وتحريمها التكبير وتحليلها

---

(١) وهو ما عني به الباب الأول والثالث على وجه الخصوص .

التسليم"(١) . والمعنى أن الصلاة كالبيت المقفل لايستطاع دخوله إلا بمفتاح فمن جاء بالمفتاح دخله وإلا فهو مصدود عنه(٢) .

سر عناية القرآن الكريم بالطهارة :

ولعل السر في هذه العناية هو أن الصلاة وقوف بين يدي الملك الجليل، ومناجاة له وذلك يستدعي تهيؤا روحيا بإنعاش البدن، وإحيائه قبل الوقوف بين يديه تبارك وتعالى، ويحصل ذلك بغسل هذه الأطراف التي غالبا ما يكون عصيانه تبارك وتعالى عن طريقها، وبذلك تكون قد تلبدت بران الذنوب التي يعظم مواجهة الله عز وجل بها، فيفتر الروح عن هذه المواجهة، فكان لا بد من إنعاشه بالمآء الذي جعل الله فيه خاصية الحياة والإنعاش، وإزالة أو تخفيف الذنوب التي اقترفتها هذه الجوارح بذلك الوضوء الذي جعله الله مكفرا لها(٣) .

---

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة، باب فرض الوضوء من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه برقم ٦١، والترمذي في الطهارة، باب ما جاء أن مفتاح الصلاة الطهور برقم ٣، وإسناده صحيح، وقال عنه الترمذي: هذا الحديث أصح شيء في هذا الباب، وصححه الألباني في الإرواء ٩/٢ برقم ٣٠١، وانظر التلخيص الحبير ٢١٦/١ .

(٢) انظر: عون المعبود، مع تهذيب ابن القيم ٨٩/١ .

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة، باب خروج الخطايا مع الوضوء برقم ٢٤٥، من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره". وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط" أخرجه مسلم في الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء برقم ٢٥١، ومالك في الموطأ ١٧٦/١، والترمذي في الطهارة ٧٢/١ رقم ٥١ .

فبذلك يتهيأ لمناجاة الملك الجليل وتؤتى هذه المناجاة ثمرتها.

ولعل هذا هو ما أشارت إليه الآية الكريمة حين قالت: ﴿ ما يريدُ الله ليجعلَ عليكم من حرجٍ ولكن يريدُ ليطهرَّكم وليتمَّ نعمتَه عليكم لعلَّكم تشكرون ﴾[سورة المآئدة:٦] .

قال العلامة الألوسي(١) : "ولكن يريد ليطهركم : أي لينظفكم فالطهارة لغوية، أوليذهب عنكم دنس الذنوب فإن الوضوء يكفر الله تعالى به الخطايا ...، وذكر حديث أبي هريرة المتقدم آنفا، ثم قال: فالطهارة ـ التي دل عليها الحديث ـ معنوية، بمعنى تكفير الذنوب لا بمعنى ازالة النجاسة، لأن الحدث ليس نجاسة بلا خلاف"(٢) .

قلت: وقد ذكرت في التعليق الأحاديث التي تدل على محو الوضوء للسيئات، ومنها تعلم مبلغ ما يفعله الوضوء من تطهير النفس من الذنوب التي هي الحجاب الأعظم بين العبد وربه،ولا غرابة في أن يفعل الوضوء ذلك فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن "الطهور شطر الإيمان"(٣) ، ومعنى ذلك: أن الإيمان يجُبُّ ما قبله من الخطايا، وكذلك الوضوء، لأن الوضوء لا يصح إلا مع الإيمان فصار في توقفه على الإيمان في معنى الشطر(٤) .

والطهارة كما تعني رفع الحدث، فهي تعني كذلك : إزالة النجاسة من على البدن والثوب والمكان، إذ لا يصدق على المرء أنه تطهر وهو ملطَّخ بالنجاسة، فإن طلب الشارع إزالة النجاسة أكيد في سائر الأحوال سواء كان داخلا في الصلاة أو غير ذلك، ولكن طلبه لها في حال الصلاة أشد، إذ من الأدب أن لا يقف المرء بين يدي من لا تخفى

---

(١) هو أبو الفضل السيد محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، المفسر، خاتمة المحققين توفي سنة ١٢٧٠هـ. انظر التفسير والمفسرون للذهبي ٣٥٢/١ والأعلام ١٧٦/٧ .

(٢) روح المعاني ٨١/٦/٢ .

(٣) رواه مسلم في الطهارة، باب فضل الوضوء برقم ٢٢٣، والترمذي في الدعوات رقم ٣٥١٢، باب رقم ٩١، والنسائي في الزكاة، باب وجوب الزكاة ٦،٥/٥ .

(٤) هذا أحد الأقوال في معنى الحديث، وفي معناه أقوال أخرى، انظر: شرح النووي على مسلم ١٠٠/٣

عليه خافية وهو ملطخ بالأقذار فإن ذلك يستوجب مقته وغضبه.

ألا ترى كيف بلغت منزلة الأنصار حينما بالغوا في التطهر فكانوا إذا استجمروا بالأحجار أتبعوا ذلك بالماء فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ فيه رجالٌ يُحبّونَ أن يتَطهّروا والله يُحبُّ المطَّهِّرين ﴾[سورة التوبة:١٠٨](١) .

وقد ورد وعيد شديد في عدم التنزه من البول، فقد مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبرين فقال: "أما أنهما يعذبان، وما يعذبان في كبير" ثم قال: "بلى، أما أحدهما: فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر: فكان لا يستتر(٢) من بوله، فدعا بعَسِيب(٣) رَطْب فشقه باثنين ثم غرس على هذا واحدا، وعلى هذا واحدا، ثم قال: "لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا"(٤) .

ولما كان للطهارة ذلك الأثر العظيم آذن الله المحافظين عليها بمحبته في موضعين من كتابه الكريم: الأول في سورة البقرة حيث قال جل شأنه:﴿ إنَّ الله يُحبُّ التَّوَّابين ويُحبُّ

---

(١) كما جاء من حديث أبي هريرة عند أبي داود في الطهارة رقم ٤٤، والترمذي في التفسير برقم ٣١٠٠، قال: نزلت هذه الآية في أهل قبا﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ قال: كانوا يستنجون بالماء، فنزلت هذه الآية فيهم .

والحديث صحيح بشواهده الكثيرة، كما بين ذلك الألباني في إرواء الغليل ١/٨٤-٨٥ برقم ٤٥ .

(٢) أي: لا يجعل بينه وبين البول سترة تحفظه من أن يرجع البول عليه .

(٣) العسيب: واحد العسب، وهو سعف النخل، تفسير غريب الحديث للحافظ ابن حجر ص ١٦٦ .

(٤) أخرجه البخاري في الوضوء، باب من الكبائر أن لايستتر من بوله ١/٦٢، وباب ما جاء في غسل البول، وفي الجنائز، باب الجريدة على القبر، وباب عذاب القبر من الغيبة والبول، وفي الأدب باب الغيبة والنميمة من الكبائر .

ومسلم في الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه برقم ٢٩٢ واللفظ له .

المتطهرين ﴾[آية:٢٢٢] ، والآخر في سورة التوبة حيث قال عز وجل: ﴿ والله يحب المطَّهِّرين ﴾[آية: ١٠٨] . أي المبالغين في الطهارة الظاهرة والباطنة(١) .

وكفى بذلك تنويها بزكآء أنفسهم حيث آذنهم الله بمحبته التي تعني غاية التكريم لهم، منه تعالى كما تقدم بيانه في مبحث المحبة(٢) .

---

(١) محاسن التأويل ٣٢٢/٨ .

(٢) ص ١٩٣

المَـطْـلَـبُ الثَّـالِـث

(إقامة الصَّلاة)

وإذا ما تطهر المسلم على النحو الذي ذكر، فإنه قد تهيأ لأداء الصلاة التي تعبده الله بها، ولكن ما هو الأداء الذي ينبغي أن يؤديها عليه ؟ هل يكفي فيها مطلق القراءة والركوع والسجود ؟ .

الجواب : لا،ليس ذلك فقط هو الأداء المطلوب .

لأن الله تعالى الذي افترض علينا الصلاة قد بين لنا كيفية أدائها فليس لأحد أن يؤديها على خلاف ذلك البيان، فإنها لا تكون حينئذ صلاة شرعية أو ذات ثمرة، ولمعرفة ذلك البيان نرجع إلى القرآن الكريم لنعلمه،وسنجد أنه قد أمر بها في آيات كثيرة، وأثنى على المؤدين لها بآيات كثيرة أيضا، و كان ذلك غالبا بمادة "أقام" وما تفرع منها، وذلك لتعطي هذه المادة معنى خاصا قد لا يدل عليه غيره،وهو ما بينه ابن جرير الطبري(١) رحمه الله تعالى بقوله: "إن إقامتها تعني أداءها بحدودها ، وفروضها، والواجب فيه، على ما فرضت عليه"(٢) .

وقال غيره : إن معنى إقامتها يحتمل ثلاثة أقوال :

أحدها: أنه تمام فعلها على الوجه المأمور به .

والثاني: أنه المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها .

الثالث: إدامتها، والعرب تقول في الشيء الراتب: قائم، وفلان يقيم أرزاق الجند(٣) .

---

(١) هو الإمام أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري، رأس المفسرين على الإطلاق، جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره كما قال السيوطي في طبقات المفسرين ص ٨٢ برقم ٩٣، وذكر له ترجمة موجزة نفيسة، ولد سنة ٢٢٤، وتوفي سنة ٣١٠هـ، له ترجمة في غالب كتب التراجم، انظر هامش الطبقات المذكورة، ومعجم طبقات الحفاظ لعبد العزيز السيرواني ص ٦٥٣ .

(٢) جامع البيا ن ١٠٤/١ .

(٣) انظر زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٢٥/١ .

وهذه المعاني الثلاثة مأثورة عن السلف أهل التأويل، كما هو مبين في المرجع المشار إليه، وكلها صحيحة يكمل بعضها بعضا .

فإقامة الصلاة تعني إذا: (تأديتها بحدودها وفروضها الظاهرة والباطنة،مع المحافظة على مواقيتها وشروطها وفروضها والمداومة عليها)(١) .

قال الراغب: "لم يأمر تعالى بالصلاة حيثما أمر، ولا مدح به حيثما مدح إلا بلفظ الإقامة،تنبيها إلى أن المقصود منها توفية شرائطها، لا الإتيان بهيئاتها"(٢) .

وقال الحكيم الترمذي(٣): "فلم نجد ذكر الصلاة في موضع من التنزيل إلا مع ذكر إقامتها ، قال: فلما بلغ ذكر المنافقين قال: ﴿ فويلٌ للمصلين ﴾ فسماهم«المصلين» وسمى المؤمنين«المقيمين الصلاة» وذلك ليعلم أن المصلين كثير، والمقيمين قليل، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الحاج قليل والركب كثير"(٤) .

وقال ابن القيم فيمن لا يقيم الصلاة على وجهها: "هذا تعطيل للصلاة وخداع من الشيطان، وخلاف لأمر الله ورسوله حيث قال تعالى: ﴿ أقيموا الصلاة ﴾ فأمرنا بإقامتها وهو الإتيان بها قائمة تامة القيام والركوع والسجود والأذكار، قال: وقد علق

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي ٣٥/٢ بتصرف .

(٢) المفردات ص ٤١٨، مادة (قوم) .

(٣) هو محمد بن علي بن الحسن بن بشر أبو عبد الله الملقب بالحكيم الترمذي، وصفه الذهبي بأنه حافظ صاحب تصانيف ا.هـ، من تصانيفه "نوادر الأصول في أحاديث الرسول" ط واضطرب المؤرخون في تاريخ وفاته، والأرجح أنها سنة ٣٢٠هـ، كما رجح ذلك الزركلي في الأعلام ٢٧٢/٦، وانظر تذكرة الحفاظ للذهبي ٦٤٥/٢ .

(٤) الصلاة ومقاصدها ص٧، وما قاله الإمامان الراغب والحكيم الترمذي، هو الأغلب، ولكن قد ورد الأمر بالصلاة بغير لفظ الإقامة كما في قوله تعالى: ﴿ وأمر أهلك بالصلاة ﴾، وقوله: ﴿ وطهر بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾، وقوله: ﴿ يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ إلى غير ذلك، وهذا لبيان الحقيقة، وإلا فما قالاه في معنى الإقامة صحيح، والله أعلم .

الله سبحانه الفلاح بخشوع المصلي في صلاته، فمن فاته خشوع الصلاة لم يكن من أهل الفلاح ..."(١) .

فعلمنا من ذلك كله أن الصلاة التي تؤتي ثمارها من الأجر وتزكية النفس وعلو الأخلاق،هي الصلاة المؤداة على النحو الذي أمر الله بها، إذ لا تسمى صلاة شرعية ذات ثمرة إلا إذا كانت كذلك، وعلمنا أيضا أن الإطلاق في قوله تعالى: ﴿ إنَّ الصلاةَ تنهى عن الفحشاءِ..﴾ مقيد بالآيات الأخرى التي منها صدر تلك الآية إذ فيها ﴿ وأقم الصَّلاة..﴾، بل إنه لا إطلاق فيها أصلا، إذ أن الصلاة الثانية هي عين الصلاة الأولى المقيدة بالإقامة،كما هي القاعدة في تكرار المعرفة، فالألف واللام للعهد الذكري، والله أعلم .

---

(١) الصلاة وحكم تاركها لابن القيم ص ٤٩ .

المَطلبُ الرَّابعُ

(الخشوع فيها)

الخشوع في اللغة يعني: الخضوع والذل والسكون، ومنه قوله تعالى: ﴿ وخَشعتِ الأصواتُ للرَّحمٰن فلا تسمع إلا هَمساً ﴾[سورة طه:١٠٨] أي: سكنت وذلت وخضعت(١)، قال ابن رجب(٢): "أصل الخشوع هو لين القلب ورقته، وسكونه وخضوعه وانكساره وخُرقته" قال: "فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء؛ لأنها تابعة له"(٣) .

وبهذا يكون ابن رجب رحمه الله قد جمع بين التعريفين اللغوي والاصطلاحي للخشوع؛ لأن تعريف الخشوع في الاصطلاح هو "هيئة في النفس، يظهر منها على الجوارح سكون وتواضع لله تعالى"(٤) ، وهذا معنى ما ذكره ابن رجب بقوله: "فإذا خشع القلب ..الخ، وهو المعنى الذي توحي به الدلالة اللغوية لهذه المادة كما علمت .

مكانة هذا الخلق بعامة :

ومن خلال هذا التعريف تعلم مدى مكانة هذا الخلق في الإسلام لما يعنيه من كمال العبودية لله تعالى، والشعور بالذل له والافتقار إليه دائما، ولذا نجد الثناء على أهله في

---

(١) القاموس المحيط بشرحه تاج العروس ٣١٨/٥، وانظر مدارج السالكين ٥٢٠/١، والتوقيف للمناوي ص ٣١٤ .

(٢) هو الإمام الحافظ المحدث الفقيه الواعظ زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السلامي البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي ولد سنة ٧٣٦ وتوفي سنة ٧٩٥هـ، وله عدة مؤلفات منها: "شرح علل الترمذي"، له ترجمة في طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٥٤٠ برقم ١١٧٠، وأنباء الغمر للحافظ ابن حجر ٤٠٥/١، وشذرات الذهب لابن العماد ٣٢٣/٦ وغيرها .

(٣) الخشوع في الصلاة ص ١١ .

(٤) جامع أحكام القرآن للقرطبي ٣٧٤/١، ومفردات القرآن للراغب ص ١٤٨،، والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ص ٣١٤ .

القرآن الكريم عظيما ، وما ذلك إلا لعظمة مكانة هذا الخلق في الإسلام، وذلك كما في قوله جل شأنه: ﴿ إنَّ المسلمينَ والمسلماتِ والمؤمنينَ والمؤمناتِ والقانتينَ والقانتاتِ والصَّادقينَ والصادقاتِ والصَّابرينَ والصابراتِ والخاشعينَ والخاشعاتِ والمتصَدِّقينَ والمتصدِّقاتِ والصَّائمينَ والصَّائماتِ والحافظينَ فُروجَهم والحافظاتِ والذَّاكرينَ الله كثيراً والذَّاكراتِ أعدَّ الله لهم مغفرةً وأجراً عظيماً ﴾[سورة الأحزاب:٣٥] .

فقد عد خلق الخشوع في الرجل والمرأة من الأخلاق الإسلامية التي رتب الله تعالى عليها مغفرته وأجره العظيم، وقرنها في سلك واحد مع خصال الخير الأُخرى .

وكما في قوله تعالى : ﴿ واستَعينوا بالصَّبر والصلاةِ وإنَّها لكبيرةٌ إلاَّ على الخاشعين ﴾ [سورة البقرة:٤٥]، فدلت الآية على أن الخاشعين هم الذين تهون عندهم تكاليف الدين مهما عظمت، وذلك لامتلاء نفوسهم بالخشوع لله تعالى .

ومعنى الآية كما ذكر المفسرون: "أن الصلاة شاقة وثقيلة، لما فيها من سجن النفس عن جميع الشهوات، فمكابدتُها تعد أشد المكابدات، لكن من كان من أهل الخشوع فإنها تهون عليه؛ لأن نفوسهم مرتاضة بأمثالها، متوقعة في مقابلتها ما يستحقر لأجله مشاقُّها وتستلذ بسببه متاعبها"(١) .

وكما في قوله تعالى: ﴿ قد أفلح المؤمنون * الَّذين هم في صلاتِهم خاشعونَ ﴾[سورة المؤمنون:١،٢] .

فوصف المؤمنين الذين قضى لهم بالفلاح وهو الفوز بخيري الدنيا والآخرة بعدة صفات، جعل صفة الخشوع أول صفاتهم؛ لأن ذلك من أبرز صفات الإيمان .

إلى غير ذلك من الآيات التي تنوه بمن كان هذا الخلق من أبرز أخلاقهم(٢) .

ولقد عتب الله تعالى عل من ادعى الإيمان ثم لم يكن هذا الخلق من أبرز أخلاقه، وذلك كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ألم يأنِ لِلَّذينَ آمنُوا أن تخشعَ قلوبُهم لذكرِ اللهِ

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٣٧٣/١، وتفسير البيضاوي ص ٩، وتفسير الألوسي ٢٤٩/١ .

(٢) كما في آيتي الإسراء ١٠٧،١٠٨، وآية الأنبياء ٩٠ .

وما نَزل من الحق ﴾[سورة الحديد:١٦] .

فترى أن الله تعالى قد عتب على من وصفهم بالإيمان لعدم خشوعهم عند ذكره أو سماع آياته، وفي هذا الأسلوب من العتاب ما تنخلع منه أفئدة أولي الألباب .

حتى قال الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى: "قد سمع كثير من الصالحين هذه الآية تتلى فأثرت فيهم آثارا متعددة، فمنهم من تاب عند ذلك لانصداع قلبه بها، ومنهم من تاب عند ذلك وخرج عما كان فيه"(١) .

وما ذلك التنويه العظيم بأهله، والعتاب الشديد على تركه إلا لعظمة مكانته عند الله تعالى، ولذلك أعد لأهله (مغفرة وأجرا عظيما) لا يقدر قدره ولا يدرك كنهه كما يدل على ذلك تنكيره ووصفه بالعظمة، وجعلهم ورثة الفردوس وهو أعلى الجنان، كما قال عقب سرد أولئك الورثة بصفاتهم وأخلاقهم في سورة المؤمنون: ﴿ أولئِكَ هم الوارثِون * الَّذين يرِثون الفردوسَ هم فيها خالِدون ﴾[١٠،١١]، وما رشَّحهم لتلك المكانة العالية إلا عظمة تلك الأخلاق التي تحلَّوا بها والتي كان في مقدمتها الخشوع .

الخشوع في الصلاة :

ولما كان هذا الخلق بتلك المكانة كان طلب الصلاة له طلبا حثيثا بحيث عد "روح الصلاة ومقصودها ولُبُّها"(٢)، وغدت كل صلاة تخلو من الخشوع، صلاة لا روح فيها.

وذلك لأن الصلاة هي روح العبادات كلها التي تعني الذل والخضوع كما تقدم، فكان لا بد وأن تظهر فيها معالم العبودية من الذل والخضوع لله، وذلك هو ما يعنيه الخشوع في جوهر مدلوله .

ولهذا لما أثنى الله تعالى على المصلين، إنما أثنى عليهم لتحليهم في صلاتهم بالخشوع

---

(١) الخشوع في الصلاة ص ١٧- ١٨ .

(٢) مدارج السالكين ١/٥٢٦ .

كما علمت من آيتي سورتي البقرة والمؤمنون السابق ذكرهما، اللتين قال الله تعالى فيهما: ﴿ وإنَّها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين ﴾ وقال: ﴿ قد أفلح المؤمنونَ * الَّذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ .

وفي هذه الآية وصف الفائزين بالفلاح بصفات، كان في مقدمتها الخشوع في الصلاة، فدل على أن من لم يخشع في صلاته أنه ليس من أهل الفلاح، إذ لو اعتد له بها ثوابا لكان من المفلحين(١) .

ومعنى ذلك أن الصلاة التي تخلو من الخشوع ليست هي الصلاة التي أرادها الله تعالى؛ لأن الله تعالى قد رتب على الصلاة ما تقدم ذكره، وفي هذه الآيات أشار إلى عدم حصول ذلك لمن لا يخشع في صلاته، فذلك دليل على أن صلاة الغافل ليست هي الصلاة المطلوبة شرعا .

وقد عضد هذه الدلالة، ذم الله تعالى للساهين عن صلاتهم حيث قال: ﴿ فويلٌ للمصلين * الَّذين هم عن صلاتِهم ساهون ﴾[سورة الماعون:٤،٥]، حيث يشمل هذا الذم من تركها بالكلية، ومن أخرها عن وقتها المقدر لها شرعا، أو وقتها الأول، ومن أخل بأدائها وأركانها وشروطها، ومن لم يخشع فيها، ولم يتدبر معانيها وما يتلوه فيها، فاللفظ يشمل ذلك كله، ولكل من اتصف بشيء من ذلك قسط من هذا الوعيد والذم" كما ذكر ذلك الحافظ ابن كثير في تفسيره(٢) .

كما أن الله حينما أمر بالصلاة وأثنى على أهلها، إنما كان على إقامتهم لها .

وقد مر معنا ما تدل عليه لفظ (الإقامة) من أنها تعني تأديتها بحدودها الظاهرة والباطنة، ومن لب حدودها الباطنة: الخشوعُ الذي يكون في القلب وتعبر عنه الجوارح فهو إذا مطلوب طلبا حثيثا في الصلاة .

---

(١) انظر المرجع السابق .

(٢) ٤/٥٥٤، وانظر مدارج السالكين ١/٥٢٧ .

ولذلك ذهب بعض أهل العلم إلى عدم الاعتداد بصلاة من لم يكن خاشعا فيها .

وسواء كان هذا الرأي مرجوحا أو راجحا، فإن ذلك يدل على الأهمية البالغة للخشوع في الصلاة، ولا بدع فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "رُبَّ صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، ورب قائم حظه من قيامه السهر"(١) .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الصيام، باب ما جاء في الغيبة والرفث للصائم، من حديث أبي هريرة برقم ١٦٩، وأحمد في المسند ٣٧٣/٢، والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف ٣٠٠/١٠، رقم ١٤٣٠٢ .

وقال البوصيري في مصباح الزجاجة ٣٠١/١: إسناده صحيح، رجاله ثقات، اهـ برقم ٦١٩ .

وحسّن العراقي في تخريج الإحياء ١٥٠/١ إسناد أحمد .

المَطْلَبُ الخامسُ

(المحافظة عليها)

ثم إن الصلوات الخمس في العمر كله تعد وُحدة كاملة،لا يصح شرعا أن يؤخذ بعضها ويترك بعضها الآخر، أو يصلي في وقت دون آخر، بل إن الإسلام كله كذلك، دينا كاملا لا يقبل التبعيض أو التفريط كما قال تعالى: ﴿ اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نِعمتي ورضيتُ لكم الإسلامَ دينا ﴾[سورة المائدة:٣]، وكما قال ناعيا على اليهود الذين يأخذون بعض جزئيات الدين دون البعض الآخر: ﴿ أفتُؤمنونَ ببعضِ الكتاب وَتكفرونَ بِبعضٍ فما جزاءُ من يَفعلُ ذلك مِنكمْ إلا خِزيٌ في الحياةِ الدُّنيا ويوم القيامة يُردُّون إلى أشدِّ العذابِ وما اللهُ بغافلٍ عمَّا تعملون ﴾[سورة البقرة:٨٥]، والآية وإن كانت في صدد الحديث عن اليهود، فإنها تعم المؤمنين إذا شابهوهم فيما عوتبوا فيه كما لا يخفى .

والصلاة ركن من أركان هذا الدين، ولا يؤدِّي الركن عمله وينتج أثره إلا إذا كان كاملا غير منقوص، ويشهد لذلك ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه ذكر الصلاة يوما فقال: "من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها، لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة، وكا يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف"(١) .

لذلك نجد القرآن الكريم أمر بالمحافظة على الصلوات وأثنى على المحافظين عليها، أما من لم يحافظ عليها فقد ذكرهم في معرض الذم، وبين ما أعد الله لهم من مصير .

الأمر بالمحافظة على الصلاة :

فقال آمرا بالمحافظة عليها: ﴿ حافظوا على الصَّلواتِ والصَّلاةِ الوسطى وقوموا لله

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٦٩/٢، والطبراني في الأوسط ٤٥٦/٢ رقم ١٧٨٨ ، وابن حبان ١٤/٣ الإحسان، قال الهيثمي في المجمع ٢٩٧/١: رجاله ثقات. وفي الزواجر لابن حجر الهيتمي ١٢٣/١: إسناد أحمد جيد .

قانتين ﴾[سورة البقرة:٢٣٨]، والمعنى: "داوموا على أدائها لأوقاتها مع رعاية فرائضها وسننها من غير إخلال بشيء منها"(١) وهذا أمر يقتضي الوجوب، فمن فرط فيه فقد فرط في ترك واجب .

وذكر الفخر الرازي عِلَّة هذا الأمر في وجوه ثلاثة منها الوجهان الآتيان :

"أحدهما: أن الصلاة لما فيها من القراءة والقيام والركوع والسجود والخضوع والخشوع، تفيد انكسار القلب من هيبة الله، وزوال التمرد عن الطبع، وحصول الانقياد لأوامر الله تعالى، والانتهاء عن مناهيه كما قال: ﴿ إنَّ الصلاةَ تَنهى عن الفحشاءِ والمنكر ﴾[سورة العنكبوت:٤٥] .

ثانيهما: أن الصلاة تذكِّر العبد جلالة الربوبية وذلة العبودية وأمر الثواب والعقاب، فعند ذلك يسهل عليه الانقياد للطاعة، ولذلك قال: ﴿ واستَعينوا بالصَّبر والصلاة ﴾(٢) [سورة البقرة:٤٥] .

وكأنه رحمه الله يريد أن يفسر سر تكرار الصلاة في اليوم والليلة خمس مرات، وهما وجهان جليلان كما لا يخفى .

الثناء على المحافظين على الصلاة :

وفي هذا الأمر بالمحافظة على الصلوات كفاية للامتثال والمبادرة من المؤمنين، لكن الله تعالى وهو الودود الرحيم لم يغفل ذكر المبادرين إلى تأديتها من الثناء العطر إشادة بهم وتحفيزا لهمم المتقاعسين من غيرهم، فقال جل شأنه في ذلك: ﴿ وهذا كتابٌ أنزلناه مباركٌ مصدِّقُ الذّي بينَ يَديه ولتنذرَ أمَّ القرى ومن حولها والذين يُؤمنون بالآخِرةِ يُؤمنون به وهم على صلاتِهم يحافظون ﴾[سورة الأنعام:٩٢].

فترى أن الله عز وجل قد خص من بين خصال الإيمان وشعبه الكثيرة ذكر الإيمان

---

(١) محاسن التأويل ٢٨٢/٣ .

(٢) التفسير الكبير ١٤٥/٦ .

بكتابه، والمحافظة على الصلاة للدلالة على أهمية هذين الوصفين في مسمى الإيمان، إذ عدم الإيمان بالقرآن مخرج للمرء من ربقة الإيمان، وعدم المحافظة على الصلاة تفريط بعماد الدين، وذلك كفر عند كثير من العلماء كما ستأتي الإشارة إليه .

قال الفخر الرازي رحمه الله: "وليس لقائل أن يقول: الإيمان بالآخرة يحمل على كل الطاعات، فما الفائدة في تخصيص الصلاة بالذكر ؟

قال: لأنا نقول: المقصود منه التنبيه على أن الصلاة أشرف العبادات بعد الإيمان بالله تعالى، وأعظمها خطرا، قال: ألا ترى أنه لم يقع اسم الإيمان على شيء من العبادات الظاهرة إلا على الصلاة كما قال تعالى: ﴿ وما كان الله ليُضِيعَ إيمانكم ﴾[سورة البقرة:١٤٣] أي: صلاتكم، قال: ولم يقع اسم الكفر على شيء إلا على ترك الصلاة، قال عليه الصلاة والسلام: "من ترك الصلاة متعمدا فقد كفر"(١) قال: فلما اختصت الصلاة بهذا النوع من التشريف لا جرم خصها الله تعالى بالذكر في هذا المقام"(٢) .

وقد تكرر ثناء الله تعالى على المحافظين على الصلاة في مواضع أخرى غير هذا .

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ فيما يوجد بين يدي من كتب الحديث، ولكن ورد بألفاظ أخرى قريبة منه؛ منها ما أخرجه ابن ماجه في الفتن برقم ٤٠٣٤، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من ترك الصلاة متعمدا فقد برئت منه ذمة الله" وإسناده حسن كما في الزوائد ٣٠٤/٢...

ويشهد له ما أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة " مسلم رقم ٨٢، وأبو داود في السنة رقم ٤٦٧٨، والترمذي في الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة بأرقام: ٢٦١٨، ٢٦١٩، ٢٦٢٠، وابن ماجه في الصلاة ١٠٧٨، وما رواه النسائي في الصلاة ٢٣١/١، والترمذي في الإيمان ٢٦٢١، وابن ماجه في الصلاة برقم ١٠٧٩ من حديث بريدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر"، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح غريب .

(٢) التفسير الكبير ٨٢/١٣ .

ففي سورة (المؤمنون) عدد الله مناقب المؤمنين المفلحين على سبيل الثناء والمدح وذكر من مناقبهم أنهم ﴿ على صلاتِهم يُحافظون ﴾ ثم أثابهم على ذلك كله بما أخبرعنه بقوله: ﴿ أولئك هم الوارثون الذين يَرثون الفردوسَ هم فيها خالدون ﴾ [١٠،١١] .

وفي سورة (المعارج) استثنى الله تعالى من جنس الإنسان المجبول على الخصال الذميمة من الهلع والجزع والبخل، استثنى المصلين الذين أثنى عليهم ثناء عظيما على تحليهم بصفات كريمة حميدة كثيرة، أولها أنهم ﴿ على صلاتِهم دائمون ﴾ وآخرها أنهم ﴿ على صلاتهم يُحافظون ﴾ مما يحمل دلالاة على شرف الصلاة وعلو قدرها؛ لأنها معراج المؤمنين ومناجاة رب العالمين(١) .

قالوا: "وإنما كرر الثناء عليهم في شأن الصلاة لاختلاف دلالة الوصفين إذ الدوام غير المحافظة، فالمداومة عليها تعني المحافظة على أدائها بأن لا يُخِلُّون بها، ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل، أما المحافظة عليها فهي تعني أنهم يراعون إسباغ الوضوء لها ومواقيتها وإقامة أركانها، وإكمالها بسننها وآدابها، وحفظها من الإحباط باقتراف المآثم، فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات، والمحافظة إلى أحوالها"(٢) .

فأثنى الله عليهم لجمعهم الوصفين وذلك دليل على التلازم بينهما، وأن المداومة دون المحافظة أو العكس لا ترشح لمثل ذلك الثناء البليغ، ولا لأن تؤتي الصلاة ثمارها .

ذم من لم يحافظ على الصلاة :

وهو ما دلت عليه آيات الكتاب العزيز الأخرى والسنة المطهرة في أحاديث كثيرة.

أماالكتاب فبمثل قوله تعالى:﴿فخَلَف من بعدِهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاةَ واتَّبعوا الشهواتِ فسوف يَلْقون غَياً﴾[سورة مريم:٥٩]، فقد قالوا: إن إضاعتها ليس تركها بالكلية، ولكنهم

---

(١) انظر روح المعاني ١٠/٢٨/٧٩ .

(٢) جامع أحكام القرآن للقرطبي ١٨/٢٩٢ بتصرف، وانظر تفسير الفخر الرازي ٣٠/١٢٩ .

أخَّروها عن أوقاتها كما روي عن جماعة من أهل التأويل(١)، قالوا: لأن الترك بالكلية كفر(٢) .

وكذلك قالوا في قوله تعالى: ﴿ فويلٌ للمصلِّين * الذين هم عن صلاتِهم ساهون ﴾(٣)، [الماعون ٤،٥]

كما تقدمت الإشارة إليه .

أما السنة المطهرة فقد ورد فيها من الوعيد الشديد على عدم المداومة أو المحافظة على الصلاة، ومن الترغيب على ذلك الشيء الكثير تقدم شيء من ذلك .

ومنها قوله عليه الصلاة والسلام: "خمس صلوات كتبهن الله على العباد، فمن جاء بهن ولم يضيِّع منهن شيئا استخفافا بحقهن، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة"(٤) .

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي لا يأتي على مثلها الحصر هنا .

---

(١) منهم ابن مسعود والنخعي وعمر بن عبد العزيز والقاسم بن مخيمرة ا.هـ، زاد المسير ٢٤٥/٥ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ١٢٧/٣ .

(٣) انظر زاد المسير مثلا ٢٤٤/٩ .

(٤) أخرجه مالك في الموطأ في صلاة الليل، باب الأمر بالوتر ١١٠/١، وأبو داود في الصلاة، باب المحافظة على وقت الصلوات برقم ٤٢٥، وفي باب من لم يوتر برقم ١٤٢٠، والنسائي في الصلاة، باب المحافظة على الصلوات الخمس ٣٣٠/١، وابن حبان في صحيحه ١١٦/٣ من الإحسان، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط في تعليقه على جامع الأصول ٤٥/٦: صححه ابن عبد البر وغيره من العلماء، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١٣١/١، كلهم من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

التّطبيق النّبويُّ للصّلاة

لقد كان للصلاة عند النبي صلى الله عليه وسلم ميزة خاصة عن سائر العبادات، لما لها من المعاني السامية والمنزلة الكبرى عند الله عز وجل، إذ هي مناجاة الله، ووقوف خاشع بين يديه بالعقل والقلب والجوارح، إذ هي عماد الدين، والعلامة المميزة للمؤمنين من الكافرين، فلذا كانت قرة عينه صلى الله عليه وسلم وروضة راحته، ومزيل همه وغمه .

١ ـ فقد روى أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: "حُبب إليَّ من الدنيا الطيب والنساء، وجعل قرة عيني في الصلاة"(١) .

فانظر كيف خص الصلاة من بين سائر أعمال الدين، بأنها قرة عينه، أي موضع سروره، ومحل طيب نفسه، لما فيها من مناجاة ربه والتضرع إليه، ولهذا كان يقول:

٢ ـ "أقم الصلاة يا بلال أرحنا بها" وفي لفظ "قم يا بلال فأرحنا بالصلاة"(٢) .

والمعنى: "آذِنَّا بالصلاة لنستريح بأدائها من شغل القلب، وذلك لأنه كان يعدُّ غيرها من الأعمال الدنيوية تعبا، فكان يستريح بالصلاة لما فيها من مناجاة الله تعالى، وما أقرب الراحة من قرة العين"(٣) .

وكيف لا تكون الصلاة عند النبي صلى الله عليه وسلم بهذه المثابة، وهي روح

---

(١) أخرجه النسائي في عشرة النساء، باب حب النساء ٦١/٧، وأحمد في المسند ١٢٨/٣، ١٩٩، ٢٨٥، والحاكم في المستدرك ١٦٠/٢، والبيهقي في الكبرى ٨٧/٧، وأبو الشيخ في الأخلاق برقم ٢٣٢، ٧٢٠، ٧٢١، وصححه الحاكم على شرط مسلم، وأقره الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ٣١١٩/٣، وحسنه في تعليقه على المشكاة رقم ٥٢٦١، وقال العراقي في تخريج الإحياء ٣٠/٢: إسناده جيد .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في صلاة العتمة برقم ٤٩٨٥، ٤٩٨٦، من حديث سالم بن أبي الجعد، وعزاه العراقي في تخريج الأحياء ١٦٥/١ إلى الدار قطني في العلل، قال: وإسناده صحيح .

(٣) جامع الأصول لابن الأثير ٢٦٤/٦ بتصرف يسير .

العبادات كلها التي طالما حثه الله تعالى على الجد والاجتهاد فيها مدة حياته، وذلك بمثل قوله تعالى : ﴿ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾[سورةالحجر:٩٨-٩٩] ، فأمره بأن يلجأ عند اشتداد الضيق عليه إلى العبادة من التسبيح والتحميد والسجود والاستمرار على ذلك ، إلى أن يأتيه اليقين وهو الموت، أو النصر الموعود به(١)، لما في هذه العبادة من انكشاف الغم والضيق، للتعلق بالله والتلذذ بمناجاته، فينسى كل ما يحزنه(٢)، ويخف عليه كل ضيق، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر صلى(٣) .

ولقد تكرر الأمر الإلهي له صلى الله عليه وسلم بالعبادة والاستمرار عليها في القرآن الكريم خمس مرات نحو هذه الآية، ففي سورة (هود) يقول الله تعالى في خطابه له: ﴿ و لله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[آية ١٢٣]، فأمره بالعبادة والتوكل على الله تعالى .

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٦٠/٢، وروح المعاني للألوسي ٨٧/١٤/٥، والتحرير والتنوير ٩٢/١٤، وقال الألوسي: وأيا ما كان ـ أي تفسير اليقين بالموت أو النصر ـ فليس المراد به ما زعمه بعض الملحدين مما يسمونه بالكشف والشهود، وقالوا: إن العبد متى حصل له ذلك، سقط عنه التكليف بالعبادة، وهي ليست إلا للمحجوبين، قال: ولقد مرقوا بذلك من الدين، وخرجوا من ربقة الإسلام وجماعة المسلمين ا.هـ.

وقال القسطلاني في المواهب ٢٠٠/٢: وهؤلاء أعظم كفرا وإلحادا، حيث عطلوا العبودية، وظنوا أنهم قد استغنوا عنها بما حصل لهم من الخيالات الباطلة التي هي من أماني النفس وخداع الشيطان، قال: فلو وصل العبد من القرب إلى أعلى مقام يناله العبد لما سقط عنه من التكليف مثقال ذرة ما دام قادرا عليه ا.هـ .

(٢) انظر روح المعاني ٨٧/١٤/٥، والتفسير الكبير ٢٥٠/٢٠ .

(٣) كما جاء في حديث حذيفة رضي الله عنه عند أبي داود في الصلاة، باب وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم من الليل برقم ١٣١٩، وأحمد في المسند ٣٨٨/٥، وإسناده ضعيف كما بينه الألباني في تعليقه على المشكاة برقم ١٣٢٥ .

وفي سورة (مريم) يقول لـه سبحانه: ﴿ ربُّ السمٰواتِ والأرضِ وما بينهما فاعبُده واصطَبر لعبادته هل تعلمُ له سَمِيًّا ﴾[آية:٦٥]، فأمره بالعبادة والاصطبار على مشاقها حتى يضيق ذرعا بتكاليفها .

وفي سورة (الزمر) يقول سبحانه: ﴿ إنّا أنزلنا إليكَ الكِتابَ بالحقِّ فاعبد الله مخلِصًا له الدِّين ﴾[آية:٢]، وفيها أيضا يقول: ﴿ بل اللهَ فاعبُد وكنْ من الشّاكرين ﴾[آية:٦٦].

فأمره أولا بالعبادة والإخلاص فيها، وفي الثانية بالعبادة والشكر على عظيم إنعام الله تعالى عليه، وهذا بالإضافة إلى الآيات التي كان الخطاب فيها عاما، ويدخل فيها النبي صلى الله عليه وسلم دخولا أوليا، وهي كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الناسُ اعبُدوا ربّكم الذي خلَقكم والذين مِن قبلِكم لعلّكم تتقون ﴾[سورة البقرة:٢١] . وهي كثيرة معلومة (١) .

"ولهذا كان صلى الله عليه وسلم أعظم الخلق اجتهادا وقياما بوظائف العبادة ومحافظة عليها، إلى أن توفاه الله تعالى"(٢) كما يدل لذلك الأحاديث الكثيرة، في كل جزئية من جزئيات الصلاة لا سيما الطهارة لها، وإقامتها على وجهها، والخشوع فيها، والمحافظة عليها كما سيأتي بيانه :

تطهره صلى الله عليه وسلم للصلاة :

أ- فعن تطهره صلى الله عليه وسلم للصلاة، يبين لنا عثمان بن عفان رضي الله عنه كيفية تطهره صلى الله عليه وسلم:

وذلك أنه توضأ فأفرغ على يديه ثلاثا فغسلهما ثم مضمض واستنثر وغسل وجهه ثلاثا، وغسل يده اليمنى إلى المرفقين ثلاثا، ثم اليسرى مثل ذلك، ثم مسح رأسه، ثم غسل قدمه اليمنى ثلاثا، ثم اليسرى مثل ذلك، ثم قال: "رأيت رسول الله صلى

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٤٤٢ .

(٢) المواهب اللدنية ٢/٢٠٠ .

الله عليه وسلم توضأ مثل وضوئي هذا، ثم قال: "من توضأ وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غُفِر له ما تقدم من ذنبه"(١) .

٢ - كما بينه علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث "أُتِيَ بكرسيٍّ فقعد عليه، ثم دعا بتَور(٢) فيه ماء فكفأه على يديه ثلاثا، ثم مضمض واستنشق بكف واحدة ثلاث مرات، وغسل وجهه ثلاثا، وغسل ذراعيه ثلاثا، وأخذ من الماء فمسح برأسه، وغسل رجليه ثم قال: "من سره أن ينظر إلى طهور رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا طهوره"(٣) .

٣ - وكان يتوضأ ثلاثا ثلاثا كما مر في حديث عثمان رضي الله عنه .

٤ - ويتوضأ مرتين مرتين(٤) .

٥ - ومرة مرة(٥) لبيان الجواز .

٦ - ويتوضأ عند كل صلاة(٦) .

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء، باب الوضوء ثلاثا ثلاثا ١/٥٠، وفي الصوم، باب السواك الرطب واليابس للصائم ٣/٤٠، ومسلم في الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله برقم ٢٢٦ .

(٢) وهو إناء من صفر أو حجارة كالإجّانة - الطّاوة - النهاية ١/١٩٨ .

(٣) أخرجه النسائي في الطهارة، باب عدد غسل الوجه، وفي أبواب أُخَر قبله وبعده ١/٦٧ - ٧٠، من عدة طرق، وأبو داود في الطهارة، باب صفة وضوء النبي صلى الله عليه وسلم من عدة طرق من رقم ١١١ - ١١٧، والترمذي في الطهارة، باب ما جاء في وضوء النبي صلى الله عليه وسلم كيف كان برقم ٤٨ - ٤٩، وقال عنه: حسن صحيح .

(٤) كما جاء عند البخاري رحمه الله تعالى في الوضوء، باب الوضوء مرتين ١/٥٠، من حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم توضأ مرتين مرتين .

(٥) كما ثبت عند البخاري في الوضوء، باب الوضوء مرة مرة ١/٤٩، من حديث ابن عباس رضي الله عنه .

(٦) كما ثبت عند البخاري في الوضوء من غير حَدَث ١/٦٢، من حديث أنس رضي الله عنه .

٧ - وربما صلى الصلوات بوضوء واحد لبيان الجواز(١) .

٨ - وإذا توضأ أسبغ الوضوء(٢) .

٩ - ويقول: "ويل للأعقاب من النار"(٣) للحث على إسباغ الوضوء .

١٠ - ويقول: "لا يتوضأ رجل يحسن وضوءه ويصلي الصلاة إلا غفر له ما بينه وبين الصلاة حتى يصليها"(٤) .

١١ - وكان يتوضأ بالمد ويغتسل بالصاع(٥) .

فهذه نبذة من الأحاديث في وضوئه صلى الله عليه وسلم، والأحاديث في الباب كثيرة معلومة لا يتسع المقام لبسطها، وهي معلومة في أبواب الطهارة من كتب الحديث عامة .

---

(١) كما جاء عند مسلم في الطهارة، باب جواز الصلوات كلها بوضوء واحد برقم ٢٧٧، من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه، وعند البخاري في الوضوء ٦٢/١، من حديث سويد بن النعمان رضي الله عنه .

(٢) كما ثبت من حديث أسامة بن زيد عند البخاري في الوضوء ٤٦/١، ومسلم في الحج، باب الإفاضة من عرفات إلى المزدلفة برقم ١٢٨٠، ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري في الوضوء، باب فضل الوضوء والغر المحجلين ٤٥/١، وعند مسلم في الطهارة باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء برقم ٢٤٦، وباب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء برقم ٢٥٠، وثبت أيضا عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم من فعله صلى الله عليه وسلم وأمره .

(٣) رواه البخاري في الوضوء، باب غسل الرجلين ولا يغسل القدمين ٥١/١، من حديث عبد الله بن عمرو، وباب غسل الأعقاب ٥١/١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم في الطهارة، باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما برقم ٢٤١ .

(٤) رواه البخاري في الوضوء، باب الوضوء ثلاثا ثلاثا ٦٠/١، ومسلم في الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله برقم ٢٢٦ من حديث عثمان رضي الله عنه .

(٥) رواه البخاري في الوضوء، باب الوضوء بالمد ٦٠/١، ومسلم في الحيض، باب القدر المستحب من الماء في غسل الجنابة برقم ٣٢٥، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

وأما ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم من الأحاديث القولية المنوِّهة بفضل الوضوء وعظيم أجره فقد تقدم ذكر بعض منها حينما كانت المناسبة داعية لذكرها في أول المبحث هذا .

إقامته صلى الله عليه وسلم للصلاة وخشوعه فيها :

وأما إقامته صلى الله عليه وسلم للصلاة بأركانها وخشوعها وآدابها وهيئاتها فهو أيضا مما يجل عن الحصر هنا، من الأحاديث الصحيحة الثابتة فضلا عن غيرها .

١ ـ فمن ذلك حديث أبي حُميد الساعدي(١) رضي الله عنه،الذي جاء فيه أنه قال في عشرة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم،منهم أبو قتادة رضي الله عنه وعنهم جميعا، قال: "أنا أعلمكم بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: فلم ؟ فوالله ما كنتَ بأكثرنا له تبعا، ولا أقدَمنا له صحبة، قال: بلى، قالوا: فاعرض، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة رفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه، ثم يكبر حتىَ يقرَّ كل عظم في موضعه معتدلاً، ثم يقرأ ثم يكبر ويرفع يديه، ثم يحاذي بهما منكبيه، ثم يركع ويضع راحتيه على ركبتيه، ثم يعتدل فلا يَصُبُّ(٢) رأسه، ولا يُقنِع(٣)، ثم يرفع رأسه فيقول: سمع الله لمن حمده، ثم يرفع يديه حتى يحاذي منكبيه معتدلاً، ثم يقول: الله أكبر، ثم يهوي إلى الأرض فيجافي يديه عن جنبيه، ثم يرفع رأسه ويثني رجله اليسرى فيقعد عليها، ويفتح أصابع رجليه إذا سجد، ثم يسجد، ثم يقول: الله أكبر، ويرفع ويثني رجله اليسرى، فيقعد عليها، حتى يرجع كل عظم إلى موضعه، ثم يصنع في

---

(١) هو المنذر بن سعد بن المنذر، وقيل: اسمه عبد الرحمن، وقيل: عمرو، صحابي جليل شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا وما بعدها، وعاش إلى أن توفي آخر خلافة معاوية وأول خلافة يزيد، انظر الإصابة ٤/٤٦، واالاستيعاب بهامش الإصابة ٤/٤٢ .

(٢) أي لا يميله إلى أسفل .

(٣) أي لا يرفعه حتى يكون أعلى من ظهره .

الآخرة مثل ذلك، ثم إذا قام من الركعتين كبَّر ورفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه، كما كبر عند افتتاح الصلاة، ثم يصنع مثل ذلك في بقية صلاته، حتى إذا كانت السجدة التي فيها التسليم أخَّر رجله اليسرى، وقعد متورِّكا على شقه الأيسر، قالوا: صدقت هكذا كان يصلِّي"(١) .

فهذا الحديث أجمع الأحاديث الكثيرة التي وردت في كيفية صلاته عليه الصلاة والسلام، وهو يدلنا على مقدار تعظيمه صلى الله عليه وسلم للصلاة واستشعاره جلال الله تعالى في مقامه لها، وإقباله عليها بروحه وجسده جميعا،حتى صار هذا خُلُقا له صلى الله عليه وسلم تتمثل فيه وصايا القرآن بإقامة الصلاة والخشوع فيها والمحافظة عليها وتعظيم شأنها في أقواله وأفعاله .

وهناك أحاديث أخرى كثيرة تدل على نحو ما دل عليه هذا الحديث من إقامة الصلاة على وجهها الأتم .

٢ - ومن تلك الأحاديث حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة كبَّر ثم قال: وجَّهت وجهي للذي فطر السمٰوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربِّ العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم أنت الملك لا إلٰه إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدني لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك .

وإذا ركع قال: اللهم لك ركعت وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي

---

(١) أخرجه البخاري في صفة الصلاة، باب الجلوس في التشهد ١٩٩/١، وأبو داود في صفة الصلاة، باب سنة الجلوس في التشهد برقم ٧٣٠، واللفظ له، وأخرجه في هذا الباب من عدة طرق برقم ٧٣١ ـ ٧٣٥، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في وصف الصلاة برقم ٣٠٤ - ٣٠٥ .

وبصري ومخي وعظمي وعصبي. وإذارفع قال: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد ملء السموات والأرض وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعده.

وإذا سجد قال: اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوّره فأحسن صورته، وشقّ سمعه وبصره، وتبارك الله أحسن الخالقين .

وإذا سلّم من الصلاة قال: اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت"(١).

ومن هذين الحديثين تتضح لنا صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم على الإجمال من حيث الأداء والمناجاة، والخشوع والطمأنينة، وإجلال الله تعالى إجلالا ملَك عليه مجامع نفسه، ومعاقد لفظه، وجوامع قوله،في كل موقف من مواقفها، إذا استفتح، وإذا ركع، وإذا رفع، وإذا سجد ..، والأحاديث في بيان كيفية صلاته صلى الله عليه وسلم كثيرة(٢) .

ولما كانت صلاته صلى الله عليه وسلم على هذا النحو من كمال الإقامة، ندب أمته الى الاهتداء به فيها، وعبادة الله تعالى على ذلك النحو فقال عليه الصلاة والسلام :

١ - "صلوا كما رأيتموني أصلي"(٣) .

وهذا أمر إيجاب من لم يتقيد به، ولم يصلِ كصلاته صلى الله عليه وسلم لم تصح صلاته

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل برقم ٧٧١، وأبو داود في الصلاة، باب ما يستفتح برقم ٧٦١، والترمذي في الصلاة مختصرا، باب ما يقول الرجل إذا رفع رأسه من الركوع برقم ٢٦٦ ، والنسائي في الافتتاح، باب نوع آخر من الذكر والدعاء بين التكبير والقراءة ١٢٩/٢، والبغوي في الأنوار برقم ٥٢١ .

(٢) منها غير ما ذكر حديث وائل بن حجر، وحديث عقبة بن عامر، وحديث أبي هريرة، وحديث عائشة رضي الله عنهم. انظر: جامع الأصول ٤٢٤/٥ - ٤٢٧ .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان، باب الأذان للمسافرين إذا كانوا جماعة ١٥٤/١، ومسلم في المساجد، باب من أحق بالإمامة برقم ٦٧٤، من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه .

٢ ـ لذلك لم يعتد صلوات الله وسلامه عليه بصلاة ذلك الرجل الذي لم يصل كصلاته، فلم يقمها بأركانها وآدابها على نحو ما كان يفعله عليه الصلاة والسلام، بل قال له: "إرجع فصل فإنك لم تصل"، يفعل ذلك مرارا، حتى قال له الرجل: والذي بعثك بالحق ما أحسن غيره فعلمني، وعندها قال له النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئنَّ راكعا، ثم ارفع حتى تعتدل قائما، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها"(١) .

فأرشده النبي صلى الله عليه وسلم إلى كيفية الصلاة التي يصليها هو، وحكم على صلاته التي صلاها على غير تلك الكيفية بأنها ليست بصلاة، فدل على أن من لم يصل على ذلك النحو من القراءة والطمأنينات والآداب أنه غير مصل، لأنه لم يصل كما كان رسول الله عليه وسلم يصلي .

محافظته صلى الله عليه وسلم على الصلاة :

أما محافظته صلى الله عليه وسلم على الصلوات، فقد فهمت بالالتزام من العلم بعظم مكانة الصلاة لديه، السابق ذكرها في أول التطبيق هذا، فإن من كانت الصلاة لديه بتلك المكانة، يكون حفاظه عليها كحفاظه على روحه وجسده، بل أشد من ذلك، كيف لا وهي قرة عينه وسلوة حزنه، وموضع راحته، وذلك هو ما دلت عليه أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، منها الأحاديث التالية :

---

(١) أخرجه البخاري في صفة الصلاة، باب أمر النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا يتم ركوعه بالإعادة ١/١٩٠، ومسلم في الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة برقم ٣٩٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وهذا هو الحديث المشهور بحديث المسيء صلاته، وقد جمع طرقه وألفاظه الأخ الشيخ محمد عمر بازمول في جزء مفرد مطبوع .

١ ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلَّى صلاة لغير ميقاتها، إلا صلاتين: جمع بين المغرب والعشاء بِجَمع(١)، وصلَّى الفجر يومئذ قبل ميقاتها"(٢) .

فهذه شهادة ابن مسعود رضي الله عنه الذي كان شديد الملازمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم،حتى كان يَظنُّ الغرباء أنه من أهل بيته، فهو لم يشاهد النبي صلى الله عليه وسلم صلى صلاة لغير ميقاتها قط .

٢ ـ وكذا قالت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها : "ما صلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة لوقتها الآخِر مرتين حتى قبضه الله"(٣)، والسيدة عائشة هي من هي إطلاعا على أحواله عليه الصلاة والسلام ؟! ومع ذلك تنفي أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تكرر له أن صلَّى صلاة في وقتها الآخِر مرتين، وذلك لشدة تحريه الصلاة في أول وقتها، ولذلك لما كان هذا هو حاله، واضطرته الحرب في غزوة الأحزاب إلى أن يؤخر صلاة العصر عن وقتها الأول، ساءه ذلك جدا، ودعا على المشركين قائلا:

٣ ـ "شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارا، **أوقال:**

---

(١) أي: بمنى .

(٢) أخرجه البخاري في الحج، باب من يصلي الفجربجمع ٢/٢٠٣، ومسلم في الحج، باب استحباب التغليس بصلاة الصبح يوم النحر برقم ١٢٨٩ .

(٣) أخرجه الترمذي في الصلاة، باب ما جاء في الوقت الأول من الفضل برقم ١٧٤، وقال: حسن غريب وليس إسناده بمتصل، قلت: لكن وصله الحاكم ١/١٩٠، وصححه ووافقه الذهبي، وانظر حاشية المحدث أحمد شاكر على الترمذي ١/٣٢٩ .

حشا الله أجوافهم وقبورهم نارا"(١) .

فانظر كيف أظهر عليه الصلاة والسلام حزنه على تأخير الصلاة عن وقتها، وما ذلك إلا لشدة اهتمامه بتأديتها في أول وقتها، وكبير محافظته عليها، وإلا فقد كان في عذر سائغ في هذا التأخير، وكان في عبادة عظيمة .

ولقد كان لفرط محافظته عليه الصلاة والسلام على الصلاة في أول وقتها، كان إذا غزا أو سافر فأراد أن يستريح، عهد إلى أحد أن يرقب الوقت، خشية أن ينام عنه أو يؤخره عن أوله :

٤ ـ كما جاء من حديث أبي قتادة (٢) رضي الله عنه قال: "سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض القوم: لو عرَّست(٣) بنا يا رسول الله ؟ قال: أخاف أن يناموا عن الصلاة، فقال بلال: أنا أوقظكم، فاضطجعوا، وأسند بلال ظهره إلى راحلته، فغلبته عيناه فنام، فاستيقظ النبي صلى الله عليه وسلم وقد طلع حاجب الشمس، فقال: يا بلال، أين ما قلت ؟ فقال: ما أُلْقِيَتْ عليَّ نومة مثلها قط، قال: إن الله قبض أروا حكم حين شاء، وردها عليكم حين شاء، يابلال قم فآذن الناس بالصلاة، فتوضأ، فلما ارتفعت الشمس وابياضَّت قام فصلى بالناس جماعة"(٤) .

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد، باب الدليل لمن قال: الصلاة الوسطى هي صلاة العصر برقم ٦٢٨، وابن ماجه في الصلاة، باب المحافظة على صلاة العصر برقم ٦٨٦، وأحمد في المسند ٨٢/١، ١١٣، ١٢٢، ١٢٦، ١٣٥، ١٣٧، ١٤٦، ١٥٠، ١٥٢، من حديث علي رضي الله عنه، وفي ٤٠٤/١، ٤٥٦ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) هو الحارث ويقال: عمرو أو النعمان بن ربعي السُّلَمي الأنصاري الخزرجي، شهد أحدا وما بعدها، وكان يقال له فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي بالمدينة سنة ٥٤هـ، وله ٧٢ سنة. انظر الإصابة ١٥٨/٤، وبهامشها الاستيعاب ص ١٦١ .

(٣) التعريس نزول المسافر آخر الليل نزلة للنوم والاستراحة، النهاية ٢٠٦/٣ .

(٤) أخرجه البخاري في المواقيت، باب الأذان بعد ذهاب الوقت ١٤٥/١، ومسلم في المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها برقم ٦٨١ .

هكذا كان حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الصلوات وأدائها في أول أوقاتها مع سعة بعض أوقات الصلوات، ولكن ما كان من جعلت الصلاة قرة عينه ليقدر على تأخيرها عن أول وقتها ما لم يقصد التشريع، وانظر كيف كان انزعاجه صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب على تأخير صلاة العصر حتى احمرت الشمس، مع أن آخر الوقت لم يخرج، كما أنه كان في جهاد وعمل موصول مع الله تعالى، ولكن هكذا كان الخلق النبوي الشريف، استشعارا لجلال الله تعالى ومحبة الوقوف بين يديه سبحانه، وانظر كيف كان حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الصلاة، حيث لم يرد أن يستريح من تعب السفر خشية أن يفوت عليهم وقت صلاة الفجر، حتى تكفل بلال بحفظ الوقت، وفي رواية مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه رضوان الله عليهم: "احفظوا علينا صلاتنا" فلما عهد إليهم ذلك، ووثق بهم في هذا الشأن أعطى جسمه الشريف بعض الراحة في تعريسه ذاك، وهكذا يكون الذين هم على صلاتهم يحافظون. جعلنا الله منهم بمنه وكرمه آمين .

الـمَـبْـحَـثُ الـثَّـانِي

(الزَّكـاة)

وفيه أربعة مطالب:

١ ـ تعريفها وبيان علاقتها بالأخلاق .

٢ ـ طيب النَّفس بإخراجها .

٣ ـ عـدم المـنِّ بـهـا .

٤ ـ تحـرِّي أصـنـافـهـا .

المَطْلَبُ الأوَّل

تعريف الزَّكاة :

الزَّكاة لغة: النماء والزيادة، يقال: زكى الزرع ، والأرض تزكو زكُواً: إذا هي نمت، وزكَّاه الله تعالى وأزكاه: أنماه وجعل فيه بركة، وزكى الرجل يزكو زُكُوّاً: صلح وتنعم.

والزكاة صفوة الشيء، وما أخرجته من مالك لتطهره به(١)، قال ابن الأثير: "الزكاة في اللغة: الطهارة والنماء والبركة والمدح، قال: وكل ذلك قد استعمل في القرآن والحديث، إلى أن قال: فالزكاة طهرة للأقوال، وزكاة الفطر طهرة للأبدان"(٢) .

أما في الشرع: فهي عبارة عن اسم لأخذ مال مخصوص من مال مخصوص على وجه مخصوص يصرف لطائفة مخصوصة(٣) .

وذلك المال المخصوص المأخوذ منه هو القدر المخرَج من مجموع المال من ربع العشر أو نصفه أو العشر .

وأما المال المخصوص: فهو المال الزَّكَوي البالغ نصابا .

والوجه المخصوص: هو الكيفية التي تخرج بها الزكاة من شروطها وأسبابها وآدابها .

والطائفة المخصوصة: هم الأصناف الثمانية المبينين في آية الصدقة(٤) .

علاقة الزكاة بالأخلاق :

وبالإضافة إلى أن الزكاة ركن من أركان الإسلام، وتحقق هدفاً كبيراً من أهدافه في تكافل المجتمع المسلم، فإنها وسيلة كبرى من وسائله في تطهير النفس البشرية من رذائل الأخلاق وسيء الأعمال، لإن من أمهات رذائل الأخلاق التي تنشأ منها أخلاق سيئة كثيرة: (حبُّ المال حُباًّ جما) إذ ينشأ من ذلك الشح والبخل والتَّقتير والسرقة والنهب ...

---

(١) المصباح المنير ١٧٢/١، وتاج العروس ١٦٤/١٠، مادة (زكى) .

(٢) النهاية ٣٠٧/٢ .

(٣) التعريفات للجرجاني ص ١١٤، والمجموع للإمام النووي ٣٢٥/٥ .

(٤) انظر حاشية الباجوري على ابن قاسم ٢٦٠/١ .

وغير ذلك من القبائح المادية .

وهذه الأخلاق يمقتها الإسلام، لأنها تُخرج المسلم عن نقآء إسلامه وإيمانه، فعمل على علاجها ليعود للمسلم صفاؤه ونقاؤه وسمو خلقه، وذلك بوسائل كثيرة من أهمها: دعوته إلى إخراج بعض ماله للمحتاجين من إخوانه المسلمين، إما على سبيل الإيجاب، أو الندب، لينازع شح نفسه في الإمساك حتى ترتاض على العطاء والبذل، فيخرج من أدوء الداء وهو البخل، ويسد حاجة ذوي الحاجة من إخوانه فيطهرهم من رذيلة الحقد والحسد، فتزكوأخلاق المجتمع المسلم، ويسلم إسلامهم وإيمانهم مما يضعفه أو يذهبه بالكلية، وتلك الدعوة في آيات كثيرة منها قوله تعالى:﴿ يأيُّها الذين آمَنُوا أنفِقُوا ممَّا رزقناكم من قبلِ أن يأتيَ يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خُلَّةٌ ولا شفاعةٌ ..﴾[سورة البقرة:٢٥٤].

وقوله سبحانه: ﴿ يأيُّها الذين آمَنوا أنفِقوا من طَيِّباتِ ما كسَبتم ومِمَّا أخرجنا لكُم من الأرض ..﴾[سورة البقرة:٢٦٧] .

وقوله عز شأنه: ﴿ آمِنوا با للهِ ورسولِه وأنفِقوا ممَّا جعلكم مستَخلَفِين فيه فالَّذين آمَنوا منكم وأَنفقوا لهم أجرٌ كبير﴾[سورة الحديد:٧](١) .

إلى غير ذلك من الأوامر المتكررة والنداءات المتتالية الداعية إلى البذل والعطاء ليزكِّي الإنسان نفسه، ويطهر مجتمعه .

بيان القرآن الكريم تزكية النفس بالزكاة :

ولما كانت النفوس قد لا تستجيب لتلك النداءات المتكررة لما جبلت عليه من حب المال، جعل الإسلام الزكاة ثاني أركانه التي يبنى عليها، والتي لا يتحقق إسلام أحد ولا إيمانه إلا بها، وجعلها قرينة الصلاة التي هي عماد الدين وقرنها بها في نحو من ثمانين آية على نحو قوله تعالى: ﴿ وأقيموا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاة﴾[سورة البقرة:٤٣] .

ثم مع ذلك بين لهم سر إيجاب الزكاة ليكون حافزا لهم ، ومشجعا على المبادرة بها

---

(١) انظر حجة الله البالغة لولي الله الدهلوي ٢/١٠٠ .

والإتيان بها كاملة طيبة بها نفوسهم، وراغبة في أدائها، وذلك بنحو قوله تعالى: ﴿ خذ من أموالِهم صدقةً تُطهِّرُهم وتُزكِّيهم بها ﴾[سورة التوبة:١٠٣]، والمعنى:خذ يا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بعضا من أموالهم تكون مُطهِّرة لهم من الذنوب، ومن حب المال الذي أَودَى بهم إلى التخلف عن طاعة الله ورسوله في الخروج إلى الجهاد.

﴿ وتزكِّيهم بها ﴾ : أي عن سائر الأخلاق الذميمة التي حصلت لهم بسبب حب المال (١).

والأمر (خذ) تكليف لرسول الله صلى الله عليه وسلم باعتباره إمام المسلمين فهو تكليف لكل إمام مسلم بعده.

ونحو هذه الآية قول الله جل ذكره: ﴿ وسيُجنَّبُها الأتقى * الَّذي يُؤتِي ماله يتَزَّكى ﴾[سورة الغاشية:١٧،١٨] . حيث دلت الآية بأسلوبها الخبري، على أنه يحصل بإيتاء المال تزكية للنفس كبيرة، لأنها أثنت على أبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي نزلت فيه الآية، على إنفاقه في سبيل الله لتخليص المستضعفين من العذاب(٢)، ووعدته بتجنيبه عن النار التي لا يصلاها إلا الأشقى.

---

(١) محاسن التأويل ٣١٢/٨، وهذا بناء على أحد التوجيهين في إعراب الفعلين تطهرهم وتزكيهم، وهو أنهما في محل نصب صفة لصدقة، أي صدقة مطهرة لهم مزكية، والآخر: هما في محل نصب على الحال من المخاطب وهو النبي صلى الله عليه وسلم، والتقدير: خذها مطهِّراً لهم ومزكِّياً لهم بها، ورجح الفخر الرازي الوجه الأول قائلا: وإنما حسن جعل الصدقة مطهرة لما جاء أن الصدقة أوساخ الناس، فإذا أخذت الصدقة فقد اندفعت تلك الأوساخ، فكان اندفاعها جاريا مجرى التطهير .

قلت: وعلى الوجه الثاني فإنها تفيد أيضا أنه يحصل لهم تطهير وتزكية ببذلهم المال سواء من نزلت فيهم الآية، أو غيرهم إذ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولمن يخلفه في أمته من بعده، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وانظر تفسير القرطبي ٢٤٩/٨، وتفسير الفخر ١٧٩/١٦ .

(٢) حكى الفخر الرازي في تفسيره الكبير ٢٠٤/٣١ إجماع المفسرين على نزول الآية في أبي بكر رضي الله عنه ، وانظر أسباب النزول للواحدي ص ٣٣٥ ـ ٣٣٧، وتفسير ابن كثير ٥٢١/٤ .

وقد بينت الآية الكريمة سبب نيله هذين الأمرين العظيمين: النجاة والتزكية،بأنه بذله المال ابتغاء وجه ربه الأعلى .

ولا غرو في أن يكون بذل المال موصلا إلى مثل هذه المراتب، فإن بذل المال يعني انتصارا على النفس التي أحضرت الشح بحبها المال حبا جما، وحبها العاجلة دون الآجلة، وقد قال الله جل شأنه: ﴿ ومن يُوقَ شُحَّ نفسِه فأولئِك هـمُ المفلِحون ﴾[سورة الحشر:٩] (أي من يخالفها فيما يغلب عليها من حب المال وبغض الإنفاق، فهو الفائز بالثناء العاجل والثواب الآجل)(١) .

تحذير القرآن الكريم من الشح وبيانه سوء عاقبته :

ولذلك نجد القرآن الكريم قد حمل حملة شعواء على من غلب عليهم الشح فحملهم على سفك الدماء أو استحلال الحُرم، فذمهم، وبين ما أعد لهم من مصير سيء وعذاب أليم، وذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ والَّذين يَكنزون الذَّهَب والفِضَّةَ ولا يُنفقونها في سبيلِ الله فبشِّرهم بعذابٍ أليم * يوم يُحمَى عليها في نارِ جهنَّم فتُكوَى بها جِباهُهُم وجُنوبُهم وظُهورُهم هذا ما كنَزتُم لأنفسِكم فذُوقوا ما كنتُم تكنِزون ﴾[سورة التوبة:٣٤،٣٥] .

وقوله جل وعلا: ﴿ قل إن كانَ آباؤُكم وأبناؤُكم وإخوانُكم وأزواجُكم وعشيرتُكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشونَ كَسادَها ومساكنُ ترَضونها أحبَّ إليكم من اللهِ ورسولِه وجهادٍ في سبيلِه فتربَّصوا حتى يأتيَ الله بأمرِه والله لا يَهدِي القومَ الفاسقين ﴾ [سورة التوبة:٢٤] .

وقوله تعالى: ﴿ ولا يَحسَبَنَّ الذين يَبخَلون بما آتاهم اللهُ من فضلِه هو خيرًا لهم بل هو شرٌّ لهم سيُطوَّقون ما بخلوا به يومَ القيامة ﴾[سورة آل عمران:١٨٠] .

وفي مثل هذه الآيات ما يكفي زاجرا ورادعا للنفس الأمارة بالسوء إن هي ألقت السمع

---

(١)/أنظر أنوار اتنزيل وأسرار التأويل ص ٧٢٦ .

وهي شهيد،فإنها حينئذ ستعرف قدر الدنيا وما يعدلها من المال، وأنها لن تغني عنها من عذاب الله تعالى شيئا إن هي لجَّت في الاغترار بها .

وبذلك تنجو بإذن الله تعالى من تبعات حب المال، وتطهر النفس من الرعونات وتزكو الأخلاق في السلوك والمعاملات، ويزكو المال بالنماء والزيادات.

كما قال تعالى: ﴿ تطهِّرُهم وتزكِّيهم بها ﴾ [التوبة:١٠٣]

آداب إخراج الزكاة :

ومن المعلوم أن الزكاة لا تجلب هذا الأثر العظيم إلى النفس البشرية إلا إذا كانت على وفق مراد الشرع في اخراجها وذلك يتحقق بثلاثة أمور نتكلم عنها في المطالب الآتية بإيجاز .

المطلب الثاني: طيب المال المنفق :

فيخرجها مما يحب لا من خسيس المال ورديئه،لأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا، وقد ندب إلى ذلك القرآن الكريم فقال: ﴿ يا أيُّها الذين ءامنوا أنفِقوا من طيِّباتِ ما كسبتم ومِمَّا أخرجنَا لكمَ من الأرضِ ولا تَيَمَّمُوا الخبيثَ مِنه تُنفِقون ولستُم بآخذيه إلا أن تُغمِضوا فيه واعلموا أنَّ اللهَ غنيٌّ حميد ﴾[سورة البقرة: ٢٦٧]، والإنفاق عام يشمل الواجب والمستحب، فالآية الكريمة ترشد بأسلوب الأمر إلى نوع المال المنفَق بأن لا يكون من الرديء، ومالا يقبله المنفِق نفسُه لو عرض عليه، وأن يكون من الحلال أما الحرام فهو خبيث(١)، وقد نهى الله عن التصدق منه، وقال أيضا: ﴿ قل لا يَستوي الخبيثُ والطَّيبُ ولو أعجَبك كثرةُ الخبيث ﴾[سورة المائدة:١٠٠]، وهذا حكم عام في نفي المساواة عند الله بين الرديء والجيد من الأشخاص والأعمال والأموال،فجعل العبرة هي الرداءة والجودة، دون القلة والكثرة،فإن المحمود القليل خير من المذموم الكثير، (والآية تحمل ترغيبا في

---

(١) كما فسره به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والقول الأول: أنه الرديء. ا.هـ زاد المسير لابن الجوزي ٣٢٢/١ .

صالح العمل والإنفاق من حلال المال)(١) .

المطلب الثالث: عدم المنّ بها :

لأن المنَّ بالصدقة عامة يحبطها، وحيث صارت كذلك فلن تحقق الهدف منها في تزكية النفس حينئذ، ولذلك حذَّر الله تعالى من إحباط ما قد بذله المرء ونازع نفسه في إخراجه، فقال تعالى: ﴿ يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تُبطِلُوا صَدقاتِكم بالمنِّ والأذى كالَّذي يُنفِق مالهَ رئَاءَ النَّاس ولا يُؤمن بالله واليومِ الآخِر فمثلُه كمثلِ صَفوانٍ عليه تُرابٌ فأصابه وابلٌ فترَكه صَلداً لا يَقدِرون على شيءٍ مما كسَبُوا والله لا يَهدي القومَ الكافرين ﴾ [سورة البقرة:٢٦٤] ,

وهذا نهي من الله تعالى عن المنِّ،والنهي هنا يقتضي التحريم كما أوضحته السنة المطهرة(٢)، ثم لم يكتف بذلك بل زاد الأمر إيضاحا وجلاء حيث شبه المانَّ بالمرائي بصدقته، ولا ريب أن الذي يرائي بصدقته أسوأ حالا من المتصدق بالمن؛ لأن المشبه به أقوى حالا من المشبه كما هو معلوم، ومن ثم قال الله تعالى: ﴿ ولا يُؤمن بالله واليومِ الآخِر ﴾ ثم ضرب مثل ذلك المرائي بالإنفاق بقوله: ﴿ فمثلُه كمثلِ صفوان ﴾ لإبراز حقيقة أمر المرائين من أن أعمالهم تضمحل عند الله فلا يجد المرائي بالإنفاق يوم القيامة

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص ١٦٣ بتصرف .

(٢) روى الإمام مسلم في الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، والمن بالعطية رقم ١٠٦، وأبو داود في اللباس، باب ما جاء في إسبال الإزار رقم ٤٠٨٧، ٤٠٨٨، والترمذي في البيوع، باب فيمن حلف على سلعة كاذبا رقم ١٢١١، والنسائي في البيوع، باب المنفق سلعته بالحلف الكاذب ٢٤٥/٧، كلهم من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، قال: فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات، قال أبو ذر: خابوا وخسروا من هم يا رسول الله ؟ قال: المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب" .

ثواب شيء من نفقته(١) .

وكذلك المانُّ بصدقته فإنه لا يجد أثر الصدقة في صحيفة عمله؛لأن المنَّ بها محاها فيصبح من الخاسرين، وما كان سيصير كذلك لو أنه جرَّد نفسه من رعوناتها، إذ هي التي جعلته يرى في نفسه الفضل والطَّوْل على الفقير المعطَى، وأنه محسن إليه وله عليه فضل (ولو تجرد من ذلك لرأى أن الفقير يأخذ ذلك حقا مفروضا من الله تعالى فله فضل لقبوله حق الله تعالى منه الذي هو طهرته ونجاته من النار، ولو لم يقبل منه ذلك لبقي مرتهنا به)(٢) .

وعليه أن يتذكر ما أعده الله للمنفقين غير المانِّين من ثوابه العظيم الذي أفاده قوله جل شأنه: ﴿ الَّذين يُنفِقون أموالَهم في سبيلِ اللهِ ثُمَّ لا يُتبِعون ما أنفقوا مَنّاً ولا أذىً لهم أجرُهم عندَ ربِّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزَنُون ﴾[سورة البقرة:٢٦٢] .

وإن كانت نفسه قد أشربت بالمِنَّة والشعور بالفضل فالأولى له أن يكف عن الإنفاق إلا ما وجب، وليتحلى بتأديب الله تعالى القائل: ﴿ قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقة يتبعُها أذى والله غنيٌّ حليم ﴾[سورة البقرة:٢٦٣] .

المطلب الرابع : أن يتحرى لصدقته موضعا أهلا لها يكون سببا في زكاء صدقته.

ولأهمِّية هذا الموضع فقد تولى الله عز وجل بيانه بنفسه،خشية أن تخطىء الصدقة صاحبها فلا يحصل بها الغرض المقصود،ولا تتحقق منها الغاية المرجوَّة، فقال تعالى مبينا ذلك: ﴿ إنَّما الصَّدقاتُ لِلفقراءِ والمساكينِ والعاملينَ عليها والمؤلَّفةِ قلوبُهم وفي الرِّقاب والغارمينَ وفي سبيلِ الله وابنِ السبيل ..﴾[سورة التوبة:٦٠] .

قالوا: ولا يكتفى بأن يكون من عموم الأصناف الثمانية فإن في عموهم خصوص صفات، فليراع خصوص تلك الصفات قدر الوُسع، لأنه أجزل للأجر، ومن تلك الصفات:

الأولى: أن يطلب الأتقياء؛لقوله صلى الله عليه وسلم: "لاتصاحب إلا مؤمنا، ولا

---

(١) انظر إتحاف السادة المتقين ١١٨/٤ .

(٢) انظر الإحياء ١٩٤/١ .

يأكل طعامك إلا تقي"(١)، لأن التقي يستعين به على التقوى فيكون المتصدق شريكا له في طاعته بإعانته إياه .

الثانية: أن يكون من أهل العلم فإن ذلك إعانة له على العلم، والعلم أشرف العبادات مهما صحت فيه النية.

الصفة الثالثة: أن يكون صائنا لفقره، ساترا لحاجته، كاتما للشكوى كما قال الله تعالى: ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لايسألون الناس إلحافاً﴾[سورة البقرة:٢٧٣] .

الصفة الرابعة: أن يكون ذا عائلة أو محبوسا لمرض أو دين فهذا من المحصرين والتصدق عليه إطلاق لحصره .

الصفة الخامسة: أن يكون من الأقارب وذوي الأرحام فإن الصدقة عليهم صدقة وصلة(٢) ، كما جاء في الحديث(٣) ، وفي صلة الرحم من الثواب ما لا يحصى وستأتي الإشارة إلى ذلك في مبحثه إن شاء الله تعالى(٤) .

الصفة السادسة: أن يكون من أهل الجهاد في سبيل الله تعالى لأن نفقة الجهاد تضاعف

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب ما يؤمر بأن يجالس رقم ٤٨٣٢، والترمذي في الزهد، باب ما جاء في صحبة المؤمن رقم ٢٣٩٥، وقال الترمذي: حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأحمد في المسند ٣٨/٣، وابن حبان ٣٨٣/١، والحاكم في المستدرك ١٢٨/٤ وقال: صحيح الإسناد، وأقره الذهبي، كلهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) انظر الإحياء للغزالي ١٩٦/١، ١٩٨، ومختصر منهاج القاصدين للمقدسي ص ٣١، ٣٢ .

(٣) عند أبي داود في الصوم، باب ما يفطر عليه برقم ٢٣٥٦، والترمذي في الزكاة، باب ما جاء في الصدقة على ذوي القربى برقم ٦٥٨، من حديث سلمان بن عامر الضبي يرفعه قال: الصدقة على المسكين صدقة، وهي على ذي القربى الرحم اثنتان، صدقة وصلة" وقال الترمذي: حديث حسن، وصححه الألباني في تعليقه على المشكاة ٦٠٤/١ برقم ١٩٣٩ .

(٤) انظر ص ٧٤٨ .

إلى سبعمائة ضعف(١)، ومن خلف غازيا في أهله فقد غزا، كما جاء في الحديث(٢).

فعلى المرء المسلم أن يحرص في إيصال صدقته إلى أهل هذه الصفات لتكون ذات أثر أكبر في التزكية والتطهير، وكل من جمع من هذه الخلال خلتين أو أكثر كان إعطاؤه أفضل على قدر ما جمع .

فإذا كانت الزكاة مستوفية لهذه المطالب آتت ثمارها من التطهير للنفس البشرية من رذائل الأخلاق المالية، وتزكيتها بكريم الأخلاق وجميل الخصال التي أرادها الله تعالى من المؤمنين،وجعلها غاية من غاية بعثة خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وهو ما حصل ويحصل للمؤمنين الذين يؤدونها على تلك الكيفية كما هو معلوم ومشاهد والله أعلم .

---

(١) كما جاء في حديث خُريم بن فاتك رضي الله عنه قال: من أنفق نفقة في سبيل الله كتبت له بسبعمائة ضعف" أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل النفقة في سبيل الله برقم ١٦٢٥، والنسائي في الجهاد، باب فضل النفقة في سبيل الله ٣٧/٦، وقال الترمذي عنه: حديث حسن .

(٢) عند البخاري في الجهاد، باب فضل من جهز غازيا في سبيل الله ٣٢/٤، ومسلم في الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله برقم ١٨٩٥، من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أن رسول الله عليه وسلم قال: "من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيا في أهله بخير فقد غزا" .

تطبيق النبي صلى الله عليه وسلم للزكاة

ذلك ما يندب إليه القرآن من الأخلاق الفاضلة في أداء الزكاة، وهو كما علمت دعوة إلى البذل والعطاء، من طيب المال، من غير منٍّ ولا أذى، وتحريا لذوي الحاجة الضعفاء ... ، وهو ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم في كل المعاني المتقدمة بل أكبر من ذلك مما يعجز القلم عن التعبير عنه، فقد كان عليه الصلاة والسلام مثالا أعلى للبذل والعطاء، والإنفاق الشامل حتى ما كانت تجب عليه زكاة لأنه لا يُبقي شيئا يأتي عليه اليوم،فضلا عن الشهر،فكيف بالحول؟بحيث كان أجدر الناس بقول القائل:

إنا إذا اجتمعت يوما دراهمُنا مرَّت إلى طُرق الخيرات تستبق

لا يألف الدّرهم المضروب صُرَّتنا لكن يمرُّ عليها وهو منطلِق

كما سيتبين ذلك جليا في مبحث كرمه صلى الله عليه وسلم من الباب الثالث إن شاء الله تعالى .

لذلك فإن التطبيق العملي لأداء الزكاة من فعله صلى الله عليه وسلم متعذّر.

غير أنه يتجلى في أقواله الشريفة الكثيرة، في كل ما مضى من المعاني القرآنية الجليلة في هذا الجانب من أحكام وأخلاق، وهي تمثل ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الخُلق العظيم في العطاء والجود، بأوفى صورة وأكمل بيان، سأقتطف منها نماذج قليلة للاستدلال بها على ما سواها ...

أخباره صلى الله عليه وسلم بإيجاب الزكاة :

فمن ذلك أقواله صلى الله عليهه وسلم في أن الزكاة أحد أركان الإسلام الخمسة ومنها قوله:

١- "بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إلٰه إلا الله ، وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان"(١) .

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم ١/١٠، ومسلم فيه، بباب أركان الإسلام برقم ١٦، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

فجعل الزكاة أحد الدعائم التي بني عليها الإسلام، والتي لا يكون الإنسان مسلما إلا بتحقيقها .

٢ـ ولما بعث معاذا إلى اليمن قال له: "ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم ..."(١) .

فعدّ أركان الإسلام وذكر ثالثها الزكاة، وبين له مصرفها، فدل على أن من أدى هذه الأركان فقد تحقق إسلامه، وأوجب لنفسه الفوز والظفر بالجنة .

وذلك ما أخبر به عليه الصلاة والسلام الرجل الذي التزم بأداء هذه الأركان الخمسة.

٣ ـ فإنه جاء إليه وقال: "يا رسول الله دُلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة، قال: تعبد الله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، قال: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا، فلما ولّى قال: "من سرَّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا"(٢) .

وأما من لم يُقم هذه الأركان أو واحدا منها، فإنه يكون قد أوبق نفسه كما تدل عليه أحاديث كثيرة، ومنها مما يتعلق بما نحن فيه من الزكاة:

١ ـ قوله صلى الله عليه وسلم: "ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدّي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة صُفّحت له صفائح من نار، فأُحمِيَ عليها في نار جهنم، فيُكوى

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع ٥/٢٠٦، وفي الزكاة، باب وجوب الزكاة ٢/١٣٠ .

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب وجوب الزكاة ٢/١٣٠، ومسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة برقم ١٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيُرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار"(١) .

وفي هذا من الترهيب والتحذير من التفريط في أداء الزكاة ما تقشعرُّ منه الجلود، وهو كقوله صلى الله عليه وسلم :

٢ - "من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً أقرعَ له زَبيبتان (٢) يطوَّقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه - يعني شدقيه - ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك، ثم تلا هذه الآية ﴿ ولا يحسَبنَّ الذين يَبخلون بما آتاهم الله من فضلِه هو خيرًا لهم بل هو شرٌّ لهم سيُطوَّقون ما بخلُوا به يومَ القيامة ﴾(٣) [سورة آل عمران:١٨٠] .

والأحاديث بهذا المعنى كثيرة معلومة .

بيانه صلى الله عليه وسلم لما في الزكاة من تطهير للنفس والمال :

وقد بين عليه الصلاة والسلام ما تفعله الزكاة من التطهير للنفس من رذائل أخلاقها، وذلك بقوله صلى الله عليه وسلم لمن جاء يسأله قائلا: إنِّي ذو مال كثير وذو أهل ومال وحاضِرة(٤)، فأخبرني كيف أصنع ؟ وكيف أنفق ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: "تخرج

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة، باب إثم مانع الزكاة برقم ٩٨٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) الزبيبة: نكتة سوداء فوق عين الحية، وقيل: هما نقطتان تكتنفان فيها، وقيل: هما زبدتان في شدقيها" ا.هـ النهاية ٢٩٢/٢ .

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة، باب إثم مانع الزكاة ١٣٢/٢، وفي تفسير سورة آل عمران، باب: ﴿ ولا يحسبن ...﴾الآية، وفي تفسير سورة التوبة، باب ﴿ والذين يكنزون الذهب ...﴾الآية، ومسلم في الزكاة، باب إثم مانع الزكاة برقم ٩٨٧ .

(٤) قال في النهاية ٣٩٩/١: "الحاضر: القوم النزول على ماء يقيمون به ولا يرحلون عنه" ا.هـ .

الزكاة من مالك فإنها طهرة تطهِّرك، وتصل أقرباءك، وتعرف حق المسكين والجار والسائل"(١) .

فأعلمه أن الزكاة طهرة له، أي: تطهره من تبعات المال في دينه وأخلاقه، وأفاده أن الزكاة تزكي الأخلاق وتهذب النفس، وهو ما دلت عليه آية التوبة السابق ذكرها .

ندبه صلى الله عليه وسلم إلى طيب المال المزكِّي :

ولأجل ما ذكر ندب صلى الله عليه وسلم المزكِّي أن يطيب نفسه بإخراج ما وجب عليه إخراجه؛ لأنه لا يخرجه إلا لتزكية نفسه ومجتمعه، وتطهير ماله وتنميته، وذلك في أحاديث كثيرة، منها قوله صلى الله عليه وسلم:

١ - :ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان من عبد الله وحده، وعلم أن لا إلٰه إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه، رافدةً(٢) عليه كل عام، ولم يعط الهَرِمة(٣)، ولا الدرِنَة(٤)، ولا المريضة، ولا الشرَطَ اللئيمة(٥)، ولكن من وسط أموالكم، فإن الله لم يسألكم خيره ولم يأمركم بشره"(٦) .

فالنبي صلى الله عليه وسلم يحث في هذا الحديث على طيب النفس في الزكاة،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١٣٦٣، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٦٦/٣ إلى الطبراني في الأوسط من حديث أنس، وقال: ورجاله رجال الصحيح، وكذا قال المنذري في الترغيب ٥١٦/١ .

(٢) الرافدة: من الرِّفد وهو الإعانة، يقال: رفدته أرفده: إذا أعنته، أي: تعينه نفسه على أدائها. النهاية ٢٤١/٢.

(٣) أي: الكبيرة .

(٤) أي: الجرباء .

(٥) أي: رذال المال، وقيل: صغاره وشراره. النهاية ٤٦٠/٢ .

(٦) أخرجه أبو دود في الزكاة، باب في زكاة السائمة برقم ١٥٨٢ منقطعا، لكن قد وصله الطبراني في المعجم الصغير ٢٠١/١، والبيهقي في السنن الكبرى ٩٥/٤، كما أوضح ذلك الشيخ ناصر الدين الألباني في الصحيحة ٣٨/٣ رقم ١٠٤٦، قال: ورجاله ثقات .

وإخراج الوسط الذي ليس كريما على صاحبه حتى يضر به، ولا رديئا بحيث يرغب عنه الآخذ لرداءته أودمامته.

٢ ـ ونحو هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: "خمس من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة، من حافظ على الصلوات الخمس على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن، وصام رمضان وحج البيت إن استطاع إليه سبيلا، وأعطى الزكاة طيبة بها نفسه"(١) .

تحذيره عليه الصلاة والسلام مما يبطل الصدقة :

فإذا كان باذل الزكاة على ذلك الحال من إخراج الوسط من ماله، وهو طيب النفس، كانت الزكاة جالبة ذلك الأثر من التطهير والتزكية، لذلك فعليه أن يحافظ على بقاء أثره فلا يبطله بالمن والأذى كما حذره الله تعالى منه ونهاه عنه .

١ ـ وقد حذره النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك أيضا فقال: "ثلاثة لا يكلّمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات، قال الراوي: فقلت: خابوا وخسروا من هم يا رسول الله ؟ قال: المسبِلُ، والمنَّان، والمنفِق سلعته بالحلِف الكاذب"(٢) .

وفي هذا الحديث من التحذير ما ترتعد من هوله الفرائص، ويُذهِلُ الألباب، لما فيه من عظيم العذاب المترتب على المنِّ .

---

(١) عزاه الهيثمي في المجمع ٥٢/١ إلى الطبراني في الأوسط من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: وإسناده جيد .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان تغليظ تحريم الإزار، والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف برقم ١٠٦، أوبو داود في اللباس برقم ٤٠٨٧، ٤٠٨٨، باب ما جاء في إسبال الإزار، والترمذي في البيوع، باب فيمن جاء فيمن حلف على سلعة كاذبا برقم ١٢١١، والنسائي في البيوع، باب المنفق سلعته بالحلف الكاذب ٢٤٥/٧ من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

٢ ـ وقال أيضا: "لا يدخل الجنة مَنَّانٌ، ولا عاق، ولا مُدمِن خمر"(١) .

فانظر كيف انقلبت الحسنة سيئة كبيرة توبق صاحبها في جهنم، وذلك لِمَا يتبعها من أذى عياذا با لله من ذلك .

ندبه صلى ا لله عليه وسلم لأن يتحرى للصدقة محلاً صالحاً :

وكما ندب أمته وحثها على الحفاظ على ما يبقى للصدقة أثرها في التطهير للنفس والمال، وذلك بعدم المن والأذى، فإنه عليه الصلاة والسلام قد ندب الأمة أيضا لأن تتحرى مواطن صالحة للصدقة وهي التي تكون في أمس الحاجة إليه، وذلك ليعظم الأثر في التطهير والتزكية، وقد بيَّن النبي صلى ا لله عليه وسلم ذلك في أحاديث كثيرة منها قوله :

١ ـ "لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مِرَّةٍ سويّ"(٢)، وذو المرة السوي هو القوي السليم، وذلك لأنه قادر على أن يعف نفسه بالكسب الحلال، فهو إما أن يكون كاسبا لما يغنيه بالفعل، أو بالقوة، وفي كلا الحالين لا تصادف محلا جديرا بالعطاء، وأيضا لئلا يكون في ذلك تشجيعا له على البطالة وترك العمل، فيعيش عالة على المجتمع .

٢ ـ وقد طبَّق النبي صلى ا لله عليه وسلم هذا المبدء بنفسه، حيث جاءه رجلان في حجة الوداع، وهو يقسم الصدقة فسألاه منها، فرفع النظر إليهما وخفضه فرآهما جَلْدين فقال: "إن شئتما أعطيتكما، ولا حظ فيها لغني ولا لقويّ مكتسب"(٣) .

---

(١) أخرجه النسائي في الأشربة، باب الواية في المدمنين في الخمر ٣١٨/٨، من حديث عبد ا لله بن عمرو بن العاص رضي ا لله عنهما، والدارمي في السنن ١١٢/٢، وابن حبان ١٦٣/٥، وأحمد في المسند ١٦٤/٢، ٢٠١، وهو حديث حسن لشواهده الكثيرة، انظر السلسلة الصحيحة للألباني ٢٨٦/٢ برقم ٦٧٣ .

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب من يعطى من الصدقة وحد الغني برقم ١٦٣٤، والترمذي في الزكاة، باب ما جاء من لا تحل له الصدقة برقم ٦٥٢، من حديث عبد ا لله بن عمرو رضي ا لله عنهما، وقال: حديث حسن .

(٣) أخرجه أبو داود في الكتاب والباب السابقين برقم ١٦٣٣، والنسائي في الزكاة، باب مسألة القوي =

فبين لهم عدم استحقاقهما لأخذ شيء من الصدقة، وعدم حل ذلك لهما، غير أنه لكرم أخلاقه خيرَّهما في الأخذ إن أرادا بعد أن بين لهما الحكم الشرعي .

٣ ـ وقد بين عليه الصلاة والسلام بعض الأصناف الذين يُعطون من الصدقة، حتى لا تخطىء موضعها، فقال صلى الله عليه وسلم: "لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: لغاز في سبيل الله، أو لعامل عليها، أو لغارم، أو لرجل اشتراها بماله، أو لرجل له جار مسكين فتصدق على المسكين فأهداها المسكين للغني"(١) .

٤ ـ وندب أن تكون إلى ذي القرابة القريبة؛ لأنهم أولى الناس بالمعروف فقال صلى الله عليه وسلم: "الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة وصِلة"(٢) .

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة المعلومة في كل جزئية من جزئيات هذا المبحث، وهي تدل على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من العلم بمبلغ الأثر الذي تحدثه الزكاة في التطهير والتزكية والنماء للبشرية أفرادا وجماعات .

ولذلك كان يأمر ويندب ويحذر أمته بكل ما فيه تقويم لهذه الشعيرة الإسلامية حتى يتكامل ثمرها على الوجه الأفضل والنحو الأعدل .

وسيأتي مزيد بيان لهذا المبحث، في الباب الثالث عند الحديث عن خلق كرمه صلى الله عليه وسلم، فنذر الحديث والإتمام إلى ذلك المبحث لشدة الحاجة إليه هناك وعظم مناسبته، وبالله التوفيق .

= المكتسب ٩٩/٥، من حديث عبيد بن عبد الله بن الخيار، وإسناده صحيح كما بينه الألباني في الإرواء ٣٨١/٣ .

(١) أخرجه مالك في الموطأ مرسلا، باب أخذ الصدقة ومن يجوز له أخذها ٢٦٨/١، وأبو داود في الزكاة، باب من يجوز له أخذ الصدقة وهو غني برقم ١٦٣٥مرسلا كذلك، ووصله أبو داود في الحديث التالي له برقم ١٦٣٦ من حديث أبي سعيد بإسناد صحيح .

(٢) تقدم تخريجه ص٢٧٣وهو حديث حسن أو صحيح .

المَبْحَثُ الثَّالِثُ

(الصِّيام)

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : في تعريف الصيام وبيان علاقته بالأخلاق .

المطلب الثاني : عناية القرآن الكريم بالصيام

المطلب الثالث : إيجاب الصيام ليكون كفارة على الإساءة .

المَطْلَبُ الأوَّلُ

تعريف الصِّيام وبيان علاقته بالأخلاق

الصيام لغة: الإمساك عن الشيء والترك له، ومنه قيل للصمت: صوم؛ لأنه إمساك عن الكلام، قال الله تعالى: ﴿ إنّي نَذرتُ للرحمن صوماً فلن أكلِّمَ اليومَ إنسياً ﴾[سورة مريم:٢٦] . قال أبو عبيدة(١): كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم"(٢) .

أما شرعاً فهو: عبارة عن إمساك مخصوص،وهو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع من الصبح إلى المغرب مع النّية(٣) .

ويقال أيضا: الإمساك عن المفطّرات الحسية والمعنوية جميع النهار بنِيَّة .

علاقة الصيام بالأخلاق :

الصوم من شرائع الإسلام العظيمة التي شرعها الله تعالى للأمة الإسلامية كما شرعه على من قبلها، وهو من الشرائع الرامية إلى تزكية النفس ورياضتها على مكارم الأخلاق من القناعة والزهد والأمانة،والبعد عن رذائلها من الجشع والخيانة والسباب والفواحش التي تنافي الصوم .

قال العلامة جمال الدين القاسمي(٤): "إعلم أن مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة، والفِطر المستقيمة شرعه الله لعباده رحمة لهم، وإحساناً إليهم وحميَّة وجُنة، قال: فإن مقصود الصيام حبس النفس عن الشهوات، وفطمها عن المألوفات، وتعديل قوّتها

---

(١) هو معمر بن المثنى التميمي اللغوي البصري، كان من أئمة العلم بالأدب واللغة، توفي سنة ٢٠٩هـ. انظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ص ٣٩٥، والاعلام ٢٧٢/٧ .

(٢) الصحاح ١٩٧٠/٥ مادة (صام)، وانظر التفسير الكبير ٦٨/٥ .

(٣) التعريفات ص ١٣٦ .

(٤) صاحب محاسن التأويل في التفسير، وقواعد التحديث وغيرهما، كان إمام الشام في عصره توفي سنة ١٣٣٢هـ. انظر الأعلام ١٣٥/٢ .

الشهوانية لتسعد بطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها، وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية، ويكسر الجوع والظمأ من حدتها وسَورتها، ، ويذكِّرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين، وتضييق مجاري الشيطان من العبد، بتضييق مجاري الطعام والشراب، وحبس قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها ومعادها، ويسكن كل عضو منها، وكل قوة عن جماحها، وتلجم بلجامه فهو لجام المتقين،وجُنَّة المجاهدين، ورياضة الأبرار المقربين، وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال، فإن الصائم لا يفعل شيئا، إنما ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها إيثارا لمحبة الله ومرضاته، وهو سر بين العبد وربه لا يطَّلع عليه سواه"(١) .

قلت: وهذا ما يدل عليه قول الله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم الصِّيامُ كما كُتِب على الَّذين من قبلِكم لعلَّكم تَتَّقون ﴾[سورة البقرة:١٨٣] .

إذ دلت الآية على أن الصوم يورث التقوى، كما يفيده تعليل فريضة الصوم به، والمعنى: ليحصل لكم التقوى بالصوم فإنه يورث التقوى لما فيه من انكسار الشهوة، وانقماع الهوى،فإنه يردع عن الأشر والبطر والفواحش، ويهوِّن لذات الدنيا ورياستها، ويكسر شهوة البطن والفرج، وذلك جامع لأسباب التقوى، قال الفخر الرازي: "فيكون معنى الآية : فرضت عليكم الصيام لتكونوا به من المتقين الذين أثنيت عليهم في كتابي"(٢) .و لعلَّ في مقام الله جل جلاله تفيد الوجوب، لأنها وإن كانت للتَّرجي والإطماع في أصل وضعها، إلا إنه إطماع من كريم فيجري مجرى وعده المحتوم وفاؤُه"(٣) .

والتقوى التي يثمرها الصوم قد علَّق الله تعالى عليها خيرات عظيمة، وسعادات جسيمة في كتابه العزيز، منها: معيَّتُه التي تعني الحفظ واللُّطف كما قال تعالى: ﴿ واتقوا

---

(١) محاسن التأويل ٧٤/٣، وانظر من حكم الشريعة وأسرارها لحامد محمد العبادي ص ١٠٤ - ١٠٨ .

(٢) التفسير الكبير ٧٠/٥ .

(٣) تفسير النسفي ٢٩/١ .

الله واعلموا أنَّ الله معَ المتقين ﴾[سورة البقرة:١٩٤] .

ومنها: العلم اللَّدُنّي كما قال جل شأنه: ﴿ واتَّقوا اللهَ ويعلِّمُكم اللهُ ﴾[سورة البقرة:٢٨٢] .

ومنها: المخرج من كل شدة، وتيسير الرزق من حيث لا يحتسب المرء كما قال تعالى: ﴿ ومن يَتقِ اللهَ يجعلْ لَه مخرجاً*ويرزقْهُ من حيثُ لا يحتسب ﴾[سورة الطلاق:٣] .

ومنها: تيسير كل أمر عسير كما قال تعالى: ﴿ ومن يَتَّقِ اللهَ يجعل له من أمره يُسراً ﴾ [سورة الطلاق:٤] .

ومنها: تكفير السيئات وتعظيم أجر الحسنات كما قال سبحانه: ﴿ ومن يتَّقِ اللهَ يكفِّرْ عنه سَيِّئاتِه ويُعظمْ له أجراً ﴾[سورة الطلاق:٥] .

إلى غير ذلك من الخيرات الجسيمة المترتبة على التقوى التي أشار إليها القرآن الكريم(١) والتي جعل الصيام من أسباب حصولها، لكونه موجبا لاتقاء المعاصي؛ لأنه يعدِّل القُوى الطبيعية التي هي داعية الفساد، فيرتقي المسلم به عن حضيض الانغماس في المادة إلى أوج العالم الروحاني، فهو وسيلة للارتياض بالصفات المَلَكية، والانتفاض من غبار الكُدُرات الحيوانية(٢) .

المطلب الثاني: عناية القرآن الكريم بالصيام

ولأجل ذلك الأثر العظيم الذي يثمره الصوم في زكاء الأخلاق، كانت عناية القرآن الكريم به كبيرة إيجابا له في رمضان وفي غيره، وحثا عليه، وتنويها بأهله في آيات كثيرة .

إيجاب الصيام في القرآن الكريم:

أما إيجاب الصيام فإنه لما كان على ذلك النحو من عظمة الأثر في تزكية الأخلاق، وترويض النفس على مكارمها، وكان شاقاً على النفوس لما فيه من كبح لجماحها،

---

(١) انظر بعضا من تفصيل ذلك في النصائح الدينية مثلا ص ٦-٨ .

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٥٨/١ .

واسترسالها في اللذات والشهوات، أو لما يشغلها عنه واجبات الحياة، المقتضية لإشباع البطن بما تحتاجه من الأكل ونحوه، فكانت الدواعي إلى تركه قائمة وكبيرة، مع عظيم أهميته وبالغ أثره وكبير ثمرته .

لما كان الأمر كذلك، جعل الله تعالى الصيام فريضة إلزامية، وركنا رابعا من أركان الإسلام فقال تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمَنوا كُتِبَ عليكم الصِّيامُ كما كُتِبَ على الَّذين من قبلِكم لعلكم تَتَّقون * أيَّاماً معدوداتٍ فمَن كان منكم مريضاً أو على سَفرٍ فعِدَّةٌ من أيامٍ أُخَر وعلى الَّذين يُطيقونه فديةٌ طعامُ مسكِين فمن تطَوَّع خيراً فهو خيرٌ له وأن تصومُوا خيرٌ لكم إنْ كنتُم تعلمون * شهرُ رمضانَ الَّذي أُنزلَ فيه القرآنُ هدىً للنَّاس وبيِّناتٍ من الهُدى والفُرقان فمن شهِد منكم الشَّهر فليصُمْه ومن كان مريضاً أو على سَفرٍ فعِدَّةٌ من أيَّام أُخَر يُريدُ اللهُ بكم اليُسر ولا يُريد بكم العُسر ولتُكمِلُوا العِدَّة ولتُكبِّرُوا اللهَ على ما هداكم ولعلَّكم تشكرون ﴾[سورة البقرة:١٨٣-١٨٥] .

ففي هذه الآيات يبين الله تعالى لعباده أنه افترض عليهم الصيام في أيام معدودات قلائل، هي شهر رمضان، الذي اختصه من بين الشهور بإنزال القرآن فيه، وبليلة القدر التي هي خير من ألف شهر .

وقد بين افتراضه عليهم أولا بأسلوب الخبر، وثانيا: بصيغة الأمر، وذلك للدلالة على أهمية ذلك المفترَض وحتميَّته، ولذلك لم يكن لأحد عذر في ترك صيام هذا الشهر إلا إلى بدل من صيام أيام أخر، أو فدية إطعام بعدد الأيام عند العجز عن الصيام كلِّيةً، لكِبَرٍ أو مرض مُزمِن لا يُرجى برؤه، وفي تكرار التنصيص على ﴿ عِدةٌ من أيَّام أخر ﴾ عند العجز عن صيام أيام رمضان كلها أو بعضها، دلالة على تأكيد طلب الشارع له، وعدم تنازله عن مطالبة المسلمين به إلا في حالة العجز المستمر من كبر أو مرض أو حمل أو إرضاع، كما دلت عليه السنة، فعندئذ أجاز الانتقال إلى الفدية، وذلك لما في الصوم من عظيم الفائدة في إصلاح النفس البشرية واستقامة أحوال الأمة الإسلامية .

حثه عليه :

ولذلك لم يفتأ يذكّرهم بهذه الفائدة حيث يقول في عِلّيّة الصوم ﴿ لعلّكم تتّقون ﴾ ﴿ لعلّكم تشكُرون ﴾ ، ويرشد أهل الأعذار بترك الصيام بقوله: ﴿ وأن تصوموا خيرٌ لكم إن كنتُم تعلَمون ﴾، أي عظيمَ الأجر وجليلَ ثمرة الصوم في استقامة الأحوال وكرم الأخلاق .

ويقول لهم: ﴿ يريدُ الله بكم اليُسْرَ ولا يُريد بكم العُسْرَ ﴾ للدلالة على أن ما حمله على الترخيص بالإفطارعند الأعذار، إلا إرادة اليسر بهم تمشّيًا مع أصل منهجه في تيسير الشريعة، وإلا لم يكن ليعدل عن طلبه بالذات حتى عند العجز عنه، لما يعلمه فيه من عظيم الأجر والأثر في الدنيا والآخرة والله أعلم .

المطلب الثالث: إيجابه في غير رمضان ليكون كفارة على الإساءات :

ولما كان الصيام بهذه المثابة من عظيم الفائدة وجزيل العائدة، اختاره الشارع لأن يكون كفارة وجبرا لبعض الإساءات المخِلّة بالدين، التي قد يرتكبها المرء في حياته في عباداته أو معاملاته أو سلوكه، وذلك ليهذّب النفوس ويربّيها على عدم العودة إلى مثل تلك الإساءات، لما في الصوم من كبح لزمام النفس الأمّارة بالسوء، وإعادة لها إلى الطهارة والنقاء والتزكية، إن كان مستوفيا لشروطه وآدابه الآتي بيانها في التطبيق إن شاء الله تعالى .

ففي ما يتعلق بالإساءة في العبادات، وذلك في الحج، أو جبه في موضعين:

الموضع الأول: في الإساءة في الحج بارتكاب محظور من محظورات الإحرام كالحَلق ونحوه، أو قتل صيد الحرم، أو أي صيد بري وهو محرم .

الموضع الثاني: عند الترفُّه في الحج بالتمتع أو القِران(١) حيث يعجز عن الهدي .

أما الموضع الأول، وهو الإساءة في الحج بفعل محرَّم من محرماته التي هي من باب

---

(١) التمتع: هو الإحرام بالعمرة في أشهر الحج ثم الحج في ذلك العام، والقران: أن يحرم بالحج والعمرة معا .

الإزالة أو الترفُّه كالحلق والطيب ونحوهما(١)، فقد أوجب الله تعالى جبر ذلك بواحد من ثلاثة أشياء على التخيير: الصيام أو الإطعام أو الذبح، وذلك بقوله سبحانه: ﴿ فمن كان منكم مريضًا أو به أذىً من رأسِه ففِديةٌ من صِيام أو صَدقة أو نُسك ﴾[سورة البقرة:١٩٦] .

فجعل الصيام أولها؛ لأنه أعظم الثلاثة أثرا في استقامة السلوك في المستقبل، إضافة إلى عظم أجره، وهذا فيما إذا كانت الإساءة بفعل شيء يتعلق بجسده .

أما إذا كانت الإساءة بفعل محرم من محرمات الإحرام المتعلقة بغيره، مما يؤذِن انتهاكُها بعدم تعظيمه لشعيرة الحرم أو الإحرام، وذلك كقتل صيد البر وهو محرِم، أو قتل صيد الحرم مطلقاءفقد أوجب الله تعالى واحدا من ثلاثة أمور مرتبة: هديا بالغ الكعبة إن كان الصيد مما له مثل في بهيمة الأنعام ، فإن لم يكن له مثل فيقوِّم الصيد اثنان ذوا عدل، ويخرج القيمة فيشتري بها طعاما يصرفه على مساكين الحرم، لكل مسكين مدٌّ .

فإن عجز عن ذلك عدل إلى الصيام فيصوم بعدد الأمداد التي تبلغها القيمة المقدرة للصيد مهما بلغت كثرة، كما دل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تَقتُلوا الصَّيد وأنتم حُرُمٌ ومن قتَله مِنكم متعمِّداً فجزاءٌ مثلُ ما قتَل من النَّعَم يَحكُمُ به ذوا عدلٍ منكم هدياً بالغَ الكعبة أو كَفَّارةٌ طعامُ مساكينَ أو عدلُ ذلك صِياما لِيذُوقَ وَبَال أمرِه عفا اللهُ عمَّا سلَف ومن عاد فينتَقمُ اللهُ منه واللهُ عزيز ذُو انتقام ﴾[سورة المائدة:٩٥] .

فجعل الصيام واحدا مما يُفدى به عن تلك الإساءة، وجعله منوطا بعدد الأمداد التي كان يمكن للقيمة المقدرة لو وجدت أن تشتريها، ومعلوم أنه قد يكون الطعام رخيصا كما في هذه الأيام، فكم تبلغ الأمداد لو كانت القيمة مائة أو مائتين أو أكثر ؟ لا سيما معارتفاع أسعار مثل هذه الحيوانات البرية من صيد ونحوه كما هو معلوم وملموس .

لذلك كان هذا الجزاء وبالاً على صاحبهأي ثقيلا وشديدا عليه، ولكنه يتلاءم مع سوء الصنيع الذي اقترفه من هتك حرمة الحرم أو الإحرام .

---

(١) من لبس ودهن وحلق وقلم الأظفار، وموضع بحث هذه المسألة معروف في كتب الفقه والمناسك. وانظر الإيضاح في مناسك الحج للإمام النووي ص ٥٢٩-٥٣٨ .

وإنما اختار الله هذا الجزاء الثقيل ليكون ثوابه جابرا لما انتهك من حرمة، وليقوِّم سلوك المرء مستقبلا، ولذلك إذا لم يستقم سلوكه بعد هذا الجزاء المؤلم الثقيل فعاد إلى انتهاك حرمة الإحرام، فإن الله تعالى قد آذنه بعقوبة لا طاقة له بها، وهي الانتقام ﴿ ومن عاد فينتقمُ الله منه ﴾ لأنه بعدئذ يكون معوجَّ السلوك، لا يصلح إلا بالجزاءات الرادعة المربِّية، وصدق الله إذ يقول: ﴿ ومن أحسنُ مِن الله حُكماً لِقومٍ يُوقنون ﴾[سورة المائدة:٥٠] .

أما الموضع الثاني، وهو ما إذا عجز عن هدي التمتع ومثله القران، فإن الله تعالى قد جعل له بدلا عن ذلك، وهو صيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى بلده كما قال سبحانه: ﴿ فمن تَمَتَّع بالعُمرةِ إلى الحجِّ فما اسْتيسَّر من الهدي فمن لم يجد فصيامُ ثلاثةِ أيَّامٍ في الحجّ وسبعةٍ إذا رجعتُم تِلك عشْرةٌ كامِلة ذلك لمن لم يكنْ أهلُه حاضِري المسجدِ الحرام ﴾[سورة البقرة:١٩٦] .

فجعل الصيام بدلا عن الهدي عند فقده أو العجز عنه، لما في الصيام من الكفاية والسداد لما يؤديه الهدي من الجبران، ولذلك قال: ﴿ كاملة ﴾ "أي: كاملة في الثواب لسدها مسد الهدي في المعنى الذي جعلت بدلا عنه"(١) .

فانظر كيف جعل الصيام جابرا لما يقع في النسك من تقصير أو إساءة، وذلك لما في الصوم من الوفاء بذلك النقص لعظيم أجره، ولما فيه من تعديل للخلق وتقويم له، فيحمل صاحبه إلى عدم العودة إلى مثل تلك الإساءة أو التقصير، لما يورث في صاحبه من التقوى.

إيجاب الصيام على الإساءة في المعاملات الاجتماعية:

وكما أوجب الله تعالى الصيام على الإساءة في بعض العبادات وهي الحج، فكذلك أوجبه على الإساءة في بعض ما يجري بين المسلمين من المعاملات وذلك كالإساءة بالقتل، أو الظهار، أو الحنث باليمين .

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٢/٨٠، وانظر التفسير الكبير للفخر الرازي ٥/١٥٨ .

فإن الله تعالى أوجب على الإساءة في هذه الأشياء كفارة لتكون جابرة لعظم تلك الذنوب ومقومة لأخلاق المسلم وسلوكه وجعلها موازية في الشدة لعظم الجرم الذي اقترفه لتكون كفيلة بتقويم خلقه، وجابرة لعظم ذنبه .

١ ـ فالقتل جريمة كبيرة يقترفها المرء في حق أخيه، توجب له المقت والغضب، أو التخليد في النار، لذلك أوجب الله تعالى فيه القصاص إن كان عمدا عدوانا، أو الدية إن رضي أولياء المقتول بها، وبالإضافة إلى الدية أوجب الله تعالى الكفارة العظمى، وهي عتق رقبة مؤمنة، فإن عجز عنها وجب الانتقال إلى صيام شهرين متتابعين، لا يقطعهما بفطر يوم واحد، فإن قطعهما بفطر يوم انقطع التتابع، ووجب الاستئناف، ما لم يكن هناك عذر شرعي مبيح للفطر كالحيض والنفاس مثلا، وسواء في هذه الكفارة القتل العمد والخطأ، وقتل المسلم أو الذمي، فيجب في كل بالإضافة إلى الدية إن لم يكن قصاص، تلك الكفارة لقوله تعالى: ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً ﴾[سورة النساء:٩٢] .

فانظر كيف انتقل القرآن الكريم بالكفارة من العتق عند العجز عنه لتعذر الحصول عليه أو على قيمته إلى الصيام وأي صيام ؟ إنه صيام شهرين كاملين متتابعين، أي لا يفصل بينهما فطر، وذلك لتستل منه النزعة الوحشية، وتزكو أخلاقه، ولا ريب فإن صيام ستين يوما متتابعة صياما كاملا محافظا فيه على الآداب، كفيل بإعادة المرء إلى سلوك الإسلام وأخلاقه الحميدة، فإنه يحصل مثله بشهر، فكيف إذا كان الصيام شهرين متتابعين ؟

٢ ـ والظهار ـ وهو قول الرجل لامرأته:أنت علي كظهر أمي،أو نحوه،جريمة كبيرة(١)

---

(١) ممن عدها كبيرة ابن حجر الهيتمي في الزواجر ٥٣/٢، والألوسي في تفسيره روح المعاني ٥/٢٨/١٠، بل قال: إنه أخطر من كثير من الكبائر، إذ قضيته الكفر، لولا خلو الاعتقاد عن ذلك، واحتمال التشبيه لذلك وغيره. ا.هـ .

سماه الله تعالى ﴿ منكراً من القول وزوراً ﴾ لأنه إحالة حكم الله وتبديله بدون إذنه، لذلك كانت كفارته إذا لم يتبعه فورا بالطلاق، كفارة عظمى وهي تحرير رقبة مؤمنة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا، كما بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ والذين يُظاهرون من نسائِهم ثم يعودون لما قالوا فتحريرُ رقبةٍ من قبل أن يَتماسَّا ذلكم تُوعظونَ به والله بما تعْملون خبير * فمن لم يجد فصيامُ شهرين مُتَتَابعين من قبل أن يَتماسَّا فمن لم يستطعْ فإطعامُ ستِّينَ مسكيناً ذلك لتُؤمِنوا بالله ورسولِه وتلك حدودُ الله وللكافرين عذابٌ أليم ﴾[سورة المجادلة:٣،٤] .

فأوجب الله عز وجل عند العجز عن تحرير الرقبة لفقدها أو فقد ثمنها، أو ارتفاعه عن حده، الانتقال إلى صيام شهرين متتابعين، وذلك لما في هذا الصيام من الوفاء بجبر تلك الإساءة لعظم أجره، ولما فيه من تقويم للسلوك، وتهذيب للأخلاق، ولذلك اشترط فيه التتابع حتى يؤتي ثماره في التزكية .

ولما كان الظهار قد يقع من الكبار الذين قد يعجزون عن القيام بصيام شهرين متتابعين، جعل الله تعالى لهم مندوحة في الانتقال إلى إطعام ستين مسكينا .

بخلافه في القتل الذي غالبا ما يكون من الأقوياء، فإن الله لم ينص فيه على بدل عن الصيام، لما يريده لهم من التزكية في الأخلاق، لأن تجرأهم على القتل يدل على انحطاط أخلاقهم، وإن كان خطأ، فإنه يدل على التهاون في الحذر والاحتياط لحماية النفس والله أعلم .

٣ ـ واليمين ـ وهو الحلف بالله أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته الأخرى ـ حقه أن يحفظ، لما في حفظه من إشعار بتعظيم الله تعالى وتبجيله، وكثرة الحلف تؤذن بأن القلب غير عامر بتعظيم الله وإجلاله كما ينبغي.

وقد أمر الله تعالى المؤمنين بأن يحفظوا أيمانهم فقال: ﴿ واحفظُوا أيمانَكم ﴾[سورة المائدة:٨٩]، وحفظها هو أن يضِن بها ولا يبذلها في كل أمر، أو بأن يبرَّ فيها ما استطاع إذا لم يفت بها خير، أو أن يكفر عند الحنث(١)، ونهاهم عن كثرة الحلف فقال:

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ص ١٦١ .

﴿ ولا تجعلوا الله عُرضةً لأيمانِكم أن تبرُّوا وتتَّقوا ﴾[سورة البقرة:٢٢٤] ، وقال: ﴿ ولا تتخذوا أيمانَكم دخَلاً(١) بينكم فتزِلَّ قدم بعد ثُبوتها ﴾[سورة النحل:٩٢] .

فإذا لم تفد هذه التوجيهات الإلهية من أوامر ونواهي، فحقه أن يزجر، وذلك إذا لم يف بيمينه، وحنث فيها، بأن يكفر عن يمينه بما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿ لا يُؤاخذُكُم الله باللَّغو في أيمانِكم ولكن يؤاخِذُكم بما عقَّدتم الأيمانَ فكفَّارتُه إطعامُ عشرةِ مساكين من أوسطِ ما تُطعمون أهلِيكم أو كسوتُهم أو تحريرُ رقبةٍ فمن لم يجد فصيامُ ثلاثةِ أيامٍ ذلك كفارةُ أيمانِكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانَكم كذلك يُبيِّنُ اللهُ لكم آياتِه لعلَّكم تشكرون ﴾ [سورة المائدة:٨٩] .

فجعل الصيام كفارة لليمين عند العجز عن الإطعام أو العتق، وذلك لما في الصيام من فضل يجبر الإساءة التي حصلت في عدم الوفاء باليمين، وهو يهذب النفس ويزكي أخلاقها في تعظيم الله تعالى وإجلاله كما يجب أن يكون على المؤمنين، على ما مر تقريره .

فترى أن الله تعالى أوجب الصيام في مثل هذه الإساءات التي قد تحصل من المرء مما يكون في عباداته أو معاملاته أو سلوكه، وجعله قرين المال الذي يكون إخراجه في مثل هذه الأحوال على هيئة عتق أو إطعام، زاجرا للنفس على العود إلى مثل تلك الإساءة لما جبلت عليه النفس من الشح في المال، فله أبلغ الأثر في استقامة الأخلاق والسلوك، وجعل الصوم بدلا عنه؛ لأنه يؤدي ما تؤديه الكفارة بالمال من تقويم الأخلاق "فإنه يُعدل القوى الطبيعية التي هي داعية الفساد، فيرتقي المسلم به عن حضيض الانغماس في المادة، إلى أوج العالم الروحاني، فهو وسيلة للارتياض بالصفات الملكية والانتفاض من غبار الكدرات الحيوانية"(٢) .

---

(١) أي: فساد أو خديعة .

(٢) انظر التحرير والتنوير ١/١٥٨ .

تنويه القرآن العظيم بالصائمين والصائمات :

ولما له من ذلك الأثر العظيم، والأجر الجسيم، كان تنويه القرآن الكريم بالمؤدين له، في أوقات وجوبه، والمكثرين منه فيما سوى ذلك، تنويها عظيما حيث كان يذكرهم على سبيل المدح والثناء والإشادة، وذلك كما في قول الله تعالى: ﴿ إنَّ المسلمين والمسلماتِ والمؤمنينَ والمؤمناتِ والقانتينَ والقانتاتِ والصَّادقينَ والصَّادقاتِ والصَّابرينَ والصَّابراتِ والخاشعينَ والخاشعاتِ والمتصدِّقين والمتصدِّقاتِ والصَّائمين والصائماتِ والحافِظين فروجَهم والحافظاتِ والذَّاكرينَ الله كثيرا والذَّاكراتِ أعدَّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾[سورة الأحزاب:٣٥] .

فذكر الصائمين والصائمات ضمن أولئك الذين زكت أخلاقهم من المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات، وامتازوا بالنبوغ في الأخلاق العظيمة التي سرد ذكرها على سبيل المدح والثناء والامتنان .

وإنما ذكر الصائمين والصائمات في سياق تعداده لأهل تلك المكارم الأخلاقية من قنوت وصدق وصبر وخشوع وكرم وعفاف وذكر لله، لأن الصيام الكامل يورث كل ذلك؛ لأن مثل تلك المكارم الأخلاقية العظيمة، إنما هي من ثمار التقوى التي يورثها الصوم، فلذلك سيق في عدادها كأنه واحد منها، والله أعلم .

ولما كان الصيام بتلك المثابة، اختصه الله تعالى لنفسه بالإضافة إليه كما جاء في الحديث القدسي: "كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به.."(١) .

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم، باب فضل الصوم ٣/٣١، ومسلم في الصيام، باب حفظ اللسان برقم ١١٥١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

تطبيق النبي صلى الله عليه وسلم للصيام

ولما كان الصيام له تلك المكانة عند الله تعالى، وله ذلك الأثر في التزكية، كان أحرص الخلق عليه، أكثرهم تُقى، وأعظمهم خلقا، وهو سيدنا ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان يصوم صياما يعجز عنه غيره بلا ريب، كما دلت على ذلك أحاديث كثيرة تدل على إكثاره منه، وحثه عليه، وتبيينه لآدابه وأحكامه، بحيث ينوء الحصر هنا .

إكثاره صلى الله عليه وسلم من الصيام :

فعن كثرة صيامه تحدثنا عائشة رضي الله عنها وتقول:

١ ـ "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم، قالت: وما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استكمل صيام شهر قطُّ إلا رمضان، وما رأيته في شهر أكثر صياما منه في شعبان"(١) .

٢ ـ وقال أنس رضي الله عنه: "ما كنت أحب أن أراه من الشهر صائما إلا رأيته، ولا مفطرا إلا رأيته، ولا من الليل قائما إلا رأيته، قال: ولا مسست خزَّة ولا حريرا ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا شممت مسكة ولا عبيرة أطيب رائحة من رائحة رسول الله صلى الله عليه وسلم"(٢) .

٣ ـ وكذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: "ما صام النبي صلى الله عليه وسلم شهرا كاملا قط غير رمضان، ويصوم حتى يقول القائل: لا والله لا يفطر، ويفطر حتى يقول القائل: لا والله لا يصوم"(٣) .

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم، باب صوم شعبان ٣/٥١، ومسلم في الصيام، باب صيام النبي صلى الله عليه وسلم في غير رمضان برقم ١١٥٦ .

(٢) أخرجه البخاري في الصوم، باب ما يذكر من صوم النبي صلى الله عليه وسلم ٣/٥٠، ومسلم في الصيام، باب صيام النبي صلى الله عليه وسلم في غير رمضان برقم ١١٥٨ واللفظ للبخاري .

(٣) أخرجه البخاري في الصوم، الباب السابق، ومسلم فيه كذلك برقم ١١٥٧ .

فهؤلاء الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يصورون لنا صيام النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه كان من الكثرة بحيث يقول الناظر له، والمتأمل لحاله: إن الصيام دأب له وعادة، أو الإفطار كذلك لكثرة مايصوم وكثرة ما يفطر .

(وذلك لأنه كان يصوم تارة من أول الشهر، وتارة من وسطه، وتارة من آخره، فكان من أراد أن يراه في وقت من أوقات الشهر صائما فراقبه المرة بعد المرة فلا بد أن يصادفه صائما، على وفق ما أراد أن يراه)(١) .

صيامه صلى الله عليه وسلم أياما بعينها :

صيامه الاثنين والخميس:

وكان مع ذلك يصوم أياما بعينها من الأسبوع أو الشهر أو السنة .

١ ـ "فكان عليه الصلاة والسلام يتحرى صيام يوم الاثنين والخميس"(٢)،

٢ ـ ويقول كما في رواية أخرى: "تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم"(٣) .

صيامه ثلاثة أيام من الشهر :

٣ ـ وسئلت عائشة رضي الله عنها: أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم من

---

(١) انظر فتح الباري ٤٧/٩ .

(٢) أخرجه الترمذي في الصوم، باب ما جاء في صوم الاثنين والخميس برقم ٧٤٥ من حديث عائشةرضي الله عنها، والنسائي في الصوم، باب صوم النبي صلى الله عليه وسلم ٢٠٢/٤، ٢٠٣، وابن ماجه في الصيام، باب صيام الاثنين والخميس برقم ١٧٣٩، وقال عنه الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه .

(٣) أخرجها الترمذي في الباب السابق برقم ٧٤٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي إسناده محمد إبن رفاعة ، وهو مقبول كما في التقريب برقم ٥٨٧٩، ولكن للحديث شواهد ترقيه إلى مرتبة الحسن بل الصحة انظر إرواء الغليل ١٠٢/٤ ـ ١٠٤ .

كل شهر ثلاثة أيام ؟ قالت: نعم، قيل لها: من أي أيام الشهر كان يصوم ؟ قالت: لم يكن يبالي من أي أيام الشهر يصوم"(١) .

٤ - وقالت عائشة رضي الله عنها: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم من الشهر: السبت والأحد والاثنين، ومن الشهر الآخر: الثلاثاء والأربعاء والخميس"(٢) .

٥ - وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم من غرَّة كل شهر ثلاثة أيام"(٣) .

٦ - وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفطر أيام البيض في حضر ولا سفر"(٤) .

وأيام البيض: هي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من الشهر القمري .

وكان يوصي بذلك أصحابه كما قال أبو هريرة رضي الله عنه :

٧ - "أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام"(٥) .

إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على مواظبته صلى الله عليه وسلم على صيام أيام

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر برقم ١١٦٠، وأبو داود في الصوم، باب من قال: لا يبال من أي الشهر برقم ٢٤٥٣ .

(٢) أخرجه الترمذي في الصيام، باب ما جاء في صوم الاثنين والخميس برقم ٢٧٤٦، وقال عنه: حديث حسن .

(٣) أخرجه أبو داود في الصوم، باب في صوم الثلاث من كل شهر برقم ٢٤٥٠، والترمذي فيه، باب ما جاء في صوم الجمعة برقم ٧٤٢، والنسائي في الصوم، باب صوم النبي صلى الله عليه وسلم ٢٠٤/٤، وقال عنه الترمذي: حسن غريب .

(٤) أخرجه النسائي في الصوم، باب صوم النبي صلى الله عليه وسلم ١٩٨/٤، ١٩٩، وإسناده حسن .

(٥) أخرجه البخاري في الصوم، باب صيام أيام البيض ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة ٥٣/٣، ومسلم في الصلاة، باب استحباب صلاة الضحى وأنَّ أقلها ركعتان برقم ٧٢١، ٧٢٢ .

بعينها من كل شهر، وهي تدل على حرصه صلى الله عليه وسلم على الصيام ومواظبته عليه، ومحبته له .

٨ ـ ولقد دل على ذلك أيضا قول أبي الدرداء(١) رضي الله عنه: "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر في يوم حار، حتى يضع الرجل يده على رأسه من شدة الحر، وما فينا صائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن رواحة"(٢) .

فكونه صلى الله عليه وسلم يحرص على الصيام في السفر، وهم في تلك الحالة من الحر، وقد أباح الله تعالى الإفطار فيه بقوله سبحانه: ﴿ فَمن كان مِنكُم مريضاً أو على سَفَرٍ فعِدَّةٌ من أيامٍ أُخَر ﴾[سورة البقرة:١٨٤]، فكونه يصوم والحال ماذكر يدل دلالة واضحة على عِظم رغبته في الصوم، كما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يأخذ نفسه بعزائم الأمور، ما لم يغلّب جانب بيان الشرع، فإنه حينئذ يأخذ بالرخص وما فيه رفق بالمسلمين كما فعل في غزوة الفتح، وكانت في رمضان من العام الثامن، حيث صام حتى بلغ الكَدِيْد(٣)، ثم أفطر وأفطر الناس معه(٤) .

مواصلته صلى الله عليه وسلم للصوم :

ولتلك الرغبة الكاملة والمحبة العظيمة من النبي صلى الله عليه وسلم للصوم، كان

---

(١) هو عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري، صحابي جليل، أسلم يوم بدر، وشهد أحدا وأبلى فيها بلاء حسنا، وكان عابدا ، مات في أواخر خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه. انظر: الاستيعاب ١٨٥/٥، والاصابة ٤٥/٣ .

(٢) أخرجه البخاري في الصوم، باب إذا صام أياما من رمضان ثم سافر ٤٤/٣، ومسلم في الصيام، باب التخيير في الصوم والفطر في السفر برقم ١١٢٢ .

(٣) جاء تفسيره في الرواية نفسها عند البخاري بأنه: ماء بين عسفان وقديد، وفي مراصد الاطلاع ١١٥٢/٣: على اثنين وأربعين ميلا من مكة .

(٤) كما جاء في رواية البخاري في الصوم، باب إذا صام أياما من رمضان ثم سافر ٤٣/٣، ومسلم في الصيام، باب التخيير في الصوم والفطر في السفر برقم ١١١٣، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

يواصل الصوم الأيام بالليالي "ليوفر ساعات ليله ونهاره للعبادة"(١)، والأدلة على ذلك كثيرة :

١ ـ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول صلى الله عليه وسلم قال: "إياكم والوصال، إياكم والوصال، قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله، قال: إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني، فاكلَفوا(٢) من العمل ما تطيقون"(٣) .

٢ ـ وعن أنس رضي الله عنه قال: واصل رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر شهر رمضان، فواصل ناس من المسلمين، فبلغه ذلك فقال: "لو مُد لنا الشهر لواصلنا وصالاً يدع المتعمِّقون تَعَمُّقهم(٤) ، إنكم لستم مثلي،أو قال: لست مثلكم،إني أظل يطعمني ربي ويسقيني"(٥) .

أي: يجعل فيَّ قوة الطاعم الشارب، ولهذا لم يؤثر الصيام على جسده الشريف كما هو الحال عند غيره من سائر المؤمنين، فقد كان يصوم من غير أن يتسحر، فقد روت عائشة رضي الله عنها قالت :

٣ ـ دخل عليَّ النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال: هل عندكم من شيء ؟ فقلنا: لا، قال: فإني إذا صائم، ثم أتانا يوما آخر فقلنا: يا رسول الله أُهدي لنا حَيس، فقال: أرِنيه فلقد أصبحت صائما فأكل"(٦) .

---

(١) قاله ابن القيم في زاد المعاد ٣٢/٢ .

(٢) يقال: كلفت بهذا الأمر أكلَفه، إذا ولعت به وأحببته .ا.هـ، النهاية ١٩٦/٤ .

(٣) أخرجه البخاري في الصيام، باب التنكيل لمن أكثر الوصال ٤٩/٣، ومسلم في الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم برقم ١١٠٥ .

(٤) المتعمق: المبالغ في الأمر المتشدد فيه الذي يطلب أقصى غايته، النهاية ٢٩٩/٣ .

(٥) أخرجه البخاري في الصوم، باب الوصال٤١/٣، ومسلم في الصوم، باب النهي عن الوصال في الصوم برقم ١١٠٤ .

(٦) أخرجه مسلم في الصيام، باب جواز صوم النافلة بنية من النهار قبل الزوال برقم ١١٥٤، وأبو داود في =

٤- وفي رواية قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتيني فيقول: أعندك غداء ؟ فأقول: لا، فيقول: إني صائم، قالت: فأتاني يوما فقلت: يا رسول الله إنه قد أهديت لنا هدية، قال: وما هي ؟ قلت: حَيْس، قال: أما إني قد أصبحت صائما ثم أكل"(١) .

فهكذا كان صوم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهكذا كانت رغبته فيه .

وما ذلك إلا لما يعلمه في الصوم من عظيم الفضل، وكبير الأجر، وبليغ الأثر في تهذيب النفس، وتزكية الخُلق، وهو ما كان يعبر عنه صلى الله عليه وسلم بلسانه الشريف ليحثهم عليه ويرغبهم فيه .

من أقواله صلى الله عليه وسلم الدالة على فضل الصوم والمرغبة فيه :

وأقواله في ذلك كثيرة جدا، ومن ذلك في بيان فضله: قوله عليه الصلاة والسلام :

١ - "من صام رمضان إيمانا واحتسابا غُفِر له ما تقدم من ذنبه"(٢) .

ومعنى إيمانا: تصديقا واعتقادا بأحقِّية فرضية صومه، ومعنى احتساباً: طلب الثواب من الله(٣) .

٢ - وقوله صلى الله عليه وسلم: "ما من عبد يصوم يوما في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خَريفا"(٤)، أي: مدة سير سبعين عاما .

= الصوم، باب الرخصة في النية في الصيام برقم ٢٤٥٥، والترمذي في الصوم، باب صوم التطوع بغير تبييت برقم ٧٣٢، ٧٣٣، والنسائي في الصوم، باب االنية في الصيام ١٩٣/٤ .

(١) هذه رواية الترمذي في الباب السابق برقم ٧٣٤ .

(٢) أخرجه البخاري في الصوم، باب فضل الصوم ٣٣/٣، ومسلم في صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح برقم ٧٦٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) فتح الباري ٢٥٠/٨ .

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد، باب فضل الصوم في سبيل الله ٣٢/٤، ومسلم في الصوم، باب فضل الصيام في سبيل الله لمن يطيقه برقم ١١٥٣ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

٣ ـ وقوله فيما يرويه عن ربه عز وجل: "كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى: "إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به يدع شهوته وطعامه من أجلي، للصائم فرحتان؛ فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولَخُلُوف(١) فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك"(٢) .

حثه صلى الله عليه وسلم على فضل صيام أيام بعينها :

وكان عليه الصلاة والسلام يبين فضل صيام أيام بعينها كيوم عرفة ، ويوم عاشوراء، وست أيام من شوال، وذلك بقوله صلى الله عليه وسلم :

١ ـ "ثلاث من كل شهر ورمضان إلى رمضان، فهذا صيام الدهر كله، صيام عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله، والسنة التي بعده، وصيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله"(٣) .

٢ ـ وقوله صلى الله عليه وسلم في صيام ست من شوال: "من صام رمضان ثم أتبعه ستا من شوال فذلك صيام الدهر"(٤) .

أي: أجره كأجر صيام سنة كاملة لأن الحسنة بعشر أمثالها .

إلى غير ذلك من حثه صلى الله عليه وسلم على صيام أيام بعينها مما هو مبين في مظانه

---

(١) هو تغير ريحه من ترك الأكل والشرب .

(٢) أخرجه البخاري في الصوم، باب فضل الصوم ٣/٣١، ومسلم في الصيام، باب حفظ اللسان برقم ١١٥١ رقم حديث الكتاب ١٦٤، واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم في الصيام ، باب استحباب صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وصوم يو عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس برقم ١١٦٢، من حديث أبي قتادة، والترمذي في الصوم، باب ما جاء في فضل صوم عرفة برقم ٧٤٩، وفي الحث على صوم عاشوراء برقم ٧٥٢ .

(٤) أخرجه مسلم في الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال اتباعا لرمضان برقم ١١٦٤، من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، والترمذي في الصوم، باب ما جاء في صيام ستة أيام من شوال برقم ٧٥٩ .

بيانه صلى الله عليه وسلم لما في الصوم من تزكية للأخلاق :

وقد كان عليه الصلاة والسلام يبين لأمته ما يفعله الصوم من تزكية للأخلاق، ويحثهم على ما يعين على ذلك فيقول :

١ - "الصيام جُنة"(١) .

ومعنى كونه جُنة: أي وقاية تقي صاحبها ما يؤذيه من الشهوات(٢) .

وذلك لأنه إمساك عن الشهوات، والنار محفوفة بالشهوات، فإذا كف المرء نفسه عن الشهوات في الدنيا كان ذلك ساترا له عن النار في الآخرة(٣) .

ولذلك كان عليه الصلاة والسلام ينهى أمته عن أن تهتك أستاره وتفعل ما يفسد هذه الوقاية من المحرمات فيقول :

٢ - ".. فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث(٤) يومئذ ولا يسخب(٥) فإن سابَّه أحد أو قاتله فليقل: إني امرؤ صائم.."(٦) .

٣ - ويقول: "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه"(٧) .

وذلك لأن المقصود من شرعية الصوم ليس هو نفس الجوع والعطش، بل ما يتبعه من

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم، باب فضل الصوم ٣١/٣، ومسلم في الصيام، باب فضل الصيام برقم عام ١١٥١، وخاص ١٦٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٣٠٨/١ .

(٣) انظر فتح الباري ٢٣٦/٨ .

(٤) المراد بالرفث هنا: الكلام الفاحش، وهو يطلق على هذا وعلى الجماع وعلى مقدماته وعلى ذكره مع النساء أو مطلقا، ويحتمل أن يكون لما هو أعم منها، الفتح ٢٣٧/٨ .

(٥) أي: لا يصيح .

(٦) هو تتمة للحديث السابق عند البخاري، وإحدى رواياته عند مسلم برقم خاص ١٦٣ .

(٧) أخرجه البخاري في الصيام، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم ٣٣/٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

كسر الشهوات وتطويع النفس الأمارة بالسوء، فإذا لم يحصل ذلك لا ينظر الله إليه نظرة قبول"(١) ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام :

٤ - "رُبَّ صائمٍ ليس له من صيامه إلا الجوع، ورُب قائم ليس له من قيامه إلا السهر"(٢) .

٥ - وفي حديث آخر قال: "رُبَّ صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، ورب قائم حظه من قيامه السهر"(٣) .

والمعنى: أن من الناس من لم يستفد من صومه، فلم يؤثر فيه تهذيبا للنفس ، وتزكية للأخلاق، وذلك من لم يصن صومه عن مفسدات آثاره الحسية أو المعنوية، فراح يرفث ويفسق، وكان عليه إذا أراد أن ينال ثمرة الصوم وأجره أن يصونه عن اللغو والرفث والفسوق والعصيان كما قال صلى الله عليه وسلم :

٦ - "ليس الصيام من الأكل والشرب، إنما الصيام من اللغو والرفث، فإن سابك أحد أو جهل عليك فقل: إني صائم، إني صائم"(٤) .

والمعنى: أن الصوم لا يكون بالإمساك عن الأكل والشرب فقط، بل لا بد أن يصحبه أيضا إمساك عما ذكر من اللَّغو والرفث؛ لأن ذلك من غايات الصيام المهمَّة، والله الموفق والهادي لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا هو .

---

(١) فتح الباري ٢٥٣/٨ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في الصيام ٥٣٩/١ برقم ١٦٩٠ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وابن خزيمة في الصيام ٢٤٢/٣ برقم ١٩٩٧، والحاكم في المستدرك ٤٣١/١، وقال: صحيح على شرط البخاري، وأقره الذهبي، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة ٣٠١/١ .

(٣) حديث صحيح تقدم تخريجه ص ٢٤٧ .

(٤) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه ٢٤٢/٣، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وابن حبان في آداب الصوم ١٩٨/٤ برقم ٣٤٧٠ الإحسان،والحاكم في الصيام ٤١٠/١، وقال: صحيح على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي .

المَبْحَثُ الرَّابعُ

(الحجُّ)

وفيه مطالب :

١ ـ تعريفه وبيان علاقته بالأخلاق .

٢ ـ الابتعاد فيه عن الرفث والفسوق .

٣ ـ الإكثار من ذكر الله تعالى فيه .

٤ ـ التقرب فيه إلى الله بالهدي ونحوه .

٥ ـ تعظيم حرمات الله تعالى فيه .

المطلب الأول: تعريف الحج :

الحج لغة: القصد للزيارة، يقال: رجل محجوج أي: مقصود، وقد حج بنو فلان فلانا: إذاأطالوا الاختلاف إليه(١) .

وفي الشرع: "قصد لبيت الله تعالى بصفة مخصوصة، في زمن مخصوص بشروط مخصوصة"(٢) .

علاقة الحج بالأخلاق :

الحج من أعظم العبادات التي ترمي إلى نزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق، وذلك لما فيه من أحكام وآداب، ورياضات روحية ونفسية، تجعل النفس ترتاض على مكارم الأخلاق، وتبعد عن رذائلها التي حظرت فيه على وجه الخصوص، فهو كسائر العبادات التي جعلها الله تعالى أساسا للتربية، وغرس الأخلاق الفردية والاجتماعية؛ السلوكية والتعاملية .

لا جرم فقد قال الله تعالى: ﴿ الحجُّ أشهرٌ معلوماتٌ فمن فَرض فيهنَّ الحجَّ فلا رفثَ ولا فسوقَ ولا جدالَ في الحجّ وما تفعَلُوا من خيرٍ يَعلمْهُ اللهُ وتزوَّدوا فإنَّ خير الزَّادِ التَّقوى واتقونِ يا أُولِي الألبابِ ﴾[سورة البقرة:١٩٧] .

فإن هذه الآية فيها الحث على الأخلاق الجميلة والتمسك بالآداب الحسنة، والاحتراز عما يحبيط ثواب الطاعات(٣) ، وذلك بالصبر والإخلاص والاستعلاء على شهوات الجسد، وإنفاق المال فيما يحبه الله، والتخلص من الكبر والعجب والغرور والنفور التام عن مساوىء الأخلاق من رفث وفسوق وجدال ومراء وغير ذلك مما سيأتي بيانه في المطالب الآتية :

---

(١) الصحاح مادة (حج) ٣٠٣/١، والمفردات للراغب ص ١٠٧ .

(٢) التعريفات ص ١٢، والتوقيف للمناوي ص ٢٦٨، وأنيس الفقهاء للقسونوي ص ١٣٩ .

(٣) التفسير الكبير ١٦٦/٥ .

المطلب الثاني: الابتعاد فيه عن منكرات الأخلاق من الرفث والفسوق والجدال

لما كان الحج مبنيا على اجتماع المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها، فيأتون من كل فج عميق إلى مكان واحد، وفي موسم واحد، وكان هذا الاجتماع العظيم أعظم اجتماع إسلامي وبشري على وجه الأرض، ومثل هذا الاجتماع العظيم مظِنة لأن يجري فيه الاختلاف، أو نحوه من مساوىء الأخلاق وذلك لكثرة الجمع ذاك، مع ضيق المساحة، وحرارة الطقس غالبا، وكثرة الاحتكاك بين أفراده في المعاملات والمخاطبات في المساجد والطرقات .

لما كان حال الحج ما ذكر، كان أجدر بأهله المجتمعين لأدائه أن يكونوا فيه متحلين بكمال الأخلاق في سلوكهم وتعاملهم حتى يؤدوا هذا النسك العظيم،الركن الخامس من أركان الإسلام على أكمل وجه، ويجنوا منه أينع الثمار .

وهذا ما عني به القرآن الكريم، فألزم مؤدِّيه به وذلك حين قال: ﴿ الحجُّ أشهرٌ معلوماتٌ فمن فَرضَ فيهنَّ الحجَّ فلا رفثَ ولا فسوقَ ولا جدالَ في الحج.. ﴾[سورة البقرة:١٩٧] .

فمنع أن يكون في الحج أي شيء يجر إلى مساوىء الأخلاق من أي جهة كان انبعاثه، عن طريق الشهوة أو رقة الدين أو الغضب ..، وجاء ذلك بأسلوب النفي "للمبالغة في النهي والدلالة على أنها حقيقة بأن لا تكون"(١) .

والرفث: كلمة جامعة لكل ما يفسد الحج، أو لا يليق لمن كان متلبسا بالحج بقوله أو فعله لحرمة الحج(٢) .

والفسوق: الخروج عن حدود الشرع وارتكاب المحظورات المحرمة في الحج من قتل صيد وحلق شعر ونحوهما، والمعاصي كلها لا يختص منها شيء دون شيء .

والجدال: الخصام مع الخدم والرفقة،والمماراة مع الناس للتغالب وحظ النفس،حتى

---

(١) روح المعاني للألوسي ٨٦/٢/١ .

(٢) البحر المحيط لأبي حيان ٨٧/٢ .

يؤدي إلى الغضب(١) .

فنهى الله تعالى عن هذه الأمور الثلاثة التي تنشأ عنها مساوىء الأخلاق بذلك الأسلوب البالغ في الدلالة كما علمت، ثم أكد على مضمون تلك المنهيات بقوله: ﴿ وما تفعلوا من خيرٍ يعلمْه الله ﴾ "إذ فيه حث على الخير عقيب النهي عن الشر، وأن يستعملوا مكان القبيح من الكلام: الحسن، ومكان الفسوق: البر والتقوى، ومكان الجدال: الوفاق والأخلاق الجميلة"(٢) .

والالتزام بمضمون هذه الآية ممن يحج بيت الله طول فترة الحج من حين الإحرام إلى حين الفراغ من أداء المناسك، مع كثرة نزعات النفس والشيطان إلى عصيان الله تعالى بالوقوع في حمأة تلك المساوىء؛ يُروِّضُ النفس على الرُّقيِّ بها إلى مكارم الأخلاق ومعاليها .

ولا بد للحاج من الالتزام بذلك إذا أراد بحجه وجه الله تعالى؛ لأن حجه لا يكون مبرورا، ولا مكفرا لسيئاته، بل قد لا يكون صحيحا إلا إذا التزم بمضمون هذه الآية، كما دلت على ذلك السنة المشرفة التي منها قوله صلى الله عليه وسلم: "من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه"(٣) .

وقوله عليه الصلاة والسلام: "العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة"(٤) .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الأعمال ؟ فقال: "الإيمان بالله

---

(١) البحر المحيط ٨٧/٢، وروح المعاني ٨٦/٢/١ .

(٢) محاسن التأويل لجمال الدين القاسمي ١٥٢/٣ .

(٣) أخرجه البخاري في الحج، باب فضل الحج ١٦٤/٢، ومسلم في الحج، باب فضل الحج والعمرة برقم ١٣٥١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) أخرجه البخاري في الحج، باب العمرة ٢/٣، ومسلم في الحج، باب فضل الحج والعمرة برقم ١٣٤٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ورسوله، قيل: ثم ماذا ؟ قال: جهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا ؟ قال: حج مبرور"(١).

فبين في الحديث الأول ثمرة عدم الرفث والفسوق في الحج من أنها تصيِّر الحاج نقيا من الذنوب والآثام كحاله يوم ولادته،كما بين الحديث الثاني أن الحج المبرور لا تقتصر فائدته على تكفير لبعض الذنوب، بل لا بد أن يبلَغ بصاحبه الجنَّة(٢) .

والحج المبرور الذي رتب عليه ذلك الثواب والإكرام هو الذي لا يخالطه إثم من حين الإحرام إلى حين التحلل(٣) .

أما الحديث الثالث: فقد أبان عن مرتبة الحج المبرور، ودل على أن مرتبته عظيمة، إذ جعله النبي صلى الله عليه وسلم تاليا لمرتبتي الإيمان بالله تعالى، والجهاد في سبيله، وفضل تينك المرتبتين معلوم ومشهور، وقد قرن بهما الحج المبرور لتعلم منزلته منهما .

وعندئذ فلا يسع المسلم بعد معرفة ذلك الفضل إلا أن يسعى إلى تحصيله ليسعد بأثره، وليس هناك من سبيل إلى تحصيله إلا أن يصير حجه مبرورا، وذلك بالبعد عن المعاصي والآثام التي منها الرفث والفسوق والجدال وغيرها .

ومعلوم أن المسلم لا يهدف من حجه إلا أن يكون مبرورا،ليطهر نفسه من الآثام والذنوب التي قد اكتسبها، لا سيما إن كان قد تجشَّم مصاعب كثيرة بدنية ومالية ونفسية؛ لأنه إن لم ينل ذلك فإنه سيرى أنه قد خسر مراده من حجه، وهو ما لا يريده المسلم لنفسه، وعليه فإنه سيحرص على المحافظة على حجه محافظة شديدة إلى أن يفرغ من أعماله، وذلك بالالتزام بالأخلاق المرضية والآداب الشرعية حتى ينال ثواب الحج المبرور .

وإذا ما فعل ذلك فإنه سيكون قد ارتاض على مكارم الأخلاق في فترة ليست قصيرة

---

(١) أخرجه البخاري في الحج، باب فضل الحج المبرور ١٦٤/٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) القرى لقاصد أم القرى ص ٣٤ .

(٣) الإيضاح في مناسك الحج للإمام النووي ص ١٥ .

مما يجعل أمامه نموذجا يحتذى، ويسهل عليه السير على ذلك المنهج في بقية حياته، وإذا ما سار عليه بقية حياته فإن ذلك علامة بر حجه، إذ علامة (ذلك أن يرجع خيرا مما كان ولا يعاود المعاصي)(١)، وكم من عباد الله رجعوا من حجهم بحال أحسن من الحال التي كانوا عليها قبله، واستُدل بذلك على أَوبهم بربح عظيم،من ذلك المشهد العظيم،الذي جعل الله تعالى من غاياته أن يصدُر الحاج منه بمنافع عظيمة دينية ودنيوية، حيث قال جل ذكره: ﴿ وأذِّنْ في النَّاسِ بالحجِّ يأتُوك رجالاً وعلى كلِّ ضامرٍ يأتينَ من كلِّ فجٍ عميق * ليَشهدُوا منافعَ لهم ويذكُروا اسمَ اللهِ في أيَّامٍ معلوماتٍ على ما رَزقهم من بهيمةِ الأنعام ﴾[سورة الحج:٢٧،٢٨] .

ولا ريب أن تزكية النفس وسمو الخلق اللذين يكتسبهما الحاج في حجه، ويؤثران عليه في بقية حياته هما من أجل المنافع وأعظمها بركة في دينه ودنياه .

المطلب الثالث: الإكثار من ذكر الله تعالى فيه

وذلك لأن ذكر الله تعالى في الحج على الدوام يجعل الإنسان في حصن منيع من الوقوع في المناهي التي تذهب برَّ الحج أو تفسده بالكلية، لأنه بالأذكار يتذكر عظمة الله وعظمة المكان الذي يعيش فيه، فلا يقدم عندئذ على ارتكاب مخالفة أو إخلال بأدب .

وقد جعل القرآن الكريم من أهداف الحج وغاياته ذكر الله تعالى حيث قال: ﴿ ليَشهدُوا منافعَ لهم ويذكرُوا اسمَ اللهِ في أيام معلوماتٍ على ما رزقهم من بَهيمةِ الأنعام ﴾[سورة الحج:٢٨] .

وقال أيضا: ﴿ ولكلِّ أمةٍ جعلنا منسكاً ليذكرُوا اسمَ الله على ما رزَقهم من بهيمةِ الأنعام فإلهُكم إلهٌ واحد فله أسلموا وبَشِّر المُخبِتين * الَّذين إذاذُكِر اللهُ وجِلت قلوبُهم ﴾[سورة الحج: ٣٤،٣٥] .

وقال أيضا: ﴿ فاذكُروا اللهَ عندَ المشعرِ الحرامِ واذكُروه كما هداكم وإنْ كنتُم من

---

(١) انظر الإيضاح ص ١٦، والقرى ص ٢٤ .

قبله لمن الضَّالين * ثم أفيضُوا من حيث أفاضَ النَّاسُ واستغفِروا اللهَ إنَّ الله غفور رحيم ﴾[سورة البقرة:١٩٨،١٩٩] .

وقال سبحانه: ﴿ واذكروا اللهَ في أيَّامٍ معدوداتٍ ﴾[سورة البقرة:٢٠٣] .

فكل هذه الآيات تدل على أن المقصود الأهم من شرعية المناسك والنسك هو ذكر الله تعالى وتعظيمه وشكره،لما لذكر الله تعالى من أثر في إصلاح النفوس واستقامة الأخلاق، وقد أوضحت ذلك السنة المطهرة، ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنما جُعل الطَّواف بالبيت وبين الصفا والمروة لإقامة ذكر الله تعالى"(١) أي: لأن يذكر الله تعالى في هذه المواضع المباركة .

فدل الحديث على أن الغاية من إقامة هذه الشعائر هي ذكر الله تعالى، فإذا كان ذكر الله هو الغاية من الحج، فإن من فرط فيه فقد فرط في لُبِّه وسره وغايته، لذلك نرى أن الشارع قد أفعم أعمال الحج بالأذكار من حين التَّلبس به إلى حين الفراغ منه، حيث جعل لكل زمان ومكان ذكرا يشغل المرء به نفسه ويناجي به ربه، من تلبية وأذكار في الطواف والسعي وغيرهما، وتهليل وتكبير وأذكار عامة وخاصة، واختُصَّ من هذه الرحاب أمكنة يستجاب فيها الدعاء والذكر(٢)، فعلى الحاج أن يحرص على الإكثار من ذكر الله تعالى، وليحذر من الغفلة فإن بذكر الله تطمئن القلوب، وتستقيم الأخلاق، وحري بأمر هذه ثمرته أن يحافظ عليه أبدا .

ولذلك أمر الله تعالى به بعد الفراغ من المناسك، ليظل المسلم على عهد الاستقامة والصلاح، ويواصل المسيرة في درب التقوى والفلاح، فقال تعالى: ﴿ فإذا قَضيتُم مناسكَكَم فاذكُروا الله كذكرِكم آباءَكم أو أشدَّ ذكرا ﴾ ثم بين أصناف الناس في

---

(١) أخرجه أبو داود في المناسك، باب في الرَّمَل رقم ١٨٨٨، من حديث عائشة رضي الله عنها، والترمذي في الحج، باب ما جاء كيف يرمي الجمار رقم ٩٠٢ وفيه عنده ذكر "رمي الجمار" بدل الطواف، وقال عنه: حسن صحيح .

(٢) انظر الإيضاح للنووي ص ٢٧١ بحاشية ابن حجر .

الاستجابة إلى هذا الأمر الكريم فقال: ﴿ فمِن النَّاسِ من يَقولُ ربَّنا آتِنا في الدِّنيا ومالـه في الآخرةِ من خَلاق * ومنهم من يقولُ رَبَّنا آتِنا في الدُّنيا حسنةً وفي الآخِـرة حسـنةً وقنـا عذابَ النار * أولئِك لهم نصيبٌ مما كسبُوا والله سريعُ الحساب ﴾[سورة البقرة:٢٠٠- ٢٠٢].

فبين جل شأنه أنهم فريقان: أحدهما قصر دعاءه على طلب الدنيـا فحظـه منهـا متـاع زائل ثم ليس له في الآخرة من نصيب .

والآخر جمع في طلبه بين خيري الدنيا والآخرة فجمع الله لـه ذلـك ، والله ذو الفضـل العظيم .

﴿ من كان يُريدُ حرثَ الآخرةِ نَزد له في حَرثهِ ومن كان يُريدُ حرثَ الدُّنيا نؤتـهِ منهـا وماله في الآخِرة من نصيب ﴾[سورة الشورى:٢٠] .

المطلب الرابع: التقرب فيه إلى الله تعالى بالهدى

"لأن في ذلك تزكية النفس وتطهيرها عن صفة البخل، وتزيينها بجمـال التعظيـم للّـه عز وجل"(١) .

لذلك عني القرآن الكريم بالهدى وتحدث عنه حديثا مستفيضا، وأوجبـه تـارة، ونـدب إليه أخرى في غيرما آية .

فأوجبه بمثل قوله: ﴿ وأتمُّوا الحجَّ والعمرةَ لله فإن أُحصرتم فما اسْتيسر مـن الهَـدي ولا تحلِقوا رءوسَكم حتى يَبلُغَ الهديُ مَحِلَّه فمن كان منكم مريضًا أو به أذًى من رأسِـه ففِديـةٌ من صيامٍ أو صدَقةٍ أو نُسـك فـإذا أمنتُـم فمـن تمتَّـع بـالعمرةِ إلى الحـجِّ فمـا استيسـرَ مـن الهـدي ﴾[سورة البقرة:١٩٦]الآية .

فتضمنت الآية إيجابه في ثلاثة مواضع؛ عند الإحصار وهو الحبـس عـن دخـول مكـة ، وعند الحاجة إلى حلق الرأس أو تغطيته، وعند التمتع بالعمرة إلى الحج .

ودلت السنة على إيجابه كفارةً في مواطن أخرى كثيرة تعلم مـن كتـب المناسـك خاصـة،

---

(١) الإحياء ٢٣٨/١ .

وكتب السنة والفقه عامة، وأوجبه كذلك عند التعرض للصيد واصطياده في الحرم أو الإحرام حيث قال سبحانه: ﴿ يا أيُّها الَّذين آمنوا لا تقتُلوا الصَّيدَ وأنتم حُرُمٌ ومن قَتله منكم متعمِّداً فجزاءٌ مثلُ ما قتل من النَّعَم يحكم به ذَوا عدلٍ منكم هَدْيًا بالغَ الكعبة ﴾ [سورة المائدة:٩٥] .

أما ندبه إليه فقد كان في معرض الامتنان على إسداء الله هذه النعمة لعباده، وقد تحدثت عن ذلك سورة الحج بإسهاب، ومن حديثها عنه قوله تعالى: ﴿ ليشهدُوا منافعَ لهم ويذكُروا اسمَ اللهِ في أيَّامٍ معلوماتٍ على ما رزَقهم من بهيمةِ الأَنعام فكُلوا منها وأطعِموا البائسَ الفقير ﴾[٢٨]، وقوله: ﴿ ذلك ومن يُعظِّم شعائرَ اللهِ فإنها مِن تقوى القلوب * لكم فيها منافعُ إلى أجلٍ مسمًّى ثم مَحِلُّها إلى البيتِ العتيق * ولكلِّ أمةٍ جَعَلْنا منْسكاً ليذكُروا اسمَ اللهِ على ما رزَقهم مِن بهيمةِ الأَنعام ﴾[٣٢-٣٤]، وقوله جل شأنه: ﴿ والبُدنَ جعلناها لكُم من شعائرِ اللهِ لكم فيها خيرٌ،فاذكروا اسمَ اللهِ عليها صوافَّ فإذا وَجَبَتْ جُنوبُها فكلُوا منها وأطعِموا القَانعَ والمُعتَرَّ،كذلك سخَّرناها لكم لعلَّكم تَشكُرون * لن يَنالَ اللهَ لحومُها ولا دماؤُها ولكن ينالُه التَّقوى منكم،كذلك سخَّرها لكم لِتكبِّروا الله على ما هداكم وبشِّر المحسنين ﴾[سورة الحج:٣٦،٣٧] .

ويُرى أن الله تعالى بالغ في تعظيم ذبح بهيمة الأنعام في هذه السورة وغيرها، وذلك للامتنان على الخلق بعظيم هذه النعمة التي أسداها لعباده "ولا سيما العرب إذ منها طعامهم وشرابهم ولباسهم وأثاثهم وخباؤهم وركوبهم وجمالهم، فلولا تفضله تعالى عليهم بتذليلها لما قامت لهم قائمة؛ لأن أرضهم ليست بذات زرع، وما هم بأهل صناعة مشهورة ولا جزيرتهم متحضرة متمدنة"(١) فالمِنَّة تعظم في حقهم لذلك، هذا من حيث هي منَّة .

لكنها في الحج لها معان أخرى جليلة ودقيقة قد يقف العقل حائرا إذا ما حاول إدراكها، وإذا ما حاول جاهدا أن يدرك شيئاً من تلك المعاني التي يحملها سوق الهدي

---

(١) محاسن التأويل ١٢/٢٠ .

والتقرب بها إلى الله تعالى، فإن غاية ما يقدر أن يقف عليه مثلي،هو أن في ذلك إشارة إلى ثمرة قهر النفس إذا ما عارضت داعي الله تعالى، كما حدث لنبي الله إسماعيل عليه السلام الذي دحض نفسه وأسقط حقها في الحياة،حينما عارضتها إرادة الله من أبيه بأن يتقرب بابنه إلى المولى جل وعلا شكرا على إنعامه عليه ببناء بيته العظيم، فطاوع الأمر الإلهي، وسلم نفسه لأبيه ليتصرف فيه بما أمر، ولما علم الله صدقه وقهره لنفسه وهواه فداه بذبح عظيم، كما قال الله جل ذكره: ﴿ فلمَّا أسلما وتلَّه للجبينِ * وناديْنَاهُ أن ياإبراهيمُ * قد صدَّقت الرُّويا إنَّا كذلك نَجزي المحسنين * إنَّ هذا لهو البَلاءُ المبين * وفديناه بذِبحٍ عظيم ﴾[سورة الصافات:١٠٣-١٠٧] .

فالحاج حينما قهر نفسه عن خلودها إلى الراحة والدَّعة وأتم نسكه كان قد أدى عملا عظيما يستوجب الشكر لمن وهبه ذلك التوفيق، وقد بين الخالق نوع الشكر المراد منه هنا من أنه قربانٌ يقدمه لخالقه ومالكه كما فعل أبو الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام، وأصبح شرعا لمن بعده بإقرار شريعتنا له وندبها إليه .

وإضافة على ذلك فإن في تقديم الهدي تلبية لدعاء إبراهيم عليه السلام لذريته، وساكني هذا البلد الأمين في أن يتولى الله جل جلاله إطعامهم، إذ لا حيلة لهم في كسب طعامهم؛ لأنهم بواد غير ذي زرع ، فاستجاب الله تعالى دعاءه، وجعل ذلك عن طريق قاصدي بيته العظيم، ويؤكد ذلك قوله تعالى ممتنا على ساكني مكة بعظيم نعمته عليهم: ﴿ .. الَّذي أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف ﴾[سورة قريش:٤] .

المطلب الخامس: تعظيم حرمات الله تعالى فيه

وذلك باستشعار عظمة هذه البقاع الطاهرة، والمشاعر المقدسة الشريفة التي حرمها الله يوم خلق السمٰوات والأرض، وتذكَّر أن المرء وهو في فِناء الملك يكون أكثر تعظيما له منه إذا كان في غير ذلك الموطن، وإساءته الأدب فيه يجعله أكثر تعرضا للعقاب منه في غيره، لأن إساءته وهو في ذلك المكان يشعر بعدم المبالاة بالملك واستخفافه به ﴿ و لِلّه المثَلُ الأعلى ﴾[سورة النحل:٦٠]، إذ ﴿ ليس كمثلِه شيءٌ وهو السَّميع البصير ﴾ [سورة

الشورى:١١]، ولذلك نجد أن الله تعالى قد آذن من يسيء أدبه في حرمه وفناء بيته بالعقاب الشديد حيث قال: ﴿ ومن يُرِد فيه بإلحادٍ بظُلمٍ نُذقْه من عذابٍ أليم ﴾[سورة الحج:٢٥]، والإلحاد:هو الميل عن القصد، وهو شامل لكل معصية لأن الآية عامة(١) .

فترى أن الله تعالى قد توعد صاحب الإرادة السيئة بالعذاب الأليم كما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه: "لو أن رجلا هم بخطيئة لم تكتب عليه، ولو هم بقتل رجل بمكة وهو بِعَدَن أَبْيَن(٢) لعذبه الله جل وعز ثم قرأ: ﴿ ومن يُرد فيه بإلحاد ...﴾الآية(٣) .

فإذا كانت المؤاخذة تتم في مكة المكرمة بمجرد الإرادة، فكيف بمن اقترف الذنب بالفعل، ولذلك جاء في الأثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لَخطيئة أصيبها بمكة أعز علي من سبعين خطيئة أصيبها برُكبة"(٤) ، وكان يقول أيضا: "يا معشر قريش الحقوا بالأرياف فهو أعظم لأخطاركم وأقل لأوزاركم"(٥) .

وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن مقامه بغير مكة فقال: مالي ولبلد تضاعف فيه السيئات كما تضاعف الحسنات"(٦) وكان قد خرج من مكة فأقام بالطائف حتى توفاه الله تعالى .

ولذلك كره جماعة من السلف منهم أبو حنيفة رحمه الله تعالى، كرهوا الجوار بمكة لخوف الملل وقلة الاحترام، وخوف ارتكاب ذنب هنالك، فإن المعصية فيها ليست كغيرها،

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٣٩٤/٣ .

(٢) المدينة المعروفة في جنوب اليمن، ونسبت إلى أبين وهو رجل من حمير؛ لأنه أول من سكنها، وللفرق بينها وبين عدن لاعة بقربها، انظر تاج العروس ٢٧٥/٩، ومعجم البلدان ٨٩/٤ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣٩٣/٣، قال ابن كثير: وإسناده صحيح على شرط البخاري، ووقفه أشبه من رفعه، ا.هـ تفسير ابن كثير ٢١٥/٣ .

(٤) تأريخ مكة للأزرقي ١٣٤/٢، وركبة: مفازة على يومين من مكة، وعن الأصمعي أنها بنجد، وانظر: مراصد الاطلاع ٦٢٩/٢ .

(٥) تأريخ مكة للأزرقي ١٣٤/٢ .

(٦) إعلام الساجد في أحكام المساجد للزركشي ص ١٢٨ .

ولتهييج الشوق إليها بسبب فراقها(١) .

ولا بدع فقد قال الله تعالى : ﴿ ذلك ومن يُعظِّم حُرُماتِ الله فهو خيرٌ له عند ربِّه ﴾ [سورة الحج:٣٠]، أي فالتعظيم خير له من التهاون بشيء منها، وحرمات الله هي ما أمر به من المناسك، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هي جميع المناهي في الحج: فسوق وجدال وجماع وصيد، وتعظيمها أن لايحوم حولها(٢) .

قال القرطبي: "الحرمات المقصودة هاهنا: هي أفعال الحج المشار إليها في قوله: ﴿ ثُمَّ ليقضُوا تَفثهم ..﴾الآية، ويدخل في ذلك تعظيم المواضع كما قاله ابن زيد وغيره(٣) .

وقال الله تعالى: ﴿ ذلك ومن يُعظِّم شعائرَ اللهِ فإنَّها من تَقوى القلوب ﴾[سورة الحج:٣٢]، وشعائر الله تعالى هي: مواضع الحج كلها من منى وعرفة والمزدلفة والصفا والمروة والبيت وغير ذلك، كما قاله جمع من السلف(٤)، ويدل له قوله تعالى: ﴿ إنَّ الصَّفا والمروةَ مِن شعائرِ الله ﴾[سورة البقرة:١٥٨]، أو هي الهدايا خاصة لأنها من معالم الحج وشعائره كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ والبُدْنَ جعلناها لكم من شعائرِ الله ﴾[سورة الحج:٣٦](٥) .

قال ابن جرير: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أن تعظيم شعائره وهي ما جعله أعلاما لخلقه فيما تعبدهم به من مناسك حجهم، من الأماكن التي أمرهم بأداء ما افترض عليهم منها عندها، والأعمال التي ألزمهم عملها في حجهم من تقوى قلوبهم، لم يخصص من ذلك شيئا، قال: فتعظيم كل ذلك من تقوى القلوب وحق على عباده المؤمنين به تعظيم جميع ذلك"(٦) ا.هـ .

---

(١) القرى لقاصد أم القرى ص ٦٦١ .

(٢) روح المعاني ١٤٦/١٧/٦ ، والتفسير الكبير ٣١/٢٣ ، وتفسير القرطبي ٥٤/١٢ .

(٣) تفسير القرطبي ٥٤/١٢ .

(٤) انظر روح المعاني ١٥٤/١٧/٦ .

(٥) محاسن التأويل ٢٥/١٢ .

(٦) تفسير ابن جرير ١٥٧/١٧، وانظر زاد المسير ١٦٤/١ .

تطبيق النبي صلى الله عليه وسلم للحج

بعد أن فرض الله الحج على عباده بادر النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحج من غير تأخير(١) . فحج حجته الوحيدة الشهيرة المسمّاة بـ"حَجة الوداع" في العام العاشر من هجرته المباركة، ولم يحج حجة سواها بعد فرضه.

وقد بين لأمته الحج الذي أراده الله تعالى من عباده بفعله وقوله الكريمين في هذه الحجة .

١- وقال لأصحابه الكرام: "خذوا عني مناسككم،لا أدري لعلّي لا أحج بعد حجتي هذه"(٢) . وقد أخذ عنه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم مناسك الحج وبينوها لمن وراءهم كما هو معلوم من كتب المناسك وفي كتب السنة المشرفة في كل صغيرة وكبيرة.

وكان مما بينوه لنا من مناسكه في الحج ذكر الله تعالى والتقرب إليه بالهدى والأضاحي وتعظيم الحرم والمشاعر...

٢- فقد روى جابر بن عبدالله ، رضي الله عنهما في حديثه الطويل الذي وصف فيه حَجة النبي صلى الله عليه وسلم: أن أول ما تلبس به من أمر المناسك هو ذكر الله تعالى، حيث قال في حديثه ذاك: "فأهلّ بالتوحيد:لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .."(٣) .

---

(١) انظر زاد المعاد في هدى خير العباد ٢/١٠١-١٠٢، وحجة الوداع لمحمد زكريا الكاندهلوي ص ٢٤-٢٥

(٢) أخرجه مسلم في الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر برقم ١٢٩٧، وأبو داود في المناسك، باب رمي الجمار برقم ١٩٧٠، والنسائي في الحج، باب الركوب إلى الجمار واستظلال المحرم ٥/٢٧٠ .

(٣) أخرجه مسلم في الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم تاما برقم ١٢١٨، وكذا أبو داود في المناسك، باب صفة حجة النبي صلى الله عليه وسلم برقم ١٩٠٥، والنسائي في مواضع كثيرة مفرقا =

٣- وكذا قال عبدا لله بن عمر رضي ا لله عنهما(١) .

٤- وفي رواية له قال: كان عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه يهل بإهلال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم من هؤلاء الكلمات ويقول: "لبيك اللهم لبيك، لبيك وسعديك والخير في يديك، والرغباء إليك والعمل"(٢) .

٥- ولزم النبي صلى ا لله عليه وسلم تلبيته(٣) هذه لا سيما إذا لقي رَكبا أو علا أَكَمة، أو هبط واديا، أو كان في دبر الصلوات المكتوبات، أو آخر الليل(٤) .

٦- وكان إذا رأى شيئا يعجبه قال: "لبيك إن العيش عيش الآخرة"(٥) .

٧- وإذا فرغ من تلبيته "سأل ا لله مغفرته ورضوانه واستعاذ برحمته من النار"(٦) .

= وابن ماجه في المناسك، باب حجة رسو ا لله صلى ا لله عليه وسلم برقم ٣٠٧٤ .

(١) انظر البخاري في الحج، باب التلبية ٢/١٧٠، ومسلم في الحج، باب التلبية وصفتها بررقم ١١٨٤ .

(٢) أخرجها مسلم في الكتاب والباب السابقين برقم ١١٨٨ .

(٣) كما جاء في حديث جابر عن أبي داود .

(٤) كما جاء في حديث جابر رضي ا لله عنه من رواية ابن عساكر في تخريج أحاديث المهذب، كما قال الحافظ ابن حجرفي التلخيص الحبير ٢/٢٣٩ وقال: في إسناده من لا يعرف، قال الحافظ: وروى الشافعي عن سعيد بن سالم عن عبيد ا لله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أنه كان يلبي نازلا وراكبا ومضطجعا، انظر الأم ٢/١٥٧ .

(٥) أخرجه الشافعي في الأم ٢/١٠٦، والبيهقي في السنن الكبرى ٥/٤٥ من رواية مجاهد مرسلا، ورواه الحاكم متصلا من رواية عكرمة عن ابن عباس رضي ا لله عنهما أن النبي صلى ا لله عليه وسلم وقف بعرفات فلما قال: لبيك قال: إن الخير خير الآخرة، وقال: حديث صحيح، وأقره الذهبي، المستدرك ١/٤٦٥، ورواه ابن خزيمة في المناسك من صحيحه ٤/٢٦٠ برقم ٧٠٩ كرواية الحاكم. وانظر خلاصة البدر المنير ١/٣٦٠ .

(٦) أخرجه الشافعي في الأم ٢/١٥٧ من حديث خزيمة بن ثابت، وفي إسناده صالح بن محمد بن أبي زائدة أبو واقد الليثي وهو مدني ضعيف كما في التلخيص ٢/٢٤٠ من طريق إبراهيم بن أبي يحيى وهو ثقة عند =

٨- ويقول لأصحابه: "أفضل الحج العجُّ والثَّجُّ"(١) ، والعج هو: رفع الصوت بالتلبية، والثَّج هو: سيلان دماء الهدي والأضاحي(٢) .

أما في الطواف والسعي فقد كان صلى الله عليه وسلم يقطع التلبية فيهما ويأتي بأذكار أخرى .

٩- فعن عبدالله بن السائب(٣) رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الطواف ما بين الركنين: "ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار"(٤) ، وكان إذا وقف على الصفا يكبر ثلاثا ويقول: "لا إلهَ إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير" يصنع ذلك ثلاث مرات ويدعو ويصنع على المروة مثل ذلك. كما جاء في حديث جابر بن عبدالله في صفة حج النبي صلى الله عليه وسلم(٥) .

= الشافعي، ضعيف عند الجمهور، غير أنه لم يتفرد به بل تابعه عليه عبد الله بن عبد الله الأموي .

أخرجه البيهقي في السنن ٤٦/٥ .

(١) أخرجه الترمذي في الحج برقم ٨٢٧ باب ما جاء في فضل التلبية والنحر ، وابن ماجة في المناسك برقم ٢٩٢٤، والحاكم في المناسك ٤٥٠/٣، وصححه وأقره الذهبي، كلهم من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

(٢) النهاية لابن الأثير مادة (ثج) ٢٠٧/١، و(عج) ١٨٤/٣ .

(٣) ابن أبي السائب المخزومي المكي، له ولأبيه صحبة، وكان قارىء مكة، توفي في إمارة ابن الزبير وصلى عليه ابن عباس سنة بضع وستين. انظر الإصابة ٣٠٤/٢ .

(٤) أخرجه أبو داود في المناسك ، باب الدعاء في الطواف برقم ١٨٩٢، وعبد الرزاق في المصنف ٥٠/٥، والطبراني في الدعاء برقم ٨٥٩، وفي إسناده عبيد مولى السائب بن أبي السائب المخزومي، لم يوثقه غير ابن حبان، وقال الحافظ في التقريب رقم ٤٤٠٦ مقبول، وبقية رجاله ثقات .

(٥) وقد تقدم تخريجه من حديث مسلم وغيره .

١٠- وإذا سعى في بطن المسيل قال: "اللهم اغفر وارحم وأنت الأعز الأكرم"(١) .

١١- وفي حديث جابر رضي الله عنه في صفة حج النبي صلى الله عليه وسلم قال: ".. ثم خرج من الباب إلى الصفا فلما دنا من الصفا قرأ ﴿ إِنَّ الصَّفا والمروةَ مِن شعائرِ الله ﴾[سورة البقرة:١٥٨] ثم قال: "أبدأُ بما بدأَ الله به"فبدأ في الصفا فرقَى عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحَّد الله وكبَّره، وقال: لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إلٰه إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده" ثم دعا بين ذلك، قال هذا ثلاث مرات، الحديث(٢) .

وكان يقول:

١٢- "إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة لإقامة ذكر الله تعالى"(٣) .

١٣- أما في عرفة فقد روى البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى بسنديهما إلى عبدالله ابن عباس رضي الله عنهما قال: "إن أسامة - يعني ابن زيد - كان رِدف النبي صلى الله عليه وسلم من عرفة إلى المزدلفة، ثم أردف الفضل ــ يعني ابن عباس - من المزدلفة إلى منى، قال: فكلاهما قال: لم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يلبي حتى رمى جمرة العقبة"(٤) .

١٤-غير أنه لم يكن مقتصرا في هذا الموقف العظيم على التلبية، فقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: "أفضل الدُّعاء دعاءُ يوم عرفة وأفضلُ ما قلت أنا والنبيون من قبلي

---

(١) أخرجه الطبراني في الدعاء برقم ٨٦٩، وفي إسناده ليث بن أبي سليم وهو صدوق، لكن اختلط جدا ولم يتميز حديثه فترك، التقريب برقم ٥٦٨٥، فالحديث ضعيف لأجله .

(٢) تقدم تخريجه من حديث مسلم قريبا .

(٣) حديث صحيح تقدم تخريجه قريبا **ص٢٠٨**

(٤) أخرجه البخاري في الحج، باب التلبية والتكبير عند غداة النحر ٢/٢٠٤، ومسلم في باب استحباب إدامة الحاج التلبية حتى يشرع في رمي جمرة العقبة برقم ١٢١٨ .

: لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير"(١) .

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: "كنت رِدف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفات فرفع يديه يدعو فمالت به ناقته فسقط خطامها فتناول الخطام بإحدى يديه وهو رافع يده الأخرى"(٢) .

١٥ ـ أما في المزدلفة فبعد أن صلى الفجر ركب ناقته القصواءحتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعا الله وكبره وهلّله ووحّده، ولم يزل واقفا حتى أسفر جدا.

ثم دفع قبل أن تطلع الشمس إلى منى ، فلما وصلها رمى جمرة العقبة وكبر وهلّل، وكان يكبر مع كل حصاة(٤) ، ولم يزل يلبي حتى رمى جمرة العقبة (٤) .

١٦ ـ وأخرج البخاري(٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يرمي الجمرة الدنيا بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة، ثم يتقدم فيُسْهِل(٦) فيقوم مستقبل القبلة طويلا ويدعو ويرفع يديه ثم يرمي الوسطى، ثم يأخذ ذات الشمال فيسهل فيقوم

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ١٦٨/١ في القران، وفي الحج ٢٩٢/١ بتنوير الحوالك مرسلا، ونقل السيوطي عن ابن عبد البر قوله: لا خلاف عن مالك في إرسال هذا الحديث، ولا أحفظه بهذا الإسناد مسندا من وجه يحتج به، وقد جاء مسندا من حديث علي في الدعاء للطبراني برقم ٨٧٤، قال السيوطي: وأبي هريرة أخرجه هو ـ أي حديث أبي هريرة ـ وحديث ابن عمرو: البيهقي في شعب الإيمان برقم ٤٠٧٢، وحديث علي، بن أبي شيبة وبقي بن مخلد والجندي في فضائل مكة، ا.هـ تنوير الحوالك ١٦٨/١ .

قلت: ورواه الترمذي موصولا في الدعوات من حديث عبد الله بن عمرو برقم ٣٥٧٩ بإسناد حسن فهو شاهد له ويتقوى به إلى درجة الحسن، وله شاهدان آخران عند الطبراني في الدعاءبرقم ٨٧٤، ٨٧٥ .

(٢) أخرجه النسائي في الحج، باب رفع اليدين في الدعاء بعرفة ٢٥٤/٥ ورجال إسناده ثقات .

(٣) كما جاء في حديث جابر وقد تقدم تخريجه .

(٤) كما جاء في حديث ابن عباس عند مسلم برقم ٢٨١ .

(٥) في الحج ، باب إذا رمى الجمرتين يقوم ويسهل مستقبل القبلة ٢١٨/٢ .

(٦) أي: يسير في السهل .

مستقبل القبلة، ثم يدعو ويرفع يديه ويقوم طويلا، ثم يرمي الجمرة ذات العقبة من بطن الوادي، ولا يقف عندها، ثم ينصرف. ويقول: هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله" .

١٧ - وفي رواية قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رمى الجمرة التي تلي مسجد منى يرميها بسبع حصيات، يكبر كلما رمى بحصاة، ثم تقدم أمامها فوقف مستقبل القبلة رافعا يديه يدعو، وكان يطيل الوقوف، ثم أتى الجمرة الثانية، وذكر نحو ذلك"(١) .

١٨ - وكان يقول: "أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله"(٢) .

كذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في إقامة ذكر الله تعالى في الحج:جدا واجتهادا، وطول قيام وتضرع .

أما التقرب فيه إلى الله تعالى بالهدي والأضاحي فقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك الشيء العظيم :

١ - حيث بلغ مجموع الهدي الذي ساقه النبي صلى الله عليه وسلم معه، والذي قدم به علي رضي الله عنه مائة من الإبل، نحر ثلاثا وستين بدنة بيده الشريفة، ثم أعطى عليا فنحر ما غبر وأشركه في هديه(٣) .

٢ - ولم يكتف بذلك بل ضحَّى عن نسائه بالبقر(٤)، ولقد كان يرسل بالهدي من المدينة في السنين الأولى التي لم يحج فيها كما ثبت في البخاري ومسلم من حديث عائشة

---

(١) أخرجه البخاري في باب الدعاء عند الجمرتين ٢١٩/٢ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه مسلم في الصيام، باب تحريم صوم أيام التشريق، من حديث نبيشة الهذلي رضي الله عنه برقم ١١٤١ .

(٣) كما جاء في حديث جابر، وفي حديث علي رضي الله عنه عند البخاري ٢١/٢ .

(٤) كما ثبت في البخاري، كتاب الحيض، باب كيف كان بدأ الحيض ٧٨/١، وفي الحج، باب ذبح الرجل البقر عن نسائه ٢٠٩/٢، من حديث عائشة رضي الله عنها .

رضي الله عنها قالت :

"فَتَلْتُ قلائد(١) بُدن رسول الله صلى الله عليه وسلم بِيدَيَّ، ثم أشعرها(٢)، وقلَّدها ثم بعث بها إلى البيت، وأقام بالمدينة فما حرُم عليه شيء كان له حلالا". وفي رواية: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهدي من المدينة فأفتِل قلائد هديه، ثم لا يجتنب شيئا مما يجتنب المحُرم"(٣) .

أما تعظيمه صلى الله عليه وسلم للحرم والحج : مشاعره وزمانه، فيدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم في خطبته في عرفة :

١ - إنَّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا،في شهركم هذا،في بلدكم هذا"(٤) .

٢ - وقوله صلى الله عليه وسلم في غزوة الحديبية: "والذي نفسي بيده لا يسألوني خُطَّةً يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها"(٥) .

٣ - وقوله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح: "إن هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لايُعضد

---

(١) جمع قلادة وهو ما يربط في العنق، ويفعل ذلك بالهدي للدلا لة على أنها هدي مسوق إلى الحرم، ليعلم فلا يعترض عليه .

(٢) إشعار البدن: هو أن يشق أحد جنبي سنام البدنة حتى يسيل دمها، ويجعل ذلك علامة لها تعرف به أنها هدي .

(٣) أخرجه البخاري في الحج، باب تقليد الغنم ٢٠٨/٢، وفي الأضاحي، باب إذا بعث بهديه ١٣٣/٧، ومسلم في الحج، باب استحباب بعث الهدي إلى الحرم برقم ١٣٢١ واللفظ لمسلم .

(٤) كما جاء في حديث جابر رضي الله عنه الطويل الآنف الذكر

(٥) أخرجه البخاري في الشروط، باب الشروط في الجهاد ٢٥٣/٣، وأبو داود في الجهاد، باب صلح العدو برقم ٢٧٦٥، من حديث عروة بن الزبير ومروان .

شوكه، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاه"(١) .

فهذه الأحاديث تدل على مبلغ تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم لمكة ومشاعرها، ولا غرو فقد قال عليه الصلاة والسلام يوم أن خرج منها مهاجراً:

٤ ـ والله إنك لأحب البلاد إلى الله ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت"(٢).

وحيث إنها أحب البلاد إلى الله تعالى كان لها ذلك التقدير والتقديس، وكل ذلك نابع من كمال أخلاقه وعظمتها مع الله تعالى ومع خلقه ومع شعائر دينه، فلذلك برز فيه ذلك التعظيم والإجلال في هذا النسك لله تعالى ولشعائره العظام، في عبادته وسلوكه وتعامله، وهو بذلك يعلم الناس ما ينبغي أن يكون عليه حجهم ونسكهم، ويقول: "خذوا عني مناسككم"(٣) .

---

(١) أخرجه البخاري في الحج، باب فضل الحرم ١٨١/٢، وباب لا يعضد شجر الحرم، وباب لاينفر صيد الحرم ١٧/٣-١٨، وغيرها من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ومسلم في الحج ، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام برقم ١٣٥٣ واللفظ له .

(٢) أخرجه الترمذي في المناسك، باب فضل مكة برقم ٣٩٢٥ من حديث عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري، وقال: حسن غريب صحيح، وابن ماجة في المناسك، باب فضل مكة برقم ٣١٠٩ من حديث صفية بنت شيبة، وأحمد في المسند ٣٠٥/٤، وله شاهد من حديث ابن عباس عند أبي يعلى قال الهيثمي في المجمع ٢٨٦/٣: ورجاله ثقات .

(٣) تقدم تخريجه من حديث مسلم في أول التطبيق ٣١٤.

الـفَـصْـلُ الثَّانِي

أخلاق القرآن في نوافل العبادات
والتطبيق النبوي لها

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : التهجد والقيام .

المبحث الثاني : الـــذِّكـــــر .

تمهيد في تعريف النَّفل وبيان علاقته بالأخلاق :

تعريف النَّفْل :

النفل في اللغة: الزيادة(١) .

وفي الشرع: الزيادة على الفرائض والواجبات، ومنه نافلة الصلاة(٢) .

"وسمِّيت صلاة التطوع ونحوها نافلةً ونفلا؛ لأنها زيادةُ أجرٍ لهم على ما كتب من ثواب ما فرض عليهم"(٣) .

علاقة النوافل بالأخلاق :

لما كانت الفرائض التعبدية من أهم عوامل تزكية الأخلاق، وكانت تلك الفرائض لا تسلم غالبا من النقص وعدم الكمال؛لما يعتري صاحبها من إخلال بمستحباتها وآدابها، فيذهب منها كمال أجرها وعظيم أثرها، لمَّا كان أمر الفرائض ما ذكر، شرع الله في كتابه، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ما يجبر ذلك النقص؛ويتمم كمالها، ويعظِم آثارها، ويزكِّي ثمارها، وذلك بشرع نوافل معيَّنة لكل فريضة، تؤدِّي ذلك الغرض الحميد(٤)، كما دل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيئ قال الرب عز وجل: انظروا هل لعبدي من تطوع، فيكمل منها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر أعماله على ذلك"(٥) .

---

(١) لسان العرب ٦٧١/١١ .

(٢) المفردات للراغب ص ٥٠٣، وأنيس الفقهاء ص ١٠٤ .

(٣) تاج العروس ١٤٢/٨ .

(٤) انظر طرح التثريب للحافظ العراقي ٣٤/٣ .

(٥) أخرجه أبو داود في إقامة الصلاة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "كل صلاة يتمها صاحبها تتم من تطوعه برقم ٨٦٤ من حديث أبي هريرة، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة برقم ٤١٣، وابن ماجة في الصلاة، باب ما جاء أول ما يحاسب العبد الصلاة برقم ١٤٢٥، وقال عنه الترمذي: حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٢٥٧١

والحديث وإن ورد فيه ذكر الصلاة فقط، فإن بقية الفرائض مثلها، بدليل قوله : "ثم تكون سائر أعماله على ذلك" ، وبدليل الرواية الثانية عند أبي داود(١) وابن ماجه(٢) وفيها: "ثم الزكاة مثل ذلك ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك" أي إن انتقص فريضة من سائر الأعمال تكمل من التطوع .

ولذلك ندب الشارع الحكيم إلى نوافل لكل أنواع العبادات لا تخفى معرفتها إجمالا أو تفصيلا على أحد، لتتمم تلك النوافل الفرائض التعبدية، ورتب على ذلك ثوابا جزيلا قرنه بعمل كل نافلة(٣) .

وأيضا ليتحقق ما الحديث بصدده من الحفاظ والإستمرار على المعاني الأخلاقية التي يكتسبها المسلم من فرائض الإسلام التعبدية .

فالإكثار من نوافل الصلاة مثلا تنمّي ملكة الابتعاد عن الفحشاء والمنكر التي تنهى عنها الصلاة، فكلما أكثر من الصلاة مع المحافظة على أدابها، ازداد بعدا عن الفحشاء والمنكر لتجدد آثارها على النفس بين الحين والآخر، ولضيق الوقت عن أن يتفرغ لمنكرات الأخلاق .

وكثرة الصدقات تؤثر في النفس تأثيرا عجيبا ملموسا، إذ تستل من النفس وصمة الشح والبخل والأثرة، وتعودها على حسن الظن با لله والتوكل عليه والإيمان بوعده ووعيده.

وكثرة الصيام تريّض النفس على زكاء الخلق ومحاربة الهوى وقهر النفس، ومضايقة مجاري الشيطان، والشعور بحاجة الآخرين، وإجلال نعم ا لله تعالى على العبد .

وكثرة الحج والاعتمار تنمّي تزكية النفس، وسمو الخلق في الابتعاد عن الرفث

---

(١) في الباب السابق ذكره رقم ٨٦٥ من حديث تميم الداري رضي ا لله عنه .

(٢) في الباب السابق أيضا برقم ١٤٢٦، ولفظه: "ثم يعمل بسائر الأعمال المفروضة مثل ذلك" .

(٣) من أحب الوقوف على شيء من ذلك فلينظر في كتاب النوافل من الترغيب والترهيب للمنذري ١/٣٩٦ - ٤٧٩ أو نحوه .

والفسوق والجدال، والمحافظة على الجوارح أن تقترف إثما أو تجره إلى مسلم .

كما أنهما يرسخان تعظيم شعائر الله ، التي هي من دلائل التقوى، وامتلاء القلب بجلاله وهيبته. ويدل على ذلك كله قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه جل شأنه: "من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إلي عبدي بشيء أَحبَّ إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبَّه، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله، ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته"(١) .

فانظر كيف كانت النوافل سببا لأن ينال العبد من ربه محبته التي ترتب عليها تلك المنح الجليلة الإلهية لعبده؛ من المعونة والنصر والتأييد والتسديد والعصمة، والحماية ... وغير ذلك مما تعجز عن بيانه العبارة؛لأنها أمور إلهية تعجز عن إدراك كنهها الأذهان، أو يصورها البيان،وينال ذلك كله بسبب تقربه إلى الله تعالى بالنوافل، فنقلته من طورمحبة العمل - التي هي الفرائض - إلى محبة الله جل وعلا لذاته، فأناله كل ذلك التفضل والإنعام .

وما ذلك إلا لأنه أصبح زاكي الخلق مع الله تعالى فغدا مراقبا لله تعالى في حركاته ولحظاته وخطراته كأنه يراه، وانتقل بذلك من دائرة الإيمان إلى دائرة الإحسان، التي هي عبادة الله كأنك تراه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"(٢) .

ولذلك يقول الغزالي رحمه الله: "وكلَّما كانت العبادة بطول العمر كان الثواب أجزل، والنفس أزكى وأطهر، والأخلاق أقوى وأرسخ" قال: "وإنما مقصود العبادات تأثيرها في القلب، وإنما يتأكد تأثيرها بكثرة المواظبة على العبادات"(٣) .

---

(١) رواه البخاري وتقدم تخريجه وبيان معناه في مبحث (المحبة) ص٢٠٠.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ١/٢٠، ومسلم فيه برقم ٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) إحياء علوم الدين ٣/٥١ .

هذا ولما كانت النوافل كثيرة، والحديث عنها جميعا يفضي إلى الإطالة، والخروج عن حد الاختصار المتوخّى في الكتاب كله، لذا سأقتصر في حديثي عن نوافل العبادات على مبحثين مهمين طالما عُني القرآن الكريم بهما وهما: التهجد، والذكر، لما لهما من عظيم الأثر في تزكية الأخلاق، وبالله التوفيق .

* * *

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

(التهجد والقيام)

التهجد عند أهل اللغة يعني: التيقظ والسهر، والهجود: النوم، يقال: تهجد: إذا سهر، وهجد: إذا نام(١) فهو من الأضداد .

وفي الشرع: الاستيقاظ من النوم للصلاة بالليل، ويطلق على نفس الصلاة بعد القيام من النوم ليلا، يقال: تهجد: أي صلَّى بالليل بعد الاستيقاظ(٢) .

مكانة التهجد في النوافل :

وهو من النوافل التي عني بها القرآن الكريم والسنة المطهرة والسلف الصالح عناية كبيرة لعظم ثوابه وكبر أثره في الدنيا والآخرة .

تنويه القرآن الكريم بأهل التهجد :

ومن ذلك قول الله تعالى منوها بالمتهجدين ومُثنيا عليهم: ﴿ تَتَجَافَى جنوبُهم عن المضاجِع يدعون ربَّهم خوفاً وطمعاً ﴾[سورة السجدة:١٦] .

والمراد بالتجافي هنا: هو القيام لصلاة التهجد بالليل كما فسَّره حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر(٣) فأصبحت يوماً قريبا منه ونحن نسير فقلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني من النار، قال: "لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جُنة، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يُطفىء الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل، ثم تلا ﴿ تَتَجافى جنوبُهم عن المضاجِع ﴾ حتى بلغ

---

(١) معاني القرآن للنحاس ١٨٤/٤، وانظر مختار الصحاح ص ٦٩٠، والمصباح المنير ٣٠٦/٢ .

(٢) روح المعاني ١٣٨/١٥/٥، والتفسير الكبير ٣٠/٢١ .

(٣) وذلك في غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة، كما جاء صريحا في بعض الروايات الأخرى، انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٩٥/٣-٤٦٠ .

﴿ يعملون ﴾[سورة السجدة:١٥،١٦](١) .

ومن ذلك قوله تعالى واصفا حال أهل الجنة، وما هم فيه من النعيم، ومبينا سبب نيلهم ذلك النعيم فقال: ﴿ إنَّهم كانوا قبلَ ذلك محسِنين * كانوا قليلاً من اللَّيل ما يَهجعون * وبالأسحارِ هم يَستغفِرون ..﴾الآيات[سورة الذاريات:١٦-١٨] .

فقد بينت الآية سر نيلهم ذلك الفضل العظيم أنه بسبب إحسانهم ثم فسرت الإحسان بأمور : أولها: أنهم ﴿ كانوا قليلاً من اللَّيل ما يَهجعون ﴾ أي: ينامون، بمعنى: أنهم ينامون قليلا من الليل، ويصلون أكثره، وقد كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم يفعلون ذلك حتى نزلت الرخصة في قوله تعالى: ﴿ فتابَ عليكم فاقرؤوا ما تيسَّر من القرآن ..﴾ [سورة المزمل:٢٠](٢) .

ومن تنويه الله جل وعلا بشأنهم قوله سبحانه: ﴿ أمَّن هو قانتٌ آناء اللَّيل ساجداً وقائماً يحذرُ الآخرةَ ويرجو رحمةَ رَبِّه قل هل يَستوي الَّذين يعلمون والَّذين لا يعلمون ﴾ [سورة الزمر:٩]، حيث وصف الله تعالى القائمين بالليل على ذلك الوصف بـ"العلم" وجعلهم أهل الخوف والرجاء، وقارن بينهم وبين اللاهين اللاعبين فقال: ﴿ هل يَستوي الَّذين يعلمون والَّذين لا يعلمون ﴾؟ أي: لا يستوون، "والمعنى: أن من هو هكذا عالم قانت مطيع، لا يستوي مع من هو غافل نائم ليله أجمع"(٣) .

قالوا: "وإنما كان المطيع هو العالم؛ لأن العلم هو الذي رسخ في القلب، وتأصل بعروقه في النفس، بحيث لا يمكن صاحبه مخالفته، بل سيط باللحم والدم فظهر أثره في الأعضاء لا ينفك شيء منها عن مقتضاه"(٤)، كما قالوا: "إنما العلم الخشية"، وإنما العلم ما نفع، ولهذه المسألة مزيد بحث في الباب الخامس إن شاء الله تعالى .

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة برقم ١٦١٦ وقال عنه: حسن صحيح .

(٢) انظر تفسير القرطبي ٣٦/١٧ .

(٣) إتحاف السادة المتقين ١٨٣/٥ .

(٤) محاسن التأويل ١٩٩/١٤ .

ومن تنويهه تعالى بقائمي الليل قوله جل وعلا: ﴿ وعبادُ الرَّحمن الَّذين يَمشونَ على الأرضِ هوناً وإذا خاطبَهم الجاهلونَ قالوا سلاماً * والَّذين يَبيتُون لربِّهم سُجَّداً وقياماً ﴾ [سورة الفرقان:٦٣،٦٤] .

حيث أضافهم إليه ووصفهم بالعبودية له، وذلك من أشرف الصفات، إذ المرء يشرف بشرف من ينتسب إليه ، وليس للمرء كرامة أكبر من أن ينتسب لله تعالى .

ثم وصفهم بإحدى عشرة صفة، ابتدأها بصفتي التعامل مع الخلق والخالق، فهم مع الخلق متواضعون، وعن جهالهم حالمون، ومع الخالق عاملون ناصبون، إذا أدركهم الليل يبيتون بين قائم وساجد، فأثابهم الله تعالى على ذلك بما أخبر عنه بقوله: ﴿ أولئِك يُجزَون الغُرفةَ بما صبروا ويُلقَّون فيها تحيَّةً وسلاماً * خالدين فيها حسُنت مستَقراً ومُقاماً ﴾ [سورة الفرقان:٧٥،٧٦] .

(أي: يجزون الدرجة الرفيعة، وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها بهذه الطاعات المباركات)(١) .

ذلك هو حديث القرآن عن المتهجدين، وقد رأيتَ أن الله تعالى أنزلهم منزلة رفيعة وأثابهم ثوابا كبيرا على مكابدة الليالي في القيام، وهجرهم النوم الذي هو راحة الأجسام، فأثيبوا بما يليق بكرم الملك العلام، وهو ثواب لا تدرك مداه الأحلام كما قال تعالى: ﴿ فلا تَعلمُ نفسٌ ما أُخفِيَ لهم من قُرَّةِ أعيُنٍ جزاءً بما كانوا يعملون ﴾[سورة السجدة:١٧] .

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٨٣/١٣ .

تطبيق النبي صلى الله عليه وسلم للتهجد

إذا كان التهجد في حق سائر الأمة مندوبا، فإنه في حق النبي صلى الله عليه وسلم واجب، أوجبه عليه الله دون سائر أمته، وذلك بقوله سبحانه: ﴿ ومن الليل فتهجَّد به نافلةً لك عسى أن يبعثك ربُّك مقاماً محموداً ﴾[سورة الإسراء:٧٨]، ومعنى نافلة لك: أي فريضة زائدة لك على الصلوات المفروضة، أو فضيلة لك لاختصاص وجوبه بك،(١) وهي خصوصية تكليف زائد، ونصب دائم وانقياد بالغ لله عز وجل، دون سائر أمته(٢)، وبقوله سبحانه وتعالى: ﴿ يا أيُّها المزَّمل * قم الليل إلا قليلا * نصفَه أو انقُص منه قليلا * أو زد عليه ورتِّل القرآن ترتيلاً ﴾[سورة المزمل:١-٤] .

فترى أن الله تعالى يأمره بقيام الليل بصيغة الأمر الجازم، بخلافه مع سائر المؤمنين، فإنما كان تحبيذا وتنويها كما علمت .

١ - وقد لبَّى النبي صلى الله عليه وسلم نداء ربه خير نداء، وقام لله حتى تورمت قدماه، فقيل له: أتتكلف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال: أفلا أكون عبدا شكورا"(٣) .

٢ - وقد بينت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها لمن سألها عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكيفية قيامه وقدره فقالت له: ألست تقرأ ﴿ يا أيها المزمل ﴾ ؟ فقال: بلى، فقالت له: إن الله عز وجل افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبي الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولا، وأمسك خاتمتها اثنتي عشر شهرا في السماء حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة، قال السائل:

قلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن وتر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت: كنا نعد

---

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ص ٣٨٢ .

(٢) انظر الخصائص الكبرى للسيوطي ٢/٢٢٩، وتهذيبها للتليدي ص ٤٠٢ .

(٣) متفق عليه، تقدم ذكره وتخريجه في مبحث الشكر ص ١٨٠ .

له سواكه وطهوره فيبعثه الله ماشاء أن يبعثه من الليل ، فيتسوك ويتوضأ ويصلي تسع ركعات لا يجلس فيها إلا في الثامنة فيذكر الله ويحمده ويدعوه، ثم ينهض ولا يسلم ثم يقوم فيصلي التاسعة، ثم يقعد فيذكر الله ويحمده ويدعوه، ثم يسلم تسليما يسمعنا، ثم يصلي ركعتين بعد ما يسلم وهو قاعد، فتلك إحدى عشرة ركعة يا بُنَيَّ، قالت: فلمَّا أسن النبي صلى الله عليه وسلم وأخذه اللَّحم(١) أوتر بسبع، وصنع في الركعتين مثل صنيعه الأول، فتلك تسع يا بُني، قالت: وكان نبي الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها، وكان إذا غلبه نوم أو وجع عن قيام الليل صلَّى من النهار ثنتي عشرة ركعة، قالت: ولا أعلم نبي الله صلى الله عليه وسلم قرأ القرآن كله في ليلة، ولا صلَّى ليلة إلى الصبح، ولا صام شهرا كاملا غير رمضان"(٢) .

فهذه أجمع الروايات في قيام النبي صلى الله عليه وسلم، وقد دلت على مبلغ اهتمامه بالتهجد والمداومة عليه، وما ينبغي أن يكون عليه حال المتهجد من الخشوع، والإقبال على الله تبارك وتعالى .

٣ - ولم يكن قيام النبي صلى الله عليه وسلم كقيام أي أحد، فإن ما كان يقدر عليه النبي صلى الله عليه وسلم قد لا يقدر عليه غيره، فقد حدَّث ابن مسعود رضي الله عنه أنه "قام يصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة، فأطال، قال: حتى هممت بأمر سُوء، قيل له: وما هممت به ؟ قال: هممت أن أجلس وأَدعه"(٣) .

فترى أن ابن مسعود رضي الله عنه كاد أن يعجز لولا تصبُّره وتحامله على متابعة النبي صلى

---

(١) أي: كثر لحمه، وهي كثرة نسبية لما كان عليه حاله قبلُ، فهي لا تنافي ما ثبت أنه كان معتدل الجسم .

(٢) أخرجه مسلم في المسافرين، باب صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض برقم ٧٤٦، وهو تتمة للحديث المتقدم تخريجه في أول الرسالة الذي أجابت فيه عائشة رضي الله عنها سائلها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، انظر ص ٦٥ .

(٣) أخرجه البخاري في التهجد، باب طول القيام في صلاة الليل ٦٤/٢، ومسلم في المسافرين، باب استحباب طول القراءة في صلاة الليل برقم ٧٧٣ .

الله عليه وسلم في قيامه، وهو العابد القانت، بينما النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن عنده شيء من ذلك الشعور؛ "لأن وقوفه في تهجده هو استعذاب لمناجاة الله تعالى واستغراق فيها، مع الخشوع والتدبر اللذين أذهلاه عمَّا به، وغلبا على بوادر الألم الناشىء من طول الوقوف"(١) .

٤ ـ ولقد أوضحت الروايات الأخرى مبلغ طول مناجاته لربه ... فعن حذيفةَ بن اليمان(٢) رضي الله عنه قال: "صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فافتتح (البقرة)، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في الركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح (النساء)، فقرأها، ثم افتتح (آل عمران) فقرأها، يقرأ مترسلا، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوُّذ تعوَّذ، ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربِّيَ العظيم، فكان ركوعه نحوا من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمده، ثم قام قياما طويلا قريبا مما ركع، ثم سجد فقال: سبحان ربي الأعلى، فكان سجوده قريبا من قيامه"(٣) .

٥ ـ وعن زيد بن خالد الجُهَني(٤) رضي الله عنه قال: "قلت لأرمُقَنَّ(٥) الليلة صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصلَّى ركعتين خفيفتين، ثم صلَّى ركعتين طويلتين، ثم

---

(١) انظر فقه السيرة للغزالي ص ٢٠٨ .

(٢) العبسي حليف الأنصار، اسم أبيه حِسل، وإنما لقبوه لكونه حالف اليمانية وهم الأنصار، يعد حذيفة من كبار الصحابة، ومن السابقين إلى الاسلام، كان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أخبره بما كان وما يكون إلى أن تقوم الساعة، كما صح في مسلم، مات حذيفة في أول خلافة علي رضي الله عنه، انظر الاصابة ٣١٧/١، والاستيعاب بهامشها ٢٧٧/١ .

(٣) أخرجه مسلم في المسافرين ، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل برقم ٧٧٢، والنسائي في الافتتاح، باب تعوذ القارىء إذا مر بآية عذاب ١٧٦/٢، وباب مسألة القارىء إذا مر بآية رحمة ١٧٧/٢ .

(٤) صحابي مشهور شهد الحديبية، وكان معه لواء جهينة يوم الفتح، مات سنة ٧٨ هـ بالمدينة، الاصابة ٥٦٥/١ .

(٥) يقال : رمقه يرمقه: إذا لحظه لحظا خفيفا، القاموس ٢٣٧/٣ .

صلَّى ركعتين هما دون اللتين قبلهما، ثم صلَّى ركعتين هما دون اللَّتين قبلهما، ثم صلَّى ركعتين هما دون اللتين قبلهما، ثم صلَّى ركعتين هما دون اللَّتين قبلهما، ثم أوتر، فذلك ثلاث عشْرةَ ركعة"(١) .

٦ - ولم يكن قيامه صلى الله عليه وسلم مجرد قيام ليقرأ وردا، أو ليفرغ من سورة أو سورتين كما يفعل بعض الناس، وإنما كان يقرأ قراءة تأمل وتدبر، فربما كان يقوم بآية واحدة في بعض الليالي يرددها في قيامه كله، كما ثبت عن عائشة رضي الله عنها قالت "قام رسول الله عليه وسلم بآية من القرآن ليلة"(٢) .

٧ - وعن أبي ذر(٣) رضي الله عنه قال: "صلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد ﴿ إن تُعذّبهم فإنَّهم عبادُك وإن تَغفر لهم فإنَّك أنت العزيزُ الحكيم ﴾[سورة المائدة:١١٨] قال: فلما أصبح قلت: يا رسول الله ، مازلت تقرأ هذهالأيَة حتى أصبحتَ تركع بها وتسجد بها ؟ قال: إني سألت الله عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئا"(٤) .

فهذه بعض الروايات في تهجده صلى الله عليه وسلم، وهي تدل على جده واجتهاده في قيام الليل، ورغبته فيه، ولا غرابة في ذلك فقد كانت الصلاة قرة عينه كما علمت من

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب الدعاء في الليل برقم ٧٦٥، وأبو داود في الصلاة، باب صلاة الليل برقم ١٣٦٦ .

(٢) أخرجه الترمذي في الصلاة، باب ما جاء في قراءة الليل برقم ٤٤٨، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح .

(٣) الغفاري : جُندب بن جنادة ، صحابي مشهور، من السابقين إلى الإسلام، وقصة إسلامه ثابتة في الصحيحين، غير أن هجرته تأخرت، فلم تتهيأ له الهجرة إلا بعد بدر وأحد، ومناقبه كثيرة، مات سنة ٣٢هـ. انظر الإصابة٤/٦٣، والاستيعاب بهامشها ٤/٦١ .

(٤) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة برقم ١٣٥٠، وأحمد في المسند ٥/١٥٦، والحاكم في الصلاة ١/٢٤١، وصححه وأقره الذهبي، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة ١/٢٤٢: إسناده صحيح ورجاله ثقات .

الحديث السابق ذكره(١) .

ولقد كان يقوم ذلك القيام وهو يطمع فيما أعده الله له، ووعده به من المقام المحمود الذي بشر به عقب أمره له بالتهجد حيث قال له: ﴿ ومن اللَّيل فتهجَّد به نافلةً لك عسى أن يبعثَك ربُّك مقاماً محموداً ﴾[سورة الإسراء:٧٩]، وهو المقام الذي يَغبِطُه عليه الأوَّلون والآخِرون(٢)، والذي ندب أمته إلى أن تسأله له من الله تعالى(٣) .

فلما كان ذلك هو الجزاء وذلك هو الثواب، لم يبال صلى الله عليه وسلم بمكابدة الليالي، بل صار ذلك محبوبا لديه؛ لأنه يؤدي إلى أمر محبوب له عليه الصلاة والسلام، وهو طاعة الله تعالى ، وشكر نعمه، والوفاء ببعض فضله عليه، والنفس إذا عرفت ما تطلب هان عليها ما تبذل ، ورضي الله عن عبدِ الله بن رَواحة(٤) إذ يقول في تهجده عليه الصلاة والسلام :

وفينا رسولُ الله يتلو كتابه ... إذا انشقَّ معروفٌ من الصبح ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبُنا ... به موقناتٌ أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبَه عن فراشه ... إذا استُثقلت بالمشركين المضاجعُ
وأعلم علماً ليس بالظن أنني ... إلى الله محشورٌ هناك وراجع (٥)

---

(١) في الصلاة ص ٢٥٣.

(٢) كما جاء في حديث الشفاعة،عند أحمد ٨/ ٣٩٩.

(٣) كما جاء في صحيح البخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله عليه وسلم: "من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته، حلت له الشفاعة يوم القيامة"، البخاري في الأذان، باب الدعاء عند النداء ١/ ١٥٠ .

(٤) ابن ثعلبة بن امرىء القيس الخزرجي الأنصاري، أحد شعراء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحد السابقين إلى الإسلام، كان أحد النقباء ليلة العقبة، شهد بدرا وما بعدها إلى أن استشهد بمؤتة، وهو ثالث أمرائها رضي الله عنه. انظر الإصابة ٢/ ٣٠٦ .

(٥) انظر ديوانه ص ١٦٢ .

أقواله صلى الله عليه وسلم في التهجد وفضله :

وكل ما مضى مما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرص على التهجد والمحبة له، وطول الوقوف فيه، يدل على فضله وعظيم أثره، وهو ما كان يعبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بلسانه ليحث أمته عليه، ويرغبهم فيه، وذلك كقوله :

١ ـ "أفضل الصيام بعد رمضان شهرُ الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل"(١) .

٢ ـ وقوله صلى الله عليه وسلم: "إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله تعالى خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة"(٢) .

والقيام بالليل لصلاة التهجد سبب لإدراك هذه الساعة، فإنه إذا واظب على قيام الليل يدرك ذلك لا محالة، لذلك ندب الصحابة والمؤمنين عامة إلى الحرص على التهجد والمواظبة عليه، وذلك بمثل قوله عليه الصلاة والسلام لعلي وفاطمة رضي الله عنهما:

٣ ـ "ألا تصليان"(٣) .

٤ ـ وقوله لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: "يا عبد الله لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل"(٤) .

٥ ـ وقوله في حق عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي بالليل" فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلا"(٥) .

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام، باب فضل صوم المحرم برقم ١١٦٣، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب في الليل ساعة يستجاب فيها الدعاء برقم ٧٥٧، من حديث جابر ابن عبد الله .

(٣) أخرجه البخاري في التهجد، باب تحريض النبي صلى الله عليه وسلم على صلاة الليل ٦٢/٢ .

(٤) أخرجه البخاري في التهجد، باب ما يكره من ترك قيام الليل ٦٨/٢، ومسلم في الصيام، باب النهي عن صوم الدهر برقم ١١٥٩ .

(٥) أخرجه البخاري في التهجد، باب فضل قيام الليل ٦١/٢، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضل عبد الله بن عمر برقم ٢٤٧٨ .

٦ ـ وقوله عليه الصلاة والسلام للمؤمنين عموما: "أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام"(١) .

ولقد كان لحضّه صلى الله عليه وسلم على قيام الليل أبلغ الأثر في نفوس أصحابه، استجابة له ومحبة ورغبة، فدعا الحال إلى أن بين عليه الصلاة والسلام الكيفية التي ينبغي لهم أن يحرصوا عليها في القيام، والقدر الذي ينبغي أن يُواظبوا عليه، وذلك حتى لا يجهدوا أنفسهم، فتضعف قواهم البشرية ثم يعجزون عن القيام بالواجبات الأخرى، فبين ذلك في أحاديث، منها قوله عليه الصلاة والسلام :

١ ـ "أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يوما ويفطر يوما"(٢) .

٢ ـ وذلك هو ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم كما بينه لمن تقالّوا عبادتهم، فأحبوا أن ينقطعوا للعبادة، فقال أحدهم: "أمّا أنا فأصلّي الليل أبدا، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبدا، فجاء إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أنتم الذين قُلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكنّي أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني"(٣) .

فكان صلى الله عليه وسلم يحبّذ المداومة على قيام الليل من غير أن يصل المرء بنفسه إلى حد الإجهاد، لأن السر كامن في المواظبة، لا بالعناء الذي يفضي إلى الفتور ثم الانقطاع، كما قال عليه الصلاة والسلام :

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة، باب رقم ٤٢، تحت رقم ٢٤٨٥ وصححه،

(٢) أخرجه البخاري في التهجد، باب من نام عند السحر ٦٣/٢، ومسلم في الصيام، باب النهي عن صوم الدهر برقم ١١٥٩، وخاص ١٨٩ .

(٣) أخرجه البخاري في النكاح، باب الترغيب في النكاح ٢/٧، ومسلم فيه، باب استحباب النكاح برقم ١٤٠١، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

٣ ـ "أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قل"(١) .

٤ ـ أما ترك القيام كلِّيةً فقد كان يذم فاعله، فقد ذُكر عنده رجل نام ليلة حتى أصبح، فقال: "ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه"(٢) يعني فلم يسمع نداء المولى في الثلث الأخير من الليل وهو يقول:

"هل من سائل فيُعطَى، هل من داع فيُستجاب له، هل من مستغفر فيُغفر له، حتى ينفجر الصبح" كما جاء في الحديث القدسي(٣) .

٥ ـ وقد كان عليه الصلاة والسلام يحذر أمته من ذلك فيقول: "يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة، عليك ليل طويل فارقد، فإذا استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عقدة، فإن توضأ انحلَّت عقدة، فإن صلى انحلَّت عقدة، فأصبح نشيطا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان"(٤) .

فهكذا كان صلى الله عليه وسلم يتهجد ويحث عليه، وينوه بفضله، وذلك لما كان عليه من صدق العبوديَّة وكمال الخشية لله جل وعلا، وعظيم المحبة له، والمعرفة به سبحانه وتعالى .

وكل ذلك يدل على كمال أخلاقه وعظمتها مع المولى جل وعلا، بحيث حملته عظمة أخلاقه على الجد والتَّفاني في عبادته، بحيث قام ذلك القيام حتى تفطَّرت قدماه، ولمَّا نوقش في ذلك علَّه أن يخفف عن نفسه وقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم

---

(١) متفق عليه، تقدم ذكره وتخريجه في مبحث الاستقامة ص١٦٠ من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) أخرجه البخاري في التهجد، باب إذا نام ولم يصل بال الشيطان في أذنه ٦٦/٢، ومسلم في المسافرين، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح برقم ٧٧٤، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ٦٦/٢، ومسلم في المسافرين برقم ٧٥٨، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) أخرجه البخاري في التهجد، باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل ٦٥/٢، ومسلم في المسافرين، باب من نام الليل أجمع برقم ٧٧٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

من ذنبك وما تأخر؟ أجابهم بقوله: "أفلا أكون عبدا شكورا"(١) .

فهو نصب لأداء شكر النعمة الجسيمة التي أنعم بها عليه، وقد فعل ما تعجز عن مثله البشر، فصلاة ربي وسلامه عليه .

---

(١) متفق عليه، وقد تقدم غير مرة .

المَبْحَثُ الثَّاني

(الذِّكر)

من أجلِّ ما يهذب الأنفس ويزكِّي الأخلاق: ذكرُ الله تعالى لقوله سبحانه: ﴿ إنَّ الصَّلاةَ تنهى عن الفحشاءِ والمنكرِ ولذكرُ اللهِ أكبر ﴾[سورة العنكبوت:٤٥] "أي أن ذكر الله أكبر ناهٍ عن الفحشاء والمنكر لأنه يكون في سائر الأحوال، دون الصلاة فإنها تكون في وقت دون وقت"(١) .

وطالما كان المرء في ذكر الله تعالى فإنه لا يقدم على عصيان ربه،أو التخلق بأخلاق لا ترضيه.

(لأنه بذكر الله يَرطَبُ قلبه ويلين،كما قال تعالى: ﴿ أفمَن شَرح اللهُ صدرَه للإسلام فهو على نورٍ من ربِّه فويلٌ للقاسيةِ قلوبُهم من ذِكر اللهِ أولئِك في ضَلالٍ مبين ﴾[سورة الزمر:٢٢] وإذا كان الصدر منشرحا بالنور كان القلب رطبا، والأركان ليِّنة، فإذا قدتها إلى أمر الله انقادت، وإذا لم يكن هكذا كان القلب قاسيا والأركان يابسة، فإذا قدتها لم تنقد)(٢) .

ولذلك ندب الله تعالى إلى ذكره، والإكثار منه في سائر الأحوال، ورتب على ذلك المثوبات العظيمة والمكرمات الجزيلة.

والآيات الكريمات والأحاديث النبويات على ذلك متظاهرات، تنصيصا أو إشارات سنذكر بعضا منها هنا :

أما القرآن الكريم فقد تحدث عن الذكر في آيات كثيرة، وكلها تعود إلى عشرة أوجه، ذكرها ابن القيم في مدارج السالكين، وهي:

الأول: الأمر به مطلقا كقوله تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذين آمنوا اذكُروا اللهَ ذِكرًا كثيراً ﴾

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جُزي ١١٧/٣، وقيل في معناه غير ذلك، انظر كتب التفسير، ومدارج السالكين ٤٢٦/٢ .

(٢) أسرار الصلاة ومقاصدها للحكيم الترمذي ص ٨،٩ بتصرف يسير .

أو مقيدا كقوله سبحانه: ﴿ وسبِّحوه بكرةً وأصيلاً ﴾[سورة الأحزاب:٤١، ٤٢]

الثاني: النهي عن ضده من الغفلة والنسيان، بقوله تعالى: ﴿ ولا تكونوا كالَّذين نسُوا اللهَ فأنساهم أنفسَهم أولئك هم الفاسقون ﴾[سورة الحشر:١٩] .

الثالث: تعليق الفلاح باستدامة ذكره بقوله تعالى: ﴿ واذكروا الله كثيراً لعلَّكم تُفلحون ﴾[سورة الجمعة:١٠] .

الرابع: الثناء على أهله والإخبار بما أعد الله لهم من الجنة والمغفرة، كقوله تعالى: ﴿ إنَّ المسلمين والمسلمات ...﴾ إلى قوله: ﴿ والذَّاكرين الله كثيراً والذَّاكرات أعد الله لهم مغفرةً وأجراً عظيماً ﴾[سورة الأحزاب:٣٥] .

الخامس: الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره بقوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تُلهكم أموالُكم ولا أولادُكم عن ذِكرِ الله ومن يَفعل ذلك فأولئك هم الخاسِرون ﴾ [سورة المنافقون:٩] .

السادس: أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له فقال تعالى: ﴿ فاذكُروني أذكُرْكم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾[سورة البقرة:١٥٢] .

السابع: الإخبار بأنه أكبر من كل شيء بقوله تعالى: ﴿ ولَذكرُ اللهِ أكبر ﴾[سورة العنكبوت:٤٥] .

الثامن: أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة من صلاة وصيام وحج فقال تعالى: ﴿ فإذا قَضيتُم الصلاةَ فاذكُروا الله قياماً وقعوداً وعلى جُنوبكم ﴾[سورة النساء:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ فإذا قُضيت الصَّلاة فانتشِروا في الأرضِ وابتَغوا من فضلِ اللهِ واذكرُوا الله كثيراً لعلَّكم تفلحون ﴾[سورة الجمعة:١٠] ، و قال تعالى: ﴿ ولتكمِلُوا العِدَّةَ ولتكبِّروا اللهَ على ما هَداكم ولعلَّكم تشكُرون ﴾[سورة البقرة:١٨٥] ، و قال تعالى: ﴿ فإذا قَضيتُم مناسكَكم فاذكُروا اللهَ كذِكركم آباءَكم أو أشدَّ ذكراً ﴾[سورة البقرة:٢٠٠] .

التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الانتفاع بآياته وأنهم أولو الألباب دون غيرهم فقال سبحانه: ﴿ إنَّ في خلقِ السَّمواتِ والأرضِ واختلاف الليلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأولي الألباب * الَّذين يذكُرون اللهَ قياماً وقعوداً وعلى جُنُوبهم ﴾[سورة آل عمران:١٩٠،١٩١] .

العاشر أنه جعله قرين الأعمال الصالحة وروحها، فمتى عدمته كانت كالجسد بلا روح لقوله تعالى: ﴿ وأقِمِ الصَّلاةَ لذكري ﴾[سورة طه:١٤]، وقرنه بالصيام، وبالحج ومناسكه كما علم مما تقدم .

وقرنه بالجهاد وأمر بذكره عند ملاقاة الأقران ومكافحة الأعداء، فقال تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا إذا لَقِيتُم فئةً فاثبتوا واذكُروا الله لعلَّكم تُفلِحون ﴾[سورة الأنفال:٤٥](١).

ومن خلال هذه الوجوه نعلم أن الذكر له شأن عظيم في حياة المسلم في استقامة أمر دينه ودنياه، لأن الله تعالى قد ناطه بكل شيء مما به يستقيم الحال والمآل،كما علم من الوجوه السابقة، ولذلك يقول ابن القيم عنه: "هو منشور الولاية الذي من أعطيه اتصل، ومن مُنعه عزل، وهو قوت قلوب القوم الذي متى فارقها صارت الأجساد له قبورا، وهو عمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بورا" إلى أن قال: "وهو جِلاء القلوب وصقالها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقا، ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقا، وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضا من كل شيء"(٢) .

ولا ريب في هذا كله، فإن الله تعالى قد قال: ﴿ الذين آمنوا وَتطمئِنُّ قلوبُهم بذكر الله ألا بذكرِ اللهِ تطمئنُّ القلوب ﴾[سورة الرعد:٢٨]، أي: تأنس به ويحصل لهم به الفرح والسرور ولا يجدون معه وحشة ولا انزعاجا ولا يأسا في هذه الحياة، كالذي يجده الغافل عن ذكر الله، "ولعمر الحق إنه ليس هناك أشقى على وجه هذه الأرض ممن يحرمون طمأنينة الأنس بالله تعالى، إذ ينطلق في هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله في الكون؛ لأنه انفصم من العروة الوثقى التي تربطه بخالق الكون"(٣) .

ولذلك كان المعنى المتبادر من عدم ذكر الله تعالى هو نسيانه سبحانه وتعالى للعبد

---

(١) انظر مدارج السالكين ٢/٤٢٤-٤٢٧ .

(٢) مدارج السالكين ٢/٤٢٣ .

(٣) انظر في ظلال القرآن ٤/٢٠٦٠ .

الذي نسيه، والذي رتب الله تعالى عليه خسران الدنيا والآخرة، كما قال سبحانه: ﴿ ومن أعرضَ عن ذِكري فإنَّ له معيشةً ضنكاً ونحشرُه يومَ القيامة أعمى * قال ربِّ لم حشرتني أعمى وقد كنتُ بصيراً * قال كذلك أتتك آياتُنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسَى ﴾ [سورة طه:١٢٤-١٢٦]، وقال تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تُلهكم أموالُكم ولا أولادُكم عن ذكرِ الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ [سورة المنافقون:٩]، وقال سبحانه: ﴿ ولا تكونوا كالَّذين نسُوا اللهَ فأنساهم أنفسَهم أولئك هم الفاسِقون ﴾[سورة الحشر:١٩]

"وإذا نسي العبد نفسه أعرض عن مصالحها ونسيها واشتغل عنها وهلكت وفسدت ولا بد"(١) .

ما أعده الله تعالى للذاكرين :

أما الذاكرون له سبحانه فإنه قد أعد لهم نعيما مقيما وثوابا عظيما، وحسبهم شرفا وفضلا أنهم استوجبوا ذكر الله لهم كما قال تعالى: ﴿ فاذكروني أذكُرْكُم واشكروا لي ولا تكفُرون ﴾[سورة البقرة:١٥٢]، فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة وحدها لكفى بها فضلا وشرفا "لأن ذكر الله للعبد يَعني إثابته والثناء عليه وإظهار الرضى عنه والإكرام له وثبوت منزلته عنده سبحانه"(٢) كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يقول الله تعالى: "أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني،فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأخير منهم" الحديث(٣) .

فترى أن الله تعالى قد أثبت معيَّته للذاكرين، وهي معيَّة عامة تقتضي صلاح دينه ودنياه، قال الإمام النووي: "أي معه بالرحمة والتوفيق والهداية والرعاية" قال: "وأما قوله

---

(١) الوابل الصيب ص ٥٩ .

(٢) التفسير الكبير ١٤٤/٤ .

(٣) متفق عليه تقدم تخريجه في مبحث الرجاء ص١٣٤

تعالى: ﴿ وهو معَكم أينما كنتم ﴾ فمعناه: بالعلم والإحاطة"(١) .

ولذلك ندب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الذكر والإكثار منه في كل وقت، وعلى كل حال .

فقد جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثُرت عليَّ، فأخبرني بشيء أتشبث به، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله"(٢) .

وروى جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما عمل آدمي عملا أنجى له من العذاب من ذكر الله تعالى، قيل: ولا الجهاد يا رسول الله ؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله إلا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع"(٣) .

وجاء في حديث آخر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير من إنفاق الذهب والورِق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا: بلى، قال: ذكر الله" فقال معاذ بن جبل: ما شيء أَنْجَى من عذاب الله من ذكر الله"(٤) .

---

(١) شرح مسلم ٢/١٧ .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعاء، باب ما جاء في لفظ الذكر برقم ٣٣٧٥ من حديث عبد الله بن بسر، وقال: حسن غريب، وابن ماجه ١٢٤٦/٢ في الأدب برقم ٣٧٩٣، وأحمد في المسند ١٨٨/٤، وابن حبان في صحيحه ٩٢/٢ الإحسان، والحاكم ٤٩٥/١، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي .

(٣) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٧٦/١٠، والمنذري في الترغيب ٣٩٦/٢ إلى الطبراني في الأوسط والصغير، وقالا: رجاله رجال الصحيح، وله شواهد كثيرة من حديث ابن عباس، ومن حديث أبي سعيد الخدري ، ومن حديث أبي الدرداء، ومن حديث معاذ رضي الله عنهم. انظر مجمع الزوائد ٧٦/١٠-٧٩ .

(٤) رواه الترمذي في الدعاء برقم٣٣٧٧، وابن ماجه في الأدب، باب فضل ذكر الله برقم ٣٧٩٠، والحاكم في المستدرك ٤٩٦/١، وأحمد ٤٤٦/٦، والطبراني في الدعاء برقم ١٨٧٢، وحسنه المنذري في الترغيب ٣٩٥/٢، والهيثمي في المجمع ٧٦/١٠، كلهم من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وصححه الألباني =

فانظر كيف كانت منزلة الذكر عند الله تعالى، وذلك لأن الذاكر يستغرق لُبُّه وعقله وحواسه في جلال الله تعالى، فيقوده ذلك إلى فعل كل عمل صالح، ولا يستعظم شيئا فيه قربة لله، وإن كان خوض غمار الموت في ساحات الجهاد .

فهذه الأحاديث وغيرها كثير تدل على فضل عظيم للذاكرين بسبب عمل يسير في مظهره، كبير في مَخبره، وهو يسير على من يسره الله تعالى عليه ﴿ ولقد يَسَّرنا القرآنَ للذِّكر فهل من مُدَّكر ﴾[سورة القمر:١٧] .

ولذلك كان من لم يوفق له، أو من لم يثابر عليه، فاقداً لسر الحياة والعبودية الحقة، ولقد شبهه النبي صلى الله عليه وسلم بالميت،وذلك فيما رواه أبو موسى رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "مثل الذي يذكر ربه والذي لايذكر ربه مثل الحي والميت"(١) .

"فشبه النبي صلى الله عليه وسلم الذاكر بالحي الذي ظاهره متزين بنور الحياة، وباطنه بنور المعرفة، وغير الذاكر بالميت الذي ظاهره عاطل وباطنه باطل"(٢) ، وذلك دليل على أن الذكر هو شريان الحياة الروحية، فمن فقده فكأنه جسد بلا روح، وفي هذا الأسلوب من الحث على الذكر والمداومة عليه ما فيه كفاية لمن علم وفهم، لأنه لا يريد أحد أن يعيش حياة جوفاء، فيفقد سر وجوده، ولهذا كان المثابرون على ذكر الله تعالى أدرى الناس بسر الذكر، وقد لزم من ذلك فوزهم بالأجر الكبير الذي تحدث عنه أبو هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يسير في طريق مكة فمرَّ على جبل يقال له: جُمْدان(٣)، فقال: سيروا، هذا جمدان سبق المفرِّدون، قالوا: وما

= في تعليقه على المشكاة برقم ٢٢٦٩، ويشهد له الحديث الأول، وأحاديث أخرى كثيرة. انظر مجمع الزوائد ١٠/٧٦-٧٩ .

(١) أخرجه البخاري في الدعوات، باب فضل ذكر الله تعالى ٨/١٠٧، ومسلم في صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة النافلة في بيته برقم ٧٧٩، واللفظ للبخاري .

(٢) فتح الباري ٢٣/٢٤٧ .

(٣) قال ابن الأثير في النهاية ١/٢٩٢: "هو جبل على ليلة من المدينة" .

المفرِّدون يا رسول الله ؟ قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات"(١) .

وفي رواية(٢) قالوا: يا رسول الله، وما المفرِّدون ؟ قال: "المستَهتِرون(٣) بذكر الله يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون الله يوم القيامة خفافا" .

وبالجملة ففضائل الذكر أكبر من أن تجمع في هذا الموضع،فبحسبنا ما تقدم ذكره .

وإذا كان محل ذكر الله عز وجل ما وصفت، كان على العبد أن يحافظ عليه ولا يخل به ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وهو في الحقيقة متيسر لكل أحد لأن أنواعه كثيرة فمهما فتر الإنسان من ذكر عدل إلى ذكر آخر، وإذا لم يحفظ ذكرا فهو يحفظ آخر .

فتلاوة القرآن ذكر، والاستغفار ذكر، والدعاء ذكر، والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كل ذلك من الذكر(٤) .

غير أنه يتفاوت ذكر عن ذكر في الأجر والثواب كما سيأتي بيانه، وسأتحدث عن بعض أنواع الذكر هذه بشيء من التفصيل فيما يأتي :

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء برقم ٢٦٧٦ .

(٢) عند الترمذي في الدعوات، باب في العفو والعافية برقم ٣٥٩٦ .

(٣) أي: المولعون به والمواظبون عليه عن حب ورغبة فيه. النهاية لابن الأثير ٥/٢٤٢

(٤) انظر تحقيق ذلك في فتح الباري، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله تعالى ٢٣/٢٤٥، والأذكار للإمام النووي ص ١٧ .

١ ـ تلاوة القرآن :

من أفضل أنواع الذكر تلاوة القرآن(١) لأن الله تعالى أمر بذكره سبحانه، وسمى القرآن ذكرا في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ ذلك نتلُوه عليكَ من الآياتِ والذِّكر الحكيم ﴾[سورةآل عمران:٥٨] ، وقوله: ﴿ إنَّا نحنُ نزَّلنا الذِّكر وإنَّا له لحافِظون ﴾ [سورة الحجر:٩]، وقوله سبحانه: ﴿ إنْ هُو إلَّا ذكرٌ وقرآنٌ مبين ﴾[سورة يس:٦٩]، وقوله سبحانه: ﴿ ولقد يَسَّرنا القرآن للذِّكر فهل من مُدَّكر ﴾[سورة القمر:١٧] .

فهذه الآيات وغيرها تدل على أن تلاوة القرآن الكريم من الذكر؛ لأن الله تعالى سماه ذكرا، والقرآن يفسر بعضه بعضا، فالتالي له ذاكر بلا شك .

أما فضل التلاوة والتالين فهو فضل كبير دلت عليه آيات الكتاب العزيز وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم الكثيرة .

أما آيات الكتاب ففي مثل قوله جل شأنه: ﴿ إنَّ الذين يتلُون كتابَ اللهِ وأقاموا الصَّلاة وأنفقُوا ممَّا رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارةً لن تَبُور * لِيُوفِّيَهم أجورَهم ويزيدَهم مِن فضلِهِ إنَّه غفورٌ شكور ﴾[سورة فاطر:٢٩،٣٠]، قال الحافظ ابن كثير: "أي: يرجون ثوابا عند الله لا بد من حصوله"، ثم قال: "ولهذا قال تعالى: ﴿ لِيُوفِّيهم أجورَهم ويزيدَهم مِن فضله ﴾، قال: "أي ليوفيهم ثواب ما عملوه، ويضاعف لهم بزيادات لم تخطر لهم" .

ثم نقل عن قتادة(٢) قوله: "كان مطرِّف(٣) رحمه الله تعالى إذا قرأ هذه الآية يقول:

---

(١) كما صرح بذلك الإمام النووي رحمه الله في الأذكار ص ١٢٩ كتاب تلاوة القرآن .

(٢) ابن دعامة السدوسي البصري، أحد الأعلام، كان أحفظ أهل البصرة، لم يسمع شيئا إلا حفظه، ولد أكمه سنة ٦٠هـ، ومات سنة ١١٧ هـ، تهذيب الأسماء واللغات ٥٧/١، وطبقات الحفاظ للسيوطي رقم ١٠٤.

(٣) ابن عبد الله بن الشِّخِّير العامري البصري، كان أحد الفضلاء الثقات الودعين العقلاء الأدباء، قال عنه في التقريب رقم ٦٧٠٦: ثقة عابد فاضل، مات سنة ٩٥هـ، وانظر طبقات الحفاظ رقم ٥٢، وشذرات الذهب ١١٠/١ .

هذه آية القُرَّاء"(١) .

وقال سبحانه وتعالى أيضا: ﴿ لَيسُوا سواءً من أهلِ الكِتاب أمَّةٌ قائمةٌ يَتلُونَ آياتِ الله آناءَ الليل وهم يَسجدون * يُؤمِنونَ بالله واليومِ الآخِر ويأمُرونَ بالمعروف وَينهونَ عن المنكر ويُسارعون في الخيراتِ وأولئكَ مِن الصَّالحين ﴾[سورة آل عمران:١١٣،١١٤]، فقد وصف الله جل ذكره الأمة التي فضلها وهي أمة الإسلام بثمان صفات:

أولاها:"أنها قائمة على دين الله متمسكة به، ملازمة له غير مضطربة في التمسك به"(٢) .

وثانيها: أنها تتلو آيات الله آناء الليل في قيامها وتهجدها، وقدم هذا الوصف على صفات أخرى خطيرة، هي الإيمان بالله واليوم الآخر..، للدلالة على مبلغ منزلة ذكر الله تعالى بآياته التنزيلية، ثم وصفهم بقوله: ﴿ أولئِك من الصَّالحين ﴾ أي الذين صلحت أحوالهم عند الله ورضيهم .

وهذا وصف في غاية المدح، لأن الله تعالى مدح به أكابر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقال بعد ذكر إسماعيل وإدريس وذا الكفل وغيرهم: ﴿ وأدخلناهم فِي رَحمتنا إنَّهم منَ الصَّالحين ﴾[سورة الأنبياء:٨٦]، وقال عن سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿وأدخلني بِرحمتك في عبادِك الصَّالحين﴾[سورة النمل:١٩]، وقال عن يوسف عليه السلام: ﴿ توفَّني مُسلماً وأَلحقني بالصَّالحين ﴾[سورة يوسف:١٠١](٣) .

والآيات في هذا كثيرة، وحسبهم شرفا وفضلا أن الله تعالى قرن ذكرهم بالأنبياء والشهداء حيث قال: ﴿ ومن يُطِع اللهَ والرَّسولَ فأولئِك مع الَّذين أنعمَ الله عليهم من النَّبيينَ والصِّديقين والشُّهداء والصَّالحين وحسُنَ أولئِك رفيقاً ﴾[سورة النساء:٦٩] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٥٥٤/٣ بتصرف يسير .

(٢) التفسير الكبير للرازي ١٨٨/٨ .

(٣) التفسير الكبير ١٩٠/٨ .

٢ ـ الاستغفار :

الغفر لغة: الستر، والغفران والمغفرة من الله تعالى: هو أن يصون العبد من أن يمسه عذاب، والاستغفار: طلب ذلك بالمقال والفِعال(١) .

والاستغفار من أعظم الأذكار التي رتب الله عليها المغفرة الشاملة والأجر العظيم؛ لأنه يعني الاعتراف بالذنب والرجوع إلى الحق، وذلك من معالي الأخلاق ومكارمها، ولذلك ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم"(٢)، حيث "دل الحديث على محبة الله تعالى للاستغفار لأنه يظهر فيه عظم عفو الله عن المذنبين وحسن تجاوزه عنهم"(٣) .

ولا يتم ذلك إلا أن يحدث العباد ذنوبا، ثم يحدثون لها استغفارا وتوبة، فيقبل الله تعالى منهم، ويحقق وصفه الأزلي (العفوّ، الغفُور) .

لذا نجد أن القرآن الكريم عني بالحديث عن الاستغفار عناية كبيرة، أمرا به، وحضا عليه، وثناء على أهله، وتنويها بفضله وأجره،بما يفوق الحصر هنا، وهذا طرف من ذلك:

الأمر به :

فأمربه،مثل قوله جل وعلا: ﴿ وأن استَغفِروا رَّبكُم ثمَّ تُوبوا إليه يُمتِّعكُم متاعًا حَسَناً إلى أجلٍ مُسمًّى ويُؤتِ كلَّ ذِي فَضلٍ فضلَه ﴾[سورة هود:٣]، وقوله سبحانه: ﴿ واستَقيمُوا إليه واستَغفِروه ﴾[سورة فصلت:٦]، وقوله تعالى: ﴿ واستَغفِروا اللهَ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيم ﴾ [سورة المزمل:٢٠] .

وقص من أوامر أنبياء الله تعالى ورسله لأقوامهم في هذا الذكر آياتٍ كثيرة، منها قوله سبحانه وتعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿ ويا قومِ استَغفِروا رَّبكم ثم تُوبوا إليه

---

(١) القاموس المحيط ١٠٣/٢ مادة (غفر)، والمفردات ص ٣٦٢ مادة (غفر) أيضا .

(٢) أخرجه مسلم، وتقدم ذكره في التوبة ص٢٢١.

(٣) الفتوحات الربانية شرح الأذكار النووية لابن علان المكي ١٨١/٧ .

يرسلِ السَّماءَ عليكم مِدراراً ويَزدكم قُوَّةً إلى قُوَّتِكم ولا تَتَولَّوا مُجرمين ﴾[سورة هود:٥٢]، وعلى لسان شعيب عليه السلام قال سبحانه: ﴿ واستغفِروا ربَّكم ثم تُوبوا إليه إنَّ ربي رحيمٌ ودود ﴾[سورة هود:٩٠]، وعلى لسان نوح عليه السلام: ﴿ فقلتُ استغفِروا ربَّكم إنَّه كان غفَّاراً * يُرسلِ السَّماءَ عليكم مِدراراً ﴾[سورة نوح:١٠،١١] .

والآيات الآمرة بذلك كثيرة معلومة، ومعلوم أن الأمر للوجوب طالما لم يصرفه عنه صارف كما هو في هذه الآيات .

الحض عليه :

وأما الحض عليه ففي آيات أخرى كثيرة، منها قوله تعالى:﴿ أفلا يَتُوبونَ إلى الله ويَستَغفِرونَه والله غفورٌ رحيم ﴾[سورة المائدة:٧٤]،وقوله تعالى: ﴿ لولاَ تَستَغفِرونَ الله لعلَّكم تُرحمون ﴾[سورة النمل:٤٦]، وكقوله سبحانه: ﴿ ولو أنَّهم إذ ظَلَموا أنفُسَهم جاؤك فاستَغفَروا الله واستغفر لهم الرَّسولُ لوَجدوا الله توَّاباً رحيماً ﴾[سورة النساء:٦٤] .

وحضُّ الله تعالى عباده على شيء دليل محبته له، ومحبته لهم ذلك الشيء، وذلك ليُحسِن لهم الجزاء والمثوبة، وهو ما علَّل به كل الآيات الحاضَّة عليه هنا، ليزيد في حثه عليه وترغيبهم به، وذلك التعليل بالمغفرة والرحمة والتوبة، بمنزلة الوعد المؤكد من المولى الكريم بتحقيق ذلك لهم ﴿ والله لا يُخلِفُ الميعاد ﴾ .

ثناء الله تعالى على المستغفرين :

أما ثناء القرآن الكريم على المستغفرين فقد ورد في معرض ثنائه سبحانه وتعالى على المتقين عامة، والذين كان الاستغفار من أبرز سماتهم، وقد ورد ذلك في آيات كثيرات، منها قوله سبحانه: ﴿ إنَّ المتَّقين في جنَّاتٍ وعُيون * آخِذينَ ما آتاهم ربُّهم إنَّهم كانوا قبلَ ذلك مُحسِنين * كانوا قليلاً مِنَ الَّليل ما يَهجَعون * وبالأسحارِ هُم يَستَغفِرون ﴾ [سورة الذاريات:١٥-١٨] ، حيث بيَّنت الآيات طرفا من إحسانهم الذي نالوا به تلك المراتب العالية، والتي منها استغفارهم الله تعالى في وقت التجلِّيات الربانية وهي أوقات الأسحار.

وذكر نحو ذلك في سورة آل عمران حيث قال جل ذكره واصفا أولئك المتقين الذي أعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواجا مطهرة، ورضوانا من الله، وصفهم بقوله سبحانه: ﴿ الصَّابرينَ والصَّادِقينَ والقَانِتينَ والمُنفِقينَ والمُستَغفِرين بالأسحار ﴾[سورة آل عمران:١٧] .

وفي هذه السورة أيضا ذكر المتقين الذين أعد الله لهم جنات عرضها السموات والأرض منوها ببعض أعمالهم التي نالوا بها مرتبة التقوى فقال: ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسَهم ذكروا الله فاستغفَروا لذنوبِهم ومن يَغفرُ الذُّنوبَ إلَّا الله ولم يُصِرُّوا على ما فَعلوا وهم يَعلمون ﴾[سورة آل عمران:١٣٥] .

ومعلوم أن ثناء الله على عبده يعني رضاه عنه، وإذا رضي الخالق على المخلوق، أجزل له المثوبة، وذلك هو ما تحدثت عنه الآيات السابقات وغيرها، كقوله سبحانه عقب الآية الآنفة الذكر: ﴿ أولئك جزاؤُهم مغفِرةٌ من ربِّهم وجنَّاتٌ تَجري من تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها ونِعمَ أجرُ العاملين ﴾[سورة آل عمران:١٣٦]، وهذه مثوبة آجلة عظيمة، وليست هي الوحيدة، بل هناك مثوبات عاجلة في الدنيا للمستغفرين، يصلح الله بها أحوالهم ويُمَتِّعون متاعا حسنا، كما تحدثت عن ذلك آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ وأن استَغفِروا ربَّكم ثم تُوبوا إليه يُمتِّعْكم مَتاعاً حسناً ﴾[سورة هود:٣]، أي: "يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية، وعيشة واسعة، ونعم متتابعة إلى وقت وفاتكم"(١)، والآيات في هذا المعنى كثيرة، كقوله تعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿ ويا قومِ استَغفِروا ربَّكم ثم تُوبوا إليه يرسِلِ السماءَ عليكم مِدراراً ويَزدكم قوةً إلى قُوَّتِكم ولا تتَولَّوا مُجرِمين ﴾[سورة هود:٥٢]، وقوله سبحانه على لسان نوح عليه السلام: ﴿ فقلتُ استغفِروا ربَّكم إنَّه كان غَفَّاراً * يُرسلِ السماءَ عليكم مِدراراً * ويُمدِدْكم بأموالٍ وبَنينَ ويجعل لَّكم جنَّات ويجعل لَّكم أنهاراً ﴾ [سورة نوح:١٠-١٢] .

فإن هذه الآيات تدل على أن الاستغفار سبب سعادة الحال، ورَفه البال في هذه الحياة الدنيا، وذلك لأنه يعني الرجوع والتوبة إلى الله سبحانه والاستقامة على أمره ونهيه، وقد تكفل الله تعالى لمن كان كذلك بإصلاح حاله ومآله، حيث قال جل ذكره: ﴿ مَن عمِلَ صالحا مِن ذكرٍ أو أُنثى وهو مُؤمن فلنُحيِيَنَّه حياةً طيِّبة ﴾[سورة النحل:٩٧]، وهو ما دلت عليه أحاديث كثيرة سيأتي ذكر بعض منها في التطبيق إن شاء الله تعالى .

---

(١) محاسن التأويل ٩/٩٣ .

٣ ـ الدعاء :

الدعاء كالنداء وزنا ومعنىً "إلا أن النداء قد يقال بـ"يا" أو "أيا" ونحو ذلك، من غير أن يضم إليه الاسم، والدعاء لا يكاد يقال إلا إذا كان معه الاسم"(١)، كما أن الدعاء لا يكون في العرف إلا إذا كان من الأدنى للأعلى كنداء العبد لربه .

أما في الاصطلاح: فهو "الرغبة إلى الله فيما عنده من الخير، والابتهال إليه بالسؤال"(٢) .

منزلة الدعاء :

والدعاء "أعظم مقامات العبودية، لما فيه من إظهار العبودية والذلة والانكسار والرجوع إلى الله تعالى بالكلية"(٣)، ولذلك جاء في الحديث أن "الدعاء هو العبادة"(٤) .

وذلك "لأن الداعي ينقطع أمله مما سواه سبحانه، وذلك هو حقيقة التوحيد والإخلاص ولا عبادة فوقهما"(٥) .

ولما كان الدعاء بهذه المثابة أمر الله عباده أن يدعوه، وحذَّرهم من تركه، ورغَّبهم في الدعاء بآيات كثيرة من كتابه الكريم، وذلك لمقتضى رأفته ورحمته بعباده؛ "لأنه ليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء ولا أبلغ في حصول المطلوب"(٦) .

---

(١) المفردات للراغب ص ١٦٩ .

(٢) تاج العروس ١٢٦/١٠، والمصباح المنير ٢٠٨/١ .

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٤٦/٢ .

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب الدعاء برقم ١٤٧٩، والترمذي في التفسر، باب ومن سورة المؤمن برقم ٣٢٤٤، كلاهما من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، وقال عنه الترمذي: حديث حسن صحيح، والطبراني في الدعاء برقم ١، ٢، ٣، بأسانيد كل رجالها ثقات، ورقم ٤ بإسناد حسن، ورقم ٥، ٦، ٧، بأسانيد رجالها ثقات. انظر: الدعاء للطبراني تحقيق د/محمد سعيد البخاري ٧٨٦/٢-٧٨٨ .

(٥) اتحاف السادة المتقين ٢٩/٥ .

(٦) محاسن التأويل للقاسمي ١٠٣/٣ .

الأمر به :

فأمرهم بذلك بمثل قوله سبحانه: ﴿ وقال ربُّكم ادعوني أستَجِب لكم إنَّ الذين يستكبرونَ عن عِبادتي سَيدخُلون جهنَّم داخِرين ﴾[سورة غافر:٦٠] .

فترى أن الله تعالى أمر عباده بالدعاء، ووعدهم بالإجابة من غير شرط أو قيد، للدلالة على أن الصِّلة بين العبد والرب جل جلاله مباشرة، كما قال بعض السلف رحمهم الله تعالى: "عجيب لهذه الأمة قيل لها: ﴿ ادعُوني أستجِب لكم ﴾ أمرهم بالدعاء، ووعدهم بالإجابة، وليس بينهما شرط، فقال له قائل: مثل ماذا ؟ فقال: مثل قوله تعالى: ﴿ وبشِّر الذين آمنوا وعمِلوا الصَّالحات ﴾[سورة البقرة:٢٥]، فهاهنا شرط، وقوله: ﴿ وبشِّر الذين آمنوا أنَّ لهم قدم صِدق ﴾[سورة يونس:٢]، فليس فيه شرط، ومثل قوله: ﴿ فادعُوا اللهَ مخلِصا له الدِّين ﴾[سورة غافر:١٤]، فهاهنا شرط، وقوله تعالى: ﴿ أُدعُوني أستجِبْ لكم ﴾[سورة غافر:٦٠] ليس فيه شرط"(١) ا.هـ، ولذلك كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: "لا أحمل همَّ الإجابة، ولكن همَّ الدعاء، فإذا أُلهمت الدُّعاء فإن الإجابة معه"(٢) .

التحذير من تركه :

وفي الآية وعيد وتهديد لمن لا يستجيب لهذا الأمر إذ تدل على أن من لم يدع الله فهو مستكبر عن عبادته، لأن الدعاء مخُّ العبادة لكونه يدل على الاعتراف بالعبودية والذلة والمسكنة لله تعالى، فكأنه قيل: "إن تارك الدعاء إنما تركه لأنه مستكبر عن إظهار العبودية لله"(٣) فاستحق أن يدخل جهنم داخرا، أي: صاغرا ذليلا، وفي الحديث: "من لم يسأل الله يَغضب عليه"(٤)، وغضبُ الله إذا حلَّ على شيء دمَّره، وقد أشار إلى هذا

---

(١) جامع أحكام القرآن للقرطبي ٣٢٧/١٥ عن خالد الربعي .

(٢) محاسن التأويل ١٠٣/٣ .

(٣) التفسير الكبير ٨٠/٢٧ .

(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات،باب رقم٢ برقم ٣٣٧٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه،وابن ماجه =

المعنى آياتٌ كثيرة تَنعى على من لا يعرفون الله ويدعونه إلا عند الشدة وينسونه عند الرخاء، أشارت إلى مثل ما دل عليه هذا الحديث، وذلك كقوله جل شأنه: ﴿ وإذا مسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دعانا لجنبه أو قاعدًا أو قائما فلمَّا كَشفنا عنه ضُرَّه مرَّ كأن لم يدعُنا إلى ضرٍ مسَّه كذلك زُيِّنَ للمُسرِفينَ ما كانوا يَعملون ﴾[سورة يونس:١٢]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وإذا غَشيهم موجٌ كالظُّلل دعَوُا اللهَ مخلِصين له الدِّين فلمَّا نجَّاهم إلى البَر فمنهم مقتصِدٌ وما يجحدُ بآياتِنا إلَّا كلُّ ختَّارٍ كفُور ﴾[سورة لقمان:٣٢] أي: غدار لنقضه عهد الفطرة، جحودٍ لنعم الله .

ففي هاتين الآيتين ذم بليغ على من لا يعرف الله تعالى إلا عند الشدة، ووصف لهم بسوء الخلق من الغدر والإسراف، لأن سلوكهم ذلك سلوك مراوغة ناشىء عن فساد الطَّوِيَّة وُنكران الجميل الذي يترتب عليه سوء المصير، كما قال سبحانه عقب إخباره عمَّن كان ذلك حاله: ﴿ فلمَّا أنجاهم إذا هم يَبغُونَ في الأرضِ بغيرِ الحقِّ يا أيُّها النَّاسُ إنَّما بغيُكم على أنفُسِكم متاعَ الحياةِ الدُّنيا ثُمَّ إلينا مرجِعُكم فَنُنَبِّئُكم بما كنتُم تعمَلون ﴾ [سورة يونس:٢٣]، فسمَّى الله تعالى انحرافهم عن الفطرة بغيا، "والبغي: ضد العدل الذي هو فضيلة شاملة لجميع الفضائل، أما البغي فهو ناشىء عن غاية الانهماك في الرذائل، وصاحبه في غاية البعد عن الحق"(١) فاستحقُّوا أن يجازوا على أعمالهم، وقد نبَّه الله إلى ذلك بقوله: ﴿ فَنُنَبِّئُكم بما كنتُم تعملُون ﴾ وهذا وعيد يهزُّ الوِجدان، ويعيده إلى حظيرة الإيمان ، وإخلاص الدعاء للواحد الديان، ودوامه في السر والإعلان .

ترغيب القرآن الكريم في الدعاء :

ولهذا نجد تلطف الملك المنان بعباده، حيث يرغبهم في الدعاء بمثل قوله سبحانه:﴿ وإذا سأَلك عِبادي عنِّي فإنِّي قريبٌ أجيبُ دعوةَ الدَّاعِ إذا دعانِ فليَستجيبُوا لي وليؤمنوا بي

= في الدعاء، باب فضل الدعاء برقم ٣٨٢٧، والحاكم في الدعاء ٤٩١/١، وصححه ووافقه الذهبي، وأحمد في المسند ٤٤٢/٢، وصححه الألباني في تعليقه على المشكاة برقم ٢٢٣٨، وعلى الطحاوية ص ٤٥٩ .

(١) محاسن التأويل ٢٣/٩ .

لعلّهم يَرشُدُون ﴾[سورة البقرة:١٨٦]، إذ يجيبهم الله تعالى مباشرة من غير أن يوكل إجابتهم إلى نبيه صلى الله عليه وسلم كما هي العادة عند التساؤلات القرآنية، فقال سبحانه:

﴿ فإنّي قريبٌ أجيبُ دعوةَ الدّاع إذا دعان ﴾ وذلك "تنبيها على كمال لطفه بعباده"(١) ، وبين لهم أن في الدعاء رشادهم وهدايتهم في أمر دينهم ودنياهم فعليهم أن يلزموه .

كما بين لهم كيف يدعونه بقوله: ﴿ وادعوه مُخلِصينَ له الدِّين ﴾[سورة الأعراف :٢٩] ؛ لأن الإخلاص سر قبول الأعمال والأقوال، وأرشدهم إلى أن يدعوه بأسمائه الحسنى بقوله: ﴿ و لله الأسماءُ الحسنى فادعُوه بها ﴾[سورة الأعراف:١٨٠]، لما تحمله من الثناء المجيد على العزيز الحميد، فيكون للدعاء أبلغ الأثر في الإجابة؛ لأن الكريم إذا أثني عليه أعطى من غير سؤال كما قال الشاعر :

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوما كفاه من تعرضك الثناء(٢)

فكيف إذا ضم إلى الثناء سؤال ؟ إنه أجدر أن يستجيب ويحقق للسائل المطلوب، وفي الحديث: "من شغله ذكري عن مسألتي أعطيتُه أفضل ما أُعطِي السائلين"(٣) .

---

(١) روح المعاني ٩٣/٢/١ .

(٢) عزاهما الحافظ في الفتح ١٧٣/٢٣ إلى أمية بن أبي الصلت، وهو من الشعراء الجاهليين، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولكن لم يسلم بعد أن كاد، توفي سنة ٥ هـ. انظر الأعلام ٢٣/٢ .

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٤١٤/١ برقم ٥٧٣ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، والأصبهاني في الترغيب والترهيب برقم ١٣٣٧، وله شاهد عند الترمذي في الفضائل، باب ٢٥ برقم ٢٩٢٦ من حديث أبي سعيد وحسنه الترمذي، ومن حديث ابن عمر عند الطبراني كما في فتح الباري ١٣٤/١١، وعند البيهقي في الشعب ٤١٣/١ برقم ٥٧٢، قال العراقي في تخريج الإحياء بهامشه ٢٩٥/١، وفي إسناده الصهباء بن أبي الصهباء، ذكره ابن حبان في الضعفاء وفي الثقات، وفي التقريب =

كما علم القرآن الكريم العباد الكيفية التي يدعون بها حيث قال: ﴿ أُدعو ربَّكم تضرُّعا وخُفية إنَّه لا يُحبُّ المعتدين ﴾[سورة الأعراف:٥٥]، لأن الضراعة والإسرار يعنيان: إظهار الضعف والافتقار والتذلل إلى الملك الكريم، وذلك من مقتضيات سرعة الاستجابة، لأن العبد إذا خشع وخضع رحمه ربه، وتفضل عليه بالإجابة(١) ، كما جاء في الحديث: "إن ربكم حييٌّ كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرا خائبتين"(٢) .

= برقم ٢٩٣٥: مقبول اختلف فيه قول ابن حبان، ولكن بمجموع هذه الشواهد والطرق، يتقوى الحديث وينجبر ما فيه من ضعف .

(١) انظر تحفة الذاكرين ص ٣٦ .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب الدعاء برقم ٤٨٨ من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه، والترمذي في الدعوات، باب رقم ١٠٥ برقم ٣٥٥٦، وقال عنه: حسن غريب، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ١٦٨/٢٣: وسنده جيد .

٤ ـ التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير :

التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير مصادر ثلاثية لسبَّح وحمَّد وهلَّل وكبَّر أي قال: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰه إلا الله، والله أكبر، ولكل لفظ من هذه الأذكار مدلول لغوي واصطلاحي .

فالتَّسبيح لغة: التَّنزيه، أي: تنزيهُ الله عن كل سوء على وجه التعظيم، مشتق من السَّبح وهو الجريُ والذهاب، فالمسبِّح جار في تنزيه الله تعالى وتبرئته من السوء(١) .

وفي الاصطلاح: تنزيه الله عما لا يليق به من كل نقص، فيلزم منه نفي الشريك والصاحبة والولد وجميع الرذائل(٢)، وهو من أفضل الأذكار وأجلّها شأنا وأكبرها أثرا، لما فيه من تنزيه الله من النقائص، ومشابهة الحوادث، وتبرئته من كل عيب، وذلك هو خالص التوحيد وصفاؤه، ولذلك نال عناية كبيرة في القرآن الكريم بحيث لم يكن في الأذكار أكبر تنويها، ولا أكثر ذكرا منه .

وأجل ذلك شأنا وأعظم خطرا هو تسبيح الله نفسه، في آيات كثيرة ردا على من يعتقد في ذاته العلية نقصا أو تشبيها، كقوله تعالى: ﴿ وقالوا اتَّخذ اللهُ ولداً سبحانَه بل له ما في السمواتِ والأرضِ كلٌّ له قانِتون ﴾[سورة البقرة:١١٦]، وقوله عز شأنه: ﴿ سُبحانه وتعالَى عَمَّا يصفِون ﴾[سورة الأنعام:١٠٠]، وقوله: ﴿ لا إلٰه إلاَّ هو سُبحانه عمَّا يُشركون ﴾[سورة التوبة: ٣١]، فإذا كان الله تعالى قد نزه نفسه بنفسه فجدير بالعباد وهم المتعبدون بالتوحيد وإخلاص الإيمان، أن ينزهوه دائما وأبدا؛ لأن في ذلك مرضاة لمعبودهم جل وعلا .

تسبيح المخلوقين خالقهم :

ولما كان التسبيح له تلك المكانة عند الله تعالى، كانت المخلوقات جميعها تلهج بالتسبيح والتقديس لله تعالى بفطرتها التي فطرها الله تعالى عليها، أو بتكليفه سبحانه

---

(١) القاموس ٢٢٦/١، مادة (سبح)، وجامع أحكام القرآن للقرطبي ٢٧٦/١ .

(٢) فتح الباري ٢٤٢/٢٣ .

لعباده به، وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك في غيرما آية .

وكان أكثر الخلائق تسبيحا لله تعالى: الملائكة الكرام فقد قال الله تعالى عنهم: ﴿يُسَبِّحونَ اللَّيل والنَّهار لا يَفتُرون﴾[سورة الأنبياء:٢٠] أي: لا يحدث لهم فتور ولا ملل منه، فهو منهم كالنَّفَس منا لا يشغلنا عنه شاغل(١)، وقال سبحانه عنهم: ﴿ وترى الملائكةَ حافِّينَ(٢) من حولِ العَرش يُسبِّحونَ بحمدِ ربِّهم ﴾[سورة الزمر:٧٥]، وقال عز شأنه: ﴿ فإنِ استكبَرُوا فالَّذين عندَ ربِّك يُسبِّحون له باللَّيل والنَّهار وهُم لا يَسأَمون ﴾ [سورة فصلت:٣٨]، إلى غير ذلك من الآيات .

ويليهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام كما قال الله تعالى عن يونس عليه السلام: ﴿ فَلو لا أنَّه كان مِن المُسبِّحين * لَلبِثَ في بَطنه إلى يومِ يُبعثون ﴾[سورة الصافات:١٤٣،١٤٤]، أي: نجاه الله تعالى من بطن الحوت لكثرة تسبيحه، فكان سببا لنجاته، مع أن له أعمالا صالحة كثيرة بمقتضى نبوته، فلم ينفعه إلا التسبيح، وكان من تسبيحه قوله: ﴿ لا إلهَ إلَّا أنت سُبحانك إنِّي كُنتُ من الظَّالمين ﴾[سورة الأنبياء:٨٧] .

وسائر الأنبياء كذلك كانوا من المسبحين الله كثيرا، لعظم معرفتهم بالله تعالى، وأنه منزه عن كل نقص، فموسى عليه السلام يدعو الله تعالى بقوله: ﴿ واجعل لِي وَزيراً من أهلي * هارونَ أخي * أُشدد به أزري * وأَشرِكه في أمري * كي نُسبِّحَك كثيراً * ونذكُرَك كثيراً ﴾[سورة طه:٢٩-٣٤] .

فهو عليه السلام يبين أن غاية بعثته هي ذكر الله كثيرا، وخص من بين أنواع الذكر: التسبيح؛ لعظم مكانته عند الله تعالى .

وزكرياء عليه السلام يقول له الله تعالى: ﴿ واذكر ربَّك كثيراً وسبِّح بالعشيِّ والإبكَار ﴾[سورة آل عمران:٤١]، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاطبه الله تعالى وأمره

---

(١) تفسير الجلالين ٣٩/٢ .

(٢) أي مطيفين بحافتيه، أي: بجانبيه، ومنه: حف به الناس أي: صاروا في جوانبه. نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن لأبي بكر السجستاني ص ٣٣٠،وص ٣٩٢ بهامش القرآن الكريم .

بالتسبيح أربع عشْرةَ مرة، في مقامات مختلفة كما سيأتي بيانها في التطبيق .

أما المؤمنون فإن الله تعالى قد جعل من غايات بعث النبي صلى الله عليه وسلم إليهم بعد الإيمان بالله ورسوله، وتعظيم الله وتبجيله: تسبيح الله وتنزيهه كما قال جل ذكره:﴿ إنَّا أرسلناكَ شاهداً ومبشِّراً ونذيراً * لتُؤمِنوا بالله ورسولِه وتُعزِّرُوه(١) وتُوقِّرُوه(٢) وتُسبِّحوه بُكرةً وأصيلاً ﴾[سورة الفتح٨-٩] .

وإذا كان التسبيح إحدى غايات بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إليهم، فإن ذلك يعني أنه أمر أساسي في هذه الشريعة الغراء، ولذلك أمرهم الله تعالى به أمرا إلزاميا، فقال جل شأنه: ﴿ يا أيها الَّذين آمنوا اذكُروا اللهَ ذكراً كثيراً * وسبِّحوه بُكرةً وأصيلاً ﴾[سورة الأحزاب:٤١،٤٢] .

أي: أول النهار وآخره، والمعنى: اشغلوا ألسنتكم في معظم أحوالكم بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير(٣)، وكنَّى عن جميع الوقت بطرفيه كما يقال:شرقا وغربا لجميع الدنيا(٤) .

فترى أن الله تعالى أمر به في جميع الأوقات، وذلك لعظيم أجره، وكبير أثره في سلوك المسلم مع ربه ومع خلقه ، قال الزمخشري: "وإنما اختص ذكر التسبيح من بين أنواع الأذكار ليبين فضله على سائر الأذكار، كاختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة، لأن معناه تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات والأفعال"(٥) .

وقد قيل: إن المراد بالتسبيح بكرة وعشيا هنا: هو صلاة الغداة وصلاة العشي،

---

(١) أي: تقووه بتقوية دينه ورسوله .

(٢) أي تعظموه، والضمير فيهما عائد إلى الله أو لرسوله صلى الله عليه وسلم ، أفاده الجلال المحلى في تفسيره ٢٥٤/٢ .

(٣) جامع أحكام القرآن للقرطبي ١٩٧/١٤ .

(٤) روح المعاني ٩٦/٢٦/٩ .

(٥) الكشاف ٢٣٩/٣ بتصرف قليل .

وذكرت بلفظ التسبيح لأنه يطلق على الصلاة، وللتنبيه على أشرف ما فيها، وهو تنزيه الله تعالى ويكون الأمر حينئذ للوجوب(١) .

وعلى أي تقدير ففي الآية حث أكيد للمؤمنين على لزوم هذا الذكر والمداومة عليه في كل أوقات المرء، سواء كان استقلالا، أو ضمن الصلاة، وذلك لما يعنيه التسبيح من التنزيه لله عن كلّ نقص، وتعظيمه كما هو أهله، وهذا أمر يحبه ربُّنا ويرضاه .

ولذلك أراده من كل الكائنات الحية، والجمادات والسماوات السبع والأرض ومن فيهن من الخلائق الحية والنامية والجماد، فألهمها جميعا تسبيحه، وفطرها عليه فهي تسبِّح الله تعالى بلسان الحال أو لسان المقال، كما قال جل ذكره: ﴿ تُسَبِّح له السَّمٰوٰاتُ السَّبْعُ والأرضُ ومَن فيهنَّ وإن مِن شيءٍ إلا يُسَبِّح بحمده ولكن لَا تَفقهونَ تسبِيحهم إنَّه كان حليماً غفوراً ﴾[سورة الإسراء:٤٤] .

والآيات في هذا المعنى كثيرة، وافتتح الله تعالى سورا عديدة بآيات في هذا المعنى كسور: الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن، وكرره في آيات أخرى كثيرة، وذلك لتأكيد هذا المعنى من تسبيح الكائنات كلها المولَى عز وجل وتقديسَه وتبجيله، وما ألهمها الله تعالى ذلك إلا لكبير منزلته وعظيم شأنه عنده سبحانه .

التحميد :

أما التحميد فهو مصدر حمَّد ـ المضعف العين ـ وهو قول: الحمد لله، أما مصدر حمِد ـ المخفف ـ فهو حمْد، لكن التحميد أبلغ منه لدلالته على التكثير(٢) .

ومعنى الحمد لغة: الثناء .

واصطلاحا: الثناء على الله بالجميل، على جهة التعظيم والتبجيل(٣) .

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٩٨/٤ .

(٢) تفسير القرطبي ١/ ١٣٣ .

(٣) المصباح المنير ١٦٢/١، والبحر المحيط ١٤٣/١ .

وكثيرا ما يأتي ذكر الحمد بعد التسبيح، لاسيما في القرآن الكريم كقوله تعالى على لسان الملائكة: ﴿ ونَحْنُ نُسَبِّح بحمدِك ونُقدِّس لك ﴾[سورة البقرة:٣٠]، وقوله سبحانه: ﴿ ويُسَبِّح الرعدُ بحمدِه ﴾[سورة الرعد:١٣] وقوله: ﴿ وسبِّح بحمدِ رَّبك ﴾[سورة طه:١٣٠]، وذلك لأن إلهام التسبيح نعمة تستوجب الشكر، فيقرن الحمد به شكرا لله تعالى على التوفيق لهذه النعمة، كما قالوا في قوله تعالى: ﴿ ونحنُ نُسبِّح بحمدك ﴾، قالوا: أي بتوفيقك وإنعامك، قالوا: والحمد هو الثناء، والثناء ناشىء عن التوفيق للخير(١)، وفي الحديث: "الحمد رأس الشكر، ما شَكرَ الله عبدٌ لا يحمده"(٢) قالوا: وإنما كان رأس الشكر؛ لأن فيه إظهار النعمة، والإشادة بها، ولأنه أعم منه فهو شكر وزيادة(٣) .

وكما اقترن ذكر الحمد بالتسبيح في آيات كثيرة،فقد تجرد عنه في آيات كثيرة أيضا، لأنه يكون في مقابل النعم، ونعم الله كثيرة، فكل نعمة تستوجب حمدا وشكرا، فكان يرد ذكره في القرآن عقبها تارة، وابتداء من غير سبق نعم تارة أخرى، للدلالة على استحقاق الله تعالى للحمد، وإن لم يكن في مقابل نعمة، إذ هو المحمود على كل حال، وذلك كقوله تعالى:﴿ الحمدُ لله ربِّ العالمين ﴾ والألف واللام فيه للاستغراق أو للجنس والمعنى: أن الحمد والثناء كله حق لله وملكه، فإنه تعالى هو المستحق للحمد بسبب كثرة أياديه، وأنواع آلائه(٤) .

وقد حمد الله تعالى نفسه بهذه الآية في تسعة مواضع من كتابه العزيز(٥)، وفي ضمنه

---

(١) روح المعاني ٢٢٢/١ .

(٢) أخرجه البغوي في شرح السنة ٥٠/٥ ورجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعا، انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة ٥٥٢/٣ برقم ١٣٧٢ .

(٣) النهاية لابن الأثير ٤٣٧/١ .

(٤) انظر التفسير الكبير ٢١٩/١ .

(٥) هي فواتح سور : الفاتحة، والأنعام، وآية (٤٥) منها، وآية (٧٥) من النحل، وفاتحة الكهف، وسبأ، وفاطر، وآخر الصافات، وآية (٦٥) من الزمر .

أمر عباده أن يثنوا عليه خيرا، فكأنه قال: قولوا: الحمد لله(١) .

وقد ورد الأمر به صريحا في آيات منها قوله تعالى: ﴿ وقُلِ الحمدُ للهِ الَّذي لم يَتَّخذ ولداً ...﴾[سورة الإسراء:١١١]، وقوله سبحانه: ﴿ فقُلِ الحمدُ للهِ الذي نجَّانا من القومِ الظالمين ﴾[سورة المؤمنون:٢٨]، وقوله عز شأنه: ﴿ قُل الحمدُ للهِ بل أكثرُهم لا يعقلون ﴾[سورة العنكبوت:٦٣] .

والخطاب بهذه الصيغة وإن كان موجها للنبي صلى الله عليه وسلم، فإن أمته تدخل فيه لأن أمر المتبوع أمر للتابع، كما هو مقرر في علم الأصول ما لم تقم قرينة على التخصيص .

وقد حمده بهذه الصيغة الأنبياء والمؤمنون ، فإبراهيم عليه السلام قال: ﴿ الحمدُ للهِ الذي وهب لي على الكِبَرِ إسماعيلَ وإسحاقَ إنَّ ربي لسميعُ الدُّعاء ﴾[سورة إبراهيم:٣٩]، وداود وسليمان عليهما السلام قالا: ﴿ الحمدُ لله الذي فضَّلنا على كثيرٍ من عباده المؤمنين ﴾[سورة النمل:١٥] .

أما المؤمنون فهو ثناؤهم في الجنة على الله سبحانه وتعالى كما حكى القرآن عنهم أنهم يقولون: ﴿ الحمدُ للهِ الَّذي هدانا لهذا وما كُنَّا لِنهتَديَ لولا أن هَدانا الله ﴾[سورة الأعراف:٤٣]، وأنهم يقولون: ﴿ الحمدُ لله الذي أَذهبَ عنَّا الحَزَن إن ربَّنا لغفورٌ شكور ﴾[سورة فاطر:٣٤]، وأنهم يقولون: ﴿ الحمدُ لله الذي صدَقنا وعدَه وأورثَنا الأرضَ نتبوأُ من الجَنَّة حيثُ نشاء فنِعم أجرُ العاملين ﴾[سورة الزمر:٧٤]، وأن آخر دعواهم فيها ﴿ أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين ﴾[سورة يونس:١٠]، مما يدل على عظيم مكانة هذا الذكر والثناء، ولهذا يقول الحافظ ابن كثير عند آية يونس المذكورة: "وهذا فيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبدا، المعبود على طول المدا، قال: ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله حيث يقول تعالى: ﴿ الحمدُ لله الذي أنزلَ الكتابَ ﴾[سورة الكهف:١]، و ﴿ الحمدُ لله الذي خلقَ السَّمواتِ والأرض ﴾

---

(١) انظر جامع البيان عن تأويل القرآن لابن جرير الطبري ٦١/١ .

[سورة الأنعام:١]، إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنه المحمود في الأولى والآخرة، في الحياة الدنيا وفي الآخرة في جميع الأحوال، قال: ولهذا جاء في الحديث: "أن أهل الجنة يُلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النَّفَس"(١) .

التهليل والتكبير :

التهليل مصدر هلَّل إذا قال: لا إلهَ إلا الله، قال الأزهري: لا أراه مأخوذاً إلا من رفع قائله صوته(٢) .

وهذا أفضل الأذكار لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "أفضلُ ما قلت أنا والنبيون من قبلي(٣) لا إلهَ إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير"(٤) .

وذلك لأن هذه كلمة التوحيد الموجبة للسعادة،والمنقذة من الشقاوة، وقد سمَّاها الله تعالى: كلمة التقوى، وكلمته العليا، وكلمته الباقية، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وألزمهم كلمةَ التَّقوى ﴾[الفتح:٢٦] قال مجاهد: كلمة التقوى: لا إلهَ إلا الله، وقال تعالى: ﴿ وجعل كلمةَ الذين كفروا السُّفلى ﴾ يعني الشرك ﴿ وكلِمةُ الله هي العُليا ﴾[سورة التوبة:٤٠]، هي لا إلهَ إلا الله، وقال سبحانه: ﴿ وجعلَها كلمةً باقية ﴾[سورة الزخرف:٢٨]، يعني لا إله إلا الله ، وقال عز شأنه: ﴿ ولهُ المثل الأعلى ﴾[سورة الروم:٢٧] أي: التوحيد والخلق والأمر، ونفي كل إلهٍ سواه، وترجم عن هذا كله بـ "لا إلهَ إلا الله (٥)، فلهذا

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٠٨/٢ . والحديث المشار إليه أخرجه مسلم في الجنة ونعيمها وأهلها برقم ٢٨٣٥ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

(٢) تاج العروس ١٧١/٨ .

(٣) أي: أكثر ثوابا وأقربه إجابة. تنوير الحوالك ١٦٨/١ .

(٤) تقدم تخريجه في الحج مرسلا وموصولا ص ٢١٨

(٥) شرح السنة للبغوي ٥٣/٥ بتصرف يسير .

كله كان الذكر بلا إله إلا الله أفضل الأذكار كما قال النبي صلى الله عليه وسلم .

أما التكبير فهو مصدر كبَّر يكبر ـ المضَّعف العين ـ إذا قال: الله أكبر .

ومعناه: أعظم وأعز وأجلّ، فهي جملة تدل على أن الله أعظم من كل عظيم، وإثبات الأعظمية له سبحانه في هذه الكلمة كناية عن وحدانيته بالإلهية، لأن التفضيل يستلزم نقصان ماعداه، والناقص غير مستحق للإلهية(١)، فهي كلمة توحيد وإثبات عظمته تعالى دون من سواه، ولهذا ورد الأمر بها في العبادات من صلاة وصيام وحج ..

أما الصلاة وهي أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، فإنها لا تفتتح إلا بالتكبير، ولا تنعقد إلا بتكبيرة الافتتاح، ثم إن سائر التنقلات في أركانها تصحب بالتكبير عدا ركن الاعتدال ، وذلك لأن المصلي يحرم عليه بالتكبير ما كان حلالا له قبله من مفسدات الصلاة، وجعل فاتحة الصلاة ليستحضر المصلي معناه الدال على عظمة من تهيأ لخدمته حتى تتم له الهيبة والخشوع، قالوا: ومن ثم زيد في تكراره ليدوم استصحاب ذلك في جميع الصلاة(٢) .

وأما الصيام فقد شرع التكبير عند انقضاء شهره شكرا لله تعالى على إتمام نعمته على عبده بإتمام شهر الصيام والتوفيق له(٣) كما قال تعالى: ﴿ ولِتُكمِلُوا العِدَّةَ ولِتُكَبِّرُوا اللهَ على ما هداكم ولعلَّكم تَشكُرون ﴾[سورة البقرة:١٨٥] .

وأما الحج فقد شرع التكبير فيه عند الفراغ من معظم أعماله ابتداء من يوم العيد إلى آخر أيام التشريق، عند رمي الجمرات وعقب الصلوات، وعند ذبح الهدي ..، شكرا لله تعالى على إتمام هذه الشعيرة العظيمة كما قال الله تعالى: ﴿ واذكروا اللهَ في أيَّامٍ مَعدُودات ﴾ [سورة البقرة:٢٠٣]، والأيام المعدودات هي أيام التشريق، وذكر الله فيها يكون بالتكبير كما بينته السنة المشرفة، وشرعه كذلك لغير الحاج مطلقا في سائر الأوقات، ومقيدا بعقب الصلوات مما يدل على مكانة هذا الذكر، وعظيم منزلته عند الله تعالى .

---

(١) التحرير والتنوير ١٧٦/٢ .

(٢) فتح المعين لزين الدين المليباري ١٣٠/١ بحاشية إعانة الطالبين .

(٣) انظر التفسير الكبير ٩٣/٥ .

تطبيق النبي صلى الله عليه وسلم للذكر

وحيث كان الذكر عند الله أكبر، وثوابه أعظم وأجزل، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أولى الناس عناية به،وإكثارا منه،حيث كان "يذكر الله على كل أحيانه" كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها(١) .

وقال عبد الله بن أبي أوفى(٢) رضي الله عنه: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكثر الذكر، ويُقِلُّ اللَّغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له الحاجة"(٣) .

ولهذا قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "كان النبي صلى الله عليه وسلم أكملَ الخلق ذكراً لله عز وجل، بل كان كلامه في ذكر الله تعالى وما والاه، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكرا منه لله تعالى، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته، وأحكامه وأفعاله ووعده ووعيده ذكرا منه له، وثناؤه عليه بآلائه، وتمجيده وحمده وتسبيحه ذكرا منه له، وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته ذكرا منه له، وسكوته وصمته ذكرا منه له بقلبه،

---

(١) أخرجه البخاري في الحيض، باب تقضي الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت ٨٠/١، تعليقا بصيغة الجزم، وقد وصله الحافظ ابن حجر في تغليق التعليق ١٧٢/٢، ووصله مسلم عنها بسنده في الحيض، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة برقم ٣٧٣ .

(٢) واسم أبيه علقمة بن خالد الحارثي الأسلمي ، صحابي ابن صحابي، شهد بيعة الرضوان وخيبر وما بعدهما من المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان آخر من مات من الصحابة بالكوفة سنة ٨٧هـ، تهذيب الأسماء واللغات ٢٦١/١، والإصابة ٢٧٩/٢ .

(٣) أخرجه النسائي في الجمعة، باب ما يستحب من تقصير الخطبة ١٠٩/٣، والدارمي في سننه ٣٥/١، المقدمة، والحاكم في المستدرك ٦١٤/٢، وابن حبان في صحيحه ١١٢/٨ من الإحسان، والطبراني في المعجم الصغير ١٤٤/١، والبغوي في الأنوار برقم ٣٨٢، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وتبعه الألباني في تعليقه على المشكاة ١٦٢٢/٣، برقم ٥٨٣٣، وعزاه الهيثمي إلى الطبراني قال: وإسناده حسن ا.هـ، مجمع الزوائد ٢٣/٩ .

فكان ذاكرا لله في كل أحيانه، وعلى جميع أحواله، وكان ذكره لله يجري مع أنفاسه، قائما وقاعدا، وعلى جنبه، وفي مشيه، وركوبه ومسيره، ونزوله وظعنه وإقامته"(١) .

وقد حفظ لنا أئمة الإسلام كل ذلك في كتب السنة المشرفة من جوامع وسنن ومسانيد وأجزاء وغيرها، أو في مدونات خاصة بالأذكار أو الشمائل .

وسأذكر جانبا من تلك الأذكار: تلاوة أو استغفارا أو تسبيحا وتحميدا أو تهليلا وتكبيرا أو دعاء، ليعلم حاله صلى الله عليه وسلم من خلق التضرع والافتقار إلى الله عز وجل .

أما التلاوة: فقد كان صلى الله عليه وسلم تاليا لكتاب الله كما أمره الله بذلك حيث قال له: ﴿ ورتِّل القرآنَ ترتيلاً ﴾[سورة المزمل:٣]، وقال سبحانه على لسانه صلى الله عليه وسلم:﴿ إنَّما أُمرتُ أن أعبدَ ربَّ هذِه البلدةِ الَّذي حرَّمها وله كلُّ شيءٍ وأُمرتُ أن أكونَ من المسلمين * وأن أتلُوَ القرآنَ ...﴾[سورة النمل ٩١،٩٢] .

١ ـ فكان يتلوه حق تلاوته في سائر أحيانه، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يَحجُبه أو قال: لا يحجزه شيء عن قراءة القرآن إلا الجنابة"(٢)، وذلك ابتداء من عند نزوله، حيث كان يبلغه إلى أمته إثر تنزُّله عليه، ويتلوه على كتبة الوحي، ويأمرهم بوضع كل آية مما نزل عليه في مكانها المناسب .

٢ ـ وقد بلغ من الحرص على تلاوته والتثبت منه، ومحاولة حفظه، أن كان يتلوه أثناء

---

(١) زاد المعاد لابن القيم ٣٦٥/٢ .

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة، باب في الجنب يقرأ القرآن برقم ٢٢٩، والترمذي في الطهارة، باب ما جاء في الرجل يقرأ القرآن على كل حال برقم ١٤٦، والنسائي في الطهارة، باب حجب الجنب عن قراءة القرآن ١٤٤/١، وابن ماجه في الطهارة ١٩٥/١، والآجري في أخلاق أهل القرآن ص ١٥١ رقم ٧٦، وابن خزيمة ١٠٤/١، والحاكم ١٠٧/٤، وأحمد في المسند ٧٤/١، ١٠٧، ١٢٤، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح .

تنزله عليه، مما كان يوليه عناء وشدة(١) حتى قال الله جل ذكره لـه: ﴿ لا تُحرّك بـه لسانك لتعجلَ به * إنَّ علينا جمعَه وقرآنَه * فإذا قرأناه فاتَّبع قرآنَه * ثُـمّ إنَّ علينـا بيانـه ﴾ [سورة القيامة:١٦-١٩]، وقـال لـه أيضا: ﴿ ولا تعجلْ بـالقرآنِ مـن قبـل أن يُقضَـى إليـك وحيُه ﴾[سورة طه:١١٤]، فكان هذا تطمينا لقلبه بضمان حفـظ القـرآن الكريـم في صـدره الشريف، فترك بعد ذلك هذا الأسلوب "فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عز وجل" كما جاء في حديث ابن عباس المشار إليه .

٣ ـ أما تلاوته بعد ذلك فقد كان يتلوه في الصلوات كما تقدم في التهجد، حيث كان ربما قرأ الطوال في ركعة(٢)، وما من صلاة إلا وهو صلى الله عليـه وسـلم يقـرأ فيهـا مـا تيسر من القرآن قليلا أو كثيرا، كما هو معلوم من كتب السنة .

٤ ـ وكان إذا جاء رمضان، نزل جبريل مـن السـماء فيدارسـه القـرآن كمـا قـال ابـن عباس رضي الله عنهما: "كان رسـول الله صلـى الله عليـه وسلـم أجـود النـاس، وكـان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جـبريل" قـال: وكـان يلقـاه كـل ليلـة مـن رمضـان فيدارسه القرآن .."(٣) .

---

(١) كما جاء في حديث ابن عباس عند البخاري في بدء الوحي ٦/١، وفي فضائل القـرآن ٢٤/٦، قـال: كـان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة، وكان مما يحرك شفتيه ... إلى أن قال: فـأنزل الله عليه: ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه ﴾ قال ابن عباس: جمعه له في صدره وتقـرأه ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾ قال: فاستمع له وأنصت ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ ثم علينا أن تقرأه، قال: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع فإذا انطلق جـبريل قـرأه النبي صلـى الله عليه وسلم كما سمع .

(٢) كما دل عليه حديث حذيفة عند مسلم وغيره المتقدم تخريجه في التهجد، فقد دل ذلك الحديث علـى قـراءة النبي صلى الله عليه وسلم الثلاث السور الطوال الأول في ركعة واحدة .

(٣) أخرجه البخاري في الصيام، باب أجود ما كان النبي صلى الله عليه وسلم في رمضـان ٣٣/٣، ومسـلم في الفضائل، باب كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة برقم ٢٣٠٨ .

٥ ـ وكان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة، فلما كان العام الذي تُوفِّي فيه عارضه مرتين كما في حديث عائشة عند البخاري(١) .

٦ ـ وربما كان يتدارسه مع بعض أصحابه رضي الله عنهم كما قال لابن مسعود رضي الله عنه: "اقرأ علي" فقال له: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أنزل ؟!"قال: نعم، إني أحب أن أسمعه من غيري، قال: فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿ فكيفَ إذا جِئنا من كلِّ أمَّةٍ بشهيد وجِئنا بكَ على هَؤُلاءِ شهيدا ﴾[آية:٤١]، فقال: "حسبُك الآن" قال ابن مسعود: فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تذرِفان"(٢) .

٧ ـ بل كان لا ينام حتى يقرأ حظا من القرآن كما جاء عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: "كان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ تنزيل السجدة وتبارك الملك"(٣) .

وفي حديث آخر أنه صلى الله عليه وسلم كان "لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل"(٤)، وهناك روايات أخرى كثيرة .

٩ ـ وإذا استيقظ أول ما يبدأ به أن يقرأ العشر الآيات خواتيم سورة آل عمران، كما دل عليه حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قصة نومه في بيته صلى الله عليه وسلم عند خالته أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها، وفيه: "فنام رسول الله صلى الله عليه

---

(١) في الاستئذان ٧٩/٨ .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب قول المقرىء للقارىء: حسبك ٢٤١/٦ .

(٣) رواه الترمذي في الدعوات، باب ٢٢ برقم ٣٤٠٤، والبخاري في الأدب المفرد برقم ١٢٠٧، والدارمي ٥٥/٢، وأحمد في المسند ١٤٣/٣، والحديث صحيح كما بينه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٥٨٥ .

(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات برقم ٣٤٠٥ من حديث عائشة رضي الله عنها، والحاكم ٤٣٤/٢، وأحمد في المسند ٦٨/٦، ١٢٢، وسكت عنه الحاكم والذهبي والترمذي أيضا، ورجاله ثقات، وصححه الألباني في الصحيحة برقم ٦٤١، ٢٤٣/٢ .

وسلم حتى إذا انتصف الليل، أو قبله بقليل، أو بعده بقليل، استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس يمسح النوم عن وجهه بيده، ثم قرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران .."(١) الحديث .

فهذا بعض مما كان يواظب على تلاوته النبي صلى الله عليه وسلم في أوقات محددة، ومناسبات معينة، بله عما كان يتلوه النبي صلى الله عليه وسلم في سائر أوقاته وجميع أحيانه، تلاوة عامة، أو تعليما، أو استشهادا، أو وعظا، أو غير ذلك، كما علمت مما دل عليه حديث عائشة رضي الله عنها الآنف الذكر، مما يدل على مبلغ شغفه صلى الله عليه وسلم بالقرآن وحرصه على تلاوته .

أقواله صلى الله عليه وسلم في الحث على تلاوة القرآن وبيان فضله :

وقد كان يدل على ذلك أيضا أقواله الكثيرة في الحث على تلاوة القرآن، وبيان فضله، وهي كثيرة جدا، فإنها تدل قبل كل شيء على مبلغ عنايته صلى الله عليه وسلم بالقرآن، وكمال حرصه عليه، حيث لم يفتأ يرغِّب أمته بذلك ويحثها عليه، لما يثمر ذلك من عظيم الأجر، وقوام الأخلاق، والاستقامة على الدين، وذلك كقوله عليه الصلاة والسلام :

١ - "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"(٢) .

٢ - وكقوله عليه الصلاة والسلام: "الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة(٣)، والذي

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء، باب قراءة القرآن بعد الحدث وغيره ١/٥٥، ومسلم في صلاة المسافرين برقم ٧٦٣، والبغوي في الأنوار ٥٦٨ .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ٦/٢٣٦ من حديث عثمان رضي الله عنه .

(٣) يعني الملائكة .

يقرأ القرآن ويتعتع فيه(١) وهو عليه شاق له أجران"(٢) يعني: أجراً لقراءته، وأجراً لتعبه .

٣ - وخرج ذات يوم على أصحابه وهم جلوس في "الصُّفَّة"(٣) فقال لهم: "أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بُطحان(٤)، أو قال: العقيق(٥)، فيأتي منه بناقتين كَوْمَاوَين(٦) في غير إثم ولا قطيعة رحم ؟ فقال الصحابة: يا رسول الله نحب ذلك، قال: "أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلَمَ، أو قال يقرأ آيتين من كتاب الله، خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل"(٧) .

٤- وقال في الحث على مدارسة القرآن ومذاكرته :

ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تبارك وتعالى، يتلون كتاب الله عز وجل، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السَّكِينة(٨)، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتهم الملائكة،

---

(١) أي يتردد فيه .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة عبس ٢٠٦/٦، ومسلم في المسافرين، باب فضيلة حافظ القرآن برقم ٧٩٨ من حديث عائشة رضي الله عنها، واللفظ له .

(٣) اسم موضع مظلل في مسجده صلى الله عليه وسلم، كان يقطنه فقراء المهاجرين، فلقبوا بـ"أهل الصفة" .

(٤) اسم واد في المدينة، وهو أحد أوديتها الثلاثة: بطحان، والعقيق، وقناة، ويقع جنوب قباء إلى الشرق. مراصد الاطلاع ٢٠٤/١٤، والدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين ص ١٣١ .

(٥) واد في المدينة على ثلاثة أميال منها، به أموال أهل المدينة من المزارع والبساتين، وبه عيون. انظر معجم البلدان ١٣٩/٤ .

(٦) تثنية كوماء، وهي الناقة المشرفة السنام عاليته. انظر النهاية ٢١١/٤ .

(٧) أخرجه مسلم في المسافرين، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه برقم ٨٠٣ من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، وأبو داود في الصلاة، باب ثواب قراءة القرآن برقم ١٤٥٦ .

(٨) قال النووي رحمه الله: هي شيء من خلق الله فيه طمأنينة ورحمة ومعه الملائكة .

وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بَطَّأ به عملُه(١) لم يسرع به نسبه"(٢) .

٥ - وبين لهم مقدار أجر قراءة القرآن فقال:

"من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: "ألم" حرفٌ، ولكنْ أَلِفٌ حرفٌ، ولامٌ حرفٌ، وميمٌ حرفٌ"(٣) .

٦ - كما بين لهم مبلغ منزلة القراء عند الله تعالى فقال:

"يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق، ورتِّل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها"(٤) .

٧ - وبين أيضا حال من لم يقرأ القرآن، فلم يكن في جوفه منه شيء فقال:

"إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخَرِب"(٥) .

فشبهه النبي صلى الله عليه وسلم بالبيت الذي لا ساكن فيه، فيصلح خَلَلَه حتى خرب، وكذا الذي ليس في جوفه شيء من القرآن، فلم يكن عنده ما يزعه عن الرذائل، ويدفعه إلى الفضائل .

---

(١) أي: أن من كان عمله ناقصا لم يلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال، فينبغي أن لا يتكل على شرف النسب، وفضيلة الآباء ، ويقصر في العمل،ا.هـ . شرح النووي على مسلم ٢٢/١٧ .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر برقم ٢٦٩٩، وأبوداود في الصلاة، باب في ثواب قراءة القرآن برقم ١٤٥٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الترمذي في ثواب القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ، ما له من الأجر، برقم ٢٩١ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، والدارمي في فضل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن ٤٢٩/٢، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح غريب .

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب استحباب ترتيل القرآن برقم ١٤٦٤ من حديث عبد الله بن عمرو، والترمذي في فضائل القرآن باب رقم ١٨، برقم ٢٩١٤، وأحمد في المسند ١٩٢/٢، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح غريب .

(٥) أخرجه الترمذي في الكتاب والباب السابقين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما برقم ٢٩١٣، والدارمي في فضائل القرآن ٤٢٩/٢، وأحمد في المسند ٢٢٣/١، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح .

إلى غير ذلك من أقواله صلى الله عليه وسلم الشريفة، وأحاديثه المنيفة، في فضل القرآن وقارئيه وآداب تلاوته وعظيم أجره فيها والتي لا يأتي عليها الحصر في مثل هذا المبحث، وهي معلومة، ولها مصنفات مستقلة، ناهيك عن كونها في ضمن الأمهات الحديثية من جوامع وسنن ومسانيد .

استغفاره صلى الله عليه وسلم :

أما الاستغفار: فقد كان ديدنه ودأبه صلى الله عليه وسلم على الدوام، لأن الله تعالى قد ندبه إلى ذلك حيث قال له: ﴿ واستَغفِر لذنبِك وللمؤمنينَ والمُؤمنات ﴾[سورة محمد:١٩]، وقال له أيضا: ﴿ فسبِّح بحمدِ ربِّك واستغفره إنَّه كان توَّابا ﴾[سورة النصر:٣]، وقد بادر عليه الصلاة والسلام إلى تطبيق أوامر ربه على وجه الكمال والتمام والكثرة التي عند غيره لا ترام :

١ ـ فكان يُعد له في المجلس الواحد مائة مرة يقول فيه: "رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم"(١) .

٢ ـ وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة"(٢) .

٣ ـ وروى مسلم من حديث الأغر المزني رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنَّه لَيُغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم مائة مرة"(٣) .

٤ ـ ولقد أثار استغفار النبي صلى الله صلى الله عليه وسلم بذلك النحو من الكثرة استغراب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فسألته عن ذلك وقالت له: يارسول الله إني أراك تكثر قول:سبحان الله وبحمده،وأستغفر الله وأتوب إليه؟فقال صلى الله عليه وسلم:

---

(١) رواه البخاري من حديث ابن عمر، وتقدم تخريجه في التوبة ص٢١٨.

(٢) رواه البخاري، وتقدم تخريجه في التوبة ص٢١٨.

(٣) تقدم تخريجه في التوبة ص٢١٧.

"خبَّرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده أستغفره وأتوب إليه، فقد رأيتها ﴿ إذا جاء نصرُ الله والفتح ﴾ السورة إلى آخرها(١) .

٥ ـ وفي رواية: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده "سبحانك اللَّهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي" يتأول القرآن(٢) .

فهكذا كان استغفار النبي صلى الله عليه وسلم كثرة وتضرعا، وهو الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ووعده بالمقام المحمود، وأن يرضيه في دار كرامته بما تقر به عينه في نفسه وأمته .

وما كان ذلك منه إلا لعظم فضل هذا الذكر، وبالغ أثره في سلوك المسلم، وكبير أجره، وهو ما كان يعبر عنه صلى الله عليه وسلم بلسانه الشريف .

أقواله صلى الله عليه وسلم في فضل الاستغفار :

وأقواله صلى الله عليه وسلم في ذلك كثيرة، ومن ذلك :

١ ـ قوله عليه الصلاة والسلام: "من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا، ومن كل هم فرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب"(٣) .

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب تفسير سوة ﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ ٢٢/٦ وفي غيره، ومسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود برقم ٤٨٤، وابن جرير في تفسير سورة النصر ٣٣٢/٣٠ واللفظ له .

(٢) لفظ البخاري في التفسير ٢٢٠/٦ .

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب في الاستغفار برقم ١٥١٨ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه أحمد في المسند ٢٤٨/١ بلفظ "من أكثر"، وابن ماجه في الآداب، باب الاستغفار برقم ٣٨١٩ـ والبيهقي في شعب الإيمان ٤٤٠/١ برقم ٦٤٢، والحاكم في المستدرك، كتاب التوبة والإنابة ٢٦٢/٤، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، فتعقبه الذهبي بقوله: الحكم بن مصعب الدمشقي فيه جهالة، وذلك هو حكم أبي حاتم في الجرح والتعديل ١٢٨/٣، والحافظ في التقريب ١٤٦١، لكن صحح إسناده العلامة أحمد شاكر في تعليقه على المسند برقم ٢٢٣٤ بناء على أن البخاري لم يذكر فيه جرحا حين ذكره في التاريخ الكبير .

٢ ـ وقوله: "إن عبدا أصاب ذنبا ـ وربما قال: أذنب ذنبا ـ فقال: رب أذنبت ذنبا ـ وربما قال: أصبت ـ فاغفر لي، فقال ربه: "أَعَلِم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ؟ غفرت لعبدي،ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنبا ـ أو أذنب ذنبا ـ فقال: رب أذنبتُ ـ أو أصبت ـ آخر فاغفره، فقال: أَعلِم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله،ثم أذنب ذنبا ـ وربما قال: أصاب ذنبا ـ قال: رب أصبت ـ أو أذنبت ـ آخر فاغفره لي: فقال: أَعلِم عبدي أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ به ؟ غفرت لعبدي ثلاثا فليعمل ما شاء"(١) .

والنبي صلى الله عليه وسلم يبين في هذا الحديث محبة الله تعالى البالغة للاستغفار،بحيث إنه سبحانه يتجاوز عن سيئات المستغفر فضلا منه وكرما، وذلك لمَّا أقبل عليه العبد بذنبه وطلب منه المغفرة، وبين صلى الله عليه وسلم ذلك بأحاديث أخرى كثيرة غير هذا، تقدم ذكر بعضها في التوبة، ومن ذلك أيضا قوله صلى الله عليه وسلم :

٣ ـ "ما من رجل يذنب ذنبا ثم يقوم فيتطهر ويصلي ويستغفر الله إلا غفر له، ثم قرأ: ﴿ والَّذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظَلموا أنفسَهم ذَكروا الله فاستَغفَروا لِذُنوبِهم ومن يَغفرُ الذنوبَ إلا الله ﴾[سورة آل عمران:١٣٥](٢) .

إلى غير ذلك من الأحاديث التي تدل على عظيم اجتهاده صلى الله عليه وسلم بالاستغفار، وحثه عليه، وبيانه لفضله، وذلك لما له من أثر بليغ في محو السيئات وتزكية النفس البشرية .

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، باب يريدون أن يبدلوا كلام الله ١٧٨/٩، ومسلم في التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت برقم ٢٧٥٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب الاستغفار برقم ١٥٢١ من حديث علي رضي الله عنه، والترمذي في تفسير سورة آل عمران برقم ٣٠٠٦، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب ما جاء أن الصلاة كفارة برقم ١٣٩٥، وإسناده حسن .

تعليمه الأمة سيد الاستغفار :

وقد كان عليه الصلاة والسلام يعلم أمته سيد الاستغفار ليحفظوه ويقولوه، فيقول :

١ ـ "سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء(١) لك بنعمتك عليَّ،وأبوء لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت" من قالها من النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة"(٢) .

٢ ـ وبين لهم فضيلة هذا الاستغفار، بأن من قاله فمات قبل أن يصبح، أو من يومه أو ليلته، كما في رواية أخرى له(٣): دخل الجنة، وهذا فضل عظيم لهذا الذكر لا ينبغي التفريط فيه، كما بين صيغا أخرى كثيرة غير هذه تعلم من مظانها في كتب الأذكار .

دعاؤه صلى الله عليه وسلم :

وأما الدعاء فقد كان له صلى الله عليه وسلم فيه شأن عظيم، حيث كان لا يخلو حال من أحواله الشريفة من دعاء خاص، ناهيك عن الأدعية العامة في سائر الأزمان والأحوال والمناسبات .

١ ـ ففي الصلاة كان يدعو عند افتتاحها بقوله: "اللهم نقِّني من خطاياي كما يُنقَّى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد"(٤) .

---

(١) أي: أعترف .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات، باب فضل الاستغفار ٨٣/٨، وباب ما يقول إذا أصبح ٨٨/٨، والنسائي في الاستعاذة، باب الاستعاذة من شر ما صنع ٢٧٩/٨، وفي عمل اليوم والليلة برقم ١٩ من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه .

(٣) من حديث بريدة عن أبيه رضي الله عنه، عند أبي داود برقم ٥٠٧، وابن ماجه برقم ٣٨٧، وابن حبان برقم ٢٣٥٣ (موارد) والحاكم في المستدرك ٥١٤/١، والنسائي في عمل اليوم والليلة برقم ٢٠، وقال عنه الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار ٣٢٤/٢: حسن صحيح .

(٤) أخرجه البخاري في صفة الصلاة، باب الدعاء بعد التكبير ١٧٩/١، ومسلم في المساجد، باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة برقم ٥٩٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

٢ - وإذا قام من الليل افتتح صلاته بقوله: "اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، إهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاءُ إلى صراط مستقيم"(١) .

٣ - وبقوله أيضا: "اللهم أنت الملك لا إلهَ إلا أنت، أنت ربي، وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعا، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت .."(٢) .

٤ - وفي الركوع يقول: "اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت وعليك توكلت أنت ربي، خشع سمعي وبصري ولحمي ودمي، ومُخّي وعصَبي لله رب العالمين"(٣) .

٥ - وإذا رفع قال: "اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض، وملء مابينهما، وملء ماشئت من شيء بعد" .

٦ - وإذا سجد قال: "اللهم لك سجدتُ، وبك آمنتُ، ولك أسلمتُ، سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين"(٤) .

٧ - ويقول أيضا: "اللهم اغفر لي ذنبي كله، دِقَّه وجِلَّه، أوله وآخره، سره

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه برقم ٧٧٠، والترمذي في الدعوات، باب ما جاء في الدعاء عند افتتاح الصلاة برقم ٣٤٢٠، وأبو داود في الصلاة، باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء برقم ٧٦٧، والنسائي في صلاة الليل، باب بأي شيء تستفتح صلاة الليل ٢١٢/٣ من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) أخرجه مسلم من حديث علي، وتقدم في الصلاة ص٢٥٩

(٣) جزء من حديث علي السابق .

(٤) جزء من حديث علي السابق .

وعلانيته"(١).

وبعد التشهد يقول: "اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إلهَ إلا أنت"(٢) .

٨ ـ ويقول أيضا: "اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال"(٣) .

٩ ـ وإذا سلم قال: "اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام"(٤) .

١٠ ـ ويقول أيضا: "لا إلهَ إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا مُعطِي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجدُّ"(٥) .

١١ ـ وإذا قام من الليل يتهجد قال: "اللهم ربنا لك الحمد، أنت قيوم السمٰوات

---

(١) أخرجه النسائي في الافتتاح، باب نوع آخر من الدعاء في السجود ٢/٢٢٢ من حديث محمد بن مسلمة رضي الله عنه، وإسناده صحيح .

(٢) جزء من حديث علي السابق .

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر ٢/١٢٢، ومسلم في المساجد، باب ما يستعاذ منه في الصلاة برقم ٥٨٨، وأبو داود في الصلاة، باب ما يقوله بعد التشهد برقم ٩٨٣، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) أخرجه مسلم في المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة برقم ٥٩١، والترمذي في الصلاة، باب ما يقول إذا سلم من الصلاة برقم ٣٠٠، وأبو داود في الصلاة، باب ما يقول الرجل إذا سلم برقم ١٥١٣، من حديث ثوبان رضي الله عنه، وورد هذا الدعاء أيضا من حديث عائشة رضي الله عنها عند أبي داود في الصلاة برقم ١٥١٢، وعند النسائي في السهو، باب الذكر بعد الاستغفار ٣/٦٩.

(٥) أخرجه البخاري في صفة الصلاة، باب الذكر بعد الصلاة ١/٢٠٣، ومسلم في المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة برقم ٥٩٣، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه . والجد: الحظُّ والغِنى .

والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السمٰوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت،وما أخرت، وما أسررت،وما أعلنت"(١) .

إلى غير ذلك من الدعوات الكثيرة الخاصة والعامة في الصلاة وغيرها التي يضيق بها الحصر هنا .

من أقواله صلى الله عليه وسلم في فضل الدعاء :

وتضرعه صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى بالدعاء على ذلك النحو، يدل على أهمية ذكر الله تعالى بالدعاء، وهو ما كان يبينه عليه الصلاة والسلام بقوله،كقوله:

١ - "ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء"(٢) .

٢ - وقوله: "لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البِر"(٣) .

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد، باب التهجد بالليل ٢/٦٠، ومسلم في المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه برقم ٧٦٩ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء برقم ٣٧٠، وأحمد في المسند ٢/٣٦٢، وابن ماجه في الدعاء، باب فضل الدعاء برقم ٢٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الحاكم، وأقره الذهبي، وقال عنه الترمذي: حسن غريب .

(٣) أخرجه الترمذي في القدر، باب ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء برقم ٢١٣٩، وابن ماجه في الفتن، باب العقوبات برقم ٤٠٢٢، وأحمد في المسند ٥/٢٧٧، والحاكم في المستدرك ١/٤٩٣، من حديث ثوبان رضي الله عنه، وقال عنه الترمذي: حسن غريب، وحسن إسناده البوصيري في المصباح ٢/٣٠٢ برقم ١٤١٦ وعزاه إلى ابن حبان والنسائي، وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي .

وأراد بالقضاء: الأمر المقدر الذي لولا دعاؤه لحصل، ومعنى زيادة العمر: البركة فيه، أو استقصاؤه أطول الأجلين ببره .

٣ ـ وقوله عليه الصلاة والسلام: "ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه إياها،أوصرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم" فقال رجل من القوم: إذا نكثر، قال: الله أكثر" يعني:أكثر إجابة(١) .

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة، الدالة على فضل ذكر الله تعالى بالدعاء والحث عليه، والتي تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان منها في ذروة الكمال، وتمام التمام، لكمال عبوديته لله، وعظيم أخلاقه معه سبحانه وتعالى .

تسبيح النبي صلى الله عليه وسلم وتحميده لله تعالى :

أما تسبيح النبي صلى الله عليه وسلم وتحميده، فقد كان يقدر معرفته بالله تعالى وإجلاله له وتعظيمه إياه كما يجب له سبحانه، وبقدر ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم من تلبية لأوامر الله تعالى وإرشاداته، وتطبيق لها على وجه الكمال والتمام .

وقد أمره الله تعالى ست عشرة مرة بتسبيحه يقول له فيها: ﴿ فسبِّح بحمد ربِّك وكن من السَّاجدين ﴾[سورة الحجر:٩٨]، ويقول: ﴿ وسبِّح بحمدِ ربِّك قبلَ طُلوع الشمسِ وقبلَ غُروبها ومن آناءِ اللَّيل فسبِّح وأطرافَ النَّهار لعلَّك ترضى ﴾[سورة طه:١٣٠] إلى غير ذلك.

فترى أن الله تعالى يأمره بتسبيحه في جميع الأوقات، ويريده أن يكون منشغلا بالتقديس والتنزيه له سبحانه آناء الليل، أي ساعاته المختلفة، وأطراف النهار، وهو كناية عن جميع أجزائه كما تقدم، ومعنى ذلك أن يكون مستغرقا في عبوديته لله تقديسا وتنزيها وثناءً، الليل والنهار كله، وهو ما أكدت عليه الآيات الأخرى الآمرة بمثل ذلك، فكيف يكون تطبيق النبي صلى الله عليه وسلم لتلك الأوامر ؟ وكم يكون تسبيحه لله تعالى وتقديسه ؟

الإجابة معلومة بلا شك، وهي أنه سيكون بما يعجز عن مثله غيره، ويتميز به عمن سواه، وهو ما أفاده استغراب عائشة رضي الله عنها المار ذكره آنفا في الاستغفار، ويفيده

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب في انتظار الفرج برقم ٣٥٧٣، وأحمد في المسند ٣٢٩/٥، والطبراني في الدعاء رقم ٨٦، من حديث ثوبان رضي الله عنه، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب،

أيضا أحاديث أخرى كثيرة :

١ ـ منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لأن أقول:سبحان الله والحمد لله ولا إلهٰ إلا الله والله أكبر، أحبُّ إلي مما طلعت عليه الشمس"(١) .

فإذا كان هذا الذكر أحب إليه من الدنيا وما فيها، فكم يكون إكثاره منه ؟ وكيف يكون أداؤه له ؟ وما كان هذا الذكر محببا إليه هذا الحب إلا لمحبة الله تعالىله عن كثير من الأذكار سواه، وهو ما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله :

٢ ـ "كلمتان حبيبتان إلى الرحمٰن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم"(٢) .

٣ ـ وقوله عليه الصلاة والسلام: "أحب الكلام إلى الله تبارك وتعالى: "سبحان الله والحمد لله ولا إلهٰ إلا الله والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت ..."(٣) .

٤ ـ وقوله مخاطبا أبا ذر رضي الله عنه "ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله، إن أحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده"(٤) .

فلما كان هذا الذكر محبوبا لله تعالى، كان محبوبا له صلى الله عليه وسلم، لأن محابه في محاب الله تعالى، ورضاه في رضاه .

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء برقم ٢٦٩٥ ، والترمذي في الدعوات، باب رقم ١٣٩ برقم ٣٥٩١ .

(٢) أخرجه البخاري في آخر جامعه، ومسلم في الباب السابق برقم ٢٦٩٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم في الآداب، باب كراهية التسمية بالأسماء القبيحة برقم ٢١٣٧، وأبو داود في الأدب، باب تغيير الأسماء برقم ٤٩٦٠، من حيث سمرة بن جندب رضي الله عنه .

(٤) أخرجه مسلم في الذكر، باب فضل سبحان الله وبحمده برقم ٢٧٣١، والترمذي في الدعوات، باب أي الكلام أحب إلى الله برقم ٣٥٩٣ .

ولعل هذا هو سر تكرار أوامر الله تعالى له صلى الله عليه وسلم بالتسبيح والتحميد، وهو أنه سبحانه أراد من حبيبه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن يكون صارفا جل وقته وكامل عبوديته في أحب الأذكار إليه وهو التسبيح والتحميد، الذي يعني تنزيه الله تعالى من كل نقص، وتمجيده كما ينبغي أن يكون، وقد وفّى صلى الله عليه وسلم بذلك كأفضل ما يكون الأمر وأكمله، كما تدل عليه الأحاديث الآتية :

١ - روت أم المؤمنين جويرية بنت الحارث(١) رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من عندها بُكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال: "ما زلت على الحال التي فارقتك عليها ؟ قالت: نعم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لقد قلتُ بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، لو وُزنت بما قلتِ منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته"(٢) .

٢ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت: افتقدت النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه فتحسَّسْتُ ثم رجعت، فإذا هو راكع أو ساجد يقول: "سبحانك وبحمدك لا إلهَ إلا أنت"قال: فقلت: بأبي أنت وأمي، إني لفي شأن وإنك

---

(١) ابن أبي ضرار الخزاعية من بني المصطلق أم المؤمنين رضي الله عنها، سباها رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة المريسيع من السنة الخامسة وكان اسمها برَّة، فغيره النبي صلى الله عليه وسلم إلى جويرية، وكانت أيمن امرأة على قومها ، حيث أعتق الله بزواجها منه صلى الله عليه وسلم سائر قومها الذين كانوا قد وقعوا في الرق، كما سيأتي إيضاحه في النكاح، وتوفيت سنة ٥٠. تهذيب الأسماء ٣٣٦/٢، والإصابة ٢٦٥/٤، والاستيعاب ٢٥٨/٤ .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب التسبيح أول النهار وعند النوم برقم ٢٧٢٦ .

لفي آخر"(١) .

أي: أنها في غَيْرتها سابحة، فتظن أن النبي صلى الله عليه وسلم تركها، وذهب إلى امرأة أخرى، والحال أنه عليه الصلاة والسلام مستغرق في مناجاة الله وتمجيده وتسبيحه وتقديسه .

٣ - وعنها رضي الله عنها قالت: كان رسول الله عليه وسلم يقول في ركوعه وسجوده: "سُبُّوح قدُّوس ربُّ الملائكة والروح"(٢) .

٤ - وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو بهذا الدعاء: "اللهم ربنا لك الحمد ملءَ السموات وملء الأرض وملء ماشئت من شيء بعد"(٣) .

٥ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع قال: "اللهم ربنا لك الحمد ملءُ السَّمٰوات وملء الأرض وملء ماشئت من شيء بعدُ، أهلَ الثناء والمجد أحقُّ ما قال العبد، وكلُّنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد"(٤) .

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة، باب ما يقول في الركوع والسجود برقم ٤٨٥، والنسائي في الافتتاح ٢/٢٢٥، وأبو داود في الصلاة، باب في الدعاء في الركوع والسجود برقم ٨٧٩ .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة، باب ما يقول في الركوع والسجود برقم ٤٨٧، وأبو داود في الصلاة ، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده برقم ٤٨٧٢، والنسائي في الافتتاح ٢/٢٢٤ .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع برقم ٤٧٦، وأبو داود في الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع برقم ٨٤٦ .

(٤) أخرجه مسلم في الصلاة في الباب السابق برقم ٤٧٧، وأبو داود كذلك برقم ٨٤٧، والنسائي في الافتتاح، باب ما يقول في قيامه ذلك ٢/١٩٨،١٩٩ .

فانظر كيف كان تسبيح النبي صلى الله عليه وسلم لله تعالى وحمده وتبجيله، فهو بلا ريب تسبيح وتحميد بقدر تلك الأوامر المتكررة له من الله تعالى به .

فضل هذا الذكر :

وقد كان عليه الصلاة والسلام يبين فضل هذا الذكر، وذلك في أحاديث كثيرة منها:

١ - قوله صلى الله عليه وسلم لمن جاؤوا إليه قائلين: ذهب أهل الدُّثور(١) بالدرجات العلى والنعيم المقيم، يُصلّون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من أموال يحجُّون ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: "أفلا أعلِّمكم شيئاً تُدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: "تسبِّحون وتحمدون وتكبِّرون دُبر كلِّ صلاة ثلاثا وثلاثين"(٢) .

٢ - وقوله عليه الصلاة والسلام: "الطُّهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان"(٣) .

٣ - وقوله عليه الصلاة والسلام: "من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حُطَّت عنه خطاياه ولو كانت مثل زَبد(٤) البحر"(٥) .

٤ - وقوله صلى الله عليه وسلم: "من قال: سبحان الله العظيم وبحمده غُرست له نخلة في الجنة"(٦) .

---

(١) جمع (دثر) وهو المال الكثير. النهاية ٢/١٠٠ .

(٢) أخرجه البخاري في صفة الصلاة، باب الذكر بعد الصلاة ١/٢٠٢، ومسلم في المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة برقم ٥٩٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة، باب فضل الوضوء برقم ٢٢٣، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه .

(٤) أي: رُغوته .

(٥) أخرجه البخاري في الدعوات، باب فضل التسبيح ٨/١٠٧، ومسلم في الذكر برقم ٢٦٩١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٦) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب رقم ٦٠ برقم ٣٤٦٤، من حديث جابر رضي الله عنه،وابن حبان =

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة، وحسب هذا الذكر فضلا أنه أحب الأذكار إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم، فالمشتغل به يرشح نفسه لمحبة الله ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم .

تهليل النبي صلى الله عليه وسلم :

أما التهليل والتكبير فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم شيء كثير عملا وندبا، ومن ذلك :

١ - ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: "لا إلٰه إلا الله وحده أعز جنده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده فلا شيء بعده"(١) .

٢ - وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قَفل من الغزو أو الحج أو العمرة يبدأ فيكبّر ثلاث مرات ثم يقول: "لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده"(٢) .

٣ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰه إلا الله، والله أكبر، أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس"(٣) .

٤ - وقال صلى الله عليه وسلم: "أفضل الكلام سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر"(٤) .

= في صحيحه رقم ٢٣٣٥ موارد، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح غريب، والحاكم في المستدرك ٥٠١/١، وقال: على شرط مسلم .

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الخندق ١٤٢/٥، ومسلم في الذكر ، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل برقم ٢٧٢٤ .

(٢) أخرجه البخاري في الكتاب والباب السابقين .

(٣) أخرجه مسلم وتقدم قريبا ص٣٧٩

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٣٦/٤، قال المنذري في الترغيب ٤٢٤/٢: ورواته محتج بهم في الصحيح، من حديث رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٥ - وقال عليه الصلاة والسلام: "أفضلُ الدعاء الحمد لله، وأفضل الذكر لا إلٰه إلا الله"(١) .

إلى غير ذلك مما تقدم بعضه في التسبيح وغيره .

فهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم من عبادة الذكر، الذي به تطمئن القلوب، وتزكو النفوس، والذي جعله الله تعالى أكبر من كل شيء سواه، لما له من جزيل الأجر، وعظيم الأثر في تمحض العبودية ودوام التعلق بالألوهية العلية، والتي كان من أجلها ذكر الله تعالى للذاكرين، ذكرا يوصلهم إلى أوج السعادة، ومنتهى الغاية .

ومن كل ما تقدم علمت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان سيدَ الذاكرين لله تعالى والذاكرات، كيف لا وهو المبين للأذكار التي يذكر الله تعالى بها، فلا يذكر الله تعالى إلا بما ورد عنه صلى الله عليه وسلم؛ لأن الأذكار من أجلِّ العبادات وأعظمها شأنا عند الله تعالى، فلا تؤخذ إلا عنه صلى الله عليه وسلم؛ لأنه هو المبلغ عن الله والموضح لشرع الله عز وجل .

وحيث كان النبي صلى الله عليه وسلم كذلك، فلا بدع أن تكون أذكاره على ذلك النحو كمالا وتضرعا وإخباتا وكثرة ...

، كما دلت على ذلك الأحاديث الكثيرة السابقة في سلوكه بنفسه،وهديه لأمته بقوله، والتي هي بمثابة النماذج لما سواها مما لم أذكره من الدلائل الكثيرة على ذلك .

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب ما جاء في دعوة المسلم مستجابة برقم ٣٣٨٣، وابن ماجه في الأدب، باب فضل الحامدين برقم ٣٨٠٠، وابن حبان في صحيحه ١٤/٢ الإحسان، والحاكم في المستدرك ٥٠٣/١، والطبراني في الدعاء برقم ١٤٨٣، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال عنه الترمذي: حسن غريب، وحسنه الحافظ في نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار ص ٥٨ .

البَابُ الثَّالثُ

الأخـلاقُ الـقـرآنـيَّـة السُّـلـوكيَّة
والتَّطبيقاتُ النَّبويَّة لها

وفيه فصلان :

الفصل الأول : الأخلاق السُّلوكيَّة الـذَّاتيَّة .

الفصل الثاني : الأخلاق السُّلوكيَّة المتعدِّية .

تمهيـــــد :

إن السلوك(١) الذاتي والاجتماعي يعد محور القيم الأخلاقية لدى علماء الأخلاق والسلوك، لما له من الأثر البيِّن في سلوك الإنسان في حياته كلها، فإن المرء لا يعرف مدى تخلُّقه بالأخلاق الحسنة أو ضدها إلا إذا نُظِر إلى صدقه وصبره، وتواضعه، وحيائه، وزهده، وإلى أمانته، ووفائه، وحلمه، وعفوه، ورحمته، وكرمه ... إلى آخر المكوِّنات الأخلاقية الذاتية، فإن كان ذا خلق رفيع تجلَّت فيه هذه الخِلال بأبهى صورها، فيعد عندئذ من أهل مكارم الأخلاق .

وإن لم تبرز فيه هذه الخلال، أو ظهر بضدها عُدَّ من سيئي الأخلاق وأراذل البشر، أو شواذهم، أو رعاعهم .

لذلك نجد أن علماء السلوك لا يكادون يُغفلون مثل هذه الأخلاق جملة وتفصيلا عند حديثهم عن مكارم الأخلاق؛ لأنها عندهم كناصية الفرس لسائر الخلال الأخلاقية الأخرى، بل إن كثيرا منها إنما هي وسائل لتخدم هذه الأخلاق السلوكية .

والأخلاق الإسلامية المستقاة من معين الكتاب والسنة تؤكد هذه الحقيقة، بل هي تعتبر الأخلاق السلوكية جوهر مكارم الأخلاق التي تدعو إليها .

فإن الأخلاق الإيمانية والاعتقادية قائمة بين المرء وربه، لا يكاد يطَّلع عليها أحد.

والأخلاق التعبدية هي في الحقيقة وسائل تثمر في تنمية هذه الأخلاق السلوكية حينما يُؤتى بها على وجهها، ويحافظ عليها .

والأخلاق الاجتماعية قائمة على هذه الأخلاق السلوكية، فحينما يتحلَّى المرء بها، أورث مجتمعه الفضيلة، وحينما يتجرد عنها، أورث مجتمعه رذائل كثيرة، وإذا صار المجتمع كله متجردا عنها كان مجتمعا لا وزن له في المعايير الأخلاقية، والحضارة الإسلامية العريقة.

---

(١) السلوك : هوسيرة الإنسان ومذهبه واتجاهه، ويقال : فلان حسن السلوك، أو سيء السلوك .ا.هـ . المعجم الوسيط ١/٤٤٥ .

فبهذا علمت أن الأخلاق السلوكية هي روح الأخلاق كلها ومعيار القيم الأخلاقية، ولهذا أولى القرآن الكريم والسنة المطهرة هذه الأخلاق السلوكية عنايتهما الفائقة من حيث الحث عليها، أمرا وترغيبا وتنويها، وتحذيرا من ضدها؛ نهيا وتنفيرا وذما ...

ولما كانت هذه الأخلاق منها ما هو ذاتي بمعنى أنها تكون في سلوك المرء في نفسه غريزة تظهر من ملامحه وتصرفاته، سواء كان هناك تعامل في المجتمع للمرء بحيث تظهر آثارها، أو لم يكن هناك تعامل، فإنها تعلم من مخايل المرء وسمته، وهي ما أسميناها بـ"الأخلاق الذاتية" .

ومنها ما هو اجتماعي فلا يظهر أثرها إلا في التعامل والاختلاط، فعندئذ تنعكس تلك الأخلاق السلوكية على من يعامله المرء ذو الخلق الكريم، فيكون أمينا له، وفيًّا في عهوده ووعوده، حليما عن زلته عافيا عنها وصافحا .. إلى غير ذلك من الأخلاق الكريمة التي تنشأ من التعامل بين الناس، وهي ما أسميناها بـ"الأخلاق الاجتماعية" .

لذلك قسمنا هذه الأخلاق إلى فصلين كما ترى، نظراً لهذه المعاني الدقيقة في هذه الأخلاق السلوكية، وهذا أوان تبيينهما :

فأقول وبا لله التوفيق :

الفَصْلُ الأَوَّلُ

في الأخـــلاق السُّـلوكيَّة الـذَّاتيَّـة

وفيه خمسة مباحث :

١ ـ الصدق .

٢ ـ الصبر .

٣ ـ التواضع .

٤ ـ الحياء .

٥ ـ الزهد .

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

(خلق الصدق)

الصدق في اللغة:

قال ابن فارس: الصاد والدال والقاف أصل يدل على قوة الشيء قولا وغيره، ومنه قولهم رمح صدق أي: صلب، ومن ذلك الصدق الذي هو خلاف الكذب، سموه بذلك لما في الصدق من قوة وصلابة في نفسه، بخلاف الكذب فإنه لا قوة له"(١) .

أما في الاصطلاح: فهو الإخبار عن الشيء على ما هو به في الواقع(٢) .

منزلة هذا الخلق بين الأخلاق السلوكية :

والصدق خلق عظيم يتوقف عليه صحة كثير من الأخلاق القولية والعملية بل الإيمانية، إذ يفتقر صحتها إلى الصدق كالخوف والرجاء والرضا والتوكل والمحبة ونحوها، فهو شامل إذا لصدق اللسان، وصدق النية والإرادة، وصدق العزم والوفاء به، وصدق الأعمال، وصدق مقامات الدين(٣) ، ولذا كان محل عناية القرآن الكريم، فلقد استفاض الحديث عنه فيه، من حيث الأمر به، والنهي عن ضده، وبيان عظيم منزلة أهله عند الله تعالى، والتنويه بهم ، وبيان ما أعد لهم من الأجر والكرامة، وتبيينه لمواطن الصدق، وتفنيده لمزاعم مدعيه بغير حق، وغير ذلك كثير مما نوجزه فيما يلي :

الأمر بالصدق :

أما الأمر به ففي مثل قوله جل وعلا: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾[سورة التوبة:١١٩]، والمعنى: كونوا مثلهم في صدقهم، وهذا أمر إلزام يوجب على المسلمين التحلي بهذا الخلق العظيم أيا كان حاله، حتى استدل به على عدم جواز الكذب في موضع من المواضع لا تصريحا ولا تعريضا(٤)، وذلك لما فيه من مبالغة في

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٣/٣٣٩، مادة (صدق)، والقاموس المحيط ٣/٢٥٢ .

(٢) تهذيب الأخلاق للجاحظ ص ٢٦ .

(٣) انظر الإحياء ٤/٣٣١-٣٣٥ حيث جعل الصدق داخلا في هذه المراتب الست .

(٤) انظر: روح المعاني للألوسي ٤/١١/٤٥ . والصواب جواز ذلك في مواضع، كإصلاح ذات البين، وفي الحرب، وحديث الزوج مع زوجته لإرضائها ما لم يكن ذلك في إضاعة واجب لها .

الدلالة على الالتزام بالصدق حيث عدل عن قوله: "اصدقوا" إلى قوله: ﴿ كونوا مع الصادقين ﴾ للدلالة على أن المجتمع المسلم شأنه أنه مجتمع صدق دائم، وأن على كل مسلم أن يتخلق بخلق هذا المجتمع الصالح، فالأمر بالكون معهم أبلغ في التزام الصدق من الأمر المباشر "اصدقوا" مثلا، والله أعلم .

النهي عن الكذب وذمه :

كما فهم الأمر بالصدق أيضا من النهي الأكيد عن نقيضه وهو الكذب، وذمه ذما بالغا في آيات عدة، وهذه طريقة قرآنية عجيبة في تقرير المعاني والأحكام والأخلاق، وتثبيتها في نفوس المؤمنين، حيث ينوع الأساليب في ذلك حتى تفهم حق الفهم، وتستأصل كل عذر، فتقوم الحجة على الناس بشتى الأساليب .

أما النهي عنه ففي آيات منها قوله تعالى: ﴿ ولا تقولوا لِما تصِفُ ألسِنَتِكم الكذبَ هذا حلالٌ وهذا حرامٌ لِتفتروا على اللهِ الكَذبَ إنَّ الذين يَفترون على الله الكذبَ لا يُفلِحون ﴾ [سورة النحل: ١١٦]، والآية وإن تحدثت عن الكذب عن الله تعالى والحلال والحرام، فإن النهي وارد عن الكذب من حيث هو، والكذب عن الله هو أحد أنواعه، وإن كان أشد أنواع الكذب لعظيم مفسدته .

ومنها قوله تعالى: ﴿ ولا تقفُ ما ليسَ لك به علمٌ إنَّ السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئِك كان عنه مسئولاً ﴾[سورة الإسراء:٣٦]، وهذا نهي صريح عن الكذب؛ لأن تتبع المرء ما لا علم له به، والحديث به هو عين الكذب .

وأما ذم المتحلين به ففي آيات عدة منها قوله تعالى: ﴿ إنَّما يفترِي الكذبَ الَّذين لا يُؤمنونَ بآياتِ اللهِ وأولئك هم الكاذبون ﴾[سورة النحل:١٠٥] .

والآية وإن كانت في صدد الحديث عن الذين يكذِّبون بآيات الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، إلا أن دلالتها على ذم الكذب من حيث هو،واضح لاشتراك الاسم في الكل.

ومنها قوله تعالى: ﴿ إنَّ الله لا يهدِي مَن هو مُسرِفٌ كذَّاب ﴾[سورة غافر:٢٨]، ومعنى لا يهديه: لا يصلح عمله ولا يسدد خطاه، وقد سمَّى الله تعالى الكذب إثما مبينا، وذلك

في قوله: ﴿ انظر كيف يَفترونَ على اللهِ الكذبَ وكفى به إثماً مبيناً ﴾[سورة النساء:٥٠] .
إلى غير ذلك من الآيات التي تحمل وعيدا شديدا للكاذبين .

وهذه الآيات بمفهومها تحث على الصدق وترغب فيه؛ لأنه إذا كان مصير الكاذبين هو ذلك، فإن النجاء في لزوم الصدق الذي هو نقيض الكذب، والذي أعد الله تعالى لأهله أجرا عظيما .

عِظَمُ منزلة أهل الصدق عند الله تعالى :

أما منزلة أهل الصدق عند الله تعالى: فهي عظيمة،قد رفع شأنها وأعلا مكانتها، ولا غرو فإن الصدق من صفات الله تبارك وتعالى كما قال تعالى: ﴿ قل صدقَ اللهُ فاتبعوا ملةَ إبراهيمَ حنيفاً ﴾[سورة آل عمران:٩٥]، وقال جل وعلا: ﴿ ومن أصدقُ من الله حديثاً ﴾[سورة النساء:٨٧]، ﴿ ومن أصدقُ من الله قيلاً ﴾[سورة النساء:١٢٢] إلى غير ذلك .

وقد اشتق للمحافظ على هذا الخلق هذا الوصف الذي هو من أوصافه سبحانه وتعالى، وذلك للدلالة على علو منزلة الصادقين وعظيم شأنهم لدى رب العالمين .

ولذلك كان الصدق من أبرز صفات الأنبياء والمرسلين الذين ذكرهم الله تعالى في معرض الثناء والمدح كقوله سبحانه: ﴿ واذكر في الكتابِ إبراهيمَ إنَّه كان صدِّيقاً نبياً ﴾ [سورة مريم:٤١]، وقوله تعالى: ﴿ واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صدِّيقاً نبياً ﴾ [سورةمريم:٥٦]، وقوله سبحانه: ﴿ يوسف أيُّها الصِّديقُ ﴾[سورة يوسف:٤٦]، وقوله سبحانه: ﴿ واذكر في الكتابِ إسماعيلَ إنَّه كان صادقَ الوعدِ وكان رسولاً نبياً ﴾[سورة مريم:٥٤]، وقوله عز شأنه ﴿ وصدقَ اللهُ ورسولُه ﴾[سورة الأحزاب:٢٢]، وقوله سبحانه: ﴿ هذا ما وعد الرَّحمن وصدقَ المرسلون ﴾[سورة يس:٥٢] .

فكفى بالصدق شرفا وفضلا أن يكون وصفا لله تعالى ولأنبيائه الكرام ثم يوصف به بعد ذلك أهله من المؤمنين .

التنويه بأهل هذا الخلق في القرآن الكريم :

وقد نوه القرآن الكريم بأهل هذا الخلق، فذكر عددا منهم بهذا الوصف على سبيل المدح والثناء والإشادة فذكر منهم:

١ ـ المؤمنون با لله واليوم الآخر، المؤدون لشعائر الإسلام الذين دل عليهم قوله تعالى: ﴿ ولكنَّ البِرَّ من آمن بـا للهِ واليومِ الآخر ...﴾ الآية الآنفة الذكر إلى قوله سبحانه: ﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ .

وقد انتظم في سلك هذه الآية عدد كثير ممن آمن با لله وصدق المرسلين .

وكما قال تقدست أسماؤه: ﴿ إنما المؤمنون الَّذين آمنوا بـا للهِ ورسولِه ثـمَّ لم يرتابوا وجاهدوا بأموالِهم وأنفُسِهم في سبيلِ ا لله أولئك هم الصَّادقون ﴾[سورة الحجرات:١٥].

٢ ـ ومن هؤلاء:المهاجرون إلى ا لله الذين اضطُهِدوا في دينهم وأموالهم الذين قال ا لله تعالى عنهم: ﴿ للفقراءِ المهاجرين الَّذين أُخرجوا من دِيارهم وأموالِهم يَبتَغون فضلاً من ا لله ورضواناً وينصُرونَ ا للهَ ورسولَه أولئِك هم الصَّادقون ﴾[سورة الحشر:٨] .

فإن هؤلاء جميعا نالوا شرف هذا الوصف واستحقوا أجره ومثوبته، بـلإنَّ بعضهم نال الذروة العليا منه، التي جعلها ا لله تعالى علَما على كِرام خلقه وهم: (الصدِّيقون) أي المبالغون في التصديق كأنبياء ا لله تعالى الذين وصفهم ا لله بذلك كإبراهيم وإدريس ويوسف عليهم السلام وقد تقدم ذكرهم .

٣ ـ بل ناله غيرهم من غير الإنبياء كمريم عليها السلام التي قال ا لله تعالى عنها: ﴿ وأُمَّه صدِّيقة ﴾[سورة المائدة:٧٥]،وكبعض المؤمنين الذين قال ا لله تعالى عنهم: ﴿ والَّذين آمنوا با للهِ ورسلِه أُلئِك هم الصِّديقون ﴾[سورة الحديد:١٩] .

٤ ـ ومنهم على التحديد سيدنا أبو بكر الصديق رضي ا لله تعالى عنه لِماَ ثبت تسميته به في الحديث(١) مما جعل بعض المفسرين يحمل قوله تعالى: ﴿ والَّذي جاءَ بالصِّدق

---

(١) أخرج البخاري في فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر رضي ا لله عنه من حديث أنس رضي ا لله عنه ١١/٥ أن النبي صلى ا لله عليه وسلم صعد أحدا وأبوبكر وعمر وعثمان رضي ا لله تعالى عنهم فرجف بهم، فضربه النبي صلى ا لله عليه وسلم برجله وقال: "أثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان" وكان علي بن أبي طالب رضي ا لله عنه يحلف أن ا لله أنزل اسم أبي بكر الصديق من السماء، رواه الطبراني ورجاله ثقات كما قال في مجمع الزوائد ٤٤/٩، ونقله ابن الجوزي في صفة الصفوة ٢٣٦/١ .

وصدَّق به أولئك هم المتَّقون ﴾[سورة الزمر:٣٣] على أبي بكر رضي الله عنه، حيث رأوا من أن فاعل "صدق" هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه(١) .

وهذا تفسير متجِّه، وإن كان الأولى حملها على العموم، ويدخل فيها سيدنا أبو بكر رضي الله عنه دخولا أوليا، لأنه أول من صدق بالنبي صلى الله عليه وسلم من الرجال، وكما قال عليه الصلاة والسلام: "كان الناس يقولون لي كذبتَ ويقول أبو بكر: صدقت"(٢) فهو أول صدِّيقي هذه الأمة بغير جدال .

ما أعده الله تعالى لأهل هذا الخلق من الأجر :

وقد أعد الله تعالى لمن كان من أهل هذا الخلق الكريم جزيل أجره ومثوبته كما قال جل ذكره : ﴿ إنَّ المسلمينَ والمسلماتِ والمؤمنينَ والمؤمناتِ والقانتينَ والقانتاتِ والصَّادقينَ والصادقاتِ والصَّابرينَ والصَّابراتِ والخاشعينَ والخاشعاتِ والمتُصدِّقينَ والمتُصدِّقاتِ والصَّائمينَ والصَّائماتِ والحافظينَ فروجَهم والحافظاتِ والذَّاكرين الله كثيراً والذَّاكراتِ أعدَّ الله لهم مغفرةً وأجراً عظيماً ﴾[سورة الأحزاب:٣٥] .

وكما دل عليه قوله سبحانه: ﴿ ومن يُطعِ الله والرَّسولَ فأولئك مع الَّذين أنعمَ الله عليهم من النَّبيين والصِّدِّيقين والشهداءِ والصالحينَ وحَسُن أولئِك رفيقاً ﴾[سورة النساء:٦٩].

حيث قرن الصديقين بالنبيين وأردفهما بالشهداء والصالحين، ومراتب هؤلاء معلومة، ثم إنهم جميعا شملهم إنعام الله تبارك وتعالى في الدنيا والآخرة بسائر الإنعامات الظاهرة والباطنة والحسية والمعنوية كما يقتضيه تعميم الإنعام المستفاد من عدم تقييده بنوع ما، لتذهب النفس في تفسيره أي مذهب .

بيان القرآن الكريم لمواطن الصدق :

أما مواطن الصدق، فكما أسلفت بأنه يشمل مقامات الإيمان، ويشمل الأقوال والأعمال الصادرة من الإنسان .

---

(١) كما أخرجه ابن جرير في تفسيره ٣/٢٤، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٢) سيأتي تخريجه ص ٤٠٧

كما قرر ذلك الراغب الأصفهاني حيث قال عن الصدق والكذب: (أصلهما في القول، ثم قال: وكلاهما يستعمل في الاعتقاد أيضا، كقولهم : صدق ظنه واعتقاده وكذبا، ويستعملان أيضا في أعمال الجوارح نحو: صدقوهم القتال وكذبوهم)(١) .

أما مقامات الإيمان وشعبه من إخلاص واستقامة ومحبة ورجاء ونحوها، فإنها كلها تفتقر إلى الصدق في دعواها، فلا يصح شيء منها إذا لم يكن المرء صادقا في هذه الأخلاق الإيمانية، فالإخلاص والصدق روح ذلك كله .

والقرآن الكريم دل على ذلك في آيات كثيرة من أجمعها قوله جل وعلا: ﴿ ليس البِرَّ أن تولُّوا وجوهَكم قِبَل المشرقِ والمغرب ولكنَّ البِرَّ من آمنَ با لله واليومِ الآخِر والملائكةِ والكتابِ والنبيينَ وآتى المالَ على حُبِّه ذَوي القُربَى واليتَامى والمساكينَ وابنَ السبيل والسائلينَ وفي الرِّقابِ، وأقامَ الصَّلاةَ وآتى الزَّكاةَ والموُفونَ بعهدِهم إذا عاهدُوا والصَّابرين في البأساءِ والضَّراءِ وحينَ البأسِ أولئِك الَّذين صدقُوا وأولئِك هم المتَّقون ﴾[سورة البقرة:١٧٧] .

قال ابن القيم: "فهذا صريح في أن الصدق بالأعمال الظاهرة والباطنة،وأنه هو مقام الإسلام والإيمان"(٢) يعني: حيث سمَّى ا لله تعالى القائمين بأمور الإيمان والإسلام وبعض شعب الأخلاق:صادقين، وهذه الأمور قولية وعملية وعقدية، وقد شملها جميعا وصف الصدق .

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿ ليَجزِي ا للهُ الصَّادقين بصدقِهم ويعذِّبَ المنافقينَ إن شاءَ أو يتوبَ عليهم ﴾[سورة الأحزاب:٢٤]، حيث قسَّم ا لله تعالى الناس إلى قسمين: صادق ومنافق، والصادقون: هم المؤمنون؛ لأن الصدق أساسه الإيمان، وضدهم : المنافقون؛ لأن الكذب أساسه النفاق .

فوصف ا لله تعالى المؤمنين بالصدق؛ لأنهم حققوا أركان الإيمان والإسلام تحقيقا

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢٧٠ بتصرف .

(٢) مدارج السالكين ٢/٢٦٩ .

كاملا، فصدقوا ما عاهدوا الله عليه من قبل، ولا أدل على ذلك من صدقهم مع الله تعالى في الجهاد في غزوة الأحزاب التي نزلت السورة التي فيها هذه الآية فيها، مع ما أصابهم من البلاء فيها، فلم يتزعزعوا عن إيمانهم، والعزم على ملاقاة عدوهم، ولا عن اليقين والتوكل على ربهم .

فكانوا جديرين بالتنويه بهم في مثل هذه الآية، وبذلك الجزاء العظيم الذي وعدهم الله تعالى به، وأبهم حقيقته لتذهب النفس في تصوره أي مذهب .

الصدق في الأعمال :

وهذه الآية كما تدل على الصدق في الإيمان، فإنها تدل أيضا على الصدق في الأعمال، فإنها تتحدث عن الجهاد الذي هو أفضل الأعمال، كما علمت .

ونحو هذه الآية في المعنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ من المؤمنينَ رجالٌ صدقُوا ما عاهدوا اللهَ عليه فمنهم من قَضى نحبَه ومنهم مَن يَنتظِر وما بدَّلوا تبدِيلا ﴾[سورة الأحزاب:٢٣] حيث دلت هذه الآية الكريمة على صدق أنس بن النضر(١) رضي الله عنه في الجهاد، وفاء بما كان قد عاهد الله عليه، كما جاء في حديث البخاري وغيره(٢) .

ونحوها أيضا قوله سبحانه: ﴿ فإذا عزمَ الأمرُ فلو صدقُوا اللهَ لكان خيراً لهم ﴾[سورة محمد:٢١] حيث خصت مدعي الإيمان والراغبين في الجهاد أن يصدقوا في مواطن البأس والقتال، والجهادُ من أجلِّ أعمال الجوارح وعزم القلوب والنيات .

الصدق في القول :

أما الصدق في القول فهو أصل هذا الخلق كله كما علمت من تعريفه، ومن كلمة

---

(١) ابن ضمضم الخزرجي الأنصاري عم أنس بن مالك رضي الله عنهما، غاب عن قتال بدر ... ، فعاتبه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: والله لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، ووفى بذلك يوم أحد بعد أن انكشف الناس فقتل فوجد فيه بضع وثمانون بين ضربة بسيف أو طعنة برمح. انظر تهذيب الأسماء ١٢٨/١، والإصابة ٧٤/١، والاستيعاب ٧٠/١ .

(٢) انظره فيه ١٤٦/٦، وانظر تفسير ابن كثير ٤٧٥/٣، وأسباب النزول للواحدي ص ٢٦٥ .

الراغب الآنفة، لذلك فكل الآيات المتحدثة عنه فهي تتحدث عن الصدق في القول حديثا أوليا، لذلك فلا داعي للتنصيص على أدلته هنا مع ما مضى وما سيأتي بيانه .

امتحان مدَّعِي الصدقَ كذبا :

ولما كان الصدق خلقا كريما محببا إلى النفوس، وتدعو إليه الفطرة كان محلا لأن تتجاذبه الدعاوى فيدعيه الصادق والكاذب كما قالوا :

وكلٌّ يدَّعي وصلاً لليلى وليلى لا تُقِرُّ لهم بذاكا

فكان لا بد من تمييز الصادقين عن الكاذبين حتى لا يتطاول على هذا الخلق من ليس من أهله، وذلك بامتحان المدعين له لينجلي أمرهم في المجتمع فلا يُغترَّ بدعواهم فيه، ولكيلا ينالوا المكانة التي ينالها أهل الصدق .

وقد استخدم القرآن هذا الأسلوب مع كثير من مدعي الصدق حيث تحداهم أن يبرهنوا على مزاعمهم بما يطلبه منهم مما يستطيع فعله الصادقون حقا، وذلك كقوله تعالى لليهود حينما زعموا أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس، فقال لهم الله تعالى: ﴿ فتمنَّوا الموتَ إن كنتُم صادِقين ﴾[سورة البقرة:٩٤] فكان عليهم أن يفعلوا ذلك لو كانوا صادقين، لكنهم بهتوا وسُقِط في أيديهم؛ لأنهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم كاذبون، ولو كانوا صادقين في دعواهم العريضة تلك لما ترددوا في تمني الموت لأنه حينئذ لا يحول بينهم وبين نعيم الدار الآخرة إلا الموت، والنفس إذا علمت أنها آيلة إلى النعيم لا تتردد في السير الحثيث إليه، وقد ورد بأسانيد صحيحة(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنهم لو تمنوه لما بقي منهم أحد .

وقد أخبر الله جل ذكره عن حالهم ذاك فقال عقب الآية السابقة: ﴿ ولن يَتمنَّوهُ أبداً بما قدَّمت أيديهم والله عليمٌ بالظالمين ...﴾[سورة البقرة:٩٥] .

وكم في القرآن الكريم من ابتلاءات لمدعي الصدق تدحض مزاعمهم، وتبطل أمانيهم، وهم غالبا من اليهود والنصارى والمنافقين الذين هم أكذب الناس كما هو معلوم، وذلك

---

(١) كما قال ذلك ابن كثير في تفسيره ١٢٧/١ .

كقوله تعالى لليهود والنصارى حينما قالوا: ﴿ لن يدخلَ الجنَّة إلا من كان هُوداً أو نصارى ﴾ فرد عليهم الله تعالى بقوله: ﴿ تلك أمانِيُّهم ﴾ ثم طلب منهم برهانا على دعواهم تلك فقال: ﴿ قل هاتوا برهانَكم إن كنتُم صادقين ﴾[سورة البقرة:١١١] .

وحينما زعم اليهود أن لحوم الإبل كانت محرمة على عهد إبراهيم وبنيه عليهم السلام قال لهم الله تعالى: ﴿... قل فأتُوا بالتَّوراة فاتلُوها إن كنتُم صادقين ﴾[سورة آل عمران:٩٣].

وحينما قال المنافقون: إن سبب موت إخوانهم في غزوة أحد هو خروجهم مع النبي صلى الله عليه وسلم للقتال وقالوا: ﴿ لو أطاعونا ما قُتِلُوا ﴾ قال لهم الله تعالى: ﴿ قل فادرأوا عن أنفسِكم الموتَ إن كنتُم صادقين ﴾[سورة آل عمران:١٦٨] .

وحينما زعم كفار مكة زعمهم المعروف في تكذيب القرآن وادعاءهم أنه مفترى قال لهم الله تعالى: ﴿... فأْتُوا بسورةٍ مثْله وادعُوا من استَطعتُم من دون اللهِ إنْ كنتُم صادقين ﴾[سورة يونس:٣٨] .

إلى غير ذلك من الآيات المتحدية لزاعمي هذا الخلق العظيم، ليثبتوا صدق دعواهم بما اختبرهم الله عز وجل به، وسرعان ما ينكشف الزيف، وينقشع البهرج، فيُقصون عن ادعاء هذا الخلق العظيم، وتبقى مكانته مصونة لأهله يتفيأون ظلاله في الدنيا بالمكانة العليا في المجتمعات، وفي الآخرة بالثواب العظيم .

تمثل خلق الصدق في النبي صلى الله عليه وسلم

وإذا كان الصدق خلقا تدعو إليه الفطرة وتحبذه، ولو لم يكن هناك شرع يدعو إليه ويرغب فيه، فإن كل ذي فطرة سليمة يحافظ عليه ويلتزم به في كل شئونه .

وقد اشتهر بعض أشراف العرب بذلك قبل الإسلام لأغراض دنيوية واعتبارات اجتماعية، حيث كان إذا عُلم عن أحدهم كذبة سقط من اعتبارهم، وانتزعت الثقة منه، فكان ذلك زاجرا لهم عن اقتراف الكذب،وباعثا لهم على تحري الصدق ولو في ظاهر الأمر، كما دل على ذلك موقف أبي سفيان بن حرب قبل إسلامه مع هرقل ملك الروم حينما سأله هرقل عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي الكذب لكذبت عنه"(١). وذلك يعني أن الصدق لم يكن خلقا متمكنا فيه حيث كانت نفسه تخالجه إلى مجانبته لولا مكانته الاجتماعية .

أما النبي صلى الله عليه وسلم وهو من أوسط العرب نسبا، فقد تمثل فيه هذا الخلق بأبهى صوره منذ بزوغ نجمه ونعومة أظفاره، فما كان يعرف في أوساط قومه إلا بالصادق الأمين، ولما يوح إليه بعد .

وما كان صدقه لأغراض شخصية أو اجتماعية، إنما كان صدقا فطريا خلقه الله تعالى فيه، ليؤهله لما يقصده منه، من حمل الرسالة الخاتمة المفضلة العامة للبشرية .

وقد شهد له بهذا الخلق العظيم: الله خير الشاهدين، كما شهد له بذلك أعداؤه، وشهد له به المؤمنون في مواقف متعددة ومقامات مختلفة .

---

(١) والقصة بطولها رواها البخاري في أول صحيحه، باب كيف كان بدء الوحي ٧/١، قال الحافظ في الفتح ٧٢/١، وفيه دليل على أنهم كانوا يستقبحون الكذب إما بالأخذ عن الشرع السابق أو بالعرف، قال: وفي قوله يأثروا دون قوله: يكذبوا، دليل على أنه كان واثقا منهم بعدم التكذيب أن لوكذب لاشتراكهم معه في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم،لكنه ترك ذلك استحياء وأنفة من أن يتحدثوا بذلك بعد أن يرجعوا فيصير عند سامعي ذلك كذابا .

شهادة الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بخلق الصدق :

أما شهادة الله تعالى لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بهذا الخلق العظيم بخصوصه، زيادة على شهادته سبحانه له بعظمة الأخلاق عامة، فهي شهادات حسية ومعنوية .

أما الشهادات الحسية ففي آيات من كتابه المبين منها قوله سبحانه: ﴿ وصدق الله ورسوله ﴾[سورة الأحزاب:٢٢]، وقوله: ﴿ والذي جاءَ بالصِّدق وصدَّق به أُولئك هم المتقون ﴾[سورة الزمر:٣٣] والذي جاء بالصدق كما يدل عليه سياق هذه الآية هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد شهد لما جاء به من عنده سبحانه أنه صدق، ويلزم من صدق ما أتى به، صدقه هو في نفسه، إذ لا يأتي بالصدق إلا كامل الصدق .

وقوله تعالى في حقه وفي حق إخوانه المرسلين عامة: ﴿ هذا ما وعدَ الرَّحمٰن وصدَقَ المرسلون ﴾[سورة يس:٥٢] .

والآيات في هذا المعنى كثيرة سيأتي بيانها في الأخلاق الواجبة للنبوة(١) .

أما الشهادة المعنوية فهي تأييده سبحانه وتعالى له بالمعجزات الكثيرة كالقرآن الكريم، وانشقاق القمر، وتسبيح الحصى، وحنين الجذع، وتكثير الطعام، والإخبار بمغيبات كثيرة... وتأييده له بالنصر على الأعداء على قلة جنده وضعف عدته في معركة إثر معركة، ولقاء بعد لقاء، وكل ذلك منزل منزلة قول مرسله تبارك وتعالى: صدق عبدي فيما يبلغ عني. إذ أن تأييده بذلك كله وهو يدعي أنه مرسل من عند ربه، وهو على مسمع من ربه سبحانه ومرأى، وهو جل شأنه لا يزال يؤيده بكل ذلك؛دليل على كمال صدقه، إذ لو كان بخلاف ذلك لما أيده، ولفضح أمره للملأ، كما هي سنته في الكاذبين عنه سبحانه .

فهذه هي شهادة الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه بهذا الخلق بخصوصه، كما شهد له به ضمن شهادته بعظمة أخلاقه عامة، والصدق في مقدمة تلك الأخلاق .

---

(١) من الباب الخامس ص٩٨٩.

شهادة أعدائه صلى الله عليه وسلم له بالصدق :

أما شهادة الأعداء للمرء بما فيه من أخلاق عظيمة أو نحو ذلك مما لا يوافق أهواءهم مع عِدائهم له، فهي من أعدل الشهادات؛ لأن الطباع في الغالب مجبولة على غمز من يعاديها، وطمس محاسنه أو التقليل من شأنها، ويحاول الأعداء فعل ذلك بالحق والباطل بقدر ما لديهم من قوة، كما قال الشاعر :

إن يسمعوا سبة طاروا بها فرحا مني وما علموا من صالح دفنوا

فإذا لم يقدروا على دفن تلك المكارم، كان ذلك من أعدل الشهادات وأزكاها كما قالوا:

... وا لفضلما شهدت به الأعداء .

وأعداء النبي صلى الله عليه وسلم كانوا بهذه المثابة، حيث لم يقدروا على غمطه في أخلاقه العظيمة، بل اضطروا إلى بيانها والشهادة بها في مواقف عديدة، ولو أنهم قدروا على غمزه ولمزه بشيء ولو قليل في أخلاقه لكفاهم ذلك في صد الناس عن دعوته ويسر لهم الجهد الذي بذلوه في ذلك :

١ ـ فأبو سفيان لما سأله هرقل عن صدقه وقال له: "هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان: لا، هكذا يشهد له بهذه الحقيقة التي لا تُغالَب، فعندئذ قال له هرقل: "وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله"(١) .

والمعنى: أنه لو كان متهما بالكذب، لظهر ذلك من كذبه على الناس، إذ لا يمكن أن يكذب على الله ولا يكذب على الناس، لأن الكذب على الناس أهون من الكذب على الله تعالى، فكيف يترك الأهون ويعمد إلى الأشد ؟ فاستدل على صحة نبوته بهذا الخلق العظيم، وهكذا كانت أخلاقه منبئة عن نبوته وهي علم من أعلامها، وذلك عندما تجد عقولا نيرة خالية عن الكبر والعناد، أما إذا كابرت وعاندت، فإنه لا ينفع مع ذلك برهان، كما

---

(١) تقدم تخريجه قريبا ص ٢٩٨

كان من أهل مكة حينما أقام عليهم النبي صلى الله عليه وسلم الحجة بما يعلمونه عنه من صدق وأمانة ... وكمال في الأخلاق، وأذعنوا لذلك وأقروا له بها، فدعاهم إلى الإيمان به وبما جاء به،عاندوا وتنكروا لتلك الحقيقة وقالوا: ﴿ اللَّهمَّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليم ﴾[سورة الأنفال:٣٢] .

٢ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتَك الأقربين ﴾ [سورة الشعراء:٢١٤] خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا، فهتف:ياصباحاه، فقالوا: من هذا ؟ فاجتمعوا إليه، فقال: "أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ ؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا !!، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد" .

وفي رواية قال لهم: "أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقيَّ ؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا !!، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"(١) .

هكذا يعترف له قومه أجمعون بالصدق، وعدم عثورهم على ما يناقض هذا الخلق عنه، وهم وإن لم يكونوا قد ناصبوه العداء آنذاك، إلا أن هذه الشهادة وغيرها ظلت قائمة لا ينازعون فيها،ولم يسحبوها حينما جاهرهم بالدعوة فناصبوه العداء، وقد حرصوا بعد ذلك على صد الناس عن الإيمان كل الحرص، وبذلوا كل جهد، غير أنهم لم يقدروا أن ينالوا من صدقه وأمانته وعفافه ... كما علمت عما قريب من موقف أبي سفيان مع هرقل، وحتى قال أبو طالب في لاميته المشهورة التي قالها إبَّان المقاطعة التي ضربوها عليه وعلى قومه بني هاشم، لعدم كفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن دعوته، أو تخليهم عنه، قال لهم مذكرا بحاله وأخلاقه:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل(٢)

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة "الشعراء" ١٤٠/٦، وفي تفسير سورة "تبت" ٢٢١/٦، ومسلم في الإيمان، باب ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ برقم ٢٠٨، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) سيرة ابن هشام مع الروض الأنف ١٦/٢ .

فهم يعلمون هذه الحقيقة حقا، ولكن تعاموا عنها، وأعماهم الباطل والكبر والعناد، كما قال الله تعالى: ﴿ وَجحدوا بها واستَيقنتها أنفسُهم ظُلماً وعُلُوًّا ﴾[سورة النمل:١٤] وكما قال: ﴿ فإنَّهم لا يُكذّبونك ولكن الظَّالمين بآياتِ الله يَجحدون ﴾ [سورة الأنعام:٣٣].

لذلك لما لَجُّوا في هذا العناد ذهبوا يبحثون عما يقولون ليثنوا به الناس عن الإيمان، واختاروا بعد التفكير والتقدير والنظر والتروي، أن يقولوا عن القرآن أنه "مفترَى" وأنه "إفك" وأنه "سحر يؤثر"، حينئذ صاروا أضحوكة للناس ولا سيما العقلاء منهم حيث سفهوا مقالاتهم هذه ،

٣ ـ فقد قال لهم النضر بن الحارث(١): "يا معشر قريش إنه والله قد نزل بكم أمر ما ابتليتم بمثله، لقد كان محمد فيكم غلاما حدَثا، أرضاكم عقلا، وأصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه(٢) الشيب، وجاءكم بما جاءكم قلتم: ساحر؟ لا والله ما هو بساحر، قد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهِن؟ لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكَهنة وحالهم وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر؟ لا والله ما هو بشاعر، لقد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها:هزجه ورجزه وقريضه، وقلتم:مجنون؟ لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه، ثم قال لهم: يا معشر قريش، انظروا في شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم"(٣) .

فهذا كلام النضر بن الحارث الذي كان شيطانا من شياطين قريش، وممن كان يؤذي

---

(١) ابن علقمة بن كلدة بن عبد مناف، كان أحد وجوه قريش وشجعانها، وهو ممن بالغ في أذية النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، ولما كانت وقعة بدر كان حامل لواء قريش، وكان في مكة يعارض النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن بأخبار ملوك فارس وفلاسفتها، ولما ظفر به النبي صلى الله عليه وسلم في بدر أمر بقتله صبرا. معجم البلدان لياقوت الحموي ١١٢/١، وسيرة ابن هشام ٥٤/٣ .

(٢) الصدغ: ما بين العين والأذن، ويسمى الشعر المتدلي في هذا الموضع صدغا. مختار الصحاح ص ٣٥٩، والمصباح المنير ٣٥٩/١ .

(٣) والقصة رواها ابن هشام في السيرة ٣٨/٢ مع الروض الأنف، والبيهقي في الدلائل ٢٠١/٢ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينصب له العداوة(١) .

وكذا قال غيره كلاما نحو ذلك من إثبات صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وكماله الخِلقي والخُلقي، كالوليد بن المغيرة(٢)، وعتبة بن ربيعة(٣) وغيرهما .

وأنزل الله في ذلك قرآنا يتحداهم فيه بمعارضة القرآن الذي أرادوا من خلاله أن يخدشوا في كمال النبي صلى الله عليه وسلم الخُلقي حيث نسبوا إليه افتراءه، وذلك بأن يبرهنوا على صدق مزاعمهم الآثمة تلك،فقال الله جل ذكره: ﴿ وإن كُنتُم في ريبٍ مما نزَّلنا على عبدِنا فأتُوا بسورةٍ من مثلِه وادعوا شهداءَكم من دونِ اللهِ إن كنتُم صادقين ﴾ [سورة البقرة:٢٣]، فلما عجزوا عن ذلك تنزَّل التَّحدي معهم إلى أن يأتوا ﴿ بعشرِ سِورٍ من مثله مُفترَيات ﴾[سورة هود: ١٣]، ولما عجزوا عن ذلك تنزل معهم إلى أن يأتوا ﴿ بسورة مثله ﴾ كما في آية سورة يونس، ثم تنزَّل معهم إلى أقل درجات التحدي وهي الإتيان بسورة ﴿ من مثله ﴾ أي: مماثلة له في بعض نواحيه الإعجازية فقط، كما في آية سورة البقرة(٢٣) وأمرهم أن يستعينوا بمن شاؤوا من أهل الفصاحة واللسن،فقال لهم: ﴿ وادعوا شهداءَكم مِن دُون الله إن كنتُم صادقين ﴾[سورة البقرة:٢٣]، وقال: ﴿وادعوا من اسْتطعتُم من دون الله إن كنتُم صادقين﴾[سورة يونس:٣٨] .

ولكن هيهات أن يستطيعوا أي شيء من ذلك؛ لأنه كما قال الله تعالى: ﴿ ما كان حديثاً يُفترَى ولكن تصديقَ الَّذي بين يديهِ وتفصيلَ كلِّ شيءٍ وهُدًى ورحمةً لقوم يؤمنون ﴾[سورة يوسف:١١١]، وكما قال سبحانه: ﴿ وما كان هذا القرآنُ أن يُفترَى من دونِ الله ولكن تَصديق الَّذي بين يَديه وتفصيلَ الكتابِ لا ريبَ فيه من ربِّ العالمين ﴾ [سورة يونس:٣٧] .

وكذلك ختمت المرحلة الرابعة والأخيرة من التحدي بقوله تعالى: ﴿ فإنْ لَم تَفعلوا

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/٢٠٢ .

(٢) انظر الدلائل للبيهقي ٢/٢٠٠ .

(٣) انظر الدلائل للبيهقي ٢/٢٠٣ .

ولن تفعلوا ﴾[سورة البقرة:٢٣]، وهو حكم بالعجز الأبدي عليهم بعد التدرج في مراحل التحدي، وحيث تبين لهم أنه خارج عن طاقاتهم وقدراتهم، ودحضت مزاعم الأفّاكين منهم في التشكيك في صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم،لم يبق معهم إلا سلاح العناد والمكابرة، وهو سلاح المكابر المغلوب بالحجة والبرهان،البعيد عن مكارم الأخلاق، وصدق الله إذ يقول: ﴿ فإنَّهم لا يُكذِّبونك ولكنَّ الظَّالمين بآياتِ الله يَجحدون ﴾[سورة الأنعام:٣٣] .

٤ - وقد روى ابن جرير رحمه الله تعالى عند تفسيره هذه الآية، من طريق أسباط عن السدي قال: لما كان يوم بدر قال الأخنس بن شريق لبني زهرة: يا بني زُهرة، إن محمدا ابن أختكم فأنتم أحق من كفَّ عنه، فإنه إن كان نبيا لم تقاتلونه ؟ وإن كان كاذبا كنتم أحق من كف عن ابن أخته، قفوا ههنا حتى ألقى أبا الحكم، فإن غُلِب-محمد صلى الله عليه وسلم-رجعتم سالمين، وإن غلَب محمد فإن قومكم لا يصنعون بكم شيئا، قال: فيومئذ سُمِّي الأخنس، وكان اسمه أبي، قال: فالتقى الأخنس وأبو جهل، فخلا الأخنس بأبي جهل، فقال: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟، فإنه ليس ههنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا، فقال أبو جهل: ويحك، والله إن محمدا لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللِّواء والحجابة والسقاية والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ؟ فذلك قوله: ﴿ فإنَّهم لا يُكذِّبونك ولكنَّ الظَّالمين بآيات الله يَجحدون ﴾ قال: "فآيات الله: محمد صلى الله عليه وسلم"(١) .

٥ - وأخرج ابن جرير أيضا من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن أبا جهل قال للنبي صلى الله عليه وسلم: "إنا لا نكذبك ولكن نكذب الذي جئت به، فأنزل الله تعالى﴿فإنهم لا يكذبونك ...﴾(٢) .

---

(١) جامع البيان ١٨١/٧، وذكره ابن كثير في تفسيره ١٣٠/٢ معزوا إليه .

(٢) جامع البيان ١٨٢/٧، وعزاه الشوكاني إلى الترمذي برقم ٣٠٦٤، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه،والحاكم ٣١٥/٢،وصححه على شرط الشيخين وتعقبه الذهبي بأنهما لم يخرجا لناجية راويه عن =

شهادة الصحابة رضي الله عنهم بصدقه صلى الله عليه وسلم :

أما شهادة الصحابة رضي الله تعالى عنهم على صدقه عليه الصلاة والسلام فهي شهادات عن خبرة ودراية، وإن إيمانهم به، وتصديقهم بكل ما جاء به، وطاعتهم له، وتفانيهم في الدفاع عنه، والتقرب إليه، وكمال المناصحة له .. كل ذلك في حد ذاته شهادات صادقة له صلى الله عليه وسلم بعظيم الصدق وكماله .

وما كان ذلك منهم إلا لما اطلعوا على أحواله، وخبروا أخلاقه وصفاته، فلما تبين لهم أنه صادق أمين، وضعوا أنفسهم وأموالهم وأرواحهم رهن إشارته، ابتغاء مرضاته ومرضاة ربه سبحانه، وكان تصديق النبي صلى الله عليه وسلم في كل ما يقوله هو العلامة الفارقة بين الإيمان، والكفر والنفاق، فلا يرتاب في ذلك إلا كافر أو منافق، وما ذلك عن شك في نفسه، ولكن لعناد وكبر وجحود .

كذلك كانت شهادة الحال من الصحابة الكرام رضي الله عنهم على عظمة خلق الصدق في النبي صلى الله عليه وسلم .

أما شهادة المقال منهم على ذلك فهي كثيرة :

١ - من ذلك قول خديجة رضي الله عنها في قصة بدء الوحي حيث قالت له صلى الله عليه وسلم وهي الخبيرة به: "كلاّ أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدا، فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتكسِب المعدومَ، وتُقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق .."(١) .

فهذه شهادة من خبر أخلاقه وسبر أحواله صلى الله عليه وسلم، ولا ينبئك مثل خبير، ولذلك كانت مثل هذه الشهادات على صدقه صلى الله عليه وسلم من أقرب الناس إليه تعد من أبلغ الدلائل على صدق دعوته صلى الله عليه وسلم الرسالة، وكانت محل ثقة أعدائه .

= علي شيئا، وهو ثقة كما في التقريب برقم ٧٠٦٥، وأخرجه الضياء في المختارة، كما أفاده في فتح القدير ١١٣/٢ .

(١) متفق عليه وتقدم ذكره ص٦١ .

"فقد أجمعوا على أن من أنصع الأدلة على صدقه صلى الله عليه وسلم كون أهله وأقرب الناس إليه هم أول من آمن به، فقد كانوا مطلعين على جميع سرائره، ولو ارتابوا في صدقه ما آمنوا"(١) .

وقال الكاتب المستشرق الإنجليزي (هـ جي ويلز):

« إن من أرفع الأدلة على صدق محمد كون أهله وأقرب الناس إليه يؤمنون به، فقد كانوا مطلعين على أسراره، ولو شكوا في صدقه لما آمنوا به"(٢) .

وانظر كيف استدلت خديجة رضي الله عنها من مكارم أخلاقه التي كان متخلقا بها ولمّا يوحِ إليه بعد، على عصمة الله له من أن يمسه سوء، وهذا ما أفاده الإمام النووي رحمه الله حيث قال: "وفي هذا دلالة على أن مكارم الأخلاق، وخصال الخير سبب السلامة من مصارع السوء"(٣) .

٢ - ومن أقوال الصحابة رضي الله عنهم عن صدقه صلى الله عليه وسلم ، ما كان يعبر عنه ابن مسعود رضي الله عنه صلى الله عليه وسلم في هذا الحال كقوله: "حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصَّادق المصدوق: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك ..."الحديث(٤) .

٣ - وكذا كان يقول أبو هريرة رضي الله عنه،كقوله: "سمعت أبا القاسم الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم صاحب هذه الحجرة يقول: "لا تُنزع الرحمة إلا من شقي"(٥) .

---

(١) الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب ص ١٦٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٢ .

(٣) شرح مسلم ٢٠٢/٢ .

(٤) رواه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى:﴿ وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ ١٦١/٤، ومسلم في القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه برقم ٢٦٤٣ .

(٥) رواه أبو داود في الأدب، باب في الرحمة برقم ٤٩٤٢، والترمذي في البر، باب ما جاء في رحمة الناس برقم ١٩٢٣، وقال: حديث حسن .

٤- وكذلك ما كان من أبي بكر الصديق رضي الله عنه من التصديق الكامل بكل ما يقوله النبي صلى الله عليه وسلم منذ أول دعوته، وحيث كان المشركون في مكة يكابرون في الاستجابة له، والتصديق بما جاء به من عند الله تعالى، وكان أبو بكر رضي الله عنه في نفر قليل من السابقين للإسلام يؤمنون بصدق النبي صلى الله عليه وسلم في كل ما يقوله عن ربه أو عن نفسه، كما كان منه في حديث الإسراء .

فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما أصبح يخبرهم بقصة الإسراء قالوا: "هذا والله الأمر المبُين، والله إن العير لتطرد شهرا من مكة إلى الشام مدبرة وشهرا مقبلة، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟! فارتد كثير ممن كان أسلم، وذهب الناس إلى أبي بكر فقالوا له: هل لك يا أبا بكر في صاحبك، يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس، وصلى فيه ورجع إلى مكة ؟ فقال لهم أبو بكر: إنكم تكذبون عليه، فقالوا: بلى ها هوذاك في المسجد يحدث به الناس، فقال أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه"(١) .

٥- فلذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يحفظ هذه اليد للصديق رضي الله عنه حتى كان يقول:

"إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي؟ مرتين .."(٢) .

٦ - ولقد كانت هيئته صلى الله عليه وسلم تدل على مبلغ مكانته من الصدق،ودليلا كافيا على صدق دعواه الرسالة،وأنه صادق مصدوق، يعرفه بذلك كل من صفت فكرته، وتجرد عن الأنانية، كما كان من الحبَر عبد الله بن سلاَم(٣) رضي الله عنه، فإنه

---

(١) سيرة ابن هشام ١٤٢/٢ .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل ٦/٥، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٣) ابن الحارث الإسرائيلي، ثم الأنصاري الخزرجي بالولاء، كان أحد أحبار يهود، شهد شهادة الحق ولم =

ما إن رآه عند مقدمه المدينة حتى استيقن صدقه كما قال: "لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، كنت ممن انْجَفَلَ(١)، فلمَّا تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فسمعته يقول: "يا أيها الناس أَفْشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام"(٢) .

فلم يسعه بعد ذلك غير أن يعلن إسلامه، ويتبرأ من كيد يهود وعنادها، ففعل ذلك مقتنعا مختارا، ولقد صدق والله وأجاد عبد الله بن رواحة رضي الله عنه حيث قال :

لو لم تكن فيه آياتٌ مبَيِّنة كانت بديهته تنبيك بالخبر(٣)

فانظر إلى حكاية الصحابة رضوان الله عنهم عن صدقه صلى الله عليه وسلم حيث يسمونه بالصادق المصدوق، أي الصادق في نفسه، المصدوق فيما يجيء به عن ربه جل وعلا، ويرون صدقه تنبيء عنه جوارحه قبل أن تنبيء عنه أقواله .

ولم يكن ذلك مجرد تسمية أو قول، بل هي عقيدة وإيمان في قلوبهم وأنفسهم، فيصدقونه بكل ما يقوله صلى الله عليه وسلم ويؤمنون به، وذلك هو الواجب عليهم وعلينا وعلى سائر المؤمنين، إذا لايتحقق إيمان أحد إلا بالإيمان بكل ما يقوله النبي صلى الله عليه وسلم أو يفعله أو يقره، لقوله صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به"(٤) .

= يكابر أو يعاند، ونزل في فضله آيات من كتاب الله تعالى منها قوله تعالى: ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ﴾، وقوله: ﴿ قل كفى بالله شهيداً ومَن عنده علم الكتاب ﴾ وشهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة وهو حي، وتوفي رضي الله عنه سنة ٤٣ هـ. انظر طبقات ابن سعد ٣٥٢/٢، وتهذيب الأسماء ٢٧٠/١، والإصابة ٣٢٠/٢ .

(١) أي: اذهبوا مسرعين

(٢) حديث صحيح وتقدم في مبحث التهجد ص٣٣٦

(٣) ديوان عبد الله بن رواحة ص ٩٤

(٤) أخرجه البغوي في شرح السنة برقم ١٠٤، وفي الأنوار برقم ١٢٣٤، وعزاه ابن رجب في جامع العلوم =

وقد كان ذلك الإيمان منهم بكمال صدقه عليه الصلاة والسلام ناشئا عن خبرتهم بأحواله وأقواله،فوجدوها كلها صدقا وعدلا، لا تخرج عن ذلك في حال من الأحوال، حتى ما كان في باب الهزل .

صدقه عليه الصلاة والسلام في الجد والهزل :

١ ـ فقدكان صلى الله عليه وسلم لا يبرح عن الصدق حتى وإن كان ذلك فيما يرى الناس أنه لا حرج في عدم الصدق فيه وهو الهزل والمزاح، فإن الناس غالبا يتساهلون في ذلك، فيمزحون ولا يصدقون، أما النبي صلى الله عليه وسلم فكان على خلاف ذلك حيث "كان يمزح ولا يقول إلا حقا"(١) .

٢ ـ وذلك كقوله عليه الصلاة والسلام لأخ صغير لأنس بن مالك رضي الله عنه يقال له أبو عمير: "يا أبا عمير ما فعل النُّغَير"(٢) اسم لطائر كان يلعب به فمات فحزن عليه .

٣ ـ وكقوله صلى الله عليه وسلم لرجل جاء يستحمله، أي يطلب منه بعيرا يحمله، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "إني حاملك على ولد الناقة، فقال الرجل: يا رسول الله، ما أصنع بولد الناقة ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: وهل تلد الإبل

= والحكم ص ٣٦٤ إلى كتاب الحجة على تاركي سلوك طريق المحجة لأبي الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي، وقال ابن رجب: إسناده صحيح، وتكلم على الحديث كلاما شافيا فلينظر هناك، وهو من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

(١) ثبت ذلك من حديث ابن عمر رضي الله عنه عند الطبراني في الصغير ٧/٢، قال الهيثمي في المجمع ٩٢/٨، وإسناده حسن، ومن حديث عائشة رضي الله عنها عند البغوي في الأنوار ٣١١، وأبي الشيخ في أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم برقم ١٨٣، ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الترمذي في الشمائل برقم ٢٢٧، والبغوي في الأنوار رقم ٣١٢ .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب باب الانبساط إلى الناس ٣٧/٨، والترمذي في الشمائل برقم ٢٢٦، والبغوي في الأنوار برقم ٣١٤ من حديث أنس رضي الله عنه .

إلا النوق"(١) .

٤ ـ وكقوله صلى الله عليه وسلم لأنس بن مالك رضي الله عنه: "يا ذا الأُذنين"(٢).

٥ ـ وكقوله صلى الله عليه وسلم لامرأة عجوز جاءت تطلب منه أن يدعو الله أن يدخلها الجنة فقال لها: "إن الجنة لا تدخلها عجوز" فولَّت تبكي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز إن الله تعالى يقول: ﴿ إنا أنشأناهن إنشاءً * فجعلناهُنَّ أبكارا * عُرُبا أتْرابا ﴾[سورة الواقعة:٣٥-٣٧] (٣) .

إلى غير ذلك من أقواله الصادقة في الجد والهزل بحيث لا يخرج قول من أقواله صلى الله عليه وسلم عن الصدق والحق والعدل، حتى لقد أمره الله تعالى بأن يسأله أن يجعل الصدق مصاحبا له في أقواله وأفعاله ودينه، حيث قال سبحانه: ﴿ وقُل ربِّ أدخلني مُدخلَ صِدق وأخرجني مُخرجَ صِدق واجعل لي مِن لدنْك سُلطاناً نصيرا ﴾[سورة الإسراء:٨٠]، "أي أدخلني في كل ما تدخلني فيه مع الصدق في عبوديتك والاستغراق بمعرفتك، وأخرجني عن كل ما تخرجني عنه مع الصدق في العبودية والمعرفة والمحبة،

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في المزاح برقم ١٩٩١، وفي الشمائل، باب ما جاء في صفة مزاح رسول الله صلى الله عليه وسلم برقم ٢٢٨، وأبو داود في الأدب، باب المزاح برقم ٤٩٩٨، والبخاري في الأدب المفرد، باب المزاح برقم ٢٦٨، والإمام أحمد في المسند ٢٦٨/٣، والبغوي في الأنوار، باب في سروره وضحكه ومزاحه صلى الله عليه وسلم برقم ٣١٦، وفي شرح السنة برقم ٣٦٠٥، وأبو الشيخ في الأخلاق برقم ١٨٤، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح غريب .

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة برقم ١٩٩٢، وفي الشمائل برقم ٢٢٥، وأبو داود في الأدب برقم ٥٠٠٢، والإمام أحمد في المسند ١١٧/٣، ١٢٧، ٢٤٢، ٢٦٠، والبغوي في الأنوار برقم ٣١٧، وفي شرح السنة برقم ٣٦٠٦، من حديث أنس ، وقال عنه الترمذي: صحيح غريب .

(٣) أخرجه الترمذي في الشمائل برقم ٢٣٠، والبغوي في الأنوار برقم ٣٢٠، من حديث الحسن مرسلا، وله شاهد من حديث عائشة عند أبي الشيخ في الأخلاق برقم ١٨٦، وحسنه الألباني في غاية المرام برقم ٣٧٥ لشاهده ذاك .

والمقصود منه أن يكون صدق العبودية حاصلا في كل دخول وخروج وحركة وسكون"(١) .

وقد أعطاه الله تعالى ذلك كله، حتى امتن عليه بذلك بقوله سبحانه: ﴿ ألم نَشرح لك صدرَك * وَوَضعنا عنك وِزرَك * الَّذي أنقضَ ظَهرك * ورَفعنا لك ذِكرك ﴾[سورة الشرح:١-٤]، "فإن ذكره صلى الله عليه وسلم ارتفع بالصدق والوفاء وقيام الحجة، فما وَجد له أعداؤه كذبة، ولا زلة ولا هفوة،مع حرصهم على ذلك، وما بارت له حجة، ولا زلت له قدم، ولا أسكته خصم، مع كثرة الخصوم له، وطلب العلل وطول المجادلة"(٢) .

من أقواله صلى الله عليه وسلم في الحث على خلق الصدق :

تلك هي شواهد أحواله صلى الله عليه وسلم في هذا الخلق العظيم، وقد علمت ما فيها من الدلالة على مبلغ عظمة تمثل هذا الخلق فيه، أما شواهد أقواله صلى الله عليه وسلم على ذلك فكثيرة، ومنها قوله عليه الصلاة والسلام :

١ ـ "عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا"(٣) .

ففي هذا الحديث يرغب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصدق ويحث عليه، ويبين فضله وثمرته، وذلك لتلزم أمته هذا الخلق العظيم، وتتحراه في كل شئونها، ويحذر من

---

(١) التفسير الكبير ٣٣/٢٢، وانظر ظلال القرآن ٢٢٤٧/٤ .

(٢) تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار ٨٥/١ .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ وما ينهى عن الكذب ٣٠/٨، ومسلم في البر، باب تحريم النميمة برقم ٢٦٠٦، ٢٦٠٧، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه والترمذي في البر، اب ما جاء في الصدق والكذب برقم ١٩١٧ واللفظ له .

الكذب، ويبين وبيل عقابه وعظيم جزائه، وذلك لتلزم أمته الصدق وتجتنب الكذب في كل شئون حياتها .

٢ ـ وقد كانت هذه دعوته لأمته منذ بداية مبعثه، كما يدل على ذلك حديث أبي سفيان مع هرقل، حيث سأل هرقل أبا سفيان عما يأمر به النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبوسفيان: "يقول:اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة"(١) .

وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام بعث ليتمم مكارم الأخلاق كما علمت، فكانت هذه المهمة هي ديدنه وهِجِّيراه حثا وترغيبا بأحواله وأقواله .

والأقوال في ذلك كثيرة، وفيما ذكرت كفاية إن شاء الله تعالى .

---

(١) البخاري في بدء الوحي ٦/١ .

المَبْحَثُ الثَّاني

(خلق الصبر)

الصبر في اللغة: الحبس، يقال: صبرت نفسي على ذلك الأمر أي: حبستها، ويقال: صبر الرجل يصبر صبرا فهو صابر وصبِّير وصبور: إذا حبس نفسه عن الجزع، ومنه قول الله تعالى: ﴿ واصبِر نفسَك مع الَّذين يَدعون ربَّهم بالغداةِ والعشيِّ يُريدون وجهَه ﴾ [سورة الكهف:٢٨](١) .

وفي الاصطلاح : هو "حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه"(٢) .

أو هو حبس النفس عما تكره ابتغاء مرضاة الله كما قال تعالى: ﴿ والَّذين صبَروا ابتغاءَ وجهِ ربِّهم ﴾[سورة الرعد:٢٢](٣) .

منزلة هذا الخلق في الأخلاق السلوكية :

وهذا المعنى هو الذي عناه القرآن الكريم عند حديثه المستفيض عن الصبر، فلقد تحدث كثيرا عن الصبر:أمرا به وحثا عليه، وتنويها به وبأهله، وتبيانا لأجره العاجل والآجل، في نحو من ست ومائة مرة(٤)، وهو العدد الذي يجعل هذا الخلق في مقدمة الأخلاق القرآنية ذات السلوك الذاتي، مما يدل على أن للصبر مكانة عظيمة في الدين، وهي المكانة التي فهمها السلف الصالح، حتى قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "الصبر نصف الإيمان"(٥) ، يعني لأن أكثر أخلاق الإيمان لا تتم إلا بالصبر؛ لأنها تحتاج إلى مجاهدة حتى

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣٢٩/٣ مادة (صبر)، والصحاح للجوهري ٧٠٦/٢ .

(٢) مفردات القرآن الكريم للراغب ص ٢٧٣ .

(٣) الصبر في القرآن الكريم للدكتور يوسف القرضاوي ص ١٠ .

(٤) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٣٩٩-٤٠١ .

(٥) أخرجه البخاري في الكبير، كما عزاه إليه الهيثمي في مجمع الزوائد ٦٢/١، وقال: رجاله رجال الصحيح، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم ٤٨،٩٧١٦،٩٧١٧، وقال البيهقي:روي من وجه آخر غير قوي =

تصبح أخلاقا عملية للمؤمن، وهي لا تتم إلا بالصبر، ناهيك عما له من ضرورة دنيوية ودينية، فلا نجاح في الدنيا ولا فلاح في الآخرة إلا بالصبر .

قال الدكتور يوسف القرضاوي(١): "وترجع عناية القرآن البالغة بالصبر إلى ما لـه من قيمة كبيرة دينية وخلقية، فليس هو من الفضائل الثانوية أو المكملة، بل هو ضرورة لازمة للإنسان ليرقى ماديا ومعنويا، ويسعد فرديا واجتماعيا، فلا ينتصر دين ولا تنهض دنيا إلا بالصبر، قال: فالصبر ضرورة دنيوية كما هو ضرورة دينية، فلا نجاح في الدنيا ولا فلاح في الآخرة إلا بالصبر"(٢) .

تقسيمات الصبر :

للصبر تقسيمات باعتبارات مختلفة :

- فباعتبار محله ينقسم إلى قسمين: بدني، ونفساني، وكل منهما نوعان: اختياري واضطراري، فهذه أربعة أقسام .

- وباعتبار قوته وضعفه ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول: أن يكون الصبر قويا فيغلب كل دواعي الفساد والهوى .

الثاني: أن يكون ضعيفا، فتغلب دواعي الهوى والفساد ولا يستطيع مقاومتها .

الثالث: أن يكون وسطا بين القوة والضعف، فتكون الحرب بينهما سجالا، فتارة له وتارة عليه .

= مرفوعا، قال: والمحفوظ عن ابن مسعود من قوله غير مرفوع، وعزاه العراقي في شرح الإحياء ١٨٧/٤، إلى أبي نعيم في الحلية ٣٤/٥، والخطيب في التاريخ ٢٢٦/١٣، وقال: تفرد برفعه يعقوب بن حميد عن محمد ابن خالد المخزومي، والمحفوظ عن ابن مسعود من قوله

(١) عالم معاصر، وهو مفكر إسلامي كبير له مؤلفات نافعة كفقه الزكاة، ومشكلة الفقر، والخصائص العامة للإسلام، والحلال والحرام، وغيرها، عافاه الله تعالى ونفع بعلمه .

(٢) الصبر في القرآن الكريم ص ١٤ .

ـ أما باعتبار متعلقه فهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها .

الثاني: صبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها .

الثالث: صبر على الأقدار والأقضية الإلهية حتى لا يتسخطها .

ـ وينقسم من حيث تعلق الأحكام به إلى خمسة أقسام :

واجب: وهو الصبر على الواجبات ، والصبر عن المحرمات، والصبر على المصائب والأقدار التي لا صنع للعبد فيها .

ومندوب: وهو الصبر عن المكروهات، والصبر على المستحبات، وعلى معاقبة الجاني بمثل فعله .

ومحرم: وهو الصبر عن أمر يكون فيه هلاكه إن لم يفعله، كالصبر عن الطعام والشراب حتى يموت، وكذا الصبر عن أكل الميتة عند الاضطرار، وكذا الصبر على فعل المعاصي حتى ينتهي عنها .

ومباح: وهو الصبر عن كل فعل مستوي الطرفين .

ومكروه: وهو الصبر عما يحتاج إليه لكن لا يصل إلى حد الضرورة(١) .

وعلى أي حال فإن الصبر بجميع أقسامه أصل مقامات الإيمان، وهو أصل لكمال العبد الذي لا كمال له بدونه(٢) .

والذي يعنينا من هذه التقسيمات هو تقسيمه باعتبار متعلقه، فإنه التقسيم المشهور من تقسيمات الصبر عند الناس؛ لأنه هو الذي حظي بعناية القرآن الكريم في حديثه عن الصبر دون غيره، ولأن التقسيمات الأخرى إنما هي بمثابة الوسائل لهذا القسم، ولهذا فإن هذا القسم سيكون مجال بحثنا، فأقول :

لقد تعدد أسلوب ذكر الصبر في القرآن الكريم، فتارة يأمر به، وتارة يحض عليه، وتارة يعلي من شأنه وشأن أهله، وتارة يبين ما أعده الله من أجر للصابرين .

---

(١) انظر هذه التقسيمات في عدة الصابرين لابن القيم ص ١٣-٢٣ .

(٢) طريق الهجرتين لابن القيم ص ٢٧٠ .

أما الأمر به فقد كان في ثلاث وعشرين آية بصيغة (اصبر) أو (اصبروا)، اختص خطاب المفرد منها بتسع عشرة مرة، ثماني عشرة منها وجهت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، منها قوله تعالى: ﴿ واتَّبِع ما يُوحى إليكَ واصبِر حتى يحكمَ اللهُ وهو خيرُ الحاكمين ﴾[سورة يونس:١٠٩]، وقوله: ﴿ واصبِر وما صبرُك إلاَّ بالله ﴾[سورة النحل:١٢٧] .

وأما خطاب الجمع فالذي وجه إلى المؤمنين عامة منه كان في أربع آيات، منها قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا اصبِروا وصابِروا ورابِطوا واتَّقوا اللهَ لعلَّكم تُفلِحون ﴾ [سورة آل عمران:٢٠٠]، وقوله تعالى: ﴿ ... فاصبروا حتى يَحكمَ اللهُ بيننا وهو خيرُ الحاكمين ﴾ [سورة الأعراف:٨٧] .

غير أن الأمر بالصبر لم يقتصر على هذه الصيغة، بل قد جاء الأمر به بصيغة (اصطبر) وهي فعل أمر مثل (اصبر) إلا أنها تدل على شدة الصبر على الأمر الشاق؛ لأن صيغة الافتعال ترد لإفادة قوة الفعل(١) ، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، وقد جاء ذلك في آيتين من كتاب الله تعالى هما: قوله تعالى: ﴿ فاعبده واصطَبِر لِعبادته ﴾[سورة مريم:٦٥]، وقوله تعالى: ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾[سورة طه:١٣٢] .

كما ورد الأمر به مقرونا بالأمر بالاستعانة بالصلاة، ومخاطبا به المؤمنين في آيتين هما قوله سبحانه: ﴿ واستعينوا بالصَّبر والصَّلاة وإنَّها لكبيرةٌ إلاَّ على الخاشعين ﴾[سورة البقرة:٤٥]، وقوله سبحانه: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا استَعينوُا بالصبرِ والصَّلاةِ إنَّ الله مع الصابرين ﴾[سورة البقرة:١٥٣] .

فترى أن الأمر بالصبر تكرر نحوا من سبع وعشرين مرة بصيغ مختلفة، والسر في ذلك ـ والله أعلم ـ هو بيان أهميته للعباد، وأنه لا غنى لهم عنه لاسيما في مجال الدعوة إلى الله تعالى التي أخذت حظا كبيرا من عدد الآيات الآمرة بالصبر، وذلك لأن العباد إذا علموا أن الله عز وجل لم يكتف بالأمر بالصبر مرة واحدة، بل والى الأمر به هذا العدد كله، وفي كثير من قضاياهم الدينية والدنيوية، كان ذلك باعثا لهم على التحلي به في كل

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/١٤٠، وأصل المادة (اصتبر) فأبدلت تاء الافتعال طاء؛ لمجيئها بعد الصاد .

قضاياهم الدينية والدنيوية التي يحمد الصبر فيها امتثالا لأوامر الله تعالى .

ولكن المولى جل وعلا لم يكتف بتلك الأوامر المباشرة، التي يأتي فيها لفظ الصبر وما تفرع منه، وإنما يأمر أيضا بالصبر بصيغ أخرى غير هذا اللفظ مثل قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لَقيتُم فِئةً فاثبُتوا واذكروا الله كثيرًا لعلّكم تُفلِحون ﴾[سورة الأنفال:٤٥]، فالأمر بالثبات أمام الأعداء هو أمر بحبس النفس على أشق الأمور وأخطرها، وهذا صبر وزيادة .

ونحو هذا قوله تعالى يخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ فاستَقم كما أُمِرتَ ومن تاب معك ﴾[سورة هود:١١٢]، وهذا أمر بالثبات على الاستقامة، وهو أمر بالصبر والدوام عليها حتى الممات .

وأمر بالصبر أيضا بالنهي عن نقيض الصبر من جزع واستعجال وغير ذلك، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ فاصبِر كما صَبر أُولو العزمِ من الرُّسل ولا تَستَعجل لهم ﴾[سورة الأحقاف:٣٥] وهذا أمر بالصبر، ونهي عن نقيضه، فهو توكيد للأمر، لبالغ الأهمية في مجال الدعوة والبلاغ .

ومثله قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا إذا لَقيتُم الَّذين كفروا زَحفا فلا تولُّوهم الأدبار ..﴾[سورة الأنفال:١٥]، فهذا نهي عن ترك الصبر في مواطن البأس، وعدل عن الأمر به إلى النهي عن نقيضه، لبشاعة الفرار أمام الزحف، وليقطع أي وسيلة للفرار في ميادين القتال، فهو أبلغ من الأمر بالصبر في هذا المقام، والله أعلم .

إلى غير ذلك من الآيات الناهية عن عدم الصبر .

ومعلوم أن النهي عن الشيء أمر بضده، كما يقرره الأصوليون، فتوالي هذه الأوامر، تدل على توكيد المأمور به، وأن طلب الشارع له طلبٌ جازم .

ولذلك كان الصبر على الطاعات والأوامر والنواهي والأقدار والأقضية واجبا بإجماع الأمة ،كما قال ابن القيم، قال: "وهو نصف الإيمان، فإن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر"(١) .

---

(١) مدارج السالكين ١٥٢/٢ .

الحث عليه :

ولما كان الصبر بهذه المثابة، حث الله تعالى عباده عليه، ورغبهم فيه في غيرما آية، كقوله تعالى بعد أن أباح نكاح الإماء عند العجز عن الحرائر وخشية العنت: ﴿ وأنْ تَصبروا خيرٌ لكم ﴾[سورة النساء:٢٥]، أي إن تصبروا عن نكاح الإماء، فإنه خير لكم من أن تنكحوهن فيصير الولد رقيقا، وكقوله تعالى في حق الأعراب الجفاة المستعجلين في حوارهم وتخاطبهم، فلا يفرقون بين أن يكون ذلك مع آحادهم أو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم،حيث طفقوا ينادونه من وراء الحجرات، أن يخرج إليهم فقال الله تعالى في حقهم: ﴿ ولو أنَّهم صبروا حتَّى تخرجَ إليهم لكان خَيراً لهم ﴾[سورة الحجرات:٥] أي أن الصبر خير لهم من سلوكهم ذاك غير اللائق بمقام النبوة العظيمة، فهو حث لهم على الصبر، وترغيب لهم فيه .

وكقوله تعالى بعد أن أباح للمؤمنين أن يعاقبوا من أساء إليهم بمثل ما جرى لهم: ﴿ولإن صَبرتُم لهو خيرٌ للصَّابرين﴾[سورة النحل:١٢٦] أي أن الصبر عن الانتقام خير منه، ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم هو المعنيُّ أولا بهذا الخطاب وجهه الله تعالى إلى أن يحظى بهذه الخيرية؛ لأنه أولى من ينالها بقوله جل ذكره بعد ذلك الحض: ﴿ واصبِر وما صبرُكَ إلاَّ بالله ولا تَحزن عليهم ولا تكن في ضَيقٍ مما يَمكُرون * إنَّ الله مع الَّذين اتَّقوا والَّذين هم محسنون ﴾[سورة النحل:١٢٧،١٢٨] .

هكذا يبين الله تعالى لعباده وهو العليم الحكيم أن الصبر خير لهم، وفي بيانه هذا حض لهم على التخلق به، فعلى المؤمن الذي ينشد الخير دائما أن يظفر به، فإنه ضالته التي ينشدها، ولا شك أن من يؤمن بالله تعالى وبكتابه الكريم إيمانا كاملا، لا يسعه إلا أن يبادر إلى ما رغب الله فيه ويعض عليه بالنواجذ .

وفي هذا الحث ما فيه كفاية للمؤمنين على أن يكون الصبر سجية لهم .

التنويه بهذا الخلق وأهله :

إلا أن الله تعالى رغب عباده بالتحلي به بأساليب مختلفة، ومنها تنويهه العظيم بالصبر والصابرين في القرآن الكريم، لأن في ذلك تهييجا للمؤمنين على التحلي به، أما تنويهه

بالصبر فإنه قد قرن بكثير من الأخلاق الإيمانية، والقيم الروحية العظيمة، مما يدل على أن الصبر منزل منزلتها، وذلك كاقترانه باليقين في مثل قوله سبحانه: ﴿ وَجعلنا مِنهم أَئِمَّةً يَهدون بأمرنا لَمَّا صبروا وكانوا بآياتِنا يُوقنون ﴾[سورة السجدة:٢٤] .

وكاقترانه بالشكر في مثل قوله تعالى: ﴿ إنَّ في ذلك لآياتٍ لِكلِّ صبَّار شكور ﴾ [سورة إبراهيم:٥] .

وبالتوكل في مثل قوله تعالى: ﴿ الَّذين صبَروا وعلى ربِّهم يَتوكَّلون ﴾[سورة النحل:٤٢] .

وبالصلاة كما في قوله سبحانه: ﴿ يا أيها الَّذين آمنوا استَعينوا بالصَّبر والصَّلاةِ إنَّ الله مع الصابرين ﴾[سورة البقرة ١٥٣] .

وبالتسبيح والتحميد والاستغفار كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿ واصبر لِحُكم ربِّك فإنَّك بأعيننا وسبِّح بحمدِ ربِّك حينَ تقوم ﴾[سورة الطور:٤٨]، وقوله: ﴿ فاصبر إنَّ وعدَ الله حقٌّ واستغفِر لذنبِك وسبِّح بحمد ربِّك بالعشيِّ والإبكار ﴾[سورة غافر:٥٥] .

وبعمل الصالحات كما في قوله سبحانه: ﴿ إلا الَّذين صبروا وعملوا الصَّالحاتِ أولئِكَ لهم مغفرةٌ وأجرٌ كبير ﴾[سورة هود:١١] .

وبالتقوى كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وإن تَصبِروا وَتَتَّقوا فإنَّ ذلك مِن عزم الأمور ﴾[سورة آل عمران:١٨٦] .

وبالحق كما في قوله تعالى: ﴿ وتَواصوا بالحقِّ وتواصوا بالصَّبر ﴾[سورة العصر:٣] .

وبالرحمة كما في قوله تعالى: ﴿ ثم كان مِن الَّذين آمنوا وتَواصوا بالصَّبر وتَواصوا بالمرَحمة ﴾[سورة البلد:١٧] .

وبالجهاد كما في قوله تعالى:﴿ ولَنبلوَنَّكُم حتَّى نعلَمَ المجُاهدين مِنكم والصَّابرين ﴾ [سورة محمد:٣١] .

فاقترانه بهذه الأخلاق الإيمانية والسلوكية الفردية والاجتماعية يدل على ارتباطه بها، وأنه أسٌّ في نجاح التحلي بها، إذ لولاه لما قدر المرء على مجاهدة نفسه حتى تصبح الأخلاق الكريمة خلقا لديه .

وحيث كان وسيلة إلى نجاح المرء في التحلي بتلك الأخلاق والقيم الإسلامية العظيمة، فإنه يُعطي حكم وشرف كل فضيلة منها،فإن الوسائل لها حكم المقاصد كما هو مقرر، ولأن كل أمر حسي أو معنوي إنما يشرف بشرف من تعلق به، فهو بذلك يكون قد حوى فضل تلك الفضائل كلها .

وأما تنويه القرآن الكريم بالصابرين فهو تنويه عظيم لأن الله عز وجل أثبته لكثير من أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام على سبيل الإشادة بهم، والثناء عليهم لتحليهم بهذا الخلق العظيم، وذلك كأيوب ويعقوب ويوسف وإسماعيل وأولي العزم من الرسل سلام الله عليهم أجمعين، فإن الله تعالى قد أثنى عليهم جميعا، وخص خلق الصبر منهم بالثناء، مع مالهم من كثير من الفضائل الخلقية، وذلك دليل على بروزه فيهم وعلى أهمية الصبر وعظيم منزلته، ومما قصه الله تعالى عن صبرهم قوله سبحانه: ﴿ وأَيُّوبَ إذ نادى ربَّه أنِّي مسَّني الضُّرُّ وأنت أرحمُ الراحمين * فاستَجبنا له فَكشفنا ما به من ضُرٍّ وآتيناه أهلَه ومثلَهم معهم رحمةً من عندِنا وذكرى للعابدين * وإسماعيلَ وإدريسَ وذا الكفل كلٌّ من الصَّابرين * وأدخلناهم في رحمتِنا إنَّهم من الصَّالحين ﴾[سورة الأنبياء:٨٣-٨٦] .

وقوله في أيوب عليه السلام: ﴿ إنَّا وجدناه صابراً نعِم العبدُ إنَّه أوَّاب ﴾[سورة ص ٤٤]، وكان قد صبر على ضره الذي مسه من غير أن يجزع أو يتسخط .

وقوله في يعقوب ـ عليه السلام ـ على لسانه: ﴿ فصبرٌ جميلٌ والله المستعانُ على ما تصفون ﴾[سورة يوسف:١٨]، وبلاؤه قد كان عظيما، إذ احتيال أولاده على فلذة كبده وأحب أولاده إليه لم يكن سهلا، فقد ابيضت عيناه من البكاء عليه، ولكنه صبر على قضاء الله .

وكقوله في يوسف عليه السلام: ﴿ قال أنا يوسفُ وهذا أخي قد مَنَّ الله عَلينا إنَّه من يَتَّق وَيصبِر فإنَّ الله لا يُضيعُ أجرَ المحسنين ﴾[سورة يوسف:٩٠]، ومعلوم أن مكر إخوته به لم يكن سهلا، فقد كان يراد منه إهلاكه، فعدم الانتقام منهم بعد تمكنه منهم صبر وحلم عظيمان .

وكقوله في إسماعيل عليه السلام على لسانه: ﴿ قال يا أبتِ افعل ما تُؤمَر ستجِدُني إن

شاءَ الله من الصَّابرين ﴾[سورة الصافات:١٠٢]، وقد صبر على أمر لا يكاد يقدر عليه أحد إلا نبي، إذ قدم نفسه طوعا لأبيه ليقدمه قربانا إلى الله تعالى امتثالا لأمره سبحانه وتعالى .

وقد صبر أبوه من قبل على أكبر من صبره، وذلك حينما صبر على أعدائه في باطلهم حين أُلقوه في النار،مع قدرته على التخلص منها بعون من عرض عليه النصرة من الملائكة كما جاء في بعض الآثار(١)، ولكنه أبى أن يستعين إلا بالله،وصبر على كيدهم حتى أنجاه الله منها، وجعلها عليه بردا وسلاما، واستحق بذلك أن يكون أسوة لمن بعده في الصبر العظيم، وأن ينوه بصبره ذاك، وقد أمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يتأسى به وبإخوانه من أولي العزم في صبرهم فقال سبحانه: ﴿ فاصبر كما صَبر أولُو العزمِ من الرُّسل ﴾[سورة الأحقاف:٣٥]، وأولو العزم هم الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿ وإذ أَخذنا من النَّبيين مِيثاقهم ومنكَ ومِن نُوح وإبراهيمَ وموسى وعيسى بنِ مريم وأخذنا منهم ميثاقًا غليظا ﴾[سورة الأحزاب:٧] .

وقد كان لكل واحد منهم موقف عظيم من مواقف الصبر، فنوح مكث يدعو قومه إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاما وهو صابر على أذاهم لا يصده ذلك عن دعوتهم إلى الحق.

وموسى عليه السلام صبر على بني إسرائيل، وعنتهم وعنادهم وأذاهم وقسوتهم، وغيره مما هو معلوم مما قصه الله تعالى عنهم في كتابه الكريم، فصبر صبرا لا يقدر عليه غيره .

وعيسى بن مريم عليه السلام واجه مثل ذلك من العنت من بني إسرائيل، بل وأكبر منه حيث نالوا من عرض أمه، وهي العفيفة البريئة البتول، وكادوا له كيدا، فأرادوا أن يقتلوه فنجاه الله منهم ﴿ وما قتلُوه وما صلبُوه ولكن شُبِّه لهم ﴾[سورة النساء:١٥٧] .

أما محمد عليه الصلاة والسلام، فإن صبره لم يكن بأقل من صبر هؤلاء جميعهم عليه وعليهم الصلاة والسلام، بل إن صبره صلى الله عليه وسلم يوازي مجموع صبرهم جميعا

---

(١) انظر قصص الأنبياء لابن كثير ١٦٧/١ .

إن لم يكن فائقا عليه كما سيأتي بيانه في التطبيق إن شاء الله تعالى .

وهكذا كان الصبر شعار الرسل كما دل عليه قوله سبحانه: ﴿ ولقد كُذِّبت رُسُلٌ من قبلك فصبَروا على ما كُذِّبوا وأوذوا حتَّى أتاهم نصرُنا لا مُبدِّل لكلماتِ الله ﴾[سورة الأنعام:٣٤]، فإذا كان أنبياء الله تعالى وصفوته من خلقه وأكرمهم لديه، يصبرون هذا الصبر في السراء والضراء وحين البأس، فإن غيرهم من المؤمنين أجدر بهم أن يتأسوا بهم فيه، ويصبروا كصبرهم؛ لأنهم يعلمون مكانة رسل الله تعالى عند الله تعالى، وأن الله تعالى أكرم من أن يرد دعواتهم لو دعوه في أن يفرج عنهم ما بهم، ويرتاحوا من عناء أعدائهم وظروف حياتهم، ولكنهم آثروا الصبر على ذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى، لاسيما وأن الله تعالى قد قص لنا من أحوالهم في هذا المقام ما يثبت به أفئدة المؤمنين، فلا شك أن في ذلك كله حث بليغ للمؤمنين على الصبر؛ لأن التأثر بما قصه الله عنهم من أحوالهم بليغ أيضا، لاجرم فقد قال الله تعالى: ﴿ وكلاًّ نقُصُّ عليك من أنباءِ الرُّسل ما نُثبِّتُ به فؤادك ﴾[سورة هود:١٢٠] .

فمن علم بذلك كله كان قد تجمع لديه حوافز عظيمة ومغريات كثيرة على التحلي بالصبر في كل شئونه وأحواله، ويسهل عليه مقاومة نفسه على التحلي بالصبر إذا صاحبه عون الله تعالى .

الثناء على الصابرين :

وعندئذ يكون حريا بالثناء العظيم الذي أثنى الله به على الصابرين في آيات كثيرة من القرآن الحكيم كقوله سبحانه: ﴿ وبشِّر المُخبِتين * الَّذين إذا ذُكر اللهُ وجِلَت قلوبُهم والصَّابرين على ما أصابهم والمُقيمي الصلاةِ ومِمَّا رزقناهم يُنفِقون ﴾[سورة الحج:٣٤،٣٥]، حيث إن الله ذكرهم في معرض الثناء، وشهد لهم بالإخبات، وهو التواضع والإخلاص .

وحيث أثنى عليهم في معرض تعداده لأهل البر الذين منهم: ﴿ الصَّابرين في البأساءِ والضَّراء وحينَ البأس ﴾ .

والذين شهد الله لهم بأنهم أهل الصدق والتقوى، حيث قال: ﴿ أولئِك الَّذين صَدقوا وأولئِك هم المتقون ﴾[سورة البقرة:١٧٧] .

وفي ضمن تعداده لأخلاق المؤمنين ومقاماتهم الدينية حيث قال: ﴿ إنَّ المسلمين والمسلماتِ والمؤمنينَ والمؤمناتِ والقانتينَ والقانتاتِ والصَّادقين والصَّادقات والصَّابرين والصابرات ...﴾ إلى أن قال: ﴿ أعدَّ الله لهم مغفرةً وأجرا عظيما ﴾[سورة الأحزاب:٣٥] .

وكما أثنى عليهم بأنهم أهل العزائم كما قال سبحانه: ﴿ وإن تَصبروا وتَتَّقوا فإنَّ ذلك من عزم الأمور ﴾[سورة آل عمران:١٨٦]، وقد تكرر هذا الثناء عليهم ثلاث مرات في القرآن، مما يدل على أن أهل العزائم هم أهل الصبر والمصابرة .

وهذا فضلا عما يعمله هذا الثناء في النفس من أثر على حب التحلي بخلق الصبر، فيكون حافزا ومغريا آخر على التحلي به .

الترغيب بالصبر :

غير أن هناك مغريات أخرى على التحلي بالصبر والثبات عليه، وهي ما أعده الله تعالى للصابرين من الأجر العظيم، والجزاء في الدنيا والآخرة، وهو أجر عظيم لم يجعله الله تعالى لشيء من الطاعات والقربات، كيف لا وقد قال سبحانه: ﴿ إنَّما يُوفَّى الصَّابرون أجرَهم بغير حساب ﴾[سورة الزمر:١٠]، فما من جزاء وثواب إلا وهو بحساب ومقدار إلا الصبر فإنه يكون بغير حساب، أي هو أجر لا يهتدي إليه حساب الحساب(١) .

ولذلك لما كان الصوم من الصبر كان جزاؤه كذلك، كما جاء في الحديث: "إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به"(٢) وقال تعالى:﴿ولنَجزينَّ الذين صبروا أجرَهم بأحسنِ ما كانوا يعملون ﴾[سورة النحل:٩٦] ، ومن أحسن ما كانوا يعملونه: الصبر الذي سيق الثناء والمدح عليه، وقال تعالى: ﴿ وبشِّر الصَّابرين * الَّذين إذا أصابتهم مُصيبةٌ قالوا إنَّا لله وإنا إليه راجِعون * أولئِك عليهم صَلواتٌ من ربِّهم ورحمةٌ وأولئك هم المهتدون ﴾ [سورة البقرة:١٥٥-١٥٧] .

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي البيضاوي ص٦٠٨ .

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة ، وتقدم في الصوم ص٢٩٩

فانظر إلى عظيم الجزاء الذي دلت عليه هذه الآية، حيث رتب الله تعالى على الصبر ثلاثة أمور عظيمة:

أولاها: صلوات الله تعالى عليهم التي تعني التزكية والمغفرة، ولم تكن واحدة بل صلوات، صلاة بعد صلاة .

وثانيها: الرحمة التي تعني اللطف والإحسان .

وثالثها: أنهم مهتدون، أي إلى الحق والصواب، وهذا إخبار من الله تعالى في إثبات الهداية لهم بأسلوب القصر الحقيقي "ومن أثبت الله له الهداية فلن يضل أبدا"(١) .

فترى أن الله تعالى قد رتب على الصبر ثلاث جزاءات، كل واحد أعظم من الآخر، ولذلك كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: "نعم العدلان ونعمةالعلاوة"(٢)، ويعني بالعدلين: الصلوات والرحمة، والعلاوة: إثبات الهداية .

وقد بين الله سبحانه وتعالى طرفا من النعيم الذي أعده للصابرين من عباده بمثل قوله سبحانه: ﴿ وجزاهم بما صَبروا جنَّة وحريرا ﴾[سورة الإنسان:١٢]، وقوله سبحانه: ﴿ أولئك يُجزون الغُرفةَ بما صبروا ويُلقَّون فيها تَحيَّةً وسلاما ﴾[سورة الفرقان:٧٥]، وقوله عز شأنه: ﴿ والملا ئكة يَدخلون عليهم من كل باب* سلامٌ عليكم بما صَبرتُم فنِعم عُقبَى الدَّار ﴾ [سورة الرعد:٢٣،٢٤] .

وقوله جل وعلا: ﴿ ثم كان مِن الذين آمنوا وَتواصوا بالصَّبر وَتواصوا بالمرحمة * أولئِك أصحابُ الميمنة ﴾[سورة البلد:١٧،١٨] .

وقد علم ما أعده الله لأهل اليمين من آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿ وأصحابُ اليمين ما أصحابُ اليمين * في سدرٍ مَخضود * وطَلح مَنضود ...﴾[سورة الواقعة:٢٧-٣٨] .

- وهذا كله في الآخرة، أما في الدنيا فإن الله تعالى قد ناط بالصبر أمورا أخرى كثيرة من أمور الدنياءمنها النصر على الأعداء كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ فإنْ يَكُن منكم

---

(١) البحر المحيط ٤٥٢/١ .

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٢٢١/٢ برقم ١٥٨٧ .

مائةٌ صابرةٌ يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألفٌ يغلبوا ألْفين بإذنِ الله والله مع الصَّابرين ﴾ [سورة الأنفال:٦٦] .

- و ناط به الحفظ من كيدهم كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وإن تَصبروا وتَتَّقوا لا يضرُّكم كيدُهم شيئًا إن الله بما يَعملون مُحيط ﴾[سورة آل عمران:١٢٠] .

- و ناط به المدد بجند الله وهم الملائكة في قتال الكفار كما دل عليه قوله سبحانه: ﴿ بلى إن تَصبروا وتتَّقوا ويأتُوكم من فورِهم هذا يُمدِدْكم ربُّكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين ﴾[سورة آل عمران:١٢٥] .

- كما أنه يورث الإمامة في الدين والدنيا كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وجَعلنامنهم أئِمةً يهدون بأمرِنا لمَّا صبروا وكانوا بآياتِنا يُوقنون ﴾[سورة السجدة:٢٤] .

وهذا كله في الدنيا كاف لأن يكون حافزا للمؤمنين على التحلي به، ناهيك عن نعيم الآخرة الذي تقدم الحديث عنه، وعن معية الله للصابرين التي نطقت بها الآيات الكريمة كقوله تعالى: ﴿ إنَّ الله مع الصابرين ﴾[سورة البقرة:١٥٣]، وتكررت أربع مرات، وهي المعية التي تعني النصر والتأييد والحفظ والرعاية للصابرين على كل أمر يصبرون عليه في أمر الدين والدنيا، والتي يكون بها عز الدارين، وناهيك أيضا عن محبة الله تعالى التي ينالها الصابرون والتي دل عليها قوله سبحانه: ﴿ والله يُحبُّ الصابرين ﴾[سورة آل عمران:١٤٦] وقد مضى معنى ما تعنيه محبة الله تعالى لعبده من خلال حديث "لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبَّه ..."(١) .

إلى غير ذلك من حديث القرآن عن الصبر في مقامات مختلفة .

---

(١) انظر ص٣٢٥

تمثل خلق الصبر في النبي صلى الله عليه وسلم

لقد علمت أن خلق الصبر تجلى بأبهى صوره في رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، حيث مرّ بك نماذج ممن أثنى الله تعالى عليهم بهذا الخلق العظيم، وتقدمت الإشارة إلى بعض مواقفهم في دعواتهم أقوامهم إلى الله، وما أولاهم ذلك من عناء وشدة وابتلاء، ما كان لهم من وسيلة يتدرعون بها حتى يتمكنوا من أداء واجبهم سوى وسيلة الصبر على سفهاء أقوامهم، وظروف حياتهم، فلما صبروا على ما أوذوا وتحملوا أعباء دعوتهم، نجحوا في إبلاغ أقوامهم ، وهداية من كتب الله له الهداية منهم، وما من نبي إلا وقد كان موقفه من خلق الصبر مضرب المثل .

ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم أكثر رسل الله تعالى دعوة وبلاغا وجهادا، ومن ثم كان أكثرهم ابتلاء وإيذاء وأعداء، منذ بزوغ فجر دعوته إلى أن لحق بربه جل وعلا .

(فقد لقي بمكة من قريش وغيرهم ممن كان يدعوهم إلى الله أو يطلب منهم حمايته ليؤدي رسالة الله، ما يشيب النواصي، ويهد الصياصي، وهو مع ذلك صابر صبر المستعلي، وثابت ثبات المستولي)(١) .

وكذلك بعد أن هاجر إلى المدينة، لقي من المنافقين واليهود والمشركين عامة ما لا يقل عما لقيه بمكة من الأذى، وهو صلى الله عليه وسلم لا تزيده تلك المحن والشدائد إلا إصرارا وثباتا، ومازال ذلك دأبه حتى أتاه اليقين بعد أن مكنه من إقامة دينه الذي ارتضاه لعباده أيما تمكين .

ولولا صبره العظيم على ذلك كله لما نجح ذلك النجاح الباهر في دعوته الأمم إلى الله تعالى، وإقامة شرعه فيهم، بعد أن كانوا في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، ضعيفهم نهب قويهم، ودياناتهم طوع أهوائهم وشياطينيهم .

وعند تسريح النظر في أطوار دعوته صلى الله عليه وسلم وحياته يعلم مدى الصبر العظيم الذي تحلى به في دعوته إلى الله تعالى،والذي تغلب به على ظروف الحياة العربية

---

(١) انظر أعلام النبوة للماوردي ص ٢٨٣ .

في وقتها، وهذه قطاف من ثمار ذلك التسريح .

١ ـ أما صبره في دعوته إلى الله، فقد كان من أوائل بدء الدعوة إلى الله تعالى، إذ ما كاد الخبر يشاع عند قومه من أنه يدعو الناس إلى عبادة الله وترك عبادة الأوثان، حتى نصبوا له العداء، فرموه بكل ما قدروا أن يرموه به من السحر والكهانة والشعر والجنون، وغير ذلك مما درجوا على التفوه به زورا وبهتانا، وهو البراء من ذلك كله، وكان مع ذلك صابرا محتسبا، غير أن القرآن الكريم كان يذب عنه افتراءهم، ويدحض عنه أباطيلهم، فتبوء أقوالهم بالخيبة والخسران، وصور هذا كله واضحة ومعلومة من القرآن الكريم في آيات متكررة كثيرة، ومعلوم أن الشريف القدر، العظيم الهمة، الكريم المحتد، لا يقدر على تحمل ذلك؛ لأن قول الزور والبهتان ينزل على مسامعه وقلبه كالصواعق، فتهد كيانه، وتشعل فؤاده، لأنه يعلم براءة نفسه، وعزة أصله، ثم هو بما يمتلكه من إحساس مرهف يضيق صدره بما يقولون، وتتأزم نفسه عند سماع تلك الأقوال الباطلة الآفكة، لاسيما إن كانت من أناس يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وأنفسهم في صدقه وأمانته وشرف نسبه ونُبل مقصده، ولا ريب في هذا فإن الأمر كما قال الشاعر :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

أو كما قال الآخر :

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

ولكن أسلوب الإيذاء هذا وإن كان شديدا بالغ الشدة، إلا أنهم لم يكتفوا به لبلادة طباعهم، وقساوة قلوبهم، فلم يشتفوا به، فذهبوا يطوِّرونه إلى ما يرونه شفاء لصدورهم، وذلك بإيذائه جسديا، ـ بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم ـ وذلك منذ أن مات عمه أبوطالب، فلقد أُخذ بتلابيبه حتى سقط على ركبتيه، ووضِع سلَى الجزور(١) على ظهره الشريف ـ بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم ـ وهو ساجد، ورمي بالحجارة حتى أدميت قدماه، ودبر قتله في مكيدة عظيمة، وشق وجهه، وكسرت ثنيتاه، إلى غير ذلك

---

(١) سلى الجزور: هو روثه، والجزور: الجمل .

مما هو معلوم، وسأورد بعضا منه هنا :

أ ـ فقد أخرج البخاري رحمه الله تعالى من حديث عروة بن الزبير(١) رحمه الله قال: سألت ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقلت: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال: بينا النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ـ لعنه الله ـ فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقا شديدا فأقبل أبو بكر رضي الله عنه حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: ﴿ أتقتلونَ رجَلا أن يقولَ ربِّيَ اللهُ ... ﴾(٢) الآية[سورة غافر:٢٨] .

٢ ـ وأخرج البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: "بينا النبي صلى الله عليه وسلم ساجد وحوله ناس من قريش جاء عقبة بن أبي معيط بسلى جزور فقذفه على ظهر النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرفع رأسه، فجاءت فاطمة عليها السلام فأخذته من ظهره، ودعت على من صنع، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم عليك الملأ من قريش أبا جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، أو أبي بن خلف، شك الراوي، قال الراوي: فرأيتهم قتلوا يوم بدر، فألقو في بئر غير أمية أو أبي تقطعت أوصاله فلم يلق في البئر"(٣) .

٣ ـ وأخرج الطبراني من حديث الحارث بن الحارث(٤) رضي الله عنه قال: قلت

---

(١) ابن العوام بن خويلد الأسدي، التابعي الجليل، أحد فقهاء المدينة السبعة، أخذ العلم عن أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق وخالته عائشة رضي الله عنهما، وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، ومات سنة ٩٤ هـ، طبقات ابن سعد ١٧٨/٥، وتهذيب الأسماء ١٢٣/١، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٤٢١/٤-٤٣٧.

(٢) البخاري في مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين بمكة ٥٨/٥ .

(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين بمكة ٥٧/٥، ومسلم في الجهاد، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين برقم ١٧٩٤، واللفظ للبخاري .

(٤) الغامدي، يكنى أبا المخارق، يعد في الحمصيين، قاله ابن السكن، له ترجمة في الإصابة ٢٧٥/١، وأسد الغابة بهامشها ٢٩٠/١، وتجريد أسماء الصحابة للذهبي ٩٧/١ رقم ٩١٦ .

لأبي ما هذه الجماعة ؟ قال: هؤلاء القوم الذين اجتمعوا على صابىء لهم، قال: فنزلنا فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى توحيد الله عز وجل والإيمان، وهم يردون عليه، حتى انتصف النهار وانصدع الناس عنه.أقبلت امرأة قد بدا نحرُها تحمل قدحا ومنديلا فتناوله منها فشرب وتوضأ ثم رفع رأسه فقال: "يابُنية خمِّري عليك نحرك ولا تخافين على أبيك. قلنا من هذه ؟ قالوا: هذه زينب(١) بنته"(٢) رضي الله عنها .

٤ - وعن أنس رضي الله عنه قال: " لقد ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة حتى غشي عليه، فقام أبو بكر رضي الله عنه فجعل ينادي: " ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله فقالوا: من هذا ؟ فقالوا : أبو بكر المجنون فتركوه وأقبلوا على أبي بكر"(٣) .

- هكذا عانى صلى الله عليه وسلم من قومه الشدة والأذى وهو رسول الله حقا، أكرم عند الله تعالى من أن ينال مثل هذه القسوة والفظاظة والغِلظة، غير أنه صبر على ذلك كله طوعا في ذات الله تعالى، فلما أيس من نجاح دعوته في قومه مع ما هم عليه من العداء والإيذاء، طمع في أن ينصره قوم آخرون من غير قومه، فعمد إلى الطائف رجاء أن يأووه وينصروه على قومه ويمنعوه منهم، لأنهم: "كانوا أخواله ولم يكن بينه وبينهم عداوة"(٤) . إلا أنهم ردوا عليه أقبح رد وأشده .

---

(١) زينب بنت سيد ولد آدم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، هي كبرى بناته وأول من تزوج منهن، ولدت قبل البعثة بمدة، وزوجها من ابن خالتها أبي العاص بن الربيع العبشمي، وتوفيت في أول سنة ثمان من الهجرة، الإصابة ٣١٢/٤ ومعها أسد الغابة .

(٢) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٤/٦ إلى الطبراني من غير أن يعزوه إلى أحد كتبه بالتعيين، قال الهيثمي: ورجاله ثقات، وعزاه الحافظ في الإصابة ٢٧٥/١ إلى البخاري في التاريخ، وإلى أبي زرعة، والبغوي ، وابن أبي عاصم، والطبراني .

(٣) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٠/٦ إلى أبي يعلى والبزار، وقال: الزيادة فتركوه ...الخ عند البزار، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح .

(٤) إمتاع الأسماع للمقريزي، ص٤٩ وخؤلته بأهل الطائف من الرضاع؛ لأن مرضعته صلى الله عليه وسلم حليمة السعدية من هوازن .

١ـ فقد أخرج الشيخان من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يارسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال: فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا بقرن الثعالب(١)، فرفعت رأسي فإذا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك،وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال، فسلم علي ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله تعالى وحده لا يشرك به شيئا"(٢) .

وسأذكر هنا سياق ابن هشام لقصة عرض النبي صلى الله عليه وسلم نفسه على أهل الطائف كما رواها عن ابن اسحاق فقد قال: "فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف وعمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عمير، وأخواه: مسعود، وحبيب، قال: فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم إلى الله تعالى، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام،والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم: هو يَمْرُط(٣) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ؟! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا، لئن كنت رسولا من الله كما تقول، لأنت أعظم خطرا

---

(١) هو جبل مطل على عرفات، ويقال له أيضا: قرن المنازل، وهو ميقات أهل نجد كما في معجم البلدان ٣٣٢/٤، قلت وهو بحذاء وادي السيل وموضع الميقات منه معروف الآن .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء ١٣٩/٤، ومسلم في الجهاد، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين برقم ١٧٩٥، واللفظ لمسلم .

(٣) أي: يمزقها .

من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، قال ابن هشام: وقد قال لهم فيما ذكر لي: إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنّي، وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه عنه فيُذئِرهم ذلك عليه(١)، فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وهما فيه ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه فعمد إلى ظل حَبَلَة من عنب فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء الطائف، فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي،وقِلّة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربي إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهّمني ؟ أم إلى عدوٍّ ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبَك أو يحل علي سخطُك، لك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك ..."(٢) .

"وأقام عليه الصلاة والسلام بالطائف عشرة أيام، وقيل شهرا، لا يدع أحدا من أشرافهم إلا جاءه وكلّمه، فلم يجيبوه، وخافوا على أحداثهم، فقالوا: يا محمد أُخرج من بلدنا والحق بمحابِّك من الأرض، وأغروا به سفهاءهم فجعلوا يرجمونه بالحجارة حتى إن رجليه لتدميان، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه، حتى لقد شج في رأسه شِجاجا قال: فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة وهو محزون ..."(٣) .

---

(١) أي: يجرئهم عليه .

(٢) تقدم ذكره وتخريجه ص٨٣ .

(٣) ذكر ذلك ابن الجوزي في الوفاء ٢١٢/١ من طريق محمد بن عمر الواقدي، وأسنده ابن سعد في الطبقات ٢١١/١ بإسناده إلى محمد بن جبير بن مطعم، فهي طريق ثانية تعضد طريق الواقدي على أن الواقدي وإن كان متروكا في باب الرواية إلا أنه في باب السيرة يقبل مثله على ما تأصل في علوم الحديث من عدم اشتراط الصحة لما كان في باب السير .

٢ ـ وجاء في بعض الرويات أنهم "تهزّأوا به وأفشوا في قومهم الذي راجعوه به، وقعدوا له صفين على طريقه،فلما مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين صفيهم جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعها إلا رضخوهما بالحجارة، وكانوا أعدُّوها حتى أدموا رجليه، فخلص منهم وهما يسيلان الدماء ..."(١) .

فانظر أي عناء أكبر من هذا العناء الذي تراكم من الرد القبيح وإغراء السفهاء به، وإشاعة أمره للأعداء وهو مع ذلك يراود في إهلاكهم حتى يستريح من عنائهم فيأبى، ويظل صابرا على ما هو فيه(٢) .

٣ ـ وليت الأمر وقف عند هذا الحد من الأذية والعداء، إلا أن الأشرار لم يكتفوا بذلك بل لقد رأوا أنه لا يروي غليلهم إلا أن يقتلوه ويُتوزع دمه بين القبائل ـ بنفسي هو وأبي وأمي صلى الله عليه وسلم ـ، فلما أجمعوا أمرهم على ذلك آذنه الله بالهجرة،وأنه لا مطمع للبقاء في دار قومه أو في هدايتهم وهم على هذا الوضع .

وقصة تآمرهم على قتله صلى الله عليه وسلم في دار الندوة وحضور إبليس هذا التآمر مشهورة في كتب السيرة وشهرتها تغني عن ذكرها هنا(٣). وقد أشار الله تعالى إليها بقوله: ﴿ وإذ يمكرُ بك الذين كفروا ليُثبتوك أو يقتُلوك أو يُخرجوك ويمكرونَ ويمكرُ الله والله خير الماكرين ﴾[سورة الأنفال:٣٠] .

٤ ـ ولما هاجر صلوات الله وسلامه عليه إلى المدينة لم يقل صبره عما كان عليه حال أمره

---

(١) ذكر ذلك البيهقي في الدلائل ٤١٥/٢ من رواية ابن شهاب .

(٢) والحكمة من طلب النبي صلى الله عليه وسلم الحماية من هؤلاء هي ما ذكرها ابن الجوزي في الوفاء ٢١٦/١ بقوله: "إحداهما: اختبار المبتلى ليسكن قلبه إلى الرضا بالبلاء فيؤدي القلب ما كلف من ذلك . والثانية: بث الشبهة في خلال الحجج ليثاب المجتهد في دفع الشبه" .

(٣) انظر مثلا سيرة ابن هشام ٢٢١/٢ ـ ٢٢٣، ودلائل النبوة للبيهقي ٤٦٥/٢ ـ ٤٧٠، وطبقات ابن سعد ٢٢٧/١ ـ ٢٢٨، وغيرها .

في مكة. فلئن كان في مكة صابرا على المشركين فحسب، فإنه في المدينة قد صبر على منهم أكثر أذية وعددا وطوائف؛ إنهم المنافقون، واليهود، والمشركون، فقد كانت كل واحدة من هذه الطوائف تكيد للنبي صلى الله عليه وسلم ودعوته كيدا وتصطنع له أذية لاتألو جهدا في ذلك، وهو يتلقى ذلك كله بقلب راسخ بالإيمان واثق بنصر الله، وجأش لا يتزعزع من حوادث الأعداء وكيد الألداء .

٥ ـ أما المنافقون فقد كان الصبر عليهم مُرًّا، إذ لا حيلة له صلى الله عليه وسلم معهم غير الصبر؛ لأنهم يزعمون الإسلام، ويظهرون الولاء لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وهم في الحقيقة يبطنون الكفر ويتربصون بالنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين الدوائر، وهم عيون للأعداء الخارجين يتتبعون عورات المسلمين، ويخططون للقضاء عليهم، ولكن ذلك في السر، إذ لا يعلم ذلك أحد إلا الله تعالى ثم رسوله صلى الله عليه وسلم بإعلام الله تعالى له .

ولطالما كان المسلمون يكتشفون رائحة النفاق من أحدهم، فيستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في قتله فيقول عليه الصلاة والسلام: "... لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه"(١) إن ذلك الصبر لا متنفس فيه، وهو أشد ما يكون على المرء، وسأذكر هنا قصة واحدة تبين مدى صبره صلى الله عليه وسلم على أذى المنافقين .

فقد أخرج الإمام البخاري ومسلم من حديث أسامة بن زيد(٢) رضي الله عنه أن

---

(١) كما أخرجه البخاري في تفسير سورة المنافقين ١٩٣/٦، ومسلم في البر والصلة، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما برقم ٢٥٨٤ من حديث جابر رضي الله عنه ..

(٢) مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وابن مولاه، وابن مولاته، وحبه وابن حبه، أمَّره النبي صلى الله عليه وسلم على جيش وجهه إلى الروم، وفي الجيش عمر وغيره من كبار الصحابة رضي الله عنهم، وتوفي النبي صلى الله عليه وسلم بعد خروجه من المدينة، توفي أسامة سنة ٥٤هـ، انظر: طبقات ابن سعد ٦١/١، وتهذيب الأسماء ١١٥/١ .

النبي صلى الله عليه وسلم ركب حمارا عليه إكَاف، تحته قطيفةفدَكِيَّة(١)، وأردف وراءه أسامة وهو يعود سعد بن عبادة(٢) في بني الحارث بن الخزرج ، وذلك قبل وقعة بدر، حتى مر بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين وعبدة الأوثان واليهود، فيهم عبد الله بن أبي، وفي المجلس عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، قال: فلما غشيت المجلس عُجاجة الدَّابة(٣)، خمَّر عبد الله بن أبي أنفه ثم قال: لا تغبِّروا علينا، فسلم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي: أيها المرء - يريد النبي صلى الله عليه وسلم - لا أحسن من هذا، إن كان ما تقول حقا فلا تؤذنا في مجالسنا، وارجع إلى رحلك، فمن جاءك منا فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة: اغشنا في مجالسنا فإنا نحب ذلك، قال: فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى همُّوا أن يتواثبوا، فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يخففهم، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عبادة فقال: "أي سعد، ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب - يريد عبد الله بن أبي - قال كذا كذا، فقال سعد رضي الله عنه: اعف عنه يا رسول الله واصفح، فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك، ولقد اصطلح أهل هذه البُحيرة أن يتوجوه فيعصِّبوه بالعصابة - أي يجعلوه ملكا عليهم - فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاكه شرق بذلك، فذلك فعل به ما رأيت، قال: فعفا عنه النبي صلى الله عليه وسلم"(٤) .

فانظر أي صبر يقدر على مثله أحد بيده القدرة على عقاب مثل هذا القائل غير النبي

---

(١) القطيفة هي كساء له خمل، ونسبتها إلى فدك؛ لأنها تصنع هناك، وهي تبعد عن المدينة مسافة يومين.

(٢) ابن دليم بن حارثة الأنصاري الخزرجي، أحد النقباء وسيد الخزرج، وأحد الأجواد، كان يلقب بـ"الكامل" لأنه كان يكتب ويحسن العوم والرمي، وتوفي بالشام سنة خمس عشرة على خلاف في ذلك، انظر طبقات ابن سعد ١٣/٣، والاصابة ٣٠/٢، وبهامشها الاستيعاب ص ٣٥، وتهذيب الأسماء ٢٦٢/١ .

(٣) هو ما ارتفع من غبار حوافرها .

(٤) أخرجه البخاري في المرضى، باب عيادة المريض راكبا وماشيا وردفا على الحمار ١٥٣/٧، ومسلم في الجهاد، باب في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم، وصبره على أذى المنافقين برقم ١٧٩٨ .

صلى الله عليه وسلم إذ يتجرأ هذا الجلف على الانتقاص من النبي صلى الله عليه وسلم وهو ذو الجناب العظيم، ويصده عن دعوته، وهو المأمور بالبلاغ المبين .

٦ - وأما اليهود فقد كان صبر النبي صلى الله عليه وسلم عليهم شديدا، إذ أنهم أهل خديعة ومكر وحقد دفين، فإنهم لم يكتفوا بكتم صفاته التي يجدونها في التوراة، والتي يعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم، والتي لو بينوها للناس لدخلوا في دين الله أفواجا من أول دعوته صلى الله عليه وسلم؛ لأن الكل كان يسلم لليهود بأنهم أهل كتاب، وأن لهم علما برسل الله، فلو أنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه من بيان صفاته صلى الله عليه وسلم للناس، وأشهروا ذلك في المجتمعات، لما تردد أحد في الاستجابة له صلى الله عليه وسلم .

بيد أنهم غيروا صفاته عليه الصلاة والسلام، وجحدوا نبوته، وأغروا به المشركين وقالوا لهم: "إنكم أهدى سبيلا من محمد وأصحابه" مما كان له أثر عائق في صد الناس عن دين الله تعالى، ومشجع لهم على عداوة المؤمنين، كل ذلك والنبي صلى الله عليه وسلم صابر على معاملتهم وعلى خيانتهم وما يتوقعه من غدرهم .

حتى حكم الله بينه وبينهم وذلك في يوم قريظة حين حكم سعد بن معاذ(١) بحكم الله تعالى بأن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم(٢)، لما نقضوا العهد الذي بينهم وبينه، وظاهروا المشركين يوم الأحزاب على قتاله صلى الله عليه وسلم .

وأجلَى من أجلَى منهم من بني قينقاع وبني قريظة، ثم فتح خيبر فأبقى أهلها إلى حين .

---

(١) ابن النعمان ابن امرىء القيس الأوسي الأنصاري ، سيد الأوس، كان من أعظم الناس بركة في الإسلام، ومن أنفعهم لقومه، شهد بدرا وأحدا والخندق وأصيب فيها بسهم كان سبب وفاته بعد أن حكم في بني قريظة، ومناقبه كثيرة، انظر: طبقات ابن سعد ٣/٤٢٠، وتهذيب الأسماء ١/٢١٤، والإصابة ٢/٣٨، والاستيعاب ٢/٢٧ .

(٢) انظر صحيح البخاري كتاب المغازي، باب مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب، ومخرجه إلى بني قريظة ٥/١٤٣، ومسلم في الجهاد، باب جواز قتل من نقض العهد برقم ١٧٦٩، وما شئت من كتب السير .

٧ ـ وأما صبره عليه الصلاة والسلام على المشركين في العهد المدني فلم يكن كصبره عليهم في العهد المكي، فإن صبره عليهم في هذا العهد كان صبرا في ميادين القتال والمنازلة، صبرا على كلوم الأسنة والرماح والسيوف الذي ينفد معها صبر أولي العزم والقوة .

لكن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينفد صبره، ولم ينثن عزمه، وهو يخوض معركة بعد أخرى، ويجهز جيشا تلو آخر، حتى آتاه الله الفتح المبين والعز والتمكين .

ولقد نال من ذلك أذىً كبيرا، حيث كسرت رباعيته، وشج وجهه الشريف في غزوة أحد وأثخنته الجراحة ـ بنفسي هو وأبي وأمي وما ملكت يداي صلى الله عليه وسلم ـ وهو مع ذلك صابر محتسب، لا يلوي، ولا يولي الأدبار، كما يفعل كبار الأبطال، فلم يزد على أن قال: "اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيه ـ وأشار إلى رباعيته ـ"(١).

أو أن قال: "كيف يفلح قوم شجُّوا نبيهم وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله، فلم يلبث أن أنزل الله عليه: ﴿ ليس لك من الأمْرِ شيءٌ أو يتوبَ عليهم أو يُعذِّبَهم فإنَّهم ظالمون ﴾"(٢)[سورة آل عمران:١٢٨] يعاتبه الله على ذلك ، ومنه تعلم أن صبره عليه الصلاة والسلام كان مراداً لله تعالى لعظم قدره عنده، لأن الامتحان والبلاء على قدر المنزلة كما جاء في الحديث: "أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل"(٣)،

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب ما أصاب النبي صلى الله عليه وسلم من الجراح يوم أحد ١٢٩/٥، ومسلم في الجهاد، باب اشتد غضب الله على من قتله رسول الله صلى الله عيه وسلم برقم ١٧٩٣ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب ليس لك من الأمر شيء ١٢٧/٥، تعليقا، ومسلم مسندا في الجهاد، باب غزوة أحد برقم ١٧٩١ من حديث أنس رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء من رواية مصعب بن سعد عن أبيه برقم ٢٣٩٨، وقال الترمذي: حسن صحيح، والدارمي في الرقاق ٣٢٠/٢، وابن ماجة في الفتن، باب الصبر على البلاء برقم ٤٠٢٣، وقال البوصيري في الزوائد ٣٠٢/٢: إسناده صحيح، ورجاله ثقات، وأخرجه البخاري ترجمة في كتاب الطب ١٤٩/٧، والحاكم في الرقاق ٣٠٧/٤،وصححه، وسكت عنه الذهبي =

وحديث: "إن عظم الجزاء مع عظم البلاء .."(١) .

ولعل هذا هو سر تكرار أوامر الله عز وجل له صلى الله عليه وسلم بلزوم الصبر كما في قوله تعالى: ﴿ فاصبِر كما صبر أولُو العزم من الرُّسل ﴾[سورة الأحقاف:٣٥]، وقوله تعالى: ﴿ واصبر وما صبرُكَ إلا بالله ﴾[سورة النحل:١٢٧]، وقوله سبحانه: ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾[سورة طه:١٣٠]، وقوله عز شأنه: ﴿ فاصبر إنَّ وعد الله حقٌّ ﴾ [سورة الروم:٦٠]، وقوله تقدست أسماؤه: ﴿ واصبر لحكمِ ربِّك فإنَّك بأعيُنِنَا ﴾[سورة الطور:٤٨]، إلى غير ذلك .

وقد لبَّى تكليف ربه بذلك وطبقه أيما تطبيق، كما علمته من خلال هذه المواقف العظيمة المقتطفة من مواقفه الكثيرة في الصبر في كل مجالات الحياة، إذ لم يكن صبره صلى الله عليه وسلم قاصرا على عناء الدعوة والجهاد، بل وعلى لأواء الحياة كذلك .

٨ - صبره صلى الله عليه وسلم على لأواء الحياة وشدتها:

فقد جاء عن أنس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: "لقد أُخفِتُ في الله، وما يخاف أحد، وقد أوذيت في الله، وما يُؤذَى أحد، ولقد أتت عليَّ ثلاثون ما بين يوم وليلة وما لي طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال"(٢) .

ولعل صبره عليه الصلاة والسلام على مقاطعة قريش الاقتصادية له صلى الله عليه

= وأخرج الحاكم أيضا نحوه من حديث فاطمة بنت اليمان في الطب ٤٠٤/٤، وأخرجهما معا البيهقي في شعب الإيمان ١٤٢/٧ - ١٤٣، برقم ٩٧٧٤، ٩٧٧٥، ٩٧٧٦ .

(١) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء من حديث أنس رضي الله عنه برقم ٢٣٩٦، وقال: حسن غريب، وابن ماجه في الفتن، باب الصبر على البلاء برقم ٤٠٣١، والبيهقي في شعب الإيمان ١٤٤/٧ برقم ٩٧٨٢، وحسن إسناده الألباني في الصحيحة برقم ١٤٦ .

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة برقم ٢٤٧٢، وقال: حسن غريب، وفي الشمائل برقم ١٣٧، والإمام أحمد في المسند ٢٨٦/٣، وابن حبان كما في موارد الظمآن برقم ٢٥٢٨، والبغوي في الأنوار برقم ٤٤٤، وقال الألباني في تعليقه على المشكاة برقم ٥٢٥٣: إسناده صحيح .

وسلم، ولبني عمومته بني هاشم والمطلب ثلاث سنين حتى مستهم الشدة، لخير دليل على كمال صبره صلى الله عليه وسلم في ذات الله تعالى، وأنه لا يبالي بالشدائد التي تناله في حياته؛ لأنها من الصبر الذي أكده الله تعالى عليه في خطاباته الكثيرة له صلى الله عليه وسلم .

وسيأتي مزيد إيضاح لبيان صبره في هذا الجانب، في مبحث (زهده عليه الصلاة والسلام) وفي مبحث (دعوته وبلاغه) إن شاء الله تعالى(١) .

---

(١) انظر ص١٠٦٨ من هذا الكتاب .

المَبْحَثُ الثَّالثُ

(خلق التَّواضع)

التواضع في اللغة: يعني التذلل، يقال: تواضع الرجل إذا تذلل وتخاشع، أخذا من وضعه يضعه: إذا حطه؛ لأن المتواضع حط من قدر نفسه ورتبته .

ويقال: وضع الرجل يُوضع ضَِعة: أي صار وضيعا، ووضع منه فلان أي: حط من درجته وقدره(١) .

والفرق بين التواضع والضَّعة: أن التواضع رضا الإنسان بمنزلة دون ما تستحقه منزلته، والضِّعة: وضع الإنسان نفسه بمحل يُزري به(٢) .

ومادة التفاعل تعني تكلف ذلك الفعل وهو هنا يعني تكلف الذل والانكسار لله تعالى وللمؤمنين، إذ لا يسمى تواضعا إلا إذا كان بإظهار الضِّعة عن علو المنصب، وهو في الحقيقة رفيع .

أما من كان وضيعا في الأصل فلا يقال لما يبديه من التذلل:تواضع، لأنه لم يتكلفه بل هو صفته، قال الراغب: "التواضع اشتقاقه من الضعة، وهو رضا الإنسان بمنزلة دون ما يستحقه فضله ومنزلته، وفضيلته لا تكاد تظهر في أفناء الناس(٣) لانحطاط درجتهم، وإنما ذلك يتبين في الملوك وأجلاء الناس وعلمائهم، قال: وهو من باب التفضل لأنه ترك بعض حقه"(٤) .

أما في العرف الشرعي: فهو انكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة للخلق(٥)، أو هو إظهار التنزل من المرتبة لمن يريد تعظيمه(٦) .

---

(١) الصحاح للجوهري ٣/١٣٠٠، والقاموس المحيط بشرحه تاج العروس ٥/٥٤٣ .

(٢) إتحاف السادة المتقين ٨/٣٥٠ .

(٣) هم الذين لا يدرى من أي قبيلة هم .

(٤) الذريعة ص ٢٩٩، وانظر تهذيب الأخلاق للجاحظ ص ٢٥ .

(٥) إتحاف السادة المتقين ٨/٣٥٠ .

(٦) شرح المناوي على شمائل الترمذي ص ١٢٨ .

منزلة خلق التواضع بين الأخلاق :

(والتواضع من أجل أخلاق المؤمنين؛ لأن به يعرف المرء نفسه وحقيقته، فلا يهلك بالأخلاق المنافية له كالكبر والعجب والغرور، وبذلك يسلم إيمانه وإسلامه من آفات مساوىء الأخلاق الكبيرة تلك كما لا يتم التقوى إلا بالتواضع(١)) .

ولذلك عني به القرآن الكريم عناية كبيرة حثا عليه، وتنويها بأهله، وتحذيرا من ضده .

أما الحث عليه والتنويه بأهله فقد كان في آيات كثيرة، ولكن من معنى مادة (وضع) لا من لفظها، إذ لم يرد لفظ التواضع في القرآن الكريم .

الحث عليه في القرآن الكريم :

ومما ورد في الحث عليه قوله تعالى: ﴿ ولا تَمشِ في الأرضِ مَرَحا إنَّك لن تَخرِقَ الأرضَ ولن تبلغَ الجبالَ طولاً ﴾[سورة الإسراء:٣٧]، وقوله تعالى:﴿ ولا تصعِّر خدَّكَ للنَّاس ولا تمشِ في الأرض مَرَحاً إنَّ الله لا يُحبُّ كلَّ مُختالٍفَخُور * واقصِد في مشيِكَ واغضُض مِن صَوتِك إنَّ أنكرَ الأصواتِ لَصوتُ الحمير ﴾[سورة لقمان:١٨،١٩]

فإن هذه الآيات تنهى عن الأخلاق المنافية للتواضع من الكبر والخيلاء، إذ تبين آية الإسراء حقيقة الإنسان من أنه لم يبلغ حدا يدعوه إلى الكبر والتبختر؛ "لأنه إنما يكون بكثرة القوة، وعظم الجثة، وكلاهما مفقود في ابن آدم"(٢) فعليه إذاً أن يتخلى عن هذه الخَلَّة

وفي الآية تهكم شديد، وتقريع بليغ على من يفعل ذلك، وكفى به زاجرا لمن ألقى السمع وهو شهيد، لاسيما أن الله تعالى قد ذيل تلك النواهي بقوله: ﴿ كلُّ ذلك كان سَيِّئُه عند رَبِّك مَكروها ﴾[الإسراء:٣٨] أي مبغَضا لديه، وإذا كره الله تعالى خلقا كره المتخلِّق به لأنه متصف بمساوىء الأخلاق تلك، وقد ورد "إن الله يحب معالي الأمور ويكره

---

(١) انظر الأحياء للغزالي ٢٩٧/٣ .

(٢) روح المعاني ٧٥/١٥/٥ .

ساسفها"(١)، وفي رواية: "معالي الأخلاق"(٢) ، وحيث كان صاحب هذه الأخلاق مكروها عند الله تعالى، فذلك يعني أنه مبغض لديه، ومن كان كذلك فقد خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين .

وفي الآية أيضاً دعوة واضحة إلى التحلي بمكارم الأخلاق من التواضع واللين، ومعرفة قدر النفس، لأن النهي عن الشيء، أمر بضده كما هو معلوم .

وآية سورة لقمان فيها النهي الصريح أيضا عن رُعونات النفس من الكبر والبطر والأشر والاحتقار للناس، والأمر بضده وهو التواضع والقصد في الأمور صراحة بعد أن علم بالمفهوم من النهي السابق، وذيل الله تعالى النهي والأمر بما ذيل به النهي السابق من عدم رضاه وسخطه على المتحلين بتلك الصفات، فقال سبحانه: ﴿ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كلَّ مُختالٍ فَخُور ﴾ وعدم محبته لمن كان ذلك يعني بغضه له، كما دلت عليه الآية السابقة .

وفي هذا من الدلالة على الحث على التواضع ما فيه الكفاية للمؤمن .

التنويه بالمتواضعين :

غير أن القرآن الكريم لم يقتصر على ذلك، بل لقد نوه بالمتواضعين أيما تنويه حيث قال الله جل ذكره: ﴿ وعبادُ الرَّحمن الذين يَمشونَ على الأرضِ هوناً وإذا خاطبَهم الجاهلونَ قالوا سلامًا ... ﴾[سورة الفرقان:٦٣] .

فنعت الله تعالى من اختصه بالعبودية له سبحانه بنعوت كثيرة، استهلَّها بنعت التواضع الذي دل عليه مشيهم في الأرض هونا، أي: بسكينة وتواضع، وتعاملهم مع من يجهل عليهم من بني الإنسان،حيث لا يجهلون عليهم بمثل جهلهم، وإنما يعرضون عن ذلك، ويخاطبونهم بما ينبغي أن يقال: وهو السلام .

---

(١) عزاه الهيثمي في المجمع ١٩١/٨ إلى الطبراني في الكبير من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، قال: ورجاله ثقات .

(٢) عزاه الهيثمي في المجمع إلى الطبراني في الأوسط، من حديث جابر ومن حديث سهل بن سعد، المجمع ١٩١/٨، قال: وفيه من لم أعرفه، ولكنها تفسر الأمور الواردة في الرواية الأولى من أنها الأخلاق .

وهذا تنويه عظيم بالمتواضعين حيث وصفهم الله تعالى بالعبودية له، وذلك أعظم تشريف لهم، لأن العبودية له سبحانه، هي أشرف الأوصاف، ومن أعلى مراتب المحبين، وبذلك يتفاخرون، ولذلك يقول الشاعر المسلم :

ومما زادني شرفا وتيها وكدت بأخمَصِي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيَّرت أحمدَ لي نبيا

ولذلك نسبت العبودية لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أشرف مناسبة له في حياته وأعظمها، وذلك ليلة الإسراء والمعراج حيث نال أعظم التكريم، وغاية التبجيل، إذ أدناه ربُّه من حضرته، وأوحى إليه في ذلك المقام ما أوحى، ومع ذلك وصفه بالعبودية حيث قال: ﴿ سبحانَ الَّذي أسرى بعبدِه ليلاً مِنَ المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى ...﴾ [سورة الإسراء:١]، فكفى المتواضعين شرفا وفخرا أن الله وصفهم بالعبودية له سبحانه.

بيان عِظم منزلة المتواضعين عند الله تعالى :

ومع ذلك فلم يقتصر التنويه بهم والثناء عليهم على ذلك، بل لقد أبان سبحانه وتعالى عن محبته لهم، ومحبتهم له حيث قال: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا من يَرتَدَّ منكم عن دينِه فسوف يأتي الله بقوم يُحِبّهم ويُحِبّونَه أذلةٍ على المؤمنينَ أعزةٍ على الكافرين يُجاهدون في سبيل اللهِ ولا يَخافون لَومةَ لائم ذلك فضلُ الله يُؤتيه من يَشاءُ والله واسع عليم ﴾[سورة المائدة:٥٤] ، وقد وشّح المحبة المتبادلة بذكر الصفات الإيمانية الموجبة لمحبته لهم، وكان من أبرز تلك الصفات اتصافهم بالتواضع المعبر عنه بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ أذلَّةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين ﴾، قال الحافظ ابن كثير: "هذه صفات المؤمنين الكمَّل أن يكون أحدهم متواضعا لأخيه ووليه، متعززا على خصمه وعدوه كما قال تعالى: ﴿ محمَّدٌ رسولُ الله والذين معه أشداءُ على الكُفَّار رحماءُ بينهم ﴾"[سورة الفتح:٢٩](١) .

وقد مضت الإشارة إلى ما تعنيه المحبة الإلهية للعبد من التكريم والإنعام في الدنيا والآخرة(٢) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/٧٠ .

(٢) انظر ص ١٩٠

فاستبان من هذه الآيات المكانة السامية للمتواضعين عند الله، وهي المكانة التي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "... وما تواضع أحد لله إلا رفعه"(١) .

ذم الكبر وأهله :

ولكنها تستبين أكثر عندما يُعلم الخُلق المقابل له وهو الكبر الذي حذر الله تعالى منه أيما تحذير، وأعد لأهله بئس المصير، إذ هو والتواضع على طرفي نقيض، فمن لم يكن متواضعا فهو متكبر، وقد قال الله تعالى: ﴿ إنَّه لا يُحبُّ المستكبرين ﴾[سورة النحل:٢٣]، ومعنى ذلك أنه يبغضهم لا لذواتهم ولكن لأخلاقهم، ولما كانوا منه تعالى على ذلك الحال؛ أعد لهم عذابا أليما في الآخرة كما تحدثت عنه الآيات الكثيرة، منها قوله سبحانه: ﴿ أليسَ في جهنمَ مثوىً للمتكبِّرين ﴾[سورة الزمر:٦٠]، والجواب: بلى، ومنها قوله: ﴿ ادخُلوا أبوابَ جهنَّم خالدين فيها فبِئسَ مثوى المتكبِّرين ﴾[سورة غافر:٧٦]، وإنما كان ذلك جزاؤهم لأنهم نسوا أصل فطرتهم، ونازعوا الله تعالى فيما اختص به نفسه من الكبرياء، إذ هو الكبير المتكبر المتعال وحده لا شريك له، فمن نازعه شيئا من ذلك عذبه، كما جاء في الحديث(٢)، ناهيك عما ينشأ عن الكبر من مفاسد عظيمة تحطم محاسن الأخلاق "إذ لا يقدر المتكبر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، وفيه شيء من العزة ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز، ولا يقدر أن يداوم على الصدق وفيه العز، ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز، ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز، ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز، ولا يسلم من

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع من حديث أبي هريرة رضي الله عنه برقم ٢٥٨٨ .

(٢) الذي أخرجه مسلم في البر والصلة، باب تحريم الكبر برقم ٢٦٦٠ من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "العز إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني شيئا منهما عذبته" وأخرجه أبو داود في اللباس، باب ما جاء في الكبر برقم ٤٠٩٠ .

الإزراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العز، وما من خلق ذميم إلا وصاحب الكبر والعز مضطر إليه ليحفظ به عزه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفا من أن يفوت عزه، فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه حبة من كبر كما جاء في الحديث"(١) .

وذلك لأن الله تعالى قد طبع على قلب المتكبر كما قال جل ذكره: ﴿ كذلك يَطبَعُ اللهُ على كل قلبِ متكبرٍ جبَّار ﴾[سورة غافر:٣٥]، وحيث إنه قد طبع على قلبه فلا يدخله خير أبدا، لأن قلبه لم يعد قابلا للخيرات الإيمانية أو الأخلاقية، لاجرم فقد قال الله تعالى: ﴿ سأصرفُ عن آياتي الَّذين يَتكبَّرونَ في الأرض بغيرِ الحقِّ وإن يَروا كلَّ آيةٍ لا يُؤمنوا بها وإن يَروا سبيلَ الرُّشد لا يَتَّخذوه سبيلا وإن يَروا سبيلَ الغَيِّ يَتَّخذُوه سَبيلا ذلك بأنَّهم كذبوا بآياتِنا وكانوا عنها غَافلين ﴾[سورة الأعراف:١٤٦] .

فلا بدع إذا أن يكون جزاؤهم ما قال الله تعالى عنه: ﴿ فاليومَ تُجزون عذابَ الهُون(٢) بما كنتم تستكبرونَ في الأرضِ بغيرِ الحقِّ وبما كنتم تفسُقون ﴾[سورة الأحقاف:٢٠]، وذلك بخلاف المتواضعين الذين ﴿ يُجزون الغرفةَ بما صبروا ويُلقَّون فيها تحيَّةً وسلاما * خالدين فيها حسُنَت مُستقرًا ومَقاما ﴾[سورة الفرقان:٧٥،٧٦] .

---

(١) الإحياء للغزالي ٢٩٧/٣، والحديث أخرجه مسلم في الإيمان، باب تحريم الكبر برقم ٩١، وأبو داود في الأدب، باب ما جاء في الكبر برقم ٤٠٩١، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في الكبر برقم ١٩٩٩، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، ولفظه: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر" .

(٢) أي: الهوان اهـ، تفسير الجلالين ٢/٢٤٥

(٣) أي: الدرجة العليا في الجنة، المرجع السابق ٨٨/٢ .

تمثل خلق التواضع في النبي صلى الله عليه وسلم

لئن كان التواضع أحد أسس أخلاق المؤمنين، فإنه أيضا تاج أخلاق النبيين لما يعنيه من الانكسار بين يدي رب العالمين، وحسن التعامل مع المؤمنين، ولذلك أثنى الله تعالى به على أنبيائه فقال مثنيا عليهم: ﴿ إنَّهم كانوا يُسارعون في الخيراتِ ويَدعوننَا رغَبًا ورَهَبًا وكانوا لنا خاشِعين ﴾[سورة الأنبياء:٩٠] أي: متواضعين(١)، وهو وصف دائم لهم في العبادة، والسلوك الفردي والاجتماعي كله، ولذلك وصفهم الله تعالى بالعبودية له سبحانه التي تعني كمال التواضع والإخبات له جل شأنه، كما قال سبحانه: ﴿ واذكر عِبادَنا إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ أولي الأيدي والأبصار ﴾[سورة ص:٤٥]، وقال عن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿ إنَّهما من عبادِنا المؤمنين ﴾[سورة الصافات:١٢٢]، وقال عن أيوب عليه السلام: ﴿ نعمَ العبدُ إنَّه أوَّاب ﴾[سورة ص:٤٤]، إلى غير ذلك من الآيات، وقال عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين: ﴿ سبحانَ الذي أسرى بعبدِه ليلاً من المسجدِ الحرام ...﴾ فكلهم متحقق بالعبودية الكاملة لله تعالى التي تعني كمال الخضوع والتواضع لله عز وجل ولعباده المؤمنين .

ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان في ذِروة الذُّرا من هذا الخلق العظيم في كل صوره وأشكاله، ولا غرابة في ذلك فهو الذي أدبه ربه وأحسن تأديبه، وكان مما أدبه الله تعالى في هذا الخلق قوله سبحانه وتعالى: ﴿ لا تَمُدَّنَّ عينيكَ إلى ما مَتَّعنا به أزواجًا منهم ولا تَحزن عليهم واخفِض جناحَك لِلمؤمنين ﴾[سورة الحجر:٨٨]، وقوله تعالى: ﴿ واخفِض جناحك لمن اتَّبعك من المؤمنين ﴾[سورة الشعراء:٢١٥] .

وخفض الجناح كناية عن التواضع لهم، والرفق بهم(٢)، وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بذلك حق القيام حتى شهد الله تعالى له بذلك في غيرما آية كقوله تعالى: ﴿ فبِما رحمةٍ من اللهِ لنتَ لهم ولو كنتَ فظًا غَليظَ القلب لانفضُّوا من حولِك ... ﴾

---

(١) تفسير الجلالين ٤٦/٢ .

(٢) روح المعاني ٨٠/١٤/٥ .

[سورة آل عمران:١٥٩]، وقوله سبحانه: ﴿ لقد جاءَكم رسولٌ من أنفُسِكم عزيزٌ عليه ما عنِتُّم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾[سورة التوبة:١٢٨] .

وقد ظهر أثر هذا التواضع في كل أحواله صلى الله عليه وسلم الذاتية والاجتماعية والأسرية،وفي كل زمان ومكان بحيث لا يخلو حال من أحواله صلى الله عليه وسلم عن التواضع لله تعالى والمؤمنين .

تواضعه صلى الله عليه وسلم في ذاته :

أما تواضعه في ذات نفسه، فيشهد له ما أخرجه البخاري من حديث عمر رضي الله عنه قال وهو على المنبر :

١ - سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تَطرُوني كما أطرت النصارى ابنَ مريم، فإنما أنا عبده فقولوا:عبدُ الله ورسوله"(١) .

٢ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جلس جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل، فقال له جبريل: هذا الملك ما نزل منذ خلق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد، أرسلني إليك ربك: أملِكاً أجعلك أم عبدا رسولا ؟ فقال له جبيريل: تواضع لربك يا محمد، فقال صلى الله عليه وسلم: "بل عبدا رسولا"(٢) .

٣ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خيرٌ من يونس بن متَّى"(٣) .

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب ﴿ واذكر في الكتاب مريم ﴾ ٢٠٤/٤ .

(٢) أخرجه ابن حبان ٩٥/٨ من الإحسان، وأحمد في المسند ٢٣١/٢، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٢/٩ إلى أحمد والبزار قال: ورجالهما رجال الصحيح، وإلى أبي يعلى أيضا .

وله شاهد من حديث عائشة رضي الله عنها، أخرجه أبو الشيخ في الأخلاق ص ٢١٣، وابن سعد في الطبقات ٣٨١/١، والبغوي في الأنوار برقم ٤١٥، وفي شرح السنة برقم ٣٦٨٣، وعزاه الهيثمي إلى أبي يعلي قال: وإسناده حسن، المجمع ٢٢/٩.

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿ وإن يونس لمن المرسلين ﴾ ١٩٣/٤، وأخرجه مسلم في الفضائل، باب في ذكر يونس علسه السلام برقم ٢٣٧٧ .

وهذا من كمال تواضعه صلى الله عليه وسلم، وإلا فإنه أفضل الأنبياء مطلقا كما دلت على ذلك دلائل كثيرة(١)، وهو كقوله صلى الله عليه وسلم :

٤ - "لا تخيّروني على موسى، فإن الناس يَصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله"(٢).

وهذا مع علمه عليه الصلاة والسلام بأنه سيد ولد آدم كما أخبر هو عن نفسه بقوله صلى الله عليه وسلم:

٥ - "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة"(٣) .

٦ - وبقوله: "أنا سيد الناس يوم القيامة"(٤) .

٧ - وفي رواية: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولافخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض"(٥) .

ولكنه نهى عن ذلك هضما لنفسه وتواضعا لربه وإخوانه الأنبياء صلوات الله وسلامه

---

(١) انظر شرح مسلم للنووي ١٣٢/١٥، وفتح الباري ٢٠٦/١٣، وللشيخ عبد الله بن محمد الصديق الغماري عافاه الله تعالى كتاب بعنوان (دلالة القرآن المبين على أن النبي أفضل العالمين)، وحكى في مقدمته الإجماع عى ذلك فانظره، وانظر ص ٨،٩، على الخصوص .

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب وفاة موسى وذِكرُه بعده ١٩٢/٤ من حديث أبي هريرة .

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل، باب تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق برقم ٢٢٧٨ من حديث أبي هريرة، وأبو داود في السنة، باب في التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام برقم ٤٧٦٣، والترمذي في المناقب، باب ما جاء في فضل النبي صلى الله عليه وسلم برقم ٣٦١٥ من حديث أبي سعيد، وفي التفسير برقم ٣١٤٨ .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة الإسراء ١٠٥/٦، ومسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها برقم ١٩٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) هذه إحدى روايات الترمذي للحديث السابق، وقال عنها: حسن صحيح .

عليهم أجمعين(١)، جريا على ما كان متحليا به من التواضع الجمّ وهضم النفس.

وكم له من مشاهد عظيمة تدل على مواقف عملية من لينه وتواضعه صلى الله عليه وسلم غير ما ذكر ومن أجلّ تلك المشاهد :

١ ـ أنه صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة فاتحا منتظرا مظفّرا، دخلها "وهو مطأطىء رأسه، حتى كان يمس قادمة رحله(٢) ، كما جاء في حديث عائشة وأنس رضي الله عنهما(٣)، وهو في هذا اليوم في قِمّة النصر، وأوج العزة، وهذ الحال لا تكاد تتمالك النفس معه من الفخر والخيلاء، لعظم النصر وعزته ونشوته، بل تطيش موازين الأخلاق، وينفلت زمام التّصنُّع عند ملوك الدنيا وأرباب الدول، لكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن من هؤلاء في شيء، لأنه يستشعر دائما أنه عبدالله ورسوله، وأن النصر الذي حققه ليس لنفسه حظ فيه، إنما هو من الله و لله وفي الله، وكان لهذا الشعور والإحساس في قمة الإذعان له سبحانه الذي مكّنه منه، ليزداد به زُلفى لديه، وهذا دليل جلي على ثبات أخلاقه صلى الله عليه وسلم العظيمة في جميع أحواله، وأنها لا تتغير ولا تتبدل تبعا للظروف والأحوال، وأنه في حال العسر واليسر والغنى والفقر والهزيمة والنصر سواء، مثله في ذلك كمثل كلمات الله وسننه التي لا تتبدل ﴿ ولن تجدَ لسُنّة الله تبديلا ﴾[سورة الأحزاب:٦٢] .

---

(١) انظر جامع الأصول لابن الأثير ٥٢٧/٨ .

ومن هذا القبيل قوله صلى الله عليه وسلم: (نحن أحق بالشك من إبراهيم، ولو لبثت ما لبث يوسف لأجبت الداعي) الذي أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وقوله صلى الله عليه وسلم للذي قال له: يا خير البرية، فقال: ذاك إبراهيم . أخرجه مسلم من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) هي الخشبة التي في مقدمة كور البعير. النهاية ٢٧/٤ .

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل ٦٨/٥ ـ ٦٩ ، والحاكم في المستدرك ٤٧/٣، وأبو يعلى في مسنده ١٢٠/٦، وصححه الحاكم على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي، وذكره ابن إسحاق في سيرته كما في سيرة ابن هشام ٩١/٤، وعنه ابن كثير في البداية والنهاية ٢٩٣/٤ .

قال الحافظ ابن كثير: "وهذا التواضع في هذا الموطن عند دخوله صلى الله عليه وسلم مكة في مثل هذا الجيش الكثيف العرمرم، بخلاف ما اعتمده سفهاء بني إسرائيل حين أُمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس وهم سجود(١) يقولون: حِطَّة(٢)، فدخلوا يزحفون على أستاههم(٣) وهو يقولون: حنطة في شعره(٤)".

وقال بعضهم:(٥)«إنه لمن الميسور أن يظهر الإنسان بمحاسن الأخلاق وهو في ضيق من العيش، ومن السهل أن يظهر الحلم والتواضع في حالتي الفقر والشدة.. ولكن إذا رأينا رجلا ذا منصب رفيع يظهر التواضع في وقت يستطيع أن يكون متكبرا حق لنا أن نقول: إنه على خلق عظيم"(٦) .

وما أجمل هاتين الكلمتين الدالتين على الفارق العظيم بين الحالين، وتدرك من خلالهما عظمة أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا ريب ولا امتراء .

ولقد كلمه رجل في هذا اليوم فأخذته الرعدة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "هوِّن عليك فلست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القَديد"(٧) .

فما أعظم هذا التواضع الذي يتحلَّى به النبي صلى الله عليه وسلم، فقد جعله يعود

---

(١) يعني ركعا .

(٢) أي: حط عنا خطايانا .

(٣) أي: على أعجازهم .

(٤) البداية والنهاية ٢٩٣/٤ .

(٥) هو الأستاذ خوجه كمال الدين .

(٦) المثل الأعلى في الأنبياء ص ١٣٦ .

(٧) أخرجه ابن ماجه في الأطعمة، باب القديد برقم ٣٣١٢، وابن سعد في الطبقات ٢٣/١، والخطيب البغدادي في التاريخ ٢٧٧/٦، ٢٧٨، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال البوصيري في مصباح الزجاجة رقم ١١٤١: إسناده صحيح ورجاله ثقات، والقديد: هو اللحم المملوح المجفف في الشمس. النهاية ٢٢/٤ .

بذاكرته إلى حاله الأول من البساطة وقلة ذات اليد، ويذكر نفسه بماضيه العريق بالبساطة، وذلك ليؤنس الرجل المرهوب .

٢ - ولما حج حجته المشهورة - حجة الوداع - ومعه من المسلمين نحو مائة ألف، وهو صلى الله عليه وسلم إمامهم يصدرون عن أمره ونهيه، ويترقبون حركاته وسكناته ليقتدوا به في أداء المناسك، ومع ذلك فقد كان في غاية التواضع لله تعالى وللمؤمنين إذ (حج على رحل رث، وعليه قطيفة لا تساوي أربعة دراهم، وقال: "اللهم اجعله حجا لا رياء فيه ولا سمعة"(١) ، (وكانت راحلته زاملته(٢))، مع كثرة ما ساق من الهدي في حجته هذه، ولا مانع من أن يجعل إحدى تلك الهدايا زاملة له، فقد كان يأمر أصحابه بذلك(٣)، ولكنه ترك ذلك تواضعا لله تعالى .

---

(١) أخرجه الترمذي في الشمائل برقم ٣٢٣، وابن ماجه في المناسك، باب الحج على الرحل برقم ٢٨٩٠، والبغوي في الأنوار برقم ٤٠٢ من حديث أنس رضي الله عنه، وضعف إسناده البوصيري في المصباح ١٢٧/٢، لكن للحديث متابع عند البخاري وهو الحديث التالي لهذا الحديث، وقال الألباني في مختصر الشمائل ص ١٧٧ برقم ٢٨٨: "رواه الضياء - المقدسي - في المختارة من طريق أخرى عن أنس، وله شاهد عن ابن عباس، قال: وكل ذلك مخرج في الصحيحة برقم ٢٦١٧، وانظر شمائل الترمذي بتحقيق سيد بن عباس الجليمي ص ٢٧٤ - ٢٧٦ لتقف على طرقه وشواهده .

(٢) كما جاء في البخاري تعليقا بصيغة الجزم من حديث أنس في المناسك، باب الحج على الرحل ١٦٤/٢ . والزاملة: هي البعير الذي يحمل عليه المسافر متاعه، إضافة إلى راحلته التي يركبها، والمعنى: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له بعير واحد يركبه ويحمل عليه متاعه، وهذا دليل على كمال تواضعه .

(٣) كما أخرج البخاري في الأدب، باب ما جاء في قول: ويلك ٤٦/٨ من حديث أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بدنة فقال: اركبها، قال: إنها بدنة، قال: اركبها، قال: إنها بدنة، قال: اركبها ويلك" وعن أبي هريرة رضي الله عنه نحو ذلك، وفي المسند ١٢١/١ عن علي رضي الله عنه نحوه .

تواضعه لله تعالى :

وكما كان صلى الله عليه وسلم متواضعا في ذات نفسه، فقد كان من أجل مظاهر تواضعه في نفسه أن يظهر هذا التواضع لخالقه جل وعلا، الذي هو أحق بأن يتواضع له تواضعا بليغا؛ لأنه هو صاحب الكبرياء والعظمة والإنعامات العظيمة المتتالية، فهو أجدر بأن تخضع الأنوف لجبروته وكبريائه، وتخضع الرقاب لعزته، وأن يظهر التمسكن بين يديه، والذل والافتقار إليه، وقد كان عليه الصلاة والسلام من التواضع لله جل وعلا على حال لم يكن عليه حال أحد قط كما علمت من حاله عند دخوله مكة فاتحا منتصرا .

ومن تواضعه صلى الله عليه وسلم لله جل وعلا أنه كان يسجد له سبحانه في الماء والطين، كما قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال:«حتى رأيت الطين أثر في جبهته"(١) .

وكم هناك من صور تدل على كمال تواضعه صلى الله عليه وسلم لربه جل وعلا، نكتفي منها بما ذكر .

تواضعه مع أصحابه :

أما تواضعه صلى الله عليه وسلم مع أصحابه، فإن الأخبار في ذلك تفيد أنه كان على حالة بحيث لم تعرف الإنسانية تواضعا مثله لأحد من البشر مع أصحابه ومجتمعه وأمته،

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة، باب من لم يمسح جبهته وأنفه حين يصلي ٢٠١/١، ومسلم في الصيام، باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها وبيان محلها وأرجى أوقاتها برقم ١١٦٧ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

وانظر بالإضافة إلى الأدلة المسوقة هنا:شهادات المستشرقين على ذلك في الباب السادس في الأرقام التالية:١٤٥٥، ١٤٥٧-١٤٥٨

فقد كان عليه الصلاة والسلام على عظمته عند الله تعالى وعند الناس لم يكن إلا كأحدهم في كل أحواله صلى الله عليه وسلم الاجتماعية كما تدل على ذلك الدلائل الآتية:

١ - فقد كان يأتي الرجل الغريب وهو صلى الله عليه وسلم بين ظهراني أصحابه فلا يدرى أيهم هو حتى يسأل، كما جاء في حديث أبي هريرة وأبي ذر رضي الله عنهما قالا: "فطلبنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن نجعل له مجلسا يعرفه الغريب إذا أتاه، قال: فبنينا له دُكَّانا(١) من طين، فكان يجلس عليه ونجلس بجانبه(٢)" .

فلم يكن يتميز عليهم بمجلس ولا هيئة، كما هو شأن أهل الدنيا، بل كان كأحدهم بحيث لا يفطن له، فلما دعت الحاجة إلى أن يجعل له علامة تميزه، لم يشأ أن تكون أُبَّهة عظيمة، ولا شارة جسيمة، وإنما اكتفى بدكَّة ترفعه قليلا، ومع ذلك فلم ينفرد بها، بل كان أصحابه يجلسون إلى جنبه، فأي ميزة امتاز بها صلى الله عليه وسلم عن أصحابه بعدئذ ؟ فصلى الله وسلم على سيد المتواضعين .

٢ - وعن أنس رضي الله عنه قال: "لم يكن شخص أحبَّ إليهم رؤية من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا، لما يعلمون من كراهيته لذلك(٣)".

وهذا يدل بوضوح على كمال رغبته صلى الله عليه وسلم في التواضع مع أصحابه حيث لم يكن يقرهم على القيام له مع كمال رغبتهم في ذلك؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يرى لنفسه تميزا عليهم إلا بالرسالة والنبوة، وما زاده هذا الشرف إلا تواضعا لكرم أصله وطيب أرومته .

---

(١) الدكان: هي الدكة المبنية للجلوس عليها. النهاية ١٢٨/٢ .

(٢) أخرجه أبو داود في السنة، باب في القدر برقم ٤٦٩٨، والسمعاني في أدب الإملاء والاستملاء ص ٥٠، وأبو الشيخ في الأخلاق ص ٦٦ برقم ١٤٠، وإسناد أبي داود صحيح، وقال المنذري في المختصر ٦٨/٧: وأخرجه مسلم والنسائي وابن ماجه بتمامه من حديث أبي هريرة وحده .

(٣) أخرجه الترمذي في الأدب، باب ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل برقم ٢٧٥٤، وفي الشمائل برقم ٣١٨، وأبو الشيخ في الأخلاق ص ٦٣ برقم ١٢٧، والبخاري في الأدب المفرد برقم ٩٤٦، والبغوي في الأنوار برقم ٣٩٢، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح غريب، قال الألباني في مختصره للشمائل ص ١٧٨: وهو على شرط مسلم .

وكان هينا لينا حتى مع أصغر أصحابه وأقلهم شأنا، يجيب دعوتهم، ويلبي رغباتهم على أي حال كان :

٣ ـ فعن أنس رضي الله عنه قال: إن امرأة عرضت لرسول الله صلى الله عليه وسلم في طريق من طرق المدينة فقالت: يا رسول الله إن لي إليك حاجة فقال: "يا أم فلان اجلسي في أيِّ سكك المدينة شئتِ أجلسْ إليك" قال: ففعلت، فقعد إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قضت حاجتها"(١) .

٤ ـ وعنه رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء، فما يؤتى بإناء إلا غمس يده فيه، فربما جاؤوه في الغداة الباردة فيغمس يده فيها"(٢) .

٥ ـ وكان صلى الله عليه وسلم يقول: "لو دُعيت إلى كُراع لأجبت، ولو أُهدي إلي ذِراع لقبلت"(٣) .

٦ ـ وعن أنس رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُدعى إلى خُبز الشعير والإهالة السَّنخة ـ أي المتغيِّرة الريح ـ ولقد كان له دِرع عند يهوديٍّ فما وجد ما يفكها حتى مات"(٤) .

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل، باب قرب النبي صلى الله عليه وسلم من الناس، وتبركهم به برقم ٢٣٢٦، وأبو داود في الأدب، باب الجلوس في الطرقات ٤٨١٨، والترمذي في الشمائل برقم ٣١٤، والإمام أحمد في المسند ٣٠/١١٩ ٢١٤، والبغوي في الأنوار برقم ٣٧٤، وفي شرح السنة برقم ٣٦٧٢ .

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل، باب قرب النبي صلى الله عليه وسلم من الناس، وتبركهم به برقم ٢٣٢٤، والإمام أحمد في المسند ٣/١٣٧، والبغوي في الأنوار برقم ٣٧٥، وفي شرح السنة برقم ٣٦٧٨ .

(٣) أخرجه البخاري في الهبة، باب القليل من الهبة ٣/٢٠١، والإمام أحمد في المسند ٢/٤٢٤، ٤٧٩، ٤٨١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . والكراع ما دون الركبة من الساق اهـ النهاية ٤/١٦٥

(٤) أخرجه البخاري في الرهن ٣/١٨٦، والترمذي في البيوع، باب ما جاء في الرخصة في الشراء إلى أجل برقم ١٢١٥، وفي الشمائل برقم ٣١٦، والنسائي في البيوع، باب الرهن في الحضر ٧/٢٨٨، والإمام =

وقد كان من تواضعه عليه الصلاة والسلام أنه لم يكن ينشغل عن أصحابه، أو ينسى من يغيب عنه منهم ، بل كان يسأل عنهم، ويعود مريضهم ويتفقد غائبهم :

٧ ـ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود المريض، ويشهد الجنائز، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد، قال: وكان يوم بني قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف، وعليه إكاف من ليف"(١) .

٨ ـ وعن جابر رضي الله عنه قال: "جاءني رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس براكبِ بغلٍ ولا بِرْذَونٍ"(٢) .

وكان من تواضعه صلى الله عليه وسلم أنه إذا ركب دابته لا يأنف من أن يردف أحدا معه عليها إن أمكن، وإلا تناوب معهم في الركوب عليها :

٩ ـ فقد تقدم معنا من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم ركب حمارا عليه إكاف تحته قطيفة فدَكيَّة، وأردف وراءه أسامة بن زيد، وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج"(٣) .

١٠ ـ وعن أنس رضي الله عنه أنه أقبل هو وأبو طلحة مع النبي صلى الله عليه وسلم،

= أحمد في المسند ١٣٣/٣، ١٨٠، ٢٠٨، ٢٣٨، والبغوي في الأنوار برقم ٣٨٦، واللفظ له وللترمذي في الشمائل .

(١) أخرجه الترمذي في الجنائز برقم ١٠١٧، وفي الشمائل برقم ٣١٥، وأبو الشيخ في الأخلاق ص ٦٢ برقم ١٢٢، وابن ماجه في الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع برقم ٤١٧٨، والبغوي في شرح السنة برقم ٣٦٧٣، وأبو داود الطيالسي برقم ٢٤٢٥، والبيهقي في الدلائل ٣٣٠/١، كلهم من طريق مسلم الأعور وهو ضعيف كما في التقريب برقم ٦٦٤١، وبه أعله الترمذي، لكن للحديث متابعات عند أبي الشيخ في الأخلاق برقم ١٢٨، ١٢٩ يتقوى بها إن شاء الله تعالى .

(٢) أخرجه البخاري في المرضى، باب عيادة المريض راكبا وماشيا ورادفا على حمار ١٥٤/٧ .
والبرذون: هو ما ليس عربيا من الخيل ا.هـ، تفسير غريب الحديث للحافظ ابن حجر ص ٣٢ .

(٣) متفق عليه وتقدم في الصبر ص ٤٣٣.

ومع النبي صلى الله عليه وسلم صفية(١) يردفها على راحلته(٢) ...» .

١١ - وعن عبد الله بن جعفر(٣) رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا جاء من سفر تُلقِّي بصبيان أهل بيته، وأنه جاء من سفر، فسُبق بي إليه، قال: فحملني بين يديه، ثم جيء بأحد ابني فاطمة فأردفه خلفه، إما حسن وإما حسين، قال: فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة"(٤) .

١٢ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا يوم بدر كلُّ ثلاثةٍ على بعير، قال: وكان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما زميلي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: وكانت إذا جاءت عُقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالا: نحن نمشي عنك، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: "ما أنتما بأقوى مني، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما"(٥) .

---

(١) بنت حيي بن أخطب أم المؤمنين رضي الله عنها، من ولد هارون بن عمران أخي موسى بن عمران صلى الله عليهما وسلم، سباها رسول الله صلى الله عليه وسلم عام خيبر سنة سبع من الهجرة، واعتقها وتزوجها، وجعل عتقها صداقها، وتوفيت سنة ٣٦ هـ، ودفنت بالبقيع، انظر: طبقات ابن سعد ١٢٠/٨، وتهذيب الأسماء ٣٤٨/٢، والإصابة ٣٤٦/٤، وسيأتي ذكرها في الباب الخامس .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب قول الرجل: جعلني الله فداك ٥٢/٨ .

(٣) ابن أبي طالب رضي الله عنهما، ولد عبد الله في أرض الحبشة حيث كان أبواه مهاجرين، كان يلقب بـ"بحر الجود" لسعة كرمه، حتى قال الحافظ عبد الغني: لم يكن في الإسلام أسخى منه، يعني بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتوفي بالمدينة سنة ٨٠ هـ، وهو ابن ثمانين سنة، انظر: تهذيب الأسماء ٢٦٣/١، والإصابة ٢٨٩/٢، والاستيعاب بهامشها ٢٧٥/٢ .

(٤) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما برقم ٢٤٢٨، وأبو داود في الجهاد، باب في ركوب ثلاثة على دابة برقم ٢٥٦٦، وابن ماجة في الأدب، باب ركوب ثلاثة على دابة برقم ٣٧٧٣، وأحمد في المسند ٢٠٣/١ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد ٤١١/١، ٤١٨، ٤٢٢، ٤٢٤، وأبو داو الطيالسي في مسنده برقم ٢٤٢٧، وأبو نعيم =

إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على تواضعه صلى الله عليه وسلم في مركوبه لله عز وجل وللمؤمنين بحيث كان لا يكاد يخلو من شريك له في دابته، يتعاقب معه، أو يردفه عليها (١) .

وهذا من كمال تواضعه صلى الله عليه وسلم، وهو عظيم الجناب، وأي عظيم في الدنيا يقبل أن يزاحمه أحد في راحلته،أيا كانت قرابته أو محبته غيره صلى الله عليه وسلم..!!

١٣ - وقد كان من تواضعه صلى الله عليه وسلم ما أخبر عنه أنس بن مالك رضي الله عنه بقوله: "إن كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت من المدينة في حاجتها"(٢) .

١٤ - وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الذكر، ويقلُّ اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصِر الخُطبة، وكان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له حاجته»(٣) .

= في الحلية ٢٥٤/٦، والبغوي في الأنوار برقم ٤٠٠، وعزاه الهيثمي في المجمع ٧١/٦، إلى البزار قال: ورجال أحمد رجال الصحيح، إلا أن فيه عاصم بن بهدلة، وحديثه حسن، وفي التقريب برقم ٣٠٥٤: صدوق له أوهام، حجة في القراءة، قال: وحديثه في الصحيحين مقرون .

(١) أخرج أبو الشيخ في الأخلاق ص ٢٦٦، والبغوي في الأنوار برقم ٤٠١ من حديث أنس رضي الله عنه ، قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا أو سافر أردف كل يوم رجلا من أصحابه) وفي الحديث مقال .

(٢) أخرجه ابن ماجة في الزهد، باب البراءة من الكبر برقم ٤١٧٧، والإمام أحمد في المسند ١٧٤/٣ ٢١٥، والبغوي في الأنوار برقم ٣٧٦، وفيه علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف كما في التقريب برقم ٤٧٣٤، وقال البوصيري: إسناده ضعيف لضعف علي بن زيد، ا.هـ، المصباح ٣٣٤/٢ برقم ١٤٨٢، ولكن يشهد له الحديث الذي قبله، وشواهده، وهذا المعنى متواتر عنه صلى الله عليه وسلم .

(٣) حديث صحيح، وتقدم في الذكر ٣٦٤.

فهكذا كان تواضعه عليه الصلاة والسلام مع أصحابه الذين يؤمهم ويهديهم إلى الصراط المستقيم ، فهل رأت عيناك أو سمعت أذناك بتواضع عظيم من العظماء كتواضعه عليه الصلاة والسلام مع أصحابه ؟! لا جرم: لا .

تواضعه في بيته :

وأما تواضعه صلى الله عليه وسلم مع أسرته وأهل بيته، فإن المرء ليعجب من عظمته مع جنابه العظيم، فقد سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عمَّا كان يعمل النبي صلى الله صلى الله عليه وسلم في بيته فقالت:

١ - "يكون في مِهنة أهله - يعني: في خدمتهم - فإذا حضرت الصلاة، خرج إلى الصلاة"(١) .

٢ - وفي رواية قيل لها: هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل في بيته ؟ فقالت: "نعم، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصِف نعله ويُخيط ثوبه ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته"(٢) .

٣ - وفي رواية أخرى قالت: "كان بشرا من البشر؛ يُفلِي ثوبه، ويحلُب شاته، ويخدم نفسه"(٣) .

فهذا نبي الله صلى الله عليه وسلم يقوم بمثل هذه الأعمال، ولا حاجة له في أن يقوم

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج ١٦٣/١، وفي النفقات، باب خدمة الرجل في أهله ٨٥/٧، وفي غيرهما .

(٢) أخرجها الإمام أحمد في المسند ١٢١/٦، ١٦٧، ٢٦٠، وابن حبان في صحيحه ١١٩/٨ الإحسان، والبغوي في الأنوار برقم ٣٨٨، وفي شرح السنة ٣٦٧٥، وأبو الشيخ في الأخلاق برقم ١١، ١٢، ١٣، ومعنى يخصف نعله: أي يصلحها بخيط ونحوها وهو الضم والجمع .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢٥٦/٦، وابن حبان ٢١٣٦ كما في الموارد، والترمذي في الشمائل ٣٢٥، والبيهقي في الدلائل ٣٢٨/١، والبغوي في الأنوار برقم ٣٩٠، وهذا الحديث روي من غير وجه، وهو يشهد لبعضه بعضا، وأصله في البخاري كما علمت .

بها إلا لكمال تواضعه؛ لأن العمل هذا كان يمكن أن يقوم به أمهات المؤمنين، أو أحد خدام رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو مواليه بكل رغبة، ولكنه صلى الله عليه وسلم يأبى إلا أن يقوم به بنفسه؛ لكمال تواضعه، فهل بعد هذا من تواضع ؟! .

تواضعه في لباسه :

ومن تواضعه صلى الله عليه وسلم تواضعه في لباسه؛ لأن التواضع في اللباس هو من مظاهر التواضع الكامن في القلب، وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:

"من ترك اللباس(١) تواضعا لله وهو يقدر عليه، دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيِّره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها"(٢) .

وجاء عنه أنه قال: "البَذاذة من الإيمان"(٣)، والبذاذة: هي التواضع في اللباس، والرضا بالدون من الثياب(٤) .

فلذلك كان صلى الله عليه وسلم يرضى بالأقل من الثياب، كما قال القاضي عياض(٥) رحمه الله تعالى: "كان يلبس ما وجده فيلبس في الغالب؛ الشملة(٦)، والكساء

---

(١) أي: لبس الثياب الحسنة الفاخرة المرتفعة القيمة، تحفة الأحوذي ١٨٣/٧ .

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة، باب رقم ٣٩، برقم ٢٤٨١ من حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه، وحسنه .

(٣) أخرجه أبو داود في الترجل، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه برقم ٤١٦١، وابن ماجه في الزهد برقم ٤١١٨، والحاكم في المستدرك ٩/١، والطبراني في الكبير ٢٣١/١، والأصبهاني في الترغيب والترهيب برقم ١٣، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٣٤١ مصححا له .

(٤) قاله الأصبهاني في الترغيب ٣٦/١، والذهبي في تلخيص المستدرك ٢٩/١، وفي النهاية لابن الأثير ١١٠/١ نحوه .

(٥) هو أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي المالكي، إمام بارع متفنن، متمكن في علم الحديث والأصولين والفقه والعربية، له مصنفات في كل نوع من العلوم المهمة، من أجلها: الشفاء في حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم، توفي سنة ٥٤٤ هـ، بمراكش، انظر: تهذيب الأسماء ٤٣/٢، والبداية والنهاية لابن كثير ٢٢٥/١٢، وتذكرة الحفاظ ١٣٠٤/٤ وغيرها .

(٦) هو كساء يتغطى به، ويتلفف فيه، وهي شبه العباءة، وكل كساء خشن فهو شملة، النهاية ٥٠١/٢، وشرح الشفاء للقاري ٤٧٥/١ .

الخشن(١)، والبرد الغليظ(٢)، ويقسم على من حضره؛ أَقبية(٣) الديباج المخوَّصة بالذهب(٤)، ويرفع لمن لم يحضر(٥)" ثم قال: "إذ المباهاة في الملابس، والتزين بها ليست من خصال الشرف، وهي من سمات النساء، والمحمود منها نقاوة الثوب، والتوسط في جنسه"(٦) .

---

(١) كما دل على ذلك حديث الشيخين؛ البخاري في الخمس، باب ما ذكر من درع النبي صلى الله عليه وسلم وعصاه وسيفه ... ١٠١/٤، ومسلم في اللباس، باب التواضع في اللباس برقم ٢٠٨٠، عن أبي بردة قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها، فأخرجت إلينا إزارا غليظا مما يصنع باليمن ، وكساء من التي يسمونها الملبدة، فأقسمت بالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض في هذين الثوبين)، وحديثها أيضا الذي ستأتي الإشارة إليه في مبحث الأمانة ص ٥٢٥ رقم (٢) ، الذي جاء فيه: كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبان خشنان غليظان، فقلت: يا رسول الله، إن ثوبيك هذين خشنان غليظان ترشح فيهما فيثقلان عليك ...

(٢) كما دل على ذلك حديث أنس في قصة جذب الأعرابي له صلى الله عليه وسلم، وسيأتي في مبحث حلمه صلى الله عليه وسلم .

(٣) جمع قباء بالمد، وهو المخيط من اللباس، والديباج: نوع من أقبية الحرير .

(٤) أي: المنسوجة بأعلام من ذهب كالخوص .

(٥) ثبت ذلك في صحيح البخاري كتاب اللباس ١٨٦/٧، ٢٠٠، وصحيح مسلم في الزكاة برقم ١٠٥٨، وأصحاب السنن؛ أبو داود في اللباس برقم ٤٠٢٨، والترمذي في الأدب برقم ٢٨١٨، والنسائي في الزينة ٢٠٥/٨، من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال: قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبية فلم يعط مخرمة منها شيئا، فقال مخرمة: يا بني انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فانطلقت معه فقال: ادخل فادعه لي، قال مخرمة: فدعوته له، فخرج وعليه قباء منها فقال: (خبأت هذا لك) قال: فنظر إليه، فقال: رضي مخرمة .

وفي رواية قال: يا بني ادع لي النبي صلى الله عليه وسلم قال: فأعظمت ذلك، وقلت: أدعو لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال: يا بني ليس بجبار، قال: فدعوته، فخرج وعليه قباء من ديباج مزرور بالذهب، فقال: "يا مخرمة هذا خبأناه لك" .

(٦) الشفاء في حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم ٩٥/١ .

قلت: وهذا هو الحال الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم كما تدل عليه الأدلة الآتية :

١ ـ فقد "كان أحب الثياب إليه القميص"(١)، كما جاء عن أم سلمة رضي الله عنها(٢) .

والقميص اسم لما يلبس من المخيط، الذي له كمان وجيب، يلبس تحت الثياب، ولا يكون من صوف(٣)، "وإنما أحبه لما فيه من مزيد الستر لإحاطته بالبدن بالخياطة، بخلاف الرداء والإزار والشَّملة ونحوها مما يشتمل به، مما يحتاج إلى ربط أو إمساك أو لف أو عقد، إذ ربما غفل عنه لابسه بخلاف القميص"(٤) .

٢ ـ وسئل أنس رضي الله عنه عن أحب الثياب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: الحِبَرة(٥) .

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس، باب ما جاء في القميص برقم ٤٠٢٥، والترمذي فيه أيضا، باب ما جاء في القميص برقم ١٧٦٢، ١٧٦٣، ١٧٦٤، وفي الشمائل برقم ٥٣، ٥٤، ٥٥، وأحمد في المسند ٣١٧/٦، وأبو الشيخ في الأخلاق برقم ٢٤١، والبغوي في الأنوار برقم ٧٤١، وابن ماجه في اللباس، باب ما جاء في القميص برقم ٣٥٧٥، والحاكم في المستدرك ١٦٢/٤، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في مختصر الشمائل برقم ٤٦ .

(٢) هي أم المؤمنين هند بنت أبي أمية، كنيت بـ "أم سلمة" بابنها سلمة بن أبي سلمة رضي الله عنها وعنه، أسلمت قديما، وهاجرت الهجرتين إلى الحبشة، والثالثة إلى المدينة، ولها قصة مثيرة الحزن في هجرتها إلى المدينة، وكانت أم سلمة من أجمل النساء وأعقلهن، وتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاة زوجها من جرح أصابه في إحدى السرايا، وذلك سنة أربع من الهجرة، وتوفيت سنة ٦٢ هـ، انظر: طبقات ابن سعد ٨٦/٨، وتهذيب الأسماء ٣٦١/٢، والإصابة ٤٥٨/٤، والاستيعاب ٤٥٤/٤ .

(٣) كما في القاموس المحيط ٣١٥/٢ .

(٤) أفاده المناوي في شرحه على شمائل الترمذي بهامش جمع الوسائل شرح الشمائل لملا علي قاري ١٠٨/١ .

(٥) أخرجه البخاري في اللباس، باب البرد والحبر والشملة ١٩٨/٧، ومسلم في اللباس والزينة، باب فضل لباس الثياب برقم ٢٠٧٩ .

والحِبَرة: بوزن عِنَبة، برد يمان من قطن، أو كتان مخطط(١) .

فهذان النوعان من الثياب كانا أحبَّ الثياب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،

٣ ـ فكان له قميص قطني قصير الطُّول، قصير الكمين(٢) .

٤ ـ وكان إذا لبس القميص أطلق أزراره(٣) .

وهذا يدل على تواضعه وعدم تأنقه في ملبسه وإصلاحه على جسده طالما وقد وارى ما يحتاج إلى مواراته من جسده .

وقد كان يلبس غير هذين النوعين من اللباس مما هو على مثل هذه الشاكلة من التواضع .

٥ ـ فقد خرج ذات يوم إلى المسجد وعليه مُرط مرحَّل(٤) من شعر أسود، كما روت عائشة رضي الله عنها(٥) .

---

(١) النهاية لابن الأثير ٣٢٨/١، والمصباح المنير ١٢٨/١ .

(٢) كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه عند أبي الشيخ في الأخلاق ص ١٠٥ برقم ٢٤٥، والبغوي في الأنوار برقم ٧٤٥، وشرح السنة ٢٢/١٢، وفي إسناده مسلم الأعور، وهو ضعيف كما في التقريب برقم ٦٦٤١، لكن لحديثه شاهد يجبره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند أبي الشيخ برقم ٢٥١، والبغوي في الأنوار برقم ٧٤٨ .

(٣) كما جاء في حديث معاوية بن قُرة عن أبيه رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله عليه وسلم في رهط من مزينة، فأدخلت يدي في جيب قميصه فمسست الخاتم، قال الراوي: فما رأيت معاية قط في شتاء ولا حر إلا مطلق أزرارهما .

أخرجه أبوداود في اللباس، باب حل الإزار برقم ٤٠٨٢، وأحمد في المسند ٤٣٤/٣، ١٩/٤، ٣٥/٥، وأبوالشيخ في الأخلاق ص ١٠٧، برقم ٢٥٤، والبغوي في الأنوار برقم ٧٤٣، وفي شرح السنة برقم ٣٠٨٤ والترمذي في الشمائل برقم ٥٧ ص ٧١، وعزا الألباني تصحيحه إلى ابن حبان يعني في صحيحه ٤٠١/٧ من الإحسان، وصححه هو في مختصر الشمائل ص ٤٦ برقم ٤٨ .

(٤) المرط: كساء من صوف أو خز يؤتزر به، وتتلفع به المرأة، والمرحل: الذي نقش فيه تصاوير الرحال، المصباح المنير ٢٣٤/٢، والنهاية ٢١٠/٢ .

(٥) أخرجه مسلم في اللباس، باب التواضع في اللباس والاقتصار على الغليظ منه واليسير برقم ٢٠٨١ .

٦ - وعنها رضي الله عنها أنها أخرجت ذات يوم كساء ملبَّداً(١)، وإزارا غليظا، فقالت: قبض رسول صلى الله عليه وسلم في هذين"(٢) .

فهكذا كان تواضع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثيابه مع قدرته على أن يلبس أفخر الثياب وأحسنها كما علمت قبل، ولكنه مع ذلك كان يلبس ثيابا حسنة للجمعة والعيدين وتلقّي الوفود(٣) ، لأن ذلك هو اللائق في هذه المقامات .

ومع ما كان يلبس من الثياب المتواضعة، إلا أنه كان أحرص الناس على نقائها ونظافتها:

١ - فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "جعلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم بردة سوداء من صوف فلبسها، فلما عرق وجد ريح الصوف قذفها، قالت: وكان يحب الريح

---

(١) أي: مرقعا .

(٢) أخرجه البخاري في اللباس، باب الأكسية والخمائص ١٩٠/٧، ومسلم فيه، باب التواضع في اللباس برقم ٢٠٨٠ .

(٣) فقد أخرج مسلم في صحيحه في اللباس برقم ٢٠٦٩: أن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها أخرجت جبة طيالسة كسروانية - نسبة إلى كسرى ملك الفرس - لها لِبنة ديباج - أي رقعة في جيب القميص - وفرجيها مكفُوفين بالديباج، فقالت: هذه كانت عند عائشة رضي الله عنها، حتى قبضت، فلما قبضت قبضتُها وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلبسها، فنحن نغسلها للمرضى يُستشفى بها .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: كان للنبي صلى الله عليه وسلم برد أحمر يلبسه في العيدين والجمعة، أخرجه أبو الشيخ ص ١١٩ رقم ٢٩٥، والبغوي في الأنوار برقم ٧٧٢، والبيهقي في السنن ٢٨٠/٣ .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس يوم العيد بردة حمراء" أخرجه أبو الشيخ في الأخلاق ص ١٢٠، والبغوي في الأنوار برقم ٧٧١، وعزاه الهيثمي في المجمع ٢٠١/٢ إلى الطبراني في الأوسط قال: ورجاله ثقات . وانظر: أبواب لباسه صلى الله عليه وسلم في كتب الشمائل تجد الكثير من الأدلة على ذلك .

الطيبة"، وفي رواية قالت: "ما أحسنها عليك !! يُشرب بياضك سوادها، وسوادها بياضك"(١) .

فانظر كيف تجرد من هذه البردة التي كانت أعجبته لما وجد منها ريحة الصوف ، لأنه لا يفضل شيئا على نقاوة الثوب وطيب الرائحة، وبذلك كان يأمر أصحابه وأمته:

٢ ـ فقد رأى يوما رجلا وعليه بُردان وقد أخْلقا(٢)، فنظر إليه فقال:«أماله ثوبان غير هذين ؟»قيل: بلى له ثوبان في العَيْبة، قال:«فادعُه فليلبسهما» فلما ولَّى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«ما له ضرب الله عنقه ؟ أليس هذا خيرا؟» فسمعه الرجل فقال: في سبيل الله يا رسول الله، فقال:«في سبيل الله»(٣) .

٣ ـ وقال أيضا:«إن الله يحب أن يَرى أثر نعمته على عبده»(٤) .

٤ ـ وخاطب أحد أصحابه بقوله :«إذا آتاك الله مالاً فلْيُر أثر نعمة الله

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس، باب في السواد برقم ٤٠٧٤، وأحمد في المسند ١٣٢/٦، ١٤٤، ٢١٩، ٢٤٩، وأبو الشيخ في الأخلاق ص ١١٩ برقم ٢٩٣، والبغوي في الأنوار برقم ٧٧٨، كلهم من طريق قتادة بن دعامة عن مطرف، وقتادة مدلس من مدلسي المرتبة الثالثة، كما في تعريف أهل التقديس رقم ٩٢، وهي المرتبة التي لا تقبل روايات أهلها إلا إذا صرحوا بالسماع، وهو ما لم يحصل هنا حيث عنعنه، وبقية رجاله ثقات .

والبردة: هي الشملة المخططة، وقيل: هي كساء أسود مربع. النهاية ١١٦/١، والمصباح المنير ٤٩/١ .

(٢) أي: بليا .

(٣) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب اللباس ٢١٤/٢ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، بإسناد منقطع، ولكنه وصله الحاكم في المستدرك ١٨٣/٤، وصححه على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي، وإسناده حسن .

(٤) أخرجه الترمذي في الأدب، باب ما جاء أن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، من حديث عمرو بن شعيب برقم ٢٨١٩، وقال عنه: حديث حسن .

عليك وكرامته(١)».

مما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يحبّذ وسط الأمور كما هو نهجه في كل شيء؛ لأن الإفراط في البذاذة فيه أيضا شهرة وتزكية، فطريق النبي صلى الله عليه وسلم أعدل وأتقى(٢)، حيث كان يؤثر التواضع في نوع الثياب والملابس، ويحرص على نظافتها، وحسن رائحتها، وجمال منظرها .

وهكذا فليكن حال المتواضعين، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه آمين .

---

(١) أخرجه النسائي في الزينة، باب ذكر ما يستحب من لبس الثياب، وما يكره منها ١٩٦/٨، وأحمد في المسند ٤٧٣/٣، والحاكم في المستدرك ١٨١/٤، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي وقال الألباني في غاية المرام ص ٦٣ رقم ٧٥ عن إسناد أحمد: إسناده صحيح على شرط مسلم، من حديث أبي الأحوص عن أبيه بإسناد صحيح .

(٢) انظر شرح شمائل الترمذي للمناوي والقاري ١١٩/١ .

المَبْحَثُ الرَّابعُ

(خُلق الحياء)

الحياء لغة: الانقباض والانزواء .

قال الراغب: "الحياء انقباض النفس عن القبائح وتركه لذلك.يقال: حيِيَ فهو حيِيٌّ، واستحيا فهو مستحي، وقيل: استحى فهو مستح" .

واشتقاقه من الحياة؛ لأن الحيِيَّ يكون متنكس القوة، منتقص الحياة، لما يعتريه من الانكسار والتغيير(١) .

وحكى الإمام النووي عن الواحدي قوله: "قال أهل اللغة: أصل الاستحياء من الحياة، واستحيا الرجل من قوة الحياة فيه لشدة علمه بمواقع الغيب، فالحياء من قوة الحس ولطفه وقوة الحياة"(٢) .

ويقال في تعريفه أيضا إنه "تغير وانكسار يعرض للإنسان من تَخَوّف ما يُعاب به ويذم عليه"(٣)، ويقال أيضا إنه: "ألم يعرض للنفس عند الفزع من النقيصة"(٤)، وقيل غير ذلك .

وهذه التعاريف كلها متقاربة المعنى ، وإن اختلفت عباراتها وألفاظها .

أما في الشرع فهو: «خلق يبعث على تجنّب القبيح، ويحضُّ على ارتكاب الحسن، ويمنع من التقصير في حق ذوي الحق»(٥) .

منزلة الحياء في مكارم الأخلاق :

والحياء من أجل مكارم الأخلاق؛ لأنه يدل على طهارة النفس، وحياة الضمير ويقظة

---

(١) المصباح المنير للفيومي ١/١٧٣، والمفردات للراغب ص ١٤٠ .

(٢) تهذيب الأسماء واللغات ٣/٧٩ .

(٣) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ٣/٧٩، والتفسير الكبير للفخر الرازي ٢/١٣٢ .

(٤) ميزان العمل للغزالي ص ٨٧ .

(٥) جمع الوسائل في شرح الشمائل للقاري مع شرح المناوي ص ١٧٣،١٧٤ .

الوازع الديني ومراقبة الله تعالى، إذ من لم يكن ذا حياء "لم يُقْرِ الضيفَ، ولم يف بالوعد، ولم يؤد الأمانة، ولم يقض لأحد حاجة، ولا تحرَّى الرجل الجميل فآثره، والقبيح فتجنبه، ولا ستر عورة، ولا امتنع عن فاحشة، وكثير من الناس - لولا الحياء الذي فيه - لم يؤد شيئا من الأمور المفترضة عليه، ولم يرع لمخلوق حقا، ولم يصل له رحما، ولا برَّ له والداً... فإن الباعث على هذه الأفعال إما ديني - وهو رجاء عاقبتها الحميدة - وإما دنيوي علوي - وهو حياء فاعلها من الخلق - وقد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق، وإما من الخلائق لم يفعلها صاحبها"(١) .

"وعلى حسب حياة القلب تكون قوّةُ خلق الحياء، فكلَّما كان القلب أحيا كان الحياء أتم، وقلة الحياء من موت القلب والروح»(٢) .

«وهو من شعب الإيمان؛ لأنه يكون باعثا على أفعال البر، ومانعا من المعاصي» (٣) .

ولهذا كان من الأخلاق العليا التي كان للقرآن الكريم بها عناية عظيمة، حيث تحدث عنه بالنسبة لله تعالى، وبالنسبة لرسوله صلى الله عليه وسلم، وبالنسبة لبعض المؤمنين .

الحياء في جنب الله تعالى :

أما الحياء في جنب الله تعالى فقد تحدث عنه القرآن الكريم في أكثر من آية، حيث قال الله تعالى: ﴿ إنَّ اللهَ لا يستحيِيْ أنْ يضربَ مثلاً ما بَعُوضةً فما فوقَها فأمَّا الذين آمنوا فيعلمون أنَّه الحقُّ من ربِّهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد اللهُ بهذا مثلا يُضِلُّ به كثيرا ويَهدي به كثيرا وما يُضلُّ به إلا الفاسقين ﴾[سورة البقرة:٢٦] .

وحيث قال سبحانه: ﴿ والله لا يَستحيِيْ من الحق ﴾[سورة الأحزاب:٥٣] .

والملاحظ أن نسبة الحياء إلى الله تعالى في القرآن الكريم جاء بأسلوب النفي لمناسبة المقام الذي تحدثت عنه الآيات الكريمات .

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢٧٧/١ .

(٢) مدارج السالكين ٢٥٩/٢ بتصرف يسير .

(٣) شرح مسلم للنووي ٥/٣ .

فإن الآية الأولى نزلت ردا على من أنكر على الله تعالى ضرب الأمثال بضعيف مخلوقاته كالعنكبوت والذباب، حيث قالوا: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، وجاء أن المشركين قالوا: ما بال العنكبوت والذباب يذكران، فأنزل الله تعالى: ﴿ إنَّ الله لا يَستحيِي أن يضربَ مثلاً ما بعوضةً فما فوقها ...﴾(١)، لإفادة أنه سبحانه لا يستصغر شيئا يضرب به مثلا، ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة، كما لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بها(٢)، لأن الكبير والصغير بالنسبة له في الخلق سواء من حيث تساويها في الضعف عنده سبحانه(٣)، ومن حيث تشابهها في إعجاز الخلق .

أما الآية الثانية فإنها نزلت لبيان الحق الذي غاب عن بعض الصحابة، ولم يستطع النبي صلى الله عليه وسلم بيانه لهم، لأنه يتعلق بذاته الشريفة، فآثر تحمل تبعاته، وإن كان فيه مشقة عليه من باب هضم حقوق نفسه، على ما سيأتي بيانه .

وأبان الله هذا الحق لعباده ليلتزموه بقوله: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تَدخُلوا بيوتَ النبي...﴾ إلى قوله: ﴿ والله لا يَستحيِي من الحقّ ﴾ والمعنى: أن إخراجكم حق لا يتركه الله تعالى(٤) ، والحق لا يستحيي من بيانه وإعلانه، فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يستحيي منكم فلا يباشركم بالإنكار، ترجيحا منه للعفو عن حقه على المؤاخذة به، فإن الله لا يستحيي من الحق؛ لأن أسباب الحياء بين الخلق منتفية عن الخالق سبحانه وتعالى ﴿ والله يَقولُ الحقَّ وهو يَهدي السبيل ﴾(٥)[سورة الأحزاب:٤] ، فلهذا جاء الحياء في جناب الله تعالى في القرآن الكريم منفيا .

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ١/١٧٧ - ١٧٨ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٦٤ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير ١/٣٦٠ .

(٤) تفسير ابن جزي ٣/١٤٣ .

(٥) التحرير والتنوير ٢٢/٨٨ .

على أن بعض أهل التأويل قد استشف من نفي الحياء عنه سبحانه في هاتين الآيتين صحة نسبته له ؛ لأنه في العرف لا يسلب الحياء إلا عمن هو شأنه(١) ، وهو ما أثبتته السنة المشرفة في غير ما حديث :

منها قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله عز وجل ليستحيي من العبد أن يرفع إليه يديه فيردهما خائبتين"(٢) وهو من صفات الكمال في حقه سبحانه نثبتها له على مراده من غير تكييف ولا تمثيل .

(وقد تعددت أقوال المفسرين في الاستحياء المنسوب إلى الله تعالى نفيه، فقيل: معنى لا يستحيي: لا يترك، فعبر بالحياء عن الترك؛ لأنه من ثمرات الحياء؛ لأن الإنسان إذا استحيا من فعل شيء تركه، فيكون من باب تسمية المسبب باسم السبب .

وقيل المعنى: لا يخشى، وسميت الخشية حياء؛ لأنها من ثمراته أيضا .

وقيل المعنى: لا يمتنع، وكل هذه الأقوال متقاربة من حيث المعنى، وهذه التأويلات هي علىمذهب من يرى التأويل في الأشياء التي موضوعها في اللغة لا ينبغي أن يوصف الله تعالى به)(٣) .

قال الألوسي: "وبعضٌ ـ وأنا والحمد لله منهم ـ لا يقول بالتأويل، بل يمر هذا وأمثاله مما جاء عنه سبحانه في الآيات والأحاديث على ما جاءت، ويكل علمها بعد

---

(١) انظر روح المعاني ٢٠٦/١، والتحرير والتنوير ٣٦١/١ .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٥٣٥/١، وصححه، ووافقه الذهبي، وابن حبان برقم ٢٣٩٩ كما في الموارد، ابن أبي شيبة في المصنف ٣٤٠/١، والطبراني في الدعاء برقم ٢٠٢، وقال الحافظ في الفتح ١٤٣/١١: سنده جيد، هو من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه .

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ١٢١/١ .

التنزيه عما في الشاهد إلى عالم الغيب والشهادة"(١) .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "وأما حياء الرب تعالى من عبده، فذاك نوع لا تدركه الأفهام، ولا تكيِّفه العقول، فإنه حياء كرم وبر وجود وجلال"(٢) .

الحياء في جنب الرسول صلى الله عليه وسلم :

أما حديث القرآن الكريم عن الحياء في الجناب النبوي فهو ما جاء في سياق آية الأحزاب السابقة، حيث أشار الله تعالى إلى حيائه العظيم بقوله سبحانه: ﴿ يا أيُّها الَّذين آمنوا لا تَدخلوا بيوتَ النَّبي إلا أن يُؤذنَ لكم إلى طعامٍ غيرَ ناظِرين إناه ولكن إذا دُعيتم فادخلوا فإذا طَعِمتُم فانتشِروا ولا مُستأنسين لحديث إن ذلكم كان يُؤذي النَّبيَّ فيستحيي منكم والله لا يَستحيي من الحق ...﴾[سورة الأحزاب:٥٣]، وسيأتي الحديث عن هذه الآية عند الحديث عن تمثل هذا الخلق في النبي صلى الله عليه وسلم قريبا إن شاء الله تعالى .

الحياء في مقام المؤمنين :

وأما حديث القرآن عن الحياء عند بعض المؤمنين، فذلك عند حديثه عن ابنة نبي الله تعالى شعيب عليه السلام والتي آلت زوجا لنبي الله موسى عليه السلام حيث قال الله تعالى: ﴿ فجاءته إحداهما تَمشي على استحياءٍ قالت إنَّ أبي يدَعوك ليجَزيَك أجرَ ما سقيتَ لنا فلما جاءه وقصَّ عليه القَصصَ قال لا تخفْ نجوتَ من القوم الظالمين ﴾[سورة القصص:٢٥].

وهذا تنويه عظيم بهذا الخلق الكريم من هذه الفتاة المؤمنة بنت نبي وزوجة نبي بأبلغ عبارة تعبر عن الحياء، وهي لفظ (الاستحياء)،إذ الاستحياء مبالغة في الحياء مثل الاستجابة مبالغة في الإجابة، وجاء منكرا لتفخيم أمره، قال الألوسي: "ومن هنا قيل: جاءت متحفِّزة، أي شديدة الحياء، ثم ذكر حديثا من طريق عبد الله بن أبي الهذيل(٣) عن عمر

---

(١) روح المعاني ٢٠٦/١ .

(٢) مدارج السالكين ٢٦١/٢ .

(٣) الكوفي، أبي المغيرة، قال الحافظ في التقريب ص ٣٢٧ برقم ٣٦٧٩: ثقة من الثالثة، مات في ولاية خالد القسري على العراق ا.هـ.

ابن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "جاءت مستترة بكُمِّ دِرعها على وجهها"(١) .

قلت: ولعل ذكر الحياء في القرآن في مقام المرأة دون غيرها من المؤمنين فيه دلالة على أهمية الحياء في جانب المرأة وإن كان مهما في الرجل والمرأة،إلا أنه في جانبها آكد أهمية لما يترتب على كمال حيائها من درء المفاسد الاجتماعية الناجمة عن تخلِّي المرأة عن الحياء في كثير من المجتمعات المشاهدة في عصرنا، وذلك للإشارة إلى ما يجب أن تكون عليه المرأة في مجتمعاتها من الحياء، بإعطاء هذا المثل الصالح للمرأة المؤمنة الصالحة ليحتذي جنس المرأة به، إذ ذكره بجانبها على ذلك الأسلوب من التنويه حافز للمرأة على التحلي به حتى تكون مثل تلك المرأة المؤمنة، وترشح لمثل ذلك الثناء .

ورود الحياء في القرآن الكريم بمعناه :

هذا عن ذكر مادة الحياء في القرآن الكريم بلفظه .

أما ذكر الحياء فيه بمعناه فذلك في آيات كثيرة جاءت تحث عليه وترغب فيه، كالآيات الدالة على اطلاع الله على العبد في جميع أحواله وتقلباته، وفي نفسه وسلوكه، وذلك ليستحيي عن معصيته إذا علم اطلاعه عليه ومراقبته إياه، وذلك كقوله تعالى: ﴿ يعلمُ خائِنةَ الأَعيُن وما تُخفِي الصُّدور ﴾[سورة غافر:١٩]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ ولا تعمَلون مِن عمل إلا كُنَّا عليكم شهوداً إذ تُفيضُون فيه ﴾[سورة يونس:٦١]، وقوله سبحانه: ﴿ ألم ترَ

---

(١) روح المعاني ٧/٢٠/٦٤، وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٣٨٤ .

والأثر أخرجه ابن جرير في تفسيره ٢٠/٦٠ من طريقين .

وأخرج ابن جرير أيضا بإسناده إلى عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: فجاءته إحداهما تمشي على استحياء) قال: ليست بسلفع من النساء خرَّاجة ولاَّجة، واضعة ثوبها على وجهها تقول: (إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا)، وذكره من عدة طرق بألفاظ متقاربة .

وعزا ابن كثير هذا الأثر إلى ابن أبي حاتم، وقال: هذا إسناد صحيح، ثم نقل عن الجوهري قوله: السلفع من الرجال: الجسور، ومن النساء: الجريَّة السليطة، ومن النوق: الشديدة ا.هـ، تفسير القرآن العظيم ٤/٣٨٤، وانظر الصحاح للجوهري ٤/١٢٣١ .

أنَّ الله يعلمُ ما في السَّموات وما في الأرضِ ما يكونُ من نَجوى ثلاثةٍ إلاَّ هو رابعُهم ولا خمسةٍ إلا هو سادسُهم ولا أدنَى من ذلك ولا أكثرَ إلا هو مَعهم أينما كانوا ثُمَّ يُنبِّئُهم بما علموا يومَ القيامة إنَّ الله بكلِّ شيءٍ عليم ﴾[سورة المجادلة:٧] .

وذكر ابن مفلح(١) في تأويل قوله تعالى: ﴿ ولباسُ التَّقوى ذلك خيرٌ ﴾[سورة الأعراف:٢٦] فقال: قالوا: هو الحياء، وقالوا: الوقار من الله(٢) .

فإن هذه الآيات وغيرها تذكِّر المرء باطلاع الله تعالى عليه في كل حال من أحواله، وإذا ما تذكر المرء ذلك فإنه يستحيي أن يرتكب أي ذنب، أو يزاول أي رذيلة حياء من الله تعالى ، وهذا أجلُّ أنواع الحياء باعتبار متعلقه، لما يترتب عليه من اجتناب رذائل الأخلاق التي نهى الله عنها، وذلك عند استشعار العبد اطلاع الله سبحانه وتعالى عليه، أو استشعار عظيم إنعامه تعالى عليه، وعندئذ يحفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، ويترك زينة الحياة الدنيا، ويذكر الموت والبلى كما ندب إلى ذلك النبي صلى الله عليه وسلم(٣) .

وهذا هو النوع الذي يعنيه بعض الصالحين بقولهم في بيان معنى الحياء إنه "رؤية الآلاء، ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تُسمَّى الحياء" .

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن مفلح المقدسي الصالحي، أعلم أهل عصره بمذهب الإمام أحمد بن حنبل، ولد ونشأ في بيت المقدس، وتوفي بصالحية دمشق سنة ٧٦٣ هـ، وله مؤلفات كثيرة منها: الآداب الشرعية، والفروع، وغيرها. انظر الأعلام ١٠٧/٧ .

(٢) الآداب الشرعية ٢٢٧/٢، وذُكر في معنى الآية أقوالا أخرى كثيرة، انظر تفسير ابن كثير ٢٠٧/٢ ونحوه .

(٣) فيما أخرجه أحمد ٣٨٧/١، والترمذي في صفة القيامة، باب ٢٤ برقم ٢٤٥٨ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ: (استحيوا من الله حق الحياء قال الصحابة: يا رسول الله إنا نستحيي والحمد لله، قال: ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله تعالى حق الحياء أن تحفظ الرأس وما حوى ...)، وقال الترمذي: إنما يعرف من حديث أبان بن إسحاق عن الصباح بن محمد، يعني والصباح ضعيف كما في التقريب ٢٨٩٨، لكن للحديث شواهد كثيرة يعضد بعضها بعضا، انظر مجمع الزوائد ٢٨٧/١٠، والمعجم الصغير للطبراني ١٧٧/١، والحلية لأبي نعيم ٢٩/٤ .

وهناك أنواع أخرى للحياء بهذا الاعتبار وهي: الحياء من الناس، والحياء من النفس .

أما الحياء من الناس فيكون بكف الأذى، وترك المجاهرة بالقبيح قولا أو عملا .

وأما الحياء من النفس فيكون بالعِفَّة وصيانة الخلوات(١) .

ولا بد من توفر الحياء في هذه المجالات الثلاث حتى يكون الإنسان حييا كاملا، لأن من استحيا من الله ولم يستح من الناس، فقد استهان بالناس، ومن استحيا من الناس ولم يستح من الله تعالى، فقد استهان بالله جل جلاله، ومن استحيا من الناس ولم يستح من نفسه، هانت عليه نفسه، ومن هانت عليه نفسه لم يكن أهلا لمكارم الأخلاق"(٢) .

وذكر ابن القيم رحمه الله تعالى تقسيما آخر للحياء باعتبار أنواعه، فذكر عشرة أقسام فقال: "وقد قُسِّم الحياء على عشرة أقسام: حياء جناية، وحياء تقصير، وحياء إجلال، وحياء كرم، وحياء حشمة، وحياء استصغار للنفس واحتقار لها، وحياء محبة، وحياء عبودية، وحياء شرف وعزة، وحياء المستحيي من نفسه"(٣) ثم شرح ذلك بما يطول ذكره هنا فلينظر هناك .

وبما تقدم يتبين لنا مبلغ اهتمام القرآن العظيم بخلق الحياء، وتقريره له، وتنويهه به وبأهله، وقد كان أخلق الناس اتصافا به هو رسول الله صلى الله عليه وسلم كما علمت من تقرير الحياء فيه، وكما سيأتي بيانه فيما يلي :

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي ص ٢٤٣ .

(٢) موسوعة أخلاق القرآن للشرباصي ٩١/١، وانظر الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب ص ٢٨٩ .

(٣) مدارج السالكين ٢٦١/٢ .

تمثل خلق الحياء في النبي صلى الله عليه وسلم

لا يحتاج الباحث إلى عناء إن أراد أن يعرف حياء النبي صلى الله عليه وسلم ومبلغ كنهه عنده؛ لأن الله تعالى قد وضَّح لنا في كتابه الكريم مثالا واحدا من حيائه عليه الصلاة والسلام، وذلك عندما قال سبحانه: ﴿ يا أيها الَّذين آمنوا لا تَدخلوا بيوتَ النَّبيِّ إلا أن يُؤذن لكم إلى طعامٍ غيرَ ناظرينَ إناهُ ولكن إذا دُعيتم فادخُلوا فإذا طعِمتُم فانتَشِروا ولا مُستأنِسينَ لحديث إن ذلكُم كان يُؤذي النَّبي فيَستحيِي منكم والله لا يستحيِي من الحق ...﴾[سورة الأحزاب:٥٣] .

فإن الصورة تصبح لديه جلية، حيث يعلم أن حياءه عليه الصلاة والسلام حمله على أن يترك أخص حقوق نفسه وأهمها، فلم يجاهر أصحابه ببيانها، وإنما تحمل المشقة من جراء ذلك هضما لحقه، وإيثارا لراحة أصحابه، مما جعل الله تعالى يتولى بيان ذلك بنفسه إشفاقا على نبيه، وإعظاما لحقه، وتعليما لعباده كيفية التأدب مع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

١ - وقد روى أنس رضي الله عنه قصة هذه الواقعة فقال:« بُنِيَ على النبي صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش(١) بخبز ولحم، قال: فأُرسِلتُ على الطعام داعيا، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون، فدعوت حتى ما أجد أحدا أدعو ، قال: فقلت: يا نبي الله ما أجد أحدا أدعوه، قال ارفعوا طعامكم، وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فانطلق إلى حجرة عائشة رضي الله عنها فقال: السلام عليكم أهلَ البيت ورحمة الله، فقالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك؟ بارك الله لك» فتقرَّى(٢) حُجَرَ نسائه كلهن، يقول لهن كما يقول

---

(١) الأسدية أم المؤمنين، وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم سنة ثلاث، وقيل: خمس من الهجرة، وكانت قبل ذلك تحت زيد بن حارثة، كما سيأتي بيانه ص٦٨٢، وتوفيت سنة ٢٠ هـ، وهي ابنة خمسين، انظر الاستيعاب ٣١٣/٤، ومعها الإصابة .

(٢) بفتح القاف وتشديد الراء بصيغة الفعل الماضي أي: تتبع الحجرات واحدة واحدة .

لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبي صلى الله عليه وسلم فإذا ثلاثة رهط في البيت يتحدثون، قال: وكان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الحياء، وفي رواية مسلم: "فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يستحيي منهم أن يقول لهم شيئا"

قال: فخرج منطلقا نحو حجرة عائشة، فما أدري آخبرته، أو أخبر أن القوم خرجوا، فرجع حتى إذا وضع رجله في أسكفَّة الباب(١) داخلة، وأخرى خارجة أرخى الستر بيني وبينه وأنزلت آية الحجاب»(٢) .

فترى كيف حمله الحياء على عدم مواجهة أصحابه بما كان يرغب فيه من خروجهم، إيثارا بحق نفسه وراحة ضميره، حتى كان يدخل ويخرج قلقا من عدم خروجهم، ولم يستطع مشافهتهم بما يوده منهم ؛

٢ ـ لأنه صلى الله عليه وسلم "كان أشد حياء من العذراء في خدرها" كما جاء في الحديث(٣) ، فما كان يفصح عمَّا يكرهه من أمر الدنيا، ولكن «كان إذا كره شيئا عُرف في وجهه» يعني ولا يستطيع أن يفوه به كما تبين لك من الواقع العملي في هذه القصة، والتي كانت مفعمة بالحياء من أساسها؛

٣ ـ إذ لما أمره الله تعالى بالزواج من هذه السيدة الطاهرة، وقد كانت زوجة لمتبنَّاه زيد ابن حارثة(٤) لم يستطع مجاهرته بما أراده الله تعالى في شأن زواجه بها، وأن

---

(١) هي عتبته العليا، وقد تستعمل في السفلى. ا.هـ المصباح المنير ٣٠٢/١ .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب ١٤٩/٦، ومسلم في النكاح، باب زواج زينب بنت جحش، ونزول الحجاب، وإثبات وليمة العرس برقم ١٤٢٩، وورد من طرق أخرى كثيرة، وبألفاظ متقاربة .

(٣) أخرجه البخاري في المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم ٢٣٠/٤، وفي الأدب، باب الحياء ومن لم يواجه الناس بالعتاب ٣٥/٨، ومسلم في الفضائل، باب كثرة حياء النبي صلى الله عليه وسلم برقم ٢٣٢٠ .

(٤) هو أبو أسامة، ابن حارثة بن شراحيل بن كعب بن عبد العزى بن امرىء القيس، الكلبي نسبا، القريشي الهاشمي ولاء، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أشهر مواليه، وهبته له زوجه خديجة رضي الله عنها، فأعتقه وتبناه لما اختاره على أبيه وعمه، ومنا قبه جمة. انظر طبقات ابن سعد ٤٠/٣، وتهذيب الأسماء ٢٠٢/٢، والإصابة ٥٦٣/١ .

الله تعالى قد اختارها لنبيه صلى الله عليه وسلم ليبطل بذلك عادة الجاهلية من التبني، وتحريم أزواج المتَبنَّينَ؛ لأنهم يعاملونهم معاملة الأولاد، فلما أنزل الله تعالى في ذلك قرآنا يتلى، وشرعا محكما لا يتغير، عندها لم يكن بوسع النبي صلى الله عليه وسلم عدم بيانه، وإن كان في ذلك حرج عظيم له عند كثير من ضعيفي الإيمان . وقد قص الله تعالى نبأ حيائه صلى الله عليه وسلم في هذه القضية، وما أبرمه فيها من قضايا فقال: ﴿ وإذ تقولُ للذي أنعمَ اللهُ عليه وأنعمتَ عليه أمسِك عليك زَوجَك واتَّق اللهَ وتُخفي في نفسِك ما اللهُ مبديه وتخشَى النَّاسَ واللهُ أحقُّ أن تخشاهُ فلمَّا قضى زيدٌ منها وَطَراً زوّجناكها لكي لا يكونَ على المؤمنين حرجٌ في أزواجِ أدعيائِهم إذا قَضوا منهُنَّ وَطراً وكان أمرُ الله مفعولاً ﴾[سورة لأحزاب:٣٧] .

فكان النبي صلى الله عليه وسلم يتحرَّج حياء من بيان ما قد أطلعه الله عليه مما سيؤول إليه أمر زينب رضي الله عنها، لأن الناس كانوا يعدُّون ذلك أمرا كبيرا، ولكن لما كان شرعا محكما كان لا بد من بيانه، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وتخشى الناسَ واللهُ أحقُّ أن تخشاه ﴾ أي: تستحيي من قولهم: إن محمدا صلى الله عليه وسلم تزوج زوجة ابنه حسب ما يعهدونه ويعتقدونه(١) .

ثم أبان الله تعالى أن الغرض من تلك القصة كلها هو تشريع الزواج بنساء المتبنَّيْن بعد فراقهم لهن، حيث قال تعالى: ﴿ لكي لا يكونَ على المؤمنين حرجٌ في أزواجِ أدعيائِهم إذا قَضَوا منهُنَّ وطَراً وكان أمرُ الله مفعولا ﴾ .

ولقد قضت حكمة الله تعالى أن لا يكون تشريع هذه المسألة إلا بهذه الصورة العملية؛ لأنها أبلغ في استئصال ذلك المعتقد الفاسد السائد تجاه التَّبنِّي الذي ما كان سيُجتثُّ من أفئدة معتقديه إلا بمثل ذلك الأسلوب العملي، وهذا من حِكم التشريع البليغة، كما جرى مثل ذلك في مسألة فسخ الإحرام يوم الحديبية، ومسألة فسخ الحج إلى الاعتمار في حجة الوداع .

ولقد دل رد الفعل الذي كان يحدث عند تلك التشريعات من قِبَل الأنفس التي

---

(١) انظر روح المعاني ٨/٢٢/٢٤ .

ماكانت تتوقع حصولها، دل على مبلغ صواب ذلك الأسلوب من التشريع الحكيم، ولا بدع فهو من عند الله الذي قال عن نفسه: ﴿ ألا يَعلمُ من خَلقَ وهو اللَّطيفُ الخبير ﴾ [سورة الملك:١٤] .

وقد كان مفتاح هذا التشريع حياء النبي صلى الله عليه وسلم الجم الذي كان يحمله على أن لا يواجه أحدا بشيء يكرهه(١) .

٤ ـ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل ما بال فلان ؟ ولكن يقول: "ما بال أقوام يقولون كذا وكذا"(٢) .

وما يحمله على عدم التصريح لهم في وجوههم إلا كمال حيائه عليه الصلاة والسلام .

فهذه الأخبار تؤكد مبلغ حيائه عليه الصلاة والسلام، وأن ذلك كان خُلقا عاما في سلوكه، ولكن ما لم يكن ذلك على حساب الحق والشرع الذي جاء به، فإنه حينئذ كان لا يستحيي من بيانه كما قال لأم سليم(٣) لما جاءت تسأله: هل على المرأة غسل إذا هي احتلمت ؟ فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : "إذا رأت الماء"، فغطّت أم سلمة رضي

---

(١) كما دل على ذلك حديث أنس رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يواجه رجلا في وجهه بشيء يكرهه" أخرجه أبو داود في الترجل برقم ٤١٨٢، باب ما جاء في الخلوق، وفي الأدب، باب حسن العشرة برقم ٤٧٨٩، والترمذي في الشمائل برقم ٣٤٧، وأبو الشيخ في الأخلاق ص٧٠ برقم ١٥٠، والبيهقي في الدلائل ٣١٧/١، كلهم من حديث سلم العلوي، وهو ضعيف كما في التقريب برقم ٢٤٧٣ وغيره، وفي الحديث قصة .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب ٣١/٨، وفي الاعتصام، باب ما يكره من التعمق والتنازع في العلم، والغلو في الدين والبدع ١٢٠/٩، وأبو داود في الأدب، باب حسن العشرة برقم ٤٧٨٨، واللفظ له، وانظر تحفة الأشراف للمزي ٣٢٢/١٢، رقم ١٧٦٤٩ .

(٣) اختلف في اسمها فقيل: سهلة، وقيل: أنيسة، وقيل: رميثة، وقيل: الرميصاء، بنت ملحان، أم أنس بن مالك رضي الله عنهما، كانت خالة لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاع، وهي من فضليات الصحابيات. انظر طبقات ابن سعد ٤٢٤/٨، وتهذيب الأسماء ٣٦٣/٢، والإصابة ٤٦١/٤ .

الله عنها وجهها وقالت:يا رسول الله وتحتلم المرأة ؟ فقال: نعم تَربت يمينُك، فبم يشبهها ولدها ؟(١) .

فترى أن النبي صلى الله عليه وسلم أجابها في أمر خاص بالنساء يستحيي الرجال من ذكره، ولم يقر أم سلمة زوجه على الحياء في هذا الموطن،وفيمواطن كثيرة تشبهها كان له مواقف نحوها من البيان، لأن الحياء في مثل ذلك يكون سببا لعدم البيان، وهو صلى الله عليه وسلم معصوم عن ذلك، إذ ما أرسله الله تعالى (إلا ليبين للناس ما نُزِّل إليهم) .

فلا يكون الحياء حينئذ خلقا محمودا، وهذا دليل على توازن أخلاقه صلى الله عليه وسلم، وأن أخلاقه أخلاقا وسطا، نالت الحمد كله، والوسطية كلها، والتوازن أكمله .

حياؤه مع الخالق جل وعلا :

وإذا كان ذلك حياؤه عليه الصلاة والسلام مع الخلق، فإن حياؤه مع الخالق لا بد وأن يكون أعظم من ذلك وأكمل، إذ أنه سبحانه أحق بذلك من خلقه، كما قال عليه الصلاة والسلام :

"اللهُ أحق أن يستحيا منه من الناس"(٢) .

ولذلك كان عليه الصلاة والسلام حييا من الله أكمل الحياء .

ويدل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء لموسى عليه السلام الذي كان يطلبه مرة بعد أخرى أن يرجع إلى ربه فيسأله التخفيف مما افترضه على أمته صلى الله عليه وسلم من الصلوات الخمسين التي كانت قد افترضت، فما زال يتردد بين موسى عليه السلام وربه جل وعلا، يسأله التخفيف لأمته، فلما أكثر التردد على الله يسأله

---

(١) أخرجه البخاري في العلم، باب الحياء في العلم ١/٤٣، ومسلم في الحيض، باب وجوب غسل المرأة بخروج المني منها برقم ٣١٣ .

(٢) أخرجه أبو داود في الحمام، باب ما جاء في التعري برقم ٤٠١٧، والترمذي في الأدب، باب ما جاء في حفظ العورة برقم ٢٧٩٤ من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، وأخرجه البخاري في الغسل، باب من اغتسل عريانا وحده عنه ١/٧٥، تعليقا بصيغة الجزم .

التخفيف، قال لموسى حينئذ: «استحييت من ربي»(١)، وما حمله على الاستحياء إلا بالغ حيائه صلى الله عليه وسلم، وإلا فإن الإلحاح في الطلب من الله تعالى مطلوب(٢) .

ولا غرو في أن يحمله الحياء من الله تعالى على ذلك، فإن الله تعالى أحق أن يستحيا منه كما جاء في الحديث الآنف الذكر قريبا .

ولذلك ندب أمته إلى الاستحياء من الله حق الحياء، كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه(٣) المتقدم .

تنويهه صلى الله عليه وسلم بخلق الحياء :

وهكذا كان حياؤه صلى الله عليه وسلم شديدا في جميع أحواله وأفعاله وأقواله مع خالقه وأمته وأسرته ونفسه، ولا غرابة في أن يكون حياؤه عليه الصلاة والسلام بهذه المثابة، فإن الحياء خلق الإسلام كما ورد عنه عليه الصلاة والسلام بلفظ :

١ - "لكل دين خُلق وخُلق الإسلام الحياء"(٤) .

والمعنى: أن خلق الحياء هو أبرز أخلاق الإسلام، وذلك لأنه دليل على الخيرات كما قال عليه الصلاة والسلام :

---

(١) والقصة رواها البخاري في عدة مواضع من صحيحه، منها: في الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة ٩٢/١، وأخرجها مسلم في الإيمان،باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم برقم ١٦٣ من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) فتح الباري ٩/٣ .

(٣) انظر هامش ص٤٧١.

(٤) أخرجه مالك في الموطأ باب ما جاء في الحياء ٢١٢/٢ من حديث زيد بن طلحة بن ركانة يرفعه، فهو مرسل، لكنه جاء موصولا عند ابن ماجه في الزهد، باب الحياء برقم ٤١٨١ من حديث أنس بإسناد ضعيف، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان من خمس طرق من رقم ٧٧١٢ إلى ٧٧١٦ وهي طرق يشد بعضها بعضا، وترقى الحديث من الضعف إلى الحسن لغيره .

٢ - "الحياء خير كله"، وفي لفظ: "الحياء لا يأتي إلا بخير"(١) .

لذلك كان من شعب الإيمان الوثيقة كما جاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه :

٣ - "الإيمان بضع وسبعون شعبة والحياء شعبة من الإيمان"(٢) .

٤ - ومن حديث ابن عمر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: "... الحياء من الإيمان"(٣) .

ذم من لم يتخلق بهذا الخلق :

ولذلك كان فاقد هذا الخلق فاقدا لمعيار الآداب، ومكارم الأخلاق، إذ لم يبق عنده ما يحمله على التحلي بها، أو التقيد بأحكام الشريعة وآدابها كما يدل لذلك قوله عليه الصلاة والسلام:

١ - «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت»(٤) .

ومعناه: (إذا لم تستح من العيب وتخش العار مما تفعله، فافعل ما تحدثك نفسك من أغراضها،سواء كان حسنا أو قبيحا، فهو توبيخ وتهديد بأسلوب الأمر الذي يراد به الخير، لا أنه إباحة فعل ما يشاء المرء، أو أن المعنى: إذا كنت في فعلك آمنا أن تستحي منها فاصنع ما شئت، وكأنه قال: إذا كنت في أفعالك جاريا على سنن الصواب فافعل

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب الحياء ٣٥/٨، ومسلم في الإيمان برقم ٣٧ من حديث عمران بن حصين.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب أمور الإيمان ١١/١، ومسلم في الإيمان أيضا، باب بيان عدد شعب الإيمان برقم ٣٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان، باب الحياء من الإيمان ١٤/١، ومسلم في الباب السابق برقم ٣٦، ونقل الحافظ في الفتح ٣٢٤/٢٢ عن أبي عبيد الهروي قوله: معناه أن المستحيي ينقطع بحيائه عن المعاصي وإن لم يكن له تقية، فصار كالإيمان القاطع بينه وبين المعاصي ا.هـ، ونقل عن القاضي عياض قوله: إنما جعل الحياء من الإيمان وإن كان غريزة؛ لأن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى اقتصاد واكتساب وعلم ..).

(٤) أخرجه البخاري في الأدب، باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت ٣٥/٨، وأبو داود في الأدب، باب ما جاء في الحياء برقم ٤٧٩٧ من حديث أبي مسعود .

منها ما شئت)(١) .

٢ ـ كما أن فاقد الحياء يكون لا محالة بذيئا(٢)، وحيث كان كذلك فإنه قد ترشح لأن يكون من أهل النار، كما دل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: "الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبَذَاءُ من الجفاء، والجفاء في النار"(٣)، والجفاء هو غلظ الطبع .

فقابل عليه الصلاة والسلام الحياء بالجفاء، للدلالة على أن فاقده، لم يبق عنده ما يزعه عن التخلي عن مساوىء الأخلاق التي منها الجفاء، والذي ينشأ عنه مساوىء أخلاقية كبيرة في السلوك الفردي والاجتماعي .

ونحو هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم :

٣ ـ "الحياء والعِيُّ شُعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق"(٤) .

وقال الترمذي(٥) : "والعِيُّ: قلة الكلام، والبذاء: هو الفحش في الكلام، والبيان: هو كثرة الكلام، مثل هؤلاء الخطباء الذين يخطبون فيتوسعون في الكلام ويتفصَّحون فيه، من مدح الناس فيما لا يرضي الله تعالى " .

---

(١) جامع الأصول لابن الأثير ٦٣١/٣ بتصرف يسير .

(٢) البذاءة: هو الفحش في القول .

(٣) أخرجه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في الحياء برقم ٢٠٠٩، وأحمد في المسند ٥١١/٢، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح .

(٤) أخرجه الترمذي في البر والصلة، باب العي برقم ٢٠٢٧، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وأحمد في المسند ٢٦٩/٥، والحاكم في المستدرك ٥٢/١، والبغوي في شرح السنة ٣٦٦/١٢، وقال عنه الترمذي: حسن غريب، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي .

(٥) وهو محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، صاحب السنن، أحد الأئمة الثقات الجهابذة في الحفظ والإتقان، توفي سنة ٢٧٩ هـ، انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ للذهبي ٦٣٣/٢ ، وسير أعلام النبلاء له ٢٧٠/١٣ ونحوهما .

فترى أن النبي صلى الله عليه وسلم قابل الحياء بالبذاء، للدلالة على أن فاقد الحياء لم يبق عنده ما يزعه عن مساوىء الأخلاق ومنها البذاء الذي ينشأ عنه مساوىء أخلاقية كثيرة في القول .

وهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يترجم عن هذا الخلق العظيم بسلوكه وأقواله، وفي ذلك أبلغ دليل على كمال تخلقه بهذا الخلق، وعظمة بروزه فيه كما هو الشأن في سائر أخلاقه العظيمة، وكل أخلاقه عظيمة كما أخبر الله تعالى عن ذلك، وأيده الواقع، رزقنا الله التحلي بها .

المَبْحَثُ الخامسُ

(خلق الزُّهد)

الزهد في اللغة: يعني القلة، قال ابن فارس: "الزاء والهاء والدال، أصل يدل على قلة الشيء، والزهيد: الشيء القليل"، ويقال: زهد فيه وعنه زُهدا وزهادة: إذا أعرض عنه وتركه لقلّته واحتقاره(١) .

قال الراغب: "الزهيد: الشيء القليل، والزاهد في الشيء: الراغب عنه والراضي منه بالزهيد أي: القليل"(٢) .

أما في الاصطلاح: "فهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه"(٣) .

غير أن التعريف الاصطلاحي الشامل للزهد تعدد، تبعا لتعدد قائليه، واختلاف مشاربهم، فيرى بعضهم : أنه«قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا لبس العباء» وهذا رأي سفيان الثوري، والإمام أحمد وغيرهما .

ويرى الجنيد(٤): أنه "استصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب"، وقال مرة: هو"خلُوّ اليد عن الملك، والقلب عن التتبع"(٥) .

وقال ابن القيم: "وقد أكثر الناس من الكلام في الزهد، وكلٌّ أشار إلى ذوقه، ونطق عن

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٣/٣٠، ومجمل اللغة ٢/٤٤٢، مادة (زهد)، وأساس البلاغة ص ١٩٧ .

(٢) مفردات القرآن ص ٢١٥ .

(٣) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي ص ٣٤٦ .

(٤) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي، قال عنه الذهبي في السير: شيخ الصوفية، ولد سنة نيف وعشرين ومائتين، وتفقه على أبي ثور ...، حتى كان يفتي في حلقته وله عشرون سنة، قال عنه الذهبي بعد أن نعته بما تقدم من مشيخته للصوفية: فرحمة الله على الجنيد، وأين مثل الجنيد في علمه وحاله؟!ومات سنة ٢٩٧ هـ، انظر سير أعلام النبلاء ١٤/٦٦، وحلية الأولياء ١٠/٢٥٥، وتاريخ بغداد للخطيب ٧/٢٤١ .

(٥) انظر هذه الأقوال وغيرها في مدارج السالكين ٢/١٠ ، ١١ .

حاله وشاهده، فإن غالب عبارات القوم عن أذواقهم وأحوالهم، ثم قال: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: "الزهد: ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع: ترك ما تخاف ضرره في الآخرة" قال: وهذه العبارة أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها"(١) .

وكل هذه الأقوال مستقاة من المدلول اللغوي الذي توحي به كلمة الزهد من القلة والإعراض، وذلك لأن الدنيا وما فيها وإن عظم وكثر في الأعين القاصرة، هو في الحقيقة حقير وزهيد بالنسبة لما عند الله، وما أعده لعباده في الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كما جاء في الحديث(٢)، وكما أشار إليه الحديث الآخر: "موضع سَوط في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها"(٣) . فمن عرف ذلك زهد في الدنيا واحتقرها بل وبغضها إذا ما وضعها في كفة المقابلة بالآخرة، وذلك يستدعي عدم التكالب عليها والحرص عليها، كما كان عليه السلف الصالح الذين عرفوا الدنيا وحقارتها،والآخرة ومكانتها.

وقد دعتهم معرفتهم تلك إلى تحذير الناس منها، وإغرائهم بالآخرة التي هي ضرتها، وذلك من خلال أخبارهم التي نقلت إلينا في مؤلفات من عني منهم بجمعها في الكتب الخاصة بالزهد والتي تضمنت الأحاديث الكثيرة عن أعرف خلق الله بذلك وهو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم(٤) ناهيك عن الكتب العامة من كتب الحديث التي

---

(١) مدارج السالكين ٢/١٠ .

(٢) المتفق عليه من رواية أبي هريرة رضي الله عنه، وقد تقدم ص**٧٧** .

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ٤/١٤٤، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه .

(٤) وذلك كالزهد لعبد الله بن المبارك، ولأحمد بن حنبل، ولوكيع بن الجراح، ولأبي داود، ولأبي حاتم، وللبيهقي، وغيرها.وانظر مقدمة الزهد لوكيع بن الجراح ١/١٤٤ - ١٥٣ فقد ذكر محقق الكتاب نحواً من اثنين وستين مؤلفا في هذا المجال، عازيا مصادره في ذلك، ومبينا المطبوع منها من غيره .

لا تخلو من كتب خاصة بأحاديث الزهد تحت ذلك العنوان أو ما يؤدي معناه.

ومصدر ذلك كله ما ورد في كتاب الله تعالى من الآيات الزهدية الكثيرة، فإن القرآن مملوء من التزهيد في الدنيا والإخبار بخستها وقلتها وانقطاعها وسرعة فنائها، والترغيب في الآخرة والإخبار بشرفها ودوامها. وذلك كقوله تعالى:

١- ﴿ إنَّما مثلُ الحياةِ الدُّنيا كماءٍ أنزلناهُ من السَّماءِ فاختلَط به نباتُ الأرضِ ممَّا يأكلُ النَّاسُ والأنعامُ حتى إذا أخذتِ الأرضُ زخرفَها وازَّينت وظنَّ أهلُها أنَّهم قادِرون عليها أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيدًا كأن لم تَغنَ بالأمسِ كذلك نُفَصِّلُ الآياتِ لقومٍ يتفكرون ﴾[سورة يونس:٢٤] .

٢- وكقوله تعالى: ﴿ واضرِبْ لهم مثلَ الحياةِ الدُّنيا كماءٍ أنزلناهُ من السَّماءِ فاختلَط به نباتُ الأرض فأصبحَ هشِيمًا تذروه الرِّياحُ وكان الله عُلى كلِّ شيءٍ مقتَدِرا * المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدُّنيا والباقياتُ الصَّالحاتُ خيرٌ عند ربِّك ثواباً وخيرٌ أملا ﴾[سورة الكهف:٤٥،٤٦] .

٣- وكقوله تبارك وتعالى: ﴿ إعلَموا أنَّما الحياةُ الدُّنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتَفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموالِ والأولادِ كمثلِ غيثٍ أعجبَ الكفَّارَ نباتُه ثم يَهيجُ فتراه مُصفَرًّا ثمَّ يكونُ حُطاما وفي الآخرةِ عذابٌ شديدٌ ومغفرةٌ من اللهِ ورضوانٌ وما الحياةُ الدُّنيا إلا متاعُ الغُرور ﴾[سورة الحديد:٢٠] .

ففي هذه الآيات يوضح الله تبارك وتعالى حقيقة الدنيا بأسلوب التمثيل الذي تنجلي به حقائق الأشياء انجلاء لا يبقى بعده أدنى التباس، لأن الأمثال: "قصارى فصاحة العرب العرباء، وجوامع كلمها، ونوادر حكمها، وبيضة منطقها، وزبدة حوارها، وبلاغتها التي أعربت بها عن القرائح السليمة، والركن البديع إلى ذرابة اللسان وغرابة اللَّسَن ..."(١).

وبهذا الأسلوب اتضحت حقيقة الدنيا للمؤمن وأنها أحقر من أن تشغله عن أمر الآخرة لأنها إذا كانت بهذه المثابة من سرعة الفناء والزوال فلن ينخدع بها عاقل، ولا

---

(١) الأمثال القرآنية للدكتور الشريف منصور العبدلي ص ٢٢ .

يلتفت إلى زخرفها ومتاعها المتألق؛لأن هذه الآيات قد أعطته صورة غير مرضية عن الدنيا بأسلوب مؤثر جذاب، ولا شك بأن صاحب النفس الزكية النقية سيرغب عنها وينفر من فتنتها، ويقبل على ما ينفعه في حياته ومعاده وهو الآخرة وما يقربه إلى الله فيها، فإذا فعل ذلك فقد زهد في الدنيا ورغب في الآخرة.

ولم يقتصر القرآن الكريم في تزهيد الناس بالدنيا على هذا الأسلوب البالغ الأثر في النفوس الزكية،بل لقد كان له أساليب أخرى كثيرة بلاغية وغيرها في تبيان هذه الحقيقة لا تقل أثرا عن ضرب الأمثال التي لا يعقلها إلا العاملون، وذلك مثل أسلوب القصر، أو الطِّباق، أو التنفير عنها، أو التقليل من شأنها، أو النهي عن التطلع لها أو الاغترار بها، أو التهديد بالعذاب للمغتر بها .

أما أسلوب القصر ففي مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وما الحياةُ الدُّنيا إلا متاعُ الغُرور ﴾ [سورة آل عمران:١٨٥]، وكقوله سبحانه: ﴿ وما الحياةُ الدُّنيا إلا لِعبٌ ولهو ﴾[سورة الأنعام:٣٢]، وكقوله جل شأنه: ﴿ وما الحياةُ الدُّنيا في الآخرةِ إلاَّ متاع ﴾[سورة الرعد:٢٦]، وقوله سبحانه: ﴿ وما هذه الحياةُ الدُّنيا إلا لَهوٌ ولعب ﴾[سورة العنكبوت:٦٤].

وكقوله جل شأنه: ﴿ إنما هذه الحياةُ الدُّنيا متاعٌ وإنَّ الآخرةَ هي دارُ القرار ﴾[سورة غافر:٣٩] ، وقوله سبحانه: ﴿ إنَّما الحياةُ الدنيا لعبٌ ولَهو ﴾[سورة محمد:٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ إعلموا أنَّما الحياةُ الدنيا لعبٌ ولهو وزِينةٌ وتَفاخر بَينكم وتكاثرٌ في الأموالِ والأولاد ﴾ [سورة الحديد:٢٠] .

وهذا الأسلوب يفيد أن الحياة ما هي إلا متاع زائل، ولعب باطل، ولهو لا فائدة من ورائه لعاقل، وغرور أوحى به الشيطان للإنسان الجاهل، فإذا كانت هذه صفاتها فكيف يقدِّمها المؤمن العاقل على الحياة الدائمة والنعيم المقيم، والمتاع الهنيء الذي لا ينقطع، وهي الجنة المعدة للمتقين .

ويلاحظ أن القصر في الآيات المتقدمة قصر موصوف على صفة، قصرا إضافيا، لإفادة أن تلك الصفات على كثرتها ليس فيها صفة صالحة تشجع المرء، وتغريه على حبها والطمع فيها، بل إنما تزهده فيها، وترغبه فيما هو خير منها وهو الآخرة .

كما أفاده أسلوب الطِّباق الذي ذكر في بعض الآيات السابقة التي جاءت بأسلوب القصر كآية الأنعام: ﴿ وما الحياةُ الدنيا إلا لعبٌ ولَهو وَللدَّارُ الآخِرةُ خيرٌ للذينَ يتقون أفلا تعقلون ﴾[٣٢]، وآية العنكبوت: ﴿ وما هذه الحياةُ الدُّنيا إلا لهوٌ ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيَوانُ لو كانوا يَعلمون ﴾[٦٤]، وآية غافر: ﴿ إنَّما هذه الحياة الدنيا متاعٌ وإنَّ الآخرةَ هي دارُ القرار ﴾[٣٩] .

وكما استفيد أيضا من آيات الموازنة بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة التي اتضح منها حقارة الدنيا وخستها بجنب الآخرة كما في قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ للناس حبُّ الشَّهواتِ من النساءِ والبنينَ والقناطيرِ المُقَنطرةِ من الذهب والفِضَّةِ والخيلِ المسوَّمةِ والأنعامِ والحرثِ ذلك متاعُ الحياةِ الدنيا والله عنده حسنُ المآب * قل أؤُنبئكم بخيرٍ من ذلكم لِلذين اتَّقوا عندَ ربهم جناتٌ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدين فيها وأزواجٌ مطهَّرة ورِضوانٌ من الله والله بصير بالعباد ﴾[سورة آل عمران:١٤،١٥] .

وكما في قوله تعالى: ﴿ أرضِيتُم بالحياةِ الدنيا من الآخرةِ فما متاعُ الحياةِ الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾[سورة التوبة:٣٨] .

وكما في قوله تعالى: ﴿ أفمن وَعدناه وَعداً حسنا فهو لاقِيه كمن متَّعناه متاعَ الحياة الدنيا ثم هو يومَ القيامة من المُحضَرين ﴾[سورة القصص:٦١] .

وكما في قوله تعالى: ﴿ بل تُؤثرون الحياةَ الدنيا * والآخِرةُ خيرٌ وأبقى ﴾[سورة الأعلى:١٦،١٧] .

فإن هذه الآيات لم تبق في نفس العاقل أي قيمة للدنيا؛ لأنها بما فيها من زهرة ولذة لا تعدو كونها متاعا زهيدا سرعان ما يزول، فإذا ما قورنت بالنعيم المقيم الذي دلت عليه آية آل عمران، كانت المقارنة حينئذ شكليَّة فقط، لأنه المتاع الزائل، لا يقارن بالدائم الكامل، ولذلك كان المغتر بمتاع الحياة الدنيا بعد أن يعرف نعيم الآخرة المنشغل به عنه يُعد فاقد الوعي، وحقه حينئذ أن يتساءل عنه بأسلوب التوبيخ والتقريع، فيقال له: ﴿ أرَضِيتُم بالحياةِ الدنيا من الآخِرة ؟..﴾ أو يقال له: ﴿ أفَمن وَعدناه وَعداً حَسَنًا فهو لاقيه كمن متَّعناه متاعَ الحياةِ الدنيا؟..﴾ والإجابة لدى العاقل الموفق معلومة، فإنه لا

يرضى الحياة الدنية الفانية بدلا عن الآخرة الباقية، ولا يجهل أن من وعده الله وعدا حسنا خير ممن نال حظا زهيدا من متاع زائل .

ولا شك في ضلال من رضي بالحياة الدنيا بدلا عن الآخرة لأنه استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، ومعلوم أن الكثير من بني الإنسان قد اختار العاجلة وترك الآخرة لغيِّه وجهله، ولذلك كان قول الله تعالى: ﴿ كلَّا بل تُحبُّون العاجلةَ وتَذرونَ الآخِرة ﴾[سورة القيامة: ٢٠،٢١] وقوله سبحانه: ﴿ بل تُؤثرون الحياةَ الدنيا ﴾[سورة الأعلى:١٦] كالنتيجة المقررة لحال الجنس البشري. وفي هذه الآيات ما فيها من التنفير من متاع الحياة الدنيا الزائل الذي يصد عن الله وعبادته، والتحقير من شأنه لمن ألقى السمع وهو شهيد .

نهي القرآن الكريم عن الاغترار بالدنيا :

ولما كانت بعض النفوس الدنية والأفهام القاصرة قد ترى في كل ما تقدم من تزهيد ما يمنعها عمَّا يوافق شهواتها من متاع الحياة الدنيا، لكونه ليس فيه نهي محض، أو حظر صريح ، غير أن الله تعالى لم يترك الأمر على ما قد يُظَن بالفهم الرديء، أو الهوى الشيطاني، إذ لو كان الأمر كذلك لم يبق من يؤثر الآجلة على العاجلة، ومن يبتغي الله والدار الآخرة، وذلك لأن الجنة حُفَّت بالمكاره، أما النار فإنها حُفَّت بالشهوات(١) .

وإنما اتخذ الله تعالى أسلوبا آخر لإنقاذ الناس من مغبَّة الخسارة التي سيواجهونها إن هم استمروا على ذلك بمقتضى رأفته ورحمته بعباده، ولطفه وخبرته بهم .

وذلك الأسلوب هو أسلوب النهي عن الاغترار بالدنيا والافتتان بها، والتحذير من زخرفها وذم من ركن إليها، ووعيد من لم يؤثِّر فيه شيءٌ من ذلك بالعذاب الأليم .

أما النهي فكما في قوله تعالى: ﴿ فلا تَغرَّنَّكُم الحياةُ الدنيا ولا يَغرَّنكم بالله الغَرور ﴾ [سورة لقمان:٣٣، وفاطر:٥] .

وحق على المؤمن أن يقف عند أوامر الله تعالى ونواهيه سواء كانت للإيجاب أو

---

(١) كما جاء في حديث البخاري في الرقاق، باب حجبت النار بالشهوات ١٢٧/٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: "حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره" .

للإرشاد كما هو في هذه الآية، لأن ذلك دليل كمال الإيمان إذ عدم فعل ذلك يدل على عدم اكتراثه بتوجيهات خالقة وتعليماته .

ولكن حمل النهي في هذه الآية على التحريم يؤيده ما أعده الله من العذاب الأليم لمن غرته الحياة الدنيا واطمأن إليها وألهته عن واجباته التعبدية التي خلقه الله عز وجل من أجلها، وذلك ما يدل عليه قوله جل شأنه: ﴿ فمِن النَّاس من يقول ربَّنا آتِنا في الدُّنيا وماله في الآخِرة من خَلاق ﴾[سورة البقرة:٢٠٠]، وقوله سبحانه: ﴿ ... ومَن كان يُريد حرثَ الدُّنيا نُؤتِهِ منها وما لَه في الآخِرة من نَصيب ﴾[سورة الشورى:٢٠]، وقوله عز شأنه: ﴿ الذين يَستحبُّون الحياةَ الدُّنيا على الآخِرة ويَصدونَ عن سبيلِ الله ويَبغونها عِوجا أولئِك في ضَلال بعيد ﴾[سورة إبراهيم:٣] .

فهذه الآيات وإن لم يكن الوعيد بالعذاب من خلالها صريحا، إلا أن آيات أخرى قد تحدثت عن ذلك صراحة، و ذلك كما في قوله تعالى: ﴿ أولئِك الَّذين اشتَروا الحياةَ الدنيا بالآخِرة فلا يُخفف عنهم العذابُ ولا هم يُنصرون ﴾[سورة البقرة:٨٦]، وقال أيضا: ﴿ إنَّ الذين لا يرجون لقاءَنا ورَضُوا بالحياةِ الدنيا واطمأنُّوا بها والَّذين هم عن آياتِنا غافلون * أولئِك مأواهم النارُ بما كانوا يكسبون ﴾[سورة يونس:٧،٨] .

وهذه الآيات وإن كان سياق حديثها عن الكفار لأنهم هم الذين برزت فيهم هذه الصفات كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ زُيِّنَ للذين كفَروا الحياةُ الدنيا ﴾[سورة البقرة:٢١٢]، وكما قال: ﴿ قالوا شَهِدنا على أنفسِنا وغرَّتهم الحياةُ الدنيا وشهدوا على أنفسِهم أنهم كانوا كافرين ﴾[سورة الأنعام:١٣٠]، إلا أن من تخلق بأخلاقهم وتشبه بهم، يجري عليه ما يجري عليهم من العذاب غير أنه لا يخلد معهم إلا بالاعتقاد الموصل لذلك، لأن كل آية تحمل وعيدا على الكافرين، فإنها تجرُّ بذيلها إلى عصاة المؤمنين، والاغترار بالحياة الدنيا والإعراض عن الآخرة هو شأن الكافرين الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار كما قال تعالى: ﴿ من كان يُريد الحياةَ الدنيا وزِينتها نُوفِّ إليهم أعمالَهم فيها وهم فيها لا يُبخسون * أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النَّارُ وحبِطَ ما صَنعوا فيها وباطلٌ ما كانوا يعملون ﴾[سورة هود:١٥،١٦]، والمؤمن يقتضي منه إيمانه أن لا تكون فيه خَلَّة من

خلال الكافرين؛ لأن أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا وهم في الآخرة عنها معرضون .

الأخذ بنصيب من الدنيا لا ينافي الزهد :

هذه هي نظرة القرآن الكريم إلى الحياة الدنيا ومتاعها الزائل عندما تعارض أمور الآخرة وطاعة الخالق جل وعلا، وذلك عندما تتوغل محبة الدنيا في قلب المؤمن، وتصبح عائقا له عن الطاعات والقُربات .

أما إذا لم تكن كذلك بأن كانت في يده فحسب لا في قلبه، وفي طاعة ربه لا في معصيته،فإن القرآن الكريم لم يذم الدنيا ومتاعها والحالة هذه؛ لأن هذا الحال لا ينافي الزهد فقد قال الله تعالى: ﴿ قل من حرَّم زينةَ اللهِ التي أخرجَ لِعبادِه والطَّيباتِ من الرزق ﴾[سورة الأعراف:٣٢]، والاستفهام إنكاري معناه النفي، أي: لا أحد يحرِّم زينة الله تعالى التي خلقها لعباده في الدنيا، وكذا الطيبات من الرزق في المطعوم ونحوه مما يوصف بهذا الوصف في متاع الحياة الدنيا، ولذلك أمر الله تعالى عباده وحثهم على السعي وراء الحياة الدنيا في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ ولا تَنس نصيبَك من الدُّنيا ﴾[سورة القصص:٧٧]وقوله سبحانه: ﴿ هو الذي جعلَ لكم الأرضَ ذَلولا فامشُوا في مناكِبِها وكُلوا من رِزقه وإليه النُّشور ﴾[سورة الملك:١٥] .

وكم رغَّب القرآن بالانفاق في الخير والتصدق والإحسان والجهاد بالمال ونحو ذلك، ولا يتم ذلك إلا بالكسب والادخار، والعناية بالدنيا ومصالحها، ولولا ذلك لفسدت الحياة، وشريعة الإسلام تنظر إلى الدنيا على أنها مزرعة للآخرة، وأن الدين لا يقوم إلا بعمارة الدنيا كما هو معلوم، ولكن على أن لا تكون الدنيا هي الغاية في الحياة، وإنما لتكون وسيلة للآخرة .

ولهذه النظرة جاء القرآن آمرا بالزهد في الدنيا، وآمرا بالسعي وراء ما يصلح الحياة فيها؛ لأنه لا تناقض بينهما، بل إن كلا الحالين مطلوب ومرغب فيه، وله وجه صحيح سائغ في نظره، وهو أن ما في القرآن من آيات زهديات (ليست ترغيبا بالفقر والضعف والمسكنة، بل هي تربية أخلاقية تدفع المسلم إلى فضائل البذل والعطاء والبعد عن رذائل

البخل والشح ومسببات قسوة القلب والكبر والعجب والاستعلاء على الناس، ودعوة إلى القناعة بما قسم الله من رزق، والالتزام بما أذن الله من كسب، وتربية على العفّة عما في أيدي الناس، والطمع بما لدى الآخرين، وعدم النظر إليه بحسد ورغبة بامتلاكه، وأن يصرف المؤمن قلبه عن التعلق بالأشياء الدنيوية لذاتها أو لِلذّاتها كي يتوجه شطر الآخرة، ومحبة الله وابتغاء مرضاته، حتى إذا رأى المؤمن أن مرضاة الله تعالى تتحقق بالتخلي عن عرض الحياة الدنيا، تخلى عنه ابتغاء مرضاة الله وإيثارا لثواب الآخرة)(١) .

وهذا هو ما كان يعلمه السلف الصالح من الزهد، فقد كانوا يقولون:« ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله عز وجل أوثق منك بما في يدك،وأن يكون حالك في المصيبة، وحالك إذا لم تصب بها سواء، وأن يكون مادحك وذامك في الحق سواء»(٢) .

وقال بشر بن الحارث(٣):« ليس الزهد في الدنيا ترك الدنيا، إنما الزهد أن تزهد في كل ما سوى الله، هذا داود وسليمان عليهما السلام، قد ملكا الدنيا، وكانا عند الله من الزاهدين»(٤) .

وإنما كان هؤلاء السلف كذلك؛ لأنهم فهموا عن الله تعالى مراده من التزهيد في الدنيا، وأن ما كانوا عليه لا ينافي الزهد، بل هم في ذلك الحال من الزاهدين؛ لأن الدنيا ليست في قلوبهم، وإنما هي في أيديهم، فهم يكسبون وينفقون في مرضاة الله تعالى .

---

(١) الأخلاق الإسلامية للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني ٥٣٠/٢ بتصرف يسير .

(٢) عزاه البيهقي في شعب الإيمان ٤٠٥/٧ إلى يونس بن ميسرة الجيلاني الثقة العابد الشهيد سنة ١٣٢ هـ، له ترجمة في طبقات ابن سعد ٤٦٦/٧، وحلية الأولياء ٢٥٠/٥، وتهذيب التهذيب ٤٤٩/١١، والتقريب رقم ٧٦١٩ وغيرها .

(٣) هو أبو نصر الحافي الزاهد الثقة القدوة، الجليل المشهور، مات سنة ٢٢٧ هـ، له ترجمة في طبقات ابن سعد ٣٤٢/٧، وحلية الأولياء ٣٣٦/٨، والتهذيب ٤٤٤/٢، والتقريب برقم ٦٨٠ .

(٤) الزهد الكبير للبيهقي ص ٧٤ .

وكيف لا يكونون كذلك وهم أحرص الناس على اتباع أوامر الله تعالى ونواهيه، واقتفاء شرع نبيه، والاهتداء بهديه .

والقرآن الكريم مليء بالحث على الادخار والانفاق في سبيل الله تعالى وطرق مرضاته، وفوق ذلك يثني ثناء بالغا على من يجمع بين الدنيا والآخرة، وذلك حيث يقول: ﴿ ومنهم من يَقولُ رَّبنا آتِنا في الدنيا حسنَة وفي الآخِرة حَسنةً وقنا عذابَ النَّار * أولئِك لهم نصيبٌ مما كسبوا والله سريعُ الحساب ﴾[سورة البقرة:٢٠١،٢٠٢] .

فإن الله عز وجل يثني في هذه الآية على من يطلب من الله الدنيا والآخرة، بخلاف من يطلب الدنيا فقط، وهم الذين قال الله عنهم: ﴿ فمِن النَّاس من يَقول رَّبنا آتِنا في الدُّنيا وما له في الآخرة من خَلاق ﴾[سورة البقرة:٢٠٠] .

"وقد جمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا والآخرة، وصرفت كل شر، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء جميل ... إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا .

وأما الحسنة في الآخرة، فأعلى ذلك دخول الجنة، وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب ... وغير ذلك من امور الآخرة الصالحة .

وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام، وترك الشبهات والحرام"(١) .

وقد وعدهم الله تعالى بالإجابة، وكان ذكره لهم على سبيل المدح والتنويه، فدل على أن طلب الدنيا، والسعي وراءها أمر محمود، إذا لم يكن مقصودا لذاته، بل ليكون وسيلة لإصلاح الدين، وأداء واجب العبادة الذي هو الغاية من خلق الجن والإنس، وإذا لم تكن مستحوذة على القلب، بل أن تكون في اليد فقط .

وبهذا علمت أن مفهوم الزهد بمعنى رفض الدنيا بالكلية كما هو حال الرهبانية

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٢٤٣-٢٤٤ .

النصرانية، وحال بعض المتصوفة، ليس هو المفهوم الإسلامي الصحيح له، وأن المفهوم الصحيح له هو ما علمته من حال السلف الصالح مما تقدم بيانه . وا لله أعلم .

ولهذا قال ابن القيم رحمه ا لله: "ليس المراد بالزهد رفض الدنيا من الملك، فقد كان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما، ولهما من المال والنساء ما لهما، وكان نبينا صلى ا لله عليه وسلم من أزهد البشر على الإطلاق، وله تسع نسوة، وكان علي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير، وعثمان رضي ا لله عنهم من الزهاد، مع ما كان لهم من الأموال، وكان الحسن بن علي رضي ا لله عنه من الزهاد مع أنه كان من أكثر الأمة محبة للنساء ونكاحا لهن وأغناهم، وكان عبد ا لله بن المبارك من أئمة الزهاد، وكان له رأس مال، يقول: لولا هو لتمندل بنا هؤلاء"(١) .

وقال في طريق الهجرتين بعد أن قسَّم الزهد إلى ثلاثة أقسام، وذكر القسم الأول منه وهو الزهد في الدنيا قال: "وليس المراد تخليها من اليد، ولا إخراجها وقعوده صفرا منها، وإنما المراد إخراجها من قلبه بالكلية، فلا يلتفت إليها، ولا يدعها تساكن قلبه، وإن كانت في يده، فليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهي في قلبك، وإنما الزهد أن تتركها من قلبك وهي في يدك، قال: وهذا كحال الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز الذي يضرب بزهده المثل، مع أن خزائن الأموال تحت يده، بل كحال سيد ولد آدم صلى ا لله عليه وسلم حين فتح ا لله عليه من الدنيا ما فتح ولا يزيده ذلك إلا زهدا فيها"(٢) .

وبهذا علمت حقيقة الزهد في الدنيا، ونظر القرآن الكريم إليه، وما ينبغي أن يكون عليه الزهد .

---

(١) مدارج السالكين ١٢/٢ .

(٢) طريق الهجرتين ص ٢٥٢ .

تمثل خلق الزهد في النبي صلى الله عليه وسلم

بعد أن علمنا أن القرآن الكريم جاء بذلك التوازن الفذ بين الدنيا والآخرة ورغبات الجسد وأشواق الروح ...الخ .

نعلم أن الزهد لا يحصل إلا بالمعرفة الكاملة لهذه الدنيا وقيمتها كما روي (أُخبُر تقله)(١) .

والنبي صلى الله عليه وسلم كان أعرف الخلق بالدنيا ومقدارها، إذ هو القائل :

١ - "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جَناح بَعوضة ما سقى كافراًمنهاشربة ماء"(٢) .

٢ - وهو القائل: "ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أُصبعه في اليمِّ فلينظر بم ترجع"(٣) .

٣ - وهو القائل: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر"(٤) .

كما أن الزهد لا يتحقق إلا إذا كان بطريقة الاختيار، أما إذا كان المرء لا يجد إلا ما لا بد منه، ولكنه يتوق إلى الكثير من متاع الحياة فلا يكون زاهدا .

والنبي صلى الله عليه وسلم كان زهده اختياريا، فقد عُرض عليه أن تكون بطحاء

---

(١) أخرجه أبو يعلى والعسكري في الأمثال، والطبراني في الكبير عن أبي الدرداء بطرق ضعيفة، انظر المقاصد الحسنة للسخاوي ص ٢٥ .

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه برقم ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد، باب مثل الدنيا برقم ٤١١٠، وقال عنه الترمذي: صحيح غريب، وقال الألباني في الصحيحة رقم ٦٨٦، ٩٤٣: صحيح لغيره لشواهده .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة برقم ٢٨٥٨، والترمذي في الزهد، باب رقم ٥١ برقم ٢٣٢٣،وابن ماجه في الزهد، باب مثل الدنيا برقم ٤١٠٨ من حديث مستور بن شداد .

(٤) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق برقم ٢٩٥٦، والترمذي في الزهد باب رقم ١٦ برقم ٢٣٢٤ من حديث أبي هريرة .

مكة ذهبا فأبى وقال: "لا يا رب أجوع يوما وأشبع يوما، فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرَّع إليك، وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدُك، وأثني عليك"(١) .

٤ ـ وجاء أنه صلى الله عليه وسلم رود في أن تفتح له خزائن الأرض وقيل له : "إن شئتَ أن نُعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعطه نبيا قبلك ، ولا نعطي أحدا من بعدك، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله" فقال: "إجمعوها لي في الآخرة" فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿ تَبارك الَّذي إن شاءَ جعل لك خَيراً من ذلك جنَّاتٍ تجَري مِن تحتها الأنهارُ ويَجعل لك قُصورا ﴾(٢)[سورة الفرقان:١٠] .

٥ ـ ولذا كان صلى الله عليه وسلم راضيا من الدنيا بالكَفاف، بل وأقل منه، وزهد فيها زهدا لم يُعلم لأحد قبله ولا بعده مثله، حيث عاش عيشة الفقراء مدة حياته حتى "مات ودرعه مرهونة عند يهودي"(٣)، ومع ذلك فقد كان يُعطِي عطاء من لا يخشى الفقر، ويتمتع بالطيبات متى ما تيسرت من غير سرف ولا مخيلة، ليوضح لأمته حقيقة الزهد لتستن به فيه؛ لأنه إمام الزاهدين، وقدوة المؤمنين، وحجة الله على العالمين .

وكتب السنة المشرفة تعج بأخبار زهده صلى الله عليه وسلم في الدنيا .

فمن ذلك ما جاء في عيشه الخشن الذي عاشه في هذه الحياة اختيارا منه صلى الله عليه وسلم لذلك، ومنه :

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه برقم ٢٣٤٧ من حديث أبي أمامة وقال: حديث حسن .

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٦٣/٥ إلى الفريابي وابن أبي شيبة في المصنَّف وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردوية، ولكن الحديث من مراسيل خيثمة بن عبد الرحمن، وهو ثقة كما في التقريب رقم ١٧٧٣، وذكره ابن كثير في تفسيره ٣١٠/٣، والشوكاني في تفسيره ٦٤/٤، على نحو ما ذكره السيوطي، وذكره أيضا الماوردي في أعلام النبوة ص ٢٨٤ .

(٣) كما جاء في حديث البخاري في الجهاد، باب ما قيل في درع النبي صلى الله عليه وسلم ٤٩/٤، ومسلم في المساقاة، باب الرهن وجوازه برقم ١٦٠٣، من حديث ابن عباس .

١ ـ ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه وسلم: "اللهم اجعل رزق آلَ محمد قوتا"(١)، فانظر كيف يدعو الله وهو المستجاب دعاؤه، أن يجعل رزقه في هذه الحياة ما يقوت البدن، ويكف عن الحاجة، دون الزائد على ذلك .

٢ ـ وقد حقق الله له ذلك، وخرج من الدنيا ولم يشبع من خبز حنطة ثلاثة أيام تِباعا، حتى فارق الدُّنيا(٢) .

٣ ـ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة من طعام بُرٍّ ثلاث ليال تِباعا حتى قُبِضَ"(٣) .

٤ ـ وعنها رضي الله تعالى عنها قالت: "كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه نارا، إنما هو التمر والماء، إلا أن نؤتى باللُّحَيم"(٤) ـ تصغير لحم ـ .

٥ ـ وعنها رضي الله عنها أنها قالت لابن أختها عروة بن الزبير رحمه الله: "ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة في شهرين وما أُوقدت في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نارٌ، فقلت: ما كان يعيشكم ؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيران من الأنصار كان لهم منائح☆، وكانوا يمنحون رسول الله صلى الله عليه وسلم من ألبانهم فيسقيناه"(٥) .

---

(١) البخاري في الرقاق، باب ما جاء في عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وتخليهم عن الدنيا ١٢٢/٨، ومسلم في الزكاة، باب في الكفاف والقناعة برقم ١٠٥٥ .

(٢) كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم في الزهد والرقائق برقم ٢٩٧٦ .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتخليهم من الدنيا ١٢١/٨، ومسلم في الزهد برقم ٢٩٧٦، واللفظ للبخاري .

(٤) أخرجه البخاري في الكتاب والباب السابقين ١٢١/٨، ومسلم كذلك برقم ٢٩٧١ .

(٥) أخرجه البخاري في الكتاب والباب السابقين ١٢١/٨، ومسلم كذلك برقم ٢٩٧٢، واللفظ للبخاري .

☆ منحة اللبن أن يعطيه ناقة أو شاة ينتفع بلبنها ويعيدها . النهاية ٣٦٤/٤

٦ - وعنها رضي الله عنها قالت: "ما أكل آلُ محمد صلى الله عليه وسلم أكلتين في يوم إلا إحداهما تمر"(١) .

٧ - وعنها رضي الله عنها قالت: "تُوفِّي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وما في رفّي(٢) من شيء يأكله ذو كبد، إلا شطر شعير في رَفٍّ لي فأكلت منه حتى طال عليَّ فكلته ففني"(٣) .

٨ - وعنها رضي الله عنها قالت: "لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرَّتين"(٤) .

فهكذا ظل عليه الصلاة والسلام على التقلل من العيش بهذه المثابة الصَّعبة والتي كانت تفقد أحيانا، فقد كان يظل أياما وليالي طاويا على الجوع .

٩ - كما أخرج مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يذكر ما أصاب الناس من الدنيا فقال: "لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يظل اليوم يلتوي ما يجد دقَلا(٥) يملأ بطنه"(٦) .

١٠ - وعن عتبة بن غزوان(٧) رضي الله عنه قال: "لقد رأيتني سابع سبعة مع رسول

---

(١) أخرجه البخاري في الكتاب والباب السابقين ١٢١/٨، ومسلم كذلك برقم ٢٩٧١ .

(٢) هو خشب يرفع من الأرض إلى جنب الجدار، توضع عليه الأمتعة .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب فضل الفقر ١١٩/٨، ومسلم في الزهد برقم ٢٩٧٣ .

(٤) أخرجه مسلم في الزهد برقم ٢٩٧٤ .

(٥) الدقل: رديء التمر ويابسه، وما ليس له اسم خاص، فتراه لِيُبسِه وراءته لا يجتمع ويكون منثورا. النهاية ١٢٧/٢ .

(٦) أخرجه مسلم في الزهد برقم ٢٩٨٧، والترمذي في الزهد، باب في معيشة النبي صلى الله عليه وسلم برقم ٢٣٧٢، والبغوي في الأنوار برقم ٤٣٥ .

(٧) صحابي ممن أسلم قديما وهاجر الهجرتين، وشهد بدرا وبيعة الرضوان وما بعدهما، وكان أول من نزل البصرة، وهو الذي اختطها، وتوفي بالبصرة سنة ١٧ هـ، انظر طبقات ابن سعد ٩٨/٣، وتهذيب الأسماء ٣١٩/١ .

الله صلى الله عليه وسلم ما طعامنا إلا ورق الحَبْلَة(١) حتى قرحت(٢) أشداقنا(٣)" .

١١ - وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه نحو ذلك(٤) .

١٢ - وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت الليالي المتتابعة طاويا وأهله، لا يجدون عشاء، قال: وكان أكثر خبزهم خبز الشعير"(٥) .

١٣ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أخرجكما من بيوتكما الساعة ؟ قالا: الجوع يا رسول الله، قال: "وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا فقاموا معه"(٦) فأتى رجلا من الأنصار(٧) فإذا

---

(١) هي ثمر السمر يشبه اللوبيا، وقيل: هو ثمر العضاة. النهاية ٣٢٢/١ .

(٢) أي: تجرحت، والأشداق: جوانب الفم .

(٣) أخرجه مسلم في الزهد برقم ٢٩٦٧، وابن ماجه في الزهد باب رقم ١٢، برقم ٤١٥٦، وأحمد في المسند ١٧٤/٤ .

(٤) أخرجه البخاري في الأطعمة، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يأكلون ٩٦/٧ .

(٥) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في معيشة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم برقم ٢٣٦٥، وفي الشمائل برقم ١٤٦، وابن ماجه في الأطعمة برقم ٣٣٤٧، وأحمد في الزهد برقم ٣٠، والبغوي في الأنوار برقم ٤٢٨، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح .

(٦) قال الإمام النووي في شرح مسلم ٢١٢/١٣: "هكذا هو في الأصول بضمير الجمع، وهو جائز بلا خلاف لكن الجمهور يقولون: إطلاقه على الاثنين مجاز، وآخرون يقولون: حقيقة" ا.هـ .

(٧) هو أبو الهيثم مالك بن التَّيِّهان الأوسي الأنصاري، أحد الستة الذين لقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما لقيته الأنصار، وشهد العقبة الأولى والثانية، وأول من بايعه ليلة العقبة على قول، شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا وأحدا وسائر المشاهد، وتوفي بالمدينة سنة ٢٠ هـ، انظر طبقات ابن سعد ٤٤٧/٣، وتهذيب الأسماء ٨٠/٢ .

هو ليس في بيته، فلما رأته امرأته قالت: مرحبا وأهلا، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: أين فلان ؟ قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافا مني، قال: فانطلق فجاءهم بعِذق بُسر وتمر(١) ورطب فقال: كلوا من هذه وأخذ المُدية، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إياك والحلوب"(٢)، فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما أن شبعوا وروَوا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر«والذي نفسي بيده لتُسأَلُنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم"(٣) .

فترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عاش بأقل من الكفاف، وبأقل ما يحتاج من القوت، زهدا منه عن لذات المطعم والمشرب طالما أن حاجته منه يمكن أن تسد بالقليل، ولا غرابة في هذا فإنه صلى الله عليه وسلم هو القائل: "ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه، بحسب ابن آدم لُقيمات يُقمن صلبَه، فإن كان لا محالة آكلا فثلثٌ لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه"(٤)، فلذلك كان يكتفي باللُّقيمات إن وجدهن، وإلا بات طاويا اختيارا منه لذلك، وإلا فإنه صلى الله عليه وسلم أكرم على الله تعالى من أن يحوجه إلى طعام وشراب إن أراده، فإنه قد كان إذا ما صام وواصل صيامه أطعمه ربُّه وسقاه كما تقدم في مبحث الصوم(٥) .

---

(١) العذق: العرجون بما فيه من الشماريخ، والبسر: نوع من ثمار التمر .

(٢) أي: احذر أن تذبح شاة ذات حليب .

(٣) أخرجه مسلم في الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك برقم ٢٠٣٨، ومالك في الموطأ في صفة النبي صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الطعام والشراب ٢/٢٢٥، والترمذي في الزهد، باب في معيشة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم برقم ٢٣٦٩ .

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل برقم ٢٣٨٠، وقال: حسن صحيح، وابن حبان في صحيحه ٧/٣٣١، من الإحسان، والحاكم في المستدرك ٤/١٢١، وصححه ووافقه الذهبي، وأحمد في المسند ٤/١٣٢، وابن ماجه في الأطعمة باب الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع برقم ٣٣٤٩ .

(٥) انظر ص٢٩٧ من هذا الكتاب .

زهده في إدامه :

هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم زاهدا في طعامه .

وكذلك كان زهده في إدامه(١)، فإنه لم يكن متعدد الأنواع والألوان، ولا مقصودا ولا متحرًّى فيه، وإنما كان صلى الله عليه وسلم يأكل ما قدِّم له بإدام أو غيره، إن وجد تمرا دون خبز أكله، وإن وجد لحما مشويا أكله، وإن وجد خبز بر أكله، أو شعيرا أكله، وإن وجد حلوى أو عسلا أكله، وإن وجد لبنا دون خبز شربه، وإن وجد خلا ائتدمه ومدحه، يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد(٢)، كما تشهد لذلك أدلة كثيرة :

١ - ففي صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أهله الإدام فقالوا: ما عندنا إلا الخل، فدعا به ، فجعل يأكل به ويقول: "نعم الأُدمُ الخَلُّ"(٣) .

٢ - وفي رواية قال جابر رضي الله عنه: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي ذات يوم إلى منزله فأَخرَج إليه فِلقا من خبز، فقال:ما من أدم ؟ فقالوا: لا، إلا شيء من الخل، قال: فإن الخل نعم الأدم" قال جابر: فما زلت أحب الخل منذ سمعتها من نبي الله صلى الله عليه وسلم، قال طلحة بن نافع - الراوي عن جابر - وما زلت أحب الخل منذ سمعتها من جابر(٤) .

٣ - وعن أم هانىء(٥) رضي الله عنها قالت: "دخل علي رسول الله صلى الله عليه

---

(١) الإدام هو ما يؤتدم به، أي يصلح به الخبز ليستساغ أكله .

(٢) وسائل الوصول إلى شمائل الرسول بشرحه منتهى السول ٩٢/٢ .

(٣) أخرجه مسلم في الأشربة، باب فضيلة الخل والتأدم به برقم ٢٠٥٢، وأبو داود في الأطعمة، باب في الخل برقم ٣٨٢٠، والترمذي في الأطعمة، باب ما جاء في الخل برقم ١٨٣٩، والنسائي في الإيمان، باب إذا حلف أن لا يأتدم فأكل خبزا بخل ١٤/٧ .

(٤) هذه إحدى روايات مسلم للحديث السابق بالرقم نفسه .

(٥) بنت أبي طالب،ابنة عم النبي صلى الله عليه وسلم،واسمها "فاختة" وقيل: "فاطمة"،وهي شقيقة علي بن =

وسلم فقال: هل عندكم شيء ؟ فقلت: لا، إلا كسر يابسة وخل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قرِّبيه، فما أقفرَ بيت من أدم فيه خل"(١) .

٤ - وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأكل البطيخ بالرطب ويقول: "نكسر حرَّ هذا ببرد هذا، وبرد هذا بحر هذا"(٢) .

٥ - وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يأكل الرطب بالقِثَّاء (٣)

فترى كيف كان عليه الصلاة والسلام من الزهادة في المطعومات والبساطة فيها، وهو الذي عرض عليه أن تبسط له الدنيا فيتمتع بما شاء من لذاتها، غير أنه أبى ذلك، ورضي بأن يعيش على حاله، يجوع فيها يوما ويشبع فيها يوما كما تقدم .

أكله صلى الله عليه وسلم من الطيبات مع ما هو عليه من الزهد:

ومع ذلك كان إذا ما تهيأ له الطعام الطيب من غير إشراف نفس أكل ما يحتاج إليه، كما علمت من قصة أبي الهيثم رضي الله عنه، ليدل بذلك على أن الزهد لا ينافيه الأكل من الطيبات التي أباحها الله تعالى لعباده بمثل قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا كُلُوا من طَيِّباتِ ما رَزقناكم واشكُروا لِلّه إن كنتُم إيَّاه تَعبدون ﴾سورة البقرة:١٧٢] .

وقد أمر الله تعالى الرسل أمر إباحة مثل ما أمر بذلك المؤمنين فقال: ﴿ يا أيُّها الرسلُ

= أبي طالب رضي الله عنه أسلمت عام الفتح، وروت عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث أخرجها أصحاب الكتب الستة، وعاشت إلى ما بعد استشهاد علي رضي الله عنه وعنها، انظر الإصابة ٥٠٣/٤، مع الاستيعاب .

(١) أخرجه الترمذي في الأطعمة، باب ما جاء في الخل برقم ١٨٤١ وقال عنه: حسن غريب .

(٢) أخرجه أبو داود في الأطعمة، باب في الجمع بين لونين في الأكل برقم ٣٨٣٦، والترمذي في الأطعمة، باب ما جاء في أكل البطيخ بالرطب برقم ١٨٤٣ وقال: حسن غريب .

(٣) أخرجه البخاري في الأطعمة، باب الرطب بالقثاء ١٠٢/٧ ، ومسلم في الأشربة، باب أكل القثاء بالرطب برقم ٢٠٤٣، وأبو داود في الأطعمة، باب الجمع بين لونين في الأكل برقم ٣٨٣٥ .

كلوا من الطَّيباتِ واعملوا صَالحا إنِّي بما تعَملون عليم ﴾[سورة المؤمنون:٥١] والطيبات: ما يستلذ من المباحات، وقد خاطب الله تعالى الرسل كافة أن يأخذوا بأسباب التنعم لا أن يترهبوا في رفض الطيبات(١) .

والنبي صلى الله عليه وسلم قد كان يمثل القرآن ويطبقه، وكأنه قرآن من البشر يمشي على الأرض، غير أن طيبات المأكولات ووفرتها التي نعهدها اليوم لم تكن في عهده صلى الله عليه وسلم، وغاية ما يمكن أن يوصف بالطيب في عهده عليه الصلاة والسلام هو اللحم وبعض الفاكهة .

١ ـ وقد كان يصيب منها النبي صلى الله عليه وسلم ما يحتاج إليه متى وجده، كما جاء في حديث الترمذي ، في الشمائل عن أبي عبيد ـ مولى للنبي صلى الله عليه وسلم ـ(٢) قال: طبخت قِدرا وكان يُعجبه الذراع، فناولته الذراع، ثم قال: "ناولني الذراع، فناولته، ثم قال: ناولني الذراع، قال: فقلت: يا رسول الله وكم للشاة من ذراع؟ فقال: والذي نفسي بيده لو سكتَّ لناولتني الذراع ما دعوتُ"(٣)، ولو سكت أبوعبيد لكانت معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم في تكثير عدد الذراع، ولكن اعترض فأضاع بذلك المعجزة التي كان يريد النبي صلى الله عليه وسلم إظهارها .

---

(١) انظر تفسير البيضاوي ص ٤٥٦ .

(٢) عده في مواليه صلى الله عليه وسلم ابن سعد ٦٥/٧، والحافظ في الإصابة ١٣١/٤، وابن عبد البر في الاستيعاب ١٢٩/١، والسخاوي في الفخر المتوالي ص ٦٨، وغيرهم وذكروا هذا الحديث، غير أنهم لم يترجموا له، وعزوا إلى الحاكم قوله: إنه لا يعرف اسمه .

(٣) أخرجه برقم ١٦٠، ورواته ثقات، وقد أخرجه الدارمي في سننه، باب ما أكرم به النبي صلى الله عليه وسلم في بركة طعامه ٢٢/١، وأخرجه أحمد من طريقه ٤٨٤/٣، وعزاه الهيثمي في المجمع ٣١٤/٨ إليه وإلى الطبراني قال: ورجالهما رجال الصحيح غير شهر بن حوشب، وقد وثقه غير واحد، وكذا قال الحافظ في الإصابة ١٣١/٤، وقال الألباني في مختصر الشمائل رقم ١٤٣: حديث صحيح، ورجاله ثقات غير شهر بن حوشب، وذكر له شاهدا من حديث أبي رافع مرفوعا به نحوه. ا.هـ .

وقد جاء هذا الحديث عن أبي رافع عند أحمد والطبراني من طرق، انظر مجمع الزوائد ٣١٤/٨ .

٢- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما كانت الذراع أحب اللحم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه كان لا يجد اللحم إلا غِبًّا، وكان يعجل إليها لأنها أعجلها نضجا"(١) .

فأفاد حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأكل الطيبات عند وجودها، بل ويتوق إليها لندرة الحصول عليها، فكان يستعجل بأكل ما يسرع نضجه وهي الذراع، وهكذا كان صلى الله عليه وسلم يأكل من الطيبات كلما تيسرت له .

٣ - فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن خياطا دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لطعام صنعه، قال أنس: فذهبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الطعام، فقرب إلى رسول الله خبزا من شعير ومرقا فيه دُبَّاءٌ وقديد(٢)، قال أنس: فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتتبع الدباء حوالي القصعة، قال أنس: فلم أزل أحب الدباء من يومئذ"(٣) .

٤ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يحبُّ الحلواء والعسل"(٤) .

---

(١) أخرجه الترمذي في الشمائل برقم ١٦١، وفي إسناده عبد الوهاب بن يحيى بن عباد وهو مقبول، وذكره ابن حبان في الثقات، وقد أخرج الحديث الترمذي في الأطعمة، باب في ما جاء أي اللحم كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم برقم ١٨٣٨، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، فإسناده ضعيف، لكن معناه صحيح كما تدل على ذلك الأحاديث المتقدمة في هذا الباب وغيرها، ولا يلزم من ضعف السند ضعف المتن كما لا يخفى ، والغِبُّ: اليوم بعد اليوم.

(٢) القديد: هو اللحم المملوح المجفف في الشمس .

(٣) أخرجه البخاري في الأطعمة، باب من تتبع حوالي القصعة ٨٩/٧، وباب الدباء ص١٠١، وباب المرق ص١٠١، وغيرها، ومسلم في الأطعمة، باب جواز أكل المرق واستحباب أكل اليقطين، وإيثار أهل المائدة بعضهم بعضا ...، برقم ٢٠٤١ .

(٤) أخرجه البخاري في الأطعمة، باب الحلواء العسل ١٠٠/٧ .

غير أن ذلك لم يكن ميسورا في كل وقت، ولما كان الأمر كذلك، كان يأكل ما قدِّم إليه ولا يعيب طعاما، فإذا لم يألفه تركه في صمت وصبر .

٥ ـ فقد دخل الحسن بن علي(١) وابن عباس وابن جعفر(٢) رضي الله عنهم على سلمى زوجة أبي رافع مولى النبي صلى الله عليه وسلم وخادمته عليه الصلاة والسلام وطباخته وقالوا لها: "اصنعي لنا طعاما مما كان يعجب النبي صلى الله عليه وسلم ويحسن أكله فقالت: يا بُنيَّ لا تشتهيه اليوم، قال: بلى اصنعيه لنا، قال: فقامت فأخذت شيئا من الشعيرفطحنته، ثم جعلته في قِدر وصبَّت عليه شيئا من زيت، ودقَّت الفلفل والتوابل(٣) فقربته إليهم، فقالت: هذا مما كان يُعجب النبي صلى الله عليه وسلم ويُحسن أكله"(٤) . وتعني بذلك عند وجوده وتيسره، وإلا فقد تقدم أنه كان يفتقد هذا الطعام وغيره حتى يبيت الليالي المتتابعة طاويا وأهله لا يجدون عشاء(٥) .

---

(١) ابن أبي طالب سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم وريحانته، أمير المؤمنين وخامس الخلفاء الراشدين، ولد سنة ثلاث من الهجرة، وتربى في عناية النبي صلى الله عليه وسلم، وفضائله كثيرة، ومن أعظمها أن الله تعالى أصلح به بين فئتين من المسلمين، ووحد صفوفهم، بعد أن كانت الحرب قد مزقتهم كل ممزق، وتوفي سنة ٤٩ هـ، انظر الاستيعاب ٣٦٩/١، والإصابة ٣٢٨/١، وأسد الغابة ٩/٢، وتهذيب الأسماء ١٥٨/١ .

(٢) تقدمت ترجمتهما ص ٢٦، ٤٥٥ .

(٣) هي أدوية حارة توضع في الطعام لإصلاحه وتحسينه، وتعرف بأبراز الطعام .

(٤) أخرجه الترمذي في الشمائل برقم ١٦٩ وعزاه الهيثمي في المجمع ٣٢٨/١٠ إلى الطبراني قال: ورجاله رجال الصحيح، غير فايد مولى بن أبي رافع وهو ثقة . وقال عنه المنذري في الترغيب ١٩٨/٤: إسناده جيد .

(٥) كما علمت من حديث ابن عباس المتقدم ص ٤٩٧ .

٦ ـ فقد دخلت عليه فاطمة ابنته(١) رضي الله عنها ذات يوم وناولته كِسرة من خبز الشعير فقال: "هذا أول طعام يأكله أبوك منذ ثلاثة أيام"(٢) .

من مظاهر زهده عليه الصلاة والسلام في متاع الدنيا :

كل ما تقدم هو مظهر من مظاهر زهده صلى الله عليه وسلم في لذات الدنيا من مطعوم ومشروب، وهناك مظاهر أخرى كثيرة تبين ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الزهادة في الدنيا في كل متاع الحياة الدنيا، من سكن وأثاث ومدخَّرات التي غالبا ما يتباهى فيها أهل الدنيا،ويتسابقون إلى تحصيلها وتحسينها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، والطيب منهم من حصل على ذلك من الحلال والوجوه الشرعية المتاحة المباحة .

غير أن كثيرا من الناس يبذل في الحصول على ذلك قصارى جهده، ويوفر ذلك من حله أو غير حله، لأن ذلك هو مظهر حياته، ومكانته بين أفراد جنسه .

هذا هو حال كثير من الناس اليوم وقبل اليوم أيضا، إلا من رحم ربك وقليل ما هم، لكن النبي صلى الله عليه وسلم كان في معزل عن ذلك، وكان إعراضه عن ذلك يمثل كمال زهده وعظمته، حيث كان إعراضه عن ذلك رغبة عنها، وطمعا في الدار الآخرة، لكمال معرفته بحال الدنيا وحال الآخرة، فاتخذ لنفسه من ذلك المتاع في المسكن والأثاث والمدخرات .. ما لا يرضى به غيره، مع إمامته وعظمته .

---

(١) الملقبة بفاطمة الزهراء، صغرى بنات النبي صلى الله عليه وسلم وأحبهن إليه وسيدة نساء العالمين بعد مريم بنت عمران، ولدت قبل البعثة بقليل، وأسرعهن لحوقا به، حيث توفيت بعده صلى الله عليه وسلم بستة أشهر كما بشرها بذلك فسرت به، وزوجها من ابن عمها علي بن أبي طالب وعمرها خمس عشرة سنة، سنة اثنتين من الهجرة، وانقطع نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا منها، فرضي الله عنها. انظر الاستيعاب ٣٧٣/٤، والإصابة ٤/ ٣٧٧، وأسد الغابة ٥١٩/٥، وتهذيب الأسماء ٣٥٢/٢ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢١٣/٣ من حديث أنس رضي الله عنه، وعزاه الهيثمي في المجمع ٣١٥/١٠ إليه وإلى الطبراني قال: ورجالهما ثقات .

مسكنه صلى الله عليه وسلم:

أما مسكنه فإنه لم يكن قصرا فسيحا ذا أجنحة،متعدد الطبقات والغُرفات، وإنما كان حُجُرات من لِبْن وطين وخسف النخل .

١ - كما أخرج ابن سعد(١) من حديث عطاء الخراساني(٢) يقول وهو فيما بين القبر والمنبر: "أدركت حجر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من جريد النخل، على أبوابها المسوح(٣) من شعر أسود، قال: فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك(٤) يُقرأ، يأمر بإدخال حجر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فما رأيت أكثر باكيا من ذلك اليوم ، قال عطاء: فسمعت سعيد بن المسيب يقول يومئذ: والله لوددت أنهم تركوها على حالها، ينشأ ناشىء من أهل المدينة، ويقدم القادم من الأفق فيرى ما اكتفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر"(٥) .

٢ - وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى: كنت أدخل بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه فأتناول سُقفها بيدي"(٦) .

---

(١) وهو محمد بن سعد بن منيع البصري الحافظ، كاتب الواقدي، قال فيه الخطيب البغدادي: كان من أهل العلم والفضل، وقال الحافظ في التقريب: صدوق فاضل، توفي سنة ٢٣٠ هـ، انظر تذكرة الحفاظ ٤٧٣/٢، وطبقات الحفاظ للسيوطي ص ١٨٦، والتقريب رقم ٥٩٠٣ .

(٢) هو عطاء بن أبي مسلم الخراساني أحد الأعلام، وكان من خيار عباد الله غير أنه كان رديء الحفظ، كثير الوهم، توفي سنة ١٣٥ هـ، انظر طبقات الحفاظ ص ٦٧، وسير أعلام النبلاء ١٤٠/٦ .

(٣) جمع مسح وهو الجلد ونحوه من متاع الأعراب .

(٤) ابن مروان بن الحكم، الخليفة الأموي السادس، ولي الخلافة سنة ٨٦ هـ، واستمر فيها عشر سنوات، وكان نِهماً في البناء، ومات سنة ٩٦ هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٣٤٧/٤، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٢٣ .

(٥) طبقات ابن سعد ٤٩٩/١ .

(٦) طبقات ابن سعد ٥٠١/١ .

كان بهذه الحجر المتواضعة، راضيا لا يريد أكثر من ذلك، بل إن رأى ما يغير صورتها ووضعها ذلك لم يرض به .

٣ ـ فقد قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: "خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة فأخذت نَمطًا(١)، قالت: قلما قدم فرأى النمط عرفت الكراهية في وجهه، فجذبه حتى هتكه وقال: "إن الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين"(٢) .

فانظر كيف كره تغيير صورة البيت بكسوة جدرانها وتزيينها، لما في ذلك من داع إلى الرغبة فيها، وما ذلك إلا لكمال زهده فيها، وإعراضه عن زخارفها وفتنتها .

تزهيده صلى الله عليه وسلم ابنته في الدنيا :

وقد كان صلى الله عليه وسلم يريد أن يكون آل بيته من بناته ونسوته،لا بل أمته كلها على ما كان عليه من خلق الزهد لما يراه لهم ويوده لهم من الخير .

١ ـ فقد جاء ذات مرة إلى بيت ابنته فاطمة رضي الله عنها فوجد على بابها سترا، فلم يدخل، وقلّما كان يدخل(٣) إلا بدأ بها، فجاء علي رضي الله عنه فرآها مهتمة فقال مالك ؟ قالت: جاء النبي صلى الله عليه وسلم إليّ فلم يدخل، فأتاه علي رضي الله عنه فقال: يا رسول الله إن فاطمة اشتد عليها أنك جئتها فلم تدخل عليها فقال: "وما أنا والدنيا ، وما أنا والرقم"(٤) .

فذهب إلى فاطمة فأخبرها بقول رسول الله عليه وسلم فقالت: قل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما يأمرني به ؟ قال: "قل لها ترسل به إلى بني فلان"(٥) .

---

(١) هو ضرب من البسط له خمل رقيق. النهاية ١١٩/٥ .

(٢) أخرجه البخاري في اللباس، باب ما وطىء في التصاوير ٢١٥/٧، ومسلم في اللباس، باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة برقم ٢١٠٧ واللفظ له .

(٣) أي المدينة بعد عودته من الغزو .

(٤) يريد النقش والوشي، يعني الزينة، والأصل فيه الكتابة. النهاية ٢٥٣/٢ .

(٥) أخرجه أبو داود في اللباس، باب اتخاذ الستور برقم ٤١٤٩، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٥٥٥٥ .

٢ ـ وجاءته مرة تشتكي عناءها في خدمة البيت، وتطلب منه خادما من السبي، فقال لها: "ألا أدلك على ما هو خير لك من خادم ؟ تسبحين الله ثلاثا وثلاثين، وتحمدين ثلاثا وثلاثين، وتكبرين أربعا وثلاثين، حين تأخذين مضجعك"(١) .

فهكذا كان زهده صلى الله عليه وسلم في الدنيا، فهو لم يقتصر به على نفسه، بل أحبه وأراده أيضا من أحب الناس إليه، لا بل من أمته كلها، وذلك لما يعلمه من قيمة الدنيا وقيمة الآخرة من أنهما ضرتان، فمن أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، وقد قال له ربه: ﴿ وَلَلآخرةُ خيرٌ لك من الأولى ﴾[سورة الضحى:٤]، ولكمال رأفته بابنته وبأمته أراد لها ما هو الخير الذي يريده لنفسه، وهذا عكس ما عليه حكام الدنيا الذين لا يعرفون هذه الحقيقة فتراهم مع أهليهم وخاصتهم يغدقون عليهم متاع الدنيا وأثاثها وزينتها سواء كان من حله أو من غير حله .

زهده صلى الله عليه وسلم في الأثاث :

أما زهده عليه الصلاة والسلام في الأثاث فهو من أعظم صور زهده في هذه الحياة، حيث رضي أن يفترش الحصير، ويلبس الصوف بالصورة التي كان عليها الصوف آنذاك، ويأكل ويشرب في آنية الفخار والخشب.. مما كان يحز في نفوس أصحابه الكرام الذين عرفوا أحوال العظماء في الدنيا، وهو صلى الله عليه وسلم قد كان أعظم عظماء الدنيا والآخرة، ومع ذلك لم يرغب فيما يرغبون فيه، وإنما آثر الزهد فيها ورضي بما يرضى به أقل الناس شأنا في الدنيا .

١ ـ فقد دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عليه صلى الله عليه وسلم مَشرُبة(٢) كان معتزلا فيها، فرأى منظرا هاله في حال النبي صلى الله عليه وسلم في أثاثه ومتاعه،

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب التسبيح أول النهار وعند النوم برقم ٢٧٢٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) المشربة: بضم الراء وفتحها: الغرفة .

أخبر عنه بقوله :

"دخلت عليه فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرمال بجنبه، متكىء على وسادة حشوها ليف، قال: فسلمت عليه ... إلى أن قال: فرفعت بصري في بيته فو الله ما رأيت في بيته شيئا يرد البصر غير أُهبة(١) ثلاثة، فقلت: يا رسول الله ادع الله فليوسع على أمتك، فإن فارس والروم وسّع عليهم، وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله، قال: وكان متكئا فقال: "أوفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، قال: فقلت: يا رسول الله استغفر لي ..."(٢) .

٢ - وفي رواية قال عمر: فبكيت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: وما يبكيك ؟ قال: فقلت يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله ..."(٣) .

٣ - وفي أخرى قال: "فابتدرت عيناي فقال: ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟ قال: فقلت: وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الأنهار والثمار، وأنت رسول الله وصفوته ..."(٤) .

فانظر إلى مبلغ رضى النبي صلى الله عليه وسلم بالحال الذي هو عليه لعلمه بقدر الدنيا، وما يدخره الله تعالى لعباده المؤمنين في الآخرة، ولذلك عاتب عمر رضي الله عنه على مقارنة حال المؤمنين بحال الكفرة الذين عبر عنهم بقوله عليه الصلاة والسلام: "أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم" أي في الحياة الدنيا، أما الآخرة فليس لهم فيها نصيب من نعيمها المقيم، وإنما هو خالص لعباد الله المؤمنين كما قال تعالى: ﴿ مَن كان يريد

---

(١) جمع إهاب وهو الجلد .

(٢) أخرجه البخاري في المظالم، باب الغرفة والعلية والمشرفة ... ٣/١٧٥-١٧٦، وفي النكاح، باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها ٧/٣٦-٣٨ وهو جزء من حديث طويل، وأخرجه مسلم في الطلاق، باب الإيلاء واعتزال النساء برقم ١٤٧٩ .

(٣) هذه رواية عبيد بن حنين .

(٤) هذه رواية سماك، ذكرهما الحافظ في الفتح ١٩/٣٤٤ .

الحياة الدنيا وزينتها نوفِّ إليهم أعمالَهم فِيها وهم فيها لا يُبخسُون * أولئِك الَّذين ليس لهم في الآخرةِ إلا النَّارُ وحَبِط ما صَنعُوا فيها وباطلٌ ما كانوا يعملون ﴾[سورة هود:١٥،١٦]، فالنعيم والترف في الدنيا هو حظ الكافرين لأن جنتهم الدنيا التي لا تزن عند الله جناح بعوضة، "ولو كانت تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء" كما في الحديث(١) .

لذلك يوالي الله تعالى عليهم النعيم في الدنيا، ولولا رأفته ورحمته بعباده ألا يختاروا الكفر على الإيمان لما جبلوا عليه من حب العاجلة، وتطلعهم إلى النعيم في الدنيا والآخرة لبسط على الكفار من الدنيا أكثر مما هم عليه كما قال الله تعالى: ﴿ ولولا أن يكونَ النَّاسُ أمَّةً واحدةً(٢) لجعلنا لِمن يكفُر بالرَّحمن لِبيوتهم سُقُفًا من فضَّةٍ ومعارجَ(٣) عليها يَظهَرُون * ولِبُيوتِهم أبواباً وسُرُرًا عليها يَتَّكِئون * وزُخرُفا وإن كُلُّ ذلك لمَّا متاعُ الحياةِ الدُّنيا والآخرةُ عندَ رَّبك لِلمُتَّقين ﴾[سورة الزخرف:٣٣-٣٥] .

والنبي صلى الله عليه وسلم كان أعرف الخلق بهذا، فلذلك لم يبال بالدنيا ولم يلتفت إليها بل زهد فيها كزهد أحد منا بأخس الأمتعة كما هو معلوم، فلم يرض بأثاثها الفخم ولا متاعها الفاخر،

٤ ـ وقد أراد ابن مسعود رضي الله عنه ذات يوم أن يتخذ له وِطاء يجعله بينه وبين الحصير لمَّا رآه قد أثر في جنبه الشريف، فلم يرض عليه الصلاة والسلام بذلك وقال له: "ما لي وللدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها"(٤) وهذا تمثيل بليغ لحال الدنيا وسرعة زوال المرء منها، والذي يعرف سرعة تصرمه وانقضاء أيامه كيف يتعنى في المتاع والأثاث؟! .

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل برقم ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد، باب مثل الدنيا برقم ٤١١٠، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه وهو حديث حسن .

(٢) أي في الكفر حيث يرغبون فيه إذا رأوا الكفار في سعة من الدنيا. انظر تفسير البيضاوي ص ٦٥٠ .

(٣) أي من فضة .

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد، باب رقم ٤٤ برقم ٢٣٧٧، وابن ماجه في الزهد، باب مثل الدنيا برقم ٤١٠٩، والإمام أحمد في المسند ٣٩١/١، والحاكم في الرقاق ٣١٠/٤، وصححه ووافقه الذهبي وذكر له شاهدا، وله شاهد آخر أخرجه البخاري في الهبة ٢١٣/٣ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

٥ - والنبي صلى الله عليه وسلم لما كان أعرف الخلق بذلك "كان فراشه الذي ينام عليه أَدَما(١) حشوه ليف"(٢) كما قالت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها .

٦ - وقالت أيضا: "كان وسادة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي يتكىء عليها من أدمٍ حشوها ليف"(٣) .

وأما مدخراته : فإنه صلى الله عليه وسلم لم يدخر شيئا لغد كما تقدم في حديث أنس رضي الله عنه .

١ - ويكفي في الاستدلال على ذلك أيضا أنه صلى الله عليه وسلم لما مات "ما ترك دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولا شيئا إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها، وسلاحه وأرضا جعلها صدقة"(٤) .

أو درعا مات وهي مرهونة عند رجل من اليهود بثلاثين صاعا من شعير أخذها رزقا لعياله كما تقدم بيان ذلك (٥) .

قال حماد بن إسحاق(٦) في "تركة النبي صلى الله عليه وسلم(٧): "كان رسول الله

---

(١) أي من جلد .

(٢) أخرجه مسلم في اللباس، باب التواضع في اللباس برقم ٢٠٨٢ .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وتخليهم عن الدنيا ١٢١/٧، ومسلم في اللباس، الباب السابق برقم ٢٠٨٢ .

(٤) كما جاء في حديث عمرو بن الحارث الخزاعي عند البخاري في الوصايا ٣/٤، وفي الجهاد، باب بغلة النبي صلى الله عليه وسلم ٣٩/٤ .

(٥) كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري في الرهن ١٨٦/٣ .

(٦) ابن إسماعيل الجهضمي الأزدي، فقيه عراقي، كانت له مكانة عند بني العباس في بغداد وسامراء توفي سنة ٢٦٧ هـ، انظر ترجمته في مقدمة كتابه تركة النبي صلى الله عليه وسلم ص ٦-٩، وشذرات الذهب ١٥٢/٢، والأعلام ٢٧١/٢ .

(٧) ص ٧٨ .

صلى الله عليه وسلم على هذه الحال صابرا على عبادة الله تعالى واتباع طاعته على الضر والجوع والزهد في الدنيا، ثم فتح الله الفتوح في آخر عمره فصارت له أموال، منها أموال مخيريق اليهودي(١)، كان أوصى بها للنبي صلى الله عليه وسلم لمعرفته بأنه رسول الله ولم يسلم(٢)، وهي صدقات رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، ومنها ما فتح الله عليه مما لم يُوجِف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب(٣) ... إلى أن قال(٤) :

"ولم يستأثر رسول الله عليه وسلم بشيء من الأموال، ولا اعتقد ذلك لنفسه، ولا لابنته عليها السلام، بل كان قصده لأمر الآخرة والزهد في الدنيا، ورفضها والإعراض عنها" .

وكذلك كان اختياره لفاطمة عليها السلام، ترك الدنيا، والزهد فيها،حتى لم يعطها خادما من السبي الذي أتاه مع ما شكت هي وعلي عليهما السلام من شدة الحاجة إلى

---

(١) النضري الإسرائيلي كان من أحبار اليهود قال لليهود لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى أحد: ألا تنصرون محمدا ؟ والله إنكم لتعلمون أن نصرته حق عليكم ، فقالوا: اليوم يوم سبت، فقال: لا سبت، وأخذ سيفه، ومضى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقاتل حتى أثبتته الجراحة، فلما حضره الموت قال: أموالي إلى محمد يضعها حيث شاء، وكانت سبعة بساتين، انظر الإصابة ٣/٣٩٣ .

(٢) كذا قال، وذكر الواقدي أنه أسلم واستشهد بأحد، وقد نص على إسلامه ابن إسحاق، وجاء عن الزهري مرسلا وعده الحافظ في الإصابه، انظر تاريخ المدينة لعمر بن شبة ص ٥١١، والإصابة ٣/٣٩٣، وسيرة ابن هشام ٣/١٦٨، والروض الأنف ٣/١٨٠ .

(٣) يعني من أموال بني النضير وخيبر وأرض فدك التي أنزل الله تعالى فيها: ﴿ ما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رُسله على من يشاء والله على كل شيء قدير * ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ...﴾[سورة الحشر:٧،٨] فجعل الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم في ذلك ما لم يجعله لأحد سواه، ومع ذلك فلم يدخر لنفسه منها شيئا ذا بال .

(٤) ص ٩٠ .

ذلك بل وكَلَهم إلى التسبيح والتحميد ..."(١) .

وقال الماوردي رحمه الله: "هذا وقد ملك من أقصى الحجاز إلى عذار العراق، ومن أقصى اليمن إلى بحر عُمان، وهو أزهد الناس فيما يقتني ويدخر، وأعرضهم عما يستفاد ويحتكر، لم يخلف عينا، ولا دينارا، ولا حفر نهرا، ولا شيَّد قصرا، ولم يورث لولده وأهله متاعا ولا مالا، ليصرفهم عن الرغبة في الدنيا كما صرف نفسه عنها، فيكونوا على مثل حاله في الزهد فيها" (٢) .

نعم قد كان صلى الله عليه وسلم يدخر لأهله قوت سنتهم كما دل على ذلك حديث عمر رضي الله عنه قال: "إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبيع نخل بني النضير ويحبس لأهله قوت سنتهم"(٣) .

ولكن هذا الادخار لم يكن لشخصه الكريم، وإنما كان لمن تلزمه نفقته من نسائه وخدمه ومواليه .

قال الحافظ ابن حجر: "ولو كان له في ذلك مشاركة لكن المعنى أنهم المقصودون بالادخار دونه حتى لو لم يوجدوا لم يدخر" قال: "ومع كونه صلى الله عليه وسلم كان يحتبس قوت سنته لعياله فكان طول السنة ربما استجرَّه منهم لمن يرد عليه ويعوضهم عنه قال: ولذلك مات صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة على شعير اقترضه قوتا لأهله"(٤).

قلت: ويؤيد ذلك ما تقدم من أخبار عائشة رضي الله عنها وغيرها في بيان ما كانوا عليه من عدم ما يكفيهم من خبز الشعير ونحوه .

---

(١) تقدم بيان ذلك ص٢٧٢

(٢) أعلام النبوة ص ٢٨٥ .

(٣) أخرجه البخاري في النفقات، باب حبس نفقة الرجل قوت سنة على أهله ٨١/٧، ومسلم في الجهاد، باب حكم الفيء برقم ١٧٥٧ .

(٤) فتح الباري ١٩٠/٢٠-١٩٢، وانظر شرح مسلم للإمام النووي ٢١١/١٣ .

فهكذا كان زهد النبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا حيث رضي منها بـزاد الراكـب، اختيارا منه لذلك الحال، كما تقدم، وهذا هو الزهـد حقـا، فعـاش النـبي صلـى الله عليـه وسلم سعيدا حميدا غير عابه بالدنيا ولا ملتفـت إلى زهرتهـا ومتاعهـا الفـاني، لزهـده فيهـا ورغبته في الآخرة. فصل اللهم وسلم وبارك عليه، وارزقنا كمال متابعته والتأسي به .

الفصل الثَّاني

الأخـــلاق السُّـــلوكـيَّـة المـتـعـدِّيـــة إلى الغير

وفيه خمسة مباحث:

١ ـ الأمـانـــة

٢ ـ الـوفـــاء

٣ ـ الحلم والعفو

٤ ـ الـرحـمـة

٥ ـ الـكـــرم

المبحث الأوّل

(خلق الأمانة)

الأمانة مصدر أمنه يأمنه أمانة إذا وثق به واطمأنّ إليه و لم يخفه.

قال ابن فارس: "الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان: أحدهما: الأمانة التي هي ضد الخيانة ومعناها سكون القلب، والآخر: التصديق"(١) .

مأخوذة من الأمن الذي هو ضد الخوف؛ لأن الأمانة لا يُخاف عليها لأنها توضع عند أمين، والأمين ثقة لا يخون(٢) .

أما في الاصطلاح فتعرَّف بأنها: ضد الخيانة، ويقال أيضا بأنها: «صيانة الإنسان كل ما ينبغي صيانته من حقوق أو فروض أو واجبات أو حدود أو أشياء مادية أو معنوية سواء كانت لله تعالى أم للناس»(٣) .

منزلة هذا الخلق في الأخلاق السلوكية:

وهي من الأخلاق الإسلامية العظيمة التي ينضوي تحتها جميع أحوال العبد الدينية والدنيوية، كما علمت من التعريف، إذ هي كلها منوطة بالأمانة فشعائر الإسلام عند المسلم أمانة، وأعمال الحلال والحرام أمانة، وحقوق المسلمين عامة الحسية والمعنوية أمانة، كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

ولذا كانت محل عناية القرآن الكريم حيث تحدثت آياته الكريمة عنها حديثا مستفيضا أمرا بها، وتنويها بشأنها وشأن أهلها، ونهيا عن ضدها وهي الخيانة في آيات كثيرة فقد بلغت الآيات المتحدثة عنها من مادة (أمن) فقط سبعا وأربعين آية(٤) .

---

(١) معجم مقاييس اللغة مادة "أمن" ١٣٣/١ .

(٢) انظر: القاموس المحيط ١٩٧/٤ مادة "أمن"، والتوقيف على مهمات التعاريف ص٩٤.

(٣) موسوعة أخلاق القرآن للشرباصي ١٥/٢، وتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم للحياة والأحياء له أيضا ص٣٣١ .

(٤) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص٨١، ٨٨-٨٩ .

تنويه القرآن الكريم بخلق الأمانة :

أما تنويه القرآن الكريم بهذا الخلق فهو تنويه عظيم دل على عظم منزلة الأمانة عند الله تعالى، وبالغ أثرها في استقامة المجتمع، ووضوح دلالتها على تحلي المرء بمكارم الأخلاق من عدمه، وذلك في آيات كثيرة من الذكر الحكيم منها قوله سبحانه وتعالى:

﴿ إنَّا عرضنا الأمانةَ على السَّمٰواتِ والأرضِ والجبالِ فأبينَ أن يَحملنَها وأَشْفَقن مِنها وحَملها الإنسانُ إنَّه كان ظلومًا جهولا ﴾[سورة الأحزاب:٧٢] .

فإن في هذه الآية من التنويه بالأمانة ما يجل عن الوصف، حيث أفادت أن السماوات والأرض والجبال، مع عظم أجرامها وبالغ ثقلها، وشدة قوتها؛ أبيْنَ حملها استصغارا لأنفسها عن حملها، وأشفقن : أي خفن من تحمل تبعاتها، وما ذلك إلا لإدراكها أن تحملها عظيم خطره، وكبير تبعته .

ومع ذلك فحملها الإنسان على ضعفه ورخاوة قوته، لظلمه نفسه،وجهله بحقيقة ما حمل وما يترتب عليه، والأمانة التي تتحدث عنها الآية هي: "كل ما يؤتمن عليه المرء من أمر ونهي وشأن دين ودنيا، والشرع كله أمانة"(١) كما قال الحسن البصري وغيره من السلف رحمهم الله تعالى.

فإذا كانت هذه الأجرام العظيمة الثقيلة امتنعن من حمل الأمانة لعظمها، فذلك دليل على عظم خطرها وكبير شأنها عند الله تبارك وتعالى وعند الناس .

الأوامر القرآنية بأداء الأمانة :

أما الأوامر القرآنية بأداء الأمانة فمنها ما جاء في قوله تعالى في آية المداينة: ﴿..فإنْ أَمِن بعضُكم بعضًا فليُؤَدِّ الذي اؤْتُمِنَ أمانَته ولْيَتَّقِ الله ربَّه ﴾[سورة البقرة:٢٨٣] .

وفي قوله تعالى: ﴿ إنَّ اللهَ يأمرُكم أن تُؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلها .. ﴾[سورة النساء:٥٨] .

وفي هذين الأمرين من التنويه بخطر الأمانة ما يدل على عظمة أمر هذا الخلق، وعظم

---

(١) البحر المحيط ٢٥٣/٧، وانظر: شرح مسلم للإمام النووي ١٦٨/٢.

جُرم التخلي عنه، وذلك أن الآية الأولى: اقترن الأمر بأدائها، بالأمر بتقوى الله لإدخال الروع في ضمير السامع، وتربية المهابة في نفسه حتى لا يفرط فيها، وذلك لعظم خطر التفريط فيها على ما سيأتي إيضاحه في (التنويه بشأنها) .

وفي الآية الثانية من تربية المهابة في ضمير السامع ما في الآية الأولى، حيث افتتحت بالاسم الجليل: (إن الله) إذ يشعر النفس بعظمة الآمر وعظمة المأمور به فلا يتجرأ على التفريط فيه، إلا أن يكون ضعيف الإيمان أو فاقده .

النهي عن ضدها وهي الخيانة:

ومع ما في هذه الأوامر الصريحة من التشديد في الأمر بأداء الأمانة، والإشارة إلى خطر التفريط فيها، إلا أن الأمر لم يقف عند ذلك، بل لقد استفيد الأمر بها أيضا من النهي القاطع عن ضدها وهي الخيانة التي هي من أخس رذائل الأخلاق وأسوء مساوئها،كما لا يخفى، وذلك لأنها تعني:"مخالفة الحق بنقض العهد في السر"(١) وتعني أيضا: "التفريط في الأمانة"(٢) . وهذا الخلق، إنما هو من أخلاق الكافرين والمنافقين، أما المؤمنون فلا، لأن المؤمن قد يطبع على شيء من رذائل الأخلاق، إلا الخيانة والكذب فإنهما يزاحمان الإيمان فينفيانه(٣) .

وقد كان التحذير من هذا الخلق في القرآن الكريم شديدا في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ ياأيها الَّذين آمنُوا لا تَخونُوا اللهَ والرَّسولَ وتَخونوا أماناتِكم وأنتُم تَعلمون ﴾ [سورة الأنفال:٢٧] ، وهذا نهي عن الخيانة الدينية بتعطيل الفرائض والسنن، أو بالإضمار خلاف ما يظهر المرء وهو النفاق، أو بالغلول في المغانم، أو بعدم النصح لله تعالى ورسوله

---

(١) المفردات للراغب ص ١٦٣ .

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ص ٣٢٩ .

(٣) فقد أخرج الإمام أحمد في المسند ٣٤٩/٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه وسلم: لا يجتمع الإيمان والكفر في قلب امرىء، ولا يجتمع الصدق والكذب جميعا، ولا تجتمع الأمانة والخيانة جميعا"، وقال الألباني في الصحيحة برقم ١٠٥٠: إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات .

صلى الله عليه وسلم، أو غير ذلك مما يندرج في مسمى الدين. وهو أيضا نهي عن الخيانة الدنيوية وهي المتعلقة بحقوق المسلمين المادية والمعنوية(١)، فكلها شملها النهي المقتضي للتحريم .

وبيل أثر الخيانة في الدنيا والآخرة :

وقد بين في آيات أخرى ماذا يترتب على الخيانة من العقاب، فبين أنه يترتب عليها عدم محبة الله تعالى للخائنين فقال سبحانه: ﴿ إنَّ الله لا يُحبُّ الخائِنين ﴾[سورة الأنفال:٥٨] وعدم محبة الله تعالى للخائنين يعني بغضه لهم، والبغض يستدعي الغضب، وهو يستدعي العذاب.

وقد دل على ذلك أن الله تعالى قرن هذه الصفة بالكافرين والمنافقين كثيرا،وذلك كقوله تعالى: ﴿ إن اللهَ لا يُحبُّ كلَّ خوانٍ كفُور ﴾[سورة الحج:٣٨]، وقوله سبحانه: ﴿ إن الله لا يُحبُّ من كان خوَّاناً أثيما ﴾[سورة النساء:١٠٧]، وقوله سبحانه: ﴿ وإن يُريدوا خِيانَتك فقد خانوا اللهَ من قبلُ فأمكنَ مِنهم واللهُ عليم حكيم ﴾[سورة الأنفال:٧١].

فالآية الأولى والثالثة تثبت الخيانة للكافرين، والثانية للمنافقين(٢)، وغضب الله وعذابه لهؤلاء معلوم من الأدلة الأخرى في القرآن والسنة .

ومما يترتب على الخيانة أن الله تعالى يحبط أعمال الخائنين وتدابيرهم كما قال جل ذكره: ﴿ إن اللهَ لا يَهدي كيدَ الخائِنين ﴾[سورة يوسف:٥٢] أي لا ينفذه ولا يسدده،ولا يهدي الخائنين بكيدهم، فأوقع الفعل على الكيد مبالغة في عدم الهداية لأنه إذا لم يهد السبب علم منه عدم هداية مسببه بالطريق الأولى(٣)، وذلك كما فعله سبحانه وتعالى

---

(١) انظر أنوار التنزيل للبيضاوي ص ٢٣٨ .

(٢) فإنها نزلت في بشر بن أُبيرق حيث سرق درعا لأنصاري، وكان منافقا معلوم النفاق، والقصة مشهورة يرجع إليها في كتب التفسير كتفسير ابن جرير ٢٦٥/٥، وتفسير ابن كثير ٥٥٠/١ .

(٣) درر التنزيل ص ٣١٧، وروح المعاني ٢٦١/١٢/٤ .

مع كفار مكة حينما حاربوا رسوله صلى الله عليه وسلم ونقضوا العهد الذي أخذه الله تعالى عليهم، وعلى كل عاقل في الإيمان به سبحانه،وما يلزم منه من الإيمان برسله،وما جاءوا به من أمور الإيمان والإسلام الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿ وإذ أخذ ربُّك من بني آدمَ من ظُهورهم ذُرِّيَّتَهم وأشهدَهم على أنفسِهم ألستُ بربِّكم قالوا بلَى شهدنا ﴾ [سورة الأعراف:١٧٢] "فإن هذا العهد استقر في الفطرة وما من نفس إلا وهي تشعر به، ولكن تغلبها ضلالات العادات واتباع الكبراء من أهل الشرك"(١) .

فكفار مكة لما نقضوا هذا العهد حاق بهم ما يحيق بالخائنين من عدم هداية كيدهم كما قال الله تعالى: ﴿ وإن يُريدوا خِيانتك فقد خانوا اللهَ من قبلُ فأمكن مِنهم والله عليم حكيم ﴾[سورة الأنفال:٧١]، وذلك يوم بدر على يد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله تعالى عليهم، فقتل وأسر صناديدهم وعتاتهم جزاء على تفريطهم في الأمانة ونقضهم ما عاهدوا الله عليه، ﴿ فمن نَكثَ فإنَّما ينكثُ على نفسِه ومن أوفى بما عاهد عليهُ اللهَ فسيُؤتيه أجرا عظيما ﴾[سورة الفتح:١٠] فهم الذين جنوا على أنفسهم ذلك المصير السيء ، والمعنى: أن من نكث عهده فإن وبال نكثه عليه لأن ذلك نقض للعهد، فانظر إلى عظيم الوبال المترتب على الخيانة، لأنها تفريط للأمانة، وهذا يؤكد ما دلت عليه الأوامر القرآنية بأداء الأمانة وعظيم خطر التفريط فيها .

ويدل على ذلك أيضا تنويه القرآن العظيم بهذا الخلق، وأهله المتحلين به الآتي بيانه الآن .

التنويه بأهل الأمانة في القرآن الكريم :

لذلك نال القائمون بها على وجهها عظيم ثناء الله تعالى وجزيل إكرامه وإنعامه .

والذين نالوا ذلك هم الصفوة المختارة من عباد الله تعالى، من الملائكة المقربين، والأنبياء والمرسلين، وصالحي المؤمنين، وقد نوه القرآن الكريم بهم تنويها عظيما؛ أما الملائكة فكلهم قائم بأدائها على وجهها الكامل؛ لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون

---

(١) روح المعاني ٢٦١/١٢/٤، وانظر التحرير والتنوير ٨٢/١٠ .

ما يؤمرون، غير أن الذي أثني عليه منهم بها هو جبريل عليه السلام فقط، وذلك لمقتضى المهمة التي نيطت به، وهي السفارة بين الله تعالى ، وبين رسله عليهم الصلاة والسلام، وقد أثنى الله تعالى عليه بها في موضعين من كتابه: أولاهما في سورة الشعراء حيث قال سبحانه: ﴿ نَزل به الرُّوحُ الأمين * على قلبِك لتكونَ مِن المنذرين ﴾[١٩٣،١٩٤] .

والثاني في سورة التكوير حيث قال سبحانه: ﴿ إنَّه لقولُ رسولٍ كريم * ذِي قُوَّةٍ عند ذِي العرشِ مكين * مُطاعٍ ثم أمين ﴾[١٩-٢١] .

وأما الأنبياء والرسل فهم أمناء الله في أرضه على شرائعه ودينه وكتبه، لذلك كان هذا الوصف واجبا لهم، ويجب على الأمة اعتقاده فيهم، وقد أثنى الله تعالى به عليهم في آيات كثيرة كما قال عن هود عليه السلام: ﴿ .. وأنا لكم ناصحٌ أمين ﴾[سورة الأعراف:٦٨]، وكما قال عن يوسف عليه السلام: ﴿ إنَّك اليومَ لدينا مكينٌ أمين ﴾[سورة يوسف:٥٤] .

وقص عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام مقالة كل منهم لقومه وهو يدعوهم للإيمان: ﴿ إنِّي لكم رسولٌ أمين ﴾[سورة الشعراء:١٠٧، ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨، والدخان:١٨] .

وقص مقالة ابنة شعيب عليها السلام في وصفها لموسى عليه السلام: ﴿ يا أبتِ استَأجِره إنَّ خير من استأجرتَ القويُّ الأمين ﴾[سورة القصص:٢٦] .

إلى غير ذلك من الآيات الواصفة لهم بهذا الخلق، دون سائر أوصافهم الحميدة، وكل أوصافهم حميد، فدل اختيار وصف الأمانة لأنبياء الله عليهم السلام في هذه الآيات مع كثرة صفاتهم وأخلاقهم الكريمة الحميدة على عظمة هذا الخلق وبالغ منزلته .

وأما المؤمنون فقد كان التنويه بهم بسببه عظيما، حيث اقترن ببيان ما نالوه على الأمانة وغيرها من الأخلاق الكريمة المذكورة، من عظيم الأجر وجزيل الثواب، وذلك بقوله سبحانه: ﴿ قد أفلحَ المؤمنون ﴾ إلى قوله: ﴿ والَّذين هم لأماناتِهم وعهدِهم راعون * والذين هم على صلواتِهم يُحافظون * أولئِك هم الوارثون * الَّذين يَرثون الفردوسَ هم فيها خالدون ﴾[سورة المؤمنون:١-١١] .

فانظر إلى مبلغ ثناء الله تعالى على المؤمنين لاتصافهم بتلك الأخلاق الكريمة العظيمة، والتي منها (أنهم لأماناتهم وعهدهم راعون) أي محافظون فلا يفرطون بشيء منها، فأثبت لهم الفلاح الذي يعني الفوز في الدنيا والآخرة، وأورثهم الفردوس الذي هو أعلى الجنة(١) .

وذلك هو غاية الإكرام الذي أعده الله لأهل الأمانة كما دلت على ذلك آية المعارج المنوهة بأهل هذا الخلق أيضا، وذلك حيث قال الله تعالى: ﴿ والَّذين هم لأمانَاتِهم وعهدِهم راعون ﴾ إلى قوله: ﴿ أولئِك في جنَّاتٍ مكرمون ﴾[سورة المعارج:٢٢-٣٥] .

وفي هذه الآيات من التنويه بأهل هذا الخلق وبيان عظيم منزلتهم عند الله تعالى، ما في الآية الأولى،وكفى بذلك فخرا وفضلا وشرفا لأهل هذا الخلق الكريم .

---

(١) كما دل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: "إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، أراه فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة" أخرجه البخاري في الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله ٤/٢٠ .

تمثل خلق الأمانة
في النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم

إذا كانت الأمانة خلقا عظيما في سائر الناس لما لها من الأثر العظيم في صلاح الدين والدنيا،ولذا كانت واجبة على كل مسلم، فإنها في أنبياء الله ورسله أعظم، وفي حقهم أوجب وألزم، بل هي من الأخلاق الأساسية الأربع التي يجب توفرها فيهم وهي: (الصدق، والأمانة، والتبليغ، والفطانة) وقد فطرهم الله تعالى عليها ليرشحهم بها لحمل رسالاته إلى خلقه، وقد كانوا مضرب المثل في التحلي بهذه الأخلاق العظيمة .

ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد كان في ذروة الذرى من هذه الأخلاق، وكمالُه فيها فاق كل كمال، كما يشهد لذلك الوقائع والدلائل الآتية :

١ ـ فقد نشأ يتيما مطبوعا على الصدق والأمانة لا يعرف لهما بديلا منذ نشأته وترعرعه،وهو لا يكاد يعرف في أوساط قومه إلا بالأمين، فيقولون: جاء الأمين وذهب الأمين(١)، حتى حل محل الرضا من قلوبهم وعقولهم، كما دل على ذلك احتكامهم إليه في قصة رفع الحجر الأسود عند بنائهم الكعبة المشرفة بعد تنازعهم في استحقاق شرف رفعه ووضعه محله، حتى كادوا يقتتلون فيما بينهم لولا اتفاقهم على تحكيم أول داخل يدخل المسجد الحرام، فكان ذلك الداخل هو محمد صلى الله عليه وسلم المرضي لديهم أجمعين "فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا هذا محمد، فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر قال صلى الله عليه وسلم هلم إلي ثوبا، فأتي به فأخذ الركن فوضعه فيه بيده الطاهرة، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ثم بنى عليه، قال ابن هشام: "وكانت قريش تسمي رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل عليه الوحي: الأمين"(٢) .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢٠٧/١ مع الروض الأنف .

(٢) سيرة ابن هشام ٢٢٨/١ مع الروض الأنف، وطبقات ابن سعد ١٤٦/١ وغيرهما، وأصل القصة في مسند الإمام أحمد ٤٢٥/٣ من حديث مجاهد عن مولاه السائب بن عبد الله بإسناد حسن، كما حكاه الألباني في تعليقه على فقه السيرة للغزالي ص ٨٥ .

هكذا كان خلق الأمانة سببا لترشيح هذا الشاب اليتيم لحل فتنة كادت تشتعل بين بطون قريش فتودي بحياة كثير منهم لولا أن الحكمة العظيمة من صاحب الأمانة العظيمة أطفأتها، وما كان لهذه الحكمة أن تبرز لو لم يكن خلق الأمانة قد مهد الطريق أمامها، مما جعلهم يرضون بحكمه دون أن يتسرب إليهم شك في محاباة أو مداهنة فئة على أخرى، لعلمهم بعظيم أمانته وثقتهم به،

٢ - بل لقد جعلتهم ثقتهم الكبيرة بأمانته صلى الله عليه وسلم ينقلون إلى بيته أموالهم ونفائس مدخراتهم لتكون وديعة عنده، فكان ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده،لما يعلم من صدقه وأمانته، ولم يزل ذلك دأبهم حتى بعد معاداته بسبب دعوته لهم إلى الإيمان بالله تعالى وترك عبادة الأوثان، لا يختلجهم شك في أمانته، وهم له صلى الله عليه وسلم معادون، كما دل على ذلك تركه علي بن أبي طالب رضي الله عنه في مكة بعد هجرته عليه الصلاة والسلام منها، ليرد ودائع الناس التي كانت عنده، "فأقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه بمكة ثلاث ليال وأيامها، حتى أدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التي كانت عنده للناس، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم(١) .

الشهادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمانة :

ولقد شهد له صلى الله عليه وسلم بالأمانة الأعداء والأصدقاء على حد سواء، وذلك دليل على شيوع هذا الخلق فيه، وتسليم الكل له به .

١ - فأبو سفيان زعيم مكة لما كان قبل إسلامه أمام هرقل ملك الروم، لم يستطع أن يخفي هذا الخلق العظيم، وهو الحريص على أن يغمطه حقه أو يطعن فيه بدافع العداء له حينذاك، ولكن لما سأله عماذا يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أجابه أبو سفيان بأنه: «يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة»(٢) .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٣٧ مع الروض الأنف .

(٢) متفق عليه وتقدم غير مرة، وهذا اللفظ أخرجه البخاري في الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد ٣/٢٣٦.

٢ - وأما الأصدقاء: فمنه ما قالته خديجة رضي الله عنها له عليه الصلاة والسلام عند ابتداء تنزل الوحي: ".. فوالله إنك لتُؤدِّي الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث.."(١).

٣ - وما قاله جعفر بن أبي طالب عنه في قصته مع النجاشي ملك الحبشة رضي الله عنه وذلك حين سأله عن الدين الذي اعتنقوه فقال جعفر رضي الله عنه: «حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه...»(٢) .

هكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم معروفا بالأمانة لدى الناس كافة ممن عرفه أو سمع عنه .

ولا غرو في أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم بتلك المثابة من الأمانة؛ لأن الله تعالى قد أراد منه أن يكون خاتم أنبيائه ورسله إلى الخلق كافة، ولا يقوم بذلك إلا أمين كامل الأمانة، ينال ثقة الناس فيستجيبون له ويؤمنون به .

ولقد تمثل خلق الأمانة فيه صلى الله عليه وسلم بكل معانيها بعد بعثته كتمثله فيه قبل ذلك، بل بأوضح من ذلك وأجل .

فلقد ائتمنه الله تعالى على تبليغ شرعه وسياسة خلقه، فقام بذلك حق قيام حتى رضي عنه وعن بلاغه المبين، وشهد له بأنه أدى الأمانة، وبلغ الرسالة كما وصلت إليه حتى تم الدين، وذلك حين قال سبحانه: ﴿ اليومَ أكملتُ لكم دِينكُم وأتممتُ عليكم نِعمتي ورَضِيتُ لكم الإسلامَ دينا ﴾[سورة المائدة:٣]، ودل عليه أيضا تأييد الله له بالمعجزات الحسية والمعنوية،وإظهاره على أعدائه، وهذه الأدلة منزلة منزلة أن يقول الحق تبارك وتعالى: صدق عبدي فيما يبلغ عني، كما تقدم إيضاحه(٣) .

---

(١) متفق عليه وتقدم أيضا، وهذا لفظ يونس عن ابن اسحاق كما في الروض الأنف ٢٧٤/١ .

(٢) سيرة ابن هشام مع الروض الأنف٨٧/٢ من حديث أم سلمة بإسناد حسن كما بين ذلك د/العمري في السيرة النبيوية الصحيحة ١٧٤/١ .

(٣) في مبحث الصدق ص ٣٩٩

إخباره صلى الله عليه وسلم عن أمانته :

وقد كان عليه الصلاة والسلام يستشعر هذا الخلق العظيم من نفسه الشريفة فيوضحه للأمة عندما يقتضي الأمر ذلك كما في الأمثلة الآتية :

١ ـ فلما ارتاب بعض جفاة الأعراب(١) في هذا الخلق العظيم، من جنابه صلى الله عليه وسلم عمدا وعنادا وتكبرا، بدافع الجشع والنفاق، وراح يشكك في عدالة توزيعه صلى الله عليه وسلم للمغانم، ويقول: كنا أحق بهذا المال ..، لما قال ذلك، قال عليه الصلاة والسلام: "ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحا ومساء ؟"(٢)

فأنكر عليه الصلاة والسلام عليه قوله، وبين ما هو عليه من الأمانة العظمى التي جعلته أهلا لأن يكون أمينا على وحي الله وشرعه .

٢ ـ وكذلك قال في حق اليهودي الذي أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يشتري منه ثوبين إلى الميسرة، فانتهزها اليهودي فرصة لينال من جنابه العظيم، علّه أن يشفي ما في نفسه من الحقد الدفين والحسد الكمين، وقال: إنما يريد محمد أن يذهب بمالي، فقال عليه الصلاة والسلام: "كذب، قد علم أني من أتقاهم لله، وأدّاهم للأمانة"(٣) .

---

(١) وهو الرجل الغائر العينين، المشرف الوجْنَتين، الناشز الجبهة، المحلوق الرأس، المشمر الإزار، الذي قام فقال: يا رسول الله، اتق الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ويلك أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله. ثم قال فيه: "يخرج من ضئضئي هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية" قال الراوي: وأظنه قال: لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود" انظر فتح الباري ١٦/١٨٧ .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما إلى اليمن ٥/٢٠٧، ومسلم في الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم برقم ١٠٦٤ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الترمذي في البيوع، باب ما جاء في الرخصة في الشراء إلى أجل برقم ١٢١٣، والنسائي في البيوع، باب البيع إلى الأجل المعلوم ٤/٢٩٤، من حديث عائشة رضي الله عنها، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح .

ومن خلال هذين الموقفين تتجلى لك عظمة أخلاقه صلى الله عليه وسلم وكمال حكمته وعدله وحلمه..، حيث يتجرأ مثل هؤلاء الأراذل على مقامه العظيم وهو النبي الرسول المعصوم، الإمام العام والحاكم المطلق، فكان بإمكانه أن ينال منهم ما أراد من العقوبة على تجرئهم الوقح على جنابه بمثل ذلك الكلام، غير أنه صلى الله عليه وسلم لم يؤاخذ أحدا منهما، كما تجلت لك عظمة أمانته من هذا الكلام البليغ المعبر عن الحقيقة التي جعله الله تعالى عليها ليكون أمينا على الدين والدنيا .

من أقواله صلى الله عليه وسلم في الأمانة :

تلك هي بعض أخباره صلى الله عليه وسلم عن هذا الخلق في نفسه، ولقد كان يترجم عن ذلك الخلق أيضا بأقواله فيه ليحث أمته عليه، أو يحذرهم من نقيضه، وأقواله في ذلك كثيرة، ككثرة متعلق مدلول الأمانة، وقد علمنا أن الشرع كله أمانة، لذلك فإن أقواله صلى الله عليه وسلم في الأمانة شاملة لكل أبواب الشرع: الإيمانية، والتعبدية، والسلوكية الذاتية والاجتماعية .

ففي الأبواب الإيمانية بين عليه الصلاة والسلام ارتباط الأمانة بالإيمان في غيرما حديث، ونذكر منها:

١ ـ قوله صلى الله عليه وسلم لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه: "إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة" قال حذيفة: ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال: "ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرُها

مثل الوكت(١)، ثم ينام فيظل أثرها مثل المجل"(٢)، إلى أن قال: "فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال: إن في بني فلان رجلا أمينا، حتى يقال للرجل: ما أجلده وما أظرفه وما أعقله! وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان"(٣) .

فسمّى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ينزل على قلوب الرجل والمرأة من الإيمان وعلم الكتاب والسنة أمانة، وهذه الأمانة هي الأمانة المذكورة في قوله تعالى: ﴿ إنّا عَرَضنا الأمانةَ ...﴾ [الأحزاب ٧٢] وهي عين الإيمان، فإذا استمكنت الأمانة من قلب العبد قام حينئذ بأداء التكاليف واغتنم ما يرد عليه منها، وجد في إقامتها"(٤) .

٢ ـ وقد كان عليه الصلاة والسلام يهتم بربط الأمانة بالإيمان فكان كما يقول أنس بن مالك رضي الله عنه "قلما خطب إلا قال: "لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له"(٥) .

---

(١) هو الأثر اليسير، وقيل: هو سواد يسير، وقيل: هو لون يحدث مخالف للون الذي كان قبله ا.هـ، شرح مسلم ١٦٨/٢ .

(٢) هو التنفط الذي يصير في اليد من العمل بفأس أو نحوها، ويصير كالقبة فيه ماء قليل. ا.هـ، المرجع السابق.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب رفع الأمانة ١٢٩/٨، ومسلم في الإيمان باب رفع الأمانة برقم ١٤٣ .

(٤) حكاه الإمام النووي في شرح مسلم ١٦٨/٢، عن محمد بن إسماعيل التميمي الأصبهاني صاحب كتاب "التحرير شرح صحيح مسلم" وأقره عليه، ونقله عنه أيضا الحافظ في فتح الباري ٤٦/٢٧، وأقره كذلك .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٣٥/٣، ١٥٤، ٢١٠، ٢٥١، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠١/١ إلى أبي يعلى والبزار والطبراني في الأوسط، قال: وفيه أبو هلال ـ الراسي ـ وثقه ابن معين وغيره، وضعفه النسائي وغيره، وفي التقريب برقم ٥٩٢٣: صدوق فيه لين، وله شواهد من حديث أبي أمامة وابن مسعود رضي الله عنهما، ذكرهما الهيثمي في المجمع ١٠١/١ وعزا الأول للطبراني في الكبير، وفي إسنادهما ضعف، ومن حديث ابن عمر عند الطبراني في الأوسط والصغير ٦١/١، وذكره الهيثمي في المجمع ٢٩٧/١، قال: وتفرد به الحسين بن الحكم الحبر . =

فنفَى الإيمان بتاتا عن فاقد الأمانـة، لأن الـذي يـزع علـى أدائهـا والمحافظـة عليهـا هـو الإيمان، فإذا فقد الإيمان لم يبـق عنـده وازع لذلـك، فالأمانـة مظهـر هـذا الإيمـان القلبي، وترجمانه الواقعي، فمن ضيعها فذلك دليل على فقد الأصل الـذي تنبـع منـه الأمانـة وهـو الإيمان، وهذا ملموس ومشاهد، فكم نرى من خيانـة عنـد فـاقدي الإيمـان علـى مستوى الأفراد والجماعات في كل أرجاء المعمورة نسأل الله تعالى السلامة .

٣ - وفي الأبواب السلوكية، ناط عليه الصلاة والسلام سلوك المرء الذاتي والاجتمـاعي بالأمانة، وبين أن المرء مسئول عن سلوكه في نفسه، وسلوكه في مجتمعـه؛ لأن كـل ذلـك أمانة عنده وهو مسئول عن أمانته، وذلك حيث قال عليه الصلاة والسـلام: "كلُّكـم راع ومسئول عن رعيته، فالإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجـل راع في أهلـه وهـو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيتها، والخادم في مـال سيده راع وهو مسئول عن رعيته، قال عبد الله بـن عمـر رضـي الله عنـه ـ راوي الحديـث ـ فسمعت هؤلاء من النبي صلى الله عليه وسلم، وأحسب النبي صلى الله عليه وسلم قـال: "والرجـل في مـال أبيـه راع ومسئول عـن رعيتـه، فكلكـم راع وكلكـم مسـئول عـن رعيته"(١) .

فقد سمى النبي صلى الله عليه وسلم جميع من ذكر رعاة، والراعي هو "الحـافظ المؤتمـن الملتزم صلاح ما اؤتمن على حفظه وما هو تحت نظره"(٢)، وأتـى بذلـك بأسـلوب "تمثيـل ليس في الباب ألطف ولا أجمع ولا أبلغ منه، فإنه أجمل أولا ثم فصل، وأتى بحرف التنبيـه مكررا"(٣) ليرعى انتباه السامعين لأهمية ما سيلقي إليهم فيحفظوه ويعقلوه .

= ومن حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه عند الطبراني في الكبير كما في المجمع ٨٦/٣، قال: وإسناده منقطع، فهذه الشواهد بكثرتها تقوي حديث أنس المذكور وترفعه إلى درجة الحسن، لاسيما أن علته هـو الراسي، وهو ثقة عند ابن معين، إمام أهل هذه الصنعة، والله أعلم .

(١) أخرجه البخاري في الأحكام، باب قول الله تعالى ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ...﴾ ٧٧/٩، ومسـلم في الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل برقم ١٨٢٩ .

(٢) شرح مسلم للإمام النووي ٢١٣/١٢ .

(٣) فتح الباري ١٣١/٢٧ .

(وقد دخل في عمومه حتى المنفرد الذي لا زوج له ولا خادم ولا ولد فإنه يصدق عليه أنه راع على جوارحه حتى يعمل المأمورات، ويجتنب المنهيات فعلا ونطقا واعتقادا، فجوارحه وقُواه وحواسه رعيته)(١) .

ومع ذلك فلم يكتف صلى الله عليه وسلم بهذا العموم، بل لقد نص على الأمانة في مواضع أخرى متفرقة تدعو الحاجة إلى التنصيص عليها لعظم أمر الأمانة فيها وذلك كما في الأمور الآتية :

أ ـ الأمانة في تولية أمور المسلمين، وأقواله صلى الله عليه وسلم في ذلك كثيرة، منها قوله صلى الله عليه وسلم :

١ ـ "ما من عبد يسترعيه الله رعيَّةً، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة"(٢) .

٢ ـ وقوله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر رضي الله عنه: "يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها"(٣) .

٣ ـ وقوله عليه الصلاة والسلام: "من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مَخيطا فما فوقه كان غلولا يأتي به يوم القيامة"(٤) .

---

(١) فتح الباري ٢٧/١٣١-١٣٢ بتصرف يسير .

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح ٩/٨٠، ومسلم في الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار برقم ١٤٢، من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة، باب كراهية الأمارة بغير ضرورة برقم ١٨٢٦، وأبو داود في الوصايا، باب ما جاء في الدخول في الوصايا برقم ٢٨٦٨، والنسائي في الوصايا، باب النهي عن الولاية على مال اليتيم ٦/ ٢٥٥ .

(٤) أخرجه مسلم في الأمارة، باب تحريم هدايا العمّال برقم ١٨٣٣، من حديث عدي بن عميرة الكندي رضي الله عنه، وأبو داود في الأقضية، باب في هدايا العمال برقم ٣٥٨١، وأحمد في المسند ٤/١٩٢ .

إلى غير ذلك من الأحاديث التي عظَّم فيها النبي صلى الله عليه وسلم شأن الأمانة في ولايات المسلمين العامة أو الخاصة .

ب - الأمانة في الأموال ونحوها، وهوالنوع الذي لا يكاد الناس يعرفون الأمانة إلا فيه، وأقواله صلى الله عليه وسلم في ذلك كثيرة أيضا، ومنها قوله عليه الصلاة والسلام :

١ - "أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك"(١).

٢ - وقوله: عليه الصلاة والسلام: "إن الخازن المسلم الأمين الذي يعطي ما أمر به فيعطيه كاملا موفورا طيبة به نفسه، فيدفعه إلى الذي أمر له به أحد المتصدِّقَينِ"(٢) .

جـ - الأمانة في الأحوال الشخصية، والحقوق الزوجية، وهي من أهم الأمانات، وأقواله صلى الله عليه وسلم تبين ذلك، وهي كثيرة ومن ذلك :

١ - قوله صلى الله عليه وسلم: "إن من أعظم الأمانة عند الله تعالى يوم القيامة الرَّجلُ يُفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها" وفي رواية: "ثم ينشر أحدهما سر صاحبه"(٣)، فسمى النبي صلى الله عليه وسلم هذا النوع من أعظم الأمانات، لما يترتب على إفشاء ذلك من فساد خُلقي .

د - الأمانة في المجالس، وهي نوع مهم من أنواع الأمانات لما يترتب عليها من حفظ الحقوق وصيانة الحرمات، وأقواله صلى الله عليه وسلم في ذلك كثيرة، منها قوله عليه الصلاة والسلام :

---

(١) أخرجه أبو داود في البيوع، باب الرجل يأخذ حقه من تحت يده برقم ٣٥٣٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والترمذي في البيوع، باب رقم ٣٨ برقم ١٢٦٤، والدارمي في سننه ٢/٢٦٤، والحاكم في المستدرك ٢/٤٦، وقال: صحيح على شرط مسلم، وأقره الذهبي، وقال عنه الترمذي: حسن غريب .

(٢) أخرجه البخاري في الوكالة، باب وكالة الأمين في الخزانة ٣/١٣٥من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، ومسلم في الزكاة، باب أجر الخازن الأمين برقم ١٠٢٣ .

(٣) أخرجه مسلم في النكاح، باب تحريم إفشاء سر المرأة برقم ١٤٣٧، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وأبو داود في الأدب، باب في نقل الحديث برقم٤٨٧٠ .

١ - "إذا حدَّث رجل رجلا بحديث ثم التفت فهو أمانة"(١) .

أي: إن الحديث ذاك أمانة يجب عليه حفظه كما تحفظ الأمانات المادية، لأن صاحبه يريد ذلك بقرينة حاله .

٢ - ولقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم موقف عظيم من مواقف الأمانة في هذا الباب، يدل على عظم أمانته، وعلى عظم أمانة المجلس، وذلك حينما جاء سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه بعبد الله بن سرح إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليؤمِّنه ويبايعه، وكان عليه الصلاة والسلام قد أهدر دمه مع النفر الذين أهدر دمهم يوم الفتح(٢)، فلما وقف على رأسه الشريف وقال له عثمان: بايع عبد الله، فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثا كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه فقال: "أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله ؟"فقالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك، ألا أومأت إلينا بعينيك ؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في نقل الحديث برقم ٤٨٦٨ من حديث جابر رضي الله عنه، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء أن المجالس بالأمانة برقم ١٩٥٩، وقال عنه: حديث حسن، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٠٩٠، وله شاهد من حديث أنس رضي الله عنه عند أبي يعلى ١٠٣٠/٣، كما أفاده الألباني في المرجع السابق .

(٢) وهم عبد الله بن خَطَل، وقَيْنَتَان له كانتا تغنيان بهجاء النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، ، وكان ابن خطل قد ارتد عن الإسلام وقتل مولى له مسلما، والحويرث بن نقيد، وكان ممن يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، وآذى ابنته فاطمة وأم كلثوم رضي الله عنهما عند هجرتهما إلى المدينة، ومِقْيَس بن صَبابة لقتله أنصاريا وارتداده عن الإسلام، وسارة مولى لبعض بني عبد المطلب وكانت تؤذيه بمكة، ، وعكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن أبي سرح الذي كان قد ائتمنه النبي صلى الله عليه وسلم على كتابة الوحي فارتد مشركا، وعاد إلى قريش وافترى الأكاذيب في أمر الوحي عند قريش، وكان أخا لعثمان بن عفان رضي الله عنه من الرضاعة، وانظر تفصيل أمر هؤلاء في سيرة ابن هشام في فتح مكة ٩٢/٤-٩٣ مع الروض الأنف للسهيلي، ودلائل النبوة للبيهقي ٥٩/٥ - ٦١ .

"لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين"(١) .

فأعظم بهذه الأمانة التي حالت بينه وبين ما كان يشتهي من سفك دم هذا الذي كان قد ارتد وافترى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان قتله في الله لو أشار به(٢)، ولكن عظمة أمانته أبت عليه أن يخدشها حتى في إيمائه وهو في موطن حق، بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم .

وهذا يؤكد على مبلغ عظمة أمانة المجالس في الإسلام، وعظم خطر إفشاء أحاديثها.

هـ ـ الأمانة في الاستشارة، وهي من أهم أنواع الأمانات لما يترتب عليها من اعتماد المرء على المشير في أمر قد يكون فيه صلاح دينه أو دنياه أو فسادهما، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أمر هذه الأمانة فقال:

١ـ "المستشار مؤتمن"(٣) أي يجب عليه ابداء الإشارة الصحيحة حسب ما يرى، وإلا كان مفرطا في الأمانة ويعد خائنا، وقد علم ما يترتب على الخيانة من عظيم العقاب .

إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على الأمانة في كل شرائع الإسلام التي يضيق بها الحصر هنا وهي تدل جميعها بالالتزام على كمال أمانته صلى الله عليه وسلم لكونه كان أوفى من يطبق ما يندب إليه.

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب قتل الأسير ولا يعرض عليه السلام برقم ٤٣٥٩، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، والنسائي في تحريم الدم، باب حكم المرتد ١٠٦/٧، وعزاه الهيثمي في المجمع ١٧٢/٧ إلى أبي يعلى والبزار قال: ورجالهما ثقات، والخبر ذكره البيهقي في الدلائل ٦٠/٥، وابن هشام في السيرة ٩٢/٤ بمعناه، وابن سعد في الطبقات ١٤١/٢ بمعناه أيضا .

(٢) ولأمر ما أراد الله عدم قتله، فلقد حسن إسلامه بعد ذلك، وكان له أثر طيب في الإسلام حيث كان صاحب الميمنة مع عمرو بن العاص رضي الله عنه في فتح مصر، وافتتح أفريقية زمن عثمان رضي الله عنه وكان فتح أفريقية من أعظم الفتوح وولي مصر بعد ذلك..، وكانت له مواقف محمودة كثيرة في الفتوح، وتوفي سنة ٥٩ هـ، انظر الإصابة ٣١٧/٢ .

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في المشورة برقم ٥١٢٨، والترمذي في الأدب، باب إن المستشار مؤتمن برقم ٢٨٢٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال عنه: حديث حسن، وله شاهد من حديث أم سلمة رضي الله عنه، برقم ٢٨٢٣، ومن حديث عبد الله بن الزبير عند الطبراني كما أفاده الهيثمي في المجمع ١٠٠/٨ قال: ورجاله رجال الصحيح .

المبحث الثاني

(خلق الوفاء)

الوفاء في اللغة: ضد الغدر، يقال: وفَى بعهده وأوفى بمعنى، مأخوذ من قولهم: وفى الشيء وُفِيًّا، إذا تم وكثر، ويقال: أوفاه حقه ووفَّاه بمعنى، أي أعطاه وافيا، واستوفى حقه وتوفَّاه إذا أخذ حقه كاملا(١) .

وفي المفردات(٢) ما نصه: "وفَى بعهده يفي وفاء وأوفى إذا تم العهد و لم ينقض حفظه، قال: واشتقاق ضده وهو الغدر يدل عليه" .

وفي الاصطلاح هو: "ملازمة طريق المواساة ومحافظة عهود الخلطاء"(٣) .

ويقال أيضا: "هو أداء الحق"(٤) .

منزلة خلق الوفاء في الأخلاق السلوكية :

والوفاء من أخلاق السلوك الاجتماعية العظيمة، التي كان للقرآن الكريم بها عناية فائقة لما له من عظيم الدلالة على تزكية النفوس، وصفاء الفطر، وسلامة الإيمان.

قال الراغب: "والوفاء يختص بالإنسان فمن فقد فيه فقد انسلخ من الإنسانية كالصدق، قال: وقدجعل الله تعالى العهد من الإيمان وصيَّره قِواما لأمور الناس، فالناس مضطرون إلى التعاون ولا يتم تعاونهم إلا بمراعاة العهد والوفاء، ولولا ذلك لتنافرت القلوب، وارتفع التعايش، قال: ولذلك عظَّم الله أمره فقال: ﴿ وأوفوا بِعهدي أوفِ بعهدِكم وإيَّاي فارهبُون ﴾[سورة البقرة:٤٠]، وقال ﴿وأوفُوا بعهدِ اللهِ إذا عاهدتُم ﴾ [سورة النحل:٩١](٥) .

---

(١) الصحاح للجوهري ٢٥٢٦/٦ مادة (وفى)، وتاج العروس للزبيدي ٣٩٤/١٠ مادة (وفى) .

(٢) ص ٥٢٨ مادة (وفى) .

(٣) التعريفات للجرجاني ص ٢٥٣، ونقله المناوي في التوقيف ص ٧٢٩ .

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٧٣٠ .

(٥) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢٩٢ .

وقد تحدث القرآن الكريم عن الوفاء بأساليب متعددة: أمرا به، ووتنويها بشأنه، وثناء على أهله في آيات كثيرة، بلغت عدتها نحو عشرين آية .

الأمر بالوفاء في القرآن الكريم :

أما الأمر به ففي نحو من إحدى عشرة آية في مجالات مختلفة من مجالات الوفاء، وهي العهود، والكيل والوزن، والعقود، والنذور، وهي التي يجري بها التعامل بين الناس غالبا.

الوفاء بالعهود :

أما العهود فهي قسمان: مع الله جل شأنه، ومع الناس .

العهود مع الله تعالى :

للعباد مع الخالق جل في علاه عهود عامة، وعهود خاصة يجب عليهم مراعاتها والوفاء بها .

العهود العامة :

أما العهود العامة فهي ما أخذه الله على البشرية في عالم الذر الذي دل عليه قوله سبحانه: ﴿ وإذ أخذ ربُّك من بني آدمَ من ظُهورِهم ذرِّيَّتَهم وأشهدَهم على أنفسِهم ألستُ بربِّكم قالوا بلى شهدنا أن تَقولُوا يومَ القيامةِ إنَّا كنَّا عن هذا غافِلين * أو تَقُولوا إنَّما أشرك آباؤُنا من قبلُ وكنَّا ذرِّيَّةً من بعدِهم أفتُهلِكُنا بما فعلَ المُبطِلون ﴾[سورة الأعراف:١٧٢،١٧٣]، فهذه الآية الكريمة تقصُّ علينا نبأ هذا العهد العام الذي أخذه الله تعالى على عباده من البشر، وتبين أن الله تعالى أخذ على جميع بني آدم العهد على الإيمان به عند إيجادهم في هذه الحياة، فلا عذر لأحد في التفريط فيه إذ لم يترك الله تعالى لأحد عذرا يتشبث به، فمن لم يؤمن بالله تعالى فقد نقض ما عاهد الله عليه واستحق العقاب المترتب على ذلك .

الأوامر القرآنية بالوفاء بالعهود العامة :

ولرحمته بعباده كي لا ينالهم عذابه المترتب على نقض العهود وعدم الوفاء بها، والى سبحانه أوامره لعباده بالوفاء بما عاهدوه عليه من الإيمان والعبودية، لما في الأوامر الإلهية من وازع على الوفاء بما تدخله في الرَّوْع من خطر المخالفة مع الأمر الصريح الذي تقوم به الحجة، ولا تنفع معه المعذرة .

والأوامر في ذلك كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وبعهدِ الله أوفُوا ذلكم وصَّاكم به لعلَّكم تذكَّرون ﴾[سورة الأنعام:١٥٢]، (والعهد المذكور هنا عام يشمل العهد بالإيمان، وما عهد الله به إليهم قبل هذه الآية من الوصايا، ويشمل أيضا عهود الإيمان والنذور أو أي عهد كان)(١) مما يشمله اسم العهد، فالآية الكريمة توجب الوفاء بسائر العهود مع الله ومع الناس، والمؤمن ليس بوسعه أن يترك ما أوجب الله عليه ، فإن إيمانه يزعه عن ذلك، وبالتالي فإنه يحفظ نفسه من عذاب الله المترتب على عدم الوفاء بالعهد كما سيأتي بيانه .

وقد أكد طلب الوفاء بالعهد في هذه الآية بعدة أمور منها: الأمر الذي هو للوجوب "أوفوا" ، ومنها: إضافة العهد إلى الله عز وجل تفخيما لشأنه، ومنها: توكيد الأمر بالوصية المسندة إلى الله تعالى وهي مقتضية للوفاء بنفسها فضلا عن الأمر .

ومن الآيات الآمرة بالوفاء بعهد الله قوله سبحانه: ﴿ وأوفُوا بعهدِ اللهِ إذا عاهدتُم ولا تنقُضُوا الأيمانَ بعد توكِيدها وقد جعلتُم اللهَ عليكم كفِيلًا إنَّ الله يعلمُ ما تفعلون ﴾ [سورة النحل:٩١]، فإن الخطاب في هذه الآية وإن كان موجَّها لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أنه عام لكل من تتأتى مخاطبته من العقلاء، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو معلوم .

إذا الكل مكلَّف بشرع الله سواء كان ممن أجاب أو ممن عصى وكفر، ومن جملة شرائع الله الوفاء بالعهود، والعهد هنا عام لكل ما يجب الوفاء به مما أمر الله به أو نهى عنه، ويدخل فيه معاهدة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم للنبي صلى الله عليه وسلم على الإيمان والنصرة وغيرهما، وكذا عهود الإيمان دخولا أوليا(٢) .

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وأوفوا بالعهدِ إنَّ العهد كان مسئُولا ﴾[سورة الإسراء:٣٤]

---

(١) انظر تفسير أبي السعود ٢/٢٢١ .

(٢) ذكر المفسرون أقوالا في المراد بالعهد هنا ومنها: أنه عام وهو الذي ارتأيته، انظر تفسير الفخر الرازي ٢٠/١٠٦ .

فإنها أيضا عامة لكل عهد بين العبد وبين ربه، وبينه وبين الناس(١) .

العهود الخاصة :

وأما الأمر بالوفاء بالعهود الخاصة، فمنها ما أخذها الله على أهل الكتاب من المواثيق على الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم ورسالته، والكتاب الذي سينزله عليه وبيان ذلك للناس حتى يؤمنوا به، ولا يكتموا شيئا من ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿ وإذْ أخذ اللهُ ميثاق الذين أوتُوا الكتابَ لتُبيِّنُنَّه للنَّاس ولا تكتمُونَه فنبذوهُ وراءَ ظُهورهم واشترَوا به ثمناً قليلاً فبئسَ ما يَشترون ﴾(٢)[سورة آل عمران:١٨٧] .

إلا أنهم نقضوا هذا الميثاق الذي واثقوا الله به كشأنهم في نقض المواثيق الأخرى التي أخذها الله عليهم، وجحدوا نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحرَّفوا صفاته التي يعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم، وكتموا صدق نبوته على الناس، بل وافتروا عليه وعلى دينه الحنيف، فطالبهم الله تعالى بالوفاء بما عاهدوا الله عليه، وذلك بقوله سبحانه: ﴿ يابني إسرائيلَ اذكُروا نعمَتيَ التي أنعمتُ عليكم وأوفُوا بعهدِي أوفِ بعهدِكم وإيَّايَ فارهبُون ﴾[سورة البقرة:٤٠] غير أنهم لم يستجيبوا لأوامر الله ونداءاته المتكررة لهم، وإنما أصروا على جحودهم وضلالهم فاستحقوا غضب الله وأليم عقابه الذي دل عليه قوله سبحانه: ﴿ فبما نقضِهم ميثاقَهم لعنَّاهم وجعلنا قلوبَهم قاسيةً يحرِّفونَ الكَلِم عن مواضِعه ونسُوا حظًا ممَّا ذُكِّروا به ولا تزالُ تطَّلعُ على خائنةٍ منهم إلا قليلاً منهم فاعفُ عنهم واصفح إنَّ الله يحبُّ المحسنين * ومن الذين قالوا إنَّا نصارى أخذنَا ميثاقهم فنسُوا حظاً مما ذكِّروا به فأغْرينَا بينَهم العداوةَ والبغضاءَ إلى يومِ القيامةِ وسوف يُنبِّئُهم الله بما كانوا يَصنعون ﴾[سورة المائدة:١٣،١٤]، أي: سوف يرون جزاء صنعهم الشنيع هذا، في الدنيا والآخرة .

وفي هذا الأسلوب الشديد من الوعيد ما فيه، حيث أبهم المنبأ به لتذهب النفس في

---

(١) انظر زاد المسير لابن الجوزي ٣٤/٥ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٤٣٦/١ .

تفسيره أي مذهب، فإنها لن تخطىء؛ لأن الجُرم كبير إذ هو نقض العهد الذي عاهدوا الله عليه .

وقد بينت آيات أخرى شناعة ذلك وجزاءه الأليم، ففي سورة البقرة يقول الله تبارك وتعالى في سياق حديثه عن بني إسرائيل: ﴿ الَّذين يَنقضُون عهدَ اللهِ من بعدِ مِيثاقه ويقطَعونَ ما أَمر اللهُ به أن يُوصلَ ويُفسدونَ في الأرضِ أولئِك هم الخاسِرون ﴾[سورة البقرة:٢٧]، فحكم عليهم بالخسران، وهو شامل لخسران الدنيا والآخرة .

وفي آل عمران في سياق حديثه عنهم أيضا يقول سبحانه: ﴿ إنَّ الذين يَشترونَ بعهد اللهِ وأَيمانِهم ثمناً قليلا أولئِك لا خلاقَ لهم في الآخِرةِ ولا يكلِّمُهم اللهُ ولا يَنظُر إليهم يومَ القيامةِ ولا يُزكِّيهم ولَهم عذابٌ أليم ﴾[سورة آل عمران:٧٧] .

وأي عقاب وجزاء أعظم من هذا، حيث نفى الله تعالى أن يكون لهم نصيب من نعيم الآخرة، ولا يكلمهم الله تعالى كما يكلم أهل طاعته في الدنيا، وأهل النعيم في الآخرة، وذلك لكامل الحَنَقِ عليهم، ولا ينظر إليهم نظر رحمة ولا يزكِّيهم أي: لا يطهرهم من ذنوبهم، بل ينزل عليهم عذابه المؤلم، لا جرم إن هذا لهو الخسران المبين، وما نالوا ذلك إلا لأنهم نقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ﴿ والَّذين يَنقضُونَ عهدَ اللهِ من بعدِ مِيثاقِه وَيقطعونَ ما أَمر اللهُ به أن يُوصلَ ويُفسِدونَ في الأرضِ أولئِك لهم اللَّعنةُ ولهم سوءُ الدَّار ﴾[سورة الرعد:٢٥] .

ولذلك ندب الله تعالى عباده إلى أن يفوا بعهودهم حتى لا يكونوا عرضة لهذا العذاب الأليم فقال: ﴿ ولا تَشترَوا بعهدِ اللهِ ثمناً قليلا إنَّما عندَ اللهِ هو خيرٌ لكم إن كنتُم تعلمون ﴾[سورة النحل:٩٥]، والذي عند الله تعالى هو عظيم أجره وجزيل ثوابه، كما دل على ذلك الآيات المرغِّبة بالوفاء .

الترغيب بالوفاء بالعهد :

فقد رغب الله تعالى بالوفاء بالعهود بما أعده الله لهم من الثواب وبما أثنى به عليهم في محكم الكتاب فقال: ﴿ ومن أوفى بما عاهدَ عليهُ اللهَ فسيُؤتِيه أجراً عظيما ﴾[سورة الفتح:١٠] وقد فصل في آيات أخرى عظمة ذلك الأجر فقال: ﴿ إنما يَتذكَّر أُولوا الألبابِ الذين

يُوفونَ بعهدِ الله ولا يَنقُضونَ الميثاق ﴾ إلى قوله: ﴿ أولئِك لهم عُقبى الدَّار * جناتُ عدن يدخلونها ومن صَلح من آبائِهم وأزواجِهم وذُرِّياتهم والملائكةُ يَدخلون عليهم من كلِّ باب * سلامٌ عليكم بما صبرتُم فنعم عُقبَى الدار ﴾[سورة الرعد:١٩ - ٢٤]، فترى أن ذلك الأجر العظيم لم يقتصر عليهم بل سرى إلى أصولهم وفروعهم وأهليهم وأي نعيم للمرء أكبر من أن يصحبه فيه أصوله وفروعه وأهليه، لا جرم لا يفرط عاقل بهذا الثناء وذلك الجزاء بعد أن يعلمه وهو قادر على أن يناله إلا أن يكون ممن غلبت عليه شقوته، وأولئك لهم سوء الدار .

الأوامر القرآنية بالوفاء بالكيل والوزن :

كل ما تقدم هو مجال من مجالات الوفاء الذي أمر به القرآن الكريم .

أما المجال الثاني: فهو الوفاء بالكيل والوزن، وهو المجال الذي يتعلق كلية بحقوق الآخرين، وما يترتب عليه من قوام حياتهم ومعاشهم، وهو المجال الذي لا سبيل إلى التساهل فيه؛ لأنه مبني على المشاحة والمقاصاة، فالوفاء فيه يصلح للناس أحوالهم، ويحفظ لهم حقوقهم، ولهذا تكرر الأمر به في القرآن الكريم خمس مرات منها قوله تعالى: ﴿ وأوفوا الكيلَ والميزانَ بالقِسط ﴾[سورة الأنعام:١٥٢]، وقوله سبحانه: ﴿ وأوفُوا الكيلَ إذا كلتم وزِنوا بالقِسطاطِ المُستقيم ﴾[سورة الإسراء:٣٥] .

فانظر إلى الأهمية الكبرى التي يوليها القرآن الكريم على الوفاء بالكيل والوزن، إذ لم يكتف بمجرد الأمر بالوفاء، بل أن يكون بالقسط، وبالقسطاس المستقيم، والقسط هو العدل، والقسطاس الميزان، ويعبر به عن العدالة كما يعبر عنها بالميزان"(١) .

مع أن ذلك مفهوم من الأمر بالوفاء، ولكن جيء به لزيادة التأكيد، والحرص على الإبقاء في الكيل والوزن لما لهما من عظيم الأثر في إصلاح أحوال البشر .

ولما كان في مراعاة الحد من القسط الذي لا زيادة فيه ولا نقصان، مما يجري فيه الحرج، والشرع الحنيف ينأى بأهله عن سلوكه، أو أن يكلفهم به، لذلك أتبع الأمر به في

---

(١) المفردات للراغب ص ٤٠٣ .

الآية الأولى وهي آية الأنعام بقوله تعالى: ﴿ لا نكلِّفُ نفساً إلا وُسعها ﴾ إشارة "إلى أن الواجب هو بلوغ الوسع في التحري، وأن ما وراءه معفو عنه"(١) تطمينا لقوبهم لئلا يشعروا بالحرج .

كما أتبع الأمر بذلك في الآية الثانية وهي آية الإسراء بالإغراء على تحري العدل بالوفاء في الكيل والوزن فقال: ﴿ ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلا ﴾ والمعنى "أن إيفاء الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم خير في الدنيا؛ لأنه سبب لرغبة الناس في معاملة فاعله وجلب الثناء الجميل عليه، وأحسن تأويلا أي عاقبة، من آل: إذا رجع، لما يترتب عليه من الثواب في الآخرة"(٢) وذلك غاية ما يطلبه تجار الدنيا وطلاب الآخرة .

فالآيتان أمرتا أولا بتحري القسط في الكيل والوزن، وذلك بحسب الجهد والطاقة بحيث لا يكون هناك تفريط في التحري، فإذا لم يكن تفريط من الكائل أو الوازن أو نحوهما، فلا حرج عليه فيما يند عن إرادته بعد بذل الوسع في التحري .

فتأمل مبلغ عناية القرآن الكريم في الوفاء بالكيل أو الوزن ونحوهما كالمساحة والمقدار، لمَّا كان ذلك يتعلق بحقوق العباد، وذلك نظرا لما جُبِلوا عليه من المشاحة في مصالح الحياة، وذلك ليعلِّم الناس عدم التساهل في حقوق العباد المادية مهما صغرت، وذلك لخطر مسئوليتها .

أما الأوامر الأخرى في الوفاء بالكيل والوزن فقد جاءت على لسان نبي الله شعيب عليه السلام وهو يدعو قومه أهل مدين الذين كان قد تفشَّى فيهم وباء تطفيف الكيل والوزن وبخسهما، بحيث أصبح ذلك لديهم عرفا مقررا، وقاعدة شائعة في كل تعاملهم .

فكان من أول ما بدأ به في مرحلة دعوته إياهم أن دعاهم إلى اجتناب هذه الظاهرة السيئة، وخوفهم عاقبة أمرها من العذاب الأليم في الدنيا والآخرة، وقد قص الله تعالى من حاله معهم في هذا المجال مواقف متكررة يبدأها بعد دعوتهم إلى عبادة الله تعالى، بالدعوة

---

(١) الكشاف للزمخشري ٢/٤٨ .

(٢) روح المعاني ٥/١٥/٧٢ .

إلى إيفاء الكيل والوزن بالقسط، وعدم بخس الناس أشياءهم، وذلك كقوله تعالى: على لسانه﴿ وإلى مدينَ أخاهم شُعيباً قال يا قومِ اعبدُوا اللهَ ما لكم من إلهٍ غيرُه قد جاءتكم بَيِّنةٌ من ربِّكم فأوفُوا الكيلَ والميزانَ ولا تَبخسوا النَّاسَ أشياءَهم ولا تُفسِدوا في الأرضِ بعد إصلاحها ذلكم خيرٌ لكم إن كنتُم مؤمنين ﴾[سورة الأعراف:٨٥]، وقوله عز شأنه على لسانه عليه السلام أيضا: ﴿ قال يا قومِ اعبدُوا الله ما لكم من إلٰهٍ غيرُه ولا تنقُصُوا المكيالَ والميزانَ إنِّي أراكم بخيرٍ وإنِّي أخافُ عليكم عذابَ يومٍ محيط * ويا قومِ أوفُوا المكيالَ والميزانَ بالقِسط ولا تَبخسوا النَّاسَ أشياءَهم ولا تَعثَوا في الأرضِ مُفسدين ﴾ [سورة هود:٨٤،٨٥]، وكذلك قال في سورة الشعراء: ﴿ أوفُوا الكيلَ ولا تَكونوا مِن المخسِرين * وزِنوا بالقِسطاسِ المُستقيم * ولا تَبخسُوا النَّاسَ أشياءَهم ولا تَعثَوا في الأرضِ مُفسدين ﴾ [١٨١-١٨٣] .

فترى أنه عليه السلام أول ما دعاهم إليه بعد عبادة الله تعالى هو إيفاء الكيل والوزن "جريا على عادة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم من أنهم كانوا إذا رأوا قومهم مقبلين على نوع من أنواع المفاسد إقبالا أكثر من إقبالهم على سائر الأنواع، بدأوا بمنعهم عن ذلك النوع .

وكان قومه عليه السلام مشغولين بالبخس والتطفيف أكثر من غيره"(١)، بل لقد استشرى فيهم وتأصل في أفئدتهم حتى لم تؤثر فيهم تلك المواعظ البليغة من نبيهم شعيب «خطيب الأنبياء عليه السلام»(٢)، وإنما أنكروا عليه وقالوا له: ﴿ يا شُعيبُ أصلوتُك تأمُرُك أن نَترُكَ ما يعبُد آباؤُنا أو أن نَفعلَ في أموالِنا ما نشاءُ إنَّك لأنتَ الحليمُ الرشيد ﴾ [سورة هود:٨٧] .

---

(١) روح المعاني ١٧٧/٨/٣ .

(٢) عزا ذلك ابن كثير في قصص الأنبياء ٢٤٢/١ إلى بعض السلف، قال: لفصاحته وعلو عبارته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته. اهـ .

قالوا ذلك على سبيل التهكم به والسخرية ليكف دعوته لهم إلى الخير والهدى، ويذرهم وماهم عليه من الضلال والردى .

ولا غرو أن يكون اهتمامه عليه السلام بإيفاء الكيل والوزن بهذه المثابة فإن تطفيف الكيل والوزن يدل على أن فاعله متأصل في مساوىء الأخلاق، من مكر وخديعة وخيانة وطمع وغش وجور وظلم وعدم إنصاف، وبالتالي فهو مِعولُ هدم لكرائم أخلاق المجتمع، ولذا كان عاقبة أمره شديدا كما دل عليه قوله سبحانه على سبيل العموم: ﴿ ويلٌ للمطفِّفين * الَّذين إذا اكتالُوا على النَّاسِ يَستَوفون * وإذا كالوهم أو وَزنوهم يُخسِرون * ألا يظنُّ أولئِك أنَّهم مَبعوثون * ليومٍ عظيم * يومَ يقومُ النَّاسُ لربِّ العالمين ﴾[سورة المطففين: ١-٦] .

والويل كناية عن شدة العذاب(١) أو هو واد في جهنم لو سيِّرت فيه جبال الدنيا لماعت(٢)، ولذلك لمَّا أصر قوم شعيب على هذه الجريمة وغيرها، أهلكهم الله تعالى وصب عليهم سوط عذاب حيث أخذتهم ﴿ الصَّيحةُ فأصبَحوا في دِيارهم جَاثِمين * كأنْ لَم يَغْنَوا فيها ألاَ بُعدًا لِمدينَ كَما بَعدِت ثمود ﴾[سورة هود: ٩٤،٩٥] .

الأمر بالوفاء بالعقود :

أما المجال الثالث من مجالات الوفاء الذي أمر به القرآن الكريم فهو العقود، وذلك بقوله سبحانه: ﴿ يا أيُّها الَّذين آمنوا أوفُوا بالعُقود ﴾[سورة المائدة: ١] .

والعقود: جمع عقد وهو العهد الموثَّق، وأصله اللغوي: الجمع بين أطراف الشيء بحيث يعسر الانفصال بينهما، كعقد الحبال وعقد البناء، ثم استعير ذلك للمعاني نحو عقد البيع والعهد وغيرهما(٣) .

---

(١) فقد قال الزجاج: الويل: كلمة تقولها العرب لكل من وقع في هلكة، حكاه ابن الجوزي في زاد المسير ١/٧٩ .

(٢) كما جاء عن عطاء بن يسار رحمه الله. انظر تفسير القرآن العظيم ١/١١٧، وأورد في تفسيره آثارا أخرى انظرها هناك أو غيره من كتب التفسير بالمأثور عند الآية ٧٩ من سورة البقرة .

(٣) المفردات للراغب ص ٣٤١، وتفسير البيضاوي ص ١٣٩ بتصرف .

والمراد بها هنا: ما يعم العقود التي عقدها الله تعالى مع عباده وألزمهم بها من التكاليف، وما يعقدونه بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به(١).

ومعنى الآية: يا أيها الذين التزمتم بإيمانكم أنواع العقود والعهود في إظهار طاعة الله، أوفوا بتلك العقود التي التزمتم بها .

"وإنما سمى الله تعالى هذه التكاليف عقودا؛ لأنه تعالى ربطها بعباده كما يربط الشيء بالشيء بالحبل الموثق"(٢) فالآية الكريمة تنادي الموصوفين بالإيمان أن يفوا بالعقود التي التزموا بها، ووصفهم بالإيمان تهييجاً لهم على الوفاء بالعقود؛ لأن ذلك من مقتضيات الإيمان الذي تحلوا به .

الأمر بالوفاء بالنذر :

أما المجال الرابع من مجالات الأمر بالوفاء في القرآن الكريم، فهو الوفاء بالنذر حيث قال الله تعالى: ﴿ ثم لْيَقضُوا تَفَثَهم(٣) وليُوفوا نُذورَهم ولْيطَّوَّفُوا بالبيتِ العتيق ﴾[سورة الحج:٢٩] والنذور: جمع نذر وهو التزام قربة لم تتعين في الشرع(٤)، ومنه ما وردت فيه الآية مما ينذره الحاج من أعمال البر في حجه من هدي ونحوه .

وهو ما شملته آية المائدة السابقة؛ لأنه عقد يعقده المؤمن مع الله تبارك وتعالى فإفراده بالذكر من بين سائر العقود يدل على أهمية الوفاء به، وحتى لا يفرط فيه المؤمن فيتخلّى عن عدم الإيفاء به لعدم المطالب به في الدنيا، إذا لا يزع على الإيفاء به إلا قوة الإيمان . ولذلك كان تهديد الله تعالى للمفرطين به مخيفا حيث قال: ﴿ وما أنفقتُم من نَفقةٍ أو نذرتم من نَذر فإنَّ الله يعلَمه وما لِلظَّالمين من أنصار ﴾[سورة البقرة:٢٧٠] فإذا كان النذر

---

(١) كما استظهره البيضاوي في تفسيره، وانظر روح المعاني ٤٨/٦/٢ .

(٢) التفسير الكبير ١٢٣/١١ .

(٣) أي: ليزيلوا أوساخهم وشعثهم كطول الشعر والظفر ونحوهما، تفسير الجلالين ٥٢/٢ .

(٤) الياقوت النفيس للشاطري ص ٢٦٤ .

يعلمه الله تعالى فإن العبد رهن المجازاة به أداء أو تفريطا، فلا يخادع إلا نفسه إن هو لم يف به .

أما إذا وفَّى به فإنه يكون ذا مكانة عالية عند الله تعالى، كما يدل عليه تنويه الله تعالى بأهل هذا الخلق العظيم في كتابه الكريم .

تنويه القرآن الكريم بأهل الوفاء :

لقد كان تنويه القرآن الكريم بأهل هذا الخلق عظيما وبالغا، وذلك لعظم ما تحلَّوا به من خلق الوفاء الذي يعني أداء ما التزموا به للخالق والمخلوقين على النحو الأكمل، وهو الأمر الذي نكثه كثير من الناس فلم يفوا بما عاهدوا الله عليه، ولا بما التزموه لخليقته، فأُخفقوا في عهودهم ومعاملاتهم .

ولما وفَّى هؤلاء بعهودهم ومعاملاتهم كان ذلك دليلا على كمال أخلاقهم وعلُوّ شأنهم فكانوا أهلا لأن يُثنى عليهم وينوَّه بمكانتهم عند الله تعالى، وكان ذلك في آيات كثيرة من الكتاب العظيم منها قوله سبحانه: ﴿ ... إنَّما يتذكَّر أولُوا الألبابِ * الَّذين يُوفونَ بعهد اللهِ ولا يَنقُضونَ الميثاق ﴾[سورة الرعد:١٩،٢٠]

فنعتهم الله تعالى بأولي الألباب، أي: أصحاب عقول، حيث هدتهم عقولهم إلى وجوب احترام العهود والمواثيق التي التزموا بها لخالقهم في الإيمان والعبادة، والمخلوقين في المعاملات والسلوك،فلا ينقضون عهدا ولا ميثاقا .

ومنها قوله سبحانه في سياق تعداد صفات أهل البر من عباده في سورة البقرة: ﴿...والموُفونَ بعهدِهم إذا عاهدوا والصَّابرين في البأساءِ والضَّراءِ وحين البأسِ أولئك الذين صَدقوا وأولئِك هم المتَّقونَ ﴾[سورة البقرة:١٧٧] .

فوصف الله تعالى أهل هذه الأخلاق ومنها خلق الوفاء بأنهم أهل صدق وأهل تقوى؛ وذلك لأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه، واتقوا عذابه وعقابه الذي وعد به الناكثين والخائنين، فتأمل مبلغ هذا الثناء من الملك الجليل المتضمن للتنويه العظيم بأهل تلك الأخلاق الكريمة، تجد التعبير قاصرا عن إدراك كنهه، لما ينطوي عليه من الجزاء الكبير المعد لأولئك الموصوفين بهذه الصفات، إذ هو بحسب مقام المثني والمثيب، جعلنا الله تعالى ممن

نال حظا من ثنائه وجزائه الكريم، فإن جزاءه الكريم لهو الجزاء الأوفى .

ولا غرو أن ينال أهل الوفاء ذلك الثناء وذلك الجزاء العظيم، فإنهم قد تحلوا بذلك الخلق العظيم الذي هو من صفات الحق تبارك وتعالى، فإنه سبحانه ذو الوفاء الذي لا يدانيه وفاء، كما أخبر سبحانه عن نفسه وهو أصدق القائلين بقوله: ﴿ ومن أوفى بعهدِه من اللهِ ﴾[سورة التوبة:١١١] والاستفهام للتقرير، ومعناه: لا أحد أوفى بالعهد منه سبحانه، فمن تحلى به فقد تحلى بصفة من صفات مولاه جل وعلا، وإن لم يكن كما هو في المولى جل وعلا،إلا أنه يصدق عليه الوصف، وإن بَعُد الفرق بين حقيقته في الخالق والمخلوق .

كما أنه من صفات أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام فهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام قد ضرب المثل في الوفاء، إذ وفَّى وفاءً لم يُعرف لأحد من البشر أن ابتلي بمثله، وذلك حينما أمره الله تعالى بأن يذبح ابنه فلذة كبده بيده قربانا له على نعمته عليه إذ أهَّله لأن يبني وابنه إسماعيل بيته الكريم ـ الكعبة المشرَّفة ـ فما كان منه إلا أن امتثل أمر ربه، وطاوعه ابنه على أمر ربه، وتَلَّه للجبين ليحقق أمر الله، فلمَّا علم الله صدقه ووفاءه فداه بذبح عظيم، وناداه معبرا عن رضاه عنه وعن وفائه بقوله: ﴿ يا إبراهيمُ قد صدَّقتَ الرُّؤيا إنَّا كذلك نَجزي المحسنين.﴾ [سورة الصافات: الآيات من ١٠١-١١٣] .

كما ابتلاه الله أيضا بكلمات من التكاليف الشرعية كالإمامة على الناس، وتطهير البيت ورفع قواعده، والإسلام(١)، فأتمَّهن كما قصَّ الله عنه بقوله: ﴿ وإذ ابتلَى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتمَّهن،قال إنِّي جاعلُك للناس إمامًا قال ومن ذُرِّيَّتي قال لا ينال عهدي الظَّالمين ...﴾[سورة البقرة:١٢٤] .

فاستحق بذلك أن ينوه الله تعالى بوفائه هذا فقال: ﴿ وإبراهيمَ الذي وفَّى ﴾[سورة النجم:٣٧] أي: وفَّى بجميع ما أمره الله به من التكاليف الشرعية .

وكذلك نبي الله يوسف عليه السلام فإن خُلق الوفاء حمله على أن ينسى ما عمله إخوانه معه من مكر وخديعة بحيث كانوا يهدفون إلى أن يلقوه حتفه حينما ألقوه في

---

(١) انظر تفسير البيضاوي ص ٢٦ .

غيابة الجُبِّ، ناهيك عما أورثوه أباهم نبي الله يعقوب عليه السلام من حزن عميق على فقد ابنه يوسف عليه السلام حتى ابيضّت عيناه من الحزن، ومع ذلك فلمّا وفد إليه إخوانه بعد أن مكنه الله من خزائن الأرض قال لهم: ﴿ ألا تَرون أنّي أوفي الكيلَ وأنا خيرُ المنزِلين ﴾[سورة يوسف:٥٩] هذا هو الوفاء بحقوق الناس عامة، والإخوان والأرحام منهم خاصة، وهذا هو الخلق اللائق من نبي كريم، ولا ريب فهو الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة و أزكى التسليم .

ما أعده الله تعالى لأهل الوفاء من الأجر والجزاء :

وقد أعد الله تعالى لأهل هذا الخلق العظيم أجرا كبيرا يدل عليه قوله سبحانه: ﴿ إنّ الأبرارَ يشربونَ من كأسٍ كان مزاجُها كافوراً * عيناً يشرب بها عبادُ الله يفجّرونها تفجيرا * يُوفونَ بالنّذر ويخافون يومًا كان شرُّه مستَطيرا ﴾[سورة الدهر:٥-٧] .

فسماهم الله تعالى أبرارا، ومعلوم أن الأبرار لهم صفات كثيرة تدل على عظمة إيمانهم وتعبدهم، ولكن لم يذكر الله تعالى في هذه الآية الدالة على مبلغ ثوابهم وأجرهم إلا صفة الوفاء والخوف، وذلك لأن هذا الوصف أبلغ في التوفر على أداء الواجبات؛ لأن من وفى بما أوجبه على نفسه لله، كان أوفى بما أوجبه الله عليه بالأولى(١)، وذلك يدل على قوة الإيمان إذ لا يدفع إلى الوفاء بالنذر إلا قوة الإيمان، وتفاوت الناس عند الله تعالى إنما يكون بحسب قوة إيمانهم وضعفه،كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ إنّ أكرمَكم عندَ اللهِ أتقاكم ﴾[سورة الحجرات:١٣]

جعلنا الله من أهل الوفاء والتقوى بمنه وكرمه آمين .

---

(١) انظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ص ٧٧٤ .

تمثل خلق الوفاء
في النبي صلى الله عليه وسلم

لقد كان خلق الوفاء من أخلاق النبوة، فما من نبي يصطفيه الله تعالى لنبوته ورسالته إلا غرس فيه من صفات الكمال ومعالي الأخلاق ما يكون بها جليلا في نفسه، وموضع ثقة الناس به، ومصدر تأسيهم به، كما علمت مما قصه الله تعالى عن بعض أنبيائه كإبراهيم ويوسف عليهما السلام، وما ثبت لنبي من خصال الكمال يثبت لغيره من الأنبياء، لأنهم جميعا في عناية الله ورعايته واصطفائه،وغرسُ خصال المكارم فيهم سواء، لذلك بعثوا كلهم بمكارم الأخلاق، وبعث سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليتمم مكارمها .

لذلك تمثل هذا الخلق العظيم فيه كأوفي ما يكون الوفاء وأعظمه في كل أحواله ومع كل من يتأتى له الوفاء:مع الله تعالى ومع أصحابه، ومع أزواجه ، ومع أقاربه، ومع أعدائه، حتى مع الحيوان والجماد !! بحيث كانت حياته صلى الله عليه وسلم كلها وفاءاً وعرفانا، قبل البعثة وبعدها، وشواهد ذلك يطول ذكرها إن أريد استقصاؤها، ويخرجنا عن سَنن الاختصار، فبحسبنا إذاً ذكر شيء منها ففي ذلك كفاية في الاستدلال .

وفاؤه صلى الله عليه وسلم مع الله تعالى :

أما وفاؤه عليه الصلاة مع الله تعالى، فهو وفاء عظيم بعهوده وطاعته،بامتثال أمره واجتناب نهيه .

أما وفاؤه بالعهود، وهي ما أخذها على عباده في عالم الذر من العهد على الإيمان به إذا هو سبحانه أوجدهم إلى هذه الحياة، فقد كان صلى الله عليه وسلم في قمة الوفاء بذلك، حيث نشأ على الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام و لم يسجد لصنم قط، بل نشأ على بُغضها وبغض كل عمل من أعمال الجاهلية المخالفة لدين إبراهيم، ولقد نشأ على عبادة الله تعالى على ضوء ما وصله من بقايا دين إبراهيم فكان يدين لله تعالى بها، وظل يتحنث ويتعبد بذلك مدة حياته قبل أن يوحى إليه، وكان لفرط تعبده على تلك الحنيفية الباقية، يذهب إلى غار حراء ويتزود لذلك، فيظل فيه الأيام ذوات العدد، فإذا فني زاده رجع فتزود لمثلها حتى بعثه الله تعالى كما هو معلوم من قصة بدء الوحي، فلما بعثه

بالنبوة والرسالة والشرع الحنيف الذي أوحى به إليه ليبلغه عباده، كان أوفى الناس تطبيقا لذلك؛ اتباعا للمأمور واجتنابا للمحظور، بحيث كانت تطبيقاته لتلك التشريعات تبيانا لها وإيضاحا، وتفسيرا لها وتكميلا، كما قال الله جل ذكره: ﴿ وأنزلنا إليكَ الذِّكرَ لتُبيِّنَ للناسِ ما نُزِّلَ إليهم ولعلَّهم يَتفكَّرون ﴾[سورة النحل:٤٤] .

فهكذا كان وفاؤه صلى الله عليه وسلم لربه في الإيمان والطاعة حتى تحقق بالعبودية وشهد الله تعالى له بها في غير ما آية، كما علمت مما تقدم في التواضع(١) .

وفاؤه لأصحابه :

وأما وفاؤه صلى الله عليه وسلم لأصحابه، فهو وفاء لم تسمع بمثله البشر، حيث كان عليه الصلاة والسلام يراعي حقوق هذه الصحبة مهما كانت الأحوال والمقتضيات لعدم مراعاة ذلك .

والأدلة على ذلك كثيرة شهيرة ومنها:

١ - وفاؤه صلى الله عليه وسلم لحاطب بن أبي بلتعة(٢) رضي الله عنه، مع فعلته الكبرى التي فعلها،وهي إفشاء سر رسول الله صلى الله عليه وسلم في أشد المواقف خطورة، وهو موقف الغزو، الذي لا تغفر البشرية لمثله؛ لأن ذلك تجسس وخيانة عظمى في سياسة الملوك والأمراء والقادة والدول القديمة والحديثة، فقد كتب حاطب إلى مكة يخبر أهلها بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم بجيشه يريد فتح مكة، وأرسل ذلك خفية مع ضعينة له(٣)، فلما أطلع الله نبيه على ذلك، ومكنه من إحباطه،

---

(١) ص٤٢٩.

(٢) بفتح الباء الموحدة والتاء المثناة الفوقية بينهما لام ساكنة، واسم أبي بلتعة: عمرو بن عمير، شهد بدرا والحديبية، وشهد الله له بالإيمان في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ توفي سنة ٣٠ هـ، في خلافة عثمان رضي الله عنه. انظر طبقات ابن سعد ١١٤/٣، وتهذيب الأسماء ١٥١/١، والإصابة ٣٠٠/١ .

(٣) الظعينة: المرأة ما دامت في الهودج، هذا أصلها ثم جعلت المرأة إذا سافرت ظعينة. انظر جامع الأصول ٣٦١/٨.

وراوده أصحابه منهم عمر رضي الله عنه في ضرب عنقه، قال عليه الصلاة والسلام: "إنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله اطّلع على من شهد بدرا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم"(١) .

فانظر إلى مبلغ وفائه لأصحابه، وإن عظمت زلة أحدهم أو كبر خطؤه، ما لم يكن في حد من حدود الله، أو تهاون بشرع الله تعالى، فترى هل يدانيه وفاء أحد قط ؟! فهل تتأسى به قادة الأمة الاسلامية اليوم ؟اللهم أرجو .

وليس هذا هو الموقف الوحيد في عظمة وفائه لأصحابه، بل مواقفه كانت كلها كذلك،

٢ ـ فقد كان يطلع على منافق معلوم النفاق، يجهد في العمل لهدم الإسلام وإيذاء النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فيُراود صلى الله عليه وسلم في قتله فيقول: "دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه"(٢) .

فهو عليه الصلاة والسلام لوفائه لأصحابه لا يحب أن يُشاع عنه أنه يقتل أصحابه، حتى وإن كان القتل في الحقيقة لمن يستحقه من المنافقين، ولكن لما كان الناس لا يعرفون حقيقة المنافق ذاك، ولا يعرفون إلا ظاهر أمره، فهو صلى الله عليه وسلم يترك قتله أو تعزيره وفاء لاسم الصحبة التي يعرفها الناس .

٣ ـ ولم يكن ذلك الوفاء قاصرا على حال حياتهم، بل لقد كان وفاؤه لأصحابه بعد وفاتهم كذلك، وهو الوقت الذي لا يحفظ فيه الوفاء إلا عظيم الخُلق .

فقد كان صلى الله عليه وسلم إذا مات أحد من أصحابه على فراشه أو في الغزو شهيدا خلفه في أهله وأولاده خيرا، كما كان منه عليه الصلاة والسلام في قصة أم حبيبة بنت أبي سفيان، وحفصة بنت عمر، وأم سلمة رضي الله عنهنّ، وأولاد جعفر بن

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الفتح ١٨٤/٥، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر برقم ٢٤٩٤، من حديث علي رضي الله عنه .

(٢) متفق عليه وتقدم في مبحث الصبر ص ٤٣٣

أبي طالب وهلمّ جرا،مما سيأتي بيانه في مواضع متفرقة من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وفاؤه صلى الله عليه وسلم لأزواجه :

وأما وفاؤه صلى الله عليه وسلم لأزواجه فكان عظيما أيضا وشواهده كثيرة :

١ ـ فهذه خديجة رضي الله عنها التي تزوجها وهي ابنة أربعين سنة، وكانت له في حياتها معه ظهيرا ونصيرا ونعم معين، قبل البعثة وبعدها، فكانت تعينه على ما يريد، وتشد من أزره، وتبذل له من مالها، وتفرِّج من كربه، وتسليه في حزنه .. إلى أن توفاها الله تعالى وهي في العقد السابع من عمرها، فحفظ لها رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المواقف في حياتها وبعد وفاتها ؛

أما في حياتها فقد عاش معها وهو في رَيعان شبابه ولم يتزوج عليها قط .

وأما بعد وفاتها فإنه لم يزل يذكر صنائعها وأياديها البيضاء معه مدة حياته، بحيث كان الأمر ما أخبرت عنه عائشة رضي الله عنها بقولها فيما ثبت عنها: "ماغِرت على خديجة وما رأيتها، ولكن كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، قالت: فربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد"(١) .

وفي رواية قالت: "ما غِرت على امرأة ما غِرت على خديجة، ولقد هلكت قبل أن يتزوجني بثلاث سنين،لِما كنت أسمعه يذكرها، ولقد أمره ربه عز وجل أن يبشرها ببيت من قصَب في الجنَّة، وإن كان ليذبح الشاة ثم يهديها إلى خلائلها"(٢) .

---

(١) أخرجه البخاري في الفضائل، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وفضلها ٤٨/٥ .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة ٤٨/٥، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة رضي الله عنها برقم ٢٤٣٥ .

وفي رواية قالت: "استأذنت هالةُ بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرف استئذان خديجة، فارتاح لذلك فقال: "اللهم هالة بنت خويلد" قالت: فغرت فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشِّدقين، هلكت في الدهر فأبدلك الله خيرا منها"(١) .

وفي رواية أحمد قال لها: "ما أبدلني الله عز وجل خيرا منها، قد آمنت بي إذ كفر الناس، وصدَّقتني إذ كذَّبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء"(٢) .

فهكذا كان وفاء النبي صلى الله عليه وسلم لزوجه التي قد واراها الثرى منذ زمن، فلم ينسها ولم ينس معروفها قط .

٢ ـ وكذلك كان وفاؤه لسائر أزواجه على السواء .

فلما أنزل الله تعالى آية التخيير وهي قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها النَّبي قل لأزواجِك إن كنتُنَّ تُردنَ الحياةَ الدُّنيا وزِينتَها فتعالينَ أُمتِّعكُنَّ وأسرِّحكُنَّ سراحاً جميلاً * وإن كنتُنَّ تُرِدنَ اللهَ ورسولَه والدَّار الآخرةَ فإنَّ الله أعدَّ للمحسناتِ منكُنَّ أجراً عظيما ﴾[سورة الأحزاب:٢٨،٢٩] .

عندئذ بدأ فخير عائشة وطلب منها أن لا تستعجل حتى تستأمر أبويها، وذلك وفاء عظيم منه لهذه الزوجة التي هي حديثة السن، فقد لا تدرك من هي في سنها مصلحتها الكاملة،وما هو خير لها وأبقى، فتغتر بزينة الحياة الدنيا، فتخسر الدنيا والآخرة، فقال لها: "لا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك، وقد علم أن أبويها لم يكونا يأمرانها بفراقه" لما يعلمانه من صالح أمرها عاجلا وآجلا، ولماَّ اختارت الله ورسوله من غير أن تستأمر أبويها، بل قالت: "ففي أي هذا أستأمر أبوي ؟! فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة" وقالت للنبي صلى الله عليه وسلم: "أسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي

---

(١) أخرجه البخاري في الباب السابق ٤٨/٥، ومسلم كذلك برقم ٢٤٣٧ .

(٢) مسند الإمام أحمد ١١٨/٦، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٢٧/٩ : وإسناده حسن .

قلت" لم يقبل منها عليه الصلاة والسلام هذا الطلب، بل وفى لهن كلهن وقال: "لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها"(١) .

وإنما كان يخبرهن بهذا الذي اختارته عائشة رضي الله عنها؛ لأنه هو الخير، وهو صلى الله عليه وسلم لا يريد لهن إلا الخير، وفاء لهن على صبرهن على لأواء المعيشة التي كان عليها، وطول الصحبة التي أمضينها معه، وذلك هو ما وصَّى به القرآن الكريم حيث قال: ﴿ ولا تَنسَوُا الفضلَ بينَكم إنَّ الله بما تعملون بصيرٌ ﴾[سورة البقرة:٢٣٧] .

وفاؤه صلى الله عليه وسلم لأقاربه :

وأما وفاؤه صلى الله عليه وسلم لأقاربه فقد كان على ذلك النحو من الكمال والعظمة، ومن ذلك :

١ ـ وفاؤه لعمه أبي طالب الذي ربَّاه منذ أن تُوفِّي جده عبد المطلب وهو في الثامنة من العمر إلى أن بلغ أشده واستقل بكيانه عند تزوجه من خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

ولما كلفه الله بالنبوة والرسالة، كان نعم المعين له في إبلاغ رسالة ربه، إذ كان يحمي ظهره ويمنع عنه سفهاء قومه، فلم يكن يخلص إليه سوء في حياته لحمايته له، وعلو منزلته بين بطون قريش، فلما حضرته الوفاة وهو مازال على دين آبائه وأجداده، اهتزت مشاعر الوفاء في النبي صلى الله عليه وسلم فحرص جد الحرص على نفعه وإنقاذه من النار، وعلى أن يكسبه خيري الدنيا والآخرة بكلمة واحدة يقولها، وهي شهادة التوحيد، وذلك وفاء له على مواقفه العظيمة معه في صغره وعند بعثته، فجعل صلى الله عليه وسلم يناشده قائلا: "أي عمِّ، قل لا إلهَ إلا الله أحاجُّ لك بها عند الله" أي يجادل بها عليه ليدخل بها الجنة من غير عمل يمكنه أن يعمله،حيث كان في الاحتضار، وكاد يستجيب له، لولا أن حال بينه وبين ذلك أدعياء الكفر، وقالوا له: أترغب عن ملَّة عبد المطلب؟

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب ١٤٦/٦، ومسلم في الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا ألبتة برقم ١٤٧٥، ١٤٧٨ .

وما زالوا به حتى قال: هو على ملة عبد المطلب، ومات على ذلك، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم عليه وجدا شديدا، لما يعلمه من العذاب الذي سيلقاه لموته على الكفر بعد أن بلغته الدَّعوة .

لكن عظيم وفائه عليه الصلاة والسلام لم يزل يغالبه حتى قال: "لأستغفرنَّ لك ما لم أنه عنك" غير أن الله تعالى لم يشأ ذلك منه، فنهاه عنه حيث أنزل عليه ﴿ ما كان لِلنَّبي والذين آمنوا أن يَستغفِروا للمشركينَ ولو كانوا أولِي قُربى من بعدِ ما تبيَّن لهم أنَّهم أصحابُ الجحيم ﴾[سورة التوبة:١١٣] فعندئذ لم يزد عليه الصلاة والسلام على أن قال: "إنك لا تهدي من أحببتَ ولكن الله يهدي من يشاء"(١) .

فتأمل مبلغ وفائه له حيث بذل قصارى جهده في إنقاذه، فلما لم تفلح جهوده تلك، همَّ بأن يطلب من الله تعالى أن يغفر له، وما ذلك إلا وفاء منه لحدبه عليه وحمايته له، وقربه منه .

وفاؤه لأقاربه من الرضاعة :

وقد كان وفاؤه لأقاربه من الرضاعة على ذلك النحو كمالا وعظمة، حيث ظل عليه الصلاة والسلام يعترف لهم بالفضل، ويتحيَّن فرص الوفاء كلما سنحت فرصة لذلك، وقد كان يفعل من ذلك وسعه، كما كان عليه الصلاة والسلام يوم حنين، حيث سبى المسلمون في ذلك اليوم من هوازن وثقيف النساء والذراري والأموال، وكان منهم من بني سعد بن بكر الذين تنسب إليهم حليمة السعدية مرضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء رجل منهم فقال: إنا لو ملحنا ــ أي أرضعنا ــ للحارث بن أبي شمر(٢)،

---

(١) القصة في البخاري في تفسير سورة التوبة ٨٧/٦، والقصص ص ١٤١ من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه .

(٢) الغساني من أمراء غسان في أطراف الشام،كانت إقامته بغوطة دمشق،وأدرك الإسلام، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم كتابا بالدعوة إلى الإسلام، فأبى عليه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم باد ملكه، مات الحارث سنة ٨ هـ، انظر الأعلام ١٥٥/٢، وإعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين لابن طولون الدمشقي ص ١٠٢، والمصباح المضي في كتّاب النبي الأميّ لابن حديدة ٦٢٣/٢ .

والنعمان بن المنذر(١)، لرجونا عطفه، ثم أنشد :

أُمنن علينا رسول الله في كرم فإنك المرء نرجوه وندخر

أُمنن على نسوة قد كنت ترضعها إذ فوك تملؤه من محضها الدرر الأبيات

فلم يتأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوفاء الذي طال ترقبه إليه، بل قال: "معي من ترون، وأحب الحديث إلي أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين، قالوا: إنا نختار سبينا، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال:

"أما بعد، فإن إخوانكم قد جاؤونا تائبين، وقد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل، فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا لا ندري من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم" فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا"(٢) .

فهكذا كان وفاؤه صلى الله عليه وسلم لمن يمتُّون إليه بقرابة الرضاعة، لقد ظل مستأنيا بهم، يريد أن يرد إليهم ماغنمه منهم، ولما لم يأتوا، وتملكها الصحابة رضي الله عنهم غنيمة حلالا طيبا، بذل جهده في إعادة السبي الذي هو أكرم لهم من المال وأعز، فانظر أي وفاء أجل وأعظم من هذا ؟!

---

(١) اسم لعدد من ملوك الحيرة، أشهرهم النعمان الثالث بن المنذر الرابع، ملك الحيرة إرثا عن أبيه، وكانت تابعة للفرس، وأقره عليها كسرى إلى أن نقم عليه فسجنه، وتوفي مسجونا سنة ١٥ قبل الهجرة، انظر الأعلام ٤٣/٨ .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب قول الله تعالى: ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ...﴾ ١٩٥/٥ من حديث المسور بن مخرمة، وانظر الوفاء بأحوال المصطفى لابن الجوزي ٧٠٥/٢، ودلائل النبوة للبيهقي ١٩٥/٥، وخاتم النبيين لأبي زهرة ٦١/٢ .

وهناك صور أخرى كثيرة من وفائه صلى الله عليه وسلم لمراضعه وإخوانه من الرضاعة تعلم من كتب الحديث والشمائل والسير(١) .

وفاؤه صلى الله عليه وسلم لأعدائه :

وإذا كان خلق الوفاء عظيما في النفس لم يفقد في سائر الأحوال، بل يظل طبعا لها، يوجد عند المقتضي لوجوده ولو كان ذلك عدوا، وهذا من ثبات أخلاقه عليه الصلاة والسلام التي لا تكاد توجد عند غيره، فأعداؤه الذين جهدوا في إطفاء نور دعوته، وكادوا له ولصحابته مكايد عظيمة تترى، لم يتخلف وفاؤه لهم قط، ولقد شهدوا له بذلك وهم له معادون .

فأبو سفيان بن حرب لما سأله هرقل عن وفائه صلى الله عليه وسلم لم يستطع إخفاء ذلك مع بالغ حرصه على ذكر مطعن يدخله في إجاباته له عن أسئلته الكثيرة التي سأله عنها، وهي من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم كما كان يعلمها هرقل .

فقد سأله هرقل بقوله: هل يغدر ؟ فأجابه أبو سفيان بأن: لا، فقال له هرقل: وكذلك الرسل لا تغدر(٢) .

---

(١) من ذلك وفاؤه لأبيه وأمه من الرضاعة المخرج في سنن أبي داود في الأدب، باب باب بر الوالدين برقم ٤٩٤١، ٤٩٤٢، والبيهقي في الدلائل ٥/٢٠٠، وفي طبقات ابن سعد ١/١٠٨-١٠٩، قصة إكرامه لأخته الشيماء، وكذا في مكارم الأخلاق للطبراني ص ٢٦١ رقم ٤٠٥،، وفي الدلائل للبيهقي ٥/١٩٩ خبر بعثه إلى ثوبية مولاة أبي لهب، إحدى مراضعه عند الولادة بصلة وكسوة من المدينة، ثم إرادته أن يصل من بقي من قرابتها بعد موتها غير أنه قيل له لم يبق أحد منهم، وكذا في الروض الأنف للسهيلي ٣/٦٧ .

(٢) تقدم تخريجه ص٣٩٨ونحو هذه الشهادة شهادة مكرز بن حفص حينما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن سبب حمله السلاح في عمرة القضاء وهم على عهد منه بعدم القتال، فقال له مكرز: ما عُرِفتَ صغيرا ولا كبيرا بالغدر، تدخل بالسلاح على قومك، وقد شرطت لهم أن لا تدخل إلا بسلاح المسافر: السيوف في القرب؟فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: إني لا أدخل عليهم بالسلاح، فقال مكرز: هذا الذي تعرف به، البر والوفاء، انظر البداية والنهاية ٤/٢٣١ .

فأي شهادة أكبر من شهادة عدو حريص على إبداء المثالب لو وجدها، وطمس الحقائق لو قدر عليها ؟ وقديما قالوا:

« وا لفضل ما شهدت به الأعداء »

أو من شهادة ملك عنده من نبأ المرسلين، فيقول الحق لا يمنعه عن ذلك رغبة أو رهبة؟!

ولقد كان وفاؤه صلى الله عليه وسلم لأعدائه عظيما بحيث لا يقدر على مثله أحد غيره؛ لأنه ذو الخلق العظيم، وصور وفائه لأعدائه كثيرة ومنها:

١ - من أجلها وفاؤه لهم بشروط عقد صلح الحديبية في العام السادس من الهجرة، وهي الشروط التي امتعض منها كثير من الصحابة، ومنهم من أكابرهم، كعمر رضي الله عنه، وذلك لبالغ قسوتها على المسلمين، كما يتراءى في بادىء الرأي، فلم تكن عقول الأكثرين تتصور قبول مثل ذلك، مع ما في المسلمين من قوّة يومئذ، لاسيما وأنهم لم يجيئوا لقتال، وقريش تعلم ذلك، ومع ذلك أصرت على إملاء شروط مليئة بالعنجهية والكبر والأشر والبطر، مما يعظم على قلوب الأحرار التي لم يؤيدها الوحي قبول مثل ذلك، وكان من تلك الشروط القاسية، أن من أتى المسلمين من المشركين ردوه إليهم، ومن أتاهم من المسلين لم يردوه، وما كاد عقد الصلح يمضي حتى جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو(١) - مندوب قريش لإجراء المفاوضة - يرسُف(٢) في قيوده مستصرخا،

---

(١) وكان من السابقين إلى الأسلام، وممن عذب بسبب إسلامه، ولما أعاده النبي صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم إلى مكة ظل فيها إلى أن علم بقصة أبي بصير - الآتي ذكرها - ففرّ إليه وكان من أمرهما ما ستعلمه، وأول مشاهده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة الفتح وأسلم أبوه فيها، ثم لم يزالا مجاهدين في الشام إلى أن توفيا في خلافة عمر رضي الله عنهم أجمعين. انظر الاستيعاب مع الإصابة ٣٤/٤، وأسد الغابة ١٦/٥، وتهذيب الأسماء ٢٠٦/٢ .

(٢) الرسف: مشي المقيد إذا جاء يتحامل برجله مع القيد، النهاية ٢٢٢/٢ .

يريد أن ينقذ من أيدي المشركين، فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذ بتلابيبه(١)، وقال: يا محمد قد لجَّت(٢) القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم:صدقت، فرده إليه، وأبو جندل رضي الله عنه ينادي:يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ إنها لصرخة تهزّ الوِجدان، ولكن هيهات أن تؤدي إلى إخلال بالوفاء من صاحب الخلق العظيم !!

فما كان منه صلى الله عليه وسلم إلا أن قال له: "يا أبا جَندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صُلحا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم"(٣) .

فأي وفاء أبلغ من هذا الوفاء الذي لم يكد يتقبله بعض كبار الصحابة لولا طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فلقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ــ وهو الرجل المُلْهم ـ يذهب تارة إلى أبي بكر وتارة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول: "ألسنا المسلمين ؟ أليسوا المشركين ؟ ألستَ رسول الله ؟!! فعلام نُعطى الدَّنيَّة في ديننا ؟ فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره ولن يضيعني، ويقول أبو بكر: أشهد انه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد كان من آثار ذلك الوفاء الفرج والمخرج الذي رجاه النبي صلى الله عليه وسلم حيث كانت هذه الشروط العاتية سببا للإدالة على قريش وفتح مكة والنصرة للمستضعفين، بما يطول ذكره هنا وسيأتي بيانه في أخلاقه القيادية إن شاء الله تعالى(٤).

وعندئذ فرح المؤمنون بنصر الله، وعلموا مبلغ حِكمة رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) يقال: لبَّبَهُ وأخذ بتلبيبه، إذا جمعَ ثيابه عند صدره ونحره ثم جررته، النهاية ١٩٣/١ .

(٢) أي: فرغنا من المناقشة قبل أن يأتيك هذا .

(٣) والقصة أخرجها البخاري في الشروط باب الشروط في الجهاد ٢٥٢/٣ وفي المغازي، باب غزوة الحديبية ١٦٢/٥، وفي سيرة ابن هشام ٢٨/٤، ٢٩ مع الروض الأنف للسهيلي نحوه.

(٤) انظر ص ٢٧٧

وأدركوا عاقبة الوفاء والطاعة، وما كانوا سيجنون تلك الثمار اليانعة بتلك البساطة والسهولة لو أنهم أخلوا بخلق الوفاء .

٢- ومن وفائه عليه الصلاة والسلام لأعدائه على ذلك النحو، إرجاعه إليهم أبا بَصير(١) رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدَفَعه إلى الرجلين فخرجا به .

فانظر إلى مبلغ وفائه لهم حيث رد إليهم هذا الرجل المؤمن وقد فرَّ بدينه، ولقد كان عاقبة هذا الوفاء:الفرج والمخرج له ولإخوانه المستضعفين .

فقد خرج مع الرجلين الذين جاءا إليه "حتى بلغ ذا الحُليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم. فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيِّدا، فاستلَّه الآخر، فقال: أجل، والله إنه لجيد،لقد جربت به ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه فأمكنه منه، فضربه حتى برَد، وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه: "لقد رأى هذا ذُعْرًا" فلما انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: قتل والله صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بصير، فقال: يا نبي الله قد والله أوفَى الله ذِمتَّك، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ويلُ امِّه مِسعرُ حرب(٢)، لو كان له أحد" فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سِيف البحر وانفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابه، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم تناشده بالله والرحم لما أرسل

---

(١)واسمه عتبة بن أسد الثقفي، مشهور بكنيته، وستأتي قصته في سياق الحديث هذا، وتوفي في ساحل البحر حيث كان يقيم مع من فرَّ إليه من المؤمنين، وذلك قبل فتح مكة، ودفن هناك، انظر أسد الغابة ١٤٩/٥، والاستيعاب بهامش الإصابة ٤٥٢/٢، وتهذيب الأسماء ١٨٠/٢ .

(٢) أي: مولعها .

إليهم فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليهم"(١) .

فهكذا كانت عاقبة الوفاء، وهكذا تكون آثار الأخلاق العظيمة دائما وأبدا،

٣ ـ وكان من وفائه لأعدائه أيضا، ما أخبر عنه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه بقوله: "ما منعني أن أشهد بدرا إلا أني خرجت أنا وأبي حُسَيل، قال: فأَخَذَنا كفار قريش وقالوا: لعلكم تريدون محمدا؟ قال فقلنا: ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه، قال: فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه الخبر، فقال: "انصرفا نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم"(٢) .

فتأمل مبلغ وفائه عليه الصلاة والسلام للكفار الذين يقاتلونه في مثل هذه الصورة، والتي لا يجب فيها الوفاء، لأنه يعني ترك الجهاد مع الإمام االذي تُقدَّم طاعته على الالتزام بالوفاء للأعداء البغاة،غير أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن لا يشيع عنه ولا عن أصحابه نقض العهد ولا عدم الوفاء، لما هو عليه من المحبة لمعالي الأخلاق وتحليه بعظيمها، لأن المشيع عليهم لا يذكر تأويلا ولا يعرف حكم الله تعالى في ذلك تفصيلا.

وكم له من مواقف في الوفاء عظيمة،مع أعدائه الذين أجهدوا أنفسهم لإطفاء نور الله الذي جاء به، وأجهدوه ـ بأبي هو وأمي ـ في دفعهم عن ذلك، وفي دعوته إياهم إلى الهدى والرشاد، كانت عواقبه محمودة، وثماره عظيمة جليلة .

كذلك كان وفاؤه صلى الله عليه وسلم مع أبناء جنسه من البشر!!ولا ريب بأنك قد عجبت من مبلغ وفائه معهم على اختلاف أصنافهم وأحوالهم، وهو صلى الله عليه وسلم لا يتغير وفائه على كل حال .

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ٢٥٧/٣، من حديث المسور بن مخرمة ومروان يصدق بعضها بعضا .

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد، باب الوفاء بالعهد برقم ١٧٨٧، وانظر شرح مسلم للإمام النووي ١٤٤/١٢ .

وفاؤه صلى الله عليه وسلم للحيوان البهيم :

وإن تعجب فعجب وفاؤه صلى الله عليه وسلم للحيوان البهيم أو الجماد، فإن الوفاء لمثل هؤلاء عزيز جدا، ولكن كان من النبي صلى الله عليه وسلم سجّية لا تتغير .

ومن صور ذلك: ما ثبت أن ليلى امرأة أبي ذر رضي الله عنهما أقبلت بعد غزوة ذي قَرَد(١) فقالت: يا رسول الله إني نذرت لله أن أنحرها إن نجّاني الله عليها، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: "بئس ما جزيتها، أن حملك الله عليها ونجّاك بها ثم تنحرينها ؟!، إنه لا نذر في معصية الله، ولا فيما لا تملكين، إنما هي ناقة من إبلي فارجعي إلى أهلك على بركة الله"(٢) .

فلقد تعجب عليه الصلاة والسلام على هذه المجازاة التي جازت بها الناقة، إشارة منه إلى أنه كان ينبغي أن تفي معها بالإحسان إليها في الإطعام والرعاية، لا أن تنحرها، ثم لم يقرها على ذلك النذر .

وفاؤه صلى الله عليه وسلم للجماد :

وأما وفاؤه صلى الله عليه وسلم للجماد، فمن ذلك ما كان للجذع الذي كان يخطب عليه، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يقوم يوم الجمعة يخطب عليه، فقالت امرأة من

---

(١) وكانت سنة ست من الهجرة، وجزم البخاري أنها كانت قبل خيبر بثلاث ليال، انظر السيرة النبوية لأبي شهبة ٣٦٧/٢ .

و(ذو قرد): ماء على مسافة ليلتين من المدينة، بينها وبين خيبر، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد خرج إليها في طلب عيينة بن حصن حين أغار على لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم. انظر مراصد الاطلاع ١٠٧٦/٣، وسيرة ابن هشام ٣/٤ .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/٤ وأصل القصة في الصحيحين .

وفي مقابل هذه القصة قصة المراة التي جاءت إلى رسول الله فقالت: يا رسول الله إني نذرت إن انصرفت من غزوتك سالما غانما، أن اضرب على رأسك الدف، قال: إن كنت نذرت فأوف بنذرك وإلا فلا" أخرجه أبو داود في الأيمان والنذور برقم ٣٣١٤، فأذن لها أن تفي بنذرها لما لم يكن في ذلك معصية .

الأنصار أو رجل: يا رسول الله ألا نجعل لك منبرا ؟ قال: "إن شئتم" فجعلوا له منبرا، فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر، فصاح الجذع صياح الصبي، ثم نزل صلى الله عليه وسلم فضمه إليه فسكن"(١) .

فانظر كيف كان وفاء النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الجذع الجماد حيث نزل وضمّه إليه ليسكن، فلما التزمه سكت، فقال عليه الصلاة والسلام: "والذي نفس محمد بيده لو لم ألتزمه لما زال هكذا حتى يوم القيامة، حزنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢)، فلذلك كان ذلك الوفاء من النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الجماد الذي لا يعقل، والذي أنطقه الله تعالى بذلك الصوت، وهو الذي ينطق كل شيء سبحانه، ليكون دليلا من دلائل نبوته، ومعجزة من معجزاته الكبرى، وهكذا يكون وفاء صاحب الوفاء العظيم دائما وأبدا، فعليه من الله أفضل الصلاة والتسليم، ورزقنا الوفاء الكامل لله ولرسوله وللمؤمنين إنه ولي ذلك والقادر عليه .

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الاسلام ٢٣٧/٤، وفي الجمعة، باب الخطبة على المنبر ١١/٢ من حديث أنس رضي الله عنه، وانظر شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم لابن كثير ٢٩٨/١ — ٣١١ لتقف على طرقه الكثيرة .

(٢) كما في بعض طرق الحديث، انظر الشمائل لابن كثير ص ٢٢٩ .

المبحث الثالث

(خلق الحلم والعفو والصفح)

الحِلْمُ في اللغة: ترك العجلة، قال ابن فارس: "الحاء واللام والميم أصول ثلاثة: أحدها: ترك العجلة ... وذكر الأصلين الآخرين ثم قال: فالأول خلاف الطَّيش يقال: حلُمت عنه أحلُم، فأنا حليم"(١) .

وفي القاموس المحيط(٢): "الحِلْم بالكسر: الأناة والعقل وجمعه أحلام وحلوم، ومنه قوله تعالى: ﴿ أم تأمُرُهم أحلامُهم بهذا ﴾[سورة الطور:٣٢] ويقال: هو حليم، وجمعه حلماء وأحلام، وقد حَلُم فلان بالضم حلما، وتحلَّم إذا تكلفه" .

وفي الاصطلاح: هو ضبط النفس والطبع عن هَيَجان الغضب مع القدرة على ذلك"(٣) ويقال هو: (الطمأنينة عند سَورَة الغضب) ويقال أيضا: (هو تأخير مكافأة الظالم)(٤) .

وجميع هذه التعاريف متقاربة من حيث دلالتها؛إذ هي تعني عدم المسارعة بالانتقام عند سورة الغضب، والعلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي ظاهرة، لأن الأناة وترك العجلة تنشأ عن ضبط النفس عن الطيش الذي يحدثه هَيجان الغضب فيحاول إيصال النقمة إلى من أثار فيه ذلك الخلق السيء وهو الغضب .

غير أن المعنى الاصطلاحي الآخر الذي أفاده صاحب التعريفات يفيد معنى زائدا، وهو حصول الطمأنينة، وذلك غير الضبط المفاد أولا، لأن الطمأنينة تعني أن ذلك يكون سجَّية في النفس؛وأنها لا تحتاج إلى مغالبة، وهذا معنى راق في الحلم .

ويمكن توجيهه على أن الحلم درجات، فأول درجاته يكون بالمغالبة، وآخرها يصبح سجَّية. وهذا فيمن كان حلمه مكتسبا، لكن هناك من يكون حلمه وهبِيًّا وفطريا فهذا

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٢/٩٣، مادة (حلم) .

(٢) ٤/٩٩ .

(٣) المفردات للراغب ص ١٢٩، وتهذيب الأخلاق للجاحظ ص ٢٣ .

(٤) التعريفات لجرجاني ص ٩٢ .

لا يكون إلا طمأنينة،وهو ما كان لدى أنبياء الله ولدى من شاء الله له ذلك من العباد، ولا شك أن هذا الحلم أعلى مكانة، لأنه يكون من نفس كاملة الرضا بالله تعالى وبقضائه وقدره الأزليين .

منزلة هذا الخلق في الأخلاق السلوكية :

والحلم من حيث هو كسبي أو وهبي يعد خلقا من الأخلاق القرآنية الحميدة التي يترتب عليها صلاح الحال وهدوء البال، وهو فرع من فروع الصبر الذي يترتب عليه محبة الله تعالى كما علمته في بابه .

وكما دل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم لأَشج عبد القيس: "إنَّ فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله الحلم والأناة"(١) .

والأناة هي التثبت والوقار(٢) .

عناية القرآن الكريم بالحلم :

ولما كان الحلم بتلك المكانة بحيث كان محبوبا لله جل وعلا، كانت عناية القرآن الكريم به كبيرة، حيث وردت مادة (الحلم) نحوا من ثماني عشرة مرة منسوبا إلى الله تعالى، أو ثناء به على بعض أنبيائه عليهم الصلاة والسلام .

وورد الحث عليه في أيات أخرى من معناه لا من لفظه، وثناء به كذلك على بعض عباده .

الحلم في جناب الله تعالى :

أما إثباته لله تعالى فقد ورد في إحدى عشرة آية مقترنا ببعض صفاته الأخرى، وهي: المغفرة والعلم والغنى والشكر، بحسب ما تقتضيه الآية من المناسبات البديعة .

وذلك كقوله تعالى: ﴿ والله غفورٌ حليم ﴾[سورة البقرة:٢٢٥] في خمس آيات، وقوله

---

(١) أخرجه مسلم وتقدم ذكره وتخريجه ص ٩ .

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود ١٣٦/٤، والفروق في اللغة لأبي هلال العسكري ص ١٩٧ .

تعالى: ﴿ والله غني حليم ﴾[سورة البقرة:٢٦]، وكقوله تعالى: ﴿ والله عليم حليم ﴾[سورة النساء:١٢] في ثلاث آيات، وقوله تعالى: ﴿ والله شكور حليم ﴾[سورة التغابن:١٧] .

فهذه الآيات تثبت صفة الحلم لله تعالى فنؤمن بها كما جاء عن الله على مراد الله سبحانه وتعالى.

وقال الراغب: "ومتى أطلق الحلم في حقه تعالى فإنه يراد به العمل بمقتضاه وهو العفو دون انفعال يعرض له"(١) غير أن مقتضى الحلم لا يقتصر على العفو الذي أفاده الراغب، بل أيضا على تأخير العقوبة كما هو مقتضى الدلالة اللغوية للفظ الحلم، وكما هو ظاهر الأثر من حلم الله تعالى على بعض عباده، فإنه تعالى قد يعفو مطلقا، وقد يؤاخذ بعد التأني بصاحب الذنب كما هي سنته في أتباع الرسل وغيرهم من العصاة ،

ولذلك قال الزجاج(٢): "وليس قول من قال: إن الحليم هو من لا يعاقب بصواب، أما سمع قول الشاعرالفصيح :

حليما إذا ما نال عاقب مجملا أشد العقاب أو عفا لم يثرب"(٣)

التنويه بأهل خلق الحلم والثناء عليهم :

وأما الثناء به على بعض أنبيائه ففي مثل قوله تعالى في حق إبراهيم عليه السلام : ﴿ إن إبراهيم لأواه حليم ﴾[سورة التوبة:١١٤]، وقوله فيه أيضا:﴿ إن إبراهيم لحليم أواه منيب ﴾ [سورة هود:٧٥] .

وقد برز جانب الحلم فيه حينما أخذ يجادل الملائكة حينما أبلغوه بمهمتهم نحو قوم نبي الله تعالى لوط عليه السلام عقابا لهم على جرائمهم الشنيعة التي انتشرت فيما بينهم،

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب ص ٣٤٢ .

وفي النهاية لابن الأثير قال: "في أسماء الله تعالى (الحليم) وهو الذي لا يستخفه شيء من عصيان العباد، ولا يستفزه الغضب عليهم، ولكنه جعل لكل شيء مقدارا فهو منته إليه" ا.هـ ١/٤٣٣ .

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري بن سهل الزجاج النحوي، إمام مجمع على إمامته في اللغة والنحو، أخذ عن المبرد وغيره، وطار صيته عند الخلفاء العباسيين فأكرموه، وألف مؤلفات كثيرة نافعة منها "معاني القرآن" توفي سنة ٣١١ هـ، انظر بغية الوعاة ص ١٧٩، والأعلام ١/٤٠ وغيرهما .

(٣) تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج ص ٤٧ .

وذلك رغبة منه في تأخير العذاب عنهم رجاء أن يتوبوا ويؤمنوا، ولم يكن يعلم أنه لامطمَع في توبتهم وإيمانهم بعد ذلك، حيث قد نفدت أسباب الطمع في إيمانهم ، كما قص الله تعالى هذه القصة في القرآن والتي جاء فيها قوله سبحانه: ﴿ فلمَّا ذهب عن إبراهيم الرَّوعُ وجاءته البُشرَى يجادلنا في قوم لوط * إنَّ إبراهيمَ لحليم أوَّاهٌ منيب * يا إبراهيمُ أعرِض عن هذا إنَّه قد جاء أمرُ ربِّك وإنهم آتِيهم عذابٌ غيرُ مردود ﴾[سورة هود:٧٤-٧٦] .

وكما وصف إبراهيم بهذا الخلق العظيم فإن ابنه إسماعيل(١) عليهما الصلاة والسلام قد وصف به أيضا حيث قال الله تعالى فيه: ﴿ فبشَّرناه بغلامٍ حليم ﴾[سورة الصافات:١٠١] .

وقد قص الله تعالى صورة عظيمة من حلمه عقب وصفه بالحلم فقال عز شأنه: ﴿ فلمَّا بلغ معه السَّعي قال يا بُنيَّ إنِّي أرى في المنامِ أنِّي أذبَحُك فانظر ماذَا ترى قال يا أبتِ افعل ما تُؤمر ستَجِدُني إنْ شاءَ الله من الصَّابرين ﴾[سورة الصافات:١٠٢] .

فأي حلم أكثر من هذا الحلم أو مثله ؟!إنه لحري أن ينال هذا الوصف وهذا الثناء .

قال البيضاوي(٢): "وقيل: ما نعت الله نبيا بالحلم لِعزَّةِ وجوده،غير إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام"(٣) لكن قد أثنى على بعض عباده لاتصافهم بالحلم، وإن لم يكن من لفظ الحلم فمن معناه، ومن أولئك نبي الله هود عليه السلام فإن أذيَّة قومه له وحلمه عن ذلك تعد صورة رائعة من صور الحلم فاصْغِ إلى قول الله تعالى حيث يقول: ﴿ وإلى عاد أخاهم هُوداً قال يا قومِ اعبُدوا الله ما لكم من إلٰهٍ غيرُه أفلا تَتَّقون * قال الملأ الذين كفروا من قومه إنَّا لَنراك في سَفاهة وإنَّا لَنَظُنُّك من الكاذبين * قال يا قومِ ليس بي سفاهةٌ ولكنِّي رسولٌ من ربِّ العالمين * أُبلِّغُكم رسالاتِ ربِّي وأنا لكم ناصحٌ أمين ﴾[سورة

---

(١) على أصح القولين عند أهل التأويل، انظر محاسن التأويل ١٤/١٢٣-١٢٤ .

(٢) هو عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي الملقب بناصر الدين البيضاوي، قاض مفسر علامة، له مؤلفات كثيرة في التفسير والفقه والأصول وغيرها توفي سنة ٦٨٥ هـ، انظر البداية والنهاية ١٣/٣٠٩، والأعلام ٤/١١٠ .

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص ٥٩٤ .

[الأعراف:٦٥-٦٨] فترى أن خلق الحلم منعه أن يطيش لشتائم هؤلاء الجهال، بل لم يزد على أن نفى عن نفسه ما اتهموه به وأثبت لنفسه الصدق والأمانة التي تليق بجناب النبوة .

ومثل هذا الحلم حلم نبي الله نوح عليه السلام حيث نسب إليه قومه نحوا مما جرى لهود مع قومه فقد قالوا له: ﴿ إنَّا لنَراك في ضلالٍ مُبين * قال يا قومِ لَيس بي ضلالةٌ ولكنِّي رسولٌ من رَبِّ العالمين * أُبلِّغكم رسالاتِ ربّي وأنصحُ لكم وأعلمُ من اللهِ ما لا تَعلمون ﴾[سورة الأعراف:٦٠-٦٢]

فانظر كيف حلم عنهم ولم يخاطبهم بمثل خطابهم القاسي، أو أن ينتقم منهم بالدعاء عليهم إلا لما يَئس منهم بعد أن مكث يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاما، فحينئذ قال: ﴿ ربِّ لا تَذر على الأرضِ من الكافرينَ ديَّارا ﴾[سورة نوح:٢٦] .

وتستطيع أن تلتمس هذا الخلق العظيم عند كل رُسُل الله تعالى من خلال دعواتهم لأقوامهم، وتحمُّل أذاهم وصبرهم على جهالاتهم، حيث ما كانوا يبادرونهم بالمغاضبة وطلب النقمة إلا إذا يأسوا من صلاحهم وإيمانهم .

فهو إذاً خلق الأنبياء عامة، وهو فوق ذلك صفة من صفات الحق تبارك وتعالى .

وحيث إن الحلم بهذه المثابة، فإنه لحري بالمؤمن أن يتحلَّى به، ويصبح خُلُقا ثابتا له في حياته، لأنه يسعى إلى معالي الأمور وشرائف الخلال، ولا أشرف من خلق وصف الله به نفسه، ووصف به أنبياءه، ووصف به بعض عباده الصالحين .

وبذلك يكون ذكر الحلم بهذا الأسلوب ضرب من ضروب الحث على التحلي به من جانب المؤمنين .

الثناء به على غير الأنبياء من المؤمنين :

أما وصف الكرام من عباد الله الصالحين به، فذلك في آيات كثيرة تنوِّه بأخلاقهم الكريمة ومنها خلق الحلم، وذلك كقوله تعالى: ﴿ وعبادُ الرَّحمٰن الَّذين يَمشونَ على الأرضِ هَوْناً وإذا خاطبهم الجاهلونَ قالوا سلاما ...﴾[سورة الفرقان:٦٣-٧٥] .

فإن الله تعالى عدد في هذه الآية أوصاف المؤمنين وأخلاقهم، وكان التواضع والحلم في محل الصدارة من هذه الأخلاق، اللذين دل عليهما المشي في الأرض هونا، وعدم مجاراة

الجهلاء في تخاطبهم، وإنما يقولون كلاما فيه سلام من الإيذاء والإثم، والعفو والصفح(١)، وقد ورد عن الحسن تفسير هذه الآية فقال: "حلماء لا يجهلون على أحد، وإن جهل عليهم حلموا"(٢):.

وفي تصدُّر هذين الخُلُقين بالذكر على غيرهما دلالةٌ على مكانتهما،وتنويه عظيم بهما وبأهلهما، ولذلك كان جزاؤهما عظيما حيث كان ما أخبر الله عنه بقوله: ﴿ أولئك يُجزَونَ الغُرفةَ بما صبروا ويُلقَّونَ فيها تَحيَّةً وسلاما * خالِدين فيها حَسُنت مُستَقَراً ومُقاما ﴾[سورة الفرقان:٧٥،٧٦] .

ومن التنويه بالحلم وأهله أيضا قوله أيضا: ﴿ وسارِعوا إلى مغفِرةٍ من ربِّكم وجنَّةٍ عرضُها السَّمٰواتُ والأرضُ أُعِدَّت للمتقين * الذين يُنفِقون في السَّراءِ والضَّراء والكاظِمين الغيظَ والعافينَ عن النَّاس والله يُحبُّ المحسنين ﴾[سورة آل عمران:١٣٣،١٣٤] .

لأن كظم الغيظ هو الكف عن إمضائه مع القدرة على تنفيذه، وذلك هو الحلم .

وقد جعله الله تعالى من المسارعة إلى الخيرات التي يترتب عليها أمور: منها مغفرة الله تعالى والوعد بجنته، وحيازة صفة التقوى، وجعله في عداد المحسنين الذين نالوا محبة الله تعالى، وفي هذا من الحث على التَّحلُّم ما فيه، إذ رتب الله عليه أربع جزاءات كل واحد كفيل لأن يكونُ مغرِيا على التخلق به، والصبر على مكابدته .

وقد جاء أن جارية لعلي بن الحسين(٣) رحمه الله جعلت تسكب عليه الماءَ ليتوضَّأ للصلاة، فسقط الإبريقُ من يد الجارية على وجهه فشجَّه، فرفع علي بن الحسين رأسه

---

(١) انظر محاسن التأويل للقاسمي ٢٧٢/١٢ .

(٢) شعب الإيمان للبيهقي ٣٤٥/٦ برقم ٨٤٥٢ .

(٣) ابن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - كان يلقب بـ "زين العابدين" كان يضرب به المثل في الحلم والورع، توفي - رحمه الله - سنة ٩٤ هـ، انظر ترجمته الواسعة في طبقات ابن سعد ٢١١/٥ - ٢٢٢، وشذرات الذهب لابن العماد ١٠٥/١ ، والأعلام ٢٧٧/٤، ونحوها .

إليها، فقالت الجارية: إن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿ والكاظِمينَ الغيظَ ﴾ فقال لها: قد كظمت غيظي، قالت الجارية: ﴿ والعافينَ عنِ الناس ﴾ فقال لها: عفا الله عنك، قالت: ﴿ والله يُحبُّ المحسنين ﴾ قال: اذهبي فأنت حرة"(١) .

فانظر كيف كانت هذه الآية الكريمة دافعة على تحمل الأذى، والإحسان على فاعله ، وهذا حلم وزيادة من هذا الإمام التقيّ العابد،سلالة النبوة الطاهرة، فرحمه الله تعالى رحمة الأبرار على تخلُّقه بخلق جده المصطفى صلى الله عليه وسلم في الحلم وكظم الغيظ والعفو عن الناس .

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي ٦/٣١٧، برقم ٨٣١٧ .

العفو والصَّفح

ذلك هو حديث القرآن الكريم عن الحلم، أما حديثه عن العفو والصفح اللَّذين هما من مظاهر الحلم وصوره الحقيقية، لأنه لايعفو ويصفح حتى يحلم، فهما حلم وزيادة، ولذلك جمعت بينهما في هذا المبحث،

فالعفو في اللغو: الترك والطلب، قال ابن فارس: "العين والفاء والحرف المعتل أصلان يدل أحدهما على ترك الشيء، والآخر على طلبه، قال: ومن الأول: عفو الله تعالى عن خلقه،وذلك تركه إياهم فلا يعاقبهم فضلا منه ..."(١) .

وفي القاموس وشرحه ما نصه(٢): "عفا عنه، وعفا له ذنبه: تركه ولم يعاقبه ... والعفو: المحو والامِّحاء" .

وفي الاصطلاح:هو (ترك المؤاخذة بالذنب)(٣) ومحوه من صفحة المؤاخذة مع القدرة على الانتقام .

أما الصفح فهو لغة: عُرض الشيء وجانبه كصفحة الوجه وصفحة السيف وصفحة الحجَر(٤)، قال في معجم مقاييس اللغة(٥):(الصاد والفاء والحاء أصل صحيح مطَّرد، يدل على عَرض وعِرَض، قال: ومن ذلك صفح الشيء عُرضه، قال: والصفح: الجنب، وصفحا كل شيء: جانباه، ومنه قولهم: صفح عنه إذا أعرض عن ذنبه؛ لأنه إذا أعرض عنه فكأنه قد ولَّاه صفحته وصُفحه أي: عرضه وجانبه)

أما في الاصطلاح:فهو ترك التَّثريب(٦)، أخذا من توليته صفحة الوجه إعراضا عن

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٥٦/٤ مادة (عفا) .

(٢) القاموس المحيط ٣٦٤/٤، وتاج العروس ٢٤٦/١٠ .

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب ص ٣٤٢ .

(٤) المفردات للراغب ص ٣٨٢ .

(٥) ٢٩٣/٣ .

(٦) المفردات للراغب ص ٢٨٢، والتثريب: هو الاستقصاء في اللَّوم، وثرب عليه تثريبا: قبح عليه فعله. مختار الصحاح ص ٨٣ .

الذنب؛ لأن الإنسان إذا أعرض عن الشيء ولاّه صفحة وجهه، وصفح وجهه عنه أي: أعرضه(١) .

والفرق بينه وبين العفو: أن الصفح أبلغ من العفو؛ لأنه يعني ترك التأنيب، فهو عفو وزيادة، إذ قد يعفو المرء ولا يصفح(٢)، ولذلك جمع الله تعالى بين العفو والصفح في غيرما آية كقوله تعالى: ﴿ فاعفُوا واصفَحوا حتَّى يأتيَ اللهُ بأمره ﴾[سورة البقرة:١٠٩]، لأن الأمر بالعفو لا يستلزم الصفح، فأمر الله تعالى بهما لأجل أن يستلَّ من الأنفس الحقد إلى جانب ترك المؤاخذة،

وكلاهما يعتبران من مظاهر الحلم الذي هو سيد الأخلاق(٣)، لأنه لا يعفو ويصفح حتى يكون قد حلم عمن يقتضيه حاله ذلك، وبذلك يظهر أثر الحلم من ترك المعاقبة، وترك اللوم عن الذنب، فالحلم خُلُق ذاتي في النفس يبرهن عليه العفو والصفح .

منزلة خلق العفو والصفح في الأخلاق الاجتماعية :

ولهذا عني القرآن الكريم بهما عناية كبيرة أمرا بهما وحضاً عليهما، وتنويها بشأنهما، وشأن أصحابهما .

حيث وردت مادة العفو الدالة على ترك المؤاخذة نحوا من ثلاثين مرة في القرآن الكريم، وورد الصفح ثماني مرات، وذلك دليل على كمال العناية بهذين الخلقين الكريمين .

ذكر العفو منسوبا إلى الله تعالى :

ولا عجب فإن العفو من أسماء الله الحسنى، وصفة من صفاته العُلا، وقد وصف الله نفسه به ونسبه إليه في نحو عشرين آية من كلامه القديم، وذلك كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إن تُبدوا خيراً أو تُخفوه أو تعفُوا عن سُوءٍ فإنَّ الله كان عفوّاً قديرا ﴾[سورة النساء:١٤٩]، وقوله: ﴿ إن الله لعفُوٌّ غفور ﴾[سورة الحج:٦٠، والمجادلة:٢]، وقوله سبحانه:

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/٦٧١ .

(٢) تاج العروس ١٠/٢٤٧ .

(٣) الذريعة ص ٣٤٢ .

﴿ إنَّ الله كان عفُوًّا غفورا ﴾[سورة النساء:٤٣]، ﴿ وكان الله عفُوًّا غفورا ﴾[سورة النساء:٩٩] .

والملاحظ أن وصف الله تعالى نفسه بالعفو كان بصيغة التكثير (عفوٌّ) على وزن فعول، للدلالة على كثرة عفو الله تعالى عن عباده الذين يذنبون فيستحقون المجازاة بالعقاب، لكنه سبحانه يترك مؤاخذتهم على كثرة ذنوبهم وجرائمهم لأنه عفو،

وقد ذكر القرآن الكريم بعض ذنوب العباد التي تداركها الله تعالى بعفوه .

ومن ذلك قوله سبحانه في شأن نسخ تحريم الأكل والشرب والجماع في ليل رمضان بعد نوم المرء إذا ما نام، وقد كان في ذلك من المشقة ما فيها، حتى وقع لبعض الصحابة ما يناقض ذلك الحظر، فخفف الله تعالى عنهم وقال: ﴿ علم اللهُ أنَّكم كُنتُم تَخْتَانُون أنفسَكم فتابَ عليكم وعفا عنكم ﴾[سورة البقرة:١٨٧] .

ومن ذلك عفوه تعالى عمن خالف أمر رسوله صلى الله عليه وسلم من الرُّماة يوم أحد استعجالا لطلب الغنيمة فقال تعالى: ﴿ ولقد صدَقكم اللهُ وعدَه إذ تَحسُّونهَم(١) بإذنه حتى إذا فَشِلتُم وتنازعتم في الأمر وعَصَيتُم من بعد ما أراكم ما تُحبّون منكم من يُريدُ الدنيا ومنكم من يريدُ الآخرة ثم صرفكم عنهم لِيبتليَكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾[سورة آل عمران:١٥٢] .

ومن ذلك عفوه تعالى عن المؤمنين الصادقين الذين تولَّوا يوم أحد عن جيش المسلمين تحت وطأة الهزيمة فقال سبحانه: ﴿ إنَّ الذين تولَّوا منكم يوم التقَى الجمعانِ إنَّما استزلَّهم الشَّيطانُ ببعضِ ما كسبوا ولقد عفَا اللهُ عنهم إنَّ الله غفورٌ حليم ﴾[سورة آل عمران:١٥٥].

إلى غير ذلك من مواقف المؤمنين التي منَّ الله تعالى عليهم بعفوه معها، مما يدل على سعة عفو الله وعظيم رحمته بعباده .

---

(١) أي: تقتلونهم .

العفو بين المؤمنين :

وإذا كان العفو صفة من صفات الخالق جل وعلا فإنه من الجدير بالمؤمن أن يتحلى به؛ لأنه مما يزكي نفسه ويعلي قدره عند الله تعالى وعند الناس، كما جاء في الحديث "ما نقصت صدقةٌ من مال، وما زاد اللهُ عبدًا بعفو إلا عِزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله"(١) .

ولذلك ندب الله تعالى عباده إلى التخلق بهذا الخلق العظيم في غيرما آية بأساليب مختلفة أمرا وحضا وتنويها في آيات كثيرة .

الأمر بالعفو :

أما أسلوب الأمر فكما في قوله تعالى: ﴿ وَّد كثيرٌ من أهلِ الكتابِ لو يَرُدُّونَكم من بعدِ إيمانِكم كفَّاراً حسَداً من عند أنفسِهم من بعد ما تَبيَّن لهم الحقُّ فاعفوا واصفَحوا حتى يأتيَ اللهُ بأمرِه إنَّ الله على كل شيءٍ قدير ﴾[سورة البقرة:١٠٩] .

وكما في قوله تعالى﴿ولا يَأْتلِ أولُوا الفضلِ منكم والسَّعةِ أن يُؤتوا أولِي القُربى والمساكينَ والمهاجرينَ في سبيلِ الله وليعفُوا وليصفَحوا ألا تُحبّونَ أن يَغفرَ الله لكم والله غفورٌ رحيم ﴾[سورة النور:٢٢] .

وفي هذا الأسلوب من الحث على التحلي بهذا الخلق ما فيه الكفاية؛ لأن الله عز وجل قد بين لعباده ما يترتب على عفوهم الذي أمرهم به حيث أشار سبحانه في الآية الأولى إلى ما سيئول إليه أمرهم مع أعدائهم من اليهود والنصارى لأنه غيَّا طلب العفو بإتيان أمر الله، "وقد كان ذلك إما بالإذن في قتالهم وضرب الجزية عليهم"(٢) الذي دل عليه قوله سبحانه: ﴿ قاتلوا الَّذين لا يُؤمنِون بالله ولا باليومِ الآخِر ولا يُحرِّمونَ ما حرَّم الله

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه برقم ٢٥٨٨،والترمذي في الصلة، باب ما جاء في التواضع برقم ٢٠٢٩، والإمام أحمد في المسند ٢/٢٨٦، والدارمي في الزكاة ١/٣٩٦ .

(٢) أنوار التنزيل للبيضاوي ص ٢٣ .

ورسوله ولا يَدِينُونَ دِينَ الحقِّ من الذين أُوتوا الكتابَ حتَّى يُعطُوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صَاغرون ﴾[سورة التوبة:٢٩] .

أو الأمر: بإجلاء بني النضير وقتل بني قريظة الثابت بعموم الكتاب وصريح السنة كقوله تعالى: ﴿ وأَنزلَ الذين ظَاهروهم من أهلِ الكِتاب من صَياصِيهم وَقذف في قُلوبهم الرُّعبَ فريقًا تقتُلون وتأسِرون فريقا * وأورثَكم أرضَهم وديارَهم وأموالَهم وأرضًا لم تَطؤُها وكان الله عَلى كلِّ شيءٍ قديرا ﴾[سورة الأحزاب:٢٦،٢٧] .

وكقوله صلى الله عليه وسلم لسعد بن معاذ رضي الله عنه: "حكمت فيهم بحكم الملِك"(١) وذلك لمَّا حكم بقتل المقاتِلة وسبي الذرية .

أما الآية الثانية فقد رتَّب الله تعالى فيها على العفو عن زلات الأقربين والمساكين ونحوهم، رتب على ذلك مغفرة الله تعالى ورحمته للعافين جزاء لهم من جنس عملهم، لأنه أولى بالعفو منهم .

وثمار هذا العفو كافٍ في إغراء المؤمنين عليه، غير أن الإغراء لم يقتصر على ذلك، بل قد كان بأساليب أخرى منها الحض والتنويه .

الحض والعفو :

أما الحض ففي آيات كثيرة منها قوله تعالى في حث الأزواج على التنازل عما لهم من الحق في تشطير المهر إن هم طلَّقوا قبل المِساس؛ لأن ذلك من حسن الخلق والفضل في المعاملة: ﴿ وإن طلَّقتمُوهُنَّ من قبلِ أن تمسُّوهنَّ وقد فَرَضتمُ لهُنَّ فريضةً فنصفُ ما فرضتم إلا أن يَعفونَ أو يَعفوَ الَّذي بيده عُقدةُ النكاح وأن تَعفُوا أقربُ لِلتَّقوى ولا تَنْسَوُا الفضلَ بيَنكم إنَّ الله بما تعملون بصير ﴾[سورة البقرة:٢٣٧] .

حيث دلت الآية على أن العفو عنوان التقوى ودليله، ومن خير ما يتمنَّاه المؤمن في

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب إذا نزل العدو على حكم رجل ٨١/٤، ومسلم في الجهاد، باب جواز قتل من نقض العهد برقم ١٧٦٨ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وتقدمت الإشارة إلى هذا الحديث في مبحث (الصبر) ص ٥٢٤

هذه الحياة هو أن يكون من المتقين، لينال بذلك محبة الله تعالى للمتقين وما أعده لهم من الثواب العظيم، وعفوه هنا شهادة إلهية بقربه من التقوى لا يفرط فيها من قدر عليها.

ومن الحض على العفو أيضا قوله تعالى : ﴿ إن تُبدُوا خيراً أو تُخفوه أو تَعفو عن سوءٍ فإنَّ الله كان عفُوّاً قديراً ﴾[سورة النساء:١٤٩] حيث أشارت الآية إلى أن الله تعالى من شأنه العفو عن العاصين مع قدرته على مؤاخذتهم، ليكون ذلك حافزا للناس على العفو عند المقدرة، وإن كان على وجه الانتصار لدلالة الآية السابقة ﴿ لا يُحِبُّ اللهُ الجهرَ بالسُّوءِ إلا من ظُلِم ...﴾ لأن ذلك من مكارم الأخلاق، فضلا عن أن الله تعالى قد آذن العافين من الناس بعفوه عنهم، كما أفاده جواب الشرط إذ تقديره: "يعفُ عنكم عند القدرة عليكم كما أنكم فعلتم الخير جهرا وخفية ، وعفوتم عند المقدرة على الأخذ بحقكم" .

وقوله تعالى: ﴿ فإنَّ الله كان عَفُوًّا قديرا ﴾ دليل لذلك الجواب وعلة له،

فجواب الشرط إذاً وعده بالمغفرة لهم في بعض ما يقترفونه جزاء عن فعل الخير وعن العفو عمن اقترف ذنبا(١) .

ومثل هذه الآية:حضُّ الله تعالى المؤمنين على احتمال أذى الأهل من الأزواج والأولاد والعفو والصفح عنهم بقوله سبحانه: ﴿ يا أيُّها الذينَ آمنوا إنَّ من أزواجِكم وأولادِكم عدوًّا لكم فاحذرُوهم وإن تَعفُوا وتَصفحوا وتغفِروا فإنَّ الله غفورٌ رحيم ﴾[سورة التغابن:١٤] ، فقوله تعالى: ﴿ فإنَّ اللهَ غفور رحيم ﴾ "دليل جواب الشرط المحذوف المؤذِن بالترغيب في العفو والصفح والغفر، والتقدير: وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا يحب الله ذلك منكم؛ لأن الله غفور رحيم، أي: للذين يغفرون ويرحمون"(٢) .

وترى أن الله تعالى لم يكتف بالحض على العفو فقط في هذا المقام، بل حث أيضا على الصفح الذي يعني ترك التوبيخ، والتثريب على الذنب، وعلى المغفرة التي تعني ستر الذنب

---

(١) انظر التحرير والتوير ٧/٦ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٨٥/٢٨، وانظر روح المعاني ١٢٦/٢٨/١٠ .

وعدم إشاعته، لأن المقام هنا مقام عداوة أقرب الأقربين من زوجة وولد، وذلك أشد مضاضة على المرء، وأدعى له للانتقام، وغالبا ما يكون قادرا على ذلك، فالصبر على هؤلاء، والحلم عنهم مرير، فلذلك كان الحض على الثلاثة الأمور لا للكف عن المعاقبة فقط، بل ليقتلع من أفئدة المؤمنين جذور الكراهية والبغض الداعية إلى القطيعة التي نهى الله عنها .

ومن الحض على العفو أيضا قول الله تعالى: ﴿ وسارِعوا إلى مغفِرةٍ من ربِّكم وجَنَّة عرضُها السَّماواتُ والأرضُ أُعِدَّت للمتَّقين * الذين يُنفِقون في السَّراءِ والضَّراءِ والكاظِمينَ الغيظَ والعافينَ عن النَّاسِ والله يُحب المحسنين ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ أولئِك جزاؤُهم مغفرةٌ من ربِّهم وجنَّاتٌ تجري مِن تحتها الأنهارُ خَالدين فيها ونِعم أجرُ العاملين ﴾[سورة آل عمران:١٣٣-١٣٦] .

فإن الآية تدعو إلى المسارعة إلى نيل مغفرة الله تعالى المترتب عليها دخول الجنة المعدَّة للمتقين، وقد بينت الآية بعضا من صفات المتقين التي نالوا بها مغفرة الله تعالى والدخول في جنته، فذكرت ست صفات كان من أوائلها بعد الإنفاق في سبيله في السراء والضراء: كظمُ الغيظ، وذلك هو الصبر والحلم، والعفو عن الناس، وذلك هو أثر الحلم عمَّن ظلم، وقد رُتِّب على ذلك: الجزاء العظيم الذي أفاده أول المقطع من هذه الآية، ثم أكده في آخره ليقرِّرَهُ في نفوس المتَّصفين بها فيزدادوا عليها حرصا،وبها تعلقا فقال: ﴿ أولئِك جزاؤُهم مغفرة ...﴾ وهو جزاء عظيم يستوجب الغِبطة والحرص عليه، ولذلك نوَّه الله تعالى به بقوله: ﴿ ونِعم أجرُ العاملين ﴾ .

التنويه بأهل هذا الخلق :

أما تنويه القرآن الكريم بأهل هذا الخلق ، فهو تنويه عظيم في آيات كثيرة، منها قوله تعالى في سياق تعداده لبعض صفات المؤمنين: ﴿ فما أُوتيتُم من شيءٍ فمتاعُ الحياةِ الدنيا وما عندَ اللهِ خيرٌ وأبقى لِلذين آمنوا وعلى ربِّهمَ يتوكَّلون * والَّذين يَجتَنبون كبائرَ الإثم والفواحِش وإذا ما غَضِبُوا هم يَغفرون ...﴾[سورة الشورى:٣٦-٣٧] .

حيث عدد الله تعالى بعضا من صفات الذين آمنوا، وذكر في ثالث صفاتهم أنهم

﴿ إذا ما غضِبوا هم يَغفرون ﴾ أي: يتجاوزون ويصفحون عمن أساء إليهم من إخوانهم المؤمنين لما هم عليه من التآخي والتحاب فيما بينهم، أما مع غيرهم فقد وصفهم بأنهم ﴿ إذا أصابَهم البغيُ هم يَنتصرون ﴾ لأنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين .

قال الفخر الرازي رحمه الله: "وإنما خص الغضب بلفظ الغفران؛ لأن الغضب على طبع النار، واستيلاؤه شديد،ومقاومته صعبة، فلهذا السبب خصه بهذا اللفظ"(١) .

وقد عدد الله تعالى صفاتهم هذه على سبيل التمدح والامتنان، حيث ذكرهم في معرض المقابلة مع الذين يجادلون في آيات الله الكونية أو التنزيلية، وينازعون فيها على وجه التكذيب، وهم المشركون اغترارا بما عندهم من متاع الحياة الدنيا وهو متاع حقير وخسيس .

فنبَّه الله تعالى إلى أن الفريق المقابل لهم وهم المؤمنون خير منهم حالا ومآلا، وقد أبان عن فضلهم والإشادة بهم بما أعده لهم من الأجر حيث قال: ﴿ وما عِندَ اللهِ خيرٌ وأبقى للذين آمنوا ...﴾ .

ومن ذلك أيضاً قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وجزاءُ سَيِّئةٍ سَيِّئةٌ مثلُها فمن عفا وأصلَح فأجره على الله إنه لا يحبُّ الظَّالمين * ولَمَنِ انتصر بعد ظُلمه فأولئِك ما عليهم من سَبيل * إنَّما السبيلُ على الذين يَظلمون الناسَ ويَبغونَ في الأرضِ بغيرِ الحقِّ أُولئك لهم عذابٌ أليم * ولَمن صَبر وغَفر إنَّ ذلك لَمِن عَزمِ الأمور ﴾[سورة الشورى: ٤٠-٤٣] .

فإن الله تعالى يَعدُ العافين في هذه الآية بأجره العظيم الذي أفاده إطلاق الأجر الموعود، للدلالة على أنه لا يُقاس أمره في العظمة(٢)، ويصف عفوهم وصبرهم بأنه من عزم الأمور، أي: إن فاعل ذلك من ذوي عزم الأمور(٣)،(ووصف الأمور بالعزم من الوصف

---

(١) التفسير الكبير ١٧٦/٢٧ .

(٢) المرجع السابق ١٨١/٢٧ .

(٣) البحر المحيط ٥٢٤/٧ .

بالمصدر للمبالغة في تحقق المعنى فيها، وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل، أي: الأمور العازمة، وهذا الوصف مشعر بمدح الموصوفين به؛ لأن شأن الفضائل أن يكون عملها عسيرا على النفوس؛ لأنها تعاكس الشهوات ومن ثم وصف أفضل الرسل بأولي العزم)(١) .

وقد أكد هذا الخبر بمؤكدات كثيرة(٢) للتنويه بهذا الوصف العظيم، والدلالة على علو منزلة صاحبه، وبالغ أهميته، حيث إنه يقدر على مغالبة نفسه، فكان من أهل العزم والعزائم، جعلنا الله تعالى ووالدينا ومشايخنا وأولادنا ومحبينا منهم بمنه وكرمه .

---

(١) التحرير والتنوير ١٢٢/٢٥ بتصرف .

(٢) هي: اللام، وإن، واسم الإشارة، ولام الابتداء، والوصف بالمصدر في قوله: (عزم الأمور) .

تمثل خلق

الحلم والعفو والصفح في النبي صلى الله عليه وسلم

لئن كان القرآن الكريم قد أثنى ثناء بالغا على بعض الأنبياء وبعض عباد الله الصالحين، بخلق الحلم من هذه المادة أو من معناها في آيات كثيرة ،

فإنه قد أثنى به على رسول الله صلى الله عليه وسلم في آيات كثيرات كذلك، وإن لم يكن من مادة الحلم" فإنه من معناه، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ فبما رحمةٍ من اللهِ لِنتَ لهم ولو كُنتَ فظًّا غليظَ القلبِ لانفَضُّوا من حولِك ﴾[سورة آل عمران:١٥٩] .

فإن في هذه الآية من الامتنان العظيم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بغرس مكارم الأخلاق فيه، ما يدل على عظمة أخلاقه، حتى قال الحسن البصري رحمه الله مفسرا لهذه الآية: "هذا خُلُق محمد صلى الله عليه وسلم بعثه الله تعالى به"(١) .

وكان من ذلك: الحلم الذي يدل عليه اللِّينُ، وعدم الفظاظة والغلظة؛

لأن كونه عليه الصلاة والسلام لا يستعمل الغِلظةَ والفَظاظة مع الناس، بل الرحمة والعطف، ذلك هو عين الحلم الذي تدل عليه مادته، وهو ما دلت عليه الشواهد الكثيرة من أحواله صلى الله عليه وسلم الاجتماعية .

ومع ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من هذا الخلق العظيم الذي دلت عليه الآية السابقة مقررة له فيه، وممتنة به عليه، فإنه سبحانه وتعالى لم يزل يحثه على التحلي بكماله، والاستمرار على منواله، في كل أحواله وأقواله ،

وذلك بمثل قوله جل في علاه: ﴿ خذِ العفوَ وأمُر بالعُرف وأَعرض عن الجَاهلين ﴾ [سورة الأعراف:١٩٩] .

فإن هذه الآية الجامعة لمكارم الأخلاق تخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتحلي بها، وذلك بالاستمرار والثبات عليها كقوله سبحانه: ﴿ يا أيُّها الذين آمَنوا آمِنوا بالله ورسولِه ﴾[سورة النساء:١٣٦] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٤٢٠ .

وإلا فقد شهد الله تعالى له بعظمة الخلق بقوله: ﴿ وإنَّك لَعلى خُلُقٍ عظيم ﴾ وامتنَّ عليه به في الآية السابقة،

وكان مما حثت الآية عليه من مكارم الأخلاق وعظيمها (الحلم) الذي يدل عليه قوله جل شأنه: ﴿ وأَعرِض عن الجاهلين ﴾ .

وتأمل كيف يكون امتثال النبي صلى الله عليه وسلم لذلك مع ما هو عليه بالفعل، إن في ذلك لدلالة على كمال عظمة تحليه به؛ لأنه أكمل الخلق امتثالا لأوامر ربه، وأعظمهم زكاء في خُلقه معه سبحانه ومع أمته، فيترقى في ذلك كمالا فوق كمال وعظمة فوق عظمة .

وهو ما دلت عليه شواهد أحواله صلى الله عليه وسلم في كل أطوار حياته التكليفية والاجتماعية، حيث حلِم عن أعدائه، وحلم عن أصحابه، وحلم عن أهليه وذويه، في صور يفُقد عندها حلم كل حليم، "لأن كل حليم قد عُرفت منه زلة، وحُفظت عنه هفوة، وهو صلى الله عليه وسلم لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبرا، وعلى إسراف الجاهل إلا حلما"(١)، ولذلك يقول الماوردي رحمه الله تعالى في وصف حلمه صلى الله عليه وسلم "فكان أحلم في النِّفار من كل حليم، وأسلم في الخصام من كل سليم، وقد مُني بجفوة الأعراب، فلم توجد منه نادرة، ولم يحفظوا عليه بادِرة، ولا حليم غيره إلا ذو عثرة، ولا وقور سواه إلا ذو هفوة، فإن الله تعالى عصمه من نزعات الهوَى، وطيش القدرة بِهَفوة أو عثرة، ليكون بأمته رؤوفا، وعلى الخلق عطوفا، قد تناولته قريش بكل كبيرة، وقصدته بكل جريرة، وهو صبور عليهم، ومعرض عنهم، وما تفرد بذلك سفهاؤهم دون حلمائهم، ولا أراذلهم دون عظمائهم، بل تمالأ عليه الجِلَّةُ والدُّون، فكلما كانوا عليه من الأمر أشد وألح أعرض وأصفح ، حتى قَهر فعفَا، وقدر فَغفر"(٢) .

وقد كان حلمه عليه الصلاة والسلام قائما على منهج اتخذه لنفسه، وهو إسقاط حق

---

(١) الشفاء للقاضي عياض ١/١٠٤ .

(٢) أعلام النبوة ص ٢٨٨ .

نفسه عن المؤاخذة مهما كانت الإساءة، ولا يقوم إلا لحق الله تعالى، فإذا انتُهِك حقُّ الله تعالى لم يقم لغضبه شيء حتى يقيم حكم الله وينفّذ شرعه، ويعيد للدِّين اعتباره وهيبته .

١ - كما دل على ذلك قول عائشة رضي الله عنها: "ما خُيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه، وما انتقم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تُنتهك حرمةُ الله فينتقم لله بها"(١) .

٢ - وفي رواية قالت: "ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قطُّ بيده، ولا امرأة ولا خادما إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما قيل فيه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن يُنتهك شيءٌ من محارم الله فينتقم لله عز وجل"(٢) .

فإن هذا الحديث يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان قد أسقط حق نفسه عمن يؤذيه في جسده في حياته ، ولم يصبِح مهتمّاً إلا بدين الله وحرماته، ، فإنه لا يتهاون فيه إذا انتهك أو أهمل .

وهذا المنهج الخبري هو الذي دلت عليه الوقائع العملية في حياته صلى الله علي وسلم الدعوية والاجتماعية، حيث برز حلمه على ذلك النحو مع أعدائه، ومع أصحابه ومع أهل بيته، كما تدل عليه الوقائع والأحوال الآتية :

١ - حلم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعفوه وصفحه عن أعدائه :

الحلم عند محن الأعداء هو معيار مُدَّعِي هذا الخلق العظيم، وقلَّما يثبت عندها أحد؛ لأن الحلم لا يكون إلا عند المقدرة، كما أن خلق العفو لا يتحقق إلا بوجود ثلاثة شروط وهي :

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم ٤/٢٣، ومسلم في الفضائل، باب مباعدته صلى الله عليه وسلم للآثام واختياره من المباح أسهله اونتقامه لله عز وجل عند انتهاك حرماته برقم ٢٣٢٧ .

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم ٤/٢٣٠، ومسلم في الفضائل الباب السابق برقم ٢٣٢٨ .

١ ـ أن يلقى أشد الإساءة من أعدائه .

٢ ـ أن تدور الدائرة على هؤلاء الأعداء فيقعون في قبضته ويصبحون تحت رحمته .

٣ ـ أن يملك هو القدرة على القصاص منهم(١) .

فإذا ابتلي المرء بعدوٍّ له في دينه أو دنياه، يَطغَى عليه ويتكبَّر، ثم يسطو عليه فيؤذيه في ذاته أو دينه، ثم بعد ذلك يظفر به فيحلم عنه، ويعفو عن جُرمه، يكون متحليا بهذا الخلق بجدارة، ولكن أين يتمثل هذا الخلق على هذا النحو ؟ إنه عزيز الوجود في تاريخ البشرية، إلا عند أنبياء الله ورسله، فإن حياتهم كلها كانت حلما وأناة، وعلى رأسهم سيدنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، فإنه قد نقل عنه في ذلك الكثير مما يشهد على عظمة حلمه وكمال خلقه، من ذلك :

١ ـ حلمه عن قريش و أهل الطائف الذين بلغ إيذاؤهم له ـ بنفسي هو وأبي وأمي ـ مبلغا لا يطيقه غيره على ماتقدم بيانه في مبحث الصبر، ومع ذلك يرسل الله تعالى إليه جبريل عليه السلام فيقول له :

"إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك ملَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداه ملك الجبال وسلم عليه، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا"(٢) .

فتأمل مبلغ حلمه على أعدائه الذين آذوه وأغروا به سفهاءهم فرجموه بالحجارة حتى أدمَوا عقبه، وردوا عليه ردا منكرا، وقد كان يعبر عن ذلك بانه أشد ما لقيه من قومه، ومع ذلك يحلم عنهم، و لم يكافئهم و لم يطلب من الله عقابهم، وهم قد فعلوا ذلك الفعل الشنيع، بل مع ذلك رجا الله تعالى أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك

---

(١) انظر المثل الأعلى في الأنبياء ص ٢٢٧ .

(٢) متفق عليه، وتقدم ذكره وتخريجه في الصبر ص٨٣ .

به شيئا، فترى أن هذا حلم ليس وراءه حلم حليم !!

٢ ـ ومن ذلك حلمه عن أهل مكة الذين آذوه أبلغ الإيذاء وهو يدعوهم إلى الله تعالى صباح مساء، ويحلم عن إيذائهم له، وكأنه لم ينل شيئا كما هو معلوم من سيرة دعوته إياهم منذ فجر الرسالة.

ولما بالغوا في تحديهم له ، وتأبِّيهم عن قبول دعوته، تحدَّوه "أن يجعل لهم الصفا ذهبا، وأن ينحِّي عنهم الجبال فيزدرعون" فجاء الوحي مجيبا عن ذلك قائلا: "إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن نعطيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكتُهم كما أهلكت من قبلهم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: "بل أستأني بهم"(١) .

فلم يشأ صلى الله عليه وسلم تعجيل إنزال العذاب عليهم، لعلمه بأنه واقع بهم لا محالة، لأنه يعلم أنهم متعنِّتون لا غير كما قال الله عنهم: ﴿ وقالوا لَن نُؤمِنَ لك حتَّى تَفجُرَ لنا من الأرضِ يَنبوعا * أو تكونَ لك جنَّة من نخيلٍ وعِنب فتُفجِّر الأنهارَ خِلالها تفجيرا * أو تُسقِط السماءَ كما زَعمتَ علينا كِسَفا أو تأتِيَ بالله والملائكةِ قَبيلا * أو يكون لَك بيتٌ من زُخرف أو تَرقى في السَّماءِ ولَن نُؤمِن لِرُقِيِّك حتَّى تُنَزِّل علينا كتاباً نَقرؤُه قل سبحان ربِّي هل كُنتُ إلا بشراً رسولا ﴾[سورة الإسراء:٩٠-٩٣] .

فهو صلى الله عليه وسلم يعلم هذه الحقيقة فيهم، ومع ذلك لم يشأ معاجلتهم بالعقوبة، مع ما يبدو من ظاهر حالهم من استحالة هدايتهم كما تدل عليه هذه الآيات، ومع ذلك كله يقول صلى الله عليه وسلم: "بل أستأني بهم" فأي حلم أكبر من هذا ؟! إنه حلم عظيم بلا ريب، ولا بدع فهو حلم نبوة ! .

٣ ـ ولئن كان حلمه عليه الصلاة والسلام كذلك قبل أن يؤمر بالجهاد، وهو الحال الذي قد يقول المرء إنه كان لسبب بقاء رجاءٍ في إيمانهم،وطمع في هداية الله تعالى لهم،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢٥٨/١، من حديث ابن عباس موصولا، وابن جرير في التفسير ١٠٨/١٥ موقوفا على سعيد بن جبير وقتادة، وذكره ابن كثير في التفسير ٢٧/٣ موصولا وموقوفا، وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على المسند رقم ٣٥٨٣: إسناده صحيح .

إلا أنا نقول: إن هذا هو حلمه دائما وأبدا، ولئن كان حلمه على ذلك النحو قبل أن يؤذن له بالجهاد، فقد كان بعد أن أذن لهبهكذلك أو أعظم اتضاحا، كما تدل عليه الوقائع والشواهد التالية :

١ ـ فقد أصيب يوم أحد إصاباتٍ كبيرة من أعدائه اللئام، حيث شجُّوا وجهَه الشريف، وكسروا رباعيته في ذلك اليوم، بنفسي هو وأبي وأمي صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك راوده أصحابُه أن يدعو الله تعالى عليهم فقال: "إنِّي لم أُبعث لعَّانا، ولكني بعثت داعيا ورحمة، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون"(١) .

هكذا يقول وهو في ذلك الحال الذي ينفطر له قلب المسلم، ويود أحد منا أن لو دعا الله عليهم فأهلكهم عن بَكرة أبيهم، لبالغ أذيتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يريد أن يُخرجهم من الظلمات إلى النور، وهو ما كان يطالب به الصحابة رضي الله عنهم كما علمت، وكما روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله ادع الله على المشركين،فقال: "إني لم أبعث لعَّانا، وإنما بعثتُ رحمة"(٢) .

فهو صلى الله عليه وسلم يأبَى أن يدعو الله تعالى عليهم، ولم يقف عند ذلك حتى دعا لهم بالهداية والتمس لهم العذر بأنهم لا يعلمون، فأي حلم حليم يكون كهذا الحلم ؟ لا جرم لم نسمع بمثله .

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل ٢١٤/٣ من حديث سهل بن سعد، وفي الشعب ١٦٤/٢ برقم ١٤٤٨، وأصله في الصحيحين: البخاري في باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٢١٤/٤، ومسلم في الجهاد، باب غزوة أحد برقم ١٧٩٢، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: كأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبيا من الأنبياء ضربه قومه، فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والأدب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها برقم ٢٥٩٩، والبخاري في الأدب المفرد، باب لعن الكافر برقم ٣٢١، والبغوي في الأنوار برقم ٢٥١ .

٢ ـ ولما ظفر عليه الصلاة والسلام بالثمانين رجلا في غزوة الحديبية من أهل مكة الذين هبطوا من جبل التنعيم متسلِّحين يريدون غِرَّةَ النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فأخذهم النبي صلى الله عليه وسلم واستحياهم(١) مع ما كان يقتضيه حالهم من القتل جزاء وفاقا، غير أن النبي صلى الله عليه وسلم حلم عنهم، ولم يعاقبهم على ذلك .

٣ ـ ولما فتح مكة ودخلها ظافرا منتصرا منكِّسا لرؤوس الوثنيَّة وطواغيتها وصناديدها، لم يفعل كما يفعل الملوك في مثل ذلك الموقف من إفساد الحرث والنسل ﴿ إنَّ الملوكَ إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجَعلوا أعِزَّة أهلِها أذِلَّة وكذلك يَفعلون ﴾[سورة النمل:٣٤] .

وإنما دخلها وهو مليءٌ حلما وعفوا وصفحا، وهو يقول: "هذا يوم يعظِّم الله فيه الكعبة"(٢) .

٤ ـ ولما تمكن من الفتح العظيم، وقبض على ناصية الجبابرة الطَّغام وهم لا يدرون ما يخبأ لهم غير أنهم يطمعون في حلمه وكرمه كما عهدوه فيه .

يوم ذاك قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أهل مكة! ما تظنُّون أني فاعل بكم ؟ قالوا: خيرا، أخٌ كريم وابن أخ كريم، عندئذ قال مقولته المشهورة الجارية مجرى الأمثال شهرة واستفاضة: "إذهبوا فأنتم الطلقاء"(٣) .

وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم: "مَثَلي ومُثلكم كما قال يوسف لإخوته:

---

(١) كما دل عليه حديث مسلم في الجهاد، باب قوله: ﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم ﴾ برقم ١٨٠٨ وأبي داود في الجهاد، باب في المن على الأسير برقم ٣٢٦٠، والترمذي في التفسير، باب من سورة الفتح برقم ٣٢٦٠ .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب أين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح ١٨٧/٥ من حديث .

(٣) عزاه السيوطي في مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفاء ص٦٢ رقم ١٧٩ إلى حميد بن زنجويه في كتاب الأموال، وإلى النسائي من حديث أبي هريرة بزيادة عما هنا، وذكره ابن هشام في سيرته ٩٤/٤ وتاريخ الخلفاء ص ٣٢٩، وذكره عامة أهل المغازي والسير، وفي إسناده ضعف، انظر ما سيأتي من حديث السيرة للغزالي ص٢٩٩ .

﴿ قال لا تثريبَ عليكم اليومَ يغفِرُ الله لكم وهو أرحمُ الراحمين ﴾[سورة يوسف:٩٢]، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه-وكان قد توعَّد صناديد مكة : "فانفضحتُ حياءً من رسول الله:صلى الله عليه وسلم"(١) .

هكذا حلم وعفى وصفح عن هؤلاء الذين أذاقوه أنواع الإيذاء، وائتمروا على قتله، وأخرجوه من أحب البلاد إليه، وحاربوه كأشد ما كانت تعرفه الحروب، وفعلوا معه ما لا يطاق وصفه، ومع ذلك كله فهو يحلم ويعفو ويصفح، بل ويكرم ويعطي ويجزل العطاء .

وكان بإمكانه وله الحق الكامل أن يُعمل فيهم السيف قتلا وتنكيلا، فقد أُحلَّت له مكة ساعة من نهار، ليذيق طغاتها جزاء عنادهم وإيذائهم وعداوتهم جزاء وفاقا .

ولكن حلم النبوة أبى عليه ذلك فقال لهم: "إذهبوا فأنتم الطلقاء" .

"إنك لا تجد قائدا في العالَم مهما بلغ من جلال الإنسانية،ورفعة العلم،وذِروة الخلق يخاطب أعداءه الذين استباحوا قتله بعد ما استباحت قريش من دماء المسلمين، يخاطبهم حين ظنوا أنهم ألقي عليهم قيود السلطة والجبروت، وأنهم أصبحوا أسرى في يديه، يفعل بهم من جنس صنيعهم أو أشد يخاطبهم منكرا أنهم أسرى أو مقيدين فيقول: "اذهبوا ..."(٢) .

إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة من حلمه صلى الله عليه وسلم عمَّن آذاه في جسده الشريف-بنفسي هو وأبي وأمي-من الأمثلة التي يضيق بها الحصر في مثل هذا المقام(٣) .

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في الأخلاق رقم ٨٢ ص ٤٥، بإسناد رجاله ثقات إلا راويه عن عمر رضي الله عنه فإنه مجهول .

(٢) الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب لأحمد بن حجر آل بوطامي ص ١٧٢ من مقال نقله للكاتب الفرنسي (جان يرا) .

(٣) وذلك كحلمه عن شيبة بن عثمان بن طلحة الذي أراد الفتك به صلى الله عليه وسلم يوم حنين، وعن فضالة بن عمير الذي أراد ذلك أثناء طوافه صلى الله عليه وسلم بالبيت ... وستأتي ذكر أمثلة لذلك قريبا .

"ولو لم يكن من كرم عفوه ورجاحة حلمه إلا ما كان منه هذا اليوم لكان ذلك من أكمل الكمال وأوضح البرهان على مبلغ حلمه وعظيم عفوه وصفحه"(١) .

وبذلك تعلم أن حلمه عليه الصلاة والسلام وعفوه وصفحه كان فوق ما تتصوره العقول البشرية في أجناس البشر الذين من شأنهم الغضب والانتقام لاسيما عند المقدرة، وإن لم يكن دائما ففي الغالب أو الأحيان، لأنه ما من حليم إلا وقد حفظ عنه ذلك، وفي الحديث "لا حليم إلا ذو عثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة"(٢)، أما أن يكون حليما دائما وأبدا، فذلك ما لم يعرف إلا في رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما أدركت من هذه الشواهد العظيمة، المقتضية للانتقام بكل جدارة واستحقاق، ومع ذلك فهو لم يفعل، فهذا هو الحلم الذي يضرب به المثل بلا ريب، إذ "لم يظهر العفو قط بصورته الكاملة في تاريخ أي من الأديان حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم، ولولاه لظلت هذه الفضيلة معطّلة إلى الأبد" كما قاله بعضهم(٣) .

٢ ـ حلمه صلى الله عليه وسلم وعفوه وصفحه عمن يريد قتله :

وكم كان يحلم ويعفو عمن يريد الفتك به صلى الله عليه وسلم وذلك في كل محاولة اغتيال تجري له ـ بأبي هو وأمي ـ فيقابلها بالحلم والإغضاء والعفو والصفح، لابل بالحرص على هدايته ودعوته إلى الإسلام الذي فيه الهدي والرشاد،

١ ـ فعمير بن وهب أحد شياطين قريش وأشرارها المعروفين بشدة الأذى لرسول الله

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ٢/٢٩ .

(٢) أخرجه الترمذي في البر، باب ما جاء في التجارب برقم ٢٠٣٣، وأحمد في المسند ٣/٦٩، والحاكم في المستدرك ٤/٢٩٣، وابن حبان في صحيحه ١/٢٠٨ من الإحسان كلهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وحسنه الترمذي وقال عنه الحاكم: صحيح الإسناد وأقره الذهبي، وأقره كذلك الحافظ ابن حجر في إجابته عن الأحاديث التي سئل عنها في المصابيح كما هي في آخر كتاب المصابيح للبغوي ٣/١٧٨٦ .

(٣) هو الأستاذ خوجه كما الدين في كتابه المثل الأعلى في الأنبياء ص ٢٢٧ .

صلى الله عليه وسلم وأصحابه حيث كانوا يلقون منه العناء الشديد في مكة، اجتمع مع صفوان بن أمية في حِجر الكعبة المشرفة واتفقا على أن يقوم عمير بالسفر إلى المدينة، ويفتك عمير بالنبي صلى الله عليه وسلم، على أن يكفيه صفوان أمر دَينه وأولاده، فلما ضمن له صفوان ذلك، خرج من حينه إلى المدينة بسيفه الصقيل المسموم، فلما وصل إليها وأبصره عمر رضي الله عنه لَبَّبه وقال: يا رسول الله، هذا عمير بن وهب شيطان من شياطين قريش ما جاء إلا لِيفتِك بك، فقال عليه الصلاة والسلام: "أرسله يا عمر" فأرسله فضَمَّه النبي صلى الله عليه وسلم إليه، وكلَّمه وأخبره بما جرى بينه وبين صفوان، فأسلم وشهد شهادة الحق، ثم انصرف إلى مكة مسلما"(١) .

٢ ـ ولما كان عليه الصلاة والسلام في غزوة قِبَل نجد تُسمَّى غزوة (ذات الرقاع)(٢)، وأدركته القائلة(٣) في واد كثير العِضاه(٤)، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرَّق الناس في العِضاه يستظلّون بالشجر، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت سَمُرة، فعلَّق بها سيفه، يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنه: فنمنا نومة ثم إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا، قال: فجئناه، فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده "صلتا" فقال لي: من يمنعك مني ؟ قلت: "الله" فها هو ذا جالس، قال جابر: ثم لم يعاقبه النبي صلى الله عليه وسلم"(٥) .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٣/٧٠، ٧١، والاستيعاب بهامش الإصابة ٢/٤٨٥، والإصابة ٣/٣٦، وسيأتي الكلام عليها في الآثار ص١٤٤٠

(٢) وكانت في السنة الرابعة من الهجرة، وسميت بذلك لأنهم كانوا يعصبون الخِرق على أرجلهم لما نقبت أقدامهم وسقطت أظفارهم، وقيل: غير ذلك، انظر الروض الأنف ٣/٢٥٣ .

(٣) أي: وقت القيلولة، وهو وقت نصف النهار عند اشتداد الحر .

(٤) العضاه: شجر عظيم له شوك، والواحدة عضة، انظر النهاية ٣/٢٥٥ .

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد، باب غزوة ذات الرقاع ٥/١٤٦، ومسلم في صلاة المسافرين، باب صلاة =

٣ ـ وفي رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "من يمنعك مني" ؟ فقال: كن خير آخذ، قال: "أتشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟" قال: لا، غير أني لا أقاتلك، ولا أكون معك ولا مع قوم يقاتلونك، فخلّى سبيله، فجاء أصحابه فقال: جئتكم من عند خير الناس"(١) .

٤ ـ وأرسلت إليه يهودية في غزوة خيبر بشاة مسمومة، فأكل منها، فجيء بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألها عن ذلك، فقالت: أردت قتلك، فقال عليه الصلاة والسلام: "ما كان الله ليسلطك على ذلك: أو قال: على مسلم، قال الصحابة: أفلا نقتلها ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: لا، قال أنس: فما زلت أعرفها(٢) في لَهَواتِ(٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم(٤) .

٥ ـ وسحره رجل من اليهود، فاشتكى ذلك أياما فأتاه جبريل فقال: "إن رجلا من اليهود سحرك فعقد لذلك عقدا، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا فاستخرجها فجاء بها، فجعل كلما حل عُقدة وجد لذلك خِفة، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما نَشِط من عِقال، فما ذكر ذلك لليهودي، ولا أراه في وجهه قط"(٥).

= الخوف برقم ٨٤٣، وفي الفضائل، باب توكله صلى الله عليه وسلم على الله وعصمة الله له من الناس بالرقم نفسه ورقم الكتاب ١٣ .

(١) أخرجها أحمد في المسند ٣/٣٦٥، ٣٩٠، والحاكم في المستدرك ٣/٢٩، وأبو الشيخ في الأخلاق برقم ٧٥ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

(٢) أي الأكلة .

(٣) جمع لهوة وهي اللحماة في سقف أقصى الفم، النهاية ٤/٢٨٤ .

(٤) أخرجه البخاري في الطب، باب قبول هدية المشركين ٣/٢١٣، ومسلم في كتاب السلام، باب السم برقم ٢١٩ .

(٥) أخرجه النسائي في كتاب تحريم الدم، باب سحرة أهل الكتاب ٧/١١٣، والإمام أحمد في المسند =

شهادة أعدائه صلى الله عليه وسلم له بالحلم :

ولقد حملهم ذلك الحلم العظيم والعفو الكريم على أن يشهدوا له به في مواقف متعددة من غير رغبة ولا رهبة، ولكن نطقا بالحق وشهادة العدل .

١ ـ فأبو سفيان الذي كان قائد الجيوش لمحاربته في مواطن عديدة،وحامل لواء الحرب عليه صلى الله عليه وسلم لم يستطع إخفاء هذا الخلق العظيم في رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل قال له يوم الفتح وقد وقف بين يديه صاغرا ذليلا: "بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك"(١) .

٢ ـ وعمير بن وهب يقول مخاطبا صفوان بن أمية واصفا النبي صلى الله عليه وسلم بما هو فيه من الخلق العظيم ليثنيه عما هو عازم عليه من الفرار وذلك يوم فتح مكة يقول: "جئتك من عند أفضل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، وخير الناس، ابن عمك، عزُّه عزك، وشرفُه شرفك، ومُلكه ملكك" فقال له صفوان: إني أخافه على نفسي، قال: هو أحلم من ذلك وأكرم"(٢) .

وهذه شهادة عن تجربة وخبرة، فقد مضى لك عما قريب ما كان من نبأ عمير هذا ، وما دبره للنبي صلى الله عليه وسلم،وبما قابله النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك، فهي شهادة من خبير ﴿ ولا يُنَبِّئُكَ مثلُ خبير ﴾[سورة فاطر:١٤] .

حلمه صلى الله صلى الله عليه وسلم وعفوه وصفحه عن أصحابه :

ولئن كان الحلم عن الأعداء دليلا عظيما على ذلك الخلق العظيم في نفس المرء، فإن الحلم عن الأصحاب والإغضاء عن هناتهم وزلاتهم أولى أن يكون دليلا آخر، بل هو أوضح على كمال خلق المرء في حلمه وعفوه؛ لأنه قد يحلم عن العدو لسبب عداوته استعطافا له وروما لتألفه وتقريبه .

= ٣٦٧/٤، وأبو الشيخ في الأخلاق برقم ٨١ من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه وأصله في البخاري مطولا في كتاب الطب ١٧٦/٧-١٧٨ من حديث عائشة رضي الله عنها .

(١) السيرة النبوية وتاريخ الخلفاء لابن حبان البستي ص ٣٢٩ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١٠٥/٤ مع الروض الأنف .

والصديق لا يحتاج معه إلى ذلك، وحقه أن يكون محافظا على الآداب،وعارفا بمواطن الرضا والسخط، وإذا فعل ما يخل بذلك كان جديرا بالتأديب والتعزير والتأنيب، أما أن يترك بلا تثريب، وكان المقتضي لذلك قائما، فذلك دليل عظيم على حلم السيد.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان مع الصحابة على ذلك الحال، يحلم عن إساءتهم، ويعفو عن زلاتهم، ويصفح فلا يؤنِّب ولا يثرب، ولكن غالبا ما يكون ذلك عن الأعراب الجفاة، أو المنافقين، فإن هؤلاء الذين تصدر منهم أفعال تنافي الأدب مع جناب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شخصه العظيم،أو سياسته الحكيمة للأمة والدولة الإسلامية .

أما سائر الصحابة ممن لم يطعنوا بنفاق، ولم يجفوا بالبادية، فإنهم كانوا على جناب عظيم من الأدب واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل إشارة أو عبارة، وإن حصلت من أحدهم هفوة فذلك نادر، والنادر لا حكم له .

ومن صور حلمه صلى الله عليه وسلم وعفوه عن بعض جفاة الأعراب ممن يشملهم اسم الصحبة :

١ ـ ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه بُردٌ نَجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجَبذه بردائه جَبذة شديدة حتى نظرتُ إلى صفحة عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت بها حاشية البُرد من شدة جبذته، ثم قال: يامحمد مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء"(١) .

٢ ـ وفي رواية أخرى قال: "يا محمد احمل لي على بعيريَّ هذين، من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس، باب البرد والحبرة والشملة ١٨٨/٧، ومسلم في الزكاة، باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة برقم ١٠٥٧، والبرد نوع من الثياب يكون من كساء ورداء، ونسبته إلى نجران لأنه موضع صنعه، وقد تقدم تعريفه .

"لا، وأستغفر الله - ثلاثا - لا أحمل لك حتى تقيدني من جبذتك التي جبذتني" فكل ذلك يقول له الأعرابي: والله لا أقيدكها، قال أبو هريرة رضي الله عنه: فلما سمعنا قول الأعرابي، أقبلنا إليه سِراعا، فالتفت إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: عزمتُ على من سمع كلامي أن لا يبرح مقامه حتى آذنَ له، ثم دعا رجلا فقال له: احمل له على بعيريه هذين، على بعير شعيرا، وعلى الآخر تمرا، قال: ثم التفت إلينا فقال: انصرفوا على بركة الله"(١) .

فانظر كيف تجرأ هذا الأعرابي الجلِف على مقام النبي صلى الله عليه وسلم، وجبذه تلك الجبذة المنكرة، وذلك لعلمه بحلم النبي صلى الله عليه وسلم وسعة عفوه، وأنه لا ينتقم لنفسه، كما جاء في بعض الروايات أنه قال له: إنك لا تكافيء السيئة بالسيئة، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم لم يلبث أن أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم ما أراده منه وعفا عنه، ومنع عنه ما كان يمكن أن يفعله الصحابة رضوان الله عليهم مما يجدر به، لولا كمال حلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالغ عفوه وصفحه .

ولقد حلم النبي صلى النبي صلى الله عليه وسلم وعفا عن خطأين كبيرين ارتكبهما كان عليه من جرائهما القود والتعزير :

أما الأول: فهو جبذته الشديدة التي أثرت في عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتي تدل على طبع الأعرابي، وجفاء خلقه، وقلّة أدبه .

والثاني: رفضه القصاص وهو حكم شرعي يجب عليه أن يسلم به، ويستسلم له، ولولا عفو رسول الله صلى الله عليه وسلم لوجب القود ولا بد .

وفي هذه القصة تقرير لأصل شرعي عظيم، وهو أن المال مال الله تعالى، جعله الله تعالى في يد الحاكم، ليتصرف فيه في مصالح المسلمين بالحكمة والغِبطة، لا يملك منه إلا

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في الحلم، وأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم برقم ٤٧٧٥، والنسائي في القسامة، باب القود من الجبذة ٣٣/٨، وأحمد في المسند ٢٨٨/٢ من حديث أنس رضي الله عنه بإسناد حسان .

ما يخصه بقدر عمله واستحقاقه، والباقي أمانة لديه .

ولعل هذا من دوافع ضحكه صلى الله عليه وسلم على ما جرى له من الأعرابي، وكأن فيه إشارة إلى أن الأعرابي فقه هذه الحقيقة الشرعية العظمى مع غلظه وجفائه، فكان النبي صلى الله عليه وسلم كالمقر له أمام الصحابة ليفقهوا منه ذلك، ويكون تشريعا وتعليما للأمة حكّاما ورعايا .

ولو كان حكم الشرع بخلاف ذلك لأنكر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأوضح له الحكم الشرعي، من أنه لا يستحق، وأنه لا دخل له في هذا الشأن، وأنه يتصرف فيه كما يشاء عطاء ومنعا، ولكن لما سكت على ما جرى كان ذلك تقريرا .

وكم كان له صلى الله عليه وسلم من مواقف حلم وعفو وصفح مع هؤلاء الأعراب الجُفاة :

٣ ـ فقد جاء ذات مرة رجل من تميم يدعى «ذو الخويصرة التميمي» وقال للنبي صلى الله عليه وسلم: إعدل يا رسول الله، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "ويلك من يعدل إذا لم أعدل" ؟ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني أضرب عنقه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "دعه فإن له أصحابا يحقِر أحدكم صلاته مع صلاته، وصيامه مع صيامه، يَمرُقون من الدين كما يَمرُق السهم من الرَّمِيَّة .."(١) .

وفي لفظ قال: "معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي، إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون منه كما يمرُق السَّهم من الرَّمِيَّة"(٢) .

٤ ـ وليس هذا هو العجب من حلمه صلى الله عليه وسلم ، وإن كان محل العجب بلا شك؛ لأن هؤلاء قد يشفع لهم طبع البادية الذي كان معهودا، ولا سبيل إلى تقويمهم سريعا مع ما ألفوه من الغلظ والجفاء .

---

(١) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين، باب من ترك قتال الخوارج للتألف وأن لا ينفر الناس عنه ٢١/٩، وفي مواضع أخرى من صحيحه، ومسلم في الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم برقم ١٠٦٣ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه واللفظ للبخاري .

(٢) هذا لفظ مسلم .

ولكن الذي لا ينقضي منه العجب، هو حلمه وعفوه عن المنافقين الذين يساكنونه عليه الصلاة والسلام في المدينة، وللمدنية تأثير في سلوك الأدب والاحتشام، لاسيما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنهم مع ذلك يتركون كل آداب المدنيَّة، ويسلكون سلوك المراوغ الخائن لله ورسوله والمؤمنين، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم ذلك منهم بإعلام الله تعالى له، ومع ذلك يحلم عنهم ويعفو يصفح، مع ما كان يؤذَن له على سبيل التخيير في تأديبهم والتشديد عليهم، وما يكشفه الله تعالى من مؤامراتهم وخياناتهم في آيات كثيرة وسور خاصة .

وهنا تتجلى غاية حلمه وكمال عفوه صلى الله عليه وسلم على أولئك الأوغاد، إذ كلّما أُذِنَ له في تأديبهم والتشديد عليهم، فتح لهم بابا من الرحمة، فكان يستغفر لهم ويدعو لهم، كما فعل مع رئيس المنافقين عبد الله بن أبي حتى أنزل عليه: ﴿ استَغفِر لهم أو لا تَستغفر لهم﴾[سورة التوبة:٨٠] فقال: "خيَّرني ربي فاخترت أن أستغفر لهم" ولما قال تعالى: ﴿ إن تَستَغفر لهم سبعينَ مرَّة فلن يَغفرَ اللهُ لهم ﴾[سورة التوبة:٨٠] فقال صلى الله عليه وسلم: سأزيده على السبعين، وقام يريد الصلاة عليه، فعندئذ لم يتمالك سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن جادل النبي صلى الله عليه وسلم، وحاول أن يمنعه من الصلاة عليه وقال له: "أتصلي على ابن أبيَّ وقد قال يوم كذا وكذا:كذا وكذا ؟ يعدد عليه قوله، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "أخِّر عني يا عمر" قال عمر: فلما أكثرت عليه قال: "إنّي خُيِّرت فاخترت، ولو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها" قال: "فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿ ولا تُصلِّ على أحدٍ منهم ماتَ أبدا ﴾ إلى قوله: ﴿ وهُم فاسقون ﴾[سورة التوبة:٨٤] قال عمر: فعجبت بعدُ من جرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ، والله ورسوله أعلم"(١) .

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، باب ما يكره من الصلاة على المنافقين والاستغفار للمشركين ١٢١/٢ وفي تفسير سورة التوبة ٨٥/٦ .

٥ ـ وكان عليه الصلاة والسلام قد أعطاه قميصه ليكفَّن فيه، بعد أن سأله منه ابنه عبد الله(١)، لاجرم أن هذا حلم نبوة لم يسمع بمثله في سائر البشر .

دلالة حلمه صلى الله عليه وسلم على نبوته :

ولقد كان هذا الحلم علَما من أعلام نبوته صلى الله وعليه وسلم التي كانت معلومة لأهل الكتاب من كتبهم المنزَّلة :

١ ـ فقد روى عبد الله بن سلاَم رضي الله عنه أن الله تعالى لما أراد هداية زيد بن سِعْنَة(٢) قال زيد: ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد صلى الله عليه وسلم حين نظرت إليه، إلا اثنتان لم أخبرْهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما ... ثم أقرض النبي صلى الله عليه وسلم ثمانين دينارا قال: فلما كان قبل المحِل بيوم أو يومين أو بثلاثة خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة بالبقيع ومعه أبوبكر وعمر في نَفَر من الصحابة، فلما صلَّى على الجنازة، ودنا من الجدار جذبتُ بردَه جبذة شديدة حتى سقط عن عاتقه، ثم أقبلت بوجهٍ جَهم غليظٍ، فقلت: ألا تقضيني يامحمد، فوالله ما علمتكم بني عبد المطلب لَمُطُلٌ(٣)، ولقد كان لي بمخالطتكم علم، قال زيد: فارتعدت فرائصُ(٤) عمر بن الخطاب رضي الله عنه كالفلَك المستدير، ثم رمى ببصره، ثم قال: أيْ عدوَّ الله تقول هذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وتصنع به ما أرى ؟ وتقول ما أسمع ؟ فوالذي بعثه بالحق لولا ما أخاف فوته لسبقني رأسك! ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليَّ في تُؤدة وسكون، ثم تبسَّم ثم قال:"لأنا وهو أحوج

---

(١) كما في رواية البخاري في الجنائز ٩٦/٢ من حديث ابن عمر رضي الله عنه .

(٢) الحبر أحد أحبار يهود ومن أكثرهم مالا، شهد مع النبي صلى الله عليه وسلم مشاهد كثيرة، وتوفي في غزوة تبوك أثناء رجوعه إلى المدينة، انظر أُسد الغابة ٢٣١/٢، والإصابة ٥٦٦/١ .

(٣) أي: مماطلين، من مطله بدينه مطلا: إذا سوفه بوعد الوفاء مرة بعد أخرى، المصباح المنير ٢٤١/٢ .

(٤) الفريصة: لحمة بين الجنب والكتف، لا تزال ترعد من الدابة، وجمعها: فرايص وفرائص، والمراد هنا: عصب الرقبة وعروقها؛ لأنها هي التي تثور عند الغضب، انظر النهاية ٤٣١/٣، ومختار الصحاح ص ٤٩٨ .

إلى غير هذا؛ أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن اتباعه" .

ثم قال لعمر رضي الله عنه: "اذهب به يا عمر، فاقضه حقه، وزده عشرين صاعا من تمر مكان ما رُعته(١) قال: فذهب بي عمر فقضاني حقي، وزادني عشرين صاعا من تمر...، فلما تبين له ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم آمن به وصدقه وبايعه وشهد معه مشاهد كثيرة"(٢)، ومات في غزوة تبوك رضي الله عنه .

وما كان زيد بن سِعْنَة رضي الله عنه سيفرِّط بيهوديته وهو حَبر لولا إدراكه ما يعلمه من علامة نبوته من كتبهم ، فلما أدركها حقيقة لم يلبث أن آمن، وقد قال لعمر رضي الله عنه بعد أن عرفه بنفسه، فسأله عمر رضي الله عنه عمَّا حمله على فعل ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم، وقوله له ذلك القول الغليظ، فقال له زيد: يا عمر إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا قد عرفتها في وجه رسول الله تعالى صلى الله عليه وسلم حين نظرت إليه،إلا اثنتان لم أخبُرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، فقد اختبرته، فأشهدُك يا عمر إني قد رضيت بالله ربا، وبمحمد نبيا، وأشهدك أن شطر مالي(٣) - فإني أكثرها مالا - صدقة على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فقال له عمر أو على بعضهم فإنك لا تسعهم كلهم، قال: أو على بعضهم(٤) .

---

(١) بضم الراء أي: ما روعته، بمعنى: خوفته .

(٢) الحديث أخرجه ابن حبان في صحيحه كما في موارد الظمآن ص ٥١٦ برقم ٢١٠٥، وأبو الشيخ في الأخلاق ص ٨١-٨٣، والحاكم في المستدرك ٦٠٤/٣، والبغوي في الأنوار برقم ٢٢٦، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٤٣/٨ إلى الطبراني .

قال الهيثمي: ورجاله ثقات، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووثق رجاله أيضا الحافظ ابن حجر في الإصابة ٥٦٦/١ عند ترجمته، وذكر له شاهدا من وجه آخر .

ولفظ الحديث هنا مختصر عما هو عليه في مواطنه السابقة .

(٣) أي: نصفه .

(٤) هو تتمة الحديث السابق .

ودلالة خلق الحلم والعفو والصفح على نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كانت معلومة لأهل الكتاب، ويعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم، قد جاءت مبيَّنة في روايات كثيرة، رواها أولئك الأحبار الذين هداهم الله تعالى للإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم والدخول في الإسلام .

٢ ـ فقد سأل ابنُ عباس رضي الله عنهما كعبَ الأحبار(١) عن نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة فقال: "نجده محمد بن عبد الله، مولده بمكة، ومُهاجره إلى طابة، ويكون ملكه بالشام، ليس بفحَّاش ولا بصخاب في الأسواق، ولا يكافىء بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر"(٢) .

٣ ـ وكان عبد الله بن سلَام رضي الله عنه يقول: "إن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة: "يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشِّرا ونذيرا، وحِرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمَّيتُك المتوكّل، ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إلٰه إلا الله، فيفتح به أعينا عُمْيًا ، وآذانا صُمًّا، وقلوبا غُلفا" وبلغ ذلك كعبا فقال: صدق عبد الله بن سلام"(٣) .

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يقول: "والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في

---

(١) التابعي المشهور، المتفق على كثرة علمه وتوثيقه، أدرك زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره، وأسلم في خلافة أبي بكر وقيل: في خلافة عمر رضي الله عنهما، وكان من أحبار يهود في اليمن، وصحب عمر وأكثر من الرواية عنه، وتوفي سنة ٣٢ هـ، في خلافة عثمان رضي الله عنه بحمص، انظر طبقات ابن سعد ٤٤٥/٧، وتهذيب الأسماء ٦٨/٢ .

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣٦٠/١، والبيهقي في الدلائل ٣٧٧/١ .

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣٦٠/١، والبيهقي في الدلائل ٣٧٤/١ .

الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يَقبضه الله حتى يقيم به الملّة العوجاء بأن يقولوا: لا إلٰه إلا الله، ويفتح به أعينا عُميا، وآذانا صُمًّا، وقُلوبا غُلفا"(١) .

إلى غير ذلك من الشواهد الكثيرة عنهم في كل كمال خُلُقي منبىء عن نبوته ورسالته.

حلمه صلى الله عليه وسلم وعفوه وصفحه عن أهل بيته :

ولئن حلم المرء أو تحلَّم عن أعدائه أو أصدقائه لأغراض نبيلة وأهداف عالية، فإنه لا يقدر على فعل ذلك مع أهل بيته الذين يعاشرهم صباحا ومساء، ولا بد أن تندَّ منهم زلة يستاء منها المرء، وتستوجب الزجر والتأديب، حتى لا تتكرر مثل تلك الإساءة، وحلم الحليم يطيش عند ذلك ولا بد، إما عن غير قصد، أو بقصد لأجل التأديب .

ولم يعرف خلاف ذلك إلا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان حلمه وعفوه عن أهل بيته كما كان عن أعدائه وعن أصحابه،لا يتغير أبدا وإن اختلفت الصور، فتمثل ذلك الخلق فيه صلى الله عليه وسلم لم يتغير .

ولمّا كان هذا النوع من الحلم شديد اللزوم للأخلاق الأسرية الآتي بيانها، فإني أرجىء الحديث عنه هنا، ليكون هناك مع مناسبة ذكره، وذلك خشية الاضطرار إلى التكرار، والله الموفق(٢) .

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب كراهية الصخب في الأسواق ٨٧/٣ .

(٢) انظر ص٧١١ .

المبحث الرَّابع

(خلق الرحمة)

الرحمة في اللغة: الرقة والمغفرة والتعطف، يقال: رحمه يرحمه، إذا رق له وتعطف عليه(١).

وحقيقتها : رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم .

وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة .

وإذا وصف بها الباري سبحانه فليس يراد بها الإحسان المجرد دون الرقة(٢)؛ لأن الرقة تعني انفعالا في النفس يقتضي التأثر لحال المرحوم فيرحم، والله تعالى منزه عن التأثر والانفعال(٣) .

قال الراغب: "الرحمة منطوية على معنيين الرقة والإحسان، فركز تعالى في طبائع الناس الرقة وتفرد بالإحسان"(٤)، كذا يقول الراغب وغيره، والصواب في أسمائه تعالى وصفاته سبحانه التي وردت في كتابه أو صحت على لسان نبيه أننا نمرها كما جاءت من غير تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تأويل .

منزلة خلق الرحمة في الأخلاق السلوكية :

وهي من الأخلاق القرآنية العظيمة التي كانت لها العناية الكبرى في القرآن الكريم من حيث ذكرها والتنويه بشأنها، لما لها من عظيم الأثر في الحياة الدينية والدنيوية .

الرحمة صفة من صفات الله تعالى :

وهي صفة من صفات الحق تبارك وتعالى التي وصف بها نفسه كثيرا في القرآن العظيم في نحو من مائتي، فضلا عن تصدر كل سورة بصفتي الرحمن الرحيم، وذلك في البسملة التي هي آية من كل سورة عدا سورة براءة(٥) .

---

(١) القاموس المحيط ١١٧/٤، والصحاح للجوهري ١٩٢٩/٥، ومجمل اللغة لابن فارس ٤٢٤/٢ .

(٢) المفردات للراغب ص ١٩١ .

(٣) انظر تفسير القرطبي ١٠٦/١، وتفسير الطاهر بن عاشور ١٧٠/١ .

(٤) المفردات ص ١٩١ .

(٥) وللعلماء كلام طويل في الفرق بين صفتي الرحمن والرحيم، وحاصله: أن الرحمن: رحمن الدنيا والآخرة =

وذلك للدلالة على مبلغ رحمته العظيمة وشمولها العام بعباده ومخلوقاته كما نطقت بذلك بعض آياته كقوله تعالى: ﴿ ورحمتي وَسِعت كلَّ شيءٍ فسأكتُبها لِلذين يَتَّقُونَ ويُؤتونَ الزَّكاة والَّذين هم بآياتِنا يُؤمنون * الَّذين يَتَّبِعون الرَّسولَ النَّبيَّ الأمي ...﴾[سورة الأعراف:١٥٦،١٥٧] .

وقوله على لسان ملائكته الكرام وهم أعلم الخلق بربهم: ﴿ ربَّنا وسِعتَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعِلما فاغفِر لِلَّذين تابوا واتَّبعوا سبيلَك وقِهم عذابَ الجحيم ﴾[سورة غافر:٧] .

وعلَّم نبيه ومصطفاه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين إن هم كذبوه ﴿ رُّبكم ذُو رحمةٍ واسِعة ولا يُرَدُّ بأسُه عن القوم المجرمين ﴾[سورة الأنعام:١٤٧] ليجمع لهم بين الرغبة والرهبة، فلعل الرغبة في المغفرة تحملهم على الإيمان، فإن لم تحملهم الرغبة فالرهبة كافية لزجرهم عن التمادي في الكفر .

ولقد قرر الله تعالى في كتابه الكريم أن الرحمة صفته الثابتة التي لا تزول عنه أبدا كما قال سبحانه: ﴿ كتَبَ رُّبكم على نفسِه الرَّحمة ﴾[سورة الأنعام:٥٤] .

"وقد ظهرت آثار رحمته في الخليقة كلها، فما من أحد مسلم أو كافر إلا وعليه من آثار رحمته في هذه الدنيا، فبها يتعايشون ويؤاخُون ويوادُّون، وفيها يتقلَّبون لكنها للمؤمنين خاصة في الآخرة لا حظ للكافر فيها"(١) .

مظاهر رحمته سبحانه بخلقه :

وقد كانت أجل مظاهر رحمة الله تعالى أن بعث لهم رسله تَترَى، ثم بعث خاتم أنبيائه وسيد رسله وصفوته من خلقه محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه الذي امتنَّ به على الأمة،وكشف به الظلمة،وأزاح به الغمة،وجعله رحمة للعالمين أجمعين،كما قال الله تعالى: ﴿ وما أَرسلناكَ إلَّا رحمة للعالمين ﴾[سورة الأنبياء:١٠٧] .

وكما قال: ﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنفُسِكم عزيزٌ عليه ما عنِتَّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤفٌ رحيم ﴾[سورة التوبة:١٢٨] .

---

(١) محاسن التأويل ١٥٧/٧ .

وذلك لما في بعثته من الهداية إلى دين الله،والدلالة على معالم دينه،وطريقه المستقيم الذي من سلكه هُدي إلى النعيم المقيم، كما سيأتي مزيد بيان ذلك في الجانب التطبيقي لهذا الخلق العظيم .

ومن مظاهر رحمته سبحانه وتعالى أن خلق لعباده ما يسكنون إليه من الأزواج راحة لأنفسهم،وإحياء لأصلهم،وتكاثرا لنسلهم،كما امتنَّ عليهم بذلك حيث قال: ﴿ ومن آياتِه أن خلقَ لكم من أنفُسِكم أزواجا لِتَسكنوا إليها وجعلَ بينَكم مودَّةً ورَحمة إنَّ في ذلك لأياتٍ لقوم يتفكَّرون ﴾[سورة الروم٢١] .

ومظاهر رحمته بخليقته لا تُحصى، ويكفي أن نعلم أنه : (أرحم الراحمين) وأنه (كتب على نفسه الرحمة) كما أخبر عن نفسه بذلك في محكم أياته الكريمة .

وقد حدث النبي صلى الله عليه وسلم عن رحمة الله تعالى ومبلغ سعتها وكنهها، وذلك فيما أخرجه الشيخان من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه وسلم: " إن الله لمَّا قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه: إنَّ رحمتي سبقت غضبي"(١).

وما أخرجاه أيضا من حديثه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "جعل اللهُ الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعةً وتسعين وأنزل في الأرض جزءا واحدا، فمن ذلك الجزء تَتَراحم الخلائق حتى ترفع الدَّابةُ حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه"(٢) .

وما أخرجاه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على رسول الله

---

(١) البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء ٥٣/٩، وباب ﴿ ولقد سبقت كلمتُنا لعبادنا المرسلين ﴾ ص ١٦٥، ومسلم في التوبة، باب سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه برقم ٢٧٥١ .

(٢) البخاري في الأدب، باب جعل الله الرحمة في مائة جزء ٩/٨، وفي الرقاق، باب الرجاء مع الخوف ١٢٣/٨، ومسلم في التوبة، باب سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه برقم ٢٧٥٤ .

صلى الله عليه وسلم بسبي فإذا امرأة من السبي تَسعى قد تحلَّب(١) ثديُها،إذا وجدت صبيا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟ قلنا: لا والله ، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لَلّهُ أرحم بعباده من هذه بولدها"(٢) .

وفي هذه الأحاديث ما يوضح سعة رحمة الله تعالى ويقرِّب إدراكها إلى العقول البشرية.

الرحمة من صفات المؤمنين وأخلاقهم :

وكما أن الرحمة صفة من صفات الله تعالى فإنه سبحانه قد أثبتها لعباده المؤمنين وندبهم إلى التحلي بها .

فقد قال الله جل ذكره في شأن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ محمدٌ رسولُ الله والَّذين معه أشِدَّاءُ على الكُفَّارِ رحماءُ بينهم ...﴾[سورة محمد:٢٩] .

كما أثبتها بلازمها لهم ولمن اتصف بصفاتهم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ياأيُّها الذين آمنوا من يَرتدَّ منكم عن دِينه فسوفَ يَأتي اللهُ بقومٍ يحبُّهم ويُحِبّونه أذلَّةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين ...﴾[سورة المائدة:٥٤] إذ الذلة التي يتحلون بها فيما بينهم مسببة عن التراحم السائد بينهم، وهذا دليل على أن الرحمة من أجلِّ صفات المؤمنين حيث كان حديث القرآن عن الرحمة لديهم في معرض الامتنان والثناء والمدح البليغ .

مما يدل على عظيم مكانة المتراحمين من المسلمين عند الله تعالى، وقد دلَّ على ذلك ما أعده الله تعالى لهم من الأجر والثواب الذي أفصحت عنه أيات سورة البلد حيث قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ كان من الذين آمنوا وتَواصوا بالصَّبر وتواصوا بالمَرحمة * أولئِك أصحابُ الميَمنَة ﴾[سورة البلد:١٧،١٨] ، أي أصحاب اليمين الذين يُعطون كتبهم بأيمانهم،والذين

---

(١) أي: اجتمع حليب ثديها فيه .

(٢) البخاري في الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ٩/٨، ومسلم في التوبة، باب في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه برقم ٢٧٥٤ .

قال الله تعالى فيهم: ﴿ وأصحابُ اليمين ما أصحابُ اليمين * في سِدر مَخضود * وطَلْح مَنضود * وظِلٍ ممدود * وماءٍ مسكوب * وفاكهةٍ كثيرةٍ * لا مَقطُوعة ولا مَمنوعة * وفُرُشٍ مَرفوعة ﴾[سورة الواقعة:٢٧-٣٤] .

حض المؤمنين على التحلي بها :

ولذلك ندب الله تعالى عباده إلى التحلي بالرحمة،وحثهم عليها في بعض مواطنها لكبير أهميتها في تلك المواطن، لينالوا أجرها وعظيم ثوابها ،

وذلك كالرحمة بالوالدين اللَّذَين لهما الفضل الأكبر بعد الله تعالى في الإيجاد والإمداد والتربية، واللَّذَين عظَّم الله شأنهما وقرن شكرهما بشكره،وطاعتهما بطاعته، فكانت الرحمة بهما لا سيما عند الكبر محتَّمة حيث قال الله تعالى: ﴿ واخفِض لهما جَناحَ الذُّل من الرحمة وقُل ربِّ ارحمهما كما ربَّياني صَغيرًا ﴾[سورة الإسراء:٢٤] .

ونلاحظ أن الله تعالى لم يحث على مجرد الرحمة التي تعني الرِّقة والانكسار فحسب، بل أراد أكثر من ذلك وهو الذُّل والتواضع لهما،والخضوع بين يديهما بأبلغ تعبير وأعظم أسلوب، وهو أسلوب الاستعارة المكنِيَّة، حيث« صيغ التَّعبير عن التَّواضع بتصويره في هيئة تذلُّل الطائر عندما يعتريه خوف من طائر أشد منه،إذ يخفض جناحه له متذلِّلا، وذِكرُ الجَناح تَخييلٌ،بمنزلة تخييل الأظفار للمنية في قول الشاعر:

وإذا المَنِيَّةُ أَنشبت أظفارَها ألفيتَ كلَّ تميمة لا تنفع

وبمجموع هذه الاستعارة تصبح الاستعارة تمثيلية»(١) .

وقد بينت السنة المشرفة المواطن الأخرى الكثيرة للرحمة كما سيأتي ذكر طرف منها في التطبيق النبوي لهذا الخلق الكريم قريبا إن شاء الله تعالى .

مواطن الرحمة :

والرحمة وإن كانت مطلوبة في كل حال من أحوالها إلا أن مفهومها يختلف في بعض مواطنها، تبعا لاختلاف النظر في آثارها ،

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/٧٠ .

إذ الرحمة ليست رقة في القلب على المرحوم فحسب، بل كذلك على من يستدعي حالُه الرحمة من أفراد المجتمع، فالذي نُهب ماله حقُّه أن يُرحم، والذي انتُهك عرضُه حقه أن يُرحم، والذي أُزهق روحه حقه أن يُرحم ....، ورحمةُ أولئك تكون بكف يد الفساد التي فعلت بهم ذلك، والقصاص منهم، حتى يستتِبَّ الأمن والاستقرار والنزاهة في المجتمع، ورحمة الجاني في هذه المواطن ليست حميدة، لذلك نهى الله تعالى المؤمنين أن تأخذهم به رحمة حيث قال الله عز وجل: ﴿ الزَّانيةُ والزَّاني فاجلِدوا كلَّ واحدٍ منهما مائةَ جَلدة ولا تأخذْكم بهما رأفةٌ في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله وباليوم الآخِر وليشهد عذابَهما طائفةٌ من المؤمنين ﴾[سورة النور: ٢] .

وإنما نهى الله تعالى عن الرأفة بهم لما في عقابهم من ردعهم وردع أمثالهم عن الاستطالة إلى حقوق المؤمنين وأعراضهم وأرواحهم،فيطهر المجتمع من الفساد، ويصبح نقيًّا راشدا في ازدياد،كما قال الله تعالى في سر ذلك: ﴿ ولكم في القِصاص حياةٌ يا أولي الألبَابِ لعلَّكم تَتَّقون ﴾[سورة البقرة:١٧٩] .

تمثل خلق الرحمة
في النبي صلى الله عليه وسلم

لقد سبقت الإشارة إلى أن من أجل مظاهر رحمة الله بعباده هو بعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم التي كانت بعثته رحمة للعالمين كما أخبر الله تعالى بذلك ممتنا عليهم بهذه النعمة الكبرى،والغِبطة العظمى حيث قال سبحانه: ﴿ وما أَرسلناك إلَّا رحمةً للعالمين ﴾ [سورة الأنبياء:١٠٧] ، وقال جل شأنه: ﴿ ومِنهم الَّذين يُؤْذُونَ النَّبي ويَقولُون هو أُذُنٌ(١) قل أُذُنُ خيرٍ لكم(٢) يؤمنُ بالله ويؤمنُ لِلمؤمنين ورحمةٌ للذين آمنوا منكم والَّذين يُؤْذُون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾[سورة التوبة:٦١] .

وقال عز وجل واصفا له ولأخلاقه أيضا: ﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنفُسِكم عزيزٌ عليه ما عنِتُّم حريصٌ عليكم بالمؤمنينَ رؤُوفٌ رحيم ﴾[سورة التوبة:١٢٨] .

فترى أن الله تعالى وتقدَّس سمى نبيَّه المصطفى سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة، في الآيتين السابقتين، وهي مصدر يفيد المبالغة، ويدل على أن هذا الوصف فيه متمكن لا يتغير .

وقد دل على هذا مظاهر رحمته الكثيرة على العالمين في أخلاقه وتشريعاته كما سيأتي بيانه، وفي الآية الثالثة وصفه الله تعالى باسمين من أسمائه الحسنى، وهما رؤوف رحيم "ولم يسم أحدا من أنبيائه بذلك، وذلك للدلالة على أنه أرحم الخلق وأعطفهم وأشفقهم وأرقّهم قلبا .

فدلت الآيتان على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان كله رحمة في شمائله وصفاته،في حياته ومماته، فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم هو ذاته رحمة فكيف يتصور تمثل خلق الرحمة فيه ؟!

---

(١) أي: أنه يسمع كل قول يقال له ويقبله، فإذا حلفنا له أنا لم نقل صدقنا .

(٢) أي: كونه يسمع الخير، ويقبل الاعتذار خير لكم، فهو تصديق لهم بما وصفوه من مكارم الأخلاق وهم لا يشعرون، ولكن لا على الوجه الذي أرادوه، بل من حيث إنه يسمع الخير ويقبله، وقد فسر ذلك بقوله: يؤمن بالله الآيه. انظر تفسير البيضاوي ص ٢٥٨ والجلالين ٢٢٢/١ .

إن مظاهر رحمة من كان كذلك ينوء بها الحصر؛ لأنها تكون في كل شئونه في حياته، حتى بعد وفاته، كما قال عليه الصلاة والسلام: "إذا أراد الله رحمة بأمَّة قبض نبيها فجعله لها فَرَطا وسلفا، وإذا أراد هلكة أمة عذبها ونبيها حي فأهلكها وهو ينظر فأقرَّ عينه بهلكتها حين كذبوه وعصوا أمره"(١) .

وكما قال عليه الصلاة والسلام: "حياتي خيرٌ لكم ومماتي خير لكم"(٢) .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يفصح عن حقيقته التي جعله الله تعالى فيها فيقول: "يا أيُّها الناس إنما أنا رحمة مهداة"(٣)، ويقول: "إنيِّ لم أبعث لعانا إنما بعثت رحمة"(٤) .

ورحمته صلى الله عليه وسلم عالمية كما أخبر الله تعالى، فما من أحد من الجن والإنس إلا وقد نال حظا من رحمته صلى الله عليه وسلم، المؤمن بالهداية، والمنافق بالأمن من القتل، والكافر بتأخير العذاب(٥)، بل إن جميع العوالم داخلة في هذه الرحمة لمقتضي

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل، باب إذا أراد الله رحمة أمة قبض نبيها قبلها برقم ٢٢٨٨ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٢) عزاه الهيثمي في المجمع ٢٧/٩ إلى البزار من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: ورجاله رجال الصحيح، وعزاه السيوطي في مناهل الصفا برقم ٨ إلى الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث بكر بن عبد الله المزني .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣٥/١، وعزاه الهيثمي في المجمع ٢٦٠/٨ إلى البزار، وإلى الطبراني في الأوسط والصغير، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال الهيثمي: ورجال البزار رجال الصحيح، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، وأقره الذهبي، وقال العراقي في تخريج الإحياء ١٤٨/٤: ورجاله رجال الصحيح إلا أن عبد المجيد بن عبد العزيز وإن أخرج له مسلم ووثقه ابن معين والنسائي، فقد ضعفه كثيرون، قلت: ولذلك ضعفه الألباني في الضعيفة برقم ٩٧٥، ولكن تصحيح من صححه واعتماد مسلم للراوي المتكلم فيه وتوثيق ابن معين له، أقوى من تضعيف من ضعفه، والله أعلم .

(٤) صحيح تقدم ذكره في مبحث الوفاء ص٥٨٣

(٥) الشفاء للقاضي عياض ١٧/١ .

الدلالة اللفظية (للعالمين) فإنه جمع عالَم، والألف واللام فيه لاستغراق كل ما يصدق عليه اسم العالَم، والعوالِم كثيرة، هذا هو ظاهر اللفظ، ولا ينبغي أن يصرف اللفظ عن ظاهره إلا إذا استحال حمله عليه وأيدته الدلائل على صرفه عنه .

فكيف به إذا كانت الدلائل تشهد بصحة حمله على ظاهره كما سيأتي قريبا في مظاهر رحمته، ولذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: "وأصح القولين في قوله تعالى: ﴿ وما أرسلناكَ إلاَّ رحمةً للعالمين ﴾[سورة الأنبياء:١٠٧] أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان :

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته، أما أتباعه، فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة، وأما أعداؤه المحاربون له، فالذين عجل لهم قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر .

وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شرا بذلك العهد من المحاربين له .

وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان حقن دمائهم وأموالهم وأهليهم واحترامهم، وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها .

وأما الأمم النائية عنه، فإن الله سبحانه وتعالى رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض فأصاب كل العالمين النفع برسالته .

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكنَّ المؤمنين قبلوا هذه الرحمة وانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون لهم رحمة، لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض"(١).

---

(١) جلاء الأفهام في الصلاة والصيام على خير الأنام ص ٩٠، وانظر التحرير والتنوير ١٦٧/١٧ .

مظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم :

إذا علمت هذا فاعلم أن رحمته صلى الله عليه وسلم أضحت ماثلة لذي عينين، في صور كثيرة، نجتزىء منها على ما يلي :

أولا رحمته بالمؤمنين :

أما رحمته صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين فقد دل عليها صريح الكتاب حيث قال الله تعالى: ﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنفُسِكم عزيزٌ عليه ما عنِتّم حريصٌ عليكم بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيم ﴾[سورة التوبة:١٢٨] .

وقال: ﴿ ... ورحمةٌ للذين آمنوا مِنكم ﴾[سورة التوبة:٦١] .

وقد كانت رحمته صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين عظيمة حيث كان أرأف بهم من أنفسهم كما قص الله تعالى عنه ذلك بقوله تعالى : ﴿ النَّبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسِهم...﴾[سورة الأحزاب:٦] يعني أنه أرأف بهم وأعطف عليهم وأنفع لهم من أنفسهم، كما كان يقول ذلك عن نفسه فيما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: "ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة اقرؤوا إن شئتم ﴿ النبيُّ أولى بالمؤمنينَ من أنفُسِهم ﴾ فأيما مؤمن ترك مالا فلترثه عصبته ما كانوا، وإن ترك دنيا أو ضَياعا(١) أو عيالا فليأتني فأنا مولاه"(٢) .

وشواهد رحمته صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين يضيق بها الحصر هنا، ولكن لا بد من ذكر طرف منهافيما يأتي :

أ- رحمته بهم في العبادة:

حيث لم يكلفهم من ذلك ما يجهدهم أو يشق عليهم بل كان يقول :

١ - "يا أيها الناس خذوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب

---

(١) الضياع: العيال، وذكر العيال بعدها كما في رواية البخاري شك من الراوي أيهما سمعه .

(٢) البخاري في تفسير سورة الأحزاب ١٤٥/٦، ومسلم في الفرائض، باب من ترك مالا فلورثته برقم ١٦١٩ .

الأعمال إلى الله ما دام وإن قل"(١) .

٢ - ويقول: "إنَّ هذا الدين يُسر ولن يشادَّ الدين أحد إلا غلبه، فسدِّدوا وقاربوا وأبشروا واستَعينوا بالغُدوة والرَّوْحة وشيء من الدُّلْجة"(٢) .

٣ - ودخل مرة المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين فقال: "ما هذا الحبل ؟ فقالوا: حبل لزينب، فإذا فترت تعلقت به، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا، حلوه، ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليقعد"(٣) .

٤ - وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها: "نهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن الوِصال رحمة لهم فقالوا: إنك تواصل فقال: "إنِّي لست كهيئتكم إني يطعمني ربي ويسقيني"(٤) .

٥- وكثيرا ما كان يقول: لولا أن أشقَّ على أمتيَّ لأمرتهم بكذا؛

كقوله صلى الله عليه وسلم: "لولا أن أشقَّ على أمتي،أو على الناس لأمرتهم

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب أحب الدين إلى الله أدومه ١٨/١، وفي الرقاق، باب القصد والمداومة في العمل ١٢٢/٨، من حديث عائشة رضي الله عنها، ومسلم في الصلاة، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل برقم ٧٨٢ .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب الدين يسر ... ١٧/١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم في صفات المنافقين، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله برقم ٢٨١٦، والنسائي في الإيمان، باب الدين اليسر ١٢١/٨ .

والدلجة: سير الليل، والمراد به العمل في الليل، وقوله: "وشيئا من الدلجة": إشارة إلى تقليله، والمشادة: مفاعلة من الشد أي: لن يغلب، ولن يقاوي أحد الدين إلا غلبه اهـ جامع الأصول لابن الأثير ٣٠٩/٨

(٣) أخرجه البخاري في أبواب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة ٦٧/٢ من حديث أنس رضي الله عنه، وأبو داود في الصلاة، باب النعاس في الصلاة برقم ١٣١٢، والنسائي في قيام الليل، باب الاختلاف على عائشة في إحياء الليل ٢١٨/٣-٢١٩ .

(٤) أخرجه مسلم في الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم برقم ١١٠٥ .

بالسّواك عند كل صلاة"(١) .

وقوله: "لولا أن أشقَّ على أمتي لأمرتهم أن يُؤخِّروا العشاء إلى ثُلث الليل ، أو قال: نصفه"(٢) .

٦- وكثيرا ما كان يترك العمل وهو يودُّ أن يعمله خشية أن تقتدي به أمته فيفرض عليها ثم لا تستطيعه كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لَيدع العملَ وهو يحبُّ أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم"(٣) .

وكما دل على ذلك قصَّةُ امتناعه صلى الله عليه وسلم عن الخروج في الليلة الثالثة لصلاة القيام لما رأى الصحابة قد تجمَّعوا يريدون أن يأتمُّوا به، فلما أصبح قال لهم: "قد رأيت الذي صنعتم ولم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيتُ أن تفرض عليكم"(٤) .

٧- وقد كان من رحمته صلى الله عليه وسلم بأمته أنه كان يدخل في الصلاة التي هي قرَّة عينه، وهو يريد إطالتها، فيسمع بكاء الصبي فيتجوَّز فيها مراعاة لأمه لما يعلمه من شدة وُجدها عليه لبكائه، كما قال عليه الصلاة والسلام: "إني لأقوم في الصلاة أريدُ أن أطوِّل فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوَّز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه"(٥) .

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة، باب السواك يوم الجمعة ٥/٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الترمذي في الصلاة، باب ما جاء في تأخير صلاة العشاء الآخرة برقم ١٦٧، والنسائي في المواقيت، باب ما يستحب من تأخير العشاء ٢٦٦/١، وابن ماجة في الصلاة برقم ٦٩١، والحاكم في المستدرك ١٤٦/١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأحمد في المسند ٤١٠/٥، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح .

(٣) أخرجه البخاري في التهجد، باب تحريض النبي صلى الله عليه وسلم على قيام الليل ٦٢/٢ .

(٤) أخرجه البخاري في الكتاب والباب السابقين ص ٦٣ من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٥) أخرجه البخاري في الصلاة، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي ١٧١/١، ومسلم في الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة برقم ٤٧٠، من حديث أبي قتادة رضي الله عنه، واللفظ للبخاري .

٨- وقد حدَّث مالك بن الحويرث(١) رضي الله عنه عمَّا لمسه من رحمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك لمَّا أتاه ومن معه من قومه يريدون الهجرة والبقاء لطلب العلم ونصرته صلى الله عليه وسلم، فرحم غربتهم وأذن لهم بالرجوع إلى أهليهم، كما قال مالك رضي الله عنه : "أتينا النبي صلى الله عليه وسلم ونحن شَبَبَةٌ(٢) متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة فظن أنا اشتقنا أهلنا، وسألنا عمَّن تركنا في أهلنا، فأخبرناه - وكان رفيقا رحيما - فقال: "ارجعوا إلى أهليكم فعلِّموهم ومُروهم وصلُّوا كما رأيتموني أصلي، وإذا حضرت الصلاة فليؤذِّن أحدكم ثم ليؤمُّكم أكبركم"(٣) .

إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على عظيم رحمته صلى الله عليه وسلم بأمته، والمذكورة في أبواب متفرقة من كتب الحديث والشمائل .

تنبيه:

والذي تنبغي الإشارة إليه هنا هو أن ما تقدم من رحمته صلى الله عليه وسلم بأمته في العبادة، وكراهية أن يشق عليه فيها، كان القصد من ذلك هو كراهيته الغلوُّ في التعبد والإفراط فيه حتى يضر المرء بجسمه وواجباته الأخرى، فيفرِّط في حقوق أخرى كثيرة، كما قال لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: "ألم أُخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: فلا تفعل، صم وأفطر، ونَم وقم، فإنَّ لجسدك عليك حقا، وإن لعينيك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا، وإن لِزَورِك(٤) عليك حقا ..." .

---

(١) الليثي سكن البصرة وتوفي بها سنة ٩٤ هـ، انظر الاستيعاب ٣/٣٧٤ مع الإصابة ص ٣٤٢، وتهذيب الأسماء ٢/٨٠ .

(٢) جمع شاب، مثل بار وبررة، الفتح ٢٢/٢٢١ .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان، باب من قال: ليؤذن في السفر مؤذن واحد ١/١٥٣، وفي الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ومسلم في المساجد، باب من أحق بالإمامة برقم ٦٧٤ .

(٤) أي: لضيفك .

وفي رواية قال له: "إنك إذا فعلت ذلك هجَمت(١) له العين، ونفَهت(٢) له النَّفس، لا صام من صام الدهر"(٣) .

وكما علمت من الحديث السابق "خذوا من الأعمال ما تُطيقون" .

أما الاجتهاد في العبادة في حدود الطاقة والمداومة عليها فذلك ما كان يرغب فيه صلى الله عليه وسلم ترغيبا حثيثا، ويطلبه منهم طلبا أكيدا، كما علمت من المباحث التعبدية المارة في بابه .

٢- رحمته صلى الله عليه وسلم بأمته في الآخرة :

ولم تقتصر رحمته صلى الله عليه وسلم على المؤمنين من أمته في الدنيا فقط، بل وفي الآخرة أيضا؛

١ - حيث إنه صلى الله عليه وسلم اختبأ دعوته التي وعده الله تعالى أن يستجيب له فيها قطعا إلى يوم القيامة، ليدعو بها لأمته،كما دل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الشيخين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لكل نبيٍّ دعوة مستجابة، فتعجَّل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا"(٤) .

قال الإمام النووي: "معناه: أن كل نبي له دعوة متيقَّنة الإجابة،وهو على يقين من إجابتها، وأما باقي دعواتهم فهم على طمع في إجابتها، وبعضها يجاب، وبعضها لا

---

(١) أي: غارت ودخلت في موضعها .

(٢) أي: أعيت وكلت .

(٣) أخرجه البخاري في الصيام في عدة أبواب ٣/٥١-٥٣، وأبواب أخرى من كتب متفرقة وبألفاظ مختلفة، ومسلم في الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوَّت به حقا.. برقم ١١٥٩ من عدة طرق .

(٤) البخاري في الدعوات ٨/٨٢، وفي التوحيد، باب المشيئة والإرادة ٩/١٧٠، ومسلم في الإيمان، باب اختباء النبي صلى الله عليه وسلم دعوة الشفاعة لأمته برقم ١٩٨ .

يجاب، قال: وفي هذا الحديث بيان كمال شفقة النبي صلى الله عليه وسلم على أمته رأفة بهم، واعتنائه بالنظر في مصالحهم المهمَّة فأخَّر دعوته لأمته إلى أهم أوقات حاجاتهم"(١).

٢ ـ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم: ﴿ ربِّ إنَّهنَّ أضلَلْنَ كثيراً من النَّاس فمن اتَّبعني فإنَّه منِّي ﴾الآية[سورة إبراهيم:٣٦]، وقول عيسى عليه السلام: ﴿ إن تُعذِّبهم فإنَّهم عبادُك وإن تغفرْ لهم فإنَّك أنت العزيزُ الحكيم ﴾[سورة المائدة:١١٨] فرفع يديه وقال: "اللهم أمَّتي أمَّتي وبكى" فقال الله عز وجل: يا جبريل اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة السلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال ـ وهو أعلم ـ فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك"(٢) .

فانظرإلى كمال شفقته صلى الله عليه وسلم بأمته ورأفته بهم ورحمته إياهم، فإن رحمته بهم لم تنفك حتى ﴿ يومَ يَفِرُّ المرءُ من أخيه * وأمِّه وأبيه * وصاحِبَتِه وبنيه * لكلِّ امرىءٍ منهم يومئِذٍ شأنٌ يغنيه ﴾[سورة عبس:٣٤-٣٧]، ويوم يقول كل نبي: نفسي نفسي، وهو صلى الله عليه وسلم مهتم بأمته ولا يقر عينًا حتى تدخل أمته الجنَّة، جعلنا الله من أهلها ووالدينا ومشايخنا ومحبينا، وحشرنا في زمرته وتحت لوائه بمنه وكرمه آمين.

٣ـ رحمته صلى الله عليه بالأهل والعيال :

فإنه صلى الله عليه وسلم كان أرأف خلق الله تعالى وأرحمهم بأهله وعياله، بل وغير عياله ،

١ ـ كما قال أنس رضي الله عنه: "ما رأيت أحدا كان أرحمَ بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كان إبراهيم ـ يعني ولده صلى الله عليه وسلم من ماريةَ القبطية رضي الله عنها ـ مسترضعا له في عوالي المدينة، فكان ينطلق ونحن معه فيدخل

---

(١) شرح مسلم ٧٥/٣، وانظر فتح الباري ١١٣/٢٣ .

(٢) أخرجه مسلم في الشفاعة، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لأمته وبكائه وشفقته عليهم برقم ٣٤٦ .

البيت وإنه ليدخّن، وكان ظئره ـ أي: زوج مرضعته(١) قينا ـ فيأخذه فيقبله ثم يرجع، قال: فلما توفي إبراهيم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ إبراهيم ابني وإنّه مات في الثدي وإن له لظئرين تكملان رضاعه في الجنة"(٢) .

٢ ـ وفي حديث آخر عنه رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي سيف القَين(٣)، وكان ظئراً لإبراهيم، قال: فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم فقبّله وشمّه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه فجعلتْ عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرِفان،فقال عبد الرحمن بن عوف(٤) رضي الله عنه: وأنت يارسول الله(٥) ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "يا ابن عوف إنها رحمة، ثم أتبعها بأخرى(٦) فقال: "إن العين لَتدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يُرضي ربَّنا،

---

(١) الظئر: بكسر الظاء هي المرضعة ولد غيرها، وزوجها ظئر لذلك الرضيع، فيقع على الذكر والأنثى ، شرح مسلم ٧٦/١٥ .

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل، باب رحمته صلى الله عليه وسلم بالعيال وتواضعه برقم ٢٣١٦ .

(٣) أبو سيف هو زوج مرضعة إبراهيم، واسمه البراء بن أوس، وكان حدادا، والقين: الحداد، الإصابة ٩٨/٤ .

(٤) الزهري، من السابقين إلى الإسلام، أسلم على يد أبي بكر رضي الله عنهما، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد أهل الشورى الذين عينهم عمر رضي الله عنه عند موته، مناقبه كثيرة توفي سنة ٣٢ هـ، انظر طبقات ابن سعد ١٢٤/٣، وتهذيب الأسماء ٣٠٠/١ وغيرهما .

(٥) أي: وأنت تبكي، وقد نهيتنا عن البكاء، لظنه أن ذلك مما شمله نهيه صلى الله عليه وسلم كما وقع في حديث عبد الرحمن نفسه، وقال الطيبي: فيه معنى التعجب، والواو تستدعي معطوفا عليه، أي: الناس لا يصبرون على المصيبة، وأنت تفعل كفعلهم، كأنه تعجب لذلك منه، مع عهده أنه يحث على الصبر وينهى عن الجزع، فأجابه بقوله: إنها رحمة، أي: الحالة التي شاهدتها مني هي رقة القلب على المولود لا ما توهمت من الجزع. ا.هـ فتح الباري ٢١١/٦-٢١٢ .

(٦) أي: أتبع الدمعة الأولى بدمعة أخرى، وقيل: أتبع الكلمة الأولى المجملة وهي قوله" (إنها رحمة) بكلمة أخرى مفصلة وهي قوله: (وإن العين تدمع) فتح الباري ٢١٢/٦ .

وإنا لفراقك يا إبرهيم لمحزونون"(١) .

٣ ـ ولقد كانت رحمته صلى الله عليه وسلم بالعيال والأطفال مثار تعجب ودهشة في مجتمعه الذي لم يكن يعهد مثل رحمته صلى الله عليه وسلم، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "قدم ناس من الأعراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: أتقبّلون صبيانكم ؟ فقلنا: نعم، فقالوا: لكنّا والله ما نقبّل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أو أملك إن كان الله نزع منكم الرّحمة"(٢) .

٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنهأن الأقرع بن حابس(٣) أبصر النبي صلى الله عليه وسلم يقبّل الحسن فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنه من لا يرحم لا يُرحم"(٤) .

٥ ـ ولقد كانت رحمته بالعيال تحمله على أن يصلّي وهو حامل أمامة بنت أبي العاص بن الربيع، بنت ابنته زينب رضي الله عنها(٥)، إذ كانت جارية، فكان إذا سجد

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، باب قوله صلى الله عليه وسلم "وإنا بك لمحزونون" ١٠٥/٢ ومسلم في الفضائل، باب رحمته صلى الله عليه وسلم بالصبيان والعيال برقم ٢٣١٥ .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ٩/٨، ومسلم في الفضائل، باب رحمته صلى الله عليه وسلم بالصبيان ... برقم ٢٣١٨ واللفظ له .

(٣) ابن عقال التميمي، شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة، وحنينا وحصار الطائف، وشهد مع خالد بن الوليد فتح العراق والأنبار، وكان شريفا في الجاهلية والإسلام لمّا حسن إسلامه بعد أن تألفه النبي صلى الله عليه وسلم بالعطاء الوفير، توفي شهيدا بجوزجان هو والجيش الذي كان معه، وذلك في زمن عثمان رضي الله عنه. انظر تهذيب الأسماء ١٢٤/١، والإصابة ٥٨/١ .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ٩/٨، ومسلم في الفضائل، باب رحمته صلى الله عليه وسلم بالصبيان ... برقم ٢٣١٩ .

(٥) كان النبي صلى الله عليه وسلم يحبها كثيرا، تزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد وفاة فاطمة رضي الله عنها بوصية منها، ثم تزوّجها بعد علي المغيرة بن نوفل وماتت عنده، انظر أسد الغابة ٢٤٤/٤، والإصابة ٢٣٦/٤، وتهذيب الأسماء ٣٣١/٢ .

وضعها، وإذا قام رفعها كما ثبت ذلك في الصحيحين(١) .

٦ ـ وكذا فعلَه مع الحسن بن علي رضي الله عنه كما جاء من حديث عبد الله بن شداد عن أبيه رضي الله عنه قال: «خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في إحدى صلاتَي العشيِّ وهو حامل حسنا أو حسينا، فتقدَّم النبي صلى الله عليه وسلم فوضعه ثم كبَّر للصلاة فصلَّى فسجد بين ظهراني صلاةٍ سجدةً أطالها، قال: قال أبي: فرفعت رأسي فإذا صبيٌّ على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساجد ، فرجعت إلى سجودي، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة قال الناس: يارسول الله إنَّك سجدت بين ظهراني صلاة سجدةً أطلتها، حتى ظننا أنه قد حدث أمر، أو أنه يوحى إليك، قال: "كلُّ لم يكن، ولكن ابني هذا ارْتَحلني فكرهتُ أن أعجِّله حتى يقضي حاجته»(٢) .

فتأمَّل مبلغ رحمته صلى الله عليه وسلم بالعيال حيث تجعله أن يمكّنهم من امتطاء ظهره وهو في الصلاة، فلا يحب أن ينازعهم في ذلك حتى يكونوا هم التاركين له، فمن يتأسى به صلى الله عليه وسلم في مثل هذه الرحمة اليوم ؟! .

ولذلك لمَّا علم منه الصحابة رضي الله عنهم ذلك المبلغ من رحمته بالصبيان، كانوا يأتونه بالصبيان فيبرِّك عليهم، ويحنِّكهم، من غير أن يتحرَّجوا من ذلك لِعلمهم بحاله صلى الله عليه وسلم في رحمته الصبيان .

٧ ـ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة، باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة ١/٣٠ ، وفي الأدب ، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ٨/٨، ومسلم في الصلاة، باب جواز حمل الصبيان في الصلاة برقم ٥٤٣ من حديث أبي قتادة .

(٢) أخرجه النسائي في افتتاح الصلاة ٢/٢٢٩ باب هل يجوز أن تكون سجدة أطول من سجدة، وأحمد في المسند ٣/٤٩٤، والحاكم في المستدرك ٣/١٦٦، وصححه ووافقه الذهبي .

يؤتى بالصبيان فيبرك عليهم ويحنكهم، فأتي بصبي فبال عليه، فدعا بماء فأتبعه بوله ولم يغسله"(١) .

٨ - وأتت أم قيس بنت محصن(٢) بابن لها صغير لم يأكل الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجلسه في حجره فبال على ثوبه، فدعا بماء فنضحه ولم يغسله(٣)، ولم يتبرم عليه الصلاة والسلام من بوله ولا ثرَّب ولا عنف من أتى به .

٩ - وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذني فيقعدني على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الأخرى ثم يضمهما ثم يقول: "اللهم ارحمهما فإني أرحمهما"(٤) .

على هذا النحو كانت رحمته صلى الله عليه وسلم بالعيال،والشواهد على ذلك غير ما ذكر كثيرة مشهورة .

وأما رحمته صلى الله عليه وسلم بالأهل فلعلها قد علمت من مبحث تواضعه من خلال ما كان يقوم به صلى الله عليه وسلم في بيته من أعمال خدمة لأهله ومعونة معهم، حيث كان صلى الله عليه وسلم يخيط ثوبه ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب وضع الصبي في الحجر ١٠/٨، وفي العقيقة، باب تسمية المولود ... وتحنيكه ١٠٨/٧، ومسلم في الطهارة، باب حكم بول الطفل الرضيع وكيفية غسله برقم ٢٨٦ .

(٢) أخت عكاشة بن محصن، كانت ممن أسلم قديما بمكة، وكانت من المهاجرات الأول اللاتي بايعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في نص رواية مسلم السابقة، دعا لها النبي صلى الله عليه وسلم بطول العمر، قال الراوي: فلا نعلم امرأة عمرت ماعمرت، انظر: الإصابة ٤٨٥/٤، والاستيعاب بهامشها كذلك .

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء، باب بول الصبيان ٦٣/١، ومسلم في الطهارة، باب حكم بول الطفل الرضيع برقم ٢٨٧ .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب، باب وضع الصبي على الفخذ ١٠/٨، والإمام أحمد في المسند ٢١٠/٥ واللفظ للبخاري، ولفظ أحمد "اللهم إني أحبهما فأحبهما" .

الرجال في بيوتهم كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها(١)، وعندما سئلت عما كان يصنع في أهله ؟ قالت يكون في خدمة أهله، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة"(٢).

وقد تقدم بيان كل ذلك في مبحث تواضعه لعلاقتها هناك فلا حاجة لإعادتها فتنظر هناك .

٤- رحمته صلى الله عليه وسلم بضعفاء المسلمين :

ومن مظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين رحمته بضعفاء المسلمين من المساكين واليتامى والأرامل ونحوهم من المنكسرة قلوبهم في هذه الحياة .

فلقد كان لهذا الفريق من المسلمين عناية خاصة ونظرة حانية من قلبه الرؤوف الرحيم، إضافة إلى أن الله تعالى قد وصّاه بهم خيرا وأرشده في آيات كثيرة إلى ما ينبغي أن تكون عليه معاملتهم لتستن به أمته من بعده، حيث قال الله تعالى له صلى الله عليه وسلم: ﴿ واصبِر نفسَك مع الَّذين يَدعون رَّبهم بالغَداةِ والعشيِّ يُريدون وجْهَهُ ولا تعدُ عيناكَ عنهم تُريدُ زينةَ الحياةِ الدُّنيا ولا تُطِع مَن أَغفلنا قلبَه عن ذِكرنا واتَّبَع هواه وكان أمرُه فُرُطا ﴾[سورة الكهف:٢٨]، وذلك حينما طلب منه أشراف قريش أن يجلس معهم وحده ، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخبَّاب وابن مسعود لاستئنافهم عن مجالستهم(٣)، فطمع النبي صلى الله عليه وسلم في إيمانهم، وأراد أن يجيبهم اتكالا على إيمان أصحابه، فنهاه الله عن ذلك بهذه الآية(٤) .

---

(١) حديث صحيح تقدم تخريجه في مبحث التواضع ص٤٥٧

(٢) حديث صحيح تقدم تخريجه في مبحث التواضع ص٤٥٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/٨٠ .

(٤) أخرج مسلم رحمه الله في فضائل الصحابة رقم ٢٤١٣ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة نفر، فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا قال:وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما،فوقع في =

وأرشده في آية أخرى إلى ما ينبغي أن تكون عليه معاملة اليتيم فقال جل شأنه في خطابه له: ﴿ فأمَّا اليتيمَ فلا تَقهر * وأما السائِلَ فلا تنهر ﴾[سورة الضحى:٩،١٠] .

فلذلك أولاهم النبي صلى الله عليه وسلم كامل رحمته وعظيم تحنُّنه ورأفته ؛

١ - "فكان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضِي له حاجته" كما جاء في حديث النسائي وغيره(١) .

٢ - وعن سهل بن حُنيْف(٢) رضي الله عنه« أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم»(٣) .

٣ - وقال أنس بن مالك رضي الله عنه :« إنْ كانت الأمة من إماءِ أهل المدينة لَتأخذُ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت»(٤) .

= نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه، فأنزل الله تعالى: ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يردون وجهه ﴾[سورة الأنعام:٥٢] .

(١) وهو حسن أو صحيح كما تقدم في الذكر ص ٣٦٤ .

(٢) ابن وهب الأنصاري، شهد بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوفي سنة ٣٨ هـ، بالكوفة وصلى عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، انظر طبقات ابن سعد ٤٧١/٣، وتهذيب الأسماء ٢٣٧/١، والإصابة ٨٧/٢ .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤٦٦/٢، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٤٨٧٧ .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب، باب الكبر ٢٤/٨ .

وهذا من كمال رأفته ورحمته بالضعفة هؤلاء، وإلا فقد كان عليه الصلاة والسلام كامل العز في نفسه بحيث إذا جد الجد فهو الإمام المقدام، ولا يقوم لعزمه أحد ،

٤ - ولقد كان من كمال رحمته بهؤلاء الضعفة أنه كان« إذا صلى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء، فما يُؤتى بإناء إلا غمس يده فيه،قال: فربما جاؤوه في الغداة الباردة فيغمس يده فيها»(١) وذلك للتبرك به صلى الله عليه وسلم .

وما كان صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك إلا لكمال رأفته بهم، ليطيِّبَ نفوسهم وإن كان في ذلك عناء له من شدة البرد في الشتاء، كما يعلمه من يعرف برد المدينة، وفي هذا ما يوجب التأسي به صلى الله عليه وسلم في أحوال الضَّعفة من المسلمين؛ لأن الأمة معنِيَّة باقتفاء آثار نبيها في كل شيء سوى ما خُصَّ به عليه الصلاة والسلام .

تبيينه صلى الله عليه وسلم لأمته مكانة هؤلاء الضعفاء عند الله تعالى :

وقد كان صلى الله عليه وسلم يبين مكانة هؤلاء الضعفاء عند الله تعالى، وعظيم فضلهم ومنزلتهم لديه سبحانه ليرغب أمته على مزيد رحمتهم وإكرامهم، وأحاديثه صلى الله عليه وسلم في ذلك كثيرة :

١ - منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه« أن امرأة سوداء كانت تقمُّ المسجد، أو قال: شابا، قال: ففقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل عنها، أو عنه، فقالوا: مات، قال: "أفلا كنتم آذنتموني . فكأنهم صغَّروا أمرها أو أمره، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: دُلُّوني على قبره، فدلوه فصلى عليها، ثم قال: « إن القبورَ مملوءةٌ ظُلمة على أهلها، وإن الله تعالى ينورها لهم بصلاتي عليهم»(٢) .

٢ - وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له:

---

(١) أخرجه مسلم وتقدم في مبحث التواضع ص ٤٥٣ .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز، باب الصلاة على القبر بعد ما يدفن ١١٣/٢، وفي الصلاة ١١٧/١، ومسلم في الجنائز، باب الصلاة على القبر برقم ٩٥٦، واللفظ لمسلم .

"هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم"(١) .

٣ - وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إبغوني(٢) ضعفاءَكم فإنما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم"(٣) .

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي تدل على فضلهم، وترغب الناس في الإحسان إليهم والرحمة بهم .

ثانيا: رحمته صلى الله عليه وسلم بالكافرين :

أما مظهر رحمته صلى الله عليه وسلم بالكافرين، فذلك برفع عذاب الاستئصال عنهم في الدنيا، كما كان يجري للأمم السابقة التي تكذب أنبياءها ورسلها، كما قص الله تعالى من أخبار قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم .

أما كفار هذه الأمة فإن الله قد أنالهم نصيبا من الرحمة المهداة، حيث أمَّنهم من عذاب الاستئصال كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وما كان اللهُ لِيُعذِّبهم وأنتَ فِيهم وما كان اللهُ مُعذِّبهم وهم يَستَغفِرون ﴾[سورة الأنفال:٣٣] وما ذلك إلا تكرمة لهذا الرسول الكريم الذي أرسله الله تعالى رحمة للعالمين .

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ وما أرسلناك إلاَّ رحمةً للعالمين ﴾[الأنبياء:١٠٧] قال: "من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرَّحمة في الدنيا والآخِرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عُوفي مما أصاب الأمم من الخَسْف والقذف"(٤) .

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب ٤/٤٤، والنسائي في الجهاد، باب الاستنصار بالضعيف ٦/٤٠ .

(٢) أي: اطلبوا .

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب في الانتصار برقم ٢٥٩٤، والترمذي في الجهاد، باب ما جاء في الاستفتاح بصعاليك المسلمين برقم ١٧٠٢، والنسائي في الجهاد، باب الاستنصار بالضعيف ٦/٤٥،٤٦، وقال الترمذي عنه: حسن صحيح .

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره بسنده إليه ١٧/١٠٦،وذكره ابن كثير في تفسيره ٣/٢٠٢وعزاه لابن أبي حاتم من طريق آخر، وذكر أيضا ما عزاه إلى الطبراني مسندا عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما، قوله: من تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يتبعه عوفي مما كان يبتلى به سائر الأمم من الخسف والمسخ والقذف" .

وقد كان من رحمته صلى الله عليه وسلم بهم أنهم آذوه وقاتلوه وشجوا وجهه الشريف وكسروا رَباعيته، فعرض عليه إهلاكهم فقال: "بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا"(١) وطلب منه أن يدعو عليهم فقال: "إني لم أبعث لعّانا وإنما بعثت رحمة"(٢) .

ولم تقف رحمته عند الإعراض عن أذيتهم،والعفو والصفح عنهم،والحلم عن جهالاتهم، بل إنها تعدت ذلك إلى حد الحرص العظيم على هدايتهم،وإبعادهم عما يوجب لهم عذاب الله وأليم عقابه، إذلم يفتأ يدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى وعبادته وحده لا شريك له، ليجنبهم بذلك ما لاطاقة لهم به من العذاب .

ولم يزل ذلك دأبه صلى الله عليه وسلم، ودأبهم معه حتى أجهد بدنه، وأتعب نفسه حتى عاتبه الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿ لعلّك باخِعٌ(٣) نفسَك أن لا يكونُوا مُؤمنين ﴾[سورة الشعراء:٣] ، والمعنى: أشفق على نفسك أن تقتلها، فإن الهداية ليست بيدك، ولكنها بيد الله، كما قال في آية أخرى: ﴿ فإنَّ اللهَ يُضِلُّ من يَشاءُ ويَهدي من يشاءُ فلا تَذهبْ نفسُك عليهم حسراتٍ إنَّ الله عليمٌ بما يصنعون ﴾[سورة فاطر:٨] .

ثالثا: رحمته صلى الله عليه وسلم بالحيوان :

ومن مظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم رحمته بالحيوان .

لقد سبقت الإشارة إلى أن عموم رحمته صلى الله عليه وسلم تقتضي أن تكون للحيوانات حظ منها،لمقتضى الدلالة اللفظية، ولأن الدلائل النقلية تؤيد ذلك :

فلقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم تحنُّن على الحيوانات، ورحمة ورأفة لم تعرفها البشرية لأحد غيره، حيث كان يرأف بها بنفسه، ويوصي بذلك أمته حتى رقّت لها أفئدتهم ورأف بها عُتاتهم، وكم في ذلك من شواهد ودلائل، وإليك طرفا منها :

---

(١) تقدم تخريجه ٨٣ .

(٢) تقدم أيضا ٦٢ .

(٣) أي: قاتل نفسك .

١ - فعن سهل بن الحنظلِيَّة(١) رضي الله عنه قال: مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعير قد لحق ظهره ببطنه - يعني من الجوع - فقال: "اتَّقوا الله في هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة"(٢) .

٢ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حُمَّرَة(٣) معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحُمَّرَة فجعلت تفرِّش(٤)، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها" قال ورأى قرية أحرقناها فقال: "من أحرق هذه ؟ فقلنا: نحن، قال: إنه لا ينبغي أن يُعذب بالنَّار إلا ربُّ النار"(٥) .

٣ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إياكم أن تتخذوا دوابَّكم منابر، فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض فعليها فاقضُوا حاجتكم"(٦) .

٤ - ودخل يوما حائطا لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل، فلما رأى النبي صلى الله عليه

---

(١) الحنظلية أمه، وقيل: هي أم جده، وهو سهل بن الربيع بن عمرو الأنصاري الحارثي الأوسي، كان ممن بايع تحت الشجرة، وكان فاضلا عالما معتزلا عن الناس، كثير الصلاة والذكر، لا يجالس أحدا، سكن الشام، مات بدمشق في أول خلافة معاوية، ولا عقب له ا.هـ، انظر الاستيعاب ٩٥/٢ .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم برقم ٢٥٤٨ بإسناد صحيح كما قال الإمام النووي في رياض الصالحين ص ٣٥٣ باب أدب السير والنزول والمبيت .

(٣) هي نوع من العصافير، أحمر اللون .

(٤) أي: تفرش جناحيها وتقرب من الأرض وترفرف .

(٥) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب كراهية حرق العدو بالنار برقم ٢٦٧٥، وفي الأدب، باب في قتال الذر برقم ٥٢٦٨، وأحمد في المسند ٤٠٤/١، والحاكم في المستدرك ٢٣٩/٤، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي .

(٦) أخرجه أبو داود في الجهاد برقم ٢٥٦٧، وإسناده صحيح كما قال الألباني في الصحيحة برقم ٢٢ .

وسلم حنَّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فمسح ذِفراه(١) فسكت، فقال: "من ربُّ هذا الجمل ؟ لمن هذا الجمل ؟ فجاء فتىً من الأنصار فقال: لي يا رسول الله، فقال له: "أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكا إليَّ أنك تجيعه وتُدئِبُه"(٢) أي: تتعبه في العمل .

فهذه التوجيهات النبوية مُفعمة بالرحمة والرأفة بالحيوانات التي ما كانت لِتعلم لولا بيانه صلى الله عليه وسلم، وما كنت البهائم ستنال حظها من الرحمة لولا ذلك .

ولقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم أساليب أخرى في الإبانة عن رحمته بالبهائم لأمته للتتأسى به في ذلك، وذلك بإخباره صلى الله عليه وسلم ما يترتب على الرحمة بالحيوانات من الثواب والأجر والمغفرة، وما يترتب على عدم ذلك من العقاب .

١ - ومن أخباره صلى الله عليه وسلم عما يترتب على الرحمة من الثواب وذلك في أحاديث كثيرة ومنها :

ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بينما رجلٌ يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بِئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث(٣) يأكل الثَّرى(٤) من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له، قالوا: يا رسول الله، إن لنا في البهائم أجرا ؟ فقال: في كلِّ كبِدٍ

---

(١) أي: أصل أذنيه .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم برقم ٢٥٤٩، والحاكم ٩٩/٢، وأحمد في المسند ٢٠٤/١ من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وأصله في مسلم دون قصة الجمل .

(٣) أي: يخرج لسانه من شدة العطش والحر .

(٤) أي: التراب الندي .

رَطْبة أجر"(١) .

٢ - ومن أخباره صلى الله عليه وسلم عما يترتب على عدم الرحمة بالحيوانات من العذاب ما أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "دخلت امرأة النار في هِرَّة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض"(٢) .

وضع الرحمة في مكانها المناسب :

ومع ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من الرحمة والرأفة في كل شئونه ومع الخلق كافة إلا أن من يتعدى حدود الله وينتهك محارمه فيبلُغُه أمرُه لم يكن له حظا من رحمته صلى الله عليه وسلم عملا بقول الله تعالى: ﴿ الزَّانيةُ والزاني فاجلِدوا كلَّ واحدٍ منهما مائةَ جَلْدةٍ ولا تأخذْكم بهما رأفةٌ في دينِ الله ...﴾[سورة النور:٢] فكان يقيم الحد عليهم قصاصا أو رجما أو قطعا أو جلدا أو صلبا، لا تأخذه بهم رأفة في دين الله تعالى، وهذا ما يرشد إليه العقل السليم كما قال الشاعر :

فقسى ليزدجِروا ومن يكُ حازما فليقسُ أحيانا على من يَرحم

ذلك لأن المجتمع الذي يهدف إلى إصلاحه هو أحق بالرحمة من الواحد الذي هو نفسه بحاجة إلى التطهير .

على أن تطهيره بإقامة الحد عليه هو في حد ذاته رحمة به،لما ينال به من التطهير من دنس المعصية، ودرأ عذاب الله تعالى الذي لولا إقامة الحد عليه لأصابه، وعذاب الدنيا أهون من عذاب الأخرة بل لا مقارنة بينهما .

---

(١) أخرجه البخاري في عدة مواضع من صحيحه منها في الأدب، باب رحمة الناس والبهائم ١١/٨، ومسلم في السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامهابرقم ٢٢٤٤ .

(٢) أخرجه البخاري في مواضع منها في الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٢١٥/٤، ومسلم في البر، باب تحريم تعذيب الهرة برقم ٢٢٤٢ .

وحشاش الأرض: هي هوامها وحشراتها .

ألا ترى إلى ما قاله عليه الصلاة والسلام في حق ماعز الذي أقام عليه حد الزنى: "لقد تاب توبة لو قُسمت بين أُمَّة لوسعتهم"(١) وما قاله في حق الجُهنيَّة التي أقام عليها حد الزنى: "لقد تابت توبةً لو قُسِمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم"(٢) ومعلوم أن التوبة تغسل الحَوَبة،فرفعُ وبال معصيتهم عنهم،وتطهيرهم من وحَل المعصية،وما يترتب عليها من العذاب الأليم في حقيقته رحمة؛لأن ذلك هو أخف الضررين .

مع أن عاطفة الرحمة قد كانت تغالبه صلى الله عليه وسلم عند إقامة الحدود فيهم، فكان يفسح لهم المجال،وذلك بالأساليب التي كان يتخذها مع من كانوا يبادرون بطلب تطهيرهم بإقامة الحد الشرعي عليهم، حيث كان صلى الله عليه وسلم لا يبادر بإقامته بمجرد الاعتراف، بل لقد كان يتفحَّص أحوالهم النفسية، ويحاول أن يجد لهم مخرجا من صارم العقوبة التي ستحلُّ بهم، وينكر على أصحابه إذا لم يمكِّنوا المحدود من تكذيب نفسه، كما هو ثابت معلوم .

١ـ فقد ردَّ صلى الله عليه وسلم ماعزا مِرارا قبل أن يستفصله عن حقيقة ما يقول،فلما أصر على طلب إقامة الحد سأل قومه عنه: "أبه جنون؟" فقالوا ما نعلم به بأسا إلا أنه أصاب شيئا يرى أنه لا يُجزئه منه إلا أن يقام فيه الحد.

٢ـ ورد الغامدية كذلك ثم قالت له: "لِم تردني؟ لعلك تردني كما رددت ماعزا؟فوالله إني لحبلى، فقال لها: "إمَّا لا فاذهبي حتى تلدي" فلما ولدت قال لها: "اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه" فلما فطمته أتته بالصبي في يده كِسرة خبز، فقالت:هذا يانبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها، ولما سبَّها خالد قال له صلى الله عليه وسلم: "مهلا يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبةً لو تابها صاحب مُكس لغفر له" ثم أمر بها فصلي

---

(١) أخرجه مسلم وتقدم في مبحث التوبة ص٢٢٢

(٢) أخرجه مسلم وتقدم أيضا في مبحث التوبة ص٢٢٣

عليها ودفنت(١) .

٣- وفعل صلى الله عليه وسلم نحو ذلك مع الرجل الأسلمي فلما شهد على نفسه أربع شهادات قال له: «أنِكتها ؟» بصريح العبارة لا يكني، قال: نعم، قال: "حتى غاب ذلك منك في ذلك منها ؟" قال: نعم، قال: "كما يغيب الميل في المكحلة، والرشاء في البئر ؟" قال: نعم، قال: "هل تدري ما الزنا ؟" قال: نعم، أتيت منها حراما ما يأتي الرجل من أهله حلالا، قال: "فما تريد بهذا القول ؟" قال: إني أريد أن تطهرني، فأمر به فرجم ...الحديث(٢) .

٤ - وجاء في بعض روايات قصة ماعز أنه لما ذَلَقته(٣) الحجارة، وفي رواية: فلما وجد مسَّ الحجارة فرَّ يشتد، فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك قال: "هلاَّ تركتموه لعلَّه أن يتوب فيتوب الله عليه"(٤) .

٥ - وفي بعض روايات قصته أيضا قال له النبي صلى الله عليه وسلم: "لعلَّك قبَّلت، أو غمزت، أو نظرت ؟" قال: لا يا رسول الله، قال: "أنِكتها ؟" لا يكني، فعند ذلك أمر برجمه(٥) .

إلى غير ذلك من وقائع الأحوال التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يحاول فيها رحمة

---

(١) ساق مسلم قصتها مع سياق قصة ماعز، وقد تقدمت الإشارة إليه، وأخرجها أبو داود منفصلة في باب المرأة التي أمر النبي صلى الله عليه وسلم برجمها من جهينة برقم ٤٤٤٠ .

(٢) أخرجه البخاري في المحاربين، باب سؤال الإمام المقر ٢٠٧/٨، ومسلم في الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا برقم ١٦٩١، وأبو داود في الحدود، باب ما جاء في رجم ماعز برقم ٤٤٢٨، واللفظ له، وهو من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أي: أجهدته وأتعبته، يقال: أذلقه الأمر إذا بلغ منه الجهد والمشقة حتى قلق .

(٤) هي إحدى روايات أبي داود والترمذي .

(٥) هذه رواية البخاري في المحاربين، باب هل يقول الإمام للمقر لعلك لمست أو غمزت ٢٠٧/٨، ومسلم في إحدى رواياته .

أولئك المعترفين بارتكاب الحدود كي لا تطبق عليهم الأحكام إلا بعد التيقن التام، ليعلِّم أمته درأ الحدود بالشبهات، ويبين لهم رغبة الشارع في حفظ المُهج والأطراف والستر على الأعراض، وذلك لكمال رحمته صلى الله عليه وسلم بهم .

فترى أن إقامته صلى الله عليه وسلم للحدود كانت مليئة بالرحمة والعطف، من غير إهدار لها؛لأنه إذا ثبتت الجرائم ورُفعت إلى الحاكم فلا بد لرحمة المجتمع كله من تطبيق العقوبات .

كما كان عليه الصلاة والسلام يقول: "تعافُوا الحدود(١) فيما بينكم، فما بلغني من حد فقد وجب"(٢) .

وكما قال لمن رفع إليه حد سرقة، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تقطع يده، فقال: "إني لم أُرِد هذا يا رسول الله وهو عليه صدقة،فقال صلى الله عليه وسلم: "فهلَّا قبل أن تأتيني به"(٣) .

فكانت الحدود إذا بلغته أقامها مع الرأفة والرحمة في تنفيذها، والتماس المخارج لأصحابها خشية أن يخطىء في العقوبة، لأن الخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة.

وهذه هي الرحمة الغامرة من الرؤوف الرحيم صلى الله عليه وسلم .

---

(١) أمر بالعفو وهو التجاوز عن الذنب، أي: أسقطوا الحدود فيما بينكم ولا ترفعوها إلي .

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود، باب العفو عن الحدود ما لم تبلغ السلطان برقم ٤٣٧٦، والنسائي في السارق، باب ما يكون حرزا وما لا يكون ٧٠/٨ من حديث عبد الله بن عمرو بإسناد حسن .

(٣) أخرجه أبو داود في الحدود، باب من سرق من حرز برقم ٤٣٩٤، والنسائي في السارق، باب الرجل يتجاوز للسارق عن سرقته بعد أن يأتي به الإمام ٧٠/٨ من حديث صفوان بن أمية وصححه الألباني في إرواء الغليل ٣٤٥/٧.

المبحث الخامس

(خلق الكرم)

الكرم في اللغة: ضد اللؤم(١) .

وهو في الاصطلاح: "إعطاء الشيء عن طيب نفس قليلا كان أو كثيرا"(٢) .

وقال الراغب: "الكرم إذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه، قال: ولا يقال: هو كريم حتى يظهر ذلك منه"(٣) .

فهو بهذا المعنى أعم مما ذكره غيره من تخصيصه بالعطاء، إذ جعله شاملا للنوال وسائر كرائم الأفعال والأقوال، فهو "جامع لمكارم الأخلاق، فكل خصلة من خصال الخير،أو خَلة من خلال البر،أو سجية تضاف إلى محاسن الطباع والأعراق، يصدق عليها اسم الكرم"(٤) .

ولا بدع فإن صاحب الخلق الكريم يكون كريما في أخلاقه الذاتية والاجتماعية، إذ كرم نفسه يأبى عليه خلاف هذه الحقيقة، وما كرم النوال إلا صورة لكرم النفس، ومن هنا سُمِّيت الأخلاق الحسنة بمكارم الأخلاق، وقد أشار إلى ذلك كله قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكرَمَكم عندَ اللهِ أتقاكم ﴾[سورة الحجرات:١٣] .

فجعل الله تعالى أكرم المؤمنين هم المتقين، والتَّقوى : اسم جامع لكل معاني البر والخير.

غير أن الذي يعنينا ذكره هنا هو كرم النوال والعطاء، إذ هو المشهور عند الإطلاق العام لهذا الخلق، وهو الخلق الذي كان له عناية كبرى في القرآن الكريم أمرا به وحضا عليه وتنويها بأهله، ونهيا عن ضده وهو البخل واللؤم، وذما لهم في آيات كثيرة من

---

(١) الصحاح للجوهري ٢٠١٩/٥، والقاموس المحيط ١٧٠/٤ .

(٢) الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري ص ١٦٨ .

(٣) المفردات ص ٤٢٨ .

(٤) الخلق الكامل لمحمد أحمد جاد المولى ٢٦٠/٤ .

القرآن الكريم ، وذلك وإن لم يكن من مادة الكرم، فإنه مما يدل عليه من الألفاظ الأخرى المؤدية لمعناه كالإنفاق والأحسان والإيتاء ونحوها كما ستعلمه فيما يأتي:

الأمر به:

أما الأمر به ففي مثل قول الله تعالى: ﴿ يأيُّها الذين آمنوا أنفِقوا ممَّا رزقناكم من قبلِ أن يأتيَ يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خُلَّةٌ ولا شفاعةٌ والكافرون هم الظَّالمون ﴾[سورة البقرة:٢٥٤] .

ففي هذه الآية يأمر الله تعالى عباده الذين بأيديهم ما ينفقون منه أن يبذلوه للمحتاجين إليه ولا يمسكونه بأيديهم، وأخبرهم بأن ما ينفقونه اليوم هو زاد لهم لذلك اليوم الذي تنقطع فيه الوسائل التي يمكن للمرء أن ينفع بها نفسه من مال أو صدقة أو شفاعة،

وفي هذا الأسلوب من الحث على الكرم ما يحمل عليه بلا تردد، فضلا عن الأمر الصريح الذي صدرت به الآية، ومقتضى الأمر للوجوب، وهو شامل لما يجب إنفاقه كالزكاة وما يندب كالصدقة.

فهو أمر يحمل على الكرم والتحلي بهذا الخلق الكريم ما دام المرء قادرا على أن يتحلى به، بامتلاكه ما يقدر على إنفاقه .

والآيات الآمرة بالإنفاق غير هذه كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ يأأيُّها الذين آمنوا أنفِقوا من طيباتِ ما كسبتم وممَّا أخرجنا لكم من الأرضِ ولا تَيَمَّموا الخبيثَ منه تُنفِقون ...﴾ [سورة البقرة:٢٦٧] .

وهذه الآية تشترط أن يكون الإنفاق لله، والله طيب لا يقبل إلا طيبا،

كما أنها وسَّعت دائرة ما ينفق منه،حيث نَصَّت على وجوب الإنفاق مما يخرج من الأرض من أصناف الزراعة، لأن الحاجة إلى ذلك داعية كالحاجة إلى النقد ونحوه.

ومنها قوله تعالى: ﴿ قُل لعباديَ الذين آمنوا يُقيموا الصَّلاةَ ويُنفقوا ممَّا رزقناهم سِراً وعَلانية من قبلِ أن يأتي يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خِلال ﴾[سورة ابراهيم:٣١] .

ومنها قوله تقدس شأنه: ﴿ وأنفِقُوا ممَّا رزقناكم من قبلِ أن يأتيَ أحدَكم الموتُ فيقولَ ربِّ لولا أخَّرتني إلى أجلٍ قريبٍ فأصَّدَّقَ وأكُن من الصَّالحين ﴾[سورة المنافقون:١٠] .

فإن هذه الآيات تحث على الإنفاق وبالغ الكرم بهذا الأمر المتضمن التزهيد في الدنيا

والترغيب في الآخرة، مما يحمل على المبادرة إلى مضمونه من غير تردد عند من يلقى السمع وهو شهيد .

إلى غير ذلك من الآيات الآمرة بالإنفاق، والإنفاق ابتغاء مرضاة الله تعالى هو الكرم بعينه، لأنه يكون بسماحة نفس وسخاء، ولا يصحبه منٌّ ولا أذى .

الحض على الكرم :

أما الحض على الكرم في القرآن الكريم ففي آيات كثيرة، وهي الآيات التي ترغّب في الإنفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله سبحانه، وذلك كالآيات التي تدل على عظيم أجر الإنفاق في سبيل الله تعالى كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ مثلُ الَّذين يُنفقون أموالَهم في سبيلِ الله كمثلِ حَبَّةٍ أنْبتَتْ سبعَ سنابلَ في كلِّ سُنبُلةٍ مائةُ حبَّة والله يُضاعفُ لِمَن يشاءُ والله واسعٌ عليم ﴾[سورة البقرة:٢٦١] وفي هذه الآية الكريمة من الحض على الإنفاق ما لا يتوانى عند سماعه موقن بوعد الله موفق للخير، حيث إن الله تعالى وعد المنفق في سبيله - وسبيله هي طاعته في أنواع البِر والقُرُبات - وعدهم ذلك الجزاء العظيم الذي يضاعف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة لا يعلم عددها إلا الله تعالى .

لا جرم أن المؤمن بالله تعالى واليوم الآخر عندما يعلم هذا ينفق الجزل ويعطي الكثير، طلبا لأجر ذلك اليوم الذي يضاعف فيه الأجر إلى تلك الأضعاف البالغة حدا لا يوصف ولا يعد، ولا يبقى في نفسه تردد، ولا يدخّر وُسعا في البذل إن كان له حظ من التوفيق .

والآيات الواعدة بمثل هذا الأجر العظيم كثيرة كقوله تعالى: ﴿ وما تُنفِقوا من شيءٍ في سبيل الله يُوفَّ إليكم وأنتُم لا تُظلَمون ﴾[سورة الأنفال:٦٠] وقوله سبحانه: ﴿ وما أنفقتُم من شيءٍ فهو يُخلفه ﴾[سورة سبأ:٣٩] .

ولذلك نرى أن آيات أخرى تجعل المؤمن هو المسئول عن نفسه في المسابقة إلى هذا الأجر في ذلك اليوم إن هو أكرمها أو ضيّعها وذلك كقوله جل شأنه: ﴿ وما تُنفِقوا من خيرٍ فلأنفُسِكم وما تنفقونَ إلا ابتغاءَ وجهِ الله وما تُنفقوا من خيرٍ يُوفَّ إليكم وأنتُم لا تُظلَمون ﴾[سورة البقرة:٢٧٢] .

أي: إن إنفاقكم هو لنفع أنفسكم لأن الله تعالى يوفي لكم الأجر إن أنتم أنفقتم ابتغاء وجهه، ثم لا تظلمون شيئا مما قدمتموه عن أجره الوفير الكثير .

ومن الآيات الحاضة على الكرم تلك الآيات التي تجعل بذل المرء ابتغاء رضوان الله تعالى قرضا لله جل وعلا يوفيه إليه وهو أحوج ما يكون إليه، وذلك كقوله تعالى:

﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾[سورة البقرة:٢٤٥] .

وقوله سبحانه: ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم ﴾ [سورة الحديد:١١] ، وقوله سبحانه: ﴿ إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم ﴾[سورة الحديد:١٨]. إلى غير ذلك من الآيات .

فترى أن الله تعالى جعل الإنفاق في سبيله قرضاً حسناً، والقرض الحسن يستلزم القضاء فإذا أقرض المرء كريما، كان قضاؤه موفورا أحسن من القرض، فكيف به إذا أقرض أكرم الأكرمين؟ ولقد نص سبحانه على أنه سيكون مضاعفا إلى أضعاف كثيرة، وأن مقرضه سيكون له أجر كريم، فلم يحدد قدر القضاء، ولا كمية الأجر؛ لأنه فوق ما يتصوره المرء، لكونه قضاء وأجرا من أكرم الأكرمين سبحانه وتعالى، فيكون بقدر كرمه لا بقدر من يعطيه من المؤمنين .

وهذا الأسلوب يحمل على بالغ الكرم وقصاراه، إن صادف مؤمنا بالله واليوم الآخر ووعده ووعيده؛ لأن الله تعالى قد ضمن للباذل ماله القضاء المضاعف والأجر الكريم .

التنويه بأهل الكرم :

لقد كان تنويه القرآن بأهل الكرم عظيما بحيث لم ينله فيما أعلم صاحب أي خلق كريم آخر على انفراده، وذلك لأن هذا الخلق يجمع مكارم الأخلاق كما علمت قبل .

لذلك كان تنويه القرآن الكريم بالمتحلين به بالغا مبلغا عظيما،

وقد كان هذا التنويه من أول القرآن الكريم حيث يقول سبحانه في مستهل ثاني سورة بعد البسملة: ﴿ ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ ثم وصفهم بقوله: ﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾[سورة البقرة:١-٥]، فوصف المتقين بالإيمان بالغيب،

والمقيمين الصلاة، والمنفقين مما رزقهم الله، والمؤمنين برسل الله وباليوم الآخر،وصفهم بثلاث صفات هي التقوى والهداية والفلاح، وذلك على سبيل التنويه والإشادة، حيث كان على سبيل القصر الدال على تمكن تلك الصفات فيهم .

وإنفاق العبد مما رزقه الله تعالى وعدم تحجره عليه سواء كان واجبا أو مندوبا هو عين كرمه إذ لو كان بخيلا لئيما لما طوعت له نفسه وهي قد جبلت على الشح أن ينفق من ماله قليلا أو كثيرا، ولكن لما كان يغلب نفسه على الإنفاق، فذلك دليل على أن خلق الكرم مهيمنا عليها، فكان جديرا بالثناء .

وكم في القرآن الكريم من ثناء عليهم من غير هذه الآية كمثل قوله تعالى: ﴿ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[سورة البقرة:٢٦٢] .

وقوله سبحانه: ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والآرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾[سورة آل عمران: ١٣٣-١٣٤] .

وقوله: ﴿ ... والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار * جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾[سورة الرعد:٢١-٢٤] .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في مختلف سور القرآن الكريم مكيه ومدنيه .

ذم البخيل :

وكما كان حديث القرآن العظيم عن الكرم كثيرا ومستفيضا، فكذلك كان حديثه عن نقيضه وهو البخل كثيرا، وذلك على سبيل النهي عنه، والذم له ولأهله لما يعنيه من رذالة في الأخلاق متمثلة في الشح على المال والجشع على المادة، وعدم الوثوق بوعد الله ووعيده المترتب على الإنفاق والبخل .

وذلك كقوله تعالى: ﴿ ولا يَحسبَنَّ الذين يَبخلونَ بما آتاهم الله من فَضله هو خيراً لهم بل هو شرٌ لهم سيُطَوَّقون ما بخلوا به يومَ القيامة و لِله ميراثُ السمواتِ والأرضِ والله بما تعملون خبير ﴾[سورة آل عمران: ١٨٠] .

ففي هذه الآية ينعى الله تعالى على أهل البخل بخلهم، ويبين لهم ما يؤول إليه أمر المال الذي بخلوا به من أنه ينقلب عليهم بالشر والسوء من حيث لا يشعرون، في الوقت الذي كانوا يظنون أن الخير فيه، وفيها من الوعيد الشديد على البخل ما لا يطاق وصفه، حيث إن أموالهم تلك تُطوَّق بها أعناقهم يوم القيامة فيعذَّبون بحملها مع ما يضخم الله تعالى جرم تلك الأموال ووزنها كما جاء في الحديث: "من ظلم قِيدَ شبر من الأرض طُوِّقه من سبع أرَضِين"(١) .

وهذه الآية يوضحها أيضا قول الله تعالى في سورة التوبة: ﴿ والَّذين يَكنِزون الذَّهبَ والفِضَّةَ ولا يُنفقونها في سبيل الله فبشِّرهم بعذابٍ أليم * يوم يُحمَى عليها في نار جهنم فتُكوَى بها جِباهُهم وجنوبُهم وظُهورهم هذا ما كنَزتُم لأنفُسِكم فذوقُوا ما كنتم تكنِزون ﴾[٣٤،٣٥] .

فانظر ما في هذه الآية من هول الوعيد والعقاب الشديد المترتب على البخل، وإن كان هذا فيمن لا يؤدي الزكاة، إلا أن الذي يحمل على ذلك هو البخل، فهو السبب في إكساب صاحبه ذلك المصير المؤلم، إذ لو كان جوادا كريما لما بخل بما أوجبه الله تعالى.

فتبين أنه أدوء الداء وعضل البلاء الذي يكسب صاحبه سوء الجزاء، ولذلك كان الإنسان مسئولا عن نفسه إن هو أوبقها بهذا الخلق الدنيء الذي يُورده تلك الموارد الموبِقة، وقد حمَّله القرآن الكريم مسئولية ذلك كما في قوله جل شأنه: ﴿ ها أنتم هَؤُلاء تُدْعَون لتُنفِقوا في سبيلِ اللهِ فمنكم من يَبخلُ ومن يَبخلْ فإنّما يبخلُ عن نَفسه والله الغنيُّ وأنتم الفقراءُ وإنْ تَتولوا يَستبدل قوماً غيرَكم ثُمَّ لا يكونوا أمثالَكم ﴾[سورة محمد:٣٨] .

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب ماجاء في سبع أرضين ٤/١٣٠، ومسلم في المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها برقم ١٦١٢ من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها .

والمعنى: أن وبال بخله عائد عليه فلا يلومنَّ إلا نفسه عندما يلاقي الجزاء السيء والمصير المؤلم، إذ كان بوسعه أن يزكِّي نفسه ويطهرها من دنس البخل وسيُكرم غاية الإكرام كما قال الله تعالى: ﴿ فأمَّا من أعطى واتَّقى * وصدَّق بالحسنى * فسنُيسِّرُه لليُسرى * وأمَّا من بَخِل واستغنى * وكذَّب بالحُسنى * فسنُيسِّره للعُسرى * وما يُغني عنه مالُه إذا تردَّى ﴾ إلى أن قال: ﴿ وسيُجنَّبُها الأتقى * الَّذي يُؤتي مالَه يتزكَّى ﴾[سورة الليل:٥-١٨] .

ولكنه لما رضي بالبخل والشح نَخيزَةً، واللؤم غريزةً، فعليه أن يوطِّن نفسه لآثار ذلك ﴿ يوم لا يَنفَع مالٌ ولا بنون*إلاَّ من أتَى الله َبقلبٍ سليم ﴾[سورة الشعراء:٨٨،٨٩] .

نسأله تعالى أن يهدينا لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا هو، وأن يصرف عنَّا سيئَها فلا يصرف عنَّا سيئها إلا هو، وأن يزكِّي أخلاقنا ويُطهِّرها من البخل والشح وسائر مساوىء الأخلاق بمنِّه وكرمه .

تمثل خلق الكرم
في النبي صلى الله عليه وسلم

ولئن كان الكرم جامعا لمكارم الأخلاق، فإن الذي بعث ليتمم مكارم الأخلاق وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم سيكون تمثُّلُ هذا الخلق فيه بالغا مبلغ الكمال والعظمة؛ لأن كلَّ مكارم الأخلاق فيه قد كانت كذلك، وكرم النَّوال أولى أن يكون أوفَى وأكمل في جنابه العظيم، وذلك ما يدل عليه شهادة الله تعالى له بعظمة الخلق عموما، وبالكرم خصوصا، فقد قال الله جل ذكره: ﴿ وإنَّك لعلى خُلُق عظيم ﴾[سورة القلم:٤]، وقال: ﴿ فلا أُقسِمُ بما تُبصِرون * وما لا تُبصِرون * إنَّه لقولُ رسولٍ كريمٍ * وما هو بقول شاعر قليلاً ما تُؤمِنون ...﴾[سورة الحاقة:٣٨-٤١] .

فوصف الله تعالى نبيه الكريم محمدا صلى الله عليه وسلم في هذه الآيات التي أقسم فيها بالمشاهدات والمغيَّبات على صدق ما جاء به من عند الله تعالى، وصفه بالكرم دون غيره من أخلاقه العظيمة كالصدق والأمانة ونحوها، وذلك لتكون كل تلك الأخلاق مندرجة فيه، فأخلاقه كلها عظيمة كريمة، ومن ذلك كرمه في البذل والعطاء والإنفاق والجود والسخاء، وهو ما كان معروفا به من قبل أن يأتيه وحي السماء .

١ ـ فقد وصفته خديجة رضي الله عنها بقولها: "إنك لَتصِلُ الرَّحِم، وتحمل الكَلَّ، وتُكسِب(١) المعدومَ، وتُقري الضَّيف، وتعينُ على نوائب الحق"(٢) .

وهذه الأخلاق كلها ناشئة عن بالغ الكرم وعظيم الجود، إذ هي كلها تعني البذل والعطاء في هذه الخلال الحميدة .

فصلة الرحم، وحمل الكَّل "وهو الثقل من كل ما يتكلف من عيال ونحوهم"(٣) للغير

---

(١) بضم أوله وكسر ثانيه كما هي إحدى روايات الحديث، وهو الأوجه في ضبطها كما رجحه النووي في شرح مسلم، ومعناها: تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك .

(٢) متفق عليه وتقدم ص ٦١

(٣) النهاية ٤/١٩٨ .

أو للنفس، وإكساب الناس ما لا يوجد عند غيره من نوادر الأموال والمتاع وعزيزه ونفيسه، وقِرى الضيف بكريم الطعام، وإعانة الناس على مصائب الدهر ونوازل الأيام، كل ذلك ناشىء عن عظيم الكرم، وبالغ الجود والعطاء .

فهي تصفه بهذه الصفات البالغة عظمة وخطورة التي كان عليها قبل بعثته ورسالته، ولم يكن قد تحمَّل أعباء أمته، ولا قد أضفت عليه النبوة زيادة كمال وعظمة، فكيف به بعد ذلك كله؟!لا جرم أن كرمه صلى الله عليه وسلم بعد ذلك سيكون بالغا ذِروة الذُّرى في كرم الأنبياء وسائر البشر، وهو ما دلَّت عليه الدَّلائلُ النَّقلية الكثيرة .

وصف الصحابة رضي الله عنهم جود رسول الله صلى الله عليه وسلم:

١- فقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجودَ الناس وكان أجودَ ما يكون في رمضان حينَ يلقاه جبريلُ، وكان يَلقَى جبريل في كلِّ ليلة من رمضان فيُدارسه القرآن، فلَرسول الله صلى الله عليه وسلم أجودُ بالخير من الرِّيح المرسلة"(١) .

والمعنى: أن جود رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يُضاهَى، ولم يكن أي جواد يباري رسول الله صلى الله عليه وسلم مهما بلغ جوده واشتهر، لا سيما إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان حينما يدارسه جبريل القرآن، الذي جاء به من عند ربه، والذي كان يتمثل أخلاقَه ويُسارع إلى تطبيقها،فكان كأنه قرآن يمشي على الأرض، وهو يحث على الإحسان والكرم والمسارعة إلى البذل والعطاء، وسائر مكارم الأخلاق، فيتجدد عندئذ العهد بمزيد غِنى النفس، لاسيما في ذلك الموسم العظيم موسم الخيرات الذي تزداد فيه نعم الله على عباده،فيزداد الشاكرون لها شكرا، فكان جود رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ أسرع من الريح(٢) .

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٦/١، ومسلم في الصلاة، باب الاستماع للقراءة برقم ٤٤٨ .

(٢) انظر فتح الباري ٦٨/١، ولطائف المعارف لابن رجب ص ١٩٥ .

٢ ـ وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسنَ الناس، وكان أجودَ الناس وكان أشجعَ الناس .."(١) .

٣ ـ وقال ابن عمر رضي الله عنهما: "ما رأيت أحدا أجودَ ولا أنجدَ ولا أشجعَ ولا أرضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم"(٢) .

٤ ـ وقال جابر رضي الله عنه: "ما سُئِل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال: لا"(٣) يعني: لا يرد سائله ويقول له:لا أعطيك، بل يُرحب به، ويعطيه سؤله،أو ما يقدر عليه،أو يعِدُه،أيا كان حاله موسرا أو معسرا .

٥ ـ وقال أنس رضي الله عنه: "ما سُئِل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام شيئا إلا أعطاه"(٤) .

هكذا يقول الصحابة رضي الله عنهم عن كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقوالهم في ذلك كثيرة إذ ماترك منها أكثر مما ذكر، ومنها تعلم أن جود رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالغ كرمه كان مستفيضا عند أصحابه، يشاهد كل منهم ذلك الكرم الفيَّاض في سائر أحواله فنقلوه إلينا حتى بلغ مبلغ التواتر، وهذه الشهادات الخيرية تبين مدلولها، ويوضح معناها،الوقائعُ والأحوال التي كانت تجري منه صلى الله عليه وسلم في الجود والعطاء في مختلف الأحوال، وقد نقل إلينا من ذلك في دواوين السنة وكتب الشمائل الكثير الطيب، سنأتي على ذكر بعض منها الآن :

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب الحمائل وتعليق السيف ٤٧/٤، وفي الأدب ١٦/٨، ومسلم في الفضائل، باب كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير من الريح المرسلة برقم ٢٣٠٨ واللفظ لمسلم .

(٢) أخرجه أبو الشيخ في الإخلاق برقم ٨٨، والدارمي في سننه ٥٩/١، ورجال إسناده ثقات، ويشهد له أيضا الأحاديث المذكورة قبله .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب حسن الخلق والسخاء ومايكره من البخل ١٦/٨، ومسلم في الفضائل، باب ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال: لا، برقم ٢٣١١ .

(٤) أخرجه مسلم في الباب السابق برقم ٢٣١٢ .

شواهد ووقائع أحواله صلى الله عليه وسلم في الكرم :

تلك هي الدلائل الخبرية المبنية على الاستقراء والتتبع لأحواله صلى الله عليه وسلم، والخبرة الكاملة بها، وهي كافية لمعرفة مبلغ كرمه صلى الله عليه وسلم وكمال جوده وعظيم سخائه من غير امتراء .

غير أننا بحاجة إلى أن نعرف وقائع عملية لندرك من خلالها معاني أكثر دلالة على تمثل هذا الخلق العظيم فيه صلى الله عليه وسلم، وليكون لها أعظم الأثر في التأسي بأخلاقه صلى الله عليه وسلم، ولنقدم من ذلك وقائع أحواله في الكرم عندما لا يكون موسرا؛ لأنه أبلغ في الدلالة على الكرم،فمن ذلك :

١ ـ ما رواه سَهل بن سعد(١) رضي الله عنه، قال: جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ببردة فقالت: يارسول الله أكسُوكَ هذِه، فأخذها النبي صلى الله عليه وسلم محتاجا إليها فلبِسها، فرآها عليه رجل من الصحابة فقال: يارسول الله، ما أحسن هذه، فاكسُنيها ؟ فقال: نعم، فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم لامَه أصحابه، قالوا: ما أحسنتَ حين رأيتَ النبي صلى الله عليه وسلم أخذها محتاجاإليها ثم سألته إياها، وقد عرفتَ أنه لا يُسأل شيئا فيمنعه، فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي صلى الله عليه وسلم،لَعلِّي أكفَّن فيها" وفي رواية قال سهل: "فكانت كفنه"(٢) .

ومن خلال هذه الصورة تدرك معنى حديث جابر رضي الله عنه: ما سئل عن شيء قط فقال: لا، إذ هي برهان عملي جلي على عدم ردِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم للسائلين، وإن كان به حاجة شديدة إلى ما يطلب منه، فهو يعني كمال الإيثار الذي نال

---

(١) الساعدي الخزرجي الأنصاري، كان اسمه حزنا فسماه النبي صلى الله عليه وسلم سهلا، وهو من مشاهير الصحابة، وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة سنة ٨٨ هـ، وقيل: سنة ٩١ هـ، انظر تهذيب الأسماء ٣٢٨/٦، والإصابة ٨٨/٢، والاستيعاب ٩٥/٢ .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل ١٦/٨، وأحمد في المسند ٣٣٣/٥، والبغوي في الأنوار برقم ٣٧٢ .

به الأنصار الكرام رضوان الله عليهم بالغ الثناء من الله تعالى وذلك في قوله جل شأنه: ﴿ والذين تَبَوَّؤُا الدَّارَ والإيمانَ من قبلِهم يُحبُّون من هاجر إليهِم ولا يَجدونَ في صُدورِهم حاجةً مما أُوتوا ويُؤثرونَ على أنفُسِهم ولو كان بهم خصاصةٌ ومن يُوقَ شُحَّ نفسِه فأولئِك هم المُفلِحون ﴾[سورة الحشر:٩] .

٢ ـ وتدرك معنى ذلك الحديث أيضا من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي جاء فيه: أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يُعطيه فقال: "ما عندي ما أعطيك، ولكن ابتع عليَّ شيئًا(١)، فإذا جاءني شيء قضيتُه" فقال عمر: يارسول الله قد أعطيتَه(٢) فما كلَّفك الله ما لا تقدر عليه ؟ فكره النبي صلى الله عليه وسلم قول عمر فقال رجل من الأنصار: يارسول الله أنفِق ولا تخفْ من ذي العرش إقلالا، فتبسَّم رسول الله وعُرِف التبسم في وجهه لقول الأنصاري وقال: " بهذا أُمِرتُ"(٣) .

فانظر كيف سُرَّ بقول الأنصاري لما كان يوافق ما هو عليه من خُلُق الكرم البالغ، الذي حمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يشفق عليه منه، فما أجدره حينئذ بقول القائل :

---

(١) أي: اشتر شيئا دينا علي .

(٢) أي: فيما مضى له من مطالب، أو الميسور من القول الحسن، وهو اعتذارك له بعدم وجود شيء تعطيه .

(٣) أخرجه الترمذي في الشمائل برقم ٣٣٨، والبغوي في الأنوار برقم ٣٦٧، وعزاه الهيثمي في المجمع ١٠/٢٤٤ إلى البزار وقال: فيه إسحاق بن إبراهيم الحسيني، وقد ضعفَّه الجمهور، ووثقه ابن حبان وقال: يخطىء، وضعفه الألباني في مختصر الشمائل برقم ٣٠٥ قال: وسكت عليه ابن كثير، يعني: لأن ضعفه في هذا الباب ، إذ هو في السير التي يتجاوز فيها عن اشتراط الصحة، ويقبل فيها الصحيح وغيره مما لم يصل إلى مرتبة الضعف الشديد، ثم إن معناه صحيح يشهد له كرم النبي صلى الله عليه وسلم ووقائع أخرى من كرمه .

تعوَّد بسط الكفِّ حتى لو انَّه ... ثناها لقبضٍ لم تُجبه أنامله
تراه إذا ما جِئتَه متهلِّلاً ... كأنَّك تُعطيه الذي أنتَ نائِلُه
هو البحر من أيِّ النواحي أتيتَه ... فلُجَّتُه المعروفُ والجود ساحلُه
ولو لم يكن في كفِّه غيرُ روحه ... لجاد بها فليتَّق الله سائِلُه(١)

فإذا كان هذا هو عطاؤه صلى الله عليه وسلم في حال عسره فكيف يكون عطاؤه عند اليسار ؟! إن عطاءه عند ذلك سيكون بالغ السخاء، وبالغا في الكثرة حدا لا يضاهى .

صور من وقائع أحواله صلى الله عليه وسلم في الكرم عند اليسار:

وصور كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة لا يأتي عليها الحصر في مثل هذه العُجالة، فنذكر ما اشتهر منها،فمن ذلك :

١ ـ ما جاء عن الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ بن عَفراء(٢) رضي الله عنها قالت: أتيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقِنَاعٍ(٣) من رُطَب، وأَجرٍ من قثَّاء زُغبٍ(٤)، فأعطاني ملءَ كفِّه حُلياً أو قالت ذَهباً، وقال: "تحلَّي بهذا"(٥) .

وهذا يدل على مبلغ كرمه صلى الله عليه وسلم حيث يقبَل هذه الهدية المتواضعة، ويكافىءُ عليها تلك المكافأة العظيمة، وقد كان من هديه صلى الله عليه وسلم أنه: "كان

---

(١) عزاها ابن رجب في لطائف المعارف ص ١٩٥ لبعض الشعراء يمدح فيها بعض الأجواد، قال: وما تصلح إلا أن تكون للرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) الأنصارية النجارية، كانت من المبايعات بيعة الشجرة، وربما غزت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، انظر الإصابة ٤/٣٠٠ .

(٣) القناع: الطبق الذي يؤكل عليه .

(٤) الأجر جمع جرو الصغير من القثاء، والزغب جمع أزغب وهو صغار الريش أول ما يطلع، شبه به ما على القثاء من زغب، النهاية ٢/٣٠٤ .

(٥) أخرجه الترمذي في الشمائل برقم ١٩٣،١٩٤، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/١١٦ إلى الطبراني، وأحمد في المسند ٦/٣٥٩، وابن حجر في المطالب العالية ٤/٢٧، إلى أبي يعلى، وأخرجه البغوي في الأنوار برقم ٣٦٨، وقال الهيثمي: إسناده حسن .

يقبل الهدية ويُثيب عليها"(١) .

وكانت إثابته على هذا النحو من الكرم، إذ جعل مقابل الطَّبق من الرطب والقثاء ملء كفه حُلِيًا من أحجار كريمة أو ذهب، إن هذا لهو الكرم العظيم .

٢ - ومن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم لما جاءه مالُ البحرين وكان أكثر ما أُتي به رسول الله عليه وسلم فقال عليه الصلاة والسلام: "أنثُروه في المسجد، فجاء العباس رضي الله عنه فقال: يا رسول الله أعطِني إنِّي فاديت نفسي، وفاديتُ عقِيلا(٢)، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «خُذ» فحثا في ثوبه ثم ذهب يُقِلُّه فلم يَرفعه، فقال: أمر بعضَهم يرفعه إليَّ، قال: «لا» قال: فارفعه أنت علي، قال: «لا»(٣) فنثر، ثم احتمله على كاهله ثم انطلق، قال أنس: فما زال يُتبعه بَصرَه حتى خفي علينا عجبا من حرصه، قال: فما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثَمَّ منها درهم"(٤) .

وفي هذه القصة شاهدان عظيمان على مبلغ كرمه صلى الله عليه وسلم:

أولهما: حيث لم يَعترض على العباس رضي الله عنه مع بالغ نَهَمِه وحرصه، بل تركه يأخذ ما يقدر عليه، ولو قدر على أخذ المال كله لفعل، ولم يعترض عليه النبي صلى الله عليه وسلم بشيء، وذلك لكمال طِيب نفسه، وبالغ سماحته وجوده .

وثانيهما: أنه لم يَقم من مجلسه حتى أنفق ذلك المال العظيم الذي كان قدره سبعين

---

(١) أخرجه البخاري في الهبة، باب المكافأة على الهدية ٣/٢٠٦ من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) يعني: من الأسر الذي حصل لهما في غزوة بدر، وكان مجموع ما دفعه العباس عشرين ومائة أوقية من الذهب .

(٣) لم يُرد النبي صلى الله عليه وسلم أن يرفعه عليه؛ لأن العباس رضي الله عنه شره وطمع أكثر من اللازم، ولكمال كرم النبي صلى الله عليه وسلم لم يعترض عليه، وتركه يغترف ما شاء حتى عجز، ولم يمنعه من ذلك .

(٤) أخرجه البخاري في الجزية، باب ما أقطع النبي صلى الله عليه وسلم من البحرين ..، ٤/١٢٠، أخرجه تعليقا بصيغة الجزم من حديث أنس رضي الله عنه .

ألفا، و لم يدخر النبي صلى الله عليه وسلم لنفسه من ذلك المال شيئا مع احتياجه الشديد لشيء من ذلك وإن قل، وهذا هو الكرم البالغ والسخاء العظيم، الذي لم يكن مثله لجواد بمشهور من العامة أو الملوك .

وهذا الحديث يدل على حقيقة ما كان يقوله عليه الصلاة والسلام:

٣ - "ما يسُرني أنَّ عندي مثلَ أُحد ذهبا تمضي علي ثالِثةٌ،وعندي منه دينار إلا شيئًا أرصُده لِدين، إلا أن أقول به في عباد الله: هكذا،وهكذا،وهكذا، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ..." .

٤ - وفي رواية:« لو كان عندي مثلَ أُحد ذهبا لَسرَّني أن لا يمر علي ثلاثُ ليال وعندي منه شيءٌ إلا شيئًا أرصُدُه لدين"(١) .

والأدلة على الواقع العملي لما تدل عليه هذه الأحاديث، غير ما ذكر من قصة العباس رضي الله عنه كثيرة، ومن ذلك:

١- ما كان منه صلى الله عليه وسلم من العطاء والجود يومَ حُنين، حيث كان يُعطي عطاء من لا يخشى الفقر. فعن أنس رضي الله عنه قال: "ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام شيئا إلا أعطاه قال: فجاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين(٢)، فرجع إلى قومه فقال: ياقوم أسلِموا فإن محمدًا يُعطي عطاءً لا يخشى الفاقة"(٣) .

٢- وعن جُبَير بن مُطعم(٤) رضي الله عنه أنه بينا هو مع رسول الله صلى الله عليه

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ما أحب أن لي مثل أحد ذهبا ١١٧/٨، ومسلم في الزكاة، باب تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة برقم ٩٩١ من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

(٢) أي: بالغة في حد الكثرة بحيث لو كانت بين جبلين لملأته .

(٣) تقدم تخريجه قريبا من حديث مسلم ٦٣٦.

(٤) ابن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي، أسلم قبل عام خيبر، وقيل: أسلم يوم فتح مكة، وكان من علماء قريش وساداتهم، وتوفي سنة ٥٤ هـ، انظر تهذيب الأسماء ١٤٦/١، والإصابة ٢٢٥/١، والاستيعاب ٢٣٠/١ .

وسلم ومعه الناس مقبلا من حنين علَقت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الأعرابُ يسألونه حتى اضطروه إلى سَمُرة، فخطفت رداءه، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أعطوني ردائي فلو كان عدد هذه العِضَاه(١) نَعَماً لقسمته بينكم،ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذوبا ولا جَبَانا"(٢) .

٣ـ وقد كان يعطي مثل هذا العطاء الجزل، وهو يستشعر ما هو عليه من هذا الخلق العظيم خلق الكرم ، كمال قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسْمًا، فقلت: يارسول الله،لَغير هؤلاء كانوا أحقَّ بها منهم، قال: "إنهم خيَّروني أن يَسألوني بالفُحش أو يُبَخِّلوني ولَسْتُ بباخل"(٣) .

على أن كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن ينتظر حتى يأتي سائل فيسأله، بل كان يبتدىء بالنوال قبل السؤال،كلَّما وجد عنده المال،كما علمت من قصة مال البحرين وغيره .

٤ـ وكما يدل عليه حديث عائشة رضي الله عنها قالت: "أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتصدَّق بذهب كان عندي في مرضه، قالت: فأفاق فقال: ما فعلتِ؟ قالت: شغلني ما رأيتُ منك، قال: فهلُمَّ بها،قالت: فجئت بها إليه سبعة أو تسعة دنانير، فقال حين جئت بها: "ما ظنُّ محمد لو لَقي الله وهذه عنده"(٤) .

٥ـ وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: "دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سَاهم(٥) الوجه، قالت: فحسبت ذلك من الوجع، فقالت له: يارسول الله، مالك

---

(١) أي: شجر العضاه، وقد تقدم التعريف به .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم ١١٥/٤.

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة، باب إعطاء من سأل بفحش وغلظ برقم ١٠٥٦ .

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٨٦/٦، ورجاله ثقات، وصححه الألباني في الصحيحة برقم ١٠١٤ .

(٥) أي: متغير الوجه .

ساهم الوجه؟ فقال: من أجل الدَّنانير السَّبعة التي أُتينا بها أمسِ، أمسينا وهي في خَصم(١) الفراش" وفي رواية: "أتتنا ولم ننفقها"(٢) .

ومن هذا تعلم أن حرص النبي صلى الله عليه وسلم كان على الإنفاق والبذل،لا على الادخار والجمع،ولذلك كان يتضايق من بقاء المال عنده إذا لم يتهيأ له إنفاقه .

٦ـ وهذا يؤكد الحقيقة التي أخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه بقوله: ".. وإنما أنا قاسم والله يُعطي"(٣) .

٧ - وفي رواية: "إنما أنا خازِن فمن أُعطيتُه عن طيبِ نفس فيُبارك له فيه، ومن أُعطيتُه عن مسألة وشرَه كان كالَّذي يأكلُ ولا يَشبع"(٤) .

فكان صلى الله عليه وسلم ينزِّل نفسه من المال الذي يأتي إليه منزلة الأمين في القسمة أو الحفظ،ومنزلة الوالي من مال اليتيم،لا يدَّخر لنفسه منه شيئا،إنما هو أمانة بين يديه يتصرف فيه بموجبها كما يأمره الله تعالى،

وهذا من كمال زهده وكرمه وجوده وسخائه، حيث ينفق كل ما أَتى إليه ولا يخص نفسه بشيء حتى ما خصَّه الله تعالى به وهو الخُمُس،فإنه يَرُدُّه على المؤمنين كما قال عليه الصلاة والسلام :

٨ - "والذي نفسي بيده مالي ممَّا أفاءَ اللهُ عليكم ولا مثلَ هذهِ، إلا الخُمُس، والخُمُس مردودٌ عليكم"(٥) .

---

(١) خصم كل شيء: طرفه وجانبه، وجمعه: خصوم وأخصام. النهاية ٣٨/٢ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢٩٣/٦، ٣١٤، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٤١/١٠ أيضا إلى أبي يعلى قال: ورجالهما رجال الصحيح .

(٣) أخرجه البخاري في العلم، باب من يرد به الله خيرا يفقهه في الدين ٢٨/١،، ومسلم في الزكاة، باب النهي عن المسألة برقم ١٠٣٧ من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه .

(٤) هذه إحدى روايات مسلم للحديث السابق .

(٥) أخرجه مالك في الموطأ كتاب الجهاد،باب ما جاء في الغلول٣٠٤/١من حديث عمرو بن شعيب مرسلا =

فترى أن صلى الله عليه وسلم لم يكن يقتني حتى الخمس الذي أعطاه الله تعالى إياه بقوله سبحانه: ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ... ﴾[سورة الأنفال:٤١].

حيث كان يرده على المؤمنين فيعطي سائلهم ويقضي ديون موتاهم ويرفد بها وفودهم...

فأين هذا مما كان عليه رؤساء العرب وزعماؤها الذين كانوا يستأثرون في المغانم بجل الأموال ويمنعون سائرهم خيارها، ولا يعطونهم إلا النزر اليسير .

وكانوا يفتخرون بذلك حتى إنه يقول أحد شعرائهم في ذلك مخاطبا بعض أولئك الزعماء على سبيل المدح والثناء:

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول(١)

فأين هذا من قوله صلى الله عليه وسلم: "مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مرودد عليكم" .

إن هذا لهو الكرم البالغ الذي لم تعرف البشرية كرما مثله .

ولهذا يقول الماوردي رحمه الله في سياق مكارم أخلاقه الدالة على نبوته:

"الخصلة الثانية ما منح من السخاء والجود حتى جاد بكل موجود، وآثر بكل مطلوب ومحبوب، ومات ودرعه مرهونة عند يهودي على آصع من شعير لطعام أهله، وقد ملك

= ووصله النسائي في قسم الفيء من حديثه عن أبيه عن جده ١٣١/٧، وإسناده حسن كما بينه الألباني في الإرواء ٧٤/٥، وقد جاء عن جماعة من الصحابة، انظر المرجع السابق .

(١) البيت لعبد الله بن عنمة الضبي يخاطب فيها بسطام بن قيس كما في هامش تفسير القرطبي ١٣/٨ .

والمرباع: ربع الغنيمة، والصفايا: جمع صفية، وهي ما يختاره الرئيس لنفسه من الغنيمة مما يطيب له أخذه، والنشيطة: ما أصاب الرئيس قبل أن يصل إلى مجتمع الحي، والفضول: ما فضل من القسمة مما لا تصح القسمة على عدد الغزاة، وانظر لسان العرب لابن منظور ١٠١/٨ .

جزيرة العرب، وكان فيها ملوك وأقيال(١)، لهم خزائن وأموال يقتنونها ذُخرا، ويتباهون بها فخرا، ويستمتعون بها أشَرًا وبطرا، وقد حاز مُلك جميعهم، فما اقتنى دينارا ولا درهما، لا يأكل إلا الخشن، ولا يلبس إلاَّ الخشن، ويعطي الجزلَ الخطير، ويصل الجم الغفير، ويتجرع مرارة الإقلال، ويصبر على سغَب الاختلال، وقد حاز غنائم هوازن وهي من السبي ستة آلاف رأس، ومن الإبل أربعة وعشرون ألف بعير، ومن الغنم أربعون ألف شاة، ومن الفضة أربعة آلاف أوقِّية، فجاد بجميع حقه وعاد خِلّوًا، فهل لمثل هذا الكرم والجود كرما وجودا ؟ هيهات"(٢) .

فصلى الله وسلم عليه، ورزقنا التخلق بأخلاقه والتأسي به في أقواله وأفعاله، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

---

(١) جمع قيل، وهم ملوك اليمن دون الملك الأعظم، واحدهم قيل، يكون ملكا على قومه ومخلافه، اللسان ٥٧٦/١١ .

(٢) أعلام النبوة للماوردي ص ٣٠٢ .

البَابُ الرَّابع

الأخـــلاق الـقـرآنـيـة الاجـتـمـاعـيـة
والتطبيقات النبوية لها

وفيه ثلاثة فصول:

١ ـ في الأخلاق الاجتماعية الأُسَرية .

٢ ـ في الأخلاق الاجتماعية العامَّـــة .

٣ ـ في الأخلاق الاجتماعية المادِّيَّـــة .

الفصلُ الأوَّل

الأخـــلاق الاجـــتـــمـــاعيـــة الأُســـريـــة

وفيه تمهيد وسبعة مباحث:

١ ـ تحري ذات الدين .

٢ ـ الخِطبة .

٣ ـ النكاح .

٤ ـ الصداق .

٥ ـ العشرة بالمعروف .

٦ ـ الإنصاف والإحسان عند الاختلاف .

٧ ـ معاملة ذوي القربى والأرحام .

تمهيـــــد :

لقد كانت عناية القرآن الكريم بإصلاح المجتمع مضاهيةً لعنايته بإصلاح الفرد، دل على ذلك عنايته الكبرى بالأخلاق الاجتماعية: تشريعا وحثا وترغيبا وترهيبا وعظة وتمثيلا ... ابتداء من بداية تكوين الأسرة إلى نهاية الحياة .

وذلك لأنه بصلاح المجتمع يتم للأمة الاستقامة على دينها، والتقيد بشرع الله الذي ارتضاه لعباده، ولذلك كانت التشريعات القرآنية عامة إلا ما خص منها وهو القليل النادر، وامتنان الله على عباده بهذا الدين عام كذلك، فإنا نسمع كلام الله عز وجل يقول: ﴿ شرعَ لكم من الدِّين ما وصَّى به نُوحا والَّذي أوحينا إليكَ وما وَصَّينا به إبراهيمَ وموسى وعيسى أَن أقيموا الدِّينَ ولا تَتفرَّقوا فيه ... ﴾[سورة الشورى:١٣] .

ويقول: ﴿ اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نِعمتي ورضِيتُ لكم الأسلامَ دِينا... ﴾[سورة المائدة:٣] .

فنجد أن الله تعالى إنما يخاطب المجتمعات الإيمانية لأن معالم دينه وإقامة شريعته لا تظهر على وجهها الصحيح إلا فيهما .

كما أن وسطِيَّة هذه الأمة تكمن في قيام مجتمعات صالحة تأمر بالخير وتحث عليه، وتنهى عن الشر وتحذر منه، كما قال الله تعالى: ﴿ وكذلكَ جَعلناكم أُمَّةً وَسَطًا لتكونوا شهداءَ على النَّاس ويكونَ الرَّسولُ عليكم شهيدا ﴾[سورة البقرة:١٤٣] .

ومعنى كونها أمة وسطا: أي خيارا عدولا مزكين بالعلم والعمل(١) .

وكما قال جل شأنه: ﴿ ولتكن منكم أُمَّةٌ يَدعون إلى الخيرِ ويأمرونَ بالمعروفِ وينَهون عن المُنكر وأولئِك همُ المفلحون ﴾[سورة آل عمران:١٠٤] .

وكما قال سبحانه: ﴿ كنتُم خيرَ أُمَّةٍ أُخرِجت للنَّاس تأمُرونَ بالمعروفِ وتَنهونَ عن المنكَر وتُؤمنونَ بالله ﴾[سورة آل عمران:١١٠] .

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ص ٢٩ .

فترى خصائص خيرِّية هذه الأمة محددة بالإيمان با لله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك لأجل قيام مجتمعات صالحة تقيم شعائر ا لله ومعالم دينه وتوطِّد الهداية والسعادة الدينية والدنيوية للأمة الواسعة التي بعث لها رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم .

وإنَّ بدء صلاح المجتمعات وتهذيب قِيمها تكمُن في بناء أسرة صالحة مهذَّبة متخلِّيةٍ عن الرذائل، متحلِّية بالفضائل، لأن الأسرة هي نواة المجتمع الكبير،

ولذلك كانت عناية القرآن الكريم بالأخلاق الأسرية كبيرة متعددة الأنحاء سنأتي على أهمها في المباحثه الآتية :

المبحث الأول

(تحـــري ذات الـــديـــن)

لما كان الهدف الأسمى من الزواج في نظر الإسلام هو أن يكوِّن المرء منه أسرة راقيـة في صلاحها وأخلاقها، لكي تكون جزءا فعَّالا في مجتمع صالح كريم الأخلاق والعادات،

كان لا بد أن يُرشد باني هذه الأسـرة وهـو الـزوج إلى كيفيَّـة بنـاء هـذه الأسـرة مـن الأساس، وذلك بأن يُحسن اختيار حجر الزاوية وهو المرأة، بناء على مواصفات عالية وهو الدين والخلق؛ لأن البناء لا يطلع صحيحا قويما مؤدِّيا واجبه لخالقـه ومجتمعـه إلا إذا كـان كذلك، وإلا كان بناء الأسرة على شفا جُرف هارٍ يوشك أن يتداعى، وتبقى أثاره سلبية في المجتمع من نسل فاسد وأخلاق سافلة في الذات والمجتمع .

لذلك، كان إرشادُ الله تعالى عباده إلى ما ينبغي لهم فعله من حسن الاختيار، القائم على أساس متين وهو الدين والأخلاق،

فقد قال الله جل ذكره: ﴿ ولا تَنكحوا المشركاتِ حتَّى يُؤمِنَّ ولأمةٌ مُؤمِنـةٌ خـيرٌ مـن مشرِكةٍ ولو أَعجبتكم، ولا تُنكِحوا المشركينَ حتَّى يُؤمنوا ولَعبدٌ مُؤمن خيرٌ من مشرك ولو أَعجبَكم أُولئِك يَدعون إلى النَّار والله يدعوا إلى الجنَّة والمغفـرة بإذنِـه ويُبـيِّن آياتِـه للنَّـاس لعلَّهم يتذكرون ﴾[سورة البقرة:٢٢١] .

فنهى الله عن تزوج المشركات، كما نهى عن تزويج المشـركين بنسـاء المسـلمات للعلَّـة التي ذكرها وهي قوله: ﴿ أولئِك يَدعون إلى النـار ﴾ ومعنـى كونهـم يدعـون إلى النـار، أنهم يدعون إلى الإشراك بـالله تعـالى والكفـر بـه، ويؤثِّـرون بدعوتهـم تلـك علـى وجـه الخصوص على المسلم أو المسلمة، وعلى الأطفال الذيـن يولـدون علـى الفطـرة فيجعلهـم أولئك المشركون مثلَهم، حيث ينشِّئونهم على الإشـراك بـالله تعـالى، فيكـون كـل ذلـك موجِبا لعذاب النار بينما الله عز وجل يدعو عباده إلى أن يدخلوا الجنة وذلك بأن يجتنبـوا الإشراك به، ويقوموا بواجب العبادة(١)، ولما كان الإيمان به سـبحانه سـببا لذلـك، جعلـه

---

(١) ذكر الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى في تفسيره التحرير٢/٣٦٣ علة عدم جواز تزويج المسلمة يهوديا =

معيار الخيرية في الأزواج والـزوجات حيث قال: ﴿ وَلأمةٌ مؤمنة خـيرٌ مـن مشـرِكة ولـو أعجبتكم ﴾ ... ﴿ ولَعبدٌ مؤمنٌ خير من مشرِك ولو أَعجبَكم ﴾ .

والمعنى: "أن الأمة المؤمنة مع مابها من خساسة الرق وقلة الخطر، خير من مشركة مـع ما لها من شرف الحرِّية ورفعة الشأن، فإن نقصان الرِّقيَّة فيها مجبور بالإيمان الذي هو أجل كمالات الإنسان.

وكذلك العبد المؤمن مع ما به من ذُلّ الرقية،هو خير من مشرك ولـو أعجبكـم بداعـي الرغبة فيه الدنيوية، فإن ذهاب الكفاءة بالكفر غير مجبور بشيء منها"(١) .

وهذا إغراء منه سبحانه وتعالى لعباده في جعل الإيمان معيار الاختيار في التزاوج المراد، وذلك بعد النهي الصريح عـن تزويـج المشـركات أوتزويـج المشـركين لمـا ذكـر مـن عِلّـة الدعوة إلى النار .

ونحو هذه الآية قول الحق تبارك وتعـالى: ﴿ وأَنكِحـوا الأيـامَى منكـم والصَّـالحين مـن عبادِكم وإمائِكم إن يكونُوا فقراءَ يُغنِهم الله مِن فضله والله واسعٌ عليم ﴾[سورة النور:٣٢]. حيث أرشد الله تعالى عباده إلى أن يكون صلاح الدين وتقوى الله تعالى حاملا لهم علـى تزويج عبيدهم وإمائهم، وأنفسهم من باب أولى، من غير نظر إلى مراعاة الأحـوال الماديـة ونحوها لأن المال غاد ورائح، ولا عبرة له بقيمة المرء عند الله تعالى، إنمـا القيمـة عنـد الله هي التقوى والصَّلاح، ووعدهم أنهم إذا ما راعوا في تزاوجهـم جـانبَ الديـن والصـلاح والتقـوى فـإن الله تعـالى سيُغنيهم مـن فضلـه، ولم يقيـد ذلـك بمشيئته للإشـارة إلى

= أو نصرانيا مع تجويزه العكس فقال: "أباح الله تعالى للمسلم أن يتزوج الكتابية، ولم يبح تزويج المسلمة من الكتابي لاعتداده بقوة تأثير الرجل على امرأته، فالمسلم يؤمن بأنبياء الكتابيـة وبصحـة دينهـا قبـل النسـخ، فيوشك أن يكون ذلك جالبا إيَّاها إلى الإسلام؛ لأنها أضعف منه جانبا، أما الكـافر فهـو لا يؤمـن بديـن المسلمة ولا برسولها، فيوشك أن يجرها إلى دينه" .

(١) محاسن التأويل للقاسمي ٢١٨/٣ .

أن هذا الوعد ينجز لهم لا محالة، وذلك ليقطعوا عن أنفسهم النَّظر السَّطحي إلى المادة ومتاع الدنيا، ليراعوا الذي هو خير من الصلاح والتقوى، وهكذا يرغِّبُ الله عباده ويحثهم على تحري الدين في بناء الأسر لتتكوَّن من ذلك أجيالٌ تعرف الله تعالى وتعبده، وتكون مستقيمة على شرعه الحنيف القائم على كمال السلوك الأخلاقي الفردي والاجتماعي، لأن الدين هو جماع مكارم الأخلاق، فطالما كان المرء ديِّنا، تحلَّى في نفسه وحلَّى أسرته بما ندب إليه دينه الاسلامي من أخلاق فاضلة وعادات جميلة، بكل سهولة وأريحية؛ لأنه يفعل ذلك تديُّنا فيرجو ثوابه عند الله ويدخِّره لنفسه إلى يوم يلقاه، ونعم الذخر للمؤمن يوم القيامة هو الخلق الحسن؛ لأنه يكون أثقل موازين أعماله كما علمت من قبل .

تـطـبـيـق الـنـبيِّ
صلى الله عليه وسلم لتحري الدِّين في تزوُّجه وتَزويجه

ذلك هو هدي القرآن الكريم للمؤمنين،وندبه لهم ما ينبغي لهم مراعاته عند إرادة الزواج أو التزويج، وهو هدي واضح الدلالة، ومفهوم المراد .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق امتثالا له، كيف لا وهو المبين عن الله مراده من عباده، فبيَّن ذلك بفعله وقوله في أحوال وأقوال كثيرة .

بيانه صلى الله عليه وسلم لذلك بفعله :

أما فعله صلى الله عليه وسلم، فقد كان زواجه لأمهات المؤمنين، وتزويجه بناته قائما على أساس الدين،

١ ـ فقد تزوج عددا من أمهات المؤمنين لا لغرض، إلا غرض مراعاة ديانتهن وسبقهن للإسلام،وفقدهن من كان يعولُهن من أزواج، فحفظ لهن مكانتهن ورحم ضعفَهُنَّ واحتياجهن إلى من يعولهن، وأحب أن يجبرَ كسرهن بفقدهن أزواجهن فتزوَّجهن، وذلك كأم سلمة وأم حبيبة وحفصة بنت عمر رضي الله عنهن .

٢ ـ وقد تزوج أيضا غيرهن لأغراض نبيلة كما سيأتي بيانه في مقاصد نكاحه صلى الله عليه وسلم، ولكن ما يلبثن أن يقتبسن من نور النبوة ما يتمكن به الإيمان حتى يصبحن من أكمل النساء إيمانا وتقوى، وذلك كما كان من تزوجه جُويرِيةِ ، وصفيَّة رضي الله عنهما .

أما تزويجه صلى الله عليه وسلم بناته على ذلك الأساس من الديانة والإيمان والتُقى، فقد كان على ذلك الوصف بكماله،حيث زوَّج بناته فاطمة وأم كلثوم ورقية رضي الله عنهن من أفاضل الصحابة وأكملهم دينا وتقى وأخلاقا .

١ـ ففاطمة رضي الله عنها زوجها ممن رَّباه في حِجره، وأدَّبه وأحسن تأديبه،ونشأ على الإيمان والإسلام بحيث لم يسجد لصنم قط، ولا عرف غير الله ربا منذ نعومة أظفاره، إنه ابن عمها عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وزوَّجها عليه لا لابتغاء مال ولا غيره،غير

الدين والخُلُق، فقد زوجه عليها وهو لايملك غير درعه الحِطْمِيَّة(١) فقدَّمها صداقا لها، ثم بقي لا يجد ما يقوم بأعباء الوليمة حتى كانت وقعة بدر فنال من المَغنم شارِفا(٢) وشارفا آخر من الخمس، فأراد أن يحمل عليها إذخِرًا ليبيعه من الصَّوَّاغين فيستعين به على وليمة العرس، غير أنه لم يتهيأ له ذلك، لما فعله حمزة بالشارفين من العقر بسبب نشوته من الخمر قبل أن تحرم،كما هو مبين في الصحيحين(٣) .

٢- وزوج رُقَيَّة رضي الله عنها من عثمان بن عفان رضي الله عنه وذلك قبل البعثة، وقد كان عثمان رضي الله عنه من أكمل الرجال أخلاقا وعقلا، كما يدل عليه أسبقيَّتُه إلى الإسلام وصلابته في دينه حيث لم يقدِر عمُّه الحكم بن العاص أن يثنيه عن الإسلام مع شدة غلظته عليه وقوَّة وَثاقه له، وقال له: ترغب عن ملة أبائك إلى دين محدَث؟ والله لا أدعك أبدا حتى تدع ما أنت عليه، فقال له عثمان رضي الله عنه: "والله لا أدَعُه أبدا ولا أفارقه" فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه(٤) .

ثم كانت له اليد الطُّولى في نصرة الإسلام والمسلمين بنفسه وماله حتى أنه جهَّز جيش العسرة، وهي غزوة تبوك وضمن له النبي صلى الله عليه وسلم بذلك الجنة حيث قال: "من جهَّز جيش العسرة فله الجنَّة"(٥) فجهزه عثمان رضي الله عنه .

ولقد كان من كمال محبَّةِ النبي صلى الله عليه وسلم له أن زوجه ابنتَه الأخرى هي أم كلثوم،وذلك بعد وفاة رقية رضي الله عنهما، ولم يجمع أحد ابنتي نبي غيره، فلذلك

---

(١) منسوبة إلى بطن من عبد القيس يقال لهم: حطمة بن محارب، كانوا يعملون الدروع، وقيل غير ذلك. انظر النهاية ١/٤٠٣ .

(٢) أي: ناقة مسنة .

(٣) انظر البخاري كتاب المغازي، باب رقم ١٢، ٥/١٠٥، ومسلم في الأشربة، باب تحريم الخمر برقم ١٩٧٩ من حديث الحسين بن علي رضي الله عنه عن أبيه .

(٤) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٨٨، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٥٠ .

(٥) أخرجه البخاري في المناقب، باب مناقب عثمان رضي الله عنه ٥/١٧ من حديثه تعليقا بصيغة الجزم .

لقب بذي النورين، وما ذلك إلا لكمال دينه وخُلقه، وقد كان صلى الله عليه وسلم يخبر عن فضله وكريم خلقه فيقول: "ألا أستحي من رجل تَستحي منه الملائكة"(١) . والحياء من أعظم شعب الإيمان ودليل كماله كما علمته في مبحثه"(٢) .

٣- وأما زينب رضي الله عنها فقد زوَّجها من أبي العاص بن الرَّبيع قبل البعثة، وقد كان من رجال مكة المعدودين مالا وتجارة وأمانة، حتى كان يقال له: الأمين، وكان مواخِيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومصافيا، وكان ابن خالة زينب، وضغط عليه كفار قريش أن يطلقها بعد دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إياهم إلى الإسلام فأبى، لنبل أخلاقه ووفائه مع شركه(٣).

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يثني عليه بعد البعثة لوفائه وأخلاقه فكان يقول: "حدَّثني فصدقني، ووعدني فوفَى لي"(٤) يشير بذلك إلى ما وعده به بعد أن أُسر في بدر أن يرسل له بزينب فوفى له بذلك .

هكذا كان عليه الصلاة والسلام يتزوج ويزوج قبل البعثة وبعدها .

فكان قبل البعثة يعتبر الأخلاق والأصالة، وبعد البعثة يعتبر الديانة، وظهر لك من اعتباره صلى الله عليه وسلم للأخلاق قبل البعثة ما دل على أن الأخلاق الكريمة تهدي صاحبها إلى الدين الحق، واتباع الشرع القويم .

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل عثمان برقم ٢٤٠١ .

(٢) انظر ص ٤٧٩

(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٧-٥٩، والاستيعاب ٤/١٢٥، والإصابة ٤/١٢١ .

(٤) أخرجه البخاري في الشروط، باب الشروط في المهر عند عقدة النكاح ٣/٢٤٩، وفي مناقب الصحابة، باب ذكر أصهار النبي صلى الله عليه وسلم منهم أبو العاص بن الربيع ٥/٢٨ من حديث المسور بن مخرمة .

وهذا النهج هو الذي كان يحث أمته عليه بأقواله كما حثهم على التأسي به في أفعاله، وأقواله في ذلك كثيرة نأتي منها بطائفة صالحة إن شاء الله تعالى .

أقواله صلى الله عليه وسلم في الحث على تحري الدين في التزوج :

أما أقواله صلى الله عليه وسلم في الحث على تحري الدين دون غيره، فمنها ما هو حث لمريدي الزواج من الرجال،ومنها ما هو حث لأولياء أمور النساء، فقد كان عليه الصلاة والسلام يحث الفريقين على اعتبار الدين والخلق معيارا أساسيا في اختيار الزوجات أو الأزواج،لما لاعتبار ذلك من مصالح تعود على بناء الأسرة المسلمة بالخير والصلاح .

ومن أقواله صلى الله عليه وسلم في حث مريدي النكاح من الرجال على اعتبار الدين أساسا لاختيار الزوجات :

١- ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "تُنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها(١) وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك"(٢) .

٢- وفي رواية: "تُنكح المرأة على مالها، وتُنكح المرأة على جمالها، وتنكح المرأة على دينها، خذ ذات الدِّين والخُلق تربت يمينك"(٣) .

فبين عليه الصلاة والسلام رغبات الناس ومطامحهم في النكاح بأنها لا تعدو هذه الخصال الأربع.

ثم أرشد الراغب في النكاح إلى ما ينبغي أن يقع عليه اختيار المرأة وهو الدين، لما للدين من صلاح الحال والمآل، وبناء الأسرة على مايرضي الملك المتعال،من مكارم الأخلاق وجميل الفعال.

---

(١) حسب الإنسان: ما يعده من مفاخر آبائه، وقيل: هو شرف النفس وفضلها. النهاية ٣٨/١ .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب الأكفاء في الدين ٩/٧، ومسلم في الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين برقم ١٤٦٦ .

(٣) أخرجه ابن حبان ١٣٧/٦ الإحسان، والحاكم في المستدرك ٦١/٢، من حديث أبي سعيد الخدري، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي .

ولقد كان من كمال تحريضه عليه الصلاة والسلام على تحري الدين أن: قال:" تربت يداك» لأن هذه الكلمة تقال للمبالغة في التحريض على الشيء والتعجب منه، من غير نظر إلى معناه الأصلي،وهو الدعاء بالتصاق اليدين بالتراب (١) .

وكما وجه النبي صلى الله عليه وسلم الخُطَّاب إلى مراعاة الدين والخُلُق فيمن يرغب في النكاح من الرجال، فإنه قد وجَّه كذلك أولياء المخطوبات إلى أن يتحرَّوا ذوي الأخلاق والدين فيمن يرغب نكاح مولِّياتهن،من بنات وأخوات ونحوهن، لما في أهل الدين والأخلاق من إكرام لهن ومحافظة على دينهن ودنياهن، ناهيك عما يحرصون عليه من تربية الأولاد تربية دينية صالحة قائمة على صحة الإيمان ومكارم الأخلاق،وذلك لاستشعارهم المسئولية الملقاة على أعتاقهم نحو أسرهم وأبنائهم ومجتمعاتهم، وكان مما قاله صلى الله عليه وسلم في ذلك :

١ـ مارواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا خطب إليكم من تَرضون دينه وخُلقه فزوِّجوه إلا تفعلوه تكنْ فتنةٌ في الأرض وفساد عريض"(٢) .

٢ـ وفي حديث آخر يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا جاءكم من تَرضون دينه وخلقه فأنكِحوه، إلاَّ تفعلوا تكنْ فتنة في الأرض وفساد" .

قالوا يارسول الله وإن كان فيه(٣) ؟

قال: "إذا جاءكم من تَرضون دينه وخُلُقه فأنكِحوه، ثلاث مرات"(٤) .

---

(١) انظر النهاية ١/١٨٤ .

(٢) أخرجه الترمذي في النكاح، باب ما جاء "إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه برقم ١٠٨٤، وابن ماجه برقم ١٩٦٧، وهو حديث حسن بشاهده الآتي كما في إرواء الغليل ٦/٢٦٦.

(٣) يعني: قلة في المال، أو عدم الكفاءة في الحسب ونحوه .

(٤) أخرجه الترمذي أيضا في الباب السابق برقم ١٠٨٥، وقال عنه: حسن غريب، وهو شاهد للذي قبله فيقوي بعضهما بعضا، وهو من حديث ابي حاتم المزني رضي الله عنه .

فترى أنه صلى الله عليه وسلم لم يجعل معيار الاختيار إلّا الدين والخلق، وأغفل كل معيار ماديٍّ آخر، مع تكرر تنبيه المخاطبين إليه، وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يحرص كلَّ الحرص على مراعاة الدين والخلق عند التزويج أو التزوج في نفسه، ويحث أمته عليه، وذلك لبالغ أهمية الدين والخلق في تكوين الأسر .

المبحث الثاني

(الخِطبة وما يلحق بها)

تعريف الخطبة :

الخِطبة بكسر الخاء: فعل الخاطب من كلام وقصد واستلطاف بفعل أوقول، يقال: خطبها يخْطُبها خطْبا وخِطبة، ورجل خطّاب: كثير التَّصرف في الخِطبة، ومنه قول الشاعر :

برح بالعينين خطّاب الكثب يقول إني خاطب وقد كذب

وإنما يخطب عُسًّا مِن حلب(١)

والخطيب: الخاطب .

والخِطب: الرجل الذي يخطب المرأة، ويقال أيضا: هي خِطبه وخِطْبته التي يخْطُبها"(٢).

وهي مأخوذة من الخَطب أو المخاطبة أو التخاطب التي تعني المراجعة في الكلام، وأصلها الحالة التي يكون عليها الإنسان إذا خطب، نحو الجِلسة والقِعدة، فهي مصدر يدل على الهيئة .

وفي الاصطلاح : هي طلب نكاح المرأة(٣)، ويقال: التماس النكاح ممن يعتبر منه(٤).

العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي :

وسُمِّي ذلك الطلب بالخطبة، لما يتم فيه من المراجعة في الكلام عند التَّخاطب .

والخِطبة هي طريق الوصول إلى بناء الأُسرة، أو هي الخطوة الأولى لبناء مجتمع صغير يكون نواةً لبناء مجتمع كبير .

---

(١) الكثب: جمع كثيبة، وهي: كل قليل جمعته من طعام أو لبن أو غير ذلك، والعس: بضم العين: القدح الضخم، يريد: أن الرجل يجيء بعلة الخطبة وهو يريد القِرى .

(٢) جامع أحكام القرآن للقرطبي ١٨٩/٢، ولسان العرب لابن منظور مادة (خطب) ٦٣٠/١ .

(٣) المفردات للراغب ص ١٥٠، وتهذيب الأسماء واللغات للنووي ٩٣/٣ .

(٤) حاشية القليوبي على المحلى شرح المنهاج ٢١٣/٣ .

فيجب إذاً أن تبدأ هذه الخطوة بما يرجى أن تكون عليه الأسرة من الفضل والكمال الأخلاقي وذلك بمراعاة أخلاق الإسلام فيها التي تهدف إلى ذلك الزكاء الأخلاقي والصفاء الزوحي للمجتمع الإسلامي .

وقد بين القرآن الكريم بعض هذه الآداب والأخلاق، وتولّت السنة بيان البعض الآخر؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أوتي القرآن ومثله معه .

بيان القرآن الكريم لبعض أخلاق الخِطبة وآدابها :

أما ما بينه القرآن الكريم من أمر الخِطبة فهي مسألة خِطبة المعتدَّة، حيث أرشد من يرغب في خطبة المعتدة ويخشى أن يسبقه غيره في الخِطبة، أرشده إلى الكيفية التي ينبغي له أن يسلكها، الجامعة له بين تحقيق مأربه والوقوف عند حدود الله، حيث حظر عليه الخِطبة في حال العِدَّة لما يترتب على ذلك من مفاسد، وذلك بقوله تعالى: ﴿ ولا جناحَ عليكم فيما عرَّضتم به من خِطبةِ النّساء أو أكننْتُم في أنفُسِكم علِم الله أنَّكم سَتَذكرونَهنَّ ولكن لا تُواعِدوهُنَّ سِرًا إلا أن تقولوا قولًا معروفا ولا تَعزِموا عُقدةَ النِّكاحِ حتى يَبلغَ الكتابُ أجلَه واعلموا أنَّ الله يعلمُ ما في أنفسِكم فاحذرُوه واعْلموا أنَّ الله غفورٌ حليم ﴾[سورة البقرة: ٢٣٥] .

فإن هذه الآية الكريمة تدل على ثلاث مسائل في مجال خطبة ذوات العدة من النساء :

إحداها: تشريع أصل الخطبة .

وثانيها: الإرشاد إلى كيفيتها .

وثالثها: تحريم التصريح بها لمن لم تنته عدتها بعد .

أما تشريعها: فهو مفهوم من رفع الجناح عنها عند عدم المانع المذكور في الآية وهو أن لا تكون المخطوبة في أثناء العدة، وذلك دليل على مشروعيتها .

وأما الإرشاد إلى كيفيتها، فقد كان بالنسبة لمن هي معتدة، حيث بينت الآية ما يمكن للمرء أن يحجز به المرأة لتكون زوجا له قبل أن يُسبَق إليها، وذلك بالتعريض(١) في

---

(١) وهو القول المفهم لمقصود الشيء، وليس بنص فيه، مأخوذ من عرض الشيء وهو ناحيته، كأنه يحوم على النكاح ولا يصرح. أحكام القرآن لابن العربي ٢١٢/١ .

رغبته فيها إذا ما انتهت عدتها كأن يقول: إنك لَصالحة، أو إن الله لسائق إليك الخير إن شاء الله، أو من يرغب عنك ؟ أوإن حاجتي في النساء، أو نحو ذلك، مما لا يجعلها تستيقن مزاده من ذلك حتى لا تستعجل أمرها وتدعي انقضاء العدة قبل انقضائها بالفعل(١) .

وأما تحريم التصريح بخطبة المعتدة فقد بينته الآية بنهيين جازمين وهما قوله تعالى: ﴿ ولكن لا تُواعدوهنَّ سِرًّا ﴾ وقوله: ﴿ ولا تَعزموا عُقدةَ النكاح حتى يبلغَ الكتابُ أجلَه ﴾، ومطلق النهي يقتضي التحريم، ولذلك "أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو نص في تزويجها وتنبيه لا يجوز، وكذلك أجمعت الأمة على أن الكلام معها بما هو رَفث وذكر جماع أو تحريض عليه لا يجوز، وكذلك ما أشبهه، وجُوِّز ما عدا ذلك"(٢) .

ثم لم تكتف الآية بذينك النهيين حتى حذرت منه أبلغ تحذير، حيث قال الله تعالى: ﴿ واعلموا أنَّ الله يعلمُ ما في أنفسِكم فاحذرُوه ﴾ وهذا نهاية التحذير من الوقوع فيما نهى عنه سبحانه .

وفي الآية دليل على أن المنهي عنه جِدُّ خطير، وحري به ذلك،فإن الأمر يتعلق بحفظ الأنساب، وصيانة النسل من الاختلاط ولا يتم ذلك إلا بالحَيْطة الكبرى له، وذلك بالعدَّة التي فرضها الله تعالى لبيان استبراء الرحم من الزوج الأول .

ولهذا تعاقب نهيان على ذلك، الأول: النهي عن المواعدة الصريحة بالسر للتأكيد على ما أباحه من التعريض في الخِطبة، فأفاد عباده بأنهم لا يتجاوزون الرخصة بالتعريض التي كانت رأفة بهم لما يعلمه تعالى من عدم مقدرتهم على كتمان ما يختلج في صدورهم من الرغبة في نكاحهن، إلى الوعد الجازم عن طريق السر بالنكاح أو الجماع، ثم عاد فأكد ذلك بقوله سبحانه: ﴿ إلا أن تَقولُوا قولًا معروفا ﴾ والقول المعروف هو: ما أبيح من التعريض السابق بيانه .

---

(١) انظر المجموع : شرح المهذب ١٧/٢٥٨-٢٥٩، وأحكام القرآن لابن العربي ١/٣١٢-٣١٣ .

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي ٢/٣٠٤، وانظر الجامع أحكام القرآن للقرطبي ٣/١٨٨ .

والنهي الثاني: عن العزم بعقدة النكاح، أي: عقده، فقال تعالى: ﴿ ولا تعزِموا عُقدةَ النكاح حتى يبلغَ الكتابُ أجلَه ﴾ وذكر العزم مبالغة في النهي عن العقد، أي: ولا تعزموا عَقدُ عُقدة النكاح ﴿ حتى يبلغَ الكتابُ أجلَه ﴾ وذلك هو انتهاء العِدَّة بالأشهر إن كانت من ذوات الأشهر، أو الأقراء إن كانت من ذوات الأقراء(١)، أو وضع الحمل إن كانت حاملا، كما هو مبين في مواضعه من كتاب العِدد في الكتب الفقهية المختلفة .

الجوانب الأخلاقية في الآية الكريمة :

وفي هذه الآية الكريمة جوانب أخلاقية عظيمة أرشدت المؤمنين إليها، وهي تدل بمجموعها على بالغ نظر الإسلام إلى الأخلاق حيث يصبغ تشريعاته بها، ويوليها عنايته، وهذه الجوانب هي :

١ ـ مراعاة الجانب النفسي والإنساني عند الخطبة، فالمعتدة بالوفاة أو بالطلاق تكون غالبا في ظروف نفسِيَّة صعبة، فهي بحاجة في هذا المجال إلى الملاطفة في القول وعدم تهييج نفسها إلى الحزن السابق، وذلك يكون بالتعريض النزيه، والعبارة الجميلة .

وفي ذلك أيضا مراعاة لأهل الزوج الأول إذا كان متوفًّى، حيث لا يجرح شعورهم ولا يجدد الأسى في نفوسهم، والمؤمنون متراحمون فيما بينهم، فهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

٢ ـ في الآية إشارة إلى ضبط النفس وعدم إطلاق العنان لها فتسرح فيما تهوى، وهذا معنى أخلاقي عميق يستفاد من قوله تعالى: ﴿ واعلَموا أنَّ الله يعلمُ ما في أنفسِكم فاحذرُوه ﴾ .

٣ ـ الحث على الالتزام بالأدب الأخلاقي في الحديث، فلا ينحدر المسلم إلى مواعدة المرأة بالجماع ونحوه، بل ينبغي أن يختار قول المعروف المصبوغ بالأدب والحشمة والعفَّة، فيكسو ألفاظه أجملها .

---

(١) أي: المعتدة بالأطهار، أو الحيض .

٤ ـ في الآية إشارة إلى أن على المؤمن أن لا يسبق الأحداث، والأشياء قبل أوقاتها، بل عليه أن يضبط نفسه، فلا يطلب الأشياء إلا في أوقاتها ومواعيدها المعتبرة، ويرشد إلى ذلك قول الله جل في علاه: ﴿ ولا تَعزِموا عُقدةَ النكاح حتى يبلغَ الكتابُ أجلَه ﴾ .

إلى غير ذلك من أسرار الكتاب العزيز الذي لا تفنى عجائبه، ولا تُدرك فرائده، ولا تنتهي أسراره ولطائفه، وفقنا الله لتدبره وفهمه، وتلاوته على النحو الذي يرضيه سبحانه .

تمثل آداب الخِطبة وأخلاقها
في النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم

لقد كانَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين القرآن لأمته بأقواله وأفعاله وسلوكه، فيوضح أحكامه، ويبين تشريعاته في الأحكام والآداب بما يناسب طبيعة الحال من قول أو فعل أو هما معا .

وفي هذا المقام بين النبي صلى الله عليه وسلم ما شرعه الله تعالى لأمته من أمر الخِطبة، وفصَّل لهم أحكامها وآدابها في تلك الأحوال ، وزاد على ذلك ما أوكل الله تعالى إليه بيانه وتفصيله مما لم يأت به كتابه الكريم .

وكان من بيانه صلى الله عليه وسلم لأحكام الخِطبة وآدابها التي تضمَّنتها الآية السابقة المتضمِّنة لإباحة التعريض بالخِطبة لذوات العدة الوقائعُ التالية :

١ ـ عندما أراد عليه الصلاة والسلام أن يزوِّج أسامةَ بن زيد رضي الله عنهما من فاطمةَ بنت قيس(١) رضي الله عنها، وذلك حينما تأيَّمت من زوجها الذي بتَّ طلاقها وهو أبو عمر بن حفص، فإنها جاءت تستفتيه في أمر نفقتها في العِدَّة فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس لكِ عليه نفقة"(٢) .

وأمرها أن تعتدَّ في بيت ابنِ أمِّ مكتوم(٣) رضي الله عنه، وقال لها: "فإذا حللتِ

---

(١) الفهرية القرشية، كانت ذات جمال وعقل وكمال، وكانت من المهاجرات الأول، وفي بيتها اجتمع أصحاب الشورى عند مقتل عمر رضي الله عنه، انظر الاستيعاب ٣٨٣/٤، والإصابة ٣٩٤/٤، وتهذيب الأسماء ٣٥٣/٢ .

(٢) لأنها مطلقة طلاقا بائنا كما جاء في بعض الروايات أنه طلقها البتة، الطلاق كله، وهو الثلاث التطليقات، وانظر شرح مسلم للإمام النووي ٩٥/١٠ .

(٣) هو عمرو بن قيس بن زائدة العامري القرشي، مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، استخلفه النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة ثلاث عشرة مرة، وأنزل الله تعالى فيه صدر سورة (عبس) ، ومناقبه شهيرة، وتوفي شهيدا في القادسية حيث كان يحمل اللواء، وقيل عاد إلى المدينة وتوفي بها. انظر تهذيب الأسماء =

فآذِنيني" وفي رواية أرسل إليها يقول: "لا تسبقيني بنفسك" .

قالت أم شَرِيك رضي الله عنها: فلما حللتُ ذكرت له أنَّ معاوية بن أبي سفيان، وأبا جهم خطباني، فقال صلى الله عليه وسلم: "أما أبو جَهم فلا يضع عصاه عن عاتقه(١)، وأما معاوية فصُعلوك لا مال له، إنكحي أسامةَ بن زيد" قالت: فكرهتُه ثم قال: "إنكحي أسامة" قالت: فنكحته فجعل الله فيه خيرا واغتُبطتُ"(٢) .

فترى أن النبي صلى الله عليه وسلم مع ما كان يضمره في نفسه من خطبتها لأسامة بن زيد رضي الله عنه إلا أنه لم يصرِّح لها بذلك، وإنما عرَّض لها تعريضا بقوله: "لا تسبقيني بنفسك" وكان هذا أصرح تعريض له صلى الله عليه وسلم في الخطبة، لما فيه من الإشارة إلى أنه سيكون له معها شأن في اختيار الزوج الذي يودُّه لها، وقد كان كذلك حيث أرشدها النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما هو أصلح لها في مستقبل أمرها، وهو نكاح أسامة الذي كرهته في بادىء الأمر لعدم كفاءته لها في الجمال والحسب، لكن سرَعان ما صارت به مغتبطة لكمال الدين والخلق الذي أسعد مستقبل حياتها، وجعلها تعيش معه عيشة كريمة وتغتبط معه، وهذا هو سر اختيار النبي صلى الله عليه وسلم أسامة رضي الله عنه، لأنه لا يدلُّها إلا على الذي هو خير، والخيرية في الدين والخلُق لا في غيرهما .

٢ ـ أما ما كان من خطبته صلى الله عليه وسلم لنفسه، فإنه كان إذا أراد خِطبة امرأة وأراد أن يعرض لها بذلك لم يكد يُفصح عن مراده في تعريضه، كما كان منه لما خطب حفصة بنت عمر رضي الله عنهما، فإنه صلى الله عليه وسلم لمَّا رغب في تزوجها بعد أن

= ٢٩٥/٢، والاستيعاب ٥٠١/٢، والإصابة ٥٢٣/٢ .

وإنما أمرها بالاعتداد في بيته؛ لأنه لا يبصرها ولا يتردد إلى بيته كثير من الناس، وهي مع ذلك مأمورة بأن تغض بصرها عنه. انظر شرح مسلم ٩٦/١٠ .

(١) كناية عن أنه كثير الضرب للنساء، وقيل: إنه كثير الأسفار .

(٢) أخرجه مسلم في الطلاق برقم ١٤٨٠ من طرق كثيرة، وأبو داود في نفقة المبتوتة برقم ٢٢٨٤، وبقية أصحاب السنن .

تأيَّمت، لم يزد على أن ذكرها لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وكان الأمر في غاية السِّرية، بحيث إنه لم يفش ذلك لعمر رضي الله عنه عندما عرض عليه عمر رضي الله عنه تزويجه بها، بل سكت مما حمل عمر رضي الله عنه على أن يغضب عليه، فلما انقضت عدتها خطبها النبي صلى الله عليه وسلم من عمر فأنكحه إياها، وعندئذ اعتذر له أبو بكر رضي الله عنه عمَّا جرى له من السكوت عن إجابته أو عدم إبداء الرغبة في ذلك، وقال له: "إنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليَّ إلا أني كنت علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو تركها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلتها"(١) .

فهكذا كان صلى الله عليه وسلم يفعل إذا أراد أن يخطب معتدة، تارة يتبع الرخصة فيعرِّض، وتارة يأخذ بالعزم فلا يعرِّض، بل يكتم في نفسه ما يريد أو يسر لأحد أصحابه بذلك ، فلا يفشيه، ومن هنا تعلم مدى اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم لآداب الله تعالى التي أدب بها عباده،واتباع رخصه من غير إفراط ولا تفريط، مع أنه من أهل العزم، وذلك ليعلِّم أمته ما كان يندبهم إليه من اتباع رخص الشرع التي جاء بها هذا الدين الحنيف؛ لأن الله تعالى يودُّ ذلك من عباده، كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: "إن الله يحب أن تؤتَى رخصُه كما يحب أن تؤتى عزائمُه"(٢) وفي رواية: "إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معاصيه"(٣) .

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح، باب عرض الإنسان ابنته وأخته على أهل الخير ١٧/٧ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٢) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٦٥/٣ إلى الطبراني في الكبير والبزار من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ورجال البزار ثقات، وكذلك رجال الطبراني .

(٣) أخرجه أحمد في المسند ١٠٨/٢، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال الهيثمي في المجمع ١٦٥/٣: ورجاله رجال الصحيح، وعزاه أيضا إلى البزار والطبراني في الأوسط قال: وإسناده حسن، وذكر له شواهد كثيرة فلتنظر .

فكان صلى الله عليه وسلم يفعل مثل ذلك لتستن به أمته في اتباع ما رخص الله فيه، وإلا فقد كان في غالب أحواله صلى الله عليه وسلم يأخذ بالعزائم؛ لأنه من أهل العزم، وغالبا ما كان زواجه صلى الله عليه وسلم يأتي عفويًّا من غير سابق تقدير، وذلك كلما يَرى مصلحة كبرى تكمن في زواجه بإحدى سيِّدات أمهات المؤمنين رضي الله عنهن .

هكذا كان عليه الصلاة والسلام يبين أخلاق القرآن الكريم، وقد علمت أنه صلى الله عليه وسلم أوتِي القرآن ومثله معه(١)، وأن سنته هي ثاني مصدري التشريع،لذلك فقد بيَّن لأمته آدابا أخرى للخطبة ليتحقق للأسرة ما ينبغي أن تكون عليه من الكمال الأخلاقي والصفاء الروحي الذي يريده لها الإسلام الحنيف وذلك كالنظر إلى المخطوبة قبل الخطبة، وخُطبة الخِطبة، والنهي عن الخِطبة على الخِطبة، وسأبين هذه الخلال بإيجاز تتميما للفائدة .

أ ـ النظر إلى المخطوبة:

لما كان الخاطب يهدف إلى أن يقيم علاقة زوجيَّة، وحياة طويلة، وبناء أُسَرِيًّا متماسكا، بينه وبين مخطوبته، كان لا بد أن يعرفها معرفة جيِّدة حتى يقدِم على ما أراده وهو على بصيرة من أمره، لا أن يعقد صفقة غرر، لا يدري عنها شيئا فتكون عاقبة أمرها خسرا .

والنبي صلى الله عليه وسلم وإن كان يعلِّم أمته على أن الخلق القرآني يقوم على غض البصر من الرجل والمرأة،كما سيأتي بيان ذلك في حينه، إلا أنه صلى الله عليه وسلم كان يعلِّم أمته أن هذا ليس على إطلاقه، فبين لهم أن هذا الخُلق العظيم هو في غير الخِطبة التي يترتب عليها بناء أسرة وتكوين كيان صالح؛لذلك فقد ندب صلى الله عليه وسلم الخاطب إلى أن ينظر إلى مخطوبته، ويتعرَّف عليها بما أمكنه في حدود ما رخص الله تعالى فيه حتى

---

(١) كما جاء من حديث المقدام بن معديكرب الكندي عند أحمد في المسند ١٣١/٤، وأبي داود في الأطعمة برقم ٤٦٠٤، والدارمي في السنن ١٤٤/١ ، وصححه الألباني في تعليقه على المشكاة رقم ١٦٣، وغيره .

يقدم عليه وهو على بينة من أمره، وذلك تأكيدا لمعنى المودَّة التي دعا إليها القرآن الكريم وأسس عليها الحياة الزوجية كما قال سبحانه: ﴿ وجعلَ بينكم مودَّةً ورحمة ﴾[سورة الروم:٢١].

١ ـ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه رجل فأخبره أنه تزوَّج امرأة من الأنصار فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنظرتَ إليها ؟ قال: لا، فقال له: "أُنظر إليها فإنَّ في أعيُنِ الأنصار شيئا"(١) ـ يعني الصِّغر ـ .

وهذا المعنى الأخلاقي الذي قصده رسول الله صلى الله عليه وسلم يوضحه الحديث الآتي:

٢ ـ عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أنه خطب امرأة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "أُنظر إليها فإنَّه أحرى أن يُؤدَم بينكما"(٢) أي: أحرى أن تدوم المودة بينكما إذا تزوجتها عن رضا واقتناع سابقين، حيث لا يشعر بغبن ولا خديعة .

٣ ـ وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظرَ منها إلى ما يدعُوه إلى نكاحها فليفعل" قال جابر: فخطبت امرأةً فكنت أتخبَّأُ لها حتى رأيت منها ما دعاني إلى نكاحها فتزوجتها"(٣) .

فالنبي صلى الله عليه وسلم يحث في هذه الأحاديث الراغبين في النكاح إلى ما يؤمِّن

---

(١) أخرجه مسلم في النكاح، باب ندب النظر إلى وجه المرأة وكفيها لمن يريد تزويجها برقم ١٤٢٤، والنسائي في النكاح، باب إذا استشار رجل رجلا في المرأة هل يخبره بما يعلم ٧٧/٦ .

(٢) أخرجه الترمذي في النكاح، باب ما جاء في النظر إلى المخطوبة برقم ١٠٨٧ وحسنه، والنسائي في النكاح، باب إباحة النظر قبل التزويج ٦٩/٦، وابن حبان في صحيحه ١٢٣٦ كما في موارد الظمآن .

(٣) أخرجه أبو داود في النكاح، باب الرجل ينظر إلى المرأة وهو يريد تزويجها برقم ٢٠٨٢، وقال الحافظ ابن حجر في بلوغ المرام برقم ١٠٠٠: رجاله ثقات، وأخرجه الحاكم ١٦٥/٢ وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه أحمد في المسند ٣٣٤/٣ .

حياتهم الزوجية غالبا، وذلك بالتعرُّف على المراد نكاحهن عن طريق النظر إليهن فيما يدعو إلى نكاحهن، من الوجه الذي يدل على الجمال ومبلغ العمر، واليدين الَّذين يدلاَّن على نعومة الجسد وضده، ولا يتعداه إلى غيره، فإن النَّظر إلى المخطوبة في أصله محرم؛ لأنه نظر إلى أجنبية، وإنما أبيح للضرورة، والضَّرورةُ تقدَّر بمقدارها(١) .

أما الخُلوة بالمخطوبة أو السفر بها للتَّعرُّف عليها ونحوه مما جرت به العادة في هذه الأزمان في كثير من البلدان، مما لا يخفى أمره على كثير من الناس، فذلك غلوٌّ في الإفراط فيما أباحه الشرع، وهو النظر فقط وتكون عواقبه وخيمة كما هو معلوم، وتكون تلك العواقب جزاء للأولياء الَّذين فرَّطوا في آداب الشرع، يبقى عارها وشنارها عليهم ما عاشوا، ولا يلام فيها الشرع الحكيم الذي جعل كلَّ شيء بمقدار معلوم، فمن تعدَّاه فقد أساء وظلم ولا يلوم إلا نفسه .

٤ ـ وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يُعنى بالنظر في من يريد نكاحها كما جاء في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه "أن امرأة جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله جئت لأهب لك نفسي، قال: فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فصَّعد النظر إليها وصوَّبه ثم طأطأ رأسه ..."الحديث(٢) .

٥ ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله عليه وسلم: «رأيتُك في المنام يجيء بك الملَك في سَرَقَةٍ(٣) من حرير، فقال لي: هذه امرأتُك، قال: فكشفتُ عن وجهِك الثوب فإذا أنتِ هي، فقلت: إن يكُ هذا من عند الله يُمضه»(٤) .

وهذه وإن كانت رؤيا منامية إلا أن رؤيا الأنبياء حق كاليقظة، ولذلك أوردها

---

(١) هذا ما ذهب إليه الجمهور، وقال الأوزاعي: يجتهد وينظر إلى ما يريد منها إلا العورة، وقال ابن حزم: ينظر إلى ما أقبل منها وما أدبر ... انظر الفتح ٢١٨/١٩، ومعالم السنن للخطابي ٢٥/٣ .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب النظر إلى المرأة قبل التزويج ١٩/٧ .

(٣) أي: في قطعة من جيد الحرير .

(٤) أخرجه البخاري في الكتاب والباب السابقين ١٩/٧ .

البخاري للاستدلال بها على جواز النَّظر إلى المخطوبة، بل صدَّر بها أدلة ذلك، وذلك من كمال فقهه رحمه الله تعالى .

وفي فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا وأقواله السابقة، قُدوة لمن يريد أن يقدم على الزواج حتى لا يقع فيما لا تحمد عقباه، كما أن في ذلك تأسيا للأولياء فلا تمنعهم العادات من تمكين الراغب في نكاح مولاتهن من النظر إذا علموا صدق الراغب وأمانته .

ب ـ خُطبة الخِطبة:

ومن الآداب التي أرشد إليها النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المقام خُطبة الحاجة عامة، وخُطبة النكاح خاصة .

١ ـ فقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خُطبة الحاجة:

إنَّ الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا اتَّقوا اللهَ حقَّ تُقاتِه ولا تموتُنَّ إلا وأنتُم مسلمون ﴾[سورة آل عمران:١٠٢]، ﴿ يا أيُّها النَّاسُ اتَّقوا ربَّكم الذي خَلقكم من نَفْسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجَها وبَثَّ مِنهما رجالاً كثيراً ونساءً واتَّقوا اللهَ الَّذي تساءلونَ به والأرحامَ إنَّ الله كان عليكُم رقيباً ﴾[سورة النساء:١]، ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا اتَّقوا اللهَ وقُولوا قولاً سدِيدا * يُصلِح لكم أعمالَكم ويغفِرْ لكم ذُنوبَكم ومن يُطعِ اللهَ ورسولَه فقد فاز فوزاً عظِيما ﴾(١)[سورة الأحزاب:٧٠، ٧١] .

لما في هذه الخطبة من الوصيَّة بالتقوى، ومراقبة الله في أول خطوة من خطوات الحياة

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح، باب في خطبة النكاح برقم ٢١١٨، والترمذي في النكاح، باب ما جاء في خطبة النكاح برقم١١٠٥ وحسنه، والنسائي في كتاب الجمعة، باب كيف الخطبة ١٠٥/٣، واللفظ للنسائي، وهو حديث صحيح بطرقه الكثيرة، وقد بين ذلك الشيخ الألباني في رسالة خاصة أسماها: خطبة الحاجة، وللفقهاء صيغ أنيقة أخرى في خُطبة الخُطبة انظر حاشية إعانة الطالبين ٢٦٥/٣ .

الزوجية، لتكون الحياة بعد ذلك سائرة من منطلق التقوى والمراقبة الإلهية، وذلك من أكبر العوامل على جعل الحياة الزوجية سعيدة راقية في أخلاقها وتعاملها فيما بينها .

وقد كانت الخُطبة عند خِطبة النكاح معلومة ومتبعة حتى قبل البعثة، كما جاء في قصة زواج النبي صلى الله عليه وسلم بخديجة رضي الله عنها، فإن أبا طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم نهض معه وخطب خطبة عصماء جاء فيها:« أما بعد: فإن محمدا ممن لا يُوازن به فتىً من قريش إلا رجح به شرفا ونُبلا وفضلا وعقلا، وإن كان في المال قِلٌّ فإن المال ظل زائل، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك ».

فقال عمرو بن أسد عم خديجة رضي الله عنها مجيبا له:« هو الفحل الذي لا يُقدَع(١) أنفه »فأنكحها منه(٢) .

جـ - الخِطبةُ على الخِطبة:

ومما أرشد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الباب أدب اجتماعي مهم يدل عدم مراعاته على استخفاف بحقوق الآخرين، وإضاعة للحقوق الإيمانية الاجتماعية، ويترتب على ذلك مفاسد كبيرة من خصومات وهتك أعراض وإحن ونحوها .

ذلك هو الخِطبة على خِطبة أخ له قد سبق إلى المخطوبة وأجيب بالقبول .

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الإخلال بهذا الحق وحذر من التفريط فيه لعظم خطر ما يترتب عليه، وذلك في أحاديث كثيرة نذكر منها ما يلي :

١- عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يبيع بعضكم على بيع بعض، ولا يخْطُب على خِطبة أخيه حتى يترك الخاطب قبلَه أو يأذن له الخاطب"(٣) .

---

(١) فسر ابن الأثير في النهاية ٢٤/٤ هذا اللفظ بقوله: يقال: قدعت الفحل وهو أن يكون غير كريم، فإذا أراد ركوب الناقة الكريمة ضرب أنفه بالرمح أو غيره حتى يرتدع أو ينكف. ا.هـ .

(٢) الروض الأنف للسهيلي ٢١٣/١ .

(٣) أخرجه البخاري في النكاح، باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع ٢٤/٧ وفي غيره، ومسلم في النكاح، باب تحريم خطبة الرجل على خطبة أخيه برقم ١٤١٢ .

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يخطُب الرجل على خِطبة أخيه"(١) .

٣- وعن عُقبةَ بن عامر رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "المؤمن أخو المؤمن، فلا يحلُّ للمؤمن أن يبتاع على بيع أخيه،ولا يخطب على خِطبة أخيه حتى يذر"(٢) .

فهذه الأحاديث تنهى نهي تحريم(٣) عن انتهاك حق الآخرين في السبق إلى المخطوبة لما في ذلك من بذر بذور الفساد الاجتماعي الذي ينشأ من ذلك، فهو يولِّد الضَّغينة بين الخاطبين،والحقد الدَّفين ومحاولة الانتقام،والغيبة بينهما،والشعور من أحدهما بالتعالي ومن الآخر بالإهانة، إلى غير ذلك، وكل ذلك مما حرمه الإسلام وحذر منه ولذلك كان نهي النبي صلى الله عليه وسلم مقرونا بالتنبيه إلى الأُخُوَّة الإيمانية(٤) لأجل أن تراعى من كلا الجانبين .

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط، باب ما لا يجوز من الشروط في النكاح ٢٤٩/٣، ومسلم في البيوع، باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه برقم ١٥١٥، وأبو داود في النكاح باب كراهية أن يخطب الرجل على خطبة أخيه برقم ٢٠٨٠ .

(٢) أخرجه مسلم في النكاح، باب تحريم الخطبة على خطبة أخيه حتى يأذن أو يترك برقم ١٤١٤ .

(٣) على الصحيح من مذاهب أهل العلم في ذلك، فقد قال الإمام النووي رحمه الله في شرح مسلم ١٩٧/٩ معقبا على النهي بقوله: هذه الأحاديث ظاهرة في تحريم الخِطبة على خطبة أخيه، قال: وأجمعوا على تحريمها إذا كان قد صرح للخاطب بالإجابة ولم يأذن ولم يترك ...
وذهب الخطابي إلى أن النهي للتأديب، وليس بنهي تحريم يبطل العقد عند أكثر الفقهاء، وتعقبه الحافظ في الفتح ٢٣٩/١٩ بأنه لا ملازمة بين كونه للتحريم، وبين البطلان عند الجمهور، بل هو عندهم للتحريم، ولا يبطل العقد، ثم فصل الخلاف في ذلك كالنووي بما يطول ذكره، فينظر هناك، وينظر معالم السنن للخطابي ٢٤/٣ .

(٤) وهي هنا مخرجة مخرج الغالب، وإلا فإن غير المؤمن تحرم الخطبة على خطبته أيضا للعلة التي ذكرت من فساد ذات البين في المجتمع، وهذا ما ذهب إليه الجمهور وإن خالف في ذلك الخطَّابي رحمه الله وغيره. انظر شرح مسلم للإمام النووي ١٩٨/٩، وفتح الباري ٢٣٩/١٩ .

المبحث الثَّالث

(النكاح)

النكاح في اللغة: الضم والجمع، يقال: تناكحت الأشجار إذا تمايلت وانضم بعضها إلى بعض(١) .

وفي الاصطلاح: هو عقد يتضمن إباحة وطء بلفظ نكاح أو تزويج أو ترجمته(٢) .

وسمي هذا المعنى الشرعي نكاحا لما فيه من ضم أحد الزوجين إلى الآخر(٣) .

والعرب تستعمل لفظ النكاح بمعنى العقد والوطء جميعا لكنهم إذا قالوا: نكح زوجته أو امرأته لم يريدوا إلا المجامعة(٤) .

وهو من سنن المرسلين،ومن الشرائع القديمة،شرعه الله تعالى لبقاء الجنس البشري وتكاثر نسله،ليستخلفه في الأرض لعبادته تعالى وعمارة الأرض .

وجعل الله تعالى فيه الراحة النفسية،وإشباع الغريزة الجنسية،وحصول السعادة والأنس من المودة والاجتماع، ولذلك كان من نعم الله تعالى الكبرى التي تقتضي بالغ الامتنان من مُسديها وهو الله تعالى على عباده،ولطالما ذكَّر سبحانه وتعالى عباده بهذه النعمة على سبيل الامتنان والتعظيم، وذلك كقوله جل شأنه: ﴿ هو الَّذي خلقَكم من نَفسٍ واحدةٍ وجعلَ منها زَوجها ليَسكُن إليها فلمَّا تغشَّاها حملَت حمْلاً خفيفا فمرَّت به فلمَّا أثقلت دَعوا اللهَ ربَّهما لئن آتيتَنا صالِحاً لنكونَنَّ من الشَّاكرين ﴾[سورة الأعراف:١٨٩] .

وقوله تقدست أسماؤه: ﴿ واللهُ جعل لكم من أنفُسِكم أزواجًا وجعل لكم من أزواجكم بَنينَ وحَفَدَةً ورزَقكم من الطَّيباتِ أفبالباطلِ يُؤمنونَ وبنعمةِ اللهِ هم يَكفُرون ﴾ [سورة النحل:٧٢] .

---

(١) القاموس المحيط ١٦٣/١، وشرحه تاج العروس ٢٤٢/٢، والصحاح ٤١٣/١ .

(٢) مغنى المحتاج للخطيب الشربيني ١٢٣/٣، والياقوت النفيس للشاطري ص ١٤١ .

(٣) حاشية إعانة الطالبين للمليباري ٢٥٥/٣ .

(٤) مغني المحتاج للخطيب ١٢٣/٣ .

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ ومن آياتِه أن خلَق لكم من أنفُسِكم أزواجًا لتَسكنُوا إليها وجعلَ بينكم مودَّةً ورحمةً إنَّ في ذلك لآياتٍ لِقومٍ يَتفكرون ﴾[سورة الروم:٢١] .

إلى غير ذلك من آيات الامتنان بهذه النعمة العظمى وهي نعمة خلق الزوج من جنس بني آدم ليكون سكنا للرجل، به يأنس وعنده يطمأن ويرتاح ويُشبِع به غريزته،ويكون له من النسل والذُّرية التي يظل ذكره بها،وتكون عونا له عندما يكون أحوج إلى المساعدة والمظاهرة .

وأجل من ذلك الراحة النفسية والطمأنينة القلبية التي يجدها عندما يأوي إليها فتكون لباسا له، ومثلجة لصدره، وقائمة بحقوقه وواجباته وشئون بيته وأولاده .

وتلك نعمة لا يعدلها نعمة بعد نعمة الإسلام والإيمان ونعمة الصحة .

وذلك ما لا يختلف فيه ذووالعقول السليمة، فكل واحد من بني آدم لا يجد راحة نفسه، ومستقر حياته، إلا إذا كان ذا زوج يأوي إليه، يجد فيه السكن النَّفسي والطمأنينة القلبية .

ولا يرى لنفسه سعادة غامرة وحياة مطمئنة إلا إذا قضى شهوته، ونال وَطره، فعندئذ يرى نفسه أنه أسعد الناس حظا وأكثرهم نعمة .

ولهذا كان قول الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ للنَّاسِ حبُّ الشَّهواتِ من النِّساء والبَنينَ ... ﴾ [سورة آل عمران:١٤] ، إخبارا بحقيقة بني آدم في هذه النعمة، من أنهم يرونها أجمل متاع الحياة الدنيا .

وقد أقرهم القرآن الكريم على ذلك، إلا أنه دلهم على ما هو خير وأفضل مما يرونه من هذه النعمة،وهو نعيم الآخرة، وذلك بقوله سبحانه: ﴿ قل أَؤُنَبِّئُكم بخيرٍ من ذلكم لِلَّذين اتَّقوا عندَ ربِّهم جنَّاتٌ تَجري من تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها وأزواجٌ مطهَّرة ورِضوانٌ من اللهِ واللهُ بصيرٌ بالعباد ﴾[سورة آل عمران:١٥] .

وذلك ليدلهم على أن ما نالوه مما رأوه نعيما في الدنيا، ما هو إلا نزر يسير ورمز حقير لنعيم الآخرة، فإن كانوا قد تنعَّموا بهذا فليحرصوا على ما هو أفضل منه في الآخرة، وسينالونه إن كانوا من أهله، بأن كانوا في الدنيا ممن يتَّقون الله تعالى فلا يشركون به ولا يستحلُّون معاصيه .

ولما كان أمر النكاح لدى بني آدم بتلك المثابة، غريزة، كان لا بد من تشريع ينظمه كي لا يكون أمره فوضَى فتختلط الأنساب وتضيع الأحساب، ولا يحصل الغرض من فطر الناس عليه في بناء الأُسَر وغرس مكارم الأخلاق في النشء، وإقامة المجتمعات على الطهر والعفاف والفضيلة كما هو الحال في المجتمعات الإباحية التي لا تحكم بما أنزل الله، ولا تقيم شرعه في الدول الشرقية والغربية .

لذلك أولاه القرآن الكريم عنايته الكبيرة في تشريع أحكامه، حيث أَربت آياتُه على عشرين آية، وذلك ليكون على وفق مرضاة الله تعالى من وضعه في حله مع الطهر والعفاف والمحافظة على حدوده، من غير ميل ولا إجحاف، فأمر به أمر إباحة، وجعل له حدا يقف عنده فلا يتجاوز عنه، ونظَّم ما يترتَّب عليه من علاقة أُسَرِيَّة، وما قد يحوج إلى التخلِّي عنه من خُلع أو طلاق، إلى غير ذلك مما هو معروف في فقه الأحوال الشخصية، والعلاقة الأسرية .

كل ذلك بما يتفق مع مكارم أخلاق الإسلام، وسموِّه ووسطيَّته .

وسأبحث جوانب من هذا الباب مما تمس الحاجة إليه في مكارم أخلاق القرآن الكريم، وذلك مع الايجاز غير المخل إن شاء الله تعالى .

تشريع النكاح

أما تشريع أصل النكاح فقد كان في آيات من كتاب الله الكريم منها قوله تعالى: ﴿... فانكِحُوا ما طاب لكُم من النِّساء مَثنى وثُلاثَ ورُباعَ فإن خِفتُم ألاَّ تعدِلوا فواحدةً أو ما مَلكت أيمانُكم ذلك أَدنى ألاَّ تَعولُوا * وآتوُا النِّساء صَدُقاتِهنَّ نِحلةً فإنْ طِبنَ لكم عن شيءٍ منه نَفسا فكُلوه هنيئًا مريئا ﴾[سورة النساء:٣، ٤]

فهذه الآية تدل على إباحة النكاح عند الاستطاعة على مُؤنه إلى حدود أربع نسوة مجتمعات، وهو أمر إباحة لمن قدر عليه، فليتزوج إن شاء واحدة، وإن شاء اثنتين، وإن شاء ثلاثا، وإن شاء أربعا، ولا يجوز له الزيادة على ذلك، لأن ذلك هو حد الطاقة التي يمكن لبني آدم أن يحتاجوا لها أويقدروا عليها، ويقيموا العدل بينهن، وإن ظنوا عدم القدرة

على إقامة العدل بينهن فالواجب عليهم حينئذ الاقتصار على واحدة، أو ما ملكت أيمانهم من الإماء، وذلك للمحافظة على ذلك الخلق الاجتماعي العظيم وهو العدل(١) .

وهذا تشريع إلهي عظيم لأمر النكاح قائم على مكارم الأخلاق ووسطية التشريع، حيث لم يقتصر به على حده الأدنى، ولم يجز فيه العدد الكثير، وإنما أجاز عددا معقولا، مقيَّدا بالعدل في القسمة بين الزوجات فيما يقدر على قسمته من بيت ونفقة ..

ونحو هذه الآية في الدلالة على تشريع النكاح قوله تعالى: ﴿ ومن لم يَستطِعْ مِنكم طَوْلًا أن يَنكِحَ المحصناتِ المؤمناتِ فِمن مَّا ملكت أيمانُكم من فَتياتِكم المُؤمِنات ... ﴾ [سورة النساء:٢٥] .

حيث أباحت نكاح الإماء المؤمنات عند العجز من الفقر عن نكاح الحرائر المؤمنات .

والآيات الدالة على مشروعية النكاح غير ما ذكر كثيرة كآيات الامتنان به، السابق ذكر بعض منها .

والآيات التي عنيت ببيان أحكامه من صداق وعشرة وخلع وطلاق وإرث وغير ذلك كثيرة لا يخفى أمرها .

---

(١) انظر بحث هذه الآية ودلالتها في تفسير الفخر الرازي ٩/١٧٢-١٧٩ .

تطبيق النبي صلى الله عليه وسلم
لتشريع النكاح

وكما كان تشريع النكاح بكتاب الله تعالى في آيات كثيرة منه، فقد كان كذلك أيضا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم القولية والفعلية، التي ورد منها ما يتجاوز العد في مثل هذا البحث، ولنأت على ذكر طائفة منها :

طائفة من أقواله صلى الله عليه وسلم في تشريع النكاح:

فمن ذلك:

١ـ ما أخرجه الشيخان من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءَة فليتزوج، فإنَّه أغضُّ للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء"(١) .

والباءة بالمد والهمز هي: "مُؤن النكاح، بأن يتوق، إليه ويجد مهر المثل،وكسوة فصل ونفقة يوم وليلة، وقيل: هي القُدرة على الجماع، لكن ينافيه قوله بعد ذلك: ومن لم يستطع...الخ، إذ العاجز عن الجماع لا يحتاج لصوم"(٢) .

ونلاحظ أن أمر النبي صلى الله عليه وسلم به كان مقرونا ببيان فائدته الأخلاقية العظيمة،وهي أنه يحمل على غض الطَّرف عن النظر إلى المحرمات،ويحفظ الفرج عن الوقوع في موبقات الآثام.

٢ـ ومنها ما أخرجه أبو داود والنسائي من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "تزوَّجوا الودودَ الولود فإنّي مكاثر بكم الأمم"(٣) .

---

(١) البخاري في الصوم، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة ٣٤/٣، وفي مواضع أخرى من صحيحه، ومسلم في النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ...، برقم ١٤٠٠ .

(٢) الإفصاح عن أحاديث النكاح لابن حجر ص ١٢ .

(٣) أبو داود في النكاح، باب النهي عن تزويج من لم تلد من النساء برقم ٢٠٥٠، والنسائي في النكاح، باب كراهية تزويج العقيم ٦٥/٦، وإسنادها حسن، وله شاهد عند أحمد من حديث أنس، وصححه ابن حبان كما في موارد الظمآن للهيثمي برقم ٢٢٨ .

٣ـ ومنها ما أخرجه الشيخان من حديث أنس رضي الله عنه في قصة النفر الذين تقالوا عبادتهم، فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدا، وقال الآخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبدا، فجاء إليهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: " أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني"(١) ، "أي ليس من أهل طريقتي المقتدين بي، وهذا فيما إذا كان الحامل للرغبة في الإعراض عنه، هو الإعراض عن العمل بالسنة فحسب، أما إذا انضم إلى ذلك الإعراض احتقار السنة فإن المعنى حينئذ يكون: إنه ليس من أهل ملتي وهي الإسلام ؛ لأن ذلك حينئذ كفر"(٢) والعياذ بالله تعالى .

وقد جاء هذا المعنى في أحاديث أخرى :

٤ ـ منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عنه صلى الله عليه وسلم قال: "من أحب فطرتي فليستن بسنتي، وإن من سنتي النكاح"(٣) .

سنته صلى الله عليه وسلم الفعلية في تشريع النكاح :

وقد كانت سنته صلى الله عليه وسلم أن تزوج وأكثر من الزواج في آخر عمره، وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:

---

(١) متفق عليه وتقدم ص ٣٣٦ .

(٢) الإفصاح عن أحاديث النكاح لابن حجر الهيتمي ص ١٥ .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى في كتاب النكاح ٧٨/٧، وعزاه الهيثمي في المجمع ٢٥٥/٤ إلى أبي يعلى قال: ورجاله ثقات غير أنهما أخرجاه من حديث عبيد بن سعد، ولذلك علق الهيثمي صحته بصحة صحبة عبيد بن سعد قال: وإلا فهو مرسل، غير أن البيهقي بعد أن أورده من مسند عبيد ، قال: وروى ذلك عن أبي حرة عن الحسن عن أبي هريرة، وعليه فيكون الحديث جاء من طريقين، وقد صحت طريق عبيد بن سعد إليه، ويبقى النظر في طريق أبي هريرة فإن كان أبو حرة هو حنيفة الرقاشي فهو ثقة كما في التقريب رقم ١٥٨٨ وإن كان واصل بن عبدالرحمن فهو صدوق، وقد كان يدلس عن الحسن كما أفاده الحافظ في التقريب عند ترجمته برقم ٧٣٨٥ وهذا هو الأظهر والله أعلم .

١ ـ «حُبِّب إلي النِّساء والطِّيب، وجُعلت قُرَّةُ عيني في الصلاة»(١) .

٢ ـ وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: «إن خير هذه الأمة أكثرُها نساء»(٢) يعني النبي صلى الله عليه وسلم حيث توفي عن تسع نسوة، وكان قد فارق غيرهن بموت أو طلاق .

مقاصد النبي صلى الله عليه وسلم من تزوجه عددا من النساء :

ولم يكن ذلك لمجرد إشباع الغريزة، أو بدافع الشهوة البشرية كما يزعم أعداء الدين من الكفرة والمستشرقين ومن شايعهم من الملحدين، بل كان ذلك لأغراض نبيلة، ومقاصد عظيمة، تتفق مع جنابه العظيم، وعظيم رسالته، وهي مقاصد في غاية الأهمية لبعثته المباركة ورسالته العامة الخالدة، وهي تعود إلى أربعة مقاصد :

١ ـ مقاصد تعليمية . ٢ ـ مقاصد تشريعية .

٣ ـ مقاصد اجتماعية . ٤ ـ مقاصد إصلاحية .

وقد حقق النبي صلى الله عليه وسلم نتائج هذه المقاصد كلها على أحسن وجه وأكمل صورة، بحيث إنها لم تكن لتتحقق إلا عن طريق زواجه المبارك بأمهات المؤمنين المباركات رضي الله عنهن، كما شاء الله تعالى ذلك، وكما سيأتي بيانه في الآتي :

١ ـ المقاصد التعليمية :

أما المقاصد التعليمية فهي أهم المقاصد لتعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم حيث إنه عليه الصلاة والسلام بُعث إلى الرجال والنساء، واختُصت النساء بأحكام خاصة لا يقدر ذو الخلق العظيم الذي كان أشد حياء من العذراء في خدرها أن يعبر عنها، كما أن شريعته الغراء عنيت بالأحكام الأسرية الخاصة التي لا يُطَّلَع عليها عادة في الظاهر، كعنايتها بالأحكام الاجتماعية والفردية الظاهرة .

ولا يمكن أن تنقل الأحكام النسوية الخاصة تلك، أو الأسرية هذه إلا عن طريق

---

(١) حديث صحيح تقدم تخريجه في الصلاة ص ٢٥٣.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب كثرة النساء ٤/٧ .

الأزواج، ولا يمكن أن تفي واحدة منهن بالقيام بهذه المهمة نظرا لكثرة تشريعها، فكان لا بد من أن يتزوج صلى الله عليه وسلم عددا من النساء للقيام بهذه المهمة .

وقد قمن بذلك خير قيام والشواهد على ذلك كثيرة معلومة؛

الشواهد على قيام أمهات المؤمنين رضي الله عنهن بنقل تشريعات الأحكام الأسرية :

ومن النوع الأول ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن امرأة من الأنصار سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن غسلها من المحيض ؟ فأمرها كيف تغتسل ثم قال:«خذي فِرصةً من مسك ـ قطعة من مسك ـ فتطهَّري بها، قالت: كيف أتطهر بها ؟ قال: تطهري بها، قالت: كيف أتطهر بها ؟ قال: سبحان الله ! تطهري بها، قالت عائشة رضي الله عنها: فاجتذبتها إليَّ فقلت: تَتبَّعي بها أثر الدم"(١) .

وفي رواية قال لها:« خذي فِرصة ممسَّكة وتوضئي ثلاثا »ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم استحيا فأعرض وجهه، قالت عائشة رضي الله عنها: فأخذتها فجذبتها فأخبرتها بما يريد النبي صلى الله عليه وسلم .

فانظر إلى الدور الذي قامت به عائشة رضي الله عنها، إذ لولاها لأدى الحال إلى أحد شيئين: إما إلى أن يُحرَج النبي صلى الله عليه وسلم في التعبير الذي لا يساعده حياؤه العظيم عليه، أو إلى أن ترجع المرأة من غير أن تدرك الحكم الشرعي الذي استفتت عنه.

وكم كان النبي صلى الله عليه وسلم يستقبل مثل هذه الحالات حتى قالت عائشة رضي الله عنها: "نِعْم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقّهن في الدين" كما في بعض طرق هذا الحديث عند مسلم .

وأما النوع الثاني: وهي الأحكام الأسرية أو الذاتية الفردية التي تجري غالبا في البيت، ولا يطلع عليها إلا الزوجة والولد ونحوهما، كالتهجد والقيام والمناجاة وقراءة القرآن والصيام، حيث كان يصبح فيقول: هل عندكم شيء ؟ فإن قالوا: لا، قال: إني إذاً

---

(١) البخاري في الحيض، باب دلك المرأة نفسها إذا تطهرت في الحيض ٨٢/١، وأبوابا أخرى، ومسلم في الحيض، باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك في موضع الدم برقم ٣٣٢ .

صائم، ونحو ذلك، وغشيان الأهل وآدابه، وأحكام الجنابة والغسل، وما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم في بيته وغالب شمائله وأحواله ...

إلى غير ذلك من الأمور الكثيرة فإنها ما نقلت إلا عن طريق أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وخدامه ومواليه، ثم أصبحت شرعا لأمته ، ولولا تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم لما استطاعت الواحدة والاثنتان غير العدد الذي كن عليه القيام بذلك الدور، إذ إن هذه الأمور تُمثِّل شطر الدين؛ لأن الشريعة الإسلامية ذات شطرين: شطر أعمال ظاهرة، وشطرها الآخر أعمال خفيَّة سِرِّية، فإذا كانت الأعمال الظاهرة نقلها ذلك الجم الغفير من الصحابة رضوان الله عليهم ، فإن الأعمال الخفية تحتاج إلى عدد كثير يحملها، وقد كان العبء الأكبر على أمهات المؤمنين،وإن شاركهن غيرهن في ذلك من رجال ونساء، فيما اطلعوا عليه،فهو قليل .

ومن صور ذلك مثلا: حكم من أصبح جنبا في نهار رمضان، فقد كان بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كأبي هريرة رضي الله عنه يقولون بعدم صحة صوم من أصبح جنبا، حتى علموا حكم ذلك من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن .

كما أخرج ذلك مسلم رحمه الله تعالى من حديث أبي بكر بن عبد الرحمن قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقصُّ يقول في قَصَصِه: من أدركه الفجر جنبا فلا يصم، قال: فذكرت ذلك لعبد الرحمن بن الحارث فأنكر ذلك، فانطلق عبد الرحمن وانطلقت معه حتى دخلنا على عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما، فسألهما عبد الرحمن عن ذلك قال: فكلتاهما قالت:«كان النبي صلى الله عليه وسلم يُصبح جنبا من غير حلم ثم يصوم ...» الحديث، إلى أن قال: فقال أبو هريرة رضي الله عنه: سمعت ذلك من الفضل ولم أسمعه من النبي صلى الله عليه وسلم، قال: فرجع أبو هريرة عما كان يقول في ذلك)(١) .

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب برقم ١١٠٩ .

فانظر مبلغ الفائدة والرأفة والرحمة التي حصلت للمسلمين في هذا الحكم الذي كان يخفى على صحابي جليل كأبي هريرة؛ لأنه مما لا يطلع أمثاله عليه، وإنما هو من خصوصيات ربات المنزل .

ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يرشح أمهات المؤمنين للقيام بهذه المهمة المناطة بهن، فقد جاءه رجل يسأله: أيقبل الصائم ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سل هذه» لأم سلمة ، فأخبرته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع ذلك ...)(١) .

٢ ـ المقصد التشريعي:

وأما المقصد الثاني وهو المقصد التشريعي فهو ما حصل من زواج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش رضي الله عنها التي كانت زوجا لمتَبَّاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، وقد كان من عادتهم،وما يرونه دينا متوارثا، أن يتبنَّى الرجلُ الرجلَ فيُدعى ابنه وينسب إليه، ويرث كل منهما الآخر، ويحرم على كل منهما ما يحرم بالبنوة الحقيقية من زوجة المتبنَّى ـ بالفتح ـ والمتبنِّي ـ بالكسر ـ إلى غير ذلك من عاداتهم في هذا المجال، وما كانت هذه العادة الراسخة في نفوسهم ستقتلع إلا بتشريع فعلي يقوم به النبي صلى الله عليه وسلم، وهو ما حصل بالفعل(٢) .

على أن الحقيقة في أمر زواج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب رضي الله عنها، ما كان للنبي صلى الله عليه وسلم فيه خِيَرَة، إنما كان بأمر الله تعالى وقضائه المبرم الذي ما كان للنبي صلى الله عليه وسلم وسع في مخالفته، حيث زوَّجه بها من فوق سبع سماوات، كما كانت تفتخر به زينب رضي الله عنها على ضراتها(٣) ، وقد شاء الله تعالى أن يكون تشريعه لهذه المسألة بتلك الصورة التي جرت عليها، وأنزل فيها قرآنا يتلى إلى يوم القيامة ـ ويتضمن عتابا شديدا للنبي صلى الله عليه وسلم على تردده في ذلك، لما خشي

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام، باب أن القبلة في الصوم ليست محرمة على من لم تحرك شهوته برقم ١١٠٨ .

(٢) وقد تقدم تخريج القصة في مبحث الحياء ص٤٧٣

(٣) كما سيأتي تخريجه قريبا ص٦٨٣

على عرضه من قَالةِ السُّوء التي سيرددها أهل الباطل من منافقين ويهود بقصد النيل منه صلى الله عليه وسلم وهو العفيف الكريم، اقرأ إن شئت قول الله تعالى: ﴿ وإذ تَقولُ للذي أَنعمَ اللهُ عليه(١) وأنعمتَ عليه(٢) أمسِك عليك زَوجَك واتَّقِ الله وتُخفِي في نفسِك(٣) ما اللهُ مبديهِ وتَخشى النَّاسَ(٤) واللهُ أحقُّ أن تخشاهُ فلمَّا قضى زيدٌ منها وَطَراً زوَّجناكَها لِكي لا يكونَ على المؤمنينَ حرجٌ في أزواجِ أَدعيائِهم إذا قَضوا مِنهُنَّ وَطَراً وكان أمرُ اللهِ مفعولا ﴾[سورة الأحزاب:٣٧] .

وقد كانت زينب رضي الله عنها تفتخر على ضراتها من نسائه صلى الله عليه وسلم وتقول: «زوَّجكُن أهاليكُن وزوَّجني الله من فوق سبع سماوات»(٥) .

٣ ـ المقاصد الاجتماعية :

أما المقاصد الاجتماعية: فهي كثيرة ومهمة وتعود لأغراض نبيلة فاضلة منها :

أ ـ ترسيخ المحبة بينه صلى الله عليه وسلم وبين من تزوج منهم، بله عن إعطائهم مزية خاصة بين أصحابه ليكون ذلك بمثابة ترشيحهم لأمر عظيم سيتحمَّلونه،وذلك كتزوجه صلى الله عليه وسلم من أبي بكر رضي الله عنه ابنته عائشة رضي الله عنها، ومن عمر ابنته حفصة رضي الله عنهما، حيث كانا له صلى الله عليه وسلم بمثابة وزيري صدق، وكان لهما من السبق إلى الإسلام والتضحية في سبيله وعظيم المحبة له صلى الله عليه وسلم ما يوجب لهما المزية على غيرهما، وليس هناك سبيل لأن يعطيهما النبي صلى الله عليه وسلم تلك المزية أفضل من أن يكون عن طريق التزوج منهما، لما في التزوج من

---

(١) أي: بالإسلام .

(٢) أي: بالعتق .

(٣) أي: مما قد اطلعك الله عليه من أنها ستكون زوجتك .

(٤) أي: أن يقولوا تزوج زوجة ابنه .

(٥) أخرجه البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء ١٥٢/٩، وانظر مرشد المحتار لابن طولون ص ٢٨٧ ـ ٢٩٣ لتقف على الرد المحكم الرصين عما أثير حول هذا الزوج المبارك .

امتزاج الصلات، واختلاط الوشائج، بحيث يصبح المتزوِّج والمتزوَّج منهم كأنهم لُحمة واحدة .

وتأمل امتنان الله تعالى على عباده بقوله: ﴿ وهو الَّذي خلق من الماءِ بَشراً فجعلَه نسَباً وصِهرا وكان رَبُّك قديراً ﴾[سورة الفرقان:٥٤] .

تجد من أسراره ما تولِّده المصاهرة من أواصر المودة والنصرة والمؤازرة التي هي أصل نظام الاجتماع البشري لتكوين القبائل والشعوب، وتعاونهم على الحق أو الباطل مما جاء بهذه الحضارة المرتقية مع العصور والأقطار، كما قال الله تعالى: ﴿ يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خلقناكم مِن ذَكرٍ وأُنثى وجَعلناكم شُعوبًا وقبائِلَ لِتعارفوا ...﴾(١)[سورة الحجرات:١٣] .

وقد اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم هذا الأسلوب مع كبار أصحابه بالتزوج منهم تارة كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، أو تزويجهم تارة أخرى كعثمان وعلي رضي الله عنهما، وهم الأربعة الذين ولوا الخلافة بعده صلى الله عليه وسلم، وكان فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بمثابة دليل على كمال رضاه عنهم، وتزكيته لهم، ومنقبة يمتازون بها على من سواهم .

ب ـ القيام بما ينبغي أن يقوم به شخص كالنبي صلى الله عليه وسلم نحو من ضحَّوا بأنفسهم في الدفاع عن رسالته، أو كان له سابق فضل في الاستجابة لها والنصرة، وتحمل الأذية والعناء، ثم تركوا أزواجهم وأولادهم لا عائل لهم غير الله تعالى .

حيث كان صلى الله عليه وسلم يقوم بما يقدر عليه نحو أولئك الأرامل والأيتام، فإن رأى التزوج هو الأنسب فعل، كما في قصة تزوجه صلى الله عليه وسلم من سودة بنت زمعة رضي الله عنها، التي كانت قد تأيمت من السَّكران بن عمرو، وكان لها فضل السبق إلى الإسلام والهجرة إلى الحبشة(٢) .

وكما في قصة تزوجه صلى الله عليه وسلم بأم سلمة رضي الله عنها لمَّا تأيَّمت من

---

(١) التحرير والتنوير ٥٦/٩، ومحاسن التأويل ٢٦٨/٢ .

(٢) السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين لابن حجر الهيثمي ص ١٣٧ .

أبي سلمة رضي الله عنه، الذي كان قد توفي شهيدا إثر أحد؛ لأصابة حلت به في المعركة، وكان من السابقين إلى الإسلام وهاجر الهجرتين، وكانت قد تعللت بعلل، منها أنها ذات عيال، فأخبرها النبي صلى الله عليه وسلم بأن عيالها هم عياله .

وكما في قصة زواجه صلى الله عليه وسلم من حفصة بنت عمر رضي الله عنهما لما تأيمت من خُنيس بن حذافة السهمي الذي توفي شهيدا من جراحات أصابته ببدر .

وكما في قصة زواجه صلى الله عليه وسلم من زينب بنت خزيمة بن الحارث الملقَّبة بـ"أم المساكين" لكثرة برها بهم، التي تأيَّمت من عُبيدة بن الحارث الذي قتل ببدر شهيدا، وقيل: من عبد الله بن جحش الذي استشهد بأحد، ثم ماتت في حياته صلى الله عليه وسلم في ربيع الأول سنة أربع، بعد مُضيِّ ثمانية أشهر من زواجها به صلى الله عليه وسلم(١) .

فهؤلاء النسوة الأرامل رضي الله عنهن ما كان للنبي صلى الله عليه وسلم كبير حاجة بهن لولا وفاؤه العظيم لأصحابه الذين سقطوا شهداء في سبيل نصرة دين الله تعالى، وتبليغ رسالة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولو كان الدافع لذلك رغبة جنسية لاختار العُرُب الأبكار ونحوهن من المحببات إلى الرجال، كما كان يحث أصحابه بقوله: «هلاَّ بكرا تلاعبها وتلاعبك»(٢) .

غير أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن له غرض ولا قصد بذلك، وإنما كان غرضه وقصده هو إعفاف تلك الأرامل، وإعالة أولادهن إن كان لهن أولاد، وفاء لهن ولأزواجهن على السبق للإسلام، وعلى التضحية والجهاد في سبيل نصرته صلى الله عليه وسلم ونصرة دينه .

فكان صلى الله عليه وسلم الوفي الحميد الذي يخلفُهم في أهليهم وأولادهم وما وُلُّوا .

---

(١) مرشد المختار إلى خصائص المختار لابن طولون ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

(٢) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في الجهاد، باب استئذان الرجل الإمام ٦٣/٤ ، وورد بلفظ: (هلا جارية) في النكاح، باب الثيبات ٦/٧، وفي النفقات، باب عون المرأة زوجها في ولده ٨٥/٧، وفي المغازي ١٢٣/٥، ومسلم في الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين برقم ٧١٥ من حديث جابر .

٤- المقصد السياسي :

أما المقصد السياسي فقد كان مهمًّا وذا أثر إيجابي عظيم،حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم:قد يهدف من زواجه بإحدى النسوة اللاّتي أصبحن أمهات للمؤمنين لأمر بعيد شأوه، جليل خطره، من تأليف القلوب عليه،وجمع القبائل حوله،التي تولده المصاهرة كما مر غير بعيد، أو الرغبة في المن والترغيب في الإسلام،فكان يتحقق ذلك على خير وجه وأكمله .

فقد تزوج عليه الصلاة والسلام بأم حبيبة - رَمْلة بنت أبي سفيان - صخر بن حرب، وهي بعيدة عنه حيث كانت بأرض الحبشة مهاجرة إلى الله فررا بدينها من أبيها الذي كان من أشد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم وزعمائهم، وذلك بعد أن مات زوجها عبيد الله بن جحش،الذي كان قد هاجر معها أيضا للغرض نفسه ثم لم يلبث أن ارتد إلى النصرانية ثم مات، وعياذا بالله من خاتمة السوء .

فبعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى النَّجاشي ملِك الحبشة رضي الله عنه(١) يطلب منه أن يزوجه بها ففعل بعد أن وكلت خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، وأمهرها النجاشي عنه صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار ، وكان ذلك سنة سبع من الهجرة، وقيل سنة ست ولها من العمر بضع وثلاثون سنة، فلما بلغ أبا سفيان ذلك قال: "هو الفحل لا يقدع أنفه"(٢) ، كناية عن افتخاره بهذه المصاهرة. فكان هذا الزواج سببا لتخفيف الأذى عنه صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه المسلمين،لما حصل له من

---

(١) واسمه أَصحمة بن أبجر النجاشي، والنجاشي لقبه، وكان قد أسلم وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إليه المسلمون في هجرتهم الأولى، وذلك لمَّا عرض عليه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه الإسلام وصفات النبي صلى الله عليه وسلم، ولما مات النجاشي أعلم الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم فصلَّى عليه صلاة الغائب كما هو ثابت في الصحيحن، وانظر الإصابة ١٠٩/١ .

(٢) مضى تفسير هذا اللفظ ص٦٧١ ، ويروى: (لا يقرع) ومعناه واضح .

تأليف قلبه وقلب قومه وعشيرته(١) .

ناهيك عن الغرض الآخر الذي هدف إليه النبي صلى الله عليه وسلم من تزوجه بها رضي الله عنها،وهو جبر قلبها لما نالها من شدة العناء في الهجرة إلى أرض الحبشة، ثم رِدَّةُ زوجها ووفاته، وأصبحت وحيدة فريدة غريبة وهي بنت سيد قومها، فما كان أجدرها بأن يجبر كسرها بمثل هذا الجبران الذي نسيت به كل شدة نالتها، كما دل على ذلك فرحها العظيم،الذي عبَّرت عنه بعطائها الكريم،لأَبرَهة التي زفَّت إليها البشرى تلك، البالغ قدره خمسين دينارا، غير أنها أبت قبوله، بأمر من النجاشي نفسه رضي الله عنه.

فتأمل المقصِد السامي الذي حققه رسول الله صلى الله عليه وسلم بزواجه الميمون من أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها، تدرك بُعد نظر النبي صلى الله عليه وسلم وكمال حكمته، وتعلم أنه لم يقصد الشهوة قطُّ، فقد تزوجها وهي بعيدة عنه في أرض الحبشة فلم يكن لو كان قصده قضاء الوطر ليدع القريبات منه ويتزوج تلك المرأة البعيدة،والتي يعلم أن مجيئها محفوف بخطر الموت في الأسفار والبحار، ولكنه الوفاء لمثل هذه المهاجرة الغريبة، وبعد النظر في مصالح الدعوة ومصالح الأمة لا غير .

وكما حقق النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الزواج غرضا سياسيا مهما،ووفاء عظيما لأتباعه، فقد حقق من زواجه بجويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق، وصفية بنت حيي بن أخطب سيد بني قريظة مقاصد سياسية مهمة أيضا .

أما جويرية بنت الحارث رضي الله عنها فقد تحقق للنبي صلى الله عليه وسلم من

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٩٦/٨ - ١٠٠، ومرشد المختار لابن طولون ص ٢٦٨، والسيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة لابي شهبة ٣١٥/٢، وشبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم للصابوني ص ٣١-٣٢، وانظر إصلاح المجتمع للبيحاني ص ٢٩٦-٢٩٧، ومحمد صلى الله عليه وسلم لمحمد أحمد جاد المولى ص ٢٥٢ - ٢٦٠، وحياة محمد صلى الله عليه وسلم لمحمد حسين هيكل ص ٣١٥ - ٣٢٦ .

زواجه بها غرض سامي طالما تشوَّف الشارع إليه، ألا وهو العتق حيث إنها بعد أن سبيت في غزوة بني المصطلق سنة خمس أو ست، ووقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس، الملقب بخطيب الأنصار رضي الله عنه(١) فكاتبها على تسع أواق فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه في كتابتها فلما دخلت عليه قالت: يارسول الله أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، وقد كاتبت على نفسي، فأعني على كتابتي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أو خير لك من ذلك؟ أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك" قالت: نعم.ففعل ذلك، فبلغ الناس أنه قد تزوجها، فقالوا: أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم!فأرسلوا ما كان في أيديهم من الأسارى والسبايا. قالت عائشة رضي الله عنها: "فلقد أعتق الله بها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة أعظم منها على قومها بركة"(٢) .

فترى الهدف الأسمى الذي تحقق من زواجه صلى الله عليه وسلم بجويرية الذي ما كان يستحقق لولا تزوجه صلى الله عليه وسلم بها، وهذا يدل على سياسة حكيمة بالغة الحكمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم،وعلى مبلغ منزلته صلى الله عليه وسلم في قلوب أصحابه،حيث لم يطيقوا استبقاء الأرقاء والسبايا ممن أصبحوا أصهارا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إكراما له وإجلالا .

---

(١) وكان ممن شهد أحدا وما بعدها، وشهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة، واستشهد يوم اليمامة، وكان له قصة بعد موته مع من أخذ درعه النفيسة عليه بعد استشهاده، انظرها في تهذيب الأسماء ١٤٠/١، والإصابة ١٩٥/١، ونحوهما .

(٢) طبقات ابن سعد ١١٦/٨، وسيرة ابن هشام ٤/٨، والاستيعاب بهامش الإصابة ٢٥٨/٤، والإصابة ٢٦٥/٤، ومرشد المختار ص ٢٦٥، والقصة أخرجها أبو داود في العتق، باب في بيع المكاتب إذا فسخت الكتابة برقم ٣٩٣١، والإمام أحمد في المسند ٢٧٧/٦، والحاكم في المستدرك ٢٦/٤، وصحح الألباني إسناد ابن هشام في تعليقه على فقه السنة ص ٢٩٦ .

(٣) محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل لمحمد أحمد جاد المولى ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

أما صفية بنت حيي رضي الله عنها فإن المقصد السياسي من زواجها كان عظيما ومهما، إذ لولا مبادرة النبي صلى الله عليه وسلم بزواجها لحصلت مفاسد كثيرة في مجتمع أصحابه رضي الله عنهم. فقد كانت نسيج وحدها من سبايا خيبر جمالا وشرفا، وكان دِحْية الكلْبي(١) رضي الله عنه قد جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: أعطني جارية من السبي فقال له: "اذهب فخذ جارية" فأخذ صفية بنت حيي،فجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يانبي الله أعطيت دحية صفية بنت حيي سيد قريظة والنضير ؟ ما تصلح إلا لك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أدعوه بها، فجاء بها فلما نظر إليها النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "خذ جارية من السبي غيرها"(٢) .

فترى كيف غار الصحابة على دحية ونفسوه أن يتميز عليهم بسيدة بني قريظة والنضير، ولم يكونوا يرونه أهلا من بينهم لأن يتميز بذلك دونهم، وكاد يستفحل الخلاف بينهم وبينه لولا تدارك النبي صلى الله عليه وسلم الموقف، ونزع فتيل الخلاف الذي كاد يشتعل .

وقد بين أهل العلم وجه استرجاع النبي صلى الله عليه وسلم صفية من دحية رضي الله عنها .

فقال الإمام النووي رحمه الله تعالى: "يحتمل ما جرى مع دحية وجهين:

أحدهما: أن يكون ردَّ الجارية برضاه، وأذن له في غيرها .

والثاني: أنه إنما أذن له في جارية من حشو السبي، لا أفضلهن فلما رأى النبي صلى الله

---

(١) هو ابن خليفة بن فضالة بن فروة الكلبي، أسلم قديما وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد كلها بعد بدر، وأرسله النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى هرقل، وكان من أجمل الناس وكان جبريل يأتي على النبي صلى الله عليه وسلم في صورته، وتوفي في خلافة معاوية رضي الله عنه. انظر الاستيعاب ٤٧٢/١ مع الإصابة، وتهذيب الأسماء ١٨٥/١ .

(٢) انظر مرشد المحتار ص ٢٧٢، والحديث أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة خيبر ١٦٨/٥، ومسلم في النكاح، باب فضيلة إعتاقه أمته ثم يتزوجها برقم ١٣٦٥، من حديث أنس رضي الله عنه .

عليه وسلم أنه أخذ أنفسهن وأجودهن نسبا وشرفا في قومها وجمالا استرجعها لأنه لم يأذن له فيها، ورأى في إبقائها لدحية مفسدة ؛

لتميزه بمثلها على باقي الجيش ،

ولما فيه من انتهاكها مع مرتبتها وكونها بنت سيدهم ،

ولما يخاف من استعلائها على دحية بسبب مرتبتها، وربما ترتّب على ذلك شقاق أوغيره، فكان أخذ النبي صلى الله عليه وسلم إياها لنفسه قاطعا لكل هذه المفاسد المتخوفة، ومع هذا فعوض دحية عنها"(١) .

وجاء في بعض روايات الحديث أنه صلى الله عليه وسلم اشتراها منه بسبعة أرؤس، يعني أعطاه بدلها سبعة أنفس تطيبا لقلبه، لا أنه جرى عقد بيع كما تدل عليه الروايات الأخرى للقصة(٢) .

فانظر إلى عظيم حكمته صلى الله عليه وسلم وبديع سياسته وبُعد نظره، إذ قطع دابر الفتنة بما لا يبقى لأحد في نفسه أدنى تردد في حسن صنعه وكمال حكمته والتسليم له بذلك .

ناهيك عما كان في تزوجه صلى الله عليه وسلم صفية من مقصد آخر كان صلى الله عليه وسلم يحرص على مثله، ألا وهو تأليف قلوب من بقي من اليهود الذين كانوا بالأمس قوة كبيرة في شبه الجزيرة العربية، لها ثقلها العظيم، ووزنها الكبير، الذي يحسب له حساب، ثم ما لبثوا أن انهزموا هزيمة منكرة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم. غير أن لهم جذورا وفروعا متفرقة في بقاع كثيرة من بقية الجزيرة وأطراف الشام، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يؤلف قلوبهم علّ الله أن يهديهم للإسلام، أو يكفُّوا عنه أذاهم ويُعطوا الجزية، وأقرب سبيل لذلك وأحسنه هي المصاهرة التي تدل على القرب، وتؤدي إلى الود والنصرة، لا سيما من ابنة زعيمهم،إضافة إلى أن في تزوجه صلى

---

(١) شرح النووي على مسلم ٩/٢٢٠ نقلا عن المازري رحمهما الله تعالى .

(٢) شرح النووي على مسلم ٩/٢٢٠ نقلا عن المازري رحمهما الله تعالى .

الله عليه وسلم من ابنت سيدهم تكريما بليغا لها، وصونا لها عن أن ينقص بهامنزلتها فإنها من سلالة نبوة كريمة، وبذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسلّيها ويبين فضلها فيقول لها: "إنَّك لابْنةُ نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي .. "(١) .

فما كان مصابها بأبيها وزوجها وأخيها سيجبرها وهي الكريمة إلا بمثل ذلك التكريم العظيم،الذي نسيت به كل مصاب، وهكذا كانت أخلاقه صلى الله عليه وسلم مع كرماء الناس وساداتهم .

وقد ذكر العلامة ابن طولون(٢) وجوها في حكمة تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم قد أتينا على معظمها وأهمها، ولكن نذكر عبارته في ذلك لمزيد الفائدة، ومعرفة وجوه أخرى من ذلك، فقال:

"أحدها: أنه كان صلى الله عليه وسلم مأمورا بنشر الشريعة وتبليغ الأحكام فأمر بكثرتهن؛لينقلن عنه الأخبار قولا وفعلا،قال تعالى: ﴿ واذكُرن ما يُتلى في بُيوتِكنَّ من آياتِ الله والحِكمةِ ﴾[سورة الأحزاب:٣٤] .

وقد نقلت عائشة رضي الله عنها من ذلك الكثير الطيب،وقد أوضح بعضهم هذا فقال: السر في إباحة أكثر من أربع أن الله تعالى أراد نقل بواطن الشريعة وظواهرها وما يستحى من ذكره وما لا يستحى، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها، فجعل الله تعالى له نسوة ينقلن من الشرع ما يَرينه من أفعاله، ويسمعنه من أقواله التي قد يستحي من الافصاح بها بحضرة الرجال ليكمل نقل الشريعة، فكثْرةُ عدد النساءِ لِنقلهن عنه من الأفعال ما يَستحيي هو من التلفظ به .

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم برقم ٣٨٩٤ من حديث أنس، وقال عنه: حسن صحيح غريب .

(٢) هو محمد بن علي بن أحمد بن طولون الدمشقي الصالحي الملقب بشمس الدين، كان عالما متفننا وعابدا صالحا، له مؤلفات كثيرة في السيرة والتاريخ والفقه وغير ذلك، منها: مرشد المختار، وإعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين توفي سنة ٩٥٣ هـ، انظر الأعلام ٢٩١/٦ .

وأيضا: فقد نقلن ما لم ينقله غيرهن مما رأينه في منامه، وحال خلوته،من الآيات البينات الدالة على نبوته، ومن جده واجتهاده في العبادة، ومن أمور يشهد كل ذي لُـب بأنها لا تكون إلا لنبي، وما كان شاهدها غيرهن فحصل بذلك خير عظيم .

وأيضا: فإن الله سبحانه وتعالى أراد نقل محاسنه الباطنة كما اطّلع الرجال على محاسنه الظاهرة ليكون مكمل الظاهر والباطن ، وقد تزوج بأم حبيبة وأبوها ذلك الوقت عدوه، وصفية، وقد قتل أباها، وغيرهما فلو لم يطّلعن من باطن أحواله على أنه أكمل الخلق لكانت الطباع البشرية تقتضي ميلهن إلى أبائهن وقرابتهن وأن يذكرن ما يرينه، فلما كان مكمل الباطن وشاهدنه، زاد إيمانهن بمحبته صلى الله عليه وسلم .

ثانيها: أنه صلى الله عليه وسلم كان يدَّعي فيه الكفار أنه ساحر، فنفاه الله عنه بكثرة النساء؛ لأن من عادتهن نقل ما يرينه مما لا يمكن خفاؤه، وانظر قصة عائشة وحفصة في قوله تعالى: ﴿ وإذ أسَرَّ النَّبيُّ إلى بعضِ أزواجِه حَديثا ...﴾[سورة التحريم:٣] نجد لذلك الإفشاء حكمة لطيفة ...، ثم نقل عن أهل العلم ما يؤيد ذلك(١) .

ثالثها: أنه صلى الله عليه وسلم كان كثير الحلم، واسع الصدر، حسن الخلق، يصبر على تحمل أذى النسوة، بخلاف آحاد الأمة، فلذلك مُنعوا من الزيادة"(٢) .

فهذه الوجوه التي ذكرها ابن طولون وجيهة جدا، وهي تؤيد ما سبق استنتاجه من مقاصد نكاحه صلى الله عليه وسلم .

وقال الشيخ تقي الدين السبكي(٣) رحمه الله تعالى:

---

(١) قال: "وإلى هذا أشار ابن يونس في كتابه "نهاية النفاسة" فقال: وإنما حبب إليه النساء ليطلعن على ما لديه، فينفين ما نسب إليه مما لا يجوز عليه، قال في شرح التعجيز: فيظهر كذب من رماه بأنه كاهن أو شاعر أو مجنون .." .

(٢) مرشد المحتار إلى خصائص النبي المختار ص ٢٥٢-٢٥٣ .

(٣) هو الإمام الفقيه المحدث الحافظ المفسر الأصولي النحوي اللغوي المجتهد تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الكافي السبكي الشافعي،صاحب التصانيف الكثيرة منها:شرح المنهاج الفقهي،ومنها:فتاواه المشهورة =

« السرُّ في إباحة أكثر من أربع لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى أراد نقل بواطن الشريعة وظواهرها، وما يستحيا من ذكره وما لا يستحيا منه، وكان رسول الله عليه وسلم أشد الناس حياء، فجعل الله تعالى له نسوة ينقلن من الشرع ما يرينه من أفعاله، ويسمعنه من أقواله التي قد يستحي من الإفصاح بها بحضرة الرجال، ليكتمل نقل الشريعة، وكثرة عدد النساء ليكثر الناقلون لهذا النوع، ومنهن عرف مسائل الغسل والحيض والعدة ونحوها، قال: ولم يكن ذلك لشهوة منه في النكاح، ولا كان يحب الوطء للذة البشرية معاذ الله، وإنما حبب إليه النساء لنقلهن عنه ما يستحي هو من الإمعان في التلفظ به، فأحبهن لما فيه من الإعانة على نقل الشريعة في هذه الأبواب .

وأيضا فقد نقلن ما لم ينقله غيرهن مما رأينه في منامه، وحالة خلوته من الآيات البينات على نبوته، ومن جده واجتهاده في العبادة، ومن أمور يشهد كل ذي لب أنها لا تكون إلا لنبي، وما كان يشهدها غيرهن، فحصل بذلك خير عظيم"(١) .

ولست أقصد مما قدمت: دحض شبهات الأعداء الألداء من ملحدين ومستشرقين، الموجهة لصاحب العصمة الإلهية، والهداية الربانية، والتصرفات السديدة صلى الله عليه وسلم، فإنها شبهات مغرِضة لا تنطلي على من له أدنى إلمام بالشريعة الغراء التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما على من في قلبه عمًى، وفي أذنه وقْرٌ عن سماع الهدى، فإني قد كُفيت عن ذلك بما كتبه جهابذة أفذاذ، حازوا قصب السبق إلى ذلك، ولهم القِدح المعلى في العلم، وجودة الكتابة وإحكام نقض الشبهات، ودحض المفتريات(٢)، وإنما قصدت أن ألمح إلماحة سريعة إلى هذه القضية، حتى لا يظل القارىء

= توفي سنة ٧٥٦هـ، انظر البداية والنهاية ٢٥٢/١٤، وطبقات الشافعية لابنه تاج الدين ١٤١/٦ ط الحسينية، وطبقات الحفاظ للسيوطي ص ٥٢٥، وغيرها .

(١) نقله السيوطي في حاشيته على سنن النسائي ٦٤/٧ .

(٢) وذلك كفضيلة الشيخ محمد أبي زهرة في كتابه "خاتم النبيين" ١٤٩٥/٢ - ١٥١٢، والشيخ سعيد حوى في كتابه "الرسول" صلى الله عليه وسلم ص ١٥٩ - ١٧٢، والدكتور محمد حسين هيكل في كتابه =

متلهفا إلى الإجابة، إن كان قد وسوس إليه الشيطان بعض الشكوك، أو سمع بعض الإفك، ذلك لأنه من المعلوم بداهة أن من يهدف إلى إشباع نزواته وشهواته، أن لا يرضيه إشباعها إلا بأحسن الوجوه، وأكمل الأحوال، لا سيما إن كان ذلك متيسرا له، ولا يخفى على دارس تأريخه صلى الله عليه وسلم أنه لم يتزوج إلا بأن بلغ من العمر خمسا وعشرين سنة، وذلك هو عنفوان شبابه، وأوج قوة غريزته، وقد اختار لنفسه في هذا الحال امرأة ثيبة ذات عيال، في الأربعين من عمرها، وهي خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، ومكث معها لا يبغي بها بديلا حتى وافاها الأجل المحتوم بعد مضي خمس وعشرين سنة وهي في عامها الخامس والستين، وهو صلى الله عليه وسلم في الخمسين من عمره المبارك، فعلام يدل هذا ؟!

فلما لحقت بباريها في العام العاشر من النبوة تزوج امرأة أخرى نحو الأولى في الكبر والثيوبة والعيال، وهي سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس القرشية العامرية رضي الله عنها، وذلك لمَّا تأيَّمت من السَّكران بن عمرو رضي الله عنه، الذي مات في مكة في العام العاشر من البعثة، بعد أن عاد من هجرته من الحبشة، وخلَّف أرملته المسكينة بين أهلها الكفار، ثم عقد على عائشة رضي الله عنها، ولكنه لم يدخل بها إلا بعد الهجرة على رأس ثمانية أشهر من مهاجره، وهي الوحيدة من نسائه صلى الله عليه وسلم التي تزوجها وهي جارية بكر، وذلك بعد أن جاوز سن الشباب، ودخل في سن الكهولة(١)، ثم لما بدأت مرحلة الكفاح العملي المستمر بعد هجرته والإذن له صلى الله عليه وسلم بالجهاد، بدأ صلى الله عليه وسلم يوالي بين زوجاته للأغراض السامية التي مر الحديث عنها.

= "حياة محمد" ص ٣١٥ - ٣٢٦، وفضيلة الشيخ الدكتور محمد بن محمد أبي شهبة في كتابه "السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ٢/٢٩٤ - ٣٠٦، وعباس محمود العقاد في كتابه عبقرية محمد ص ١٠٤ - ١٠٧. ولفضيلة الشيخ محمد بن علي الصابوني رسالة خاصة في ذلك إسمها: "شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم". وانظر أيضا فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ص٤٥٢، وعظمة الرسول صلى الله عليه وسلم لمحمد عطية الإبراشي ص ٣٤٢ - ٤٧٠ وغيرهم كثير.

(١) وقد اختلف العلماء في أيهما التي تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم قبلُ، سودة أم عائشة رضي الله =

فهل هذا يدل على أغراض شخصية من تعدد الزوجات ؟!

فأين مكان اللهو والفراغ في حياة رجل توزع ليله ونهاره بين الجهاد المستمر، وبين العبادة وقيام الليل إلى أن تورمت قدماه، وبين تلقي الوحي والسهر على مصالح الدولة الناشئة، وبين تربية الأمة، وتلقي الوفود، والفصل بين قضايا المسلمين ... إلى غير ذلك من مسئوليات الرسالة التي لا تدع لصاحبها فرصة في راحة أو منفذا لهدوء .

فأين مكان الشهوة وحظ الجسد ممن هذه ظروفه وتلك مهامه ؟! ﴿ كبُرت كلمةً تخرُج من أفواههم إنْ يَقولونَ إلَّا كِذبا ﴾[سورة الكهف:٥] .

= عنهما، وقد لخص ابن طولون في مرشد المختار الخلاف وحقق المسألة بقوله:

"فرجح النووي وابن سيد الناس وجمع من الحفاظ أن سودة هي التي تزوجها بعد خديجة، وهو قول قتادة وابن قتيبة وطائفة.

وقيل: بل عائشة ورجحه آخرون. انظر مرشد المختار ص ٢٥٦-٢٥٧ .

المبحث الرَّابع

(الصَّداق)

قال الراغب في المفردات: "صَداق المرأة، وصِداقها، وصُدْقَتُها: ما تُعطَى من مهرها"(١) .

وفي الصحاح قال: "الصَّداق والصِّداق: مهر المرأة، وكذلك الصدقة، ومنه قوله تعالى: ﴿ وآتُوا النّساء صَدُقاتِهنَّ نِحلة ﴾[سورة النساء:٤]، قال: والصدقة: مثله بالضم وتسكين الدال، وقد أصدقتُ المرأة: إذا سميت لها صداقا"(٢) .

فالصداق: هو المهر، "وهو في اللغة ـ أي المهر ـ ماوجب بنكاح" .

وفي الشرع: ما وجب بنكاح، أو وطء(٣)، أو تفويت بضع قهرا،(٤) .

ويحصل الصداق بكل ما صح كونه مبيعا، عوضا أو مُعوَّضا"(٥) .

ومنه تعلم أن الصداق عوض يدفع للمرأة مقابل الانتفاع بِبُضعها .

وقد أوجبه الشارع الحكيم بقوله جل ذكره: ﴿ وآتُوا النِّساء صَدُقاتِهنَّ نِحلة ﴾[سورة النساء:٤](٦)، وقوله جل شأنه: ﴿ فما استَمتعتُم به مِنهُنَّ فآتُوهُنَّ أجُورهُنَّ فريضةً ولا جناحَ عليكم فيما تَراضيتُم به من بعدِ الفريضة إنَّ الله كان عليماً حكيما ﴾[سورة النساء:٢٤] .

---

(١) المفردات للراغب ص ٢٧٨ .

(٢) الصحاح للجوهري ١٥٠٦/٤ .

(٣) أي: وطء شبهة، أو كان العقد فاسدا .

(٤) كأن كان له زوجة كبرى، وعقد على بنت رضيعة، فأرضعتها زوجته الكبرى خمس رضعات متفرقات، فإنه ينفسخ نكاح الاثنتين، ويجب على الكبرى نصف مهر الصغيرة للزوج .

(٥) الياقوت النفيس للشاطري ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .

(٦) أي: عطية عن طيب نفس ا.هـ، تفسير الجلالين ٩٤/١ .

وقـوله تعالى في الآية التالية لهذه: ﴿ ... فانكحوهُنَّ بإذن أهلِهن وآتُوهُنَّ أجورَهن بالمعروف ﴾[سورة النساء:٢٥] .

وفي هاتين الآيتين سماه أجرا؛ لأنه في مقابل المنفعة، كما سماه فريضة أيضا .

فهذه الآيات الثلاث توجب للمرأة على الزوج مهرا بما استحل من بُضعها، ليكون فارقا بين الزواج الشرعي والمخادَنة المحرَّمة، وأيضا ليكون له اليد في القِوامة عليها مقابل ما بذل من ماله وجهده كما قال سبحانه: ﴿ الرِّجالُ قَوَّامون على النِّساء بما فضَّل اللهُ بعضَهم على بعض وبما أَنفقوا من أموالهم ﴾[سورة النساء:٣٤] .

ولما في ذلك أيضا من جبر لخاطر المرأة، وتسلية لها عما تقدمه بعد ذلك من بذل نفسها له، وبذل جهدها في خدمته، وترتيب بيته، وتربية أولاده .

إلى غير ذلك من المصالح الكُبرى التي يحققها بذل المهر .

وجعله فرضا خاصا بالنساء وحقا لهن ليس لأحد سلطان عليه من قريب لها أو بعيد، وذلك ليحقق الغرض الذي بذل من أجله، إذ أنها هي التي تصبح فراشا للزوج، ومنها تنشأ آثار النكاح، ولذلك جعل لها كامل التصرف فيه، فإذا أعطت منه لزوجها عن طيب نفس ورضى، فهو حلال يأكله هنيئا مريئا؛ لأنه تصرف من تام الملك، ومختار التصرف، وكامل الإرادة .

والقرآن الكريم يقرر في الآيات السابقة، ويؤكد على أحقِّية المرأة للمهر، لينهي بذلك ما كانت عليه الجاهلية القديمة، والجاهلية الحديثة من سطو أولياء المرأة من أب أو أخ أو نحوهما على مهرها فيأخذه ويأكله، ولا يرى للمرأة الزوجة حقا في ذلك، فجعله القرآن الكريم حقا لها وحدها دون مشاركة أحد لها فيه، وبذلك يكون قد منع الأولياء من سطوة التعدي عليها في حقها .

وكما منع الأولياء من ذلك، فقد منع أيضا الأزواج من محاولة استرداده عند عدم الوئام، واضطرارهم إلى المفارقة وفك عُرى الزوجية، فقال في ذلك: ﴿ وإن أردتُم استبدالَ زوجٍ مكانَ زوج وآتيتُم إحداهُنَّ قنطارا فلا تَأخذوا مِنه شيئًا أتأخذُونه بُهتانًا وإثمًا مبينا * وكيف تأخذُونه وقد أَفضى بعضُكم إلى بعضٍ وأخذنَ منكم ميثاقًا غليظا ﴾[سورة النساء:٢٠،٢١] .

وفي هاتين الآيتين بالغ الزجر للأزواج عن الرجوع فيما يعطـون لزوجـاتهم مـن مهـر، ولو كان قنطارا وهو كناية عن الكثرة الكثيرة .

فإنه سبحانه صدر ذلك بالنهي الصريح المقتضي للتحريم، ثـم التـأكيد عليـه بـ"شـيئا" وهو نكرة في سياق النهي يقتضي عموم النهي عن الرجوع في الحقير والجليل .

ثم أكد على ذلك النهي بالإنكار الشديد عـن الرجـوع فيـه، حيـث سمـاه بهتانـا وإثمـا مبينا، وساق ذلك مساق الاستفهام الإنكاري التوبيخي، ثم أكد هـذا الإنكـار باسـتفهام إنكـاري تـعـجبي آخـــر هـو أشـد منـه وقعـا وأمضـى أثـرا في النفـس فقـال: ﴿ وكيـف تأخذونه ...﴾، والمعنى: "ليس من المـروءة أن تطمعـوا في أخـذ عـوض عـن الفـراق بعـد معاشرة امتزاج،وعهد متين"(١) .

وذلك كله لتأكيد أحقِّية المرأة بمهرها، وعدم إقرار أحد أن ينازعها فيه،سواء كان وليـا أو زوجا، ولو كان بعد مرحلة الوفـاق وإرادة الفـراق، فإنهـا بتمكينهـا نفسـها ولـو مـرة واحدة، استوجبت كل ما بُذل لها من مهر مهما كثر، لا يحل انتزاعه منها إلا عـن طيـب نفس وقناعة بإهداء أو مخالعة .

وهـذه الآيـات دعـوة إلى مكـارم الأخـلاق في معاملـة النســاء مــن بنــات وأخــوات وزوجات، إذ فيها حث على عفة النفس عن حقوقهن، وإلهابٌ لمشاعر الحنان عليهن، لمـا هن عليه من الضعف،وتذكير بالمودَّة التي تكون بين الزوجين قبـل تنـافر القلـوب، وحـث على الوفاء لهن على ذلك،إلى غير ذلك مما تدل عليه هـذه الآيـات الكريمـات مـن حقـوق زوجيَّة وأسرية .

---

(١) التحرير والتنوير ٥/٢٩٠ .

إصداق النبي صلى الله عليه وسلم نساءه

تلك هي نظرة القرآن الكريم لصداق المرأة، وقد علمت ما فيه من بالغ الدلالة على تعظيمه لشأنه، وذلك من خلال أوامره المتكررة بإيجابه،والتحذير من التعدي على المرأة فيه، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل الناس وأولهم امتثالا لتلك الأوامر القرآنية كلها، حيث كان إذا تزوج امرأة أصدقها بما يقدر عليه كما تدل عليه الأدلة الآتية :

١ ـ سئلت عائشة رضي الله عنها: كم كان صداق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت: "كان صداقه لأزواجه ثنتي عشْرَةَ أُوقيَّة ونِشًّا، قالت: أتدري ما النِّش ؟ قال: لا، قالت: نصف أوقية، فذلك خمسمائة درهم"(١) .

٢ ـ وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ".. ما أصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة من نسائه، ولا أُصدقت امرأة من بناته أكثر من ثنتي عشْرةَ أوقيَّة"(٢) .

كان ذلك صداقه صلى الله عليه وسلم لنسائه كما علمت، وهو مبلغ وسط غير كبير مفرط، ولا قليل مجحف، وقد رضي بقدر هذا المبلغ لابنته فاطمة رضي الله عنها حينما زوجها من علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما تقدم أنه أعطاها درعه الحِطمية، وكان قيمتها أربعمائة درهم(٣)، وكما علمت من أثر عمر الآنف الذكر، وهو يدل على حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أن يدفع للمرأة مهرها، أيا كان الحال، من غنىً وفقر، فهو صلى الله عليه وسلم ما كان يتوانى عن دفع المهر، مع كمال رغبة من يتقدَّم

---

(١) أخرجه مسلم في النكاح، باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن برقم ١٤٢٦، وأبو داود في النكاح، باب الصداق برقم ٢١٠٥، والنسائي في النكاح، باب القسط في الأصدقة ١١٦/٦ .

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح، باب الصداق برقم ٢١٠٦، والترمذي في النكاح، باب رقم ٢٣ برقم ١١١٤، والنسائي في النكاح، باب القسط في الأصدقة ١١٧/٦، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح .

(٣) انظر ص٦٥٤.

لخطبتهن بزواجه من غير مطالبة منهن بصداق لو أنه أراد ذلك، إذ كمال سعادة المرأة وبالغ حظها أن تحظى بزواجه صلى الله عليه وسلم، كما يدل على ذلك ما كان يجري من أمهات المؤمنين اللاتي يخطبهن من كمال الفرح والغِبطة عند علمهن بذلك،

١ - فخديجة بنت خويلد رضي الله عنه كان بالغ سعادتها أن يرضاها النبي صلى الله عليه وسلم زوجا له، كما يدل على ذلك عرض نفسها عليه(١) .

٢ - وسودة بنت زمعة رضي الله عنها ما تمالكت أن قالت حينما علمت برغبة النبي صلى الله عليه وسلم في خطبتها: "وددت ذلك"(٢) .

٣ - وعائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، ما لبث أبوها حينما جاءته خولة بنت حكيم لتبلغه رغبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في عائشة، ما لبث أن قال لها: "قولي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فليأت"(٣) .

إلى غير ذلك من قصص تزوجه صلى الله عليه وسلم بنسائه أمهات المؤمنين رضي الله عنهن واحدة واحدة، ومع ذلك كان يبذل لهن المهر اللائق بهن من غير وكس ولا شطط، إلا صفية بنت حيي، فإنه اصطفاها من سبي خيبر، ثم أعتقها، وجعل عتقها صداقها، وذلك أفضل من أي مال يمكن أن يدفع ،إذ أمهرها حرية نفسها، وكذلك فعل بجويرية بنت الحارث المصطلقية كما مضى تقريره وبيانه قريبا .

وكما كان يحرص على دفع المهر لنسائه،فإنه كذلك ما كان يتوانى عن طلبه لبناته عند تزويجهن، ولو كان الزوج معسرا، كما كان من حال علي رضي الله عنه، وذلك ليقرر لأمته هذا الحق اللازم للزوجة على زوجها فتتأسى به فيه، فيبذل الأزواج مهور نسائهم عن قناعة ورضى وطيب نفس، تأسيا برسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢١٣/١ .

(٢) انظر السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين لابن حجر الهيتمي ص ١٦٢ .

(٣) انظر المرجع السابق ص ٥٥ .

تقريره لذلك بقوله :

وكما كان صلى الله عليه وسلم يقرر ذلك بفعله، فقد كان يقرره أيضا بقوله، حيث كان يأمر مريدي الزواج من أصحابه ببذل الصداق مهما كان حالهم من الفقر، ولكن على قدر ميسورهم، فما كان يكلف أحدا فوق طاقته، وإنما يكلفه بذل ما يقدر عليه،

١ ـ فقد جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله جئت لأهب لك نفسي، فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فصعَّد النظر فيها وصوَّبه ثم طأطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه، فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئا، جلست فقام رجل من أصحابه فقال: يا رسول الله إن لم يكن لك بها حاجة فزوِّجنيها، فقال له صلى الله عليه وسلم: هل عندك من شيء ؟ قال: لا والله يا رسول الله، فقال: "اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئا"، فذهب ثم رجع فقال: لا والله ما وجدت شيئا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "انظر ولو خاتما من حديد"، فذهب ثم رجع فقال: لا والله يا رسول الله ولا خاتما من حديد، ولكن هذا إزاري، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما تصنع بإزارك، إن لبستَه لم يكن عليها منه شيء، وإن لبِستْه لم يكن عليك منه شيء" فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام فرآه النبي صلى الله عليه وسلم مولِّيا فأمر به فدُعي، فلما جاء قال: "ماذا معك من القرآن ؟" قال: معي سورة كذا وسورة كذا، عددها، فقال: "تقرؤهن عن ظهر قلبك ؟" قال: نعم، قال: "اذهب فقد مَّلكتُكها بما معك من القرآن"(١) .

فترى أنه صلى الله عليه وسلم لم يملكه إياها، بمعنى أنه لم يزوجه بها حتى بذل مهرا، وكان المهر لماً أعوزه العين، منفعة عظيمة، هي تعليمه إياها القرآن الذي في صدره، ويحفظه عن ظهر قلب، وذلك دليل على أنه لا بد من بذل المهر وإن قل، وهو ما أجمع

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح، باب تزويج المعسر ٨/٧، ومسلم في النكاح بالصداق وجواز كونه تعليم القرآن برقم ١٤٢٥ من حديث سهل بن سعد .

عليه أهل العلم(١) .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم مع ذلك يكره المغالاة في المهور، ويحبّذ بقاءها في مستوى متوسط، فقد جاء إليه رجل وقال: إني تزوجت امرأة من الأنصار فأعنيّ على مهرها، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هل نظرتَ إليها فإن في أعينِ الأنصار شيئًا؟"(٢)، قال: قد نظرت إليها، قال: "على كم تزوّجتها ؟" قال: على أربع أواق، قال" على أربع أواق ؟! كأنكم تنحتون الفضة من عُرض هذا الجبل، ما عندنا ما نعطيك، ولكن عسى أن نبعثك في بعث تصيب منه، فبعث عينا إلى بني عَبْس فبعثه معهم"(٣) .

هكذا كان صلى الله عليه وسلم يكره المغالاة في المهور؛ لأن في ذلك إجهادا للزوج، وعاملا على عدم القدرة على الزواج الذي كان يحث عليه، ويندب إلى الإكثار منه .

وذلك ما فهمه سيدنا عمر رضي الله عنه من هديه صلى الله عليه وسلم في الصداق، حتى خطب الناس في إمارته وقال: " ألا لا تَغالوا في صدقات النساء، فإن ذلك لو كان مكرُمة في الدنيا، وتقوى عند الله، كان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما أصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة من نسائه، ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقيّة" (٤)

وما بذله الرجل قد كان أقل مما بذله النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان بقدر الثُّلث فقط، ومع ذلك فقد عده صلى الله عليه وسلم كثيرا؛ لأن ذلك فوق طاقته، حتى احتاج إلى أن يستعين بالنبي صلى الله عليه وسلم في دفع المهر الذي تحمله، وذلك

---

(١) انظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ٥/٢٤ .

(٢) يعني بذلك صغر العين .

(٣) أخرجه مسلم في النكاح، باب ندب النظر إلى وجه المرأة وكفيها لمن يريد تزوجها برقم ١٤٢٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) تقدم تخريجه قريبا ص٦٩٩، وهو حديث صحيح .

إرشاد منه صلى الله عليه وسلم على أن يبذل كل واحد بقدر طاقته فقط.

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصدق نساءه، ويوجبه على أمته لما في الصداق من مكارم أخلاقية عظيمة، كالإشارة إلى قِوامة الرجل، والصِّدق في المعاملة، والإحساس بشعور المرأة، والتكريم لها، وغير ذلك مما سبقت الإشارة إليه .

المبحث الخامس

(العشرة بالمعروف)

بعد أن عرفنا تلك المباحث المهمة في النكاح ومقدماته من تحرٍّ،وخطبة،وصَداق،وغير ذلك مما تقدم ذكره من أبحاث، تعيَّن أن يعلم المرء الحال الذي ينبغي أن يكون عليه في حياته الزوجية، ويتمثل ذلك بأهم الأخلاق الأسرية وهي العشرة بالمعروف التي تتم بها السعادة الزوجية، والحياة الاجتماعية المرضية .

ولنبدأ بتعريف العشرة بالمعروف لنعلم ما تعنيه هذه الكلمة من مدلولات سامية .

فالعشرة لغة: المخالطة، يقال: عاشره معاشرةً وتعاشروا واعتَشرُوا: إذا تخالطوا، والمعاشرة مفاعلة منها(١) .

أما المعروف: فهو اسم لكل فعل يُعرف بالعقل أو الشرع حسنُه، وضده المنكر(٢) .

ومعناها بعد تركيبها: « الإنصافُ في القَسم والنفقة والإجمالُ في القول والفعل(٣)» وهو المعنى الذي ندب إليه القرآن الكريم بقوله سبحانه: ﴿ وعاشروهُنَّ بالمعروفِ فإن كرهتُموهُنَّ فعسى أن تَكرهوا شيئًا ويجعلَ اللهُ فيه خيراً كثيرا ﴾[سورة النساء:١٩] .

قال الحافظ ابن كثير: "أي: أطيبوا أقوالكم لهن، وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم، كما تحب ذلك منها، فافعل أنت بها مثله كما قال تعالى: ﴿ ولهُنَّ مِثلُ الذي عليهِنَّ بالمعروف ﴾"[سورة البقرة:٢٢٨](٤) .

وقال القرطبي: "وذلك ـ أي العشرة بالمعروف ـ توفية حقِّها من المهر والنفقة، وألاَّ يعبِس في وجهها بغير ذنب، وأن يكون منطلِقا في القول،لا فظا ولا غليظا،ولا مظهِرا ميلا إلى غيرها" إلى أن قال: "فأمر الله سبحانه بحسن صحبة النساء إذا عقدوا عليهن لتكون

---

(١) القاموس المحيط للفيروز أبادي ٢/٩٠، والصحاح للجوهري ٢/٧٤٧ .

(٢) المفردات للراغب ص ٣٣٠ .

(٣) روح المعاني ٢/٤/٢٤٣ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ١/٤٦٦ .

أُدمة ما بينهم وصحبتهم على الكمال، فإنه أهدأ للنفس وأهنأ للعيش، قال: وهذا واجب على الزوج ولا يلزمه في القضاء"(١) .

فهذا ما تعنيه هذه الكلمة في عرف الشرع كما جاء على لسان أهله .

وهي بهذا المعنى تعني التحلّي بمكارم الأخلاق في معاملة الزوجة، من صبر على ما قد يبدر منهن أو تقصير في أداء واجباتهن، ومن حلم عن إيذائهن في القول أو الفعل، وعفو وصفح عن ذلك، ومن كرم في القول والبذل، ولين في الجانب، ورحمة في المعاملة إلى غير ذلك مما تعنيه مكارم الأخلاق التعاملية الأسرية .

حث القرآن الكريم على معاملة الزوجات بالمعروف :

وكم في القرآن من حث الأزواج على معاملة الزوجات بالمعروف في جميع مراحل الحياة الزوجية من وِفاق وفراق، حيث ابتدأ توجيه القرآن الكريم إليه من أول مراحل بناء الأسرة وهو بذل المهر، حيث أمر ببذله بالمعروف كما قال سبحانه: ﴿ فانكِحوهُنَّ بإذن أهلِهن وآتُوهُنَّ أجورَهن بالمعروف ﴾[سورة النساء:٢٥]، أي: بغير مطل أو اضرار أو نقصان"(٢) .

- وعند تعذر الحياة الزوجية، واختيار أبغض الحلال إلى الله وهو الطلاق ، يقول سبحانه: ﴿ الطلاقُ مرّتان فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسان ﴾[سورة البقرة:٢٢٩] ويقول: ﴿ وإذا طلّقتُم النّساء فبلَغن أجلَهن فأمسِكوهُنَّ بمعروفٍ أو سَرِّحوهن بمعروف... ﴾[سورة البقرة:٢٣١]، والإمساك بالمعروف هو "بالمراجعة وحسن العشرة، والتسريح بالإحسان أو بالمعروف يكون بالطلقة الثالثة، وبأن لا يراجعها حتى تبين"(٣) .

- وعند اختيار الطلاق يرشد المولى عباده ألا يكون الطلاق هو سيف القطيعة الصارم، فأرشدهم إلى المتعة التي تخفف من صولة الوحشة بين الزوجين فقال: ﴿ ومتّعوهن

---

(١) جامع أحكام القرآن ٩٧/٥ .

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص ١٠٩ .

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص ٥١ .

على المُوسِع قدَرُه وعلى المُقتِر قدَرُه متاعًا بالمعروفِ حقًا على المحسنين ﴾[سورة البقرة:٢٣٦]، وقال: ﴿ ولا تَنسَوُا الفضلَ بينَكم إنَّ اللهَ بما تعملون بصير ﴾[سورة البقرة:٢٣٧]، وقال: ﴿ ولِلمطلَّقات متاعٌ بالمعروفِ حقًا على المتقين ﴾[سورة البقرة::٢٤١] .

- وعند اختيار الزوجين العودة إلى حياتهما الزوجية بعد أن تفرقا بالطلاق، أرشد المولى جل وعلا الأولياء إلى أن لا يكونوا حجر عثرة عن العودة إلى الألفة والاجتماع الأسري فيقول: ﴿ وإذا طلَّقتُم النِّساءَ فبلَغن أجلَهُنَّ فلا تعضُلُوهنَّ أن ينكِحن أزواجَهن إذا تَراضَوا بَينهم بالمعروف ...﴾[سورة البقرة:٢٣٢] .

- إلى غير ذلك من الآيات الحاثة على انتهاج المعروف في الحياة الزوجية لتكمل لهذه الحياة السعادة الروحية، مما يدل على أن مبنى الحياة الزوجية على العشرة بالمعروف في كل أطوارها وأحوالها، وهو ما نصت عليه الآية السابقة ﴿ وعاشِروهُنَّ بالمعروف ﴾ .

ثم إن هذه العشرة هي الأصل في الحياة الزوجية التي جعلها الله تعالى على المودة والرحمة كما قال: ﴿ ومن آياتِه أن خلَق لكم من أنفُسِكم أزواجاً لتَسْكُنوا إليها وجعلَ بينَكم مودَّةً ورَحمة ﴾[سورة الروم:٢١]، فمن اتصف بها فقد حقق معنى الحياة الزوجية الصحيحة التي جعلها الله بين الزوجين .

على أن حسن العشرة لا تعني كف الأذى عنهن فقط، بل احتمال الأذى منهن، والحلم عند طيشهن وغضبهن، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كانت أزواجه يراجعنه الكلام، وتهجره الواحدة منهن إلى الليل كما سيأي بيانه في التطبيق إن شاء الله .

ثم أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزاح والملاعبة، فهي التي تطيب قلوب النساء، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يمزح معهن وينزل إلى درجة عقولهن في الأعمال، كما جاء أنه كان يسابق عائشة رضي الله عنها في العدو(١) .

غير أنه لا ينبغي أن يتبسط في الدعابة واللين إلى حد يفسد خلقها، ويسقط بالكلية

---

(١) سيأتي تخريجه قريبا ص٧٠٨ .

هيبته عندها، بل يراعي الاعتدال فيه، فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى منكرا، ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات ألبتة، بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروءة تغير وامتعض، لأن ذلك هو معنى القوامة التي جعلها الله تعالى في يده، فإذا لم يكن سهلا في مواضع السهولة، حازما في مواضع الحزم، فقد أفلت القِوامة من يده، وبدَّل نعمة الله كفرا، وله في رسول الله أسوة حسنة، فقد كان خير الناس لأهله، ولكنه لم يترك الشدة معهن إذا ما اقتضى الأمر ذلك كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

تمثل خلق العشرة بالمعروف
عـــند النبيِّ صـلَّى الله عـلَيـه وسـلَّم

لم تعرف المرأة عشرة زوجية بالمعروف، كما تعنيه هذه العشرة، من كمال لأحد من البشر كما عرفته لرسول الله صلى الله عليه وسلم المبين للقرآن بحاله وقاله وأفعاله .

حيث "كان من أخلاقه صلى الله عليه وسلم معهن أنه جميل العشرة دائم البشر يداعب أهله ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقته، ويضاحك نساءه حتى أنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في البرية في بعض سفراته يتودد إليها بذلك، قالت: "سابقني رسول الله فسبقته وذلك قبل أن أحمل اللحم، ثم سابقته بعد ما حملت اللحم فسبقني فقال: "هذه بتلك"(١) وكان يجمع نساءه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها(٢)، وكان ينام مع المرأة من نسائه في شعار واحد يضع عن كتفيه الرداء وينام بالإزار(٣)، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلا قبل أن ينام يؤنسهم بذلك صلى الله عليه وسلم" قاله الحافظ ابن كثير(٤) رحمه الله تعالى .

ولقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم معيار خيرية الرجال في حسن عشرة الزوجات

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب في السبق على الرجل برقم ٢٥٧٨، وأحمد في المسند ٢٦٤/٦، والنسائي في عشرة النساء ص ٢٨، وابن ماجة في النكاح، باب حسن معاشرة النساء برقم ١٩٧٩ من حديث عائشة رضي الله عنها، وقال العراقي في تخريج الإحياء ٤٤/٢: إسناده صحيح، وصححه الألباني في سلسلته الصحيحة برقم ١٣١ .

(٢) يدل لذلك حديث أنس رضي الله عنه عند مسلم في الرضاع، باب القسم بين الزوجات ..، برقم ١١٦٢.

(٣) ثبت ذلك في حاله صلى الله عليه وسلم مع عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما، انظر السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين لابن حجر الهيتمي ص ٩٠ - ١٤٣ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤٦٦/١ .

فقال: "خيرُكم خيرُكم لأهله، وأنا خيرُكم لأهلي"(١) .

وذلك لأن التَّصنُّع والتظاهر بمكارم الأخلاق تضعف حين يشعر الإنسان بأن له سلطة ونفوذا، ثم تشتد ضعفا حينما تطول معاشرته لمن له عليه السلطة، فإذا ظل الإنسان محافظا على كماله الخُلقي في مجتمع له عليه سلطة، وله معه معاشرة دائمة ومعاملة مادية وأدبية،فذلك من خيار الناس أخلاقا(٢) .

فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم خير الناس لأهله، فإن معاشرته لهم لا بد أن تكون مثالية حقا،في كل ما تعنيه الخيرية من كمال خُلُقي في السُّلوك،والتَّعامل الأدبي، والتعاملي؛ من محبة وملاعبة، وعدل، ورحمة، ووفاء، وغير ذلك مما تقتضيه الحياة الزوجية في جميع أحوالها وأيامها، كما أوضحت ذلك كتب السنة والشمائل والسيرة، وذلك هو ما دلت عليه السنة المشرفة بأحاديثها الكثيرة من سلوكه صلى الله عليه وسلم معهن ومعاملته لهن.

أ ـ فعن محبته لهن يحدِّث أنس بن مالك رضي الله عنه فيقول:

١ـ "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حُبِّبَ إليَّ من الدنيا: النساء والطيب وجعل قرة عيني في الصلاة"(٣) .

٢ ـ وسأله عمرو بن العاص رضي الله عنه قائلا: "يارسول الله من أحبُّ الناس إليك؟ قال: "عائشة" قال: من الرجال؟ قال "أبوها"(٤) .

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم برقم ٣٨٩٥ من حديث عائشة رضي الله عنها وقال: حسن غريب صحيح من حديث الثوري، وقال: ما أقل من رواه عن الثوري، وأخرجه ابن ماجه في النكاح، باب حسن عشرة النساء برقم ١٩٧٧، وابن حبان في صحيحه ٣٣٠/١، ١٨٩/٦ الإحسان .

(٢) انظر الأخلاق الإسلامية للميداني ٤٤/١-٤٥ .

(٣) حديث صحيح تقدم تخريجه ص ٢٥٣ .

(٤) أخرجه الترمذي في المناقب، باب فضل عائشة رضي الله عنها برقم ٣٨٨٥ وقال: حديث حسن صحيح .

ب ـ وأما ملاعبته أهله فتحدثنا عنه عائشة رضي الله عنها فتقول:

١ـ كنت ألعب بالبنات عند النبي صلى الله عليه وسلم وكان لي صواحب يَلعبن معي فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل يتقمَّعن ـ أي يتغيَّبن ـ منه فَيُسرِّبهن إلي فيلعبن معي"(١) .

٢ـ وعن السائب بن يزيد رضي الله عنه أن امرأة جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "ياعائشة أتعرفين هذه ؟ قالت: لا يانبي الله، فقال: "هذه قَينة ـ أي مُغنِّية ـ بني فلان، تُحبِّين أن تُغنِّيك ؟ قالت: نعم، قال: فأعطاها طبقا فغنَّتها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "قد نفخ الشيطان في مَنخريها"(٢) يعني لمَّا اشتدت نشوة غنائها.

٣ـ وعن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تدفِّفان وتضربان،والنبي صلى الله عليه وسلم متغشٍ بثوبه، فانتهرهما أبو بكر فكشف النبي صلى الله عليه وسلم عن وجهه فقال: "دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد" وتلك الأيام أيام منى(٣)،

٤ـ وقالت عائشة رضي الله عنها رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترني وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد،فزجرهم عمر رضي الله عنه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:«دعهم، أمناً بني أرفِدة" يعني من الأمن(٤) .

وفي لفظ قالت: " لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على حِجري، والحبشة يلعبون بِحِرابهم، في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يسترني بردائه،

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب الانبساط إلى الناس ٣٧/٨ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤٤٩/٣، والنسائي في عشرة النساء برقم ٧٤ من الكبرى، وعزاه الهيثمي في المجمع ١٣٣/٨ إلى الطبراني وأحمد وقال: ورجال أحمد رجال الصحيح .

(٣) أخرجه البخاري في المناقب، باب قصة الحبش وقول النبي صلى الله عليه وسلم يا بني أرفدة ٢٢٥/٤ .

(٤) أخرجه البخاري في العيدين، باب إذا فاته العيد يصلِّي ركعتين ٢٩/٢، ومسلم في صلاة العيدين، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد برقم ٨٩٢، وهو المراد باللهو هنا .

لكي أنظر إلى لعبهم، ثم يقوم من أجلي حتى أكونَ أنا الذي أنصرف، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو" .

٥ـ وقد مر معك(١) حديث مسابقته صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها الدال على لعبه صلى الله عليه وسلم مع نسائه بنفسه الشريفة تلطُّفًا بهن، وتأنيسا لهن، لكريم عشرته وعظيم رأفته ورحمته .

٦ـ ومن حسن عشرته وكريم خُلقه صلى الله عليه وسلم ما أفادته السيدة عائشة رضي الله عنها بقولها: "كنتُ أشرب من الإناء، وأنا حائض ثم أناوله النبي صلى الله عليه وسلم فيضع فاه على موضع فيَّ فيشرب، وأتعرَّق العَرْق(٢) وأنا حائض، ثم أناوله النبي صلى الله عليه وسلم فيضع فاه على موضع فِيَّ"(٣) .

وفي رواية: "كنت أتعرَّق العَرْق وأنا حائض فأعطيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيضع فمه في الموضع الذي وضعت فمي فيه، وكنت أشرب من القدح فأناوله إياه فيضع فمه في الموضع الذي كنت أشرب(٤) .

جـ ـ وأما حلمه صلى الله عليه وسلم عن إساءتهن وصبره على أذيَّتهن فهو في ذلك المثل البشري الأعلى، بحيث لم يُسمع بأحد كان أحلم عن نسائه كما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك مع عظيم جنابه، ورفيع قدره، وسُمُوِّ منزلته عند الله تعالى وعند الناس، ولقد مرَّ بك من الدلائل على ذلك في مبحثي الصبر والحلم ما فيه

---

(١) ص ٧٠٨ .

(٢) بفتح العين وإسكان الراء: هو العظم الذي عليه بقية من لحم،يقال: تعرقته واعترقته: إذا أخذت منه اللحم بأسنانك. شرح مسلم ٢١١/٣ .

(٣) أخرجه مسلم في الحيض، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها برقم ٣٠٠ .

(٤) أخرجه أبو داود في الطهارة، باب في مؤاكلة الحائض ومجامعتها برقم ٢٥٩، والنسائي في الطهارة، باب مؤاكلة الحائض والشرب من سؤرها ١٤٨/١ وإسناد أبي داود صحيح .

الكفاية للاستدلال على ما قلت عموما(١)، لكني أزيد هنا ما هو أمس في الدلالة على الموضوع فمن ذلك ما يلي :

١ ـ فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:«كنا معشر قريش نغلبُ النساء، فلمَّا قدمنا على الأنصار، إذا قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار، قال: فصَخَبتُ على امرأتي فراجعتني؛ فأنكرت أن تراجعني، قالت: ولم تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ليراجعنه، وإن إحداهن لتهجره اليوم إلى الليل، قال: فأفزعني ذلك وقلت لها: قد خاب من فعل ذلك منهن، قال: ثم جمعت عليَّ ثيابي فنزلت فدخلت على حفصة فقلت لها: أي حفصة، أتغاضب إحداكُنَّ النبي صلى الله عليه وسلم اليوم حتى الليل ؟ قالت: نعم، قال: فقلت: قد خبتِ وخسرت، أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسوله صلى الله عليه وسلم فتهلكي؟...(٢)"الحديث .

فانظر كيف انزعج عمر رضي الله عنه من مراجعة بسيطة راجعته بها زوجته، والنبي صلى الله عليه وسلم يقبل مراجعة نسائه، بل ويتحمل غضبهن عليه، حتى يَهجرنه من الكلام، وهو النبي الكريم والإمام العظيم، وما ذلك إلا لعظيم حلمه وبالغ صبره صلى الله عليه وسلم .

٢ ـ والأعجب من ذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان مع ذلك الحال يلاطفهن في القول، وكأنه لم يصدر منهن شيء ذو بال، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله عليه وسلم: "إني لأعلم إذا كنتِ عنِّي راضية،وإذا كنت علي غضبى" قالت: فقلت: من أين تعرف ذلك ؟ فقال: "أما إذا كنتِ عنِّي راضية فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت غضبى قلت: لا ورب إبراهيم" قالت: أجل والله يا رسول الله ما

---

(١) انظر ص٥٩٦ مثلا .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها ٣٦/٧ .

أهجر إلا اسمك"(١) .

٣ ـ وعن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم عند بعض نسائه فأرسلت إحدى أُمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي النبي صلى الله عليه وسلم في بيتها يد الخادم، فسقطت الصحفة، فانفلقت فجمع النبي صلى الله عليه وسلم فِلق الصحفة،ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة، ويقول: "غارت أُمكم" ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت(٢) .

فانظر إلى مبلغ حلمه صلى الله عليه وسلم على أزواجه،حيث تظلُّ إحداهن هاجرة له اليوم كله حتى تهجر اسمه الشريف، وتستطيل إحداهن بيدها بين يديه على ما يخالف الواجب في حقه عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك فهو يُغضي عن ذلك ويحلم ويصبر ويصفح، وهو القادر على أن يفارقهن،فيبدله ربه خيرا منهن مسلمات مؤمنات قانتات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا، كما وعده ربه سبحانه إن هو طلَّقهن، ولكنه كان رؤوفا رحيما، يعفو ويصفح ولا يزيده كثرة الجهل عليه إلا حلما .

حـ ـ وأما الوفاء لهن فلعله قد علم مما تقدم عن خلق الوفاء، وتطبيق النبي صلى الله عليه وسلم له في بابه، لاسيما مع زوجه خديجة رضي الله عنها،حتى بلغ من وفائه أن غارت منها عائشة رضي الله عنها وهي لم تدركها و لم تضارها حتى قالت :

١ ـ "ما غِرت على امرأة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما غرت على خديجة لكثرة ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها وثنائه عليها"(٣) .

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح، باب غيرة النساء ووَجْدِهن ٤٧/٧، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضل عائشة رضي الله عنها برقم ٢٤٣٩، والإمام أحمد في المسند ٦١/٦، ٢١٣ .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب الغيرة٤٦/٧، وأبو داود في البيوع والإجارات، باب فيمن أخذ شيئا يغرم مثله برقم ٣٥٦٧ .

(٣) أخرجه البخاري في النكاح، باب غيرة النساء ووَجدِهن ٤٧/٧، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها برقم ٢٤٣٢ .

٢ ـ ومن صور وفائه معهن أنه صلى الله عليه وسلم لما نزلت آية التخيير ﴿ يا أَيُّها النَّبي قُل لأزواجِك إن كنتُنَّ تُرِدنَ الحياةَ الدُّنيا وزينتَها فتعالينَ أُمتِّعكن وأُسرِّحكُنَّ سراحا جميلا ...﴾[سورة الأحزاب:٢١] بدأ بعائشة وقال لها: «إني ذاكر لك أمرا فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك ...»(١) خشية منه أن تختار زينة الحياة الدنيا لصغر سنها، فتخسر الخير الكثير في الدنيا والآخرة، لكنها كانت أحرص على خير نفسها من أبويها،فقالت للنبي صلى الله عليه وسلم: "أفي هذا أستأمر أبويَّ ؟! فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة" .

ثم استقرأ الحُجَر(٢) يخبر نساءه ويقول لهن:« إن عائشة رضي الله عنها قالت: كذا وكذا فقلن: ونحن نقول مثل ما قالت عائشة،رضي الله عنهن كلهن .

وكانت عائشة رضي الله عنها قد قالت له بعد ما اختارت الله ورسوله: وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترتُ، فقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله لم يبعثني مُعَنِّتاً ولا متعنتا، ولكن بعثني معلما ميسرا، لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها"(٣) .

فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة، وذلك يدل على أنهن رضي الله عنهن كنَّ قد تخلَّقن بأخلاق النبوة، فأصبحن يخترن ما اختاره صلى الله عليه وسلم لنفسه من الزهادة في الدنياء والرغبة في الآخرة، وذلك لبالغ تأثرهن بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كانت محل العظمة والكمال .

د ـ أما عدله صلى الله عليه وسلم بين أزواجه،فهو على نحو ما قلت من حبه وملاعبته وحلمه ووفائه، عدل ناشيء عن الشعور بالمسئولية، ومن فِطرة الله تعالى له على الحق والعدل وبعثه بهما .

١ ـ فقد كان صلى الله عليه وسلم كما قالت عائشة رضي الله عنها:« لا يفضِّل

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب ١٤٦/٦ .

(٢) جمع حجرة، وهن البيوت .

(٣) متفق عليه تقدم تخريجه في مبحث الوفاء ص٥٥١ .

بعضنا على بعض في القسم من مكثه عندنا، وكان قلَّ يوم يأتي إلا وهو يطوف علينا جميعا فيدنو من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلغ إلى التي هو يومُها فيبيت عندها»(١) .

٢ - ولم يكن يتغير حاله صلى الله عليه وسلم في العدل تبعا لتغير أحواله سفرا وحضرا، بل لقد كان يعدل في سفره كما يعدل في حضَره، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيَّتُهن خرج سهمُها خرج بها معه، قالت: وكان يقسم لكل امرأة منهن يومها وليلتها، غير أن سودة بنت زمعة وهبت يومها وليلتها لعائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم تبتغي بذلك رضا رسول الله عليه وسلم"(٢) .

تعني بذلك لمَّا كبرت، وأضحت لا إربة لها في الرجال .

٣ - وكان من عدله صلى الله عليه وسلم بينهن أنه كان إذا تزوج ثيِّبا أقام عندها ثلاثا لإيناسها، ثم يقسم لها كسائر نسائه، كما روت أم سلمة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام عندها ثلاثا، وقال لها: "إنه ليس بك على أهلك هوان، إن شئتِ سبَّعت لك - أي: أقمت عندك سبعا - وإن سبَّعت لك سبَّعت لنسائي" قالت: ثلِّث"(٣) .

٤ - ولقد بلغ به الحال في عدله صلى الله عليه وسلم أنه لم يفرِّط فيه حتى في مرض موته،حيث كان يُطاف به عليهن في بيوتهن كل واحدة في نوبتها، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "لمَّا ثقُل النبي صلى الله عليه وسلم، واشتد به وجعه استأذن

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح، باب في القسمة بين النساء برقم ٢١٣٥،وإسناده صحيح .

(٢) أخرجه البخاري في الهبة، باب هبة المرأة لغير زوجها... ٢٠٧/٣، وأبو داود في النكاح، باب القسمة بين النساء برقم ٢١٣٨ .

(٣) أخرجه مسلم في الرضاع، باب قدر ما تستحقه البكر والثيب من إقامة الزوج عندها عقب الزفاف برقم ١٤٦٠، ومالك في الموطأ، كتاب النكاح، باب المقام عند البكر والأيم ٥/٢وأبو داود في النكاح، باب في المقام عند البكر برقم ٢١٢٢ .

أزواجه في أن يمَّرض في بيتي فأذنَّ له ..."الحديث(١) .

٥ ـ وفي رواية قالت: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسأل في مرضه الذي مات فيه: أين أنا غدا ؟ يريد يوم عائشة، قالت: فأذنَ له أزواجه يكون حيث شاء، فكان في بيت عائشة حتى مات عندها، قالت: فمات في اليوم الذي كان يدور عليَّ فيه في بيتي، فقبضه الله وإن رأسه لبين نَحْري وسحَري(٢) وخالط ريقُه ريقي"(٣) .

٦ ـ ومع ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من كمال العدل بين نسائه في كل ما يقدر عليه مما هو في يده، فإنه مع ذلك كان يعتذر إلى الله تعالى فيما لا يقدر عليه مما هو خارج عن نطاق التكليف، كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم فيعدل ويقول: "اللَّهم هذا قَسَمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك"(٤) وهو يعني بذلك القلب كما فسَّره به أبو داود، وقيل: يعني الحب والمودة، كما فسره الترمذي، والمعنى: أن القسمة الحِّسية قد كان صلى الله عليه وسلم يوفِّي بها على الوجه الأكمل لأنها بيده، لكن القلب بيد الله، وقد جعل فيه حب عائشة أكثر من غيرها، وذلك خارج عن قدرته وإرادته .

ومع ذلك فهو يضرع إلى الله أن لا يلومه على ما ليس بيده، مع أن الأمر القلبي لا يجب العدل فيه، وإنما العدل في المبيت والنفقة، ولكن هذا من باب قول الله تعالى: ﴿والذينُ يؤتون ما آتَوا وقلوبُهم وجِلةٌ أنَّهم إلى ربِّهم راجعون﴾[سورة المؤمنون:٦٠] .

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء، باب الغسل والوضوء في المخضب والقدح...، ٥٩/١ .

(٢) السَّحر: الرئة، أي: أنه مات وهو مستند إلى صدرها وما يحاذي سحرها منه، وقيل: السحر ما لصق بالحلقوم من أعلى البطن، ا.هـ، النهاية ٣٤٦/٢ .

(٣) أخرجه البخاري في النكاح، باب إذا استأذن الرجل نساءه في أن يمرض في بيت بعضهن فأذن له ٤٤/٧ .

(٤) أخرجه أبو داود في النكاح، باب في القسم بين النساء برقم ٢١٣٤، والترمذي في النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر برقم ١١٤٠، والنسائي في عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض ٦٤/٧، والحاكم في المستدرك ١٨٧/٢، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وضعفه الألباني في الإرواء ٨٢/٧ برقم ٢٠٨١ .

مما يدل على أن أمر العدل بين الزوجات خطير كما بينه صلى الله عليه وسلم في حديث آخر حيث قال: "من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشِقه ساقط" وفي رواية: (مائل)(١) .

وفي عشرة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه أسوة للمؤمنين، وعليهم معرفتها والتأسي بها لقول الله تعالى: ﴿لَقد كان لكم في رسولِ الله أُسوةٌ حسنة لمن كان يرجو اللهَ واليومَ الآخِر وذكر اللهَ كثيرا ﴾[سورة الأحزاب:٢١]، لأن فعله صلى الله عليه وسلم كقوله وتقريره،تشريع لأمته،وهدى لهم،يجب عليهم الاقتداء به ما لم يكن الفعل خاصا به.

حثه صلى الله عليه وسلم الرجال على حسن معاشرة أزواجهم :

ومع ذلك فقد دل النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى ما تنبغي أن تكون عليه العشرة الزوجية بقوله، كما دلهم على ذلك بفعله، والثابت عنه صلى الله عليه وسلم في هذا الباب أحاديث كثيرة أقتطف منها ما يأتي، من ذلك:

١ـ ما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "استوصوا بالنساء خيرا فإن المرأة خلقت من ضِلَع، وإن أعوج ما في الضِّلَع أعلاه، فإذا ذهبت تُقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرا" .

وفي رواية عند مسلم: "وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها"(٢) .

---

(١) أخرجه أبو دود في النكاح، باب القسمة بين النساء برقم ٢١٣٣، والترمذي في النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر برقم ١١٤١، والنسائي في عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض ٦٣/٧ من المجتبى وابن حبان في صحيحه ٢٠٤/٦ الإحسان، والحاكم في المستدرك ١٨٦/٢، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في إرواء الغليل ٨٠/٧ برقم ٢٠١٧ .

(٢) البخاري في النكاح، باب الوصاة بالنساء ٣٤/٧، وفي غيره، ومسلم في الرضاع، باب الوصية بالنساء برقم ١٤٦٨، والترمذي في الطلاق، باب ما جاء في مداراة النساء برقم ١١٨٨ .

فانظر كيف جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين الوصية بينهن وبيان حقيقتهن، ليكون ذلك أدعى إلى قبول وصيته، لأنه إذا كان طبعها العوج، فإن من الواجب على الرجل أن يصبر عليها ولا يؤمل أن تكون مستقيمة على الصراط، فإنها تصير إلى ما جُبِلت عليه ولا بد، ولذلك كان طلب استقامتهن على النحو الأعدل مثار تعجب الشعراء حتى قال بعضهم :

هي الضِّلَعُ العوجاء لست تُقيمها ... ألا إنَّ تقويم الضُّلوع انكسارُها

وقال آخر فيما هو أعم منه :

ومكلِّف الأشياء غير طباعها ... متَطَلِّب في الماء جَذوة نار

٢ ـ وما زال النبي صلى الله عليه وسلم يكرر هذه الوصية كلما حانت الفرصة، ففي خطبة حجة الوداع أفرز لها جانبا كبيرا من خُطبته العظيمة حيث قال صلى الله عليه وسلم: "ألا واستوصوا بالنساء خيرا، فإنهن عَوَانٌ ـ أي: أسيرات ـ عندكم، ليس تملكون شيئا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن ذلك فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربا غير مبرِّح(١)، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا، ألا وإن لكم على نسائكم حقا، ولنسائكم عليكم حقا، فأما حقُّكم على نسائكم فلا يوطئنَ فُرُشكم من تكرهون، ولا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وإن حقَّهن عليكم أن تحسِنُوا إليهن في كسوتهن وطعامهن"(٢) .

وإنما كان النبي صلى الله عليه وسلم يكرر وصيته بالنساء، لما يعلمه من حالهن الذي بينه في الحديث السابق، وهو الحال الذي قد لا يقدر على تحمُّله بعض الرجال الذين لا يملكون أنفسهم عند الغضب فيحمله عوج المرأة إلى أن يفارقها فيتفرَّق شمله، وتشتت أسرته وأهله .

---

(١) أي: غير مؤثر .

(٢) أخرجه مسلم في الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم برقم ١٢١٨، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، والترمذي في تفسير التوبة برقم ١٣٠٨٧، واللفظ له .

ولذا أرشدالنبي صلى الله عليه وسلم الأزواج في حديث آخر إلى ما فيه صلاح حاله مع أسرته بقوله:

٣ - "لا يَفْرِك - أي: لا يُبغض - مؤمن مؤمنة، إن كره منها خُلُقا رضي منها آخر"(١).

٤ - وقال لهم أيضا: "إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خُلقا وألطفهم بأهله"(٢) .

٥ - وقال: "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي"(٣) .

٦ - وقال: "كل شيء ليس من ذكر الله عز وجل فهو لهو،أو سهو،إلا أربع خصال: مشي الرجل بين الغَرضين(٤) ، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، وتعليم السباحة"(٥) .

إلى غيرذلك من الأحاديث الكثيرة المعلومة الحاثة على انتهاج الأخلاق الحميدة مع الأهل والعشيرة .

تأديبه صلى الله عليه وسلم نساءه إذا اقتضى الأمر ذلك :

ومع تلك المعاشرة التي كان النبي صلىالله عليه وسلم ينتهجها مع أهله أمهات المؤمنين رضي الله عنهن،رحمة ورأفة وعطفا وتلطفا، إلا أنها لم تكن على ذلك الحال في جميع

---

(١) أخرجه مسلم في الرضاع، باب الوصية بالنساء برقم ١٤٦٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان، باب ما جاء في استكمال الإيمان برقم ٢٦١٢، وأحمد في المسند ٤٧/٦، ٩٩، من حديث عائشة رضي الله عنها، وهو مرسل من حديث أبي قلابة عن عائشة، وهو لم يسمع من عائشة، ولكن للحديث شواهد بمعناه، منها الحديث الذي بعده، وهو حديث صحيح، فدل على أن للحديث أصلا، ولذلك صححه الترمذي مع تصريحه بعدم سماع أبي قلابة من عائشة، وقال: وفي الباب عن أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما .

(٣) حديث صحيح تقدم تخريجه قريبا ص٧٠٩.

(٤) أي: بين الهدفين في تعلم الرماية، أو عند التحام القتال .

(٥) أخرجه النسائي في الكبرى، كتاب عشرة النساء برقم ٥٢، وعزاه الهيثمي في المجمع ٢٧٢/٥ إلى الطبراني في الأوسط والكبير، وإلى البزار قال: ورجال الطبراني رجال الصحيح خلا عبد الوهاب بن بخت وهو ثقة، وذكر شواهد أخرى للحديث .

الأحوال؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان حكيما يضع كل تصرف في مكانه اللائق به، فحيث كانت تلك العشرة أجدى وأولى انتهجها، وإذا كان التأديب والزجر والهجر هو الأجدر اتخذه لأنه كما قيل :

ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوادر تحمي صفوه أن يُكدَّرا(١)

فالنساء بما فطرن عليه من الاعوجاج، وحدة العاطفة، يحتجن حتما إلى تقويم وتربية وتأديب، ولأجل هذا خوَّل الله تعالى الرجال هذه المسئولية حيث قال: ﴿ الرِّجالُ قوّامونَ على النساء بما فضَّل اللهُ بعضَهم على بعضٍ وبما أنفقوا من أموالِهم فالصَّالحاتُ قانِتات(٢) حافظاتٌ للغيب(٤) بما حفِظَ اللهُ واللّاتي تَخافونَ نُشوزهن فعِظُوهنَّ واهجُروهن في المضاجِع واضربوهُنَّ فإن أَطعنكم فلا تَبغُوا عليهنَّ سبيلا إنَّ الله كان علياً كبيرا ﴾[سورة النساء:٣٤] .

والنبي صلى الله عليه وسلم في عشرته مع أهله لم يستغن عن اتخاذ هذا الأسلوب ليكون أسوة لأمته في التربية والتأديب .

فإنه عليه الصلاة والسلام لما سأله نساؤه النفقة الخارجة عن حده، وأردن التوسع في الدنيا ولذّاتها، خلاف ما اختاره لنفسه منها، هجرهُنَّ وآلى من الدخول عليهن شهرا، حتى أنزل الله تعالى عليه: ﴿ يا أَيُّها النَّبيُّ قل لأزواجِك إن كُنتُنَّ تُرِدنَ الحياةَ الدنيا وزِينتها فتعالينَ أُمتِّعكُنَّ وأسرِّحكن سَراحًا جميلا * وإن كنتُنَّ تُردن اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرةَ فإنَّ الله أعدَّ للمحسِنات منكُنَّ أجراً عظيما ﴾[سورة الأحزاب:٢٨،٢٩]، فخيَّرهن النبي صلى الله عليه وسلم في البقاء معه على الكفاف، أو المفارقة فاخترن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم كما تقدمت الإشارة إلى ذلك من حديث أنس وأم سلمة وابن عباس في الصحيحين وغيرهما .

---

(١) البيت للنابغة الذبياني في أبيات أنشدها النبي صلى الله عليه وسلم، انظر مجمع الزوائد ١٢٩/٨ .

(٢) أي: مطيعات لأزواجهن .

(٣) أي: لفروجهن وغيرها في حال غيبة أزواجهن .

وهكذا كان عليه الصلاة والسلام إذا جد الجد في معاملته لهن ، بأن أخطأت خطأ لا يمكن التغاضي عنه، وذلك بأن كان دينيا، فإنه لا تأخذه في الإنكار عليهن وزجرهن في الله لومة لائم،فكان يعظ، ويوجّه، ويخوف، ويغضب، .. بحسب مقام كل قضية مما هو معلوم ولا يخفى أمره .

وهذا مما يدل على تكافؤ أخلاقه صلى الله عليه وسلم وتوازنها، حيث يضع كل أمر في نصابه ومحله اللائق الذي لا ينبغي غيره، كما تقدم لك بيانه وإيضاحه في المدخل فتذكّره .

المبحث السادس

(الإنصاف والإحسان عند الاختلاف)

قد علمنا أن الحياة الزوجيَّة ينبغي أن تكون مبنيَّة على المـودَّة والرحمـة وحسـن العشـرة؛ لأنها حياة اجتماعية طويلة بين أطراف مختلفة لا يراعى فيها قرابة قريبة،ولا رحم موصولـة غالبا،وحيث كانت كذلك في الغالب، فإنه لا يمكـن أن تثمـر وتؤتـي أُكُلَهـا مـن الهـدف الذي بنيت من أجله؛إلا أن تكون على ذلك الحال من المودَّة وحسن العشرة .

ولكن الشرع الحنيف بما يحويه من شموليَّة لا يُنكر أن بناء الزوجية على ذلك قد يتعـذر في بعض أفراد المجتمع أو قد يحدث له أن ينهار، وفي هذه الحالة كان لا بد من أن يضع له تشريعا لائقا يتلاءم مع سماحته وأهدافه، ومع الحالة التي وصل إليها هذا الـزواج أو البيـت الأسري الذي تصدعت أركانه(١) .

حديث القرآن الكريم عن الإنصاف والإحسان عند الاختلاف:

وقد شرع القرآن الكريم لهذه الحالة تشريعات مفعمة بالرحمة والإصلاح؛حيث كـانت بمثابة إرشادات جليلة لإبقاء الحياة الزوجية متماسكة، وإعادة شملها بعد ظهـور التصـدع، إذ أنه لم يحبذ الإسراع في فَصم عُرى الزوجية على الفور، بمجـرد انـدلاع الشـقاق بـين الزوجين، وإنما شرع تشريعات أولية لمحاولة رأب الصدع، وإعـادة الشـمل: مـن الوعـظ، فالهجر، فالضرب التأديبي اليسير، فالتحكيم، فالطلاق أو الخلـع في نهايـة المطـاف، وعنـد الوصول إلى هذه المرحلة التي تعتبر بغيضة لدى الشرع المطهر؛لما لهـا مـن آثـار وخيمـة، لم يكتف بمحاولاته السابقة في الإبقـاء علـى الحيـاة الزوجيـة، والتسـليم بـالأمر الواقـع عنـد نفاذها، وإنما كانت له هنا محاولات قد تثمر إيجابيـا في إعـادة الأمـر إلى وضعـه الطبيعـي، وذلك أن جعل الطلاق على كيفية خاصة وعلى مراحل متعددة.

---

(١) انظر الطلاق في الشريعة الإسلامية والقانون للدكتـور أحمـد الغنـدور، ط الأولى، دار المعـارف بمصـر سـنة ١٣٨٧ هـ، وتفسير الطاهر بن عاشور:التحرير والتنوير ٢/٤٦٠ .

أما الكيفية: فأن يكون في طهر لم يجامعها فيه، وأما المراحل: فأن يكون بطلقة واحدة رجعية، وهي في هذه الحال في حكم الزوجة من حيث السكنى والنفقة والميراث عدا المعاشرة الزوجية،فيحق له أن يراجعها في أي وقت ما دامت في العدة بغير عقد ولا مهر وإنما بقوله: أرجعت زوجتي فلانة إلى عصمتي، والإشهاد عليه عند الشافعية ومن وافقهم، فإن انقضت العدة و لم يراجع بانت منه، وحصل الغرض من الفرقة، ولا ترجع إليه بعدها إلا بمهر وعقد جديدين وترجع على ما بقي معها من عدد الطلقات.

أما إذا راجع فيها فإنها تعود إلى العصمة وتبقى معه بطلقتين،وترجع لها كل حقوقها الزوجية، وما يترتب عليها من تشريعات عند فساد العشرة ثانية على النحو الذي أشرت إليه آنفا، إلى أن تتم عدة الطلقات الثلاث فحينئذ لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره.

هذا مجمل ما أتت به الشريعة الغراء من أحكام تشريعية لمعالجة ما يطرأ على الحياة الزوجية من شقاق، وعند استقراء كتاب الله تعالى نجد هذه التشريعات مبينة فيه أكمل بيان.

حيث تحدث عن ذلك في نحو ثلاث عشرة آية،بين فيها جميع مسائل الحياة الزوجية عند الاختلاف على النحو الذي تقدم عرضه.

وذلك يدل على حرص الشريعة الإسلامية على إبقاء أواصر الزوجية متماسكة، والحفاظ عليها من الانهيار، الذي يترتب عليه أضرار ومفاسد عظيمة للزوجين أنفسهما، ولأولادهما ومجتمعهما .

وسأذكر بيان هذه التشريعات في الكتاب الكريم على سبيل الإيجاز.

ويمكن أن أعيد هذه التشريعات إلى مرحلتين: مرحلة محاولة الوِفاق، ومرحلة الفراق.

مرحلة الوفاق :

أما المرحلة الأولى وهي مرحلة محاولة الوِفاق، فقد جاءت في قول الله تعالى: ﴿ واللَّاتي تَخافونَ نُشوزَهنَّ فعِظوهُنَّ واهجروهن في المضاجِع واضربُوهنَّ فإن أطعنَكم فلا تبغوا عليهنَّ سبيلا إنَّ الله كان علياً كبيرا * وإن خِفتُم شِقاقَ بينِهما فابعثُوا حَكَمًا من أهلِه وحَكَماً من أهلها إنْ يُريدَا إصلاحًا يُوفِّقِ اللهُ بينَهما إنَّ الله كان عليماً خبيرا ﴾[سورة النساء:٣٤، ٣٥] .

فهذه الآية تضمنت ما ينبغي القيام به عند خوف فساد العشرة لظهور بوادر الشقاق بنشوز المرأة عن زوجها، وهو عصيانها وتعاليها عما أوجبه الله عليها من الطاعة لزوجها، حيث أرشد الله تعالى الأزواج إلى محاولة إصلاح شأنهما بأحسن الوسائل، وهي: الوعظ فالهجر فالضرب على الترتيب، لا يرتقي إلى مرتبة مهما حصل الغرض بالمرتبة الأخف، بل يجب الاكتفاء بها، ولم يجز الإقدام على المرتبة الأشق .

أما الوعظ: فبالتَّخويف بالله تعالى وأليم عقابه إن هي أصرَّت على نشوزها، وببيان عِظَم حقِّه عليها ، وذلك كأن يقول لها: اتَّقِي الله فإن لي عليك حقا،وارجعي عمَّا أنت عليه،واعلمي أن طاعتي فرض عليك، ويذكِّرها بقوله صلى الله عليه وسلم: "لو كنتُ آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها"(١)، وقوله عليه الصلاة والسلام: "إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح"(٢) .

فإن كان نشوزها جهلا بحقه، أو كان ينفعها الذكرى، كان هذا الوعظ كافيا لها، فلا يتعداه إلى المرحلة الثانية التي هي الهجر .

فإن أصرت على ذلك النشوز فعند ذلك يهجرها في المضجَع، أي: في فراش النوم، كأن يضاجعها على فراشها ويولِّيها ظهره، فإن الزَّوج إذا أعرض عن فراشها إن كانت محبة للزوج فذلك يشق عليها، فترجع للصلاح، وتترك النشوز، وإن كانت تبغضه وافقها ذلك الهجران، فكان ذلك دليلا على كمال نشوزها .

وعندئذ يكون قد عاملها بالتي هي أحسن فلم ينجع معها ذلك، فحقُّه أن ينتقل إلى الطور الأخير في هذه المرحلة وهو الضرب الذي هو آخر العلاج في هذه المرحلة .

---

(١) أخرجه الترمذي في الرضاع، باب ما جاء في حق الزوج على المرأة برقم ١١٥٩ من حديث أبي هريرة، وقال الترمذي: حسن صحيح، وله شاهد عند أبي داود بنحوه في النكاح، باب حق الزوج على المرأة برقم ٢١٤٠ من حديث قيس بن سعد .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها ٣٩/٧، ومسلم في النكاح برقم ١٤٣٦ من حديث أبي هريرة .

فإنه هو الذي يصلحها له، ويحملها على توفية حقه، والضرب المراد هنا هو ضرب الأدب غير المبرِّح وهو الذي لا يكسر عظما، ولا يُشين جارحة، ويجتنب الوجه؛ لأنه مجمع المحاسن، ويكون مفرَّقا على بدنها، ولا يوالي به في موضع واحد لئلا يعظم ضرره؛ لأن المقصود منه هو الصلاح لا غير، فإذا حصل بذلك العود إلى الطاعة فقد حصل المقصود(١)، وإن لم يحصل بذلك، وكان النشوز منهما معا فعليهما أن يلتمسا إصلاح أمرهما من آخرَين غيرهما، بأن يحكِّم كل واحد منهما حكَمًا، يجتمعان فيبحثان قضيتهما ويحكمان بما يريانه من اجتماع بالتي هي أحسن، أو فراق كذلك كما قال الله تعالى: ﴿ وإن خِفتُم شِقاقَ بينِهما فابعثوا حَكَماً من أهلِه وحَكَماً من أهلِها إن يُرِيدا إصلاحًا يُوفِّقِ اللهُ بينَهما .. ﴾[سورة النساء:٣٥] .

فإن اجتمعا على أمر وجب المصير إليه اجتماعا أو افتراقا، أما إذا اختلفا لم يلزم أحدهما شيئا، وهذا التحكيم هو آخر محاولة جادة لإعادة اللُّحمة الأُسرِيَّة إلى وضعها اللائق، فإن فشل فليس وراءه إلا التفريق إن لم يفرق الحكمان أنفسهما .

وهنا ينبغي أن يُعلم أن هذه المحاولة الجادة بُذلت لمَّا كان إفساد العشرة ناشئا من قبل الزوجة بالأخص، وأيضا لما استفحل الشقاق فصار منهما معا .

أما إذا كان فساد العشرة ناشئا من قبل الزوج،فإن القرآن الكريم قد أعطى المرأة الحق في الخلاص من زوجها بالمخالعة منه، وهو ما يكون في المرحلة الثانية من التقسيم السابق، التي هي مرحلة الفراق، والتي جاء درو الحديث عنها الآن .

المرحلة الثانية: مرحلة الفراق :

وهذه المرحلة تكون في ثلاث حالات :

١ ـ يأس الرجل من صلاح زوجته .

٢ ـ يأس الحكمين من إصلاح حالهما .

٣ ـ كراهة المرأة لعشرة زوجها .

---

(١) انظر تفسير هذه الآية في تفسير القرطبي ٥/١٧١-١٧٣، والتفسير الكبير للفخر الرازي١٠/٩٠، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٤٩٢، ومحاسن التأويل للقاسمي ٥/٣٣-١٣٤، ونحوها .

أما الحالتان الأوليان فقد علمنا كيف شرع الإسلام محاولة جادة لبقاء العصمة الزوجية، وأنه لم يُبق وسيلة للإصلاح إلا طرَقها، فإذا نفدت تلك الوسائل فإنه لا جُناح على الزوج أن يفصم العروة الزوجية، إذ أنه لا خير في بقاء زوجية متناحرة بل عليهما أن يتفرقا، فلعلَّ كل واحد منهما أن يتهيأ له بناء حياة زوجية أخرى يعيش في ظلها آمنا هادئا كما قال الله تعالى: ﴿ وإن يَتَفَرَّقا يُغنِ اللهُ كلاً من سَعتِه وكان اللهُ واسعاً حكِيما ﴾[سورة النساء:١٣٠] .

ولكن يجب أن يكون التفرق على النحو الذي شرعه الله تعالى من العدل والإنصاف بغير ضرر ولا إضرار وذلك بأن يكون على النحو الآتي :

١ ـ أن يوقع الطلاق في طُهر لم يجامعها فيه لقول الله تعالى: ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ إذا طلَّقتُمُ النِّساء فطلِّقوهُنَّ لِعدَّتهن ﴾[سورة الطلاق:١] أي: مستقبلات العدة بأن تكون المرأة قد طهرت من الحيض أو النفاس وقبل أن يمسها الزوج فيه، لأن في ذلك تبرئة لرحمها من الحمل، وتقصيراً لزمن عدتها؛ لأن زمن الحيض أو النفاس لايُحسب من العدة، فلو طلَّقها وهي حائض أو نفساء كان قد ضارَّها بتطويل العدة عليها، وليس ذلك من الإحسان أو المعروف الذي أمر الله تعالى به بقوله: ﴿ فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسان ﴾[البقرة:٢٢٩] ولذلك قال هنا: ﴿ وأَحصُوا العِدَّة واتَّقوا اللهَ رَّبكم ﴾ إشارة إلى وجوب مراقبة الله تعالى في عدم مضارَّة الزوجة،والإشارة إلى أنه سبحانه وتعالى يعلم ذلك إن أراده الزوج، وفي هذا من ترتيب المهابة بالتذكير بالله ما لا يخفى .

وأما إذا كان قد جامعها في الطُّهر فإنه لا يطلقها فيه أيضا؛ لأنه قد يندم على فعل ذلك، إذ لعلها قد تحمل من ذلك الجماع فيؤدي ذلك إلى ضياع المولود، ولو علم ذلك لعلَّه يُشفق عليه، فيمتنع عن الطلاق، أو لعله إنما أراد الطلاق لعدم حمل المرأة، فإذا ما طلَّق والحالةُ هذه فلعلها تكون قد علقت منه في جماعه ذاك، فإذا علم حملها وقد فارقها فإنه سيندم ندما شديدا على ما أقدم عليه، ناهيك عن أنه يجعل المرأة في حِيرة، إذا لا تدري سريعا بحالها وشأن عدتها، أهي حاملة فتعتد بوضع الحمل، أم هي حائل فتعتد بالأطهار .

على أن هناك حكمة أخرى خفيَّة لمنع الطلاق في الحيض أو الطهر الذي مُست فيه المرأة، وهي رغبة الشارع في تحاشي الطلاق والإبقاء على الحياة الزوجية ما أمكن؛ لأن الزوج إذا أراد الطلاق ومنعه الشارع من إيقاعه في هذه الفترة فلربَّما تروَّى في هذه الفترة، وأحجم عما أراده فيعود حالهما إلى سالف عهدهما وئاما ومحبة(١)، ولذلك يقول المولى جل ذكره: ﴿ يا أيُّها النبيُّ إذا طلَّقتُم النِّساءَ فطلِّقوهُنَّ لِعدَّتِهن وأَحصُوا العِدَّةَ واتَّقُوا اللهَ رَبَّكم لا تُخرِجُوهُنَّ من بيوتِهنَّ ولا يَخرُجْنَ إلاَّ أن يَأتينَ بفاحشةٍ مُبيِّنَةٍ وتلكَ حدودُ اللهِ ومن يتعدَّ حدودَ اللهِ فقد ظلَم نفسَه لا تَدري لعَلَّ اللهَ يُحدِثُ بعدَ ذلكَ أمرا ﴾[سورة الطلاق:١] .

والعدة التي أمر المولى أن تطلق النساء فيها هي الطهر الذي لم تُمَسَّ المرأةُ فيه(٢) .

وقد علَّل الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ لا تَدري لعلَّ اللهَ يُحدِثُ بعدَ ذلك أمرا ﴾ أي:"لا تدري أيها المتعدي عاقبة الأمر، لعل الله يحدث في قلبك بعد ذلك الذي فعلت من التعدي أمرا يقتضي خلاف ما فعلته، فيبدِّل ببغضها محبة، وبالإعراض عنها إقبالا إليها"(٣).

٢- إذا ما تحرَّى الحالات السابقة ثم عزم على الطلاق فعليه أن يطلق طلقة واحدة فقط، ليكون الطلاق رجعيا يمكنه أن يرجع فيه إذا مسَّا ألم الفراق، ومرارة الوحشة، فيعودان إلى الصَّفاء الروحي، والهدوء العائلي، والمودَّة المتبادلة .

وهذا ما أذن الله تعالى به بقوله: ﴿ الطَّلاقُ مرَّتان فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ

---

(١) انظر الزواج والطلاق في الإسلام لزكي الدين شعبان ص ٩٣،٩٤ ط القاهرة ١٣٨٤ هـ ، وأبغض الحلال إلى الله تعالى لنور الدين عتر ص ٦٩،٧٠، ومحاسن التأويل للقاسمي ١٦/١٩٢ .

(٢) كما يدل لذلك قصة تطليق عبد الله بن عمر زوجته وهي حائض، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم بمراجعتها، ثم تطليقها في الطهر إن شاء، وقال له: "فإنها العدة التي أمر الله عز وجل أن يطلق لها النساء" أخرجه الشيخان؛ البخاري في أول كتاب الطلاق ٧/٥٢، ومسلم في الطلاق برقم ١٤٧١.

(٣) محاسن التأويل ١٦/١٩١ .

بإحسان ...﴾[سورة البقرة:٢٢٩] أي: أن التطليق الشرعي يجب أن يكون تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع والإرسال دفعة واحدة(١) ، وهو الطلاق الرجعي الذي يتمكن به المطلِّق من إعادة مطلَّقته إلى عصمته .

وفي هذا «توسعة على الناس ليرتأوا بعد الطلاق ما يليق بحالهم وحال نسائهم، فلعلهم تعرض لهم ندامة بعد ذوق الفراق، ويَحُسُّون ما قد يغفلون عن عواقبه حين إنشاء الطلاق عن غضب أو عن ملالة كما قال تعالى: ﴿ لا تدري لعلَّ الله يُحدث بعد ذلك أمرا ﴾ [سورة الطلاق:١](٢) .

قال الفخر الرازي: «الحكمة في إثبات حق الرجعة أن الإنسان مادام يكون مع صاحبه لا يدري أنه هل تشقُّ عليه مفارقته أو لا، فإذا فارقه فعند ذلك يظهر، فلو جعل الله الطلقة الواحدة مانعة من الرجوع لعظمت المشقَّةُ على الإنسان بتقدير أن تظهر المحبة بعد المفارقة، قال: ثم لما كان كمال التجربة لايحصل بالمرة الواحدة فلا جرم أثبت تعالى حق المراجعة بعد المفارقة مرتين، وعند ذلك قد جرَّب الإنسان نفسه في تلك المفارقة، وعرف حال قلبه في ذلك الباب، فإن كان الأصلح إمساكها راجعها وأمسكها بالمعروف، وإن كان الأصلح له تسريحها سرَّحها على أحسن الوجوه، قال: وهذا التدريج والترتيب يدل على كمال رحمته ورأفته بعبده»(٣) .

فإذا تحرى الزوج هذا النحو في طلاقه، أعني زمن الطلاق وعدده، كان طلاقه سُنِّياً، وكان قد راعى التيسير الذي شرعه الله تعالى له رحمة به ورأفة، وكان أملك لأمره، ولم يقدم على هذا الشأن الخطير إلا عن دراية بأبعاده ومصالحه ومفاسده، فيقلُّ بذلك ضرره وخطره، وأما إذا لم يراع ذلك فطلق طلاقا بِدعيا، كان قد ضيَّق على نفسه، وفرَّط في أمره، ولعله يندم ندامة الكَسْعيِّ، ولكن لا ينفعه ذلك الندم، فالطلاق ينفذ وإن كان

---

(١) انظر تفسير البيضاوي ص ٥٠، والتفسير الكبير للفخر الرازي ٩٦/٦ .

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٤٠٦/٢ .

(٣) التفسير الكبير ٩٨/٦ .

بدعيا، وهذا عند الجمهور خلافا لأهل الظاهر ومن وافقهم(١)، وعليه إثمه لأنه تعدى حدود الله التي حددها لعباده، وعظَّم شأنها حيث قال بعد تشريعه: ﴿ وتلك حدودُ اللهِ ومن يَتعدَّ حدودَ اللهِ فقد ظلَم نفسَه لا تدري لعلَّ الله يُحدِثُ بعد ذلك أمرا ﴾[سورة الطلاق:١] .

الجوانب الأخلاقية التي يجب مراعاتها بعد الطلاق:

وإذا ما وقع الطلاق سواء كان سُنِّياً أو بِدعيا فإنه يترتب عليه حقوق كبيرة،وجوانب أخلاقية عظيمة تمثِّل كمال العدل والإنصاف والفضل والإحسان في الحياة الأسرية وهذه الحقوق والواجبات هي:

١ ـ على الزوج أن لا يضارَّ زوجته بعد الطلاق، بأن لا يراجعها إلا إذا كان راغبا في إعادة الحياة الزوجية إلى سابق عهدها من الإنصاف والإحسان بصدق، لا أن يراجعها عند قرب انقضاء عدتها لا لرغبة فيها بل لقصد مضارَّتها كأن يمنعها من التزوج بغيره أو نحو ذلك، كما كان يفعله أهل الجاهلية، وقد نهى الله تعالى عن ذلك وزجر وحذَّر من ارتكابه فقال سبحانه: ﴿ ولا تُمسكوهُنَّ ضِررا لتعتدوا ومن يَفعل ذلك فقد ظلَم نفسه ولا تتَّخذوا آياتِ الله هُزُوا ..﴾[سورة البقرة:٢٣١]

فسمَّى الله تعالى ذلك الفعل ظلما للنفس، واستهزاء بآيات الله تعالى، وهذا يدل على كمال الخسة في الأخلاق، ولذلك كان جزاؤه عظيما كما قال سبحانه: ﴿ وإذا علِمَ من آياتنا شيئًا اتخذها هُزُواً أولئك لهم عذابٌ مُهين ﴾[سورة الجاثية:٩]

٢ ـ أن يمتِّعها متاعا حسنا من ماله، جبرا لوحشتها التي أصابتها من جرَّاء الفِراق لقوله تعالى: ﴿ وللمطلقاتِ متاعٌ بالمعروف حقًا على المتقين ﴾[سورة البقرة:٢٤١]

وقوله سبحانه: ﴿ .. ومَتِّعوهن على الموسِع قدَرُه وعلى المقتِر قدَرُه متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين ﴾[سورة البقرة:٢٣٦]

وهذه دعوة إلى التحلِّي بمكارم الأخلاق، لأن في المتعة هذه دليل على الوفاء وعدم

---

(١) وانظر بحث هذه المسألة في أبغض الحلال إلى الله ص ٩٨-١١٨ ونحوه .

نسيان المعروف، كما قال سبحانه: ﴿ ولا تنسوُا الفضلَ بينكم ﴾[سورة البقرة:٢٣٧] والكرام من الناس لا ينسون ولا يتجاهلون مثل تلك العشرة التي كانت حميمة وامتزجت بالروح .

٣ ـ أن لا يستردَّ شيئا مما كان قد بذله لها من مهر ونحوه إذا كان قد دخل بها؛ لأن ذلك في مقابل ما استمتع بها، ولأن في ذلك دليلا على التدني في مكارم الأخلاق، بل على فقدانها فيه؛ لأنه لا يقدم على طلب ذلك إلا لدنو همته، وعدم شعوره ومبالاته في رفعة الله تعالى له درجة عن المرأة، ولذلك أضحى يتنكَّر للجميل السابق، وينسى العشرة التي مرت في يوم ما معها على أحسن الوجوه وحقُّه أن يظل وفيًّا لذلك، ولا يتنكَّر بمجرد تغير حال المرأة؛ لأن ذلك هو كماله ورفعته، ولهذا حظر الله تعالى على الأزواج الرجوع في شيء مما قدَّموه، وذلك لما يدعو إليه من مكارم الأخلاق وما يريده من المؤمنين من التحلي بكمالاتها، فقال سبحانه: ﴿ ولا يحِلُّ لكم أن تأخُذُوا ممَّا آتيتُموهُنَّ شيئًا إلا أن يخافا ألاَّ يُقيما حدودَ الله ﴾[سورة البقرة:٢٢٩]، وقال سبحانه:﴿ وإن أردتُم استبدالَ زوج مكان زَوج وآتيتُم إحداهُنَّ قِنطاراً فلا تأخذوا مِنه شيئًا أتأخذونَه بُهتاناً وإثماً مبينا * وكيف تأخذونَه وقد أفضى بعضُكم إلى بعضٍ وأخذْنَ منكم ميثاقًا غليظا ﴾[سورة النساء:٢٠،٢١] .

نعم إذا كان الطلاق واقعا قبل المسَسْ،وكان قد سمَّى لها مهرا فإن له أن يرجع بنصف المسمى فقط؛ لأنه لم تحدث عُلقة اتصال ووئام كاملين، فلم يكن هناك معروف يذكر ولا جميل يكفر، عدا أمر يسير ربما كان عند الخطبة، وربما لم يكن شيء من ذلك .

ولذلك أباح له الله تعالى الرجوع في نصف المهر فقال: ﴿ وإن طلَّقتُموهُنَّ من قبلِ أن تَمسُّوهن وقد فرضتُم لهنَّ فريضةً فنصفُ ما فرضتُم إلا أن يَعفونَ أو يَعفُو الذي بيدِه عُقدةُ النِّكاح وأن تَعفُوا أقربُ للتَّقوى ولا تنسوُا الفضلَ بينَكم إنَّ الله بما تعملون بصير ﴾[سورة البقرة:٢٣٧]، وذلك مراعاة لحاله ورحمة به لكونه لم يحقق مأربا،ولا قضى وطرا من نكاحه ذاك، ولكي لا يكون إضرار به وإجهاد، ولربما لم يكن معه ما يمهر به امرأة أخرى غيره .

وقد كان الواجب عليه أن يوفِّيَ المهر كاملا لكونه قد التزم به وقد قال الله تعالى:﴿ياأيها الَّذين آمنوا أوفُوا بالعقود ﴾[سورة المائدة:١](١) .

قال في التحرير والتنوير(١): "وتسمية هذا الإسقاط عفوا ظاهرة، لأن نصف المهر حق واجب على المطلِّق للمطلَّقة قبل البناء بما استخف بها، أو بما أوحشها فهو حق وجب لِغُرم ضُرٍ فإسقاطه عفو لا محالة" .

ومع ذلك فالأولى أن لا يرجع في شيء لندب الله تعالى ذلك له حيث قال: ﴿ وأَنْ تَعفُوا أقربُ للتقوى ﴾ وحضه عليه بقوله: ﴿ ولا تنسَوُا الفضلَ بينكم ﴾ .

وإن كان هذا الخطاب عاما للرجال والنساء وحثا لهما معا على العفو، وبيان أن من عفا منهما فإن له الفضل على الآخر ،

إلا أن من حق الزوج الذي له فضل الرجولة أن يكون هو العافي،فإن من أقبح ما يكون فيه، أن يحمل المرأة على استرجاع ما آتاها لعموم قوله تعالى: ﴿ وءاتيتُم إِحدَاهُنَّ قِنطاراً فلا تأخذوا مِنهُ شيئا ﴾(٢) .

وهذا ما فهمه السلف الصالح رحمهم الله تعالى، فقد حكى الزمخشري رحمه الله تعالى عن جبير بن مطعم رضي الله عنه أنه تزوج امرأة وطلقها قبل أن يدخل بها فأكمل لها الصداق وقال: أنا أحق بالعفو .

ودخل جبير رضي الله عنه على سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فعرض عليه بنتاً له فتزوجها، فلما خرج طلقها وبعث إليها بالصداق كاملا، فقيل له: لِمَ تزوَّجتها ؟ فقال: عرضها عليَّ فكرهت ردَّه، قيل: فلمَ بعثت بالصداق . فقال: فأين الفضل(٤) .

---

(١) ج ٤٦٣/٢ .

(٢)محاسن التأويل للقاسمي ٢٨١/٣ .

(٤) انظر الكشاف ١٤٧/١، وأصل القصة في السنن الكبرى للبيهقي ٢٥١/٧، وفي تفسير الطبري ٥٤٦/٢، وذكرها الذهبي في سير أعلام النبلاء ٩٨/٣ .

٤ ـ يجب على المطلق لمطلقته : السكنى والنفقة مدة العدة إذا كانت مطلقة بعد الدخول، وكان الطلاق رجعيا، للمعنى الذي تقدم في المتعة، من جبر الكسر والعرفان بالجميل، وأيضا لمحاولة العودة بالحياة الزوجية إلى سابق عهدها إذا أحس كل من الزوجين بألم الفرقة، وقررا العودة إلى عصمة النكاح، وهذا إذا كان الطلاق رجعيا .

أما إذا كان بائنا وكانت غير حامل فإن الواجب حينئذ هو النفقة فقط دون السكنى لذهاب رجاء العودة إلى عصمة النكاح عنده، ولم يبق إلا جبر الخاطر وحسن العهد، ويحصل ذلك بالمتعة والنفقة وذلك ما بينه القرآن الكريم في محكم آياته .

أما السكنى فهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾[سورة الطلاق:١] والفاحشة المبينة: هي الزنا، فتخرج في هذه الحالة ليقام عليها الحد، وقوله تعالى: ﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ...﴾[سورةالطلاق:٦].

وأما النفقة فإن كانت حاملا فلدلالة الآية الكريمة: ﴿ فإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ...﴾[سورة الطلاق:٦] .

وإن كانت حائلا فلدلالة السنة المشرفة عليه وهو قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما النفق والسكنى للمرأة على زوجها ما كانت له عليها رجعة، فإذا لم يكن له عليها رجعة فلا نفقة ولا سكنى"(٢) .

وهكذا عني القرآن الكريم بما ينبغي بل بما يجب أن تكون حالة الأسرة الزوجية عند الاختلاف، من العدل والإنصاف والإحسان والفضل .

أما الحالة الثالثة من المرحلة الثالثة وهي مرحلة الفراق، وهي حالة كراهية المرأة العشرة مع زوجها لأغراض دينية أو خلقية أو خلقية، فإن الإسلام في هذه الحالة قد جعل لها

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦٨/١٨ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣٧٣/٦، ٤١٥، ٤١٦، من حديث فاطمة بنت قيس وهذا لفظه، والبخاري في الطلاق ٧٤/٧، وإسناد أحمد صحيح كما بين ذلك الألباني في الصحيحة ٢٨٨/٤ .

وقد اختلف السلف في نفقة المطلقة البائن وسكناها؛ فقال الجمهور: لا نفقة لها ولا سكنى، وذهب أحمد وإسحاق وأبو ثور إلى أنه لا نفقة لها ولا سكنى على ظاهر حديث فاطمة بنت قيس ... انظر تفصيل المسألة وأدلة الفرقين في فتح الباري ١٦٤/٢٠ .

الحق في تخليص نفسها مما لا طاقة لها بالعشرة معه، انطلاقا من مبدئه العام في عدم التكليف فيما لا طاقة للمرء به، وقد دل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ ولا يحلُّ لكم أن تأخذوا مما ءاتيتُموهنَّ شيئًا إلا أن يخافا أن لا يُقيما حدودَ الله فإن خفتُم أن لا يُقيما حدودَ الله فلا جناحَ عليهما فيما افتدت به تلك حدودُ الله فلا تَعتدوها ومن يتعد حدودَ الله فأولئك همُ الظَّالمون ﴾[سورة البقرة:٢٢٩] .

وإقامة حدود الله هي ما يجب على الزوجين القيام به من حسن الصحبة وجميل العشرة، وترك إقامة هذه الحدود يكون باستخفاف المرأة بحق زوجها وسوء طاعته إياها(١) .

فإذا ما فعلت المرأة ذلك كانت قد ضارَّت زوجها الذي جهد في الحصول عليها، إذا كان سوء العشرة آتيا من قبلها، وإذا كان من قبله فلم تصبر عليه و لم تطق تحمله، فإن عليها في الحالين أن تخلص ربقتها منه بالمخالعة التي دلت عليها الآية السابقة؛ بأن تفدي نفسها وتبذل له ما يرضيه من المال، سواء كان ما بذله لها وغيره قليلا أو كثيرا، مما يرضيه حتى يطلِّقها، وإذا ما فعلت ذلك وفعل هو الطلاق، ملكت نفسها به، وكانت بائنة منه بينونة كبرى،لا يملك عليها الرجوع إلا بعد أن تنكح زوجا غيره، ورغبت في ذلك(٢) .

هكذا بين القرآن الكريم أحوال الأسرة الزوجية عند اختلافها بيانا شافيا كافيا، مصبوغا بمكارم الأخلاق، في كل مراحله من الوفاق والفراق .

ومنه تعلم بالغ عنايته بمكارم الأخلاق حيث لم يعف أحدا منها في كل شئونه وأحواله، مما يؤكد ما تقدم تقريره من أن الأخلاق الإسلامية، أصل من الأصول المهمة، أولاها القرآن الكريم عنايته كعنايته بالعقائد والعبادات والمعاملات، بل وأكثر من ذلك حيث صبغ كل تلك الأصول بالصبغة الأخلاقية الكريمة كما علمت من قبل .

---

(١) انظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ١٣٨/٣ .

(٢) انظر منهاج الطالبين للإمام النووي بشرحه مغني المحتاج ٢٦٢/٣ - ٢٦٧ ونحوه من كتب الفقه .

تمثل خلق الإنصاف والإحسان
عند الاختلاف في النبي صلى الله عليه وسلم

لقد ناط الله تعالى برسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بيان القرآن الكريم كما قال جل ذكره: ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتُبيِّنَ للنَّاس ما نُزِّل إليهم ﴾[سورة النحل:٤٤] فقام عليه الصلاة والسلام بهذا الواجب خير قيام .

حيث بين القرآن الكريم مدة حياته بأقواله وأفعاله وتقريراته وسلوكه،فأصبحت سنته صلى الله عليه وسلم مفسرة للقرآن وشارحة له، وكان من بيانه للقرآن الكريم بيانه للأحكام الأسرية التي تضمنها القرآن الكريم في كل مراحلها كما تقدمت الإشارة إلى بعضها، وستأتي الإشارة إلى البعض الآخر .

ومن هذه الأحكام،الأحكام الأسرية ذات الصلة بحال الاختلاف بين الزوجين التي يدور الحديث عنها في هذا المبحث .

فقد بينها النبي صلى الله عليه وسلم بأقواله وأفعاله بما يطول ذكره،لكثرة ما احتوته كتب السنة من أدلة على ذلك، وسأذكر منها ما يتعلق بالجانب الأخلاقي في معاملة الزوجين عند الاختلاف، على ضوء عرض نقاط العرض المتقدم لهذا الموضوع في القرآن الكريم الذي قسمناه إلى مرحلتين:وفاق وفراق .

بيانه صلى الله عليه وسلم لذلك في مرحلة محاولة الوفاق :

أما مرحلة محاولة الوفاق التي تنشأ عن مخافة نشوز المرأة أو حدوثه بالفعل، فإن سيرته الشريفة لم تشتمل على ما يدل على حدوث شيء من ذلك من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن،اللاتي اختارهن الله تعالى ليكنَّ نَقَلَةً لأحواله صلى الله عليه وسلم الباطنة،التي لا يطلع عليها غيرهن، فلقد كن أحرص الناس على طاعته والتسابق إلى مرضاته ومسرَّاته، فلم تنشز واحدة منهن عليه صلى الله عليه وسلم، ولم تتعال عليه على النحو الذي يمكن أن يحدث من النسوة كما مضى شرحه، لذلك لم أجد في سيرته صلى الله عليه وسلم وشمائله الشريفة ما يدل على وعظه إياهن أو هجره لهن أو ضربهن رضي الله عنهن؛ لأجل النشوز عليه، وذلك يدل على كمال أخلاقهن في معاملتهن لصاحب الخلق

العظيم صلى الله عليه وسلم، فإنهنَّ مع طبيعتهن البشرية والنسوية،الشديدةَ التأثير لاسيما مع وجود الضرات وقلة ذات اليد الذي اختاره النبي صلى الله عليه وسلم لنفسه،وهما العاملان المهمان في سبب النشوز والشقاق الذي يجري بين الزوجين، إلا أنهن تجاوزن ذلك بكل هدوء وأريحية، لما تعلمنه من النبي صلى الله عليه وسلم من كرم الأخلاق في السلوك والمعاملة ولا ريب فإن كل قرين بالمقارن يقتدي .

نعم قد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه وعظهن وهجرهن، ولكن كان ذلك لغير نشوز منهن، ولا قلة احتشام معه، أو سوء عشرة، وإنما لأمور أخرى سأبينها في الآتي:

وعظه صلى الله عليه وسلم نساءه ونساء المسلمين :

أما وعظه عليه الصلاة والسلام فقد كان عاما لكل النساء، يحثهن فيه على طاعة الأزواج في كل الأحوال والظروف ما لم تكن هناك معصية الله، وحذرهن تحذيرا شديدا من التفريط في ذلك، وبيَّن لهن ما يترتب على ذلك من غضب الله تعالى وأليم عقابه، وذلك في أحاديث كثيرة منها:

١ ـ ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح"(١) .

٢ ـ وفي رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "والَّذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطا عليها حتى يَرضى عنها"(٢) .

وجاء في حديث آخر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

٣ ـ "إذا الرجل دعا زوجته لحاجته فلتأتِه وإن كانت على التَّنور"(٣) .

---

(١) متفق عليه تقدم تخريجه في هذا المبحث ص٧٢٤.نحوه .

(٢) أخرجه مسلم في النكاح، باب تحريم امتناعها من فراش زوجها برقم ١٤٣٦ .

(٣) أخرجه الترمذي في الرضاع، باب في حق الزوج على المرأة برقم ١١٦٠ من حديث طلق بن علي رضي =

٤ ـ وجاء من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تُؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو دخيل عندك يوشك أن يُفارقك إلينا"(١) .

٥ ـ ومن ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أضحى أو فطر إلى المُصَلَّى فمر على النساء فقال: يا معشر النساء تصدَّقن، فإني أُريتكن أكثر أهل النار، فقلن: لِمَ يا رسول الله؟ قال: تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب لِلُبِّ الرجل الحازم من إحداكن، قلن: وما نقصان عقلنا وديننا يا رسول الله ؟ قال: أليس شهادة المرأة منكن مثل نصف شهادة الرجل ؟ قلن: بلى، قال: فذلك من نقصان عقلها، قال: أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم ؟ قلن: بلى، قال: وذلك من نقصان دينها"(٢) .

وفي هذه الأحاديث من الوعظ والإرشاد إلى سلوك سبيل الاستقامة في أداء الحقوق الزوجية، ما يحمل على ذلك من غير توان، وذلك فرارا من الوعيد المترتب على أذية الزوج بأي نوع من أنواع الأذية .

ترغيبه صلى الله عليه وسلم في إطاعة الزوجة زوجها :

وكما وعظهُنَّ بذلك الأسلوب الترهيبي، فقد وعظهن على ذلك أيضا بأسلوب الترغيب الذي يحمل على الإقدام على الطاعة برغبة كبيرة ابتغاء أجرها عند الله تعالى.

ووعظه صلى الله عليه وسلم للنساء بهذا الأسلوب وارد في أحاديث كثيرة نذكر منها ما يأتي:

= الله عنه، وابن حبان ١٨٥/٦ من الإحسان، وأحمد في المسند ٢٢/٤، والبيهقي في السنن ٢٩٢/٧، وقال عنه الترمذي: حسن غريب، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١٩٩/٣ .

(١) أخرجه الترمذي في الرضاع، باب رقم١٩، برقم ١١٧٤، وابن ماجه في النكاح، باب في المرأة تؤذي زوجها برقم ٢٠١٤، وأحمد في المسند ٢٤٢/٥، وقال عنه الترمذي: حسن غريب، وصححه الألباني في الصحيحة ٢٨٥،١ برقم ١٧٣ .

(٢) البخاري في الحيض، باب ترك الحائض الصوم ٨٠/١، ومسلم في العيدين في فاتحته برقم ٨٨٩ .

١ـ فمن ذلك ما جاء عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة"(١) .

٢ـ ومنه ما أخرجه النسائي وغيره عن حصين بن محصن(٢) أن عمة له دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض الحاجة فقضى حاجتها، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أذات زوج أنت ؟ قالت: نعم، قال: كيف أنت له ؟ قالت: ما آلو إلا ما عجزت عنه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "انظري أين أنت منه، فإنه جنتك ونارك"(٣) .

٣ـ ومنه ما جاء عن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها قيل لها: ادخلي من أي أبواب الجنة شئت"(٤) .

وفي هذا من الترغيب على القيام بطاعة الزوج ومحاولة إرضائه، وعدم النشوز عنه، ما يحمل عليه بكل رغبة وقناعة، وذلك طمعا في رضوان الله تعالى.

---

(١) أخرجه الترمذي في الرضاع، باب ما جاء في حق الزوج على المرأة برقم ١١٦١، والحاكم في المستدرك ١٧٣/٤، وابن ماجة في النكاح، باب حق الزوج على المرأة برقم ١٨٥٤، وقال عنه الترمذي: حسن غريب، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وتعقبه الألباني في الضعيفة ٦١٦/٣ برقم ١٤٢٦، وقال: انه منكر .

(٢) الأنصاري الخطمي، اختلف في صحبته، واتفقوا على أنه ليس له رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما روايته عن عمته، انظر الإصابة ٣٣٨/١، وتقريب التهذيب ص ١٧٠ برقم ١٣٨٤، .

(٣) أخرجه النسائي في عشرة النساء من السنن الكبرى برقم ٧٦ـ٨٣، وعزاه الهيثمي في المجمع ٣٠٩/٤ إلى الطبراني في الكبير والأوسط قال: ورجاله رجال الصحيح خلا حصين، وهو ثقة، وأخرجه أحمد في المسند ٣٤١/٤ من مسند حصين بن محصن، وفي ٤١٩/٦ من مسند عمته و لم يسمها .

(٤) أخرجه أحمد في المسند ١٩١/١، وعزاه الهيثمي في المجمع ٣٠٩/٤ إلى الطبراني في الأوسط قال: وفيه ابن الهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح، كذا قال، والصواب في ابن لهيعة أن حديثه ضعيف لاختلاطه بعد احتراق كتبه. والله أعلم .

على هذا النحو كان وعظه صلى الله عليه وسلم لنسائه ونساء المؤمنين، وعظ عام، وإن لم يخص به نساءه لما لم يكن هناك مقتضى، غير أنه يشملهن وتدخل فيه نساؤه من أمهات المؤمنين دخولا أوليا، فما تعلم به واحدة منهن إلا بادرت لمقتضاه رغبة ورهبة، غير أن الله حماهن عن التفريط في حقه صلى الله عليه وسلم فلم يبق بعد ذلك إلا الذكرى التي تنفع المؤمنين.

وأما الهجر: فقد حدث منه صلى الله عليه وسلم أن هجر نساءه شهرا ولكن لم يكن ذلك عن نشوز منهن، وإنما كان تأديبا لهن لمَّا أردن أن يؤثرن الحياة الدنيا وزينتها، ويخرجن رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أراده لنفسه من التقلل في الدنيا والزهادة فيها، وذلك حين نصره الله تعالى ورد عنه الأحزاب، وفتح عليه "قريظة" و "النضير" فقعدن حوله وقلن له: «يارسول الله: بنات كِسرى وقيصر في الحُلِيِّ والحُلَلِ والإماء والخول - أي الخدم والحشم - ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق» فآلمن قلبه الشريف الطاهر بمطالبتهن له بتوسعة الحال، كما دل على ذلك حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: "دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم قال: فأذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم جالسا حوله نساؤه واجِما(١) ساكتا، فقال: لأقولن شيئا أُضحك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله لو رأيت بنت خارجة - يعني زوجته - سألتني النفقة فقمت إليها فوجأتُ عنقها، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "هن حولي كما ترى يسألنني النفقة، فقام أبو بكر رضي الله عنه إلى عائشة رضي الله عنها يجأ - أي يطعن - عنقها، فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها كلاهما يقول: تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده ؟! فقلن: والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا أبدا ليس عنده، قال: ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿ يأيُّها النَّبيُّ قل لأزواجِك ﴾ حتى بلغ ﴿ للمحسناتِ منكُنَّ أجراً عظيما ﴾[سورة الأحزاب:٢٨،٢٩] .

---

(١) الواجم: هو الذي اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام. شرح النووي على مسلم ٨١/١٠ .

قال: فبدأ بعائشة رضي الله عنها، فقال: "ياعائشة إني أريد أن أعرض عليك أمرا أحب أن لا تعملي فيه حتى تستشيري أبويك، قالت: وما هو يارسول الله؟ فتلا عليها الآية فقالت: أفيك يارسول الله أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت، قال: " لاتسألني امرأة منهن إلا أخبرتها إن الله لم يبعثني معنّتا ولا مُتَعنِّتا ولكن بعثني معلِّما ميسرا"(١) .

فهذه الحادثة المشهورة من هجره صلى الله عليه وسلم لنسائه، وهناك حادثة أخرى غير مشهورة أخرجها أبو داود من حديث عائشة رضي الله عنها"أنه اعتلَّ بعير لصفية بنت حيي رضي الله عنها وعند زينب فضْلُ ظهرٍ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزينب:أعطيها بعيرا، فقالت: أنا أعطي تلك اليهودية ؟ فغضب النبي صلى الله عليه وسلم عليها فهجرها ذا الحجة والمحرم وبعض صفر"(٢) .

ومن هذه الرويات يتبين لنا معان سامية في أخلاقه صلى الله عليه وسلم العظيمة،وهي أنه لم يكن يغضب ولا يهجر لمصلحة نفسه، كما هو شأنه ونهجه في عدم الغضب لنفسه الذي دل عليه قول عائشة رضي الله عنها: "وما انتقم رسول الله صلى الله عليه

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة التحريم ١٩٥/٦، ومسلم في الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن برقم ١٤٧٩، وانظر الوفاء لابن الجوزي ٦٥٢/٢-٦٥٥ .

(٢) أبو داود في السنة، باب ترك السلام على أهل الأهواء برقم ٤٦٠٢، وأخرجها النسائي في عشرة النساء من الكبرى برقم ٢٨٠، من حديث أنس رضي الله عنه، والإمام أحمد في المسند ٣٣٧/٦ من مسند صفية رضي الله عنها، كلاهما في قصة مفصلة، وقال الهيثمي في المجمع ٣٢٤/٤ بعد عزوه لأحمد: وفيه سمية، روى لها أبو داود وغيره و لم يضعفها أحد قال: وبقية رجاله ثقات.

قلت: وسمية هذه ذكرها الذهبي في الميزان ٦٠٧/٤ برقم ١٠٩٦٧ في فصل النسوة المجهولات التي قال عنهن: (وما علمت في النساء من اتهمت ولا من تركوها) وقال عنها الحافظ ابن حجر في التقريب برقم ٨٦١٠: بصرية مقبولة .

وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمات الله تعالى"(١) وتدل عليه هاتان الواقعتان دلالة واضحة، حيث إنه صلى الله عليه وسلم هجر في الحالتين تأديبا وتعليما، لمعنى من معاني الإسلام وأخلاقه العظيمة.

ذلك أن طلب زيادة النفقة من الزوج خاصة إذا كان حاكما على الأمة، مؤتمنا على مالها يدفع الزوج إلى الاستدانة المرهقة، أو الخيانة المهلكة، وكلاهما أمر ينافي الأخلاق العالية في الإسلام من الصبر والأمانة، ولا ريب بأن الحامل على ذلك وهم الزوجات يجدر بهن التَّأديب والزَّجر والتَّأنيب، وهو ما فعله صلى الله عليه وسلم علاجا شافيا لهذه الظاهرة الخطيرة، وفي هجره عليه الصلاة والسلام لزينب عليها السلام معنى أخلاقي عظيم طالما حث الإسلام عليه وندب أهله إلى التحلي به، ألا وهو عدم التفاخر في الأنساب والأحساب الذي أبطلها الإسلام، وجعل الأصل الذي يوزن به المسلمون هو: (التقوى) ﴿ يأيُّها النَّاس إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأُنثى وجعلناكُم شُعوباً وقبائلَ لِتعارفوا إنَّ أكرمكَم عند اللهِ أتقاكم إنَّ الله عليمٌ خبير ﴾[سورة الحجرات:١٣] .

ونادى به رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلَّغ به القاصي والداني فقال: "يا أيُّها الناس ألا إنَّ ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلَّغت ؟ قالوا: بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ..."(٢) .

فزينب رضي الله عنها حينما غفلت عن هذه الحقيقة، ونسيت هذا الخلق العظيم، كان لا بد أن تزجر عن ذلك حتى لا تعود لمثلها، ولا يعود لمثل ذلك أحد .

وفي هذا دليل على أن مكارم الأخلاق من الدين التي كان يقوم صلى الله عليه وسلم لها فيغضب عند انتهاكها، وينتقم لها بكل وسيلة ممكنة، لا يمنعه من ذلك قرابة زوجية، ولا مودة روحية .

---

(١) متفق عليه وتقدم في الحلم ص ٥٧٩.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤١١/٥ وإسناده صحيح، وهو من حديث أبي نضرة عمن سمع النبي صلى الله عليه وسلم يخطب في عرفه، وصححه الألباني في غاية المرام ص ١٩٠ رقم ٣١٣ .

فهذا ماجاء عن هجره صلى الله عليه وسلم نساءه، ومنه علمت أنه لم يكن عن نشوز، وإنما كان زجرا وتأديبا لهن لتصرفهن غير اللائق في بعض الأحيان بمقام النبوة العظيم ومقامهن كذلك، فإنهن لسن كسائر النساء فضلا ومكانة وديانة ورزانة .

وهذا دليل على أن الهجر سلاح ماض في إصلاح الزوجات، وتقويم اعوجاجهن، كما حصل منه صلى الله عليه وسلم مع زوجاته أمهات المؤمنين رضي الله عنهن في مثل هذين الموقفين .

وأما الضرب: فهو علاج العاتية من النساء التي لم تنفع معها وسائل الإصلاح بالمعروف، ومعلوم أنه لم يكن في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من تستأهل مثل هذا من حيث هن أمهات المؤمنين، اختارهن الله تعالى ليكن كذلك، ليقمن بدورهن في تبليغ الشريعة التي يدركنها، كما تقدم بيانه، ولذلك لم تنشز واحدة منهن وتخرج عن طاعته قط، بل كن يتبارين في المسابقة إلى مسرَّاته ومرضاته والإحسان إليه بقدر طاقتهن كما لا يخفى أمره .

أما النبي صلى الله عليه وسلم فهو أجل من أن يَضرب نساءه وهو خير الناس لأهله، وأكرم الناس عِشرة، وأعظمهم رأفة ورحمة، وهذا ما حدثت به عائشة رضي الله عنها فيما أخرجه مسلم وغيره قالت: "ماضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط بيده، ولا امرأة ولا خادما، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نِيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله عز وجل »[1]

فهذا خبر عائشة رضي الله عنها عن معاملة النبي صلى الله عليه وسلم لها ولضرَّاتها، وهي صاحبة الشأن في هذه المعاملة، ولا يُنبِّئك مثل خبير، ولا غرو في أن لا يضرب صلى الله عليه وسلم نساءه فإنه قد قال عن الضاربين نساءهم: "ليس أولئك بخياركم"(٢) يعني

---

(١) متفق عليه وتقدم في مبحث الحلم ص٥٧٩.

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح، باب ضرب النساء برقم ٢١٤٦ من حديث إياس بن عبد الله أبي ذُباب، والنسائي في عشرة النساء من الكبرى برقم ٢٨٥، وابن حبان ١٩٦/٦ من الإحسان، والحاكم في المستدرك ١٨٨/٢، ١٩١ وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

أن خير الأزواج هو الذي لا يضرب زوجاته، وهذا تفسير لحديث عائشة رضي الله عنها المتقدم: "خيرُكم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي"(١) فخيريّته صلى الله عليه وسلم لا تستدعي ضربا، بل ولا شتما ولا تجريحا، كما هي شمائله العليا مع جميع أمته ولا سيما مع أهله وقرابته وأهل بره .

وفي سلوكه صلى الله عليه وسلم هذا هدي لأمته في عدم ضربهم زوجاتهم،لما في ذلك من سوء العشرة وتولُّد الضغائن، والزواج إنما هو مبني على الرحمة والأُلفة، ولا يستقيم ويؤدي ثماره إلا على ذلك، أما إذا خرج عن هذا القانون فإنه سرعان ما ينفك وتَنحلّ عراه .

ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم الأمة عن ضرب الزوجات نهيا بليغا، لما في ذلك من مخالفة للعشرة بالمعروف التي تبنى عليها العلاقات الزوجية، والحياة الاجتماعية الأسرية، فقال عليه الصلاة والسلام: "لا يَجلِد أحدُكم امرأته جلد العبد، ثم لعلّه يجامعها، أو قال: يضاجعها من آخِر اليوم"(٢) فإن في هذا الحديث تنفير من ضرب النساء، وإن كان يدل على جواز اليسير منه وذلك لأن (المجامعة أو المضاجعة إنما تُستحسن مع ميل النفس، والرغبة في العشرة، والمجلودُ غالبا ينفر ممن جلده،فوقعت الإشارة إلى ذم ذلك، وأنه إن كان لا بد فليكن التأديب بالضرب اليسير بحيث لا يحصل منه النفور التام، فلا يفرط في الضرب، ولا يفرط في التأديب)(٣) وذلك ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم في خُطبة حِجّة الوداع التي تضمنت الوصية بالنساء، والتي جاء فيها: "... فإن فعلن ذلك فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرِّح"(٤) .

---

(١) حديث صحيح، تقدم ذكره وتخريجه ص ٧٠٩.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب ما يكره من ضرب النساء ٤٢/٧، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها برقم ٢٨٥٥، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء من حديث عبد الله بن زمعة رضي الله عنه .

(٣) انظر فتح الباري ٣٦٢/١٩ .

(٤) حديث صحيح متقدم تخريجه ص ٧١٨.

قال الحافظ ابن حجر في شرحه للحديث السابق ذكره: "فيه دلالة على أن ضربهن مباح في الجملة، ومحل ذلك أن يضربها تأديبا إذا رأى منها ما يكره فيما يجب عليها فيه طاعته، فإن اكتفى بالتهديد ونحوه كان أفضل، ومهما أمكن الوصول إلى الغرض بالإيهام،لا يعدل إلى الفعل لما في وقوع ذلك من النُّفرة المضادَّة لحسن العشرة المطلوبة في الزوجية، إلا إذا كان في أمر يتعلق بمعصية الله تعالى"(١) يعني فإنه ينبغي أن لا يتساهل ولا يلين بل يستعمل كامل الشدة لقول الله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا قُوا أنفسَكم وأهلِيكم نارا ﴾ [سورة التحريم:٦] وكما فعله النبي صلى الله عليه وسلم مع عائشة حين اتخذت ستارة فيها تصاوير، وكان في غزوة، قالت عائشة رضي الله عنها: فلما قدم فرأى النَّمَط عرفت الكراهية في وجهه، فجذبه حتى هتكه، أو قالت: قطعه، وقال: "إنَّ الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين" .

وفي رواية: "فنظر إلى البيت فرأى النَّمط فلم يرد عليَّ شيئا قالت: ورأيت الكراهية في وجهه، فأتى النَّمط حتى هتكه ثم قال: "إن الله لم يأمرنا فيما رزقنا أن نكسو الحجارة واللِّبْن"، قالت: فقطعته فجعلته وسادتين، وحشوتهما ليفاً فلم ينكر ذلك علي»(٢) .

هذا عن مرحلة محاولة الوفاق .

أما معاملته صلى الله عليه لنسائه في مرحلة الفراق: فإن النبي صلى الله عليه وسلم وإن كرهه وعابه كما دل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «ما أحلَّ الله شيئا أبغض إليه من الطلاق» وفي رواية: "أبغض الحلال إلى الله الطلاق"(٣)، إلا أنه لا يكون

---

(١) فتح الباري ٣٦٣/١٩ .

(٢) متفق عليه وتقدم في مبحث الزهد ٥٠٦

(٣) أخرجه أبو داود في الطلاق، باب في كراهية الطلاق برقم٢١٧٧، و ٢١٧٨ من حديث محارب بن دثار عن ابن عمر موصولا ومرسلا، والحاكم في المستدرك ١٩٦/٢ وصححه، قال الذهبي: على شرط مسلم، وابن ماجه في الطلاق برقم ٢٠١٨، وقال الحافظ ابن حجر في التلخيص ٢٠٥/٣:وراه أبو داود وابن ماجه والحاكم من حديث محارب بن دثار عن ابن عمر، ورواه أبو داود والبيهقي مرسلا ليس فيه ابن عمر قال: ورجح أبو حاتم والدار قطني في العلل والبيهقي المرسل .

منه بد أحيانا، إذا لم يبق للحياة الزوجية الهادئة حظ باستفحال الشقاق، وحلول الخصام محل الوئام كما تقدمت الإشارة إلى ذلك .

وهو ما حدث للنبي صلى الله عليه وسلم بالفعل مع ابنة أبي الجَون (الشَّقيَّة كما كانت تعبر عن نفسها)(١)، فإنها لما أدخلت على النبي صلى الله عليه وسلم ودنا منها قالت: أعوذ بالله منك، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: "لقد عذت بعظيم، إلحقي بأهلك"(٢) .

فابنة الجون هذه ـ وهي أميمة بنت النعمان بن شراحيل ـ كان أبوها عظيما في قومه، وقد تزوَّجها النبي صلى الله عليه وسلم بناء على رغبة أبيها، وطلبه من النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال له:« ألا أزَوِّجك أجمل أيِّم في العرب، كانت تحت ابن عم لها فتوفي وقد رغبت فيك ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: نعم، قال: فابعث من يحملها إليك..." الحديث(٣)، لكنه لما دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأت تواضعه وبساطة عيشته،أنفت وتكبَّرت، لما كان فيها من عنجهية الجاهلية، فكأنها استبعدت أن تتزوج مَن ليس في عظمة الملك وأبَّهته، كما دل على ذلك رواية البخاري الثانية التي جاء فيها أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل عليها قال لها: "هيئي نفسك لي" قالت: وهل تهب الملكة نفسها للسُّوقة(٤)، فأهوى بيده الشريفة يضعها عليها

---

(١) انظر السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين ص ٢١٧ .

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق، باب من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق ٥٣/٧ .

(٣) انظر طبقات ابن سعد ١٤٣/٨ .

(٤) قال ابن المنيِّر:«هذا من بقية ما كان فيها من الجاهلية، والسوقة عندهم : من ليس بملك كائنا من كان، فكأنها استبعدت أن يتزوج الملكة من ليس بملك، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد خُيِّر أن يكون ملكا نبيا، فاختار أن يكون عبدا نبيا تواضعا منه صلى الله عليه وسلم لربه، ولم يؤاخذها النبي صلى الله عليه وسلم بكلامها معذرة لها لقرب عهدها بجاهليتها»ا.هـ، فتح الباري ١٧/٢٠ .

لتسكن، فقالت: أعوذ با لله منك، فقال: "قد عذت بمعاذ" قال راوي الحديث: أبو أسيد رضي ا لله عنه: ثم خرج علينا فقال: "يا أبا أسيد اكسها رازِقِيَّيْن(١) وألحقها بأهلها"(٢) .

فترى هل ترى من خير في بقاء مثل هذه المرأة التي بلغت من الفظاظة والقِحَة أن تخاطب النبي صلى ا لله عليه وسلم بمثل هذا الخطاب الفظ الغليظ، إن علاج مثل هذه هو المفارقة الفورية لتريح وتستريح، فلا خير يُرجى ممن كان حالها كذلك، فتسريحُها خير من إمساكها .

ولكن ينبغي أن يكون التَّسريح على النحو الذي فعله النبي صلى ا لله عليه وسلم،من الإحسان والإجمال حيث إنه فارقها قبل الدخول، وهو الحال الذي لا يجب فيه سكنى ولا نفقة، بل إن سمَّى لها مهرا فنصفه فقط كما مضى تقريره، ثم متَّعها متاعا حسنا كما أمر ا لله تعالى بذلك حيث قال: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا إذا نَكحتُم المؤمناتِ ثم طلَّقتموهن من قبل أن تمسُّوهن فما لكم عليهن من عِدةٍ تَعتَدُّونها فمتِّعوهن وسرِّحوهن سَراحاً جميلا ﴾[سورة الأحزاب:٤٩] .

فهذه صورة من صور إنصاف النبي صلى ا لله عليه وسلم وعدله وإحسانه عند الفراق .

وهناك صورة أخرى توضح فعل النبي صلى ا لله عليه وسلم في الطلاق على وفق ما ندب أمته إليه من عدم التسرع في الطلاق، والتَّروي فيه بأن يكون طلقة واحدة لا طلقات ثلاث،ليكون الطلاق رجعيا،ليتدارك المرء نفسه في مراجعة زوجته إن أحب ذلك بعد أن يجد ألم الفرقة .

وذلك كما في قصة زواجه صلى ا لله عليه وسلم من رَيحانة بنت زيد بن عمرو من بني النَّضير، وقد كانت مما أفاء ا لله عليه من بني النضير، حيث وقعت في السَّبي، فخيرها

---

(١) براء ثم زاي ثم قاف بالتثنية صفة موصوف محذوف للعلم به، أي: ثيابا رازقية، وهي ثياب من كتان بيض طوال، قاله أبو عبيدة، ونقله الحافظ في الفتح ٢٠/ ٨٧

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق، باب من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق ٥٣/٧ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الإسلام وبين دينها، فاختارت الإسلام فأعتقها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتزوجها وضرب عليها الحجاب، فغارت عليه غيرة شديدة، فطلقها تطليقة وهي في موضعها لم تبرح، فشق عليها وأكثرت البكاء، فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي على تلك الحال فراجعها، فكانت عنده حتى ماتت عنده قبل أن يتوفى صلى الله عليه وسلم(١) .

فانظر كيف استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يرحم تلك المسكينة لما ندمت على مابدر منها، وكاد البكاء يقطع قلبها وذلك بفضل الطلاق الرجعي، ولو كان بائنا لحالت بينونته عن رحمتها وتدارك الخطأ الذي نشأ منها، وفي هذا درس لأمته لتحفظه فتطيعه في ساعة اختيار الفراق حتى لا يضيقوا على أنفسهم فيما وسعه الله لهم، ويعذبوا أنفسهم بينما هو قد رحمهم، وحقا إنه لا يهلك على الله إلا هالك .

ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يأمر أمته أن تحرص على طلاق السنة، وهو أن يطلق طلقة واحد في طهر لم يجامعها فيه، وذلك إذا ما قرر امرؤ اللجوء إلى هذا الاختيار في حياته الزوجية وذلك ليتسنى له الرجوع إلى إعادة العلاقة الزوجية عندما يجد الصلاح في ذلك ،

١ ـ فقد قال لثابت بن قيس لما أرادت امرأته أن تختلع منه بالحديقة التي كان قد أمهرها بها فقال له صلى الله عليه وسلم: "اقبل الحديقة وطلقها تطليقة"(٣) .

---

(١) انظر الطبقات لابن سعد ١٣٠/٨، وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأولاده لأبي عبيدة معمر بن المثنى ص ٨٢، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ٤٦٠/٥ .

وقالت طائفة من أهل العلم: لم تكن زوجة بل كانت أمة وكان يطؤها بملك اليمين حتى توفي عنها، والقول الأول اختيار الواقدي ووافقه شرف الدين الدمياطي ورجحه، وتعقبه ابن القيم في الهدى ١١٣/١ فقال: وفيما قاله نظر، فإن المعروف أنها من سراريه وإمائه ا.هـ .

(٢) أخرجه البخاري في الخلع، باب الخلع وكيف الطلاق فيه ٦٠/٧ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

٢ ـ ولما ذكر له أن رجلا طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعا، قام غضبان ثم قال: "أيُلعبُ بكتاب الله عز وجل وأنا بين أظهُرِكم" حتى قام رجل فقال: يارسول الله ألا أقتله ؟(١) .

٣ ـ ولما ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه له صلى الله عليه وسلم أن عبد الله بن عمر طلّق امرأته وهي حائض قال له صلى الله عليه وسلم: "مُره فليراجعها، ثم ليتركها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعدُ، وإن شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العدة التي أمر الله عز وجل أن يطلّق لها النساء"(٢) .

وذلك كله حرصا منه صلى الله عليه وسلم على التّرويّ في الطلاق وعدم التّهور فيه ليكون لهما مندوحة إذا ما رأيا الخير في العودة إلى عصمة النكاح .

وهو يدل على حرص الشارع الحكيم على إبقاء الحياة الزوجية وعدم تفككها، لما في ذلك من عمارة البيوت، وتحصين بناء الأسرة، وحماية النشأ من التّمزُّق والشّتات، وكل هذه فضائل أخلاقية عظيمة لها كمال العناية والرّعاية في الشريعة الإسلامية .

وقد طبّقها النبي صلى الله عليه وسلم نفسه، وأراد ذلك من أمته كما علمت مما تقدم بيانه .

---

(١) أخرجه النسائي في الطلاق، باب الثلاث مجموعة وما فيه من التغليظ ١٤٢/٦ من حديث ابن وهب عن مخرمة عن أبيه عن محمود بن لبيد ورجال إسناده ثقات، غير أن مخرمة لم يسمع من ابيه كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في ترجمته من التهذيب ٧٠/١٠ .

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق، باب إذا طلقت الحائض تعتد بذلك طلاقا ٥٢/٧ وفي غيره، ومسلم في الطلاق من عدة روايات برقم ١٤٧١ .

المبحث السابع

(معاملة ذوي القربى والأرحام)

ذوو القُربى: هم الأقارَب الذين تجمعهم رحم واحدة سواء كانوا من جهة الأب أو من جهة الأم، ويسمَّون بالأرحام؛ لأن "الرَّحم اسم لمكانة الأقارب من غير فرق بين المحرم وغيره" قال الراغب عند تفسيره للرحم: "ومنه استعير للقرابة لكونهم خارجين من رحم واحدة"(١)، فعُلِم أن الأقارب والأرحام بمعنى واحد .

عناية القرآن الكريم بالإحسان إلى الأقارب والأرحام:

وحسن معاملة الأقارب والأرحام عني بها القرآن الكريم كثيرا، لعظم شأنها بين المؤمنين "لأن القرابة مظِنَّة الاتحاد والألفة والرعاية والنصرة، فلو لم يحصل شيء من ذلك لكان أشق على القلب وأبلغ في الإيلام والإيحاش والضرورة"(٢) .

ولايتم كل ذلك إلا بالإحسان إليهم، والصبر عما يجري منهم،والحلم عن إساءتهم، وإظهار الود لهم.. فلذلك حث الله تعالى على الإحسان إلى الأقارب والأرحام، ونوَّه بالقائمين بذلك، وحذَّر من ترك ذلك أو التهاون به، في نحو اثنتي عشرة آية من كتاب الله الكريم .

حث القرآن على الإحسان إلى الأقارب والأرحام:

أما الحث عليه ففي مثل قوله تعالى: ﴿ وإذ أخذنا ميثاقَ بني إسرائيلَ لا تعبدونَ إلَّا اللهَ وبالوالدين إحسانا وذِي القُربىَ واليَتامى والمساكينِ وقولوا للناس حُسْنا ...﴾[سورة البقرة:٨٣] .

والآية وإن كانت تتحدث عن بني إسرائيل، فإنها تشمل المؤمنين بالأولى ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ ، وقد خاطب الله تعالى المؤمنين بآيات عدة بأسلوب الأمر الصريح أو الترهيب الشديد، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الناسُ اتَّقوا ربَّكم الذي

---

(١) جامع أحكام القرآن للقرطبي ٧/٥، وانظر روح المعاني ٧٠/٢٦/٩، والمفردات ص ١٩١ .

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٦٦/٣ .

خلقكم من نفسٍ واحدة وخَلق منها زوجَها وبثَّ منهما رجالاً كثيرًا ونِساءً واتَّقوا الله الذي تساءلون به والأرحامَ إنَّ الله كان عليكم رقيبا ﴾[سورة النساء:١] .

وقوله سبحانه: ﴿ واعبُدوا الله ولا تُشركوا به شيئًا وبالوالدين إحساناً وبِذي القُربى واليتامى والمساكينِ والجارِ ذِي القربى والجارِ الجنُبُ والصَّاحب بالجَنْب وابنِ السَّبيل وما ملكت أيمانُكم إنَّ الله لا يُحبُّ من كان مُختالاً فخُورا ﴾[سورة النساء:٣٦] .

وقوله سبحانه: ﴿ وآتِ ذا القربى حقَّه والمسكين وابنَ السبيل ولا تُبذِّر تبذيرا ﴾ [سورة الإسراء:٢٦] .

فهذه الأوامر الإلهية تلزم المؤمنين بالإحسان إلى أقاربهم، والإحسان اسم عام يشمل كل ما يكون فيه رضا لهم وبرًا بهم وعطفا على أحوالهم وشئونهم، ولذلك أبهمه ليشمل كل مسمى الإحسان، جليله وحقيره، ولتذهب النفس في تفسيره أي مذهب، فإنها ستبر بذلك .

وقد نص الله تعالى على بعض صور الإحسان إليهم في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿ وإذا حضَر القِسمةَ أولُوا القُربى واليتامى والمساكينُ فارزقُوهم منه وقولُوا لهم قولًا معروفا ﴾[سورة النساء:٨] .

فإن هذه الآية تأمر المؤمنين عند قسمة مواريثهم أن يصلوا أرحامهم ويتاماهم ومساكينهم من الوصية، فإن لم تكن وصية، وصل لهم من الميراث)(١) شيئا يرضون به، ويكسب في قلوبهم الود والمحبة .

وقد حث الله تعالى على مثل هذا العطاء في غير ما آية كقوله تعالى: ﴿ إنَّ الله يأمُر بالعدلِ والإحسان وإيتاءِ ذي القربى ...﴾[سورة النحل:٩٠] وأمرُ الله تعالى هذا يعني إعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه مهما كان، طالما أن هناك مقدرة لعموم الإيتاء المأمور به، الشامل لكل ما يمكن الإيتاء منه، والتنصيص عليه بعد الأمر بالإحسان، هو من ذكر العام بعد الخاص؛ لأن الإيتاء هو المراد من الإحسان، وإنما خص بالذكر لمزيد الاهتمام به(٢) .

---

(١) انظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ٤٩/٥ .

(٢) انظر أنوار التنزيل للبيضاوي ص ٣٦٤ .

وقد سمى الله تعالى ما أمر به في هذه الآية "حقا" بمعنى أنهم يعطونه على سبيل الاستحقاق، لا على سبيل التفضل والامتنان الذي يثقل كواهل الآخذين، فقال سبحانه: ﴿ وءَاتِ ذَا القُربى حقَّه والمِسكينَ وابنَ السبيل ﴾[سورة الإسراء:٢٦] .

وقال جل شأنه: ﴿ فآتِ ذاَ القُربى حقَّه والمسكينَ وابنَ السَّبيل ذلك خيرٌ للذين يُريدون وجهَ اللهِ وأولئِك هم المفلحون ﴾[سورة الروم:٣٨] .

والحق الذي أثبته الله تعالى في هاتين الآيتين مجمل يفسَّر بكل ما يجب لهم من الصلة وحسن العشرة والبر، والمواساة عند الحاجة بالمال والمعونة بكل وجه(١)، وهو الذي يعنيه الإحسان بكل معانيه وأبعاده .

قال القرطبي عند الآية الثانية: "واختلف في هذه الآية فقيل: إنها منسوخة بآية المواريث، وقيل: لا نسخ بل للقريب حق لازم في البِرِّ على كل حال، قال: وهو الصحيح، ثم نقل عن مجاهد وقتادة قولهما: صلة الرحم فرض من الله عز وجل، ونقل عن مجاهد رحمه الله قوله: "لا تقبل الصدقة من أحد ورحمه محتاجه"(٢) ثم قال: وقيل: المراد بالقربى أقرباء النبي صلى الله عليه وسلم، قال: والأول أصح، فإن حقهم مبين في كتاب الله عز وجل في قوله: ﴿ فأنَّ لله خُمُسَه ﴾الآية[سورة الأنفال:٤١] (٣).

تنويه القرآن الكريم بالواصلين لأرحامهم وأقاربهم:

ومع كون صلة الرحم والإحسان إلى الأقارب قدجعله الله تعالى حقا ثابتا لبعضهم على بعض،فإن الله تعالى قد بالغ في الثناء على الواصلين أرحامهم وأقاربهم، وبالتنويه بهم، ورتب على ذلك مثوبات جسيمة، يُنيلها الواصلين أرحامَهم في دار كرامته، وذلك كما في قوله جل شأنه: ﴿ والَّذين يَصلِون ما أَمر اللهُ به أن يُوصلَ ويَخشَونَ ربَّهم

---

(١) انظر أنوار التنزيل للبيضاوي ص ٣٧٤- وجامع أحكام القرآن للقرطبي ٢٤٧/١٠ .

(٢) لعله يقصد بذلك الإشارة إلى إثم المقصر في حق أرحامه، وليس المراد نفي القبول على الإطلاق؛ لأن هذا لا يعرف إلا بالوحي.

(٣) جامع أحكام القرآن للقرطبي ١٣٥/١٤ .

ويخافون سوءَ الحساب ...﴾ إلى قوله: ﴿ أولئِك لهم عُقبى الدَّار * جنَّاتُ عدن يَدخلونها ومَن صلح من آبائِهم وأزواجِهم وذُرِّيَّاتِهم والملائكةُ يَدخلون عليهم من كلِّ باب * سلامٌ عليكم بما صَبرتُم فنِعم عُقبَى الدَّار ﴾[سورة الرعد:٢١-٢٣]

وفي هذه الآيات من بالغ الثناء وكريم الوعد ما لا يفرِّط فيه إلا محروم .

ذم القاطعين أرحامهم وأقاربهم:

وذلك أن من فرط في اكتسابه بأن أضاع حقوق أقاربه، وضن عليهم بما يحتاجونه من متاع الحياة الدنيا، فإنه يكون قاطعا لرحمه، معرِّضا نفسه لغضب الله وسخطه، كما دل على ذلك الوعيد الشديد الوارد في القرآن المجيد، كقوله تعالى بعد الآية السابقة: ﴿ والَّذين يَنقضُون عَهدَ اللهِ من بعد مِيثقِه ويَقطعونَ ما أَمر اللهُ به أن يُوصلَ ويُفسدِونَ في الأرضِ أولئِك لهم اللَّعنةُ ولهم سوءُ الدَّار ﴾[سورة الرعد:٢٥] ففي هذه الآية وعيد شديد لمن يفرِّط في وصل أرحامه وأقاربه، إذ توعده الله تعالى بالطرد من رحمته حيث لعنه، وبسوء المصير عند القدوم إليه حيث هيأه له، وقد تكرَّر هذا الوعيد بأسلوب أقسى ففي سورة محمد يقول الله عز وجل: ﴿ فهل عَسَيتُم إن تولَّيتم أن تُفسدوا في الآرضِ وتُقطِّعوا أرحامَكم * أولئِك الَّذين لَعنهم اللهُ فأصَمَّهم وأعمى أبصارَهم ﴾[آية:٢٢،٢٣] .

فإن في "هذه الآية إشعارا بأن الفساد في الأرض وقطيعة الأرحام من شعار أهل الكفر، فهما جُرمان كبيران يجب على المؤمنين اجتنابهما"(١) حذرا من أن يحل بهم ما أوعد الله به القاطعين من العذاب الذي يحيق بمن يُطرد من رحمة الله المعبَّر عنه باللَّعن، ومن الصمم عن سماع الحق، وعمى البصيرة عن رؤيته واتباعه .

قال الحافظ ابن كثير(٢) عقب هذه الآية: «وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموما وعن قطع الأرحام خصوصا، قال: بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال، وبذل الأموال» ثم دعَّم ذلك بالثابت من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مما سيأتي ذكر ما تيسر منه إن شاء الله تعالى .

---

(١) التحرير والتنوير ١١٣/٢٦ .

(٢) في تفسير القرآن العظيم ١٧٨/٤ .

تمثل خلق الإحسان
إلى الأقارب في النبي صلى الله عليه وسلم

أما إحسانه صلى الله عليه وسلم إلى أقاربه فهو إحسان عظيم، وبر كريم، وصلة متواصلة تفسر ما ينبغي أن تكون عليه الصلة والإحسان للأرحام والأقارب الذي أمر به القرآن الكريم وحث عليه، ويستوجب التأسي به والسير على نهجه فيه كما هو الحال في جميع ما شرعه الله تعالى في كتابه، أو شرعه صلى الله عليه وسلم لأمته،مما أوحى به الله تعالى إليه .

وقد كان الإحسان إلى الأقارب والأرحام خُلُقا عاما فيه صلى الله عليه وسلم،نشأ عليه وعُرِف به قبل البعثة،كما قالت له خديجة رضي الله عنها في قصة بدء الوحي: "إنَّك لتصل الرحم ..." ثم مازاده الشرع المطهر إلا توطيدا لهذه الصلة، ومسارعة إلى الإحسان والبر بأهلها،لكثرة ما حث الوحي الكريم به .

والشواهد والأدلة على ذلك كثيرة، وبسطها يولد الإطالة، وبحسب امرىء أن يعلم نماذج من ذلك لتكون دليلا على ما سواها فمن ذلك :

١ ـ إحسانه العظيم وبره الكريم وصلته الجليلة في هدايتهم إلى دين الله تعالى، وبذل جهده على إيصال ذلك إليهم،لما يورثُهم ذلك من سعادة سرمدية في الدنيا والآخرة .

وإن محاولته الجادَّة مع من ناصره وعضَّده في مكة المكرمة عمُّه أبو طالب الذي تقدم ذكره في الوفاء(١) دليل صدق على ذلك .

٢ ـ وكذلك ما جاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال:لما نزل قوله تعالى: ﴿ وأَنذِر عشيرَتَك الأَقربين ﴾[سورة الشعراء:٢١٤] دعا رسول الله صلى الله

---

(١) تقدم ذكر ذلك ص٥٥١.

عليه وسلم قريشا فاجتمعوا فعم وخص، وقال: يابني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يابني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يابني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يابني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله غير أن لكم رحما سأصلها ببلالها(١) .

ومعنى ذلك أن كفركم وعدم قبولكم لدعوتي في الإيمان برسالتي لا يمنعني من صلة رحمكم في الدنيا، ولا أغني عنكم في الآخرة من الله شيئا(٢) .

وقد كان لإحسانه العظيم هذا، وحرصه الشديد ذاك أثر في هداية من كتب الله تعالى الهداية له، حيث أسلم جل أقربائه وأرحامه، وخذل آخرون كأبي جهل وأبي لهب وأبي طالب لحكمة أرادها الله تعالى وقضاها لا تخفى على ذوي الألباب .

٣ - ومع خذلانهم وصدهم عن سبيل الله ومعاداتهم له، فإنهم لم يحرموا من بره وإحسانه كما علمت من مبحث رحمته صلى الله عليه وسلم حيث أنظروا فلم يعجل لهم العذاب، ودعا الله تعالى أن يرفع عنهم ما أنزله الله تعالى بهم من القحط والجدب "لما استعصوا عليه صلى الله عليه وسلم فدعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله تعالى: ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم ﴾[سورة الدخان: ١٠،١١] فأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل: يا رسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلكت، قال لمضر ؟ إنك لجريء، فاستسقوا فسقوا ..."(٣) الحديث .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الشعراء ٦/١٤٠، ومسلم في الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ برقم ٢٠٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والبلال: هو الماء، والمعنى: سأصلها، شبه قطيعتها بالحرارة تطفأ بالماء وهذه تبرد بالصلة ا.هـ، رياض الصالحين ص ١٨١ .

(٢) انظر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لمحمد الصادق عرجون ٦/٣١٣ - ٣١٧ .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الدخان ٦/١٦٤ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

٤ - ولما فتح مكة لم يفعل كما يفعل الملوك حيث إنهم ﴿ إذَا دخلوا قريةً أفسَدُوها وجعلوا أعِزَّة أهلِها أذِلَّة ﴾ [النمل:٣٤] وإنما دخل وهو يقول: "اليوم يوم الرحمة» ثم دخل وقال: «إذهبوا فأنتم الطُّلقاء»(١) إلى غير ذلك من الإحسان الذي لا يفعله أحد يؤذى في داره، ويضطهد على دينه، ويخرج من بلده،إلا أن يكون صاحب الخلق العظيم صلى الله عليه وسلم .

إحسانه صلى الله عليه وسلم لمن تابعه وآمن به من أقربائه:

فإذا كان ألد أعدائه من أقاربه صلى الله عليه وسلم لم يُحرموا من إحسانه وبِرِّه، فما الظن بمن تابعه وجاهد معه وكثَّر سواده ؟

إن من كان كذلك لجدير بعظيم الإكرام والإحسان،وهو ما حدث منه صلى الله عليه وسلم بالفعل لأقاربه، والأدلة على ذلك كثيرة معلومة نذكر منها ما يلي:

١- منها ما جاء في بِرِّه بعمه العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه في مواقف كثيرة ؛ ففي يوم بدر قال لأصحابه رضي الله عنهم: "من لَقي منكم العبَّاس فليكفَّ عنه فإنه مكرَه"(٢) فأسرَه رجل من الأنصار(٣)، وكان العباس رضي الله عنه ينكر أن يكون هو الذي أسره ويقول: لقد أسرني رجل أجْلَح(٤) من أحسن الناس وجهه على فرس أبلق،ما أراه في القوم،فلما ادَّعى الأنصاري ذلك قال له النبي صلى الله عليه وسلم: "اُسكت فقد أيَّدك الله بملَك كريم"(٥).

---

(١) كما تقدم، انظر ص٥٨٣ من الرسالة .

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٤/١٠، والإمام أحمد في فضائل الصحابة برقم ١٧٨٢، وفي إسناده ضعف ولكن الخبر من باب السير الذي يقبل فيها مثله .

(٣) هو أبو اليَسر كعب بن عمرو بن غنم الأنصاري السُّلَمي، شهد العقبة وبدرا وغيرهما توفي سنة ٥٥ هـ، الإصابة ٤/٢٢١ .

(٤) الأجلح من الناس: هو الذي انحسر الشعر من جانبي رأسه. ا.هـ النهاية مادة (جلح) .

(٥) عزاه الهيثمي في المجمع ٦/٧٩ إلى أحمد في المسند ١/١١٧ والبزار،قال:ورجال أحمد رجال الصحيح،غير =

فلما كان من الليل سهر النبي صلى الله عليه وسلم ليلته،فقال له بعض أصحابه: مايُسهرك يا نبي الله؟ قال: أنينُ العباس، فقام رجل من القوم فأرخى مِن وَثاقه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما لي لا أسمع أنين العباس ؟ فقال رجل من القوم: إني أرخيت من وثاقه شيئا،فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "فافعل ذلك بالأسارى كلهم"(١).

٢- وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكرم العباس بعد إسلامه ويعظِّمُه، فقد حدث ذات يوم أن أوذي العباس رضي الله عنه في أبيه،فصعد النبي صلى الله عليه وسلم على المِنبر ثم قال: "والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمانُ حتى يحبَّكم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم" ثم قال: "أيها الناس من آذى العباس فقد أذاني، إنما عم الرجل صنو أبيه"(٢) . فانظر كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتأذَّى مما يتأذَّى منه العباس، وما ذلك إلا لعظم محبته له، وعظيم صلته له، حيث يشاركه السرور والحزن، مما يدل على كمال الصلة المعنوية منه صلى الله عليه وسلم لأقربائه، أما الحسية فقد تقدم ما يدل عليها في مبحث كرمه صلى الله عليه وسلم(٣) .

٣- ومن بِرِّه صلى الله عليه وسلم بأقاربه وإحسانه لهم، ما كان لحمزة بن عبدالمطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم،فإن أول لِواء عقَده حين قدِم المدينة أعطاه لحمزة ليتجه إلى سِيف البحر ــ أي ساحله ــ في ثلاثين راكبا من المهاجرين،ليس فيهم من الأنصار أحد، فلقي أبا جهل بذلك الساحل في ثلثمائة راكب من أهل مكة، فحجز

= حارثة بن مضرب وهو ثقة، وانظر السيرة النبوية الصحيحة لأكرم العمري ٢/٣٦٥، وزاد المعاد ٣/١٨٣. وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على المسند ٢/١٩٤ أخاه الحُرّ.

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ١/٥١٠، وذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى ص ١٩١ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/٢٠٧، والترمذي في المناقب، باب مناقب العباس برقم ٣٧٥٨ وقال حسن صحيح، والحاكم في المستدرك ٣/٣٣٣ من حديث عبد المطلب بن ربيعة بن عبد المطلب .

(٣) انظر ص٦٢٧.

بينهما مجد بن عمرو الجهني، وكان موادعِا للفريقين، ولم يكن بينهم قتال(١) .

٤ـ ولماَّ وقف عليه حيث استشهد في أحد، فنظر إلى شيء لم يَنظر إلى شيء قط كان أوجع لقلبه منه فقال: "رحمة الله عليك فإنك كنتَ ـ ما علمتُ ـ فعولا للخيرات، وصولا للرحم، ولولا حزن من بعدك عليك لسرَّني أن أدعك حتى تحشر من أفواه شتى، أما والله مع ذلك لأمثِّلن بسبعين منهم مكانك، فنزل جبريل والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعدُ بخواتيم النحل: ﴿ وإن عاقبتُم فعاقِبوا بمثلِ ما عُوقبتُم به ولئِن صَبرتُم لهو خيرٌ للصَّابرين ﴾[سورة النحل:١٣٦] .

فكفَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمسك عن ذلك"(٢) .

إحسانه صلى الله عليه وسلم وبِرُّه ببني عُمُومته:

أما إحسانه وبِرُّه ببني عمومته على ذلك النحو الذي ندب الله تعالى إليه وأمر عباده به فهو كثير من فعله صلى الله عليه وسلم وقوله، ومن ذلك ما نذكره في الآتي:

١ـ ما كان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث احتضنه فربَّاه وأحسن تربيته، فلما شبَّ زوجه من ابنته أحبِّ الخلق إليه؛فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وفي ذلك من الدَّلالة على عِظم المكانة التي يتبوأُها علي رضي الله عنه في فؤاد النبي صلى الله عليه

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢٠/٣ مع الروض الأنف، وصفة الصفوة ٣٧١/١، وذخائر العقبى ص ١٧٥-١٧٦، وقد اختلفوا في أول راية عقدها رسول الله عليه وسلم، فمن قائل إنها كانت لعبيدة بن الحارث وهم الأكثرون، وقائل إنها كانت لحمزة، قال ابن هشام: وذلك أن بعثته وبعثة عبيدة كانتا معا فشبه ذلك على الناس. انظر سيرته ٢٠/٣ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥٩٢/٢، وصفة الصفوة ٣٧٥/١، وذخائر العقبى ص ١٨٠، وسيرة ابن هشام ١٧١/٣، وضعَّف الحافظ ابن كثير إسناده قال: لأن فيه صالح بن بشير المرِّي وهو ضعيف عند الأئمة قال: وقال البخاري: منكر الحديث، لكن الخبر أجمعت على ذكره كتب المغازي والسير، وانظر سيرة ابن هشام ١٧١/٣، وطبقات ابن سعد ١٣/٣-١٤، والاستيعاب بهامش الإصابة ٢٧٤/١، والإصابة ٣٥٤/١، وسبل الهدى والرشاد ٣٢٧/٤-٣٢٩ .

وسلم ما فيه، بحيث استوجبت تلك المكانة أن يُؤْثره بها على أبي بكر وعمر الّذين كانا قد خطباها قبل.(١) ويعدُّ هذا الأمر أعظم صلة وأكرم برٍّ من النبي صلى الله عليه وسلم لابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

٢ـ غير أنه لم يقف عند هذا الحد؛ بل لقد وطّد هذه الصِّلة بما أبانه لأمته من منزلته منه بطريق الإخبار، وذلك كقوله عليه الصلاة والسلام: "من كنت وليَّه فعلي مولاه،اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه"(٢) .

٣ـ وقوله له: "أما ترضى أن تكون بمنزلة هارون من موسى ؟! غير أنه لا نبي بعدي"(٣).

---

(١) كما أخرج ذلك ابن سعد في الطبقات ١٩/٨ .

(٢) هذا الحديث عُد من الأحاديث المتواترة، حيث جاء عن اثنين وعشرين صحابيا منهم زيد بن أرقم، وعلي، وأبو أيوب الأنصاري، وأبو هريرة، وعمار، وابن عباس، وبريدة، وابن عمر، وغيرهم، وأخرج رواياتهم أحمد في المسند ٨٤/١، ١١٨، ١١٩، ١٥٢، ٢٨١/٤، ٣٦٨، ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٥٨/٥، والترمذي برقم ٣٧١٢ وصححه، والنسائي في الخصائص ص ٥١، وابن حبان ٤٢/٩ من الإحسان وغيره.

وأخرجه في كتب المتواترات السيوطي في قطف الأزهار المتناثرة ص ٢٧٧، ومحمد مرتضى الزبيدي ص ٢٠٥، والكتاني في نظم المتناثر ص ١٢٤، وأفرد له ابن عُقدة كتابا خاصا جمع فيه طرقه وألفاظه، وذكر الهيثمي في المجمع ١١٢/٩-١١٤، غالب طرقه .

(٣) قال ذلك لما خلّفه النبي صلى الله عليه وسلم وسلم على المدينة وخرج إلى غزوة تبوك، فقال علي رضي الله عنه: تخلّفُني في النساء والصبيان ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ...." الحديث الخ.

والحديث يعد أيضا من الأحاديث المتواترة حيث جاء عن نيِّفٍ وعشرين صحابيا، قال الكتاني في النظم ص ١٢٥: استوعبها ابن عساكر في نحو عشرين ورقة، وذكر السيوطي في قطف الأزهار تسعة،منهم: أبوسعيد، وأسماء بنت عميس، وأم سلمة، وابن عمر، وعلي، وجابر بن سمرة، وزيد بن أرقم، وسعد بن أبي وقاص، رضي الله عنهم، وأخرج رواية سعد البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن =

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة المنوهة بفضله رضي الله عنه وأرضاه.

٤- ومن ذلك إحسانه العظيم عليه بإبقاء بابه مفتوحا إلى المسجد مع أمره صلى الله عليه وسلم بسد سائر الأبواب غير بابه، حيث قال صلى الله عليه وسلم: "سدُّوا هذه الأبواب إلا باب علي ..."(١) .

٥- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نقول في زمن النبي صلى الله عليه وسلم: رسولُ الله خير الناس، ثم أبو بكر، ثم عمر، قال: ولقد أُوتي ابنُ أبي طالب ثلاث خصال لئن تكون لي واحدة منها أحب إلي من حُمُر النَّعَم؛ زوَّجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته وولدت له، وسُدَّت الأبواب إلا بابه في المسجد، وأعطاه الراية يوم خيبر"(٢) .

= أبي طالب رضي الله عنه ٥/٢٤، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب برقم ٢٤٠٤، وأخرج بقية الروايات أحمد في المسند ١/١٨٢، وفي فضائل الصحابة برقم ٩٥٤، ٩٥٦، ٩٥٧، ٩٨٩، والنسائي في الخصائص ص ٣٨،٣٩، وذكر الهيثمي في المجمع ٩/١١٤،١١٥، كثيرا من طرقه عازيا ذلك إلى الطبراني في معاجمه الثلاثة، وإلى أحمد وأبي يعلى بطرق صحيحة وضعيفة .

(١) جزء من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/٣٣١ بإسناد صحيح، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه من طرق أخرى فيها ضعف ١/١٧٥، ٤/٣٦٩، وفي الفضائل برقم ٩٨٥، وأخرجه النسائي في خصائص علي رضي الله عنه ص ٣٥ كما في التهذيب من حديث زيد بن أرقم، ولكنها تشهد للطريق الأولى عند أحمد وتزيدها قوة.

وله شاهد آخر من حديث سعد بن مالك موقوفا عند الطبراني في الأوسط وأبي يعلى والبزار وأحمد ، وإسناد أحمد حسن كما قال الهيثمي ٩/١١٧ .

وأخرجه من الطريق الأولى عند أحمد أبو نعيم في الحلية ٤/١٥٣ مختصرا .

(٢) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة برقم ٩٥٥ وفي إسناده هشام بن سعد المدني وهو صدوق له أوهام، رمي بالتشيع كما قال في التقريب برقم ٧٢٩٤، وأخرجه في المسند ٢/٢٦ من طريقه أيضا، فالحديث ضعيف، لكن له شاهد عند الحاكم في المستدرك ٣/١٢٥ من حديث عمر رضي الله عنه وصحح إسناده .

وتعقبه الذهبي بعبد الله بن جعفر المديني وقال: إنه ضعيف . =

٦- وكان قد قال فيه ذلك اليوم: "لأعطينَّ هذه الراية رجلا يحب الله ورسولَه، ويحبه الله ورسوله، ويفتح الله على يديه"(١) .

وهكذا كان بِرُّه صلى الله عليه وسلم بجميع أقاربه، كان على هذا النحو إحسانا وإفضالا كما يدل لذلك قول عمته صفية بنت عبدالمطلب رضي الله عنها، في مرثاة لها فيه صلى الله عليه وسلم:

= وقضية سد أبواب الصحابة المشرَعة إلى المسجد ثابتة من أحاديث كثيرة وهي وإن كان في بعضها ضعف، لكن يقوي بعضها بعضا، قال الحافظ في القول المسدد ص ٢١ بعد سياق الروايات المتعاضدة في هذا المعنى ما نصه: «فهذه الطرق المتظاهرة من روايات الثقات، تدل على أن الحديث صحيح دلالة قوية، قال: وهذه غاية نظر المحدث» ثم تعرَّض لمخالفته للحديث الآخر المثبِت هذه الخصوصية لأبي بكر المثبَت في البخاري ١/١١٩، بلفظ: «سدُّوا عنِّي كل خُوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر» فقال الحافظ: «وأما كون المتن معارضا للمتن الثابت في الصحيحين من حديث أبي سعيد، فليس كذلك ولا معارضة بينهما، بل حديث سد الأبواب غير حديث سد الخُوخ، لأن بيت علي بن أبي طالب كان داخل المسجد مجاورا لبيوت النبي صلى الله عليه وسلم، وأما سد الخوخ فالمراد به طاقات كانت في المسجد يستقربون الدخول بها، فأمر بها النبي صلى الله عليه وسلم في مرض موته بسدها إلا خوخة أبي بكر وذلك إشارة إلى استخلافه قال: وظهر بهذا الجمع أن لاتعارض ...»

وقد دفع هذا التعارض أيضا الحافظ ابن كثير حيث قال في البداية والنهاية ٧/٣٤٣: وهذا لا ينافي ما ثبت في صحيح البخاري من أمره عليه الصلاة والسلام في مرض الموت بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا باب أبي بكر؛ لأن نفي هذا في حق علي كان في حال حياته لاحتياج فاطمة إلى المرور من بيتها إلى بيت أبيها فجعل هذا رفقا بها، وأما بعد وفاته فزالت هذه العلة، فاحتيج إلى فتح باب الصديق لأجل خروجه إلى المسجد ليصلي بالناس إذ كان الخليفة عليهم بعد موته عليه الصلاة والسلام، وفيه إشارة إلى خلافته. ا.هـ .

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب علي رضي الله عنه ٥/٢٣، ومسلم في فضائله أيضا برقم ٢٤٠٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وهذه رواية مسلم .

ألا يارسول الله كنتَ رجاءَنا وكنتَ بنا بَرّاً ولم تك جافيا

إلى أن قالت:

صبرتَ وبلَّغت الرسالة صادقا ودُمت صليب الدين أبلجَ صافيا

فلو أن رب العرش أبقاك بيننا سعدنا ولكن أمرُه كان ماضيا(١)

ويدل لذلك أيضا قول أبي طالب في لاميته المشهورة:

يلوذ به الهُلّاك من آل هاشم فهم عنده في رحمة وفواضل

فهذه نماذج لبره صلى الله عليه وسلم وإحسانه لأقاربه رضي الله عنهم، في حياته وبنفسه الكريمة.

وهنا ينبغي أن يفهم أن هذا الإحسان والحب والبر بالأرحام والأقارب، لم يكن على حساب الحق أو على حساب أحد من المسلمين، وإنما كان لاستحقاقهم ذلك وأهليتهم له، فإنهم كانوا أكثر الناس التزاما بشرع الله، وأسرعهم استجابة وتسابقا إلى مرضاة الله تعالى، وأعظمهم نصرة لشرع الله تعالى.

فهذا حمزة بن عبدالمطلب يصرع شهيدا ويمثَّل به أيَّما تمثيل وذلك في ذات الله تعالى.

وجعفر بن أبي طالب نال نحو ذلك شهادة وتمثيلا في غزوة مؤتة.

وعلي رضي الله عنه كان الأسد الضرغام، والبطل المغوار، في كل المشاهد وميادين القتال إلا تبوك .

والعباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن الحارث كانا في مقدمة صفوف القتال في حنين، ولقد ثبت النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الوقعة العظيمة وما ثبت معه إلا قليل منهم العباس وأبو سفيان بن الحارث، وكانوا جميعا عرضة للخطر المحدق لقربهم من النبي صلى الله عليه وسلم المقصود بالذات من الأعداء.

وهذه فاطمة رضي الله عنها يرفض النبي صلى الله عليه وسلم أن يعطيها خادما مع شدة احتياجها لذلك كما مضى ذكره.

---

(١) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/٤٠ إلى الطبراني قال: وإسناده حسن .

إلى غير ذلك من الشواهد والأدلة على أنهم كانوا جديرين بكل عطاء وفضل وتنويه، ومع ذلك فلم يؤاثرهم النبي صلى الله عليه وسلم بحقوق المسلمين، بل أحرمهم حتى من وراثته، ومن الصدقة - الزكاة - لأنهم كانوا أهل بيت لا يريدون إلا وجه الله والدار الآخرة.

وهذا بعكس حال رؤساء الأمة الإسلامية اليوم وقبله،من إيثارهم أقرباءهم بنصيب الأسد من حقوق المسلمين الذين ائتُمِنوا عليها ليصل إلى كل ذي حق حقه عن طريقهم.

وهذه النماذج المتقدمة من بره صلى الله عليه وسلم وإحسانه بأقاربه وأرحامه،تقتضي التأسي به صلى الله عليه وسلم في الإحسان وصلة قرابته صلى الله عليه وسلم محبة للنبي صلى الله عليه وسلم ومتابعة له، وكان ذلك كافيا لأمته في صلة أقارب نبيهم والبر بهم والإحسان إليهم،لمقتضى وجوب التأسي به صلى الله عليه وسلم .

غير أنه عليه والصلاة والسلام لم يُعفِ الأمة من أن يوجِّه لها حثا مباشرا، وحضاً بالغا على الإحسان إلى قرابته عليه والصلاة والسلام،ليبالغوا في ذلك فتقرَّ عينه بقرابته وأمته، لأن إكرام القرابة إكرام له صلى الله عليه وسلم، وذلك يَبعث على رضاه عليه والصلاة والسلام على المحسنين إليهم البارِّين بهم، كما دل على ذلك ما تقدم ذكره غير بعيد من تأذِّيه صلى الله عليه وسلم ممن يؤذي العباس رضي الله عنه الدَّال بمفهومه على رضاه عليه والصلاة والسلام عمن يَبَرُّه ويحسن إليه،ومن ذلك الحث:

١- قوله عليه الصلاة والسلام: "أما بعد، ألا أيُّها الناس فإنما أنا بشر يوشِك أن يأتي رسول ربي فأجيب،وأنا تارك فيكم ثقلين،أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به" فحثَّ على كتاب الله ورغب فيه ثم قال: "وأهل بيتي،أذكِّركم الله في أهل بيتي، أذكِّركم الله في أهل بيتي، أذكِّركم الله في أهل بيتي" قال حُصَين بن سَبْرة أحد راويي الحديث عن زيد بن أرقم رضي الله عنه:

ومن أهل بيته يازيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِم الصدقة بعده، قال: ومن هم ؟ قال: هم آل علي،وآل عقيل،وآل جعفر

وآل عباس، قال: كل هؤلاء حُرِم الصَّدقة؟ قال: نعم،(١) .

٢- وفي رواية قال: "ألا وإني تارك فيكم ثقلين: أحدهما كتاب الله عز وجل، هوحبلُ الله من اتبعه كان على الهدى،ومن تركه كان على ضلالة ..."(٢) .

ونقل الإمام النووي عن العلماء قولهم: "سُمِّيا ثقلين لعِظَمهما وكبير شأنِهما، وقيل: لِثقل العمل بهما"(٣) .

وقال ابن الأثير: "سمَّى النبي صلى الله عليه وسلم القرآن العزيز وأهل بيته ثقلين، لأن الأخذ بهما والعمل بما يجب لهما ثقيل، وقيل: العرب تقول لكل نفيس ثَقَل، فجعلهما ثقلين إعظاما لقدرهما وتفخيما لشأنهما"(٤) .

٣- وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنِّي تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلُّوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، وهو كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعِتْرتي (٥) أهل بيتي،لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلُفوني فيهما"(٦) .

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه برقم ٢٤٠٨، والدارمي في فضائل القرآن ٤٣٢/٢ .

(٢) هي إحدى روايات مسلم بالرقم المتقدم .

(٣) شرح مسلم ١٨٠/١٥ .

(٤) جامع الأصول ١٥٩/٩ .

(٥) عترة الرجل: أخص أقاربه، وهم هنا بنو عبد المطلب، وقيل: أهل بيته الأقربون وهم أولاده وعلي وأولاده. النهاية ١٧٧/٣ .

(٦) أخرجه الترمذي في المناقب، باب مناقب أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم برقم ٣٧٨٨، وقال: حسن غريب .

وأخرجه أحمد في المسند ٣٦٧/٤، ٣٧٢ من حديثه وله شاهد عنده من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أخرجه في ١٤/٣، ١٧، ٢٦، ٥٩، فهذه الروايات تشهد لرواية زيد وتقويها .

٤- وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أحبّوا الله لما يغذوكم به،وأحبُّوني لحبّ الله وأحبُّوا أهل بيتي بحبّي"(١) .

والأحاديث في هذا الباب كثيرة خاصة وعامة، وكلها تدل على عظيم حقوق قرابة النبي صلى الله عليه وسلم على أمة الإسلام،توجب لهم الرعاية والحسنى وزيادة .

وقد حمل بعض أهل التأويل قوله تعالى: ﴿ قُل لا أسألُكم عليه أجراً إلا المودّة في القُربى ﴾[سورة الشورى:٢٣] على قرابته عليه الصلاة والسلام وقالوا إن المعنى: (لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تودُّوا قرابتي وأهل بيتي)(٢) .

ولا عجب أن تنال قرابته صلى الله عليه وسلم عنايته الكبيرة تنويها بمكانتهم وحثا على الإحسان إليهم، فإن ذلك إنما كان تبيانا للقرآن الكريم وإيضاحا لهداه، حيث أشاد بمكانتهم عند الله وأوجب العناية بهم.

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب الباب السابق برقم ٣٧٨٩، وقال: حسن غريب، وأبو نعيم في الحلية ٢١١/٣، والحاكم في المستدرك ١٥٠/٣، وصححه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في شعب الإيمان ٢٨٨/١، وفي مناقب الشافعي ٤٥/١، والإمام أحمد في فضائل الصحابة برقم ١٩٥٢، وفي إسناده عبد الله بن سليمان النوفلي وهو مقبول كما قال الحافظ في التقريب برقم ٣٣٧٢، وقال الذهبي عنه في الميزان برقم ٤٣٦٧: فيه جهالة وأخرج حديثه هذا .

(٢) وهذا تأويل مرجوح في تفسير الآية؛ لأن نظم الآيات يقتضي أن يكون المعنى: لا أسألكم على القرآن جزاء إلا أن تودُّوني، أي تعاملوني معاملة الوِدّ، أي: غير معاملة العداوة لأجل القرابة التي بيننا في النسب القرشي .

وهذا ما ذهب إليه جمهور أهل التأويل كمجاهد وقتادة وجماعة،ومن قبلهم ابن عباس رضي الله عنهم.

وأما القول الأول فقد ذهب إليه علي بن حسين وعمرو بن شعيب والسدي، إلا أن ما ذهبوا إليه لا تصح فيه رواية عمن يعتد بفهمه كما قال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير ٨٣/٢٥. وانظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ٢١/١٦-٢٤، وروح المعني ٣٠/٢٥/٩-٣٣ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١١١/٤-١١٤ .

أما الاشادة ففي قوله جل ذكره: ﴿ إنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيذهبَ عنكم الرِّجسَ أهلَ البيتِ ويُطهِّرَكم تطهيرا ﴾[سورة الأحزاب:٣٣] .

وآل بيته صلى الله عليه وسلم هن أزواجه وأولاده وأسباطه.

إذ الآية تدل على أن لآل البيت هؤلاء مكانة عظيمة عند الله تعالى حيث خصَّهم بهذه الإرادة الشرعية، وهي إرادة إذهاب الرجس وهو الذنب الذي يلوث الجسم بأقذار الخطايا الموجبة للإثم وتطهيرهم من ذلك تطهيرا بليغا.

والله تعالى يريد للمؤمنين كلهم ذلك، ولكنه يريد ذلك لأهل البيت على وجه الخصوص؛ لأنهم بيت النبوة الذين هم شامة الناس شرفا وفضلا واستمساكا بشرع الله المطهر.

ولذلك نص عليهم في هذه الآية للتنويه بهم وإظهار شرفهم على غيرهم.

وأما إيجابه العناية بهم فهو ما دل عليه فرض الله تعالى لهم ما يُغنيهم،وهو خمس الخمس من المغنم الوارد في قوله جل شأنه: ﴿ واعلموا أنَّما غنِمتُم من شيءٍ فأنَّ لله خُمُسَه وللرَّسولِ ولذِي القُربى ... ﴾[سورة الأنفال:٤١] .

فانتزع الله تعالى الخمس من المغنم، وأوجب لقرابة النبي صلى الله عليه وسلم خمسه، وجعل ذلك مناطا بمن يلي قسمة الغنائم من إمام المسلمين أو نائبه.

وذلك لكي يسدوا حاجتهم، ويُغْنَوا عن التَّطلع إلى أموال غيرهم، ولما كان ذلك كافيا لهم حرمتعليهم الزكاة التي هي أوساخ المال، وهم أناس أطهار، فلم تكن لائقة بهم، غير أن هذا الحق قد ضاع بترك أئمة المسلمين جهاد الكافرين، فلم تَعُد هناك غنائم تقسم وتخمَّس، فتعرَّضتالقرابة الشريفة اليوم كما تعرض غيرهم إلى الحاجة الماسة مع عفَّتهم لأنهم لا يسألون الناس إلحافا، فيحسبهم الجاهلون أغنياء من التعفف، والله المستعان.

وقد كان السلف الصالح أحرص الناس على الإحسان إلى قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم على قرابتهم الخاصة كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: "أرقُبوا

محمدا صلى الله عليه وسلم في أهل بيته"(١) .

وجاء أنه قال لعلي رضي الله عنه: "والله لَقرابةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبُّ إليَّ أن أصل من قرابتي"(٢) .

وقال عمر بن الخطاب للعباس رضي الله عنهما: "والله لإسلامُك يوم أسلمتَ كان أحبَّ إلي من إسلام الخطَّاب لو أسلم؛ لأن إسلامك كان أحبَّ إلى رسول الله من إسلام الخطاب"(٣) .

قال الحافظ ابن كثير:

"فحال الشيخين رضي الله عنهما هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك، قال: ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين رضي الله عنهما وعن سائر الصحابة أجمعين"(٤) .

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ٢٦/٥ .

(٢) أخرجه البخاري في الكتاب والباب السابقين .

(٣) ذكره الحافظ بن كثير في تفسيره ١١٣/٤ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ١١٣/٤ .

الفصل الثاني

الأخـــــلاق الاجـتـمـاعـيـة الـعـامـــة

وفيه مباحث:

١ـ التّحية بدءا وردا .

٢ـ الاستئذان وغض البصر .

٣ـ الضيافة .

٤ـ الإحسان .

تمهيد:

من أجلِّ المظاهر الأخلاقية، ما يظهر به المرء في مجتمعه من أدب في مخاطبته عند لقائه واجتماعه، وقدومه، وفراقه، وما يُرى به من رحمة للصَّغير، وتوقير للكبير، وعطف على الأرامل والأيتام وضعفاء الرجال، وما يُعرف عنه من طيب المجاورة، وكرم الضيافة، ورعاية الصداقة، إلى غير ذلك مما تعارفت الأمم على حسنه، ومدحت المتحلين به، وما يعرف به مدى تخلق المجتمع وتحضره ومكانته.

وتحلى المرء بكريم السجايا، وجميل الخصال، وزكاء الخلق في مجتمعه، يؤثر عليه إيجابيا في اقتباس تلك الأخلاق منه والاقتداء به، لما جُبِلت عليه النفوس من حب الفضيلة وكراهية الرذيلة، ومحبة أهل الفضل ومقت أهل السوء والفحشاء، وما فطرت عليه من التأثر بما أعجبت به من خير أو شر.

وإذا كان هذا الأمر تحبِّذه العقول، فهو أيضا مما وردت به النقول عن كل نبي ورسول، وشريعتنا الإسلامية المحمدية، قد احتوت على الحظ الأوفر والنصيب الأكبر من العناية بهذه الأخلاق الاجتماعية كعنايتها في كل الأخلاق الإسلامية.

فورد في كتاب الله تعالى وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الفعلية والقولية ما يجلُّ عن الحصر في مثل هذا الفصل الضِّمني.

وسأذكر جملة صالحة من الأخلاق الاجتماعية الواردة في كتاب الله تعالى وتمثلت في رسول الله صلى الله عليه وسلم في مباحث هذا الفصل إن شاء الله تعالى.

المبحث الأوَّل

(التَّحيَّة بدءاً ورداً)

التحية؛ على وزن تفعلة، مشتقة من حيي، والأصل تَحْيِية، مثل تَرضية وتَسمية، فأدغموا الياء في الياء لتوالي الأمثال، ومعناها؛ المُلك أو البقاء(١) فهي تعني الدعاء بالحياة.

قال الراغب: "التَّحية أن يقال: حيَّاك الله، أي جعل لك حياةً، وذلك إخبار ثم يجعل دعاء، ويقال: حيَّا فلان فلانا تحية،إذا قال له ذلك، قال: وأصل التحية من الحياة، ثم جعل ذلك دعاء تحية، لكون جميعه غير خارج عن حصول الحياة، أو سبب حياة إما في الدنيا وإما في الآخرة"(٢) .

منزلة هذا الخلق في الإسلام:

والتحية خلق إسلامي رفيع يبعث على التَّحابِّ والتراحم بين أفراد المجتمع المسلم، وهي تؤنس الداخل بتأمينه إن كان لا يعرفه، وباللُّطف له إن كان معروفا، ولذلك ندب الله تعالى عباده إلى تبادلها، ونوه بفضلها، في غير ما آية .

حث القرآن الكريم على التحية:

أما حثه وندبه سبحانه وتعالى عليها فهو ما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ياأيُّها الذين آمنُوا لا تَدخلوا بيوتًا غيرَ بيوتِكم حتَّى تَستَأنِسوا وتُسَلِّموا على أهلِها ذلكم خيرٌ لكم لعلَّكم تذكَّرون ﴾[سورة النور:٢٧] .

وقوله سبحانه: ﴿ ... فإذا دخلتُم بُيوتاً فسلِّموا على أنفسِكم تَحِيَّةً من عندِ الله مباركةً طيِّبة كذلك يُبَيِّنُ الله لكم الآياتِ لعلَّكم تعقلون ﴾[سورة النور:٦١] .

فيأمر الله تعالى عباده في هاتين الآيتين بأن يسلِّموا على من يدخلون عليهم من أقارب أو أباعد، بل حتى على الإنسان نفسه إذا لم يكن في البيت أحد، فيقول: السلام علينا

---

(١) تاج العروس ١٠/١٠٦ مادة (حيي)، وجامع أحكام القرآن للقرطبي ٥/٢٩٧ .

(٢) المفردات ص ١٤٠ مادة (حيي) .

وعلى عباد الله الصالحين، كما دلت عليه الآية وقال به أهل العلم(١) .

لأن التحية شأنها عظيم عند الله تعالى كما دل عليه وصفه تعالى لها بقوله: ﴿ مباركةً طيبة ﴾ .

قال في التحرير والتنوير(٢): "وإنما كانت هذه التحية مباركة لما فيها من نية المسالمة وحسن اللقاء والمخالطة، وذلك يوفّر خير الأخوة الإسلامية ... قال: ووجهُ طِيبِ التَّحية أنها دعاء بالسلامة وإيذان بالمسالمة والمصافاه" .

وهذه التحية المباركة الطيبة هي السلام الذي نصت عليه الآية الأولى والتي بينها النبي صلى الله عليه وسلم بما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لما خلق الله آدم وطولُه ستون ذراعا، قال: اذهب فسلِّم على أولئك؛ لنفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يُحيُّونك فإنها تحيَّتُك وتحيَّةُ ذُرِّيتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله، قال: فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق يَنقُص بعده حتى الآن"(٣) .

فلفظ: السلام ..إلخ هي التحية التي أرادها الله تعالى واختارها لبني آدم، وهو مشتق من السلامة، فهو دعاء بالسلامة وتأمين بالسلام، لأنه إذا دعا له بالسلامة فهو مسالم له، فكان الخبر، كناية عن التأمين، فهو دعاء تُرجَى إجابته وعهد بالأَمن يجب الوفاء به(٤).

ولما كان السلام دعاءا وتأمينا، كان على المسلَّم عليه أن يكافِئَه على دعائه، ويبادله الأمن الذي أشعره به، ليعمَّ الإخاء والتَّحاب بين المؤمنين وتسود الأخلاق الحميدة في

---

(١) انظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ٣١٩/١٢ .

(٢) ٣٠٥/١٨ .

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب بدء السلام ٦٢/٨، ومسلم في السلام، باب تسليم الراكب على الماشي برقم ٢١٦٠ .

(٤) انظر التحرير والتنوير ٣٠٤/١٨ .

صفوف المجتمع. وذلك بالرد عليه بأحسن من تحيته أو مثلها على الأقل .

ولئن كان ابتداء السلام في الأصل مندوبا، فإن الرد واجب حتمي، كما أفادهقول الله تعالى: ﴿ وإذا حُيِّيتُم بِتحيَّةٍ فحيُّوا بأحسنَ منها أو رُدُّوها إنَّ الله كان على كل شيءٍ حسيبا ﴾[سورة النساء:٨٦] .

وهنا يتجلى حرص الإسلام على سمو الخلق وإشاعة التَّواد والتراحم، حيث لم يكتف الشارع بالرد بالمثل، وإنما ندبهم إلى أن يكون الرد أحسن من الابتداء، لما في ذلك من إظهار الفرحة والأنس والصفاء، وذلك ما يريده الإسلام من متَّبعيه، فيقول في جواب السلام عليكم: وعليكم السلام ورحمة الله، فإذا زاد المسلم: (ورحمة الله) زاد الراد:(وبركاته) .

فإن انتهى المسلم بالسلام إلى غايته، كانت الزيادة الحسنة بالواو في قوله: وعليكم إلخ فإن لم تطب نفسه بالزيادة،لشيء في نفسه عليه أو نحوه، فلا أقلَّ من أن يرد التَّحيَّة بالمثل وذلك حتم عليه، لأنه مكافأة وإثابة على الإحسان، فلا يحل تركه أو النقص عن المثل لما في ذلك من الإهانة والإزدراء بالمسلم، وذلك حرام .

"ولذا ندب للجمع المسلَّم عليهم أن يجيبوا كلهم إظهارا للإكرام ومبالغة فيه وإن كان الفرض يسقط ببعضهم"(١) .

كما أن في تركه إعراضا عن هذه التَّحية المباركة الطَّيبة التي فضَّلها الله تعالى واختارها لعباده دون صنوف التَّحيات التي كانوا يتبادلونها في محاوراتاهم ولقاءاتهم كقولهم: عِم صباحا، وحَّياك الله، ونحو ذلك،فالإعراض عن ذلك يكون إعراضا عن الفضيلة .

الأدلة على فضيلة التحية بالسلام:

ومما يدل على فضيلة السلام:القرآن والأخبار والمعقول؛

أما القرآن فلأن الله تعالى سمَّى نفسه به، فإنه سبحانه (الملك القُدُّوس السلام ..) وسلَّم به على عباده في عدة مواطن،كما في قوله سبحانه: ﴿ يا نوحُ اهبط بسلام منَّا

---

(١) محاسن التأويل ٥/٣٤٥ .

وبـركاتٍ عليكَ وعلى أُمَمٍ ممَّن مَعك ﴾[سورة هود:٤٨] قال الفخر الرازي: (والمراد منـه ـ أي الأمم المذكورة ـ أمة محمد صلى الله عليه وسلم)(١)،ومنـه قولـه سبحانه:﴿والسَّلام على مَن اتَّبع الهدى﴾[سورة طه:٤٧] .

وقوله سبحانه: ﴿ قُل الحمدُ لله وسلامٌ على عبادِه الَّذين اصْطَفى ﴾[سورة النمل:٥٩].

ومما دل على فضله أيضا أن الله تعالى يُحيِّي به أهل الجنة في الجنـة كمـا قـال سبحانه: ﴿تحيَّتُهم يوم يَلقونه سلامٌ وأعدَّ لهم أجـرًا كريمـا﴾[سورة الأحزاب:٤٤]، وقـال جـل شـأنه: ﴿سلامٌ قولا من رب رحيم﴾[سورة يس:٥٨] .

وتحيي الملائكة أهل الجنة به فتقول لهم ما قاله الله تعـالى: ﴿ سـلامٌ عليكـم بمـا صَـبرتُم فنِعم عُقبى الدَّار ﴾[سورة الرعد:٢٤] .

وهو أيضا تحية أهل الجنة في الجنة فيما بينهم كمـا قـال سبحانه: ﴿ لا يَسمعون فيهـا لغواً ولا تأثِيما * إلاَّ قيلاً سلامًا سلاما ﴾[سورة الواقعة:٢٥،٢٦] .

ومما دل على فضله أيضا أن الله تعالى حيَّا بـه أنبيـاءه ورُسـلَه كقولـه لنـوح: ﴿ سـلامٌ على نوحٍ في العالمين ﴾[سورة الصافات:٧٩]، وقوله لإبراهيم: ﴿ سلامٌ على إبراهيم ﴾[سورة الصافات:١٠٩]، وقوله ليحيى: ﴿ وسلامٌ عليه يوم وُلِد ويَوم يَموتُ ويَومَ يُبعثُ حيًّا ﴾ [سورة مريم:١٥]، وقوله في عيسى: ﴿ والسَّلامُ عليَّ يوم وُلِدتُّ ويوم أموتُ ويـوم أُبْعَثُ حيـا ﴾ [سورة مريم:٣٣]، وقوله لموسى وهارون: ﴿ سلامٌ على موسـى وهـارون ﴾[سورة الصافات:١٢٠] وقوله لجميع أنبيائه ورسـله: ﴿ وسـلامٌ علـى المرسَلين*والحمـدُ لله ربِّ العـالمين ﴾[سورة الصافات:١٨١،١٨٢]

ومن الدلائل على فضل السلام أيضا أن الله تعالى لما ذكـر تعظيـم محمـد عليـه الصـلاة والسلام قال: ﴿ إنَّ الله وملائكتَه يُصلُّون على النَّبي ياأيُّها الذين آمنوا صلُّوا عليه وسلِّموا تَسليما ﴾[سورة الأحزاب:٥٦] . فقرن التسليم بالصلاة عليه، وأوجبها على المؤمنين كما هـو مقتضى الأمر بها، وفي ذلك من الدلالة على فضله ما لا يخفى إذ لو كانت هناك تحية

---

(١) التفسير الكبير ١٠/٢١٠ .

أعظم شأنا منه لذكرها لأن المقام مقام تعظيم وتشريف .

فهذه الدلائل القرآنية الكثيرة واضحة في فضل السلام وعلو شأنه عند الله تعالى.

أما ما يدل على فضله من الأخبار فمنها ما جاء من حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس إليه(١)، وقيل: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استثبتُّ وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كذَّاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: «أيُّها الناس أفشُوا السلام، وأطعِموا الطَّعام، وصِلُّوا والناس نيام، تدخلون الجنة بسلام» (٢) .

فأفاد قول النبي صلى الله عليه وسلم هذا أن من أسباب دخول الجنة بسلام إفشاء السلام، وقرنه بإطعام الطعام والتهجد المعلوم فضلهما مما تقدم وغيره .

وأما ما يدل على فضيلته من جهة المعقول فهو ما بينه الفخر الرازي(٣) بقوله:

الأول: " قالوا: إن تحية النصارى وضع اليد على الفم، وتحية اليهود بعضهم لبعض الإشارة بالأصابع، وتحية المجوس الإنحناء، وتحية العرب لبعضهم أن يقولوا: حياك الله وللملوك: أنعم صباحا، وتحية المسلمين بعضهم لبعض أن يقولوا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ولا شك أن هذه التحية أشرف التحيات وأكرمها ـ يعني لما تعنيه من الإشعار بالأمن والدعاء بالسلام والرحمة والبركة ـ .

الثاني: أن السلام مشعر بالسلامة من الآفات والبلِّيات، ولا شك أن السعي في تحصيل الصون عن الضرر أولى من تحصيل النفع .

الثالث: أن الوعد بالنفع قد يقدر الإنسان على الوفاء به، وقد لا يقدر، أما الوعد بترك

---

(١) أي: ذهبوا إليه مسرعين .

(٢) حديث صحيح تقدم ص٦٣٣.

(٣) في تفسيره الكبير ٢١١/١٠ .

الضرر فإنه يكون قادرا على الوفاء به لا محالة والسلام يدل عليه، فثبت أن السلام أفضل أنواع التحية" .

فثبت بهذا أفضلية تحية الإسلام على غيرها من التحيات التي يجري تبادلها قديما وحديثا، فمن أعرض عنها فإنما يعرض عن فضيلة سهلة المنال،كثيرة النوال كما دل على ذلك أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم الآتي بيانها قريبا .

تطبيق النبي
صلى الله عليه وسلم لخلق التحية

وحيث كانت تحية الإسلام بتلك المثابة من الفضل، فلا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيكون أولى الناس بالمبادرة إلى التحلي بها، وبذلها في كل حال يدعو إلى أن تبذل فيه وتتبادل، وذلك ما حفظته لنا كتب شمائله عليه الصلاة والسلام ودواوين سنته الكثيرة مما ثبت عنه بالنقل الصحيح.

فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يسلِّم على الصغير والكبير والذكر والأنثى والمسلم والكافر والبر والفاجر:

١ـ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه "مر على صِبيان فسلَّم عليهم، وقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله"(١) .

٢ـ وعنه رضي الله عنه قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم يزور الأنصار ويسلم على صبيانهم ويمسح برؤسهم"(٢) .

٣ـ وعنه رضي الله عنه قال: "مرَّ النبي صلى الله عليه وسلم وأنا مع الصِّبيان فسلَّم علينا ثم أخذ بيدي فأرسلني برسالة"(٣) .

٤ـ وعن أسماء بنت يزيد(٤) رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بنسوة

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب التسليم على الصبيان ٦٨/٨، ومسلم في السلام، باب استحباب السلام على الصبيان برقم ٢١٦٨ .

(٢) أخرجه ابن حبان برقم ٢١٤٥ كما في موارد الظمآن ، والبغوي في الأنوار برقم ٤٠٤، وفي شرح السنة برقم ٣٣٠٦، وعزاه الهيثمي في المجمع ٣٧/٨ إلى أحمد والبزار قال: ورجالهما رجال الصحيح .

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه برقم ٢٤٨٢، وأبو داود في الأدب، باب في السلام على الصبيان برقم ٥٢٠٣، والبغوي في الأنوار برقم ٤٠٥ .

(٤) ابن السكن الأوسية الأنصارية رضي الله عنها، كانت تلقب بخطيبة النساء، شهدت وقعة اليرموك، وقتلت يومئذ تسعة من الروم بعمود فسطاطها وعاشت بعد ذلك دهرا، انظر الإصابة ٢٣٤/٤ وبهامشها الاستيعاب ٢٣٧/٤ .

فسلم عليهن"(١) .

٥ـ وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم مرَّ في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين وعبَدة الأوثان واليهود، وفيهم عبدالله بن أبيّ بن سلول... فسلم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله(٢) ...الحديث.

٦ـ وكان يكاتب ملوك الأرض الكفرة من الأكاسرة والقياصرة وغيرهم فيسلم عليهم في رسائله،كما قال في رسالته لهرقل ملك الروم: "السلام على من اتبع الهدى"(٣) .

إلى غير ذلك من الكتب والأمثلة الدالة على أنه صلى الله عليه وسلم كان يسلِّم على كل من لقيه أو كتب إليه أو وفد عليه، ولو كان في الأحوال التي قد لا يرجو فيها إجابة من أحد .

٧ـ كما دل على ذلك حديث المقداد رضي الله عنه في قصة شُربه اللَّبنَ إذ فيه: "كنَّا نرفع للنبي صلى الله عليه وسلم نصيبه من اللَّبن فيجيء من الليل فيسلّم تسليماً لا يُوقِظُ نائما ويُسمِعُ اليقظانَ، قال: فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فسلَّم كما كان يسلم..."(٤) .

٨ـ وإذا سلم لم يكتف بسلام واحد وإنما يسلِّم ثلاثا كما دل عليه حديث أنس الآتي ذكره في الاستئذان(٥) ، وفيه : "... وإذا أتى على قوم فسلَّم، سلَّم عليهم ثلاثا" .

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في السلام على النساء برقم ٥٢٠٤، والترمذي في الاستئذان، باب ما جاء في التسليم على النساء برقم ٢٦٩٨، وابن ماجه في الأدب برقم ٢٧٠١، والبغوي في الأنوار برقم ٤٠٦ وقال عنه الترمذي: حديث حسن .

(٢) متفق عليه تقدم في مبحث صبره صلى الله عليه وسلم ص٤٣٤.

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب كيف يكتب الكتاب إلى أهل الكتاب ٧٢/٨ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٤) أخرجه مسلم في الأشربة، باب إكرام الضيف برقم ٢٠٥٥ .

(٥) ص٧٩٦.

يعني عند الاستئذان وعند الدخول وعند إرادة الخروج، أو ذلك عندما يريد إسماع المستأذن كما في قصة تسليمه على سعد بن عبادة رضي الله عنه الآتي ذكرها في الاستئذان أيضا .

٩- وكان عليه الصلاة والسلام إذا صافح الرجل لم ينزع يده من يده حتى يكون هو الذي ينزع يده، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون هو الذي يصرف وجهه عن وجهه، ولم يُر مقدِّما ركبتيه بين يدي جليس له".

كما قال أنس بن مالك رضي الله عنه(١) .

على هذا النحو كان النبي صلى الله عليه وسلم يسلِّم ويُحيِّي أصحابه وأمته ومن لقي من المسلمين وغيرهم، وذلك لما كان عليه من عظمة الأخلاق وكمال التودد إلى الناس.

والدلائل على تسليمه صلى الله عليه وسلم لكل من لقيه أو دخل عليه من قريب أو بعيد صغير أو كبير، ذكر أو أنثى، مسلم أو كافر، بار أو فاجر، لا تحصى إذ لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يترك ذلك في كل حال يندب فيه التسليم، فجمعُ ذلك من كل الوقائع والأحوال يطول .

والأجدر بالعناية هنا هو ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم من الحث عليه وبيان فضله، وأحكامه وآدابه فإن في ذلك غُنية عن تتبع وقائع الأحوال الكثيرة؛ لأن: القول بالفعل يعدل، كما قال الشاعر.

وأيضا فإن في أقواله صلى الله عليه وسلم دلالة كاملة على تطبيقه لما يدعو أمته إليه، فإنه قد كان أول من يبادر فيتمثل ما يدعو إليه من شرائع الدين كما هو معلوم. ثم إن الحاجة ماسة إلى ذكر أقواله في ذلك؛لما لها من كبير الفائدة في نفوس القارئين والسامعين، إذ الحث فيها والدعوة إلى تطبيقها واضح وجلي فلا يسع المسلم مخالفتها ولا التهاون بها.

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة، باب رقم ٤٦، برقم ٢٤٩٠، وابن ماجه في الأدب، باب إكرام الرجل جليسه برقم ٣٧١٦، والبيهقي في الدلائل ٣٢٠/١، وابن سعد في الطبقات ٣٧٨/١، والبغوي في الأنوار برقم ٣٧٩ .

ومداره على زيد القُمِّي وهو ضعيف كما في التقريب برقم ٢١٣١، وكما قال البوصيري في مصباح الزجاجة ٢٤٩/٢ برقم ١٢٩٨، ولكن للحديث شواهد تجبر ضعفه وترقيه إلى مرتبة الحسن، انظر السلسلة الصحيحة للألباني برقم ٢٤٨٥ .

حثه صلى الله عليه وسلم على السَّلام وإفشائه:

فمما ورد من الحث عليه، الحث على إفشائه بين الناس ومن ذلك:

١ـ ما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الإسلام خير؟ قال: "تُطعم الطَّعام، وتقرِئُ السلام على من عرفت ومن لم تعرف"(١) .

٢ـ وما رواه البراء بن عازب(٢) رضي الله عنه قال: "أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبع: بعيادة المريض، واتِّباع الجنائز، وتشميتِ العاطس، ونصر الضَّعيف، وعونِ المظلوم، وإفشاء السلام، وإبرار المقسِم"(٣) .

٣ـ وما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "حقُّ المسلم على المسلم ست» قيل ما هن يا رسول الله؟ قال:«إذا لَقيتَه فسلِّم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمِد الله فشمِّته، وإذا مرِض فعُده، وإذا مات فاتَّبعه"(٤) .

٤ـ وما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تدخلون الجنة حتى تُؤمنوا، ولا تُؤمنوا(٥) حتى تحابُّوا، أولا أدلُّكم على شيء إذا فعلتموه

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب السلام للمعرفة وغير المعرفة ٦٥/٨، ومسلم في الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام برقم ٣٩ .

(٢) ابن الحارث بن عدي الأنصاري الأوسي، صحابي ابن صحابي، غزا مع النبي صلى الله عليه وسلم خمس عشرة غزوة، واستُصغِر يوم بدر، فرده النبي صلى الله عليه وسلم كما رد ابن عمر توفي سنة ٧٢ هـ، في إمارة مصعب بن الزبير، انظر طبقات ابن سعد ٣٦٤/٤ وتهذيب الأسماء ١٣٢/١، والإصابة ١٤٢/١ .

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب إفشاء السلام ٦٥/٨، وفي مواضع أخرى، ومسلم في اللباس ٢٠٦٦ .

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز، باب الأمر باتباع الجنائز ٩٠/٢ ومسلم في السلام، باب من حق المسلم على المسلم رد السلام برقم ٢١٦٢ .

(٥) قال في شرح مسلم: هكذا هو في جميع الأصول والروايات (ولا تؤمنوا) بحذف النون من آخره، وهي لغة معروفة صحيحة، ا.هـ، ٣٦/٢ .

تحابيتم؟ أفشوا السلام بينكم"(١) .

فدل الحديث الأول على أن إفشاء السلام على من يعرف المرء ومن لا يعرفه هو إحدى الخصلتين اللتين أجاب فيهما النبي صلى الله عليه وسلم عن خيرية الإسلام، وذلك لما في إفشائه من التأنيس وزوال الاستيحاش بين المسلمين، فيؤدي ذلك إلى أن يكون المؤمنون كلُّهم أخوةً متحابين، وذلك ما يريده الله تعالى من عباده المؤمنين حيث جعلهم كلهم أخوة ﴿ إنَّما المؤمنون أُخوة ﴾[سورة الحجرات:١٠]، وجعل الصلة بينهم أقوى من صلة النسب بل قطع صلة النسب عندما تنقطع صلة الإيمان ﴿ لا تَجد قَومًا يُؤمنونَ بالله واليومِ الآخِرِ يُوادُّون من حادَّ الله ورسولَه ولو كانوا أباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانَهم أو عشيرتَهم ...﴾[سورة المجادلة:٢٢] .

ولما كان إفشاء السلام يثمر التَّحاب بين المسلمين، جعله النبي صلى الله عليه وسلم من الحقوق الاجتماعية فيما بينهم، كما في حديث أبي هريرة: "حق المسلم على المسلم ست ..." ومعنى هذا:

أن عدم إفشائه يؤدِّي إلى ضياع هذا الحق الاجتماعي العظيم، وذلك دليل على تفشِّي البغضاء بينهم، وعدم تراحم أبنائه، فلا سبيل لهم إلى استرجاع المودة والتراحم إلا بإفشاء السلام بينهم على الكبير والصغير، والمعروف وغيره، فيشاطر كل امرىء أخاه التحيَّة، فتدخل المحبة ويسود الوئام، ولهذا ندب النبي صلى الله عليه وسلم إلىالإكثار منه عند كل تلاق وإن لم يطل الفراق. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

٥ ـ "إذا لقي أحدكم أخاه فليسلم عليه، فإن حالت بينهما شجرةٌ أو جِدار أو حجر ثم لقيه فليسلم عليه أيضا"(٢) .

٦ـ ورغب في ذلك ببيان أجر السلام وثوابه العظيم فقد جاء رجل إلى النبي صلى الله

---

(١) أخرجه مسلم وتقدم تخريجه ص ٢٠١ .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب الرجل يلقى الرجل ثم يلقاه أيسلم عليه ؟ برقم ٥٢٠٠، والبخاري في الأدب المفرد برقم ١٠١٤ وإسناده صحيح كما بينه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٨٦ .

عليه وسلم فسلم عليه وقال: "السلام عليكم" فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: عشر، ثم جاء آخر فقال: "السلام عليكم ورحمة الله" فرد عليه رسول الله وقال: عشرون، ثم جاء آخر فقال: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته" فرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: ثلاثون(١) .

فبين صلى الله عليه وسلم أن في كل جملة من جمل السلام الثلاث:عشرُ حسنات، وتلك ثلاثون حسنة ينالها المرء في كلمة يسيرة فهي غنيمة**عظيمة**لمن كان من أهل التوفيق، وهذا الأجر الوافر دليل على عِظم مكانة هذه الكلمة عند الله تعالى. ولذا كان البادىء بالسلام أولى الرجلين بالله تعالى.

٧ـ فقد روى أبو أمامة رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله: الرجلان يلتقيان أيهما يبدأ بالسلام؟ قال: أولاهما بالله"(٢) أي أقربهما إلى رحمة الله تعالى"(٣) .

تبينه صلى الله عليه وسلم لأحكام السلام بدءًا وإجابة:

ذلك طرف من حث النبي صلى الله عليه وسلم على السلام بأسلوبي الحض والترغيب.

أما تبيينه لأحكامه وآدابه فوارد من أحاديث كثيرة بدءا وإجابة:

أ ـ آداب البدء بالسلام :

وهي آداب كثيرة وأحاديثه كثيرة كذلك، نذكر من ذلك:

١ـ ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يسلِّم

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب كيف السلام برقم ٥١٩٥، والترمذي في الاستئذان، باب ما ذكر في فضل السلام برقم ٢٦٨٩، وقال: حسن صحيح غريب وهو من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه،

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب فضل من بدأ بالسلام برقم ٥١٩٧، والترمذي في الاستئذان، باب ما جاء في فضل الذي يبدأ بالسلام برقم ٢٦٩٤، وقال: حديث حسن .

(٣) عون المعبود ١٤/١٠٣ .

الرَّاكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير"(١) .

ففي هذا أدب عظيم يهدف إلى التواضع فضلا عن التحاب والتآلف بين المسلمين.

٢- ومن ذلك ما رواه هو رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلِّم فإن بدا له أن يجلس فليجلس، ثم إذا قام فليسلِّم، فليست الأولى بأحق من الثانية"(٢) .

وفي هذا الحديث أدب آخر وهو التسليم عند الانصراف لأنه "إن كانت التسليمة الأولى إخبارا عن سلامتهم من شره عند الحضور، فكذلك الثانية إخبار عن سلامته من شره عند الغيبة، وليست السلامة عند الحضور أولى من السلامة عند الغيبة بل الثانية أولى منها"(٣) لأنه قد يكون سمع منهم ما لا يودون إشاعته من أحوالهم وأسرارهم، فإذا سلم عليهم اقتضى سلامه الإشعار بالأمن مما لا يودون إشاعته من أحوالهم وأسرارهم، فإذا سلم عليهم اقتضى سلامه الإشعار بالأمن مما لا يودون إشاعته، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: فليست الأولى بأحق من الثانية، يعني أنهما في الحق سواء .

٣- ومنه ما رواه جابر بن سليم الهُجيمي(٤) قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: عليك السلام يارسول الله، قال: "لا تقل عليك السلام فإنَّ عليك السلام

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب بدء السلام ٦٢/٨، ومسلم في السلام، باب تسليم الراكب على الماشي برقم ٢١٦ .

(٢) أخرجه ابو داود في الأدب، باب في السلام إذا قام من المجلس برقم ٥٢٠٨، والترمذي في الاستئذان، باب ما جاء في التسليم عند القيام وعند القعود برقم ٢٧٠٦ وقال: حديث حسن، وأخرجه الإمام أحمد في المسند ٢٣٠/٢، ٤٣٩، وابن حبان ٣٥٨/١ الإحسان،

(٣) تحفة الأحوذي ٤٨٥/٧ .

(٤)نسبة إلى أنمار بن الهجيم بن عمرو بن تميم، يكنى أبا جرى، له صحبة، روى عنه البخاري في الأدب المفرد، وأبو داود والترمذي والنسائي، و لم أجد تاريخ وفاته، انظر طبقات ابن سعد ٤٣/٧، والإصابة ٢١١/١، ٣٢/٤، والاستيعاب بهامشها ٣٧/٤، وتهذيب اتهذيب ٥٤/١٢ .

تحية الموتى، إذا سلمت قل: سلام عليك، فيقول الراد: عليك السلام"(١) .

وفي هذا أدب عظيم إلى حسن الخطاب بالسلام والخروج به عن العادة التي كان أهل الجاهلية جارين عليها حيث كانوا يفرقون في تحياتهم بين الأموات والأحياء، فيقدمون اسم الميت على الدعاء كما قال شاعرهم:

عليك سلامُ الله قيسَ بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما

فما كان قيس هُلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدَّما

وقول الآخر:

عليك سلام من أمير وباركت يد الله في ذاك الأديم الممزق

فكره النبي صلى الله عليه وسلم أن يحيِّي بتحية الموتى جريا على العادة التي كانوا عليها من التفرقة، ومن كراهته لذلك لم يرد عليه السلام(٢)، وذلك لأن السلام من شأنه أن يظهر الود والصفاء، وإذا سمع المسلم عليه هذا الأسلوب نفر منه فكان سببا للشحناء والبغضاء .

وليس في ذلك تشريع لصيغة خاصة بتحية الموتى، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يسلم على الموتى فيقول: "السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون أسأل الله لنا ولكم العافية"(٣) فكان يقدم السلام على ذكر المدعو له مثل تحية الأحياء، فدل على أنه إنما قال ذلك إشارة منه صلى الله عليه وسلم إلى ما جرت به العادة منهم في تحية الأموات(٤)، لئلا يؤدي ذلك إلى التنافر بدل الوئام.

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب كراهية أن يقول: عليك السلام برقم ٥٢٠٩، والترمذي في الاستئذان، باب ما جاء في كراهية أن يقول: عليك السلام مبتدئا برقم ٢٧٢١، ٢٧٢٢، وقال: حسن صحيح .

(٢) انظر زاد المعاد ٤٢١/٣ .

(٣) أخرجه مسلم في الجنائز، باب ما يقول عند دخول القبور والدعاء لأهلها برقم ٩٧٥، والنسائي في الجنائز، باب الأمر بالاستغفار للمؤمنين ٩٤/٤، من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه .

(٤) انظر جامع الأصول لابن لأثير ٦٠٦/٦ .

فهذه طائفة من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم في ابتداء السلام التي كان يؤدب به أمته بقوله وفعله، ولا ريب بأنه صلى الله عليه وسلم قد كان أول من يتأدب بها فإنها من تأديب الله تعالى .

ب ـ أحكام الإجابة وآدابها:

أما إجابة السلام، فهي إما أن تكون للمسلمين، أو للكافرين، لأن المسلِّم، إما أن يكون مسلما أو كافرا.

فإن كانت الإجابة للمسَلِّم المُسلِم، فقد جعلها النبي صلى الله عليه وسلم من حقوق الإسلام التي يجب الوفاء بها.

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتِّباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس"

وفي رواية لمسلم: "خمس تجب للمسلم على أخيه: رد السلام، وتشْمِيتُ العاطس، وإجابة الدعوة، وعيادة المريض، واتباع الجنائز"(١) .

فهذا الحديث بين ما تقدم من الأمر برد التحية بأحسن منها أو مثلها، وأنه أمر للوجوب، حيث أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه حق له على المسلم عليه، وفسر ذلك الحق باللفظ الآخر، بالوجوب، وهو ما تقدمت الإشارة إليه(٢) من وجوب الرد .

غير أن هذا الوجوب ليس على إطلاقه، بل هناك صور لم يوجب الشارع فيها الرد، وهي ما إذا كان السلام في مواطن لا يندب فيها ابتداؤه وهي:

١ـ إذا كان المسلَّم عليه يصلِّي، فإن السلام لا يشرع له في هذا الحال،فإذا سلم لا يجب عليه الرد فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا نسلم على النبي صلى الله عليه

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، باب الأمر باتباع الجنائز ٢/٩٠ واللفظ له، ومسلم في السلام، باب من حق المسلم على المسلم رد السلام برقم ٢١٦٢ .

(٢) ص٧٧٠

وسلم وهو في الصلاة فيرد علينا، فلما رجعنا من عند النجاشي سلمنا عليه فلم يرد علينا وقال: "إن في الصلاة شغلا"(١) .

٢ـ إذا كان المسلم عليه يبول،فإن الكلام له حينئذ مكروه،فلا يندب إحراجه وإحواجه إلى الكلام وهو في حال لا يجب أن يتكلم فيه، فلم يوجب الشارع عليه الرد والحالة هذه، فعن عبدا لله بن عمر رضي ا لله عنهما: "أن رجلا مر ورسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يبول فسلم عليه فلم يرد عليه "(٢) .

لكن لما كان النبي أحرص الناس على تبادل التحية لما فيها من المعاني السامية التي جاء بها في شرعه الحنيف، فقد كان يتكلف أن يتيمَّم حتى يرد على من يسلم عليه وهو في مثل هذه الحالة،كما أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي جهيم بن الحارث بن الصِّمَّة(٣) الأنصاري رضي ا لله عنه قال: أقبل النبي صلى ا لله عليه وسلم من نحو بئر جمل(٤) فلقيه رجل فسلم عليه فلم يرد عليه النبي صلى ا لله عليه وسلم حتى أقبل على

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة، باب ما ينهى من الكلام في الصلاة ٨٧/٢، ومسلم في المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة برقم ٥٣٨ .

(٢) أخرجه مسلم في الحيض، باب التيمم برقم ٣٧٠، وأبو داود في الطهارة، باب أيرد السلام وهو يبول برقم ٣٣٠، ٣٣١ .

قال الإمام النووي في شرح مسلم ٦٥/٤: (فيه أن المسلِّم في هذه الحال لا يستحق جوابا، وهذا متفق عليه، قال أصحابنا ـ يعني الشافعية ـ : ويكره أن يسلم على المشتغل بقضاء حاجة البول والغائط، فإن سلم كره له رد السلام ...)

(٣) الأنصاري واسمه عبد ا لله، وقيل: الحارث بن الصمة، وقيل: غير ذلك، صحب النبي صلى ا لله عليه وسلم، وخرج له جماعة. انظر طبقات ابن سعد ٥٠٨/٣/ والإصابة ٣٦/٤، وتهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر ٦١/١٢، وغيرها .

(٤) أي: من جهة الموضع الذي يعرف بذاك .

الجدار فمسح بوجهه ويديه ثم رد عليه السلام(١) ، وعند أبي داود أنه اعتذر إليه وقال: "إني كرهت أن أذكر الله إلا على طهر أو قال على طهارة"(٢) .

وفي هذا من الدلالة على حرصه صلى الله عليه وسلم على رد التحية ما يشهد لعظمة خلقه، حيث لم يترك الرجل يهيم في تخيلاته من عدم رد النبي صلى الله عليه وسلم عليه، فيحزن لذلك،ويشعر بالهوان في نفسه إذ لم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم التحية .

أما إذا كان الجواب لأهل الكتاب من يهود ونصارى،ونحوهم فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد أدب أمته بما يتفق مع خلقه العظيم وسماحة الإسلام الحنيف في معاملة أوغاد أهل الشرك وأبناء القردة والخنازير، الذين يلوون ألسنتهم في التحية، ويحرفون الكلِم عن مواضعه، بما يتلاءم مع خبث طباعهم وسوء طوياتهم لنبي الإسلام والمسلمين، فقد دخل رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام عليكم - أي الموت - قالت عائشة رضي الله عنها: ففهمتها، فقلت: عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مهلا يا عائشة، فإن الله يحب الرِّفق في الأمر كله" قالت: فقلت يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فقد قلت وعليكم"(٣) .

أي: أن الموت مكتوب على الجميع فالكل سيموت، غير أنه فرق بين موت يوصل إلى جنات النعيم، وموت يوصل إلى دركات الجحيم.

---

(١) البخاري في التيمم، باب التيمم في الحضر إذا لم يجد الماء وخوف فوت الصلاة ١/٨٨، ومسلم في الحيض، باب في التيمم برقم ٣٦٩ .

(٢) أبو داود في الطهارة، باب أيرد السلام وهو يبول برقم ١٧، وأخرجه النسائي في الطهارة، باب رد السلام بعد الوضوء ١/٣٧، وأحمد في المسند ٤/٣٤٥، ٥/٨٠، وابن ماجه برقم ٣٥٠، والحاكم ١/١٦٧، وصححه ووافقه الذهبي .

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب كيف يرد على أهل الذمة ٨/٧٠ من حديث عائشة الله عنها، ومسلم في السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم برقم ٢١٦٥ .

فمن أجل ذلك علّم أمته كيف يردون السلام على مثل هؤلاء الذين قد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر، فقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "إذا سلم عليكم اليهود، فإنما يقول أحدهم: السَّام عليك، فقل: وعليك"(١) .

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم»(٢) .

هكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعامل مع من يسيء إليه في ذاته العظيمة الموقرة، يحلم عنهم ويصفح، ويأمر أصحابه بذلك، حيث لم يزد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن أخبرهم بأن ما تمنوه له من الموت هو مشترك بين الجميع، فالكل يموت فقال: وعليكم، وهم لا يجهلون هذه الحقيقة، غير أن لؤم طباعهم ودناءة أخلاقهم تحملهم على البواح بما في ضمائرهم من الحقد الدفين لهذا النبي العظيم، وهذه الرسالة الخالدة، التي بشرت بها كتبهم، ودعتهم إلى الإيمان به والدخول في شريعته، فبدلوا نعمة الله كفرا، وأحلوا قومهم دار البوار.

لذلك ندب النبي صلى الله عيه وسلم أمته إلىعدم ابتدائهم بالسلام عند ملاقاتهم أو غشيانهم في المجالس جزاء لهم على خبث الطوايا التي يكنّونها له صلى الله عليه وسلم ولأمته المفضلة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: :لا تبدؤا اليهود ولا النصارى بالسلام فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطَرُّوه إلى أضيقه"(٣) .

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب كيف يرد على أهل الذمة ٧١/٨ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ومسلم في السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم برقم ٢١٦٤ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم في الأبواب الآنفة الذكر .

(٣) أخرجه مسلم في السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم برقم ٢١٦٧، وأبو داود في الأدب، باب السلام على أهل الذمة برقم ٥٢٠٥، والترمذي في الاستئذان، باب ما جاء في =

المبحث الثّاني

(الاستئذان وغض البصر)

يقال فى اللغة : أذن له فى كذا، يأذن إذنا، إذا أطلق له فعله وأباحه له، ويقال فى طلب الإذن : استأذن، ومنه قوله تعالى: ﴿ إنما يَستأذِنُك الَّذين لا يُؤمِنون با للهِ واليومِ الآخر ﴾ [سورة التوبة:٤٥](١) أي: يطلب الأذن منك يا محمد صلى ا لله عليه وسلم.

فالاستئذان إذاً: طلب الإذن فى الدخول لمحل لا يملكه المستأذن(٢) .

ويعرَّف الإذن بأنه: "فك الحجر وإطلاق التصرف لمن كان ممنوعا شرعا"(٣).

ذكر الاستئذان فى القرآن الكريم :

وقد ورد ذكر الاستئذان فى القرآن الكريم فى نحو عشر آيات وذلك فى مقامين : الأول فى مقام الناس عامة، والآخر فى مقام النبي صلى ا لله عليه وسلم خاصة .

أما حديثه عنه فى مقام الناس عامة فكان لبيان أحكامه وآدابه .

وأما فى مقام النبي صلى ا لله عليه وسلم فلإرشاد المؤمنين إلى ما يجب عليهم نحوه فى

= التسليم على أهل الذمة برقم ٢٧٠٠ .

قال في شرح مسلم١٤/١٤٥: "واختلف العلماء في رد السلام على الكفار وابتدائهم بـه، فمذهبنـا ــ أي الشافعي ـ تحريم ابتدائهم به، ووجـوب رده عليهـم بـأن يقـول: وعليكـم، أو: عليكـم فقـط، ودليلنـا في الابتداء قوله صلى ا لله عليه وسلم: لا تبدأوا اليهود ولا النصارى بالسلام، وفي الرد قوله صلـى ا لله عليـه وسلم:فقولوا:وعليكم، وبهذا الذي ذكرناه من مذهبنا قال أكثر العلماء وعامة السلف، وذهبت طائفة إلى جواز ابتدائنا لهم بالسلام، واحتج هؤلاء بعموم الأحاديث بإفشاء السلام. قال: وهي حجـة باطلـة؛ لأنـه عام مخصوص بحديث: لا تبدأوا اليهـود ولا النصـارى بالسـلام، وقـال بعـض أصحابنـا: يكـره ابتداؤهـم بالسلام ولا يحرم، وهذا ضعيف أيضا؛ لأن النهي للتحريم، فالصواب تحريم ابتدائهم ...) .

(١) المصباح المنير ١٢/١، والمفردات ص١٥ .

(٢) فتح الباري ٣/٢٣ .

(٣) التعريفات للجرجاني ص ١٦ .

هذا المقام، ولبيان أصناف المستأذنين منه صلى الله عليه وسلم من مؤمنين ومنافقين، وصادقين وكاذبين، ولنبدأ بالحديث عنه فى المقام الأول؛ لأن الحاجة إلى بيانه فى المجتمع المسلم تقتضى ذلك، فأقول :

المقام الأول : الاستئذان مع عموم الناس :

(لما خصَّص الله تعالى الناسَ بالمنازل، وسترهم فيها عن الأبصار، وملَّكهم الاستمتاع بها على الانفراد، كانت الحكمة داعية إلى أن يحجر على الخلق أن يطَّلعوا على ما فيها من خارج، أو يلجوها بغير إذن أربابها، لئلا يهتكوا أستارهم، ويكتشفوا أخبارهم(١)) .

لذلك أدَّب الله تعالى عباده بما يوجب الستر عليهم لئلا يطلع أحد منهم على عورة أحد، وأنزل فى ذلك قرآنا يتلى ليتُبَّع إلى يوم القيامة،فكان مما أنزل فى ذلك آيات الاستئذان وغض البصر، تشريعا لعباده لحماية حُرُماتهم وعوراتهم فى ظِلِّ المجتمع الإسلامى الصالح.

وكان مما أنزل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تَدخلُوا بيوتًا غيرَ بيوتِكم حتى تَستَأنِسوا وتُسلِّموا على أهلِها ذلكم خيرٌ لكم لعلَّكم تذكَّرون * فإن لم تجَدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يُؤذَن لكم وإن قيل لكم ارجِعوا فارجِعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم * ليس عليكم جناحٌ أن تدخلوا بيوتًا غير مسكونةٍ فيها متاعٌ لكم والله يعلم ما تُبدون وما تَكتُمون ﴾[سورة النور:٢٧-٢٩] .

وقد بين الله تعالى فى هذه الآيات أحكام الدخول فى بيوت الآخرين،حيث نهى الداخلين،عن أن يبادروا إلى دخول منازل غيرهم حتى يقدِّموا الاستئذان أي: طلب الإذن بالدخول، المعبَّر عنه بقوله سبحانه:﴿ تَستأنِسوا ﴾أي: تطلبوا أن يأذن لكم صاحب البيت ، وهو كناية لطيفة عن الاستئذان،أوهو الاستئذان نفسه كما فسَّره به بعض أهل العلم (٢) وهذا اللفظ من لطائف الآية الكريمة حيث عبَّر بالاستئناس بدل الاستئذان ،

---

(١) انظر أحكام القرآن لابن العربي ١٣٥٩/٣، وتفسير القرطبي ٢١٢/١٢ .

(٢) انظر أحكام القرآن لابن العربي ١٣٥٩/٣ .

ليغرس فى المسلمين خُلُقا اجتماعيا راقيا، وهو استشعار المستأذن أُنسا من صاحب البيت، وليس مجرد الاستئذان فقط، وهذا الأنس يقتضى أن يأتى فى وقت يؤنس فيه،لا أن يأتي فى أوقات العورات التى لا يحصل فيها إلا الإزعاج،وهى قبل صلاة الفجر، وعند الظهر، وبعد صلاة العشاء، وكذا كل وقت اعتاد الناس فيه أن يرتاحوا فيه بأنفسهم، ودلت الآية على أنه لا يكتفى بالاستئذان ، بل أن يقرن معه السلام الذى يعنى تأمين صاحب البيت مما قد يستوحشه منه، ثم حظر الدخول على بيوت الآخرين إن لم يكن فيها أحد ، أو لم يؤذن لهم بالدخول ، لئلا تُقتَحم حرمة البيوت التى صانها الله تعالى بمثل هذا التشريع العظيم ، الذى أورده بصيغ النهي المفيد للتحريم،والأمر الدال على الإيجاب، ليدل بذلك على عظيم حقوق الساكنين المطمئنين فى منازلهم،الآمنين على عوراتهم، ومع الأثر العظيم الذى يحدث فى نفوس السامعين من تكرر النهى عن ذلك والأمر بالرجوع عند عدم الرغبة بالدخول.

فإن الله تعالى قد شابه بالترغيب وحسن التَّلطُّف بالسامعين ليعظم بذلك أثره ، حيث قال فى الآية الأولى:﴿ذلكم خيرٌلكم لعلَّكم تَذكَّرون﴾ وفى الآية الثانية قال:﴿هو أزكى لَكم﴾ لزيادة الترغيب فى هذا الأدب العظيم الذى يصون الحرمات ويحفظ المودات لحفظه للعورات، ويؤسس التَّعامل فى المجتمع المسلم على أنبل الأخلاق وأفضل القيم .

ولذلك لما فقدت مثل هذه العورات فى البيوت غير المسكونة، ولم يبق لهذا الاستئذان معنى؛ أباح الله تعالى الدخول إليها من غير إذن فقال سبحانه :﴿ليس عليكم جناحٌ أن تدخلوا بيوتًا غيرَ مَسكُونة فيها متاعٌ لكم...﴾لأن العورات التى حرص الشارع على حفظها لا توجد فى البيوت غير المسكونة ، ولكن ذلك ليس على إطلاقه وإنما هو مقيد بما إذا كانت الحاجة داعية إلى الدخول إليها ، من استحقاق الداخل إليها لمتاع له،ونحوه من المنافع التى تدعو الحاجة إليها ، أما من لاحاجة له فى ذلك فلا (١)، لتبقى حرمة

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٠٢/١٨ .

البيوت عامرة. قال السيوطي(١) رحمه الله: "في هذه الآية وجوب الاستئذان عند دخول بيت الغير ووجوب الرجوع إذا لم يؤذن له، وتحريم الدخول إذا لم يكن فيها أحد، قال: ويستفاد من هذا ، تحريم دخول ملك الغير(٢) والسكنى فيه وشغله بغير إذن صاحبه، فيدخل تحته من المسائل والفروع مالا يحصى" (٣).

إستئذان أهل البيت من موالى وخدم وأطفال :

هذا كله فيما إذا كان الإستئذان من الأجانب، وهم الذين يُتحرَّج من دخولهم وتُحفظ العورات عنهم عامة ، ومع ذلك فإن عورات البيوت حقها أن تصان حتى من الساكنين فيها كالخدم والموالى والأطفال ، الذين لايبرحون من البيوت،وذلك لفرط كراهية الشارع لكشف العورات حتى من ساكني البيوت ، لذلك فقد أمرهم بالاستئذان فى الأوقات التى هي مظِنَّة كشف العورات،والتى سماها الله عورات تسمية لها باسم الغالب من حالها فقال سبحانه :﴿يأيها الَّذين أمنوا لِيَستأذْنكم الذين ملكت أيمانُكم والَّذين لم يبلُغوا الحُلُم منكم ثلاثَ مرَّاتٍ من قبلِ صلاةِ الفجر وحينَ تَضعون ثِيابَكم من الظَّهيرة ومن بعدِ صلاةِ العِشاءِ ثلاثُ عوراتٍ لكم ليس عليكم ولا عليهم جُناحٌ بعدهن طوَّافون عليكم بعضُكم على بعض كذلك يُبيِّن الله لكم الآياتِ والله عليم حكيم * وإذا بلغ الأطفالُ منكم الحُلُمَ فلْيستئذِنوا كما استأذنَ الَّذين من قبلهم كذلك يُبيِّن الله لكم آياتِه والله عليم حكيم﴾[سورة النور:٥٨،٥٩] فهذه آيات تبين أحكام غير الأجانب فى الاستئذان،وهم المماليك والأطفال الذين لم يبلغوا الحُلُم فحظرت عليهم الدخول فى الثلاث العورات إلا بأذن وهى الأوقات التى تنكشف فيها العورات عادة؛ قبل صلاة الفجر حيث يكون الناس فى

---

(١) هو جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الإمام الفقيه المفسر المحدث المؤرخ اللغوي ... له مؤلفات كثيرة نافعة مشهورة وغير مشهورة، توفي سنة ٩١١ هـ، انظر البدر الطالع للشوكاني ٣٢٤/١، والنور السافر في أخبار القرن العاشر لعبد القادر العيدروس ص ٥٤ .

(٢) كذا فيه بتعريف (غير) في الموضعين .

(٣) الإكليل في استنباط التنزيل ص ١٦١ .

ثياب النوم عادة، ووقت الظهيرة عند القيلولة، حيث يخلعون ملابسهم فى العادة ويرتدون ثياب النوم للراحة، وبعد صلاة العشاء،حيث يخلعون ملابسهم كذلك ويرتدون ثياب الليل .

(ففى هذه الأوقات الثلاثه لابد أن يستأذن الخدم والصغار المميزون الذين لم يبلغوا الحلم، والذين قد بلغوا الحلم كذلك من باب أولى، كي لا تقع أنظارهم على عورات أهليهم، وهو أدب يغفله الكثيرون فى حياتهم المنزليه مستهينين بآثاره النفسيه والعصبيه والخِلقيه، ظانّين أن الخدم لا تمتد أعينهم إلى عورات السادة! وأن الصغار قبل البلوغ لا ينتبهون لهذه المناظر، بينما يقرر النفسيون اليوم - بعد تقدم العلوم النفسية - بأن بعض المشاهد، التى تقع عليها أنظار الأطفال فى صغرهم هي التى تؤثر فى حياتهم كلها)(١) .

فتأمل مبلغ العناية الإلهيّة بهذا الخلق العظيم حيث لم يعف أحداًمن التحلي به، لما له من أعظم الأثر فى الحفظ والصيانه للأعراض والحرمات، ورعاية الودّ بين الجماعات.هذا عن الاستئذان فى مقام المؤمنين .

المقام الثاني الاستئذان على النبي صلى الله عليه وسلم :

أما فى مقام النبي صلى الله عليه وسلم، فإن عوراته أعظم العورات،وحرماته آكد الحرمات، لذلك خصه القرآن الكريم بالذكر زيادة فى صيانة عوراته وحفظ حرماته بآيات خاصه، على ما فى الآيات الأولى من شمولية لحقوقه صلى الله عليه وسلم على أمته فى الآداب الاجتماعية العامة، وذلك لمزيد الاهتمام وكمال العناية به،وإيضاحا لعظيم الحرمة الواجبة له عليه الصلاة والسلام على أمته،فقال سبحانه وتعالى فى ذلك : ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تَدخُلوا بيوتَ النَّبي إلا أن يُؤذَن لكم إلى طعامٍ غيرَ ناظرينَ إناه ولكن إذا دُعيتم فادخلوا فإذا طَعمتُم فانتَشروا ولا مُستأنسينَ لِحديث إنَّ ذلكم كان يُؤذى النبي فيستَحيي مِنكم والله لا يَستحيي من الحق﴾[سورة الأحزاب:٥٣] .

فتأمل عظمة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه سبحانه، حيث أدب عباده بما

---

(١) انظر الظلال ٢٥٣٢/٤ .

يجب لنبيه من التعظيم، حين قصَّر بعضهم فى ذلك كما يدل عليه سبب نزول الآية المتقدم ذكره فى مبحث حيائه صلى الله عليه وسلم(١)، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم حيِيًّا كريما،لا يحب مواجهة أصحابه فيما يجب له،طالما أن ذلك فيه حظ لنفسه الشريفة، فتولَّى الله تعالى بيان ذلك لعباده ليلتزموا الأدب الجم،والتعظيم الكامل معه صلى الله عليه وسلم فيرضى الله تعالى بذلك عنهم.

ألا ترى أن الله تعالى أثنى على من التزم الأدب معه صلى الله عليه وسلم فى الاستئذان بقوله سبحانه: ﴿إنَّما المؤمنون الَّذين آمنُوا بالله ورسولِه وإذا كانوا معه على أمرٍ جامع لم يَذهبوا حتَّى يَستأذِنوه إنَّ الذين يَستَأذِنونَك أولئِك الَّذين يُؤمنون بالله ورسوله فإذا استَأذنوك لِبعضِ شأنِهم فأذِن لمن شِئتَ منهم واستغفِر لهم الله إنَّ الله غفورٌ رحيم﴾[سورة النور:٦٢] .

حيث أثبت لهم الإيمان بأسلوب القصر لإخراج غيرهم من المنافقين الذين لم يكونوا بهذه المثابة من الأدب مع خير خلقه وأفضل رسله صلى الله عليه وسلم، كما قص الله تعالى علينا بعضا من صورهم لمَّا أرادوا أن يستغِلُّوا هذا الخلق الكريم للستر على نفاقهم المكشوف، فلم ينفعهم ذلك لأن الله تعالى مطلع على سرائرهم فكان استئذانهم عارا وشنارا سُجِّل عليهم إلى يوم الدين، بدلا من أن يكون خُلُقا كريما يثنى عليهم به، فتغير بتغير القصد واختلاف النية، وقد قص الله تعالى صورا تبين أحوالهم المصطنعه فى هذا الخلق الكريم كما فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وإذ قالت طائفةٌ منهم يا أهلَ يَثرب لا مُقام لكم فارجِعوا ويَستأذِنُ فريقٌ منهم النَّبي يَقولون إنَّ بيوتَنا عورةٌ وما هى بعورة إن يُرِيدونَ إلاَّ فرارا﴾[سورة الأحزاب:١٣] .

فانظر هؤلاء الذين انتهزوا فرصة تأديب الله للمؤمنين بوجوب الاستئذان من نبيه صلى الله عليه وسلم عند دخولهم عليه أو تفرقهم عنه، فأرادوا أن يطوِّعوه لأغراضهم الخادعة،الناشئة من النفاق المطبِق، ظانين أن ذلك التَّملُّق والظهور بمظهر المتأدب نافع لهم

---

(١) انظر ص٤٧٣-٤٧٤

وساتر لنفاقهم، جاهلين أو متجاهلين أن الله تعالى مطلع على سرائرهم، وأنه سبحانه قد أطلع نبيه صلى الله عليه وسلم على حقائقهم، غير أنه كان يحلم عنهم لعظيم حكمته فى سياسة دعوته إلى الله تعالى، كيلا ينفر الناس عن الإيمان،إذ يخشى أن يتحدث الناس أنه صلى الله عليه وسلم يقتل أصحابه، كما تحسبهم العامة كذلك.

وهنا تلاحظ أن الاستئذان الذى هو خلق حميد من حيث هو، قد انقلب وصار مذموما فى مثل هذه الصور، نظرا لتغير غايته واختلاف غرضه. وإنما الأعمال بالنيات، لذا كان عقابهم أن لم يقم لهم الله عز وجل وزنا فى مجتمع الأسلام، وأرشد نبيه الكريم إلى كيفية معاملتهم عند اتخاذهم أخلاق الاسلام وسيلة لأغراضهم الخبيثه،فقال سبحانه : ﴿فإنْ رجعَك اللهُ إلى طائفةٍ منهم فاستأذنُوك لِلخروج فقُلْ لَن تَخرجُوا معيَ أبدًا ولن تُقاتلوا معيَ عدوًا إنَّكم رَضيتُم بالقُعود أوَّل مرة فاقعدُوا مع الخَالفين﴾[سورة التوبة:٨٣] وسجل عليهم صنيعهم الرخيص ذاك بما يبقى عليهم عاره وشناره وخزيه ما دامت السماوات والأرض فقال : ﴿وإذا أُنزلَت سورةٌ أن آمِنوا باللهِ وجاهدوا مع رسولِه استئذَنَك أولُوا الطَّول منهم وقالوا ذَرنا نكُن معَ القاعدين * رَضوا بأن يكونُوا مع الخوالِف وطُبِعَ على قلوبهِم فهم لايَفقهون﴾[سورة التوبة:٨٦-٨٧].

لذلك كان جزاء مراوغتهم وخداعهم وخيانتهم الله ورسوله والمؤمنين،أن طبع على قلوبهم فلا يدخلها خير أبدا، فلا تعرف معروفا ولا تنكر منكرا ولا تفقه عن الله ورسوله شيئا. وكذلك جزاء الظالمين.

حفظ البصر على التطلع على العورات :

وما الإستئذان إلا وسيلة فعَّالة لحفظ البصر عن أن تمتد إلى عورات البيوت،كما جاء فى الحديث "إنما جُعِل الإذنُ من أجل البصر"(١)، حيث يقوم صاحب البيت بستر عوراته

---

(١) أخرجه البخاري في الديات، باب من اطلع في بيت قوم ففقؤا عينه فلا دية له ١٣/٩، وفي الاستئذان، باب الاستئذان من أجل البصر ٦٦/٨، ومسلم في الآداب، باب تحريم النظر في بيت غيره برقم ٢١٥٦ من حديث سهل بن سعد .

إن أحب دخول المستأذن،أو عدم الإذن له بذلك إن لم يمكن، أو لم يحب دخوله، وقد حث القرآن الكريم على ذلك بقوله سبحانه:﴿قل لِلمؤمنين يَغضُّوا من أبصارِهم ويَحفظُوا فروجَهم ذلك أزكى لهم إنَّ الله خبيرٌ بما يَصنعون * وقل لِلمؤمناتِ يَغضُضْنَ من أبصارِهن ويَحفظْنَ فُروجَهنَّ . . .﴾[سورة النور:٣٠،٣١] .

فإن هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين والمؤمنات أن يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم عمَّا حُرِّم عليهم سواء البيوت أو المحرمات الأخرى،فإن النهي عام لكل ما يجب صون الأنظار عنها، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضوا أبصارهم عن المحرمات، لأن ذلك أزكى لهم "أي: أطهر لقلوبهم وأتقى لدينهم كما قيل: من حفظ بصره أورثه الله نورا فى بصيرته"(١) وقد جاء من حديث أبى أمامه رضى الله عنه :"ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها"(٢) وهذا لعمرو الله مغنم للمؤمن فى زيادة إيمانه وصلاح قلبه، فإن غض البصر عن المحارم من أجلِّ الأدوية لعلاج القلوب، لأن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس،من تركها من مخافة الله أبدله الله إيمانا يجد له حلاوة فى قلبه كما جاء فى الحديث (٣)، ومن أطلق لحظاته أدام حسراته، ولقد أجاد من قال:

كلُّ الحوادث مبدؤها من النظر ... ومعظمُ النار من مُستصغر الشرر

والمرء ما دام ذا عين يقلبها ... فى أعين الغيد موقوفٌ على خطر(٤)

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢٨١/٣ .

(٢) رواه أحمد في المسند ٢٦٤/٥، عزاه الهيثمي في المجمع ٦٦/٨ إلى الطبراني قال: وفيه علي بن يزيد الألهاني، وهو متروك، وفي التقريب برقم ٤٨١٧ ضعيف، وقال ابن كثير في التفسير ٢٨٢/٣ بعد أن أورد هذا الحديث :وروى هذا مرفوعا عن ابن عمر وحذيفة وعائشة رضي الله عنهم، قال: لكن في أسانيدها ضعف إلا أنها في الترغيب، ومثله يتسامح فيه ا.هـ .

(٣) المروي عن ابن مسعود، عزاه الهيثمي في المجمع ٦٦/٨، إلى الطبراني، قال: وفيه عبد الله بن إسحاق الواسطي وهو ضعيف، وفي التقريب برقم ٣٢٠٩: صدوق، وهو يشهد للذي قبله .

(٤) ذكر ابن القيم في الجواب الشافي فوائد كثيرة لغض البصر، وذكر بعضا منها القاسمي في محاسن التأويل ١٩٠/١٢ .

فإن الله تعالى قد هدد من لم يمتثل أمره بغض البصر عن المحارم بقوله سبحانه:﴿يعلمُ خائنةَ الأعينِ وما تُخفى الصُّدور﴾[سورة غافر:١٩] .

فإذا كان الله تعالى يعلم ما أسماه بخائنة الأعين، فإن علمه ذلك يورث الخائن عقابا أليما إن لم يتداركه برحمته، إذ المعنى: إن الله يعلم من لم يحفظ بصره عما حرم عليه، فلينظر بعد ذلك إن شاء أو يكف،فإن الله مجازيه، كما قال سبحانه:﴿إعمَلوا ماشِئتُم إنه بما تَعملون بصير﴾[سورة فصلت:٤٠] .

التطبيق النبوي لخلق الإستئذان

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ولي المؤمنين،والأحب إليهم من آبائهم وأبنائهم وأنفسهم،كان لا يتجاوز هذا الخلق القرآني العظيم، اتكالا على مكانته منهم كما يجرى لبعض الناس إذا حصل له شيء من حظ عند أخيه فيتّكل على ذلك ليفرط فى هذا الأدب الاجتماعى العظيم الذى عني ببيانه القرآن الكريم.

بل كان صلى الله عليه وسلم أحرص الناس عليه لما هو عليه من الكمال الخُلُقي والأدب الربانى، والحرص على تعليم أمته آداب الإسلام وأخلاقه العليا،فقد زار سعد بن عُبَادة رضى الله عنه فى منزله فقال :"السلام عليكم ورحمة الله، فرد سعد رضي الله عنه ردا خفيا فقال له ابنه قيس: ألا تأذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال: دعه حتى يكثر علينا من السلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"السلام عليكم ورحمة الله" فرد سعد ردا خِفيًّا ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"السلام عليكم ورحمة الله" ثم رجع رسول الله و تبعه سعد، فقال:يارسول الله إنى كنت أسمع تسليمك وأرد عليك ردا خفيا لتكثر علينا من السلام، قال :فانصرف معه النبي صلى الله عليه وسلم وأمر له سعد بغسل فاغتسل، ثم ناوله ملحفة مصبوغة بزعفران أو وَرْسٍ فاشتمل بها،ثم رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وهو يقول:"اللهم اجعل صلواتِك ورحمتَك على آل سعدِ بن عبادة" قال: ثم أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطعام،فلمَّا أراد الانصراف قرَّب له سعد حمارا قد وطَّأ عليه بقطيفة، فركِب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال سعد : ياقيس إصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قيس: فصحبته فقال لي:"إركب معي" قال :فأبيت، ثم قال: إما أن تركب وإما أن تنصرف" قال:فانصرفت(١).

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان برقم ٥١٨٥ من حديث محمد بن عبد الرحمن بن سعد ين زرارة عن قيس بن سعد بن عبادة، وإسناده منقطع، فإن محمد بن عبد الرحمن لم يرو عنه، وإنما بينهما رجل كما قال الحافظ في التهذيب في ترجمة قيس بن سعد . =

فهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذن على أصحابه في بيوتهم، فلا يقتحمها بغير إذن، ولو فعل للقي كامل الترحيب وبالغ السرور، غير أنه يأبى ذلك فيرى شأنه كشأن غيره، فيطلب الإذن،فإن أُذِن له دخل وإلا رجع.

فهذا تطبيق عملي من النبي صلى الله عليه وسلم للاستئذان الوارد مجملا في القرأن الكريم فبينه بعمله لتعلمه أمته فتعمل به على وجهه الذى أراده الله تعالى وأراده نبيه صلى الله عليه وسلم، قال ابن القيم: "وكان من هديه صلى الله عليه وسلم إذا استأذن ثلاثا و لم يؤذن له انصرف" (١).

وفي البخاري(٢) من حديث أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سلَّم سلم ثلاثا، وإذا تكلَّم بكلمة أعادها ثلاثا" وهذا يدل على أن هذا السلوك كان منهجا عاما له صلى الله عليه وسلم فى السلام والاستئذان، فهو تبيان للاستئذان الذى يريده الشرع فى مجتمعات الإسلام، وعلى الأمة أن تقتدى به فيه، وقد عضَّد ذلك المنهج أقواله صلى الله عليه وسلم الدالة عليه،والمبينة لأحكامه وهى أقوال كثير نذكر منها مايلي:

بيانه صلى الله عليه وسلم للاستئذان وآدابه وأحكامه بأقواله الشريفة:

فعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يُؤذن له فليرجع . . ."(٣) .

= وقال أبو داود: رواه عمر بن عبد الواحد، وابن سماعة عن الأوزاعي مرسلا و لم يذكر قيس بن سعد، لكن قد أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة ص ٢٨٣،٢٨٤ مرسلا ومسندا كما قال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٦١/٨ برقم ٥٠٢٣، وقال الحافظ في التلخيص الحبير ٩٩/١، ورجال إسناد أبي داود رجال الصحيح، وانظر تحفة الأشراف ٨/ في الأرقام التالية: ١١٠٩٤، ١١٠٩٥، ١١٠٩٦ .

(١) زاد المعاد ٤٣٠/٣ .

(٢) في الاستئذان، باب التسليم والاستئذان ثلاثا ٦٧/٨ .

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب التسليم والاستئذان ثلاثا ٦٧/٨، ومواضع أخرى، ومسلم في الآداب، باب الاستئذان برقم ٢١٥٣، وفي الحديث قصة تنظر في محله .

فهذا الحديث النظري يعضّد الحديث العمليّ السابق في دِلالته على عدد مرات الاستئذان، وأنه صلى الله عليه وسلم كان يعلّم أمّته الأخلاق بسلوكه في نفسه وأقواله التوجيهيه لذلك، وبقيت أمور أخرى مجملة في الاستئذان بينها النبي صلى الله عليه وسلم عمليا ونظريا في مواقف وأقوال مختلفه كثيرة من ذلك :

أ ـ موقف المستأذن من الباب :

١ ـ فعن عبدالله بن بُسر(١) رضي الله عنهما قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول : "السلام عليكم، السلام عليكم" قال : ذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور(٢).

٢ ـ عن هُزيل بن شرحبيل رحمه الله تعالى(٣) قال : "جاء رجل(٤) فوقف على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذن فقام على الباب وفي رواية: مستقبل الباب، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: هكذا عنك، أو قال : هكذا، فإنما الاستئذان من النظر"(٥) .

---

(١) المازني الحمصي، بشره النبي صلى الله عليه وسلم بأن يعيش قرنا، فعاش مائة سنة وتوفي سنة ٩٦ هـ، وهو آخر من مات بالشام من الصحابة، انظر الإصابة ٢٨١/٢ .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان برقم ٥١٨٦، وفي سنده بقية بن الوليد وهو صدوق كثير التدليس عن الضعفاء كما قال في التقريب برقم ٧٣٤، لكنه في هذه الرواية قد صرح بالتحديث عن محمد بن عبد الرحمن اليحصبي الحمصي، وهو صدوق كما في التقريب فالحديث حسن إن شاء الله تعالى، وأخرجه البيهقي في الشعب ٤٤٣/٦، من غير طريقه عن شيخه محمد بن محمد بن عبد الرحمن، وثالثها من طريقه عنه به .

(٣) ثقة مخضرم كما في التقريب برقم ٧٢٨٣، وانظر تهذيب التهذيب ٣١/١١ .

(٤) هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه كما جاء مبينا في إحدى الروايتين .

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في الاستئذان برقم ٥١٧٤، ٥١٧٥، بإسناد صحيح، وسكت عنه المنذري في مختصره . انظر ٥٥/٨ .

ب ـ تعليمه صلى الله عليه وسلم أمته كيفية الاستئذان :

١ ـ فقد روى أبو داود أن رجلا من بنى عامر استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم وهو فى بيت فقال: أألج ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه: "اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان، فقل له : قل السلام عليكم أأدخل ؟" فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم أأدخل؟ فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم فدخل"(١) .

٢ ـ وروى من حديث كلدة بن حنبل أن صفوان بن أمية بعثه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلبن وجداية(٢) وضغابيس(٣) والنبي صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة، قال: فدخلت ولم أسلم، فقال: "ارجع فقل : "السلام عليكم"(٤) .

فالنبي صلى الله يعلم أمته من خلال هاتين الواقعتين تحتم الاستئذان عند الدخول، ويرشدهم إلى كيفيته الأدبيه من تقديم السلام وحسن التعبير فى طلب الإذن، ليحمل ذلك أنسا لصاحب الدار وارتياحا لتقبل طلبه وترحيبا بمقدمه،فيقوى الوئام والمودة بينهما .

---

(١) أبو داود في الأدب، باب كيفية الاستئذان برقم ٥١٧٧، والنسائي في عمل اليوم والليلة ص ٢٨٠ برقم ٣١٦، ورواه أحمد في المسند ٣٦٩/٥، من حديث ربعي بن حراش عن رجل من بني عامر، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم٨١٩ .

(٢) بفتح الجيم وكسرها: جمع جدي على خلاف الأصل، والقياس: أجد أو أجداء . انظر مختار الصحاح ص ٩٦ ، وهي أولاد الظباء ذكرا كان أو أنثى مما بلغ ستة أشهر أو سبعة أشهر، وهي بمنزلة الجدي من المعز، النهاية ٢٤٨/١ .

(٣) جمع ضغبوس بفتح الضاد وسكون الغين المعجمتين وهو صغير القثاء، انظر النهاية ٨٩/٣ .

(٤) أخرجه أبو داود في الكتاب والباب السابقين برقم ٥١٧٦، والترمذي في الاستئذان برقم ٢٧١٠، وقال: حسن غريب، وأخرجه النسائي أيضا في عمل اليوم والليلة ص ٢٧٩ برقم ٢٧١٠، وأحمد في المسند ٤١٤/٣، قال الألباني: وإسناده صحيح، السلسلة الصحيحة برقم ٨١٨ .

جـ - إفصاح المستئذن عن اسمه ليعرف :

فعن جابر رضي الله عنه قال : "أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في دين كان على أبي(١)، قال : فدققت الباب فقال : "من ذا ؟" قال: فقلت: أنا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "أنا أنا" كأنه كرهها .

وفي رواية لمسلم فخرج وهو يقول : "أنا أنا". وفي أخرى كأنه كره ذلك،(٢) .

فانظر إلى مبلغ إنكاره صلى الله عليه وسلم على جابر رضي الله عنه لما لم يفصح باسمه الذي به يعرف، لأنه لم يحصل بقوله: أنا، فائدة ولا تعريف، بل الابهام باق والتعريف غير حاصل،فأراد منه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفصح عن اسمه كاملا ليعرف به،فيجاب على ضوء ذلك بالإذن أو عدمه.

دراية الصحابة بهذا الأدب :

ولقد كان كبار الصحابة وجمهورهم رضي الله عنهم يعلمون هذا الأدب،فيعرفون بأنفسهم عند الاستئذان فلما اعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه وجلس في البستان، وجاءه أبو بكر رضي الله عنه فاستأذن فقال "من؟" قال : أبو بكر فأذن له، ثم جاء عمر فاستأذن فقال: "من؟" قال : عمر، فأذن له، ثم عثمان مثل ذلك(٣) .

وكذا لما استأذنت أم هانىء رضي الله عنها فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها : "من هذه؟، قالت أنا أم هانىء(٤) .

---

(١) يعني: أكلمه في شأنه ومطالبة الغرماء به، وسيأتي بيانه في الفصل الرابع من هذا الباب ص٩٣١.

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب إذا قال: من ذا؟ فقال: أنا ٦٨/٨، ومسلم في الأدب باب كراهية قول المستأذن: أنا برقم ٢١٥٥ .

(٣) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب مناقب عثمان رضي الله عنه ٢١٧/٥، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل عثمان رضي الله عنه برقم ٢٤٠٣، وفيه التصريح بالاستئذان، من حديث أبي موسى .

(٤) أخرجه البخاري في الغسل، باب التيسير عند الغسل ٧٥/١، ومسلم في الحيض، باب يستر المغتسل بثوب ونحوه برقم ٣٣٦ من حديث أبي مرة مولى أم هانىء .

فهذا هو الذى ينبغى أن يكون فى الاستئذان،وهو الذى عمله الصحابة رضى الله عنهم فى استئذانهم النبي صلى الله عليه وسلم، اقتداء به صلى الله عليه وسلم وتبينيه للأخلاق القرآنية فى واقع حياته وحياتهم على السواء فعلا وقولا.

غير أن فى حديث جابر رضى الله عنه دلالة على كيفية أخرى فى الاستئذان وهى دق الباب، وكذا فى بعض روايات حديث أبى موسى المشار إليه فى قصة أبى بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم(١) المتقدمة أنفا.

وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يفعلون ذلك مبالغة فى الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم وتوقيرا وإجلالا له .

فقد أخرج البخارى فى الأدب المفرد(٢) من حديث أنس رضى الله عنه أن أبواب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تقرع بالأظافير.

وهذا من كمال أدبهم رضي الله عنهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم،حيث لا يزعجونه بالدق أو الصياح كما كان يفعل جفاة الأعراب الذى ذم الله صنيعهم ذلك فى آيات سجلها عليهم القرآن الكريم فى صفحاته إلى يوم القيامه،حيث قال الله جل ذكره: ﴿إنَّ الَّذين يُنادونَك من وراءِ الحُجراتِ أكثرُهم لا يَعقلُون * ولو أنَّهم صَبَروا حتَّى تخرجَ إليهم لكان خيراً لهم والله غفورٌ رحيم﴾[سورة الحجرات ٤،٥].

---

(١) كما في رواية أبي داود في الأدب، باب الرجل يستأذن بالدق برقم ٥١٨٨ .

(٢) ص ٣٥٩ برقم ١٠٨٣، وذكره الحافظ في الفتح ٤٢/٢٣، قال: وأخرجه الحاكم في علوم الحديث ص ١٩ من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وعزاه الهيثمي في المجمع إلى البزار، قال: وفيه ضرار بن صرد وهو ضعيف ا.هـ مجمع الزوائد ٤٦/٨، وأخرجه كذلك البيهقي في شعب الإيمان ٤٤٢/٦، وذكره الألباني في سلسلته الصحيحة برقم ٢٠٩٢، وذكر له طرقا عن أنس أعلها كلها، وذلك يناقض تضمينه إياه في السلسلة الصحيحة إلا أن يكون أراد أن كثرة الطرق قوته فأصبحت شاهدة بأن له أصلا، ولكن ذلك لا يرقى إلى درجة الحسن فضلا عن الصحة والله أعلم، وأما ذكري له هنا فهو من باب ذكر أمثاله في الفضائل والسير الذي يتسامح في أحاديثها قليلا ما لم تكن موضوعة أو شديدة الضعف كما هو مذهب جمهور أهل الحديث .

ما يحصل به الأذن بالدخول :

ثم إن الإذن بالدخول يكون بصريح العبارة كقوله: أدخل، أو نعم، أو صور أخرى يعلم بها إذن رب المنزل بالدخول تكون معروفة للطارق ورب البيت، فإذا كان كذلك جاز الدخول لحصول الأذن، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يجعل إذنا خاصا لعلي بن أبي طالب رضى الله عنه عرَّفه إياه وبيَّنه علي رضي الله عنه بقوله : "كان لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة آتيه فيها، فإذا أتيته استأذنته، فإن وجدته يصلى تنحنح فدخلت، وإن وجدته فارغا أذن لي"(١) .

وعن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذنك علي أن يرفع الحجاب، وأن تسمع سوادي(٢) حتى أنهاك"(٣) فاستدل من ذلك على جواز الدخول إلى بيت المستأذن عند وجود مثل هذه العلامات الدالة على رضاه .

قال الإمام النووى فى شرحه لهذا الحديث : «وفيه دليل لجواز اعتماد العلامة فى الأذن فى الدخول، فإذا جعل الأمير أو القاضى ونحوهما رفع الستر الذى على بابه علامة فى الإذن فى الدخول عليه للناس عامة،أو لطائفة خاصة أو لشخص، أو جعل علامة غير

---

(١) أخرجه النسائي في المجتبى، في السهو باب التنحنح في الصلاة ١٢/٣ من عدة طرق، وفي خصائص علي رضي الله عنه ص ٦٦ من عدة طرق كذلك، قال الحافظ في التلخيص الحبير ٢٨٣/١: وصححه ابن السكن ونقل إعلال البيهقي له بالاختلاف في إسناده ومتنه، وبأن مداره على عبد الله بن نجي.
قلت: وهذه ليست علة فيه فإنه صدوق كما بينه الحافظ في التقريب برقم ٣٦٦٤، ونقل الحافظ عن ابن معين قوله: لم يسمعه عبد الله من علي بينه وبين علي أبوه. قلت: وقد أسنده عن أبيه كما في رواية النسائي في المجتبى والخصائص، فالحديث من حيث السند حسن، وتبقى علة المخالفة والله أعلم .

(٢) سِوادي بكسر السين: السِّرا، يقال: ساودت الرجل مساودة: إذا ساررته، قيل: هو من إدناء سوادك من سواده، أي: شخصك من شخصه. النهاية ٤١٩/٢ .

(٣) أخرجه مسلم في السلام، باب جواز جعل الإذن رفع الحجاب ونحوه برقم ٢١٦٩ .

ذلك جاز اعتمادها والدخول إذا وجدت بغير استئذان(١)، وكذا إذا جعل الرجل ذلك علامة بينه وبين خدمه ومماليكه وكبار أولاده وأهله، فمتى أرخى حجابه فلا دخول عليه إلا باستئذان فإذا رفعه جاز بلا استئذان، والله أعلم»(٢) اهـ .

هذا وقد كان علي رضى الله عنه ممن تربى فى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو زوج ابنته فاطمة رضى الله عنها، واصطفاه النبي صلى الله عليه وسلم لمؤاخاته ومخاللته، وأخبر أنه منه بمنزلة هارون من موسى..، وابن مسعود رضى الله عنه كان خادمه وصاحب سواكه ونعله وطهوره، وكان يأتى الغريب فلا يظن إلا أنه من بيت النبوة لكثرة دخوله على النبي صلى الله عليه وسلم ..، ومع ذلك فلم يكونا يدخلان على النبي صلى الله عليه وسلم إلا بإذن، مما يدل على أنه لا استثناء لأحد فى أمر الاستئذان وإن كان أقرب الأقربين كما نصت الآية الكريمه : ﴿يا أيُّها الَّذين آمنوا لِيستَأْذِنكم الَّذين مَلكت أيمانُكم...﴾ الآية [النور ٥٨]

ولما استغرب بعض الصحابة مثل هذا الاستئذان على القرابة القريبة، فراح يحاور النبي صلى الله عليه وسلم فى الإذن له بالدخول على أقربائه من غير استئذان،رجع بغير طائل راضيا بحكم الله، فقد جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : أستأذن على أمي؟ فقال: "نعم" فقال الرجل إني معها فى البيت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "استأذن عليها" فقال الرجل : إنى خادمها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "استأذن عليها،أتحب أن تراها عريانة"؟ قال : لا، قال : "فاستأذن عليها"(٣).

---

(١) بل نقول: إن هذه العلامة وقعت موقع الاستئذان، فهو حاصل بذاته أو بما يدل عليه .

(٢) شرح مسلم ١٤/١٥٠ .

(٣) أخرجه مالك في الموطأ في الاستئذان، باب الاستئذان ٢/٢٣٩، وإسناده منقطع، فإن عطاء بن يسار لم يدرك النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما هو تابعي، وقال عنه ابن عبد البر: مرسل صحيح ولا أعلمه يستند من وجه صحيح ولا صالح، وانظر الأدب المفرد للبخاري ٣٥٣-٣٥٤، ففيه آثار موقوفة تشهد لذلك، وصححها الحافظ في الفتح ٢٣/٢٩ .

فانظر إلى الأسلوب الإقناعى الحكيم الذى اجتث به النبي صلى الله عليه وسلم وجه الاستغراب من السائل فى استئذانه على أمه أو نحوها، الناشىء من وجه القرابة دون إدراك مخاطر المفاجأة التى قد تؤدي إلى الاطلاع على عورات محارمه، وإفزاعهن فى ذلك، فلما أفهمه هذه الحقيقة قنع بالحكم الشرعي وعلم أن تدبير الله تعالى لعباده وحكمته فى شرعه لا يوازيها تدبير العقلاء بل قد لا تدركها عقولهم.

ومن هذا الدليل تدرك سر الشارع فى تعظيم حرمات المسلمين وصيانتها عن أن تنتهك من قبل من لا تحل له.

الزجر البالغ عن انتهاك حرمات الناس :

ولذلك كان الزجر شديدا والعقاب أليما لمن يحاول استكشاف العورات سواء كان عن قصد أو غيره :

١ – فعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رجلا اطلع من بعض حجر النبي صلى الله عليه وسلم فقام إليه النبي صلى الله عليه وسلم بِمِشقَص، أو قال بمشاقِص(١)، قال : فكأنى أنظر إليه يختُل(٢) الرجل ليطعنه(٣)".

٢ – وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : اطَّلع رجل من جحر من باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع رسول الله مِدرًى(٤) يرجِّلُ به، وفى رواية: يحكُّ به رأسه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو علمت أنك تنظر لطعنت به فى عينك، إنما جُعِل الاستئذانُ من أجل البصر(٥)".

---

(١) جمع مشقص كمبرد وهو نصل السهم إذا كان طويلا غير عريض. النهاية ٢/٤٩٠ .

(٢) من ختل يختل: إذا خدعه وراوغه .

(٣) أخرجه البخاري في الديات، باب من اطلع في بيت قوم ففقؤا عينه فلا دية له ٩/١٣، ومسلم في الأدب برقم ٢١٥٧ .

(٤) المدرى: شيء يسرح به شعر الرأس، محدد الطرف من حديد أو غيره، وهو كسن من أسنان المشط، أو أغلظ قليلا إلا أنه أطول .

(٥) متفق عليه تقدم ذكره في هذا المبحث ص٧٩٧.

ومن هذه الأحاديث تعلم مبلغ الجرم الذى يرتكبه ذلك الناظر، لأن العقوبة كانت رادعة وكبيرة، والنبي صلى الله عليه وسلم وهو الرؤوف الرحيم لم يتردد فى إنزالها به لو أنه تمكن من ذلك، ولقد حث أمته على فعل ذلك بهؤلاء الذين يهتكون أستار البيوت وعوراتها :

١ – فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من اطَّلع فى بيت قوم بغير إذنهم فقد حلَّ لهم أن يفقؤا عينه"(١) ،

وفى رواية قال : "لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فحذفته بعصاةٍ ففقأت عينه لم يكن عليك جناح"(٢) ،

٢ – وعن أبى ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كشف سترا فأدخل بصره فى البيت قبل أن يُؤذن له فرأى عورة أهله، فقد أتى حدّاً لا يحل له أن يأتيه، ولو أنه حين أدخل بصره استقبله رجل ففقأ عينه ما عيَّرت عليه(٣)، وإن مر رجل على باب لا ستر له غير مغلق فنظر فلا خطيئة عليه، إنما الخطيئة على أهل البيت"(٤) .

وهكذا يهدر النبي صلى الله عليه وسلم عين الناظر إلى منازل الآخرين وعوراتهم فى بيوتهم،وذلك لعظيم جرمه، ودناءة أخلاقه،حيث لم يشأ أن يزكِّي نفسه ويعزِّها بمكارم

---

(١) أخرجه البخاري في الديات، باب من اطلع في بيت قوم ففقؤا عينه فلا دية له ١٣/٩، ومسلم في الآداب، باب تحريم النظر في بيت غيره برقم ٢١٥٦ واللفظ له .

(٢) وهذه رواية البخاري المشار إليها .

(٣) أي: ما نسبت إليه العيب .

(٤) أخرجه الترمذي في الاستئذان، باب ما جاء في الاستئذان قبالة الباب برقم ٢٧٠٧ وقال: حديث غريب لا نعرف مثله إلا من حديث عبد الله بن لهيعة، فأعلَّه بابن لهيعة، وأخرجه الإمام أحمد في المسند ١٨١/٥ من طريقه، وقال المنذري في الترغيب ٤٣٦/٣: رواته رواة الصحيح إلا ابن لهيعة، وفي التقريب يقول: صدوق خلط بعد احتراق كتبه ... ا.هـ برقم ٣٥٦٣ .

أخلاق الإسلام، الَّتى كان عليها رسول الإسلام سيدنا محمد صلى الله عليه عليه وسلم، والتى يكسب بها شرف الدنيا والأخرة، فلما لم يفعل ذلك كانت عينه رخيصة فى سبيل تربية الناس على مكارم الأخلاق من النزاهة والعفة...

ولا بدع فإن الإنسان إنما يعظم بدينه وأخلاقه، فإذا لم يكن دِّينا ذا خلق كريم كان أهون على الله من الجُعل، وما أبدع قول القائل فيمن يذل نفسه بمساوىء الأخلاق فيسرق فتقطع يده : قال :"لما كانت أمينة كانت ثمينة، ولما خانت هانت" .

وهكذا كان عليه الصلاة والسلام يتمثل مكارم الأخلاق فى سلوكه أفعالا وأقوالا، فلا يتنازل عن مكارمها فى سلوكه بنفسه،ولا يريده من أمته، بل كان يربِّيهم على المكارم ويوجبها عليهم،ويشرع لحفظها ما يأمره الله تعالى به مما هو كفيل بصيانة المجتمع المسلم من سفاسف الأخلاق ومساوئها،من حدود وتعازير، ولرُب رهبة تحمل على زكاء الخلق خير من رحمة تؤدي إلى التهاون فيه.

المبحث الثالث

(إكرام الضيف)

الضيافة مصدر ضاف يضيف ضيافة بمعنى «الإمالة»

قال الراغب: "أصل الضيف الميل، يقال: ضفت إلى كذا، وأضفت كذا إلى كذا، وضافت الشمس للغروب، وتضيَّفت، وضاف السهم عن الهدف وتضيَّف، قال: والضيفُ؛ من مال إليك نازلا بك، ثم قال: وأصل الضيف مصدر، ولذلك استوى فيه الواحد والجمع فى عامَّة كلامهم، وقد يجمع فيقال: "أضياف وضيوف وضِيفان(١)" .

منزلة خُلق إكرام الضيف فى الأخلاق الاجتماعيه:

والضيافة من الأمور التى لايكاد يستغنى عنها المرء فى حياته ضيفا أو مستضيفا، لضرورة الحياة الاجتماعيه التى يعيش فيها الإنسان، فإنه مدني بالطبع لا يكاد يقوم له شأن بمفرده، فهو يسافر ويجتمع بالناس فى بيوتهم أويجتمعون عنده فى بيته لغرض أو لآخر، ولا بد له فى هذه الأحوال من ضروريات تقوم بها حياتهم من أكل أو شرب أو مسكن أو نحو ذلك .

لذا فقد عني القرآن الكريم بالحديث عنها على سبيل التحدث عن أحوال المضيفين ثناء عليهم وإشادة ببليغ إكرامهم لضيوفهم، أو ناعيا على من أخل بذلك منهم، فى آيات كثيرة من آياته الكريمة .

فلقد تحدث القرآن الكريم على سبيل المدح والثناء عن كرم نبي الله "إبراهيم" عليه السلام مع أضيافه وعن نبي الله لوط(٢) عليه السلام فى موقفه مع أضيافه، وقومه الذين أرادوا بهم السوء، وامتدح موقف الأنصار البالغَ الكرم لأضيافهم، بما أوحى بعظيم منزلة هذا الخلق الرفيع، أما من لم يفعل ذلك الإكرام للأضياف فقد كان ذكره فى القرآن الكريم على سبيل النعي بسوء صنيعهم ورذالة أخلاقهم، كما فى قصة أصحاب

---

(١) المفردات ص ٣٠٠ .

(٢) انظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ٦٢/٩ .

القريه الذين أبوا أن يضيفوا نبي الله موسى و عبد الله الصالح: الخضر عليهما السلام،كما سيأتى بيانه.

حديث القرآن الكريم عن إكرام نبي الله إبراهيم عليه السلام أضيافه:

فكان من حديثه عن نبي الله إبراهيم عليه السلام ما جآء فى سورة "هود" حيث يقول سبحانه : ﴿ولَقد جاءَتْ رسُلنا إبراهيمَ بالبُشرى قالوا سلامًا قال سلامٌ فما لَبثَ أن جاءَ بعجلٍ حنيذ * فلما رأَى أيديَهم لا تصلُ إليه نَكِرَهم وأوجسَ منهم خِيفةً قالوا لا تَخَفْ إنَّا أُرسِلنا إلى قومِ لوط﴾[:٦٩،٧٠] .

فتتحدث الآيتان عن مبلغ كرم إبراهيم عليه السلام، حيث أسرع فى القِرى بحيث لم يلبث أن أحضر لهم عجلا حنيذا، أى مشويا سمينا، وهم نفر ثلاثه: جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام كما ذكر المفسرون، فكم يأكل هؤلاء الثلاثة من هذا العجل السمين كما نصت عليه آية "الذاريات" حيث قل الله تعالى : ﴿هل أتاكَ حديثُ ضيفِ إبراهيمَ المكرَمِين * إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا قال سلامٌ قومٌ منكرون * فراغَ إلى أهلِه فجاءَ بعجلٍ سمين * فقرَّبه إليهم قال ألا تَأكُلون..﴾[٢٤-٢٧].

وفى هذه الآيات بيان آخر لبعض صور الإكرام الذى قام به أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام،فقد أثبت الله تعالى إكرامه لهم بقوله : ﴿ المكرَمين ﴾ وهذا ما يقتضيه السياق وهو أحد قولي أهل التأويل فى ذلك(١)، والثاني: أنه إخبار عن وصفهم الثابت كما فى قوله تعالى : ﴿..بل عباد مُكرَمون﴾[سورة الأنبياء:٢٦].

وكان من صور إكرامه لهم قيامه بنفسه وأهله بخدمتهم، وفى ذلك من العناية والحفاوة بالضيف ما فيه، فقد استلَّ نفسه من بينهم لئلا يعوقوه عن تقديم الضيافة لهم كما يحدث من بعض الأضياف، وهو ما دل عليه كلمة ﴿ فَراغُ ﴾ الدالة على الاختفاء "فإنه لا يقال: راغ إلا إذا ذهب على خفية"(٢) وذهب يحضر لهم القِرى بسرعة عجيبة إذ لم

---

(١) انظر تفسير البيضاوي ص ٦٩١، وروح المعني ١١/٢٧/٩ وغيرهما .

(٢) روح المعاني ٩٤/١٢/٤ .

يلبث أن جاء بعجل سمين حنيذ مشوى،بحيث كانت سرعته العجيبة حاملة لاختيار بعض المفسرين(١) أن يقول: إن الطعام كان مهيئا من قبل، غير أن هذا القول يقتضى إخراج النص عن ظاهره الدال على إنجازه فى ذلك الوقت؛ لأنه أزيد فى العناية وأبلغ فى الإكرام، فإن خير البر عاجله، ولذلك أبى هذا القول جمهور المفسرين(٢) فلما أحضره لهم لم يحوجهم إلى القيام له، بل وضعه بين أيديهم ليتناولوه، ثم تلطَّف بهم فى دعوتهم إليه بقوله : "ألا تأكلون؟" .

بحيث استدل بذلك كله على آداب الضيافة فإن هذه الآداب جاء ذكرها فى القرآن الكريم على سبيل المدح والثناء والتقدير، فكانت تشريعا لما دلت عليها من أحكام وآداب . قال القرطبى رحمه الله : "فى هذه الآية ـ يعنى آية هود ـ من أدب الضيف أن يعجِّل قراه فيقدم الموجود الميسر فىالحال، ثم يتبعه بغيره إن كان له جِدةٌ، ولا يتكلف ما يضر به، قال : والضيافة من مكارم الأخلاق، ومن آداب الاسلام ومن خلق النبيين والصالحين وإبراهيم عليه السلام أول من أضاف"(٣) .

حديث القرآن الكريم عن كرم نبي الله لوط عليه السلام :

ونحو هذا الإكرام ما كان من نبي الله لوط عليه السلام لأضيافه الكرام من الملائكة عليهم السلام، حيث بلغ به الحال فى الأكرام أن عرض بناته على أهل السوء فى سبيل إكرام أضيافه الذين أراد قومه الإساءة إليهم، وكان من أمره معهم ما قصه الله تعالى بقوله : ﴿وجاءَهُ قومُه يُهرَعون إليه ومن قبلُ كانوا يَعملون السيئاتِ قال يا قومِ هؤلاءِ بَناتى هُنَّ أطهرُ لكم فاتَّقوا اللهَ ولا تُخزونِ فى ضَيفي أليس منكم رجلٌ رشيد..﴾[سورة هود:٧٨] وقوله سبحانه : ﴿وجاءَ أهلُ المدينة يَستبشِرون * قال إنَّ هؤلاءِ ضَيفي فلا تَفضحون * واتَّقوا اللهَ ولا تُخزون﴾[سورة الحجر:٦٧-٦٩] فلقد أراد أن يقي أضيافه من

---

(١) هو أبو حيان في البحر المحيط ١٣٩/٨ .

(٢) انظر روح المعاني ٩٤/١٢/٤ .

(٣) جامع أحكام القرآن ٦٤/٩ .

هؤلاء الفسقه بأعز ما يقدر عليه ولا يقدر عليه غيره، وهو بناته أفلاذ أكباده، وفى هذا العرض صورة لأبلغ كرم سُمع وأعظمه، وسواء كان ذلك عرض تزويج بالفعل كما ذهب إليه بعض أهل التفسير، أو هو مبالغة فى التواضع والاستعطاف لهم لـيرقوا له فيتركوا أضيافه[1]، فإن مبلغ كرمه فى الحالين واضح، أما على الأول فلما فيه من بذل بناته لمن لا يقدر على بذلهن لهم لفجورهم وكفرهم لولا إكرام الضيف.

وأما على الثانى فإن بالغ حرصه على إكرامهم أحوجه وهو العزيز الجناب با لله تعالى إلى أن يبذل ما هو فوق وُسعه لهؤلاء السيئين فى سبيل إكرام ضيفه، وفى ذلك من الدلالة على عظم كرمه مالا يحتاج إلى برهان أو مزيد بيان.

حديث القرآن الكريم عن إكرام نبي ا لله يوسف عليه السلام لضيوفه:

وحديث القرآن الكريم عن إكرام يوسف عليه السلام لضيوفه يعطي صورة أخرى عما يجب أن يكون عليه إكرام الضيف.

فإنه عليه السلام كان قد لقي من إخوانه ما لم يعمله إخوة كرام بأخيهم الكريم، الذى خصه ا لله تعالى عليهم بخصائص جعلهم يحسدونه عليها، ويكيدون له كيدا عظيما، فألقَوه فى غيابة الجُبّ ابتغاء إهلاكه ليصفو لهم الجو عند أبيهم من غير منافس، إلا أن ا لله تعالى حفظه من مكرهم وكيدهم لما يرشحه إليه من تجديد شرعه وملك مصر لسياسة خلقه.

لكنه لقي من جراء ذلك متاعب لاتحصى، حيث بيع رقيقا وهو الكريم، بثمن بخس دراهم معدودات وكانوا فيه من الزاهدين، وهو العظيم المنزلة الكبير الشأن حسبا ونسبا وديانة، ثم كيد له فى بيت الملك مكيدة منكرة، تجرَّع بسببها سجنا طويلا لبث فيه بضع سنين... إلى غير ذلك مما لقيه من العناء الشديد جراء صنيع إخوانه المنكر به، وهو أمانة فى أيديهم، مع ذلك كله لما لقيهم وقد مكَّنه ا لله تعالى فى الأرض وجعل له ملك مصر يتبوأ منه حيث يشاء، وكان بإمكانه أن ينكِّل بهم جزاء وفاقا، غير أنه عفى عن ذلك

---

(١) هذه إشارة إلى الخلاف في تأويل الآية عند أهل التأويل، انظر أقوالهم ووجهات نظرهم في ذلك في كتب التفسير المشهورة كالقرطبي ٧٦/٩، وروح المعاني ١٠٦/١٢/٤ ونحوهما.

وصفح، وأكرمهم غاية الإكرام وأعطاهم فوق ميرتهم وقر بعير.." كما قص الله تعالى كل ذلك فى سورة يوسف فيرجع إليها من يشاء.

ففى هذه الصور دلالة واضحه على أن إكرام الأضياف من أخلاق النبيين،وهو من مرضات رب العالمين،لأن الله تعالى إنما ذكر ذلك فى مقام المدح والامتنان بصنيعهم الكريم حيال ضيوفهم،وذلك يقتضى الإقتداء بهم فى هذه الأخلاق الحميده الكريمة فى معاملة الأضياف.

حديث القرآن الكريم عن كرم الصحابة رضى الله عنهم:

وقد كان لبعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كرم نحو ذلك الكرم النبوى كما دل على ذلك ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فبعث إلى نسائه فقلن: ما معنا إلا الماء،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يطعم أو يضيف هذا ؟ فقال رجل من الأنصار: أنا فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمي ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم،فقالت: ما عندنا إلا قوت صبيانى . فقال:هيئي طعامك وأصبحي سراجك ونوّمي صبيانك إذا أرادوا عشاءً، فهيأت طعامها وأصبحت سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ضحك الله الليلة أو قال: عجب من فعالكما، فأنزل الله تعالى :﴿ويُؤثِرونَ على أنفُسِهم ولو كانَ بهم خَصاصةٌ ومن يُوقَ شُحَّ نفسِه فأولئِك هم المفلحون﴾(١)[سورة الحشر:٩].

وهذا ثناء عظيم على هؤلاء الصفوة المختارة من الصحابة الكرام على التحلي بهذا الخلق العظيم وما أجدرهم بذلك، فإن كرمهم للأضياف قد بلغ مبلغا لم يبلغه كرم أشهر الكرماء،فلقد نزل بهم إخوانهم المهاجرون فشاطرورهم الأموال، وآخوهم فى النصرة

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب ويؤثرون على أنفسهم ٤٢/٥، وفي تفسير سورة الحشر ١٨٥/٦.

والتأييد، حتى بلغ بهم الكرم أن كان يقول أحدهم لأخيه المهاجري بعد أن يشاطره المال: وعندى امرأتان اختر أيهما شئت أتنازل لك عنها، فيقابل بشعور كريم،وعزة كاملة،وعفة فريدة،إذ يقول له المهاجري: "بارك الله لك فى أهلك ومالك، دُلَّني على السوق"(١) .

فهذا بعض ما حدثنا به القرآن الكريم عن كرم الأضياف، من أولئك القوم الكرام من أنبياء وصالحي المؤمنين، وهو حديث ثناء ومدح وامتنان على تلك المواقف النبيلة فى كرم الضيف كما رأيت.

حديث القرآن عمن بخل بحقوق الضيف فلم يكرمه :

وفى مقابل ذلك تحدث عن الذين حملهم البخل إلى أن يفرِّطوا فى حقوق ضيوفهم فلا يُقرُونهم، ولا يقدمون لهم إحسانا ولا معروفا.

وكان فى طليعة هؤلاء اللئام من الناس أصحاب القرية الذين استضافهم نبي الله موسى والخضر عليهما السلام، وقد قال الله تعالى فى قصتها :﴿ ... فانطلقا حتَّى إذا أتيا أهلَ قريةٍ استطعما أهلَها فأبَوا أن يُضَيِّفوهما فوجدا فيها جِداراً يُريد أن يَنقَضَّ فأقامه قال لو شِئتَ لاتَّخذتَ عليه أجرا﴾[سورة الكهف:٧٧] .

فقد كان موسى والخضر عليهما السلام مسافرين،فاجتازا بالقرية وهما بحاجة إلى قِرى، وكان الواجب على أهل القرية أن يبادروا بالقيام بواجبهم نحو أضيافهم كما هو متعارَف بين أصناف البشر فى هذه الحالة، ومع ذلك لم يفعلوا، بل أحوجوهم إلى أن يطلبوا منهم ذلك الحق الذى لهم عليهم، فلم يستجيبوا وأبوا تقديم أي شيء إليهم مما يجب لأمثالهم فى العرف،وإن لم يكن لهم شرع يحتِّم عليهم ذلك، وكان نظر سيدنا موسى عليه السلام فى هذه القضية صائبا من حيث المكافأة والمعاملة بالمثل، حيث اعترض على الخضر لقيامه بإصلاح الجدار وهو من جدار القرية تلك،بغير أن يشترط عليهم،أو يطلب منهم أجرة

---

(١) انظر صحيح البخاري كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب كيف آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه ٥/٨٨ .

عمله، فإنهم قوم لئام كما جاء فى الحديث،لايستحقون الإكرام أو الإحسان .

غير أن الخضر كان قد أوتي علما بما فى تحت الجدار من كنز لغلامين يتيمين فى القرية تلك كان قد وضعه أبوهما،فلم يشأ معاملتهم بالمثل، بل أراد أن يحفظ كنز الغلامين عن أن تمتد إليه يد غيرهما، وإن لم يُبذل له أجر على ذلك فقام بواجبه الأخلاقى العظيم، بينماهم لم يقوموا بما يجب عليهم لضيفهم الكريم.

فاقتضى الحال أن يسجّل القرآن الكريم مشاهد هذه القصة العظيمة،لتكون دليلا على كمال لؤم أهل القرية وبخلهم، فيبقى عارها عليهم إلى يوم الدين ، ودليلا على كرم العبد الصالح ونبل أخلاقه فيكون أسوة فى المبادرة إلى الخير وبذله لمن هو له أ هل ، أو لم يكن أهلا فإن الفاعل أهل للكرم والإكرام.

تمثُّل خلق إكرام الضيف
في رسـول الله صلى الله عليه وسـلم

وإذا كان إكرام الضيف من أخلاق النبيين وسننهم التى أُثرت عنهم، وامتدحهم الله تعالى بها فى غير ما آية كما علمت.

فإن سيد الأنبياء وخاتم النبيين الذى جمع الله تعالى فيه ما تفرق فى غيره من مكارم الأخلاق فطرة، وأمره بالتأسي بكمالاتهم الأخلاقيه شريعة،حيث قال له سبحانه فى خطابه له: ﴿ .. أولئِك الَّذين هدى اللهُ فبهداهم اقتَدِه ﴾[سورة الأنعام: ٩٠].

فإذا كان مفطورا على الأخلاق الكريمة فطرة إلهيه،فكانت مكارم أخلاقه إحدى غرائزه النفسية، ومن أجلها إكرام الضيف وقِراه،كما دل على ذلك شهادة خديجة رضى الله عنها له بذلك عند ابتداء تنزل الوحى حيث قالت له:"إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق.."(١) .

فإذا كان حاله كذلك جبِلَّة ، فكيف حاله فيه بعد أن بعثه الله تعالى ليتمم مكارم الأخلاق؟ وأمره أن يهتدي بالأنبياء قبله فى كل كمال خلقي كريم؟ وقد كان فيهم ما قص الله تعالى علينا بعضه من صور إكرامهم أضيافهم كإبراهيم ولوط ويوسف عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم، وما لم يقصصه من ذلك أكثر .

إنَّ كل ذلك يقتضى أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أخلاقه على حال راق عظيم،لتوافر الدواعى على رقيه فيه حتى يبلغ من كمالات الأخلاق منتهى الكمال وذروته، وقد كان كذلك بالفعل،بحيث شهد الله تعالى له بعظمة الخلق بقوله : ﴿وإنَّك لَعلى خُلقٍ عظيم﴾ وهو ما لم يحصل لأحد قبله من أنبياء ورسل على الإطلاق صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، وقد فصلت الدلائل الجزئيه،هذه الشهادة الإجماليه فى كل خلق كريم كما علمت مما مضى وما ستعلمه فيما سيأتى فى بقية الأبحاث ومنها ما نحن بصدد بيانه من خلق إكرام الضيف.

---

(١) تقدم ص٦٣ .

والدلائل النقليه على ذلك كثيرة لا يأتى عليها الحصر فى مبحث جزئى، وإنما يحتاج ذلك إلى بحث مستقل تفصيلى.

ولكن يمكن هنا الإتيان بأشهر تلك الدلائل وأوضحها دلالة على المقصود من سلوكه صلى الله عليه وسلم فى إكرام أضيافه بنفسه وفعله، أو أقواله لأصحابه وأمته حثا على ذلك، وترغيبا، وتنويها، وهي أقوال كثيرة، نأتى على ذكر طائفه منها .

إكرامه صلى الله عليه وسلم أضيافه بنفسه :

أما إكرامه صلى الله عليه وسلم أضيافه بنفسه فذلك هو الأصل الذى كان يفعله صلى الله عليه وسلم ويقوم به نحو ضيفه :

١ ـ فلقد كان يثوي فى مسجده الشريف عدد من فقراء المهاجرين الذين لا كافل لهم غيره صلى الله عليه وسلم،فكان عليه الصلاة والسلام لا يدَّخر وُسعا فى إكرامهم وإعالتهم والأنفاق عليهم.

٢ ـ ولقد كان له قصعة يقال لها : "الغرَّاء" يحملها أربعة رجال يطعم بها أصحابه وفى ذات يوم، لما أضحوا وسجدوا الضُّحى، أتي بتلك القصعة وقد ثرد فيها، فالتفُّوا عليها، فلمَّا كثروا جثا(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أعرابي: ما هذه الجِلْسه؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله جعلنى عبدا كريما، ولم يجعلني جَبَّارا عنيدا" ثم قال : "كُلوا من حواليها ودعوا ذِروتها يبارك فيها"(٢) .

٣ ـ وبلغ به الاهتمام والإكرام لهؤلاء أضياف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأضياف الإسلام أن كان إذا أعوزه بذل ما يكفيهم من الطعام، استعمل ما أيَّده الله تعالى به من معجزات حسِّيه ليطعم أضيافه هؤلاء أو غيرهم كما تدل عليه أدلة كثيرة :

---

(١) أي: جلس على ركبتيه .

(٢) أخرجه أبو داود في الأطعمة، باب ما جاء في الأكل من أعلى الصفحة برقم ٣٧٧٣، وابن ماجه في الأطعمة، باب الأكل متكئا برقم ٣٢٦٣ من حديث عبد الله بن بسر رضي الله عنه . وقال البوصيري في مصباح الزجاجة برقم ١١٢٢: إسناده صحيح .

١ ـ فقد حدث أنس رضى الله عنه قال : تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يعنى بزينب بنت جحش رضى الله عنها ـ فدخل بأهله قال: فصنعت أمي أمُّ سليم حَيْسًا(١) فجعلته فى تَور(٢)، فقالت : يا أنس إذهب بهذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقُل: بعثت بهذا إليك أمي، وهى تُقرئك السلام وتقول : إن هذا لك منَّا قليل يارسول الله،قال: فذهبت بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: إن أمي تقرئك السلام وتقول : إن هذا لك منا قليل يا رسول الله، فقال: ضعه، ثم قال: "إذهب فادع لي فلانا وفلانا ومن لقيتَ" وسمىَّ رجالا، قال: فدعوت من سمَّى ومن لقيت، قيل له: عدد كم كانوا؟ قال : زهاء ثلاثمائة"(٣).

٢ – وحدث عبدالرحمن بن أبى بكر(٤) رضي الله عنهما فقال : "كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثين ومائة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "هل مع أحد منكم طعام؟" فإذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه، فعُجِن ثم جاء رجل مشرك مشعانٌ(٥) طويل بغنم يسوقها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "أبيعٌ أم عطية، أو قال: أم هبة؟فقال: لا، بل بيع، فاشترى منه شاه فصنعت، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسواد البطن(٦) أن يشوى، قال : وايم الله ما من الثلاثين ومائة إلا حَزَّ له رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) الحيس: تمر ينزع نواه، ويدق مع أقط ويعجنان بالسمن ثم يدلك باليد حتى يبقى كالثريد. اهـ الكصباح المنير ١/١٧٢ .

(٢) إناء يشرب فيه .

(٣) أخرجه مسلم في النكاح، باب زواج زينب بنت جحش برقم ١٤٢٨ حديث رقم ٩٤ .

(٤) واسم أبي بكر: عبد الله بن عثمان بن قحافة رضي الله عنهم، أسلم عبد الرحمن أيام الهدنة، وكان رجلا صالحا شجاعا راميا، قتل يوم اليمامة سبعة من أكابرهم، وتوفي سنة ٥٣ هـ، انظر الإصابة ٢/٤٠٧، وبهامشها الاستيعاب ٢:٣٩٩ .

(٥) هو المنتفش الشعر الثائر الرأس .

(٦) أى الكبد

حَزَّةً(١) من سواد بطنها، إن كان شاهدا أعطاه، وإن كان غائبا خبأ له، قال: وجعل قصعتين فأكلنا منهما أجمعون وشبعنا،وفضَلَ في القصعتين فحملته على البعير،أو كما قال"(٢).

٣ ـ وحدَّث أبو هريرة رضي الله عنه بقصة طويلة عن إكرام النبي صلى الله عليه وسلم أضياف الإسلام من أهل الصُّفَّة، وكان مما حكى قول النبي صلى الله عليه وسلم له:"أباهر، قال: قلت: لبيك يا رسول الله ، قال :"إلحق بأهل الصفة فادعهم لي" قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهل ولا مال، ولا على أحد، إذا أتته ـ أي رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها، قال: فساءني ذلك (٣) فقلت: وما هذا اللَّبن في أهل الصفة ؟!كنت أحق أن أصيب من هذا اللَّبن شربة أتقوَّى بها، فإذا جاؤوا أمرني فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن! ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بدٌّ، قال: فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا، فاستأذنوا فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت، قال: يا أبا هر، قلت : لبيك يا رسول الله، قال: خذ فأعطهم، قال: فأخذت القَدَح، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يردُّ عليَّ القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يردُّ عليَّ القدح...حتى انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد روي القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إليَّ فتبسَّم فقال: أبا هر، قلت : لبيك يا رسول الله قال: بقيتُ أنا وأنت، قلت : صدقتَ يا رسول الله، قال: أُقعد فاشرب، فقعدت فشربت فقال: إشرب، فشربت.. فما زال يقول: إشرب حتى قلت: لا والذى بعثك بالحق ما أجد له مسلكا، قال: أرني، فأعطيته القدح فحمد الله وشرب الفضلة"(٤) .

---

(١) أي: قطع له قطعة .

(٢) أخرجه مسلم في الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره برقم ٢٠٥٦ .

(٣) أي: أمرُه صلى الله عليه وسلم باستدعاء أهل الصفة .

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق، باب كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم ١١٩/٨ .

ومن هذه النماذج علمت ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من إكرام لضيوفه، حيث كان يبذل جهده فى إكرامهم مما هو فى يده من قليل أو كثير، فإن كان كافيا فبها وإلا دعى الله تعالى أن يبارك فى القليل فيستجيب له الله تعالى ويعطيه خرق العادة معجزة حسّيّة تشهد بصحة نبوته وصدق دعوته، وكم له من معجزات نحو هذه كان يمنحه الله تعالى إيّاها حينما يريد إطعام أصحابه وليس إلى ذلك سبيل إلا بمعجزة، وهذا يدل على مبلغ إكرامه صلى الله عليه وسلم لأضيافه، إذ لو لم يكن فيه أريحيّة الكرم العظيم لاعتذر بالعدم وتعلّل بالحاجة، وكان مصدقا فى ذلك، غير أنه كان يلجأ إلى خرق العادة ليحقق لأضيافه الكرم البالغ .

ولقد كان من مبلغ إكرامه لهم أن كان يؤثِرهم على نفسه وأهل بيته مع ما هم عليه من الحاجة إلى مثل ذلك الطعام، غير أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يؤثرهم به، بل يجعلهم كأضيافه، فينالون من ذلك كواحد منهم، كما علمت من حديث أبى هريرة رضي الله عنه .

ومع ذلك فكان صلى الله عليه وسلم إذا لم يجد ما يكرم به هؤلاء الأضياف ألبتة، كان يأمر مياسير أصحابه بالقيام بذلك، كما علمت مما تقدم ذكره فى قصة الأنصاري الذى آثر ضيفه على نفسه وأهله وأولاده على ما هو عليه من الخصاصة، وكما سيأتى مزيد بيان لذلك فى مبحث خلق الإحسان على الفقراء بعد هذا إن شاء الله تعالى .

إكرامه صلى الله عليه وسلم لأضيافه من الوفود :

كذلك كان إكرامه صلى الله عليه وسلم للضيوف المستمرين عنده، وتسميتهم ضيوفا مع ذلك توسع باعتبار المجاز، أما الضيوف الطارئون الذين يحلون ويرحلون، وهم الوفود التى كانت تأتيه صلى الله عليه وسلم باستمرار، فقد كانوا على حال أبلغ من ذلك فى الإكرام، حيث كان صلى الله عليه وسلم يقوم بقراهم بنفسه إن وجد، وإلا أقراهم أحد أصحابه، ومع ذلك لا ينصرفون عنه إلا بجائزه مادية يؤوبون بها إلى بلادهم، كما دل على ذلك حديث ابن عباس فى وصيته صلى الله عليه وسلم عند موته حيث قال: "وأوصى عند موته بثلاث : أخرِجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد

بنحو ما كنت أجيزهم، قال : ونسيت الثالثة"(١).

وإذا قرأت مباحث قدوم الوفود عليه صلى الله عليه وسلم من كتب السيرة، ستجد أنها تذكر أن كل وفد كان لايؤوب الإبجائزته اللائقة به، وقد ذكروا من أحواله صلى الله عليه وسلم في ضيافة الوفود أحوالا كثيرة؛ فتارة كان يضيفهم بنفسه إن وجد شيئا فى بيته ولو قليلا فيتبارك ببركته،فيكفى الغِآم من الناس، فإن لم يجد شيئا فى بيته أنزلهم عند بعض أصحابه وأحاطهم برعايته وعنايته،

فقد وفد عليه صلى الله عليه وسلم وفد "بَهراء"(٢) من اليمن،وأنزلهم المقداد(٣) رضى الله عنه عنده وجاءهم بجفنة من حَيس(٤) وكان كريما على الطعام، فأكلوا منها حتى نهِلوا، ورُدت إليه القصعة وفيها أكل، فجمع المقداد ذلك الأكل وبعث بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأصاب منها رسول الله صلى الله عليه وسلم أكلا هو ومن معه فى البيت حتى نهِلوا، ثم قال لمولاة المقداد التى أتت بها:"إذهبى بما بقى إلى ضيفكم" قالت: فرجعت بما بقي فى القصعة إلى مولاتي، قالت: فأكل منها الضيف ما أقاموا ترددها عليهم وما تغيض، حتى جعل القوم يقولون: يا أبا معبد ! إنك لتُنهلنا من أحب الطعام إلينا، ما كنا نقدر على مثل هذا إلا فى الحين، وقد ذُكر لنا أن الطعام ببلادكم إنما هو العُلقة أو نحوه، ونحن عندك فى الشبع، فأخبرهم أبو معبد بخبر رسول الله صلى الله

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب جوائز الوفد ٤/٨٥، ومسلم في الوصية، باب ترك الوصية لمن له شيء يوصي به برقم ١٦٣٧ .

(٢) بفتح الباء وإسكان الهاء قبله، من قضاعة، والنسبة إليها: بهراني على غير قياس .

(٣) ابن الأسود الكندي، أحد السبعة الأوائل الذين أظهروا الإسلام بمكة، وهاجر الهجرتين وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد كلها، وتوفي بالجُرف سنة ٣٣ هـ، وحمل على الأكتاف إلى المدينة ودفن فيها، انظر تهذيب الأسماء واللغات ٢/١١، والإصابة ٣/٤٥٤ .

(٤) هو تمر ينزع نواه ويدق مع الأقط ويعجنان بالسمن، ثم يدلك باليد حتى يبقى كالثريد. المصباح المنير ١/١٧٢ .

عليه وسلم أنه أكل منها أكلا وردها، فهذه بركة أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل القوم يقولون: نشهد أنه رسول الله،وازدادوا يقينا، وذلك الذى أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فتعلموا الفرائض وأقاموا أياما ، ثم جاؤوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يودِّعونه وأمر لهم بجوائزهم وانصرفوا إلى أهليهم"(١) .

وقدم عليه وفد بَلِيٍّ(٢) فأنزلهم رُويفع بن ثابت البلَوي(٣) عنده،وقدم بهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هؤلاء قومى، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مرحبا بك وبقومك" فأسلموا، وقال لهم رسول الله : "الحمد لله الذى هداكم للإسلام فكل من مات على غير الاسلام فهو فى النار" فقال له أبو الضبيب شيخ الوفد:يا رسول الله إن لي رغبة فى الضِّيافة فهل لى فى ذلك أجر؟ قال: نعم، وكل معروف صنعته إلى غني أو فقير فهو صدقه قال: يا رسول الله ما وقت الضيافة؟ قال: "ثلاثة أيام فما كان بعد ذلك فهو صدقه، ولا يحل للضيف أن يقيم عندك فيحرجك" قال: يا رسول الله: أرأيت الضَّالة من الغنم أجدها فى الفلاة من الأرض؟ قال: "هي لك أو لأخيك أو للذئب" قال: فالبعير؟ : قال: "ما لك وله،دعه حتى يجده صاحبه" قال رويفع: ثم قاموا فرجعوا إلى منزلى،فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى منزلى يحمل تمرا فقال: "استعن بهذا التمر" وكانوا يأكلون منه ومن غيره، فأقاموا ثلاثا ثم ودَّعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجازهم ورجعوا إلى بلادهم"(٤).

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٣٣١/١، وزاد المعاد ٦٥٥/٣-٦٥٦، وشرح المواهب ٥٦/٤ .

(٢) بفتح الياء وكسر اللام وياء مشددة، والنسبة إليها بلوي، نسبة إلى بلي بن عمر بن الحاف بن قضاعة، انظر الأنساب للسمعاني ٣٩٥/١ .

(٣) ذكره الحافظ في الإصابة ٥٢٢/١، ١١١/٤، وذكر طرفا من هذه القصة في الموضع الثاني من طريق الواقدي .

(٤) انظر طبقات ابن سعد ٣٣٠/١، وشرح المواهب ٥٧/٤، وزاد المعاد ٦٥٧/٣-٦٥٨، وما تضمنته هذه القصة من أحكام هي ثابتة من أحاديث أخرى في الصحيحن وغيرها .

فانظر إلى مبلغ كرمه صلى الله عليه وسلم حيث ما كان يترك الوفود من إكرامه حتى بعد أن يتكفل بذلك أحد أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين، فتراه في القصة الأولى استحالة ضيافة وفد "بهراء" عليه صلى الله عليه وسلم، إذ لم يعد يأكلون إلا من الطعام الذى بارك عليه مدة بقائهم.

وكذلك الحال مع وفد "بَلِيّ" مما يدل على كرمه للأضياف، وتأمل كيف كانت إجابته صلى الله عليه وسلم لرئيس وفد بلي حينما سأله عن الضيافة تستفد ارتياحه العظيم لهذا الخلق الكريم الذى سأل عنه الرجل .

من أقواله صلى الله عليه وسلم فى شأن الضيافة :

تلك نماذج صالحة لما كان يقوم به صلى الله عليه وسلم من إكرام الضيوف بنفسه أو أمره، وهى دالة على كمال هذا الخلق عند النبي صلى الله عليه وسلم وعظمته فيه.

وذلك ناشىء عما كان كامنا فى نفسه من عظيم الخلق فى استشعار الواجب للضيف وهو ما كان يعبر عنه صلى الله عليه وسلم بأقواله الشريفة الكثيرة التى دلت على عظيم مكانة هذا الخلق فى الاسلام، ومن ذلك :

١ ـ أن جعل هذا الخلق مرتبطا بالإيمان ارتباطا وثيقا، ارتباط الدال بالمدلول،حيث قال صلى الله عليه وسلم : "من كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرِم ضيفه جائزتَه" قالوا : وما جائزتُه يا رسول الله؟ قال : "يومه وليلته، والضِّيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقه عليه"(١).

وفى حديث آخر قال : "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرِم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمُت"(٢) .

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه ٣٩/٨، ومسلم في الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف .. برقم ٤٨، وفي اللقطة باب الضيافة ونحوها بالرقم نفسه واللفظ له فيها من حديث أبي شريح العدوي، وأخرجه أبو إسحاق الحربي في جزء إكرام الضيف من اثنتي عشرة طريق .

(٢) متفق عليه، وتقدم تخريجه ص ٢٨ .

فترى أنه صلى الله عليه وسلم قد جعل إكرام الضيف دليلا على الإيمان وشعبة من شعبه، فعلى مدَّعى الإيمان أن يبرهن على ذلك بتحقيق هذا الخلق، بأن يكرم ضيفه بما يقدر عليه من أنواع الإكرام بحيث لا يبخل عليه بما يقدر على إيجاده، ولا يتكلف ما لايقدر عليه،كما ستأتى الإشارة إليه.

قال أبو عبد الله الحليمى : "وإكرام الضيف أن يلقاه صاحب البيت بالطَّلاقة والبِشر، ويُحضر ما يحتاج إليه قبل الوقت الذى يتوقعه فيه، وأحسن وأوفر ما جرت به عادته مع أهله وولده، ويثويه أوسع ما عنده من الأماكن وأنزلها وأشرحها لصدره، وأسنحها فى الشتاء، وأدرجها فى الصيف(١) ويفرش مجلسه ومرقده أحسن وأنعم مما يفرشه لنفسه، ويحتمل عنه من مُؤن من يصحبه من خدَّامه ودوابِّه ما يحمل من مؤنة نفسه، وإذا خرج زوَّده ما يكفيه يومه، وشيَّعه ميلا إن كان عليه خوف، فإن قدر على أن يمده بمن يأمن بمرافقتهم إلى المنار(٢) وفعل، فذلك حسن والله أعلم"(٣).

٢ - إيجابه صلى الله عليه وسلم حق الضيافة على كل من ينزل عليه إنسان، فقال عليه الصلاة والسلام : "ليلة الضَّيف حقٌّ على كل مسلم، فمن أصبح بفِنائه، فهو عليه دَين، إن شاء اقتضى وإن شاء ترك"(٤)

وقال لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : "...وإن لزورك عليك حقا.. فأعط كل ذى حق حقه"(٥).

ففي هذين الحديثين جعل الضيافة حقا لازما على كل من يجتاز به الأضياف وهو قادر على ذلك، وللضيف أن يطالبه بها أو يسامحه عنها أو يجعلها دينا عليه كما هو

---

(١) كذا في الأصل ولعل الصواب "وأسنحها في الصيف، وأدرجها في الشتاء"

(٢) أي: الحدود .

(٣) المنهاج في شعب الإيمان ٣/٣٦٠ .

(٤) أخرجه أبو داود في الأطعمة، باب ما جاء في الضيافة من حديث المقدام بن معديكرب برقم ٣٧٥٠، وإسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٥٤٧٠ .

(٥) متفق عليه تقدم تخريجه ص٦٠٩.

ظاهر الحديث وقال به جمع من أهل العلم(١) ولذلك قضى عليه الصلاة والسلام للضيف أن يستوفيها بنفسه إذا لم يقم المضيف بأداء الحق الذى عليه لضيفه.

فعن عُقبة بن عامر(٢) رضي الله عنه قال : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : إنك تبعثنا فننزل بقوم لا يقرُوننا فما ترى؟ قال : فقال رسول الله صلى الله عليه سلم : "إن نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغى للضيف فاقبلوا، فإن لم يفعلوا فخذوا منهم حقَّ الضيف الذى ينبغى لهم"(٣).

وهذا يدل على ما مضى تقريره فى المقدمه من منزلة مكارم الأخلاق فى الاسلام، حيث جعل مثل هذا الخلق حقا لازما على كل من يمر عليه ضيف وهو يقدر على قِراه أن يقريه، ولا سبيل له إلى التخلى عن ذلك، فإن تخلى ولم يفعل كان للضيف الحق بأخذ ضيافته مما يجده من ماله، وفى هذا من التربية على كرم الخلق مالا مزيد عليه، لأن الإنسان إذا علم أن ذلك واجبا عليه وأنه إن لم يفعل طواعية، فإن للضيف أخذ ضيافته قسرا، بادر إلى الخلق الكريم طواعية ليثاب ويشكر، وتنمو فى نفسه ملكة كرم الخلق إن لم يكن ذا خلق كريم، وتتعزز إن كان كذلك.

٣ ـ تحديده صلى الله عليه وسلم مدة ثلاثة أيام للضيافة **وهي مدة** معقولة لا يضار فيها المضيف ولا يبخس الضيف،فقال عليه الصلاة والسلام فى ذلك : "الضِّيافة ثلاثة أيام وجائزته يوم وليلة، ولا يحل لرجل مسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثِمه" قالوا يا رسول الله، وكيف يؤثمه؟ قال : "يقيم عنده ولا شيء يقريه به"(٤).

---

(١) منهم اللَّيث بن سعد، وأحمد بن حنبل، انظر شرح الإمام النووىعلى مسلم ١٢/٣٠-٣٢ .

(٢) الجهني أسلم يوم قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، وكان قاريا عالما بالفرائض والفقه توفي سنة ٥٨، انظر تهذيب الأسماء ١/٣٣٦، والإصابة ٢/٤٨٩ .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب إكرام الضيف ٨/٣٩، ومسلم في اللقطة، باب الضيافة ونحوها برقم ١٧٢٧ .

(٤) أخرجه مسلم في اللُّقطة، باب الضيافة ونحوها برقم ١٧٢٦ من حديث أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه.

فهذه المدة معقولة يقدر الانسان أن يبذل فيها لضيفه حاجته، ولا يجد فى نفسه حرجا من نفقة أو بشاشة وجه، فجعلها الرسول صلى الله عليه وسلم وقتا للضيافه، ولا يكلّف المزيد على ذلك إلا على سبيل الإحسان والتفضل والقربة إلى الله تعالى.

٤ - إرشاده صلى الله عليه سلم إلى عدم التكلف للضيف ما لا طاقه له به أولا يملكه، فقال عليه الصلاة والسلام: "لا يتكلّفن أحد لضيفه ما لايقدر عليه"(١). وذلك لئلا يتحرج فيه ويكره ضيافته، لأن المرء إذا علم أن الضيف لا يحب المتيسّر ضاق به ذرعا، ولربما أدخله مداخل ضيقة هو فى غنى عنها، فأرشده النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن الواجب عليه هو بذل المقدور عليه فقط، لأنه لا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

فهذه الأحكام والآداب وغيرها مما لم يذكر هنا إذا روعيت، تجعل أمر الضيافة محببا للنفوس فتكون مشجّعة على التدرع بمكارم الأخلاق التى من أعظمها إكرام الضيف كما قال أنس رضى الله عنه حينما دخل عليه قوم يعودونه فى مرض له فقال : "يا جارية هلُمّي لأصحابنا ولو كِسَراً، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مكارم الأخلاق من أعمال الجنّة"(٢) وبذلك تكون هذه المكارم فى متناول كل أحد ليسر التحلّي بها، ولا يبقى لأحد عذر فى تركها إلا من غلب الشح والبخل عليه، لذلك ورد عنه صلى الله عليه وسلم قوله : "لا خير فيمن لا يضيف"(٣).

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٩٤/٧ برقم ٩٥٩٩ من حديث سلمان رضي الله عنه، وضعّفه السيوطي في الجامع الصغير، لكن حسن الشيخ الألباني إسناده في صحيح الجامع الصغير برقم ٧٦٠٨ نظرا لطرقه ومتابعاته، وانظر مجمع الزوائد ١٨٢/٨ فقد رواه من طرق كثيرة موقوفا على سلمان رضي الله عنه، وحكم على أسانيدها بالصحة .

(٢) عزاه الهيثمي في المجمع ١٨٠/٨ إلى الطبراني في الأوسط قال: وإسناده جيد .

(٣) رواه أحمد في المسند ١٥٥/٤ من حديث عقبة بن عامر، قال في مجمع الزوائد ١٧٨/٨: ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وحديثه حسن، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٥٦١/٥ برقم ٢٤٣٤، وفي صحيح الجامع الصغير ١٢٤٧/٢ برقم ٧٤٩٢، قال في السلسلة: وحديث ابن لهيعة من رواية =

وفى هذا الحديث ترغيب فى الضيافه وتنفير من التخلي، عنها يحرص على تطبيقه كل مؤمن حتى تشمله الخيرية، وتنتفى عنه ضدها، ويساعد على ذلك ما تقدم من تيسير أمرها، غير أن المرء ينبغى له أن يبالغ فى الإكرام بقدر الطاقة بحيث لا يبخل بالموجود ولا يتكلف المفقود، فقد ورد عنه عليه الصلاة والسلام قوله : "إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه"(١).

= عبدالله بن وهب صحيح؛ لأنه روى عنه قبل أن يسوء حفظه كما حققه بعض الأئمة، قال: فصح الحديث بهذه الرواية .

(١) روي من طريق جماعة من الصحابة منهم جرير وأبي هريرة وابن عباس وجابر رضي الله عنهم، أخرجه ابن ماجه برقم ٣٧١٢، والحاكم في المستدرك ٢٩٢/٤ وصححه، وسكت عنه الذهبي، والبيهقي في السنن ١٦٨/٨، وأبو نعيم في الحلية ٢٠٥/٦، وعزاه الهيثمي أيضا إلى الطبراني في الكبير والصغير، وأعلّ جميع طرقه الذي أوردها في المجمع ١٨/٨-١٩ . وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٢٠٥، وحسنه في صحيح الجامع الصغير برقم ٢٦٩٠،،١،١١١ .

المبحث الرَّابع

(الإحسان)

وفيه مطالب :

المطلب الأول : تعريف الإحسان وبيان منزلته فى الأخلاق الاجتماعيه .

المطلب الثانى : الإحسان إلى الجيران .

المطلب الثالث : الإحسان إلى الأيتام والأرامل .

المطلب الرابع : الإحسان إلى الفقراء والمساكين .

المطلب الأول

(تعريف الإحسان)

الإحسان في اللغة : الإتقان، ومنه قوله تعالى : ﴿وصَوَّركم فأحسنَ صُوركم...﴾[سورة التغابن:٣](١) .

وفي الشرع يقال على وجهين :

"أحدهما الإنعام على الغير، يقال : أحسن إلى فلان .

الثاني : إحسان في فعله، وذلك إذا عمل عملا حسنا"(٢) .

والإحسان أعم من الإنعام، وهو فوق العدل، لأن العدل هو أن يُعطى ما عليه ويأخذ ماله، والإحسان أن يُعطى أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له، فالإحسان زائد على العدل، إذ تحري العدل واجب، وتحري الإحسان ندب وتطوع"(٣) .

منزلة خلق الإحسان في الأخلاق الاجتماعية :

وقد جاءت مادة "الإحسان" ومتعلقاتها فيما يقرب من أربعين موضعا في القرآن الكريم،وذلك دليل على عظيم منزلة هذا الخلق الذي يعد مجمع الأخلاق، وعنه تنشأ جميع جزءياته في كل مجال اعتقادي أو تعبدي أو سلوكي، ذاتي أو اجتماعي، ولذلك جعله النبي صلى الله عليه وسلم فوق مرتبة الاسلام والإيمان حيث عرّفه بقوله : "والإحسان أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك(٤)" .

وهو بهذا المعنى يعني أن يكون الإنسان كامل الحضور مع الله تعالى والمراقبه الجامعة لخشيته، والإخلاص الكامل له في كل أعماله، بأن يحسن قصده فيجعله خالصا متجردا له وحده،ويقدم على فعل المؤمورات واجتناب المنهيات بعزم وغير تردد، وبذلك يكون

---

(١) المعجم الوسيط ١/١٧٤ .

(٢) المفردات للراغب ص ١١٩ .

(٣) المفردات للراغب ص ١١٩ .

(٤) متفق عليه/تقدم تخريجه ص ٣٢٥ .

المرء ناسكا لله فى كل شئونه ويحقق معنى العبودية التى فطره الله تعالى عليها، والعبادة التى خلقه الله من أجلها.

فهذا هو الإحسان الذى عني القرآن الكريم بذكره بمعناه العام.

وهو بهذا المعنى يحتاج إلى تحليل جزئي لكل أبواب الشريعة الشامل لها هذا الخلق من عقائد وعبادات ومعاملات وسلوكيات، وهي الأبواب التى عني هذا الكتاب ببحثها، فيحتاج بيانه إلى سرد كل أبوابه على ضوء هذا الخلق العظيم، وهذا ما لا سبيل إليه ، وإنما السبيل أن نأتي من ذلك ببعض أبحاث الأخلاق الاجتماعية التي كان لها حظ من آيات الإحسان الكثيرة بلفظها أو معناها، وهو الإحسان إلى الجيران والأصدقاء، وإلى الأرامل والأيتام،وإلى الفقراء والمساكين. وكان الأجدر أن يتصدر هذه المباحث الإحسان إلى الوالدين والأقربين، غير أن القسمة المنهجية اقتضت تقديم ذلك فى الفصل الذى قبل هذا فى فصل الأخلاق الأسرية، وقد تقدم ما يدل على الشق الثانى ـــ الأقارب والأرحام ـــ دون الأول ـ الوالدين ـ لتعذر التطبيق النبوي فيه ، ولنشرع الآن فى ذكر هذه المباحث مستعينين بالله،متوكلين عليه،مستلهمين السداد والتوفيق منه سبحانه.

المطلب الثاني

(الإحسان إلى الجيران)

تعريف الجار لغة واصطلاحا:

الجار فى اللغة يطلق على معان منها المجاورة فى المسكن، والشريك فى العقار، والذي يجير غيره، أى يؤمِّنه مما يخاف، وعلى المستجير أيضا، وهو الذى يطلب الأمان،ويطلق على الحليف، وعلى الناصر، .. وعلى غير ذلك (١) والذى يعنينا من أنواع المجاورة الآن هو المعنى الأول، وهو المجاور فى المسكن وقد عَرّفه الراغب بقوله: "الجار من يقرب مسكنه منك، قال: وهو من الأسماء المتضَايِفة(٢)، فإن الجار لايكون جارا لغيره إلا وذلك الغير جار له كالأخ والصديق، قال:"ولما استعظم حق الجار عقلا وشرعا عبر عن كل من يعظم حقه أو يستعظم حق غيره بالجار"(٣) .

والراغب رحمه الله تعالى يشير إلى تعظيم حق الجار الذى ورد فى الشرع المطهر من كتاب وسنة كقوله تعالى:﴿واعبُدوا اللهَ ولا تُشركوا به شيئًا وبالوالدينِ إحساناً وبذي القُربى واليتامَى والمساكينِ والجار ذِى القُربى والجار الجُنُب والصَّاحب بالجَنب وابنِ السَّبيل وما ملكت أيمانُكم إنَّ الله لا يُحبُّ من كان مختالاً فخورا﴾[سورة النساء:٣٦] .

فإن هذه الآية تحمل وصية الله تعالى لعباده فى الإحسان إلى جيرانهم لما فى ذلك من المصالح العامة و الخاصة، فى الدنيا والدين .

قال القرطبى رحمه الله (٤): أما الجار فقد أمر الله تعالى بحفظه والقيام بحقه والوصاية به

---

(١) انظر المصباح المنير ١٢٤/١، وتاج العروس ١١١/٣ .

(٢) التضايف: هو كون تصور كل واحد من الأمرين موقوفا على تصور الآخر، ا.هـ التعريفات للجرجاني ص٦٠ .

(٣) المفردات ص ١٠٣ .

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي، كان من كبار المفسرين والمشهورين بالصلاح والتعبد، وله مؤلفات كثيرة عظيمة منها تفسيره المشهور المسمى بجامع أحكام القرآن وغيرها توفي سنة ٦٧١، انظر هداية العارفين ١٢٩/٢، والأعلام ٣٢٢/٥، وطبقات المفسرين للداودي ٦٩/٢ .

في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، قال: "ألا تراه سبحانه أكّد ذكره بعد الوالدين والأقربين - أي: واليتامى والمساكين - فقال تعالى: ﴿ والجارِ ذي القربى ﴾ أي: القريب، ﴿ والجار الجنب ﴾ أي: الغريب قاله ابن عباس، وكذلك هو في اللغة ومنه فلان أجنبي ... إلى أن قال: فالوصاة بالجار مأمور بها مندوب إليها مسلما كان أو كافرا، قال: وهو صحيح، ثم قال: والإحسان قد يكون بمعنى المواساة،وقد يكون بمعنى حسن العشرة وكف الأذى والمحاماة دونه"(١) فهذا ندب ربّاني كاف لحث المؤمنين إلى المبادرة إلى امتثاله.

وذلك فضلا عن أن الإحسان إليه هو من مكارم الأخلاق التي بعث الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ليتممها .

وقد كانت العرب في الجاهلية تتخلق بذلك وتعدُّه من شيمها العظيمه،حتى أن أحدهم يقول : "والله لايؤذَى كلبُ جاري"(٢) ودل على ذلك استعمال المادة أعنى مادة المجاورة في القرآن الكريم، فإنها لم تأت إلا بما يفيد الإحسان والمناصرة والمؤازرة في رفع الشر وجلب الخير كما علمت من المعاني اللغويه التي أتت بها هذه الكلمه.

ففي معنى الإجارة وهي التأمين من الحقوق يقول الله تعالى : ﴿ وإن أحدٌ من المشركين استجارَك فأجِره حتى يسمعَ كلامَ اللهِ ثم أَبلِغه مأْمنه ﴾[سورة التوبة:٦] وفي معنى المناصرة يقول الله تعالى على لسان إبليس لعنه الله تعالى في قصة يوم بدر: ﴿ وقال لا غالبَ لكم اليومَ من النَّاسِ وإنِّي جارٌ لكم...﴾[سورة الأنفال:٤٨] أي: ناصركم في محاربتكم النبي صلى الله عليه وسلم، غير أنه سرعان ما تخلّى عنهم لما علم أنه سيحيق بهم العذاب الأليم،فما لبث أن فرَّ وخذلهم كما قص الله عنه بقوله : ﴿ فلما تراءتِ الفِئتان نكصَ على عقبيهِ وقال إنِّي بريءٌ منكم إنِّي أرى مالاترَون إنِّي أخافُ اللهَ والله شديد العقاب﴾[سورة الأنفال:٤٨] .

---

(١) جامع أحكام القرآن ٥/١٨٣-١٨٤ .

(٢) انظر مكارم الأخلاق للطبراني ص ٣٣١ .

أما معنى الحليف الذى من شأنه النصرة والتأييد ودفع السوء وجلب النفع فيفيده قول الله تعالى : ﴿قل من بيده ملكوتُ كلِّ شيء وهو يُجير ولا يُجار عليه إن كنتم تعلمون﴾[سورة المؤمنون:٨٨] وقوله تعالى : ﴿قل أرأيتُم إن أهلكنيَ الله ومن مَعِيَ أو رَحِمنا فمن يُجيرُ الكافرينَ من عذابٍ أليم﴾[سورة الملك:٢٨] والاستفهام هنا معناه النفي أي: لا أحد يجيرهم من عذابه سبحانه وتعالى.

أما المعنى الذى نحن بصدده وهو المجاور فى السكن فقد ورد فى قوله تعالى : ﴿لئِن لم ينتِه المنافقون والَّذين فى قُلوبهم مرضٌ والمرجِفون فى المدينةِ لنُغرينَّك بهم ثم لا يُجاورونك فيها إلَّا قليلا﴾[سورة الأحزاب:٦٠] والآية تتحدث عمن أخل بحق الجوار مع النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وأولئك هم المنافقون، وقد أثبت الله تعالى لهم الجوار لنبيه صلى الله عليه وسلم وكان عليهم أن يراعوا حق الجوار إن لم يراعوا حق الإيمان، فيكونون معه فى السراء والضراء، غير انهم جبلوا على النفاق، وأظهروا فى غزوة الأحزاب ما تكِنهُ أفئدتهم من الحقد الدفين والعداوة المبيَّتة للمؤمنين، فأرجفوا فى المدينة بإشاعة الكذب والباطل بين الناس للاغتمام به، وقد تحقق لهم ذلك بحيث أصبح حال المؤمنين ما قصه الله تعالى فى صدر سورة الأحزاب من زيغ الأبصار وبلوغ القلوب الحناجر.

وما كان أجدرهم حينئذ بما حكم الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ملعونين أينما ثُقِفوا أُخِذوا وقُتِّلوا تَقتيلا * سُنَّة الله فى الَّذين خَلَوا من قبلُ ولن تجدَ لسُنَّةِ الله تَبديلا﴾[سورة الأحزاب:٦١،٦٢] غير أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينفذ فيهم ذلك، لأنهم انتهوا عن الإرجاف كما يقوله بعض أهل التفسير، قال فى التحرير والتنوير (١): "وبهذا الوعيد انكفَّ المنافقون عن أذاة المسلمين وعن الإرجاف، فلم يقع التقتيل فيهم إذ لم يُحفظ أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل منهم أحدا، ولا أنهم خرج منهم أحد".

وقال القرطبى:"وفى الآية دليل على جواز ترك إنفاذ الوعيد، والدليل على ذلك بقاء

---

(١) ٢٢/١١٠.

المنافقين معه عليه الصلاة والسلام حتى مات، قال: والمعروف من أهل الفضل إتمام وعدهم وتأخير وعيدهم"(١) غير أن التأريخ قد سجل عليهم أنهم جيران سوء، لابورك بأمثالهم، فإنهم كانوا أشد على المسلمين وأضر عليهم من أعدائهم الخارجيين، لأنهم كانوا جيرانا لهم فكانوا أدرى الناس بعوراتهم وأحوالهم كما هو شأن الجيران، فلذلك كان جزاؤهم شديدا وصارما لو أنه نفذ فيهم، لكونهم لم يراعوا حقوق الجوار التى تقتضيها الأعراف وأكدتها الشريعة، وذلك شأن كل من يفرط فى هذه الحقوق كما قال تعالى:﴿سُنَّةُ الله فى الذين خَلَوا من قبلُ ولن تجدَ لسُنّةِ الله تبديلا﴾.

غير أن ذا الخلق العظيم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، حلم عنهم وصبر على أذاهم، ولم يشأ إنفاذ العقوبة الصارمة عليهم خشية أن يتحدث الناس أنه يقتل أصحابه، وليسوا بأصحاب له ولا كرامة، ولكن من يُفهم عامة الناس ورعاعهم، وهم يرون المنافقين مجاورين فى المدينة، ويدخلون ويخرجون على النبي صلى الله عليه وسلم، فلا يظنونهم إلا من صحبه وجنده، ولأنه صلى الله عليه وسلم لما كان هذا العقاب موكولا إلى اختياره لم ينفذه؛ لأنه ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما كما هو منهجه، وكما مضى ذكره. فصلوات ربى وسلامه على سيدنا محمد الرؤوف الرحيم، وصاحب الخلق العظيم.

---

(١) جامع أحكام القرآن ١٤/٢٤٨ .

تمثل خلق الإحسان
للجيران فى النبي صلى الله عليه وسلم

ذلك مجمل حديث القرآن الكريم عن الجيران وما لهم وما عليهم .

أما حاله صلى الله عليه وسلم مع جيرانه فقد كان على النحو الذى يريده الله تعالى من عباده، وتقتضيه الأعراف الفاضله كما تدل على ذلك الأحاديث الواردة عنه صلى الله عليه وسلم فى الوصاية بالجيران :

١ ـ فعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورِّثه"(١) أى من كثرة تكرار وصيته بهم، ووصية جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم إنما هى وصية لأمته التى تحتاج إلى مثل ذلك الحث؛ لأن حث التابع حث للمتبوع من باب أولى، ما لم يكن خاصا بالتابع بدليل يوضح ذلك .

أما ذاته صلى الله عليه وسلم فقد كان أوفى الناس معروفا وإحسانا بجيرانه، وكيف لا وهو القائل فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه : "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت"(٢) .

فإنه صلى الله عليه وسلم يندب إلى البرهنة على الإيمان بالله ورسوله بالإحسان إلى الجار وإكرام الضيف وقول الخير أو الصمت، ولا ريب أنه صلى الله عليه وسلم قد برهن على ذلك بنفسه أولا كما هى شيمته وأخلاقه، فى المبادرة إلى كل ما هو خير يدعو إليه بقوله، حيث كان يندب إلى ذلك بفعله، ليكون فعله مصدر تأس، كما يكون قوله مؤكدا لفعله وداعيا إلى الامتثال به، وكما ندب فى هذا الحديث إلى البرهنة على

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب الوصاة بالجار ١٢/٨، ومسلم في البر والصلة، باب الوصية بالجار برقم ٢٦٢٤، وأبو داود في الأدب، باب في حق الجوار برقم ٥١٥١ .

(٢) متفق عليه وتقدم ذكره في الضيافة ص٨٢٠.

الإيمان بالإحسان إلى الجيران وغيره ، فقد نـدب فـى حديـث آخـر إلى البرهنـة عليـه بكف الأذى عنه حيث قال فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه :

٣ ـ "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومـن كـان يؤمـن بـالله واليـوم الآخر فليُكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقُل خيرا أو ليسكت"(١).

وذلك لأن مجرد الإحسان لا يكفي إذا ما كدره الأذى؛لأن الإحسان مع الأذى يذهبـه سـدى كمـا يستفاد مـن قولـه تعـالى : ﴿ولا تُبطلـوا صدقـاتِكم بـالمنِّ والأذى﴾[سـورة البقرة:٢٦٤] ولذلك أقسم عليه الصلاة والسلام ثلاثا على نفي الإيمان عمن لا يكـف أذيتـه عن جاره .

٤ ـ فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسـول الله صلـى الله عليـه وسـلم قـال : "والله لا يؤُمن، والله لا يؤُمن، والله لا يؤُمن، قيل مـن يـا رسـول الله؟ قـال : الـذى لا يأمن جاره بوائقه"(٢) أى دواهيه وشروره، وهو عام فى كل جار مسلما كان أو كافرا.

فالحديث يفيد نفي الإيمان عمن يؤذي جاره، وقـد أكَّـدهُ صلـى الله عليـه وسـلم بـأبلغ المؤكدات وهو القسم، ثم لم يكتف صلى الله عليه وسـلم بقسـم واحـد بـل أقسـم ثلاثـا على نفي إيمان من ذكر مما يدل على عظم الجُرم ومبلغ الشر الذى يأتى من جـراء ذلـك، وسواء كان المراد نفي الإيمان كله أو كماله(٣) فإنه يفيـد بـأن مـن يـؤذى جـاره لم يـراع وصية الله تعالى لعباده بالجيرة؛لأنه لم يأخذ بها مأخذ الجد، وذلك دليل على عدم اكتراثـه بما يترتب على ذلك من العقاب، وهو ما لا يصدر إلا من جاحد أو جاهل.

وفى هذا الحديث من الدلالة على عظيم شعوره صلى الله عليه وسلم بحق الجار ما

---

(١) هذه إحدى روايات الحديث السابق المتفق عليه والمتقدم تخريجه ص ٢٨ .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه ١٣/٨، ومسلم في الإيمـان، بـاب إثـم إيذاء الجار برقم ٤٦ .

(٣) انظر فتح الباري ٣٣/٢٢ .

يكفي للاستدلال على حسن مجاورة النبي صلى الله عليه وسلم لجيرانه؛لأن من أعظم الإحسان إلى الجار أن يأمن جانب جاره على نفسه وماله وأهله، فيعيش في بيته آمنا، وإن غاب عنه كان مطمئنا غير خائف ولا قلق، ويعيش هادىء البال قرير العين، وتأتي كل صور الإحسان بعد هذا الأمر، وهي كلها ثابتة عنه صلى الله عليه وسلم من أقواله الشريفه الموجهة لأصحابه وأمته، حثا على ذلك وترغيبا، وكل ذلك يترجم عن أفعاله وسلوكه صلى الله عليه وسلم مع جيرانه؛لما كان عليه من المبادرة إلى ما يدعو إليه كما علمت غير مرة، ناهيك عما تدل عليه تلك الأقوال من تمثل هذا الخلق في رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن "القول بالفعل يعدل" كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه(١) .

وأقواله صلى الله عليه وسلم في الجيران وحقوقهم وآدابهم من غير ما تقدم كثيرة جدا فمن ذلك :

أ ـ حثه صلى الله عليه وسلم على الإحسان إلى الجيران بالبذل والعطاء، وأحاديثه كثيرة ومن ذلك:

١ ـ ما جاء عن أبي ذر رضي الله عنه قال : "إنَّ خليلي ـ يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أوصاني:إذا طبختَ مرقا فأكثر ماءه ثم انظر أقرب أهل بيت من

---

(١) قال ذلك في قصيدة يمتدح فيها الزبير بن العوام رضي الله عنه كان مطلعها الذي فيه هذه القافية وهو كما في ديوانه ص ١٩٨، وفي مجمع الزوائد ١٢٨/٨:

أقام على عهد النبي وهديه حواريه والقول بالفعل يعدل .

وحسان هو شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يصغي إلى شعره ويشجعه عليه فيقول له: اهج المشركين وروح القدس معك، ويدعو له فيقول: اللهم أيده بروح القدس كما هو ثابت في الصحاح والسنن، عاش حسان رضي الله عنه مائة وعشرين سنة؛ ستون في الجاهلية وستون في الإسلام، وتوفي سنة ٥٤ هـ، انظر تهذيب الأسماء ١٥٦/١، والاستيعاب بهامش الإصابة ٣٣٥/١، والإصابة ٣٢٦/١ .

جيرانك فأصبهم منها بمعروف"(١) .

٢ ـ ومنه ما جاء عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا نساء المؤمنات لا تحقِرنَّ جارة لجارتها ولو فِرْسَن شاة(٢)" أي: ظلفها.

ب ـ حثه على التساهل مع الجيران وعدم المشاحة فى الحقوق :

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يمنع أحدُكم جارَه أن يغرز خشبه فى جداره" ثم قال أبو هريرة رضى الله عنه : مالي أراكم عنها معرضين والله لأرمينَّ بها بين أكتافكم(٣)".

جـ ـ تحديده للأولى بالبذل والإحسان على غيره :

فقد سألته عائشة رضى الله عنها قائلة : "يا رسول الله إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"إلى أقربهما منك بابا"(٤) .

د ـ تعظيم حقوق الجيران كما علمت من الأحاديث السابقة، وكما روى أنس بن مالك رضى الله عنه قال :

١ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ماآمنَ بى من بات شبعانا وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم"(٥) .

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب الوصية بالجار والإحسان إليه برقم ٢٦٢٥ .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب لا تحقرن جارة لجارتها ١٢/٨، وفي الهبة في فاتحته ٢٠١/٣ ، ومسلم في الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بقليل برقم ١٠٣٠ .

والفرسن: خف البعير، وقد استعير للشاة فسمي ظلفها فرسنا؛ لأنه للشاة بمنزلة الخف للبعير ا.هـ جامع الأصول لابن الأثير ٦٤١/٦ .

(٣) البخاري في المظالم، باب لايمنع جار جاره أن يغرز خشبة في جداره، ومسلم في المساقاة، باب غرز الخشب في جدار الجار برقم ١٦٠٩ .

(٤) أخرجه البخارى فى الأدب، باب حق الجوار في أقرب الأبواب ١٣/٨ .

(٥) عزاه الهيثمي في المجمع ١٧٠/٨ إلى الطبراني والبزار قال:وإسناد البزار حسن،وعزاه إليهما أيضا المنذري =

٢ - وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ليس المؤمن الذى يشبع وجاره جائع"(١)

٣ - ومن هذا الباب ما رواه المقداد بن الأسود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : "ما تقولون فى الزنا"؟ قالوا حرام حرّمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : "لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره" قال : فقال : "ما تقولون فى السرقة"؟ قالوا حرمها الله ورسوله فهي حرام، قال:"لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره"(٢) .

٣ - ومنه أيضا ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رجل يا رسول الله إن فلانة تكثر من صلاتها وصدقتها وصيامها غير انها تؤذى جيرانها بلسانها قال : هي فى النار قال : يا رسول الله فإن فلانة يُذكر من قِلّة صيامها وصلاتها وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط(٣) ولا تؤذي جيرانها قال: هي فى الجنة"(٤) .

= في الترغيب ٣٥٨/٢ وقال: وإسناده حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ٩٦٧/٢ برقم ٥٥٠٥ .

(١) عزاه المنذري أيضا إلى الطبراني وأبي يعلى قال: ورواته ثقات ا.هـ الترغيب ٣٥٨/٢، وفعل كذلك الهيثمي في المجمع ١٧٠/٨ وقال نحوه .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٨/٦ قال المنذري في الترغيب ٣٥٢/٢: رواته ثقات وعزاه إلى الطبراني في الكبير والأوسط وقال نحوه الهيثمي في المجمع ١٧١/٨ .

(٣) الأثوار: جمع ثور وهي قطعة من الأقط، والأقط: بفتح الهمزة وكسر القاف: هو شيء يتخذ من مخيض اللبن الغنمي، قاله المنذري في الترغيب ٣٥٦/٢ .

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٤٤٠/٢، وعزاه المنذري في الترغيب ٣٥٦/٢ إليه وإلى البزار وابن حبان في صحيحه وقال: صحيح الإسناد،

قال: ورواه أبو بكر بن أبي شيبة بإسناد صحيح إيضا ثم ذكر لفظه عنده بأخصر مما ذكر هنا .

والأحاديث هنا كثيرة، وفيما ذكر كفاية، وهي تعبر عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم مع جيرانه؛ لأنه أول من يبادر إلى ما دعى إليه وحث عليه، وهى تعطي صورة واضحة عما يجب أن يكون عليه المجتمع الإسلامي من صفاء المودة وحسن الإخاء والإيمان، والجور السُّكَّاني ، وإن كان مع غير المسلمين فإن الجار له حق وإن كان كافرا كما دل عليه قوله تعالى:﴿ والصَّاحبِ بالجَنْب ﴾ [النساء:٣٦]

وقد ذكروا أن الجيران ثلاثه: جار مسلم ذو قربة فله ثلاثة حقوق : حق الجوار وحق القرابه وحق الإسلام ، وجار مسلم غير قريب فله حقان:حق الجوار وحق الإسلام، وجار غير قريب ولامسلم فله حق الجوار (١) ، وكلهم شملهم وصية الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم بالجيران خيرا .

---

(١) انظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ٣/١٨٤ وأصل هذا القول حديث ضعيف .

المطلب الثالث

(الإحسان إلى الأيتام والأرامل)

اليُتم بالضم لغة : الانفراد يقال : دُرَّة يتيمة،تنبيها على أنه انقطعت مادتها التى خرجت منها ، وقيل بيت يتيم تشبيها بالدُّرة اليتيمة (١) .

قال فى القاموس (٢): اليتيم الفرد، وكل شيء يعز نظيره، وقد يَتِم كضرب وعلم يُتما ويُفتح وهو يتيم ويتمان ما لم يبلغ الحلم ، وجمعه: أيتام ويتامى وَيَتَمَه وَمَيْتمه ...

وفى الاصطلاح : هو انقطاع الصبي عن أبيه قبل بلوغه، وفى سائر الحيونات من قبل أمه، وسمى بذلك لأنه بقي منفردا لايجد من يدفع عنه وينفق عليه (٣).

أما الأرامل فجمع أرمل وهو: من افتقر وفني زاده (٤) وهو يقع على الذكور والنساء، يقال: رجل أرمل وامرءة أرملة، ولا يقال لهما ذلك إلا مع الحاجة، والغالب أنه لايقال ذلك إلا للنساء(٥) .

وفى الاصطلاح هى: المرأة التى لازوج لها، وسميت بذلك لافتقارها إلى من ينفق عليها، قال الأزهرى(٦): لايقال لها أَرملة إلا إذا كانت فقيرة فإن كانت موسِرة فليست بأرملة (٧).

---

(١) القاموس المحيط ١٩٣/٤، والمفردات ٥٠٠ .

(٢) ١٩٣/٤ .

(٣) المفردات ص ٥٠٠، والتحرير والتنوير ٢١٩/٤ .

(٤) أساس البلاغة للزمخشري ص ١٧٩ .

(٥) تاج العروس ٣٥١/٧ .

(٦) هو محمد بن أحمد الأزهرىالهروي أحد الأئمة في اللغة والأدب، رحل في طلب العربية حتى تبحر فيها، وألف مؤلفات نافعة منها كتابه العظيم تهذيب اللغة توفي سنة ٣٧٠ هـ، انظر بغية الوعاة للسيوطي ص٨، الأعلام للزركلي٣١١/٥ وغيرهما .

(٧) المصباح المنير ٢٥٧/١ .

عناية القرآن الكريم بالإحسان إلى اليتامى والأرامل :

والأيتام والأرامل من الضَّعفة الذين عُني القرآن الكريم بالوصاية فى الإحسان إليهم كثيرا، أما الأيتام فكانت وصيته بهم صراحة فى آيات كثيره، وأما الأرامل فهم فى ضمن ضَعَفة المسلمين ومساكينهم الذين وصَّى الله بهم خيرا فى محكم آياته.

عنايته بالأيتام :

أما عناية القرآن الكريم بالأيتام فهى كبيرة جدا،فقد تحدثت آياته عما يكون به صلاح حالهم ومآلهم من حثه سبحانه وتعالى على تنمية أموالهم وأمره بدفعها إليهم عند الرُّشد، ومن تحذيره وزجره عن أكل أموالهم، ومن حثه على الإحسان إليهم، وثنائه سبحانه على من يكرمهم، وذمه من لا يحسن إليهم، ثم فرض الله تعالى لهم ما يغنيهم لو أن الجهاد مع الكفار قائم...، وذلك كله فى أكثر من عشرين آية من محكم آياته الكريمة بما يطول ذكره لو أن المقام يستدعى الإطاله، وحيث إنه لا مجال لذلك فنكتفى بالإشارة الوافية إلى ما ذكر إن شاء الله تعالى.

ومن أبرز مظاهر عنايته سبحانه وتعالى بالأيتام ما قصه علينا بقوله جل شأنه : ﴿وأمَّا الجِدارُ فكان لغلامين يَتيمينِ فى المدينةِ وكان تحتَه كنزٌ لهما وكان أبوهما صالحًا فأراد ربُّك أن يبلغا أشُدَّهما ويَستخرجا كنزَهما رحمةً من ربِّك وما فعلتُه عن أمري ذلك تأويلُ ما لم تَسطِع عليه صبرا﴾[سورة الكهف:٨٢] ، فإن الله تعالى قد راعى حق هذين اليتمين بحفظه كنزهما الذى أودعه أبوهما الجدار حتى اهتديا إليه، وقد ذكر المفسرون أن سبب حفظ كنزهما هو صلاح أبيهما، غير أن سبب حصول هذه الكرامة للأب هو يتم غلاميه، (فأراد الله تعالى اللطف باليتيمين جزاء لأبيهما على صلاحه، إذ علم الله أن أباهما كان يهمه أمر عيشهما بعده،وكان قد أودع تحت الجدار الكنز المذكور، فحفظته العناية الإلهية عن أن تصل إليه الأيادى الأخرى حتى وصلا إليه)(١) .

فهذا المثال الحي دليل واضح وجلي على مبلغ عناية الله تعالى بالأيتام ولذلك كان

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١٤/١٦ .

كتابه الكريم مفعما بالحديث عنهم فى تلك القضايا التى سردتها وهى :

١ـ العمل بما فيه صلاح أموالهم :

فلقد كلف الله تعالى من بيدهم أمر الأيتام من أوصياء وأولياء ما يكفل به إن شاء الله صلاح أحوال الأيتام فى أموالهم الذى به قوام حياتهم، والذى تسهل على ذوى النفوس المريضه بالجشع والطمع أخذه وأكله، حيث نهاهم عن التفريط فى أموالهم إلا بالتى هى أحسن كما قال سبحانه : ﴿ولا تَقربُوا مالَ اليتيمِ إلا بالَّتى هى أحسنُ حتَّى يبلغَ أشُدَّه﴾[سورة الأنعام:١٥٢،والإسراء:٣٤] فنهاهم عن القربان منه وهو كناية عن ملابسته ليكون أبلغ فى التحذير من النهى عن ملابسة الأكل، لأن القُرب من الشيء مظِنَّةُ الوقوع فيه(١) إلا أن يكون بالفِعلة التى هى أحسن ما يفعل بماله كحفظه وتثميره(٢) إلى أن يبلغ أشده وهو رشده دينا ودنيا(٣)، وذلك بأن يحصل له قوة البدن بالبلوغ وقوة المعرفة وهو إيناس الرشد، ويعرف ذلك بانتظام تصرف العقل وصدور الأفعال عن ذلك بانتظام(٤).

قال القرطبي (٥) رحمه الله تعالى : "وخُصَّ اليتيم بهذا الشرط لغفلة الناس عنه وافتقاد

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٣/٨ـ١٥٩ .

(٢) روح المعاني ٥٥/٨/٣ .

(٣) قال الخطيب الشربيني في تفسيره المسمى بالسراج المنير ٢٨٢/١: الرشد: هو صلاح الدين والمال، أما صلاح الدين فلا يرتكب محرما يسقط العدالة من كبيرة أو إصرار على صغيرة، قال: ويعتبر في رشد الكافر دينه، وأما صلاح المال، فبأن لا يضيعه بإلقائه في بحر أو بصرفه في محرم أو باحتمال الغبن الفاحش في المعاملة ونحوها، قال: وليس صرفه في الخير بتبذير ولا صرفه في الثياب والأطعمة النفيسة وشراء الجوار والاستمتاع بهن؛ لأن المال يتخذ لينتفع به، نعم إن صرفه بذلك بطريق الاقتراض حرم عليه.ا.هـ

(٤) التحرير والتنوير ٢٤٢/٤ .

(٥) في تفسيره؛جامع أحكام القرآن ١٣٥/٧ .

الآباء لأبنائهم فكان الاهتبال(١) بفقيد الأب أولى - أي العناية - قال : وليس بلوغ الأشد مما يبيح قرب ماله بغير الأحسن؛لأن الحرمة فى حق البالغ ثابتة، قال : وخص اليتيم بالذكر لأن خصمه الله تعالى والمعنى : ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن على الأبد حتى يبلغ أشده.

فانظر إلى هذا التحذير البالغ الذى وجهه الله تعالى لمتولى أمور اليتامى لئلا يفرطوا بأموالهم ولو بأقل أحوال الأخذ، أو بأى حيلة كما قال فى آية أخرى : ﴿ولا تأكُلوها(٢) إسرافًا وبِدارًا أن يَكبَروا﴾[سورة النساء:٦]. وذلك لأنهم لا يقدرون على الدفع عن أنفسهم فتولى الله تعالى الدفاع عنهم، وإصلاح أحوالهم، بمثل هذا التشريع العظيم.

٢ - تحذيره سبحانه وتعالى من أكل أموال اليتامى أو التفريط فيه :

وقد أوضح الله تعالى خطر من يفرط فى هذا النهى ببيانه سبحانه جزاءهم الأليم حيث قال سبحانه وتعالى : ﴿إن الَّذين يَأكُلون أموالَ اليتامى ظُلماً إنَّما يَأكُلونَ فى بُطونهم ناراً وسَيصلون سعيراً﴾[سورة النساء:١٠] فإن هذا الوعيد تكاد تنخلع منه الأفئدة اليقظه التى تتذكر وتعتبر؛ لهول العذاب المترتب على ذلك، والتشنيع الفظيع الذى دل عليه التعبير بالبطون،إذ اختصاصها بالذكر يدل على اتصافهم بضد مكارم الأخلاق من الهلع والجشع(٣) .

ولذلك لما كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم بهذه المثابة من اليقظة والإحساس، فرِقوا من هوله وعظمته وتحرَّجوا عن مخالطة يتاماهم، فاضطُرُّوا إلى أن يعزل أحدهم طعامه عن طعامه وشرابه عن شرابه، بحيث لحق بالأيتام الضرر الَّذى لم يرده الشرع، وما يعد من جنس ما نهاهم عنه فى النتيجة.

---

(١) الاهتبال: اغتنام الفرصة وابتغاؤها وتكسبها، والمعنى هنا الاشتغال بشأن اليتيم انظر الصحاح للجوهري ١٨٤٧/٥ .

(٢) أي: أموال اليتامى .

(٣) انظر محاسن التأويل ١٥/٥، وجامع أحكام القرآن ٥٣/٥ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : "لما أنزل الله تعالى : ﴿ولا تَقربوا مالَ اليتيمِ إلاَّ بالتي هي أَحسنُ﴾[الأنعام:١٥٢] وقوله تعالى : ﴿ إنَّ الذين يأكلُون أموالَ اليتامى ظُلماً﴾[النساء:١٠] الآية قال : فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه،فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : ﴿ويسألونَك عن اليتامَى قل إصلاحٌ لهم خيرٌ وإن تُخالطوهم فإخوانُكم والله يعلم المفسدَ من المصلح ولو شاءَ الله لأعنتَكم إنَّ الله عزيزٌ حكيم﴾[سورة البقرة:٢٢٠] قال: فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم"(١) .

قال الفخر الرازي :"اعلم أنه تعالى أكد الوعيد فى أكل مال اليتيم ظلما وقد كثر الوعيد فى هذه الآيات ـ يعني سورة النساء ـ مرة بعد أخرى على من يفعل ذلك،كقوله تعالى :﴿ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا﴾[سورة النساء:٢] وقوله: ﴿وليَخشَ الَّذين لو تركوا من خَلفهم ذرِّيَّةً ضِعافا خافوا عليهم فليتَّقوا الله وليقُولوا قولًا سديدا﴾[سورة النساء:٩] ثم أكد بعد هذه الآية ـ يعني:﴿إن الذين يأكُلون أموالَ اليتاما ظُلما ...﴾ ـ آية مفردة فى وعيد من يأكل أموالهم قال: وذلك كله رحمة من الله تعالى باليتامى وذلك لكمال ضعفهم وعجزهمفاستحقوا من الله تعالى مزيد العناية والكرامة ، قال: وما أشد دلالة هذا الوعيد على سعة رحمته وكثرة عفوه وفضله؛ لأن اليتامى لما بلغوا فى الضعف إلى الغاية القصوى بلغت عناية الله تعالى

---

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا، باب مخالطة اليتيم في الطعام برقم ٢٨٧١ ، والنسائي في الوصايا، باب مالوصي من مال اليتيم ٢٥٦/٦، وفي إسناده عطاء بن السائب وهو ممن اختلط بآخره، والراوي عنه في سند أبي داود جرير، وعند النسائي أبو كدينة يحيى بن المهلب في رواية، وعمران بن عيينة في رواية أخرى، وهم جميعا ممن رووا عنه بعد الاختلاط كما يستفاد من ترجمة عطاء حيث لم يستثن ممن رووا عن عطاء غير أربعة ليس هؤلاء منهم، فالحديث ضعيف لذلك، غير أن بعضهم قد تابع بعضا، فحصل الأنس بعدم الاختلاط في هذه الرواية، ويستطاع أن يقال عندئذ: إن الحديث حسن لغيره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

إلى الغاية القصوى "(١).

٣ ـ نهيه سبحانه عن دفع الأموال إلى الأيتام قبل بلوغهم من الرُّشد:

وقد كان من عناية الله تعالى القصوى بالأيتام أنه لم يمكِّنهم من أخذ أموالهم فى حين يتمهم خشية تفريطهم فيه وإضاعتهم له، وإنما أمر الأولياء والأوصياء أن لا يدفعوا إليهم أموالهم إلا إذا أنسوا من رشدهم فقال تعالى :﴿وابتلُوا اليَتامَى حتَّى إذا بَلغُوا النِّكاحَ فإن آنستُم منهم رُشدًا فادفعوا إليهم أموالَهم . .﴾[سورة النساء:٦] .

ولم يرد المولى جل ذكره من الأولياء مجرد الدفع، بل أراد أن يكون الدفع مبرهنا عليه بالشهادة التى تثبت بها الحقوق وتبرأ بها الذمم، وذلك للدلالة على خطر هذا الأمر وكمال العناية به فقال سبحانه:﴿فإذا دَفعتُم إليهم أموالَهم فأشهِدُوا عليهم وكفى بالله حسيبا﴾[سورة النساء:٦] .

٤ ـ حثه سبحانه ذوى الحقوق فى التركات على الإحسان إلى الأيتام الذين لا ميراث لهم معهم:

كما كان من عنايته باليتامى أن حث ذوي الحقوق عند قسمة التركات أن يرزقوا اليتامى وأولى القربى والمساكين مما ينالون ولا يستأثرون به دونهم، لما فى ذلك من مكارم الأخلاق فى إعطائهم ما تيسر من المال المقسوم، إذْ ترك ذلك يولد فى نفوسهم حسرة وأسى لقرابتهم من الميت أو حاجتهم إلى المال ، ودفع شيء إليهم يحصل به الود والتراحم ، وهو من حسن العشرة مع الأقارب والأيتام والمساكين، وقد جاء ذلك فى قوله تعالى:﴿وإذا حضر القسمةَ أولُوا القُربَى واليَتامى والمساكينُ فارزقوهم منه وقولُوا لهم قولاً معروفا﴾[سورة النساء:٨] .

٥ ـ أمره بالإقساط إلى اليتامى النساء عند إرادة الزواج بهن :

كما كان من عنايته بالأيتام ما وصَّى به أولياء يتامى النساء أن يقسطوا فى يتاماهم اللائى فى حجورهم إذا رغبوا فى نكاحهن لمالهن أو جمالهن، ولكن لا يريدون أن

---

(١) التفسير الكبير ٩/٢٠٠ .

يقسطوا لهن فى المهر، فوصاهم إن هم رغبوا فى ذلك أن يبلغو بهن أعلى سُنَّتهن فى الصداق، وذلك فى قوله تعالى : ﴿وإن خِفتُم ألاَّ تُقسِطوا فى اليَتامى فانكحوا ما طاب لكم من النِّساء مَثنى وثُلاث ورُباع، فإن خِفتُم ألاَّ تعدِلوا فواحدةً أو ما ملكت أيمانُكم ذلك أَدنى ألاَّ تَعُولوا﴾[سورة النساء:٣] كما دل على ذلك ما قالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لابن أختها عروة بن الزبير حينما سألها عن هذه الآية فقالت :«يابن أختي هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى ماله ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنُهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن ويبلغوا بهن أعلى سُنَّتهن فى الصَّداق، فأُمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن»(١) يعني إذا خاف أن لا يعطيها مهر مثلها فعليه أن يعدل إلى ما سواها من النساء فإنهن كثير و لم يضيق الله تعالى عليه.

وهذا مظهر عظيم من مظاهر عناية الله تعالى بيتامى النساء،اللاتى لم يكن لهن نصيب من العدل والقسط فى الجاهلية،حيث كان لا يرث إلا الرجل الذى قد بلغ أن يقوم فى المال ويعمل فيه، ولا يرث الصغير ولا المرأة شيئا، فلما نزلت آية المواريث فى سورة النساء شق ذلك على الناس، وقالوا : أيرث الصغير الذى لا يقوم فى المال والمرأة التى هي كذلك فيرثان كما يرث الرجل(٢)، كما نعى الله تعالى عليهم ذلك بقوله : ﴿ويَستَفتُونَك فى النِّساء قلِ اللهُ يُفتيكم فيهنَّ وما يُتلَى عليكم فى الكِتابِ فى يَتامى النِّساء اللَّاتي لا تُؤتُونهنَّ ما كُتبَ لهنَّ وتَرغبونَ أن تَنكِحوهُنَّ والمُستضعفينَ من الوِلدانِ وأَن تَقوموا لِليتامى بالقِسط وماتَفعلُوا من خيرٍ فإنَّ الله كان به عليما﴾[سورة النساء:١٢٧].

٦ ـ حثه على الإحسان إلى الأيتام بكل ما تعنيه كلمة الإحسان من شمول :

كما أن من مظاهر عناية القرآن الكريم بالأيتام حثه المتكرر على الإحسان إليهم فى

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة النساء ٥٣/٦، وفي الوصايا ١١/٤، وأبواب أخر، ومسلم في التفسير برقم ٣٠١٨ .

(٢) روح المعاني ١٦١/٥/٢ .

كل مايعنيه الإحسان من شمول وعموم مما يصلح به أحوالهم الدينيه والدنيوية، وذلك كما فى قوله سبحانه ": ﴿وإذْ أخذنا ميثاقَ بني إسرائيلَ لا تَعبدونَ إلاَّ الله وبالوالدينِ إحسانا وذى القُربى واليَتامى والمساكينِ وقولوا للناس حُسنا وأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكـاة﴾[سورة البقرة:٨٣] وقوله سبحانه : ﴿واعبُدوا الله ولا تُشركوا به شيئًا وبـالوالدين إحسـانًا وبـذي القربى واليتامى...﴾[سورة النساء:٣٦] .

ومن الإحسان إليهم حثه تعالى عباده على الإنفاق عليهم وإطعامهم كما جاء فى قولـه تعالى : ﴿ويسألونَك ماذا يُنفِقون قل مـا أنفقتُـم مـن خـيرٍ فللوالديـن والأقربـينَ واليتـامى والمساكينِ وابنِ السبيل وماتَفعلوا مـن خـيرٍ فـإنَّ الله بـه عليـم﴾[سورة البقـرة:٢١٥] وقولـه تعالى: ﴿أو إطعـامٌ فـى يـومٍ ذى مَسـغبة * يتيمًـا ذا مَقربـة * أو مسـكينا ذا مَتربـة﴾[سورة البلد :١٤-١٦] حيث قرن الإنفاق عليهم فى الآية الأولى بالإنفاق على الوالديـن والأقربـين الذى هو أفضل البر، وفى الآية الثانية جعله من وسائل اقتحـام العقبـة الـذى فخَّـم أمرهـا وأعلا شأنها، ثم فسرها بفك الرقبة وإطعام اليتيم، مما يدل على أن إطعام اليتيـم كإعتـاق العبيد من الرق فى الأجر والثواب عند الله تعالى .

فهذه العناية الكبرى من المولى جل جلاله بالأيتام تدل على عظيم أمر الأيتـام عنـد الله تعالى، لأنهم ضعاف لا يملكـون لأنفسـهم حـولا ولا قـوة،فكـانت نصـرة الله تعـالى لهـم وعنايته بهم جابرة لضعفهم بين أبناء جنسهم، بحيث أصبحوا يأوون إلى ركن شديد، وفى الحديث : "اشتد غضب الله على من يظلم من لا يجد ناصرا غير الله"(١) .

٧ ـ ثناؤه سبحانه على من يحسن إلى الأيتام :

وقد دل على عظيم أمر الأيتام وكمال العناية بهم أيضا ثناؤه سبحانه وتعالى على من

---

(١) عزاه السيوطي في الجامع الصغير ص ٤١ إلى مسند الفردوس مـن حديـث علـي رضـي الله عنـه ورمـز لـه بالضعف، يعني لأن في إسناده الحارث الأعور، وهو الـذي كذبـه الشـعبي في رأيـه ورمـي بـالرفض، قـال الحافظ في التقريب رقم ١٠٢٩: وفي حديثه ضعف، وفيه أيضا مسعر الهندي، وقال الذهبي: فيه لا أعرفـه ، الميزان ٩٩/٤، وانظر فيض القدير للمناوي ٥١٦/١، والسلسلة الضعيفة للألباني رقم ٩٦١ .

يعتنى بأمرهم ويحسن إليهم،ومن ذلك:شهادة الله تعالى لهم بأنهم من أهل البر، حيث قال سبحانه : ﴿...ولكنَّ البرَّ من آمنَ بالله واليومِ الآخِرِ والملائكةِ والكتابِ والنَّبيين وآتى المالَ على حُبِّه ذَوي القُربى واليتامَى والمساكينَ...﴾[سورة البقره:١٧٧].

وقد أثابهم الله تعالى بما ذكره فى معرض المدح والثناء ﴿إنَّ الأبرارَ يَشربون من كأسٍ كان مِزاجُها كافورا * عيناً يَشربُ بها عبادُ اللهِ يُفجِّرونها تَفجيرا * يُوفونَ بالنَّذر ويَخافون يوما كان شرُّه مُستطيرا * ويُطعمونَ الطَّعامَ على حُبِّه مسكيناً ويتيماً وأسيرا...﴾[سورة الأنسان:٥-٨].

٨ ـ ذم القرآن الكريم لمن يسيء إلى الأيتام و لم يكرمهم :

أما من لم يكرمهم و لم يبادر إلى الإحسان إليهم فإنهم قد نالوا ذم القرآن الكريم حيث سجَّل عليهم مواقفهم مع أيتامهم التى هي مواقف خزي وعار عليهم إلى يوم القيامه، ليتجدد لهم الذم على كل الألسن فى مختلف العصور، وذلك كقوله سبحانه : ﴿وأمَّا إذا ما ابتلاه فقدر عليه رِزقَه فيقول ربِّى أهانن * كلاَّ بل لا تُكرِمونَ اليتيم * ولا تَحاضُّون على طعامِ المسكين﴾[سورة الفجر:١٦-١٨] حيث بيَّن الله تعالى لهم أن الغِنى والفقر ليس دليلا على الإكرام والإهانة، وإنما هما بالطاعة والمعصية،فهم مهانون لكفرهم، ثم ترقى حالهم فى الإهانة من سيء إلى أسوء،حيث أضرب عن مقولتهم الأولى البالغه فى الذم ليخبر عن حالٍ لهم أسوء منه فقال: ﴿بل لا تكرمون اليتيم﴾(١) ومثل هذا الذم لمن لا يكرم اليتيم بل أشد منه، ما جاء فى سورة الماعون حيث قال الله تعالى : ﴿أرأيتَ الَّذى يُكذِّبُ بالدين * فذلك الذى يدُعُّ اليتيمَ * ولا يَحُضُّ على طعامِ المسكين﴾[:١-٣] حيث جعل ذلك منهم دلالةً توضح عدم إيمانهم بالله واليوم الآخر، إذ لو كانوا يؤمنون بذلك لتقرَّبوا إلى الله تعالى بإكرامهم، رغبةً فى إثابته تعالى بالجنة، وهذا الذم على من يكرم اليتيم لم يرد إلا للكافرين مما يدل على أن المؤمن من شأنه إكرام اليتيم وأن الكافر بالعكس.

---

(١) انظر حاشية الجمل ٥٣٣/٤ على الجلالين .

فحري بالمؤمن أن يحافظ على أخلاق الإيمان التى ينتهجها إخوانه المؤمنون، وأن لا يتحلى بأخلاق الكافرين فيحل به ما أعد الله لهم من العذاب الأليم فى الآخرة،فضلا عن المجازاة فى الدنيا، فإن من يسىء إلى اليتيم يوشك أن يعاقبه الله تعالى فى الدنيا بيتم أولاده فيلقون مثل عمل أبيهم بغيرهم كما دل على ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿وليَخشَ الَّذين لو تركوا من خَلفِهم ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافوا عليهم فليَتَّقوا اللهَ ولْيقولُوا قولاً سديدا﴾[سورة النساء:٩] والآية :« تأمر الأوصياء والأولياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه فى أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذراريهم الضعاف بعد وفاتهم(١)" .

فانظر إلى هذه العناية العظيمه التى حظي بها الأيتام فى كتاب الله تعالى وهي كفيلة بأن يحيى الأيتام فى ظلها حياة سعيدة تجبر كسرهم بفقد آبائهم سواء كانوا ذوي أموال أم فقراء.

٩ - ومع هذا فإن الله تعالى قد أوجب لهم من الغنيمة والفيء ما يعيشون به سعداء مكفيي المؤن، فقد افترض لهم من خمس الخمس مايكفيهم، وجعلهم أحد مصارف الفيء، وأنزل فى ذلك قرآنا يتلى ويطبق عند وجود الجهادوهو قوله تعالى : ﴿واعلَموا أنَّما غنِمتُم من شيءٍ فأنَّ لله خُمُسَه وللرَّسول ولِذى القُربى واليتامى والمساكينِ وابنِ السبيل﴾[سورة الأنفال:٤١] وقوله : ﴿ما أفاءَ اللهُ على رسولِه من أهل القُرى فلِلَّه وللرَّسول ولِذى القربى واليتامى والمساكينِ وابنِ السبيل...﴾[سورة الحشر:٧] فلو أن الجهاد قائم تحت راية الاسلام لكان هؤلاء الأصناف يعيشون فى بحبوحة العيش الهنيء، الذى يتلاءم مع وصية الله تعالى بهم، ولكن حيث إنه قد تخلى عنه المسلمون - ولا حول ولا قوة إلا بالله - فإن عليهم إيجاد الحياة السعيدة لهؤلاء الضعفاء، الحياة الكريمة التى بالغ الله فى الحث عليها،كما دلت على ذلك التوجيهات السابقة الحاثه على الإحسان إليهم والإنصاف لهم. والله تعالى ولي الهداية والتوفيق وهو الهادى إلى سواء السبيل.

---

(١) أنوارالتنزيل وأسرار التأويل ص ١٠٤، وجامع أحكام القرآن ٥/٥١ .

تمثل خلق الإحسان
إلى اليتامى والأرامل فى النبي صلى الله عليه وسلم

تلك هي العنايه الإلهيه العظيمة بالأيتام وضعاف المسلمين من أرامل وغيرهن، وقد كان لها من عظيم الأثر في فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم وقلبه ما لم يكن مثله في أحد من البشر .

لا جرم فقد أنزل الله تعالى على نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم وحيا مباشرا يحثه على مثل ما أراه سبحانه من سائر الأمة حيث قال له سبحانه : ﴿..ألم يجدك يتيما فآوى * ووجدك ضالا فهدى * ووجدك عائلا فأغنى * فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث﴾[سورة الضحى:٦-١١] .

وهذا من كمال العناية الألهيه فى الإرشاد والتوجيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث خصه بخطاب فى ذلك، ليكون له مزيد عناية بهؤلاء الضعفاء، على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من الرأفة الكاملة والرحمة التامة بهم وبأمثالهم من سائر الخليقه كما علمت ذلك فى موضعه .

ولقد قام المصطفى صلى الله عليه وسلم بواجبه نحوهم حق القيام، بفعله وهديه مما نعجز عن جمعه واستقصائه فى مثل هذا المبحث، وإنما نذكر بعضا من ذلك مما هو واضح الدلالة على المقصود من سلوكه ذلك بنفسه، وهديه لذلك بقوله لأمته .

عنايته صلى الله عليه وسلم بالأيتام بنفسه :

أما عنايته صلى الله عليه وسلم بنفسه، فيتمثل بأنه قد كان يضمهم إليه ويجعلهم كأبنائه ومن يعول من حاشيته :

١ ـ وذلك كما فعل بأولاد أبى سلمة عبدالله بن عبدالأسد بن هلال المخزومى رضى الله عنه الذى مات سنة ٤هـ عن أولاد صغار، وعن زوجته الكريمة أم سلمة ـ هند بنت أبى أميه بن المغيرة المخزومية ـ فيتم الأطفال وتأيمت المرأة، فقام النبي صلى الله عليه وسلم بكفالتهم جميعا كما يكفل أبناءه .

فإنه صلى الله عليه وسلم لما علم بانقضاء عدة أم سلمة رضى الله عنها أرسل إليها

يخطبها ليكفلها ويكفل أولادها،وقال لها لما أرادت أن تعتذر إليه بغيرتها وكثرة صبيانها: "..أما قولك : غَيرَى،فسأدعو الله فتذهب غَيْرَتُك، وأما قولك:إنى امرأة مُصبية فستُكفَيْنَ صبيانك.."(١) فرضيت وتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وعال أيتامها .

٢ - وكما فعل أيضا بأولاد جعفر بن أبى طالب رضي الله عنه لما استشهد أبوهم فى غزوة مُؤتَة فكان يعطف عليهم ويقول : "أنا وليُّهم فى الدنيا وفى الآخرة"(٢) .

٣ - ولما أفاء الله تعالى عليه كان يلي أمر كل مسلم يموت وله عيال ويقول : "..أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم،فمن تُوفِّي من المؤمنين فترك دَينا أو كَلاًّ أو ضَياعا(٣) فعليَّ وإليَّ، ومن ترك مالا فلورثته"(٤) .

فهكذا كان صلى الله عليه وسلم يُعنى بالأيتام بنفسه الشريفة، ليكون أسوة للأمة فى العناية بهم وجبر كسرهم وسد عوزهم، فإنها مأمورة بالتأسى به صلى الله عليه وسلم وفعله شرع لها، هي مسئولة عنه إن هي فرطت فى اتباعه فيه، لاسيما من يلي أمر الأمة من خلفائه بعده، فإن عليهم أن يفعلوا ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعله من الكفالة والإعالة للأيتام، لأنهم نُوَّابه فى رعاياهم من بعده، وذلك من مقتضيات ولاياتهم وواجبات خلافتهم ، التى ائتمنهم الله تعالى عليها .

من أقواله صلى الله عليه وسلم فى العناية بالأيتام :

ومع ما يقتضى هذا الصنيع من التأسى لعامة المسلمين وخاصتهم فإن النبي صلى الله

---

(١) أخرجه النسائي في النكاح، باب إنكاح الابن أمه ٨١/٦، قال الحافظ في الإصابة ٤٥٩/٤: إسناده صحيح .

(٢) ذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة ٢٩٨/٢ من حديث ابن جريج من طريق محمد بن أبي يعقوب عن الحسن بن سعد وهما ثقتان عن عبدالله بن جعفر وهو صحابي رضي الله عنه .

(٣) الكل والضياع: هما العيال .

(٤) أخرجه البخاري في النفقات، باب من ترك كلا أو ضياعا فإليَّ ٨٦/٧، وفي الكفالة، باب الدين ١٢٨/٣، ومسلم في الفرائض، باب من ترك مالا فلورثته برقم ١٦١٩ .

عليه وسلم قد ندبهم إلى ذلك بأحاديث قولية رغبهم فيها على كفالة الأيتام ورعايتهم والقيام بما يصلح أمور دينهم ودنياهم، وأقواله فى ذلك كثيرة منها:

١ - قوله صلى الله عليه وسلم :"أنا وكافلُ اليتيم فى الجنة هكذا" وأشار بالسبابة والوسطى وفرّج بينهما(١).

٢ - وفى رواية "كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو فى الجنة كهاتين" وأشار مالك - راوي الحديث - بالسبابة والوسطى (٢).

٣ - وجاء فى حديث آخر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أنا وامرأة سفْعاء(٣) الخدّين كهاتين يوم القيامة" وأومأ بيده - يزيد بن زريع الراوي عن عوف - الوسطى والسبابة :"امرأة آمَت(٤) زوجها ذات منصب وجمال،حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا"(٥) .

وفى هذا التصوير من الدلالة على عظيم العناية باليتيم مايستوجب المسارعة إلى ذلك

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب فضل من يعول يتيما ٨/١٠، وأبو داود في الأدب، باب فيمن ضمن يتيما برقم ٥١٥٠، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في كفالة اليتيم برقم ١٩١٨ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه .

(٢) أخرجها مسلم في الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم برقم ٢٩٨٣، ومالك في الموطأ في الشعر، باب السنة في الشعر ٢/ ٢٣٢، رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومالك عن صفوان بن سليم بلاغا .

قال الذهبي في الكبائر ص ٦٧: وكفالة اليتيم هي القيام بأموره والسعي في مصالحه من طعامه وكسوته وتنمية ماله إن كان له مال وإن كان لا مال له أنفق عليه وكساه ابتغاء وجه الله تعالى. ا.هـ .

(٣) السفعاء: بفتح السين المهملة وسكون الفاء بعدهما عين مهملة هي التي تغير لونها إلى الكمودة والسواد من طول الأيمة، يريد بذلك أنها حبست نفسها على أولادها و لم تتزوج فلا تحتاج إلى الزينة والتصنع للزوج، انظر النهاية ٣٧٤/٢، والترغيب والترهيب للمنذري ٣٤٨/٣ .

(٤) أي: صارت أيما، وهي التي لا زوج لها بكرا كانت أو ثيبا، تزوجت أو لم تتزوج بعده، والمراد هنا: من مات زوجها وتركها أيما. انظر النهاية ٨٥/١ .

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب،باب فضل من عال يتيما برقم ٥١٤٩،وأحمد في المسند ٢٩/٦، وفي سنده =

كما قال ابن بطال(١):"حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي صلى الله عليه وسلم فى الجنة، قال :"ولا منزلة فى الجنة أفضل من ذلك"(٢).

يعني لأنه عليه الصلاة والسلام يكون فى الفردوس الأعلى، فإذا كان كافل اليتيم يقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنزلة كاقتران الأصبع السبابة بالوسطى، أو كالفرق بينهما فى الطول والقصر، فإن ذلك من أعظم الحوافز له على رعاية اليتيم بالحسنى، إذ لو لم يكن إلا مجرد البشارة له بالجنة لكان كافيا فى الحث والترغيب على الكفالة والرعاية لهم، فكيف به إذا بُشِّر بالقرب من النبي صلى الله عليه وسلم ؟!إن ذلك لعظيم ولا يفرط فيه ذولب سليم، أو من يرجو الإكرام فى جنات النعيم(٣).

٤ ـ وقد جاء التأكيد على بشارة كافل اليتيم والمحسن إليه بالجنة فى أحاديث أخرى، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :"من ضم يتيما بين مسلمين فى طعامه وشرابه حتى يستغنى عنه وجبت له الجنة ألبتة، ومن أدرك والديه أو أحدهما ثم لم يبرهما دخل النار

= النهاس بن فهم البصري وهو ضعيف كما في التقريب برقم ٧١٩٧، لكن تشهد له الأحاديث السابقة بمعناه .

(١) وهو علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال من أهل قرطبة، صاحب شرح البخاري توفي سنة ٤٤٩ هـ، انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ١٢٧/٣، وشذرات الذهب ٢٨٣/٣، والأعلام ٢٨٣/٤ .

(٢) فتح الباري ٢٢٠/٢٢ .

(٣) نقل الحافظ ابن حجر في الفتح ٢٢٠/٢٢ عن شيخه العراقي في شرح الترمذي: المناسبة بين كافل اليتيم وبين النبي صلى الله عليه وسلم فقال: قال شيخنا في شرح الترمذي: "لعل الحكمة في كون كافل اليتيم يشبه في دخول الجنة أو شبهت منزلته في الجنة بالقرب من النبي صلى الله عليه وسلم أو منزلة النبي لكون النبي شأنه أن يبعث إلى قوم لا يعقلون أمر دينهم، فيكون كافلا لهم ومعلما ومرشدا، وكذلك كافل اليتيم يقوم بكفالة من لا يعقل أمر دينه بل ولا دنياه ويرشده ويعلمه ويحسن أدبه قال: فظهرت مناسبة ذلك" ا.هـ .

فأبعده الله ، وأيما مسلم أعتق رقبة مسلمة كانت فكاكه من النار"(١).

فهذا الحديث كسوابقه يبشر كافل اليتيم بغاية ما يتمناه من ربه سبحانه وهو الجنة التى هى أعز غائب ينتظر، جعلنا الله تعالى من أهلها من غير سابقة عذاب، وإن لم يكن فى الأحاديث دلالة على مأمنه من سابقة العذاب إن كان قد اقترف ما يوجب ذلك،إلا أنه طالما وأن مآله الجنة فإنه قد أمن من الخلود فى النار، وذلك بشارة له على خاتمة السعادة وهي الموت على الإيمان.

ولا ريب أن المؤمن حريص كل الحرص على مقتضى هذه البشارات، وعليه فإنه لن يألو جهدا فى الحرص على كفالة اليتيم والإحسان إليه، لينال الثواب المترتب على ذلك، فانظر إلى هذه العناية النبويه الحانيه، بالأيتام التى عبرت عنها أقواله الشريفة.

إشعار اليتامى بالحنان والعطف:

ولقد كانت عنايته بهم غير مقتصرة على الحث على الكفالة والرعاية،بل كذلك فى إشعارهم بالحنان والمحبة،وإدخال الأنس فى قلوبهم الذى كانوا يألفونه من آبائهم،حتى لا يشعروا بفقد الأب الحانى لوجود من يعوضهم عن حنوه وعطفه وبره.

١ - فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه فقال : "امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين"(٢).

٢ - وعن أبى أمامه رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من مسح رأس يتيم لم يمسحه إلا لله كان له فى كل شعرة مرت عليها يده حسنات ومن أحسن

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣٤٤/٤، ٢٩/٥، من حديث مالك بن الحارث، وعزاه الهيثمي في المجمع ١٦٤/٨ إلى أبي يعلى والطبراني قال: وهو حسن الإسناد، وأخرجه ابن أبي الدنيا في العيال برقم ٦٠٥، وللحديث شواهد كثيرة من حديث مالك القشيري وعدي بن حاتم وابن عباس ذكرها الهيثمي في المجمع ١٦٤/٨-١٦٥، والمنذري في الترغيب ٣٤٧/٣ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢٦٣/٢، ٣٨٧، قال الهيثمي في المجمع ١٦٣/٨ ورجاله رجال الصحيح وله شواهد عنده منها الحديث الذي ذكرته بعده .

إلى يتيمة أو يتيم عنده كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين، وفرق بين أصبعيه السبابة والوسطى"(١).

ولا شك أن اليتيم وهو الذى لم يزل فى عالم الطفولة الآنسة بالملاعبة واللطافة، سيأنس جدا بمثل هذه المسحة الحانيه، وهذا التلطف الأبوي، وسيجد بذلك من يعوضه عن أبيه فى مثل ذلك الأنس الذى فقده بفقده إياه، وما كان سينال ذلك لولا هذا التوجيه النبوي العظيم الذى يجعل كل المسلمين أبا حنونا على اليتيم.

تحذيره صلى الله عليه وسلم من التقصير فى حق اليتيم وعدم الإحسان إليه :

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقتصر فى عنايته بالأيتام على أسلوب الحث والترغيب، بل لقد استخدم أيضا أسلوب التحذير والتنفير من الإساءة إلى الأيتام أو أكل أموالهم بالباطل ، بحيث لا يقدم على فعل ذلك بعده إلا من غلبت عليه شقوته وكان من الضالين.

١ – فعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "اجتنبوا السَّبع المُوبقات"(٢) قالوا : يا رسول الله وما هُنَّ؟ قال : "الشّرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتَّولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات"(٣).

ففي هذا الوعيد ما يكفى زجرا لمن تسول له نفسه التفريط فى أموال اليتامى إذ لا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/٢٥٠، وابن أبي الدنيا في العيال برقم ٦٠٩، وذكره الهيثمي في المجمع ٨/١٦٣ معزوا إلى أحمد والطبراني وقال: وفيه علي بن زيد الألهاني وهو ضعيف، لكن له متابع عند الطبراني في المعجم الكبير ٨/٢٨٤ من طريق خالد أبي عمران عن القاسم أبي عبد الرحمن عن أبي أمامة، والشواهد عليه كثيرة. انظر مجمع الزوائد ٨/١٦٣-١٦٦ .

(٢) جمع موبقة: وهي الخصلة المهلكة .

(٣) أخرجه البخاري في الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ...﴾ الآية ٤/١٢، ومسلم في الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها برقم ٨٩ .

طاقة لأحد بعذاب الله تعالى الذى رتبه على فعل ذلك،أكلا أو إحراقا أو تفريطا أو غير ذلك مما يكون فيه هلكة لمال اليتيم وإتلاف له.

٢ - ولذلك لما كان صلى الله عليه وسلم يدرك عظم العقاب المترتب على فعل ذلك وهو الرؤوف الرحيم بأمته،الناصح الأمين لهم، قال لأبى ذر رضي الله عنه : "يا أبا ذر إنى أراك ضعيفا وإنى أحب لك ما أحب لنفسى،لا تأمَّرن على اثنين،ولا تلينَّ مال يتيم"(١) وهذا من عظيم رأفته ورحمته بأبى ذر رضى الله عنه خشية أن يمسه عذاب الله تعالى،المعد لأكلة أموال اليتامى الذى لا يفرق بين صحابي جليل كأبى ذر، وغيره إن هو تطاول على ذلك، لأن عظم الجُرم يستوجب شدة العذاب ولا يستدعى الرأفة، وذلك ما يريده صلى الله عليه وسلم على رأفته ورحمته، فقد روى عنه أبو هريرة رضى الله عنه قوله :

٣ - "اللهم إنى أحرِّج حق الضعيفين : اليتيم والأرملة"(٢).

ومعناه(ألحق الحرج وهو الأثم بمن ضيع حقهما، وأحذر من ذلك تحذيرا بليغا وأزجر عنه زجرا أكيدا(٣))وإنما قال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك،لأنهما لا يقدران على أن يدفعا عن أنفسهما ما قد يحصل لهما من ضرر الأوصياء أو الأولياء، فاستدعت حالتهما أن يبالغ النبي صلى الله عليه وسلم فى العناية بهما فى مثل هذه التوجيهات العظيمة الترغيبية والترهيبية.

---

(١) رواه مسلم في الإمارة، باب كراهية الإمارة بغير ضرورة برقم ١٨٢٦، وأبو داود في الوصايا، باب ما جاء في الدخول في الوصايا برقم ٢٨٦٨ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في الأدب، باب حق اليتيم ١٢١٣/٢ برقم ٣٦٧٨، والنسائي في عشرة النساء من سننه الكبرى برقم ٢٦٧ وقال البوصيري في مصباح الزجاجة ٢٤٣/٢ برقم ١٢٨٢: إسناده صحيح ورجاله ثقات .

(٣) رياض الصالحين ص ١٦١ .

عنايته صلى الله عليه وسلم بالأرامل :

ولم تكن الأرملة أقل حظاً في العناية النبوية من اليتيم، وكيف يكون ذلك وهو صلى الله عليه وسلم قد كان كما وصفه عمه أبو طالب بقوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل(١)

لذلك كانت عنايته بالأرامل كعنايته بسائر الضعفه المسلمين، بل أكثر لما يترتب على العناية بهن من عظيم الأجر كما دل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

١ - "الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله" قال راوي الحديث : وأحسبه قال : "وكالقائم لا يفتُر وكالصائم لا يفطر"(٢).

٢ - وما شك فيه الراوى هنا قد جاء مصرحا به فى رواية أخرى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار"(٣).

والساعي هو الذى يذهب ويجيء فى تحصيل ما ينفع الأرملة والمسكين(٤) .

فانظر إلى هذا الفضل العظيم الذى أرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم الذى لا يمكن تحصيله من المشبه به الثانى(٥) لعظم مشقته، إذ من يقدر على مواصلة الصيام بحيث لا يفطر؟ أم من ذا الذى يقدر على القيام ثم لا يفتر فيه؟! إنه لا طاقة لأحد على نيل هذا الأجر إلا عن طريق ما أرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم من السعي على الأرملة

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١٤/٢، ومجمع الزوائد للهيثمي ٢٧٥/٨، حيث عزا هذا البيت لأحمد والبزار قال: ورجاله ثقات .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب الساعي على الأرملة ١١/٨ وفي النفقات ٨٠/٨، ومسلم في الزهد باب الإحسان إلى الأرملة برقم ٢٩٨٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري في النفقات في أوله ٨٠/٧ .

(٤) فتح الباري ١٨٧/٢٠ .

(٥) وهو: وكالقائم لا يفتر، والصائم لا يفطر .

والمسكين أو بالجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله،وهو قد انقطع فى زماننا هذا تقريبا بفقد الأمة الاسلامية خلافتها، ولا شك بأن المسلم الذى تتاح له مثل هذه الفرصة لا يفرط فى إضاعتها إن كان من أهل السعادة وصحبه التوفيق.

فهذا جانب من عنايته صلى الله عليه وسلم بالأرامل على مر الزمان.

والجانب الآخر ما باشره صلى الله عليه وسلم بنفسه من رعاية للأرامل اللاتي عدمن عائليهن،حيث كان غالب أزواجه صلى الله عليه وسلم منهن،ليكفيهن مؤنة الحياة وتعب البحث عن الرزق،كأم سلمة وحفصة وأم حبيبة، وغيرهما رضى الله عنهن، كما علمت مما تقدم إيضاحه فى حكمة تعداد زوجاته صلى الله عليه وسلم(١)، فهل بعد هذه العناية القولية والفعلية من عناية وإحسان لمثل هؤلاء الضعفة؟فعلى المسلمين أن يتأسوا بنبيهم صلى الله عليه وسلم فى الإحسان إليهم، لينالوا شرف المتابعة وفضيلتها،وثواب ذلك وأجرها العظيم يوفونه فى الدينا والآخرة.

---

(١) ص٦٧٩-٦٩٥

المطلب الرابع

(الإحسان إلى الفقراء والمساكين)

الفقراء جمع فقير، وهو المكسور فَقار ظهره،واشتق منه اسم الفقير الذى له بلغة من العيش ولا تكفى حاجته،تشبيها له به لذلته ومسكنته، فكأنه مكسور الفقار، ومن ذلك قولهم : فقرتهم الفاقرة وهي الداهيه،كأنها كاسرة لفقار الظهر(١) .

أما المساكين فجمع مسكين وهو من أسكنه الفقر أي قلَّل حركته، أطلِق على من لا شيء له يكفي عياله(٢) لسكونه إلى الناس، هذا من حيث اللغة .

أما فى الاصطلاح فللعلماء أقوال فى تعريف كل من الفقير والمسكين والفرق بينهما، فقيل:إن الفقير من يكون له ما يكفى عياله، أو هو من يجد القوت، والمسكين: من لا شيء له، أو الفقير: المحتاج، والمسكين: من أذله الفقر(٣)، وقيل هما بمعنى .

وذهب الشافعي(٤) إلى أن الفقير أسوأ حالا من المسكين؛ لأن الفقير أصله فى اللغة المفقور الذى نزعت فقرة من فقار ظهره، ففسر الفقراء بالزَّمنى الذين لا حِرفة لهم، وأهل الحرف الذين لا تقع حرفتهم من حاجتهم موقعا، والمساكين: هم السُّؤَّال ممن له حرفة تقع موقعا ولا تغنيه وعياله(٥) .

---

(١) مجمل اللغة لابن فارس ٧٠٣/٣، والصحاح للجوهري ٧٨٢/٢ .

(٢) انظر القاموس المحيط ٢٣٥/٤، والمصباح المنير ٣١٣/١ .

(٣) القاموس بشرحه تاج العروس ٤٧٣/٣ .

(٤) هو إمام المذهب المعروف، واسمه محمد بن إدريس بن عثمان بن شافع... المطلبي المكي رحمه الله تعالى، المجمع على إمامته وجلالته ووثاقته، وهو المجدد لأمر الدين على رأس المائتين، ولد سنة ١٥٠ هـ، وتوفي سنة ٢٠٤ هـ، أفرده بالترجمة كثيرون كالبيهقي وابن أبي حاتم وخلائق من المتقدمين والمتأخرين .

(٥) تاج العروس ٤٧٣/٣، وانظر التفسير الكبير للفخر الرازي ١٠٧/١٦ .

وإلى المعنى الأول ذهب أبو حنيفة(١) وموافقوه(٢).

ولكلٍّ دليل ومسلك وتعليل،بحثُ ذلك هنا يفضى إلى الإطالة وهي غير مطلوبة(٣) والمطلوب إنما هو معرفة عناية القرآن الكريم بهؤلاء الضعفة من المسلمين فإن الحاجة والضعف تجمع بينهما فى الجمله.

عناية القرآن الكريم بالحديث عن الفقراء والمساكين :

وقد عني القرآن الكريم بجبر ضعفهم وسَداد حاجتهم، حثا على ذلك، وترغيبا وترهيبا وإيجابا، فى آيات كثيرة من سوره الكريمة المختلفة.

الحث على العناية بهم :

أما الحث على ذلك فآياته كثيرة، وهي الآيات الحاثه على الصَّدقة عموما، والمفسَّر مصرفها بالفقراء والمساكين ونحوهم فى آيات أخرى.

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿مَن ذا الَّذى يُقرِضُ اللهَ قَرضاً حسنا فيضاعفَه له أضعافًا كثيرة..﴾[سورة البقرة:٢٤٥] وقوله سبحانه : ﴿إن تُقرِضُوا اللهَ قَرضاً حسنا يُضاعفْه لكم ويغفرْ لكم واللهُ شكور حليم﴾[سورة التغابن:١٧] وقوله سبحانه : ﴿وأقرِضُوا اللهَ قرضا حسنًا وما تُقدِّموا لأنفُسِكم من خيرٍ تَجدوهُ عندَ اللهِ هو خيراً وأعظَمَ أجرا..﴾[سورة المزمل:٢٠] إلى غير ذلك من الآيات .

فإن الله تعالى قد جعل ما يبذله الأغنياء من المال لإخوانهم الفقراء والمساكين ونحو ذلك من وجوه البر: قرضا يوفيهم إياه عند قدومهم عليه أفضل وأجزل وأكثر مما بذلوه، وسمَّاه قرضا له، لإفادة "أن ذلك لا يضيع عند الله تعالى،كما أن القرض يجب أداؤه ولا

---

(١) إمام المذهب المعروف، واسمه النُّعمان بن ثابت بن زُوطى، رحمه الله تعالى، المجمع على إمامته وجلالته، وهو من صغار التابعين، أفرده بالترجمة كثيرون كالذهبي وابن حجر وخلائق من المتقدمين والمتأخرين، ولد سنة ٨٠ هـ، وتوفي ١٥٠ هـ .

(٢) تاج العروس شرح القاموس ٤٧٣/٣، والنهاية في غريب الحديث ٤٦٢/٣ .

(٣) انظر أدلة الشافعي لتفسير ذلك في تفسير الرازي ١٠٧/١٦-١١٠ .

يجوز الأخلال به، فكذا الثواب الواجب على هذا الأنفاق واصل إلى المكلف لا محالة"(١).

وكم فى القرآن من حث على الإنفاق والتصدق والإحسان والبر فى وجوه القربات التى من أجلّها بذلها للفقراء والمساكين وأبناء السبيل،كما قال سبحانه:﴿إن تُبدوا الصَّدقاتِ فنِعمَّا هي وإن تُخفوها وتُؤتوها الفُقراءَ فهو خيرٌ لكم ويكفِّرُ عنكم من سيِّئاتِكم وا للهُ بما تعلمون خبير﴾[سورة البقرة:٢٧١] وقوله جل شأنه:﴿للفقراءِ الَّذين أُحصِروا فى سبيلِ ا للهِ لا يَستطيعون ضَرباً فى الأرضِ يَحسَبهم الجاهلُ أغنياءَ من التَّعفُّف تَعرفهم بِسيماهم لا يَسألونَ النَّاسَ إلحافاً وما تُنفِقوا من خيرٍ فإنَّ ا لله به عليم﴾[سورة البقرة:٢٧٣] والجار والمجرور فى ﴿ للفقراء ﴾ فى موضع الخبر لمبتدأ محذوف، كأنه جواب سؤال مقدر تقديره:«لمن هذه الصدقات المحثوث على فعلها؟ فقيل: للفقراء، أي: هي للفقراء فبيَّن مصرف النفقة"(٢) والإسم الموصول بعده صفة كاشفة لهم.

وقد بين فى هذه الآيات كغيرها ما يحفزهم إلى الإنفاق المطلوب وذلك بقوله سبحانه:﴿وما تُنفِقوا من خيرٍ فلأنفُسكم وما تُنفقونَ إلا بتغاءَ وجهِ ا لله وما تُنفقوا من خيرٍ يُوفَّ إليكم وأنتم لا تُظلَمون﴾[سورة البقرة:٢٧٢] حيث أفادت هذه الآيات أن فائدة إنفاقهم عائدة عليهم بالأجر العظيم، وكرر الدلالة على هذا المعنى ثلاث مرات فى هذه الآية "لمزيد الاهتمام بشأنه لتكون كل جملة مستقلة بمعناها قصيرة الألفاظ كثيرة المعانى، فتجرى مجرى الأمثال وتتناقلها الأجيال"(٣) .

---

(١) التفسير الكبير ١٦٧/٦ .

(٢) انظر البحر المحيط ٣٢٨/٢، وجعله صاحب التحرير والتوير ٤٧/٣ متعلقا بتنفقون الأخير قال: وتعلقه به يؤذن بتعلق معناه بنظائره المتقدمة، قال: فما من نفقة ذكرت آنفا إلا وهي للفقراء؛ لأن الجمل قد عضد بعضها بعضا ا.هـ .

(٣) التحرير والتنوير ٧٣/٣ .

قال أبو حيان(١) فى تفسيره: "وفى هذا وفيما قبله قطع عذرهم فى عدم الإنفاق إذ الذى ينفقونه هو لهم حيث يكونون محتاجين إليه فيوفونه كاملا موفورا فينبغى أن يكون إنفاقهم على أحسن الوجوه وأفضلها"(٢) .

وفى هذا الترغيب وغيره من الحث على الإحسان إلى الفقراء ما يكفى حافزا لهم على ذلك،ونحوه ما نص فيه على المساكين،وتقدم بعض منه فى مبحث الأيتام قبل هذا كقوله تعالى: ﴿قل ماأنفقتُم من خير فللوالدين والأقربينَ واليتامى والمساكينِ وابنِ السبيل وما تفعلوا من خيرٍ فإنَّ الله به عليم﴾[سورة البقرة:٢١٥] وقوله:﴿وإذا حضَر القسمةَ أو لُوا القربى واليتامى والمساكينُ فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفا ﴾[سورة النساء:٨] .

والآيات الحاثة على الإحسان والإنفاق على هؤلاء الأصناف ابتغاءَ وجه الله تعالى كثيرة معلومة، وبحسب المؤمن بعض ذلك ليرغبه فى الإقدام على فعل الإنفاق برغبة وسخاء وطيب نفس ونية صالحة؛لأنه قد علم أنه لن يخسر شيئا، وإنما يربح بذلك فى الدنيا والأخرة كما أخبره ربُّه بقوله:﴿وما أنفقتُم من شيءٍ فهو يُخلِفه وهو خيرُ الرَّازقين﴾[سورة سبأ :٣٩] وبقوله :﴿وما تُقدِّمو لأنفسِكم من خيرٍ تجدوه عندَ اللهِ هو خيراً وأعظمَ أجرا﴾[سورة المزمل:٢٠] .

افتراض الله تعالى للفقراء والمساكين ما يصلح حالهم:

ومع كل ذلك الحث والترغيب فإن الله تبارك وتعالى لم يكل أمر هؤلاء المحاويج إلى ضمائر الأغنياء مع بالغ حثه وترغيبه .

ولكن افترض لهم مع ذلك ما يكفل لهم ضروريات الحياة التى تكفيهم عن إذلال

---

(١) هو محمد بن يوسف بن علي الغرناطي الأندلسي الجياني، من كبار علماء التفسير واللغة والحديث... سمع من الكثير، وأخذ عنه الأكثر من المشارقة والمغاربة، وصنف مصنفات كبيرة من أجلها تفسيره البحر المحيط توفي سنة ٧٤٥ هـ، انظر طبقات المفسرين للداودي ٢/٢٨٧، وبغية الوعاة للسيوطي ص ١٢١، والأعلام ١٥٢/٧ .

(٢) البحر المحيط ٣٢٧/٢ .

أنفسهم وتحميهم من التدني إلى مساوىء الأخلاق التى قد تولدها الحاجة كالحسد والبغضاء، لو أن ذلك بذل لهم على النحو الأكمل الذى أوجبه الله تعالى وذلك هو :

١ ـ الزكاة التى جعلها الله تعالى ثانى أركان الاسلام فلا يكمل إسلام امرء إلا بتأديتها إذا كان ممن تجب عليه، بل لا يصح إسلام امرئ بالاعتراف بها ركنا ثانيا للاسلام وقد جعل أهم مصارفها : الفقراء والمساكين، كما يدل عليه تقديمهم فى الذكر على بقية الأصناف الثمانية الأخرى قال الله تعالى : ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها...﴾[سورة التوبة: ٦٠] وقد بينت السنة مقاديرها ومواردها وأنصبتها وشروطها بما هو معلوم فى مظانه من كتب الحديث والفقه..

٢ ـ على أن المولى سبحانه قد أثبت حقوقا أخرى يسدون بها عوزهم إضافة إلى ذلك، غير أنها ذوات أسباب ممن يقوم بتأديتها لهم لا تجب إلا عند ملابستها وذلك كحقهم فى الأضحية والهدي، وفى كفارة اليمين، وكفارة الظهار، وكفارة الجماع فى نهار رمضان، والفدية عن الصيام لمن لا يطيقه، وكحق الجوار وحق الزرع عند الحصاد، وغيره مما هو معلوم مما جاءت به نصوص القرآن الكريم أو السنة المطهرة.

٣ ـ كما أوجب لهم حقا كبيرا فى أموال الغنيمة والفيء حيث جعلهم من مصارفهما وذلك بقوله : ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء، فإن لله خمسه...﴾ إلى قوله ﴿واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾[سورة الأنفال:٤١] وقوله: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل...﴾ إلى قوله ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم...﴾[سورة الحشر:٧-٨] .

٤ ـ وقد كان هذان الحقان يفيان بحقوقهم لما كان الجهاد قائما، أما وقد ترك الجهاد منذ عصور فإن الله تعالى الخبير بأحوال عباده، لم يتركهم ليعودوا إلى سالف عهدهم فى الجاهليه من الحاجة والمجاعة والذلة وقد شرفهم بالاسلام، بل جعل لهم حقا فى أموال الأغنياء يجب عليهم بذله لهم حتى يصيبوا منه سداد حاجتهم، وذلك هو ما تدل عليه ظواهر الآيات القرآنيه كقول الله تبارك وتعالى : ﴿فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن

السبيل ذلك خيرٌ للذين يُريدون وجهَ اللهِ وأولئِك همُ المفلِحون﴾[سورة الروم:٣٨].

وقوله سبحانه: ﴿وآتِ ذا القُربى حقَّه والمسكينَ وابنَ السبيل ولا تُبذِّر تَبذيراً﴾[سورة الآسراء:٢٦] حيث أثبت لهم حقا لازما كحق الأقربين الذين لا مراء فى ثبوت أحقيّتهم فى أموال أقربائهم عند حاجتهم إليه، وذلك ما يقتضيه العطف من التشريك فى الحكم ومن ذلك أيضا قوله سبحانه : ﴿وبالوالدين إحساناً وبذي القُربى واليتامى والمساكينِ والجارِ ذىالقربى والجارِ الجُنُبِ والصَّاحب بالجَنْبِ وابنِ السَّبيلِ وما ملكت أيمانُكم﴾[سورة النساء:٣٦]. حيث أوجب تعالى حق المساكين وابن السبيل مع حق ذي القربى، وافترض الإحسان إلى الأبوين وذي القربى والمساكين والجار وما ملكت اليمين، ونظمهم جميعا فى آية واحدة مما يدل على اشتراكهم فى حق الإحسان، والإحسان يقتضى بذل ما يسد حاجتهم فى هذه الحياة من طعام وشراب ولباس ومسكن ونحو ذلك.

وقد ذهب إلى اختيار هذا الحق فرضا لازما على الأغنياء من لم يعدل بالنصوص عن ظواهرها،وهم أهل الظاهر،وعلى رأسهم إمامهم "أبو محمد بن حزم(١)" حيث دعَّم هذا الوجوب بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة وعمل الصحابة والسلف الصالح(٢).

وهذا القول الذى يؤيده مقتضى نظام الشريعة الاسلاميه الداعي إلى التكافل الاجتماعى بين المسلمين قال العلامة د/ يوسف القرضاوي: "فإن الأدلة عليه أبين من فلق الصبح؛لأن طبيعة النظام الاسلامى كما رسمته آيات القرآن مكية ومدنية،وأحاديث الرسول صحاحا وحسانا تجعل التكافل الاسلامى فريضة لازمة والتعاون والمواساة واجبا لابد من أدائه" ثم استدل على ذلك بما يطول ذكره فينظر فى كتابه : "مشكلة الفقر

---

(١) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري الأندلسي إمام أهل الظاهر بعد داود الظاهري ، نشأ في بيت الوزارة ووليها هو من بعده لبعض خلفاء بني أمية بالأندلس، ثم عزف عنها رغبة في العلم فنال منه الكثير، وصَّنف مصنفات كثيرة منها المحلى... توفي سنة ٤٥٦ هـ، انظر لسان الميزان ١٩٨/٤، والأعلام ٢٥٤/٥ .

(٢) انظر المحلى ٤٥٢/٦ وما بعدها، المسألة رقم ٧٢٥ .

وكيف عالجها الإسلام"(١).

ذلك ما افترضه القرآن الكريم على أغنياء المسلمين لفقرائهم،فإن أدوا ذلك طيبة بها نفوسهم زكّوا أنفسهم وهذبوا أخلاقهم،وأثابهم الله تعالى على ذلك بما تقر به أعينهم، كما وعدهم بذلك فى قوله سبحانه : ﴿خُذ من أموالِهم صدقةً تطهّرُهم وتزكّيهم بها...﴾[سورة التوبة:١٠٣] وبقوله : ﴿مثل الذين يُنفقون أموالَهم فى سبيلِ الله كمثلِ حبّةٍ أنبتت سبعَ سنابلَ فى كُلِّ سُنبلةٍ مائةُ حبّة والله يُضاعفُ لمن يَشاءُ والله واسع عليم﴾[سورة البقرة:٢٦١] .

أما إذا منعوها عنهم وبخلوا عليهم فإن الاسلام يحتّم على ولي الأمر أخذها منهم بقوة السلاح،وهم حينئذ بين حالين : بين رِدّةٍ عن الأسلام ، أو عدم أداء ثانى أركانه مع الاعتراف به، وفى كلا الحالين يستوجبون القتال إما حدا وإما تعزيرا وتأديبا، كما فعل الصديق رضى الله عنه فى حروب الردة، ومع ذلك فإن الله تعالى قد توعّدهم بأليم عقابه الذى لا طاقة لهم به كما قال جل ذكره : ﴿...والّذين يَكنِزُون الذّهبَ والفِضّةَ ولا يُنفقونها فى سبيلِ اللهِ فبشّرهم بعذابٍ أليم * يوم يُحمَى عليها فى نارِ جهنّم فتُكوى بها جباهُهم وجنوبُهم وظُهورُهم هذا ما كَنزتُم لأنفُسِكم فذُوقوا ما كُنتمُ تَكنِزُون﴾[سورة التوبة:٣٤،٣٥] .

ذم القرآن الكريم مانعي إحسانهم الفقراء والمساكين :

وهذا فى حق مانعي الزكاة الواجبة،أما مانعى غير ذلك من وجوه الإحسان فإن القرآن الكريم سجل عليهم ذما مقذعا،لا يقبل ذولب حصيف أو إيمان كثيف أن يلحق به، وذلك كقوله تعالى : ﴿كلّا بل لا تُكرمونَ اليتيمَ * ولا تَحاضُّون على طعامِ المسكين﴾[سورة الفجر:١٧،١٨] حيث نعى على المجتمع الجاهلي الذى لا يبالى بحق ضعفائه فى العيش الكريم، بينما أغنياؤهم يعيشون فى أثرتهم وحظهم الرغيد فى الدنيا.

بل جعل الله سبحانه من علامات التكذيب بالدين؛ قهر اليتيم وعدم الحض على طعام

---

(١) انظر ص ١٢٧-١٣٣ .

المسكين كما علمت مما تقدم فى مبحثه(١) حيث قال تعالى : ﴿أرأيتَ الَّذى يُكذِّبُ بالدين * فذلك الذى يَدعُ اليتيم * ولا يحضُّ على طعامِ المسكين﴾[سورة الماعون:١-٣] .

ولا أظن مؤمنا يقرأ سورة "القلم" ويفهم ما قصه الله تعالى من حال أصحاب الجنَّة(٢) الذين أقسموا ليصرمنها مصبحين، ولا يستثنون، وانطلقوا وهم يتخافتون، أن لا يدخلنها عليهم مسكين، ضناً منهم(٣) عن أن يعطوهم ما كان قد اعتاده المساكين منها، ثم ما كان عاقبة أمرهم من جنَّتهم تلك، حيث أبادها الله تعالى جزاء لهم وكانت كما أخبر الله بقوله : ﴿فطاف عليها طائفٌ من رَّبك وهم نائمون * فأصبَحت كالصَّريم﴾[سورة القلم:١٩،٢٠] أي: كالليل الشَّديد الظُّلمة من السواد لاحتراقها بحيث لم يعرفوها بادىء الأمر،ولما عرفوا أن بخلهم هو السبب فى إهلاك جنتهم وأنهم ظالمون بذلك واستغفروا الله تعالى وتابوا إليه أبدلهم الله خيرا منها كما قال الله تعالى :﴿قالوا سبحان ربِّنا إنَّا كنا ظالمين * فأقبل بعضُهم على بعض يتلاومون * قالوا ياويلنا إنَّا كنا طاغين * عسى ربُّنا أن يبدلنا خيرًا منها إنَّا إلى رَّبنا راغبون﴾[سورة القلم:٢٩-٣٢] .

لا أظن مؤمنا له أذُنٌ واعيه يسمع هذه القصة البليغة الأثر فى النفوس، ثم لا يتَّعظ بمدلولها على أن فى سورة "الحاقة" ما ترجف لهوله القلوب مما توعد الله به من يبخل على فقراء مجتمعه حتى بالدلالة عليهم والحث على إعانتهم وإطعامهم، حيث أخبر سبحانه أن ذلك سببا لإعطائه كتابه بشماله ثم مصيره إلى ما أخبر عنه بقوله:﴿خذوه فغلُّوه * ثم الجحيم صلُّوه * ثم فى سلسة ذرعها سبعون ذراعا فاسلُكوه * إنه كان لا يُؤمن بالله العظيم * ولا يحضُّ على طعام المسكين * فلَيس له اليومَ ههنا حَميمٌ * ولا طعامٌ إلا من غسلين * لا يأكلُه إلا الخاطِئون﴾[سورة الحاقة:٣٠-٣٧] وليس هذا خاصا بالكافرين، فإن هذا الوعيد مرتب على سببين:

---

(١) ص٨٣٨

(٢) أي: البستان .

(٣) أي: بخلا .

أحدهما : أقبح العقائد، وهو الكفر با لله تعالى ،

والثانى: أبشع الرذائل وهو البخل وقسوة القلب، المعبر عنه بعدم الحض على إطعام المسكين، فضلا عن بذل ذلك بنفسه، فحيث وجد من المؤمن ذلك كان قد شاطر الكافر بالوصف والجزاء إن لم يتداركه ا لله تعالى بلطفه، وهذا ما فهمه أبو الدرداء رضى ا لله عنه حيث كان يقول لا مرأته: "ياأم الدرداء إن لله سلسلة لم تزل تغلي مراجل النار منذ خلق ا لله جهنم إلى أن تلقى فى أعناق الناس، وقد نجانا ا لله من نصفها بإيماننا با لله العظيم ، فحضي على طعام المسكين ياأم الدرداء"(١) ،

ثناؤه تعالى على من يكرم الفقراء والمساكين :

وهذا بخلاف من بادر إلى إكرامهم بما يقدر على ذلك من إطعام ونحوه، فإنه قد رشح نفسه لثناء ا لله تعالى العظيم، فى محكم كتابه الكريم، وإلى جزيل ثوابه فى جِنان النعيم كما أفصحت عنه آيات الكتاب الحكيم، حيث قال ا لله جل ذكره: ﴿إنَّ الأبرارَ يَشربون من كأسٍ كان مزاجُها كافورا * عينًا يشربُ بها عبادُ ا للهِ يُفجِّرونها تَفجيرًا﴾ ثم ذكر سبب نيلهم ذلك الإكرام بقوله: ﴿يُوفونَ بالنَّذر ويَخافونَ يومًا كان شرُّه مُستطيرا * ويُطعمونَ الطَّعامَ على حُبِّه مسكينا ويتيما وأسيرا * إنَّما نُطعمكم لوجهِ ا للهِ لا نُريدُ منكم جزاءً ولا شكورا...﴾[سورة الإنسان:٥-٩] جعلنا ا لله ممن ترشح لهذا الثناء ونال ذلك الجزاء بمنه وكرمه آمين ،

تنويه ا لله تعالى بالفقراء والمساكين وثناؤه عليهم:

وإنما نال هذا الثناء وحظي بذلك الثواب والجزاء ، لأنه أكرم عباده الذين كان لهم حظ كبير من عنايته سبحانه كما يدل عليه ثناؤه المجيد عليهم، الوارد فى مثل قوله تعالى: ﴿للفُقراء الذين أُحصِروا فى سبيلِ ا للهِ لا يَستطيعونَ ضربًا فى الأرضِ يَحسَبُهم الجاهلُ أغنياءَ من التَّعفف تعرفُهم بسيماهم لا يَسألون النَّاس إلحافا﴾[سورة البقرة:٢٧٣] وقوله: ﴿ للفقراءِ المهاجرينَ الَّذين أُخرِجوا من ديارِهم وأموالِهم يَبتغونَ فضلاً من ا لله

---

(١) أخرجه أبو عبيد في الأموال ص ٣٢٢ .

ورضوانا ويَنصرُون الله ورسولَه أولئِك هم الصَّادقون﴾[سورة الحشر:٨] والآيتان هاتان وإن كانتا فى صدد الحديث عن مهاجرى الصحابة رضوان الله عليهم،إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو مقرر ومعلوم، فإن أبرز صفاتهم التى رشحتهم لتلك العناية هى الفقر الذى يشاركهم فيه غيرهم ممن نالوا عناية القرآن الكريم، وتحنُّن الرب الرحيم، كما دل على ذلك مشاركتهم لهم فى سائر العناية الإلهيه التى وردت فى القرآن الكريم،من الحقوق الواجبة والمندوبة المطلوبة لهم، ومن الإشادة بهم فى غير ما آية ومناسبة.

من أجلّها ما أوحى الله بها إلى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله بعد إرشاده سبحانه إياه بتقريبهم منه : ﴿وإذا جاءَك الَّذين يُؤمِنون بآياتِنا فقل سلامٌ عليكم كتَبَ رَّبكم على نفسِه الرحمةَ أنَّه من عمل منكم سوءاً بجهالةٍ ثم تاب من بعدِه وأصلحَ فأنَّه غفورٌ رحيم﴾[سورة الأنعام:٥٤] حيث إنه تعالى "وصفهم بالإيمان بالقرآن وإتباع الحجج، ثم أمر نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يبدأهم بالتسليم أو يبلّغ سلام الله تعالى إليهم، وأن يبشرهم بسعة رحمته وفضله بعد النهى عن طردهم من مجلسه،كما كان يريد الكفار، وفى ذلك إشارة إلى أنهم الجامعون بين فضيلتي العلم والعمل، ومن كان كذلك ينبغى أن يقرب ولا يطرد،ويعز ولا يذل، ويبشر من الله بالسلامة فى الدنيا والرحمة فى الآخرة"(١).

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص١٧٧ .

تمثل خلق الإحسان
إلى الفقراء والمساكين فى النبي صلى الله عليه وسلم

لم يكن الفقراء والمساكين إلا نوعا من أنواع كثيرة شملها إحسان المحسن العظيم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى كل شئونهم وأطوار حياتهم .

غير أن هذا النوع قد كان له مزيد العناية من خُلق الإحسان النبوي لما يستدعيه حاله فى أوساط المجتمعات، فقد بعث صلى الله عليه وسلم وكان هذا النوع البشرى يعد من أراذل المجتمع وأقله اهتماما وعناية، وحفاظا للحقوق ومراعاة للكرامة، لكونه فاقدا لمقومات الحياة الأساسية فى نظرهم البدائى، وهو المال أو الشرف القَبلِى، إذ هم فقراء غرباء صعاليك، ومن كان كذلك كان فاقد الاعتبار الاجتماعى فى وسطهم الجاهلى كما دل على ذلك استنكارهم أن يُصطفَى محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة وهو الغلام اليتيم الفقير ﴿وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآنُ على رجلٍ من القَريتين(١) عظيم﴾[سورة الزخرف:٣١] فكانت بعثة هذا النبي الكريم اليتيم الفقير فى نظرهم صادَّةً لهم عن اتباعه لكونه لم يكن أجدر بالرسالة من كبراء قومه الطغاه، غير أن ذلك العناد والكبر لم يكن قادرا على تغيير اصطفاء الله لهذا النبي العظيم؛لأن الله تعالى هو أعلم حيث يجعل رسالته، كما قال سبحانه : ﴿وإذا جاءتهم آيةٌ قالوا لَن نؤمِنَ حتَّى نُؤتَى مثلَ ما أُوتيَ رسلُ اللهِ اللهُ أعلم حيثُ يجعلُ رسالتهَ سيُصيبُ الَّذين أجرموا صَغارٌ عندَ اللهِ وعذابٌ شديد بما كانوا يمكرون﴾[سورة الأنعام:١٢٤] .

فلمَّا لم تنفعهم محاولتهم العنادية والتَّكبُّريه فى زحزحة الرسالة عن موضع الاصطفاء الإلهي عدلوا إلى محاولة إزاحة الصفوة المختارة،المصاحبة لصاحب الرسالة العظمى صلى لله عليه وسلم وذلك حال مجالستهم له، لأنهم يرون أنهم أعز مكانا وأعظم شأنا من أن يخالطهم فى مجالسهم أولئك الفقراء الضعفاء، فطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن

---

(١) يعني:مكة أو الطائف، والرجلان اللذان كانا يريانهما أجدر بالرسالة من محمد صلى الله عليه وسلم هما: الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي .

يُقصيهم عنهم عند مجالستهم إياه، ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مُفْعَمًا بالرأفة والرحمة والحرص على إيمان البشرية ولمس من هؤلاء الزعماء الذين إن اهتدوا فسيتبعهم إلى الهداية كثيرون، لمس هذه المبادرة البارقة "ورأى أنه لا تفوّت على أصحابه شيئا، ولا تنقصهم قدرا فمال إلى ذلك طمعا فى إسلامهم"(١) .

وكاد يستجيب لهم حتى يسمعوا كلام الله لعله يفتح مسامع قلوبهم إلى الحق والهدى، ولم يكن يعلم أن الله قد ختم على قلوبهم المتكبّرة المتغطرسة فلا يدخلها خير أبدا، حتى نزل إليه الوحى هاديا ومرشدا ومراعيا لحقوق أولئك الطائفة المختارة الفقيرة(٢)، وكان من أمرهم رضي الله عنهم وأمره صلى الله عليه وسلم ما قصه الله تعالى بقوله : ﴿ولا

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٦/٤٣١ .

(٢) روى مسلم رحمه الله تعالى في فضائل الصحابة، باب فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه من حديثه أيضا قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا، قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما فوقع فى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع فحدّث نفسه فأنزل الله : ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ مسلم برقم ٢٤١٣ ، وابن ماجه بنحوه برقم ٤١٢٨.

وروى الإمام أحمد من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال : مر الملأ من قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا : يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك؟ هؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعا لهؤلاء؟ أطردهم فلعلك إن طردتهم أن نتبعك فنزلت هذه الآية : ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم...﴾ المسند ١/٤٢٠، واللفظ لابن جرير ٧/٢٠٠.

تطردِ الَّذين يَدعونَ ربَّهم بالغداةِ والعشيِّ يُريدونَ وَجْهَه ما عليك من حسابِهم من شيءٍ وما من حسابِك عليهم من شيءٍ فتطردَهم فتكونَ من الظَّالمين * وكذلك فتنَّا بعضهم ببعضٍ ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلمَ بالشَّاكرين * وإذا جاءك الذين يُؤمنونَ بآياتِنا فقل سلامٌ عليكم...﴾[سورة الأنعام:٥٢-٥٤] .

وتأمل سر تقديم الإرشاد الإلهي والتأديب الرباني لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على بيان سببه فى الآية الثانية، ثم العودة فى الآية الثالثه إلى الإرشاد الأمثل فى معاملتهم والإحسان إليهم حيث دعاه إلى مبادرتهم بالتحية، فإذا تأملت ذلك، تدرك مبلغ العناية الربانية بهذه الطائفة من المؤمنين، حيث لم تفتأ تبيِّن للمؤمنين مكانة هذه الصفوة من البشر، وتحض على الإحسان لهم بإيصال الحقوق إليهم حتى مع سيد البشر صلى الله عليه وسلم كما فى هذه الآيات وآيات آخر منها قوله تعالى : ﴿واصبِر نفسَك مع الَّذين يَدعون ربَّهم بالغداةِ والعشيِّ يُريدون وجهَه ولا تعدُ عيناك عنهم تريدُ زينةَ الحياةِ الدنيا ولا تُطِع من أغفلنا قلبَه عن ذِكرنا واتَّبع هواه وكان أمرُه فُرطا﴾[سورة الكهف:٢٨] .

وهذه الآية تتحدث عما تحدثت عنه الآيات الأولى من إرشاد الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فى تعامله مع هذه الصفوة من أصحابه الكرام رضي الله عنهم.

وقد كان عليه الصلاة والسلام كما أراده الله تعالى امتثالا وسلوكا وإبلاغا فكان تطبيقه لهذه التوجيهات الإلهيه الموجهة له ولأمته من بعده يسترعي الإكبار والاقتداء، فقد كان عليه الصلاة والسلام إذا رأى هؤلاء الفقراء بدأهم بالسلام وقال : "الحمد لله الذى جعل فى أُمَّتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام" كما ذكر ذلك القرطبى وغيره(١) .

وكان صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يقعد معهم ويدنو منهم حتى إن ركبته لتلمس ركبة أحدهم(٢).

---

(١) في تفسيره جامع أحكام القرآن ٤٣٥/٦، وانظر الحلية لأبي نعيم ٢٤٤/١ .

(٢) كما جاء في حديث خباب وسلمان رضي الله عنهما عزاه ابن حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص٦١ إلى البيهقي .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : كنت فى عِصابة من المهاجرين جالسا معهم، وإن بعضهم يستتر ببعض من العُري،وقارىء لنا يقرأ علينا، فكنا نستمع إلى كتاب الله تعالى فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "الحمد لله الذى جعل من أُمَّتِى من أمرت أن أصبرَّ معهم نفسى" قال : ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطنا ليعدل بيننا نفسه،ثم قال بيده هكذا فاستدارت الحلقة وبرزت وجوههم، قال فما عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا منهم غيرى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أبشروا معاشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، وذلك خمسمائة عام"(١).

فتأمل كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن مجرد ممتثل ومطبِّق بل إنه كان يرى ذلك نعمة تستوجب الشكر والثناء حيث كان يحمد الله تعالى على ذلك ويشكره عليها، وفى ذلك دلالة على كمال رغبته فى إكرامهم والرأفة بهم والإحسان إليهم .

وكيف لا وهو صلى الله عليه وسلم قد كان يرغب فى أن ينتظم فى سِلكهم كما دل على ذلك ابتهاله إلى الله تعالى بقوله : "اللهم احيينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين"(٢) وقوله : "اللهم إنى أسألك فعلَ الخيرات وتركَ المنكرات

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل ٣٥١/١، وعزا الهيثمي في المجمع ٢٤/٧ شطره الأول إلى الطبراني قال: ورجاله رجال الصحيح، وأخرج الترمذي الجزء الأخير منه وهو قوله: يدخلون ...الخ من حديث أبي هريرة وقال: حسن صحيح، ورواية أخرى له وقال: صحيح، انظر كتاب الزهد/٥٧٨/٤ منه .

(٢) كما جاء من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند ابن ماجه في الزهد، باب مجالسة الفقراء برقم ٤١٢٦، والحاكم في المستدرك ٣٢٢/٤، وقال: صحيح الإسناد وأقره الذهبي، لكن أعله البوصيري في المصباح ٣٢٤/٢ بأبي المبارك الراوي عن عطاء قال: لا يعرف اسمه وهو مجهول، وبالراوي عنه أبي فروة يزيد بن سنان قال عنه: ضعيف، وقد عده ابن الجوزي في الموضوعات، والسيوطي في اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ٣٢٤/٢، لكنه نقل عن الزركشي قوله في تخريج أحاديث الرافعي: أساء ابن الجوزي بذكره له في الموضوعات،يعني نظرا لطرقه وشواهده الكثيرة،ونقل أيضا قول الحافظ ابن حجر =

وحبّ المساكين وأن تغفر لي وترحمني وإذا أردت فتنة قوم فتوفّني غير مفتون، أسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يُقرِّبني إلى حبك"(١) .

فانظر كيف كان عليه الصلاة والسلام يحب أن يحيا حياتهم القنوعة العفيفة، ويسأل الله تعالى أن يرزقه المزيد من محبتهم، وذلك لأن هذه الطائفة لم يكن لها ما يشغلها عن طاعة الله والمسارعة إلى الخيرات شيء، ولا يطغيها عن اتباع الحق والسير على النهج الذى جاء به، ولذلك كانت أول الناس اتباعا له وتصديقا بما جاء به، كما دل على ذلك حديث أبى سفيان فى قصته مع هرقل ملك الروم والذى جاء فيه قول هرقل لأبي سفيان: "وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه،

= في تخريج أحاديث الرافعي يعني التلخيص الحبير ١٠٩/٣: (هذا الحديث رواه الترمذي من حديث أنس ـ برقم ٢٣٥٢ـ وإسناده ضعيف أيضا، وله طريق أخرى في المستدرك من حديث عطاء عنه، ورواه البيهقي من حديث عبادة بن الصامت قال: وأسرف ابن الجوزي فذكر هذا الحديث في الموضوعات، وكأنه أقدم عليه لما رآه مباينا للحال التي مات عليها النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان ليس مسكينا .

لكن قال البيهقي: ووجهه عندي أنه لم يسأل حال المسكنة التي يرجع معناها إلى الاحتياج، بل الالتجاء والتواضع ا.هـ، كذا في اللآلي ٣٢٦/٢، وعبارة السنن ١٢/٧ نحوها.

قلت: والحديث بشواهده وطرقه ينتهي بمجموعه إلى درجة الصحة كما في التعليق على ابن ماجه ١٣٨٢/٢ عن العلاء .

وانظر شواهده في مجمع الزوائد ٢٦٥/١ـ٢٦٦، والدعاء للطبراني ١٤٦٤/٣، ١٤٦٧، ولذلك صححه الألباني في سلسلته الصحيحة رقم ٣٠٨، ٣٥٥/١، وفي الإرواء ٣٥٨/٣ رقم ٨٦١، وقال: ولا شك أن الحديث بمجموع طرقه يرتقي إلى درجة الصحة، ثم نقل إنكار العلماء على ابن الجوزي في حكمه عليه بالوضع .

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة (ص) برقم ٣٢٣٥ وقال عنه: حسن صحيح سألت محمد بن إسماعيل ـ يعني البخاري ـ عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح .

وهم أتباع الرسل"(١).

وفى القرآن الكريم ما يؤيد ذلك وهو ما حكاه الله تعالى على لسان قوم نوح عليه السلام بقوله : ﴿فقال الملأُ الذين كفروا من قومِه ما نراك إلَّا بشرًا مثلَنا وما نراك اتَّبعك إلا الَّذين هم أراذِلُنا باديَ الرأي...﴾[سورة هود:٢٧] فقد عاب هؤلاء الطغاة على نبيهم نوح عليه السلام ما عاب به طغاة قريش على نبينا محمد عليه الصلاة والسلام لأن نظرة المتكبرين واحدة ومشربهم واحد كذلك.

مكانة الفقراء عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنويهه بهم :

لذلك كان هؤلاء الضعفاء أهل المكانة العليا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دل على ذلك تنويهه العظيم بفضلهم ومكاناتهم فيما ثبت عنه فى أحاديث كثيرة منها :

١ - عن أبى ذر رضي الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أُنظر أرفع رجل فى المسجد" قال : فنظرت فإذا رجل عليه حُلَّة، قلت: هذا، قال: قال لى: "أنظر أوضع رجل فى المسجد" قال : فنظرت فإذا رجل عليه أَخلاقٌ - أي: ثياب خلِقه وهى البالية - قال: قلت: هذا، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لَهذا عند الله أخير يوم القيامة من ملء الأرض مثل هذا"(٢).

٢ - وعن ابن عباس رضى الله عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"اطَّلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء"(٣).

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١٥٧/٥ قال الهيثمي في المجمع ٢٦١/١٠: رواه أحمد بأسانيد ورجالها رجال الصحيح .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب فضل الفقر ١١٩/٨، ومسلم في الذكر والدعاء، باب أكثر أهل الجنة الفقراء برقم ٢٧٣٧ .

٣ ـ وعن حارثة بن وهب(١) رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:"ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كلُّ ضعيف مُتضَاعَف لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار كل عُتُلٍّ جوَّاظ(٢) مستكبِر"(٣).

٤ ـ وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال:احتجَّت الجنة والنار، فقالت النار: فيَّ الجبَّارون والمتكبرون، وقالت الجنة فيَّ ضعفاء المسلمين ومساكينهم، فقضى الله بينهما إنَّك الجنة أرحم بك من أشاء، وإنك النار عذابى أعذب بك من أشاء،وكليكما عليَّ ملؤها "(٤) .

٥ ـ وعن أسامة بن زيد رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"قمت على باب الجنة فإذا عامَّةُ من دخلها المساكين، وأصحاب الجد ـ الحظ و الغنى ـ محبوسون، غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار، قال : وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء"(٥).

٦ – وعن مصعب بن سعد(٦) رحمه الله قال: رأى سعد رضى الله عنه أن له

---

(١) الخزاعي، وأمه أم كلثوم بنت جرول زوج سيدنا عمر رضي الله عنه، وأم عبيد الله بن عمر، له وراية في الصحيحين وغيرهما .

(٢) العتل: هو الجافي الغليظ الذي لا ينقاد للخير، الجوَّاظ: هو الجموع المنوع، وقيل: كثير اللحم المختال في مشيته. النهاية ٣١٦/١، وتفسيرغريب الحديث للحافظ ابن حجر ص ١٦٠ .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب الكبر ٢٤/٨، ومسلم في صفة الجنة، باب النار يدخلها الجبارون.. برقم ٢٨٥٣ .

(٤) أخرجه مسلم في صفة الجنة، الباب السابق برقم ٢٨٤٧ .

(٥) أخرجه البخاري في الرقاق، باب صفة الجنة والنار ١٤١/٨، ومسلم في الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء برقم ٢٧٣٦ .

(٦) ابن أبي وقاص رضي الله عنه، روى عن أبيه وعن جماعة من الصحابة، وهو ثقة من الثالثة توفي سنة ١٠٣ هـ، التقريب رقم ٦٦٨٩ .

فضلا على من دونه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم"(١).

فتأمل هذا التنويه العظيم بهؤلاء الضعفاء فى نظر البشر، تجد أنهم أهل الرِّفعة الرفيعة، والمكانة العاليه عند الله ورسوله، فى الدنيا والآخرة.

وفى هذا التنويه مايوجب إعادة النظر السَّطحى القائم على مبدء المادَّة ومتاع الدنيا فى شأن هؤلاء القوم،حتى يتبوؤا المكانة اللائقة بهم كما هي عند الله تعالى وعند رسوله صلى الله عليه وسلم، وهو الحال الذى كان عليه الصلاة والسلام ينهجه معهم فى حياته، بسلوكه بنفسه كما كان ينهجه بحاله وقوله.

إحسانه صلى الله عليه وسلم للفقراء والمساكين بنفسه:

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم الأب الحانئ والمعلم المربىء والمعيل الكافى لهذه الطائفة من المؤمنين، حيث كان يأوي إليه جم غفير من فقراء المهاجرين يسمَّون بأهل "الصفه"(٢) الذين قال عنهم أبو هريرة رضي الله عنه :"وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولامال ولا على أحد فكان صلى الله عليه وسلم إذا أتته صدقة بعث بها إليهم و لم يتناول منها شيئا، وإذا أتته هدِيَّةٌ أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها"(٣).

وكان صلى الله عليه وسلم يكفِيهم بنفسه أو يأمر من يستطيع ذلك من أصحابه رضى الله عنهم كما قال زعيم أهل الصفة أبو هريرة رضى الله عنه :"كنت من أهل الصفة وكنا إذا أمسينا حضرّنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فيأمر كل رجل فينصرف برجل أو أكثر،فيبقى من بقي عشرة أو أقل أو أكثر، فيأتى النبي صلى الله

---

(١) متفق عليه تقدم تخريجه في الرحمة ص٦١٩.

(٢) نسبة لصفة المسجد وهي الموضع المظلل، بنيت في المسجد لضعفاء المسلمين. النهاية ٣٧/٣، وفتح الباري ٧٠/٢٤.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ١٢٠/٨ .

عليه وسلم بعشائه فنتعشى معه، فإذا فرغنا قال : ناموا فى المسجد"(١) .

وقال ذات يوم لأصحابه رضوان الله عليهم:"من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس أو كما قال: وأن أبا بكر جاء بثلاثة وانطلق النبي صلى الله عليه وسلم بعشرة ..."(٢) .

وعن معاوية بن الحكم السلمي(٣) رضى الله عنه قال: بتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصفة فجعل يوجه الرجل من المهاجرين مع الرجل من الأنصار والرجلين والثلاثة حتى بقيت فى أربعة ورسول الله خامسنا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :"انطلقوا بنا" فلما جئنا قال:" ياعائشة عشينا" فجاءت بجشيشة(٤) فأكلنا، ثم قال: "ياعائشة أطعمينا" فجاءت بحيْسة (٥) فأكلنا، ثم قال:" ياعائشة اسقينا" فجاءت بجريعة من لبن فشربنا ثم قال:" ياعائشة اسقينا" فجاءت بعس من ماء فشربنا ثم قال: "من شأء منكم أن ينطلق إلى المسجد فلينطلق ومن شاء منكم بات هنا.."الحديث(٦) .

فانظر كيف كان صلوات الله وسلامه عليه يهتم بهم ويسد حاجتهم بنفسه أو بعنايته حيث يأمر أصحابه إذا لم يكن حاله يسعفه بذلك، فإنه عليه الصلاة والسلام كان يشاركهم اللأواء، إذ كان يأتى على بيته ثلاثة أهلة فى شهرين وما أوقدت فى

---

(١) عزاه الحافظ في الفتح ٦٩/٢٤ إلى ابن سعد، وشرط الحافظ في ذكر الأحاديث في الفتح أن لا تقل عن درجة الحسن كما في مقدمة هدى الساري ص٤ .

(٢) أخرجه البخاري في علامات النبوة ٢٣٦/٤ من حديث محمد بن أبي بكر رضي الله عنهما .

(٣) شهد مع النبي صلى الله عليه وسلم الخندق، وروى عنه، وسكن المدينة، وهو صاحب القصة في تشميت العاطس وهو في الصلاة، انظر أسد الغابة ٣٨٤/٤، وتهذيب الأسماء ١٠٢/٢ .

(٤) قال في النهاية ٢٧٣/١: هي أن تطحن الحنطة طحنا جليلا، ثم يجعل في القدور ويلقى عليها لحم أو تمر وتطبخ، وقد يقال لها: دتشيشة .

(٥) هو الطعام المتخذ من التمر والأقط والسمن، ا.هـ النهاية ٤٦٧/١ .

(٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية٣٣/٢، وذكره معزوا إليه الحافظ في الفتح ٦٩/٢٤ وله شاهد عند أي داود في الأدب برقم ٥٠٤٠، وابن حبان في صحيحه ٤٣٠/٧ من حديث يعيش بن طخفة عن أبيه .

أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار، وإنما كان غالب قوتهم التمر والماء،كما تقدم لك فى مبحث زهده عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك فقد كان إذا وجد شيئا لم يستأثر به دونهم،كما دل على ذلك قصة أبي هريرة رضي الله عنه فى إحدى جوعاته إذ قال فيها:"آللهِ الذى لا إله إلا هو إن كنتُ لأعتمد بكبدِى على الأرض من الجوع، وإن كنتُ لأشد الحجر على بطنى من الجوع، ولقد قعدت يوما على طريقهم الذى يخرجون منه، فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني، فمر ولم يفعل، ثم مر بي عمر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني، فمر فلم يفعل، ثم مر بى أبو القاسم صلى الله عليه وسلم فتبسَّم حين رآني، وعرف ما في نفسي وما فى وجهي ثم قال : أبا هر، قلت لبيك يارسول الله، قال: الحق، ومضى فتَبِعته، فدخل فاستأذن فأذن لي، فدخل فوجد لبنا فى قدح فقال: من أين هذا اللبن؟ قالوا أهداه لك فلان، أو فلانة، قال : أباهر، قلت : لبيك يارسول الله، قال: إلحق إلى أهل الصفة فادعهم لى ..."إلى أخر ما تقدم ذكره فى الضيافة(١) .

فأعد النظر إليه، وتدبر ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الخلق العظيم فى الأيثار، حيث لم يؤثر بذلك الموجود نفسه، ولا أبا هريرة وحده، بل أشرك فيه سائر أهل الصفة الفقراء، فلمَّا رووا جميعا من ذلك اللَّبن القليل الذى أظهر الله فيه معجزة كبرى لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، لم يشرب حتى شرب ضيفه، أبو هريرة الذى بلغ به الجوع مبلغه، ثم لم يلبث أن شبع بحيث لم يجد له مسلكا .

وكم لهذه القصة من نظائر في تكريم أصحابه الفقراء وغيرهم ممن عمَّتهم الحاجة كما في قصة طعام جابر بن عبد الله رضي الله عنه في غزوة الخندق(٢)، وقصة طعام

---

(١) ص٨١٦ .

(٢) أخرجها البخاري في المغازي، باب غزوة الخندق ٣٨/٥ وفي الجهاد، باب من تكلم بالفارسية ٩٠/٤ ومسلم في الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك برقم ٢٠٣٩ .

أبى طلحة رضى الله عنه(١)، وكما فى حديث عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى قصة طعام الثلاثين والمائة(٢)، وغير ذلك مما يعلم من مباحث معجزاته صلى الله عليه وسلم المدوَّنة فى كتب الحديث والشمائل والسير...

فهذا جانب من إكرامه صلى الله عليه وسلم لهؤلاء الضعفاء .

والجانب الآخر تمثل فى حثه صلى الله عليه وسلم أمته على الأحسان إليهم وسد خَلَّتهم التى لها أبلغ الأثر فى نفوس المؤمنين فى القيام بحقوق هذه الطائفة المباركة من الأمة الإسلاميه .

حثه صلى الله عليه وسلم أمته على الإحسان إلى الفقراء والمساكين :

وحثه صلى الله عليه وسلم لأمته على ذلك وارد من أحاديث كثيرة إليك بعضا منها:

١ - فعن جرير بن عبدالله البجلي(٣) رضي الله عنه قال: "كنا فى صدر النهار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه قوم عراةٌ مجتابي النِّمار(٤) أو العباء، متقلِّدي السيوف عامتهم من مضر، بل كلُّهم من مضر، فتمعَّر(٥) وجه رسول الله صلى الله

---

(١) أخرجها البخاري في الأطعمة، باب من أكل حتى شبع ٧٩/٧ وباب من أدخل الضيفان عشرة عشرة ١٠٤/٧ وفي الأنبياء، باب علامات النبوة في الإسلام وفي مواضع أخر، ومسلم في الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه برقم ٢٠٤٠ .

(٢) أخرجه البخاري في الهبة ، باب قبول الهدية من المشركين ٢١٣/٣ وفي الأطعمة، باب من أكل حتى شبع ٨٩/٧ ومسلم في الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره برقم ٢٠٥٧ .

(٣) الصحابي الجليل قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة عشر وكان طويلا حسنا، كان عمر رضي الله عنه يسميه يوسف هذه الأمة، دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثبات على الخيل والهداية، وأمره في سرية لهدم ذي الخلصة، وتوفي رضي الله عنه بقرقيسيا سنة ٥١ هـ، انظر طبقات ابن سعد ٢٢/٦، وتهذيب لأسماء ١٤٧/١، والإصابة مع الاستيعاب ٢٣٢/١ .

(٤) أي: لابسي النمار، والنمار: جمع نمرة، وهي الشملة المخططة، من مآزر الأعراب .

(٥) أي: تغير لونه من الغضب .

عليه وسلم لِما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج فأمر بلالا فأذَّن وأقام فصلى ثم خطب فقال : ﴿يا أيُّها النَّاسُ اتَّقوا ربَّكم الذى خلَقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زَوجها وبثَّ منهما رِجالاً كثيراً ونِساءً واتَّقوا الله الَّذى تَساءلون بهِ والأرحامَ إنَّ الله كان عليكم رَقيبا﴾[سورة النساء:١] والآية التى فى الحشر : ﴿اتَّقوا الله ولْتنظُر نفسٌ ما قدَّمت لغد﴾[سورة الحشر:١٨] تصدَّق رجلٌ من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال : ولو بشقِّ تمرة قال : فجاء رجل من الأنصار بصُرَّة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال : ثم تتابع الناس حتى رأيت كَومين من طعام وثياب حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تهلَّل كأنه مُذهبة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من سنَّ فى الإسلام سُنَّة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها من بعده،من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء"(١).

فانظر إلى عظيم أثر قول النبي صلى الله عليه وسلم فى نفوس أصحابه حيث بادر الصحابة بالجود بما عندهم لإخوانهم الفقراء حتى سدُّوا حاجتهم، وما كان ذلك سيتحقق لولا ذلك الحث البليغ الذى وجهه صلى الله عليه وسلم، وقد كان كل ذلك فى ميزان حسناته صلى الله عليه وسلم لأنه هو الذي دلهم على ذلك الخير، ثم فى ميزان الصحابي الذى بادر إلى ذلك العطاء.

٢ ـ ومثل هذا ما رواه أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : "دخل رجل المسجد فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطرحوا ثيابا فطرحوا، فأمر له منها بثوبين، فحث على الصدقة أيضا فجاء فطرح أحد الثوبين فصاح به رسول الله صلى الله عليه

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة برقم ١٠١٧، والنسائي في الزكاة ٥/٧٥ .

وسلم وقال : "خذ ثوبك"(١) وتأمل عظيم خلق النبي صلى الله عليه وسلم حيث لم يرض من ذلك الفقير المحتاج صاحب الحس المرهف،الذى لم يكد يسد حاجته، حتى تأثر بحض النبي صلى الله عليه وسلم على الصدقه فبادر إلى التصدق بشطر ما امتلكه من الثياب،لم يرض منه النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لأنه يريد أن يغنيه ويسد حاجته فيراه على حال حسنه .

والأحاديث الواردة فى حثه صلى الله عليه وسلم أمته على الصدقة للفقراء كثيرة معلومة، وفيما ذكر كفاية،غير أن ذلك كله مع صنف من المساكين وهم الذين كانت عزتهم أعظم من فاقتهم،وعفتهم غالبة لهم على عدم إبداء حاجتهم، ومروءتهم لا تسمح لهم بإراقة ماء وجوههم،وهم الذين قال الله عنهم : ﴿...يحسَبُهم الجاهلُ أغنياءَ من التَّعفُّفِ تعرفُهم بسيماهم لا يسألون الناسَ إلحافا...﴾[سورة البقرة:٢٧٣] .

وأما من كان يقدر على إبداء حاجته، وإظهار رفاقته بالسؤال من النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم شأن آخر معهم، إذ لم يكن يرد سائلا قط إلا بإعطائه حاجته من عنده إن كان لديه، أو الاقتراض له إن لم يكن لديه شيء، لما جبل عليه من الكرم والإيثار، وامتثالا لتوجيه الله تعالى له حيث يقول له:﴿وأما السَّائلَ فلا تَنهر﴾[سورة الضحى:١٠] فكان كما يقول جابر بن عبدالله رضى الله عنه "ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء فقال : لا"(٢) .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : "كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل، فإذا لقيه جبريل كان أجود

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب الرجل يخرج من ماله برقم ١٦٧٥، والنسائي في الجمعة، باب حث الإمام على الصدقة يوم الجمعة في خطبته ١٠٦/٣، وفي الزكاة، باب إذا تصدق وهو محتاج إليه يرد عليه ٦٣/٥ وإسنادها حسن .

(٢) متفق عليه تقدم ذكره في الكرم ص٦٣٦.

بالخير من الريح المرسلة(١) كما تقدمت دلائل ذلك بالأمثلة الحية فى مبحث كرمه صلى الله عليه وسلم، فارجع البصر إليها وتأمل بالغ إكرامه صلى الله عليه وسلم لسائليه فى جميع أحواله جِدَةً وعدما، تجد أنه صلى الله عليه وسلم قد بالغ فى إعطاء الفقراء والمساكين وغيرهم، بحيث لن ترى إحسانا فوق إحسانه عليه الصلاة والسلام مهما جوّلت نظرك فى كتب الكرام وأخبارهم.

---

(١) متفق عليه تقدم ذكره وتخريجه أيضا ص٦٣٥.

الفصل الثالث

الأخـــلاق الاجـــتـــمـــاعـيـة المـاديـــة

وفيه تمهيد وستة مباحث:

- التمهيد: في علاقة المعاملات المادية بالأخلاق .
- المبحث الأول: البيع والشراء .
- المبحث الثاني: القرض والقضاء .
- المبحث الثالث: الرهن .
- المبحث الرابع: الإجارة .
- المبحث الخامس: العارية .
- المبحث السادس: الصلح .

تمهيد فى بيان علاقة المعاملات الماديه بالأخلاق :

إن من أجل وأهم الأمور الاجتماعية التى لا غِنى للمرء عنها، إذ لا يكاد يمر عليه زمن دون مزاولتها : هي المعاملات الاجتماعيه المادية من بيع وشراء، واقتراض وقضاء، ورهن وإجاره، ونحو ذلك مما يجرى التعامل به بين الناس، ولا تخلو حياة أحد منهم عنها؛(لأن الانسان مدنِيٌّ بالطبع كما قالوا؛بمعنى أنه لا يمكن له التفرد عن الجماعة بعيشه، بل يفتقر بعضهم إلى بعض فى مصالح الدين والدنيا(١))

وأجل المصالح الدنيويه هي هذه المعاملات الماديه. فكان بالضرورة والطبع مفتقرا إلى مزاولتها بين الحين والآخر لتستقيم حياته فى الدنيا، ويستطيع تأدية الغاية من إيجاده فيها. وبقدر ما هو مضطر إلى تلك المعاملات، يكون مضطرا إلى ما يَقوم بها ويجعلها زكيَّة نقيَّة تؤتى ثمارها وتحقق السعادة لصاحبها فى الدنيا والآخرة، وذلك بتحلي صاحبها بالأخلاق الإسلاميه عامة والمتعلقة منها بالمعاملات المادية خاصة.

لأن المرء إن لم يكن متحليا بها فإنه سيغلب عليه حرصه على المال، ونَهَمه فى جمعه المغروز فى طبعه، ثم يكون آخر أمره نكالا عليه فى الدنيا والآخرة كما قال الله تعالى: ﴿والَّذين يكنِزون الذَّهبَ والفضَّة ولا يُنفقونها فى سبيلِ اللهِ فبشِّرهم بعذابٍ أليم * يوم يُحمى عليها فى نار جهنم فتُكوى بها جِباهُهم وجُنوبُهم وظُهورهم هذا ما كنَزتُم لأنفسكم فذُوقوا ما كنتُم تَكنزون﴾[سورة التوبة:٣٤-٣٥] فترى كيف انقلب المال الذى كان يُرجى خيره إلى نكال على صاحبه يعذب به أشد أنواع العذاب لمَّا لم يهذب المرء نفسه بالتهذيب الأسلامى، بل أطلق لنفسه هواها فمنع منه الزكاة وحق السائل والمحروم ضنا به وشحا عليه وحرصا على جمعه وعدم النقص من عدده، وكأنه مقصود بالذات عنده، فأصبح وبالا عليه فالمال إذا كان بهذه المثابة، فهو عدوحقيقيٌّ للمرء يورده المهالك كما جاء فى الحديث : "من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مُثِّل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوَّقه يوم القيامه ثم يأخذ بِلهزمتيه - يعنى شدقيه -

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٣٧٤ . انظر

ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك ثم تلا : ﴿ولا يَحسَبَن الَّذين يَبخلونَ بما آتاهُم الله من فضلِه هو خيرًا لهم بل هو شرٌّ لهم سيُطَوَّقون ما بخلوا به يومَ القيامة...﴾[سورة آل عمران:١٨٠](١) .

فلا سبيل إذا لتجنب مخاطر المال وآثاره الوخيمة فى الدنيا والآخرة إلا باتباع الشرع المطهر فى أحكامه وآدابه، فإنه بذلك ينال المرء مراده منه وينعم به فى دنياه وآخرته، ولذلك جاء فى الحديث :"نعم المال الصالح للمرء الصالح"(٢)؛ وذلك لأن المرء الصالح يأخذهُمن حله ويؤدي حقه، ولا يخرج عن نهج نبيه صلى الله عليه وسلم فيه فإن المال فى الحقيقة هو وسيلة للسعادة الدنيوية والأخروية كما جاء فى الحديث : "ذهب أهل الدُّثور(٣) بالدَّرجات العُلى والنعيم المقيم.." الحديث(٤) .

ولكن لا يكون كذلك إلا إذا روعي فيه تعاليم الشرع الحنيف فى الأحكام والأخلاق، فى الكسب والإنفاق والتعامل بين الناس.

وبما أننا فى صدد بيان الأخلاق النبويه على ضوء الكتاب والسنه، فإننا معنيُّون إذاً ببيان أخلاقه صلى الله عليه وسلم فى هذا الجانب الاجتماعى المهم الذى يعد فى الحقيقة معيار ديانة المرء وزكاء أخلاقه،كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لمن أراد أن يزكي رجلا عنده بالعدالة، فقال له عمر : "هو جارك الأدنى تعرف ليله ونهاره ومدخله ومخرجه؟ قال : لا، قال فعاملك بالدرهم والدينار الذى يستدل بهما على الورع؟ قال : لا، قال فصاحبك فى السفر الذى يُستدلُّ به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا، قال:

---

(١) متفق عليه وتقدم تخريجه ص٢٨٨

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٩٧/٤ من حديث عمرو بن العاص، وعزاه الهيثمي في المجمع ١٦٧/٤ إليه وإلى أبي يعلى، قال: ورجال أحمد رجال الصحيح، وصححه أيضا الألباني في غاية المرام ص ٢٦٢ رقم ٤٥٤ .

(٣) جمع دثر: وهو المال الكثير .

(٤) متفق عليه وتقدم تخريجه ص ٢٨٢.

فلست تعرفه، ثم قال للرجل: ائتنى بمن يعرفك"(١) .

فهكذا كان السلف الصالح رضوان الله عليهم ينظرون إلى أن المال معيار التدين، فمن حافظ على آداب الاسلام فيه كان ذلك دليلا على مِلاك دينه المتمثل فى الورع .

وإننا فى زمن لا يكاد أهله يعرفون للمعاملات الماديه أخلاقا ولا آدابا، فتراهم ينشدون الكسب والجمع من حيث كان، ويرون أن الغش ذكاءً،والمخادعة خبرة، إذا حققا لهم كسباً أو رواجا .

مع أن القرآن الكريم مليء بأداب المعاملات الماديه وأخلاقها، وتمثلت فى سلوك النبي صلى الله عليه وسلم بأوضح صوره وأكمل بيان، ولكن واقع المسلمين يؤسف فهو على غير الحال الذى يجب أن يكون من الاهتداء بالقرآن والسنه، لسبب التنافس على الدنيا ولو كان فى ذلك خراب للدِّين، لهذا كان هذا الفصل من أهم فصول الرسالة وبالله التوفيق .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/١٢٥، وصححه الألباني في الإرواء برقم ٢٦٣٧، ٨/٢٦٠ .

المبحث الأوَّل

(البيع والشراء)

البيع لغة: مقابلة شيء بشيء، يقال: باع الشيء يبيعه بيعا ومَبيعا: أعطاه إيَّاه فهو بائع، وباعه أيضا: اشتراه، فهو من الأضداد،يطلق على كل واحد من المتابعين أنه بائع، ومنه: "ولا يبع أحدُكم على بيع أخيه"(١) أي: لايشتر على شراء أخيه، فإنما وقع النهى على المشترى لا على البائع،ولكن إذا أطلق البائع فالمتبادر إلى الذهن أنه باذل السِّلعة(٢) .

ومنه المبايعة والتبايع التى تجرى مع السلطان والمسمى بالبيعة، وهى عبارة عن المعاقدة والمعاهدة، التى تجرى بينهما المتضمنة لبذل الطاعة له بما رضخ له، فكأن كل واحد منهما باع ما عنده من صاحبه، وأعطاه خالصة نفسه وطاعته ودخيلة أمره(٣) .

والبيع فى الشرع يعنى "عقد معاوضة ماليَّة تفيد ملك عين أو منفعة على التأبيد"(٤)

مكانة البيع والشراء فى المعاملات الماديه وعناية القرآن الكريم به :

والبيع والشراء، من المعاملات المادية الاجتماعيه التى يفتقر متعاطوها إلى التهذيب والتأديب، حتى يكون التعامل المادي قائما على الأخلاق الإسلامية الفاضلة الكفيلة بالسعادة الأبديه للمتعاملين، والربح المادى والمعنوى فى الحياة الدنيا، ولهذا كان محل عناية القرآن الكريم من حيث تشريعُ أحكامه والإشارة إلى آدابه، وعناية السنة المطهرة من حيث بيانُ تلك الأحكام، وإضفاء الصِّبغة الخُلقيه عليها ، من صدق ، وأمانة ووفاء، وقناعة، وإيثار ، ورغبة فيما عند الله من الأجر، ورهبة مما لديه من العذاب... إلى غير ذلك مما يزع الضمير إلى حسن التعامل مع الآخرين ، كما سينجلى كل ذلك

---

(١) هذا جزء من حديث سيأتي ذكره وتخريجه ص٩٠٤.

(٢) المصباح المنير ٧٧/١، ومختار الصحاح ص ٧١، والقاموس الفقهي لسعدي أبو حبيب ص ٤٤ .

(٣) المفردات للراغب ص ٦٧، وتاج العروس ٢٨٥/٥ .

(٤) الياقوت النفيس في مذهب الإمام ابن إدريس للشاطري ص ٧٤ .

إن شاء الله تعالى فى مباحث المعاملة الأتى بيانها ، ولنبدأ الآن فى ما الحديث بصدده من مبحث البيع والشراء فأقول:

عناية القرأن الكريم ببيان أحكام البيع والشراء وأخلاقه:

شرع الله تعالى البيع لعباده لكثرة الحاجة إليه بين العباد حيث لايستغنى عن تعاطيه أحد مطلقا، ولا تقوم حياته إلا بالبيع والشراء ، لإن الإنسان مدني بالطبع ، أي: لايمكن له التفرد عن الجماعة بعيشه، بل يفتقر بعضهم إلى بعض فى مصالح الدين والدنيا،لذلك فقد أحل الله لعباده البيع كما تظاهرت على ذلك دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة(١) وهو معلوم من الدين بالضرورة، وحرم عليهم ما يضر بمصالحهم المادية التى بها قِوام حياتهم، من ربا،وغش،وخداع،وغصب ، وسرقة، وخيانة، واحتكار، ونحو ذلك مما يعلم من مظانه فى كتب الفقه، أو مما ستأتى الإشارة إليه.

ومن نصوص الكتاب العزيز فى ذلك قول الله تعالى: ﴿...وأحلَّ اللهُ البيعَ وحرَّم الرِّبا﴾[سورة البقرة:٢٧٥] وقوله سبحانه:﴿ياأيُّها الذين آمنوا لاتأكُلوا أموالَكم بينَكم بالباطلِ إلاَّ أن تكونَ تجارةً عن تَراضٍ منكم...﴾[سورة النساء:٢٩] .

فإن الآية الأولى أباحت كل بيع معهود لدى من خوطبوا بالتنزيل،إلا ماخصه دليل آخر بالتحريم كالربا وغير ذلك مما نهى عنه ومنع العقد عليه كالخمر والميتة وحَبَل الحَبَلَة(٢).. وغير ذلك مما ثبت النهي عنه فى السُّنَّة وإجماع الأمة، فالإباحة المذكورة من قبيل العام المخصوص(٣) .

والآيه الثانية، استثنت من عموم النهى عن أكل الأموال بالباطل ـ الذى هو اسم جامع لكل ما لايحل فى الشرع كالربا والغصب والسرقة والخيانة وكل محروم ورد

---

(١) انظر شرح المجموع المهذب للإمام النووي ١٤٨/٩ .

(٢) هو بيع ما في بطون النوق ونحوها، وعلة النهي الغرر الحاصل من تلك الصفقة، انظر المصباح المنير ١٢٩/١ .

(٣) انظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ٣٥٦/٣ .

الشرع به -(١) استثنت الأكل عن طريق التجارة التى تعنى المعاوضة، وذلك هو البيع والشراء وهو استثناء منقطع، لكون المستثنى ليس من جنس المستثنى منه، فذلك باطل وهذا حق والمعنى:(لكم أكلها بتجارة عن تراض منكم، والتعبير بالأكل مجاز عن الانتفاع بالشيء انتفاعا تاما(٢)).

وفى كلا الآيتين إشارة إلى تقويم الخُلُق الحميد فى المعاملات الماديه، فإن الآية الأولى لم تنص على حل البيع ومشروعيته، حتى أتت على ذكر الرِّبا(٣)، وآكليه بأسلوب الذم والتهديد بالمصير الأليم، لينكفُّوا عنه، ويأخذوا ما هو الأفضل والأرفق بالمتعاملين وهو البيع بغير وَكس ولا شطط؛ لأن الربا لا يريده إلا جشع النفس هلوع على المال، لا يرعى الحاجة التى يمر بها أخوه، ولا التراحم التى تقتضيها الأخوة الإسلاميه والإنسانيه، فكان من الأنسب أن يقدم التنفير من تعاطى الربا، جريا على الأسلوب العربى المعروف فى تقديم التخلية على التحلية.

فلماترسخ فى أنفس السامعين خطر تعاطى الربا جاء النهى الصريح عن تعاطيه، والوعيد الجازم بسوء مصير مقترفيه، كل ذلك فى قوله تعالى : ﴿الَّذين يأكُلونَ الرِّبا لا يقُومونَ إلاَّ كما يقومُ الَّذى يتخبَّطُه الشَّيطانُ من المسِّ ذلك بأنَّهم قالوا إنَّما البيعُ مثلُ الربا وأحل اللَّه البيعَ وحرَّم الربا فمن جاءَه موعظةٌ من ربِّه فانتهى فله ما سلَفَ وأمرُه إلى اللهِ ومن عادَ فأولئِك أصحابُ النَّار هم فيها خالدون﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿يا أيُّها الذين آمنوا اتَّقوا اللهَ وذروا ما بَقيَ من الرِّبا إن كنتُم مؤمنينَ * فإن لم تَفعلوا فأذَنوا بحربٍ من اللهِ ورسولِه وإن تبتُم فلكم رءوسُ أموالِكم لا تَظلمون ولا تُظلمون﴾[سورة البقرة:٢٧٥-٢٧٩] .

---

(١) المجموع في شرح المهذب ١٤٥/٩ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٣/٥ .

(٣) الربا في اللغة: الزيادة، وفي الشرع: عقد على عوض غير معلوم التماثل في معيار الشرع حالة العقد أو مع تأخير في البدلين أو أحدهما، الياقوت النفيس ص ٧٩ .

فتأمل هول التَّهديد الشديد والوعيد الأكيد المترتب على تعاطى الربا، تجد مبلغ العناية الإلهية فى تقويم السلوك وتهذيب الأخلاق، لأن الربا ظلم لا يتعاطاه إلا الذين فقدوا القيم الأخلاقيه النبيله، وتحلَّوا برذائلها قد فعهم الجشع والهلع والأثَره إلى تعاطيه ومزاولته فآذنهم الله سبحانه بمحاربته ومحاربة رسوله، ومعلوم أن من حاربه الله ورسوله لا يفلح أبدا، إذ من ذا الذى يقدر على محاربة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم؟ فلا شك أن من حاربه الله قصمه "وفى ذلك إيماء إلى سوء خاتمة متعاطي الربا إن دام عليه"(١) ولم يتب إلى الله من قريب، وفى هذا الإنذار والوعيد ما يوجب الانكفاف عن تعاطيه (لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد) فيتجرد من مساوىء الأخلاق إلى محاسنها بأخذه رأس ماله غير ظالم ولا مظلوم.

أما الآية الثانية فإنها قد جاءت بمثل ذلك الأسلوب المتقدم فى الآية الأولى؛ حيث إنها لم تنص على إباحة التجارةحتى حرَّمت جميع أصناف الكسب الذى يحصل من طرق غير مشروعة تنشأ عن فقد الأخلاق، وهي التى سمَّاها الله تعالى (بالباطل) حيث قال : ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تَأكلُوا أموالَكم بينَكم بالباطل﴾[سورة النساء:٢٩] والباطل لغة: هو الذاهب الزَّائل(٢)، وهو هنا اسم جامع لكل ما لم يبحه الشرع كما تقدم، من أكل الربا والقمار والرشوة والغصب والسرقة والخيانة وما جرى مجرى ذلك مما كان عليه حال العرب فى الجاهلية الذين لم يكن لهم من مكارم الأخلاق ما يزعهم عن تعاطي هذه الأمور التى تعد من معالم مساوىء الأخلاق وعناوينها، لأنها إنما تجرى ممن كان منغمسا فى الرذائل الخلقيه.

فنهى الله عز وجل عن كل ذلك بآية النساء هذه، وبآية البقرة حيث قال سبحانه : ﴿ولا تأكلُوا أموالَكم بينَكم بالباطلِ وتُدلُوا بها إلى الحكَّام لِتأكُلوا فريقاً من أموال الناس بالإثمِ وأنتُم تَعلمون﴾[١٨٨] وفى تكرار النهي عن ذلك دليل على مبلغ

---

(١)محاسن التأويل ٣/٣٧٤ .

(٢) جامع أحكام القرآن للقرطبي ٢/٣٣٩ .

العناية الربانية بتقويم خلق الإنسان، وإضافة على ذلك فقد ذكر من لم ينته عن هذه المساوىء فى معرض الذَّم والتنفير، حيث قال سبحانه : ﴿يا أيُّها الذين آمنوا إنَّ كثيرًا من الأحبارِ والرُّهبان ليأكلون أموالَ الناسِ بالباطلِ ويَصُدُّون عن سبيل الله﴾[سورة التوبة:٣٤] فإن فى ذكره سبحانه لحال هؤلاء بهذا الأسلوب؛ تحذيرا للمؤمنين أن يتشبَّهوا بهم فى هذه الأخلاق المقيتة،التى جعلت أحبار أهل الكتاب ورهبانهم يصدون عن سبيل الله وهو دين الاسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم؛لأجل أن يستمر لهم أكل أموال الناس بالباطل من أتباعهم، حيث رأوا أنهم لو بيَّنوا لهم صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم لزالت رِياستهم عليهم، وذهب عنهم ما يكسبون من السُّحت عن طريقهم، باتباع أولئك لدين الحق.

والحامل لهم على ذلك هو الجشع والهلَع على المال وجمعه من حيث أتيح لهم جمعه، وإن كان عن طريق أكل أموال الناس بالباطل، ونقض العهد الذى أخذه الله عليهم من البيان للنَّاس عن صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدق ما جاء به والإيمان به حتى يؤمن به أتباعهم والمذكور فى قوله تعالى : ﴿وإذا أخذَ اللهُ ميثاقَ الَّذين أوتوا الكتاب لَتُبَيِّنُنَّه للنَّاس ولا تكتمونَه فنبذوه وراءَ ظهورِهم واشتَروا به ثمنًا قليلا فبِئسَ ما يَشتَرون﴾[سورة آل عمران:١٨٧] .

ففى بيان حال هؤلاء عِظةٌ وعبرة لأولى الألباب عن الشُّح فى الدنيا والجشع فى جمعها، إذ أن ذلك أودى بهم إلى الخسران المبين فى الدنيا والآخرة، ولم ينالوا من الدنيا إلا ما قدر لهم منها، وفى الأخرة عذاب شديد، ولعنة تتبعهم إلى يوم المآب، كل ذلك بسبب سوء أخلاقهم المتمثِّلة فى الجشع على جمع المال من حلِّه أو من غير حله، وفى هذا غاية البيان والرشاد إلى سلوك مكارم الأخلاق فى مجال التعامل المادى حيث حظرت الآيات الكريمة جميع وسائل الكسب التى تأتي عن طرق غير أخلاقيه، ثم أباحت ما كان من ذلك عن طريق التجارة القائمة على التراضي كما قال سبحانه : ﴿إلاَّ أن تكونَ تجارةً عن تَراضٍ منكم﴾[سورة النساء:٢٩] .

وفى ذكر التَّراضى إشارة إلى ما يجب أن يكون عليه تعامل المتبايعين من سماحة

النفس بما قد يحصل فى الكيل أو الوزن أو المساحة من زيادة أو نقص قليلين، ومن قناعة بالثمن والمثمَن وبذل ذلك كله بطيب نفس منهما، ونحو ذلك من مكارم الأخلاق المعلومة فى مجال التعامل المادي الاجتماعي، مما توحى به كلمة (تراض) الذى هو أمر قلبي لا يطلع عليه إلا الله تعالى ثم الشخص نفسه، وقيدت الآية التعامل به ليحرص كل منهما على سماحة خلقه بالعقد حتى يصح البيع "ومن هنا أخذ الشافعى رحمه الله اعتبار الايجاب والقبول لفظا، لأن الرضا أمر قلبي فلابد من دليل عليه"(١) ولغيره أن يستدل بالآية على عدم اشتراطه إذا حصل مايدل عليه بالأفعال كالحيازة ونحوها مما يجرى فى بيع المعاطاة، فإن الأفعال تدل عليه فى بعض الأحيان قطعا(٢) .

---

(١) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٧١ .

(٢) انظر محاسن التأويل ٥/١١٥ .

تمثل أخلاق

البيع والشراء فى النبي صلى الله عليه وسلم

ذلك هو هدي القرآن الكريم فى تشريع البيع،وتلك هي آدابه الإجماليه المستنبطه من آيات التشريع، أما هدي النبي صلى الله عليه وسلم فى ذلك فهو الهدي المبيِّن لما أجمل فى القرآن من التشريع والآداب، بالسلوك الفعلى والقولى .

فقد عامل صلى الله عليه وسلم بالبيع والشراء منذ حداثة سنه،فكانت متاجرته دالة على عظيم خلقه وكريم معاملته، وذلك حينما تاجر لخديجة بنت خويلد رضى الله عنها قبل النبوة، حيث سافر إلى الشام مع غلام لها يُسمَّى "مَيسرة" فربح أضعاف ماربح الناس، فلما رجع من الشام ، أخبرها ميسرة بما رآه من كرامته صلى الله عليه وسلم وصدقه وأمانته، وما أخبر به الراهب(١)، وما رأه من تظليل الغمامة له، وغير ذلك حتى رغبت فيه خديجة رضى الله عنها، فخطبته إلى نفسها كما تقدم(٢) وأضعفت له الأُجرة(٣)،

وروى أبو داود عن السَّائب بن السائب رضي الله عنه قال :أتيت النبي صلى

---

(١) المسمى نسطور، وذلك أن الركب نزل بقرب صومعته فنزل إليهم منها، وكان لا ينزل لأحد،وطاف بهم حتى رأى النبي صلى الله عليه وسلم فعرف فيه علامات النبوة فأكرمه، وأضافهم من أجله، وعرَّفهم أنه نبي هذه الأمة، وأنه خاتم النبيين وقال له: (احذر على نفسك من كيد اليهود والنصارى، وأوصى ميسرة به، فقيل له: كيف عرفت أنه نبي ؟ فقال: إنكم لما أقبلتم لم يبق شجر ولا حجر إلا سجد إلى جهتكم) انظر خبره في سيرة ابن هشام مع الروض الأنف ٢١٢/١، والوفا بأحوال المصطفى ١٤٣/١، ودلائل النبوة للبيهقي ٣٠٧/١-٣١٢، وحدائق الأنوار لابن الديبيع ١٢٠/١، والسيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم ضياء العمري ١١٢/١ .

(٢) ص ٧٠٠.

(٣) انظر حدائق الأنوار لابن الديبيع ١٢٠/١، ١٥٣ .

الله عليه وسلم فجعلوا يثنون علي ويذكروني، فقال صلى الله عليه وسلم :"أنا أعلمكم" يعنى به ، فقال السائب: قد صدقت بأبى أنت وأمى كنت شريكى فنعم الشريك كنت لاتدارى ولاتمارى"(١) :"يريد لاتحالف ولاتمانع، فيصف النبي صلى الله عليه وسلم بحسن الخلق والسهولة فى المعاملة"(٢) .

ومن هنا قال أبو زهرة(٢) :"وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان شريكا للسائب بن أبى السائب واستراح إلى شركته؛ ورأى فيه مايمازج أخلاقه وإن لم يسم إليها، ولكنه على أى حال رأى الشريك الأمين السمح فى معاملته فكان لايمارى، أي: لايجادل فى الشراء، ولايخفى الخبيث من البضائع ويظهر الطيب مما رآه فى تجارته" قال: ولم يذكر فى التاريخ ما كان يتجر فيه ، لأن كتاب السيرة لايعنون فى حياة النبي بحياته الإنسانية، بمقدار عنايتهم فيما يتعلق بالرسالة وإرهاصات النبوة، وخوارق العادة

---

(١) أبو داود في الأدب،باب كراهية المراء برقم ٤٨٢٦،وأحمد في المسند ٤٢٥/٣،وأبو إسحاق الحربي في إكرام الضيف برقم ٤٩، وابن ماجه في التجارات، باب الشركة والمضاربة برقم ٢٢٨٧، وابن الجوزي في الوفاء ١٤٢/١ . وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم

قال المنذري في مختصر سنن أبي داود ١٨٨/٧: والسائب هذا قد ذكر بعضهم أنه قتل كافرا يوم بدر، قتله الزبير بن العوام، وذكر بعضهم أنه أسلم وحسن إسلامه، قال: وهذا هو المعول عليه، وقد ذكره غير واحد من الأئمة في كتب الصحابة، قال: وهذا الحديث قد اختلف في إسناده اختلافا كثيرا، وذكر أبوعمر بن عبد البر النمري: أن هذا الحديث مضطرب جدا، منهم من يجعله للسائب بن أبي السائب، ومهم من يجعله لأبيه، ومنهم من يجعله لقيس بن أبي السائب، ومنهم من يجعله لعبد الله بن عبد الله بن السائب، وهذا اضطراب لا تقوم به حجة، قال: والسائب بن أبي السائب من المؤلفة قلوبهم، وانظر الاستيعاب بهامش الإصابة ١٠٠/٢، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ٢٥٤/٢ .

(٢) معالم السنن للخطابي مع المختصر للمنذري ١٨٨/٧ .

(٣) هو الشيخ محمد أحمد أبو زهرة من كبار العلماء في العصر الأخير في الفقه والأصول والتاريخ، وله نحو أربعين مؤلفا، وتوفي بالقاهرة سنة ١٣٩٤ هـ، انظر الأعلام ٢٥/٦، ومقدمة كتابه خاتم النبيين .

الصادقة التى أحاطت بحياته فى حَلِّه وتَرحاله..."(١) هكذا كانت معاملته صلى الله عليه وسلم المادِّية قبل بعثته،قائمة على الصدق والأمانة والسُّهولة، أما بعدها فإنه صلى الله عليه وسلم لم يعد يزاول التجارة لانشغاله بما كلَّفه الله تعالى به من تبليغ الرسالة والدعوة والجهاد التى لاتبقى له وقتا يمكن قضاؤه فى تجارة أو زراعة أو نحوها، غير أن ضرورة الحياة، قد كانت تُحوجه أحيانا إلى تعاطى بعض المعاملات الخاصة من بيع أو شراء أو اقتراض أو رهن أو استعارة أو نحو ذلك مما سيأتى بيانه، وقد كانت تلك الوقائع تدل على عظيم خلقه فى معاملات الناس بأموالهم، وحسن تصرفه فى معاملاته ومساومته، ومن ذلك :

١ ـ ما أخرجه البخارى تعليقا وغيره مسندا من مكاتبة النبي صلى الله عليه وسلم للعدَّاء بن خالد(٢) جاء فيها :"هذا ما اشترى محمد رسول الله من العدَّاء بن خالد، بيع المسلم المسلم ، لا داءَ ولا خَبيثةَ ولا غائِلة"(٣) .

---

(١) خاتم النبيين ١٧٩/١ .

(٢) ابن هوذة، أسلم بعد الفتح وحنين، وهو من أعراب البصرة، وعاش إلى زمن خروج يزيد بن المهلب، انظر أسد الغابة ٣٨٨/٣، والإصابة ٤٦٦/٢ .

(٣) البخارى في البيوع، باب إذا بيَّن البيعان ولم يكتما ونصحا ٧٦/٣ بصيغة التمريض، قال الحافظ في الفتح: ١٥٨/٩: وقد وصل الحديث الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن الجارود وابن مندة كلهم من طريق عبد المجيد بن أبي زيد عن العداء بن خالد، فاتفقوا على أن البائع النبي صلى الله عليه وسلم، والمشتري العداء عكس ما هنا، ثم أجاب عما وقع هنا فقال: فقيل: إن الذي وقع هنا مقلوب، وقيل: هو صواب وهو من الرواية بالمعنى؛ لأن اشترى وباع بمعنى واحد، ولزم من ذلك تقديم اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم على اسم العداء، لكن قال في تغليق التعليق ٢٢١/٣: إنه تأويل متكلف .

ونص المكاتبة كما جاءت في رواية الترمذي ٥١١/٢ وغيره هي: (هذا ما اشترى العداء بن خالد بن هوذة، من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، اشترى منه عبدا، أو قال: أمة، لا داء ولا غائلة ولا خبثة، بيع المسلم المسلم) وقال عنه الترمذي: حسن غريب .

=

والخبيثة الحرام، والغائلة السرقة، أراد أنه ملك اليمين غير مسروق.

٢ - ومن ذلك مارواه أنس بن مالك رضى الله عنه أن رجلا من الأنصار أتى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله، فقال: "أما فى بيتك شىء؟" قال : بلى، حِلس(١) نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه من الماء، قال ائتنى بهما قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وقال :"من يشترى هذين؟" قال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قال "من يزيد على درهم؟" مرتين أو ثلاثا ، قال رجل : أنا أخذهما بدرهمين" فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصارى، وقال: "اشتر بأحدهما طعاما، فانبذه إلى أهلك، وإشتر بالآخر قدوما فائتنى به" فأتاه به فشد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عودا بيده ثم قال: "اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يوما" فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاءه وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبا وببعضها طعاما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة : لذى فقر مدقع، أو لذى غرم مفضع، أو لذى دم موجع"(٢) .

= وأخرجه ابن ماجه في التجارات، باب شراء الرقيق برقم ٢٢٢٥ .

والداء: هو المرض والعاهة ، والخبثة: نوع من أنواع الخبث أراد به الحرام، والغائلة: الخصلة التي تغول المال أي: تهلكه من إباق وغيره، ا.هـ جامع الأصول لابن الأثير ٤٩٦/١ .

(١) الحلس: كساء رقيق يكون تحت برذعة البعير، والقعب: إناء كبير. انظر المصباح المنير ١٥٨/١، ١٦٩/٢.

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب ما تجوز فيه المسألة برقم ١٦٤١، والترمذي في البيوع مختصرا، باب ما جاء في بيع من يزيد برقم ١٢١٨، والنسائي في البيوع مقتصرا على (باع من يزيد)، وابن ماجة في التجارة ٧٤٠/٢ برقم ٢١٩٨، وقال عنه الترمذي: حسن لا يعرف إلا من حديث الأخضر بن عجلان، قلت: وهو صدوق كما في التقريب رقم ٢٩١، وانظر عون المعبود ٥٥/٥ برقم ٢١٩٨، وضعفه الألباني في الإرواء ١٣٠/٥ لحال أحد رواته وهو أبو بكر الحنفي كما أعله به الذهبي والعسقلاني وابن القطان .

فانظر إلى مبلغ حكمته صلى الله عليه وسلم فى إعفاف الرجل من حر ماله، بحيث لايكون لأحد عليه مِنَّه فقد استعمل النبي صلى الله عليه وسلم منزلته الجليله وخبرته فى البيع، فباع متاع الرجل بالمزاد العلنى الذى لايجرى به غبن على البائع ولاحيف على المشترى، وإنما بالقدر الذى تستحقه السلعة المعروضة بالفعل، إذا لم يبذل ثمنها الحقيقى من الراغب الأول، فلما استقر الثمن الحقيقى لها باعها منه، ووجه الرجل إلى الكسب الذى يعف نفسه وأهل بيته، فحصل للرجل مراده من الكفاف، وللنبي صلى الله عليه وسلم مراده من الإعفاف، كل ذلك بفضل بيعه الميمون.

٣ - ومثل هذه الصورة مارواه جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رجلا أعتق غلاما له عن دبر(١)، فاحتاج فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "من يشتريه منى؟ فاشتراه نُعيم بن عبدالله بكذا وكذا، فدفعه إليه"(٢) .

وإنما فعل النبي ذلك لما رأى حاجة الرجل إلى الثمن فإنه كان/قد أفلس كما فى بعض روايات الخبر، فلم يكن ليقرَّه على الإحسان وهو فى أمس الحاجه إلى شىء من المال، ليفك رقبته من الدين الواجب عليه أداؤه فى الدنيا وإلا ظل مرتهنا به فى الآخرة حتى يقضي ثمنه، أو يأخذ من حسناته فيعطى لصاحب الحق بقدر حقه كما جاء فى الحديث.

والنبي صلى الله عليه وسلم لا يرضى له بذلك وهو يقدر على تخليصه من الإفلاس وحقوق الناس لما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من العدل والرحمة وإيثار الحق.

٤ - ومن صور تعامله صلى الله عليه وسلم فى البيع لمثل هذه الأغراض من إقامة الحق والعدل ما رواه الواقدى(٣) عن يزيد بن رُومان رحمه الله قال : بينا رسول الله

---

(١) أي: علق عتقه إلى بعد موته .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع، باب بيع المزايدة ٩١/٣ .

(٣) هو محمد بن عمر الواقدي صاحب المغازي توفي سنة ٢٠٧ هـ،وهو ضعيف عند المحدثين بل متروك =

صلى الله عليه وسلم جالسا فى المسجد مع رجل من أصحابه، فأقبل رجل من زبيد يقول : يا معشر قريش : كيف تدخل عليكم المادة، أو يجلب إليكم جَلب، أو يحل تاجر بساحتكم وأنتم تظلمون من دخل عليكم فى حرمكم؟ يقف على الحِلَق حِلْقة حِلْقة، حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صَحبه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : منْ ظلَمك؟ فذكر أنه قدم بثلاثة أجمال كانت خير إبله، فسامه بها أبو جهل ثلث أثمانها، ثم لم يسمه بها لأجله سائم، فأكسد عليَّ سلعتى وظلمنى،قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وأين أجمالُك؟" قال : هي هذه با"الحزْورة"(١) فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام معه أصحابه فنظر إلى الأجمال فرأى أجمالا فُرْها(٢)، فساوم الزَّبيدِى حتى ألحقه بِرضاه، فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم فباع جملين منها بالثمن، وأفضل بعير ابتاعه وأعطى ثمنه أرامل بنى عبدالمطلب، وأبو جهل جالس فى ناحية من السوق لا يتكلم،ثم أقبل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "أبا عمرو إياك أن تعود لمثل ما صنعت بهذا الأعرابي فترى ماتكره" فجعل أبو جهل يقول : لا أعود يا محمد،لا أعود يا محمد، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم)(٣) .

فانظر إلى معاملته صلى الله عليه وسلم وإنصافه أرباب الأموال مثل هذا الرجل الذى كاد أن يضام فى ماله أو يكسد فيرجع بلا بيع، لولا معاملة العادل الرحيم صلى الله عليه وسلم له بشرائه منه، حيث أخذ الأجمال بقيمتها المرضية لدى صاحبها، ثم

= مع سعة علمه، غير أن ما يرويه في المغازي والسير إذا لم يخالف الأخبار الصحيحة ولا غيره من أهل المغازي فإنه مقبول، كما أفاد الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٢٩١/٢، وانظر السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٦١/١ .

(١) اسم موضع بمكة عند باب الحناطين سابقا المعروف الآن بالمدعى .

(٢) أي: نشيطة حادة قوية كما في النهاية ٤٤١/٣ .

(٣) انظر كتاب محمد رسول الله للصادق عرجون ٣٢٦/١ .

أفاء الله عليه ببركة عدله وصدقه فى معاملته أن أربحه الثمن المدفوع من جملين، فكان من شكر الله تعالى على نبيه أن تصدق بثمن الجمل الثالث على قرابته لتكون له صدقة وصلة وبر بالأرامل المعوزات اللاتى طالما كان يحث على الإحسان إليهن كما تقدم بيانه(١) .

٥ ـ ولقد كان من تعامله صلى الله عليه وسلم إعطاء أصحاب السلع الثمن الذى يرضونه ثم يتفضل عليهم بالمزيد كما جاء من حديث سويد بن قيس(٢) رضى الله عنه قال : جلبت أنا ومخرَفة العبدي بزاً(٣) من هَجَر، قال : فأتينا به مكة، فجاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فساومنا سراويل(٤)، فبعنا منه فوزن ثمنه، وقال للذى يزن : "زن وأرجح"(٥) .

٦ ـ وعن جابر بن عبدالله رضى الله عنه قال : "بعت النبي صلى الله عليه وسلم بعيرا فى سفر فلما أتينا المدينة قال: "ائت المسجد فصل ركعتين" قال : فوزن لى فأرجح، قال : فما زال منها شيء، حتى أصابها أهل الشام يوم الحرّة"(٦) .

---

(١) في مبحث معاملة الأرامل والمساكين ص٨٥٥

(٢) العبدي أبو مرحب، له ولمخرفة العبدي المذكور ذكر في كتب الصحابة مع إيراد هذا الحديث فقط، انظر الاستيعاب بهامش الإصابة ١١٤/٢، ٥٢٨/٣، وأسد الغابة ٣٨٠/٢، ٣٣٦/٤، والإصابة ١٠٠/٢، ٣٩٠/٣ .

(٣) أي: قماشا وثيابا .

(٤) أي: بايعنا ليشتري منا سراويل، وسراويل أسم أعجمي لنوع من الثياب معروف وهو مفرد، وجمعه سراويلات .

(٥) أخرجه أبو داود في البيع، باب في الرجحان في الوزن بالأجر برقم ٣٣٣٦، والترمذي في البيوع، باب ما جاء في الرجحان في الوزن برقم ١٣٠٥، وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي في البيوع، باب الرجحان في الوزن ٢٨٤/٧ .

(٦) أخرجه البخاري في عدة مواضع من صحيحه منها في الهبة، باب الهبة المقبوضة وغير المقبوضة ٢١١/٣، ومسلم في المساقاة، باب بيع البعير واستثناء ركوبه برقم ١٦٠٠ . =

ومن هذه الأحاديث استبان لك ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من كمال الأخلاق فى المعاملات المادية حيث كانت معاملاته فيها قائمة على مبدأ العدل إن عامل لغيره، وعلى الفضل إن عامل لنفسه، وفى معاملاته هذه نبراس هداية للمتعاملين يجب عليهم أن يهتدوا بها فى بيعهم وشرائهم، فقد كان لهم فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة إن كانوا يرجون الله واليوم الآخر، وذلك فضلا عن هديه صلى الله عليه وسلم بالقول؛ حثا وإرشادا وترغيبا على مكارم الأخلاق فى المعاملة من الصدق والأمانة وعدم الغش والكتمان.

من أقواله صلى الله عليه وسلم فى الحث على التحلي بمكارم الأخلاق فى التعامل المادي:

أما أقواله صلى الله عليه وسلم الدَّالةُ على ما يجب أن يكون عليه التعامل المادى بين الناس، فكثيرة،فقد كان صلى الله عليه وسلم يوجه أصحابه إلى ما يجب أن يكون عليه حالهم فى معاملاتهم من صدق وأمانة ونصيحة..، ويبين لهم عظيم فضل ذلك وجزيل ثوابه،ليرغبهم بذلك على التحلِّى بمكارم الأخلاق فى هذا الباب البالغ الأهمية ،المفتقر الى مكارم الأخلاق غاية الافتقار، وأقواله صلى الله عليه وسلم فى ذلك كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم :

١ - "البيِّعان بالخيار ما لم يتفرَّقا، فإن صدقا وبيَّنا بُورك لهما فى بيعهما، وإن كتما

= ويوم الحَرَّة: يوم مشهود في الإسلام، وهو اليوم الذي نهب فيها المدينة جيش يزيد بن معاوية القادم من الشام بعد أن ندبهم لقتال أهل المدينة بما فيها من الصحابة والتابعين وذلك في ذي الحجة سنة ٦٣ هـ، ولما فرغ من وقعته المروِّعة النكراء بحيران رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته وتابعيهم أمَّر عليها مسلم بن عقبة المزني، الذي سامهم سوء العذاب، والحرة هذه أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كثيرة، وكانت الوقعة بها شرقي المدينة. انظر جامع الأصول لابن الأثير ١/٤٤٤ .

وكذبا محقت بركة بيعهما"(١) .

وفى هذا الحديث ترغيب بالثواب العاجل الذى يريده التجار، وهو البركة والنماء وحصول النفع المرجو من البيع والشراء، وأن ذلك كامن فى التعامل بالصدق والنصح.

وكما دلهم على الثواب العاجل فقد دلهم أيضا على الثواب الآجل المدَّخر لهم عند الله إن هم تحلَّوا بمكارم الأخلاق فى معاملاتهم فصدَقوا وبينوا ولم يخونوا.

٢ - فعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "التَّاجر الصَّدوق الأمين مع النَّبيين والصِّديقين والشهداءِ"(٢) .

وفى هذا الحديث من الترغيب على الصدق والأمانة فى البيع والشراء ما لايفرط فيه تاجر عاقل ذودين.

٣ - وحثهم أيضا على التحلِّى بمكارم الأخلاق وذلك بالسَّماحة والسُّهولة فى البيع والشراء وعدم التَّشاح والتقاصى فى الحقوق، لما فى ذلك من أخذ الثَّمن والمُثمن عن طِيب نفس وقناعة، فيبارك فيهما لكليهما.

فعن جابر بن عبدا لله رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب إذا بَيَّن البيعان ٧٦/٣، ومسلم في البيوع، باب ثبوت خيار المجلس للمتبايعين برقم ١٥٣٢ من حديث حكيم بن حزام .

(٢) أخرجه الترمذي في البيوع، باب ما جاء في التجار برقم ١٠٢٩ وقال عنه: حسن لا نعرفه إلا من حديث الثوري عن أبي حمزة - عبد الله بن جابر - قال: وهو شيخ بصري. ا.هـ، وأبو حمزة هذا لم يوثقه غير ابن حبان، وهو مقبول كما قال الحافظ في التقريب برقم ٣٢٢٤، ولكن للحديث شاهد عند ابن ماجه برقم ٢١٣٩، والدار قطني في البيوع ٦/٣، والحاكم في المستدرك ٦/٢، من حديث ابن عمر، قال الذهبي في التلخيص: وفيه كلثوم وضعفه أبو حاتم، قلت: ولكن وثقه البخاري كما في تهذيب التهذيب ٤٤٢/٨، وقال ابن معين: ليس به بأس، وقد قال الذهبي نفسه في الميزان ٤١٣/٣ عن هذا الحديث أعني حديث ابن عمر الشاهد لخبر أبي سعيد قال عنه: جيد الإسناد صحيح المعنى، فالحديث إذا لا يقل عن درجة الحسن لغيره إن شاء الله تعالى .

"رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى"(١) .

فهو صلى الله عليه وسلم يدعو لمن أبدى السماحة فى معاملاته من بيع وشراء واقتضاء..، فلم يشاحح ولم يشاكس.. ودعاؤه صلى الله عليه وسلم مستجاب لا شك فيه.

٤ - كما ندبهم إلى التَّجاوز عن المعسرين إذا استوجبوا شيئا عليهم،لما فى ذلك من دليل على التراحم بين المجتمع المسلم، وقد بين لهم أثر ذلك فيما رواه حذيفة رضى الله عنه، عنه صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عمن قبله من الأمم قال : "إن رجلا كان فيمن كان قبلكم أتاه المَلَك ليقبض روحه، فقال : هل عملت من خير؟ قال : ما أعلم، قيل له انظر، قال : ما أعلم شيئا غير أنى كنت أبايع الناس فى الدنيا فأُنظِرُ الموسر وأتجاوز عن المعسر فأدخله الله الجنة"(٢) .

وفى رواية : "كان رجل يداين الناس، وكان يقول لفتاه:إذا أتيت معسرا فتجاوز عنه لعلَّ الله أن يتجاوز عنا فلقي الله فتجاوز عنه"(٣) .

إلى غير ذلك من أقواله صلى الله عليه وسلم فى الحث على مكارم الأخلاق فى المعاملات بين الناس بالبيع والشراء ونحوهما.

من أقواله صلى الله عليه وسلم فى التحذير عن التخلى عن مكارم الأخلاق فى التعامل المادي:

وكما كان صلى الله عليه وسلم يرغب فى التحلى بمكارم الأخلاق عند المعاملات المادية،من صدق وأمانة وسماحة وإنظار..، فقد كان أيضا يحذرهم من التفريط بذلك وبكل خلق كريم، وذلك ليحملهم على لزوم مكارم الأخلاق رَغَبا ورهبا وذلك فى

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب السهولة والسماحة في البيع والشراء ٧٥/٣، والترمذي في البيوع، باب ما جاء في استقراض البعير برقم ١٣٢٠ .

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء ٢٠٥/٤، ومسلم في المساقاة، باب فضل إنظار المعسر برقم ١٥٦٠ .

(٣) أخرجه البخاري في البيوع، باب من أنظر معسرا ٧٥/٣، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

أحاديث كثيرة لا يأتى على مثلها الحصر هنا، ولكن نذكر شيئا منها :

١ ـ فعن ترك أجل أخلاق التعامل المادى وهو الصدق يروى رافع بن خديج(١) رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : "إن التَّجار يُبعثون يوم القيامة فجَّاراً إلا من اتَّقى الله وبَرَّ وصدق"(٢) .

وفى هذا الحديث من الترهيب عن سوء الأخلاق فى البيع والشراء ونحوهما من كذب ونحوه، فيه ما يذهل أولى الألباب، لأن الفُجَّار كما قال الله تعالى : ﴿لفى جَحيم * يَصلونها يومَ الدِّين * وما هُم عنها بِغائبين﴾[سورة الأنفطار:١٤-١٦] فإذا كان التجار يحشرون من هذا الصنف ولا ينجيهم منه إلا البر والتقوى والصدق فى المعاملة، فإن ذلك يحتم على المؤمن التحلى بهذه المكارم كى لا يحشر مع الفجار.

٢ ـ ومن ذلك نهيه صلى الله عليه وسلم عن الحلف في البيع لما فى ذلك من إلحاق ضرر بالمشتري، حيث يحمله ذلك على الثقة بالبائع، وقد يقع فى الغرر، ولما يؤذن برقة دِين البائع أو المشترى حيث يجعل الله تعالى عُرضة لأيمانه من غير إعظام له سبحانه وتنزيه له عن مثل تلك المحقَّرات، فلذلك نهى صلى الله عليه وسلم عن الحلف فى البيع وقال : "إيَّاكم والحلِف فى البيع فإنه يُنفق ثم يَمحق"(٣) ومعناه أحذِّركم من ذلك أيَّما تحذير

---

(١) الأوسي الأنصاري، استصغره النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر فرده، وأجازه يوم أحد، وشهد ما بعدها من المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومات سنة ٣٤ هـ، انظر تهذيب الأسماء ٨٧/١، والاستيعاب مع الإصابة ٤٩٥/١ .

(٢) أخرجه الترمذي في البيوع، باب ما جاء في التجار برقم ١٢١٠، وابن ماجه في التجارات، باب التوقي في التجارة برقم ٢١٤٦، وابن حبان كما في موارد الظمآن برقم ١٠٩٥، والحاكم في المستدرك ٦/٢، وصححه ووافقه الذهبي وقال عنه الترمذي: حسن صحيح، وله شاهد عند أحمد في المسند ٤٢٨/٣ من حديث عبد الرحمن السلمي .

(٣) أخرجه مسلم في المساقاة، باب النهي عن الحلف والبيع برقم ١٦٠٧، والنسائي في البيوع ٢٤٦/٧، باب المنفق سلعته بالحلف الكاذبة من حديث أبي قتادة رضي الله عنه .

وأردف بذكر ما يثمره الحلف من محق البركة كما قال فى حديث آخر :

"الحلف مُنفِّقة للسلعة مُمحقة للكسب"(١) .

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة فى هذا المعنى.

٣ ـ ومن ذلك تحذيره صلى الله عليه وسلم إياهم من الغش فى البيع والشراء، لما فى ذلك من ضرر يلحق بالمشترى أو البائع، وما يجر إلى غير ذلك من عداوات وإحَن وبغضاء ، وأكل لأموال الناس بالباطل؛ لذلك كان نهيه صلى الله عليه وسلم وتحذيره عن هذا الأمر شديدا حيث حكم على فاعل ذلك بعدم كونه من جماعة المؤمنين:

فعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ فى السُّوق على صُبرة طعام، فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا ، فقال :"ما هذا ياصاحب الطعام؟" قال: يارسول الله أصابته السماء، قال :"أفلا جعلتَه فوق الطعام حتى يرَاه النَّاسُ؟ من غشَّنَا فليس مِنَّا"(٢) .

فانظر كيف كان صلى الله عليه وسلم يستشعر أمر الأخلاق فى هذه المعاملات ، حيث قام يفحص ذلك بنفسه و لم يكتف بما يحدِّث به من الترهيب والوعيد، فلما ظفر بخَلَل خُلُقي جعل صاحبه نكالا فى المجتمع المسلم حيث حكم على من يفعل ذلك بأنه ليس من جماعة المسلمين، لأنه لايحبُّ لهم ما يحب لنفسه، والمسلمون شأنهم ذلك ، فمن خدعهم فهو ليس منهم وكان صلى الله عليه وسلم قد قال: "لا يحلُّ لامرئٍ مسلم يبيع سِلعة يعلم أنَّ بها أذى إلا أخبر به"(٣)

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب يمحق الله الربى ويربي الصدقات ٧٨/٣، ومسلم في المساقاة، باب النهي عن الحلف في البيع برقم ١٦٠٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "من غشنا فليس منا" برقم ١٦٤، وأبو داود في الإجارة، باب النهي عن الغش برقم ٣٤٥٢، والترمذي في البيوع، باب ما جاء في كراهية الغش في البيوع برقم ١٣١٥، وابن ماجة في التجارات، باب النهي عن الغش برقم ٢٢٢٤ .

(٣) أخرجه البخاري تعليقا في البيوع، باب إذا بين البيعان و لم يكتما ونصحا ٧٦/٣، وقال الحافظ في =

ولهذا المعنى نهى أصحاب المواشي والأنعام عما قد يجرى منهم من غش وخداع فقال صلى الله عليه وسلم :"لا تُصَرُّوا(١) الإبل والغنم فمن ابتاعها فهو بخير النظرين بعد أن يحلُبها، إن شاء أمسك، وإن شاء رد وصاعًا من تمر"(٢) .

٤ - ومن ذلك نهيه صلى الله عليه وسلم عن كثير من الأمور المنافية للأخلاق الإسلامية الفاضلة التى قد تجرى عند البيوع ، كتلَقِّي الرُّكبان(٣) وبيع حاضر لباد، (٤) وبيع الغرر(٥) ونَجش السِّلع،(٦) وبيع المرء على بيع أخيه ، أو السَّوم على سوم أخيه(٧) ونحو ذلك مما لايتورع عنه مَن همُّه المال وجمعه من حِلِّه أو غير حِلِّه، فقد نهى صلى

= الفتح ٩/١٦٠: وصله أحمد وابن ماجه والحاكم من طريق عبد الرحمن بن شماسة عن عقبة مرفوعا بلفظ : المسلم أخو المسلم ولا يحل لمسلم ...، قال: وإسناده حسن من حديث عقبة بن عامر .

(١) التصرية: هي حبس اللبن في ضرع الشاة أو الناقة أو البقرة لتباع كذلك يغر بها المشتري، تفسير غريب الحديث للحافظ ابن حجر ص ١٤٢ .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع، باب إن شاء رد المصراة وفي حلبتها صاع من تمر ٣/٩٣، ومسلم في البيوع، باب حكم بيع المصراة برقم ١٥٢٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) تلقي الركبان: هو أن يستقبل الحضريُّ البدويَّ ويخبره بكساد ما معه،كذبا ليشتري منه سلعته بالوكس، وأقل من ثمن المثل، وذلك تغرير محرَّم، ولكن الشِّراء منعقد، النهاية لابن الأثير ٤/٢٦٦ .

(٤) هو أن يأتي البدوي البلدة ومعه قوت يبغي التسارع إلى بيعه رخيصا فيقول له الحضري: أتركه عندي لأغالي في بيعه ، وكانت السلعة مما تعمُّ الحاجة إليها. النهاية ١/٣٩٩ .

(٥) هو ما كان له ظاهر يغر المشتري وباطن مجهول .

(٦) وهو المسمى بالتناجش، وهو أن يمدح السلعة لينفقها ويروِّجها، أو يزيد في ثمنها وهو لا يريد شراءها، وإنما ليقع غيره فيها. النهاية ٥/٢١، وفتح الباري ٩/٢١٤ .

(٧) هو أن يأخذ شيئا ليشتريه فيقول له: رده لأبيعك خيرا منه بثمنه، أو مثله بأرخص منه، أو يقول للمالك استرده لأشتريه منك بأكثر، وكان الثمن قد استقر وركن أحدهما إلى الآخر. فتح الباري ٩/٢١٢، وانظر النهاية ٣/٤٢٥ .

الله عليه وسلم عن ذلك نهي تحريم،لما في ذلك من مساوىء أخلاقيه كبيرة ولما يترتب عليها من مفاسد عظيمة فى المجتمعات .

١- فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال:"نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم "أن يبيع حاضر لبادٍ ولاتناجشوا، ولا يبيع الرَّجلُ على بيع أخيه ، ولا يخطُب على خِطبة أخيه،ولا تسأل المرأة طلاق أختها لتكفأَ ما فى إنائها"(١) .

٢- وعنه أيضا رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :"لا تَلَقُّوا الرُّكبان ، ولا يبع بعضُكم على بيع بعض، ولاتناجشُوا، ولايبع حاضر لباد، ولاتَصَرُّوا الغنم، ومن ابتاعها فهو بخير النَّظرين بعد أن يحتلبها،إن رضيها أمسكها،وإن سخطها ردها وصاعا من تمر"(٢) .

وفى لفظ "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التَّلقِّى وأن يبتاع المهاجر للأعرابى، وأن تشترط المرأة طلاق أختها، وأن يَستام الرجل على سوم أخيه، ونهى عن النجش وعن التَّصرية"(٣) .

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التى تحث على التخلى عن مساوىء الأخلاق، وترغب فى التحلى بمكارمها ، فإن مثل تلك الأمور لاتصدر من ذى خلق قويم ، أو طبع مستقيم يرغب فيما عند الله تعالى،ويجتنب عما حرم الله تعالى، فنهى النبي صلى الله عليه

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب لا يبع على بيع أخيه، ولا يسوم على سوم أخيه حتى يأذن له أو يترك ٩١/٣، ومسلم في البيوع، باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه .. برقم ١٥١٥ .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع، باب النهي للبائع أن لا يحفل الإبل والبقر والغنم...، ٩٢/٣، ومسلم في البيوع، باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه.. برقم ١٥١٥ .

(٣) أخرجه البخاري في الشروط، باب الشروط في الطلاق ٢٥١/٣، ومسلم في الباب السابق وبالرقم نفسه .

وسلم عن ذلك ليحمل المسلم على التجرد عن كل خلق ردىء فى المعاملات الاجتماعيه المادية، التى تحرص النفس البشرية على تعاطيها لما جُبلت عليه من حب المال حبا جما.

فكانت تلك النواهى مقوّمة لذلك الإعوجاج الخُلُقى فى سلوك المسلم، إن هو امتثلها وجعلها نصب عينه عند تعامله. كما يحتم عليه ذلك إسلامه واتباعه لنبيه صلى الله عليه وسلم.

☆☆☆

المبحث الثاني

(القـرض والقـضـاء)

القرض فى اللغة القطع، يقـال:قرضـت الشـيء أقرضـه بالكسـر قرضـا: قطعتـه، ومنـه المقراض وهي آلة القرض .

وأطلق على ما يعطيه الإنسان من ماله ليُقضاه، كأنه شيء قد قُطع من ماله .

ومنه القِراض فى التجارة،(١) وهو توكيلُ مالكٍ بجعل ماله بيد آخر ليتجر فيـه والربـح مشترك بينهما(٢) .

ويقال: القرض :المجازاة ، قال فى تاج العروس(٣): "وأصل القرض مايعطيـه الرجـل أو يفعله ليجازَى عليه" ومنه قولـه تعـالى: ﴿مـن ذَا الَّـذى يُقـرِضُ اللهَ قَرضـاً حسـنا﴾[سـورة البقرة:٢٤٥] ولم يرد فى القرآن الكريم إلا بهـذا المعنـى، أو بمعنـى المجـاوزة كمـا فـى قولـه تعالى:﴿وإذا غَربت تقرِضُهم ذاتَ الشـمال﴾[سـورة الكهـف:١٧] أي تجـاوزهم وتدُعُّهـم إلى أحد الجانبين (٤) .

أما المعنى الشرعى للقرض وهو "تمليك الشيء برد بدله (٥)" فلم يـرد إلا بمرادفـه وهـو الدَّين الذى وردت فيه أكبر آيات القـرآن الكريـم وهـى آيـة المداينـة فـى البقـرة، الأتـى بيانها، وورد فى آيتى ١١،١٢ من سورة النساء، والمراد به القرض، كما نقل الراغب عن أبى عبيدة قوله :"دِنتُه: أقرضته، ورجل مَدِينٌ، ومديُون،ودِنتُه إستقرضت منه..."(٦) .

---

(١) الصحاح للجوهري ١١٠١/٣، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ٧١/٥-٧٢ .

(٢) الياقوت النفيس ص ١٠٧ .

(٣) ٧٦/٥ .

(٤) المفردات للراغب ص ٤٠٠ .

(٥) الياقوت النفيس ص ٨٤ .

(٦) المفردات ص ١٧٥ .

إلا أن الذى جرى عليه عمل أهل العلم من فقهاء المذاهب المتبوعة وأهل الحديث فى الجوامع والسنن ، أن يبحثوا هذه المعاملة تحت عنوان (كتاب القرض) أو (باب القرض) أو (السَّلَف) دون ذكر الدين، وذلك لما يفيده المدلول اللغوى للقرض، فقد تقدم أن القرض فى اللغة: (ما تعطيه من المال لتقضاه) والقضاء شامل للقضاء الدنيوي بإرجاع المثل ممن استقرض، والأخروي من الله عز وجل بالثواب المعد لذلك.

القرض في القرآن الكريم:

والقرآن الكريم وإن لم يستعمله فى القرض بين الآدميّين ، فقد استعمله فى أحد معنييه وهو قرض الله جل ذكره، وذلك لغرض حث العباد وترغيبهم على أن يعاملوه فى القرض، وذلك منه سبحانه على سبيل التَّلطُّف والإحسان بهم حيث ندبهم إلى الإنفاق فى سبيله بما يعهدونه من القرض الواجب قضاؤه لتركن أنفسهم إلى القضاء، وترغب فى عظيم الأجر والجزاء، فتبادر إلى بذل المال فى مرضاة الله، وخلع غُل الشُّح المسيطر على النفوس فى حب المال وعدم بذله إلا إذا علمت الربح الوفير.

أو يعاملوا عباده به الذين هم فى حاجة إليه لإصلاح معاشهم وأحوالهم،وذلك فى الحقيقة هو إقراض لله تعالى يثيب عليه فى الآخرة، وإن كان يعود له فى الدنيا مثل ما بذله ، لما فى ذلك من التيسير على عباد الله وتفريج كرباتهم، فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :"من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسَّر على مُعسر يسَّر الله عليه فى الدنيا والأخرة، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ماكان العبد فى عون أخيه..."(١) .

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآنوعلى الذكر برقم ٢٦٩٩، وأبو داود في الأدب، باب في المعونة للمسلم برقم ٤٩٤٦، والترمذي في الحدود، باب ما جاء في الستر على المسلم برقم ١٤٢٥، وفي البروالصلة، باب ما جاء في الستر على المسلم برقم ١٩٣٠، كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ،واللفظ لمسلم .

وأي تيسير له وتفريج لكربته أكثر من أن يقرضه مبلغا من المال ليفكه به من أزمة، أو يعمل له به مصلحة تقوم بها حياته.

فتحصَّل أن القرض وإن جاء فى أسلوب القرآن فى بيان الصدقة النافلة إلا أن دلالته اللغويه لاتمانع من حمله على أصل وضعه اللغوى ، بل إن الراغب وهو الذى عُني فى مفرداته ببيان معانى القرآن اللغويه لم ينص إلا على ذلك المعنى الأصلى للمادة فقال:"القرض: ضرب من القطع ... وسمي ما يدفع إلى الإنسان من المال بشرط رد بدله قرضا، قال تعالى: ﴿من ذا الَّذى يُقرضُ اللهَ قرضا حسنا﴾[سورة البقرة:٢٤٥](١) .

وذلك ما جرى عليه عمل أهل العلم فى مصنفاتهم، حتى البخاري فى جامعه الصحيح جعل أحد كتبه فيه باسم (الاستقراض وأداء الديون...) وذكر فى طيِّ ذلك أحاديث المداينة .

وحيث كان الأمر كذلك فإننا سنستعرض لذكر القرآن الكريم للقرض بلفظه لنفاد من ذلك المعنى الأخلاقى الكريم، الهادف إلى تيسير أحوال المؤمنين فيما بينهم بفضل تكافلهم الاجتماعى، ومن أجلِّه الصدقات لمحتاجيها التى جعلها الله عز وجل قرضا له، يقضى به عباده أضعافا مضاعفة من الأجر والثواب فى دار كرامته الأخروي، ناهيك عن الإخلاف لهم فى الدنيا،كما قال سبحانه: ﴿وما أنفقتُم من شيءٍ فهو يُخلِفُه وهو خيرُ الرَّازقين﴾[سورة سبأ ٣٩] .

ثم بعد ذلك نعرض إلى ذكر أحكامه وآدابه فى آيات المداينه،غير أن المقام يستدعى أن نبدأ ببيان معنى القرض لله تعالى وهو الغنيُّ الحميد فإنه«قبل الرمي يُراش السهم»كما قيل فى المثل المشهور .

معنى إقراض الله سبحانه وتعالى :

لقد تناول أهل العلم بيان المراد من إقراض الله جل شأنه وهو الغنى الحميد،وكثرت أقوالهم فى ذلك،ومن أحسنها قول الإمام القرطبى رحمه الله فى تفسيره إذ قال عقب

---

(١) المفردات ص ٤٠٠ .

آية البقرة في المنار ابن كثير مانصه: "واستدعاء القرض فى هذه الآية ، إنما هو تأنيس وتقريب للناس بمايفهمونه، وا لله هو الغني الحميد، لكنه تعالى شبَّه عطاء المؤمن في الدنيا بما يرجو به ثوابه فى الأخرة بالقرض، كما شبه إعطاء النفوس والأموال فى أخذ الجنة بالبيع والشراء(١) .

وقيل المراد بالآية : الحث على الصدقة وإنفاق المال على الفقراء والمحتاجين والتوسعة عليهم، وفى سبيل ا لله بنصرة الدين، وكنى ا لله سبحانه عن الفقير بنفسه العلية المنزهة عن الحاجات ترغيبا فى الصدقة، كما كنى عن المريض والجائع والعطشان بنفسه المقدسة عن النقائص والآلام ففى صحيح الحديث إخبارا عن ا لله تعالى : "يابن آدم مرضتُ فلم تعدنى ، قال : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟!قال : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده، أما إنك لو عدته لو جدتنى عنده. يابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى، قال: يارب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟!قال: أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي. يابن آدم استسقيتك فلم تسقنى، قال: يارب وكيف أسقيك وأنت رب العالمين؟!قال: استسقاك عبدى فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى"(٢).

قال القرطبى: "وهذا كله مُخرَّج مَخرج التشريف لمن كنى عنه،ترغيبا لمن خوطب به"اهـ(٣) . وكذا قال النووى فى شرح مسلم.(٤) .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ إن ا لله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتِلون في سبيل ا لله فيقتُلون ويُقتَلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من ا لله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾[سورة التوبة:١١١] .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب فضل عيادة المريض من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه برقم ٢٥٦٩ .

(٣) جامع أحكام القرآن للقرطبي ٣/٢٤٠ .

(٤) ١٦/١٢٦ .

ونحو هذا ما نقله النووى عن الواحدي(١) فى تفسيره و لم يعقب عليه إذ نقل عن أهل المعانى قولهم:"هذا تلطُّفٌ من ا لله عز وجل فى الاستدعاء إلى أعمال البر ، لذلك أضاف الإقراض إلى نفسه، كأنه قيل: من ذا الذى يعمل عمل المقرض: بأن يقدم فيأخذ أضعاف ماقدم فى وقت فقره وحاجته"(٢) .

حث القرآن الكريم على إقراض ا لله تعالى:

إذا تقرر المعنى المراد من إقراض ا لله تعالى كما فهمه أهل العلم وبينوه، وعلم ذلك، فينبغى أن يعلم أن ا لله تعالى قد حث عباده على إقراضه سبحانه فى غير ما آية ، بأساليب مختلفه من أمر وحض وترغيب..، فى ست آيات كريمات مختلفات،وذلك لما يحصل به من التكافل الاجتماعى بين المؤمنين،وما يتم به من إصلاح معاشهم ومعادهم، وما يحصل به من التَّواد والتراحم فيما بينهم ، الذى هو من أجلِّ سِمات المؤمنين، ومن أجل أهداف الإسلام الاجتماعيه فى مجتمعات المسلمين، فلذلك توالت آيات القرآن الكريم فى الحديث عنه بأساليب مختلفه من أمر وحض:

١ ـ أما الأمر به فهو ما جاء فى قوله جل ذكره:﴿ ..وأَقيموا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاةَ وأَقرضوا ا للهَ قرضا حسَنا وما تُقدِّموا لأنفسِكم من خيرٍ تَجدوه عندَ ا للهِ هو خيراً وأعظمَ أجرا ... ﴾[سورة المزمل :٢٠] .

ويلاحظ أن ا لله تعالى لم يكتف بذكر الأمر به فحسب ، حتى قرنه بالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة،مما يدل على عظيم أهميته ويوحى بوجوبه، غير أن أهل التفسير لم يختلفوا فيما أعلم على أن المراد به الصدقات غير الواجبه كما تقدمت الإشارة إليه آنفا ، وكما جاء عن الحسن البصرى قوله:"كل مافى القرآن من القرض الحسن فهو

---

(١) وهو الإمام العلامة أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري، قال عنه الذهبي: إمام علماء التأويل له تفاسير ثلاثة: البسيط والوسيط والوجيز،وأسباب النزول وغيرها، توفي سنة ٤٦٣هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٣٣٩/١٨ .

(٢) تهذيب الأسماء واللغات ٨٧/٣

التطوع"(١)، ولكن طلب الله تعالى له بصيغة الأمر وقرنه بفريضتي الصلاة والزكاة يدل على أن طلب الله له طلب حثيث .

ثم إن الله تعالى لم يطلب مجرد القرض، بل إنما أراد قرضا حسنا، وهو الذى يجمع أمورا ثلاثه:

أحدها: أن يكون حلالا خالصا لا يختلط به الحرام.

ثانيها: أن لايتبعه بمنٍّ ولا أذى.

ثالثها: أن يفعله على نية التقرب إلى الله تعالى(٢) ، وهذه الشروط وإن كانت بناء على أن المراد به الصدقة إلا أن القرض المشروط رَدٌّ بدله يشترط فيه ذلك أيضا، إذ المسلم يعامل به ابتغاء مرضات الله ونفع إخوانه المؤمنين، ويضاف إلى ذلك أمر ثالث وهو أن لا يجر إليه نفعا، لأن «كل قرض جر نفعا فهو ربا"(٣) .

فإذا اجتمعت هذه الأمور كان القرض حسنا يُرجى ثوابه وبره، وقد قيد الله القرض بالإحسان فى جميع الآيات المتحدثة عنه ، فلو أن المسلمين أقرضوا وأحسنوا، لما بقي فى المسلمين محتاج يتطلع إلى ما فى أيدى الناس.

٢ ـ أما حضُّ الله تعالى عباده عليه وترغيبهم به فهو ما جاء بقوله سبحانه : ﴿مَن ذا الَّذى يُقرِضُ الله قرضا حسنا...﴾[سورة البقرة:٢٤٥، وسورة الحديد:١١] "وهذا الأسلوب مستعمل فى التحضيض والتهييج على الأنصاف بالخير، كأن المستفهم لا يدرى من هو الأهل لهذا الخير والجدير به(٤) .

ولا يخفى ما فى هذا الأسلوب من تلطف الله عز وجل بعباده حيث يستدعيهم إلى أعمال البر بأسلوب المشفق الراغب فى الخير، وزاده إحسانا وتلطفا أن أضافه إلى نفسه

---

(١) تفسير القرطبي ٢٥٢/١٧ .

(٢) انظر التفسير الكبير ١٦٨/٦، وانظر تهذيب الأسماء واللغات ٨٧/٣ .

(٣) انظر تخريج أحاديث المدونة ٩٩٥/٣ .

(٤) التحرير والتنوير ٤٨١/٢ .

كأنه قيل : من ذا الذى يعمل عمل المقرض بأن يقدم فيأخذ أضعاف ما قدم فى وقت فقره وحاجته .

٣ – ثم لم يكد الله عز وجل يفرغ من هذا الحض حتى أتبعه بما يرغب فيه ويحمل المرء على المبادرة إليه من الترغيب بالأجر المضاعف أضعافا كثيرة فقال سبحانه : ﴿فيضاعفَه له أضعافًا كثيرةً والله يقبضُ ويَبسُط وإليه تُرجعون﴾[سورة البقرة:٢٤٥] .

وقد كرر الله تعالى هذا الوعد للعباد فى غالب آيات الحث عليه والترغيب به كما فى قوله تعالى : ﴿إن المصَّدقين والمصَّدقات وأَقرضوا الله قرضًا حسنا يُضاعفُ لهم ولهم أجر كريم﴾[سورة الحديد:١٨] وغيرها من الآيات .

وهذا الأجر المضاعف لم يبين الله تعالى قدره، مكتفيا بما تفيده الكثرة المنصوص عليها من دلالة،على ما لا نهاية له ولا حد، ولا يقدرها إلا الله تعالى فى علمه الخفي، فإن الكثير من الله تعالى لا يحصى(١) ، بل كذا القليل منه سبحانه .

بخلاف بقية الصدقات والنفقات فى سبيله المحدد بيان أجرها بمثل قوله سبحانه : ﴿مثلُ الذين يُنفِقونَ أموالَهم فى سبيلِ اللهِ كمثلِ حبَّةٍ أنْبتت سبعَ سنابلَ فى كلِّ سُنبلةٍ مائةُ حبَّة...﴾[سورة البقرة:٢٦١] .

ومع هذا الأجر العظيم فإن الله جل شأنه لم يقتصر فى ترغيب عباده على الإقراض على ذلك، بل رغبهم به بما رتب عليه أيضا من خيرات أخر، كالمغفرة وتكفير السيئات كما قال سبحانه : ﴿إن تُقرِضوا الله قَرضا حسنا يُضاعفْه لكم ويغفرْ لكم والله شكور حليم﴾[سورة التغابن:١٧]، وكما قال سبحانه : ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثْنَي عشر نَقيباً وقال اللهُ إنّى معَكم لإن أَقمتُم الصلاةَ وآتيتُم الزَّكاةَ وآمنتُم برُسلي وعزَّرتموهم وأَقرضتُم اللهَ قَرضاً حسنا لأُكفِّرنَّ عنكم سيّئاتِكم ولأُدخلنَّكم جنَّاتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ فمن كَفر بعد ذلك فقد ضلَّ سواءَ السَّبيل﴾[سورة المائدة:١٢] .

---

(١) تفسير القرطبي ٣/٢٤٠، وتفسير البيضاوي ص ٥٩، وتفسير ابن كثير ١/٣٩٩ .

وإذا حصلت للعبد المغفرة وتكفير السيئات فقد فاز فوزا عظيما؛لأن مضاعفة الجزاء على الإنفاق مع المغفرة وتكفير السيئات،خيرٌ عظيم،وكفى بهذا ترغيبا وتلطفا فى الطلب إذ جعل المنفق كأنه يعطى الله تعالى مالا، وذلك من معنى الإحسان فى معاملة العبد ربه(١) الذى بينه النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث سؤال جبريل عليه السلام عن الإحسان وغيره، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"(٢).

فهذا مما جاء فى كتاب الله تعالى عن القرض بلفظه.

حديث القرآن الكريم عن الدَّين :

أما ما جاء بمعناه وهو الدين، فذلك فى أكبر آية من آيات كتاب الله تعالى وأكثر آياته تفصيلا وتبيننا، وهي الآية المعروفة بآية الدين أو المداينة والذى قال الله تعالى فيها: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا إذا تَداينتُم بدَينٍ إلى أَجلٍ مسمًّى فاكتبُوه ولْيكتُب بينَكم كاتبٌ بالعدلِ ولا يأبَ كاتِبٌ أن يكتُبَ كما علَّمه الله فليكتُب ولْيُملل الَّذى عليه الحقُّ ولْيتَّقِ اللهَ رَبَّه ولا يَبخسْ منه شيئًا فإنْ كان الَّذى عليه الحقُّ سفِيهاً أو ضعيفًا أو لايَستطيعُ أن يُمِلَّ هو فليُملل وليُّه بالعدل واستَشهِدوا شَهيدينِ من رجالِكم فإنْ لم يكونا رجُلين فرجلٌ وامرأتانِ ممن تَرضونَ من الشُّهداءِ أن تَضلَّ إحداهما فَتُذكِّر إحداهما الأُخرى ولايأبَ الشُّهداءُ إذا ما دُعوا ولا تَسأموا أن تَكتبوه صغيراً أو كبيرًا إلى أجلِه ذلكُم أقسطُ عند الله وأقومُ للشَّهادة وأدنَى ألاَّ ترتابوا إلاَّ أن تكونَ تِجارةً حاضرةً تُديرونها بَينكم فليس عليكُم جناحٌ ألاَّ تكتُبوها وأشهِدوا إذا تَبايعتُم ولا يضارَّ كاتبٌ ولا شهيد وإن تَفعلوا فإنَّه فُسوقٌ بكم واتَّقوا اللهَ ويعلِّمُكم اللهُ واللهُ بكل شيءٍ عليم﴾[سورة البقرة :٢٨٢] .

فهذهأطول آية فى القرآن الكريم وأكثر آياته تفصيلا وإيضاحا، لم يجعلها الله تعالى

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٨/٢٩٠ .

(٢) متفق عليه تقدم ذكره ص ٣٢٥ .

لتبيين أمر العبادة التى لم ترد فيه إلا على سبيل الإجمال، ولا لغير ذلك من الأمور الدينية الأخرى إيمانيه أو تعامليه، وإنما جعلها لبيان أحكام المداينة بين العباد، وذلك لما يترتب على المداينة من منافع ومضار إذا لم تراع هذه التعليمات الإلهية، ولما فى ذلك من خطر عظيم على دين العبد، ومصيره الدنيوى والأخروى، لأن الأمر متعلق بحقوق الآدميين المبنية على المشاحَّة، والشريعة الإسلامية حريصة على قطع أسباب الخصومات وتنظيم أمور المعاملات بين الأفراد والمجتمعات الإسلامية، بل الإنسانيه، فلما كان الأمر كذلك أطنب الله تعالى فى تفصيل أحكام المداينة فى هذه الآية الطويلة العظيمة التى استنبط منها بعض أهل العلم(١) ثلاثين حكما، وعقد لها الإمام القرطبى اثنتين وخمسين مسألة فى تفسيره(٢)، وللآية التاليه لها المتممة لأحكامها أربعا وعشرين مسألة(٣)،

ومن أبرز ما جاءت به هذه الآية من الأحكام والآداب ما يلى :

١ ـ الأمر بكتابة الدين أيًّا كان نوعه لتناولها لجميع ذلك بالإجماع(٤)، وإن كان سبب نزولها خاصا بالسَّلَم(٥) كما قال ابن عباس رضى الله عنهما(٦)، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والأمر بالكتابة أمر ندب لدى جمهور العلماء كما قاله ابن عطيَّة فى تفسيره(٧) لما فى ذلك من حفظ الأموال وإزالة الرِّيب، قال : "وإذا كان

---

(١) كابن خويزمنداد كما قال القرطبي في التفسير ٣/٣٧٧ .

(٢) من ٣/٣٧٧-٤٠٦ .

(٣) من ٣/٤٠٦-٤٢٠ .

(٤) انظر المحرر الوجيز ٢/٥٠١، وتفسير القرطبي ٣/٣٧٧ .

(٥) وهو بيع شيء موصوف في الذمة بلفظ السلم أوالسلف. الياقوت النفيس ص ٨١ .

(٦) نقل ذلك ابن عطية في تفسيره ٢/٥٠٠ قال: ومعناه أن سلم أهل المدينة كان سبب هذه الآية ثم هي تتناول جميع المداينات إجماعا، ا.هـ .

(٧) المحرر الوجيز ٢/٥٠١ ومنهم مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد وخالف في ذلك جماعة منهم ابن جريج والشعبي وعطاء والنخعي، فقالوا: إن الأمر للوجوب بيعا كان أو قرضا لئلا يقع فيه نسيان أو جحود، واختار ذلك الطبري، انظر التحرير والتنوير ٣/١٠٠، وتفسير القرطبي ٣/٣٨٣ .

الغريم تقياً فما يضره الكتاب، وإن كان غير ذلك فالكتاب ثقاف ـ أى: حافظ ـ فى دينه، وحاجة صاحب الحق، قال : وقال بعضهم«إن أشهدت فحزم وإن ائتمنت ففى حل وسعة» ويعنى الإشهاد مع الكتابة، لأن الكتابة بغير شهود لا تكون حجة.

قلت: وفى الآية الثانية ما يؤيد هذا القول حيث قال الله تعالى : ﴿فإن أمِنَ بعضُكم بعضًا فليُؤدِّ الذى اؤتُمن أمانته..﴾ [البقرة ٢٨٣] فأباح المداينة مع عدم كتابة أو توثيق برهن، وجعل يد الغريم يد أمانة يجب عليه أداؤها متى طلبت منه.

٢ ـ أرشد الله تعالى عباده إلى كيفية المداينة وهى أن تكون إلى أجل مسمى، أى وقت محدد لا أن يكون مجهول الأجل، كما يقع من كثير من المتداينين ، "فوصفُه تعالى الأجل بـ"مسمى" دليل على أن الجهالة لا تجوز، فكأن الآية رفضتها، وإذا لم تكن تسمية وحد فليس هناك أجل"(١).

٣ ـ أمر الله تعالى أن تكون الكتابة بالعدل، أى بالحق بحيث لا يكتب لصاحب الحق أكثر مما قاله ولا أقل، ولا يكون فى قلب الكاتب ولا قلمه موادة لأحدهما على الاخر.

٤ ـ نهى الله تعالى الكاتب عن أن يتأبَّى من الكتابة،بل عليه أن يفعل ذلك لما فى ذلك من شكر الله تعالى على ما أنعمه عليه، فعليه أن يحسن كما أحسن الله إليه، بله عما فى ذلك من مساهمته فى حفظ الحقوق التى حرص الاسلام على حفظها لأربابها.

وهل ذلك النهى للتحريم أولا، خلاف بين أهل العلم فى ذلك(٢). وظاهر الآية تفيد الوجوب لا سيما إن لم يكن فى البلد غيره، فإنه يتعين عليه حينئذ، وإلا لأدى إلى ضياع الحقوق التى أمر الله تعالى بها أن تحفظ، ولذلك وجه الله تعالى الأمر إلى الكاتب مرتين ووسط بينهما النهى عن أن يأبى ذلك، وفى ذلك من التأكيد للكاتب على بذل الكتابة ما لايخفى.

٥ ـ على المملى وهو المدين إذا ماتهيأ الكاتب للكتابة أن يملى عليه ما هو الحق

---

(١) المحرر الوجيز ٥٠١/٢ .

(٢) انظر تفسير القرطبي ٣٨٤/٣، والتحرير والتنوير ١٠٢/٣ .

الثابت عليه من غير وكس ولا شطط، لما يترتب على الكتابة تلك والشهادة من حق ومطالبه، ولذلك امره الله بتقواه فى هذا الحال فقال :﴿وليُملِلِ الَّذى عليه الحقُّ وليتق الله ربَّه﴾ قالوا : "وإنما شدد فى تكليف المملى حيث جمع فيه بين الأمر بالإتقاء والنهى عن البخس لما فيه من الدواعى إلى النهى عنه، فإن الإنسان مجبول إلى دفع الضرر عن نفسه ما أمكن"(١) .

٦ ـ ندب الله تعالى المتداينين إلى كتابة الحقير والجليل من غير سآمة لذلك ولا ملل فقال تعالى: ﴿ولا تَسأموا أن تكتُبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجلِه﴾ لما فى ذلك من قطع دابر الخصومة بين المسلمين، وحفظ أموالهم وسلامة ديانتهم ولذلك قال الله تعالى: ﴿ذلكم﴾ أى: كتابة القليل والكثير﴿أقسطُ عند الله﴾ (أى: أعدل ﴿وأقومُ للشَّهادة﴾ أى: أصح وأحفظ ﴿وأدنى ألا ترتابوا﴾ أى: أقرب ألا تشكوا)(٢) فى بعضكم بعضا وتظنوا فيهم الظنون التى قد تكون محرمة .

٧ – ولما كانت الكتابة وحدها لاتكفى فى إثبات الحقوق ندب الله تعالى إلى أن تقترن بشهادة شاهدين ممن تُرضى شهادتهما من الرجال،أو رجل وامرأتان فيشهدان بإقرار المدين وصحة كتابة الكاتب فيثبت بذلك الدين عند المقاضاه، ونهى الله تعالى الشهداء أن يتأبَّوا عن حمل الشهادة أو أدائها فقال تعالى : ﴿ولا يأبَ الشُّهداءُ إذا ما دُعوا﴾ لما فى ذلك من تحقيق غاية الشريعة فى حفظ الحقوق، وواجب الأخوه الإيمانية من التعاون على البر والتقوى.

والمسلم مأمور بذلك حيثما وجد له مندوحة **فقد** قال تعالى :﴿وتَعاونُوا على البِرِّ والتَّقوى . . ﴾[المائدة ٢] وليس للشهود عذر فى ترك الشهادة تحملا أو أداء،لأن الله تعالى قد أحاط جنابهم عن أن يمسوا بأذى كان يمكن أن يناله الكاتب أو الشهيد عند الجهر بالحق ممن لم يرض به ، حيث نهى الله تعالى عن الإضرار بهم ، وحكم على من تجرأ على فعل ذلك

---

(١) روح المعاني ١/٣/٥٧ .

(٢) انظر تفسير القرطبي ٣/٤٠١ .

بالفسوق الذى يعنى الإيذان بالعقاب والمؤاخذه بسبب خروجه عن الطاعة فقال تعالى: ﴿ولا يُضارَّ كاتبٌ ولا شَهيد وإن تفعلوا فإنَّه فُسوقٌ بكم﴾.

٨ ـ أحاط الله تعالى كل الأحكام والآداب تلك بالوصية بتقوى الله ومراقبته فى تنفيذ هذه الآداب والأحكام وإشعارهم بأنه عليم بتصرفاتهم إن هم خالفوا ذلك، وسيجازى الممتثل بالإحسان، والمقصر بما يقتضيه عدله أو عفوه فقال تعالى: ﴿واتَّقوا اللهَ ويُعلِّمكُم اللهُ والله بكل شيءٍ عليم﴾.

ولا غرو فى أن يحاط أمر المداينة بهذه الوصية العظيمة، لما فى ذلك من الخطر العظيم، فإن أمر الدين عظيم لأنه حق الأدمى الذي جبلت نفسه على الشح وحب المال، فقد لا يسامح فيه ولا يفرط فى القليل أو الكثير منه، والله تعالى قد يتسامح فى حقه بما يشاء، أما حقوق الآدميين فلا، ولذلك جعله مقدما حتى على حقوق الوارثين، فلم يبح أن تقسم التركة عليهم حتى يخرج لذوى الوصايا والديون حقوقهم، فما فضل بعد ذلك قسم بينهم كما قسمها الله تعالى كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿من بعدِ وصِيَّة يُوصَى بها أو دَين﴾[سورة النساء:١٢] وكرر ذلك مع كل صنف ممن نص الله تعالى على توريثهم.

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم خطر ذلك بما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال:"يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين"(١) .

"ففى هذا تنبيه على جميع حقوق الآدميين وأن الجهاد والشهادة وغيرهما من أعمال البر لا يكفرها وإنما يكفر حقوق الله تعالى"(٢) بل لا تبرأ ذمة المدين إلا بأداء الدين كله على النحو الذى اتفق عليه.

وكل ما مضى مما نصت عليه الآية الكريمة أو الحديث الشريف إنما هو لضمان أداء المدين الدين الذى اقترضه فى أجله المسمى، وفى ذلك من الضمان والحيطة على إرجاع الحق إلى صاحبه ما يكفى حيث يستوفى ذلك منه قهرا إن خالف، عن طريق القضاء

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين برقم ١٨٨٦ .

(٢) شرح مسلم ٢٩/٣ .

والسلطة اعتمادا على تلك المكاتبة،ومع ذلك فإن الله جلت قدرته لم يكتف بذلك فى الضمان لعودة المال إلى صاحبه.

بل أضاف إلى ذلك إلهاب القلوب المستدينه بالرهبة والخشية من التفريط فى أمر الأداء، وذلك بالآيات الكريمات المحذرة من أكل أموال الناس بالباطل كقوله تعالى:﴿ولا تَأكُلوا أموالَكم بينكم بالباطِل﴾[سورة البقرة:١٨٨] وعدم أداء الدين هو أكل لأموال الناس بالباطل المنهي عنه فى غير ما آية.

وبالآيات الحاثه على أداء الأمانه كقوله تعالى: ﴿...فليُؤَدِّ الَّذى أوتِمن أمانَتـه﴾[سورة البقرة:٢٨٢] وقد سمى الله تعالى المداينة أمانة، وقد مر معنا تعظيم الله تعالى للأمانة وما يترتب عليها فى مبحث الأمانة المار ذكره(١).

وبالآيات الناهيه عن الخيانة، والمحذرة منها، والمتقدم ذكر طائفة منها فى الأمانة لأن القرض أمانة فى يد المستقرض، فعدم أدائه أو التفريط فيه ضرب من الخيانة.

وفى كل ذلك وغيره تهييج لقلب المسلم على الأداء بحيث لايفرط فيه بعده فى الغالب إلا من غُلب على أمره بعدم تيسر حاله على أداء الديون، وذلك هو المعسر الذى لم يدخر جهدا على تبرأة ذمته ولكن الحظ لم يساعده، ومن كان كذلك فإنه غير ملوم، لاسيما إن لم يكن له يد فى كسب الإعسار، ومن علم الله تعالى منه ذلك ، فإنه لا يكلفه فوق طاقته، بل ألزم الدائن إنظاره إلى حال يساره ، إن لم تجُد نفسه بما هو الأفضل عند الله تعالى وهو الإبراء من كل الدين أو بعضه، كما قال تعالى: ﴿وإن كان ذُو عُسرة فنَظِرةٌ إلى مَيسرةٍ وأن تَصدَّقوا خيرٌ لكم إن كنتُم تعلمون﴾[سورة البقرة:٢٨٠].

وهذا معنى أخلاقى عظيم فى هذه المعاملات، حيث ألزم الله تعالى الدائن عند إعسار المدين إنظاره إلى حال يساره ولم يبح له إزعاجه أو مضايقته، فإنه لا حول له فى دفع ما استدانه ولا قوة، فمضايقته بعد ذلك ظلم وسلوك غير لائق فى مجتمع مسلم، مبني على التواد والتراحم والمحبة والأخاء، بل إن الله عز وجل حبَّذ لصاحب الدين التصدق عليه بما

---

(١) ص ٥٦٥.

وجب عليه، وتخليص ذمته، تحقيقا لهذه المعانى السامية بين المسلمين.

فإن لم تطب نفسه بذلك، فلا أقل من إنظاره، وذلك حتم عليه، فإن الآية توجب عليه ذلك فيجب على صاحب المال إنظار المدين عند ثبوت إعساره لدلالة هذه الآية، ودلالة السنة على ذلك أيضا(١) .

وهذا دليل على عظيم مكارم الأخلاق فى المعاملات المادية، حيث أوجب المولى تبارك وتعالى على أصحاب الأموال المدينة، التحلى بهذا الخلق عندما يعسر إخوانهم فلم يستطيعوا الأداء، وهذا الخلق يحمل على تبادل المحبة والتراحم بين أفراد المجتمع المسلم، فيجب أن يراعى ويتحلى به عند حدوث سببه، والله الموفق والهاد إلى سواء السبيل.

---

(١) انظر أحكام القرآن للقرطبي ٣/٣٧٢ .

تمثُّل أخلاق

القرض والقضاء في النبي صلى الله عليه وسلم

لم تكن حياة النبي صلي الله عليه وسلم تخلو بين الحين والآخر من اقتراض و قضاء وذلك للحال الذى كان عليه صلى الله عليه وسلم من الشِّدة وشَظَف العيش الذى اختاره لنفسه ليكون كما قال : "..أجوع يوما وأشبع يوما.."(١) فكان صلى الله عليه وسلم على ذلك الحال المختار لديه المرضي عنده، لا يبالى بجوع، ولا يفرح بشبع، وتمر الليالي ذوات العدد ولا يوقد فى بيته نار كما تقدم بيانه(٢) .

ولكن لم يكن يرى ذلك عذرا له فى عدم بذل معروفه لمن يلوذ به من أهل أو ضيف أو سائل، وإن كان ذلك عن طريق الاستدانة لما جُبِل عليه من مكارم الأخلاق. فكان يستدين لذلك فإذا ما وجد ما يؤدي به بادر إلى القضاء.

وقد كان عليه والصلاة والسلام معروفا بذلك حتى قبل البعثه كما دل عليه قول أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها فى قصة بدء الوحى "...كلا والله ما يُخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلَّ..."والكَل: بالفتح : الثقل من كل ما يُتكلف كما يقول أهل غريب الحديث(٣). وأى أمرأ ثقل على النفس العزيزة من حقوق الآدميين، الذى قد يكون منهم غليظ الطبع جافى الخلق لا يراعى كبيرا لكِبره ولا صغيرا لصغره عند استيفاء حقه وحلول أجله.

فمن تحمل من مثل هؤلاء دينا، فحري به ذلك الوصف المتقدم، بغض النظر عن أي أمر ثقيل سواه، والنبي صلى الله عليه وسلم قد كان يتحمل كل ذلك ويبتلى ببعض من وصفتُ، والشواهد على ذلك كثيرة :

١ ـ منها ما تقدم من استقراضه صلى الله عليه وسلم من زيد بن سِعنة وما فعله معه

---

(١) حديث حسن تقدم تخريجه في مبحث الشكر ص ١٨٢ .

(٢) في مبحث الزهد ص ٤٩٤-٥١٣ .

(٣) انظر مثلا المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث ٣/٧٠، والنهاية ٤/١٩٨ .

عند الاستيفاء لغرض اختباره لمعرفة دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم التى كان يعلمها من الكتب السابقة(١) .

٢ – ومن ذلك ما جاء عن أبى حُميد الساعدى رضى الله عنه قال : "استسلف النبي صلى الله عليه وسلم من رجل تمرلون(٢)، فلما جاءه يتقاضاه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ليس عندنا اليوم من شيءٍ، فلو تأخَّرت عنا حتى يأتينا شيء فنقضيك" فقال الرجل : واغدراه، فتذمَّر(٣) عمر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "دعه ياعمر فإن لصاحب الحق مقالا، انطلق إلى خولة بنت حكيم الأنصارية فالتمسوا عندها تمرا" فانطلقوا فقالت يا رسول الله : ما عندى إلا تمر ذخيرة، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "خذوا فاقضوا" فلما قضوه أقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "استوفيت؟" قال : نعم قد أوفيت وأطبت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن خيار عباد الله من هذه الأمة المُطَيِّبُون(٤)" .

هكذا كان صلى الله عليه وسلم يستدعيه الحال إلى أن يقترض من مثل هؤلاء الجفاة فيصبر على جفاءهم اعترافا لهم بالحق الذى يدفعهم إلى فعل ذلك، ثم يذهب فيلتمس لهم العذر فيقول : "إن لصاحب الحق مقالا" ليسلِّي نفسه وأمته عما بدر لهم من فظاظة وغلظة لا تليق بجنابه العظيم - بأبى هو وأمي ونفسى صلى الله عليه وسلم - فليت هؤلاء الدائنين قدَّروا ظروفه وأعظموه وعزروه ووقروه كما يجب .

فقد كان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس قضاء إذا وجد لا يحتاج إلى أن يُسأل إذا حل

---

(١) انظر مبحث حلمه صلى الله عليه وسلم ص٥٠٩

(٢) نوع من النخل، وقيل: هو الدقل. النهاية ٢٧٨/٤ .

(٣) أي: غضب وتغير وجهه .

(٤) عزاه الهيثمي في المجمع ١٤٤/٤ إلى الطبراني في الكبير والصغير ٩٨/٢، قال: ورجاله رجال الصحيح، وللحديث شاهد نحوه من حديث عائشة رضي الله عنها عند أحمد والبزار، وإسناد أحمد صحيح كما قال الهيثمي في المجمع ١٤٣/٤ .

الأجل ولا أن يطلب الفضل ناهيك عن رأس المال المدين، وما كانت الشواهد على ذلك بغائبة عن كثير منهم :

١ ـ فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه قال كان لرجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم سِن من الإبل فجاءه يتقاضاه فقال : "أعطوه" فطلبوا سِنَّهُ فلم يجدوا إلا سنا فوقها، فقال صلى الله عليه وسلم "أعطوه" فقال الرجل : أوفيتني وفَّاك الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن خيركم أحسنكم قضاء"(١) .

٢ – وفي رواية أن رجلا تقاضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأغلظ له، فهمَّ به أصحابه رضوان الله عليهم فقال صلى الله عليه وسلم : "دعوه فإن لصاحب الحق مقالا، واشتروا له بعيرا فأعطوه إياه" فقالوا : لا نجد إلا أفضل من سنه، قال : "اشتروه فأعطوه إياه، فإنَّ خيركم أحسنكم قضآء"(٢) .

٣ – وروى أبو رافع(٣) رضي الله عنه قال : "استسلف رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرا(٤)، فجاءته إبل الصدقه، قال أبو رافع : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أعطي الرجل بكره، قال : قلت ما أجد إلا جملا خيارا رباعيا(٥)، فقال

---

(١) أخرجه البخاري في الاستقراض، باب هل يعطى أكبر من سنه ١٥٣/٣، وأبو داود في المساقاة، باب من استسلف شيئا فقضى خيرا منه برقم ١٦٠١ .

(٢) أخرجه البخاري في الاستقراض،باب استقراض الإبل ١٥٣/٣، ومسلم في الباب السابق وبنفس الرقم

(٣) القبطي مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال: اسمه إبراهيم، ويقال: أسلم، وقيل غير ذلك، شهد مع النبي صلى الله عليه وسلم أحدا وما بعدها وشهد فتح مصر، وتوفي بالمدينة قبل قتل عثمان رضي الله عنه وقيل بعده، انظر الاستيعاب ٦٨/١، والإصابة في الصفحة التي قبلها، وتهذيب الأسماء ٢٣٠/٢ .

(٤) البكر: الفتيُّ من الإبل .

(٥) الرباعي من الإبل: الذي دخل في السنة السابعة، وسمي بذلك؛ لأنه يكون قد طلعت رباعيته . انظر النهاية ١٨٨/٢ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم : إعطه إياه، إن خيار الناس أحسنهم قضاء"(١) .

٤ - وروى العِرباض بن سارية(٢) رضي الله عنه قال : بعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرا فأتيته أتقاضاه، فقال : "أجَل، لا أُقضيكها إلاَّ نجيبةً" قال : فقضاني فأحسن قضائي، قال : وجاءه أعرابي يتقاضاه سِنَّه(٣) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أعطوه سِناً فأعطوه يومئذ جملا، فقال : هذا خير من سني، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "خيركم خيركم قضآء"(٤) .

٥ - وعن عبدالله بن أبي ربيعة(٥) رضي الله عنه، قال : استقرض مني النبي صلى الله عليه وسلم أربعين ألفا، فجاءه مال، فدفعه إليَّ، وقال : "بارك الله في أهلك

---

(١) أخرجه مسلم في المساقاة، باب من استسلف شيئا فقضى خيرا منه برقم ١٦٠٠، ومالك في الموطأ، كتاب البيوع، باب ما يجوز من السلف ٨٤/٢، وأبو داود في البيوع، باب حسن القضاء برقم ٣٣٤٦، والترمذي في البيوع، باب ما جاء في استقراض البعير برقم ١٣١٨ .

(٢) المكنى بأبي نجيح السلمي رضي الله عنه، كان من أهل الصفة، وهو من البكَّائين الذين نزلت فيهم الآية المعروفة، وهو من السابقين إلى الإسلام، توفي سنة ٧٥ هـ، انظر أسد الغابة ٣٩٩/٣، وتهذيب الأسماء ٣٣٠/١ .

(٣) أي: ناقة ذات سن معين .

(٤) أخرجه النسائي في البيوع، باب استسلاف الحيوان واستقراضه ٢٩١/٧، وابن ماجه في التجارات، باب السلم في الحيوان برقم ٢٢٨٦، والحاكم في المستدرك ٣٠/٢، وأحمد في المسند ١٢٧/٤، والبيهقي في السنن ٣٥١/٥، وقال الحاكم عنه: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، قال الألباني في الإرواء ٢٢٥/٢: وهو كما قالا .

(٥) ابن المغيرة القرشي المخزومي، أسلم يوم الفتح، وولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم الجَنَد من اليمن ومخاليفها، وأضاف إليه عمر رضي الله عنه صنعاء، ومات في آخر خلافة عثمان رضي الله عنه في طريق عودته إلى المدينة، حيث رجع لينصر عثمان رضي الله عنه فسقط من فوق راحلته فمات، انظر أسد الغابة ١٥٥/٣، والإصابة ٣٠٥/٢، والاستيعاب ٢٩٨/٢ .

ومالك، إنما جزاء السلف الحمد والأداء"(١) .

فهذه بعض النماذج لاقتراض النبي صلى الله عليه وسلم وحسن قضائه، ومنها تعلم كرامته ومعاملته النابعة من عظمة أخلاقه صلى الله عليه وسلم إذ لم يكن يكتفي بمجرد القضاء حتى يحرص على رد أفضله وأحسنه وحيث كان كذلك فهو لعمروا لله أجدر أن لا يطالب ولا يغلظ له في القول.

وهو بذلك يشرِّع لأمته الاقتراض والقضاء، فيجب على الأمة التأسي بهديه وتعامله وأخلاقه،فإن لهم به أسوة حسنه كما قال تعالى : ﴿لَقد كان لكم في رسولِ اللهِ أُسوةٌ حسنةٌ لمن كان يَرجو اللهَ واليومَ الآخِر﴾[سورة الأحزاب:٢١] وذلك واجبهم إن كانوا مؤمنين به محبين له صلى الله عليه وسلم وكفى بهذا السلوك هاديًاودليلا للمؤمن إلى اتباع التي هي أقوم في الاقتراض والقضاء وسائر المعاملات المادية التي كانت على مثل ذلك من كرم الخلق النبوي.

من أقواله صلى الله عليه وسلم في الحث على القرض:

وأما هديه صلى الله عليه وسلم من الأقوال المترجِمة عن السلوك والأفعال في شأن معاملة الاقتراض والقضاء فهي أكثر من أن تُحصى في هذه العجالة، وذلك من حيث الترغيب على القرض، والحث على القضاء وحسنه،والترهيب من المطل، والترهيب من الدَّين، وغير ذلك .

أما الترغيب على القرض ففي مثل قوله صلى الله عليه وسلم :

١ - "من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كُربة من كرب يوم القيامة.."(٢)وأي كربة يصاب بها المسلم أعظم من أن يكون محتاجالشيء من المال لإقامة

---

(١) أخرجه النسائي في البيوع، باب الاستقراض ٣١٤/٧، وابن ماجة في الرهن، باب ما جاء في حسن القضاء برقم ٢٤٢٤، وأحمد في المسند ٣٦/٤، والبيهقي في السنن الكبرى ٣٥٥/٥، وحسنه الألباني في الإرواء برقم ١٣٨٨ .

(٢) أخرجه مسلم وغيره، وتقدم تخريجه في أول هذا المبحث ص ٩٠٧.

نظام حياته من متاع العيش، أو إصلاح ما به صلاح معاشه من زراعة أو صناعة أو تجارة التى قد تتعطل عند فقده المال اللازم لإصلاحها، فإذا أسعفه أحد بقرض حسن لا ربا فيه ولا منًّا ولا أذى فرَّج عنه كربة عُظمى من كرب هذه الدينا، ولذلك كان الجزاء من جنس العمل مع عدم الموازنة بين كرب الدنيا وكرب الآخرة إلا من حيث التسمية فقط، ولا ريب بأن لمسلم الحريص على نفع نفسه لن يفرط فى أن يدخر لنفسه هذه الغنيمة العظيمة لذلك اليوم العظيم عندما يسمع هذا الترغيب.

٢ - ومما يرغبه فى ذلك أيضا ما جاء عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من أقرض الله مرتين كان له مثل أجر أحدهما لو تصدق به"(١).

٣ - وما جاء عن أبى أمامة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه سلم قال : "دخل رجل الجنة فرأى على بابها مكتوبا الصدقه بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر(٢)".

إلى غير ذلك من الأحاديث، وهذان الحديثان وإن كان فيهما كلام، فإنهما لا يخرجان

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٢٤٩/٧ الإحسان، وابن ماجه في الصدقات باب القرض برقم ٢٤٣٠، والبيهقي في السنن ٣٥٣/٥، ورجح وقفه، والخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٢٢، والحديث ضعفه البوصيري في مصباح الزجاجة ٤٧/٢، وحسنه الألباني في الإرواء ٢٢٦/٥-٢٢٩ نظرا لشواهده .

(٢) عزاه الهيثمي في المجمع ١٢٩/٤ إلى الطبراني في الكبير قال: وفيه عتبة بن حميد وثقه ابن حبان وغيره، وفيه ضعف، وفي التقريب برقم ٤٤٢٩: صدوق له أوهام،وله شاهد عند ابن ماجه في الصدقات، باب القرض برقم ٢٤٣١ من حديث خالد بن يزيد عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: (رأيت ليلة أسري بي على باب الجنة مكتوبا الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر فقلت: يا جبريل، ما بال القرض أفضل من الصدقة؟ قال: لأن السائل يسأل وعنده، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة، وخالد بن يزيد ابن أبي مالك ضعيف، لذلك قال المنذري في الترغيب ٤١/٢: وعتبة بن حميد ، يعني راوي الحديث الأول عن أبي أمامة - أصلح حالا من خالد .

قلت: لكن حديث أنس لم يشتد ضعفه فهو شاهد لحديث أبي أمامة ودليل على أن للحديث أصلا .

عن العمل بهما فيما يدلان عليه من الفضل كما هو مقرر من العمل بالحديث الضعيف فى الفضائل بشروطه المعروفه المتوفرة فيهما(١) .

من أقواله صلى الله عليه وسلم فى الحث على القضاء وإحسانه والمبادرة به :

وأما حثه صلى الله عليه وسلم على القضاء وإحسانه فقد كان ذلك منه صلى الله عليه وسلم بسلوكه وقوله :

١ ـ أما سلوكه صلى الله عليه وسلم فتمثل بحرصه الشديد على المبادرة بالقضاء كما علمت مما تقدم فى حسن قضائه.

٢ ـ وكما دل عليه قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه أبو ذر رضى الله عنه قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم فلما أبصر يعنى أُحدا، قال : "ما أحبُّ أنه يحوَّل لى ذهبا يمكث عندى منه دينار فوق ثلاث إلا دينار أرصده لدين..."(٢) .

وفى رواية من حديث أبى هريرة : "لو كان لى مثل أحد ذهبا، ما يسرُّنى أن لا يمر عليَّ ثلاث وعندى منه شيء إلا شيء أرصُده لدين"(٣) .

فتأمل كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم سوَّغ لنفسه أن يدخر المال لقضاء الدين لو أنه وجده،وهو إمام الزاهدين الذى لا يطيق أن يبيت وعنده بضعة دراهم أو دنانير حتى ينفقها(٤) ، ولكن لما كان ذلك لقضاء الدين، لم ير بأسا بإرصاد شيء من المال له لو أنه وجده، وذلك دليل على عظيم إهتمامه بقضاء الدين لما لبقائه فى الذمة من خطر عظيم.

٣ ـ ولهذا كان عليه الصلاة والسلام كثيرا ما يدعو فى صلاته ويقول: « اللهم إنى

---

(١) وهي: أن لا يشتد ضعفه، وأن يندرج تحت أصل معمول به، وأن لا يعتقد عند العمل به ثبوته، انظر فتح المغيث للسخاوي ٣٣٤/١ وما قبله، والقول البديع ص ٢٥٨، وتدريب الراوي ٢٩٨/١ .

(٢) أخرجه البخاري في الاستقراض، باب أداء الديون ١٥٢/٣، وتقدم في مبحث الزهد بنحوه .

(٣) متفق عليه تقدم ذكره وتخريجه في مبحث الكرم ص ٦٤١.

(٤) كما دل على ذلك حديث عائشة رضي الله عنها المتقدم في مبحث الكرم ص٦٤٢، وكذا حديث أم سلمة رضي الله عنها المتقدك هناك أيضا .

أعوذ بك من المأثم والمغرم» فقال له :قائل: ماأكثر ما تستعيذ يارسول الله من المغرم ، قال: "إن الرجل إذا غرم حدث فكذب ووعد فأخلف"(١) .

٤ ـ وقد ترجم عن سلوكه هذا قوله صلى الله عليه وسلم:"من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه، ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله"(٢) .

وفى هذا من الحث على القضاء والمبادرة به ما لايخفى على المتأمل، إذ هو دعاء من النبي صلى الله عليه وسلم،وهو المستجاب له عند ربه سبحانه بتأدية الله عنه،أى تيسير سبل القضاء له إذا كانت نيته صالحة، ولا شك بأن النية إذا قويت على الأداء سعت إلى تحصيله حتى تناله،ويمد الله المرء بعونه وتوفيقه بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم له، أما إذا كانت على الضد من ذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم دعا عليه بإتلاف نفسه، أو ماله،جزاء وفاقا له على سوء قصده مع تحمل وزره، وهذه الدعوة النبويه تنعى له مصيره السيء إن عاجلا أو آجلا،ولا ينجيه من ذلك إعساره طالما ونيته سابقة على عدم الوفاء، فإنما الأعمال بالنيات.

إما إن كان غنيا، فإن كان ذا نية سيئة في عدم الوفاء فهو وسابقه سواء .

وإن كان لم ينو ذلك ولكنه لم يبادر إلى قضاء ما وجب عليه عند أجله، فذلك مطل وقد قضى النبي صلى الله عليه وسلم بما رواه أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"مطلُ الغنيِّ ظُلم" (٣) ومعلوم أن "الظلمَ ظلماتٌ يوم القيامة" كما جاء فى الحديث (٤)، وذلك جزاء له فى الآخرة، أما فى الدنيا فإنه يوجب علي

---

(١) أخرجه البخاري في الاستقراض، باب من استعاذ من الدين٣/١٥٤ من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) أخرجه البخاري في الاستقراض، باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها أو إتلافها ٣/١٥٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري في الاستقراض، باب مطل الغني ظلم ٣/١٥٥، ومسلم في المساقاة، باب تحريم مطل الغني برقم ١٥٦٤ .

(٤) الذي أخرجه مسلم في البر والصلة، باب تحريم الظلم برقم ٢٥٧٨ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله عليه وسلم قال: (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ...) .

مادل عليه حديث الشَّريد بن سُويد الثقفى (١) رضى الله عنه قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "ليُّ الواجد يُحِلُّ عِرضه وعقوبته"(٢) وليُّه: هو مطله والواجد: هو القادر المليء، والمعنى أن فعله ذلك يحل عرضه بالإغلاظ عليه، وعقوبته بالحبس حتى يقضى(٣).

وذلك جزاء له على تساهله ومطله لحقوق إخوانه التى لا تساهل فيها ولا هوادة، وهو جزاء عظيم الأثر على قلب المسلم، فإن الله تعالى عظَّم حقوقه وحمى عرضه وماله من أي أذى يصل إليه بما شرعه من أحكام تحفظ له كل ذلك موفورا مصونا، ما لم يفرط هو بحق نفسه بارتكابه مايهدر ذلك الحق كما فى الدين، فإن الحماية هذه وذلك التعظيم تضحى لا عبرة بها؛ لأن الدين لما كان خطره أعظم لأنه حق أخيه المسلم،أو حق أخيه الإنسان أيا كان،ما لم يكن كافرا حربيا ولا عهد له، وكان هو السبب فيه فقد حل أن يُجازى بمثل ذلك الجزاء العادل، من إباحة ماله وعرضه له.

زجره صلى الله عليه وسلم عن ترك الدَّين بغير قضاء :

لذلك كان صلى الله عليه وسلم شديد التحذير والزجر من التساهل فى أمر الدين وعدم المبادرة إلى قضائه،بحيث كان يمتنع عن الصلاة على من مات مدينا ولم يترك لدينه قضاء:

---

(١) وقيل الحضرمي، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم فبايعه بيعة الرضوان، وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الشريد، وأنشد النبي صلى الله عليه وسلم من شعر أمية بن أبي الصلت مائة بيت، انظر أسد الغابة ٣٩٦/٢، والإصابة ١٤٨/٢ .

(٢) أخرجه أبو داود في الأقضية، باب في الحبس في الدين وغيره برقم ٣٦٢٨، والنسائي في البيوع، باب مطل الغني ٣١٦/٧، ٣١٧، وابن ماجه في الصدقات، باب الحبس في الدين والملازمة برقم ٢٤٢٧، وأحمد في المسند ٢٢٢/٤، ٣٨٨، ٣٨٩، والحاكم ١٠٢/٤، وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه البخاري ترجمة في الاستقراض بصيغة التمريض ١٥٥/٣، وحسنه الألباني في الإرواء برقم ١٤٣٤، ٢٥٩/٥، وتعقب الحاكم والذهبي على تصحيحه وقال بحسبه أن يكون حسنا .

(٣) جامع الأصول لابن الأثير ٤٥٥/٤ .

١ - فعن أبى هريره رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُؤتَى بالرجل المتوفَّى عليه الدين فيسأل:هل ترك لدينه قضاء؟ فإن حُدِّث أنه ترك وفاء صلى عليه، وإلا قال للمسلمين: "صلُّوا على صاحبكم، قال : فلمَّا فتح الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُصلِّى ولا يسأل عن الدين، وكان يقول : أنا أولى المؤمنين من أنفسهم، فمن توفي من المؤمنين فترك دينا أو كَلًّا أو ضياعا فعلىَّ وإلىَّ، ومن ترك مالا فلورثته"(١) .

فامتناع النبي صلى الله عليه وسلم وهو الرؤوف بأمته عن الصلاة على صاحب الدين الذى لم يترك له قضاء، يدل دلالة واضحة على أن المدين قد اكتسب تَبِعةً كُبرى استوجبت امتناع النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة عليه والدعاء له،ولعل ذلك لأن الدعاء له من النبي صلى الله عليه وسلم المستجاب دعاؤه لا يصادف محلا، فإن نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه" كما جاء عن أبى هريرة رضي الله عنه يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم(٢).

٢ - وروى عن أنس رضي الله عنه قال : "كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم وأُتي برجل يصلى عليه، فقال : هل على صاحبكم دين؟ قالوا : نعم، قال : فما ينفعكم أن أصلي على رجل روحه مرتهن فى قبره لا تصعد روحه إلى السماء، فلو ضمن لى رجل

---

(١) أخرجه البخاري في الكفالة، باب الدين ١٢٨/٣، ومسلم في الفرائض، باب من ترك مالا فلورثته برقم ١٦١٩ .

(٢) أخرجه الترمذي في الجنائز، باب ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: نفس المؤمن ..الخ من طرقين ١٠٧٨، ١٠٧٩،وقال: هذا حديث حسن، وهو أوصح من الأول يعني الطريق الأولى .
وأخرجه أيضا ابن ماجه في الصدقات، باب التشديد في الدين ٨٠٦/٢، وأحمد في المسند ٤٤٠/٢، ٤٧٥، وابن حبان في صحيحه ٢٦/٥ الإحسان، وقال الألباني في تعليقه على المشكاة ٨٨٠/٢: إسناده صحيح .

دينه قمت فصليت عليه، فإن صلاته تنفعه"(١).

حرصه صلى الله عليه وسلم على مساعدة المدِينين في تسهيل القضاء عليهم :

ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يسره أن لا يصلي على أحد من أمته، فقد كان يود أن يصلى حتى على المنافقين لو أنها تنفعهم، لكمال رحمته ورأفته كما تقدم ذكره، ولكن لا يملك لهم نفعا يقدر عليه، ولذلك كان إذا قدر على نفعهم لم يأل جهدا في بذله، ولا يدخر وسعا يقدر عليه، حيث كان يتوسط إلى الدائنين في تسهيل قضاء مَدينيهم بالوضع عنهم أو تيسير تقاضيهم :

١ - فقد سمع ذات يوم صوت خصوم بالباب عالية أصواتهم، وإذا أحدهما يستوضع الآخر(٢) ويسترفقه في شيء فيقول : والله لا أفعل، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما، فقال : "أين المتألِّي على الله لا يفعل المعروف؟ فقال : أنا يا رسول الله فله أيُّ ذلك أحبَّ كما جاء في الحديث المتفق عليه(٣).

٢ - وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن كعب،أن كعب بن مالك(٤) رضي الله

---

(١) عزاه الهيثمي في المجمع ٤٣/٣ إلى الطبراني في الأوسط، قال: وفيه عبد الحميد بن أمية وهو ضعيف، لكن له متابع عند أبي يعلى كما في المجمع ٤٢/٣ بلفظ: إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أتي بجنازة رجل وعليه دين، فقال: لا أصلي عليه حتى تضمنوا له دينه، فإن صلاتي عليه تنفعه، فلم يضمنوا دينه ولم يصل عليه، وقال: إنه مرتهن في قبره، وتكلم الهيثمي على أحد رواته وهو عيسى بن صدقة بن عباد اليشكر فقال: وثقه أبو حاتم وضعفه غيره .

(٢) أي: يطلب منه أن يحط له شيئا من دينه .

(٣) أخرجه البخاري في الصلح، باب هل يشير الإمام بالصلح ٢٤٤/٣، ومسلم في المساقاة، باب استحباب الوضع من الدين برقم ١٥٥٧ من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٤) ابن سلِمة بكسر اللام، بن سعد الأنصاري الخزرجي السلمي، شهد العقبة وأحدا وسائر المشاهد إلا بدرا وتبوك، وهو أحد الثلاثة الذين خلفوا وتاب الله عليهم، وكان أحد شعراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومات سنة ٥٣ هـ، انظر تهذيب الأسماء ٦٩/٢، والاستيعاب لابن عبد البر ٢٨٦/٣، والإصابة ٣٠٢/٣ .

عنه أخبره أنه تَقاضى ابن أبي حدرد(١) دينـا كان له عليه فى عهد رسول ا لله صلـى ا لله عليه وسلم فى المسجد،فارتفعت أصواتُهما حتى سمعها رسول ا لله صلى ا لله عليـه وسـلم وهو فى بيته، فخرج إليهما حتى كشف سجف(٢) حُجرته فنـادى : "يـا كعـب" قـال : قلت : لبيك يا رسول ا لله، فأشار بيده "أن ضع الشطر مـن دينـك" قـال كعـب : قـد فعلت يا رسول ا لله قال : "قم فاقضه"(٣).

٣ - وعن جابر بن عبدا لله رضـى لله عنهما قـال : أصيـب عبـدا لله وتـرك عيـالا ودينـا فطلبت إلى أصحاب الدَّين أن يضعوا بعضا من دينه، فأبوا، قال : فـأتيت النبي صلـى ا لله عليه وسلم فاستشفعت به عليهم فأبوا ، فقال : "صنف تمرك كل شيء منه علـى حدتـه؛ عذق ابن زيد على حدة، واللين على حدة، والعجوة على حـدة(٤)، ثـم أحضرهـم حتـى آتيك" قال : ففعلت ثم جاء صلى ا لله عليه وسلم فقعد وكال لكل رجل حتى استوفى، وبقـي التمر كما هو كأنه لم يمس(٥) .

فهكذا كان النبي صلى ا لله عليه وسلم يُنجد المدينين ليخلِّصهم من رِبقة الدين حتى أنه استعمل معهم خوارق العادة بإبداء هذه المعجزة التى أيده ا لله تعالى بها فى قضاء دين عبـد ا لله بـن حـرام رضـي ا لله عنـه الـذي استشـهد معـه في أحـد فـأراد أن

---

(١) وهو عبد ا لله بن أبي حدرد الأسلمي له ولأبيه صحبة، أول مشاهد الحديبيـة تـوفي سـنة ٧١ هـ، ولـه ٨١ سنة، انظر الإصابة ٢/٢٩٥ .

(٢) السجف والسجاف هو الغطاء .

(٣) أخرجه البخاري في الصلح، باب الصلـح بـالدين والعـين ٣/٢٤٦، ومسـلم في المسـاقاة، بـاب استحباب الوضع من الدين برقم ١٥٥٨ .

(٤) هذه أنواع من أنواع التمر المعروفة في المدينة .

(٥) أخرجه البخـاري في الاسـتقراض، بـاب الشـفاعة في وضـع الديـن ٣/١٥٦، وقصـة قضـاء ديـن جابر أخرجهـا البخاري في مواضع بألفاظ متقاربة منها ، في الاستقراض أيضا، باب إذا قاص أو جازفـه في الديـن تمـرا بتمـر وغيره، وفيه أن الدائن كان يهوديا ٣/١٥٤ .

لايحبس عن منزلته فى الجنة بسبب الدين كما أخبر عن ذلك عليه الصلاة والسلام بقوله "والذى نفسي بيده لو أن رجلا قتل فى سبيل الله ، ثم أحيي ، ثم قتل ثم أحيى ، ثم قتل وعليه دين ما دخل الجنة حتى يُقضى عنه دينه"(١) .

فلما لم تقبل شفاعته بتخفيف الدين حتى يتيسر القضاء لم يَتوانَ عليه الصلاة والسلام عن بذل وسعه فى تخليص صاحبه من ربقة الدين،وفاء له على صحبته وتضحيته،ولم يكن بد من طلب الله تعالى معجزة له فى ذلك، فحصل بها الوفاء العظيم،من ذلك الطعام اليسير، الذى ماكان ليبلغ مبلغا من الوفاء لولا تلك المعجزة الكبرى التى أوفت الدين وتركت التمر كأنه لم يمس .

وفى هذا من الدلالة على مبلغ حرصه صلى الله عليه وسلم على أن يخلص أصحابه من الدين لما يعلمه من هول أثره ما فيه الكفايه،وقد كان من حرصه صلى الله عليه وسلم على ذلك أن يبديه حتى لمن يظن منهم المقدرة على الوفاء كما دل عليه قوله عليه الصلاة والسلام :"مطلُ الغنيِّ ظلم ، فإذا أُتبع أحكم على مليء(٢) فليتبع"(٣) .

حيث أرشد النبي صلى الله عليه وسلم رب الدين إلى قبول الحوالة من المستدين المماطل الظالم نفسه بذلك ، ليدفع عن أخيه الظلم الحاصل بالمطل ، (لأنه قد تكون مطالبة المحال عليه سهلة على المحتال دون المحيل ، ففى قبول الحوالة إعانة على كفه عن الظلم(٤)) .

وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم قبل أن يفيء الله عليه بالفتوح والغنائم فلما أفاء

---

(١) أخرجه النسائي في البيوع، باب التغليظ في الدين ٣١٤/٧، ٣١٥، من حديث محمد بن جحش وإسناده حسن

(٢) المليء بالهمز : الثقة الغني، قال في النهاية ٣٥٢/٤: وقد أولع الناس بترك الهمزة وتشديد الياء، قلت: كما هو في رواية البخاري هذه .

(٣) أخرجه البخاري في الحوالات، باب في الحوالة وهل يرجع في الحوالة ١٢٣/٣، ومسلم في المساقاة، باب تحريم مطل الغني برقم ١٥٦٤ .

(٤) انظر فتح الباري ٣٣/١٠ .

الله عليه بذلك تحمَّل هو صلى الله عليه وسلم دين كل ذى دين يموت من أمته كما دلَّ على ذلك الحديث المتقدم (١) عن أبى هريرة «...فلما فتح الله على رسوله صلى الله عليه وسلم كان يصلى ولا يسأل عن الدين وكان يقول:"أنا أولى المؤمنين من أنفسهم فمن تُوفِّى من المؤمنين فترك دينا أو كَلاًّ أوضَياعا (٢) فعليَّ وإليَّ، ومن ترك ملا فلو رثته" .

هكذا كان حرصه صلى الله عليه وسلم على قضاء دين المدينين وسعيه فى تخليصهم من رِبقة الدين ، وأي إحسان أو رحمة أو رفق يمكن أن يقوم به أحد غيره صلى الله عليه وسلم أكثر من أن يقضي عن المدين دينه ويترك ماله لورثته كما كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم .

« فهكذا يلزم المتولي لأمر المسلمين أن يفعله بمن مات وعليه دين، فإن لم يفعل فالإثم عليه إن كان حق الميت فى بيت المال يفى بقدرما عليه من الدين وإلاّ فبقسطه"(٣) .

حثه صلى الله عليه وسلم المقرضين على تيسير قضاء مديونيهم أو إعفائهم:

وإضافة إلى ما كان يبذله صلى الله عليه وسلم من الوساطة أو الوفاء بنفسه فى تيسير القضاء والوفاء،فقد كان صلى الله عليه وسلم يرغب الدَّائنين بالتخفيف عن مدينيهم وذلك ببيان ما ينالونه من الأجر والثواب عند الله تعالى بسبب ذلك ليشجعهم فى التيسير على مدينيهم بالوضع أو الإنظار إلى ميسره :

١ ـ كما فى قوله صلى الله صلى الله عليه وسلم : "من سرَّه أن ينجِّيه الله من كرب يوم القيامة فلينفِّس عن معسر أو يضع عنه"(٤) .

٢ ـ وقوله صلى الله عليه وسلم : "كان فيمن كان قبلكم تاجر يداين الناس فإن رأى

---

(١) المتفق عليه وتقدم تخريجه ص٩٢٩.

(٢) الكل: الثقل، والمراد به العيال، أما الضياع فقال الخطابي: هي هنا وصف لورثة الميت بالمصدر، أي: ترك أولادا أو عيالا ذوي ضياع أي:لا شيء لهم. ا.هـ شرح مسلم ٦١/١١ .

(٣) فتح الباري ٤٣/١٠ .

(٤) أخرجه مسلم في المساقاة، باب فضل إنظار المعسر برقم ١٥٦٣ من حديث أبي قتادة رضي الله عنه .

معسرا قال لفتيانه تجاوزوا عنه لعل الله يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه"(١).

٣ ـ وقوله عليه الصلاة والسلام : "من أنظر معسرا أو وضع له أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله"(٢) . إلى غير ذلك من الأحاديث(٣) .

ولا ريب بأن صدى هذا الترغيب يؤثر فى نفس المؤمن بالله واليوم الآخر فتجعله يقدّم لنفسه هذا الربح العظيم إلى يوم القيامة حيث يكون أحوج ما يكون إليه.

---

(١) متفق عليه وتقدم تخريجه ص٩٠٠.

(٢) أخرجه الترمذي في البيوع، باب في إنظار المعسر برقم ١٣٠٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقال عنه: حسن صحيح .

(٣) التي منها دعاؤه صلى الله عليه وسلم للمتسامح في القرض، كما أخرج البخاري في البيوع ٧٥/٣ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى) .

المبحث الثّالث

(الرهن)

الرهن فى اللغة : الثبوت والاستقرار، يقال هذا شيء راهن أى: ثابت دائم(١)، ورهنته المتاع بالدين حبسته به ومنه قوله تعالى : ﴿كلُّ امرىءٍ بما كسب رهين﴾[سورة الطور:٢١] أى: مرهون، ومنه الرِّهان فى السباق وهو إخراج كل واحد رهنا ليفوز السابق بالجميع إذا غلب، ولذا قال الراغب (٢): "الرهن مايوضع وثيقة للدَّين، والرِّهان مثله،لكن يختص بما يوضع فى الخطار قال : وأصلهما مصدر، يقال : رهنت الرهن وراهنته رهانا فهو رهين ومرهون، ويقال فى جمع الرهن : رِهان ورُهَن ورُهُون" .

ويطلق الرهن على العين المرهونة تسمية للمفعول باسم المصدر(٣) .

وفى الشرع يعرف بأنه: "جعل عين مالية وثيقة بدين ليستوفى منها عند تعذر الوفاء(٤)"

مكانة الرهن فى المعاملات الماديه وعلاقته بالأخلاق الاجتماعيه المادية:

والرهن من المعاملات الماديه الاجتماعيه التى قد يحتاج إليها المرء فى حياته لإصلاح ما به قوام معاشه من نفقة أو تجارة أو زراعة أو صناعة أو لقضاء دين أو نحو ذلك من أمور الحياة المادية التى قد لا يستغنى عنها المرء فى حياته، فيحتاج أو يضطر إلى بذل ما عنده من متاع ونحوه لأخيه الإنسان ليعطيه مالا حالا يسد به خَلَّته وحاجته .

ولاريب بأن إسعافه بذلك يعد من مكارم الأخلاق التى جاء بها الإسلام الحنيف،وإن كان الأصل فى سد هذه الحاجة أن تجرى بطريق القرض الحسن والمكاتبة الشرعية التى تقدم الحديث عنها، ولكن نظرا إلى أن هذا المحتاج قد لا يكون معروفا عند صاحب

---

(١) تاج العروس ٢٣١/٨، والمصباح المنير ٢٦٠/١ .

(٢) في المفردات ص ٢٠٤ .

(٣) فتح الباري ٢٢٨/١٠ .

(٤) الياقوت النفيس ص ٨٢ .

المال ولا مؤتمنا لديه، أو يرى أنه لاقدرة له على الوفاء بالدين عند حلول أجله ، أو لايكون شيء من هذه، ولكن لم يوجد عند المدانية من يكتب بينهم وثيقة كما أمر الله تعالى ، فكان لابد من أن يطمئنَّ صاحب المال بما يضمن له إرجاع رأس ماله، فشرع الله تعالىله أن يستوثق من المدين بما عنده من المتاع الذى يمكن أن يستوفي منه ماله عند تعذر وفائه، وذلك إرفاقا به وتشجيعا له على بذل معروفه لأخيه، وإرفاقا بالمحتاج لينال مراده من المال لإصلاح حاله، مع بقاء أصل متاعه فى ملكه الذى قد يكون يضِنُّ به عن البيع لحاجته إليه أو نفاسته عنده..، وكان ذلك التشريع بقوله تعالى بعد تفصيل أحكام المداينة والكتابه:﴿وإن كنتُم على سفرٍ و لم تَجدوا كاتِباً فرهانٌ مَقبوضة . . . ﴾[سورة البقرة:٢٨٣] .

ويلاحظ أن الله تعالى لم ينص إلا على عذر واحد من أعذار ترك القرض واللجوء إلى الرهن،وهو كون المتعاملين فى السفر مع فقدان الكاتب ، وذلك لكون هذا العذر هو غالب الأعذار فى طلب القرض،لاسيما فى ذلك الوقت لكثرة الغزو، ويدخل فى ذلك بالمعنى كل عذر من الأعذار المذكورة آنفا غيرها،فذكر العذر هذا فقط ليس قصرا عليه بل مخرَّج مخرج الغالب الذى لامفهوم له كما هو معلوم(١) غير أن بعض أهل العلم (٢) قد حمل الآية على ظاهرها فذهب إلى أن الرهن إنما يكون فى السفر، وأما الحضر فلا ينبغى منه ذلك، ولا حجة لهم فى ذلك القول إلا الجمود على الظاهر ، فإن السنة المبينة للقرآن قد بينت أن الارتهان يكون فى الحضر كما يكون فى السفر كما سيأتى بيانه،فدل على أن التقيد بالسفر إنما هو مخرج مخرج الغالب فقط وأن ليس كون الآية في السفر مما يحظر فى غيره (٣) .

نعم الأصل أن يكون تفريج المسلم كربة أخيه المسلم بطريق القرض كما أسلفت، غير أن الناس مختلفون فى التوثق لأموالهم وفى الثقة بإخوانهم ، كاختلاف المستدنيين فى العسر واليسر والشعور بمسؤلية الدين ونية القضاء،فكان لابد من أن يوضع لكل صنف

---

(١) انظر المحرر الوجيز ٢/٥٢١، وجامع أحكام القرآن ٣/٤٠٧ .

(٢) منهم الضحاك ومجاهد وداود، انظر المرجعين السابقين .

(٣) انظر جامع أحكام القرآن ٣/ ٤٠٧ .

تشريع يلائمه تمشيا مع نهج الشريعة من حيث الشمول واليسر ، فمن وثق بالرد اكتفى بالمكاتبه، ومن لم يثق بذلك طلب الرهن، ومن كان كامل الوثاقة بأخيه والائتمان به فلا حرج عليه فى أن لايطلب مكاتبة ولارهنا، وهذا هو الصنف الثالث من الناس الذى قال الله تبارك وتعالى عنه: ﴿...فإن أمن بعضُكم بعضًا فليُؤَدِ الَّذى اؤتُمن أمانتَه وليتَّقِ الله ربَّه...﴾[سورة البقرة:٢٨٣] .

وتأمل إعظام الله لحقوق عباده حيث لم يكل حق صاحب المال إلى مايعلمه من أمانة صاحبه لما توجبه الأمانه من الرد من حيث هي ، بل زاد على ذلك أن أمر المؤتَمَنِين بأداء الأمانة ليكون الوازع لأدائها إلهيا،إضافة إلى الوازع الخلُقى، وذلك لما يعلمه سبحانه من أحوال خلقه وعدم ثبوت كثير منهم على الأخلاق الفاضلة عند اختبارهم بالدرهم والدينار،وأضاف إلى ذلك الأمر بالأداء: الأمر بتقوى الله ومراقبته للمبالغة فى تربية المهابة فى قلب المدين، لئلا يفرط فيما اؤتمن عليه ، وليستشعر دائما أن الله سبحانه وتعالى مطلع عليه عالم بأمانة أخيه عنده ، وأنه لاينفعه شيء من التخلص من علم الله تعالى ذلك المرتب عليه الجزاء منه سبحانه له عند الخيانة بإنكار أو نقص أو نحوه كما علم مما تقدم فى مبحث الأمانة، فعليه أن يجعل بينه وبين علم الله تعالى هذا وقاية تحجزه من عذابه ، وذلك بتأدية حق أخيه كاملا غير منقوص، مكافأة له على حسن ظنه به حيث ائتمنه على ماله و لم يطلب منه الوثاقة بدينه من كتاب أو رهن ، فـ ﴿هل جزاءُ الإحسانِ إلَّا الإحسان﴾[سورة الرحمن:٦٠] .

تمثل أخلاق التعامل
بالرهن فى النبي صلى الله عليه وسلم

قد علمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم عاش فى هذه الدنيا على كمال الزهد فيها وكمال الرغبة عنها ، وعلى رضاه بالكفاف من متاعها الزائل، بل بأقل من الكفاف كما علمت فى مبحث زهده صلى الله عليه وسلم ، ومن كان حاله كذلك لا يكون مدخِّرا مالا يمكن أن يقرضه أو يسترهن به، لأن ادخار المال ينافى الزهد فى الدنيا، بل على الزاهد أن يجود بما لديه ويستوى عنده العدم والجِده، وهو الحال الذى كان عليه صلى الله عليه وسلم فإنه لم يدخر درهما ولادينارا ، وقد فتح الله عليه الدنيا وأتته الأموال الكثيرة من الغنائم والخراج والفيء والهدايا وغير ذلك ، فكان ينفقها كلها ، بحيث يمسي وليس عنده منه شيء ، كما علمت من المباحث المتقدمة : الزهد والكرم...

وحيث كان كذلك فلا يمكن أن يقرض أو يسترهن لنفاد ما عنده بطريق الإنفاق فى وجوه الخير، ولهذا لم أجد مثالا لإقراض النبي صلى الله عليه وسلم أو ارتهانه، أما العكس من ذلك وهو اقتراضه أو رهنه فصوره كثيرة؛ لأن الحال الذى كان عليه صلى الله عليه وسلم استدعى منه ذلك،وقد تقدمت الأمثلة الكثيرة فى القرض.

وأما الرهن فقد كان تعامله صلى الله عليه وسلم به قليلا لعدم احتياجه صلى الله عليه وسلم لأن يبذل ذلك لأحد يستقرض منه فيطلب منه الرهن ، إذ أمانته صلى الله عليه وسلم ووفاؤه أعظم فى نفوس معامليه من أن يقام عليها رهان ، ووثاقتهم به أعظم من بذل الوثائق والأرهان، فالسعيد من ساعده الحظ بإقراضه صلى الله عليه وسلم؛ ليكسب بذلك برا عنده وقضاء حسنا خيرا من ماله الذى بذله .

إلا ما كان من "يهود" المليئة قلوبهم غيظا وحسدا وحقدا عليه صلى الله عليه وسلم ، فإنهم كانوا لما هم عليه من خبث الطوية لصاحب الخلق العظيم، يتجاهلون الحقائق العظيمة المتمثلة فيه صلى الله عليه وسلم ويتنكرون لها، فكان عليه الصلاة والسلام إذا احتاج إلى معاملة أحدهم لضرورة الحياة لكونهم كانوا أهل الثراء والحرفة، أحوجه عنتهم وعنادهم له أن يبذل لهم الوثاق كما يحبون،تطييبا لقلوبهم كما جرى له عليه

الصلاة والسلام مع أبى الشَّحم اليهودي (١) حيث احتاج إلى بعض شعير مما عنده فاشترى منه إلى أجل ورهنه درعه.

فقد أخرج البخارى ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم اشترى من يهودي طعاما إلى أجل ورهنه درعه"(٢) .

فانظر كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم رهن عُدَّة الحرب وهي الدرع ، لتأمين صاحب المال على حقه لمَّا كان ليس فى قلبه من الثقة بالنبي صلى الله عليه وسلم لكفره وعناده ماهي فى قلوب أصحابه .

ولا ريب أن صاحب الخلق العظيم يأبى أن يشوِّش على صاحب المال قلبه، فإنه صلى الله عليه وسلم قد كان يقول: "إن لصاحب الحق مقالا" فلذلك بادر إلى ما يستوثق به ليطمئن قلبه من غير أي تردد ولا أَنفة، وهذا يدل على ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من السهولة واللين والتواضع والانقياد إلى شرع الله، لا يمنعه من ذلك جلال النبوة ولا كمال العصمة ولا دناءة طالب الاستيثاق، فإنه صلى الله عليه وسلم لما علم أنه يريد حقا بادر إليه، فأين هذا الخلق من حكام المسلمين اليوم لو طلب منهم مثل ذلك أو أقل منه؟!

قال العلماء: "إن الحكمة فى عدوله صلى الله عليه وسلم عن معاملة مياسير الصحابة إلى معاملة اليهودى إما لبيان الجواز، أو لأنهم لم يكن عندهم إذ ذاك طعام فاضل عن حاجة غيرهم، أو خشي أنهم لا يأخذون منه ثمنا أو عوضا فلم يرد التضييق عليهم، فإنه لا يبعد أن يكون فيهم إذ ذاك من يقدر على ذلك أو أكثر منه، فلعله لم يطلعهم على ذلك وإنما أطلع عليه من لم يكن موسرا به"(٣).

وهذا التعليل الأخير هو المناسب لمقام صاحب الخلق العظيم فإن جواز معاملتهم قد علم

---

(١) كذا سماه الحافظ في الفتح ١٠/٢٢٩ نقلا عن الشافعي والبيهقي .

(٢) البخاري في الرهن، باب رهن السلاح ٣/١٨٧، وأبواب أخر، ومسلم في البيوع، باب الرهن وجوازه في الحضر كالسفر برقم ١٦٠٣، والقصة ثابتة أيضا من حديث أنس وابن عباس وغيرهما .

(٣) فتح الباري ١٠/٢٣٠، وانظر شرح مسلم للنووي ١١/٤٠ .

من أدلة أخرى كثيرة فى الكتاب والسنة ، وكون الصحابة جميعهم ليس عندهم طعام فاضل عن حاجتهم بعيد، كما علم من حال الصحابة فإن المياسير منهم كثير من الأنصار أو المهاجرين، ولذلك احتوى التعليل الثالث على استبعاد الثانى حيث قال : فإنه لا يبعد..الخ فعلم أنه صلى الله عليه وسلم عامل اليهودي بما يليق بكرم خلقه وحسن تعامله من غير أن يستأنف من بذل الرهن لصاحب الحق عملا بقوله تعالى: ﴿فرهان مقبوضه﴾ [البقرة ٢٨٣] أي: فالذي يستوثق به رهن مقبوضة ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يتمثل القرآن فى واقع حياته وعمله كما قد علمته، ولذلك وجدنا من هديه قوله: "دعه فإن لصاحب الحق مقالا ."(١).

---

(١) متفق عليه وتقدم تخريجه في القرض ص٩٢١ .

المبحث الرابع

(الإجارة)

الإجارة: العقد على المنافع بعوض، وهو ما يعود من ثواب العمل دنيويا كان أو أخرويا، يقال أجره وآجره إيجارا ومؤاجرة إذا عامله بالإجارة (١) ، ومنه سمي ثواب الطاعات أجراً كما قال تعالى :﴿وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم﴾[سورة محمد: ٣٦]

.

وشرعا هي :"عقد على منفعة معلومة مقصورة قابلة للبذل والإباحة بعوض معلوم"(٢)

.

مكانة الإجارة فى المعاملات المادية وعلاقتها بالأخلاق الإجتماعيه المادية:

والإجارة من المعاملات المادية الإجتماعيه التى هي من ضروريات الخليقة وتقتضيها مصلحه الخلطة بين الناس، وتفتقر إلى الأخلاق الحميدة من صدق وأمانة ونصح.. وغير ذلك فلا تنجح ولا تفلح إلا بها وهي من المكاسب الشريفة التى تعاطاها النبيون وعباد الله الصالحون، من أولئك نبي الله موسى عليه السلام حيث آجر نفسه عند نبي الله شعيب عليه السلام عشر سنين فى رعي الغنم بمهر امرأته، كما قص الله تعالى ذلك بقوله: ﴿قالت إحداهما ياأبت إستأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين * قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرنى ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين * قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على مانقول وكيل﴾[سورة القصص:٢٦-٢٨].

وقد نوهت هذه الآية بأجل أخلاق الإجارة وأكبر مقوماتها وهى الأمانة والقوة ، أما الأمانة فلأن بها يتم حفظ الأموال وتنميتها، وأما القوة فلحمايتها وإصلاحها والسعي الحثيث فيما استئوجر لها من الرعاية والتنمية ونحوها، ولهذا اختصنا بالذكر دون

---

(١) مختار الصحاح ص ٦، ومفردات القرآن ص ١٠، والتوقفيف على مهمات التعاريف للمناوي ص٣٥ .

(٢) الياقوت النفيس ص ١١٢ .

الصفات الأخلاقيه المطلوبة فى الإجارة من صدق ووفاء، وإخلاص.. ونحو ذلك، إذ على ضوء هاتين الصفتين يتم اختبار الأجير غالبا،فمن توفرت فيه هاتان الخصلتان بادر الناس إلى استئجاره، وتباروا فى تفضيله واختياره، كما هو الحال فى نبي الله موسى عليه السلام الذى كان بتلك المثابة، بلْه عن حسن معاملته ولين جانبه مع من استأجره أو من يتعامل معه كما أفاده قوله : ﴿ستجدُنى إنْ شاءَ اللهُ من الصَّالحين﴾ أي: فى التعامل وغيره(١) .

وحيث أدى الأجير ما استؤجر له، استحق الأجرة كاملة غير منقوصة وعاجلة غير آجلة، وللعلماء فى أجرة موسى كلام يخرج بنص الآية عن ظاهرها(٢) .

---

(١) انظر التفسير الكبير ٢٤٣/٢٤ .

(٢) إذا الظاهر أن الإجارة المذكورة جعلت مهرا للبنت، وعليه فقد جعلا المهر منافع إجارة الزوج نبي الله موسى، لأبي المرأة وهو نبي الله شعيب عليهما السلام، فيحتمل أن يكون ذلك برضاها؛ لأنها سمعت وسكتت بناء على عوائد مرعية عندهم بأن ينتفع بتلك المنافع أبوها، ويحتمل أن يكون ولي المرأة بالأصالة هو المستحق للمهر في تلك الشريعة، فإن عوائد الأمم مختلفة في تزويج ولاياهم ا.هـ، التحرير والتنوير ١٠٧/٢٠، وانظر تفسير القرطبي ٢٧٣/١٣.

ومع مقتضى هذا الظاهر فقد ذهب أهل التفسير إلى البحث عما كانت عليه أجرة موسى على رعي الغنم مع تسليمهم بما يدل عليه ظاهر الآية من أنه المهر، فمن قائل: إنه جعل له كل سخلة توضع خلاف لون أمها، ومن قائل: إنه جعل له كل بلقاء تولد، ومن قائل: بأنه جعل له كل ماتلد تلك المواشي تلك السنة على ذات لونين، ومن قائل: إنه أجر نفسه بشبع بطنه وعفة فرجه، ويروي ذلك مرفوعا وفي إسناده ضعف كما قال الحافظ في الفتح ٩/١٠، إلى غير ذلك مما لم يؤيده النقل الصحيح، انظر تفسير القرطبي ٢٧٦/٣، ولذلك قال الشافعي محتجا بهذه الآية على مشروعية الإجارة: (ذكر الله سبحانه وتعالى أن نبيا من أنبيائه آجر نفسه حججا مسماة ملك بها بضع امرأة) كذا في الفتح لابن حجر ٩/١٠، وقال الحافظ بعد أن ساق تلك الأقوال: (وقد أبعد من جوز أن يكون المهر شيئا آخر غير الرعي...) وهذا كله بناء على شرع غيرنا .

=

ويدل على استحقاق الأجرة قول الله تعالى على لسان موسى وهو يخاطب الخضر عليهما السلام : ﴿..فوجَدا فيها جدارا يُريد أن يَنقضَّ فأقامه قال لو شِئتَ لاتَّخذتَ عليه أجرا﴾[سورة الكهف:٧٧] فقد قال القرطبي:" فى هذه الآية دليل على صحة جواز الإجازة، قال : وهى سنة الأنبياء والأولياء(١)" .

"وقد كانت مشروعة معلومة فى كلِّ ملة(٢)" كما دلت عليه الآيات المتقدمة فى استئجار شعيب لموسى عليهما السلام،وذلك لمقتضى ضرورة الحياة وطيب الكسب منها، ولذلك عرض موسى عليه السلام على الخضر عليه السلام أن يأخذ أجرة عمل إقامة الجدار من أصحاب القرية الذين أبوا أن يضيفوهما، لمَّا رأى عدم استحقاقهم لأن يتنازل الخضر لهم عن أجرة العمل الذى قام به؛للؤمهم فى عدم قراهم الأضياف،لاسيما مع حاجتهم وطلب منهم ذلك.

= أما في شرعنا فقد ذكر القرطبي في المسألة الثالثة من المسألة العاشرة من مسائل هذه الآية ما نصه: (الثالثة: وأما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية، وهو ما قرره شرعنا وجرى في حديث الذي لم يكن عنده شيء من القرآن، رواه الأئمة، وفي بعض طرقه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما تحفظ من القرآن) فقال: سورة البقرة والتي تليها، قال: (فعلمها عشرين آية وهي امرأتك) قال: واختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة أقوال، فكرهه مالك ومنعه ابن القاسم وأجازه ابن حبيب، وهو قول الشافعي وأصحابه، قالوا: يجوز أن تكون منفعة الحر صداقا كالخياطة والبناء وتعليم القرآن، وقال أبو حنيفة: لا يصح ... وقال أبو الحسن الكرخي: إن عقد النكاح بلفظ الإجارة جائز لقوله تعالى: ﴿فآتوهن أجورهن﴾ وقال أبو بكر الرازي: لا يصح؛ لأن الإجارة عقد مؤقت، وعقد النكاح مؤبد فهما متنافيان.. إلى أن قال: وعول على هذه الآية جماعة من المتأخرين والمتقدمين في هذه النازلة، ثم نقل عن ابن خويزمنداد قوله: (تضمنت هذه الآية النكاح على الإجارة، والعقد صحيح، ويكره أن تجعل الإجارة مهرا وينبغي أن يكون المهر مالا كما قال عز وجل: ﴿أن تبتغوا بأموالكم محصنين﴾ ا.هـ جامع أحكام القرآن للقرطبي ١٣/٢٧٣-٢٧٤ .

(١) تفسير القرطبي ١١/٣٢ .

(٢) المرجع السابق ١٣/٢٧١ .

ولذلك توالت أوامر الله تعالى فى أكثر من آية بإيتاء الأجور لمستحقيها من النساء ونحوهن كما فى قوله تعالى : ﴿..فإن أَرضَعنَ لكم فآتُوهنَّ أُجورَهن..﴾[سورة الطلاق:٦] حيث أوجب على الأزواج أن يدفعوا لمطلقاتهم أجرة على إرضاعهن أولادهم منهن، لاستحقاقهن لذلك بانقضاء عُلقة النكاح التى كانت تقتضى الرضاعة بغير أجر، فلما انقطعت استوجبت الأجر على عملها ذلك، كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿وعلى المولود له رزقُهنَّ وكسوتُهنَّ بالمعروف﴾[سورة البقرة:٢٣٣] .

وكذا أمر الله تعالى بأن يدفع للزوجات أجورهن على بذلهن أنفسهن للأزواج واستمتاعهم بهن وهو المسمى بالصداق أو المهر، كما فى قوله تعالى :﴿..فما استمتعتُم به منهُنَّ فآتوهُنَّ أجورَهن فريضة﴾[سورة النساء:٢٤] وقوله سبحانه : ﴿فانكِحوهُنَّ بإذن أهلِهنَّ وآتُوهُنَّ أجورَهن بالمعروف..﴾[سورة النساء:٢٥] .

فقد سمى الله تعالى ما يُعطى للمرأة من الصداق : أجراً؛ لأنه أجر الاستمتاع، قال القرطبى: "وهذا نص على أن المهور تسمى أجرا، وذلك دليل على أنه فى مقابلة البضع لأن ما يقابل المنفعة يسمى أجرا..(١)" ولذلك علق الله تعالى إباحة النكاح على بذل هذه الأجرة كما هو الحال فى الإجارة،إذ لا تصح إلا عند توفر أركانها الأربعة التى هى: الأجرة والصيغة والمنفعة والعاقدان (٢) وذلك كما فى قوله تعالى :﴿ولا جناحَ عليكم أن تنكِحوهنَّ إذا آتيتُموهُنَّ أجورَهن﴾[سورة الممتحنه :١٠] وقوله سبحانه:﴿اليومَ أُحِلَّ لكم الطَّيبات﴾ إلى قوله: ﴿والمحصناتُ من المؤمناتِ والمحصنات من الذين أوتُوا الكتابَ من قبلِكم إذا آتيتُمُوهُنَّ أجورَهنَّ مُحصنينَ غير مُسافحينَ ولا مُتَّخذِي أخدان﴾[سورة المائدة :٥] .

ولم يعف الله أحداً من بذل هذه الأجرة حتى نبيه ومصطفاه الذى خصه بخصائص كثيرة من دون الأمة،فإنه لم يبح له الزواج إلا ببذل الأجرة لزوجاته كما قال الله

---

(١) جامع أحكام القرآن ١٢٩/٥ .

(٢) انظر الياقوت النفيس ص ١١٣ .

تعالى : ﴿ياأيُّها النَّبي إنَّا أحللنا لك أزواجَك اللَّاتى آتيتَ أجورَهُنَّ وما ملكت يمينُك ممَّا أفاءَ اللهُ عليك . . . ﴾[سورة الأحزاب:٥٠] وقد مضى أيضاح ذلك فى بابه (١) .

فهذا كله يدل على أهمية بذل الأجرة لمستحقيها وأنه لا يجوز التفريط بمستحقات الأجراء منها ؛ ولهذا كان الله تعالى وهو الحكم العدل لا يضيع أجر من أحسن عملا، بل يوفِّى العاملين بطاعته أجورهم كاملة غير منقوصة كما وعد الله تعالى بذلك عباده فى أكثر من خمسين آية واصفا أجره لهم بأنه عظيم ، وبأنه كبير،وبأنه كريم، وبأنه حسن، وبأنه بغير حساب،وأنه غير ممنون، وقد أخبر سبحانه أنه لايخلف الميعاد،وبأنه كريم ومعلوم أنَّ الكريم إذا أعطى أجزل فى العطاء وإن لم يقدم إليه بر أو مقابل، فكيف بمن قدم له ذلك ، فلا ريب بأنه سيكون أجرا عظيما يليق بجوده وكرمه سبحانه وتعالى ﴿فنعم أجرُ العاملين﴾[سورة الزمر:٧٤] وكل ذلك ادَّخره لعباده ليوم الجزاء الأخروى ﴿ولأجرُ الآخرةِ خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يتَّقون﴾[سورة يوسف:٥٧] .

وقد أكد لعباده حصولهم ذلك الأجر بنفيه أن يضيع عمل عامل منهم من ذكر أو أنثى فى نحو سبع مرات كما فى قوله سبحانه:﴿إن الله لايُضيعُ أجرَ المؤمنين﴾[سورة آل عمران:١٧١] ﴿إن الله لايُضيع أجرَ المحسنين﴾[سورة التوبة:١٢٠] . إلى غير ذلك .

وذلك إضافة إلى ما اشتملت عليه مواعيده تلك من مؤكدات بلاغيه من أدوات التأكيد المعروفه كإنَّ والجملة الاسميه ولام الابتداء ونحو ذلك ، وذلك كله لحث عباده على العمل الصالح ليجزل لهم الأجر والثواب .

ولا شك بأن المؤمن واثق من إنجاز وعد ربه له،وأنه لاريب فيه لمقتضى إيمانه به وباليوم الآخر، وما فيه من ثواب وعقاب ، ولذلك هو يعبد الله ويرغب إلى الله فى قبول عمله لينال الأجر الموعود به . ولقد كان الأنبياء فى طليعة المؤمنين الذين يثقون بذلك من ربهم ويرغبون فى حصول أجر أعمالهم التى يقومون بها فى الدعوة إليه والطاعة له .

---

(١) انظر مبحث الصداق ص٦٩٦.

كما حكى الله تعالى عنهم فى آيات كثيرة قولهم لأقوامهم :﴿وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجريَ إلَّا على ربِّ العالمين﴾[سورة الشعراء: ١٠٩،١٢٧،١٦٤،١٨٠] ونحو ذلك،وقد حكى الله تعالى عنهم ذلك على سبيل الإقرار والإيحاء بإنجازه لهم ﴿ولن يُخلِفَ اللهُ وعدَه﴾[سورة الحج:٤٧] ﴿إن اللهَ لا يُخلِفُ الميعاد﴾[سورة آل عمران:٩] .

* * *

تمثل أخلاق التعامل
بالإجارة في النبي صلى الله عليه وسلم

قد علمت أن الإجارة من المعاملات التي دأب على التعامل بها الأنبياء والأولياء؛لما فيها من كسب طيب في الرزق،وتربية خلقية في السلوك،حيث يتدرب الأجير برعاية ما استؤجر له إلى رعاية أرقى منه.

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يُستأجرون لرعي الغنم أو نحوها كما علمت من حال موسى عليه السلام ، وكذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء،فقد صح عنه حديث أبي هريرة رضي الله عنه قوله :"ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم" فقال أصحابه رضي الله عنهم وأنت ؟فقال:"نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة"(١).

وذلك لحكمة أرادها الله تعالى فألهمهم ذلك لأجلها، وهي:"أن يحصل لهم التمرُّن برعيها على ما يكلَّفونه من القيام بأمر أمتهم، لأن في مخالطتها يحصل لهم الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفريقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مراح، ودفع عدوها من سبع وغيره، وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة ، ألفوا من ذلك الصبرعلى الأمة وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها فجبروا كسرها ، ورفقوا بضعيفها وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم

---

(١) أخرجه البخاري في الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط ١١٥/٣، وابن ماجه في التجارات، باب الصناعات ٧٢٧/٢، ومعنى قوله: على قراريط لأهل مكة: أنه كان يرعاها لهم بأجرة قدرها كل شاة بقيراط، والقيراط جزء من الدرهم أو الدينار كذا فسره (سويد) أحد رواة الخبر عند ابن ماجه، ورده ابراهيم الحربي فقال: قراريط اسم موضع بمكة، ولم يرد القراريط من الفضة، قال الحافظ ابن حجر: لكن رجح الأول؛ لأن أهل مكة لا يعرفون مكانا يقال له: قراريط، قلت: وهذا ما فهمه البخاري حيث عنون لهذا الحديث: باب رعي الغنم على قراريط، وانظر فتح الباري ٥/١٠، وإرشاد الساري للقسطلاني ١٢٧/٤ .

لمشقة ذلك أسهل مما لو كُلِّفوا القيام بذلك من أول وهلة،لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعى الغنم.

وخصت الغنم لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها فى العادة المألوفة، ومع كثرة تفرقها فهى أسرع انقيادا من غيرها" (١).

وفى تحدث النبي صلى الله عليه وسلم عن بيان حاله بعد أن علم بكونه أكرم الخلق على الله،بيان لما كان عليه من عظيم التواضع لربه سبحانه والتحدث بمنته عليه وعلى إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقد كان صلى الله عليه وسلم فى تعامله هذا مثالا لما ينبغى أن يكون عليه التعامل فى هذا الباب بلا ريب، لما كان عليه من الصدق والأمانة والإخلاص والوفاء...كما علم مما سبق، ويدل على ذلك قناعته بالأجرة القليلة التى كان يتقاضاها كما يدل عليه جمع القلة المستفاد من اللفظ "قراريط" أي: قراريط معدودة محدودة .

ومن كانكذلك فإن تعامله مع غيره سيكون مثاليا حقا، وهذا ماجعل الناس يأتمنونه على أموالهم و لم ينازعه أحد فى الكفاءة بتلك المسئولية، كل ذلك ولماَّ يوح إليه بعد، فلما بعثه الله رحمة للعاملين لم تزده هذه البعثة إلا ترسيخا للأخلاق الرضية العظيمة التى طبع عليها، والتى كانت بعثته لإتمام معالمها،غير أنه لم يكن ليتعاطى الإجارة فى نفسه وقد كلفه الله بمسئولية الرسالة وهدايه الأمة وأغناه عن ذلك،وفضَّله على كثير من خلق تفضيلا.

استئجاره صلى الله عليه وسلم غيره وحسن معاملته لأجرائه :

ولكن كان يستأجر غيره فقد عامل صلى الله عليه وسلم أناسا باستئجارهم فى مناسبات كثيره فمن ذلك :

---

(١) فتح الباري ٦/١٠، وإرشاد الساري للقسطلاني ١٢٧/٤، وانظر الروض الأنف بسيرة ابن هشام ١٩٢/١، والوفاء بحقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم ١٤٢/١ .

١ ـ استئجاره صلى الله عليه وسلم رجلا من المشركين(١) عند خروجه للهجرة يدلهم على الطريق،وكان من صفات هذاالأجير المرشحة لاستئجاره أنه كان (هاديا خِرِّيتاً) أى ماهرا بمعرفة الطريق كما أخرج ذلك البخارى من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : استأجر النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلا من بنى الدِّيل، ثم من بنى عبد بن عدى هاديا خِرِّيتا ـ الخريت الماهر بالهدايه ـ قد غمس يمين حلف فى آل العاص بن وائل وهو على دين كفار قريش،فأ مِناه فدفعا إليه راحلتيهما،ووعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، فأتاهما براحلتيهما صبيحة ليال ثلاث فارتحلا،وانطلق معهما عامر بن فُهيرة والدليل الدِّيلي، فأخذ بهم أسفل مكة وهو طريق الساحل"(٢).

٢ ـ ومن ذلك استئجاره صلى الله عليه وسلم يهود خيبر على العمل فى أرض خيبر التى أخذها منهم لما افتتحها فى العام السابع من هجرته، وذلك لما رأى صلاحية إبقائهم للعمل بها لخبرتهم بذلك العمل،وآجرهم على ذلك شطر ما يخرج من ثمارها.

كما أخرج ذلك البخارى(٣) من حديث عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال : "أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر اليهودَ على أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها ".

فهكذا كان صلى الله عليه وسلم يختار أجراءه لمَّا تقتضي المصلحة منه أن يستأجر، يختار المهرة الأمناء،فالدليل الدِّيلى كان على الغاية من المهارة والأمانة، بحث استطاع بفضل الله ثم بمهارته أن يسلك بالنبي صلىالله عليه وسلم وصاحبه الطريق البعيدة عن الأنظار،التى لا يخطر ببال مشركي قريش أن يسلكوها، فكان ذلك من عوامل نجاح الهجرة المباركه.

وأما أمانته فقد دل عليها ثقة النبي صلى الله عليه وسلم به وأنه لم يخونهم بإفشاء

---

(١) هو عبد الله بن أريقط كما في القسطلاني ١٢٨/٤ .

(٢) البخاري في الإجارة، باب استئجار المشركين عند الضرورة أو إذا لم يوجد أهل الإسلام ١١٦/٣ .

(٣) في الإجارة ١٢٣/٣ وفي مواطن أخرى منها في الزارعة ١٣٨/٣ .

ذلك الأمر لقريش التى كانت تبذل جائزة مغرية على ذلك قدرها مائة من الإبل. وقد كان فى محل الوُثاقة به حيث لم يغره ذلك العطاء الجزل ليخفر أمانته مع ماهو عليه من الشرك والعداء له صلى الله عليه وسلم بمقتضى مخالفته له فى الدين، وهذا يدل على عظيم حسن اختيار النبي صلى الله عليه وسلم لاستئجار هذا الرجل.

وأما استئجاره ليهود خيبر للعمل بما كانت أرضا لهم فلا يخفى مبلغ حكمته صلى الله عليه وسلم في اختيارهم لهذا العمل، لأنهم أدرى الناس بها وبما يصلحها من سقي وبذر وتنمية وحصاد، ولو أنه ترك ذلك فى أيد أخر لربما هلك النخل و لم يستفد منه المسلمون بشيء لعدم خبرة من سيقوم بذلك بهذه الأرض وعادات أهلها الأسبقون فيها فهذا من حيث الاختيار.

أما من حيث بذل الأجرة فقد بذل لهم صلى الله عليه وسلم أجرا كبيرا حيث جعل لهم شطر ما يخرج من ثمارها، وهذا لا ريب فى أنه كثير يليق بكرمه صلى الله عليه وسلم وحسن معاملته لهم، إذ كان بوسعه أن يبذل لهم أقل من ذلك كالثمن أو الربع أو الثلث وسيرضون بذلك لما يرون فيه من المصلحة فى نيل ذلك، غير أنه عليه الصلاة والسلام أبى إلا أن يعطيهم فوق ذلك لما هو عليه من الجود والسخاء، لتقتدى به أمته فى معاملة أجرائهم من حسن البذل لهم، وحسن اختيارهم، وغير ذلك مما يتعلق بحقوقهم وواجباتهم.

٣ ـ وهكذا كان صلى الله عليه وسلم فى سائر استئجاراته كما جاء فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما : "ان النبي صلى الله عليه وسلم احتجم وأعطى الحجَّام أجره"(١) وذلك مع كراهته صلى الله عليه وسلم لكسب الحجام فقد صح عنه عليه الصلاة والسلام قوله : "كسبُ الحجام خبيث"(٢) ومع ذلك فقد دفع للحجام أجرة

---

(١) أخرجه البخاري في الإجارة ، باب خراج الحجام ١٢٢/٣ .

(٢) أخرجه مسلم في المساقاة، باب تحريم ثمن الكلب برقم ١٥٦٨، وأبوداود في البيوع، باب كسب الحجام برقم ٣٤٢١، والترمذي في البيوع، باب ما جاء في ثمن الكلب برقم ١٢٧٥، والنسائي في الصيد، باب النهي عن ثمن الكلب ١٩٠/٧، من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه .

عمله، وإن كان ذلك الكسب من حيث هو غير شريف،لكونه يدل على دناءة النفس لما فيه من مزاولة النجاسة، ومع ذلك فقد أعطاه ما استوجبه من الأجر، لأنه كما قال أنس رضى الله عنه "لم يكن يظلم أحدا أجره"(١) يعني: وإن كان يكره له تلك الصنعة فإن عمله يستوجب الأجر من حيث هو أجر،فكان عليه الصلاة والسلام يبذله بل ويكرمه.

٤ - فعن أنس رضى الله عنه قال : "حجم أبو طيبة رضى الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم فأمر له بصاع أو صاعين من طعام، وكلّم مواليه فخُفّف عن غلته أو ضريبته(٢)".

وذلك زيادة له فى الإكرام وبذل الإحسان فى مقابل عمله.

٥ - ولما ارتاب الصحابة رضوان الله عليهم فى أخذ الأجرة على الرُّقية بكتاب الله أزاح ما فى قلوبهم من الريب بمباشرته عليه الصلاة والسلام الأخذ من ذلك الأجر، كما أخرج ذلك البخارى من حديث أبى سعيد الخدري رضى الله عنه وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له :"وما يدريك أنها - أي: الفاتحة - رقية؟ قال : قد أصبتم، اقسموا - أي: الأجرة - واضربوا لى معكم سهما...(٣)".

وفى رواية أخرى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما : "أن نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مروا بماء(٤) فيهم لديغ - أو سليم - فعرض لهم رجل من أهل الماء، فقال: هل منكم من راق؟ فإن فى الماء رجلا لديغا: أو سليما، فانطلق رجل منهم فقرأ بفاتحه الكتاب على شاء(٥)، فبرىء، فجاء بالشاء إلى أصحابه فكرهوا

---

(١) أخرجه البخاري في الإجارة، باب خراج الحجام ١٢٢/٣ .

(٢) أخرجه البخاري في الإجارة، باب ضريبة العبد وتعاهد ضرائب الإماء ١٢٢/٣ .

(٣) البخاري في الإجارة، باب ما يعطي في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب ١٢١/٣ ومتنه طويل، وفي الطب ١٧٠/٧ .

(٤) أي: بقوم نزلوا على ماء .

(٥) أي: على أجر من الشاء، وقد ذكر في الروايات الأخرى أنه قطيع من الغنم .

ذلك، وقالوا : أخذت على كتاب الله أجرا؟حتى قدموا المدينة فقالوا : يا رسول الله أخذ على كتاب الله أجرا !، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله(١).

فأفادهم النبي صلى الله عليه وسلم الحكم الشرعى من جواز أخذ الأجره على الرقية بالقرآن وأنه أحق ما بذلت فيه الأجرة ثم شاركهم فى اقتسامها ليكون ذلك زيادة فى تطييب قلوبهم على حل أخذ هذه الأجرة لأنها دخلت عليهم بطريق العمل المشروع، وقد قال عليه الصلاة والسلام : "أطيب الكسب عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور"(٢) .

فهذا هو هديه صلى الله عليه وسلم فى استئجار الأجراء، وحسن معاملته لهم، والمبادرة إلى إعطائهم حقوقهم وإكرامهم فوق ذلك، وهذا السلوك النبوى يجب على الأمة اتباعه بمقتضى الإيمان به صلى الله عليه وسلم وأمرِ الله عباده بلزوم اتباعه كما قال سبحانه " ﴿قل إن كنتُم تُحبّون اللهَ فاتّبعوني يُحبِبْكم الله...﴾ [آل عمران ٣١] ومع ذلك فإنه صلى الله عليه وسلم لم يترك الأمة على هذا المقتضى، بل حذر من التهاون بحقوقهم وأكلها،وحث على المبادرة والإسراع بأدائها فى غير ما حديث.

تحذيره صلى الله عليه وسلم من أكل حقوق الأجراء،وحثه على المبادرة ببذل الأجرة:

١ ـ فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة:رجل أَعطَى بى ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه و لم يؤته أجرته"(٣).

---

(١) أخرجها البخاري في الطب، باب الشرط في الرقية بقطيع من الغنم ١٧٠/٧ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١٤١/٤، والحاكم في المستدرك ١٠/٢، وعزاه الهيثمي في المجمع ٦٤/٤ إلى الطبراني في الأوسط والكبير قال: ورجاله ثقات . وصححه الألباني في الصحيحة برقم ٦٠٧ .

(٣) أخرجه البخاري في البيوع، باب إثم من باع حرا ١٠٨/٣، وفي باب من باع أجر الأجير ١١٨/٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وفى رواية : "ومن كنت خصمه خصمته(١)".

وفى هذا الوعيد ما يمنع من ظلم الأجراء ويضمن لهم الوفاء، لدى من يلقى السمع وهو شهيد؛ لأن الله تعالى : إذا خاصم عبدا فإن العبد لا يفلح أبدا؛ لأن الخصومة تقتضى العقوبة وإن لم يكن هناك سبب يوجب إنزالها، فكيف به إذا وجد، وهو هنا ظلم الأجير، حيث استخدمه بغير عوض، وهذا هو عين الظلم، وقد قال جل شأنه : ﴿ولا تحسبَنَّ اللهَ غافلا عمَّا يعملُ الظَّالمون إنما يُؤخِّرهم ليومٍ تشخصُ فيهِ الأبصارُ * مُهطعينَ مُقنعي رؤسِهم لا يرتَدُّ إليهم طرفُهم وأفئدتُهم هواء﴾[سورة ابراهيم:٤٢-٤٣] .

ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يحث المستأجرين على المبادرة إلى إعطاء الأجراء حقوقهم حتى لا يقع منهم تفريط أو تقصير فيكونون عرضة لذلك العذاب الأليم.

٢ - فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه"(٢) .

فهكذا كانت أخلاقه صلى الله عليه وسلم فى معاملات الأجراء على كرم الأخلاق فى سلوكه بنفسه وتوجيهه أمته لذلك بقوله، فليت الأمة تدرك ما كان عليه نبيها وما يريده منها فى هذا الباب الذى طالما تهاون به المسلمون إلا من رحم ربك، الأمر الذى يجعل للأجراء عليهم يدا فى الإساءة ويجرئونهم على مساوىء الأخلاق من السب والكراهية والاستطاله... .

---

(١) عزاه الحافظ في الفتح ٢٨٩/٩ إلى ابن خزيمة وابن حبان، وهو في الإحسان ٢١٨/٩ .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٢١/٦، وابن عدي في الكامل من ١٨٢٠/٥ من حديث عطاء بن يسار، وصححه الألباني في الإرواء ٣٢٢/٥ من حديث أبي هريرة وذكر له طرقا وشواهد أخرى .

المبحث الخامس

(العارية)

العارية فى اللغة: اسم لما يُعار، ولعقدها أيضا، مأخوذة من التَّعاور وهو التناوب؛ لأن المعير يجعل للغير نوبة فى الانتفاع بملكه إلى أن يعود إليه، يقال : عاوره الشىء معاورة أعطاه عارية، وعاره الشىء وأعاره منه إعارة أعطاه إياه عارية .

وقيل هى مشتقه من العريَّة وهى العطية، وقيل سميت عارية لتعريتها عن العوض(١) .

وهى فى الشرع : "إباحة الانتفاع بما يحل الانتفاع به مع بقاء عينه" ويقال : "هى تمليك منفعة بلا بدل"(٢).

مكانة العاريه فى المعاملات الماديه الإجتماعية :

والعارية من المعاملات الاجتماعية ذات الصِّبغة الأخلاقيه، حيث إن المعير يقوم بإرفاق أخيه بإعارته المتاع الذى يحتاجه ليستعمله فى حاجته، وذلك من التكافل الاجتماعى بين المسلمين، ويورث الوُدَّ والإخاء وتبادل المحاب فيما بينهم، وهذا من أهداف الأخوة الإيمانيه بين المؤمنين، ولهذا ذم القرآن الكريم من تنكَّر لهذا الخلق الاجتماعي العظيم أيما ذم،وذلك فى قوله جل شأنه : ﴿أرأيتَ الَّذى يُكذِّبُ بالدِّين..﴾ إلى قوله : ﴿فويلٌ للمصلِّين * الذين هم عن صلاتِهم ساهون * الَّذين هم يُراؤونَ ويَمنعونَ الماعون﴾[سورة الماعون:١-٧] .

فإن منعهم الماعون يعنى منع عارية ما يحتاج إليه الأنسان من أخيه من متاع البيت ونحوه مما ينتفع به مع بقاء عينه،ولا يمنع فى العادة إعارته كما ذهب إلى ذلك أكثر المفسرين.

---

(١) انظر محيط المحيط للبستاني ص ٦٤٣، وأنيس الفقهاء للشيخ قاسم القونوي ص ٢٥٢، والياقوت النفيس للشاطري ص ١٠٢ .

(٢) الياقوت النفيس ص ١٠٢، والتعريفات للجرجاني ص ١٤٦ .

قال الفخر الرازى رحمه الله تعالى (١) : "القول الثانى (٢) وهو قول أكثر المفسرين : أن الماعون اسم لما لا يمنع فى العادة ويسأله الفقير والغنى، وينسب مانعه إلى سوء الخلق ولؤم الطبيعة كالفأس والقدر والدلو والمقدحة والغربال والقدوم، قال : ويدخل فيه الملح والماء والنار فإنه روي: "ثلاثة لا يحل منعها الماء والنار والملح"(٣) ومن ذلك أن يلتمس جارك أن يخبز فى تنورك أو يضع متاعه عندك يوما أو نصف يوم...إلى أن قال : ويسمى ما يستعار فى العرف كالفأس والشفرة ماعونا، قال : وعلى هذا التقدير يكون معنى الآية الزجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة فإن البخل بها يكون فى نهاية الدناءة والركاكة. والآية وإن تحدثت عن المنافقين الذين كانوا بهذه الصفات كما وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿الَّذين يَبخلون ويأْمرون النَّاس بالبُخل﴾[سورة النساء:٣٧] إلا أن الآية عامة فى دلالتها إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو معلوم.

ولذلك قال القاسمي رحمه لله تعالى : "المعني بهذه الآيات أولا وبالذات: المنافقون فى عهد النبوة ويدخل فيها ثانيا وبالعرض: كل من وجد فيهم تلك الخلال الذميمه اعتبارا بالعموم(٤)" .

ومعلوم أن ذم الله تعالى عبدا من عباده على فعل شيء أو تركه يقتضى بمفهوم المخالفة مدحه له عند تجنبه موضع الذم منه، ففاعل العارية على هذا ممدوح كما يفهم من ذم تاركها.

---

(١) في تفسيره الكبير ١١٥/٣١.

(٢) وكان قد ذكر القول الأول أنه الزكاة لأن الله تعالى ذكره عقيب الصلاة، وذكر القرطبي في تفسيره أحد عشر قولا في معناه، منها ماذكرته من العارية والزكاة.

(٣) الرواية الثابتة في ذلك هي ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله وسلم قال: "ثلاث لا يمنعن الماء والكلأ والنار" أخرجه ابن ماجه في الرهون، باب المسلمون شركاء في ثلاث برقم ٢٤٧٣، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة ٥٥/٢ برقم ٨٧٥: إسناده صحيح ورجاله موثقون .

وما رواه رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنه سمعه يقول: "الناس شركاء في ثلاث: في الماء والكلأ والنار" أخرجه أبو داود برقم ٣٤٧٧، وأحمد في المسند ٣٦٤/٥، والبيهقي في السنن ١٥٠/٦، وصححه الألباني في إرواء الغليل ٧/٦ .

(٢) محاسن التأويل ٢٧١/٧ .

فهذا ما علمته جاء فى شأن العارية فى كتاب الله تعالى، وهو وإن كان حديثا عنها فى بعض صورها وأقلها شأنا، فإن بقية صورها وأجلها نفعا، كشأن ما ذكر منها بل أولى، فإن ما ذكر منها، إنما هو للدلالة على أصل التشريع فيدخل فيه الحقير والجليل، بل قياس الأولى يقتضى أن المدح والذم يترتب على العارية الجليلة أكبر منه فى الصغيرة الحقيرة، وذلك نظرا لعظم النفع الحاصل منها إن بذلت، وكبر الأثر على النفس بالإساءة إن منعت، وبهذا تعلم أن ذكرها فى أقل صورها إنما هو مخرج مخرج الغالب، حيث إن أكثر ما كان يجرى من صور العاريات بين المسلمين هو الماعون، أو إن ذكر الماعون من باب ذكر الأدنى للدلالة على الأعلى بالأولى كما فى قوله تعالى : ﴿ولا تقل لهما أُفٍّ...﴾[الإسراء٢٣]

تمثل أخلاق التعامل
بالعارية فى النبي صلى الله عليه وسلم

لقد كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم على ما قد علمت من الزهادة فى الدنيا والرغبة فى الآخرة، فهو لذلك لابد وأن تقتضى منه الحياة أن يكمِّل ما يحتاج إليه من متاع الحياة وحاجيَّاتها إما عن طريق الأجَارةأو الاستعاره، فإذا ما دعت الحاجة إلى ذلك فما كان يتوانى عن التعامل بها على أكمل وجوه التعامل فضلا وأعظمها أخلاقا ونبلا.

١ - وذلك كما روى أبو داود وغيره من حديث صفوان بن أمية رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعار منه أدراعا يوم حنين، فقال : أغصب يا محمد؟ قال : "بل عارية مضمونة"(١) .

٢ - وفى رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "يا صفوان هل عندك من سلاح؟" قال : عارية أم غصبا؟ قال : "لا بل عارية" فأعاره ما بين الثلاثين إلى الأربعين درعا، وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينا،فلما هزم المشركون جمعت دروع صفوان،ففقد منها أدراعا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لصفوان : "إنا قد فقدنا من أدراعك أدراعا فهل نغرم لك؟" قال : لا يا رسول الله لأن فى قلبى اليوم ما لم يكن يومئذ"(٢) .

ومن هذا تعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد استعار بعض ما يحتاج إليه من أدراع صفوان لتجهيز بعض أصحابه للقتال فى معركة حنين، ولكن كان ذلك على وجه الكمال الخُلُقي من حيث الرد والضمان، بخلاف ما كان صفوان قد توهمه أو خافه إما لما

---

(١) أخرجه أبو داود في البيوع، باب تضمين العارية برقم ٣٥٦٢، والحاكم ٤٧/٢، وأحمد في المسند ٤٠١/٣، ٣٦٥/٦، وأورد له الحاكم شاهدا من حديث ابن عباس وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وتعقبهما الألباني في الإرواء لكنه صحح الحديث نظرا لشواهده وطرقه، انظر الإرواء ٣٤٤/٥-٣٤٦ .

(٢) أخرجها أبو داود في البيوع، باب تضمين العارية برقم ٣٥٦٣، والحاكم ٤٨/٣ وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في الإرواء ٣٤٥/٥ .

يعهده من عادة العظماء فى عدم رد العوارى اللاتى يستعيرونها كتلك، اعتمادا على قوتهم وضعف معيرهم حيث كان القوى منهم يأكل الضعيف ولا يبالى،إذ لا يكفه عن ذلك إلا قويٌّ مثله، فأحوجه علمه بذلك أن يستثبت لحقه بما يَطمئنُّ قلبه إليه، أو أنه قال ذلك للتنكيد على النبي صلى الله عليه وسلم مع علمه بمبلغ أمانته وسمو أخلاقه،لما يكنُّه له من العداء حيث لم يكن قد أُسلم بعد،وما أسلم إلا بعد حنين.

والنبي صلى الله عليه وسلم لم يستأنف من استيثاق الرجل لماله بمثل ذلك السؤال، سواء كان عن حسن نية أو سوء طوية، لما هو عليه صلى الله عليه وسلم من الحلم والعدل والفضل..، ولا ريب فقد قال عليه الصلاة والسلام : "العارية مُؤدَّاة، والزعيم غارم، والدين مقضي(١)" .

وقال : "على اليد ما أخذت حتى تؤدي"(٢) .

ولذلك ضمن له النبي صلى الله عليه وسلم رجوعها بعد الانتهاء من الانتفاع بها، فلما انتهت المعركة بادر النبي صلى الله عليه وسلم إلى رد العارية لصاحبها،واستعد لضمان ما فقد منها،مع أن يدهُ أمانة لا يلزمها الضمان إذا لم يوجدتفريط فى العارية، كما كان منه صلى الله عليه وسلم فى هذه العارية، وذلك تنفيذا لما وعده به من الضمان، ولكن لمَّا

---

(١) أخرجه أبو داود في الكتاب والباب السابقين رقم ٣٥٦٥، والترمذي في البوع، باب ما جاء أن العارية مؤداة برقم ١٢٦٥ من حديث أبي أمامة وقال الترمذي: حديث حسن، وصححه الألباني في إرواء الغليل ٢/٢٤٥ .

(٢) أخرجه أبو داود فيما سبق برقم ٣٥٦١، والترمذي فيه أيضا برقم ١٢٦٦ من حديث الحسن عن سمرة بن جندب رضي الله عنه، وابن ماجه برقم ٢٤٠٠، وأحمد في المسند ٥/٨،١٢،١٣، والبيهقي في السنن ٦/٩٠، والحاكم في المستدرك ٢/٤٧، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وقال عنه الترمذي: حسن صحيح، وتعقب بأن سماع الحسن عن سمرة بن جندب مختلف فيه وهو من المدلسين و لم يصرح بالتحديث فيه، قلت: لكنه من مدلسي المرتبة الثانية الذي احتمل الأئمة تدليسهم، انظر معرفة أهل التدليس ص ٤٩،٥٦ .

كانت بشاشة الإيمان قد خامرت قلب صفوان بعدئذ، لم يرض أن يضمِّن النبي صلى الله عليه وسلم ما لم يفرط فيه فقال له : "لا لأن فى قلبى اليوم ما لم يكن يومئذ" يعنى لما شرح الله صدره عندئذ للإسلام ومحبة النبي عليه الصلاة والسلام.

وقد جاء فى رواية جابر بن عبدالله رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم سأله أدراعا:مائة درع وما يصلحها من عدتها، فقال : أغصبا يا محمد، قال : بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم سائرا"(١).

٣ ـ وجاء أن النبي صلى الله عليه وسلم طلب العارية أيضا من يعلى بن أمية على ذلك النحو من الضمان فقد روى أبو داود رحمه الله من حديث صفوان بن يعلى عن أبيه قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أتتك رسلى فأعطهم ثلاثين درعا وثلاثين بعيرا" قال فقلت: يا رسول الله أعارية مضمونة أو عاريه مؤداة؟ قال : "بل مؤداة"(٢).

وهذه الروايات تتفق على حصول تعامل النبي صلى الله عليه وسلم بالاستعارة عندما دعت الحاجة إلى ذلك، وإن كان المعير كافرا، وذلك لشدة الحاجة إليها حينئذ، حيث لم يكن بد من أن يجهز ما يقدر على تجهيزه من المسلمين لمواجهة هوازن وثقيف فى تلك الغزوة .

٤ ـ وقد أستعار النبي صلى الله عليه وسلم مرة أخرى لمثل ذلك الغرض من الجهاد، فرسا لأبى طلحة رضى الله عنه امتطاه وذهب ليكتشف ما أشيع فى المدينة من مهاجمة عدو

---

(١) حديث صحيح تقدم تخريجه ص٩٥٧.

(٢) أخرجه أبو داود في البيوع، باب تضمين العارية برقم ٣٥٦٦، وأخرجه أحمد ٢٢٢/٤، وابن حبان ١٠٩/٧، من الإحسان، ونقل الشوكاني في نيل الأوطار ٤١/٦ عن ابن حزم قوله: أحسن ما فيها ـ أي: تضمين العارية ـ حديث يعلى بن أمية، قال الشوكاني في النيل ٤/٦: والحديث سكت عنه أبو داود والمنذري والحافظ في التلخيص، وانظر معالم السنن مع المختصر ١٩٨/٥، والتلخيص الحبير ٥٢/٣، لكن صحح الحديث الألباني في الإرواء ٣٤٨/٥ .

لها، وهم غارون فى ليلهم .

فعن أنس رضى الله عنه قال : "كان بالمدينة فزع فاستعار النبي صلى الله عليه وسلم فرسا لأبى طلحة يقال له :"مندوب" فركبه، وقال : ما رأيت من فزع وإن وجدناه لبحرا"(١) .

وكل هذه الأحوال كما ترى كانت لأجل مصالح المسلمين ولم تكن لغرض نفسه الشريفة العظيمة، ولعل فى هذا إشارة إلى ما ينبغى أن يكون عليه التعامل بالعارية من أنه لايكون إلا فى أضيق الأحوال ، وذلك لأن العين المستعارة ملك للغير ، ولعله يكون فى استعمالها تلف لها ، أو نقص من قيمتها ، ولعل ذلك مما لاتطيب به نفس صاحب الحق، فيبقى تحمل شائبة التبعات فى النفس المؤمنة قائم ، فالأولى فى ذلك التقليل من الاستعارة ما أمكن ، حذرا من الوقوع فى الشبهات ، فإن من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه .

كما أن كثيرا من الناس لاتطيب أنفسهم بإعارة ممتلكاتهم لاسيما إن لم يأمنوا على عودتها،وذلك لكثرة الشح من الملاّك،وقلة الورع من المستعيرين ، ولا ريب بأن المؤمن الشحيح على ماله والحريص على دينه سيجد حرجا من طلب العارية ونفسه لا تجود بها ، بينما النبي صلى الله عليه وسلم يندبه إلى بذلها كما فى الصحيح من حديث جابر رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لايؤدى حقها إلا أُقعد لها يوم القيامة بقاع قَرقَرٍ(٢)، تطؤه ذات الظِّلف بظِلفها وتنطحُه ذات القرن بقرنها، ليس فيها يومئذ جمَّاءُ(٣) ولا مكسورة القرن" قال: قلت يارسول الله وما حقها؟ قال: "إطراق فحلها ، وإعارة دلوها، ومنيحتها وحلبها على الماء، وحمل عليها فى

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب اسم الفرس والحمار ٣٥/٤، ومسلم في الفضائل، باب في شجاعة النبي صلى الله عليه وسلم وتقدمه للحرب برقم ٢٣٠٧ .

(٢) القرقر: الأملس .

(٣) الجماء: الشاة التي لا قرن لها .

سبيل الله . . ."(١) .

فلا ينبغى للمؤمن أن يحرج أخاه ، أو يشق عليه فى ماله إذا علم منه ذلك،وعليه أن يقلل من الاستعارة ما أمكن ، وأن يكون ممن لا يتحرجون منها .

وإذا استعار بادر إلى الرد فور الاستغناء عن العين المعارة وأن يضمن ما تلف منها بالعوض كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم .

لا أن يماطل فى الرد أو يجحد العارية فإن ذلك ليس من أخلاق المؤمنين بل هو تنكر للجميل﴿ هل جزاءُ الإحسانِ إلاَّ الإحسان﴾[سورة الرحمن:٦٠] .

تنكيل النبي صلى الله عليه وسلم بمن لا يرد العارية ويجحدها :

وقد كان فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم امرأة تستعير المتاع ثم تجحده، فنكَّل بها النبي صلى الله عليه وسلم ،كما جاء من حديث عبدالله بن عمر رضى الله عنهما أن امرأة مخزومية كانت تستعير المتاع وتجحده فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بها فقطعت يدها"(٢) .

وفى رواية أن امرأة كانت تستعير الحُليّ فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستعارت من ذلك حليا فجمعته ثم أمسكته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لِتُتُب هذه المرأة وتؤدِّى ما عندها مرارا - أى يقول ذلك مرارا - فلم تفعل فأمر بها فقُطِعت"(٣) .

ولمسلم(٤) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : كانت امرأة مخزومية تستعير

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة، باب إثم مانع الزكاة برقم ٩٨٨، والنسائي، باب مانع زكاة البقر ٣٧/٥ .

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود، باب في القطع والعارية إذا جحدت برقم ٤٣٩٥، والنسائي في السارق، باب ما يكون حرزا وما لا يكون ٧٠/٨، وأحمد ١٥١/٢، قال الألباني: وإسناده صحيح على شرط الشيخين. اهـ الإرواء ٦٦/٨ .

(٣) أخرجها النسائي في الباب السابق ٧١/٨ من حديث نافع، قلت:وأصلها في مسلم كما في الرواية التالية .

(٤) في الحدود، باب قطع السارق وغيره برقم ١٦٨٨ .

المتاع وتجحده، فأمر النبي صلى الله عليه سلم بقطع يدها، فأتى أهلها أسامة رضى الله عنه فكلموه، فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تشفع فى حد من حدود الله..؟!" الحديث :

وقد ذهب إلى ظاهر هذه الأحاديث بعض أهل العلم كأحمد وإسحاق، فقالوا بقطع يد جاحد العاريه، وخالف فى ذلك جمهورهم وقالوا : إن القطع كان لأجل السرقة كما هو مصرح به فى الصحيح وأن ذكر جحد العارية إنما هو للتعريف بها(١).

وأيا ما كان السبب فقد كان لجحد العارية دخل فى إقامة الحد إما استقلالا أو تبعا، بدليل ذكره فى كثير من الروايات الصحيحة وذلك زيادة فى التنكيل لها والتشنيع بها والتحذير من فعلها، والله أعلم.

---

(١) وقد بين الإمام النووي الخلاف في هذه المسألة بقوله:«قال العلماء: المراد أنها قطعت بالسرقة، وإنما ذكرت العارية تعريفا لها ووصفا لها، لا أنها سبب القطع، قال: قد ذكر مسلم هذا الحديث في سائر الطرق المصرحة بأنها سرقت وقطعت بسبب السرقة، فتعين حمل هذه الرواية على ذلك جمعا بين الروايات، فإنها قضية واحدة، مع أن جماعة من الأئمة قالوا: إن هذه الرواية شاذة فإنها مخالفة لجماهير الرواة، والشاذ لا يعمل بها، ثم قال: قال العلماء: وإنما لم يذكر السرقة في هذه الرواية؛ لأن المقصود منها عند الراوي ذكر منع الشفاعة في الحدود، لا الإخبار عن السرقة وقال: قال جماهير العلماء وفقهاء الأمصار: لا قطع على من جحد العارية، وتأولوا هذا الحديث بنحو ما ذكرته، وقال أحمد وإسحاق: يجب القطع في ذلك»ا.هـ شرح مسلم ١١/١٨٧-١٨٨ .

المبحث السادس

(الصلح)

الصلح فى اللغة: اسم بمعنى المصالحه وهى المسالمة بعد المنازعة(١)، قال فى القاموس(٢): "والصلح بالضم: السِّلم...يقال: صالحه مصالحة وصلاحا، واصطلحا واصَّالحا وتصالحا واصتلحا" كل ذلك بمعنى واحد، قال الراغب : "الصلح يختص بإزالة النِّفار بين الناس يقال منه : اصطلحوا وتصالحوا..."(٣).

وفي الشرع: عقد يرفع النزاع(٤) .

مكانة الصلح فى الأخلاق الاجتماعيه :

وهو من أجل الأخلاق الاجتماعيه،إذ به يرفع الخلاف وينهى المنازعة التى تنشأ بين المتعاملين ماديا أو اجتماعيا، ويعود بسببه الوُدُّ والإخاء بين المتنازعين لكونه يرضى طرفي النزاع ويقطع دابر الخصام، كما قال سيدنا عمر رضى الله عنه لأبى موسى رضى الله عنه: "رُدّ الخصوم حتى يصطلحوا،فإنَّ فصل القضاء يورِّث بينهم الضغائن"(٥)، ولذلك كان الصلح من أسمى المطالب الشرعيه لتتحقق به الأخوة التى ينشدها لهم ويصفهم بها كما فى قوله سبحانه : ﴿إنَّما المؤمنون إخوةٌ فأصلحوا بينَ أخَويكم﴾[سورة الحجرات:١٠] وهى الأخوة التي يذهبها الخلاف والتنازع فيما بينهم.

عناية القرآن الكريم بالحديث عن الصلح :

لهذا عني القرآن الكريم به كثيرا، أمرا به، وترغيبا فيه، وتنويها به وبأهله...، فى نحو عشر آيات كريمات :

---

(١) التعريفات للجرجاني ص١٣٤ وأنيس الفقهاء للقونوي ص ٢٤٥ .

(٢) ٢٣٤/١، وانظر شرحه تاج العروس ١٨٣/٢ .

(٣) المفردات ص ١٨٤ .

(٤) التعريفات للجرجاني ص ١٣٤، والياقوت النفيس ص ٨٨ .

(٥) جامع أحكام القرآن للقرطبي ٣٨٤/٥ .

١ ـ أما الأمر بـه ففـى مثـل قولـه سـبحانه :﴿يَسـألونَك عـن الأنفـالِ قُـلِ الأنفـالُ لله والرَّسولُ فاتَّقوا اللهَ وأصلحوا ذاتَ بينِكم وأطيعوا اللهَ ورسولَه إن كنتُـم مؤمنـين﴾[سـورة الأنفال:١].

وقوله سبحانه :﴿وإن طائِفتانِ من المؤمنين اقتَتلُوا فأصلِحوا بينهمـا فـإن بَغـت إِحداهـا على الأُخرى فقاتلوا التَّى تبغي حتى تَفيءَ إلى أمرِ اللهِ فإن فاءت فأصلِحوا بينَهما بـالعدلِ وأقسِطوا إنَّ الله يُحبُّ المقسطين * إنّما المؤمنون إخوةٌ فـأصلحوا بـينَ أَخوَيكـم واتَّقـوا اللهَ لعلَّكم ترحمون﴾[سورة الحجرات:٩،١٠].

فترى أن الله تعالى أمر عباده بأن يصلحوا ذات بينهم لما بينهم من الإخاء كمـا صـرح به فى آية الحجرات حيث قال : ﴿إنَّما المؤمنون إخوةٌ فإصلِحوا بـين أخويكـم﴾ إذ بيَّنـت هذه الآية علّيّة الأمر بالإصلاح بين المؤمنين بصيغة القصر المفيدة لحصـر حـالهم فـى حـال الأخوة،مبالغة فى تقرير هذا الحكم بين المسلمين،لما بينهم من انتساب إلى أصل واحد وهو الإيمان الذى هو منشأ البقاء الأبدى فى الجنات فأشارت جملـة : ﴿إنمـا المؤمنـون إخـوة﴾ إلى وجه وجوب الإصلاح بين المؤمنين،ببيان أنَّ الإيمـان قـد عقَـد بـين أهلـه مـن النَّسـب الروحى مالا ينقص عن نسب الأخوّة الجسديه، وحيث كان الحال كذلك وجـب القيـام به بين أخوة الروح كما يجب بين أخوة الجسد، وقد كان من المتعارف بين النـاس أنـه إذا نشب خلاف بين الإخوين لزم بقية الأخوة أن يتناهضوا لإزاحته بالصلح، فأرشد القـرآن الكريم إلى أن المسلمين شأنهم كذلك إذا حدث شقاق بين طائفتين منهم،فعلى بقيّتهم أن ينهضوا إلى السعي بالصلح بينهمـا، وبـثّ السُّـفراء إلى أن يرفعـوا مـا وَهَـىء ويصلـحوامـا أصاب ودهى.

ولهذا لما تقرر معنى الأخوة بين المؤمنين كمال التقرير من القصر عدل عـن أن يقـول : فأصلحوا بين الطائفتين إلى قوله : ﴿بين أخويكم﴾ لكونه حينئذ وصف جديـد نشأ عـن قوله : ﴿إنما المؤمنون إخوة(١)﴾ .

---

(١) انظر تفسير الألوسي ٩/٢٦/١٥١، وتفسير الطاهر بن عاشور ٢٥/٢٤٣-٢٤٥.

ومن هذه الأوامر القرآنيه يُعلم أن الإصلاح بين الناس ليس هو من نافلة القول، بل هو تكليف إلهٰى للقادرين عليه، حتى لا تفسد أواصر الأخوة الإيمانية بين المؤمنين،وهو مع ذلك من التعاون على البر والتقوى،ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الَّذَين أمر الله تعالى بهما فى غيرما آية، ومعلوم أن هذين من الواجبات الشرعية التكليفية على المؤمنين فى علاقاتهم الاجتماعية .

فكل هذه الأمور تحتم على المسلم القيام بالإصلاح بين المسلمين بل وبين الناس عامة، لتستقر الحياة الاجتماعيه عامرة بالود والإخاء.

٢ ـ الترغيب فى القيام بالإصلاح :

ولقد رتب الله تعالى على القيام به فضلا كبيرا وأجرا عظيما،يناله القائم بذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى كما قال الله جل شأنه : ﴿لا خيرَ فى كثيرٍ من نجواهم إلاَّ من أَمَر بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ بين النَّاس ومن يَفعل ذلك ابتغاءَ مرضاتِ اللهِ فسوفَ نُؤتيه أجراً عظيما﴾[سورة النساء:١١٤] .

ووعد القائمين به مغفرته ورحمته كما يفيده قول الله جل ذكره : ﴿وإن تُصلِحوا وَتَتَّقوا فإنَّ الله كان غفورًا رحيما﴾[سورة النساء:١٢٩] فإن فى هذه الآية إشارة إلى مغفرة الله ورحمته للمصلحين كما آذن به ختم الآية بصفتي المغفرة والرحمة لله سبحانه وتعالى.

ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿فمن خافَ من موصٍ جَنَفًا(١) أو إثماً فأصلحَ بينهم فلا إثمَ عليه إنَّ الله غفورٌ رحيم﴾[سورة البقرة:١٨٢] فإن فيها من الإشارة إلى مغفرته ورحمته سبحانه للمصلح ما فى سابقتها بدلالة نفي الإثم وتذييلها بصفتي المغفرة والرحمة، وهي إشارة جليَّة،وقد وصف سبحانهبقوله : ﴿لا نُضيعُ أجرَ المصلحين﴾[سورة الأعراف:١٧٠].

٣ ـ التنويه بالصلح والقائمين به :

وتكرار هذا الوعد يدل على علو شأن الإصلاح بين الناس عند الله تعالى،ولذلك أجزل للقائم به تلك المثوبة الكريمة والأجر العظيم، وقد دل على ذلك أيضا تنويه الله

---

(١) أي: ميلا عن الحق خطأ .

تعالى به بمثل قوله سبحانه :﴿والصُّلحُ خير﴾[سورة النساء:١٢٨] فإن وصفه بالخيرية دليل على علو منزلته عند الله تعالى، وذلك لما له من عظيم الأثر فى إصلاح ذات البين بين الناس، التى طالما يتشوف الشارع الحكيم إليها فى المجتمعات الإنسانيه.

ولما له من دلالة على كريم أخلاق القائم به أو الراضى به.

ولهذا كان من أبرز أخلاق الرسل عليهم الصلاة والسلام كما قال الله تعالى على لسان شعيب عليه السلام : ﴿إن أُريدُ إلا الإصلاحَ ما استَطعتُ وما تَوفيقي إلا بالله عليه توكَّلتُ وإليه أُنيب﴾[سورة هود:٨٨] وقال على لسان موسى وهو يخاطب أخاه هارون عليهما السلام : ﴿وقال موسى لأخيه هارون اخلُفنى فى قَومي وأَصْلِح ولا تَتَّبع سبيلَ المفسدِين﴾[سورة الأعراف:١٤٢] . إلى غير ذلك من الآيات .

والإصلاح فى مثل هاتين الآيتين عام فيشمل الإصلاح فى الدين والدنيا، ومنه الإصلاح بين الناس عند حدوث المقتضى لذلك من نزاع ونحوه مما لا يخلو منه مجتمع من المجتمعات البشرية.

☆ ☆ ☆

تمثل خلق الإصلاح
بين الناس فى النبي صلى ا لله عليه وسلم

لقد مر بنا غير بعيد أن الإصلاح من أبـرز صفـات المرسـلين وذلـك لكمـال أخلاقهـم وفطنتهم ومعرفتهم العريقة بأحوال أمتهم .

ونبينا محمد صلى ا لله عليه وسلم من أولئك الرسل الذين كانوا بهذه المثابة من التوفيـق بين الناس، وإصلاح ذات البين بينهم فى كل أطوار حياته قبل البعثة وبعدها،فى مكة وفـى المدينه..، ودلائل ذلك كثيرة فى كل الأطوار :

أ ـ أما قبل أن يبعثه ا لله تعالى نبيا رسولا،فيدل عليه ذلك الصلح العظيم الـذى قـام بـه بين فئات قريش المختلفة فى شأن رفع الحجر الأسود،الذى كـاد يصـل بـهـم إلى صراع مسلح يفنى عددهم، ويثكل أمهاتهم، ويرمِّل نسـاءهم، ويُيتِّـم أبنـاءهم، لـو لا أن تداركهم ا لله تعالى بلطفه بالصلح الذى قام به المصلح العظيم سيدنا محمد صلى ا لله عليـه وسلم، وذلك بعد أن هيأ ا لله تعالى له السبيل إلى ذلك باتفاق القبائل المختلفه على تحكيم أول داخل عليهم من باب الصفا، فكان هو النبي صلـى ا لله عليـه وسـلم الداخـل الـذى رضي به الجميع وفرحوا به،لما يعلمونه من أمانته وفطنته وعدم محاباته أحدا، فما كان منـه صلى ا لله عليه وسلم إلا أن أصلح بينهم صلحا أرضى جميع الفرقاء علـى السـواء، حيـث بسط رداءه ووضع الحَجَر عليه وأمر زعماء كل قبيلـة أن يـأخذ كل منهم طرفـا منـه،فكـان كلهـم رافعا له بالحقيقه، فلما قرب مـن موضعـه فـى الركـن أخـذه بيـده الشـريفة إلى موضعـه، وبذلك،قطعت جهيزةُ قولَ كلِّ خطيب(١) ، وما كانوا سينالون هذا الحـل السِّـلمى بهـذا الصلح المرضي لولا هذا المصلح الأعظم صلى ا لله عليـه وسـلم،وهكـذا كـان رسـول ا لله صلى ا لله عليه وسلم رجل الإصلاح الذى لا يثبت أمامه عويص الخلاف المزمن،أو أعتـى الناس تصلبا لرأيه وقوله.

---

(١) تقدم ذكر هذه القصة في مبحث أمانته صلى ا لله عليه وسلم ص ٢٢٥، وانظر أيضا فقه السيرة للغزالي ص ٨٣ .

ب ـ وأما بعد البعثة فدلائل ذلك وصوره كثيره ونذكر منها مايلى :

١ ـ لما هاجر إلى المدينة وجد ساكنيها من الأوس والخزرج كأشد ما يكون عليه التنافر والشقاق؛لما كانوا عليه من الحميّة الجاهليه التى كانت تولد بينهم الحروب الطاحنة على أتفه الأسباب، كما دل على ذلك قول من بايعه عند العقبة منهم : "إنَّا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك"(١) .

فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إليهم ودخلوا جميعا فى الإيمان اصطلحوا وزال ما بينهم من البغضاء والتنافر وأصبحوا بنعمة الله إخوانا.

وما كان لشملهم أن يلتئم لولا وجود النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم،والنور الذي أتى به فى أفئدتهم،كما دل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم ممتنا عليهم بهذه النعمة لمَّا بدر من صغار الإنصار ما يوحى بنسيانها : "يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلَّالاً فهداكم الله بى؟ وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بى؟وعالةً فأغناكم الله بى..؟"(٢).

وقد أشار إلى هذه القرآن الكريم حيث يقول : ﴿وإن يُريدوا أن يخدَعوكَ فإنَّ حسبَك اللهُ هو الَّذى أيَّدك بنصرِه وبالمؤمنين * وألَّف بين قلوبِهم لو أنفقتَ ما فى الأرضِ جميعًا ما ألَّفتَ بين قلوبِهم ولكنَّ اللهَ ألَّف بينهم إنَّه عزيز حكيم﴾[سورة الأنفال:٦٢،٦٣] قال القرطبى : "أى جمع بين قلوب الأوس والخزرج وكان تألُّفُ القلوبِ مع العصبيَّة الشديدة فى العرب من آيات النبي صلى الله عليه وسلم ومعجزاته؛لأن أحدهم كان يُلطم اللطمة فيقاتل عنها حتى يتسقيدها، وكانوا أشد خلق الله حمَّية، فألَّف الله بالإيمان بينهم حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين، قال : وقيل أراد التأليف بين المهاجرين

---

(١) سيرة ابن هشام ١٧٦/٢ .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الطائف ٢٠٠/٥، ومسلم في الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم برقم ١٠٦١ من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم .

والأنصار والمعنى متقارب"(١).

٢ ـ ولقد برز جانب الإصلاح من جنابه العظيم فى صلح الحديبية،الذى تجلّت فيه دلائل نبويه ومكارم أخلاقه ، إذ ما كان بوسع أحد أن يقبله إلا هو صلى الله عليه وسلم لما ذكرت من الصفات، وذلك لقساوة شروطه،وجفاء لهجته ، كيف لا والصحابة كلهم إلا أبا بكر الصديق رضى الله عنه كانوا بين مُنكرٍ علَنًا،أو ساكت تأدُّبا،والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: "والذى نفسى بيده لا يسألوني خُطةً يُعظِّمون فيها حرماتِ الله إلا أعطيتهم إياها"(٢) .

وفي رواية قال: "لا تدعونى قريش اليوم إلى خُطَّةٍ يسألونني فيها صلةَ الرحم إلا أعطيتهم إياها"(٣) .

وقد كان من بنود هذا الصلح شروط قاسيه خلاصتها ما يلى:

١ ـ أن يرجع المسلمون ذلك العام ولا يصلوا إلى مكة.

٢ ـ يقضون عمرتهم من العام المقبل ويقيمون بمكة ثلاثة أيام فقط.

٣ ـ لا يدخلوا مكة بسلاح إلا سلاح الراكب: السيوف فى القرب.

٤ ـ من جاء النبي صلى الله عليه وسلم من قريش بغير إذن وليِّه يرده عليهم ، ومن جاء قريشا من المسلمين لا ترده إليهم.

٥ ـ من أراد أن يدخل فى عقد النبي صلى الله عليه وسلم وعهده دخل فيه وله مثل شرطه، ومن أراد أن يدخل فى عهد قريش وعهدها دخل فيه وله مثل شرطه.

٦ ـ أن بينهم عيبة مكفوفة ـ أي: صدر نقي من الغش والخداع مطوي على الوفاء بالصلح ـ

---

(١) جامع أحكام القرآن ٤٢/٨ .

(٢) أخرجه البخاري في الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ٢٥٢/٣، من حديث عروة بن الزبير والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما .

(٣) هذا لفظ ابن هشام في السيرة في سياق قصته لحديث غزوة الحديبية ٢٥/٤ .

٧ ـ أنه لا إسلال ولا إغلال ـ أى لاسرقة ولا خيانة ـ

٨ ـ أن توضع الحرب بينهم عشر سنين (١).

ولقد قبل النبي صلى الله عليه وسلم هذه الشروط القاسية فى ظاهر أمرها كما عزم بذلك،لماتثمره من تعظيم الكعبة المعظمة وعدم إراقة الدماء فى الحرم.

وإن ضاق الصحابة رضوان الله عليهم بها ذرعا ، لأنها فى تصورهم وتصور العقول البشرية التى لا يمدها الوحى من السماء: شروط جائرة،لا يقبلها من هو فى عز ومنعة كما كان عليه حال المسلمين يومئذ.

فهم أهل حق وعدوهم أهل باطل.

وهم لايريدون قتالا وإنما يريدون الاعتمار.

والنبي صلى الله عليه وسلم قد وعدهم بدخول مكة والطواف بالبيت كما أراه الله تعالى ذلك، ورؤيا الأنبياء حق، غير أنهم لم يدركوا أن الوعد مطلق غير مقيد بتلك السَّنة،حتى بينه صلى الله عليه وسلم لعمر رضى الله عنه الذى مافتىء يجادل النبي صلى الله عليه وسلم فى قبول هذا الصلح،حتى كان يقول :"مازلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ،مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرا»(٢) .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "أفأخبرتُك أنَّا نأتيه هذا العام؟ فإنك آتيه ومطوِّف به"(٣) .

ولقد بلغت الحيرة لدى المسلمين مبلغها في قبول ذلك الشرط البالغ في القسوة والعنت أشُدَّه،

---

(١) انظر صحيح البخاري في الشروط ٣/٢٥٢-٢٥٨، وفي المغازي، باب غزوة الحديبية ٥/١٥٥-١٦٤، وصحيح مسلم في الجهاد والسير، باب صلح الحديبية ٤/٥٧-٦١، وسيرة ابن هشام ٤/٢٤-٣٨ مع الروض الأنف .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/٢٨ .

(٣) البخاري في الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ٣/٢٥٦ .

وهو الشرط الذينص على أن يُرَدَّ إليهم من أتى المسلمين من غير إذن مولاه، بينما هم لا يردون من يأتيهم من صفوف المسلمين، غير أن النبي صلى الله عليه وسلم فسَّر لهم قبول هذا الشرط بما يثلج صدورهم وهو أن من أتاهم مرتدا عن دينه فقد أبعدهُ الله، ومن أتى المسلمين مسلما فسيجعل الله له فرجا ومخرجا .

ولقد زادهم غمًّا وضيقا قضية إرجاع أبي جندل بن سهيل بن عمرو الذي جاء يرسُف في قيوده يريد الالتحاق بصفوف المسلمين، فحال بينه وبين ذلك أبوه إذ كان يفاوض النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الشروط الجائرة،قائلا للنبي صلى الله عليه وسلم:

قدلَجَّت(١) القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، فصدَّقه النبي صلى الله عليه وسلم، فجعل سهيل يضرب وجه أبي جندل ويأخذ بتلابيبه،وهو يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين،أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ فزاد ذلك الناس إلى مابهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنَّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم"(٢) .

ومع كل ذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم قبل الصلح بشروطه تلك،رغبة منه في أن ينال خيرية الصلح الذي وعد الله به حيث قال: ﴿ والصلح خير ﴾[سورة النساء:١٢٨] .

وقد كان عليه الصلاة والسلام يقول:« أنا عبدُ الله ورسولُه ولن أخالف أمره ولن يضيِّعني(٣)» .

فما هي إلا بُرهة من الزمن يسيرة حتى نال بركته وخيره،حيث عادت تلك الشروط على المشركين بالخيبة والخسران، وغدو يسعون جاهدين في إلغائها .

---

(١) أي: وجبت .

(٢) سيرة ابن هشام ٢٩/٤، والبخاري في الباب السابق.

(٣) سيرة ابن هشام ٢٨/٤ .

بينما عادت على المسلمين بالخير وثبات الإيمان بدينهم وبنبيهم صلى الله عليه وسلم الذي لم تكن تصرفاته تلك إلا عن وحي وتسديد إلهي كما دل عليه قوله: "ولن أخالف أمره" .

فقد قال الزهري (١): "فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال، حيث التقى الناس، فلما كانت الهُدنة ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة،فلم يكلّم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه، ولقد دخل في تلك السنين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر" .

قال ابن هشام(٢): "والدليل على قول الزهري:أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنيتن في عشرة آلاف"(٣) .

وكانت عاقبة هذا الصلح الفتح العظيم الذي وعد الله تعالى به نبيه، وبشر به النبي صلى الله عليه وسلم أمته في وقت ما كان سيتحقق فيه لو لا تمهيد الله تعالى له بذلك الصلح المحمود عاقبته، وصدق الله إذ يقول: ﴿ لَقد صدق اللهُ رسولَه الرُّؤيا بالحقِّ لتدخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاءَ اللهُ آمنين محلِّقين رُءوسكم ومُقصِّرين لا تَخافون فعلِم ما لم تَعلموا فجعل من دون ذلك فتحًا قريبا ...﴾[سورة الفتح:٢٧] .

وهكذا تكون ثمار الصلح دائما وأبدا، فإنه ﴿ لا يُخلِفُ اللهُ وعدَه ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون ﴾[سورة الروم:٦] .

---

(١) هو أبوبكر محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري المدني الحافظ المتفق على جلالته وإتقانه، وعداده في رؤوس الطبقة الرابعة من التابعين، وهو من أوائل من صنف في السيرة توفي سنة ١٢٤ هـ، انظر طبقات ابن سعد ٣٨٨/٢، وتذكرة الحفاظ للذهبي ١٠٨/١، وطبقات الحفاظ للسيوطي ص ٤٩ ونحوها .

(٢) هو عبد الملك بن هشام الذهلي صاحب السيرة النبوية التي هذب فيها سيرة ابن إسحاق وتوفي سنة ٢١٨هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٤٢٩/١٠ .

(٣) سيرة ابن هشام ٣٠/٤ .

فهذه نماذج كافية لما كان يقوم به النبي صلى الله عليه وسلم من إصلاح بين الآخرين، وما ينهجه في نفسه عند عرض الصلح عليه .

جـ - وقد مرت بك نماذج أخرى في مبحث القرض(١)، حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوسط بين المقرِض - بكسر الدال - والمقرَض بفتحها، عندما يتعسر القضاء، فيصلح بينهما على أن يضع المقرِض شيئا من ماله حتى يتيسر على المقرَض الأداء .

كحديث كعب بن مالك رضي الله عنه أنه كان له على عبد الله بن أبي حَدْرد الأسلمي مال، فلقيه فلزمه حتى ارتفعت أصواتهما، فمر بهما النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "يا كعب، فأشار بيده كأنه يقول النصف، فأخذ نصفهما عليه وترك نصفا"(٢) .

د - ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يجهد نفسه في الإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فقد حدث ذات يوم أن أهل قباء اقتتلوا(٣) حتى تراموا بالحجارة، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال: "اذهبوا بنا نصلح بينهم"(٤) .

فانظر كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتوان عن الذهاب للإصلاح بين المسلمين، حينما بدر الشقاق بينهم، ليَحسِم الخلاف، ويعيد الوئام قبل أن يستفحل الأمر ويتسع الخرق على الراقع .

وهذا دليل آخر على حرصه صلى الله عليه وسلم على الإصلاح بين المؤمنين ليبقى الود والإخاء بينهم متماسكا .

هـ - ولقد بلغت محبته صلى الله عليه وسلم للإصلاح أن أباح فيه الكذب الذي هو

---

(١) ص٩٣٠.

(٢) تقدم ذكر هذه الرواية مخرجة بنحوها، وهذه رواية البخاري في الصلح، باب هل يشير الإمام بالصلح ٢٤٤/٣ .

(٣) أي: فعلوا فعلا يودي بهم إلى القتل من مضاربة بالأيدي والعصي ورمي بالحجارة كما بين في الرواية .

(٤) أخرجه البخاري في الصلح، باب قول الإمام لأصحابه اذهبوا بنا نصلح ٢٤٠/٣ من حديث سهل بن سعد.

من أقبح الرذائل الخُلقية، إذا كان سيثمر في إصلاح ذات البين، كما أخبرت بذلك عنه عليه الصلاة والسلام أم كلثوم بنت عقبة(١) رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله عليه وسلم يقول:« ليس الكذّاب الذي يصلح بين الناس فيُنمي خيرا أو يقول خيرا»(٢)، وزاد مسلم في رواية: "ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث يعني: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل زوجته وحديث المرأة زوجها" .

وما ذلك إلا لِعظَم خطر الخلاف بن المسلمين وفساد ذات بينهم كما بينه النبي صل الله عليه وسلم بقوله:« إياكم وسوء ذات البين فإنها الحالقة»(٣) أي: الخصلة التي من شأنها أن تحلق، أراد أنها خصلة سوء تذهب الدين كما تذهب الموسى الشعر(٤)، ولذلك كان من أملِه الكبير ورجائه العظيم في نسله المبارك الحسن السِّبط رضي الله عنه أن يصلح الله به فساد ذات البين الذي أعلمه الله بحدوثه في أمته بعد وفاته، كما أخرج ذلك البخاري رحمه الله من حديث أبي بكر رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر والحسن بن علي إلى جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: "إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»(٥) .

---

(١) ابن أبي معيط القرشية الأموية، أخت عثمان بن عفان لأمه، وأخت الوليد بن عقبة، أسلمت بمكة قديما، وصلَّت إلى القبلتين، وهاجرت إلى المدينة ماشية، وفيها نزلت: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ...﴾ انظر أسد الغابة ٦١٤/٥، والإصابة ٤٦١/٤ .

(٢) أخرجه البخاري فيما سبق، باب ليس الكذب الذي يصلح بين الناس ٢٤٠/٣، ومسلم في البر والصلة، باب تحريم الكذب وبيان المباح منه برقم ٢٦٠٥ .

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة باب رقم ٥٦، برقم ٢٥٠٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقال عنه: صحيح غريب من هذا الوجه .

(٤) جامع الأصول لابن الأثير ٦٦٨/٦ .

(٥) أخرجه البخاري في الصلح، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم للحسن بن علي: ابني هذا ... ٢٤٣/٣.

و - ولقد بين عليه الصلاة والسلام ما للصلح من أجر عظيم بقوله: "ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة"(١) .

ولكن إنما يكون الصلح محمودا ومثاباً فاعله إذا كان في حدود ما أحلَّ الله تعالى كما في جميع الصور والأمثلة المتقدمة.

أما إذا كان الصلح يحرم حلالا أو يحلل حراما فإنَّه لا يكون حكماً ما سبق بيانه من الأجر والمثوبة، ويكون من مكارم الأخلاق التي ندب إليها الإسلام، بل إنه غير جائز ولا نافذ،لقوله صلى الله عليه وسلم: "الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا حرم حلالا أو حلل حراما، والمسلمون على شروطهم إلا شرطا حرم حلالا أو حلل حراما"(٢) .

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في إصلاح ذات البين برقم ٤٩١٩، والترمذي في صفة القيامة، باب رقم ٥٦، برقم ٢٥٠٩ من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وقال عنه: حديث صحيح .

(٢) أخرجه أبو داود في الأقضية، باب في الصلح برقم ٣٥٩٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والترمذي في الأحكام، باب ما ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلح بين الناس برقم ١٣٥٢ من حديث كثير بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده وقال: حسن صحيح، وانظر الإرواء ٢٥١/٥ .

الباب الخامس

الأخلاق القرآنية المتعلقة بالنبوة والإمامة
والتطبيقات النبيوية لها

وفيه خمسة فصول:

١ ـ الأخلاق الواجبة للنبوة .

٢ ـ أخلاق البلاغ والدعوة .

٣ ـ الأخلاق العلمية .

٤ ـ أخلاق الإمامة .

٥ ـ أخلاق القيادة .

تمهيد:

لقد علمنا ـ فيما سبق ـ أن من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم وأعلامها؛ شرف أخلاقه صلى الله عليه وسلم وكمال فضائله وشمائله، فقد كان عليه الصلاة والسلام جامعا لمكارم الأخلاق على وجه الكمال، بحيث لم يتخلف عنه خلق كريم، ولا تغير له خلق عظيم منذ حداثته ، وكأن المكارم الخُلقيه كلها قد نظمت فى عقد واحد تحلى بها فى حياته البشرية المتوجة بتاج النبوة الخاتمة، وكلها كانت متناسقة لا تتعارض ولا تتضارب ، ولا يطغى واحد منها على غيره خاصة بعد أن شرفه الله بالرسالة العامة إلى أن لقي الله تعالى وهو على ذلك الكمال الخلقى.

ولا ريب أن هذا من أدل الدلائل على نبوته صلى الله عليه وسلم، لأنه ما من أحد يبرز فيه جانب من جوانب الأخلاق الكريمه، إلا وفقدت منه جوانب أخرى كثيرة، ومابرز فيه من ذلك لا يكمل أبدا، إذ لا بد وأن تحصل له زلة أو تقع منه هفوة، تخل بما برز منه من خلق، فإنه كما قيل لكل جواد كبوة، ولكل قلم نبوة، ولكل عالم هفوة.

أما نبينا سيدنا محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه فقد كان فى ذروة الكمال الخلقى وتمامه،لم يغب عنه خلق كريم ، ولا عيب عليه خلق ذميم ، ولم تؤثر عنه زلة ولا عرفت له كبوة، مع كثرة المتربصين لذلك حتى استحق أن يصفه الله تعالى بالخلق العظيم ويؤكد ذلك بمؤكدات بلاغية كثيرة ، لزيادة تقريره(١). فى أنفس السامعين والتالين إلى يوم الدين ، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ .. وإنَّك لعلى خُلُق عظيم ﴾[سورة القلم:٤] وكان ذلك في بداية تنزل الوحي، فإن هذه السورة من أوائل السور تنزلا عليه صلى الله عليه وسلم،مما يدل على أن عظمة أخلاقه صلى الله عليه وسلم قد كانت معلومة من قبل البعثة ، وهو ما دل عليه تاريخ نشأته فى كتب السير ، وقد تجلت لنا مظاهر عظمة خلقه صلى الله عليه وسلم فى كل المباحث التى تقدمت ، ويقي ما لم يأت بحثها بعد.

ومما لم يتقدم من عظيم أخلاقه ، صلى الله عليه وسلم : الأخلاق المتعلقه بجانب النبوة العظيمة والإمامة العظمى التى قرر أهل العلم وجوب توفرها في الأنبياء ، ويجب

---

(١) هي القسم و"إن"، ولام التوكيد، والجملة الاسمية، وتقدم تقرير ذلك في أول الرسالة ص٥٧ .

اعتقادها فيهم ، ويجب تبرئتهم مما يناقضها، وهي: الأمانة، والعصمة، والصدق، والتبليغ، والفطانة، كما قال الناظم :

وواجب في حقهم الامانة والصدق والتبليغ والفطانة

لأن هذه الأخلاق ، تمس جانب الرسالة المناطة بهم مسًّا مباشرا ، والطعن فيهم بهذه الأخلاق ، يعنى عدم الإيمان بهم ، أو عدم تصديقهم وذلك كفر بهم، وبما أرسلوا به من عند الله تعالى ، فإن الله لم يصطف من البشر رسولا إلا كامل الخَلْق والخُلُق،وعظيم الحسب والنسب معروفا فى أوساط قومه بذلك ، ليكون أدعى لتصديقه ، وأبعد عن أن يعير بنقص .

وسأبحث هذه الأمور من جوانبها الأخلاقيه (١) لأبين ما كانوا عليه من الكمال فيها ولاسيما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إمام الأنبياء وخاتم المرسلين.

---

(١) إلا الأمانة فإنه قد مر بحثها في الباب الثالث مستوفاة ص٥١٥-٥٣٢ فلم أر إعادة الحديث عنها هنا، مكتفيا بهذه الإشارة ليعيد القارىء نظره إليها في موضع بحثها حيث اقتضت المناسبة ذكرها هناك .

الفصل الأول

الأخـــلاق الـــواجـــبـة للـنـبـــوة

وفيه أربعة مباحث:

١ ـ العصمة .

٢ ـ الـصدق .

٣ ـ الـتـبـليغ .

٤ ـ الفـطانة .

المبحث الأول

(العصمة)

العصمة في اللغة:المنع ، قال ابن فارس في معجمه(١) مادة (عصم) : "العين والصاد والميم أصل واحد صحيح يدل على إمساك ومنع وملازمة ، والمعنى في ذلك كله معنى واحد، ومن ذلك العصمة: أن يعصم الله تعالى عبده من سوء يقع فيه ، قال: واعتصم العبد بالله اذا امتنع ، واستعصم: التجأ.."

وقال الجوهري في صحاحه (٢) " العصمة : المنع ، يقال: عصمه الطعام أى منعه من الجوع .. قال: والعصمة الحفظ ، يقال عصمته فانعصم ، واعتصمت بالله تعالى إذا امتنعت بلطفه من المعصيه" .

وفى الاصطلاح: "هي ملكة اجتناب المعاصى مع التمكن منها"(٣).

وهذا تعريف لها من حيث هي ، وأما بالنظر لمن تحلى بها وهم الأنبياء والرسل فتعريفها فى مقامهم بما قاله الراغب في المفردات (٤) : "وعصمة الأنبياء حفظه إياهم أولا بما خصهم به من صفاء الجوهر، ثم بما أولاهم من الفضائل الجسمية والنفسيه ، ثم بالنصرة وبتثبيت أقدامهم ، ثم بإنزال السكينة عليهم، وبحفظ قلوبهم، وبالتوفيق".

وقال غيره (٥) : هى "اتصافهم بحفظ الله سبحانه ظواهرهم وبواطنهم ولو فى حال الصغر من التلبس بمنهي عنه ولو نهي كراهة".

وإذا كانت العصمة تعنى حفظ الله تعالى لأنبيائه عن مواقعة الذنوب الظاهرة والباطنه فذلك يعني أن العناية الإلهيّة لم تنفك عنهم فى كل أطوار حياتهم قبل النبوة وبعدها ،

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٣٣٢/٤ .

(٢) الصحاح ٥/ ١٩٨٦ .

(٣) التعريفات للجرجاني ص ١٥٠، وأنيس الفقهاء لقاسم القونوي ص ١٧٩ .

(٤) ص٣٣٧.

(٥) هو عبد السلام بن إبراهيم المالكي في شرحه على جوهرة التوحيد ص ١١٤ بحاشية الأمير .

على ماهو المعتمد كما سيأتى تحقيقه ، فهي محيطة بهم تحرسهم من الوقوع في منهي عنه شرعا أو عقلا ، وصدق القائل حين قال :

واذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

وهذا ماظهر أثره في الخارج ، فقد كان أنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام محفوظي الظواهر والبواطن من التلبس بمنهي عنه ولو نهي كراهة أو خلاف الأولى (١) ، كما قاله بعضهم ، يعنى من غير أن ينبهوا عليه فيتوبوا منه.

فهم محفوظون ظاهرا من الزنا وشرب الخمر والكذب والسرقة، وغير ذلك من المنهيات المستقبحات فى الخارج،ومحفوظون فى الباطن من الحسد والكبر والرياء وغير ذلك من منهيات الباطن(٢).

فلم تعرف لهم زلة،ولا سجلت لهم هفوة فى مجتمعاتهم المليئة بالشحناء والعداوة والبغضاء لهم، ولو أن أعداءهم علموا من ذلك شيئا لطاروا به فرحا ، ليدفنوا ماذاع لهم من مكارم الأخلاق وصالح القول والعمل،كشأن الغوغائيين الذين قال فيهم الشاعر :

إن يسمعوا زلة طاروا بها فرحا منّى وماعلموا من صالح دفنوا

صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذن

فقد كانوا فى غاية التربص لتصيد عثراتهم إن وجدوها ، فلمّا أعياهم البحث والانتظار ويئسوا من العثور على شيء من ذلك ، طفقوا يفترون الكذب ، ويقولون الزور ، فيرمونهم بالسحر تارة ، والكهانة أخرى ، والجنون حينا والافتراء حينا آخر ، وغير ذلك مما طاب لهم التفوه به مما سجله عليهم القرآن وحفظه التأريخ ، ولكن سرعان ما كان يكذبهم الواقع ، والمنصفون الذين تتأبّى الحقيقة إلا أن تسود فيهم،فتبور أقوالهم وترجع عليهم بالخزى والعار، ويبقى جانب الأنبياء مصونا بالعصمة الإلهية والعناية الربانية، ليكونوا أطهارا أتقياء قادة الخلق إلى مكارم الأخلاق وصلاح النيات والأقوال والأفعال.

---

(١) انظر إتحاف المريد بحاشية الأمير ص١١٤، وتحفة المريد عل جوهرة التوحيد للباجوري ص ٧٥ .

(٢) المرجعين السابقين .

وماكان لهم بذلك من يد لولا العصمة الربانيه التى أحاطت بهم ، فمنعتهم من الوقوع فيما لا يحمد مما يكون منفرا للناس عن اتباعهم إلى مايدعونهم إليه من الدين والأخلاق الفاضله ، هذا وللعلماء كلام طويل ، وتفصيل مستطيل حول العصمة التى رعى الله تعالى بها رسله سنوجزه فى الآتى :

١ - مواضع العصمة :

والعصمة التى أوجبها الله تعالى لرسله عليهم الصلاة والسلام تتعلق بالاعتقادات والتبليغ ، والأقوال ، والأفعال. فقد عصمهم الله تعالى من الوقوع فى محظور في هذه الأمور حتى أدوا رسالتهم ولحقوا ببارئهم جل وعلا.

أما الأمور الاعتقاديه. فقد أجمعت الأمة على أن الأنبياء معصومون عن الكفر والبدعة قبل البعثة وبعدها، كما حكى ذلك الفخر الرازى والقاضى عياض وغيرهما (١).

فقد قال القاضى عياض(٢): فى حُكم عقد قلب النبي صلى الله عليه وسلم من وقت نبوته : "اعلم منحنا الله واياك توفيقه أن ما تعلق منه بطريق التوحيد والعلم بالله وصفاته والإيمان به وبما أوحي اليه ، فعلى غاية(٣) المعرفه ووضوح العلم واليقين ، والانتفاء عن الجهل بشيء من ذلك أو الشك أو الريب فيه ، والعصمةِ (٤) من كل ما يضاد المعرفة بذلك واليقين ، هذا ما وقع إجماع المسلمين عليه ، ولا يصح بالبراهين الواضحة أن يكون فى عقود(٥) الأنبياء سواه".

وقال فى فصل آخر : "وأما عصمتهم من هذا الفن (٦) قبل النبوة فللناس فيه خلاف

---

(١) عصمة الأنبياء ص ٣٩، والشفاء ص ٢٣٠ .

(٢) فى كتابه الشفاء ٢/٢٣٠ .

(٣) أي: فهم على غاية المعرفة .

(٤) بالجر عطف على المعرفة، أي: هم على غاية العصمة من كل ما يضاد المعرفة .

(٥) أي: عقائدهم التي ارتبطت عليها قلوبهم،ا.هـ نسيم الرياض ٤/٣،٣ .

(٦) أي: اعتقاد ما لا يليق بالتوحيد والعلم بالله وصفاته وبما أوحي إليه من أمور الدين، نسيم الرياض ٤/٣٨.

والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل با لله وصفاته ، والتشكيك فى شىء من ذلك، قال: وقد تعاضدت الأخبار والأثار عن الأنبياء ، بتنزيههم فى هذه النقيصه منذ ولدوا، ونشأتهم على التوحيد والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة ... و لم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحدا نُبِّئ واصطفي ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك، ومستند هذا الباب النقل، قال : وقد استدل بعضهم بأن القلوب تنفر عمن كانت هذه سبيله، ـ قال القاضى ـ : وأنا أقول:إن قريشا قد رَمت نبينا بكل ما افترته، وعيَّر كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته مما نص ا لله تعالى عليه ، أو نقلته إلينا الرواة، و لم نجد فى شىء من ذلك تعييراً لواحد منهم برفضه آلهته ، وتقريعه بذمه بترك ماكان قد جامعهم عليه ، ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين، وبتلوُّنِه فى معبوده محتجين ، ولَكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبل أفظع وأقطع فى الحجة من توبيخه بنهيهم عن تركهم آلهتهم وما كان يعبد آباءهم من قبل ، ففى إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلا إليه ، إذ لو كان لَنُقِل، وماسكتوا عنه كما لم يسكتوا عن تحويل القبله وقالوا: ﴿ ماولَّاهم عن قبلتِهم الَّتى كانوا عليها ﴾[سورة البقرة:١٤٢] كما حكاه ا لله عنهم) (١).

٢ – أما عصمتهم عما يخل بواجب التبليغ :

"فقد أجمعوا على أنه لا يجوز عليهم التحريف والخيانة فى هذا الباب لا بالعمد ولا بالسهو، وإلا لم يبق الاعتماد على شىء من الشرائع"(٢).

قال فى الشفاء (٣) : "وأما أقواله صلى ا لله عليه وسلم فقد قامت الدلائل الواضحة بصحة المعجزة على صدقه وأجمعت الأمة فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من

---

(١) الشفاء ٢/٢٥٧ .

(٢) عصمة الأنبياء ص ٣٩، وانظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٠/٢٨٩ .

(٣) ٢/٢٨٥-٢٨٧ .

الأخبار من شيء منها بخلاف ما هو به (١)، لا قصدا ولا عمدا، ولا سهوا ولا غلطا"ا.هـ، والكلام ليس خاصا بالنبي صلى الله عليه وسلم بل وغيره من الأنبياء كذلك، إذ لا فرق بينهم في واجب التبليغ".

واستدل القاضي على ذلك بحديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : "كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حِفظه ، فنهتني قريش ، وقالوا : أتكتب كل شيء تسمعه ؟ ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشر يتكلم في الغضب والرضى ؟! قال : فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأومأ بأصبعه إلى فيه ، فقال : "اكتب فوالذي نفسي بيده مايخرج منه إلا حق"(٢).

ثم قال ﴿ فإذا قامت المعجزة على صدقه وأنه لا يقول إلا حقا ، ولا يبلغ عن الله تعالى إلا صدقا، وأن المعجزة قائمة مقام قول الله له : صدقتَ فيما تذكر عنّي ، وهو يقول : إني رسول الله إليكم لأُبلغكم ما أرسلت به اليكم،وأبين لكم مانزل عليكم ﴿ وما يَنطق عن الهوىٰ إنْ هُو الاَّ وحيٌ يُوحى ﴾[سورة النجم : ٣،٤] ﴿ قد جاءَكم الرَّسول بالحق من ربكم ﴾[سورة النساء :١٧٠] ﴿ وما آتاكم الرَّسولُ فخُذُوه وما نهاكم عنه فانتَهوا ﴾[سورة الحشر : ٧] قال: فلا يصح أن يوجد منه في هذا الباب خبر بخلاف مخبره على أي وجه كان، قال : فلو جوَّزنا عليه الغلط والسهو لما تميز لنا من غيره، ولاختلط الحق بالباطل، فالمعجزة مشتملة على تصديقه جملة واحدة من غير خصوص ، فتنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك كله واجب برهانا واجماعا..﴾(٣) اهـ .

---

(١) أي: بخلاف الواقع .

(٢) أخرجه أبو داود في العلم، باب في كتاب العلم برقم ٣٦٤٦ بنحوه، والدارمي ١/١٢٥، وأحمد ٢/١٦٢، ١٩٢، والحاكم ١/١٠٥،١٠٦، وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/٧١، ورواة الحديث قد احتج بهم الشيخان غير أحدهم فاحتج به مسلم. انظر السلسلة الصحية للألباني رقم ١٥٣٢ .

(٣) وانظر مزيدا من أقوال أهل العلم هنا في آيات عتاب المصطفى ص ٤٢-٤٥ .

ومن هذا الباب ما كان من باب الفتوى فى أحكام الشرع ، فقد أجمعوا على أنه لا يجوز عليهم تعمد الخطأ فيما كان هذا سبيله ، أما سهوا ، فإنه محل خلاف(١) ، ومن جوزه عقلا ، فانه لا يجد له مثالا نقلا.

٣ - عصمتهم فى أقوالهم مما هو ليس من باب البلاغ :

وأما عصمتهم فى أقوالهم مما ليس هو من باب البلاغ ، مما كان فى أمور الدنيا وأحوال أنفسهم الشريفه صلى الله وسلم عليهم أجمعين :

فقد حكى القاضى عياض اتفاق السلف وإجماعهم على أنه لا يصدر عنه صلى الله عليه وسلم خبر بخلاف إخباره عنه قال :

"وذلك أنا نعلم من دين الصحابة وعادتهم مبادرتهم إلى تصديق جميع أحواله والثقة بجميع أخباره فى أي باب كانت ، وعن أي شيء وقعت، وأنه لم يكن بهم توقف ولا تردد فى شيء منها ، ولا استثبات عن حاله عند ذلك هل وقع فيه سهو أم لا .." (٢).

واستدل على ذلك بما جرى لسيدنا عمر رضى الله عنه مع ابن أبى حَقِيق اليهودى حين أجلاهم من خيبر حيث احتج عليه عمر رضى الله عنه بقوله صلى الله عليه وسلم : "كيف بك إذا أخرجت من خيبر ؟" فقال اليهودى : كانت هذه هُزَيلة(٣) من أبى القاسم - صلى الله عليه وسلم - فقال له عمر : كذبت يا عدو الله ! فأجلاهم عمر وأعطاهم قيمة ما كان لهم من الثمر مالا وإبلا وعروضا من أقتاب وحبال وغير ذلك"(٤). قال القاضى : "وأيضا فإن أخباره وآثاره وسيره وشمائله معتنى بها مستقصى تفاصيلها، ولم يرو فى شيء منها استدراكه صلى الله عليه وسلم لغلط فى قول قاله ، أو اعترافه بوهم فى شيء أخبر به.

---

(١) عصمة الأنبياء ص ٣٩ .

(٢) الشفاء ٣١٢،٣١١/٢، وشرحه نسيم الرياض للخفاجي والقاري ١١١/٤ .

(٣) تصغير هزلة، وهي المرة الواحدة من الهزل ضد الجد .

(٤) أخرجه البخاري في الشروط، باب إذا اشترط في المزارعة إذا شئت أخرجتك ٢٥٢/٣ .

قال : ولو كان ذلك لنقل كما نقل من قصته عليه الصلاة والسلام عما أشار به على الأنصار فى تلقيح النخل(١) وكان ذلك رأيا لاخبرا" يعنى فلا يدخله الصدق والكذب "وأيضا فإن الكذب متى عرف من أحد فى شيء من الأخبار بخلاف ما هو على أي وجه كان ، استريب بخبره واتهم فى حديثه ، ولم يقع قوله فى النفوس موقعا" إلى أن قال: "فانقطع عن يقين بأنه لايجوز على الأنبياء خلف فى القول فى وجه من الوجوه لابقصد ولا بغير قصد ، ولا تسامح فى تجويز ذلك عليهم حال السهو فيما ليس طريقه البلاغ"(٢) ا.هـ. قلت: وهذا الذى ندين الله تعالى به في أخبار النبي صلى الله عليه وسلم فقد كانت أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله كلها تشريع ، تقتضى المتابعة والاقتداء ، إلا ما ورد الدليل فيها على التخصيص أو النسخ أو التوقيت بالعين أو الزمن ، ولا يكون لها ذلك الوصف التشريعي إلا بالقول بوجب العصمه للنبي صلى الله عليه وسلم فيها ،

٤ – عصمتهم فيما يتعلق بالجوارح:

وأما عصمتهم فيما يتعلق بالجوارح من الأعمال والأقوال. فقد أجمع المسلمون على عصمتهم من الفواحش والكبائر والموبقات ومن كل رذيلة فيها شين ونقص .

وأما الصغائر فجوزها جماعة من السلف وغيرهم من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين ، ومنعها أخرون من محققى الفقهاء والمتكلمين(٣) .

---

(١) يشير إلى ما أخرجه مسلم في الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم شرعا دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأي برقم ٢٣٦٣ من حديث أنس وعائشة رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقوم يلقّحون، فقال: لو لم تفعلوا لصلح، قال: فخرج شيصا – يعني تمرا رديئا - فمر بهم فقال: ما لنخلكم ؟ فقالوا: قلت: كذا وكذا، فقال: أنتم أعلم بأمور دنياكم، وفي رواية قال: إني إنما ظننت ظنا، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله بشيء فخذوا به، فإني لست أكذب على الله).

أخرجها مسلم من رواية طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه برقم ٢٣٦١ .

(٢) الشفاء ٢/٣١٢-٣١٥ .

(٣) الشفاء ٢/٣٢٧،٣٢٨، وتفسير القرطبي ١/٣٠٨ .

قال الفخر الرازى: "والذى نقول به إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون فى زمان النبوة عن الكبائر والصغائر بالعمد، أما على سبيل السهو فهو جائز. قال : "ويدل على وجوب العصمة حجج خمس عشرة" ثم ساقها واحدة واحدة ، وهي حجج عقليه دامغة للمجيزين على رسل الله معصيتهم لله تعالى بصغائر الذنوب، ومن تلك الحجج قوله :

"لو صدر الذنب عنهم لكان حالهم فى استحقاق الذم عاجلا والعقاب آجلا ، أشد من حال عصاة الأمة ، قال : وهذا باطل ، فصدور الذنب أيضا باطل ، بيان الملازمة : أن أعظم نعم الله على العباد ، هى نعمة الرسالة والنبوة ، وكل من كانت نعم الله تعالى عليه أكثر كان صدور الذنب عنه أفحش، وصريح العقل يدل عليه ، ثم استدل على ذلك من ثلاثة وجوه :

أحدها : دلالة قوله تعالى : ﴿ يا نساءَ النَّبيِّ لستُنَّ كأحدٍ من النساء ﴾[سورة الأحزاب: ٣٢] وقوله سبحانه : ﴿ يا نساءَ النَّبي من يأتِ مِنكُنَّ بفاحشةٍ مبيِّنةٍ يُضاعف لها العذابُ ضِعفين ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٠].

الثانى : أن المحصن يرجم وغيره يجلد.

الثالث : أن العبد يحد نصف حد الحر ، قال : فثبت بما ذكرنا أنه لو صدر الذنب عنهم لكان حالهم فى استحقاق الذم العاجل والعقاب الآجل فوق حال جميع عصاة الأمة، إلا أن هذا باطل بالإجماع، فإن أحدا لا يجوز أن يقول : إن الرسول أحسن حالا عند الله وأقل منزلة من كل أحد ، وهذا يدل على عدم صدور الذنب عنهم"(١).

فالفخر الرازى كالقاضى عياض يقرران ثبوت العصمة للأنبياء حتى فى الصغيرة ، خلافا لمن أجازها من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين (٢) ، غير أن الفخر يستثنى من ذلك ما كان فى حال السهو ، بخلاف عياض فإنه يرى العصمة فى ذلك أيضا.

---

(١) عصمة الأنبياء ص ٤١ .

(٢) انظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ٣٠٨/١ .

ولكن يتفق الجميع فى العصمة من الصغائر فيما إذا كانت الصغائر تؤدى إلى الخِسَّة وإزالة الحشمة وإسقاط المروءة ، وتوجب الإزراء، فإن هذا مما يعصم عنه الأنبياء إجماعا كما قال القاضى عياض ، وكذا تكرار الصغائر وكثرتها ، حيث يلحقها ذلك بالكبائر الممنوعة إجماعا(١)، وقد تكفل القاضى وعياض والفخر الرازى بدفع الشبه التى وردت على عصمة الأنبياء من خلال نصوص القرآن والسنه ، وهي كثيرة يطول ذكرها ، لأن كل آية أو حديث استدل به المجوزون يقتضى الإجابة عنه ، فتكثر الإيرادات ، والإجابات ويحوج الحال إلى صفحات وصفحات. فينبغى أن تنظر هناك .

☆☆☆

(١) انظر الشفاء ٢/٣٣٠ .

المبحث الثّانى

(الصدق)

لقد تقدم فى الباب الثالث (١) تعريف الصدق لغة وشرعا ، حيث ذكر هناك بوصفه خلقا سلوكيا فرديا ، وتحلّى النبي صلى الله عليه وسلم به من حيث هو سلوك فردي ، وخلق فاضل كريم، وقد استفاض الحديث عنه هناك من هذه الحيثيه فقط.

ولكن كون الصدق خلقا واجبا لنبوته عليه الصلاة والسلام يستحيل تخليها عنه ، ويجب إثباته لها عقلا وشرعا، لم يبحث بعدُ، وتقتضى المناسبة أن يبحث فى هذا الباب وهذا أوان ذكره، فأقول :

لقد وصف الله تعالى أنبياءه بالصدق على سبيل التعيين أو الإجمال فى غيرما آية من كتابه العزيز كقوله عن إدريس عليه السلام: ﴿ إنّه كان صدّيقاً نبيًا ﴾[سورة مريم : ٥٦] وقوله عن ابراهيم عليه السلام : ﴿ واذكر فى الكتابِ إبراهيم إنّه كان صدّيقاً نبيا ﴾ [سورة مريم : ٤١] وقوله عن إسماعيل عليه السلام : ﴿ واذكر فى الكتاب إسماعيلَ إنّه كان صادقَ الوعدِ وكان رسولًا نبيا ﴾[سورة مريم : ٥٤]،وقوله عن موسى عليه السلام:﴿ حقيقٌ على أن لا أقولَ على الله إلّا الحق..﴾[سورة الأعراف: ١٠٥] وقوله عن يوسف عليه السلام : ﴿ يوسفُ أيّها الصّديق ﴾[سورة يوسف : ٤٦]،وقوله فيه : ﴿ وإنّه لمن الصّادقين ﴾ [سورة يوسف: ٥١] وقوله فى حق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ وصدقَ اللهُ ورسولُه ﴾[سورة الأحزاب : ٢٢] وقوله فى حقه أيضا : ﴿ فمن أظلمُ ممّن كذَب على اللهِ وكذّب بالصّدق إذ جاءه أليس فى جهنّمَ مثوىً للكافرين * والّذى جاءَبالصّدق وصدّق به أولئِك هم المتّقون ﴾[سورة الزمر: ٣٢،٣٣] .

فسمّى ما جاء به من عند الله من أحكام شرعه، وأخبار رسله وخلقه، قرآنا أو سنة، سماه صِدقه،وذلك وصف له بالالتزام ، إذ لا يأتى بالصدق إلا صادق، وذلك مما لا جدال فيه ، حيث كان صدقه معلوما منذ حداثة سنه ، وشهد له بذلك أعداؤه قبل أصدقائه،

---

(١) ص ٣٨٩

فإن الأعداء من الكفرة والمشركين لم يكونوا يشكُّون يوما فى صدقه كما قال الله تعالى: ﴿ فإنَّهم لا يُكذِّبونَك ولكنَّ الظالمينَ بآياتِ اللهِ يَجحدون ﴾[سورة الأنعام ٣٣] وكما كانوا يشهدون له بذلك فى مواقف مختلفه ، تقدم ذكر بعضها، ومثل هذا الدليل الالتزامى قول الله تعالى فى حقه صلى الله عليه وسلم : ﴿ ولو تقوَّل علينا بعضَ الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لَقطعنا منه الوَتين * فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين ﴾[سورة الحاقة: ٤٤-٤٧] ، حيث دلل الله تعالى على صدق نبيه بدليل التمانع ، فقد امتنع أخذه سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم بتلك الصفة ، لامتناع تقوله عليه ، وامتناع التقول عليه يعنى الصدق فيما يقول .

فالأية إذا تطمئن النفوس على صدق وأحقية ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم غاية الاطمئنان، إذ دلت على أن الله تعالى له بالمرصاد إن هو تقوَّل عليه ـ وحاشاه من ذلك ـ والواقع خلافه ، فإن الله تعالى مازال يؤيده بالمعجزات الدالة على صدقه ، وهي منزَّلةٌ مَنزلة أن يقول الحق تبارك وتعالى: صدق عبدى فيمايبلِّغ عنى، إذ لولا صدقه لما أمره بها، كما يعلم من حال الكذابين من مدَّعي النُّبوةَ، وكما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ ويمحُ اللهُ الباطلَ ويحقُّ الحقَّ بكلماتِه ﴾[سورة الشورى: ٢٤] (١).

ولكن لما كان الله تعالى يؤيد نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم بالمعجزات الباهرات، وينصره على عدوه المرة تلو الأخرى ، ويظهر دينه يوما بعد يوم ، دل ذلك على كمال صدقه صلى الله عليه وسلم فيما يبلغ عن ربه جل شأنه.

وقد أكد الله تعالى ذلك بأدلة أخرى كثيرة ، كقوله سبحانه: ﴿ والنجمِ إذا هَوى * ماضلَّ صاحبُكم وما غوى * وماينطقُ عن الهوَى * إن هو إلاَّ وحيٌ يوحى ﴾[سورة النجم : ١-٤]. فهذا قسم من الله جلا وعلا ، على أن ما ينطق به النبي صلى الله عليه وسلم هو وحي من الله تعالى لا مجال لمحمد صلى الله عليه وسلم فى أن يأتى به من عنده أو أن يتقوله عنه .

---

(١) انظر النبوة والأنبياء لابن تيمية ص ٢٢٨-٢٣٠ .

ولذلك كانت أقواله صلى الله عليه وسلم نصوصا شرعية لإقامة الدين ، وكذا أفعاله وتقريراته، فإن الصدق شامل لها، لأن الصدق كما يكون بالأقوال، يكون كذلك بالأفعال ، والأحوال كما تقدم بيانه (١).

وقد تبين برهان هذا القَسَم بالواقع العلمى حينما طلب مشركو مكة من النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بقرآن غير الذى أتاهم به ، لايكون فيه عيب آلهتهم ، أو يبدله من تلقاء نفسه على ذلك الشرط ، ليقبلوا منه بعد ذلك دعوته للإيمان ، وهم بذلك يريدون أن يستلُّوا مصداقيَّة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليحتجوا بذلك لأنفسهم على الكفر الذى هم عليه ، لعدم صدق صاحب الدعوة فيما يوحى به إليه حينئذ ، ولكن هيهات أن ينالوا شيئا من ذلك أو يجابوا إليه ، لأن صدق النبي صلى الله عليه وسلم حقيقة لاتتبدل ولاتقبل الجدال والنقاش . وقد قص الله تعالى علينا هذه المبادرة الخادعة الهزيلة بقوله جل ذكره: ﴿ وإذا تُتلى عليهم آياتُنا بيِّنات قال الذين لايَرجونَ لقاءَنا ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدِّله قل ما يكون لِي أن أبدِّله من تلقاءِ نفسى إن أتَّبعُ إلَّا ما يُوحى إليَّ إنِّى أخافُ إن عصيتُ ربِّى عذابَ يومٍ عظيم * قل لو شاءَ اللهُ ما تلوتُه عليكم ولا أَدراكم به فقد لَبثتُ فيكم عُمُراً من قبله أفلا تَعقلون * فمن أظلمُ ممن افترَى على اللهِ كَذِباً أو كذَّب بأياتِه إنَّه لايُفلِح المجرمون ﴾[سورة يونس ١٥-١٧] .

فحاجَّهم النبي صلى الله عليه وسلم بما يعرفونه فيه من الصدق والأمانة منذ الصغر ، وقد لبث فيهم أربعين سنة وهو لايذكر لهم شيئا مما أتاه بعد ذلك من الهدى والنور ، فلو أنه كان يقدر على أن يأتى بشيء مما أتى به بعد ، لكان ظهر ذلك لهم منه أيام حداثة سِنِّه وقوَّة جلَده ، ولكنه إن يتبع إلا ما يوحى إليه من ربه حين يوحى إليه، ثم بين لهم أن فعل مايريدونه منه هو من أقبح وأعظم الجور والجُرم، ثم لايلبث أن يفتضح أمره للناس فيصير أضحوكة بينهم ، ولُعبة يهزأون به كما قال فى أية أخرى: ﴿ ومن أظلمُ ممَّن افترى على اللهِ كَذبًا أو قال أُوحِيَ إليَّ ولم يوحَ إليه شيءٌ ومن قال سأُنزلُ مثلما أنزلَ الله ﴾[سورة الأنعام:٩٣] .

---

(١) انظر ص ٣٩٥

فقامت عليهم بذلك الحجة على كمال صدقه صلى الله عليه وسلم فيما ينسبه إلى الله تعالى من الوحى والرسالة، وكان عليهم حينئذ أن يذروا الجدال والمكابرة، ويذعنوا للحق الذى جاء به الصادق الأمين ، الذي يعرفون نسبه وصدقه وأمانته، كما قال أبو سفيان وهو رأس الكفر وعموده إذ ذاك لهرقل حينما سأله قائلا: "هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن أن يقول ماقال ؟ فقال له أبو سفيان: لا، ثم قال له هرقل: قد أعرف أنَّه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذبَ على الله تعالى"(١) .

فاعترف بالحق الذى لايقدر على أن يغالبه وهو على شركه وعدائه، وكما قال جعفر ابن أبى طالب للنجاشى رضي الله عنهما: "بعث الله فينا رسولا نعرف صدقه ونسبه وأمانته .."(٢) فهذه شهادات الحق التى لا تجرح .

فما كان عدم التصديق به بعد ذلك إلا محض كبر وعناد وجهالة ، فلذلك ناداهم الله تعالى نداء حاسما ، أن يتوبوا من غيهم ويَفيقوا من غفلتهم وجهالتهم ، ويذروا العناد والمكابرة التى هم عليها بعد أن وضح الحق لذى عينين وضوح الشمس فى رائعة النهار ، وقال لهم: ﴿ يا أيُّها النَّاس قد جاءَكم الرَّسولُ بالحقِّ من ربِّكم فآمِنوا خيراً لكم وإن تكفُروا فإنَّ لِلّه ما فى السمٰواتِ والأرضِ وكان الله ُعليماً حكيما ﴾[سورة النساء:١٧٠].

حيث بين الله تعالى بهذا النداء المفعم بالرأفة والرحمة أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الهدى والنور هو الحق الذى بعثه به ، وأن الخير كله لهم أن يؤمنوا ويتابعوه فيما جاء به ودعاهم إليه، وأنهم إن أبوا ذلك فإن وبال إبائهم عائد عليهم بالخزى والنكال، أما هو سبحانه فلا يضره من ذلك شيء، فإن له مافى السموات والأرض مِلكا وخلقا وعبيدا ، وهو مع ذلك غني عنهم ، فلا تنفعه طاعة الطائعين كما لا تضره معصية العاصين.

---

(١) تقدم تخريجه ص٤٠٠.

(٢) تقدم تخريجه ص٥٢٤ وانظر تفسير ابن كثير ٢/٤١٠ .

هذا وكم فى القرآن الكريم من الدلائل البيِّنة والشواهد الصادقه على صدق رُسُل الله تعالى عامة،وسيدنا محمد رسول الله خاصة، إضافة إلى ما تقدم ذكره وبيانه، كقوله سبحانه: ﴿ هذا ما وَعَد الرَّحمنُ وصدقَ المرسلون ﴾[سورة يس:٥٢] .

وقوله سبحانه بعد محاورته عيسى عليه السلام فى شأن عبادة النصارى له: ﴿..قال اللهُ هذا يومُ ينفعُ الصَّادقين صدقُهم لهم جنَّاتٌ تجرى من تحتِها الأنهارُ خالدين فيها أبدًا رضي اللهُ عنهم ورَضُوا عنه ذلك الفوزُ العظيم ﴾[سورة المائدة:١١٩] فهذه الدلائل الشرعية الناطقة بصدق أنبياء الله تعالى ورسله فيما يبلغونه عن الله تعالى من شرعه لعباده ، وفيما يحدثونهم به عنه سبحانه وتعالى وعن جنته وناره ، ووعده ووعيده،وسننه فى خلقه وكونه.

الدليل العقلى على صِدق سيِّدنا محمدٍ رسول الله ورسل الله عامة صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين:

وأما الدليل العقلي على وجوب صدقهم ،ووجوب اعتقاد ذلك فيهم، فهو أنهم لو كذبوا فى دعواهم الرسالة أو فيما يوحى الله به إليهم ، أو أن ينسبوا إليه ما لم يوح به، للزم الكذب فى خبره سبحانه وتعالى ، لأن الله تعالى صدَّق رسلَه بمثل تلك الأيات المتلوة المتقدم بعضا منها ، وبالآيات الحسِّية وهي المعجزات الكثيرة التى أيَّدهم بها لتدل أممهم وتقنعهم على صدقهم ، فإنَّ المعجزات تلك التى كان يظهرها الله تعالى على أيدي رسله مُنَزَّلَةٌ منزلة قول الله تعالى للمرسل إليهم: (إن رسولي صادق فى قوله ، بدليل تأييدى له بالمعجزات التى لا يقدر عليها أحد سواي).

فلو كان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كاذبين، وحالهم من تأييد الله تعالى ما ذكر ، لكان الكذب منصبا على المعجزات التى أتوا بها أيضا (أي على ما يعتبر خبرا عن الله تعالى بتصديق رسله) والكذب فى خبر الله تعالى محال ، لأن خبره تعالى إنما يكون على وفق علمه ، والخبر على وفق العلم لا يكون إلا صدقا،فخبره تعالى لايكون إلا صدقا ، فدل ذلك على استحالة كذب المبلغين عنه من رسله ، وثبت بذلك

صدقهم(١) .

فهذا هو الدليل العقلى المقنع على صدق رسل الله تعالى فيما يبلغونه عن الله تعالى.

الدليل الخارجى على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة والمرسلين عامة:

أما الدليل الخارجى على صدقهم ، فهو شهادة الواقع لهم بذلك، حيث إن ما أخبروا به من مغيبات مما أطلعهم الله تعالى عليها،أو أنزله عليهم ليبلغوه عباده،فما ظهر منها كان على وِفق ما أخبروا به ، من إنجاز العذاب على المكذبين لمَّا حل أجله فيهم ، ومن إظهارهم على أعدائهم، ومن إقامة دين الله تعالى فى أرضه، ومن غلبة الروم على الفرس، وفتح مكة،ونصرة دين الله تعالى،وإفاضة المال، واستتباب الأمن، وأمر الخلافة بعده صلى الله عليه وسلم، وأمر الفتوح التى وعد بها النبي صلى الله عليه وسلم، وركوب أمته البحر غازين فى سبيله، واستشهاد من استشهد منهم فيه ، وظهور الكذابين بعده، إلى غير ذلك مما ينوء بها الحصر هنا من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم،والتى دون فيها حفَّاظ الأمة وجهابيذها الأسفار الكبار فيرجع إليها من أراد استقصاء ذلك أو الاطلاع عليها(٢) .

وأما التطبيقات النبوية لها فقد تقدمت فى الباب الثالث (٣) ، فإعادتها هنا تكرار لا داعى له ، فتنظر هناك.

---

(١) انظر شرح أم البراهين للدسوقي ص ١٧٦، وعقيدة المؤمن للجزائري ص٢٧٢، والعقيدة الإسلامية لعبد الرحمن حبنكة الميداني ص ١١٣، والشفاء للقاضي عياض ٢/٢٨٥ - ٢٨٧ وشرح العقيدة الطحاوية ص ١٠٦ .

(٢) وذلك كدلائل النبوة للبيهقي ت ٤٥٨ يقع في سبعةمجلدات، ودلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني ت ٤٣٠ ويقع في مجلد، ودلائل النبوة لاسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني ت ٥٣٥ ويقع في مجلد، ودلائل النبوة للفريابي ت ٣٠١ ويقع في جزء، وكأعلام النبوة للماوردي ت ٤٥٠، إلى غير ذلك من كتب الحديث من جوامع ومسانيد وسنن وشمائل التي تتضمن من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم على الشيء الكثير .

(٣) ص٣٩٨

المبحث الثالث

(التبليغ)

التبليغ مصدر بلَّغ يبلغ: إذا أوصل الأمر منتهاه .

لأن البلوغ ، والبلاغ فى اللغة: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى ، مكانا كان أو زمانا أو أمرا من الأمور المقدرة ، فلفظ البلاغ والتبليغ يعنى إيصال الأمر المراد تبليغه إلى منتهاه ومنه قوله تعالى: ﴿ هذا بلاغٌ للنَّاس ﴾[سورة ابراهيم ٥٢] وقوله سبحانه: ﴿..بلاغٌ فهل يُهلَك إلا القومُ الفاسقون ﴾[سورة الأحقاف : ٣٥] .

وإبلاغ الوحي فى الشرع: أن يوصل الرسول ما أمره الله تعالى بإيصاله إلى من أرسل إليهم(١) .

مكانة هذا الخلق فى الأخلاق الواجبة للنبوة:

إن مهمة الرسل الأولى التى كلفهم الله تعالى بها إلى الأمم ليخرجوهم من الظلمات إلى النور، هى التبليغ الذى أوجبه الله تعالى عليهم بمقتضى اصطفائهم للرسالة التى حملهم إياها ، فيجب عليهم التبليغ ويستحيل عليهم الكتمان، ويجب على المسلمين اعتقاد ذلك فيهم،تصديقا لشهادة الله تعالى لهم بذلك كما سيأتى بيانه، وللإجماع المتقدم ذكره على عصمتهم من كتمان الرسالة كما تقدم تقريره.

الدليل على وجوب التبليغ عليهم :

قالوا: والدليل على وجوب التبليغ عليهم هو النقل والعقل، أما النقل فهو ماصرحت به الآيات الكثيرة التى تحدثت عن بلاغ المرسلين كقوله تعالى: ﴿ فهل على الرُّسُل إلا البلاغُ المبين ﴾[سورة النحل:٣٥] أى ليس عليهم إلا ذلك، وهذا قصر لواجب الرسالة التى حملوها، وكقوله: ﴿ فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولِنا البلاغُ المبين ﴾[سورة المائدة:٩٢].

وأما العقل ، فهو أنهم لو كتموا شيئا مما أمروا بتبليغه للخلق لكنا مأمورين بكتمان العلم،لأن الله تعالى أمرنا بالاقتداء بهم ، وكوننا مأمورين بكتمان العلم باطل، فكتمانهم

---

(١) مختار الصحاح ص ٦٣، والمفردات للراغب ص ٦٠ .

شيئا مما أمروا بتبليغه للخلق يكون باطلا، فثبت لهم التبليغ، واستحال عليهم الكتمان لشيء مما أمروا بتبليغه(١)، ويؤيد هذا الدليل العقلي ما أخذه الله تعالى من العهد على العلماء من بيان العلم وعدم كتمانه الدال عليه قوله تعالى: ﴿ إنَّ الذين يكتُمون ما أَنزلنا من البيناتِ والهُدى من بعدِ ما بيَّناه للنَّاسِ فى الكتاب أولئِك يلعنُهم اللهُ ويلعنُهم اللاعنون ﴾[سورة البقرة:١٥٩] .

وقد قام رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم بواجب ذلك البلاغ أكمل قيام ، حيث بلَّغوا كل صغيرة وكبيرة ليلا ونهارا،لايفترون عن ذلك ولايملُّون، حتى قامت الحجة على أقوامهم فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة .

بذلهم الوسع فى البلاغ وتحملهم لتبعاته:

وقد كانوا ينالون من جراء ذلك الشدة الشديدة والإيذاء البليغ ، وذلك لما هم عليه من الرحمة بأممهم والشفقة بهم،لعلمهم بما سيحيق بهم من العذاب إن أعرضوا عن قبول ما بلِّغوه عن الله تعالى جل جلاله، فكان كل واحد يبذل جهده،ويتفانى فى إقناع قومه بقبول ما أمر بتبليغه إليهم، ويتلطف لهم بالخطاب ليقبلوا ما جاؤوا به من عند الله تعالى، كما حكى الله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ قال ياقومِ ليس بى ضلالةٌ ولكنِّى رسول من ربِّ العالمين * أبلِّغُكم رسالاتِ ربِّى وأنصحُ لكم وأعلمُ من اللهِ مالا تَعلَمون ﴾ [سورة الأعراف:٦١،٦٢] وكما قال هود لقومه أهل عاد: ﴿..ياقومِ ليس بِى سفاهةٌ ولكنِّى رسولٌ من ربِّ العالمين * أبلِّغكم رسالاتِ ربِّي وأنا لكم ناصحٌ أمين﴾[سورة الأعراف:٦٧،٦٨] إلى غير ذلك من الآيات الداله على التلطف بالبلاغ وكمال الرحمة بالمبلَّغين، فكانوا غير مقتصرين على مجرد البلاغ الواجب عليهم فقط،

بل إنهم كانوا يتفانون فى النصيحة لأقوامهم بقبوله فيجادلونهم ويحاورونهم بالتى هي أحسن حتى يقبلوا أو ييأسوا من ذلك ، فعندئذ لايسعهم إلا أن يقولوا ﴿وما عَلينا إلا

---

(١) انظر شرح أم البراهين للدسوقي ص ١٨٤ مع الحاشية، وتحفة المريد للباجوري ص ٧٦، ومع رسل الله وكتبه واليوم الآخر لحسن أيوب ص ٥٥،٥٦ .

البلاغ المبين ﴾[سورة يس:١٧] كما قال هود عليه السلام لما يئس من قوم عاد عن قبول رسالة الله: ﴿قال إنَّما العلمُ عندَ الله وأبلِّغكم ما أُرسلتُ به ولكنِّي أراكم قومًا تجهلون﴾ [سورة الأحقاف:٢٣] وقال أيضا: ﴿ فإن تولَّوا فقد أَبلغتُكم ما أرسلتُ به إليكم ويستخلفُ ربي قوما غيرَكم ولا تَضرُّونه شيئًا إنَّ ربي على كل شيءٍ حفيظ ﴾[سورة هود:٥٧] .

وكما قال صالح عليه السلام: ﴿ يا قوم لقد أبلغتُكم رسالةَ ربّي ونصحتُ لكم ولكن لاتُحبّون النَّاصحين ﴾[سورة الأعراف:٧٩] .

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أسفهم على أقوامهم لمَّا لم يقبلوا البلاغ والنصح منهم مما يدل على عظيم رأفتهم بأقوامهم وحنانهم عليهم فبلغوا جاهدين ، ولكنهم بعدئذ لم يسعهم إلا التسليم بما قضاه الله عليهم من النكال لما لم يقبلوا شرعه ويتبعوا رسله، وما كان عليهم شيء لو أنهم اكتفوا بإبلاغ رسالات الله تعالى من غير بذل جهد فى الجدال والحوار والنصيحة ، فإن ذلك هو ما افترضه الله عليهم لاغير، كما قال سبحانه: ﴿ فهل على الرُّسل إلاَّ البلاغُ المبين ﴾[سورة النحل:٣٥] .

ولكنهم عليهم الصلاة والسلام ذوو رحمة ورأفة لا يبالون بالتضحيه إذا علموا أن فيها نفعا للأمة كُلًّا أو بعضا.

تمثل خلق البلاغ
فى النبي صلى الله عليه وسلم

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم عقد الرسالات الإلهيه التى تحملت عن الله وحيه إلى الخلق ليقوموا بواجبهم نحوه فى الاعتقاد والعبادة وعمارة الأرض، على النحو الذى ارتضاه فى شرعه المطهر : الاسلام الحنيف .

فكان على النبي صلى الله عليه وسلم حينئذ ما على المرسلين أجمعين من البلاغ المبين عن الله رب العالمين، وكان عليه من ذلك ما هو أكبر حظا وأكثر جهدا ، نظرا لشموليَّة رسالته ودوامها،فاقتضى منه ذلك أن يوجَّه إليه خطاب خاص يلزمه بالبلاغ،زائدا عن الخطاب العام المستفاد من مقتضى الرسالة فقال الله تعالى: ﴿ ياأيُّها الرَّسولُ بلِّغ ماأُنزلَ إليك من ربِّك وإن لم تَفعل فما بلَّغت رسالتَه والله يَعصمُك من الناس ﴾[سورة المائدة:٦٧] وذلك ليقوم بواجب البلاغ على أكمل وجه وأتمه،فلا يتوانى ولايقصر ولايفرط وإن كلفه ذلك ماكلفه ، والمعنى: (إن لم تبلغ القرآن أو ما أوحيت به إليك، أو شيئا مما حُمِّلته، تكن فى حكم من لم يبلغ شيئا من رسالته؛ لأن حكم الأنبياء وتكليفاتهم أشد ، وليس حكمهم كحكم سائر الناس الذين يُتجافى عنهم إذا خلطوا عملا صالحا وأخر سيئا)(١) .

ولاريب بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد كان قائما بذلك الواجب على أكمل وجه من يوم أن كلفه الله تعالى بالرسالة ، وأن هذا الخطاب إنما هو من باب قوله تعالى: ﴿ياأيُّها الذين آمَنوا آمِنوا بالله ورسولِه ..﴾[سورة النساء: ١٣٦] أى دوموا على الإيمان واثبتوا عليه ، فهو أمر للتأكيد لا للتأسيس؛ لأن الأيمان ثابت لهم بدليل وصفهم به، وكذالك حال النبي صلى الله عليه وسلم فى البلاغ ، والدليل على ذلك "أن هذه الآية من آخر ما نزل من القرآن، لأن سورة المائدة من أواخر السور نزولا ، وقد بلَّغ الرسول

---

(١) المفردات للراغب ص ٦٠ بتصرف يسير .

الرسول صلى الله عليه وسلم الشريعة وجميع ما أنزل إليه إلى يوم نزولها"(١) فدل ذلك على أن المراد به طلب الدوام "وأن الله تعالى أراد به قطع تخرص من قد يزعمون أن الرسول قد استبقى شيئا لم يبلغه ، أو أنه قد خص بعض الناس بإبلاغ شيء من الوحى لم يبلغه للناس ، كما تزعم الروافض لأنه لوترك شيئا منه لم يبلغه لكان ذلك مما أنزل عليه ولم يقع تبليغه"(٢) ، وذلك مستحيل فى حقه عليه الصلاة والسلام بمقتضى العصمة الكاملة التى منحه الله تعالى إياها.

مجالات البلاغ الذى أمره الله تعالى به:

والبلاغ الذى أمره الله تعالى به عام وشامل لكل ماتحتاج إليه البشرية فى عاجلها وآجلها،ودنياها وأخراها، سواء كان ذلك بوحي القرأن أو وحى السنة ، فشمل ذلك إبلاغ الدعوة إلى الله ، وإبلاغ القرآن ، وإبلاغ السنة ، إذ كل ذلك مما أنزله الله عليه من أمر الدين ، كما أفاد ذلك عموم الاسم الموصول (ما) (كما عمم من أراد تبليغهم حيث حذف المفعول الأول لبلغ ، ليعم الخلق المرسل اليهم والتقدير: بلغ جميع ما أنزل إليك من يحتاج إلى معرفته من أمر الدين الموحى به إليك) (٣) .

وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك البلاغ كله على وجه الكمال والتمام من يوم أن أنزل الله تعالى الرسالة وكلفه بالبلاغ بصدر سورة المدثر، فإنه من حينئذ قام بإبلاغ الدعوة وإبلاغ القرآن وإبلاغ السنة على حد سواء، لا يألو فى ذلك جهدا ولايدخر وسعا، حتى أتم الله له الدين وقمع به المشركين والمبطلين .

أما بلاغ الدعوة فقد قام به منذ أن كلفه ، حيث قام يدعو إلى الله على بصيرة ويبلغ مراد الله تعالى من خلقه إليهم بحكمة وأناة ليلا ونهارا .

---

(١) التحرير والتنوير ٦/٢٥٥، وانظر في هذا كتب التفسير كالبحر المحيط ٣/٥٢٩ .

(٢) التحرير والتنوير ٦/٢٦٠ .

(٣) التحرير والتنوير ٦/٢٦٠ بتصرف .

أسلوبه صلى الله عليه وسلم فى إبلاغه الناس برسالته إليهم:

وكان الأسلوب الذى اتبعه فى إبلاغه الدعوة إلى الله فى بادىء أمره،هو الدعوة سرا لما يعلمه من حال قومه فى الغلظة والجفاء،وخشيته أن يعوقوه عن إبلاغ رسالته التى حملها من أول أمره .

وكان لهذا الأسلوب الأثر الأكبر فى نجاح دعوته وبلاغ رسالته ، حيث لم يطل الأمد حتى التفَّ حوله عدد مبارك ممن آمن به وصدقه ، كان فى طليعتهم أبو بكر الصديق وخديجة بنت خويلد زوجته صلى الله عليه وسلم وزيد بن حارثة وعلي بن أبي طالب ، وبلال بن رباح وعبد الله بن مسعود (١) وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين ، وقد أسلم علي يد أبي بكر رضى الله عنه فى بادىء الأمر جماعة من شُبَّان مكة،الذين كان لهم شأن عظيم فى نجاح دعوته وظهور أمره كعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله(٢) رضي الله عنهم، وظلَّت الدعوة والبلاغ سرا بين المؤمنين نحو ثلاث سنوات حيث كان لايُدعى إلا من تُرجى إجابته ويُركن إلى عقله ، فدخل فى هذه الفترة نحو خمسين نفرا بين رجل وامرأة (٣) ، واختار النبي عليه الصلاة والسلام دار الأرقم بن أبي الأرقم لتكون مركز لقائهم،ومنتدى اجتماعهم، يبلِّغون فيها كلام الله تعالى، وتُوجَّه إليهم توجيهات رسول الله صلى الله عليه وسلم .

موقف قريش من الدعوة النبويه فى بادىء أمرها:

ولم تكن قريش فى هذه الفترة تتجرأ على اعتراض سبيلهم أو إيذائهم؛ لأنهم لم يجهروا بدعوتهم ولابتسفيه أحلامهم، فما كانت تظن إلا أن هذا الدين لايعدو ما كانت تعهده فى المتحنِّفين السابقين،من كونهم اختاروا لأنفسهم دينا يتعبدون به ، ولاسبيل لهم فى

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٢٧٧-٢٨٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ١/٢٨٨ .

(٣) انظرالسيرة النبوية لابن حبان ص ٦٨، وللذهبي ص ٧٨ .

الناس الآخرين ، فأمِنو بذلك جانبهم فى الجملة(١)، وإن كانوا قد تعرَّضوا لبعض الأفراد بالإيذاء من واقع التصلت العائلى ، أو الولاية للمستضعفين ، فلما تكونت القاعدة الأساسيه للانطلاقة بالبلاغ والدعوة إلى طور آخر، حيث فشا الإسلام بمكة،وأصبح غالب بيوت مكة تساهم فى بناء هذه القاعدة بالنفر أو النفرين أو الأسرة كلها، وأصبحت تضم أفرادا أولى بأس شديد كحمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما،عندئذ لم يكن بد من أن يأخذ النبي صلى الله عليه وسلم شكلا آخر من أشكال البلاغ والدعوة وذلك بالإعلان عن ذلك على رؤوس الملأ ودعوة الكافة إلى الإسلام .

الجهر بالدعوة والبلاغ :

فعندها أوحى الله تعالى إلى عبده ورسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بتشريع الانتقال بالدعوة والبلاغ إلى الجهر والأعلان ، وذلك بقوله سبحانه: ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾[سورة الشعراء : ٢١٤]فما أن نزلت حتى صعد الصفا فجعل ينادى: "يابنى فهر، يابنى عدي .. لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ ؟ قالوا : نعم ما جرَّبنا عليك إلا صدقا ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد" فقال أبو لهب لعنه الله: تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟! فنزلت: ﴿ تبَّت يدا أبِى لهبٍ وتب * ما أَغنى عنه مالُه وما كسب..﴾(٢)[سورة المسد:١،٢] فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم من حينئذ يشق طريق البلاغ العلنى والكفاح المضنى مع أشد أعداء الرسل عداء، وأكثرهم خبثا وإجراما، كما سمعت من هذا الرد السريع القبيح من أقرب الأقربين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان يجدر به أن يؤازره إن لم يكن تدينا، فحمَّية كما فعل أبو طالب ، وحيث

---

(١) انظر فقه السيرة النبوية للغزالي ص ١٠٠ .

(٢) تقدم تخريجه في مبحث الصدق ص ٤٠١ .

لم يفعل ذا ولا ذاك، فكان الأولى به أن يكف أذاه عن ابن أخيه ويتركه وشأنه كما كان يراه بعضهم، ولكن من يضلل الله فلا هادي له.

ولقد كان لهذا البلاغ المبين أصداء واسعة فى أوساط العالم أجمع، إذ برز للناس ما كان مكنوتاً، وتحقق ماكان يرجوه الرهبان والأحبار فى أقطار الأرض ، وما كانوا يتربصونه من ظهور النبي المبعوث فى البلد الأمين، من القوم الأمّيين، حيث كان بأعلى الصفا، وتسامع به الناس، وتذاكر فى دعوته الذين يغشون مكة من غير أهلها ، وبذلك انتشر صيت هذه البعثه المحمدية (١) بهذا البلاغ المبين الذى كان تمهيدا لإبلاغها إلى الناس أجمعين .

غير أنه لم يؤت ثماره المرجوة من إيمان أولئك الأقربين الذين يبلغون نحو الأربعين بين رجل وامرأة ممن اجتمعوا، إلا فى بعض نساء العشيرة الطاهرة كصفية عمته وفاطمة امرأة أبي طالب(٢) رضي الله عنهما، ولكن لم ييأس رسول الله صلى الله عليه وسلم من استجابتهم ، بل واصل إبلاغهم رسالة الله ودعوتهم للإيمان به والاستجابة له، غير وانٍ ولا يائس،ولا مكترث بعدائهم وعنادهم وأذيتهم ، فإنه يعلم أن ذلك من سنن المرسلين ، غير أنهم لم يبعدوا منه فى بادئ الأمر حيث لم يردُّوا عليه ، إلا ما كان من أبي لهب اللعين .

واستمروا على ذلك الصمت إلى أن عاب ألهتهم التى يعبدونها ، وضلَّل آباءهم الذين احتجوا عليه باتباعهم ، وسفه أحلامهم التى لم تميز بين الهدى والضلال ، فلما ذكر ذلك لهم اشتد عليهم الأمر ، وأجمعوا له الخلاف والعداوة والشر ، فحدَب عليه عمه أبو طالب ومنعه، وقام دونه وعرض نفسه للشر دونه،مع بقائه على دينه (٣) لحكمة أرادها الله تعالى

---

(١) انظر خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم لأبي زهرة ٤١٢/١ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣٥١/٣، وخاتم النبيين لأبي زهرة ٤١٢/١ .

(٣) انظر السيرة النبوية للذهبي ص ٨٤، وحدائق الأنوار في سيرة النبي المختار لابن الديبع الشيباني ٣٠٤/١، وطبقات ابن سعد ١٩٩/١ .

لا تخفى على المتأمل، وبعدئذ انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم بالبلاغ إلى طور آخر أوسع مدى ، وأكثر عددا وبلداء،كما هو مقتضى رسالته العامة الخاتمه ، وذلك حينما أنزل الله عليه: ﴿ فاصدع بما تُؤمر وأَعرض عن المشركين * إنَّا كفيناك المُستهزِئين * الذين يجعلون مع الله إلهًا أخرَ فسوف يَعلمون ﴾[سورة الحجر:٩٤-٩٦] فعندئذ نهض بأمر الله يبلغ عن الله تعالى(ليلا ونهارا ، سرا وجهارا ، لا يصرفه عن ذلك صارف ، ولا يرده عن ذلك راد ، ولا يصده عن ذلك صاد ، يتبَّع الناس فى أنديتهم ومجامعهم وفى المواسم ومواقف الحج وغيرها، يدعو من لقيه من حر وعبد ، وضعيف وقوي ، وغني وفقير ، جميع الخلق عنده فى ذلك على السواء)(٢).

الوسائل التى اتبعها النبي صلى الله عليه وسلم فى الدعوة والبلاغ:

متخذا فى ذلك كل وسيلة يمكن أن يبلغ بها رسالة الله تعالى بعد أن كان لا يبلغ إلا بوسيلة السر والدعوة الفرديه منه صلى الله عليه وسلم،أو ممن أسلم من الصحابة الكرام رضي الله عنهم :

١ – فتارة كان يدعوهم للاجتماع ويستنفرهم له ، كما فعل حينما أمره الله تعالى أن يبلغ عشيرته الأقربين.

٢ – وتارة كان يقوم بنفسه يصول ويجول فى تجمعات الناس ونواديهم وأسواقهم ونسكهم،يبلغهم رسالات ربه، ويطلب أن يحموه حتى يتسنى له إبلاغ رسالة الله على أكمل وجه كما ستأتى الأمثلة على ذلك عما قريب.

٣ – وتارة كان يقوم بتكليف من أسلم بتبليغ من لم يسلم كما أرسل مصعب بن

---

(١) وهي أن بقاؤه مع أهل مكة محترما للأوثان كان من أسباب امتداد نفوذه عليهم ورعاية حقوقه عندهم ولو أنه آمن لتنكروا له وناصبوه العداء و لم يرعوا له حقا ولا ذمة كما جرى لغيره من أولي السيادة والمكانة. انظر فقه السيرة للغزالي ص ١٠٣ .

(٢) البداية لابن كثير ٣/٤٥ بتصرف يسير

عمير (١) رضى ا لله عنه إلى المدينه يبلغهم الإسلام ويدعوهم إليه ، إلى غير ذلك من الصور الأخرى الآتى بيانها قريبا ، التى كانت النبي صلى ا لله عليه وسلم يحرص أن يبلغ بها رسالة ربه ، ليهدى الأمة الى الصراط المستقيم.

موقف قريش من النبي صلى ا لله عليه وسلم ودعوته بعد الجهر بالبلاغ والدعوة:

فلما اشتد نشاطه صلى ا لله عليه وسلم فى التبليغ والدعوة إلى الدين الحق،وترك عبادة الأوثان،وتسفيه أحلام عابديها ، عندئذ ناصبته قريش العداء ، وآذوه ومتبعيه أشد الإيذاء، وما تركوا حيلة يظنون أن ستنفعهم فى أن يثنوه عن رسالته إلا طرقوها: ﴿ يُريدون أن يُطفئوا نورَ ا للهِ بأفواهِهم ويأبى ا للهُ إلاَّ أن يُتمَّ نورَه ولو كره الكافرون ﴾[سورة التوبة:٣٢].

فقد آذوه أبلغ الأذى فصبر ، واستهزؤا به وسخروا منه واتهموه بأنواع البهتان فما انثنى ولا فتر ، وأغروه بالمال والسيادة فما التفت إلى ذلك ولا نظر ، وحاولوا أن يضغطوا عليه عائليا فما أثَّر فيه ولا انكسر ، واستعملوا سلاح المقاطعة الاقتصاديه ضده وضد عشيرته فخاب صنيعهم واندحر ، ولاحقوه فى النوادي والمجتمعات يثبطون دعوته ويخذِّلون الناس عنه فخيبهم ا لله ببيعات الأنصار الغُرر ، وحاولوا قتله بعد يأسهم من نجاح محاولاتهم السابقة فأقْمأهم ا لله ونجا وفاز بالظفر ، وهيهات أن يثنوه عن إبلاغ رسالته وهو المؤيد بغالب القُوى والقدر.

"إذ ما قريش ؟ وما العرب ؟ وما الدنيا كلها ؟ بازاء رجل يحمل رسالة من ا لله تعالى الذى له ملك السماوات والأرض يريد أن يعيد بها الرشد لعالم فَقد رُشده ، وأن يمحو بها الأوهام فى حياة مرَّغتها الأوهام فى الرُّغام ، وما تُجدى وقفةُ جهول أو غضبة مغرور فى منع هذه الرسالة الكبيرة من المُضيِّ إلى هدفها البعيد"(٢).

---

(١) ابن هاشم بن عبد مناف، كان من فضلاء الصحابة وسابقيهم إلى الإسلام، وناله أذى شديد من أهله وأمه بسبب إسلامه بعد أن كان في دلال ونعيم، وهاجر إلى الحبشة ثم عاد، بعثه النبي صلى ا لله عليه وسلم إلى المدينة ليعلمهم الإسلام بعد العقبة الأولى، وتوفي شهيدا يوم أحدا، انظر طبقات ابن سعد ١١٦/٣، وأسد الغابة ٣٦٨/٤ .

(٢) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ص ١٠٤ .

بدء الهجرة :

غير أنه لما اشتدت الوطأة على أصحابه،وخاف عليهم أن يفتنوا فى دينهم ، أذن لهم بالهجرة إلى الحبشة عند الملك العادل النجاشي، ليأمنوا فيها على أنفسهم ودينهم، أمَّا هو صلى الله عليه وسلم وجماعة كبيرة من أصحابه القويُّ إيمانُهم، أو المحميين بأقوامهم،فمكثوا بمكة يجهرون بالبلاغ إلى الأمة كافة والدعوة إليها للدخول فى دين الله جلَّ شأنه.

وقد كان عليه الصلاة والسلام فى بادئ الأمر محميًا بعمه أبى طالب،فكان يبلِّغ ويدعو ولا يصل إليه سوء يذكر،لحماية عمه له وحَدْبه عليه ، فما كان أحد يجرأ على أذيته لذلك،كما جاء فى الحديث «ما نالت منِّي قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب»(١).

فلما توفي أبو طالب ركنه القوي الملموس ، وزوجه خديجه وزيرة الصدق وكاشفة حزنه، تمكن الأعداء من مواصلة الأذية له بما لايقدر على حملها غيره ــ بنفسي هو وولدى ومالي وأبي وأمي صلى الله عليه وسلم ــ ولكنه مع ذلك هو بشر يحتاج الى أن يأخذ بالأسباب العادية التى تمكنه من إبلاغ رسالته،وذلك بالحماية البشرية من اضطهاد أعدائه البشر، بعد أن افتقد تلك الحماية الحانيه من شيخ قريش وعميدها الكبير عمه أبى طالب.

وروى ابن سعد من حديث حكيم بن حزام(أن أبا لهب تكفل بحمايته صلى الله عليه وسلم بعد موت أبى طالب وأنه قال له : «إمض لما أردتَ، وماكنتَ صانعا إذ كان أبوطالب حيا فاصنعه ، وقال له:لا واللَّات لا يوصل إليك حتى أموت» وذكر أنه سرعان ما نكث عهده لمَّا وشى له الواشون فى أن يسأله عن مصير أبيه عبد المطلب ، فلما أخبره الصادق الأمين أنه فى النار قال أبو لهب: والله لا برحت لك عدوا أبدا وأنت تزعم أن عبد المطلب فى النار،فاشتد عليه هو وسائر قريش(٢)).

---

(١) أخرجه ابن اسحاق من حديث عروة بن الزبير مرسلا، وسنده صحيح لولا الإرسال، انظر التعليق على فقه السيرة ص ١٢٩ .

(٢) انظر الرواية مطولة في طبقات ابن سعد ١/٢١١، والوفاء بأحوال المصطفى لابن الجوزي ١/٢١٠-٢١١.

بحثه صلى الله عليه وسلم عمن يحميه ليبلغ رسالة ربه:

فعندئذ شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ بالأسباب،فيبحث عمن يحميه من إيذاء قريش حتى يبلّغ رسالة ربه، فاتّجه نحو الطائف يطلب من هوازن وثقيف أن يحموه وينصروه حتى يبلغ رسالة الله تعالى إلى خلقه،فردُّوا عليه أقبح رد كما تقدم بيانه فى مبحث صبره(١) ، فرجع حزينا كسيفا - بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم - إذ لم يحقق مأربه ولم يسلم من الإيذاء ، وخشي بعد ذلك سطوة قريش إن هي علمت بخروجه لدعوة الناس إلى حربها، وقد رفضت ثقيف أن تكتم عنه ، حتى قال له زيد بن حارثة رضى الله عنه عند إرادته دخول مكة وكان رفيقا له فى سفرته هذه: كيف تدخل عليهم يا رسول الله وهم أخرجوك ؟ فأجابه صلى الله عليه وسلم بجواب مليء بالثقة بالله ونصره وتأييده قائلا :« يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه».

وقد حقق الله تعالى له ظنه فيه فدخل آمنا حيث قيض الله له من يحميه ويدفع عنه أذية المشركين، فقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى المُطعم بن عدي (٢) يعرض عليه أن يجيره حتى يبلغ رسالة ربه،فقبل مطعم بعد أن رفض ذلك من كان طلب منهما النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وهما : الأخنس بن شريق،وسهيل بن عمرو؛ لتخلّيهما عن الشهامة العربية، أما مطعم فإنه قال : نعم ، ودعا بنيه وقومه وقال لهم: تلبّسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت فإني قد أجرت محمدا ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام ، فقام مطعم بن عدي على راحلته فنادى: يا معشر قريش، إني قد أجرت محمدا فلا يهجه أحد منكم ، فانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الركن فاستلمه وصلّى ركعتين وانصرف إلى بيته

---

(١) ص ٤٣٠

(٢) ابن نوفل بن عبد مناف، كان من سراة قريش وساداتهم، وهو أحد الذين مزقوا الصحيفة الظالمة التي كتبتها قريش على بني هاشم، توفي سنة ٢ هـ، انظر الأعلام ٢٥٢/٧ .

و المطعم بن عدى وولده مطيفون به)(١).

ولقد حفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم للمطعم هذا الصنيع حيث تمنى يوم بدر أن يكون موجودا فيكافأه على معروفه هذا بإطلاق سراح أسرى قريش يومئذ لو كلمه فيهم ، كما أخرج البخارى من حديث جبير بن مطعم رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمنى فى هؤلاء النَّتنَى لتركتهم له(٢)" غير أن هذا الجوار لم يكن عاما كما يظهر ، بل كان مؤقتا بحمايته وقت دخوله ، وخاصا به لا بدعوته، لذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بعدئذ يعرض نفسه على القبائل فى المواسم والأسواق والنوادي، ليؤمنوا به ولينصروه حتى يبلّغ رسالة الله تعالى، ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من الهدى والرحمة، لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده(٣).

وفى الترمذى من حديث جابر رضى الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه بالموقف فقال: "ألا رجلٌ يحملنى إلى قومه ، فإن قريشا قد منعونى أن أبلِّغ كلام ربى"(٤) .

---

(١) أخرج القصة ابن سعد في الطبقات ٢١٢/١ بسنده إلى جبير ين مطعم بأبسط مما هنا، وذكرها الحافظ ابن كثير في البداية ١٣٧/٣، وابن الديبع في حدائق الأنوار ٣٤٦/١-٣٤٧، ورواه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ١٧٢/٢، والبيهقي في الدلائل ٤١٤/٢، من طريق ابن شهاب الزهري بإسناد رجاله ثقات غير أنه مرسل .

(٢) البخاري في الخمس، باب ما منَّ النبي صلى الله عليه وسلم على الأسرى من غير أن يخمس ١١١/٤، وفي المغازي ١١٠/٥ .

(٣) سيرة ابن هشام ١٧٤/٢ نقلا عن ابن إسحاق .

(٤) في فضائل القرآن، باب رقم ٢٤، وقال الترمذي عنه: غريب صحيح .

مطاردة قريش النبي صلى الله عليه وسلم فى مواقف دعوته:

غير أن قريشا لم تترك له شأنه والناس ، بل استمر عنادها وضلالها فى صد الناس عن تصديقه ، وتخذيلهم عن ذلك ليشاركوهم فى الضلال، فأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل، فقد كان أبو لهب لعنه الله يقفو أثر النبي صلى الله عليه وسلم فكلما أتى قوما ودعاهم إلى الله كذبه وحذرهم منه (١).

ولقَّنهم الوليد بن المغيرة كلاما يقولونه لمن يقدم مكة من أهل المواسم ليحذروه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أن يقولوا لهم: إنه ساحر، فأكذبه الله تعالى بآيات كتابه الكريم حيث قال جل شأنه: ﴿ كلَّا إنَّه كان لآياتِنا عنيدا * سأُرهقُه صَعودا * إنَّه فكَّر وقدَّر * فقُتِل كيف قدَّر * ثم قُتِل كيف قدَّر* ثم نَظر * ثم عبسَ وبَسر * ثم أدبرَ واستكبر * فقال إنْ هذا إلَّا سحرٌ يؤثر * إن هذا إلا قولُ البشر * سأُصليه سقَر..﴾[سورة المدثر:١٦-٢٦] ومعلوم أن الغريب إذا قدم بلدا ثم حذروه أهلها من أمرها ، لا شك أنه سيحذر منه لأنه يرى أن أولئك الذين حذروه هم أدرى الناس به ، فلاشك أنه سيأخذ كلامهم مأخذ الجد، وسينفر مما حذر فيه نفور الإبل، إن لم يكن عن ثقة بما أُخبر فللشك فى أمره.

وهذا ما كان يحدث له عليه الصلاة والسلام وصدق الله إذ يقول: ﴿ إنَّ الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله قد ضلُّوا ضلالاً بعيدا ﴾[سورة النساء:١٦٧] .

غير أنهم مع ذلك الجهد الذى بذلوه فى الصد عن دين الله وشرعه القويم ، لن يستطيعوا مغالبة قدر الله وإرادته الأزلية فى نصرة هذا الدين وظهوره ولو كره المشركون

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٢١٦/١ ففيه أنه صلى الله عليه وسلم كان يوافي المواسم كل عام يتبع الحجاج في منازلهم في المواسم بعكاظ، ومجنة، وذي المجاز، يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة، فلا يجد أحدا ينصره ولا يجيبه، حتى إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول: (يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتذل لكم العجم، وإذا آمنتم كنتم ملوكا في الجنة) وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابيء كاذب، فيردون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبح الرد ويؤذونه ويقولون: أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك، ويكلمونه ويجادلونه، ويكلمهم ويدعوهم إلى الله ويقول: (اللهم لو شئت لم يكونوا هكذا) ا.هـ .

فـــإنَّـــــهم وإن أرادوا أن يطفؤا نور الله بأفواههم ، فإن الله متـم نـوره ولـو كـره الكافرون ، وقد كان ذلك على يد من اختارهم الله للقيام بهـذه المهمـة وأعدهـم لهـا وهـم الأنصار رضي الله عنهم وأرضاهم.

دعوته صلى الله عليه وسلم الأنصار وقبولهم ذلك:

فإن الله عز وجل لما أراد إظهار دينه وإعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم، وإنجاز وعده له، ساق إليه هذا الحي من الأنصار لِمَا أراد الله به من الكرامة ،

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على قبائل العرب كما كـان يصنـع فى كل موسم ، فـانتهى إلى نفـر منهـم عنـد العقبـة وهـم يحلقـون رؤوسـهم،فجلـس إليهـم فدعاهم إلى الله،وقرأ عليهم القرآن فاستجابوا لله ورسوله،فأسـرعوا وآمنـوا وصدَّقـوا وآووا ونصروا وواسوا وقالوا :« إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشـر مـا بينهـم(١)، فعسى أن يجمعهم الله بك،فتقدم عليهم فتدعوهم الى أمرك،وتعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك »ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى بـلادهم وقد آمنوا وصدقوا(٢) .

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليـه وسـلم، ودَعوهـم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيه ذكر مـن رسـول الله صلـى الله عليه وسلم.

فلما كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا ، فلقوا النبي صلى الله عليـــه

---

(١) يعني لما كان بينهم من الحروب الطاحنة المستمرة التي كان آخرها يوم بعـاث، لحكمـة أرادهـا الله تعـالى، وفي البخاري ٣٨/٥ من حديث عائشة رضي الله عنها:(كان يوم بعاث يوما قدمـه الله لرسـوله صلـى الله عليـه وسلم) فقدم رسول الله صلى الله عليـه وسـلم وقـد افـترق ملؤهـم، وقتلـت سـراتهم وجرحـوا، فقدمـه الله لرسوله في دخولهم في الإسلام .

(٢) انظر طبقات ابن سعد ٢١٧/١، وسيرة ابن هشام ١٧٦/٢ .

وسلم بالعقبة فبايعوه وكانت تلك بيعة العقبة الأولى على (ببيعة النساء(١)) وذلك قبل أن تفرض الحرب بل كان جميع ذلك قبل نزول الفرائض ماعدا التوحيد والصلاة (٢).

فبعث النبي صلى الله عليه وسلم معهم مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن، ويعلمهم الاسلام ويفقههم فى الدين، فأسلم على يديه بشر كثير، بحيث لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيه رهط من المسلمين يظهرون الاسلام.

بيعة العقبة الثانية :

فلما كان العام القابل رجع إلى مكة وخرج من خرج من الأنصار المسلمين مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته والنصر لنبيه،واعزاز الإسلام وأهله،وإذلال الشرك وأهله.

فلما كانت ليلة الموعد اجتمعوا ليبايعوه على الحماية والنصرة حتى يبلغ رسالة ربه ففى حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما فى**قصة** البيعة قال:« ..فواعدناه شعب العقبة فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين حتى توافينا ، فقلنا:يا رسول الله علام نبايعك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "تبايعونى على السمع والطاعه فى النشاط والكسل ، والنفقه فى العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن تقولوا فى الله لا تخافون لومة لائم، وعلى أن تنصرونى فتمنعونى إذا قدمت عليكم ما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة" قال: فقمنا إليه فبايعناه ، وأخذ بيده أسعد بن زُرارة وهو من أصغرهم فقال:رويدا يا أهل يثرب،فإنا لم نضرب أكباد الأبل إلا ونحن نعلم أنه

---

(١) سميت بذلك لكونها على وفق بيعة النساء التي نزلت بعد الفتح، وهي،أن لايشركوا بالله شيئا، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه من بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصوه في معروف، وقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمرُكم إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر. انظر سيرة ابن هشام ١٨٥/٣، ووفاء الوفاء للسمهودي ٢٢٤/١ .

(٢) وفاء الوفاء للسمهودي ٢٢٤/١ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنَّ إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم، وأن تعضّكم السيوف ، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فبيِّنوا ذلك فهو عذر لكم عند الله، قالوا: أمط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبدا ولا نسلبها أبدا، قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط ويعطينا على ذلك الجنه"(١).

بدء الهجرة الى المدينة:

فلما تمت تلك البيعة المباركة طفِق رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث المسلمين إلى هذه الديار المؤمنة ليعبدوا فيها ربهم ويكوِّنوا بها دولتهم بعد أن اشتد الأذى عليهم من قريش حينما علمت ببيعة العقبة ، ليجهضوا هذا الحدث العظيم قبل أوانه بحسب رأيهم الضعيف ، ولم يعلموا أن الله قد كتب على نفسه أن ينصر رسله والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وأنه سيتم نوره ولو كره الكافرون ، فما هى إلا بُرهة من الزمن حتى غدت دور مسلمي مكة موحشة خلاء ، قد ارتحل أهلها إلى المدينة حيث إخوانهم فى الدين، تاركين أثقالهم وبيوتهم وأموالهم وأهليهم من أهل الشرك،أو الذين منعوا من الهجرة من المسلمين ممن حبس أو فتن فى دينه.

ثم وليَهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق رضى الله عنه ، بعد أن رد الله كيد الكافرين فى محاولتهم الخبيثه لاستئصال الرسالة المحمديه من أساسها بمكرهم الغادر البائر فى اغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان ذلك عين النصر له، إذ آذنه الله بالهجرة التى قضَّت مضاجعهم، وأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، فكانت سببا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/٣٢٢، ٣٢٩، ٣٩٤، والحاكم في المستدرك ٢/٦٢٤، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ٣/١٦٠، وقال: إسناده جيد على شرط مسلم، والحافظ في الفتح ١٥/٧٥، وقال: رواه أحمد بإسناد حسن،وصححه الحاكم وابن حبان .

وذكره الذهبي في السيرة النبوية ص ٢٠٠، وانظر: زاد المعاد ٣،٤٨، والسيرة النبوية الصحيحة للعمري ١/١٩٨-٢٠١ .

أساسيا لإبلاغ رسالة الله وإعلاء كلمته التى جهدوا فى إطفائها ، فخيبهم الله وأذلهم وقطع دابرهم بما آتى الله نبيه وعباده المؤمنين بعد ذلك من النصر المبين والعز والتمكين ، ابتداء من يوم أن أذن الله تعالى لهم بالجهاد الدفاعي بقوله سبحانه: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِين يُقاتَلون بأَنَّهم ظُلِموا وإنَّ الله على نصرِهم لقدير ﴾[سورة الحج:٣٩] وذلك بعد أن تحصنوا بعاصمتهم،وأصبحوا ذوى عدد وعُدةً ومنعة،فتمكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك من البلاغ المبين أيما تمكين، انطلاقا من المدينة العاصمه الحصينه،وبحماية من فيها من أولى الأيد والقوة والعزيمة والبأس،من الأنصار والمهاجرين رضى الله عنهم أجمعين، وعندئذ قام عليه الصلاة والسلام بتبليغ رسالات ربه على أكمل وجه وأتمه وأفضله،لا يفتر عن ذلك ليلا ولا نهارا ولا يشغله عن ذلك شاغل ، يبلغ القرآن ويدعو إلى الله ، ويجاهد فى سبيله، حتى أتاه اليقين بعد مضي عشر سنين من مُهاجره صلى الله عليه وسلم، ولكن بعد أن بلَّغ البلاغ المبين.

وسائل التبليغ التى اتبعها النبي صلى الله عليه وسلم فى المدينة:

ولقد كان له صلى الله عليه وسلم وسائل كثيرة للبلاغ والدعوة بعد هجرته وقيام دولته الفتيَّة العظيمة، فإضافة إلى ما كان يقوم به صلى الله عليه وسلم من البلاغ فى مثل الصور السابقة فى هذه الفترة، أضاف إلى ذلك:بعث البعوث فى تبليغ رسالة الله والدعوة إلى دينه القويم، وتكليف الوفود القادمة عليه بذلك،ومكاتبة ملوك الأرض لإبلاغهم رسالة الله تعالى ودعوتهم إلى الإيمان به،أو لتقوم عليهم الحجة إن لم يستجيبوا.

بعث البعوث لإيصال البلاغ والدعوة :

فإنه عليه الصلاة والسلام بعد أن أرسى قواعد دولة الإسلام من القرار فى عاصمة انطلاق البلاغ والدعوة ، وبعد تكوين الكُماة الأبطال،لحماية الإسلام وأهله وعاصمته، والبلاغ به والدعوة إليه.

عند ذلك أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يبعث البعوث لإبلاغ رسالات الله والدعوة إليه وجهاد من أبى وعاند، ابتداء من أول سنيِّ هجرته المباركة على رأس سبعة أشهر منها، ببعث حمزة بن عبدالمطلب إلى ساحل البحر لاعتراض عير لقريش التي حادت

الله ورسوله واستولت على أموال المهاجرين منها(١) ، إلى آخر سني حياته ببعث أسامة ابن زيد إلى (مؤته)(٢) حيث استشهد أبوه زيد وهو في جهاد الدعوة والبلاغ،وقد كان عليه الصلاة والسلام إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً،ثم يقول لهم: "اغزوا باسم الله في سبيل الله ، وقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغُلُّوا ، ولا تَغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم :

١ – ادعهم إلى الأسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم .

٢ – ثم ادعهم الى التّحول من دارهم الى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فان أبوا أن يتحولوا عنها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين،يجرى عليهم الذى يجرى على المسلمين ، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين .

٣ – فان هم أبوا فسلهم الجزية ، فان أجابوك فاقبل مهنم وكف عنهم ،وان أبوا فاستعن بالله وقاتلهم ...»(٣) .

---

(١) وكان على عير قريش أبو جهل في ثلاثمائة راكب في قافلة لهم آيبة من الشام بتجارة، وكان حمزة رضي الله عنه في ثلاثين راجلا من المهاجرين، فلما التقوا تصافُّوا للقتال فحجز بين الفرقين مجدي بن عمرو الجهني، فأطاعوه وانصرفوا، فشكر صلى الله عليه وسلم مجديا على ذلك لما كان من قلة عدد المسلمين وكثرة عدوهم، وكانت هذه السرية في شهر رمضان من السنة الأولى من الهجرة، انظر زاد المعاد ١٦٣/٣، ونور اليقين للخضري ص ١٠٠ .

(٢) بالضم ثم واو مهموزة ساكنة وتاء مثنة فوقية، قرية من قرى البلقاء في حدود الشام، معجم البلدان ٢١٩/٥ .

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد، باب تأمير الإمام الأمراء ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها ١٣٩/٥ برقم ١٧٣١، وأبو داود في الجهاد برقم ٢٦١٢، ٢٦١٣، باب دعاء المشركين، والترمذي في البر، باب ما جاء في وصيته صلى الله عليه وسلم في القتال برقم ١٧١٦ كلهم من حديث بريدة رضي الله عنه .

فترى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد جعل أول مهام مبعوثيه لإعلاء كلمة الله هي الدعوة إلى الإسلام الذى بعثه الله تعالى به،لتتفيأ البشرية ظلاله ناعمة فى الدنيا والآخرة، فإن رفضوا ذلك فلهم وما يختارون من دين، لكن على أن يعطوا الجزية لمن يحميهم وهم المسلمون الذين كتب الله لهم العزة،وجعل لهم حق الوصاية والحماية على البشرية إن هي لم تؤمن،يعطوها عن يدوهم صاغرون، فإن رفضوا ذلك نابذهم على سواء،واستعان عليهم بالله تعالى القادر القاهر،الآمر بذلك؛ لأنهم بذلك أرادوا مكابرة الحق ودفعه ، ومحاربة الخالق وجنده ﴿ ولَقد سَبقت كلمتُنا لعبادنا المرسَلين * إنَّهم لَهم المنصُورون * وإنَّ جندنا لهم الغالبون ﴾[سورة الصافات:١٧١-١٧٣].

حاله صلى الله عليه وسلم مع من قد بلغتهم الدعوة من أهل الجزيرة :

ولذلك لما كان غالب ساكني الجزيرة العربية، حاضرها وباديها من عرب ويهود ، قد بلغتهم بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ببلاغه لهم فى أسواقهم ونواديهم ونسكهم ، فى عُكاظ(١) ومِجَنَّة(٢) وذِى المجاز(٣) ومِنى ونحوها من مواطن تجمع العرب فى أسواقهم الحولية ، ومواسمهم النسكية،ومع ذلك أصروا على الكفر وعدم الاستجابة لله ورسوله بل حاولوا جاهدين محاربته وإطفاء نور الاسلام الذى أتى به .

لما كانوا كذلك بادرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجهاد غزوا لهم فى ديارهم تارة، ودافعا لهم عن مهاجمته تارة أخرى، كما هو معلوم من غزواته وبعث سراياه ، وكما سيأتى بيانه فى المباحث القادمة إن شاء الله تعالى.

إبلاغه صلى الله عليه وسلم من لم تبلغهم الدعوة :

أما من لم تبلغهم الدعوة ، ولم يحاولوا محاربته صلى الله عليه وسلم وذلك كالبلاد النائيه عن محل البعثه، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يبعث إليهم البعوث يبلغونهم رسالة الله تعالى

---

(١) عكاظ: واد بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال، مراصد الاطلاع ٩٥٣/٢ .

(٢) مجنة قيل: هي بمر الظهران، وهو على مرحلة من مكة، وقيل غير ذلك. انظر المرجع السابق ١٢٣١/٣ .

(٣) ذو المجاز: خلف عرفة على ناحية كبكب، عن يمين الإمام على فرسخ، انظر المرجع السابق ١٢٢٩/٣ .

ليَسلموا بها ويُسلموا ، أو يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وإلا آذنهم بالمناجزة، ويبلغهم ذلك إما ببعث رسل يتولون مهمة البلاغ والدعوة ، وإما بكتب صُحبة رسل يختارهم لتلك المهام:

أ ـ أما بعث الرسل فكما بعث إلى اليمن معاذ بن جبل رضى الله عنه وقال له : "إنك ستأتى قوما أهل كتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إلٰه الا الله وأن محمدا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإيَّاك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب" .

وفى رواية قال له: "إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ماتدعوهم إليه عبادة الله عز وجل، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى يومهم وليلتهم ، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة .."(١) وذكر نحوه .

ونلاحظ أنه صلى الله عليه وسلم لم يأمره بالخطوتين التاليتين للدعوة للإيمان بالله؛ وهما طلب الجزية أو الإيذان بالجهاد، ولعل ذلك كان مما أعلم الله به نبيه محمداًصلى الله عليه وسلم باستجابتهم لدعوة الإيمان من غير تردد ، فلم يحتج إلى أن يأمره بما لم يحتج إليه عند هؤلاء القوم .

ب ـ وأما بعث الكُتب فقد كان صلى الله عليه وسلم يبعث بها مع رسله إلى ملوك الأرض وعظمائها منذ أن تيسر له ذلك بإقامة دعائم دولة الاسلام، وقد كان يدعوهم فيها إلى الإسلام، ويرغِّبهم فيهابقاء ملكهم عليهم إن هم أسلموا، فإن امتنعوا من ذلك خيَّرهم بين الجزية والجهاد كما يتضح من المكاتبات التالية :

١ – فقد كتب إلى هرقل عظيم الروم قائلا له: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع ٢٠٦/٥، ومواضع أخر، ومسلم في الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام برقم ١٩ .

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الاسلام: أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيّين(١) ، و﴿ يا أهلَ الكتاب تعالَوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينَكم ألاَّ نَعبدَ إلا الله ولا نُشركَ به شيئًا ولا يتَّخذ بعضُنا بعضًا أربابا من دونِ الله فإن تَولَّوا فقولوا اشهدوا بأنَّا مسلمون ﴾(٢)[سورة آل عمران:٦٤].

٢ - وكتب إلى كسرى يقول له: "بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهُدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إلهَ إلا الله وحده لاشريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، أسلم تَسلم ، فإن أبيتَ فعليك إثم المجوس(٣)...".

٣ - وكتب الى ملك عُمَان كتابا يقول فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - إلى جيفر وعبد ابني الجُلندى ، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوكما بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما ، فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، فإنكما إن أقررتما بالإسلام ولَّيتكما، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن مُلككما زائل عنكما، وخيلي تحلُّ بساحتكما

---

(١) هم الخدم والخول كما قال أبو عبيد، وقيل: هم الأكَّارون، وهم عبدة النار، كما قاله ابن الأعرابي، وذلك لأنه يصدهم عن الدين لطاعتهم إياهم. انظر النهاية ٣٨/١ .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام والنبوة .. ٥٧/٤ ؛ ومسلم في الجهاد، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام برقم ١٧٧٣ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) انظر إعلام السائلين من كتب سيد المرسلين لابن طولون الدمشقي ص ٦٠، وشرح المواهب ٣٤٠/٣، وأصله في البخاري من حديث ابن عباس ٥٤/٤ .

وتظهر نبوتى على ملككما (١)...".

إلى غير ذلك من مكاتباته الكثيرة التى كانت على هذا النحو من البلاغ والإنذار ليهلك من هلك عن بينه،ويحيا من حيى عن بينة ، فقد قال أنس رضى الله عنه: "إن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النَّجاشى وإلى كل جبَّار عنيد يدعوهم الى الله عز وجل"(٢).

وهكذا كان صلى الله عليه وسلم يبلغ الدعوة لا يألُو جهداء،ولا يدخرُ وسعا فى إبلاغها ليلا ونهارا ، سرا وجهارا وبكل وسيلة يمكن أن يوصل بها البلاغ والدعوة إلى العالَمين، وكل ذلك ينبئ عن مدى حرصه صلى الله عليه وسلم على إبلاغ رسالات الله لأجل أن يهدى عباد الله إلى صراط الله العزيز الحميد.

إبلاغ القرآن :

أما إبلاغه القرآن فقد كان أيضا على ذلك النحو من الجهد والمثابرة والعناية؛لأن الله تعالى قد أرشده إلى ذلك بوجه خاص حيث قال له: ﴿ وقرآنًا فرقناه لِتَقرأَه على النَّاس على مُكث ونزَّلناه تَنزيلا ﴾[سورة الاسراء : ١٠٦] أي: لتبلغه الناس وتتلوه على مَهَل لتكون ألفاظه ومعانيه أثبت فى نفوس السامعين(٣) .

فقام بذلك حق القيام ، فكانت له به عناية خاصة فى تعليمه وإذاعته ونشره، فهو

---

(١) انظر عيون الأثر لابن سيد الناس ٢/٢٦٦-٢٦٧، وشرح المواهب ٣/٣٥٢، وزاد المعاد ٣/٦٩٣، وإعلام السائلين ص ٩٢، وطبقات ابن سعد ١/٢٦٢، ونصب الراية للزيلعي ٤/٤٢٣ .

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد، باب كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل برقم ١٧٧٤، وانظر كتبه إلى أولئك فيأعلام السائلين الآنف الذكر، وفي طبقات ابن سعد ١/٢٥٨ـ٢٩٠، ونصب الراية في تخريج أحاديث الهداية للزيلعي ٤/٤١٨-٤٢٥، وزاد المعاد في هدي خير العباد ٣/٦٨٨ـ٦٩٧ .

إلى غير ذلك من كتب المغازي والسير والحديث وغيرها .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/٦٨، والتحرير والتنوير ١٥/٢٣١ .

يقرؤه لهم على مكث لو عدَّه العادُّ لأحصاه،ترتيلا كما أمر الله، ويسمعهم إياه في الخطب والصلاة وفي الدروس والعِظات والدعوة والإرشاد، وفي الفتوى والقضاء، ويدارسهم إياه فيسمع منهم ويسمعون منه ، ومن لم يكن حاضرا لديه كأهل البلاد المختلفه أرسل إليهم بعثات القراء ليعلموهم إياه ويفقهونهم به، كما هو معلوم من رسالته وسيرته وسننه(١) .

كتابة القرآن وكتبته بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم:

وقبل ذلك كله كان لا يكاد ينفك عنه الوحى حتى يقرأه على الناس ويدعو كتبة الوحي فيكتبوه، فيما يسهل لهم من العُسب واللّخاف والرقاع وقِطع الأَديم(٢)، وعظام الأكتاف والأضلاع ونحوها ، ثم يحفظ في بيته ليكون وثيقة لحفظه وحفظ أصحابه كما هو مبين في مظانه من كتب السيرة والسنة المشرفتين.

فعن زيد بن ثابت(٣) رضى الله عنه قال : كنت أكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته بُرَحاء شديدة ، وعرِق عرقا شديدا مثل الجُمان(٤) ، ثم يُسرَّى عنه، فكنت أدخل عليه بقطعة الكتف أو كسرة فأكتب وهو يملى

---

(١) انظر مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني ٣٠٧/١ .

(٢) العسب: جمع عسيب: وهو جريد لنخل، واللخاف: جمع لخفة بفتح اللام وسكون الخاء، وهي الحجارة الرقيقة، والرقع: جمع رقعة، وتكون من جلد أو ورق أو كاغد أو نحوها .

(٣) ابن الضحاك الأنصاري النجاري المدني الفرضي الكاتب، كان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وشهد معه الخندق وما بعدها، وكان قد رده يوم بدر ويوم أحد لصغره، وكان يكتب الوحي والمراسلات للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يكتب لأبي بكر وعمر من بعده، وهو أحد الثلاثة الذين جمعوا المصحف بأمر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ومناقبه كثيرة، توفي سنة ٥٤ هـ، بالمدينة، وقيل في تاريخ وفاته غير ذلك، انظر طبقات ابن سعد ٣٥٨/٢، وأسد الغابة ٣٢١/٢، والاستيعاب بهامش الإصابة ٥٥١/١، والإصابة ٥٦١/١ .

(٤) الجمان: هو اللؤلؤ الصغار، وقيل: هو حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ، النهاية ٣٠١/١ .

عليَّ، فما أفرغ حتى تكاد رجلى تنكسر من ثقل القرآن حتى أقول : لا أمشى على رجلى أبدا، فإذا فرغت قال: اقرأ فأقرأه، فإن كان فيه سقط أتمَّه ثم أخرجُ به إلى الناس(١)".

وعنه رضى الله عنه قال : كنت جار رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان إذا نزل الوحي أرسل إلي فكتبت الوحي، وكان إذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا..."(٢).

وكان إذا لم يجد زيدا أمر غيره ممن يكتب الوحى فيكتبه ، فقد كان له صلى الله عليه وسلم جمع غفير من كَتَبة الوحى فى مكة والمدينة ، ففي مكة كان يكتب له أبو بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان بن عفان وعلي بن أبى طالب وغيرهم رضي الله عنهم، وانضاف إليهم فى المدينة عدد كبير من الكتبة الذين اصطفاهم النبي صلى الله عليه وسلم لكتابة الوحى أو المهام الأخرى التى يريد كتابتها من مراسلات وإقطاعات ونحوها ، كأُبيّ ابن كعب وزيد بن ثابت ومعاوية والزبير بن العوام وخالد بن الوليد وعبدا لله بن رواحة وعمرو بن العاص وغيرهم رضى الله عنهم . وكان صلى الله عليه وسلم يأمرهم بوضع آية كذا فى سورة كذا بعد آية كذا،كما علَّمه جبريل عليه السلام، وبذلك تظاهرت الكتابة مع الحفظ، لحفظ القرآن الكريم تحقيقا لوعد الله تعالى بحفظه حيث قال: ﴿ إنَّا نحنُ نزَّلنا الذِّكر وإنَّا له لحافظون ﴾[سورة الحجر : ٩].

وكانوا جميعا على رتبة عالية من الأمانة والثقة والمكانة والاعتماد عند النبي صلى الله عليه وسلم المؤيد بالوحي فى هذه المهمة الخطيرة ، وكانوا جديرين بذلك لأمانتهم

---

(١) عزاه الهيثمي في المجمع ١٥٧/١ إلى الطبراني في الأوسط، قال: ورجاله موثقون إلا أن فيه: وجدت في كتاب خالي،فهو وجادة، وأخرجه ابن أبي داود في المصاحف ص ٧ ولم يذكر وجادة .

(٢) أخرجه الترمذي في الشمائل برقم ٣٢٦، وابن سعد في الطبقات ٣٦٥/١، والبغوي في الأنوار برقم ٢٩١، وعزاه الهيثمي إلى الطبراني قال: وإسناده حسن. ا.هـ مجمع الزوائد ٢٠/٩ .

ووثاقتهم وحذقهم فى الهجاء والكتابة(١) .

ثم كان يقوم الصحابة رضي الله عنهم بكتابته لأنفسهم ، واستظهاره فى قلوبهم ، وتبليغه من لم يبلغه منهم،وكانوا رضوان الله عليهم فى حال عال من الحرص على جمعه وحفظه، بحيث لم يكن مثل ذلك لأحد غيرهم، فقد كانوا يتناوبون ملازمة النبي صلى الله عليه وسلم إذا لم يتمكن أحدهم من ذلك بشغل أوجهاد ، فإذا ظفروا بجديد من القرآن لم يبرحوا حتى يحفظوه ويكتبوه إن تيسر لهم..(٢) .

فهكذا كان عليه الصلاة والسلام يبلغ القرآن الكريم بكل جهده،وطاقته وفى كل أوقاته وأحواله.

تبليغه صلى الله عليه وسلم للسنة:

وأما تبليغه صلى الله عليه وسلم للسنة فما كان أقل شأنا من إبلاغ الدعوة وإبلاغ القرآن،بل كان مسايرا لهما فى كل أطوار البلاغ والدعوة على حد سواء؛ لأن السنة هى من الوحي الذى أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم كما قال الله تعالى: ﴿ وما يَنطقُ عن الهوى*إن هو إلاَّ وحيٌ يُوحَى ﴾[سورة النجم : ٣،٤] وإن غايرت وحي القرآن فى أمور كثيرة(٣) فإنها تتفق معه فى التشريع ، وتزيد عليه فى إيضاح القرآن الكريم وبيانه،كما

---

(١) انظر توثيق نصوص القرآن لخالد عبد الرحمن العك ص ٤٥-٤٨ .

(٢) انظر تفصيل ذلك في مناهل العرفان لمحمد عبد العظيم الزرقاني ١/٣١٣، والبرهان للزركشي ١/٢٣٣-٢٤١، والإتقان للسيوطي ١/٥٧-٦٤ .

(٣) وهي عشرة على خلاف في بعضها، جمعها الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن الإمام العلوي في كتابه طلعة الأنوار ص ٢٢-٢٦ **بقوله:**

فالطَّرفُ الأعلى من الإعجاز ... مما به القرآن ذوامتياز

كذاك حفظه من التبدل ... ومنعه للمحدث المغتسل

ومنعه تلاوة للجنب ... في كل حرف منه عشرا أوجب

وفي صلاتنا له تعيُّن ... تخصيصه باسم القرآن بين =

ناط بها الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ وأَنزلنَا إليكَ الذِّكرَ لِتُبيِّن للنَّاس مانُزِّل إليهم ولعلَّهم يتفكَّرون ﴾[سورة النحل:٤٤] وكونها تبين كلام الله يقتضي أن تكون من عند الله؛ لأنها تبين مراده من كلامه لخلقه، ولا يكون ذلك إلا بما يوحى به إلى نبيه إذ هو العالم بكلامه ومراده منه على وجهه،فاقتضى ذلك أن تكون وحيا يوحى، كما أفادت الآية الكريمه وأوضحه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "..ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه"(١) ولذلك كانت سنته صلى الله عليه وسلم واجبة الطاعة والامتثال ككلام الله تبارك وتعالى، كما ألزم الله تعالى بقوله: ﴿وما آتاكم الرسولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانتَهوا﴾ [سورة الحشر : ٧] بل إنه سبحانه قرن طاعته بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم،فلا تقبل طاعةٌ لِلّه مع معصيةٍ لرسوله صلى الله عليه وسلم كما قال سبحانه: ﴿ وأطيعوا اللهَ والرسولَ لعلَّكم تُرحمون ﴾[سورة آل عمران:١٣٢] وكما قال: ﴿ منْ يُطعِ الرسولَ فقد أطاعَ الله ﴾[سورة النساء:٨٠] وكما قال سبحانه: ﴿ وأطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ واحذرُوا فإنْ توليتُمْ فاعلموا أنَّما على رسولِنا البلاغُ المبين ﴾[سورة المائدة:٩٢] .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي توجب طاعته صلى الله عليه وسلم كما توجب طاعة الله تبارك وتعالى، وما ذلك إلا لأن مايأتي به رسول الله صلى الله عليه وسلم هو من عند الله بالوحي الجلي أو الخفي،أو الاجتهاد المؤيد بإقرار الله تعالى له فينزَّل منزلة الوحي، إذ لو لم يقره لنقضه أو تعقبه كما حدث في قصة أسارى بدر،

فلهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يُعنى بإبلاغ السنة كما يعنى بإبلاغ القرأن، بل

= والنقل بالمعنى على المنصور ورأي الأربعة والجمهور

ومنع بيعه لدىَ ابن حنبل وكرهه لدى ابن شافع جلي

جُمله الآي وتُسمَى سورا ولا كذا الحديث فيما غيرا

(١) جزء من حديث أخرجه أبو دواد في السنة، باب لزوم السنة برقم ٤٦٠٤، وأحمد في المسند ٤/١٣٠-١٣٢، وابن ماجه في المقدمة، باب تعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم رقم ١٢، كلهم من حديث المقدام بن عمرو بن معديكرب رضي الله عنه وإسناده حسن .

إن إبلاغه السنةَ كان أوسع دائرة من حيث إنه لايمضى عليه حال من الأحوال إلا وهو محتاج إلى أن يبين ما يستجد فيه من حُكم أو موعظة أو قصة أو مثل، إذ القرآن يعنى بجوامع الأمور ، وأصول التشريع ، وقواعد الأحكام، ويتولَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيان دقائق الأخبار وتفاصيل الأحوال فى كل الأحيان والأحوال، بل غالبه مجمل أوكل الله بيانه إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم كما علمت آنفا، وقد كان عليه الصلاة والسلام يبين ذلك على الدوام ، والدليل على هذا محسوس ملموس، إذ هذه سنته صلى الله عليه وسلم التى بلغت مآت الآلاف من الأحاديث ، والمدونة فى دوواين السنة، لم تترك صغيرة ولاكبيرة من أمر الدين إلا وتناولتها بالتفصيل والبيان ، حتى بلغ من بيانه صلى الله عليه وسلم أن أخبر أصحابه بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، كما أخرج البخارى ومسلم من حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال: "قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما فما ترك شيئا يكون من مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدَّث به ، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابى هؤلاء قال: وإنه ليكون الشيء قد نسيتُه فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه"(١).

وعنه رضى الله عنه قال :«أخبرنى رسول الله بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ، فما فيه شيء إلا وقد سألته، إلا أنى لم أسأله ما يخرج أهل المدينة من المدينة»(٢) .

وعن عمرو بن أخطب الأنصارى (٣) رضي الله عنه قال:«صلى رسول الله صلى الله

---

(١) البخاري في القدر، باب (وكان أمر الله قدرا مقدورا) ١٥٤/٨، ومسلم في الفتن، باب إخبار النبي صلى الله عليه وسلم فيما يكون إلى قيام الساعة برقم ٢٨٩١ واللفظ لمسلم .

(٢) أخرجه مسلم في الباب السابق برقم ٢٨٩١ .

(٣) المكنى بأبي زيد الأنصاري الخزرجي، غزا مع النبي صلى الله عليه وسلم عدة غزوات ومسح على رأسه وقال: اللهم جمِّله، فعاش بضعا ومائة سنة ولم تبيض له شعرة، انظر أسد الغابة ٢٠٤/٥، والإصابة ٧٨/٤ ومعها الاستيعاب .

عليه وسلم يوما الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر ، فنزل فصلى ، ثم صعد المنبر ، فخطبنا حتى حضرت العصر ، ثم نزل فصلى ، ثم صعد المنبر حتى غربت الشمس ، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن إلى يوم القيامة، قال : فأعلمُنا أحفظنا"(١) .

ومن هذه الأحاديث تعلم مدى تبليغه صلى الله عليه وسلم للسنة ، حيث كان ذلك البيان كله في مجلس واحد،فما بالك ببقية المجالس في سائر الأيام ، نعم قد كان صلى الله عليه وسلم يخص بعض أصحابه ببعض الحديث مما يترتب على إبلاغه العامة فتنة أو مفسدة كأحاديث الفتن الخاصه ، وبيان المنافقين بالتعيين ، فإنه صلى الله عليه وسلم لم يخبر بذلك العامة،وإنما خص به بعض الصحابة كحذيفة بن اليمان رضى الله عنه كما دل عليه حديثه السابق، وكأبي هريرة رضى الله عنه الذى قال :«حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين : فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم"(٢) يعنى مجرى طعامه ، يكنى بذلك عن قطع رأسه .

وكذلك كان صلى الله عليه وسلم يخص بعض أصحابه بأحاديث يحمل إشاعتها على الاتكال وعدم العمل، كما خص معاذ بن جبل رضى الله عنه بحديث بيّن فيه جزاء من لقي الله تعالى لا يشرك به شيئا كما أخرج الشيخان(٣) من حديث أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ وهو رديفه على الرحل: "يا معاذ بن جبل ، قال : لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال : يا معاذ ، فقال : لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثا، قال: "ما من أحد يشهد أن لا إلهَ إلا الله وأن محمدا رسول الله صِدقاً من قلبه إلا حرَّمه الله على النار" قال يا رسول الله: أفلا أخبر بها الناس فيستبشروا ؟ قال: "إذاً يَّتكلوا"، وأخبر بها معاذ عند موته تأثما" أي: خروجا من إثم كتمان العلم.

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن، الباب السابق برقم ٢٨١٢ .

(٢) أخرجه البخاري في العلم، باب حفظ العلم ١/٤٠ .

(٣) البخاري في العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا ١/٤٣، ومسلم في الإيمان برقم ٣٢.

وعنه رضى الله عنه قال : : ذُكر لى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ : "من لَقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة ، قال : ألا أبشر الناس ؟ قال: "لا إنِّي أخاف أن يَّتكلوا(١)" أي: يمتنعوا عن العمل اعتمادا على مايتبادر من ظاهر الحديث.

ومع خشيته صلى الله عليه وسلم هذه،إلا أنه لم يترك إبلاغ بعض من لا يخشى عليه الاتكال،أو أمن عليه عدم بث مايترتب على بثه فتنة أو مفسدة كأحاديث الفتن، وذلك لتبرأ ذمته فى البلاغ الذى كُلِّفه، أما أحاديث الفتن المجملة فقد كان يبلغها بلاغا عاما كما تشهد لذلك أحاديث الفتن الكثيره المحفوظة فى دواوين السنة الصحيحة وغيرها.

ومن ذلك ما أخرجه مسلم وأبو داود من حديث أبى بكرة (٢) رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«إنها ستكون فتن، ألا ثم تكون فتنة، القاعد فيها خير من الماشى فيها، والماشى فيها خير من الساعي إليها، ألا فإذا نزلت أو وقعت، فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه" قال: فقال رجل يا رسول الله: أرأيتَ من لم يكن له إبل ولا غنم ولا أرض ؟ قال: "يعمد إلى سيفه فيدق على حدِّه بحجر، ثم لِينجُ إن استطاع النجاء، اللهم هل بلَّغتُ ؟ اللهم هل بلغت ؟ اللهم هل بلغت ؟" قال : فقال رجل يا رسول الله: أرأيت إن أُكرهت حتى ينطلق بى إلى أحد الصفين أو أحد الفئتين فضربنى رجل بسيفه أو يجيء سهم فيقتلنى ؟ قال: "يبوء بإثمه وإثمك ويكون من أصحاب النار"(٣).

فانظر كيف كان صلى الله عليه وسلم حريصا على البلاغ حتى أنه أشهد الله تعالى

---

(١) أخرجه البخاري في العلم، الباب السابق ٤٣/١ .

(٢) هو نفيع بن الحارث بن كلدة الثقفي، على قول في نَسبه، نزل إلى النبي صلى الله عليه وسلم في حصار الطائف متدليا ببكرة، فأسلم وكني بأبي بكرة، وكان من فضلاء الصحابة وصالحيهم، توفي بالبصرة سنة ٥١ هـ، انظر أسد الغابة ٣٨/٥، ١٥١، وتهذيب الأسماء ١٩٨/٢، والإصابة ٥٧٢/٣ .

(٣) مسلم في الفتن، باب نزول الفتن كمواقع القطر برقم ٢٨٨٧، وأبو داود في الفتن، باب النهي عن السعي في الفتنة برقم ٤٢٥٦ .

على ذلك ثلاثا ليبرأ من تبعة تحمّل الرسالة التى كلف بإبلاغها إلى الأمة، وقد أداها على أكمل وجه وبلغها كما أراد الله تعالى.

تكليفه صلى الله عليه وسلم من بلغه شيء عنه أن يبلغه غيره:

ثم لم يكتف بذلك بل كلّف كل من يسمع عنه شيئا أن يبلغه إلى من وراءه ليعم بلاغه الأمة فى كل زمان ومكان، ليعملوا بما بلغهم من سنته فى كل ما كلف به بنو الإنسان من أمور الدين والدنيا.

فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بلّغوا عنّى ولو آية، وحدّثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار"(١).

ورغبهم فى ذلك وشجعهم عليه ، فعن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "نضّر الله امرءا سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغ غيره فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه،ورب حامل فقه ليس بفقيه"(٢).

وعن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "نضّر الله امرءا سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع"(٣).

وهكذا أدّى رسول الله صلى الله عليه وسلم واجب التبليغ تارة بالعبارة،وتارة بالكتابة،وتارة بالحث على إبلاغ من لم يبلغه، لايألو جهدا ولا يدخر وسعا فى إيصال

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٢٠٧/٤، والترمذي في العلم، باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل برقم ٢٦٦٩.

(٢) أخرجه الترمذي في العلم، باب ماجاء في الحث على تبليغ السماع برقم ٢٦٥٦، وأبو داود في العلم، باب فضل نشر العلم برقم ٣٦٦٠، وأحمد في المسند ٤٣٧/١، وابن ماجه برقم ٢٤٢، والدارمي ٧٥/١، وهو حديث صحيح، وحسنه الترمذي .

(٣) أخرجه الترمذي في العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع برقم ٢٦٥٨ وهو من الأحاديث المتواترة عن ابن مسعود وجبير بن مطعم والنعمان بن بشير وغيرهم، انظر قطف الأزهار المتناثره للسيوطي ص٢٢٨، ولقط اللآلى المتناثره في الأحاديث المتواتره للزبيدي ص١٦١.

رسالة الله التى حُمِّلها إلى كل من يستطيع إيصالها إليه تنفيذا لواجب البلاغ الذى تحمله بمقتضى رسالته،وتنفيذا لأوامر الله تعالى فى ذلك كقوله سبحانه: ﴿ ياأيُّها الرسولُ بلِّغ ما أُنزلَ إليك من ربِّك﴾[سورة المائدة:٦٧] فبلَّغ البلاغ المبين منذ أن بعثه الله تعالى إلى أن أتاه اليقين.

تبليغه صلى الله عليه وسلم كل شيء حتى مايتعلق بجنابه العظيم من عتاب ونحوه:

ولا أدل على ذلك من تبليغه حتى مايمس جنابه العظيم من العتاب الذى كان يوجهه الله تعالى إليه،كما هو مقتضى تأديب الله تعالى له صلى الله عليه وسلم الدال عليه ماروى عنه صلى الله عليه وسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه يرفعه"أدَّبني ربي فأحسن تأديبي"(١) وذلك كما فى قوله جل شأنه: ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ لِمَ تُحرِّم ما أحلَّ الله لك تَبتغى مرضاتَ أزواجِك والله غفورٌ رحيم ﴾[سورة التحريم:١] وقوله سبحانه : ﴿وتُخفِى فى نفسِك ما الله مبديه وتَخشَى النَّاس والله أحقُّ أن تخشاه..﴾[سورة الأحزاب:٣٧] وقوله: ﴿ عفا الله عنك لِم أذنتَ لهم حتَّى يتبيَّن لك الَّذين صدقوا وتعلَم الكاذبين ﴾[سورة التوبة:٤٣] وقوله سبحانه: ﴿ ما كان لِنبيٍّ أن يكونَ له أَسرى حتَّى يُثخن فى الأرض تُريدون عرض الدُّنيا والله يريد الآخرة والله عزيزٌ حكيم * لولا كتابٌ من الله سبق لمسَّكم فيما أخذتُم عذابٌ عظيم ﴾[سورة الأنفال:٦٧،٦٨] وقوله سبحانه: ﴿ عبسَ وتولَّى ..﴾ إلى قوله: ﴿ وأمَّا من جاءك يَسعى * وهو يَخشى * فأنتَ عنه تلهَّى ﴾[سورة عبس:١-١٠] .

إلى غير ذلك من آيات العتاب التى ما كان ليتفوَّه النبي صلى الله عليه وسلم بها لولا كمال أخلاقه فى البلاغ وكمال أمانته فيه ، لأن فى كتمان ذلك فى نظر العقول البشرية ستر على النفس الشريفة واستيفاء لحرمة آرائه، ولكنه الوحي لايستطيع كتمانه إذ

---

(١) أخرجه ابن السمعاني في أدب الإملاء والاستملاء ص١، بلفظ إن الله أدبني وأحسن أدبي ثم أمرني بمكارم الأخلاق فقال: ﴿خذو العفو وأمر بالعرف﴾ الآيه. قال السخاوي في المقاصد الحسنه ص٢٩ : وإسناده منقطع فيه من لم أعرفه عن عبدا لله أظنه ابن مسعود رضي الله عنه. وذكر له شواهد وقال عنه : إسناده ضعيف جدا، وإن اقتصر شيخنا ـ يعني الحافظ ابن حجر ـ على الحكم عليه بالغرابة في بعض فتاويه. قال : ولكن معناه صحيح ونقل عن ابن تيميه نحو ذلك، وذكره السيوطي في الجامع الصغيرص١٣ ورمز لصحته، ونقل في الدرر المنتثره في الأحاديث المشتهرة ص٤٣ تصحيح أبي الفضل بن ناصر له، وانظر فيض القدير للمناوي ٢٢٤/١ .

هو الصادق الأمين الـذى اصطفاه لإبلاغ رسالته و﴿ اللهُ أعلمُ حيث يجعلُ رسالتَه ﴾(١) [سورة الأنعام : ١٢٤] ولذلك قال أنس بن مالك رضي الله عنه: "لو كـان محمـد صلـى الله عليه وسلم كاتما شيئا مما أنزل عليه لكتم هـذه الآيـة ﴿ وإذ تقـولُ لِلَّـذى أنعـمَ اللهُ عليـه وأنعمتَ عليه أمسِك عليك زَوجك واتَّقِ اللهَ وتُخفِـى فـى نفسِـك مـا اللهُ مُبديـه وتَخشـى النَّاس واللهُ أحقُّ أن تخشاه ﴾[سورة الأحزاب : ٣٧](٢) وعن عائشة رضي الله عنهـا قـالت : « من حدَّثك أن محمدًا كتم شيئا مما أنزل عليه فقد كذب والله يقـول: ﴿ ياأيُّهـا الرسـولُ بلِّغ ماأنزل إليك ﴾[سورة المائده: ٦٧](٣) .

ولقد صدق أنس وصدقت عائشة رضـي الله عنهمـا وبَـرَّأَ ، فمـا أدق اسـتنباطهما فـى الدلالة على واجب البلاغ الذى قام به النبي صلى الله عليـه وسـلم، فإنـه أمـين الله علـى وحيه ، لايكتم صغيرة ولاكبيرة مما أراد الله تعالى إبلاغه إلى خلقه ، وكيف لا وقد زكَّاه الله تعالى فى ذلك حيث قال سبحانه: ﴿ لِيعلَم أنْ قد أَبلغـوا رسـالاتِ ربِّهـم ..﴾[سورة الجن : ٢٨] وقال عنه سبحانه: ﴿ وما هُو على الغيبِ بظَنين ﴾[سورة التكوير:٢٤] أي: مـاهو على ما يخبر به من الوحي إليه وغيره من الغيوب بمتهم ، وقرىء (بضنين) من الضن: وهو البخل ، أى لايبخل بالتعليم والتبليغ (٤)، بـل يبذلـه لكـل أحـد، كمـا قـال قتـادة: كـان القرآن غيبا، فأنزله الله تعالى على محمد فما ضن به على الناس، بل نشره وبلَّغه وبذله لكل من أراده ، قال ابن كثير : وكلاهما متواتر ومعناه صحيح(٥) .

وهذه شهادة من الله له وتزكيته بأداء واجب البـلاغ علـى أكمـل وجـه (وكفـى بـالله شهيدا) ولم يكتف سبحانه وتعالى لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الشهادة بل لقد

---

(١) انظر النبأ العظيم د/محمد عبد الله دراز ص ٢٤،٢٥ .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب (وكان عرشه على الماء) ١٥٢/٩، ومسلم في الإيمان، بـاب معنـى قـول الله عز وجل: ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ برقم ١٧٧ .

(٣) أخرجـه البخاري في تفسير سورة المائدة، باب ﴿ يا أيها الرسول بلغ ..﴾ ٦٦/٦ وفي تفسير سورة النجـم ١٧٦/٦، وفي التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك ...﴾ ١٩٠/٩ .

(٤) تفسير البيضاوي ص ٧٨٧ .

(٥) تفسير القرآن العظيم ٤٨٠/٤ .

أضاف اليها شهادة أخرى بأسلوب آخر حيث قال جل شأنه: ﴿ اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نِعمتي ورضيتُ لكم الأسلام دينا ..﴾[سورة المائدة : ٣] فإن كمال الدين لايكون إلا بالتبليغ لجميع أحكامه وما أوحى الله به فى شأنه إلى أهله عن طريق رسوله صلى الله عليه وسلم.

ومع ماشهد الله له بالبلاغ المبين فإنه عليه الصلاة والسلام أحب أن تشهد له أمته بذلك فاستنطقها بها لتطمئن نفسه، وذلك فى يوم عرفة فى حجة الوداع حيث قال لهم فى خطبته العظيمه ذلك اليوم: "..وأنتم تسألون عنِّي فما أنتم قائلون ؟ قالوا: نشهد أنك قد بلَّغت وأدَّيت ونصحت ، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد،اللهم اشهد،ثلاث مرات"(١).

وفى حديث سَمُرةَ بن جُنْدب فى قصة الكسوف قال عليه الصلاة والسلام: "إنما أنا بشر رسول ، فأذكِّركم بالله إن كنتم تعلمون أنِّي قصَّرت عن تبليغ شيء من رسالات ربي ؟" يعنى فقولوا ، فقالوا : نشهد أنك بلَّغت رسالات ربك وقضيتَ الذى عليك(٢)" فهكذا كانت سناء أخلاقه صلى الله عليه وسلم العظيمة تحمله على أن يتحسَّس من أصحابه أن يخبروه إن وجدوا منه صلى الله عليه وسلم تقصيرا فى واجب البلاغ ، وذلك لكمال خشيته لله وأمانته فيما اؤتمن عليه، وإلا فإنه يعلم أنه المعصوم عن ذلك فإن كان جانب البشرية منه يجوِّز له التقصير، فإن واجب العصمة تمنعه منه ويدفعه إلى كمال البلاغ .

فصلى الله وسلم على سيدنا محمد رسول الله فما أعظم إحساسه بالمسئوليه، وأجلَّ خشيته لله عز وجل !! فنشهد أنه قد بلَّغ الرسالة،وأدَّى الأمانة،ونصح الأمة ، وجاهد فى الله حق جهاده حتى أتاه اليقين.

---

(١) جزء من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه في بيان حجة النبي صلى الله عليه وسلم أخرجه مسلم في الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم برقم ١٢١٨ .

(٢) قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٢٨/٣٠٠: صححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم .

المبحث الرَّابع

(الفطانة)

الفِطنة فى اللغة : الحذق ، وضدها الغباوة ، وقيل الفطنة الفهم ، والذكاء سرعته وقيل: الفهم بطريق الفيض وبدون اكتساب(١) .

والمعانى متقاربة ، إذ كلها تفيد خُلقا فاضلا فى الذات الأنسانيه يقدر به المرء على المحاجه والمجادلة وإفحام الخصم ، وذلك بخلق هو الفطانة التى عرَّفوها في الاصطلاح بأنها: "التَّيقظ لألزام الخصوم وإحجاجهم وإبطال دعاويهم الباطله"(٢) .

مكانةَ هذا الخلق فى أخلاق الرسل :

والفطانة بهذا المفهوم من أبرز أخلاق الرسل الذاتية التى منحهم الله تعالى إياها، وهي من لوازم الرسالة الإلهيه،والاصطفاء الرباني لها،لأن حمل رسالة عِلمية،ومهمة تربويَّه للناس، وقيادة سياسيةٍ عظيمة ، لابد أن يرافقها فى حاملها صفة الاستعداد لحمل هذه الرسالة يعرف بها الرسول ما يلقى إليه من الوحي،وبها يستطيع أن يحفظه ولا ينساه، وبها يستطيع بعد ذلك أن يبلغه كما أوحي إليه به، وبها يستطيع أن يعالج أمته بالتربية الحكيمة والقيادة السليمة وفق طبائعهم وأخلاقهم وهذه الصفة هى صفة الفطانة)(٣) .

لذلك فلا يصطفى الله تعالى لرسالته إلا من يتمتَّع بصفة الفِطنة التامة، والعقل الراجح؛ لأن من لم يكن فطِنا بأن كان مغفَّلا لا يمكنه إقامة الحجة على صدق دعواه ، ولامجادلة أعدائه الذين يريدون إخفاق دعوته ودحض حجته ، كما لايستطيع أن يقنع الآخرين بالحق الذى جاء به .

وقد قص الله تعالى لنا من أحوال فطنة رسله مالاينقضى منه العجب، من سرعة البديهة وإقامة الحجة الصادقة ، ودفع الحجة الباطله وإلزام الخصم وإفحامه بالبراهين النَّيِّرة، والحجج الدامغة وذلك كنوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، ويوسف، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

---

(١) القاموس المحيط بشرحه تاج العروس ٣٠١/٩، والصحاح للجوهري ٢١٧٧/٦ .

(٢) تحفة المريد للباجوري ص ٧٦ .

(٣) العقيدة الإسلامية لعبد الرحمن حبنكة الميداني ص ١١٢ بتصرف يسير .

نماذج من فطنة رسل الله:

إذا ذهبنا نبحث عن نماذج حيةٍ عن فِطن الأنبياء فى القرأن الكريم ، فإننا نجد من ذلك الكثير الطيب مع كل من ذكر فى القرآن الكريم ، وذلك يفضى بنا إلى الإطالة ، ولكن بحسبنا أن نأتي ببعض نماذج لتكون كافية فى الدلالة على باقيها ، وذلك من واقع حياة نبيي الله نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام،لتخلص من ذلك إلى تقريرها فى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأدلتها من حياته فى مراحل حياته ودعوته.

فطنة نوح عليه السلام:

لقد استطاع نوح عليه السلام بفطنته العظيمة أن يُفحم مناوئيه من قومه حتى أقروا له بالعجز عن مجادلته واستعجلوا مايتوعدهم به من العذاب ، وقالوا : ﴿ يانوحُ قد جادلتَنا فأكثرتَ جِدالنا فائتِنا بما تعِدنا إن كنتَ من الصَّادقين ﴾[سورة هود : ٣٢] ذلك لأنه مافتىء يناظرهم ويجادلهم ويحاججهم ، كلَّما أتوه بشبهة فنَّدها ، وكلما جادلوه أسكتَهم ، فلا يملكون جوابا ولا ردا ولاحجَّة ، فلما قال له ﴿ الملأُ الذين كفروا من قومِه مانراكَ إلابشرًا مثلَنا ومانراك اتَّبعك إلا الَّذين هم أَراذِلُنا باديَ الرَّأي ومانرى لكم علينا من فضلٍ بل نظُنُّكم كاذبين ﴾[سورة هود : ٢٧] أجابهم نوح عليه السلام بقوله : ﴿ قال ياقومِ أرأَيتُم إن كنتُ على بيِّنةٍ من ربِّي وآتاني رحمةً من عندِه فعُمِّيت عليكم أَنُلزِمُكُموها وأنتُم له كارِهون * وياقومِ لا أسأَلُكم عليه مالاً إن أَجريَ إلَّاعلى الله ِوما أنا بطارِدِ الَّذين آمَنُوا إنَّهم مُلاقوا ربِّهم ولكنِّي أراكم قومًا تجهلون * وياقومِ منَ ينصُرني من الله ِإن طَردتُّهم أفلا تَذَكَّرون * ولا أقولُ لكم عندِي خزائنُ الله ِولا أعلمُ الغيبَ ولا أقولُ إنِّي ملَك ولا أقولُ لِلَّذين تَزدرِى أعيُنكم لَن يُؤتِيَهم الله ُخيراً الله ُأعلم بما فِى أنفسِهم إنِّى إذًا لمن الظَّالمين ﴾[سورة هود : ٢٨-٣١] .

فقومه لما جادلوه بما يُنمى عن قصور عقولهم حيث احتجوا عليه بفقده وسائل السؤدد عليهم من المال والجاه ، فرأوا أنه غير أهلٍ لشرف الرِّسالة لِذلك ، وأنَّه من جِنسهم البشرى،وظنُّوا أن شرف الرسالة ينبغى أن يكون لغير هذا الجنس، مع أنه الجنس الذى كرَّمه الله وشرفه على كثير من الأجناس كما قال تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بنى أدم ﴾ [سورة الأسراء : ٧٠] .

فلما قصر نظرهم عن إدراك أسباب الكمال حيث نظروا إليه وإلى أتباعه فلم يروا فى أجسامهم ما يميزهم عن الناس ، بل أن أتباعه من ضعفاء قومهم ، ورأوا أن ذلك علامة كذبه وضلال أتباعه، لما كان أمرهم كذلك سلك نوح عليه السلام فى مجادلتهم مسلك الإجمال لإبطال شبههم، ثم مسلك التفصيل لرد أقوالهم .

أمامسلك الاجمال فسلك فيه مسلك القلب ، بأنهم ان لم يروا فيه وفى أتباعه مايحمل على التصديق برسالته ، فكذالك هو لايستطيع أن يحملهم على رؤية المعانى الدالة على صدقه ،وأنه لايستطيع منع الذين آمنوا به من متابعته والاهتداء بالهدي الذى جاء به ، وأنه لم يدع فضلا غير الوحى إليه ، كما حكى ا لله عن أنبيائه ورسله عليهم السلام فى قوله: ﴿ قالت لهم رسلُهم إنْ نحنُ إلابشَرٌ مثلُكم ولكنَّ ا لله يَمنُّ على من يشاءُ من عِباده ﴾[سورة ابراهيم : ١١] .

ثم فصل إجابته السابقه ، فأجابهم عما توهموه من أن من لوازم النبوة أن يكون أغنى منهم أو أن يعلم الأمور الغائبة بقوله : ﴿ ولا أقولُ لكم عندِى خزائنُ ا للهِ ولا أعلمُ الغيب ﴾ والمعنى لاأدعى ماليس لى فتنكروا قولي وتستبعدوا ما آتانى ا لله من فضل النبوة.

وعن دعواهم بأنه بشر لايستحق أن يتميز عنهم بالرسالة أجابهم بقوله : ﴿ ولا أقولُ إنِّى ملَك ﴾ يعنى بل أنا بشر مثلكم تعرفونـي وأعرفكم ، ولكن آتانى ا لله فضل الرسالة إليكم .

وعن دعواهم باسترذال أتباعه لكونهم من ضعفائهم وفقرائهم أبطله بطريقة التغليط،لأنهم جعلوا ضعفهم وفقرهم سببا لانتفاء فضلهم ، فأبطله بأن ضعفهم ليس بحائل بينهم وبين الخير من ا لله تعالى إذ لا ارتباط بين الضعف فى الأمور الدنيويه من فقر وقلة،وبين الحرمان من نوال الكمالات النفسانيه والدِّينيه ، فقال : ﴿ ولاأقولُ لِلَّذِينَ تزدرِي أعينُكم لن يُؤتِيَهم ا للهُ خيراً ا للهُ أعلم بما فى أنفسهم ..﴾ .

وهكذا فند ادعاآتهم واحدة واحدة بما لم يترك لهم مجالا للمكابرة ، حيث قرر لهم بذلك الحقائق الثابتة فى شأنه والتى لا يجهلونها ، وجعلهم فى واقع الأمر مسلِّمين بأنه

لايحملهم على مجادلته إلا محض الكبر ومجرد اللجاج والعناد،فما كان لهم بعد ذلك من طاقة فى الصبر على مجادلته المفحمه ، فعدلوا إلى استعجال العذاب الذى يتوعدهم به لما سئموا من تزييف معارضتهم وأرائهم ، شأنهم بذلك شأن المبطل اذا دمغته الحجه فقالوا : ﴿يانوحُ قد جادلتنا فأكثرتَ جِدالنا فأتِنا بما تعِدُنا إن كنتَ من الصَّادقين ﴾[سورة هود: ٣٢](١).

وكم قصَّ علينا القرآن الكريم من جدله المحكم الرصين الذى كان يواجههم به(٢) واستقصاؤه يفضي إلى الأطالة فبحسبنا هذا المثال .

فطنة ابراهيم عليه السلام :

إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، استطاع بفطنته النَّيِّرة وذكائه المفرط أن يفحم أعداءه ويقيم عليهم الحجة والبرهان الدامِغَيْن على بطلان معبوداتهم وضلال معتقداتهم ، بحيث عجزوا عن مناظرته ومجادلته ، وعدلوا إلى مغالبته بقوة البأس ، شأن من تعياعليهم الحجج فيعدلون إلى القوة،ولكن مالبثوا أن خيَّبهم الله وأذلهم من حيث أرادوا من القوة والبطش،وقد قص الله فى كتابه الكريم من أخبار مجادلته قومه ما يشهد ببالغ فطنته وفرط ذكائه،من ذلك مناظرته لقومه فى شأن معبوداتهم من الكواكب ، حيث استطاع إقامة الحجة الدامغة عليهم فى بطلان ألوهيتهما بما لم يدع شكا للمتصف العاقل ، فقد استدرجهم فى تفنيد اعتقادهم شيئا فشيئا،حتى أتى على متعقدهم الزائف من أساسه، وأقام الحجة الدامغة على اجتثاثه،كما قصه الله تعالى علينا بقوله:﴿ وكذلك نُرى إبراهيمَ ملكوت السَّمٰواتِ والأرضِ وليكونَ من الموقنين * فلمَّا جنَّ عليه اللَّيلُ رأَى كوكَباً قال هذا ربِّي فلما أفَل قال لا أحبُّ الآفلين * فلما رأَى القمرَ بازغا قال هذا ربي

---

(١) انظر التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٥/٤٥ـ٦٠، وتفسير ابن جزي ٢/١٠٣ـ١٠٤ ، وتفسير البيضاوي ص ٢٩٥ .

(٢) انظر قصص الأنبياء لابن كثير ١/٨٤ـ٩١ حيث جمع كل ما حكاه الله عنه في شأنه في القرآن الكريم .

فلما أفلَ قال لئِن لم يَهدنى ربِّى لأكونَنَّ من القوم الضَّالين * فلما رأى الشمسَ بازغةً قال هذا ربِّى هذا أكبر فلما أَفلت قال ياقوم إنى بَريءٌ مما تُشركون * إنِّى وجَّهتُ وجهي لِلَّذى فطر السمٰواتِ والأرضِ حَنيفا وما أنا من المشركين ﴾[سورة الأنعام : ٧٥-٧٩] .

"فقد بين لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة ، لاتصلح للألوهية ، ولاأن تعبد مع الله عز وجل ، لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة ومدبَّرة مسخَّرة ، تطلع تارة وتأفل تارة أخرى فتغيب عن هذا العالم ، والرب سبحانه وتعالى لايغيب عنه شيء ولاتخفى عليه خافيه، بل هو الدائم الباقى بلازوال، لاالٰه إلاهو ولارب سواه.

فبين لهم أولا عدم صلاحية الكواكب ، ثم ترقَّى منها إلى القمر الذى هو أضوأ منها وأبهى،ثم ترقى إلى الشمس التى هي أشد الأجرام المشاهدة ضياء وسناء وبهاء ، فبين أنها مسخرة مسيرة مقدرة مربوبة فلاتصلح أن تكون ربا) (١) ، وأن الرب شأنه أن يكون مدبِّراً مسخِّرا ضارا نافعا ، وأن هذه الكواكب لاتملك شيئا من هذه الأمور ، فهي إذاً لاتستحق أن تعبد،فأعلن براءته منها وإخلاص عبوديته لله تعالى قائلا : ﴿إنِّى وجَّهتُ وجهى لِلَّذى فطر السمٰواتِ والأرضِ حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ وبذلك زعزع إيمانهم فى معتقداتهم الضَّالة بهذه الكواكب السَّيارة،التى لاتملك ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وذلك بفضل الله تعالى،ثم بفضل هذا الأسلوب الجدلى الحكيم القائم على استدراج المخاطب بالتسليم بدعاويه ثم الكر عليها بالبطلان ، بقوة الحجة والبرهان، وما كان له بذلك من قوة لولا الفطنة الكبرى التى رزقه الله تعالى إياها،لتساير تكليفه بالرسالة. ومن صور مجادلاته المفحمة مناظراته المحكمة الدالة على قوّة فطنته وكمال نباهته، تلك المجادلة التى جرت بينه وبين ملك زمانه ، (النمرود) (٢)

---

(١) انظر قصص الأنبياء لابن كثير ١/١٦٠ .

(٢) نقل الحافظ ابن كثير في قصص الأنبياء ١/١٧١ عن المفسرين وغيرهم من علماء النسب والأخبار أن هذا الملك هو ملك بابل واسمه النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح،وقال غيره: إنه كان أحد ملوك الدنيا قال: فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: ذو القرنين وسليمان، =

لإثبات وحدانية الله تعالى ، التى كان ينازع فيها هذا الملك الجبار المتمرد ويدّعيها لنفسه ، وذلك كما قصها الله تعالى علينا فى كتابه الكريم حيث قال: ﴿ ألم تَر إلى الَّذى حاجَّ إبراهيمَ فى ربِّه أن آتاهُ اللهُ المُلك إذ قال إبراهيمُ ربِّى الذى يُحيي ويُميت قال أنا أُحيي وأميتُ قال إبراهيمُ فإنَّ الله يأتِي بالشَّمس من المشرِق فأتِ بها من المغرب فبُهِتَ الذى كفر والله لايَهدى القوم الظالمين ﴾[سورة البقرة ٢٥٨] فإن نبي الله إبراهيم عليه السلام لما دعاه إلى التوحيد وعبادة الله تعالى حمله جهله وإنعام الله عليه بالملك وطول العمر على إنكار الخالق جل جلاله المستحق للتوحيد والعباده فطفق يجادله بالباطل ليدحض به الحق، فأراد إبراهيم عليه السلام أن يكذِّب دعواه بدليل محسوس،يدركه كل عاقل وهو أن الرب الحق هو الذى يحيي ويميت ، والذى يفعل ذلك هو ربى وأنت لاتملك ذلك ولا تقدر عليه ، فذهب الجاهل يجادل بما لايُجهل بطلانه،ويدعى لنفسه هذه الخصوصية ، فقال : (أنا أحيي وأميت) وهذه مغالطة مكشوفة إذزعم أنه يعمد إلى من حكم عليه بالموت فيعفو عنه،والى بريء فيقتله ، وظن أنه بذلك قد خلق الحياة والموت وأنه استطاع أن يقيم الحجة على نبي الله تعالى ويقنع الحاضرين من أبناء جنسه ومن هم على شاكلته فى الشرك والضلال ، ولاشك بأنه سيجد آذانا صاغية تصدق بحجته هذه الواهيه من متبوعيه،فسيصفّقون له تصديقا وابتهاجا ، مع أن إجابته تلك هي انقطاع عن المحاجة ، وفرار منها فى الواقع ، إذما أراده ليس من باب الإحياء والإماتة فى شيء ، فان الإحياء والأماتة تعنى خلق الأجسام الحية من الإنسان والحيوان ، وفنائها ، وهذا معلوم بالضرورة بالنسبة لكل إنسان،لذلك فقد عدل إبراهيم عليه السلام عن الاعتراض بأن هذا ليس من الأحياء المحتج به،ولامن الأماتة المحتج بها ، لما علم من مكابرة خصمه،وانتقل إلى مالا يستطيع الخصم انتحاله،فذكر دليلا آخر يبين وجود الصانع ووجوب وعبادته فقال له: (فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب) فإن الذى يحيي ويميت هو الذى

= والكافران: النمرود وبُختنصَّر، قال: ذكروا أن نمروذا هذا استمر في ملكه أربعمائة سنة، وكان قد طغى وبغى وتجبر وعتا وآثر الحياة الدنيا. اهـ .

يفعل هذه الأشياء فعندئذ (بهت الذى كفر) أى غلب ،

وصار مبهوتا منقطعا عن الكلام متحيرا لاستيلاء الحجة عليه ، إذلا قدرة له عند ذلك على المكابرة أو المغالطة (١)،

وهكذا أقام عليه نبي الله ابراهيم عليه السلام الحجة الدامغة بفطنته النيرة ، بحيث لم يستطع مواصلة اللّجاج والعناد، وبذلك عُرف خُبره لأتباعه وأنه أحقر من أن يخلق بعوضة أو يدبر أمرا،وتبيَّن لهم بذلك أن دعواه الألوهيه محض افتراء ، ولكنهم مع ذلك لم يهتدوا، إذ الناس غالبا على أديان ملوكهم وأتباع كل ناعق،فاستمروامعه على الباطل وعاونوه عليه حتى أرادوا بإبراهيم عليه السلام كيدا فجعلهم الله هم الأخسرين كما فى قصة إرادة إحراقه وإنجاء الله له،وجعل نارهم عليه بردا وسلاما، وكم كان لإبراهيم عليه السلام من مناظرات ومجادلات مع قومه عبدة الأصنام والكواكب قصها عليمًا القرآن الكريم ، كان يفحهم فيها ويلزمهم الحجة ويقيم عليهم البرهان،كل ذلك بفضل ماآتاه الله من فِطنة نيِّرة،وذهن وقَّاد،وحس مُرهف ، كما قال الله تعالى : ﴿وتلك حُجَّتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومهِ نَرفعُ درجاتٍ من نشاءُ إنَّ ربَّك حكيمٌ عليم﴾[سورة الأنعام :٨٣].

وقد آتى الله تعالى تلك الفطنة لكل أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام كما يعلم ذلك جليا مما قصه الله علينا من أحوالهم مع أقوامهم فى الحوار والجدال والمناظرة التى كانوا يجرونها معهم ، فيقطعون بذلك لجَجَهم وخصوماتهم ، ويبينون زيف أقوالهم وجدالهم فيهدى الله من يشاء ويضل من يشاء ، ولكن بعد ما تقام الحجة الواضحة ويستبين الحق المبين ، وصدق الله إذيقول : ﴿.. رُسُلا مبشِّرين ومُنذرِين لئَلاَّ يكون للنَّاس على اللهِ حُجَّةٌ بعد الرُّسل﴾[سورة النساء : ١٦٥]

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٣/٣٢ــ٣٣، وروح المعاني ١/٣/١٦ــ١٩، وقصص الأنبياء لابن كثير ١/١٧١-١٧٣.

فطنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

أما فطنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد كانت فى ذروة الذرى من بين فطن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام،فطره الله عليها لِما رشحه إليه من حمل رسالته العامه الخاتمة: الملة الحنيفيه المرتضاه لديه سبحانه،وهى شريعة االأسلام ﴿ إنَّ الدِّين عندَ الله الاسلام ﴾ [سورة آل عمران : ١٩] ﴿ورضيتُ لكم الأسلام دينا﴾[سورة المائدة : ٣] وقد دل على فطنته عليه الصلاة والسلام أمر الله تعالى له أن يجادل معاندي دعوته حيث قال : ﴿..وجادِلهم بالّتى هي أحسن﴾[سورة النحل : ١٢٥] وقال له : ﴿ولاتُجادلوا أهلَ الكِتابِ إلاّ بالتى هي أحسن﴾[سورة العنكبوت : ٤٦] .

فإن هذا التكليف الربانى يدل على كمال فطنته عليه الصلاة والسلام حيث كلّفه الله تعالى بمجادلة الكفار من مشركين وأهل كتاب،على صدق دعوته الرسالة ، ووجوب إثبات وحدانيّة الله تعالى وعبادته ..ومعلوم أن الجدال لايقدر عليه إلامن كان مُفرطا فى الذكاء والفطنة ، وإلافإنَّ الحجة ستقام عليه ويُغلب ، وتدحض حجته ، ولكن لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذِروة الذكاء والفِطنه أوكل الله إليه مجادلتهم ، وثوقا بكامل فطنته لأقامة الحجة الدامغة على أعدائه ، كما حدث بالفعل فى كل مجادلاته ومناظراته التى جرت بينه وبين أعدائه كما سيتبين لك ذلك عند ذكر نماذج منها،ومما يدل على كمال فطنته عليه السلام ، قول الله تعالى : ﴿ن والقلمِ وما يَسطرون* ماأنتَ بنعمة ربِّك بمجنون﴾[سورة القلم : ١،٢] حيث أقسم المولى جل وعلا قسما مؤكدا(١) على نفي الجنون عنه الذى كان يرميه به بعض المشاغبين من أهل الكفر والعناد ،كما قال سبحانه : ﴿وإن يكادُ الّذين كفروا لَيُزلِقونَك بأَبصارهم لمّا سمعوا الذِّكر ويقولُون إنه لمجنون﴾[سورة القلم : ٥١] وذلك ردا عليهم وتكذيبا لقولهم،كما قال فى آية اخرى ﴿وماصاحبُكم بمجنون﴾[سورة التكوير : ٢٢] وقال : ﴿فذكِّر فما أنتَ بنعمةِ ربِّك بكاهن ولامجنون﴾[سورة الطور : ٢٩] وفى ذلك النفي إثبات لكمال عقله ،« وأنه من إنعام الله عليه بحصافة العقل والشهامة التى يقتضيها التأهيل للنبوة بمنزلة»(٢) عظمى لايرقى إليها .

---

(١) المؤكدات هنا هي القسم ومجيء الجملة بعد النفي بالباء التي تزاد بعد النفي لتأكيده، والجملة الاسمية المنفية

(٢) البحر المحيط لأبي حيان ٣٠٨/٨ .

وقد برهن الله تعالى على كمال عقله إضافة إلى قسمه المؤكد بعظمة أخلاقه حيث قال بعد ذلك ﴿وإنَّ لك لأجراً غير ممنون * وإنَّك لعلى خُلُق عظيم﴾[سورة القلم : ٣،٤] إذ أن صاحب الخلق العظيم ، لايكون إلافى منتهى الكمال العقلى والصفاء الذهنى ، لأن العقل أصل فروع الفضائل الخُلقيه وعنصر ينابيعها ونقطة دائرتها ، حيث يتفرع منه "ثقوب الرأى وجودة الفطنة ، والأصابة ، وصدق الظن ، والنظر للعواقب ، ومصالح النفس ، ومجاهدة الشهوة ، وحسن السياسة والتدبير ، واقتناء الفضائل وتجنب الرذائل " وقد كان صلى الله عليه وسلم من هذه كلها فى الغاية القصوى التى لم يبلغها بشر سواه (١) .

وقد نقل القاضى فى الشفاء(٢) عن وهب بن منبه (٣) رحمه الله تعالى قال :«قرأت فى أحد وسبعين كتابا فوجدت فى جميعها أن النبي صلى الله عليه وسلم أرجح الناس عقلا وأفضلهم رأيا»وفى رواية أخرى قال :«فوجدت فى جميعها أن الله تعالى لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها فى جنب عقله الا كحبة رمل من بين رمال الدنيا»

وقال القاضى بعد أن قرر أنه لا مرية فى أنه صلى الله عليه وسلم أعقل الناس وأذكاهم ، قال :« ومن تأمّل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسة العامة والخاصة، مع عجيب شمائله،وبديع سيره،فضلا عما أفاضه من العلم وقرره من الشرع،دون تعلم سبق ولا ممارسة تقدمت ولا مطالعة للكتب فيه،لم يمتر فى رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهة »(٤).

---

(١) الشفاء للقاضي عياض ٢١٦/١ .

(٢) ١٦٢/١ .

(٣) ابن كامل اليماني الصنعاني الأبناوي تابعي جليل ثقة، من المشهورين بمعرفة الكتب الماضية، وسمع من عدد من الصحابة كجابر بن عبد الله وابن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهم، قال الإمام النووي اتفقوا على توثيقه توفي سنة ١١٤ هـ، انظر طبقات ابن سعد ٥٤٣/٥، وتهذيب الأسماء ١٤٩/٢ .

(٤) الشفاء ١٦١/١ .

تمثل خلق الفطنة
فى النبي صلى الله عليه وسلم

أما تمثل هذا الخلق فى النبي عليه الصلاة والسلام ، فيتجلى فى مظاهر كثيرة من سير حياته صلى الله عليه وسلم نذكر منها مايلى :

؟ ـ سرعة إقامة الحجة على المعارضين وقطع شغبهم وجدالهم بالباطل ، فلايستطيعون مجاراته أو مكابرته ، بل لايسعهم إلا الأذعان والتسليم ، أو النكوص على أعقابهم خاسئين خاسرين وصور ذلك كثيرة منها :

١ ـ ماجاء عن سعيد بن أبى راشد (١) رحمه الله ، قال : رأيت التَّنوخى رسول هرقل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم (بحمص) وكان جارا لى شيخا كبيرا ، قد بلغ الفناء أو قرب ، فقلت : ألا تخبرنى عن رسالة هرقل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ، قال : بلى ... وذكر الحديث وفيه: "فانطلقت بكتابه (أى كتاب هرقل) حتى جئت تبوكَ فإذا هو جالس بين أصحابه على الماء ، فقلت : أين صاحبكم ؟ ، قيلَ هما هوذا ، قال : فأقبلت أمشى حتى جلست بين يديه ، فناولته كتابى فوضعه فى حجره ، ... إلى أن قال : ثم إنه ناول الصحيفة رجلا عن يساره ، فقلت : من صاحب كتابكم الذى يقرأ لكم ؟ فقالوا : معاوية. فإذا فى كتاب صاحبى : يدعونى إلى جنة عرضها السمٰوات والأرض أُعدت للمتقين ! فأين النار؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :«سبحانَ الله فأين الليل اذا جاء النهار ؟!..» الحديث (٢) .

---

(١) قال في التهذيب ٢٦/٤: ذكره ابن حبان في الثقات، وفي التقريب برقم ٢٣٠١ مقبول .

(٢) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٣٩/٨ إلى عبد الله بن أحمد وأبي يعلى، قال: ورجال أبي يعلى ثقات، ورجال عبد الله بن أحمد كذلك .

م - ومن ذلك ماجاء عن عدى بن حاتم (١) رضى الله عنه فى قصة إسلامه ، وفيه قال :« .. فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان ، أو قال صبي ، قال : فعرفت أنه ليس ملك كسرى فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : «ياعدي بن حاتم ماأفرّك ؟ أن تقول : لاإله الا الله ، فهل من اله إلا الله ؟ ماأفرّك أن يقال : الله أكبر ، فهل شيء هو أكبر من الله عز وجل؟» قال : فأسلمت فرأيت وجهه استبشر..» (٢)

ب - ومن إجاباته القاطعة للحجج ماأجاب به أبا سفيان يوم أحد حينما افتخر أبوسفيان وهو على شركه إذ ذاك ، بأوثانه إثر المعركة التى انجلت عن نصر له ولقومه أهل الشرك والوثنيه ، فقال متبجّحا : ..اعلُ هُبَل (٣) ، فقال صلى الله عليه وسلم:«أجيبوه» فقالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا :«الله أعلى وأجل» قال أبو سفيان:لنا العُزّى(٤) ولا عُزّى لكم ، فقال صلى الله عليه وسلم :«أجيبوه» فقالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا :«الله مولانا ولا مولى لكم» - فقال أبو سفيان : يوم بيوم والحرب سجال،وتجدون مُثْلة لم آمر بها ولم تسؤنى ، فقال صلى الله عليه وسلم :« أجيبوه» فقالوا:مانقول ؟ قال :«قولوا:لا سواء قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار» (٥).

ب - ومن مظاهر كمال فطنته صلى الله عليه وسلم سرعة حله للمشاكل المستعصيه التى تحار فى حلها العقول الكبيرة الشهيرة وصور ذلك كثيرة ومنها :

---

(١) الطائي أسلم سنة تسع من الهجرة، وكان جوادا شريفا في قومه معظما عندهم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكرمه إذا دخل عليه، توفي سنة ٦٨ هـ، انظر طبقات ابن سعد ٢٢/٦، وتهذيب الأسماء ٣٢٧/١ والإصابة ٤٦٨/٢ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣٧٨/٤، وعزاه الهيثمي في المجمع ٢١١/٦ إلى الطبراني قال: ورجاله رجال الصحيح غير عماد بن حبيش وهو ثقة .

(٣) اسم للصنم الأكبر الذي كانوا يعبدونه، وكانوا قد وضعوه على الكعبة، تفسير غريب الحديث ص ٢٤٩.

(٤) اسم صنم لهم كان بالطائف، تفسير غريب الحديث ص ١٦٦ .

(٥) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة أحد ١٢/٥ .

١ ـ حله لمشكلة قريش فى وضع الحجر الأسود الذى تنافست فيه قبائلها وأرادت كل قبيلة أن تحوز شرف وضعه وتستأثر به على غيرها ، حتى وصل بها الحال إلى شفى الحرب،حيث قرّبت بنو عبد الدار جِفنة مملوءة دما ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي على الموت وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة ، فسموا لعقة الدم ، فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد فتشاوروا وتناصفوا، وأشار عليهم أبو أمية بن المغيرة وكان يومئذ أسن قريش كلها على أن يجعلوا بينهم فيما يختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد ـ يعنى باب بنى شيبة ـ فكان أول داخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا ، هذا محمد فلما انتهى إليهم أخبروه الخبر فقال صلى الله عليه وسلم : هلمَّ إليَّ ثوبا ، فؤُتي به ، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ، ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده صلى الله عليه وسلم ثم بنى عليه) (١).

وبذلك رفع ما بينهم من ذلك الخلاف الذى كاد يودى برجالهم ، والذى حارت فيه عقولهم وفيهم المشهورون بالعقل والحُنكة والتّجربة والسؤدد ، ومع ذلك بارت فى هذه المشكلة العويصة،حتى خلصهم منها ذو الفطنة النبوية سيدنا محمد عليه صلوات الله وسلامه.

٢ ـ ومثل هذا الحل السريع الحاسم ، حله صلى الله عليه وسلم لمشكلة المهاجرين ﴿الَّذين أُخرجوا من دِيارهم وأموالِهم يَبتغون فَضلاً من اللهِ ورِضوانًا وينصُرون اللهَ ورسولَه..﴾ [سورة الحشر : ٨] فوفدوا إلى المدينة لايملكون شيئا ، فكانوا بذلك فى خطر المجاعة والغُربة ، مما اقتضى إيجاد حل سريع لهذه المشكلة ، وكان رجلها وواحدها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث آخى بين المهاجرين والأنصار على المواساة والحق والتوارث أخوين أخوين ، وكانوا تسعين رجلا من كل طائفة خمسة وأربعون ، وقيل مائة ، واستمروا على ذلك الحال إلى أن أنزل الله تعالى : ﴿وأولُوا الأرحامِ بعضُهم أولى

---

(١) عيون الأثر لابن سيد الناس ٥٢/١، وتقدم ذكر هذه القصة في الإصلاح ص٩٦٧

ببعضٍ فى كتاب الله..﴾[سورة الأنفال : ٧٥] فنسخت حكم التوارث بين المهاجرين والأنصار(١) ، وبذلك حل النبي صلى الله عليه وسلم مشكلة من أكبر المشاكل استعصاء فى الحل.

٣ ـ كما حل فى نفس الوقت مشكلة أخرى هى بمثابة المشكلة الأولى أهمية ، وهى مشكلة التعايش فى المدينه بين طوائف مختلفة : الأوس والخزرج الذين كان بينهما من العداء بسبب ما كان يجرى بينهما من الحروب ما لايكاد ينسى ، والمهاجرون ، وجموع يهود التى كانت تسيطر على الحركة الاقتصادية فى المدينه باحتكارها التجارة فيها ، وتشكيلهم خطرا عظيما على الدولة الأسلامية الفتيَّة ، وهم أيضا منقسمون على أنفسهم فبعضهم يوالى الأوس ، والبعض الآخر يوالى الخزرج.

فكان لابد من إيجاد ثقة كاملة ، بين هذه الأطراف المختلفه للتعايش السلمي، والدفاع العام عن عدو مشترك يقدم عليهم من الخارج ، يريد المساس بأحد من هذه الطوائف فكان ذلك بما أجراه النبي صلى الله عليه وسلم من عهد موادعة بين هذه الطوائف يُرضى جميعها ومما كان فى ذلك العهد مانصه :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على رَبعتهم (٢) يتعاقلون بينهم (٣) ، وهم يفدُون عانيهم (٤) بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على رَبعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ... وأن لا

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٢٤٢/٢ مع الروض، ووفاء الوفاء للسمهودي ٢٦٧/١، وعيون الأثر لابن سيد الناس ٢١/١ .

(٢) الربعة الحالة التي جاء الإسلام وهو عليها، عيون الأثر ١٩٩/١ .

(٣) أي: يدِي بعضهم بعضا .

(٤) أي: أسيرهم .

يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة(١) ظُلم أو إثم أو عدوان ، أو افساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وأنه من تبعنا من يهود فإنه له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ... وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ(٢) إلا نفسه وأهل بيته ... وأن بطانة يهود كأنفسهم ، وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم .. وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبِرَّ دون الأثم ، ...وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفه وأبرّه ، وأنه لاتجار قريش ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب...» (٣).

وبذلك قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على النَّعرات الجاهلية ، والدسائس اليهوديه ، وأوجب للجميع الود والأخاء والتراحم وإقامة العدل ، وما كان لذلك أن يتم لولا هذا العلاج الناجع ، من ذى الفطنة العظيمه والسياسة الحكيمه صلوات الله وسلامه عليه.

٤ ـ ولقد حاول المنافقون ذات مرة أن يفكِّكوا عُرى هذه الصحيفة العادلة والمعاهدة الكريمة، لكن كانت فطنة النبي صلى الله عليه وسلم لهم بالمرصاد ، فأحبطت تلك

---

(١) أي: طلب دفعا على سبيل الظلم. النهاية ١١٧/٢ .

(٢) أي: لا يهلك يقال: وَتَغَ وَتغاً، وأوتغه غيره إذاأهلكه. انظر النهاية ١٤٩/٥ .

(٣) سيرة ابن هشام ٢٤١/٢-٢٤٢، وعيون الأثر ٩٧/١ .

المحاولة الخبيثه وأجهضتها فى حينها ، وذلك أن رجلا من غِلمان المهاجرين كسّع(١) رجلا من غلمان الأنصار إثر اختلاف بينهما على الماء ، فقال الأنصاري: ياللأنصار ، وقال المهاجرى: ياللمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما بال دعوى الجاهليه ؟ قالوا : يا رسول الله كسَع رجلٌ من المهاجرين رجلا من الأنصار ، فقال صلى الله عليه وسلم : دعوها فإنها مُنتِنَه ، فسمع بذلك عبدالله بن أبيَّ رأس المنافقين ، فقال : فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقام عمر رضى الله عنه فقال : يا رسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه" (٢) .

ثم مَتن(٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض فوقعوا نياما.

وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس(٤) حيث خاض الناس فى حديث عبدالله بن أبي ، وفى النزعة الجاهلية التى كادت تقضى على وحدة المجتمع المسلم لولاحكمة رسول الله صلى الله عليه وسلم،وسياسته الماهرة،وفطنته العظيمة،فى اطفاء لهيبها بسيره الميمون ذلك الذى أشغلهم به عن الخوض فى تلك الفتنة العمياء،التى أراد رأس النفاق أن يشعلها ، ليحقق غرضه فى زعزعة المجتمع المسلم وإطفاء نور الله ولكن الله رد كيده فى نحره بفضل ما آتى نبيَّه من الحكمة والفطنة والحلم ، فصلوات ربى وسلامه عليه،وكم كانت فطنته الكاملة تحل من مشاكل عديده فى أسرع وقت وأقصره ، فيتحقق بذلك له ولأمته ما يصبون إليه من نصر وسعادة وعز وسيادة ، ينوء

---

(١) الكسع: أن تضرب بيدك على شيء أو برجلك. تفسير غريب الحديث ص ٢٠٩ .

(٢) إلى هنا رواية البخاري في الصحيح، كتاب التفسير، تفسير سورة المنافقين ١٩١/٦ من حديث جابر بن عبدالله.

(٣) أي: سار بهم يومه أجمع .

(٤) عيون الأثر لابن سيد الناس ٩٤/٢، والبداية والنهاية لابن كثير ١٥٧/٤-١٥٨ .

عنها الحصر فى مثل هذا المقام المقتضى للأيجاز والأتيان من كل بحر قطرة كالأنموذج لغيره والدليل على ما سواه.

ومن ذلك براهينه الساطعه القاطعة التى كان يقيمها على مجادليه ومناظريه من مشركين وأهل كتاب التى كانت تقطع دابرهم ، وتزهق باطلهم ، وتجعلهم يوقنون أنهم فى ضلالهم يعمهون ، ويعميهم عن اتباع الحق بعد سماع تلك القوارع البينة،الكِبرُ والعناد والرسوخ فى الألحاد ، كما سيأتي بيانه فى مبحث دعوته إلى الله تعالى بالتى هى أحسن لكونه بذلك المبحث ألصق ، والله ولي التوفيق .

☆ ☆ ☆